

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العام الهجري الجديد

في هذا اليوم المبارك الذي تبتدى فيه سنة هجرية جديدة ، تتقدم مجلة الأزهر الى العالم الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها بالتهنئة ، راجية أن يجعلها الله سنة حافلة باليمن والاقبال ، أهلة بالخير والجلال ، يسترد فيها المسلمون مجيهم المتضافرة ، وأهمهم المتكافلة ، نصيبا كبيرا من مجد آبائهم الاولين ، ويبنون على آساسهم صرح وجودهم الكريم .

وإننا لنختص بالذكر حضرة صاحب الجلالة ملك مصر الفاروق ، فانه بما فطر عليه من السجايا الملكية الفاضلة ، والحمد الشريفة الكاملة ، والسيرة القويمة العادلة ، أصبح مثلا أعلى للمسلمين في بقاع الارض كافة ، يترجمون طريقته المثلى في إعزاز الدين ورفع لوائه ، ويتبعون خطواته المتزنة في إحياء الشرع وتأيد رجاله ، فلا مبالغة إن قلنا إن من فضل الله على المسلمين في هذا العصر ، أن يقيم في مثابة الاسلام ، ومرجع علومه ، ملكا من طراز جلالته ، يعمد للدين رونقه الباهر ، ومظهره الزاهر ، فان في هذا إيقاظا لعاطفة الدين الشريفة في نفوس الناس ، ومحبيها لقضائه العالية الى قلوبهم ، وناهيك بهذا من أثر عظيم ، يوليه ملك لشعبه في مثل هذا العصر الذي اشتد كلب الاحقاد فيه ، وجرف بالناس الى تياره المردى طوما وكرها .

إن في بقطة العاطفة الاسلامية في نفوس المسلمين خيرا وبركة ، لا عليهم وحدهم ، ولكن على الناس جميعا ، فان هذا الدين أرسل رحمة للعالمين كافة ، ولم يرسل رحمة للأخذين به خاصة ، فان الجماعات التي تعمل به تقوم على أسمى ما يتصور من أصول الفضائل ، وأكمل ما يعرف من مبادئ المحامد ، فهو دستور خلق ، وناموس أدبي ، لا يتصور أن يوجد له مثيل في كل ما عرف من الآداب الاجتماعية المتفق عليها بين البشر .

فكما يطلب من المسلم أن يكون قويا ، يطلب الاسلام اليه أن يكون عادلا رحيا . وكما يراد منه أن يكون سيدا مستقلا ، يريد منه أن يكون إزاء ذلك كريما أرحيا . وكما يكلف أن يكون ورعا تقيا ، يكلفه أن يكون رفيقا بمخالفيه في العقيدة ، مراعييا لحقوق الوطنية إزاءهم ، وكما يُرجى منه أن يكون عالما حكيما ، يتقاضاه كذلك أن ينشر العلم والحكمة بين الناس كافة بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم . وهكذا لا يكلف الاسلام أهله بمخلة شريفة ، أو بعزيمة نبيلة ، إلا كلفه أن يكون أثر ذلك على غيره من أهل ملته وسوام خيرا وبركة ، لا غشمة ولا سوء ملّة .

فلا يتوهم الذين يؤاندون بقظة العاطفة الاسلامية في نفوس أهلها أن ذلك سيؤديهم الى عدم التسامح ، أو الى التعصب المذموم ضد من لا يؤمن بدينهم ، فإن هذا مما ينافي طبيعة الاسلام ، ويتناقض وتعاليم رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرته الشريفة .

كان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول المسلمين ، والقادة الصالحة لهم ، يكرم من يزوره من أهل الأديان المخالفة لدينه ، ويحسن وفادتهم ، ويخصهم بأحسن الأماكن من مجلسه ، حتى روى أنه بسط عباءته لنصارى نجران وأجلسهم عليها ، وثبت بالتواتر أنه كان يزورهم في مواسمهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازتهم ، ويحضر ولائعهم ، وليس وراء هذا مذهب لتسامح مؤسس دين في العالم . وقد سار على طريقته أصحابه ، والدين في جده الأولى ، والنفوس شغوفة به ، ومنعمه له ، فكان أصحاب الأديان المختلفة آمنين على أموالهم وأنفسهم وأسرهم ومعايهم وكنائسهم ورجال دينهم ، وهذا ما لم يحدث له مثيل في أمة من أمة الأرض . فقد شرع الاسلام وجزيرة العرب ، وهي من أفعل بلاد العالم ، فيها من جالية المتدينين يهودا ونصارى عدد ليس بالقليل ، هربوا بدينهم الى تلك البقاع ليأمنوا شراضطهاد الأمم المتشددة لهم ؛ ولكنهم تحت ظلال الاسلام وجدوا من حمايته لهم ، ما جعلهم يتحدثون بفضلهم عليهم ، وعرف لهم ما عليه بعضهم من العلم ، فلم يأنف المسلمون أن يتلقوه عنهم ، ويتخذوا منهم أطباء وخطباء . وقد أثروا وكثروا فلم يرو عنهم ما روى عن إخوانهم في غير البلاد الاسلامية من مكابدة الأرهاق والاعنات والتقتيل والتشريد .

فكيف لا يكون عود المسلمين الى دينهم خيرا وبركة على الناس جميعا ، وكيف لا يكون كل عامل على هذا العود عاملا من عمال البر والسلام للأمة كافة ؟

ولا يجوز أن ننسى ، ونحن نذكر الاسلام والعاملين على إعادة سلطانه ، نصيب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر من هذا العمل العالمي الكريم ، فانه من هذا الأمر روحه المدبر ، ورأسه المفكر ، لما يقوم به من تنظيم معاهد الدين ، وبث حبه في طلابه ، وما يلقيه من الدروس العامة ، وما يدبجه من الخطب التعليمية المغلفة ، وما يمثل به بأخلاقه وسيرته من فضائل النفس ، كل هذا كان وسيكون له أثر بعيد المدى في إيجاد العهد الذهبي للإسلام إن شاء الله ؟

محمد فريد وجري

الهجرة

سببها - أثرها

الهجرة : اسم للخروج من أرض الى أخرى ، وهي من الهجر بمعنى الترك ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . ثم غلب استعمالها على هذا الحادث التاريخي العظيم ، الذي غيّر وجه البسيطة ، وحول اتجاه العالم عن مجارى الشر والشقاء الى سبيل الخير والسعادة ، وأخرجهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . ذلك الحادث ، هو انتقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الذين آمنوا به من مكة مهبط الوحي لأول مرة ، الى المدينة مأوى رجال الحلف والمناصرة .

وقد عني المؤرخون كثيرا وهم يتكلمون على هذا الحادث بتصوير الاذى الذى لحق الرسول عليه السلام وهو فى مكة تصويرا مكثرا لأرباب الهوى الخاص فى السكتابة على (النبي العربى) أن يلبسوا هجرته عليه السلام ثوب الفرار وعدم الصبر والاحتمال فى القيام برسالته ، ولم يتورعوا إمعانا فيما يشتهون أن يطلقوا عليه (النبي الفار) . وقد ظنوا أن هذا الثوب المهلهل الذى خلّموه على هذا الحادث العظيم يستطيع أن يستر الحقيقة التى يحملها ذلك الحادث بين جنبيه ، والى لم تلبث بعد الوصول الى المدينة أن سطع نورها وانتشر أريجها ، فبددت الغشاوة التى وضعتها الجبل على العقل البشرى حينما من الزمن .

والواقع أن هذه الهجرة البدنية لم تكن إلا آثارا من آثار هجرة سبقتها ، هى هجرة القلوب عما كان عليه القوم من عقائد فاسدة ، وشرائع باطلة ، وعادات لها فى هدم الانسانية ما ليس للمحاول القوية فى تقويض البناء الشاخ المتيد .

نعم : هاجر النبي عليه السلام وصحبه الذين بادروا بتصديقه من يوم أن بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا . هاجروا الى التوحيد البرى ، والاخلاص النقي ، والإقامة الحقة ، والتوكل الصحيح ، ومحبة الخير للخير ، والرجوع بالحوال والقوة الى الله الواحد القهار . هاجروا الى هذه التعاليم السامية التى نهضت بالانسانية من كبوتها ، ورفعتها من حضيف هوت اليه فى جاهليتها ، وذكرتها بانها ما خلقت عبثا ولا باطلا ، ولا لتفقد فى الأرض أو تسفك الدماء ، أو يأكل قوتها ضعيفا . ذكرتها بانها ما خلقت إلا لتكون خليفة عن الله رب العالمين تسبح بحمده وتقدس له ، وتعمل صالحا حتى تسمى بالعالم الى ما يمكن أن يصل اليه من درجات الرشد وصراتب الكمال .

هذا ما هاجر اليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه القليل الذى لبى دعوته وهى فى مهبها ،

لا شيء سوى أنها الحق الذي شرح الصدور ، واستولى على الحواس والأفئدة ، وامتزج بالدماء والأرواح ، فامتلات النفوس غيرة عليه في حفظه ونشره ، والعمل بمقتضاه وإسعاد الإنسانية به .

رأى هذا النفر القليل الذي أدرك اللذة الروحية من دعوة النبي ، وأدرك أن سعادة العالم متوقفة عليها ، أن مكة وقد تألب أهلها عليهم ، وقلبوا لهم ظهر المجن ، وقعدوا لهم في كل مرصد ، ونجسوا عليهم من كل نافذة ، وأذاقوهم من التشكيل صنوفاً وألواناً — لم تعد دار أمن وطأ نينة ، يفسح لهم فيها مجال العمل ، ويتمكنون فيها من تلبية الإيمان والقيام بحقه . رأوا أن غايتهم التي لها يعملون تنحصر في توحيد الله والدعوة إليه ، وأن الله الذي وجهوا إليه وجهتهم فاطر السموات والأرض يعبد في كل مكان : « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » .

رأوا أن الأرض : منها خبيث محذب لا يقبل البذر الطيب ولا ينبت النبات الحسن ، ومنها طيب خصب يتشرب ماءه ويمد بذره بقوى الانبات ، ثم لا يزال به حتى ينمو ويشمر : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكيداً » .

ورأوا أن الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لابد أن يظهره على الدين كله ، وأغالب على أمره : « وبأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

رأوا أن استمرارهم على الإقامة بهذا البلد مع هذا الاضطهاد وعدم تهئ أهلها للقبول سيقتضي لامحالة عليهم وعلى الدعوة التي امتلات نفوسهم غيرة عليها وحجاً لها .

رأوا أن جبال مكة وهضابها لم تستطع أن تمنع أريج الدعوة التي آمنوا بها واستعذبوا العذاب والموت في سبيلها ، من أن يسرى وينتشر خارج مكة ، ويحمله الجلال والجمال ، حتى يقع من المدينة وهم بمكة فاعون « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

رأوا أن هؤلاء الرجال يقتحمون العقبة عن إيمان قوى وحب حميق ، ويمدون اليهم يد البيعة « نريد الوفاء والصدق وبذل المهج دون الرسول ، نخذ لنفوسك ولربك ما أحببت » فيتم المهد على عبادة الله وحده ، وعلى أن يمنعوهم مما يمنعون منه الإبناء والأعزاء .

رأوا أن سبب النصر بهذا قد تهيأ ، وسبيل العزة والعمل قد تمهد ، فلم يجدوا بداً من ولوج هذا السبيل والتمسك بذلك السبب ، فأتجهوا إلى مدينة الحلف ، وتم لهم بفضل الله ما أرادوا .

وصل النبي عليه السلام وصحبه الى المدينة . وكان هذا من أشد ما يتخوفه المشركون ، فقد اجتمع رؤساؤهم وقادة أسرم في دار الندوة لمتشاور فيما يتخذونه من وسائل القضاء على محمد وصحبه ، حينئذ سمعوا بنبا (الحلف) المدنى الذى زعزع ثقتهم بأنفسهم . فقال أحدهم : أخرجوه من أرضكم لتسريحوا منه . فرفضوا هذا الرأى وقالوا : إنه إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطلقه وعدوبة لفظه . وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت . فرفضوا هذا أيضا وقالوا : إنا إن حبسناه لا يلبث الخبير أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخلوا في دينه ، يفضلونه على الآباء والأبناء ، فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه ، وربما جر هذا علينا من الحرب ما نحن في غنى عنه . فقال ثالث : الرأى ، أن نقتله ، ونقتله قتلة لا يستطيع بنوأييه أن يأخذوا بثأره ، خذوا من كل قبيلة شابا ويرقبه الجميع أمام داره ، حتى إذا خرج منها ضربه رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلها ، ويذهب محمد بالدية . فوقع هذا الرأى عند موقع القبول ، وهو آخر ما فى الكنانة من سهام ، وأعدوا له وسائل التنفيذ الممكنة ، ولكن الله الذى تكفل بحفظ محمد ورعايته ، وأزل عليه فى محكم كتابه : « والله يمسك من الناس ، إن الله لايهدى القوم الكافرين » أفسد عليهم تديبرهم وأحبط أمهاتهم ، فأصمهم وأصمى أبصارهم ، وأخرج رسوله محمدا بالعزة والكرامة .

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

وبهذه الهجرة : ترك النبي صلى الله عليه وسلم قلوب قريش تغل كالراجل فوق النار المتقدة ، تبخر منها أفانين الحق على سهام طاشت ، ومكر ردت نصاله فى محورهم ، ومكايد ذهبت أدراج الرياح .

وبهذه الهجرة ، أعز الله أوليائه وقوى شوكتهم وتغنى فيهم من روحه ، وقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

بهذه الهجرة آوأم الله الى قوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . آوأم الى قوم هم : أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراءم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيام في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى الثوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطاأ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . آوأم الى قوم : يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

أى نصر هذا الذى أيد الله به أوليائه ؟ ذلكم نصر الله الذى وعد ، نصر الله الذى يمنعه

المخلصين من عباده ، نصر الله الذى يهدد به من يخذل دينه ويسلم شره لأرباب الهوى والفجور : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثلثي اثنين ، إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ! فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا »

وأى خذلان هذا الذى حل بالأعداء فأفقدتم رشدكم ؟ ذلك خذلان الله يقرع به قلوب « الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن برّوا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الحق يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ، هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون » إذ لم تكن الهجرة قرارا من الأذى ، ولا هربا من التنكيل ، ولا التماسا للرزق ، ولا خورا فى الهزيمة ، ولا خوفا من الموت فى سبيل الله ، فقد كانوا يستمذّبون الموت فى سبيل الخلود ، ومن استمذّب الموت فقد استمذّب كل شيء دونه .

إنما هو الايمان بالله عملاً تقس صاحبه عزة وكرامة ، هو الايمان يأبى على صاحبه الخلود الى السكون ، والرضاء بالخنوع تحت سلطان القهر الذى يمنع المرء من الحرية فى تصرفه وإقامة دينه ، والاتصال باخوانه الذين يجب أن يتساند معهم ويكون وإياهم وحدة قوية تحمى البيضة ، وتبث الدعوة ، وتنشر العدل ، وتحقق المساواة ، وتدعو الى الخير والسعادة .

الهجرة بهذا أثر من آثار الايمان الكامل ، ولازم من لوازمه البيئة ، وليس بمؤمن من يرضى لنفسه الذل والهوان ويقع فى بلده حرصا على ماله وخوفا على ولده وأهله « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » !

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن ينفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . ومن هاجر فى سبيل الله يجهداً فى الأرض مراً غماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بينه مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

لم تكن الهجرة إلتائية لواجب الايمان ، والتماسا لوسائل العزة التى يجب أن يكون عليها المؤمنون :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القسب متحول لم تكن الهجرة إلا فضلا واستعدادا للفضال ، وتحيزا الى فئة أخذت على نفسها العهد والميثاق أن تجاهد مع المهاجرين فى سبيل الله وسبيل دعوته حتى يكون الدين كله لله :

وكل امرئ يؤلى الجليل محبب وكل مكان يُفت العز طيب
لم يتجه الرسول وصحبه في هذه الهجرة إلا الى المدينة: طريق أعدائه في رحلتهم الى الشام .
قها — إن كانوا قارين — شرقوا أو غربوا ؟ لم يشرقوا ولم يغربوا ، وإنما قصدوا المدينة
ممر القوم ، وقصدوا لهم بالمرصاد ينشرون دعوتهم ويبلغون رسالتهم ، ولم يكدهم يستقر بهم
المقام هناك ويتم بينهم التأخي حتى تهبوا المناهضة خصومهم — خصوم الدعوة والدين —
وأخذوا يتحرشون بهم في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان
الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل
لنا من لدنك نصيرا .

تضامت الوحدات ، وأخلصت القلوب ، وصفت الأرواح والنفوس ، وعز عليهم ألا يتم
العالم بدين الله الحق . عز عليهم أن يتركوا بمكة نفوسا أقعدتها المعجز أن تخرج معهم ، فظلوا
بين الأعداء يشربون من أيديهم كؤوسا من يتحموم ، ولا ذنب لهم ولا جريعة إلا أن قالوا :
ربنا الله . عز عليهم هذا وذلك ، فأخذوا يتحرشون بالأعداء مرة بعد أخرى حتى تهبأت
النفوس للقتال ، وحصلت بين الفريقين مواقع عدة كللت فيها رؤوس المؤمنين بتيجان الفتح
والتصر المبين .

هذه هي الهجرة في أسبابها والعوامل التي دفعت بالمؤمنين اليها .

أما الهجرة في أثرها ، فهي ذلك السلطان الذي استقر ، وهذه الشريعة التي أخذ الوحي
ينزل بها من السماء لينظم بها الانسان حياته ، والتي صار بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم مشرعا
وحاكما وقائدا ، بعد أن كان بمكة مبشرا ونذيرا وداعيا الى الله .
هذه الشريعة التي ساد بها المسلمون حينما من الدهر ، وساد بها من غيرهم من التزم أصولها
واتبع إرشادها .

هذه هي الهجرة في أسبابها وآثارها ، فهل هؤلاء الذين أسمى الله عن الحق بصائرهم
أن يراجعوا عقولهم في هذه الصنعة الخالدة في تاريخ العزة الانسانية والكرامة البشرية
عسى أن يوفقهم الله للحق فيمتثلوا به ، ويسلط على قلوبهم من نوره فلا يلبسوه ثوب
الباطل الملهل ؟

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي
تقربون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ، ولا تشركوا بآياتي
منا قليلا وإياي فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأتمتعوا به . وأقيموا
الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

محمد ستانوت

وكيل كلية الشريعة

١٠

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية
تصدرها شيخ الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الاول	المصر سنة ١٣٥٧	المجلد التاسع
-------------	----------------	---------------

مدير ادارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد الدين

الاشتراك

المدونة

قروش

٣٠	داخل القطر المصري
٤٠	خارج القطر المصري
٢٠	لطلاب غير المدرسين وائمة المساجد والساذنين ومعلمي المدارس الاولية والطلاب ومعلمي الحكومة ومعلمي المدرسين
٣٠	خارج القطر
٣٠	لطلاب وائمة المساجد

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

تتم الجزء الواحد ٣ قروش صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة الأزهر

١٩٣٨ - ١٣٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة السنة التاسعة

الحمد لله الذي وفقنا لحده ، على ما منحنا من أيّده ، وما أمدنا بروح من عنده . والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وصفوة الخلق أجمعين ، محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .
أما بعد : فاننا تفتتح بهذا الجزء المجلد التاسع لمجلة الأزهر ، راحين أن يحبونا الله عز وجل يمثل ما حبانا به في السنين الماضية : من القدرة على العمل ، والتوفيق الى الاضطلاع بالمهمة الموكولة الى عهدتنا . فان كما قد أحسننا فيما سلف قال الله يرجع الفضل فيه . ولقد هاهنا الله أن لا ندخر وسما في تحرى أكل الاساليب في البيان ، وأقوى الاسانيد في النقل ، وأبعد الخطط عن التجنى في الحوار ، فلم نحملنا الدفاع عن حقيقتنا الى اللد في الخصومة ، ولا اللباد عن حياضها الى تجاوز الحد في الجدل . وما نحن ، وقد استقبلنا أما جديدا ، نجدد المهد الذي قطعناه على أنفسنا : أن نظل أمناء لهذه الطريقة الاسلامية لا نحيد عنها ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

وقد قام أصحاب الفصيلة العلماء وحضرات الكتاتيب الكرام الذين شاطرونا نحمل هذه التهمة بما عهد إليهم ، كل في الناحية التي اخنص بالسكتابة فيها ، واستمعوا تقدير القارئ في جميع الأقطار التي تصل اليها هذه المجلة .

لقد أثمر غراس هذه المجلة وآتى أكله في جميع لبيئات الاسلامية ، فأصعقت تعتمد عليها في تعرف حقيقة الدين ، وتبين أدلته وأعلامه ، فقد أخبرنا مندوب مسلمي الصين الذي أشخص الى مصر لتقديم هديتهم لحضرة صاحب الجلالة الملك في مناسبة رواجه الميمون ، أن علماءهم هالك يجمعون الناس ويترجون لهم ما في مجلة الأزهر من مقالات الدفاع عن الاسلام والتفسير ، وما يرد فيها من السة ، وتاريخ أسلافنا الأولين ، فيقبلون هالك على هذه الدروس ، ويقل ملخصها من شهداء لمن لم يشهدوا ، وإنه لنجاح عظيم لمجلة لم تنشأ إلا لهذه الغاية .

لقد دأبنا كما رأى القراء على نشر أصول الاسلام وبيان مبادئه مقرونة بأدلة سلامتها من العوج ، وصلاحيها لكل زمان ومكان ، أدلة منترعة من الأمور المحسوسة ، ومؤيدة بالبحوث الاجتماعية الحديثة ، وعرضنا للشهادات التي يثيرها على المسلمين بعض دعاة الأديان

فدحضناها دحضاً لا قيام لها بعده . ولم نهمل الى جانب هذا نشر فصول من التفسير والسنة النبوية ، ومقالات في الفلسفة والتاريخ والأدب ، وكل ما لا بد منه لمجلة إسلامية ينشرها الأزهر . وإنا لنعد قراءنا أن نحجى على هذه السنة مع نطلب الأكل من الأساليب ، والأقوم من السبل ، جرياً على سنة الترقى ، إن شاء الله تعالى .

وإننا في هذا المقام رى من الواجب علينا التنبه بما يديه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد معطى المراغى شيخ الجامع الأزهر لهذه المجلة من الحماية والرعاية ، رغبة منه في أن تبلغ الغاية فيما أعدت له من الخدمة الإسلامية العامة .

ولقد حظينا في السنة الماضية بشغل كثير من خطب فضيلته المغلفة ، وكلماته الباهرة ، التى يعنى بها لناس أيما عناية . ونرجو في هذه السنة أن لا يفوتنا شيء منها ، راحين لفضيلته الصعة والقوة .

وإذا ذكرنا الإسلام والأزهر ، وجب علينا أن لا ننسى ما لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول من العسل العظيم في رفع شأنهما وتأيينهما ، فلقد فاق في هذا المجال كل ملك تقدمه ، حتى لم يبق مسلم في الأرض إلا ويحفظ له في قلبه أحسن الحب ، وأصدق الولاء .

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدي

خطبة الاستاذ الأكبر

في الاحتفال بعيد الأضحى وعيد الميلاد الماسكي

في الجامع الأزهر الشريف

من التجديدات البعيدة الأثر في تنبيه لعاطفة الدينية الشريفة في نفوس المسلمين ، ما قام به
حضرة صاحب الفصيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، من إلقاء
خطبة جامعة يوم عيد الأضحى المبارك ، وقد اتفق ، أنه كان يوم عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة
الملك فاروق الأول ، فهما الناس بالعيدين ، وشاد بذلك رحح بيت الله الحرام ، وألم بتلك
المواقف الكريمة في تلك الأمكنة المقدسة ، ثم وجه الخطاب لمسعى الأرض كافة ، وحضهم على
التمسك بالدين ، والحذر من المشككين ، وبين من حكم الإسلام وأغراضه الشريفة ما نطمئن به
القلوب ، وتنشرح له الصدور ، في بيان يأخذ بالآلئاب ، وإلقاء يستهوى الأسماع ، معيدا بذلك
عهد الأئمة الأولين ، مما يرحى أن يكون له تأثير عظيم في جمع كلمة المؤمنين وتقويم شئونهم .
وهذا هو نص تلك الخطبة المتمعة ، قال حفظه الله :

أيها السادة الأعزاء :

كان من المصادفات السعيدة في هذا اليوم اجتماع عيدين فيه : العيد الإسلامى الأكبر ،
عيد الأضحى المبارك ، وعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المحبوب فاروق الأول ،
أدام الله له عز الإسلام ، وأعز به الإسلام .

وفي اتحاد الميدين بعدولية جللته سلطة الحكم ، رمز الى أن عيد الفاروق عيد إسلامى ،
كما أنه عيد وطنى للمصريين جميعهم على اختلاف مللهم ومذاهبهم .

وإن الأزهر الشريف : علماءه وطلابه ، يرفعون هروس الولاء والإخلاص ، وصادق التهنية
بالميدين ، الى مقام حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ، باسطين أكف الضراعة الى الله العلى
التقدير أن يديم حياته ، وأن يجعلها خيرا وسعادة للإساية عامة ، ولدين الإسلام خاصة .

كذلك يبعث الأزهر بتحياته وتهنئته الى إخواننا المسلمين في مشرق الأرض ومغربها ،
لا يخلص طائفة ولا مذهب ، بل يتوجه الى أهل القبلة عامة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع الدعاء
الخالص بأن يتصرم الله بدينهم وديارهم ، وأن يدهم على طريق الحق ، ويقودهم الى طريق الخير ،
وأن يؤلف بين قلوبهم ، ويوحد وجهتهم ، ليكونوا تلك الأمة التى وصفها القرآن حيث قال :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »
« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وأخص بالتهنئة إخواننا كراماً هجروا بلادهم وأهليهم في سبيل الله ، وأجابوا دعوة إبراهيم عليه السلام جد الأنبياء ، وأقبلوا إلى البيت في مكة رجالاً وركباناً من كل فج حقيق ليشهدوا منافع لهم ، امتثالاً لأمر الله ، وطلباً لثوابه ، وابتغاءً لرضوانه ، أولئك هم حجاج بيت الله ، طهرهم الله من الذنوب والآثام ، وظهروا بظهور الإحسان الإسلامي والمساواة أمام عزة الله وسلطانه ، وتجردوا من زينة الحياة الدنيا ورخفها ، شعناً غبراً ، تحييمهم الملائكة ، وتبلغهم رسالة الله بالقبول والغفران .

أيها الحجاج ضيوف الله : ما أشد روعتكم وأنتم في صعيد واحد ، تجارون بالنسبية ، وتعيشون باللهاء ، ثم تفيضون من حيث أمركم الله ، تترطب ألسنتكم بذكر الله كما هداكم ، تشعرون العالم بأن بلاد الإسلام كلها بلد واحد ، وأمم الإسلام كلها أمة واحدة ، تجتمع في صعيد واحد ، تظلمها راية القراءان ، ويقودها أكبر جند الله محمد بن عبد الله إلى موطن الفخر وأما كن العز والمجد ، رضى الله عنكم ، وقبل حجكم ، وأجزل أحركم !

نحن اليوم في يوم من أيام النحر ، جعله الله عيداً للمسلمين عامة ، ومن حقه في يادي الرأي أن يكون عيد الحجاج خاصة ، ابتهاجاً بأداء ركن من أركان الإسلام في أدائه اغتراب ومشقة ، وفرحاً بما منحهم الله وأسبغ عليهم من النعم بتطهيرهم من المعاصي والآثام . لكن حجاج بيت الله وفود المسلمين إلى الله ، وضيوف الله في بيته ، يمثلون المسلمين كافة ، فهجتهم بهجة المسلمين ، وفرحهم فرح المسلمين ، فكان لا ما أن يكون العيد عيد المسلمين ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويقدموا الله القرى والضحايا ، ويقيموا ولائم الأقارب للفقراء عيال الله ، غلصين في ذلك كله البية لله ، تصحبه التقوى ، وتزينه الطاعة « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ، كذلك سخرها لتكبروا الله على ما هداكم ، ونشر المحسنين »

أيها المسلمون : اذكروا أولئك الإخوان في الوادي المبارك ، واعتبروا بحالهم ، وابتدؤوا على دينكم وإن أصابكم المكروه في سبيله ، واصبروا وصابروا ، وعظموا حرمان الله وشعائره ، واستمعنوا بالله وحده لا تشركوا به شيئاً . وقد قال الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمان به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد يدعو لئلا يضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولئس العشير » . « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » . « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » . « وليصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزير »

خواتي : للبشرين طريقة ماكرة خادعة ، يشككون أولاً في صلاحية الدين الاسلامي لمصور المدنية ، ويقولون إن المدنية والرق الاحتاعي ضرورات وأحكاما يجب مراعاتها والنزول على مقتضياتها ، ثم ينتقلون من ذلك الى طلب محو آثار العقيدة ومظاهرها وهي الشعائر الاسلامية ، ثم ينتقلون من ذلك الى دعوة المسلمين الى دينهم ، وفي كل خطوة من هذه الخطوات إذا تمت نجاح هو إضعاف العقيدة وسلطان الدين على القلوب ، والتفريق بين قواعد الدين وهو لا يقبل التجزئة ، ومتى جاز اعتراف المسلم بأن بعينه غير صالح جار اعترافه بأن السكل غير صالح .

والمسلم الذي لا يعترف بأن الدين حق كله وخدير كله ، ويقول إن بعض قواعده ضارة بالمجتمع أو ضارة بالمدنية أو السياسة ، مسلم مرتد عن دين الله ، لا يقبل الله منه صلاة ولا صوما . هذا حكم الله أجابه من هذا المعهد ، ليكون المسلمون على ذكر منه « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الدين اختلفوا في الكتاب لي شقاق بعيد » .

إضعاف سلطان الدين على النفوس والتفريق بين قواعده واتراع سلطانه على الحياة الاجتماعية يضعف نفس المسلم ويبعده عن ديه ، ويضعف خلقه ويجعله أهلاً للذلة والاستكانة . والمؤمن محكوم له بالعزة من الله « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » . أولئك الذين يحاولون إبعاد الدين عن الحياة الاجتماعية ، ويحاولون إخفاء شعائره ومظاهره ، هم في الواقع أعداء الاسلام ، لكن هؤلاء الأعداء مهرة في الدعوة الى دينهم ، كما أنهم مهرة في السياسة ، ظلوا خلف الستر وقدموا تلاميذهم من المسلمين ، وقتلوا لهم في الذروة والغارب ، واستعاضوا بالبلد وجنده . وسوسوا لهم وتغفوا في خياشيمهم ، قالوا لهم : هل ندلكم على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ كونوا أبطال المدنية وقادة الإصلاح في الأمم ، لكن ذلك لا يكون إلا إذا جهرتم بأن الدين غير صالح للمدنية ؟ وأن نظمته بعيدة عن الإصلاح الاجتماعي ، وأن الأمم المنمدنية لا تحترم من يستمسك بالدين ، فجاءوا بهذا دون استحياء ، وما أولئك المساكين إلا مطايا ذلت وسفرت وروشت ، وما أصواتهم إلا صدى لمعلمهم ومروضهم وقائهم .

هؤلاء : إما غير مسلم يدعو الى دينه عن طريق الخديعة والمكر ، وإما مسلم مرتد أو ملحد ، والله لا يرضى عن هؤلاء جميعهم ، وإما أن ترضوهم وتغضبوا الله ، وإما أن تغضبوهم وترضوا الله . أيها المسلمون : لقد تحققت فيكم نبوة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : « يوشك الأمم أن تداعي عليكم كما تداعي الآكلة في قصبتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليرهن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في صدوركم الوهن » فقال قائل : وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

تحققت هذه النسوة ، وتداعت عليكم الأمم ، بدت تداعت عليكم الثعالب تريد السيطرة على ما بقى من تراثكم ، وتريد الاستعلاء عليكم وعو ما بقى من آثار العرة الاسلامية وشعائر الاسلام ، وركنتم الى مودتهم محالفين كتاب الله ، فضربوا بمعصم رقاب بعض ، وأذلوا ببعضكم بعض ، وأنتم لاهون عن الحديمة والمكر ، ساهون عن روغان أولئك الثعالب ، وهم فرحون صاحبون . لا تنتقوا بعد أن حرستم ، ولا تأمنوا بعد أن بلوتم ، فمها من نومكم ، واعملوا والله معكم ، ولن يترككم أعمالكم .

تسلّموا واعملوا . تعلموا فروع العلم جميعها لتناولوا لفخار والمجد ، ولتكووا عزة ، وقيموا أساس الحضارة على العلم والدين والأخلاق . قوموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما ترفوا فيه وكانوا محرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

أيها المسلمون : غصوا الطرف عن الفروق الطائفية والمذهبية ، ولا تجمعوا تلك الفروق سببا في الفرقة وسلاحا بيد عدوكم يخرب به بيوتكم ، وكونوا كما قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . ولا تخشوا حذاً في إظهار شعائر الاسلام والانتصار للاسلام ، والله هو الحق بالخشية وحده ، والمسلم المتعصب لدينه مفيد للجماعة الانسانية بخلقه وقوة إيمانه ، وهو سلم لآخوانه في الوطن ولكل من له معهم عهد ، فهو محرم عليه أن يستبدى على هؤلاء في أنفسهم أو أغراضهم أو أموالهم ، لكنه مع هذا رجل شديد الاحتفاظ بقوميته وعزته وحقوقه ، يأبى الصيم ولا يطبق الذل .

وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا اليوم فقال : « أيها الناس : أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال : فأى بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام . قال : فأى شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأغراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » . أكرر تحياتي للسامعين . والسلام عليكم ورحمة الله .



ذكرى الهجرة النبوية

كلما أتت الأرض دورتها وهل شهر المحرم ، ذكرنا الهجرة النبوية من مكة الى يثرب ، وما ذكرنا هذه الهجرة إلا ذكرنا ذلك الانقلاب العالمى الضخم الذى مارأ على الانسانية فكان فاتحة لتطورات اجتماعية ليست من نوع كل ما حدث من أمثالها من قبل ولا من بعد .

نعم : لأن كل الانقلابات التى حدثت كانت انقلابات حربية دعا اليها التزاحم على موارد الحياة ، أو التوسع فى السلطان ، ولكن الانقلاب الذى أحدثه الاسلام كان الباعث عليه أدبيا محضا هو جمل كلمة الله هى العليا فى الأرض .

فرض سام كل السمو لم تتناول الى بلوغه همه ، ومطلب عظيم الشأن كل المعظم لم تتطلع الى تحقيقه نفس . فلما أضغت الى هذا أن موطن نشوئه بلاد العرب حيث كان لا يتوقع من ناحيتها أى انقلاب عالمى ، كان العجب منه لا يمكن تقديره ، ولو زدت على ذلك أنه قد تحقق وأصبح أمرا واقعا فى سنين معدودة ، انقلب المعجب الى حيرة ، وهى ما فيه أكثر الباحثين فى الاسلام منذ وجوده الى اليوم .

الناظر فى تاريخ الاسلام يرى أنه قد أقام دولة ، فان حجته ظواهرها ونظر اليها نظره لكل دولة ، فانه من صفاتها الميزة وعناصرها ما يجب عليه أن يلم به ليعرف الروح المنوية التى تحرك هذه الدولة ، وكان جذريا به أن يقع فى العجز عن تحليل سرعة نشوئها ، ومفاجاتها العالم كله باتقلابات ذريعة لم يكن يحلم بها ، وبلوغها أقصى غاية من الرعاة العالمية لم تتلها قبلها ولا بعدها دولة غيرها .

جرت السنة البشرية أن الدول تتألف مخفورة بالحاجات الحيوية ، فقد توجد قبائل متفرقة من جلس واحد تجدد نفسها مهددة بمدو قوى محاور لها ، فتدفعها الضرورة للتقدم والتناظر التماسا لمزايا الوحدة . وقد تصادف من صعوبات البيئة ما يدفعها لتطلب زيادة الأيدى العاملة فتضطر للترباط الوثيق لتتقلب على ما يصادفها من عقبات المعيشة ، وقد تبلغ درجة حسنة من التهدب فتتطلب زيادة الاستمتاع بنعم الحياة ، فيندمج بعضها فى بعض فتصبح أمة على شئ من التمسك ، ثم لا تزال تدفعها الحوادث لإحكام عرى ترباطها فى أجيال متعاقبة ، حتى تصبح وثيقة الرابطة ، قوة التماسك . ولكن الأمة الاسلامية قامت على غير هذه السنة الطبيعية ، فقد تألفت على أصول ومبادئ هى مثل عليا للحياة الشخصية والاجتماعية ، تصلح أن تقوم عليها الام عامة لا أمة منها خاصة ، فهى أمة عالمية بأخص معانى هذه الكلمة ، محقت فيها القوميات

والمواقف الحسنية والنفوية ، وحملت مثالا لما تكون عليه البشرية حين تبلغ درجة الصبح في الأخلاق وأصول الاحتجاج

يقول الدين لا يتمدى علمهم بالشئون العالمية حدود ما ألفوه من رؤية التناحر بين الأمم ، والتناهب بين الطوائف ، والتراحم على ينابيع الثروات الطبيعية ، يقولون : ماذا حمل الاسلام الى الناس غير مازاده في عدد أديانهم دينا جديدا ، يستمدى وجوده تولد خلاقات جديدة ، ومنازعات من ضروب شتى ؟

والحقيقة أن الاسلام ليس بدين حديد ، ولكنه ، بنص كتابه ، دين الله الأول الذي وُحاه الى أول رسله ، وحرفته الأمم حتى أخرجه عن أصله ، أرسل الله به خاتم أنبيائه محمدا ليثوب اليه الغالي والمقصر ، ويرجع اليه المفرط والمفرط ، فهو هذا الاعتصار لم يجئ ليبريد في عدد الأديان دينا آخر ، ولكنه جاء ليحييها جميعا الى وحدتها الأولى ، فهيته ضرورة قاهرة ، فإكان الله ليدر الناس على مام عليه من القومى الدينية ، والخلاقات المذهبية ، حول أديان محرفة يدعى كل قبيل من الناس أنه على دين الله ، دون أن ينزل اليهم صورة صحيحة من ذلك الدين نفسه . « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسمت وحببى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أنسلتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

وقد شرع الاسلام لرفع الخلاف بين الناس لا للتفريق بينهم . قال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » . بل ذهب الاسلام الى ما لا مذهب بعده في العمل على رفع الخلاف من بين البشر ، بحذف جميع عوامل الشقاق من بينهم ، فاعتبر الدين وحدة لا تقبل التحزؤ ، قوامها الايمان برسل الله كافة من غير تفرقة بينهم ، فقال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون ثؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

في هذه الآية الكريمة من القوة في رفع الخلاف ما ليس لشيء ما يعمل في هذا السبيل ، فإن الناس متى آمنوا بجميع المرسلين سهل تفاهمهم على ماعسى أن يبق بينهم من الخلاف ، إلا ما يكون لبعضهم قد جوه على أنفسهم من تأليه رسولهم ، أو اعتباره خاتما للرسل والانسانية لم تزل في دور الطفولة لم تستكمل أطوار نشوئها بعد .

هذه الآية فوق ما تدل عليه من حمل الاسلام على حسم الخلافات بين الناس ، تشير الى المهمة السامية التي شرعها الله لأدائها ، وهي أن يكون دينا عاما للبشرية كلها . ومجرد التأمل في مدلول

هذه الآية يرى أن أفضل وسيلة للوصول إلى هذه الغاية البعيدة ، هي ما اشترطه على من يقبله ديننا له أن يؤمن برسول الله كافة ، فإن الأمم الآخذة بالأديان المختلفة متى آتت أن في الأرض ديننا يعترف بأنبيائها ، ولا يبخسها حقاً من حقوقها ، لا تجد في نفسها غصاصة من الدخول فيه ، إذ لا يستتبع ذلك تصفيه أحلام آبائها ، ولا الحط من كرامة أسلافها . وليس في دين من أديان الأرض هذه الميزة .

نعم : إن الإسلام لم يراع مع الأمم الوثنية هذه الطريقة ، لأن الوثنية لا تستند إلى نبوة ، ولا تقوم على أصل من العقل أو النظر ، فإما هي إلا عصارة من الأهواء والأوهام ، دفع إليها التقليد الأعمى للأباء ، وطامات الجاهلية الجهلاء . فهي لا تقبل ما فطر البشر على الاتفاق عليه من قوانين المنطق ، والدلائل العلمية . يتضح ذلك من قولهم عندما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم للتوحيد كما حكاه عنهم في سورة ص : « ومحبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجيب . وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » . فكان من شأنهم أنهم اعتبروا قيام منذر منهم يدعوهم إلى إله واحد من المعصب العجيب ، وكان قصارى أمرهم أنهم تأسبوا على الثبات على ما هم عليه ، غير متطلبين دليلاً على ما دعوا إليه ، ولا إعادة نظر فيما هم عليه ، فامثال هؤلاء ممن جددوا على أوهام الأقدمين ينحصر حالهم في أنهم كما ذكره الله تعالى عنهم « ألفخوا آباهم ضالين فهم على آثامهم يهرعون » . وجدير بمن كانوا مثلهم أن يؤخذوا بالرواخر ، ويزعجوا بالقوارع ، ويثقلوا بالمتنلات . وقد جرى الإسلام في معاملتهم على هذه الشاكلة ، فكانت ثمرة ذلك أنه لم يعض أكثر من ثلاث عشرة سنة حتى دانوا للإسلام . ولا يبع هذا أن عقلاء يادروا إليه محموزين بقوة الدليل ، ونصوع الحجة ، وكانوا هم البوابة الصالحة التي تألفت حولها الأمة الإسلامية العالمية .

أما بقية الأمم فقد أثمر فيهم أسلوب الإسلام في الدعوة إلى الإيمان بالمسليين كافة بغير استثناء ، فدخل من صميمها في الإسلام عدد لا يروى تاريخ العالم أنه دخل مثله في دين من الأديان ، في مثل المدة القصيرة التي تم فيها هذا الانقلاب الخطير

أليس من آيات الله الكبرى أن تدخل في الإسلام أم كالفرس والديلم والتتار وغيرهم ، أجنب عن العرب والعربية ، ويكون لها القيدح المعلن في رفع علم الإسلام إلى أعلى ما يصل إليه ، وفي خدمة لغة القرآن وآدابها إلى حد أن كان منه أكابر أئمتها وأئمتها ، مما لم يصادف مثله في تاريخ جماعة من الجماعات الإنسانية ؟

قال العلامة السخاوي في شرح أئمة الحديث للقرافي : إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي قال للزهري إمام الحديث يوماً : « من يسود أهل مكة ؟ قال الزهري : يسودهم عطاء .

قال هشام : هم سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حققت الرياسة له . ثم سأل الخليفة عن الجين ؟ فقال الزهرى : إمامها ملاوس . وكذلك سأل عن مصر والجيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، (ولايات الدولة الإسلامية إذ ذاك) ، فآخذ الزهرى يمد له سادات هذه البلاد ، وكلما سعى له رجلا كان هشام يسأله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول - مولى (أى أصله رقيق والأرقاء غير عرب) ، الى أن آتى على ذكر النخعي ، فقال إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، واقه ليلسودن الموالى العرب ، ويخطب لهم على المنابر .

إن هذه الديموقراطية التى آتى بها الاسلام فى عهد لم يكن لهذه الكلمة غير الاسم ، يعتبر مثالا حيا لما نهينا فيه مرارا من أن هذه الأصول هى المثل العليا التى ليس بعدها مذهب ، ويدل دلالة قاطعة على أن مصدر الاسلام إلى محض لم تختلط أصوله بكودور البشرية ، ولم تؤثر فيها الفروق الوهمية ، التى تواصع عليها البشر ، وأراقوا دماءهم فى سبيلها .

إن لتاريخ المسلمين فى هذا الباب من الآساء ما يعد من الطرائف التى تحلى بها بطون الكتب ، فقد ولى النبي صلى الله عليه وسلم بلالا الحبشى المدينة ، وفيها من سادات قریش والأوس والخزرج من فيها ، ولم يثر ذلك ثأرتهم . وبلال أصله مملوك حبشى أسلم وأخذ سيده فى تعذيبه بالنار ليرتد فأبى ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

وولى أسامة بن زيد ، وهو ابن رقيق ، على جيش كان فيه أبو بكر وعمر ، ونهر من كبار الصحابة ، ولم يمد أحد هذا العمل شاذا ، مع أن العرب فى جاهليتهم كانوا من أشد الناس احتقارا للأرقاء والأجانب .

وهذا عطاء بن أبى رباح وأصله رقيق أسود فابلقه علمه الى درجة الإمامة ، فرفعه الناس الى المسكنة الجديرة به ، غير متدين بالفروق التى يحقها الاسلام . وكان خليفة زمانه يرسل مناديا ينادى فى الحج بأن لا يفتى الناس أحد غير عطاء . قال ابراهيم بن عمرو بن كيسان : « أدكرم فى زمان بنى أمية يأمرسون فى الحج صامحا يصيح : لا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح » . كان عطاء هذا أسود اللون ، أعطس الأنف ، أشل ، مقلقل الشعر ، فأخذ إحدى عيبيه . قال سليمان بن وكيع : دخلت المسجد الحرام والناس مجتمعون على رجل ، فاطلعت فإذا عطاء بن أبى رباح جالس كأنه غراب أسود .

الى هذا الحد أوصل الاسلام أهله من المثل العليا ، التى يحاول الفلاسفة أن يوصفوا ليها رقى الأمم فى الثقافة العلمية فلم ينجحوا ، واثت الديموقراطية غير مطبقة التطبيق المناسب لا سمها ، فهل يريد أحد أدلة على سماوية هذا الدين أكبر من هذا ، وحججا على رسالة الذى آتى به أنصع من هذه الحجج ؟

ليعرف المسلمون مكانة دينهم من هذه المواحي العلمية ، فلا يوجد في جميع الأسلحة الجدلية ما يعدلها في إخصاص النفوس له ، وجمع القلوب عليه . وليعلموا أن لكل درجة من النقاة يصل إليها الإنسان ، أعلاها منصوبة تدل دلالات محسوسة على ما هو إلهي وما هو بشري ، فلا يبلغ المظلون ، وهي ماثلة أمام الناس ، أنهم من إطفاء نور الله في الأرض . « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأتى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »

محمد فرير ومبري

معرض من البلاغات

كتب لنبى صلى الله عليه وسلم من كتاب : أما بعد فكانا في الثقة بك منك ، وكانك في الرقة علينا ، لأننا لم نرجك في أمر إلا لنناء ، ولا خفناك عليه إلا أمنا .

وكتب يزيد بن الوليد إلى مراون بن محمد وقد بلغه تلك كونه في بيعته : أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإنا أراك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت . والسلام .

وكتب عبد الحميد إمام الكتابة لرجل بالوصاية على إنسان . حق موصل هذا الكتاب اليك كعهقه على ، إذ رآك موضعاً لأمه ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته حقق أمه .

وروي أن المأمون قال لعمر بن مسعدة : اكتب إلى عاملنا فلان كتاب وصاية بإنسان في سطر واحد ، فكتب : هذا كتاب واثق بمن كتب إليه ، معتمدين على كتب له ، ولعل يصيح بين الثقة والنهاية حامله .

وكتب أبو بكر الخوارزمي جواباً على هدية وصلت إليه : وصلت التحفة ولم يكن لها عيب إلا أن ياذلها مسرف في البر ، وقابها مقتصد في الشكر ، والسرف مذموم إلا في المجد ، والاقتصاد محمود إلا في الشكر والحمد .

وكتب ابن العميد إلى محمد بن يحيى يستعطفه من رسالة : وما أحببنا اشتراكاً إلا في الاسم وشتان بين محمد ومحمد ، فلو كنا السامعين لكنت الزاح وكنت الأهل ، ولو كنا السمرين لكنت الطائر وكنت الواقع ، ولو كنا السعديين لكنت السعد ، وكنت الداج .

التفسير

(١)

سورة الاعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا وقد أسند الينا تحرير فصل التفسير لهذه المجلة أن نبدأ بتفسير سورة الاعلى لما فيها من الأسرار التي تأخذ بمجامع القلوب . فان فيها أموراً أربعة هي مجامع السعادات كلها :

(أولها) الإلهيات . وقد أشير الى ذلك بقوله تعالى : « سبح اسم ربك الاعلى » الذي خلق فسوى ، والذي قدر قهدي ، والذي أخرج المرعى فجعله غثاً أحوى .

(ثانيها) ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم . وقد أشير الى ذلك بقوله . « سنقرئك فلا تنسى » إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيتسرك ليسرى . وفي ذلك من التوحيد ورجع الأمر كله اليه تعالى ما لا يخفى .

(ثالثها) انقسام المستممين الى من يفتنهم بإرشاد الأنبياء والى من لا يفتنهم به ، وبيان أحوال كل واحد من هذين القسمين . وقد أشير الى ذلك بقوله : « فذكر إن نعت الذكرى سيفتكر من يخشى » ويتعنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيا .

(رابعها) التنبيه على أن حيرات الآخرة أفضل وأبقى من خيرات هذه الدنيا ، والأفضل الأبقى أوّل بالتعصيل له والحرم عليه ، مع بيان ما يوصل الى ذلك من تركية السموس وعبادة القدوس عز وجل بقوله . « قد أفلح من تركى » وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى .

وبذلك يتم كل ما يحتاج الإنسان اليه من معرفة الله عز وجل ، ومعرفة ما يتعلق بالنبي

(١) ترد إليها مسائل كثيرة من الجهات المختلفة وقد كما يجب عن بعضها بطريق البريد وعن بعضها بطريق مجلة الارهر . وحيث طلب ما أن تقدم بتحرير التفسير بهذه المجلة ، فترجو من حضرات القراء ألا يسكتوا من إرسال الأسئلة إلينا . أما ما بقى عدنا من تلك المسائل فتعجب به تباعاً إن شاء الله .

صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة أحوال الناس واحتلافهم في الاستعداد ، ومعرفة الآخرة وما فيها من نعم جسيمة ونار آليمة .

ثم ختم السورة بقوله : « إن هذا لى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » تلبيها على أن كل ما جاء من الانبياء ممن أزل الله عليه كتاباً أو صحيفة ليس المقصود منه إلا هذه الأشياء الأربعة ، فإنها لم تدع شيئاً من مسائل السعادة والعوز في الدنيا والآخرة إلا بيته .

ومن وقف على أسرار هذه السورة الشريفة امتلاً ، إيماناً وإيقاناً بأن القرآن تنزيل من حكيم حميد : « قل أزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً » ، وعلم حقاً أنه لا هداية إلا باتباع نهجه القويم وصراطه المستقيم . فسبحان من خلق الخلق وعلم استعدادهم ومراتبهم ، وما جعلوا عليه من الأحوال المتباينة والنزعات المتصادمة « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

البيان التفصيلى لمعنى السورة الشريفة :

« سبح اسم ربك الأعلى » : التسبيح : التنزيه . وتنزيه الاسم الكريم هو ألا تبقيه على ظاهره إذا كان ما وُصِفَ له فيما تُعَرَفُ بين الناس مما لا يليق به تعالى ، وألا تطلقه على غيره إذا كان مختصاً به تعالى كالاسم الجليل ، أو على وجه يشعر بأنه تعالى هو وغيره فيه سواء إن لم يكن مختصاً . ومن تنزيه الاسم أن تصونه عن الانتدال ، فلا تتلفظ به فى محل لا يليق به كبيت الغلاء ، ولا تذكره إلا مع الخشوع والتعظيم .

ومن تعظيمه ما حكى عن إمامنا مالك رضى الله عنه : أنه كان إذا لم يجد ما يعطى السائل يقول : ما عندي ما أعطيك ، أو انتفى فى وقت آخر ، ونحو ذلك ، ولا يقول نحو ما يقول الناس : يرزقك الله أو يعطيك الله . فسئل عن ذلك فقال : إن السائل أثقل شئ على معصيه وأبغضه إليه قول المستول له ما يفيد رده وحرمانه ، فأنا أجل اسم الله سبحانه أن يذكره لمن يكره معصاه ولو فى ضمن جملة ! وهذا منه رضى الله عنه غاية فى الورع والدقة .

ولك أن تعتبر لفظ الاسم مقحماً ، فكأنه قال : سبح ربك . والإقحام فى لغة العرب قد يكون لضرب من التعظيم . فإن المذكور إذا كان فى غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه ويحمد ذكره ، كما يقال : سلام على المجلس العالى والاعتاب السنية ، ونحو ذلك . فالمعنى : زه ربك مما لا يليق به من الأوصاف .

واستدل لهذا بما أخرجه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجة وغيرهم عن عقبة بن عامر الجنبى قال : لما نزلت « فسبح باسم ربك العظيم » قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اجملوها في ركوعكم ، فلما نزلت « سبح اسم ربك الاعلى » قال : اجملوها في سجودكم .
ومن المعلوم أن المجمعول فيها سبحانه ربى العظيم وسبحان ربى الاعلى .

وبما أخرج الامام احمد وأبو داود والطبرانى والبيهقى في سنده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ « سبح اسم ربك الاعلى » قال : سبحان ربى الاعلى . وهو استدلال قوى من السنة .

وفي الكشف أن المراد بتسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعانى التى هى إلهاد فى أسمائه سبحانه كالنسيب مثلاً ، وأن يعان عن الابتذال والذكر لاعلى وجه المشيوع والتعظيم .

والخلاصة : أنه يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص ، ويجب تنزيه الألفاظ الموضوعه لذلك عن سوء الأدب والذهاب بها مذهب المجسمة والمشبهة .

وإجمال القول أنه إن كان « سبح » بمعنى تزه ، فكلا الأمرين من كون « اسم » مقحماً وكونه غير مقحماً ، وتعلق التسبيح به على الوجه الذى سمعت - محتمل غير بعيد . وإذا كان معناه قل سبحانه ، فكونه مقحماً متعين . وقد علمت ما يدل له .

و « الاعلى » صفة الرب . والمراد بالعلو العلو بالقهر والافتداز ، لا بالمكان والجهة ، لتنزهه عن ذلك . وهذا العلو واجب لله فى ذاته وصفاته وأفعاله . فأما فى ذاته فبأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض . وأما فى صفاته فبأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية . وأما فى أفعاله فبأن تعتقد أنه مالك مطلق عليم حكيم ، فلا اعتراض لاحد عليه فى أمر من الأمور ، سواء علمت الحكمة أو جهلتها . ولا معنى لذلك بعد إيمانك بأنه حكيم عليم .

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم فى دوران نفسك
ولا تسأل الله عن فعله فمن خاص لجة بمر هلاك

وقد كتبنا بتوسع فى هذا الموضوع برسالتنا . تهسير قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل » .
وبالجهة فهو أعلى من كل ما يصفه به الواصفون ، ومن كل ذكر يذكره به الداكرون .
خلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكنا ، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا .

وبحسبنا أن نلفت نظرك الى أن السياق يدل دلالة واضحة على أن المراد بالعلو علو الافتداز والعظمة والملك ، لا علو المكان والجهة ، لأن علو الحسى عبارة عن كونه تعالى فى غاية البعد عنا . وهذا لا يناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم . أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والامداع فيناسب ذلك . والسورة هاهنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لا جله يستحق الحمد والثناء والتعظيم .

ثم تراه بعد ذلك أردف قوله « سبح اسم ربك الأعلى » بقوله : « الذى خلق فسوى » .
والخاتمة والنسوية المبنية على الحكمة تناسبان العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة .
واعلم أن السلف قائلون باستحالة العلو المكافى عليه تعالى ، خلافا لبعض الجهة الذين
يخطئون خبط عشواء فى هذا المقام ، فإن السلف والخلف متفقان على التنزيه .

والفرق بين مذهبيهما أن الخلف يعينون المعنى التنزيهى المراد ، والسلف ينزهون
ولا يعينون ، فيقتصرون على صرف اللفظ عن ظاهره ، ويكون المعنى المراد لله تعالى . وكل
ما ورد فى آيات الصفات وأحاديث الصفات من التشابهات فهو مصروف عن ظاهره عند
السلف والخلف (فإياك والغلط) . فإن الله تعالى لم يشارك الخلق فى شيء من الأشياء ، وإن
وقعت المشاركة فى الأسماء . فانظر الى العلم مثلا ، وهو مما وصف به الخالق والمخلوق ، تجده
فى القديم مبيا له فى الحادث كل المبانيات ، فإن علمنا مستفاد من الحيواس أو من التمكير
والنظر ، وهو انتقاش واقعال . وعلم الله تعالى منزّه عن ذلك كله .

وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء . فإذا كان هذا التمايز واقعا بين
الحوادث فما بالك به بين الخالق والمخلوق ؟ وقد نص المحققون على أن كل عالم من العوالم
له أحكام تخصه . ومن الغلط البين قياس عالم على عالم آخرى أحكامه وما ينسب اليه . وأن عالم
الأجسام من عالم النفوس ، وعالم النفوس من عالم العقول على ما بينته الفلسفة وأطال فيه القدماء ؟
ولكن الشارع قد ينزل فى التعبير الى مستوى العقول المحجوبة بالحس رحمة بالجمهور ، ثم لا يدع
ذلك حتى يريل ما عسى أن يعلق بالأوهام من ظاهره ، فيقول : « ليس كمثل شيء » . « وما
قدروا الله حق قدره » . « ولم يكن له كفوا أحد » الى غير ذلك من التنزيه ، فيشعر قلوبنا
أن المقصود مما جاء فى آيات الصفات وأحاديث الصفات مما يوم التشبيه أو نسبة الحوادث اليه
تعالى بمقتضى تلك التسميات التنزيهية إنما هو أرواحنا لانظواهرها ، بشهادة النصوص الأخرى
الدالة على التنزيه الذى قامت عليه البراهين العقلية . وهذا إجماع من السلف والخلف كما عرفت .
ولكن كثير الجاهلون وتفهيق التراثون (١)

وقد نرى من المفيد للجمهور أن نطيل فى هذه المقامات ، ونكرر تلك البيانات . فهذا هو
مقتضى الحال الذى عرفناه من الاستفتاءات الكثيرة ، وبلغناه عن دروس بعض الحقى الذين
قرأوا فى الكتب ما لا يستطيعون هضمه ولا يبرغون منراه .

ولأناس ، والمقام مقام إطناب ، وتصحيح العقيدة بتخليصها من شوائب الأوهام يحتاج
الى كثرة تذكير ومزيد تكرير — أن بلغت نظرك الى ما حصرى بيننا وبين بعض المتعلمين
المصريين ، فما أجدره بالذكر فى هذا المقام لكثرة فوائده ومزيد عوائده ، قال حصرتة :

(١) القيم يزعمون أنهم أهل سنة وحديث :

فردة تسمى الحديث ولكن لا يكادون يفقهون حديثنا

ما تقول في مشكلة التوحيد ؟ فقلت له : وما مشكلة التوحيد ؟ فقال : قول العلماء : إن الله ليس فوق ولا تحت ولا في جهة من الجهات ، مع أن الذي لا يكون فوق ولا تحت ولا في جهة من الجهات يكون معدوما . فقلت له : ما أهمها مشكلة ؟ فقال : مشكلة المشكلات ومعضلة المعضلات ، وقد رأيتها في كتاب لبعض العلماء ولم يجب عنها وسماها مشكلة التوحيد ! فقلت له : إني أحيب عنها وأنا ناظم ، فإن ما ذكرتموه إنما هو أحكام الماديات والله متزه عن المادة وعلاقتها ، ولو كان ماديا ماصح أن يكون إلهيا . وما تخيلتموه من أنه لا بد من أحد المتقابلين ولا يصح ارتفاعهما جميعا فهو مشروط بالقابلية ، وإلا ارتفع المتقابلان معا ، بل يكونان محالين عند عدم انقابلية . ألا ترى أن الإنسان لا بد له من أن يكون عالما أو جاهلا ولا يصح ارتفاعهما عنه ، ولكن الحجر لا يقال له عالم أو جاهل لسدوم القابلية ؟ فسذلك الحق عز وجل لكونه غير مادي لا يجوز أن يتصف بشيء من هذه المتقابلات ، فإن القابل إنما هو المادة . بل الفلاسفة يحيلون تلك المتقابلات على جميع المجردات كالأرواح والملائكة . وبهذا يرتفع الاشكال الذي تصور أولئك الحق أن لا يرتفع وسموه مشكلة التوحيد .

فعندما وصلنا إلى ذلك الحد قال ذلك السائل : فكيف هو ذلك الإله وكيف تصل العقول إليه ؟

فقلت له : **إف** هنا مقامين : مقام الاستدلال على وجود الله تعالى ، ومقام معرفته بالكنه والحقيقة .

أما وجوده والاستدلال عليه فأنه من الشمس وأوضح من الخس . فإن كل شيء من الأشياء وكل ذرة في الأرض ولسماء تدل عليه وتشير إليه : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » . فوجودها ناطق بوجوده ، وإمكانها ناطق بوجوبه ، وما فيها من سر عجيب وترتيب غريب ناطق بعظيم قدرته وبديع حكمته وسعة علمه وإتقان تدبيره وعدم نهاية كماله وعلو سمائه وصفاته : « فليست الإنسان هم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والسرائر » . « أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . « ألم يك نطفة من مني عني . ثم كان علقة مخلوق فسوى فجعل منس الزوجين الذكر والأنثى » . « ألم تر أن الله أرسل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » الخ وقد قالوا قديما : « نظرك فيك يكفيك » .

ولعمري لقد أودع في الإنسان من الأسرار والعجائب ما يدهش الناظر ويهرق الفكر . وقد دهش الناظرون في الإنسان من عماء الفزيولوجيا . بل كل علم من العلوم إذا تعمق فيه صاحبه رأى من الآيات البينات والدلائل الواضحات والبراهين القاهرات ما يجعله يقول بلسان

حاله أو مقاله : سبحانه لا محصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . فسبحان من خلق
فسوى وقدر فهدى . وقد قيل قديما :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

أما المقام الثانى وهو الوصول الى كنهه تعالى فأمره أيضا فى غاية الجلاء والوضوح . فان
إله العالمين الذى ليس ككله شيء يجب أن يكون متعاليا عن العقول ، ويستحيل أن يخضع
لمحدثات الأفكار ومبتدعات الأنظار ، بحاله من قواهر الأوار ومدد هشات الأسرار . ولو لم
يكن كذلك ما صبح أن يكون رب العالمين . ومن أين لدى الألوات البشرية والأدناس الطبيعية
أن يدرك القدوس الأعلى الذى تقدست ذاته عن أن تراها العيون أو تدنو منها الظنون ؟ !

وقد قلت فى بعض ما كتبتة : أنا لا أؤمن بالله محمد يصل إليه عقلى ، أو يمكننى أن ألمسه
بيدى ، وأصل إليه برجلى ، فانه إذا يكون ماديا تسرى عليه نواميس المادة لا محالة . أما إلهى
الذى أؤمن به فهو فوق المحدود والقيود ، ليس ككله شيء وهو السميع البصير . فكيف
تطبق عليه النواميس وهو ظاهرها ؟ أم كيف يقاس بالماديات وهو مصورها ؟ !

وقد شط بنا القلم ، ولكن الى ما دعت اليه الحاجة ، وأوجبه الضرورة ، واقتضاه حمل
كثير من الناس فى هذا المهد الذى تراكت ظلماته وتماظمت آفاته ، وتكاثر مدعوه وقل
منصفوه . فالى الله المشتكى وه المستعان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ولنقف هنا اليوم ، وموعدا الممد الآتى ، إن شاء الله .

يوسف المجرى

عضو جماعة كبار العلماء

من أخبار الاجوان

كان عبد الله بن جعفر الطيار يدعى بحر الجلود لكرمه . ف جاء إليه يوما - نصيب الشاعر
وكان أسود اللون ، فلما خرج تقدم إليه وقبل يده ثم أنشده :

ألفت «نعم» حتى كأنك لم تكن عرفت من الأشياء شيئا سوى نعم

وعاديت «لا» حتى كأنك لم تكن سمعت بلاى سالف الدهر والأمم

فقال له عبد الله : ما حاجتك ؟ قال هذه رواحلى تغيرنى عليها . قال أخ اخ ، ثم أوسقها له
برا وتمرا وأعطاها عشرة آلاف درهم وثيابا . فقيل له : تعطى هذا كله لهذا الممد الأسود ؟
فقال لهم : إن كان هو أسود فان شعره لا يبيض .

الدروس الدينية

التي ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام في شهر رمضان

تفصل حضرة صاحب الجلالة الملك فأصدر أمره بأن يلقي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر دروساً دينية أسبوعية في شهر رمضان المعظم ، وتكرم جلالاته بحضور هذه الدروس في حشد من رجال دولته ، وأركان حكومته ، فأجبا جلالاته بذلك سنة الخلفاء العظام ، وأهل الدين بحل من الاجلال والاحترام ، وقام فضيلة الأستاذ الامام من جهته بما ينتظر منه من تجلية روح الاسلام ، وتبيين مكانته من هداية النفوس ، ونصحية القلوب ، والدلالة على أثره في بناء العمران ، ونشر العرفان ، وحملت الجرائد هذه الدروس الى الآفاق فتقبلها مسلو الأرض بالكبار والاعجاب . وتمنى الناس لو جمعت هذه الدروس القيمة في رسالة خاصة ليتمكن حفظها والانتفاع بها على طول الزمان . فتفصل فضيلته لطبع نضمة ألوف منها ، وتوزيها . وعزمت وزارة الأوقاف على طبع عشرين ألف نسخة منها لتوزيها بالحقائق . ورأينا نحن من جهتنا أن ننشر منها في كل عدد درسا تعميها لها ، وبهذه الوسيلة تصل هذه الدروس الى أكثر رائجيها في جميع البلدان .

وقد تشرف فضيلة الأستاذ الامام بمقالة حضرة صاحب الجلالة الملك في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ١٥ ذى الحجة ورفع الى جلالاته نسخة من هذه الدروس الدينية مجلدة تحليداً فآخراً . وفي هذه الفرصة قام فضيلته بتقديم هدية الأبرار لمناسبة الزفاف الملكي ، وهي نسخة من المصحف الشريف مكتوبة بخط أشهر الخطاطين وهو الحافظ عثمان . وقد جلد هذا المصحف تحليداً ثمينا ، فتفضل جلالة الملك بقبول الهديتين معرباً عن عطفه الكريم على فضيلة الأستاذ الامام ، وتقديره لخدماته الدينية العظيمة للإسلام والمسلمين .

بدأ الآن بشرح الدرس الأول الذي ألقاه فضيلة الأستاذ الامام في مساء الخميس الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٥٦ بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم في مسجد الأستاذ البوصيري بمدينة الاسكندرية :

الدرس الأول

أفاده فضيلته بمسجد البوصري بمدينة الإسكندرية

صاء يوم الخميس الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٥٦

قال فضيلته .

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الله تعالى : (لَيْسَ الدِّينُ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الدِّينَ مِنْكُمْ أَمْسَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ الْمَلَائِكَةُ وَالْكِتَابِ وَالتَّبْيِينِ) وَأَتَى الْمَلَأَ عَلَى حِمِّ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤَفَّقُونَ بِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (الآية : ١٧٧ من سورة البقرة)

المفردات . فصل هذه الآية . سبب نزولها . الايمان وأثره في الانسان .
تطبيق وتطبيق . الايمان الناقص . الاحسان الى الجماعة . الرقيق وعناية الاسلام به . طريق التهذيب النفسي . الصلاة . الوفاء بالمهد . الصبر .

المفردات :

لبر : التوسع في فعل الخير ، مأخوذ من البر مقابل البحر . وقد تصورا في البر السعة فأخذوا منه البر بمعنى التوسع في فعل الخير . ويضاف الى الله تعالى نحو « إنه هو البر الرحيم » ويكون معناه كثير المطاء فياض الجود . ويضاف الى العبد ويكون معناه التوسع في الطاعة ، فهو اسم جامع للطاعات وفعل الخير . وقد جعل مقابلا للفسحور في قوله سبحانه : « إن الأبرار لني نعم » وإن الفجار لني جعيم » . وحمل مقابلا للام في قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ويحيى بمعنى التوسع في الاحسان ، ومنه ير الوالدين ، وقوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتسقطوا إليهم » ، إن الله يحب المقسطين » .

آمين . الامس : طمأنينة النفس وزوال الخوف . وقد أخذوا منه آمن بمعنى صدق

وأذن ، وانتفى عنه الريب والشك ، واعلمت نفسه الى ماعلمه وانشرح صدره له ، وراى عنه التلقى ، فصار آمناً .

اليوم الآخر : هو يوم لقيامة ، وهو الدار الآخرة ، مقابل اليوم الاول وهو أيام الدنيا .
الملائكة : خلق مغيب عنا لا يمكن أن ينفذ إليه ابتداء إلا علم الطيف الخبير . ونحن غير مكلمين إدراك حقيقتهم ، وإن كنا مطلعين باعتقاد وجودهم .

النبیین : النبوة : سفارة بين الله جل شأنه وبين ذوى العقول من عباده لإبلاغهم وحيه بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة . والنبي : منبئ عن الله سبحانه وتعالى ومنبئ للعباد . والنبأ : خبر له فائدة عظيمة يحصل به العلم . فليس كل خبر نبأ . ومن حق النبا أن يكون عارياً عن الكذب .

ذوى القربى : أقارب الشخص ، بولادة الأبوين أو الجددين .

اليتامى : اليتيم : الصبي الذى انقطع عنه أبوه قبل البلوغ .

المساكين : المسكين . هو المحتاج الدائم السكون الى الناس لحاجته اليهم . فاذا سألهم صبحي سائلاً .

ابن السبيل : هو المسافر المنتقطع عن ماله وبه حاجة تحمله على عدم الايواء فى مكان وعلى ملازمة الطريق . ويقال للطير الذى يلازم الماء . ابن الماء .

إقامة الصلاة . تعديل أركانها ، ومراعاة سننها وأدائها ، وجعلها مقبلة على الاخلاص لله ومراقبته ، مأخوذة من قولهم : أقام العود قومه وأصلحه .

المعهد : الموثق الذى تجب مراقبته .

الصبر : الإمساك عن الشيء فى ضيق . يقال : صبرتُ لدانة حبستها بلا علف . وهو فى الشرع : حبس النفس عما هو محرم شرعاً أو محذور عقلاً . والصبر : اسم عام تحته أفراد تنحصر بأسماء : لحبس النفس فى الحرب يسمى شجاعة ؛ وحبس النفس فى فائبة مضجرة يسمى سعة الصدر ؛ وحبس النفس عن الكلام يسمى كتماناً ؛ وحبسها عن فضل العيش يسمى زهداً ؛ وحبسها عن الغيظ يسمى حلماً . الى غير ذلك .

المتقون : المتقى : مأخوذ من وقاه أى جعل له وقاية فأتقى . والوقاية فرط الصيانة . والمتقى فى الشريعة : هو الذى يمنع نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك .

فضل هذه الآية :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان » . ذلك أنها مشتملة على جميع أفعال الخير وصفات الكمال البشرى تصرّحاً وتلويحاً كما يعلم مما يأتي . وهي على تكثر فنونها وتنوع ضروبها منحصرة في خلال ثلاث : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة مع العباد ، وتهذيب النفس . وقد أشير الى الأولى بالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، والى الثانية بإتقاء المال والوفاء بالعهد ، والى الثالثة بإقامة الصلاة والصبر . ولذلك وصف الله سبحانه الخائزين لهذه الصفات بالصدق والتقوى .

سبب زول الآية .

كان المسلمون أول الأمر يتوجهون في الصلاة الى بيت المقدس ، ثم حولت القبلة وأمرُوا بالتوجه الى لبيت الحرام . قال الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » . وبهذا التحويل اغتبط المسلمون وفرحوا لأن الكعبة بيت ابراهيم واسماعيل جدى العرب ، وتآلم اليهود والنصارى لأن بيت المقدس قبتهم ، وكانوا يحبون بقاء المسلمين معهم . وخاض الجميع في الأمر واشتد كل فريق ينصر رأيه . فنه الله تعالى الى خطئهم ، وتبين أن الخذل في مثل هذا ليس من شأن العقلاء ، لأنه جدل خارج عن دائرة البر والخير ، إذ لا تقايل لاهجات ، ولا للأمكنة ، ولا للارمنة في ذاتها ، وإنما الفصل لما يحصل فيها من الخير ، فيجب أن يبحث عن الخير . أين هو ، وبم يتحقق ؟ وأن يحرص على تحصيله والاتصاف به .

أصول الخير :

أنزل الله هذه الآية حسماً لهذا الجدل الذى لاخير فيه ، وبين لهم فيها أن الخير الجامع هو صحة العقيدة ، والاحسان الى الجماعة البشرية ، وتهذيب النفس واتصافها بمكارم الأخلاق . وأن صحة العقيدة تحصل بالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين . والاحسان الى الجماعة يكون بإتقاء المال وبذلك ، وإيفاء العهد . وتهذيب النفس يحصل بالصلاة والصبر .

الإيمان وأثره فى الانسان :

الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين : مبدأ كل خير ، وأساس كل فضيلة ، لأنه يستتبع صدور الأعمال الصالحة ، وإتقاء الشرور ، ويصير الانسان حثيراً فاضلاً ، يفعل الخير لذاته وإبتغاء رضوان الله ، ويترك الشر لذاته ، وامتنالاً لأمر الله .

والايمان بالله يشمل الايمان بأنه قادر عالم حكيم ، ير رحم ، متصف بجميع صفات الكمال لا يأمر ، لا يما هو حسن نافع ، ولا ينهى إلا عما هو ضار قبيح . هذا الايمان يستتبع تقبل الوحي جميعه مع الاذعان والتسليم والرضا والطمأنينة الى أنه حق كله . فقد عرف عن الانسان الرضا بصيغة الرجل الجرب الحكيم ، فكيف به مع نصيحة الإله العليم الحكيم ، المحيط بما في السموات والأرض ، المتعاع على السرائر وحفايا النفوس ، الذي يضع الامور مواضعها ويقدرها تقديرا ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ؟

والايمان باليوم الآخر يمتزج أمر الحياة الدنيا ، ويحقر شأنها ، ويجعلها عند المؤمن طريق الآخرة ووسيلة لها ، لا يحب منها إلا ما كان مقربا الى الله ، وسبيلا الى سعادة الآخرة ، ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءها ، بل سيات عند أن يبقى فيها طاملا للصالحات ، وأن يفارقها فرارا من شرها ، وتمحلا لنعيم مقيم عند رب العالمين .

هذا المؤمن بالله وباليوم الآخر تهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله ، ويهون عليه كل شيء في الحياة في سبيل الحق ، وفي سبيل رضا الله وإعلاء كلمته . ذلك أنه يعلم أن رضوان الله أكبر من كل شيء ، وأن نعيم الآخرة نعيم دائم ، وأن الدنيا ظل زائل .

والايمان بالملائكة وسيلة الى الايمان بالكتب والانبياء . والايمان بالكتب يستلزم الوقوف عند حدودها ، وتقبل ما فيها ، واعتقاد أنه خير والسعادة .

والايمان بالانبياء يستلزم الاعتقاد بأحلافهم ، والاهتداء بهديهم ، والتأديب بأدبهم .

تطبيق وتطبيق :

هذا ، وقد قلنا : إن الاطمئنان والاستسلام من لوازم الايمان . وعلى ذلك فالسلم الذي يفرق بين أحكام الاسلام فيقبل بعضها ويترك بعضها يرى بعضها حسنا وبعضها غير ملائم ، لا يمكن أن يكون مصداقا للكتاب كله ، بل هو يؤمن ببعضه ويكفر ببعض . وكيف لا يقبل الكتاب كله إذا كان يعتقد أنه حق ، ويصدق قوله تعالى حل شأنه : « ذلك بأن الله زل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد » ؟

هذا الذي يكفر ببعضه يدخل في قوله تعالى : « أفئذ منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .



وقد أصيب الاسلام قديما وحديثا لطائفتين نُسنا اليه بغير حق ، طائفة سحرت ببعض الآراء والمذاهب ، وفنت ببعض الشرائع . وطائفة شغلت نفسها بما هو بعيد عن مقاصد

الاسلام ، وما يرى اليه من نصر الحق والفضيلة ، وسعادة الجماعة البشرية ، وتطهير النفوس وتهذيبها ، والاستهانة بالحياة جميعها ، إذ لم تعاضد الحق وتناصره ، الحق الذي به قامت السموات والأرض ، والذي به نزل القرآن . وهؤلاء مثلهم كمثل أولئك الذين خاصوا في القبلة وبين الله لهم أن ذلك ليس من البر .

وها نحن أولاء نرى ضعف حال المسلمين بالمعدن عن الهدى الالهي ، ونرى العالم يتخبط فيما ابتدعه من مذاهب وآراء ، وفيما صار اليه من مادية يتلظى في نارها المتأججة .
وأصحاب المدينة هم الذين يحيطون بهذه النار ، وسوف تأكلهم وتذروهم الرياح إذ لم يشوبوا إلى رشدهم ، ويمودوا إلى روحية التدين ، وإلى طلب الحق عند الله جل شأنه .

الايمان بالله ورسوله لا يكون برأ حتى تتحقق آثاره ، ويكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل شيء سواهما ، قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لايهدي القوم الفاسقين » .

ولا يكون برأ حتى تتحقق في المؤمن الصفات التي وصف الله بها المؤمنين . فقد وصفهم بأنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وأنهم إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أقبلوا وقالوا سمعنا وأطعنا ، وقال فيهم : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . هذا هو الايمان .

الايمان النافص :

أما التصديق الذي لا يستتبع الآثار أو تكون له آثار ناقصة ، فهو إيمان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى ، ولا ينحيه من عذاب النار وسوء المصير . وقد قال الغزالي : مثل المؤمن الذي لا يعمل والمؤمن الذي يعمل كشجرة القرم إذا قالت لشجرة السرو : أنا شجرة وأنت شجرة ، فتقول شجرة السرو : مهلا حتى يأتي الحريف لمواصفه فتقتلك ، ويطير بك الهواء ، أما أنا فأبقى راسخة تزيل المواصف ماجف من أوراقى وتبقى الأوراق الباصرة . هكذا حال المؤمن تصفيه التوائب فيخرج منها نقيا سليم العرض ، سليم العقيدة ، كالذهب تصفيه البوتقة فيظهر نقيا لامعا . أما ضعيف الايمان فإن التوائب تذهب بما عنده منه ، ويخرج منها مردولا ، ملوم العرض ، كسير النفس ، ذليلا عند الله وعند العباد .

الاحسان إلى الجماعة :

بعد أن بين الله سبحانه ما يرجع إلى العقيدة ، بين ما يتم به الاحسان إلى الجماعة .

والانسان كائن يختلف عن غيره أشد الاختلاف ، فهو كثير الحاجات ، متسوع الرغبات ، بعيد الأمل ، كثير الطمع ، يحتاج لغيره فيما يقوم البدن ويستتره ويرفه عيشه ، وفيما يصلح نفسه من العلم والتهذيب ، لا تقف رغباته عند حد ، ولا يستقر على حال ، ويحتاج الى غيره في حماية نفسه من العاديات . فلا يمكن أن يعتر الفرد وحدة مفصلة عن الجماعة ، بل يجب أن يعتبر جزءاً من وحدة ومتمماً لها ، فلا بد أن يتبادل مع أحرار الوحدة ما يحفظ هذه الوحدة سليمة ويعود عليها بالخير والبركة . بهذا الاعتبار كان مطالباً بأن يقدم للوحدة نفسه وماله وكل ما وهبه الله إياه من علم وعقل وتهذيب . غير أن الانسان أناني أيضاً يحب نفسه ، ويحب ماله ، لأنه يرى في المال حفظ النفس والتمتع بالملذات فيحرص عليه لذلك ويشدد حرصه . فأرشد الله تعالى العباد الى ما يجب أن يكونوا عليه من التعاون ، وحثهم على إتيان المال كما حثهم على تقديم النفس عند الحاجة . ولم يقبل الله الاتفاق ولم يجعله برا إلا حيث يكون المال المبذول محبوباً ، وحيث يكون البذل نفسه محبوباً بعد رياضة النفس عليه واعتياده . وهذا هو قوله تعالى : « وآتِ المال على حبه » .

ولا يكون البذل برا إلا حيث يكون في موضع البذل . ولذلك بين الله من يبذل اليهم المال ، وأنهم . أهل لقراءة ، واليتامى والمساكين . من سأل منهم ومن لم يسأل ، ولغيرهم المحتاجون المنقطعون عن بلادهم وأموالهم ، والعبيد الأرقاء . والاتفاق اليهم إما بشرائهم وعتقهم ، وإما باعطائهم المال ليخلصوا به أنفسهم من مواليتهم عند الكتابة .

وقدم الله ذوى اقربى لأن الاتفاق عليهم صدقة وصلة للرحم ، وثنى باليتامى لأنه إذا فقد عائلهم فقد وجب على الجماعة البشرية صياتهم وحفظهم .

عناية الاسلام بالرفيق ومشروعية الرق :

وجعل الله لرقاب سهما من الصدقة ، وسهما من الزكاة أيضاً ؛ لأن الاسلام يعتبر الانسان حراً بطبعه ، ولا يرضى الرق إلا حيث يخرج الانسان عن طبع الانسان فيقف في سبيل حرية الرأي ، وفي سبيل نشر الفضيلة والدين الحق . إذ ذاك يصح أن تهدر آدميته ويعامل معامل البهيمة . غير أنه مع ذلك قد شرع الاسلام لتحرير طرقاً كثيرة : في الكفارات ، وفي أموال الزكاة المفروضة ، وفي الصدقات غير المحدودة .

وإتياء المال في هذه الآية غير الزكاة . فالزكاة محدودة بالنوع والمقدار ، بينما النبي صلى الله عليه وسلم . ولها في المذاهب فروع وتفاصيل .

أما إتياء المال هنا فليس محدوداً بقدر معين ، ولا بزمان معين ، وإنما هو واجب دائماً عند الحاجة وبمقدار الحاجة .

طريق التهذيب النفسى :

بمد هذا بين الله تعالى ما يهذب النفس وهو الصلاة ، ففي الصلاة توجه الى الحق المعبود ، وانقطاع عن الخلق ، وتفرغ المرء ، والصراف الى ذى العزة والجبروت ، المحاسب على الأعمال جميعها ، والمجارى على القدرة من الخير والشر . وفي الصلاة اعتراف بأن الله هو المعبود وحده والمستعان وحده . ومن شأن ذلك كله أن يديم مراقبة الله فى الأعمال جميعها ، وأن يصنى النفس ويهذبها ، فتصدر الأعمال فى السر والعلاية وفق أوامر الله ، نافعة لعباده . ومن شأن هذا أيضا أن ينتهى الشخص عن الفحشاء والمنكر .

هذه هى الصلاة التى جعلها الله نوطا من البر ، وفيها قال : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقال : « إن الانسان خلق كهلويا إذا مشه الشر جروا ، وإذا مشه الخير منوا ، إلا المصلين » الآية .

الوفاء بالمعهد :

بقى بمد هذا مما عده الله برا : الوفاء بالمعهد والعبر . والوفاء بالمعهد قسم منه يرجع الى معاملة الله جل شأنه ، وقسم منه يرجع الى معاملة العباد . ذلك أن المعهد ميثاق وتعاقد ، منه ما هو صريح ، ومنه ما هو ضمنى . فالذى آمن بالله ورسوله قد أعطى عهدا لله ورسوله ، والتزم الوفاء به واتباع ما قضى به الله ورسوله ، والتزم أن يهتدى بهدى الرسل ويقتدى بهم . والانسان فى الجماعة البشرية ملتزم ضمنا أن يتبادل معها المنافع ، وأن يكون عضوا صالحا حسب استعداده وطاقته ، وأن يشركها فيما وهبه الله إياه من علم ومال وقوة .

والمتولى لعمل من أعمال الدولة ، سواء أكان ذلك العمل صغيرا أم كبيرا ، ملتزم أن يوفى ذلك العمل ، وأن يجهد فيه ويحسن ، وألا يضار أحدا من الأمة ، وألا يأكل أموال الناس بالباطل ، وألا يحيف على أحد ، وألا يظلم أحدا . فهو ملتزم حدود الله ، وملتزم أيضا قانون البلد فى غير معصية الله . وهناك التزامات فردية بين شخص وشخص آخر ، وهى العقود . والانسان مطالب أمام الله جل شأنه بإبقاء العهود جميعها . وهذا الوفاء نوع من البر .

هذا ، وإذا تدبرنا ماحل بالآثم من هوان ، وما أصابها من ذل ، وجدنا أعظم أسبابه فى ترك إنفاق المال وبذله ، وفى القدر وعدم الوفاء بالمعهد . والقدر والبخل مبدآن للآثم محجلان لعقوبة الله فى الدنيا .

الصبر :

أما الصبر فقد جعله الله من أنواع البر : فى الفقر ، والمرض ، والقتال . وهو فى غيرها

من أنواع البر أيضا . ولكن الاقتصار عليها لأن الصبر فيها أشد من الصبر في غيرها . وقد ذكر الله سبحانه الصبر في كتابه الكريم أكثر من سبعين مرة ؛ وأصاف إليه أكثر الظلمات ورفع الدرجات . من ذلك : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . « ولنحزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون » . وفي رسالة لعمر الفاروق رضى الله عنه « عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر : الصبر في المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله » .

ثم ختم الله هذه الآية الجامعة لصفات الكمال البشرى وأفعال الخير بقوله : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » تنويها بشأن الذين تحلوا بهذه الصفات ؛ وتنبيها إلى أنهم بها كانوا هم الصادقين المتقين .

نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين المتقين ! والله أعلم ؟

في ذكر بدائه الانبياء

قال حكيم : بالاحسان في البدئية تفاضلت العقول

وقال غيره : ميسور الرأي عند البدئية ، خير من الاطناب بعد الفكرة .

وخطب قتبية بن مسلم على منبر خراسان عندما قدمها واليا ، فسقطت العصا من يده ، فتطير من ذلك . فقام بعض الأعراب فسحبا وناولوه إياها وقال : أيها الأمير : ليس كما ظن العدو وساء الصديق ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما فر عينا بالإياب المسافر

فسر الأمير مما قاله الأعرابي ، وأمر له بخمسة آلاف درهم .

وصف سهل بن هرون رجلا فقال : ما رأيت أكثر فهما للجليل ، ولا أحسن تفهما لدقيق منه .

ووصف اليوسنى غلاما بالذكاء فقال : كان يعرف المراد باللفظ ، كما يعرفه باللفظ ،

ويعاين في السطر ، ما يجري في الخاطر ، حديد الذهب ، طاقب الفهم ، يقنيك عن الملامة ، ولا

يحوجك إلى الاستزادة .

الشريعة الإسلامية والتشريعات الحديثة

بعثت جريدة البورس احبسيان الفرنسية مندوبا من قبلها يسأل حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى عن رأيه في بعض الامور التشريعية ، فافضى اليه فصيلته بأجوبة غاية في السداد والاصابة تضمنها الى ما ندخره من كلمات الحكيمه ، قال فصيلته : يجب أن تسيطر تعاليم الاسلام على الحياة الاجتماعية في مصر ، لأن غالبية الشعب تدين بالاسلام ، كما أن الدين الرسمي هو الاسلام . هذا الى أن القرآن الكريم يفي بكل حاجات الفرد والجماعة . وقد احتاط لكل شئ ، وتوفر على كل الاحكام .

وهنا قال مندوب الجريدة : إن مصر تمهدت أن تكون قوانينها مقتتسة من أحدث التشريعات العصرية .

فأجاب فضيلة الاستاذ الامام : وأنا أصرح بأن أحدث نظريات القانون الحديث موجودة في القرآن . ومن السهل أن تسن قوانين تتفق مع نظريات الكتاب الكريم .

فسأله المندوب عما جاء في القرآن عن قطع يد السارق :

فأجاب فضيلته : عند ما يصل الى هذه النقطة سنجد أنفسنا أمام خمس حالات فقط .

وأما من واحدة من اثنين : إما أن أفنحك على ضوء تشريعى ، وإما أن لا أستطيع وحيلئذ أنظر حتى تقنع ، فإن ميدان التشريع الاسلامى واسع جدا ، وسنجد وسيلة للتفاهم ، ويجب أن نفهم أننا لا نزيد العودة بتشريعنا الى الوراء ، كما كان في عصور الممحمية .

قال المندوب : ولكن الأجانب قلقون .

فأجاب الاستاذ الامام : لهم العذر لأنهم يجهلون التشريع الاسلامى ، وليسوا وخدام في ذلك فان بين المسلمين كثيرين يجهلونه . والدليل على ذلك نظرية الاخلال بالقانون التي اعترف بها المشرعون المعاصرون أخيرا مع أنها تدرس في الأزهر منذ ألف عام .

وبإني لأقص عليك شيئا من التاريخ : فقد طلب من الامام مالك يوما رأيه في رجل من لمبارى مات واعتنق أحد ورثته الديانة الاسلامية قبل تقسيم تركته ، فذهب هذا الذي أسلم الى القاضي ليطلب منه توزيع التركة حسب الشريعة الاسلامية . فأجاب مالك أن هذه التركة يجب أن توزع حسب قوانين الممالك ، وهى القوانين التي كان يقبها يوم موته .

وهذا يعنى أن الامام مالك كان يحترم التشريعات والعادات غير الاسلامية .

وعندما أتكلم عن التشريع الاسلامى ، فاني لا أعنى مدها خاصا . ولكننى أعنى مجموع آراء أصحاب المذاهب . فان حمل هؤلاء الأئمة كثر فريد لا يوجد مثله عند أية أمة أخرى ، ومن المستطاع الانتفاع به على أحسن السبل .

السنن

الحدود الشرعية

عن عائشة رضى الله عنها « أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ثم قالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلّمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أسامة أنشع في حد من حدود الله ! ثم قام فاحتطبت فقال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . » . رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) بيان الحدود الشرعية وما في معناها وحكمة مشروعتها (٣) إذا لم يوجد في الشريعة نص على حكم من الأحكام فإذا يكون العمل ؟ (١) معنى هذا الحديث ظاهر ، وهو أن امرأة من عدية القوم اسمها فاطمة غلبت عليها رذيلة خلقية مرة واحدة في حياتها ، وهي سرقة شيء يستوجب إقامة الحد عليها بقطع يدها ، فعز على قريش أمرها لما لها من علو المنزلة ، ولكنهم كانوا يعملون شدة استمسالك الرسول صلوات الله عليه بإقامة حدود الله وتمييزها على العظيم والضعيف ، والغنى والفقير ، بنسبة واحدة ، فوقعوا بأراء ذلك حائرين ، ولكنهم ظنوا أن أسامة بن زيد يستطيع أن يشفع لها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان محبوا عند الرسول كما كان أبوه زيد من قبل ، ولذا كان يلقب بالحبيب ابن الحب فأجابهم أسامة إلى طلبهم ، ومضى إلى رسول الله وسأله العفو عن السارقة فأنكر عليه الرسول هذه الشفاعة ، وقال له : أنشع في حد من حدود الله ! أي ما كان يليق بك أن تحرؤ على هذا .

ويظهر من هذا أن أسامة كان يعلم أنه لا تصح الشفاعة في حدود الله بعد أن يصل أمر الجريعة إلى ولي الأمر ، ولهذا أنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو كان يحمل الحكم لعلمه إياه . ولعل اعتقاد أسامة في فاطمة المخزومية من كون هذه الخلة ليست عادة لها وأنها زلة قد لا تعود إليها ، هو الذي دفعه إلى الشفاعة فيها .

والواقع أن فاطمة هذه قد أصبحت بعد تنفيذ الحد عليها من الصالحات ، فلم تؤثر عنها أية رذيلة خلقية بعد .

على أن الرسول صلوات الله عليه لم يقتصر على الإنكار على أسامة ، بل جمع الناس وخطب فيهم مبينا لهم أن الاستهانة بمعاقبة الخيانة إذا كانوا من العظماء ، والتشدد في معاقبة الصغار ، لا نتيجة له ؛ إلا هلاك الأمة وقتاؤها ، وقد هلك بسببه بعض الأمم الذين خلوا من قس . وأقسم لهم أنه لا يتأخر عن تنفيذ حدود الله على بنته نفسها . وذلك حق لا ريب فيه ، إذ لا معنى لهذا إلا إبطال القانون ، والنقض على العدل والنظام ، فلو لم يتعد القانون على القوى والضعيف بسببه واحدة كان ذلك تحريضا للقوى على انتهاك حرمة الضعيف ، والعدوان عليه وهو آمن من العقاب ، فإذا فرض وقوى الضعيف كان من حقه أن ينتقم لنفسه وهو آمن من العقاب ، ويمتدئ على غيره وهو آمن أيضا ، وهلم جرا ، وهذا هو عين القوضى المقوضة لدعائم العمران ، الموجبة لهلاك الأمم وقتائها .

ويؤخذ من هذا الحديث أنه لا يحل الحاكم أن يقبل الشفاعة في حد من حدود الله الآتي بياتها ، كما لا يحل لأحد أن يدفع عن مجرم في حد وصل إلى الحاكم . وهذا مما لا خلاف فيه . أما قبل وصول الأمر إلى الحاكم فإن الشفاعة تصح كما يصح العفو ، بشرط أن يكون مستحق العقوبة غير معروف بالجرائم ، أما إذا كان من المعتادين على إيذاء الناس ، أو كان من الأشرار الذين لا يصلحهم العفو ، فإنه يجب أن يرفع أمره إلى الحاكم ليوقع عليه الحد الذي يجره عن ارتكاب الجريمة . فإذا سرق شخص من آخر ولم تكن هذه عادة له من قبل ، وظن الشفيع أن العفو عنه لا يغيره ، فإن له أن يشفع فيه ، وللمعتدى عليه أن يعفو عنه ، وإلا فلا يحل له العفو . وقد وردت أحاديث بهذا المعنى . منها ما رواه الدارقطني « اشفعوا ما لم يصل إلى الوالي فإذا وصل إلى الوالي فعفا فلا عفا الله عنه » . هذا في الحدود .

أما في القصاص فإن الشفاعة فيه تجوز ، لأنه حق العمد ، وله أن يعفو على أي حال . وأما في التعزير ، فقد قال الفقهاء إن الشفاعة محل فيه . ولكن الظاهر المعقول أن عقوبة التعزير إن توقف عليها تأديب الحياة والمحافظة على النظام العام ، فإن الشفاعة لا محل فيه ، كما لا يحل للحاكم أن يعفو ، وإلا فإن العفو يصح والشفاعة تجوز . وذلك لأن الشريعة الإسلامية مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة ، فعلى الحاكم أن ينظر في هذا إلى ما فيه المصلحة ودفع المفسدة .

(٧) أما الجواب عن الثاني فهو أن أصل معنى الحد في اللغة : المنع . ويطلق على العقوبة التي وضعها الشارع لمرتكب الجريمة . وذلك لأنها سبب في منع مرتكب الجريمة من العودة إليها ، وسبب في منع من له ميل إلى الجريمة عن ارتكابها . وكذلك يطلق على المعاصي ، ومنه قوله تعالى : « تلك حدود الله فلا تقربوها » . أي تلك المعاصي التي نهى الله عنها فلا يحل لكم قربانها . ويطلق أيضا على ما حده الله وقدره من أحكام ، ومنه قوله تعالى : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .

ونحن الآن بصدد بيان الحدود الشرعية بمعنى العقوبات وما في معنى الحدود من قصاص وتعزير . فإليك البيان :

إن الشريعة الإسلامية قد قسمت العقوبات الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الحدود . وقد عرف الفقهاء الحد بأنه عقوبة مقدرة حقاً لله تعالى ، فحق علم الحاكم بمجرم استحق عقوبة الحد فإنه يجب عليه التنفيذ ولا يملك العفو . والجرائم التي تستوجب الحد هي : الزنا . ومثله اللواط على خلاف ستعرفه — السرقة ، القذف ، شرب الخمر ، على خلاف ستعرفه . أما حد الذين يسمون في الأرض فساداً فلا يخرج عن حد السرقة أو القصاص أو التعزير .

القسم الثاني : القصاص . وهو معاملة الجاني بمثل اعتدائه ، فإن القصاص معناه المماثلة ، ومنه قص الحديث إذا أتى به على وجهه . ولا يسمى القصاص حداً لأنه حق للمد له أن يعفو عنه كما يأتي .

القسم الثالث : التعزير . وهو تأديب على ذنب لا حد فيه ولا كفارة له كما ستعرفه بعد . ثم إن المتفق عليه من الحدود ثلاثة : حد الزنا وإن قال بعضهم إنه لا رجم ، حد القذف ، حد السرقة . أما حد شرب الخمر فجمهور الأئمة والعلماء على أنه حد . وبعضهم قال به من باب التعزير . ومع ذلك فقد اختلفوا في مقداره :

فالمالكية والحنفية والخنابلة يقولون إنه ثمانون جلدة ، لأن عمر قدره ثمانين جلدة ، ووافقه عليه الصعابة .

والشافعية يقولون إنه أربعون جلدة ، لأنه هو الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى مسلم عن أنس رضي الله عنه « كان النبي يضرب في الخمر بالجريد والنعال أربعين » . ويكفي هذا الحد ولو تكرر منه الشر ، أما ما فعله عمر فقد كان من باب التعزير حيث رأى أن الخمر قد نشأت في بعض الجهات فشدد العقوبة لحر الشاربين ، فالزيادة ليست من الحد ، وإنما هي تعزير للامام أن يفعله .

وقد اختلف العلماء في آلة الصرب : فبعضهم قال إنهم كانوا يضربون في عهد النبي بالجريد والنعل وأطراف الثياب والأيدي ، وعلى هذا فلا يصح الخروج عن هذه الآلات . والجمهور على أنه يصح بهذه الآلات كما يصح بالصوت . وبعضهم يرى أنه لا يصح بالصوت إلا إذا كان الشارب متبرداً فاحراً لا يؤثر فيه ضرب اليد أو الجريدة . هذا هو حد الشرب المختلف فيه . فلنرجع الى الكلام في الحدود المتفق عليها :

فأما حد الزنا فقد فرقته الشريعة فيه بين الذي تزوج والذي لم يتزوج ، فشددت العقوبة على الأول ، لأنه عرف معنى الزوحيية ، وقدر قيمة المدوان على العرض حق قدره ، فكان جزاؤه الإعدام . ولا ريب في أنه جزاء يناسب هذه الجريمة مناسبة تامة ، لأن المدوان

على المرض بهذه الصورة الشنعة كالمعدوان على النفس ، بل ربما فصل الفيور قسله على الزنا بجليسته أو محرمه . وكثيرا ما ترى الناس يقتل بعضهم بعضا من جراء ذلك . ولذا نجد القوانين في كل الشرائع قد رعت القصاص عن قاتل الزاني بأمراته ، لأنها ترى أن هذه الجناية تستوجب قتل مرتكبها .

أما غير المتزوج فقد قدرت له مائة حلة ، لما عرفت من أنه لم يعرف معنى الفيرة على الزوجة ، فكان له حق في التخفيف .

ولم يخالف في هذا الحد إلا بعض المعتزلة والخوارج ، فإنهم قالوا إن عقوبة الرجم كانت موجودة في صدر الاسلام ثم نسخت بقوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة حلة » . فالزانيان يستحقان الجلد مطلقا سواء كانا محصنين أولا . ولكن دليلهم هذا لا يتم إلا إذا ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرمجم أحدا بعد رول هذه الآية .

ولكن الجمهور قالوا : إن رسول الله قد رجم بعد نزول هذه الآية ، بدليل أن أباهريرة حضر الرجم وهو لم يسلم إلا سنة سبع ، وسورة النور نزلت سنة ست أو خمس . وقد رجم الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم وصرحوا بأن الرجم حد .

وقد نازع هؤلاء بأن الكتاب لا يصح نسخه بالسنة ، وأجيب بأن السنة المشهورة تخصص بلا خلاف ، وهنا خصصت السنة الزاني بغير المحصن . وهذا الخلاف لا يترتب عليه كبير فائدة عملية ، لأن حد الزنا منوط في الواقع بقرار الزاني ، فإذا لم يقر فانه لا يمكن إثباته عليه بالبينة ، لأنه لا يثبت إلا بأربعة شهود يرون الإيلاج بالفعل ، وذلك إن لم يكن محالا فهو متعذر . ومن يتتبع أحاديث الرجم الذي وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء فانه يجد أن مرتكب الجريمة هو الذي كان يذهب نفسه ويعترف بأنه زاني ، وكان مع هذا يناقش مناقشة تدل على عدم الرغبة في توقيع هذه العقوبة . فسكان هذه العقوبة لا تنفذ إلا على من أراد أن يظهر نفسه من هذه الفاحشة ، ومن إثم الاعتداء على عرض غيره . على أنه إذا وحده مع امرأة لا زوج لها فأن له أن يدعى أنه تزوجها ، وذلك شبهة تقرأ الحد في بعض المذاهب .

ولعل قائلا يقول : إن هذا لا يجعل للحد كبير فائدة ، لأن إثباته منوط بأربعة شهداء والشهود الذين يعلمون أن من ورأهم حد القذف وهو ثمانون حلة إذا قصر واحد في أداء الشهادة ، لا يقدمون على الشهادة . وهل ترى أنه إذا وجد الزوج أجنبيا مع امرأته يتركها على هذه الحالة ويخرج يتأس الشهود حتى إذا جاءوا وجدوا الرجل قضي وطره ، وضاع حق الزوج والجواب : أن هذه الجريمة الشنعة والفاحشة المسكرة ، لم يقتصر صرحها على الزانية والزاني وحدها ، بل يمتداهما إلى الأمرة بتأمرها ، فهتدم شرف قوم غافلين لادنب لهم ، وتعرضهم للبهانة والعار ، وتسقطهم عن مرتبتهم المحترمة بين الناس . فحرصا على كرامة الأسر وصيانة

لأعراض الناس شددت الشريعة الإسلامية في إثبات هذه الجريمة كي لا يجرؤ الناس على اتهام بعضهم بعضا بدون مبالاة . وفي الوقت نفسه جعل لها أقصى عقوبة (إذا كان فاعلها محصنا) تقديرا لنفطاعتها وإحصارا للناس بأنها تساوى حريمة القتل . وبذلك يزدجر المؤمنون الذين يخافون الله ويخشون غضبه ووطشه ، ويحسون لغيرته على عباده حسابا . فاللؤم الذي يقرأ قول الله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا جزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » ، ويعلم أن حد الزنا يساوى حد القتل ، فإنه يدرك عظم المسؤولية إذا أفلت من عقوبة الزنا . ولهذا ذهب بعض المؤمنين حقا الى الرسول واعترف بجريمة الزنا الموجهة للقتل لينحو من عذاب الآخرة بالحد الدنيوى .

أما حق الزوج فإن الشارع لم يهمله في هذه الحالة ، بل جعل له حدا معقولا يدفع عنه أذى الغضب والغيظ من جهة ، ويشكك الناس في أمر الزوجة فلا تتأذى أسرتهما من جهة أخرى . بيان ذلك : أن الأجنبي إذا رمى امرأة عفيفة أو رجلا عفيفا بالزنا ولم يأت بأربعة شهداء كان جزاؤه أن يحده حد القذف (نكاحين حللة) . أما الزوج فإنه إذا ادعى أن امرأته قد زنت فإن الشارع لم يكلفه الإثبات كالأجنبي ، إذ لا مصلحة للزوج العاقل في قذف زوجته وإتهامها بالزنا جزاء . فإن عار ذلك وإن لم يلحقه هو دائما لا يمكنه أن يتخلص منها ، ولكنه يلحق أبناءه وبناته ، فإن لم يكن له منها أبناء وبنات فإنه يضر بكرامته عن الإتهام بين الناس مؤقتا ، ولهذا لم يسو الله عر وجل بين الزوج وبين الأجنبي إذا اتهم زوجته ، فشرع لها في هذه الحالة اللعان ، وهو أن يقول الزوج أمام القاضي : أشهد بالله أبى صادق فيما رميته به من الزنا ، ويكرر ذلك أربع مرات ، ثم يقول بعد ذلك : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وتقول الزوجة : أشهد بالله إنه لكاذب فيما يرميها به من الزنا ، وتكرر ذلك أربع مرات ، ثم تقول : إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . وبذلك تبين منه مؤبدا . وهذا المعنى يسجل غضب الله ولعنته على الكاذب حقا .

ثم إذا ثبت أن الأجنبي كان معها في خلوة فإن الشارع جعل لها عقوبة على الخلوة بالأجنبي ، فأوجب على الحاكم تعزيرها بالسجن والضرب .

وبهذا تعلم أن حد الزنا في الشريعة الإسلامية قد اشتمل على ثلاثة أمور (أحدها) شدة الحيلة في إثباته ، لأنه ليس جريمة شخصية بل يتمير بها الأبرياء . (ثانيها) أنه عقوبة تناسب العدوان على العرض ، وهو وإن كان شديدا في بعض النواحي ، ولكن هذه الشدة تنبئ بمعظم الجريمة عند الله فقط ، ومن أفلت منها في الدنيا لصعوبة الإثبات فله في الآخرة سوء الجزاء .

(ثالثها) إذا تمذر الإثبات على الزوج فله في تأديبها طريقان : التعزير على حلولها بالأجنبي بالسجن ونحوه ، وهي المستعملة في القوانين الوضعية الآن ، ومسألة اللعان التي ذكرناها .

وفى ذلك من الزجر من هذه الفاحشة والاحتياط فى درئها وتذكير المؤمنين بخطورة أمرها عند الله وتخويفهم من عقابه الدنيوى والآخروى مالا مزيد عليه فى الحس والابداع . لأن الشريعة الاسلامية حريصة على محو الرذائل الخلقية ، والضرب على أيدي العائنين بالأخلاق التى عليها قوام حياة الأمم وسعادتها . حريصة على كرامة الناس وأنسابهم . فلم يبق أمام الأمة إلا أن تستمسك بالصيانة والحياء ، ولا تنحجر بالفواحش ، وإلا أوشك الله أن يسلط عليها من لا يرحمها . أما المواطن فانه من الجرائم الخلقية التى لاتليق بالنوع الانسانى وفطرته التى فطره الله عليها . فالمواطن فيه عدوان ظاهر على الانسانية ، وحروج عن سنن الله الطيبة ، ولذا سماه الله فاحشة كالزنا . قال تعالى : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » ! فمن ارتكب هذا الفعل الشائن فقد اختلفت فيه آراء الأئمة : فمنهم من قال : إنه يعاقب عقوبة الزانى وهى الاعدام إن كان محصنا ، أما الموطوء فمعقوبته الجلد كاللكر ، لأنه لا يتصور فيه إحسان . ومنهم من يقول إن عقاب اللواط من باب التعزير لا من باب الحد ، فعلى القاصى أن يحبس ، أو يجلده بما يراه رادعا له عن الجريمة ، فاذا تكررت منه ولم يزدحر عزز بالاعدام .

أما حد السرقة فقد بينه الله تعالى بقوله : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » أى اقطعوا اليد اليمنى من كل واحد سرق حواء كان رجلا أو امرأة .

واعلم أن الشريعة الاسلامية قد وضعت قوانين المعاملات وفصلتها أحسن تفصيل ، فوضعت نظما للبيع والشراء ، والزمن والإجارة ، والشركة والشفعة . ووضعت قوانين للاقتصاد والتجارة والزراعة والصناعة . ولم تترك شيئا إلا وضعت له نظاما منبها على مصلحة النوع الانسانى ، وترقية حاله ، ورفع المعصومات من بين الناس ، وتوطيد علائق الثقة فيما بينهم ، ونزع المداوة والبغضاء من قلوبهم ، وحفظ حقوق الضعفاء ورفع الحيف عنهم . وقد أخذ المجتهدون من النصوص التى جاء بها الكتاب الكريم أو السنة الصحيحة ما فيه مصالح الناس التى اقتضتها حادثات الأزمنة المختلفة . فكان للمسلمين أعظم زروة فقهية يمكنهم أن يحملوها أصلا لكل قانون صالح ينتفع به المجتمع ، وتقوم عليه دعائم العمران ، وتسعد به الشعوب والأمم سعادة حقيقية . ومع هذا فإنها لم تضع عقوبات خاصة لمن خالف قوانين المعاملات المالية ، بل تركت أمر هذه العقوبات للحاكم ليضع لها ما يناسب كل زمان ومكان . وهذا هو باب التعزير . فقد جعلت الشريعة للحاكم سلطة يضع بها العقوبات التى تليق بمن يخالف أمر الشريعة أو نهىها ، بحسب البيئات والأزمنة ، وبحسب ما يترتب على مخالفتها من الشر والفساد ، ما هذا المبررة قائما قد وضعت لها الحد الذى سمعته .

ولغافل أن يقول : لماذا غنيت الشريعة الاسلامية بالسرقة دون غيرها من الأنواع المؤذية لمجتمع ، فترك الغاصب والمختلس والخائن ، كما تركت الذى ينتق أمواله فى الشهوات الضارة ، أو فى إيذاء المجتمع أو نحو ذلك ؟

والجواب : أن الذي جاءت به الشريعة الإسلامية من ذلك هو تقدير العزيز الحكيم ، وهو عين الحكمة والصواب .

بيان ذلك : أن السرقة هي أخذ مال الغير خفية من حرر (أي محل محفوظ فيه) . ولا ريب أن الذي يقدم على هذا الفعل خطره يطرد في كل زمان ومكان ، لأنه لا يسأل في سبيل الوصول إلى غرضه بارتكاب أية جريمة يتوقف عليها الحصول على ما يريد ، فهو يقف الدار ، ويكسر القفل ، ولا يتأخر عن قتل من يقف في سبيله أو التمثيل به ، فهو مهدد للناس في حياتهم وأموالهم وأعراضهم . فإذا لم يصرب على يد السارق من أول الأمر ، وإذا لم تشدد عليه العقوبة ، كان شره عظيماً ، وخطره شديداً . وقد عرفتنا الحوادث أن السارقين قد قتلوا أنفسا كثيرة في سبيل وصولهم إلى سرقة المال ، واعتدوا على أعراض كثيرة

أما غير السارق كالحائض والغاصب وغيرهما فإنه يقابل رب المال وحما نوحه ، غايته أنه خدعه أو غشه ، أو أخذ منه المال بقوة على مرأى من الناس ، وكل هؤلاء يمكن انتقام شرهم والضرب على أيديهم قبل أن يستفعل أمرهم . فلهذا ترك الشارع أمر تأديبهم للعناكم كي يعززم بما يراه راحرا لهم بحسب ما ياسب البيئة ويتفق مع نظام الأمن العام . على أن الحوادث التي من هذا القبيل قد يتفاوت سببها ، وقد تكون عظيمة وحقيقية ، فيجب أن يترك تقدير عقوبتها للعناكم ليقدر لها ما يناسبها ، بخلاف السرقة فلها جناية ترتكب في الخفاء ، وآثارها المترتبة عليها لا تختلف غالبا ، فهي تهدد الناس في كل زمان ومكان .

ومثل الخيانة والنصب سائر المخالفات المالية ، فإنه لا يمكن ضبط عقوبة مطردة لها ، لأن آثارها تختلف اختلافا كبيرا . مثلا شخص بذر ماله في المساحات والزارف حتى نفد ماله فإن عمله هذا في نظر الشريعة الإسلامية لا يجوز ، ولكنه ضرره يختلف ، فإذا كان في بيئة صالحة مستقيمة بحيث لا يتأثر به أحد كان الضرر مقصورا عليه وحده ، أما إذا كان في بيئة سريعة التقليد فإن ضرر عمله يتعداه لغيره فيكون قدوة سيئة ، ولذا يجب أن يترك تقدير تأديبه للعناكم ولذا قال بعض الآء : إذا بذر ماله في مباح فإن ذلك التبذير لا يوجب الحجر عليه . ولكن الجمهور يقولون : إن التبذير في ذاته يوجب الحجر ، والحجر نوع من أنواع التعزير ، فإن فيه إعلانا بأن الرجل لا يحسن التصرف ، ولا يوثق به في باب الأموال ، وذلك توبيخ مستمر لا يرضاه عاقل . أما التبذير في الشهوات المحرمة فإنه يوجب الحجر باتفاق .

وهاهنا سؤال معروف ، وهو أن قطع اليد فيه إتلاف لمصو من أعضاء الانسان ، وذلك لا يتناسب مع الجريمة إذا كانت يسيرة ، فإن أقل ما تقطع فيه اليد عشرة دراهم ، والعقوبة شديدة . وهذا الكلام منشؤه الغفلة عن معنى الجريمة وعن الآثار الصارة المترتبة عليها ، فإك قد عرفت أن هذه الجريمة من أشد الجرائم خطورة ، فإذا فشت السرقة بين الناس فقد هددوا في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم كما ذكرنا ، وأصبحت حياتهم مريعة لا فائدة منها ، فإن السارق

كالحیوان المفترس الذی یعتك بكل ما یلاقیه ، جزیئته یجب أن تقابل بالقسوة المتناهیه کی ینقطع دابرها من بین الناس بتاتا . فاذا تخیل شخص أن العقوبة شدیة فانه یجب أن یسلم أن فظاعة الجريمة وآثارها فی المجتمع أشد وأبکی . ثم إن العقوبات لم توضع إلا لزعج فاسدی الأخلاق ، وهؤلاء لا یزحرون بالفق والین بدون نزاع . فاذا لم تتمثل أمامهم شدة العقوبة فانهم لا یزحرون أبدا . ولنا عی ذلك أمثلة ملحوسة عملية : مثلا : الكوكاكین والحشیش قد وضعت لها الحكومة فی أول الأمر عقوبة حقیفة ، فكادت مغربة لضعاف النفوس والأشرار علی ارتكاب الفعل لا راحة لهم ، فلما سنت قوایین صارمة ، وأدرك هؤلاء الأشرار خطورتها ، كفوا عن تعاطی هذه السموم . وهذه القوایین تقرها الشریعة الاسلامیه ومحبذها ، لأن لها كما أن یمرر بما یراه قاطعا لأحرام ، سواء كانت مقصورة علی الشخص أو تتعداه الی المجتمع .

وأیضا فقد رأینا فی زمن من الأرمئة اضطراب جبل الأمن فی البلاد المقدسة اضطرابا شدیدا ، فلما نفذ فیهم حکم الله تعالی وقطعت أیدی بعض السارقین ، لم تلبث الجريمة أن احتفت وحل محلها الأمن والطمأنینه .

علی أن الذی یشمل فی المناهل المذكورین یدرك أن شدة العقوبة بما هی فی مظهر الأمر ، أما فی الواقع فهی رحمة بالسارقین فاسدی الأخلاق ، فانها قد زحرتهم فعلا ، وأوقفتهم عند حدم فتركوا هذه الجريمة المؤذیه للمجتمع شر ینذاه .

ولعل قائلا یقول : إن النظر الی الجريمة علی هذا الوجه یقتضی أن ید السارق تقطع ولو سرق درهما واحدا ، فما فأئدة تخصیص القطع لعشرة دراهم . والجواب : أن الشارع أراد أن یحمل سبب القطع ما لا له قیمة فی الجملة ، وهو ما یتضرر به صاحبه ، فلعشرة دراهم قد تكون قوت أسرة فقیره یومین ، فاذا سرت منها فضررت ، أما مادون ذلك فانه لا یوجب القطع لهوانه غالبا ، فاذا أفلت من القطع فی هذه الحالة فانه لا یفلت من التمزیر بالسجن أو الضرب حتی لا یتعود .

ومثل ذلك ما إذا أراد أن یسرق فنقب الدار أو تسور الجدار ثم منعه من السرقة مانع ، فانه یتستحق فی هذه الحالة عقوبة التمزیر الرادعة له عن العودة . وكذا من أقدم علی السرقة ولم تتوفر فیهِ الشروط الی ذكرها الفقهاء ، فان الشارع یوجب تعزیره کی لا یعود .

ولعل فیما ذكرناه ما یقتنع هؤلاء الذین یتخیلون شدة هذه العقوبة ، فیدركوا أنها هی عین الرحمة بالسارقین وللمجتمع .

هذا وقد ضاق المقام عن تكملة الكلام ، فانتظروه فی العدد القادم ، إن شاء الله ما

عبد الرحمن الجزیری

معاكسة المسلمين في توحيدهم

لما نحن برى المحر على مطلق الدعوة للمذاهب المختلفة ، فانه لما كانت الحقيقة شئت البحث ، وكان ترقى الإنسان معلقا على إدراكه للحقائق ، كان مما يعطل ترقيه منع لاس التناقض فيها ، والتفام عليها ، ولكن الامر الذى يتنافى وهذه الحاجة أن يسلك المتباحثون طريق المغالطات والمحاكمات والمحاللات ، فإن هذا الأسلوب يؤدي الى المبادئات والمهازات ، فتضيق الحقائق في هذه الحالات النفسية ، وتبقى آثار هذه الخصومات بين المتعاضدين في بلد مثارا لفرقة والقطيعة بينهم .

أمر المسلمون بالدعوة الى دينهم ، ولكن كتمانهم حد لهم فيها حدودا ، وطالبهم بعدم تمديدها ، فقال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن سببه وهو أعلم بالمهتدين » . وفي هذا أمر صريح باستخدام الحكمة في الدعوة . والحكمة غاية ما ينصف به أصحاب القلوب الكبيرة من العدل والانصاف ، والحلم والآناة ، والادب والاتزان في الادلاء بالحجة ، والتبسط في البحث ، فإن بدر من الخصم ما يدل على أنه لا يمتد بالأدلة ، ولا يابى بالأعلام ، وجهت إليه موعظة تردده عن هذا النى ، على شريطة أن تكون حسنة خالية مما يثير في نفسه زعة المشادة والمحادثة . فإن أكثرت الموعظة ، حودل ولكن برفق ولطف ، وهذا أبعد مدى عينه الشارع لمن يتصدى للدعوة الاسلامية .

كذلك أمر النصارى أن يدعوا الى دينهم ، وصرح لهم الانجيل بأن يملطفوا فيها جهد الطاقة ، حتى قرر لهم أنهم لو آسوا من قوم كراهة لا قواهم فلا يقيموا بين أظهرهم ، وليرحلوا الى حيث تطلب دعوتهم .

هذه حدود الدينين اللذين يتنازلمان السلطان في العالم اليوم ، فما بال بعض الدعاة يرتكب ما تنكره الفطرة السليمة ، ويحرمه الذوق والادب ، من استخدام الأساليب التى لا تفر لها غير إحفاظ النفوس ، وإثارة الرب ؟ هل غاب عنهم أن هذه الخطة تزيد في بعد الناس عنهم ، وهربهم منهم ، وإساءة الظن بهم وبما يدعون إليه ، فهل الى هذه النهاية يريدون أن يصلوا من دؤوبهم في الدعوة ، وبذلهم القضاير المقنطرة في سبيلها من الذهب والفضة ؟

نكتب هذا وبين أيدينا كتب ورسائل محشوة بكثير من الشتائم والمطاعن ضد الاسلام وكتابه ، وكنا لا نأبه لها لاعتقادنا أن مارها يعود عليهم دوننا ، وأنها من «وامل فشاهم ، وحيبة أملهم ، فصررها حائق بهم لاننا ، ولكننا رأينا بعضها نتج نهجا جديدا في المغالطة ،

فزعم أن القرآن يقرر بنوة عيسى عليه السلام لله جل وعز ، وأنت المسلمين لم يفهموا دينهم على الوجه الذي يجب عليهم أن يفهموه عليه من هذه الناحية .

هنا لا نقول إنهم يجهلون مذهب القرآن في هذه المسألة إلى هذا الحد ، ولكنهم ياملون حديق العوام ، والتأثير في عقولهم ، وهي طريقة تعود عليهم بالوبال ، فإن هؤلاء العوام متى لجأوا إلى ملأئهم ، وقرأ لهم هؤلاء ما ورد في دينهم ، من نفي هذه العقيدة تصريحاً بغير تلويح ، وبآيات محكمة لا تقبل التأويل ، أدركوا أن هؤلاء الدعاة يتقولون على الاسلام ولا ينحرحون ، ففاسوا عليه كل ما يقولون ، وفي هذا ربح لنا عظيم أيضاً .

وبما أنه قد طلب البنا أن تكتب ما يزيل الابس من هذه المسألة ، فلم نجد بداً من كتابة بحالة فيها :

أما أن القرآن يعلن على رؤوس الأشهاد بأن الله يتزهد من الوالد والولد ، وأن عيسى رسول من رسله وعبد من عبيده ، فإنه كثير في الكتاب الكريم ، قال الله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » وقال : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله » وإنهم لكاذبون » وقال : « أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » وقال : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » وقال : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئا إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال تخداً ، أن دعوا الرحمن ولداً ، وما يلفي الرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » وقال : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » . وفي الكتاب الشريف غير هذا كثير ، وكلها نصوص صريحة في نفي دعاويهم .

وبما لجأوا إليه من مغالطاتهم الاحتجاج بما أطلقه الله على عيسى عليه السلام من أنه روح الله ، وغاب عنهم أن كل إنسان تفخ فيه من روح الله ، وأنه إن صرح الكتاب بأن عيسى خلق بغير أب فقد صرح بأن الله خلق آدم بغير أب ولا أم ، وقد دحض الله كل هذه الشبهات بقوله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته أنزلناها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلاً . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » وقال : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

هذا ما يقال من ناحية النقل ، أما ما يقال من ناحية العلم ، فهو لا يقل إلزاماً لهم في هذه المسألة ، جاء في دائرة معارف لاروس الفرنسية تحت كلمة تثليث ما ترجمته حرفياً .

« إن عقيدة الثنائيت وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد (الانجيل) ولا في كتاب الآباء الرسولين ، ولا تلاميذهم الاقربين ، فإن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي الوافق عند التقليد يزعمان أن عقيدة الثنائيت كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمن وعما عن الأدلة التاريخية التي تبين اننا كيف ظهرت هذه العقيدة ، وكيف نمت ، وكيف خلقت بها الكنيسة بعد ذلك .

« نعم إن المادة في التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الآب والابن والروح القدس ، ولكنا سرينا أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهم منها نصارى اليوم ، وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين رأوا شخصه وسموا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأقانيم الثلاثة المكونة لذات الخالق كما يدعون . وما كان بطرس حواريه يعتبره إلا رجلا يوحى إليه من عند الله . أما بولس فإنه خالف عقيدة التلاميذ الاقربين ليعبى وادعى أن المسيح أرق من إنسان ، وأنه نموذج إنسان جديد ، أى عقل سام مقوله من الله مباشرة ، وأنه كان موجودا قبل أن يوجد هذا العالم ، وقد عجبوا فيه لتخليص الناس من الخطيئة ولكنه مع ذلك متعلق بالله الآب .

الى أن قالت دائرة المعارف الفرنسية : « كان الشأن في تلك العصور أن عقيدة إنسانية عيسى كانت هي السائدة مدة تكون الكنيسة الأولى من اليهود المنتصرين . فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة التي تسمى بها النصارى) والابنوتيين وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهود ، اعتقدت أن عيسى إنسان محض مؤيد بالروح القدس ، وما كان أحد يتوهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون أو ملحدون . قال جوستن مارشير ، (وهو مؤرخ لاتيني من أهل القرن الثاني) : إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح (أى الموعود به في التوراة) ، ويعتبرونه إنسانا محضا وإن كان أرق من سواء ، ولكن حدث بعد ذلك أنه كلما زاد عدد المنتصرين من الوثنيين ، ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل ، انتهى ما كتبه دائرة المعارف الفرنسية .

هذا ما قرره العلم ولدينا منه مزيد ، فعلى الدعاة الذين يخوضون في أمثال هذه المسائل الجدلية أن يلجأوا بجميع أطراف الموضوع الذي يدعون إليه ، ذلك أولى لهم من هذه المفاططات والمباحكات التي يسرفون فيها ، ويقفون أفلامهم وأموالهم على إذاعتها ، فقد ذكر الكتاب الشريف أسلافهم ممن حاولوا التشكيك في الاسلام والصد عن سبيله ، وبشرهم بالفشل والخيبة وسوء المقلب ، فقال تعالى فيهم : « ينفقون أموالهم ليهودوا عن سبيل الله ، فسيففقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغفلون »

محمد فريد وجرى

قصيدة الفيلسوف ابن سينا

في النفس الانسانية

الفيلسوف ابن سينا هو أبو علي الحسين بن عبد الله الطبيب الاسلامي المشهور والفيلسوف الكبير. كان نادرة عصره علما ودكاه، له كتب غاية في الاطادة منها: الشفاء والقانون والنجاة والاشارات وغيرها مما يقرب عنده من مائة مؤلف.

ولسنا هنا لعدد ايراد ترجمته ولكننا نريد نشر قصيدته في النفس، فقد ابدع فيها كل الابداع، وفيها اشارات فلسفية وصوفية غاية في السمو، قال رحمه الله :

هبطت اليك من المحل الارفع	ورقاء ذات تمزز وتمنع
محبوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سمرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك ووبعا	كرهت فراقك وهي ذات توجع
ألفت وما سكنت فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهـ ودا بالحي	ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها	عن ميم مركزها بذات الأجرع
عنقت بها ثاء الثقل فأصبحت	بين المعالم والعلـ لول الخضع
تبكي وقد ذكرت عهدا بالحي	ء داعم تهـي ولما تقلع
وتظلل ساجدة على القمن التي	درست بشكرار الرياح الأربع
يدعاقها الشرك الكثيف وصدها	ققص عن الأوج الفسيح المربع
حتى إذا قرب المسير من الحى	ودنا الرحيل الى القضاء الأوسع
وغدت محالفة لكل محلف	عها حليف الترب غير مشيع
سجعت وقد كشف الغطاء فأصرت	ماليس يدرك بالعيون الجمع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق	والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلاى شئ أهبطت من شاهق	عال الى قعر الخفيض الأوسع
إن كان أهبطها الاله الحكمة	طويت على القذا السبب الأروع
وهبوطها إن كان ضربة لازب	لتكون سامعة بما لم تسمع
وتمود عالمة بكل خفية	في الصالحين تفرقها لم يرفع
وهي التي قطع الزمان طريقها	حتى لقد غربت نفس المطلع
فكانها برق تالتى بالحي	ثم انطوى فكانه لم يلمع

اللغة العربية بين القوة والضعف

في برامج الدراسة

دعائم الإصلاح :

من خصائص الانسان أنه دائم التجدد في أفكاره وأخلاقه ، سريع التطور في عاداته ومواقفه ، فهو لا يرضى بالواقع ، ولا يطمئن اليه طويلا ، لأنه يرى في التسليم المطلق بهذا الواقع دليل الخلود ، وعدم الرضا به والنزعة عليه من علائم الحيوية البقطة تنساب في مشاعر الأمة فتدفعها الى تجديد حياتها كلها تحت عوامل المحرم تسمى اليها في خطوات الزمن ، وهذا التحديد في حيوية الأمة وتكوينها الاجتماعي ، وكيانها الفكري ضرورة اجتماعية ، أو هو - على الأصح - طبيعة الحياة النامية الشاعرة ، لا يحصى عنه لاية أمة من أمم الأرض التي ترتبطها شرائين البشرية العامة ، وتوحد بينها الأفكار الانسانية الفاضلة ، وتلائم بين عناصرها القطر النقية الصافية .

يد أن تلك الثورات التي تندفع في تيارها الأمم لتحديد مقوماتها تمكيننا لبقائها قد تكون عصية جاعحة ، أو هي - في الحق - تولد عصية جاعحة ، لأنها تبدأ بالهدم ، أو قل : إن عملها في الوقع هو الهدم ، تاركة البناء الى وسائل وأسباب لم تدخل في حيز الوجود ، ولكنها كامنة في ضمير الغيب ترتقب حواصالحا لظهورها ، ومن ثم كانت تلك الثورات الجاعحة في حاجة شديدة الى حركات تكفكف من غربها ، وتفل من حدها ، وتسيطر على أزمة انجهاها ليكس توجيه القوى الإصلاحية الى الجرى في سبيل معبدة يؤمن فيها على الأمة العثار .

والتاريخ شهد من هذه الثورات الفكرية والاجتماعية في شرق الارض وغربها قديما وحديثا الشيء لكثير ، وكان دائما النصر فيها حليف الحق . وتاريخ الاسلام ولفته العربية أغنى وأخصب في هذا المعنى من أى تاريخ آخر ، وحاضرنا اليوم يشهد أعنف لثورات الفكرية العاصفة ، يشهدها في الغرب المضطرب بأحداثه ، وفي الشرق المضطرب بأعاصيره ، ولنا في خاصتنا بنحوة من هذه الثورات ، فقد بدأت بها نهضتنا الفكرية والادبية ، وهي التي أيقظت فيما روح الشعور بالحياة ، وبيت في مشاعرنا الاحساس بقيمة وجودنا الفكري ، نعم إنها في مبدئها كانت ثورة تقليدية منقولة عن الغرب ، ولكنها سرعان ما استشرفت وأصبحت حاملا منها من عوامل الحياة في الشرق الاسلامي العربي ، إيماننا بما فيها من خير عظيم .

لهذه الثورات الإصلاحية عرامة في هدم الماضي والإزراء بالحاضر ، لأنها تتطلع الى مثل عينا لم تدخل في حساب الغابرين ، ولكن أى ماض ذلك الذي يتأثر بها ويذوى عوده

من لفحها ، وتعمل في بناءه معاومها لتتقضى وتقيم على أنقاضه جديدا لا يتشجع تقديم ؟ اذ ذلك ماض لم ترس الحياة قواعده على وشيعة منها ، ولم تقم أصوله على إثارة الخصائص الانسانية العامة الخالدة التي لا تعرف قيود الزمن . أما ماض قويت حيويته ، وترسخت أسسه على قواعد إنسانية ، وارتبطت عناصره بوشائع فكرية ، فذلك أصلب عودا ، وأخلد وجودا من جديد تبنيه نزوات النفوس ، وشهوات الأفراد . وليس التجديد حينئذ إلا بحث ذلك الماضى ونقله في حماب الفلك من دورة الاحيال الفائرة الى هذا الحاضر المشهود .

قد يتشاهم بعض الناس فرقا من عواقب تلك الثورات ، بل قد يذهب الفزع ببعض المخلصين لماضيينا المجيد الى حد الخارع حشية أن تحس ذلك الماضى مسا يغير معاله الى أوضاع تنسكروا وتنكرها ، لأنها ليست منا في طبيعتها ، ولنا منها في طبيعتنا كالذى ترى فيما أحد الشرق عن الغرب من تقاليد ومظاهر في مراسم الحياة وشئونها ، وليس لذلك الشواؤم موضع ولا لهذا التخوف مكان ، لأن لماضى الاسلام ولغته المبينة من القوة الذاتية والخصائص التاريخية ما يحميه ويقيه شر تلك الأعاصير الثورية التجديدية ، بل لقد أفاد ذلك الماضى من هذه الثورات ، فكان لها فضل كبير في تنبيه قادة الفكر وزعماء الإصلاح الى كشف ما طوته أحداث الزمن من مجد تليد ، وتاريخ حى مجيد .

كانت اللغة العربية ، منذ بدأت النهضة العلمية في الشرق عامة ، وفي مصر خاصة ، هدفا لثورة ماصفة قامت في صورة إصلاح أدبي ، يعتمد على وسائل لا تتفق مع طبيعة الشرق وبيئاته ، ولا مع نشأة هذه اللغة وأطوارها ، فقام دعاة الإصلاح في صيحات منكرة ، بعضها ينادى بإحلال العامية محل الفصحى في المعاهد والمدارس تلقينا وتدرسا وتاليفا ، وهذه الناحية كانت آخر ما بقي للغة العربية من مظاهر الحياة في قومها . وكأنما أضمر هؤلاء نفر وأد البقية الباقية من لغة القرآن ، ودفع الشعوب العربية الى بلبله بربرية لا أصول لها ولا قاعدة ، وهم مع ذلك مختلفون في الدوافع التي دفعتهم الى اختيار هذا الطريق الشائك المموتق لنهضة الأمة ، بل الذى يدفعها الى الوراء دفعا لا تؤمن مغنته ، فمنهم من تدفعه الى ذلك نزعة عنصرية لا تقدر لعلم حرمة ، ولا تعرف غير مذهبها في الحياة مذهبها . ومنهم من يدفعه اليه شعور بالمعجز عن القيام بأعباء اللغة العربية وقواعدها الفنية نحووا وصرفا وبلاغة وعروضا وأدبا ، وبعضها ينادى بمحذف كثير من أبواب القواعد محتجا بصعوبتها وتعدد ضوابطها وكثرة صورها وشتيت مذاهبها . وقريب من هذا ، أو هو صورة محيطة لتثليل هذا المذهب ، ذلك الذى أعلنه أحد أساتيد الجامعة المصرية في كتاب نشره على الناس ذهب فيه مذهبا غربيا في خلط قواعد النحو ومزجه بالبلاغة ، وقد نقده كثير من الأدباء ورجال اللغة . وبعضها ينادى بإسكار مآثور الأدب العربى شعرا ونثرا ، وينسكرك على البلاغة العربية شخصيتها ،

ويزعم أنها مأخوذة عن البلاغة الأجنبية ، وهكذا صور تتعدد في مظاهرها وتتحد في أغراضها ، ولكنها في الواقع ثبات عن الضرورة في إصلاح طرائق تعليم اللغة العربية وبرامج دراستها في معاهد العلم ومدارسه ، وأبانت عن الحاجة الشديدة إلى إصلاح أسلوب الحديث في مجتمعات الثقافة العامة والخاصة ، وأبانت عن الحاجة إلى رقابة فنية لغوية لأسلوب الكتابة في الصحائف اليومية والمجلات العلمية ، وأبانت عن وحبب خصوع الرسميات الحكومية في المصالح والدواوين لقوانين اللغة العربية ، وأن يكون ذلك في شيء من الإلزام . وفي تحقيق هذه الأمور ضمان قوى لتحديد ديباجة اللغة وعودة مجدها . وإذا أضفنا إلى ذلك من الناحية الأدبية دراسة تاريخ الأدب العربي دراسة تحليلية تقوم على عرض البيئات عرضا يكشف عن طوارها وما اعترها من حمود أو نهوض ، وتقوم على تعرف النواحي الدافعة إلى إنشاء ذلك الأدب ، وكذلك يضاف إليه دراسة النصوص الأدبية على منهج القداش في الجمع بين النقد الأدبي والموازانات ، وبمحت القواعد اللغوية في مناسباتها ، والاستطراد إلى ذكر الشواهد المماثلة . نعم إذا أضفنا ذلك إلى تلك الأمور التي يهتدأ إلى الحاجة إليها ثورة الإصلاحيين ، أمكننا أن نهتدي إلى طريقة علاج الضعف اللغوي ، وأمكننا أن نضع أسسا لدعائم الإصلاح الأدبي المرتكز على العلم والبحث ، وأمكننا أن نشرب الشباب المتعلم حب العربية ونجعلها ميسرة لقلعه ولسانه ، وأمكننا أن نجعل منها بقدر الامكان لغة شعبية تحمل محل اللهجات العامية المتكاثرة .

وفي الحق إن حالة اللغة العربية فيما بيننا تدعو إلى المسارعة في اتخاذ الطرق الفعالة لحملها لغة حية محبوبة ، نحرص عليها في أحاديثنا ودراساتنا ، وكتاباتنا ، وتسود مجتمعاتنا ، وقد أحس القائمون على تعليمها في معاهد العلم باستفحال الداء ، فنادوا وكتبوا وعرض كل ذي رأى رأيه فيما يراه من وسائل الإصلاح ، وتقدم مفتشو المعارف إلى الوزارة بأرائهم ، ويكاد الإجماع ينعقد على استصعاف الطلبة في اللغة العربية ، وتوجيه وجوه الإصلاح إلى هذه الناحية ، ولكننا في الواقع محتاجون إلى نهضة إصلاحية في اللغة العربية عامة تتضافر عليها الجامعة الأزهرية والجامعة المصرية ، ووزارة المعارف في مدارسها ، والجمع اللغوي ، والحكومة من وراء أولئك ، والصحائف والمجلات الأدبية والعلمية .

وقد أجهلنا في هذا المقال بعض الدعائم التي يقوم عليها الإصلاح اللغوي في نظرنا ، وسفصلها بعض التفصيل في مقال تال ، راجين من الله تعالى أن يوفق المصلحين إلى العمل بها ، لتنبوا اللغة العربية مكانها من حياة الأمة في نهضتها الشاملة الموقفة ؟

صالح إبراهيم هرجون

سيرة أسامة بن زيد

تمهيد:

إذا تكلم الكتاب عن حياة من سادوا الناس وبلغوا درجة الامارة فيهم من الموالى : أمثال بلال ، وسلمان ، وصهيب ، وأسامة بن زيد ، فأنما يتكلمون حول قاعدة المساواة ، وعلى مبدأ الإخاء الذى جمعه الحق سبحانه وتعالى أول لبنة بنى عليها صرح ذلك المجتمع العالمى الاسلامى ، وحث الآخذين يدينه على الجرى عليها فى هدم مايلته الجاهلية من الفروق التى كانت موجودة بين طبقات الناس والقائل ، فأجابه الكل بالسمع والطاعة ، حتى قال عمر بن الخطاب : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » يريد بلالا . وقال سلمان الفارسى لمن سألته عن أبيه : « الاسلام أبى » ١

وأما ما يؤثر عن سيد التابعين سعيد بن المسيب من رفضه مصاهرة عبد الملك بن مروان ، فليس ذلك لأن ولده هجين ، بل لأنه قد اتخذ من الجبارين محالاً أمعنوا فى الظلم وأسرفوا فى القتل بغير الحق على علم ورضا منه ، وبذلك حلع لباس التقوى التى جعلها الله شعاراً لأوليائه ، فلم يره أهلاً لمصاهرته .

ولعمري إنه لمن واجب الكتاب أن يعمدوا فى مثل هذه الترجمة بكلمة عامة تحفز القراء الى المطالعة ، وتقفهم على المقاصد المنشأية بين الأئمة الدينيين والنفر المضامين : أمثال سعيد ابن المسيب ، وعقيل بن علفه . فمن ذلك ما حدثنا به ابن عبد ربه فى كتابه المقد الفريد قال : « كان عقيل بن علفه المزنى أشد الناس حمية ، وكان يسكن البادية ، وكان يصهر اليه الخلفاء ، فلما طلب عبد الملك بن مروان مصاهرته رفض بقوله « حبنى هجناً ولذك » ٢ قال المصباح . إنه جمع هجين وهو الذى أبوه هريرى وأمه أمة .

فانظر رعاك الله كيف بنى سعيد رفضه على المبدأ الاسلامى ، وبنى عقيل رفضه على المبدأ الجاهلى ، بدليل أن عقيلاً أقر البيعة ورفض المصاهرة ، أما سعيد فرفضها معاً ، ولذلك عذب فى الله وصبر .

وعلى ذلك المبدأ الاسلامى أتكلم على حياة أسامة فأقول :

نسبه رضى الله عنه :

هو أبو محمد أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن زيد بن امرئ

القيس بن عامر بن ليمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن مكر بن عوف بن عذرة ابن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة السكبي .

وأمه أم أيمن بركة الحبشية ، كُنيت بولدها أيمن أحي أسامة لأمه . وكانت في الجاهلية مملوكة لعبد الله بن عبد المطلب ، فلما ولد سيد البشر بعد موت أبيه كانت هي ربة له وحاضنة حتى كبر ، ولم تزل في شرف خدمته حتى تزوج بخديجة فأعتقها وأنكحها مولاه زيدا ، فولدت له أسامة صاحب الترجمة .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة ، ونشأ بها النشأة الدينية العالية التي تعزز اليراعة عن تقديرها ، وتقتصر العبارة عن تصويرها ، لأن أدبه وثقافته حصل له من أعظم معلم وأكرم مرب هو سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، وقد كان عطفه عليه فوق عطف الآباء على الأبناء ، حتى به كان لا يكاد يفارقه ، وقد يردفه خلفه إذا ركب لزيارة قريب أو عيادة مريض . روى عن عائشة رضى الله عنها قالت « عثر أسامة بأسكتة الباب (أى عتبته) فشح وجهه حتى سال الدم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه بضمه ثم يحجه ويقول : لو كان أسامة جارية أسكسوته وحليته حتى ينقه » . وكان رضى الله عنه أسود اللون وأبوه أبيض ، فطمعن أهل مكة في نسبه حتى مر عليهما قائف ، وقد بدت أقدامهما من تحت القطاء ، فأقر النسب . حدثنا البخاري في صحيحه قال : « عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها مسرورا تبرق أسارى وجهه فقال : ألم تسمعي ما قاله المدلجى لزيد وأسامه ورأى أقدامهما : إن بعض هذه الأقدام من بعض ! أقول لا يخفى على فطنة القارى أن سرور النبي إنما كان لأن القوم بذلك كانوا يتمتعون الثقافة ويثبتون بهم النسب ، لا لأن المدلجى علمه ما لم يكن يعلم .

شرفه ومزنته في قومه :

تعلم رعاك الله أن سيد البشر صلى الله عليه وسلم قد نسخ نقاتون الاسلام مبادئ الجاهلية ، وحمل ميدان النفاق بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ، فكان أسامة رضى الله عنه ممن حازوا قصب السبق في تلك الخلة الدينية المباركة ، التي جعلت من السادة عبدا ومن العبيد سادة ، حتى إن عمر بن الخطاب كان يقول في رجل من الموالى كان محل إعجابه وثقته - « لو كان سالم مولى أبي حذافة حيا ما جعلتها شورى ! » أى لا سئدت الخلافة اليه كما أسئدت الى نغير شورى . وقد رفع الاسلام أسامة كما رفع أباه ريدا حتى قال فيه سيد البشر : « إن أسامة لا يحب الناس الى » أو « لمن أحب الناس الى » وقد سمته الصحابة « حب رسول الله » وجعلوا ذلك اسما خاصا به ، وكانوا يستشفعون به عند الرسول في المطالب الهامة التي لا يتقدم فيها سواه . حدثنا

البخاري في صحيحه قال . « عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة من بنى مخزوم سرت ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلم يجترئ أحد أن يكلمه ، فكلمه أسامة بن زيد . فقال : إن بنى إسرائيل كان إذا سرق فبهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، لو كانت فاطمة لقطعت يدها » !

وإني وعزة ربي لا نظر لعين التقدير والاعجاب الى عدالة الاسلام وقد رحمت بالكفاية الدينية رجلا من الموالى هو أسامة بن زيد فوق رجل من صميم قريش ومن كتاب الوحي كان أبوه رئيس العرب في الكفر ثم كان هو رئيسا عليهم في الاسلام : هو معاوية بن أبي سفيان . حدثنا بدر الدين الميني في شرحه على البخاري قال . جاءت فاطمة بنت قيس القرشبية المهرية الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له . « يا رسول الله إن معاوية بن أبي سفيان وأباهم خطبائي » . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أما أبوجهم فلا يصح عصاه عن طاقه ، وأما معاوية فصطورك لا مال له ، انكحى أسامة بن زيد ، فكبرهته » ثم قال « انكحى أسامة » فنكحته ، فجعل الله فيه خيرا كثيرا .

ومن المنزل العليا في هذا الباب ما روى أن عمر بن الخطاب عرض لأسامة في شرف العطاء خمسة آلاف ، وفرض لولده عبد الله ألفين ، فقال له « يا أبا عبد الله قد قصدت على أسامة ابن زيد وقد شهدت ما لم يشهد » . فأجاب عمر بقوله « إن أسامة وأباه كانا أحب الى رسول الله منك ومن أبيك » !

إمارته :

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم خيرا بأحوال الذين يقدم الاموال ، فكان يسد إليهم مايتفق وكفاية كل منهم ، وقد نشأ أسامة بن زيد مدربا على العروسية مبررا في الشئون الحربية ، فلما بلغ عمره ثمانى عشرة سنة قلده الرسول إمارة الجيش في السنة الحادية عشرة لأربع نقي من صفر ، وأمره أن يسير الى الشام حيث قتل والده زيد ، وكان معه من كبار المهاجرين والاصهار أبو بكر وعمر وسعد . حدثنا البخاري في صحيحه قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثا وأمر عليهم أسامة بن زيد ، فطمس بعض الناس في إمارته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن تطفنوا في إمارته فقد كنتم تطفسون في إمارة أبيه من قبل ، وإيم الله إن كان خليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس الى » ، وإن هذا لمن أحب الناس الى بعده » !
وأنأ أقول : إن هذا الانتقاد لم يصادف محلا من القبول :

(١) لأنهم إن قالوا إنه من الموالى ، قلنا تلك مقالة رجعية جاهلية قد اجتثت الاسلام أصولها وهدم قواعدها .

(٢) وإن قالوا بتأخير الأفضل ، قلنا : الأفضل في هذا الباب هو الأكثر ثقافة ومعرفة بالحرب ، ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص في السنة الثامنة أميرا على جيش كان فيه من كبار المهاجرين أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فلما حلوا بأرض العدو معهم صرو من إيقاد النار ونهاهم عن اتباع المنهزمين ، وقد عارضه في ذلك عمر بن الخطاب ، فلما عادوا وسأله النبي في ذلك أجابه عمرو بقوله : «منعهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قتلهم فيقطع فيهم ، ونهيهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كين» . فتبين للقوم بعد المراجعة أن عمرو بن العاص الذي احتاره النبي لم أميراً كان أرجح من عمر بن الخطاب رأياً وإن كان دونه فضلا

(٣) وإن قالوا بتأخير الأكبر ، قلنا إن النبي لم يعتبر الكفاية بالس ، ولذلك قال « إنما المرء بأصغره : قلبه ولسانه » .

وعما يناسب هذا الباب من الملح التاريخية ما روى أن عمر بن عبد العزيز لما قام بالامر بعد سليمان بن عبد الملك ، أقبلت عليه الوفود من كل البلاد ، فتقدم وفد الحجاز غلام ليتكلم عنهم ، وكان حديث السن ، فقال له عمر : ليتكلم من هو أسن منك . فأجابه الغلام بقوله «أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغره قلبه ولسانه ، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالس لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك» ! فقال له عمر : «صدقت قل ما بدا لك يا غلام» !

على أن هذا الجيش قد تخلف عن مهمته ولم يسافر به أسامة ، لأن الرسول قد اشتد عليه المرض ، ولكنه أوصى أن يقوم تحت إمرة أسامة ، فلما توفي الرسول وتمت البيعة لأبي بكر كان أول ما بدأ به هو إيفاد ذلك الجيش تبعا للأمر العالي الذي أصدره النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته . فعارض بعض الجيش وعادت الشبهة جذعة . فلما علم أبو بكر بذلك ، ودرك ما في نفوسهم من الانانية والكبرياء الباقيين من تراث الجاهلية ، قام إليهم حتى شيمهم ماشيا على قدميه وأسامة راكب ، فقال أسامة «يا خليفة رسول الله لتركبن أولاد زلن» ! فقال أبو بكر : « والله لا ركبت ولا نزلت ، وما على أن أغرق قدمي ساعة في سبيل الله ! » ثم قال له : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » فلما رأى القوم أبا بكر ماشيا تحت ركاب أسامة وسمعوه يستأذن في تخلف عمر ، لم يجدوا بدا من الخضوع للأمر ، فساروا مع قائدهم أسامة بن زيد حتى زلوا بأرض العدو ، وهناك أيدم الله وآزرهم حتى فازوا بالقيصة ، وعادوا بالنصر بعد أربعين يوما .

موقفه من قومه زمن الفتنة .

لقد أنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم عن الفتنة التي حملت بها حوادث الغيب يوم قتل عمر بن الخطاب ، ثم تخضعت عنها يوم تالب الناس على عثمان بن عفان ، وانهى الأمر بقتله وهي في طورها الأول ، فلما بويع لعلي بن أبي طالب بالخلافة طمرت طمرة خافية كاد معها أن يخسف

القمران وينظم الجديدان ، فحدث بالناس الى منابت الشوكا بمجدو الراعي بالابل الى منابت العشب ، وبثت فيهم من الإحس والمحس ما عرق كلنهم وأدهل عقولهم ، حتى أسكر بعضهم بعضا ، وقاتل بعضهم بعضا ، وانقسموا الى فريقين عظيمين . أحدهما مع علي والآخر مع معاوية ، وكل منهما يرى ما يحتاجه أن الحق في جانبه ، وتغفل قوم للأمر قبل وقوعه فاعتزلوا الفريقين بعد مجرهم عن إصلاح ذات البين ، فكان منهم صاحب الترجمة أسامة بن زيد ، ولذلك لم يبايع عليا ، ولم يشهد معه حربا ، واعتذر اليه بقوله « لو أدخلت يدك يا علي في قم تين لأدخلت يدي معها ، ولكنك قد سمعت ما قاله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله » . حدثنا البخاري في صحيحه عن أسامة قال « نشنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحرة من جهينة فصحبنا القوم فهرمنام ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشينا قال : لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصاري ، فطسته برمحي حتى قتلت . قال : فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال قلت يا رسول الله إنما كان متمودا . قال : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسامة قبل ذلك اليوم » .

أقول : إن أسامة قد احتشد فطن أن الرجل إنما اعتصم بكلمة التوحيد خوفا من السيف ، فما عتب عليه النبي قال له « يا رسول الله أعطى الله عهدا أن لا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله » . ولا شك أن الطائفتين اللتين تحاربتا إذ ذاك كانتا جميعا من أهل لا إله إلا الله . روي أن أسامة رضى الله عنه مات خارج المدينة المنورة ، ثم حمل إليها فدفن بها ، وكان ذلك سنة ثمان وخسين من الهجرة ، وهرمه إذ ذاك لم يتجاوز خمسين عاما . والله أعلم ؟

سيرة محمد متولى الشيخ
من علماء الأزهر بروشيد

صيانة ماء الوجه

قال ابراهيم بن حفصة لا به : يا بني من شكرك عن لا يستحقه ، واطلب المعروف من بحسن طلبك اليه ، واستر ماء وجهك بقناع قناعتك ، وتسل عن الدنيا تنجاها عن الكرام . وأنشده :

هي القناعة ظلمها تكن ملسا لو لم يكن لك إلا الراحة البدن
والظلم لمن ملك الدنيا أجمعها هل راح منها تغير القطر والكس
وقال الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

الاخلاق الفلسفية

- ٨ -

(ج) الفرائز

أبنا في الفصول الماضية ما للعاملين العظمين : الدين والصغير ، على النفوس من سلطان وما لها فيها من أثر . والآن نريد أن نستعرض بقية المؤثرات الأخرى التي تقود كل سلوك الانسان وأعماله الارادية . وهذه البقية الباقية بعد المؤثرين اللذين أسلفنا الحديث عهما في العام المنصرم هي : الفرائز ، والعادات ، والوراثة ، والبيئة . وسنبدا اليوم بالحديث عن الفرائز ، لأنها أقوى وأشمل مما يمددها ، ولكن ينبغي لنا قبل الخوض في الفرائز وتفصيلها أن نطوف ملوفة عاجلة بتعريف السلوك الانساني ، وتقسيمه الى فطري واكتسابي ، وإبانة الحركات والأعمال التي تصدر عن كل من هذين القسمين . وإليك هذا الايضاح :

تعريف السلوك وتقسيمه :

السلوك هو تلبية الكائن الحي لما يحيط به من عوامل ومؤثرات ، وينقسم الى قسمين . فطري ، واكتسابي . فأما السلوك الفطري ، فهو مجموعة الأعمال والحركات التي تصدر من الكائن الحي بدون تدريب ولا تعلم وتوصل الى غاية معينة . وأما السلوك الاكتسابي ، فهو مجموعة ما يتعلمه الانسان أو يتموده من بيئته . وينقسم السلوك الفطري من حيث أسسه والمؤثرات فيه الى قسمين : الأول الآلي أو « الماكينيكي » وهو مجموعة الحركات والأعمال اللاإرادية واللاشعورية : كحركات القلب والمعدة والرئتين ، وعمليات الهضم وتنقية الدم والافراز . وتسمى هذه المجموعة باللاإرادية لأنها ليست خاصة لإرادة هذا الكائن واللاشعورية ، لأنها ليست مسبقة بشعور ولا متأثرة به .

وأما القسم الثاني فهو مجموعة الأعمال والحركات الارادية والشعورية ، وسميت كذلك ، لأنها لا بد أن تكون خاضعة لإرادة من نوع ما ، ومسبوبة بشعور من نوع ما كذلك . ولا بد أن تكون هذه الإرادة وذلك الشعور ناشئين من إدراك أو متأثرين به على أقل تقدير . فأما الأساس المؤثر في المجموعة الأولى ، وهي الأعمال والحركات الآلية ، فهو لا يعنينا هنا إلا من حيث التقسيم والوضاح الأنواع تقدر الامكان ، لأنه من خصائص علم الطب والتشريح . وأما المجموعة التي تعنينا ، فهي الارادية ، وأسسها المؤثرة فيها هي الفرائز والوراثة . هذا كله في السلوك الفطري ، وأما السلوك الاكتسابي فهو مجموعة الأعمال والحركات التي يستفيد بها الانسان

من البيئة التي تحوطه كما أسلفنا، سواء أكانت هذه البيئة في المدرسة أم في المنزل، أم في المصنع أم في الحقل، وسواء أكانت ناطقة أم صامتة. وأما العامل المؤثر في هذا الصنف من السلوك فهو العادات المكتسبة من البيئة أو من الغريزة حيناً بطريقة التدرج والتكرار، وهو التأمل والتفكير الناشئان من العوامل الأخرى حيناً آخر. فلنبحث كل مؤثر من هذه المؤثرات على حدة بعد أن نعرفه تعريفاً يلائم المقدار الذي وصل إليه العلماء الباحثون من الإيضاح في هذه الأمور. ولنبدأ بالفرائض.

تعريف الفرائض وتفصيلها :

اتفق كل العلماء على أن تعريف الفرائض وتحديد موضوعها بالمصطلح شيء في غاية الصعوبة والعسر. وفي مقدمة هؤلاء العلماء المتضايقين المنذرين علماء النفس الذين هم أولى الباحثين بتحديد الفرائض والوقوف على أسرارها وكرامتها، ولكنا مع ذلك سنورد لك بعض هذه التعاريف التي يعلن أصحابها في صراحة ووضوح أنها غير ثابتة ولا شاملة. ومن هذه التعاريف ما يأتي :

الغريزة هي أساس سلوك فطري، وهي تشمل تلك الأفعال المعقدة التي تحدث لأول مرة من غير خبرة سابقة بها، والتي ترمى إلى مصلحة الفرد والاحتفاظ بذاته أو نوعه، والتي هي ناشئة من تفاعل مؤثرات خارجية وباطنية، والتي هي مشتركة بين أفراد الجنس جميعهم، وقابلة للتغيير والتعديل بإرشاد الخبرة والتجارب.

من هذا التعريف نستخلص معنى الغريزة محددًا ولو تحديداً نسبياً، ولكنه يكفيها في بحثنا الحاضر للوصول إلى ما نبتغيه وهي : اكتشاف الفرائض التي هي أساس هام من أسس السلوك، والتي لا يصلح السلوك إلا بتربيتها وصلاحتها. والآآن وقد عرفناها وأبنا أنها شديدة الأثر في أعمال الإنسان الخارجية، فقد وجب علينا أن نعدّها ونبين ما يوجد بينها من فروق، لتكون معالجتها بعد الاستشارة أمراً ميسوراً، ولكن ينبغي لنا قبل تقسيم الفرائض أن نلم بأراء بعض الفلاسفة منذ عصر الفلسفة اليونانية إلى الآن، لنرى كيف كان القدماء يتصورون الغريزة، وكيف يفهمها المحدثون. وإليك شيئاً من هذه الآراء :

إن «سقراط» يعتبر المميز الأول الذي فرق بين الغريزة والدكاء، والذي أعلن أن الغريزة قوة فطرية يصدر عنها كثير من حركات الإنسان والحيوان المدعوعة بعيل مؤسس على شعور طبيعي خال من التفكير. والغريزة عنده هي وسيلة لإبراز أفعال الإله واضحة صريحة لا تصنع فيها ولا غموض.

وأما « أفلاطون » فانه كان يرى أن الغريزة تظهر النفس البشرية على مسرح الحياة في صور مدنية محجلة

وأما « أرسطو » فقد حلل مجموعة قوى التفكير الشرى ، وفصل كل واحدة منها عن النفسوى الآخر ، فبذ الغريزة عن كل ماعداها وفصلها من العادات المكتسبة التى يتعارض بعضها مع بعض ، والتى لا تشمل أفراد النوع كلهم .

وأما « ديكارت » فقد صرح بأن الغريزة شىء خاص بالإنسان ، لأن الحيوان عنده « ماكية » آلية لا تشعر ولا تريد ولا تفكر ، ولا تحس الماء ولا حواء ولا رغبة ، الى آخر ما قاله فى الحيوان ، مما أحنق عليه كثيرا من معاصريه ، ودفعم الى التشبيح عليه من أجل هذه النظرية .

ولما جاء « كونديلاك » (١) قرر أنه لا يوجد شىء يسمى بالفرائز الفطرية ، وأن هذه الفرائز ليست إلا ثمرات لتجارب طويلة ، وخبرات عديدة ، وأنها كانت فى أول الأمر أفعالا تفكيرية ثم صارت مادة . ولما تأصلت فى النفوس سجاها السطحيون غريزة وجروها على الحكم بأنها فطرية قديمة .

وأما « هيغل » (٢) و « شوبنهاور » (٣) فيريان أن الغريزة هى عبارة عن النشاط الفطرى الذى خلقته الطبيعة فى الكائنات الحية فل أن تمنحها التفكير الذى هو فى رأيها متأخر من مبدأ وجود هذه الكائنات ، وعن خضوعها لهذا النشاط الذى يسميه غيرهما بالفريزة . ويلبغى أن نلاحظ أن نسبة الخلق هنا الى الطبيعة نسبة محارية اصطلاح عليها العلماء ، وهم يقصدون النسبة الى مبدع الطبيعة ، كما لا يخفى .

تداخل الفرائز :

أرجع بعض علماء النفس كل الفرائز الموجودة فى الكائنات الحية الى الفريزين الجوهريتين المتأصلتين لدى كل كائن مستمتع بالحياة ، وهما غريزتا حفظ الذات وحفظ النوع . وقد زعم صاحب هذا الرأى أن الأولى تدفع الكائن الحى الى ما يحفظ حياته وينمى جسمه ، فهو مدفوع بموامل حفية الى السعى المتواصل فى سبيل الحصول على قوته ، وهو لا يعمل من جلب كل العناصر التى تلم ببقائه وتحفظ داته ، ومن دفع كل الموامل التى من شأنها أن تؤديه أو تؤلمه ولو نجم عن هذا إهلاكه غيره وإيادته . وما كان جلب النبات للعناصر اللازمة لغذائه من الهواء ، ولا

(١) ميلسوف مرسى ولد فى سنة ١٧١٦ وتوفى فى سنة ١٧٨٠ صد المسيح . (٢) ميلسوف المانى ولد

فى سنة ١٧٧٠ وتوفى فى سنة ١٨٣٠ (٣) فيلسوف المانى ولد فى سنة ١٧٨٨ وتوفى فى سنة ١٨٦٠ بيد المسيح .

إبادة النبتة القوية للضعيفة ، ولا إهلاك الانسان لما حوله من الكائنات الحية كقتل الحيوان وحصد النبات ، إلا إجابة لداعى الغريزة القوية المسيطرة على هذه الكائنات ، والتي لا تزال تلح حتى يقدم اليها صاحبها ما تشتهي . ومن ظواهر هذه الغريزة ما يقوم به الكائن الحى نفسه ضد بيئته ، ليرضى حاجة الغريزة كالأمثال التى قدمناها . ومنها ما تقوم به نواميس الكون العادلة المنتظمة ، أو بعبارة أدق : ما تهيم* النواميس الكائن الحى للقيام به حتى يتمكن من أداء وظيفته التى خلق من أجلها . ويقول صاحب هذا رأى : إن غريزة الخوف عائدة الى غريزة حفظ الذات ، لأن الخوف هروب من الفناء أو من أسباب الألم الذى هو جزء من أجزاء الفناء . وكذلك غريزة حب الملك ، لأنها تعمل على الوقاية من الجوع أمدا طويلا ، وغرضها الاول هو إنماء الجسم وإزالة ما عساه أن يعترضه فى طريق الحياة من الآلام والمتاعب بسبب عدم الامتلاك . وكذلك غريزة حب الاستطلاع ومثيلاتها من الغرائز التى تتعلق بالذات الحية . وأما الباقي من الغرائز ، فقد أرجعها صاحب هذا المذهب الى غريزة حفظ النوع ، وجعلها كلها ناشئة عنها ، متأثرة بها . ولكنى أرى أن هذا رأى غير صحيح ، لأن تلك الغرائز التى نسبها الى غريزة حفظ النوع وزعم أنها متفرعة عنها لا ترجع — فى رأى — الى هذه الغريزة ، وإنما هى غرائز قائمة بذاتها نشأت من انفعالات مستقلة لا علاقة بينها وبين غريزة حفظ النوع . على أنه إذا كان لا بد من إرجاع هذه الغرائز الى غريزة عظمى تنفرع عنها ، فيجب أن تكون هى غريزة حفظ الذات لا غريزة حفظ النوع ؟

(يتبع)

دكتور محمد غنوب

ما قيل فى السرف

قال الله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « آفة الجود السرف » والسرف اسم لما جاوز حد الجود ، وكل شيء بلغ حده انعكس الى ضده .
وقال معاوية بن أبى سفيان : ما رأيت سرفا قط إلا والى حانبه حق مضيع .
وقيل لعبد الله بن جعفر : إنك تعطى الكثير إذا سئلت وتضيق فى القليل إذا عولمت .
فقال : أجود بمالى وأضن بمغلى .
قال العلماء : السرف هو أن يكون الرجل لايمالى فيما يشتري أو يبيع أو يعين أو يُعَن ، فيبيع بركس ويشترى بفضل .

٤ - أعرص القرآن

إسرائيل^(١) : يعقوب

أصل اللفظ ومعناه — من هو إسرائيل ؟ — مولده — هجرته وزواجه وعودته —
أولاده — الأسباط — أم ما حدث له — بيوته ورسالته — عمره ووفاته وقبره

١ — أصل اللفظ ومعناه :

إسرائيل . كلمة عبرانية مركبة ، وهو اسم أعجمي بزنة إبراهيم وإسماعيل ، موسوع من الصرف لوجود العطفية والمعجمة .

والعرب إذا وقع إليهم ما ليس من لغتهم ، تكلموا به بالفاظ مختلفة ، ولذلك تصرفوا في كلمة « إسرائيل » عدة تصرفات ، أوردها بعضهم في ثمان لغات ، وهي :

- (١) إسرائيل — بمدة مهموزة .
- (٢) إسرائيل — بمدة مهموزة مختلطة .
- (٣) إسرائيل — بمدة بعد الياء من غير همز .
- (٤) إسرائل — بغير همز ، ولا مد .
- (٥) إسرائل — بهمزة مكسورة ، بغير ياء .
- (٦) إسرائل — بهمزة مفتوحة .
- (٧) إسرائين — بياعين ، وبالنون بدل اللام .
- (٨) إسرائين — بالهمز .

وم إذا جمعوه لا يحدفون الهمزة من أوله ، وإنما يقال أساريل ، وحكى الكوفيون أسارله وأسارل .

وقد ذكروا أن « إسرائيل » مركب من « إسرا » وهو عبد ، أو صفوة ، أو إسمان ، أو مهاجر ، ومن « إيل » وهو الله ، فيكون معناه عبده الله ، أو صفوة الله ، وقيل معناه محارب أو جندي الله ، وقيل معناه : الأمير المجاهد مع الله .

(١) أول آية ذكر بها قوله تعالى : « يا بني إسرائيل اذكروا لعمى التي أنصت عليكم ، وأومروا
بهدى أولي بهديكم ، وإيلي فارهمون » سورة البقرة — آية ٤٠

وقال القرطبي في تفسيره نقلاً عن السهيلي . معى إسرائيل ، لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر الى الله تعالى ، فسمى إسرائيل ، أى أسرى الى الله ، ونحو هذا ، فيكون بعض الاسم عبرانياً ، وبعضه موافقاً للعرب ، والله أعلم . ١ هـ

٢ - من هو إسرائيل ؟

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، ولد له من « رفقة » بنت « نتوئيل » أخى إبراهيم قال بعض العلماء : وليس في الأنبياء من له اسمان غيره إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن له أسماء كثيرة . وتلقبه بعضهم بما ذكره البيهقي في دلائل النبوة عن الخليل ابن أحمد من قوله : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : محمد وأحمد نبيا صلى الله عليه وسلم ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفيل ، صلى الله عليهم وسلم .

٣ - مولده :

ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقة ، وكانت مافرا ، دعا الله لها ، فحملت فولدت غلامين توأمين ، أولهما عموه « عيصو » وهو الذى تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم ، والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه ، فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذى ينسب إليه بنو إسرائيل . قال بعضهم : وفي ذلك نظر ، لأن هذا اشتقاق عربى ، ويعقوب اسم أعجمى ، وإن كان قد وافق العربية في التسمية به ، كذا ذكر الحَجَل (١) فإنه يسمى يعقوب . ويعقوب لا ينصرف في المعرفة للمحبة والتعريف ، لأنه غدير عن جهته ، فوقع في كلام العرب غير معروف المزيده ، وقد جمعه على يماقيب وبعاقبة وبعاقب .

٤ - هجرته وزواجه وعودته :

ذكروا أن إسحاق كان يحب العيص أكثر من يعقوب ، لأنه بكره ، وأن أمهما رفقة كانت تحب يعقوب أكثر ، لأنه الأصغر ، وحدث أن انتهى إسحاق طعاماً وطلبه من العيص ، فأتى له به يعقوب بالاتفاق مع أمه قبل العيص ، فأكله إسحاق ودعاه ، وعرف ذلك العيص ، فوجد على أخيه ، ونوعده ، فلما علمت بذلك أمهما أشارت على يعقوب أن يذهب الى أخيه « لابان » بأرض « حاران » وأن يكون عنده الى حين يسكن غضب أخيه ، وأن يتزوج من بناته ، وطلبت الى زوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ، ويدعوه ، ففرح يعقوب ، وقدم على خاله لابان ، وأقام عنده يحمدته نظير تزويجه بابنته « راحيل » ولكن خاله ذف إليه ابنته

(١) الحجل بالتحريك طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحر النقاد والمجانين ، ويسمى دجاج البر .

الكبرى « لينة » فلما أصبح كله في ذلك ، وقال له : إنما خطبت إليك « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملها ، فقال له حاله ليس من سقتنا أن تزوج الصغرى قبل الكبرى ، فان أحببت أختها ، فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها ، فعمل سبع سنين ، وأدخلها عليه مع أختها ، وكان ذلك سائفا في ملتهم ، ثم نسخ في شريعة التوراة .

وقد وهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية ، فوهب للينة جارية اسمها « زلعا » ووهب لراحيل جارية اسمها « بلها » ، ثم وهبت كل واحدة منهما بعد ذلك جاريتهما ليعقوب .

وبعد مضي عشرين سنة على إقامة يعقوب عند خاله لابان ، طلب منه أن يعود الى أهله ، فاذن له ، فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » أخذ يبعث البُرْد الى أخيه العيص ، يترفق له ، فرجعت البرد بأن العيص قد ركب في أرمائة ، فتخوف يعقوب ، ودعا الله تعالى ، وأعد لأخيه هدية عظيمة ، وأرسلها مع رجاله ، وتأخر هو بزوجتيه وأمتيه وفيه الأحد عشر ، وجعل يسير ليلا ، ويكن نهارا ، فلما رأى أخاه العيص مقبلا ، تقدم أمام أهله ، وحياء بالسجود ، وهي تحية زمانهم ، فاحتضنه العيص وقبّله ، وكذلك حياه زوجته وأمناء وبنوه ، ورجع العيص ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه ، وجاء الى أبيه إسحاق ، فأقام عنده بقرية « حبرون » في أرض كنعان (فلسطين) .

٥ — أولاده :

كان أولاد يعقوب المذكور اثني عشر ولدا ، وذلك أنه أعقب من « لينة » ستة أولاد . « راوبين » و « شمعون » و « لاوى » و « يهوذا » و « يساكر » و « زبولون » .

وأعقب من « راحيل » اثنتين : « يوسف » و « بنيامين » .

وأعقب من « بلها » جارية راحيل اثنتين : « دان » و « نفتالي » .

وأعقب من « زلعا » جارية لينة اثنتين . « جاد » و « أشير » .

وقد ولد له أولاده جميعا وهو في « حران » عند خاله لابان ، إلا بنيامين فقد ولد في كنعان

٦ — الأسباط :

الأسباط ولد يعقوب عليه السلام ، أو حفدته ذراري أبنائه الاثني عشر ، والواحد سبط ، من السبط ، وهو الشنايع ، فهم جماعة متتابعون ، أو من السبط بالتحريك ، وهو ضرب من الشجر ترعاه الابل ، كأنه جعل إسحاق بمنزلة شجرة ، وجعل اسماعيل بمنزلة شجرة أخرى ، وكذلك يفعل النسابون في النسب : يجعلون الوالد بمنزلة الشجرة ، والأولاد بمنزلة أغصانها .

والسبط والسبطان والأسباط خاصة الأولاد ، وقيل السبط ولد الولد ، وقيل ولد الابن

والابنة ، وفي الحديث : الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورصى عنهما ، أى طائفتان وقطعتان منه ، وقبل الأسباط أولاد السات ، والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب ، وهم الذين يرجعون الى أب واحد .

قالوا : والصحيح أن الأسباط في ولد إسحاق بن إبراهيم بمنزلة القبائل في ولد اسماعيل عليهم السلام ، فولد كل ولد من ولد اسماعيل قبيلة ، وولد كل ولد من ولد إسحاق سبط ، وإعاسى هؤلاء بالأسباط ، وهؤلاء بالقبائل ، ليفصل بين ولد اسماعيل ، وولد إسحاق عليهم السلام . قال صاحب روح المعاني : واختلف الناس في الأسباط أولاد يعقوب : هل كانوا كلهم أنبياء أم لا ؟ والذي صح عندي الثاني ، وهو المروى عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ، واليه ذهب الامام السيوطي وألف فيه ، لأن ما وقع عنهم مع يوسف عليه الصلاة والسلام يساقى السبوة قطعا ، وكونه قبل البلوغ غير مسلم ، لأن فيه أفعالا لا يقدر عليها إلا البالغون ، وعلى تقدير التسليم لا يجدى نفعا على ما هو القول الصحيح في شأن الأنبياء ، وكم كبيرة تضمن ذلك القمل ، وليس في القرآن ما يدل على نبوتهم اهـ

٧ - أم ما حدث له :

أم حادث وقع في حياة إسرائيل هو فراق ابنه يوسف له عليهما السلام ، ولما كان ما يدخل في هذا الحادث من قصص إسرائيل ، يتصل بقصة يوسف اتصالا كبيرا ، ويرتبط بوقائعها ارتباطا قويا ، أرجأنا الكلام عليه إلى حين نتحدث عن قصة يوسف ، إن شاء الله تعالى .

٨ - نبوته ورسالته :

قال الله تعالى : « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ، بإخلاصناهم مخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » .

وقال : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمصطفين » .

وقال : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل اليها ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

وقال : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تخوفن إلا وأنتم مسلمون » .

فمن مجموع هذه الآيات الكريمة وغيرها تثبت لنا نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا شبهة فيه .

٩ - عمره ووفاته وفهره .

اتفقت المصادر الكثيرة المعتمدة على أن عمر يعقوب يوم دخل مصر ، كان مائة وثلاثين سنة ، وعلى أنه أقام بها عند ابنه يوسف سبع عشرة سنة ، فيكون جميع عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة .

ولما حضرته الوفاة ، جمع بنيه ، وقال : ما تعبدون من بعمدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ثم قال : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تتخوفوا إلا وأنتم مسلمون .

وكان قد أوصى أن يحمل جسده من مصر إلى فلسطين حتى يدفن عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم ، فلما مات أمر يوسف الأطباء فحفظوه وطيبوه ، ثم استأذن ملك مصر في الخروج مع أبيه ، فأذن له ، وخرج معه كبار مصر وشيوخها ، فلما وصلوا إلى « حبرون » دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن حخز الحثي .

وظاهر الروايات التاريخية في سرد قصة وفاة يعقوب أنها كانت بأرض « جاسان » أو جاشان وهي التي طلب يوسف إلى فرعون أن يسكنهم إياها عند ما نزل يعقوب بأولاده مصر في عهد يوسف ، وهي في شمال بلبيس ، من ملادها « سخط الحسنة » الآن ، ويقولون إنها نواحي « الصالحية » .

وذكر بعضهم أن وفاة يعقوب وافقت وفاة أخيه اليمين ، فدفنا في يوم واحد ، وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً وأربعين سنة ، لأنهما ولدا في بطن واحد ، كما أسلفنا ذكره فيما تقدم .

فذكرى يس

الفقر والكفاف

الفقر مذموم وكفاف العيش محمود ، فمن أصيب بالفقر فعليه أن يطلب السعة باجمال ، وأن يتحرى طرقها لعلم ، فإن لكل حالة طريقاً لموصل إليها ، فإن ظلمت بالتمني أخطأته ولا كرامة . اعتاد الناس أن يصموا بالفقر كل من لا مال له ، حتى من يعمل ويحصل قوته ، وليس الأمر كذلك ، فالتقير هو الذي سدت في وجهه طرق الكسب ، وأعييت حيله عن وجدان القوت . هذا هو حد الفقير ، وهذه الحال هي التي تزد ويطلب إلى الإنسان أن يعمل للخروج منها .

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

لعل قراء مجلة الأزهر على ذكر من تلك المحوث التي كسنا نظامهم بها متعلقة بالوقف وأحكامه وشروطه وحدوده الموضحة له ، وكيف أنه نظام اجتماعي قبل أن يكون نظاما شرعيا . وكسنا قد عرضنا لبحوث أخرى طال بها العهد في معالجتها والكشف عنها ، حتى سلطنا جزءا غير قليل من الوقت في الانصاء بها ، مسايرة لتتبعه عن القراء ، والانتقال بهم من موضوع الى موضوع حتى لا يملوا موضوعا واحدا يتعاقب فيه التحليل ، وتلاحق فيه البحوث .

وقد قامت في خلال ذلك الانتقال صيحة مفتعلة من جانب فريق يعمل جاهدا على طمس معالم الوقف والتعفية على آثاره الاجتماعية ، استجابة لمنفعة زائلة وشبهات قاتلة ، مما استتبع أن يقوم العلماء وانقصاء وأهل الرأي بدحض تلك الشبهات ، والدلالة على موطن الداء ووصف الدواء .

وقد اتفق أن لجنة أُنشئت في وزارة الحقانية تتألف من أثبات في الفقه الاسلامي وأثبات في القانون ، وعلى رأسها فضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، لتضع قانونا موضوعيا يكفل سد حاجة الناس ، وقطع أسباب شكائهم قدر المستطاع بعد أن استفاضت الشكوى من تصرفات نظار الاوقاف ، وحفمت المحاكم الشرعية الكلية بمواد التصرفات الخاصة بمزل النظر . وقد أسفرت تلك الشكوى عن بقاء ذلك الداء العياذ بوقف عقبة كأداء في طريق الإصلاح ، ويجعل نوايا الواقفين ضرها من العبث المطبق ، ويجعل توزيع الانصاء في الوقف وتنفيذ شروطهم مستعصيا إن لم يكن مستحيلا .

والآن نحاول أن نبسط في شيء غير يسير ، وشروعية الوقف وآثاره الاجتماعية المترتبة عليه بعد أن صحت عزيمة لجنة وزارة الحقانية على أن تستأنف عملها مبتدئة بالمسم الثاني من القانون الموضوعي المتعلق بالوقف وتنظيمه تنظيما يحكم حقائقه ، ويقطع أسباب الشكوى من عدم إيصال الحقوق الى ذويها . وقد قطعت اللجنة مرحلتها الأولى متعلقة بأحكام الإرث ، متوخية في مراجعتها وبحوثها كثيرا من مذاهب الأئمة الأحرار .

فما لاسراء فيه أن لا خلاف إطلاقا بين الأئمة وضوان الله عليهم في أن الوقف بنوعيه مشروع ، ضرورة أنه عمل من أعمال البر بالإنسانية ومن أظهر مظاهر وجوه الخير ، ووسيلة من وسائل القربى الى الله سبحانه ونوال منوبته ، فهو يدرج في كثير من الآيات التي حثت على عمل الخير والتزود به لحياة الجزاء ، كقوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » . وقوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » .

وقد دلت على مشروعيتها أيضا الأحاديث الكثيرة والآثار المتصاعدة ، واستمرار عمل الأمة عليه من لدن رسول الأعظم الى يومنا هذا من غير أن يعترض ذلك معترض أو يسكره جاحد . ولا شك أنه إجماع عملي على مشروعيتها . والاجماع حجة كما لا يخفى .

ولا أدل على مشروعيتها من أنه نظام اجتماعي صالح يسد المقل ، وتبرره مصلحة البشر ، ويقضى به قانون التعاون في هذه الحياة حتى يقطع النظر عن وروده بلسان الشريعة ، نظرا لما يلبسنا عن هذا التصرف من مفعنين متلازمين : منفعة الواقف بنيله المثوبة من الله على تصرفه ، ومنفعة الموقوف عليه بما يصل الى يديه من غلة تلك الجبوس من بقاء العين مؤيدة الوجود قائمة الغلة لا تقبل تلفا ولا ضياعا .

ويدهى أن منفعة الموقوف عليه كالفقراء وطلبة العلم وذوي الخصاصة من أظهر الظواهر على أن نظام الوقف نظام اجتماعي يحمل في أطوائه البر بالإنسانية والحذب عليها ، ولا مساك بها أن يتخاذل بنيانها وتوهي أسبابها ، قال زيد بن ثابت رضي الله عنه فيما حكاه صاحب كتاب أنفع الوسائل : « لم أر خيرا للميت ولا لاحي من تسلم الجبوس الموقوفة » . فأما الميت فيجبري أجرها عليه . وأما الحي فتحبس عليه ينتفع بغلتها ، ويدفع بها عايدات الفقر ، فلا توهب ولا تورث ، ولا يمكن له في استهلاكها .

وغنى عن البيان أن الأم غير الاسلامية أدركت ما في نظام الوقف من مزايا قيمة وأسرار سامية ، فعنى كثير منها بوضع نصوص في قوانين بلادها تنشيء نظاما يجرى عليه توزيع الصدقات على الفقراء منهم وذوي الخصاصة ، وهو وإن لم يكن بذاته نظام وقف ولكنه يشبه نظام الوقف عندما في معناه وأغراضه وآثاره الاجتماعية : من صرف الربح في وجوه البر والخير ، وتجري أفضل وجوه المصلحة في ذلك الصرف ، والإبقاء على العين ، بما يكفل لها الخلود وعدم التلاشي . وهذا من غير شك يشمل الوقف الأهلي في حقيقة وإن لم يبد كذلك لأول نظرة ، ضرورة أن الشأن في الوقف الأهلي جهة بر لا تنقطع ، لما تواضع عليه فقهاء الوقف أن هذا التصرف إذا لم ينته الى جهة بر دائم وقع غير صحيح .

فنظام الوقف في الشريعة الاسلامية الفراء أوفى بحاجة البشر ، وأباع الى مصالحهم وسد كفايتهم من كل نظام آخر يماثله في الأم غير الاسلامية ، نظرا الى مساوية أحكامه ، ونساول شرائطه المحققة له لأغراضه المترتبة عليه .

يبقى بعد ذلك أن الفقهاء فرقوا بين الوقف والوصية ، وإن كانوا من ناحية أخرى أباوا ما ينعقد به الوقف وما لا يعقد ، وما يصح أن يوقف عليه وما لا يصح . فذهب غير واحد منهم الى أن الوقف في المرض والوصية في درجة واحدة ، على معنى أنه لو قال الواقف في إثمهاد وقته : وقفت أرضي بجهة كذا على قوم وكانت قيمتها مثلا أربعة آلاف جنيه ونصف ، وأوصى بوصايا

لآخرين قدرها أربعة آلاف ونصف جنيه ، وثالث التركة ألف وخمسة ، ثم مات الموصي ولم تجز الورثة تلك الوصية ، قسم الثالث بين قيمة الأرض الموقوفة وبين الوصايا خمسة تناسبية ، فما أصاب الوصية منه أعطيت اليه وما أصاب قيمة الأرض جعل مقابلة من الموقوف وهو نصف الأرض هنا وقما والباقي للورثة . وهذا غير العتق في المرض كما هو ظاهر فإن العتق أقوى من الوصية ، فإذا اجتمعا قدم عليها ، فإن بقي شيء زائد صرف في الوصية وإلا سقطت .

ثم إنهم بعد ذلك عرضوا لما يدخل في الوقف تبعاً لوقف العقار ، وفصلوا في ذلك تفصيلاً له مميزاته وفوارقه ، فقالوا : العقار : هو كل أرض سواء كانت تلك الأرض عليها بناء أم لا فيشمل ذلك الأراضي المقتضى سواء أكانت معدة للزراعة أم لا ، ويشمل الدور والخوانيت ، وفي هذه الحالة يقع الوقف صحيحاً ، لما تضافرت عليه الأدلة من مشروعية الوقف . ويدخل في وقف العقار تبعاً له بدون التخصيص عليه كل ما يدخل في بيعه وإجارته . فمثلاً إذا وقف الواقف أرضاً دخل ما فيها من البناء والشجر بجميع أنواعه في مدلول ذلك التصرف ، على شريطة أن تلك الأشجار تكون من نوع الأشجار التي تمكن في الأرض الموقوفة لا أكثر من عام . وكذا المسقاة والطريق المؤدية لبعض الجيران إلى مساكنهم ، لأن الأرض لا توقف إلا للاستغلال ، وذلك مستحيل بغير الماء والطريق . فكان من الضروري دخولها تبعاً للأرض الموقوفة بدون نص كما في الاحارة مثلاً . وكذا يدخل الماء والدواليب في وقف الضيعة تبعاً لها وبغيرها كالات التي المنصلة بها اتصال قرار .

ولا يدخل في الأرض ما بها من زرع حين وقفها ، على شريطة أنه لا يدق في الأرض أكثر من سنة ، قطعاً كان الزرع أو قعاً أو شعيراً أو غير ذلك . وكذا الثمر الموجود على الأشجار وقت الوقف سواء أكل كالسفرجل أم لم يؤكل كالورد والياسمين ، بل على الأصح يكون ذلك كله ملكاً لواقف غير تابع للأرض الموقوفة .

والحاصل أن الواقف إذا وقف عقاراً وعليه أشجار فأكثر المحققين من علماء الوقف على أنها تابعة له إذا زاد أجل غرمها عن سنة . أما إذا نقص فالمسألة خلافية . والصحيح أنه يبقى في حيازة الواقف . قال هلال : تكون الثمرة لواقف ، ولا تدخل في الوقف قياساً ، ويلزمه التصديق بها على وجه النذر لا على وجه الوقف استحساناً ، ضرورة أنه إذا قال أرضي موقوفة فقد تكلم بما يوجب التصديق ، فيلزمه التصديق بالثمرة الموجودة . وهذا خلاف الظاهر كما لا يخفى . وقصارى القول أن الفقهاء فرقوا بين ما يصح وقفه تبعاً وبين ما يصح وقفه استقلالاً بطريقة مستفيضة .

ولما كان استقصاء هذا البحث لا يتسع له مقال واحد فقد أرجأنا تفصيل ذلك إلى أعداد مقبلة ، فإلى العدد التالي إن شاء الله .

تقرير بعثة الهند

— ٨ —

رأى « أجماع إسلام » بأمدالا :

تقدم اليانا الأستاذ نيرانج تقرير ورف على أحوال المنبوذين ، فكتبنا منه كثيراً من المعلومات التي أوردناها ، ثم ختم تقريره بالرأى الآتى :

« لقد قابلت الدكتور أميدكار فى يناير الماضى ، وتحدثت إليه ، كما تحدثت الى غيره من مترسمى المنبوذين . وقد ظن بعض أصدقائى أن الدكتور أميدكار ومن معه لا يمكن الاعتماد عليهم ، وأن أعمالهم تدعو الى الشك ، وأنهم قد يطرأون نشاطهم جانباً بمجرد الحصول على بعض الامتيازات من الهندوس . وقال آخرون : إنه رجل حاد يصح الاعتماد عليه ، ولا يمكن أن يتحول عن نيته ، ثم ظنوا أنه قد يمتنع الإسلام فيكون قدوة لغيره .

« أما أنا فقد وصلت الى نتيجة : هى أنه سواء أكان أميدكار وغيره من الزعماء مخلصين للحركة أم غير مخلصين ، فإن تصرفاتهم وتصرفاتهم قد خلقت بين المنبوذين حالا نفسية جديدة ، وأنه يجب علينا أن نلتفت بهذا الجو الجديد ، على نحو ما يعمل الشيخ والمسيحيون ؛ لذلك عرضت الأمر على اللجنة التنفيذية لجمعيتنا ، فاصدرت قراراً يبدء العمل بين المنبوذين . ونحن جادون منذ أن صدر هذا القرار فى تنفيذه .

« أنشأنا مركزاً فى ناهور عاصمة الولايات الوسطى ، وهيأنا له مطبعة ، وأصدرنا جريدة أسبوعية ، وورعنا كثيراً من المذكرات والرسائل ، واستحدثنا عدداً من المنبوذين لنشر الدعاة للإسلام ، واقتنحنا مدارس لأبناء المنبوذين ، يتعلمون فيها لغة الأردو ، ويدرسون مبادئ الإسلام وحياة الرسول عليه السلام ، كما أننا نعين نادياً لشباب المنبوذين على تمثيل رواية يقصد بها الى بيان عظمة الإسلام » .

وقد وردت فى تقرير الأستاذ نيرانج النبذة الآتية :

سلوك المسلمين فى الهند :

« مما يجب الاعتراف به أن جمهور المسلمين فى الهند لم يقدر مسئوليته إزاء المنبوذين حق قدرها ، فإن الزعماء المسلمين لم يعمروا الأمر عناية تذكر ، فى حين أن الأمراء المسلمين يرون الأمر خطراً على مكاتهم ، ويخشون الدعاة الهندوسية ضد هم خشية كبيرة ، أما العلماء الذين يرون رأى

المؤتمر الوطني ، فقد انغمسوا في السياسة انهماساً ألهام عن واجباتهم الدينية ، فكان من نتائج ذلك أن جميعتنا على الرغم مما بذلت من جهود - لم تستطع أن تجمع المال الكافي لهذا العمل العظيم الذي ينتظر الإيجاز ؛ ولكننا دائبون على بذل الجهد عسى أن يدركنا الله بمعونته .
وتعليقاً على سلوك الهندوس نحو المنبوذين ذكر الأستاذ نيراج ما يأتي :

قوى المقاومة :

« غير خاف أن الدكتور أمبدكار - وهو الذي حمل علم الجهاد في حركة تغيير الدين - قد فقد مكانته في أعين قومه ، وبدأ تحولات حركته إلى سكون ؛ ويجدر بنا الآن أن نلقي نظرة شاملة على تلك القوى التي كانت ولا تزال تعمل لمقاومة حركة تغيير الدين ؛ وذلك أن الهندوس قد اتخذوا الخطوات الآتية :

١ - قد استطاعوا اجتذاب بعض الزعماء من المنبوذين لمقاومة الدكتور أمبدكار ، وبذلك خلقوا حزباً قوياً ، من مبادئه عدم تغيير الدين ؛ وأصبحنا بذلك نرى - حتى بين منبوذي المهار ، وم البيشة التي ينتمى إليها أمبدكار - حزينين : أحدهما يقول بالخروج من الديانة الهندوسية ، وثانيهما ينادي بضرورة البقاء فيها .

٢ - قد دفعهم السبيخ إلى الأمل بأولئك الذين يفكرون في تغيير دينهم ، إذ أن السبيخ مأمم إلا هندوس ، ولكنهم موحدون ، حتى إذا ما صمم المنبوذون على ترك دينهم فربما اختاروا السبيخ ؛ وبذلك يكون التغيير اسمياً فقط ، أما بالعمل فانهم لا يزالون هندوساً .

٣ - ينفق الهندوس المال بسخاء في كل مكان ، للمحافظة على المنبوذين والحيلولة بينهم وبين اعتناق دين جديد .

٤ - يعتبر قرار حكومة ترافسكور بإباحة دخول المعابد للمنبوذين خطوة أخرى .

٥ - تعتبر جمعية خدام المنبوذين ، التي أنشأها المستر غاندي وحدة من الوحدات الهامة في هذه المقاومة .

واستطرد الأستاذ نيراج بعد ذلك إلى ذكر الأزهر فقال :

ما يجب على الأزهر أن يقوم به :

« عندما علمت باعتزام الأزهر أن يقوم بالتبليغ بين المنبوذين في الهند ، كنت أشك في إمكان تحقيق الفكرة عملياً ، متأثراً في ذلك بالصعوبة الناشئة من اختلاف اللغة ؛ فإن الهند بلاد شاسعة الأطراف ، متعددة اللغات ؛ وإن المنبوذين أنفسهم يختلفون في لغاتهم اختلافًا جوهرياً تبعاً لاختلاف أمكنة إقامتهم ؛ فضلاً عن ذلك فإن معظم لغاتهم لا يعرفها المسلمون ،

حتى إننا ونحن في الهند نعاني الصعوبات في حملنا لجرد جهلنا بلغات المسبوزين ، وكان يخيّل إلينا أن إخواننا الأزهرين سيعاونون في ذلك صعوبات شتى .

« أما الآن ، فبعد البحث المستفيض ، أدركت أن صعوبة اللغة لن تكون عائقا للأزهر أكثر مما تعوقنا فعلا ، والقارق الوحيد بيننا : هو أنهم سيكونون طارئين على هذه البلاد ، ولن تكون لهم بذلك خبرة بالبلاد وأهلها ، ومع ذلك فمن السهل التغلب على هذه الصعوبة أيضا ، إذ أنهم يستطيعون في البداية أن يركنوا إلى مساعدة بعض الهنديين المسلمين ممن يمكن الاعتماد عليهم ، فإذا استمرت هذه الحال عاما أو بعض عام ، تمكن مندوبو الأزهر من المعلومات والتجارب التي تؤهلهم للاستقلال بالعمل .

« وما دامت البعثات التبشيرية المسيحية - من أوروبا وأمريكا - قد استطاعت أن تفتق لنفسها طريقا في الهند ، فلم لا تستطيع بعثة إسلامية مصرية أن تفتق لنفسها طريقا مماثلة ؟ »
 « لذلك أتوجه بالرجاء إلى الرجال المسؤولين في الأزهر : أن يرسلوا إلى الهند بعثة لتبليغ الدين الاسلامي الحنيف . وليسمح لي الأزهر أن أباوز معه حدود الولاية ، فأذهب إلى القول بأن إرسال هذه البعثة واجب من واجباتنا ، فالتنا نواجه - نحن المسلمين في الهند - صعوبات لا تحصى في المحافظة على كياناتنا ، مع تأدية واجباتنا نحو الاسلام في هذه البلاد ، ونحن لذلك في أمس الحاجة إلى ما يستطيع إخواننا المسلمون - من خارج الهند - أن يقوموا به من أجلنا .

« وإن الأزهر بإرساله بعثة إلى الهند ليقوم بواجب مقدس نص عليه في الكتاب الكريم في قول الله تعالى « ولتكن منكم أمة يدهون إلى الخير ويذرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

كما أن إرسال هذه البعثة سيفد أزور المسلمين الهنديين الذين يقومون بالتبليغ اليوم ، أو يحتمل أن يقوموا به في المستقبل ، وفي ذلك تحقيق لقوله تعالى في مكان آخر : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

« أما جهودنا ، أما مساعدتنا ، فانا نضعها تحت تصرف الأزهر وقتما يشاء » .

هذه هي وجهة النظر التي تقدمت بها جمعية «أنجمن تبليغ الاسلام » بأمالا ، على لسان الأستاذ بهيج بيراج . وقد استفسرنا منه عن المراكز التي يصرح أن يبدأ الأزهر العمل فيها إذا أسفر تقريرنا عن اعترافه القيام بالتبليغ في الهند ، فكان من رأيه أن العمل يجب أن يتركز أولا في الجنوب في إقليم مالابار ، وهو الاقليم الذي بدأت جمعيته فعلا بالعمل فيه .

ولما أن تذاكرنا معه في نفس الشأن ، بحضور السيد محمد إقبال ، ذهب السيد إقبال إلى القول بأن المراكز التي يجوز أن يبدأ العمل فيها هي (سورات) ، و(دكا) ، و(رانجون) ، ولكن الأستاذ

نيرانج ماد فاكه ما ذهب اليه أولا ، من أن الجنوب أولى بالعناية ، وأن إقليم (كيرال) إقليم ينصح فيه العمل برأس مال قليل قدره بمبلغ عشرة آلاف روبية (٧٥٠ جنيتها تقريبا) لإنشاء صناعة « Choir » ، وفي ذلك ما يذكر حركة الاسلام القائمة هناك .

وقد رأينا كذلك أن نلتفع بالاستاذ نيرانج ، بأن نطلب اليه أن يدل برأيه في تقرير أرسله الى الأزهر الأستاذ فصول رحيم المحامي بناجبور ، فكتب إلينا ما يأتي .

ملاحظات على تقرير الأستاذ فضل رحيم :

« لست أرى أنه بعد عن الصواب في قوله بوجود وضع نظام يكفل للمبوذنين التعليم والعمل ، وكذا رفع مستواهم الاجتماعي والاقتصادي ، إذا ما اعتنقوا دين الاسلام .

« قد يكون الأستاذ فضل رحيم عني في كلامه بيئة المبوذنين في إقليمه ، وتسمى (المهار) ، ولكن مع ذلك ، فإن نظريته تنطبق على بعض المبوذنين في أماكن أخرى ، وإياها في الواقع المعضلة . فإذا صمم جمهور من المبوذنين على أن يعتنقوا الاسلام أو أي دين آخر (بالجملة) ، فقد لا تستطيع دولة أو حكومة ذات موارد ، أن تواجه مستلزمات هذا الموقف إلا بالتدريج ، وعلى نظام (القطاعي) .

« حتى أولئك السيخ الذين جموا فعلا ٧ لاک (٥٢٥٠٠ جنية) ، ويستطيعون أن يضاعفوها في غير إبطاء — إذ أن مال التبشير ميسور لديهم ، وحاكم بتيالا يعني بتحويل المبوذنين الى ديانتهم — لا يستطيعون مواجهة هذه الحال ، وكذلك جمعيات التبشير المسيحية ، بمصادرها المالية المروفة .

« وليس معنى ذلك أنه يجب علينا أن نصرف النظر عن المسئوليات المالية التي تنجم عن إسلام المبوذنين ، فمن المحتمل أن من يسلم من أصحاب الحرف اليدوية يكون جراؤه المقاطعة من أصحاب الأعمال الهندوس ، ومن يسلم من الزراع الذين يعملون في مزارع الهندوس يكون جراؤه الطرد من المزرعة ، ومن يسلم ممن يسكنون مساكن الهندوس يطرد من مسكنه ، ومن يسلم ممن يرعى الغنم في أرض الهندوس يحرم من الرعي فيها ، الى غير ذلك من وسائل العنف التي يبتكرها الهندوس ليلجئوا هذه المخلوقات للضعيفة الى العودة الى الخطيرة الهندوسية ، وقد وقعت تحت أنظارنا بالفعل أمثلة من هذه المآسى .

« لذلك يجب أن تكون بين أيدينا أموال للاتفاق منها في الأوجه الآتية :

- ١ — إنشاء صناعات يعيش عليها بعض الذين يعتنقون الاسلام .
- ٢ — إعداد العدة لتثقيف أبنائهم بالتعليم الأولى على الأقل .

٣ — تزويد المسلمين الجدد بالتعاليم الأولية في الاسلام وأصوله ، وتعليمهم الصلاة وما إليها .

٤ — مساعدة المدينين منهم وغيرهم ممن يحتاجون الى المساعدة .

احتمالات النجاح :

ثم قال : « علمت أن الجرائد المصرية والسورية وغيرها من جرائد العالم الاسلامي خارج الهند ، قد نشرت مقالات مبالغاً فيها على حركة المبوذيين ، وأنها ذهبت الى القول بأنهم لم يتصرفوا بتصميمهم على ترك الديانة الهندوسية ، بل تعدوه الى التعميم على اعتناق الاسلام » وقد علمت أن بعض الجرائد ذهب الى حد القول بأن عدداً هائلاً منهم ، قد اعتنق الاسلام فعلاً ، حتى في بلاد الهند نفسها . حرت بعض الجرائد الاسلامية التي تصدر في أمكنة بعيدة عن موطن الحركة ، على أن تنشر أخطاء وردت عليها من مراسلين مهملين ، فكان لتلك الأنباء في أذهان مسلمي الهند مثلما كان لأخطاء الصحف الخارجية في أذهان المسلمين الآخرين ، ولذلك لا نرى موضماً للهوم الصحافة المصرية وغيرها ، على نشر الأخطاء غير الصحيحة .

وعلى أن الأمر من الدقة بحيث يجب علينا أن نلتصم بالحقيقة في تلقى مثل هذه الأنباء ، وأن نميز بين الغث والسمين ، وذلك تجنباً لبعض الأخطاء المضلّة لمن لاحذر عندهم . مثال ذلك :

١ - يتخذ بعض الهندوس أسماء إسلامية مستعارة ، ويكتبون لبعض الصحف الاسلامية قائلين : إن عدد كذا من المبوذيين في إقليم كذا قد اعتنقوا الاسلام يوم كذا . وتشر الصحف ، على رءائها وعدم شكها في المراسل ، هذه الأنباء بعناوين ضخمة ، ثم تتناقلها الصحف بعضها عن بعض ، وبعد أن تهلل الصحف وتكبر لهذه الأنباء ، تبهر لها الصحف الهندوسية فتشتر تكذيباً قاطعاً لكل ما نشرته الصحف الاسلامية ، ثم تعلق عليها في حار « انظروا الى هؤلاء المسلمين والمعتريين التي ينشرونها ، أيتنن أنهم يستطيعون إغراء المبوذيين على اعتناق دين يستسيغ هذه الأكاذيب ؟ » وتكون نتيجة ذلك - أن يفقد المسلمون مكاتبتهم في أعين السامعين من المبوذيين ، في حين يأتي القراء من المسلمين تصديق مثل هذه الاخبار ، وقد تزعم ثقتهم في أعمال رجال التبليغ ، فيصيب الاسلام بذلك ما يصيبه من أضرار .

٢ — يظن بعض الأغبياء من المسلمين أنهم يستخدمون التبليغ ، ويخلقون التماس بين المسلمين بنشر أخبار من أمثال هذه المبالغات ؛ فينعمون بمبالغاتهم . ولكن هؤلاء من ينطبق عليهم المثل لقائل « عدو عاقل خير من صديق جاهل » .

٣ — يوجد بين الطبقات الاسلامية من يمشون على التبشير والدعوة ، ولكن بغير

ضمير حي، فهم يفكرون وقائع قد تكون حقيقية، كما قد تكون موهومة، وقد تكون مجرد فكرة عديم لما تخرج الى حيز التنفيذ، ولا تتم لهم في ذلك إلا أن يصلوا الجاهير ليصلوا الى ما يريدون من مال.

٤ — كما يوجد بيننا قوم، ومن كانوا متصفين بالشرف والجسد في عملهم، إلا أنهم لا يعنون بالنظر الى الحوادث نظرة الناقد الخبير، ولذلك تكون استنتاجاتهم في غير محلها.

٥ — على أن الحركة واسعة النطاق كثيرة التعقيد، وقد ظهر على المسرح عدد عظيم من الممثلين يختلفون اختلافاً كبيراً فيما يحفرهم للعمل، ويتصرفون بن أن وآخر تصرفات متنافرة، وأكثر من ذلك أن المسبوزين يعيشون في مناطق شاسعة الأطراف، وتختلف ظروفهم باختلاف تلك الأقاليم، بحيث يتمذر — حتى على الرجل الحصيف الباه، والناقد المسئول — أن يمحس الحقائق، ويصل الى الاستنتاجات الصحيحة.

فاذا عرضنا كل ذلك تلخص الموقف فيما يلي

١ — لقد وصل كثير من المسبوزين الى عقد مؤتمرات قرروا فيها ترك الديانة الهندوسية؛ ولكن ليس معنى هذا أنه قد حصل في كل مكان، ولا بين المسبوزين جميعاً في مكان واحد.

٢ — تردد سدى هذه القرارات في كل مكان تقريباً، ولكن بين الطبقات الناهية من المسبوزين، وبقيت جماهير لا تعرف من هذه الحركة شيئاً. على أن الدوافع التي حدثت بأصحاب هذه القرارات للقيام بما أقدموا عليه، وكذا أولئك الذين ردوا صداها، لم تكن دينية ولا روحية، بل كانت مدنية بحتاً.

٣ — صدر مثل هذه القرارات في بعض الأمكنة في الولايات المتوسطة.

٤ — كان بعض الزعماء، وخاصة الدكتور أمبدكار، يقولون بضرورة الاحتفاظ برأيهم في الدين الذي يقع عليه اختيارهم وقتنا ما، ويتلخص رأيهم في أنه يجب عليهم أولاً أن يقتنعوا الجماهير بترك الديانة الهندوسية، فإذا تم لهم ذلك — ولن يتم إلا بعد وقت طويل — عقدوا مؤتمراً من جميع الزعماء، نوابين عن جميع المسبوزين، لاختيار دين من أربعة أديان: الاسلام، المسيحية، البوذية، السيخ، بكثرة الأصوات. ولكن الدكتور أمبدكار كان يفاوض السيخ سرا، كما ذكرنا، ولذلك قد تكون فكرة عقد المؤتمر خدعة غسب.

٥ — كان هؤلاء الزعماء يقولون: إنهم يرغبون في دين يكفل لهم الحرية والإخاء والمساواة، فظن قومنا أنهم يريدون بذلك الدين الاسلامي، ولو لم يذكره صراحة، وهذا استنتاج من جانبي قد أكون غلطاً، وقد أكون مصيباً فيه.

يستنتج من كل ذلك أن نجاحنا لا يتوقف على إخلاص الزعماء وحن عقائدهم — وكلهم

من رجال السياسة — ولكنه يتوقف على نفسية الجماهير التي ألهم الرعاع أذهانهم بكرة تغيير الدين ، وذلك بعد أن دللوا هؤلاء على سوء حالهم في ظل الديانة الهندوسية .

«ومثل الرعاع فيما صنعوا ، مثل المشعوذ الذي استطاع بتعاوذه أن يستحق الشياطين ، ولكنه جهل التعويذة التي يصرفهم بها ، فقد واجهوا هذه الجماهير بضرورة تغيير الدين ، وهم لا يستطيعون بعد ذلك أن يطالبوا بالبقاء فيه ، لأنهم إن فعلوا ذلك ، فقدوا ثقة الجماهير بهم . لقد وضع الرعاع الحديد في النار فاحمر ، ولم يبق عليا إلا أن نطرقه وهو في حال الاحمرار ، فإذا تقاضنا عن العمل الآن ، برد الحديد ثم صاحت الفرصة ، ونحتم علينا أن نعاني وصعته في النار مرة جديدة .

« هذا ما طفقت أنادي به المسلمين في الهند عاما كاملا ، ولكن قليلا منهم من استمع الى هذا النداء » . اهـ

رأى البعثة في للنبوذيين .

هذا ملخص وجيز لحال النبوذيين اليوم نخرج منه بالسائج الآتية :
يختلف النبوذون في طباعهم ، وعاداتهم ، ولغاتهم ، ودرجة انتشار التعليم الاولي بينهم ، باختلاف الاقليم الذي يعيشون فيه ، كما تختلف الطرق الواجب اتباعها لتتوهم في مبادئ الدين الاسلامي ، وكذلك تختلف درجات استعدادهم لاعتناق الاسلام .

وخير طريق لمعالجة هذه الحال : هي أن تعتبر كل فئة من النبوذيين قائمة بذاتها ، وأن تبحث حالها الخاصة ، في ضوء المعلومات والمشاهدات التي دونها عنها ، وهي وإن كانت معلومات أولية بحثا ، إلا أن البعثة لديها من المستندات والمصادر ما تستطيع به أن تتوسع في المعلومات ؛ ولكنها لا ترى ضرورة لذلك ، إلا إذا استقر رأي الأحرار على العمل في إقليم خاص ، وذلك توفيراً لجهود قد لا ندهو الحاجة إليها .

والبعثة تشارك الأستاذ بيراني رأيه في ضرورة الابتداء بالحلوث للأسباب الآتية :

في ترافا نكور :

١ — لقد بدأ العمل فعلا في هذا الاقليم تحت رعاية جمعية « أنجومات تبليغ الاسلام » بامبالا .

٢ — ارتفاع نسبة التعليم الاولي بين طبقات النبوذيين فيها ، إذ تبلغ النسبة ١٤٩ في الألف ، وهي أكبر نسبة عرفت بين النبوذيين في كافة أنحاء الهند .

- ٣ — قلة المال المطلوب لهذا العمل ؛ إذ ذكر الاستاذ نيرانج في تقريره أن الصناعة التي يمكن إنشاؤها في هذا الاقليم ، لا تتطلب أكثر من ٧٥٠ جنياً مصرياً تقريباً .
- ٤ — ولا يضرنا قرار « راجا ترافسكور » بفتح المعابد للمنبوذين ، لأن هذا القرار أصبح عديم الأثر ، لما لاقاه من تعنت من طبقات الهندوس العليا .
- كما تعارك البعثة السيد محمد إقبال رآيه في ضرورة إنشاء مراكز أحر للتبليغ في سورات ، ودكا ، ودانجون ، للاعتبارات الآتية :

في سورات :

- ١ — تقع سورات في إقليم بوهباي ، الذي بدأت فيه حركة تغيير الدين ، على يدى الدكتور أمبدكار ، وقد نهت هذه الحركة شعور الجماهير تخلقت فيهم الاستعداد .
- ٢ — يعتبر إسلام المنبوذين في سورات من الأمور الهينة نسبياً ، نظراً الى أن محور الحياة العامة فيها ، أقرب الى الصناعة منه الى الزراعة ؛ مما يسهل معه على من يسلم من المنبوذين ألا يستهدف الى الأخطار التي يستهدف لها الزراع منهم ؛ إذ أن معظم أصحاب المصانع من (البارسى) لا من (الهندوس) .

في دكا ، ودانجون :

يصلح هذان الإقليمان للدعوة الإسلامية ، بصرف النظر عن شئون المنبوذين ، نظراً لانتشار الديانات القبلية فيهما ؛ فكل قبيلة دينها ، وهما بذلك تربة خصبة لتبليغ الدين الإسلامى الذى لا يلبث أن يلتصق على العقائد التي لا يدعمها يقين ، ولا تتركز تعاليمها في كتب معترف بها ، فضلاً عن أن الديانات القبلية — على وجه العموم — عديمة العصبية ، لا تربط أتباعها رابطة كالتى تربط الهندوس مثلاً ، يزداد عن ذلك أن الظروف السياسية لا تلعب بينهم دوراً ذا شأن ، كما هي الحال في غير هذين الإقليمين .

في فاجبور :

- وتعتبر منطقة الولايات الوسطى كذلك صالحة للعمل للاعتبارات الآتية :
- وحد في فاجبور (عاصمة الولايات الوسطى) حركات ثلاث لتبليغ الإسلام بين المنبوذين :
- ١ — حركة الاستاذ « فضل رحيم » وهى حركة يمكن أن تؤتى ثمرة طيبة ، إذا تعهدتها يد أفدر على ظروف العمل .

٢ — حركة الطبيب « أسرار أحمد » ؛ وهو شاب يتوقد غيرة وقد استطاع أن يقنع ندوة العلماء بضرورة المساهمة في العمل ؛ وقد ساهمت فيه فعلا .

٣ — حركة السيد « فضل الحق » ، وله مدرسة لائناء المنبوذين .
وجميع هؤلاء على صلة بزعماء المنبوذين ، سواء من نجح منهم في الانتخابات ، ومن لم يتجح .

في حيدر آباد :

وتعتبر إمارة حيدر آباد كذلك صالحة للعمل . وفيها عاملان عظيمان :

١ — « نواب محمد يار جنج » من كبار الأعيان ، وقد أسلم على يده كثيرون ؛ وعمله منظم وله مستقبل .

٢ — الأستاذ « محمود فادرمان » ، وهو يلاق نجاحا في كل مكان .

في بومباي :

أما منطقة مدينة بومباي فتقوم فيها « جمعية أنجومان تبليغ الاسلام » ببومباي ؛ وهي جمعية يرعاها الحاج « قاسم علي شيراز بهاي » ، ولكن أمورها الادارية والمالية في يد الأستاذ « محمد ركريا منيار » ؛ وهو رجل نشيط كثير الحركة ، إلا أن له خصوما في التبليغ والسياسة مما لا يحسن معه أن يكون واسطة الاتصال في هذا الاقليم ؛ وحبذا لو صرف النظر عن بومباي الآن .

هذه هي حال التبليغ كما هي عليه اليوم ، وقد ذكرنا أهم الشخصيات القائمة بالعمل ، تاركين في هذا الامام جماعة الاحمدية اللاهوتية الذين يعمنون بالدعوة في خارج الهند ، وجماعة الشيعة (مدرسة الواعظين) الذين يركزون نشاطهم في إفريقيا الجنوبية .

وفي رأينا أن الحركة — لو تركت على ما هي عليه الآن — مكفولة السير الى الامام ، لكن ببطء محزن ، فإذا ما حفرها حافر خارجي ، كانت عظيمة النجاح ، ولا سيما إذا اتجهت البية الى توحيد النظم ، وتركيز العمل ؛ بإنشاء إدارة مركزية تكون حلقة الاتصال بين هذه الهيئات .

ما يخص مقترحات اللجنة :

على ضوء المعلومات التي اوردناها في هذا التقرير ، نستطيع اللجنة ان تقترح ما يأتي .

أولاً : لنشر الثقافة الإسلامية بالهند :

(أ) الاتصال بالهيئات الآتية :

- ١ — حكومة حيدرآباد : بشأن إنشاء كرسى للغة الأردية بالأزهر . والمساهمة في مشروع ترجمة معاني القرآن .
- ٢ — حكومة بهو بال : بشأن إيفاد مبعوثين مصريين أزهريين الى بهو بال ، وموافقة السير روس مسعود وزير المعارف بأول جزء يفسر من القرآن الكريم .
- ٣ — حكومة رامبور : بشأن إيفاد أحد خريجي الأزهر الى المدرسة الدينية هناك .
- ٤ — حكومة ساوالبور : بشأن استعداد الأزهر للمساهمة في النهضة العربية الإسلامية بالجامعة العباسية .
- ٥ — جمعية أنجلمان حماية الإسلام بلاهور : لوضع مناهج دينية لكلية البنات .
- ٦ — جامعة عليكرة : بشأن إيفاد مدرسين أزهريين للجامعة ، ووضع مناهج لشعبة العلوم الدينية بها .
- ٧ — الجامعة الملكية بدلهي : بشأن إيفاد مبعوث أو أكثر الى الجامعة في حدود ما عرضته .
- ٨ — الدكتور محمد حسين بدهرادون : للاتفاق على وضع منهاج يحقق فكرته التي يرمى بها الى إعداد طائفة من طلابه للالتحاق بكلية أصول الدين رأساً .
- ٩ — السيد سليمان الندوي : بشأن استطلاع رأيه فيما أشار إليه في حديثه عن مجلة الأزهر ودعوته لتحريرها .

(ب) تنظيم بعثات الهند الى الجامعة الأزهرية .

- (ج) تنظيم استقبال القادمين الى مصر والمابين بها ، من عظماء المسلمين في الهند ، ودعوة بعضهم لإلقاء المحاضرات ، مع العمل على منحهم درجة العالمية الفخرية .
- (د) دعوة بعض عظماء الهند لحضور العيد الآتلي للأزهر .
- (هـ) الارشاد الى أحسن الكتب لتعليم اللغة العربية .
- (و) إرسال مناهج الأزهر للجامعات والمؤسسات العلمية الإسلامية .
- (ز) إرسال « مجلة الأزهر » الى المدارس والجمعيات والشخصيات البارزة .

ثانياً : عن شئون النبوذيين :

- (١) في حالة ما إذا رأى الأزهر أن يقوم بعمل مباشر ، فاما تقترح إنشاء مراكر للثقافة والتبليغ (وفق المشروع المرافق) في الجهات الآتية :

- ١ — مركز في إقليم كيرال في الجنوب الغربي للهند .
- ٢ — مركز في إقليم سورات بمقاطعة بومباي .
- ٣ — مركز في إقليم دكا في البنغال الشرقية .
- ٤ — مركز في إقليم رانجوان في برما .
- ٥ — مركز في إقليم ناجبور في الولايات الوسطى .

ويستحسن في هذه الحال الاتصال بالاستاذ « غلام بييج بيرانيج » للاتفاق معه على إنشاء هذه المراكز ، كما يستحسن ، في حال التوسع في العمل ، أن تنشأ إدارة مركزية في لاهور تكون حلقة الاتصال بين هذه المراكز بعضها وبعض ، ثم بينها وبين الأزهر .

(ب) في حالة ما إذا رأى الأزهر أن يتفادى ما يحتمل أن يقوم من الصعوبات ، إذا اعترق إرسال البعثات باسم التبليغ ، فالبعثة ترى عندئذ أن يوقد الأزهر الى الهند عددا من رجاله لشعر الثقافة الاسلامية ، مع تكليفهم الاتصال بجمعيات التبليغ الحالية للتعاون معها .

على أن يقوم الأزهر بما يأتي :

- ١ — قبول خمسة من أبناء المنبوذين — الحاصلين على شهادة الماتريك — بالأزهر لأتمام علومهم والنخوص في الوعظ والارشاد .
 - ٢ — الاتفاق مع ندوة العلماء بلكنو ، على قبول عشرين من أبناء المنبوذين باسم الأزهر لأتمام تعليمهم الديني بها .
 - ٣ — إعانة الجمعية الاسلامية بناجبور ، مقابل افتتاحها فصولا جديدة لأبناء المنبوذين .
 - ٤ — إعانة « جمعية أنجمان تبليغ الاسلام » بامبالا ، على شريطة أن يخصص المال لتبليغ الاسلام بين المنبوذين في إقليم كيرال .
- والله ولي التوفيق

الدرر الفاخرة بماثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة :

هذا سفر يقع في نحو ٢٥٠ صفحة غير الفهرستات والمعاجم الملحقة به المبينة لمواضيعه وتراجيم الاعلام الواردة به ، وأما كن البقاع المذكورة فيه والقبائل والصور ونوادير الكتب الخطية . ألفه الاديب النابغة صاحب السمو السيد عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة المالكة بالمغرب الأقصى ، وطبع على نفقة جلالة سلطانه .

موضوع هذا الكتاب ذكر ماثر الملوك العلويين بفاس كما يدل عليه اسمه . بدأه بتاريخ السلطان الرشيد المولود سنة ١٠٤٠ بسلماسة والمتوفى سنة ١٠٨٢ ويقتفى بتاريخ جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف القائم بالأمر بمرا كش الآن . وقد أفاض في تواريخ هؤلاء السلاطين وأتى على خطوطهم وعلى صور كثير منهم . لجأه أو في كتاب لتاريخهم . فنشكر لسمو مؤلفه ونثنى على همته ، أكثر الله في الأمراء الشرقيين من أمثاله .

تقويم الهلال :

تصدر مجلة الهلال في كل سنة تقويعاً حافلاً بحوادث العام المنصرم وصوره ، حتى ليصادف القارئ في الصفحة الواحدة منه صوراً متعددة في غاية الالتقان . فمن يقرأ هذا التقويم ير كل ماحدث في العام من الحوادث وما يقتضى الكلام عنها من الصور فيكون كأنه يشاهد شريطاً سنائياً يعرض عليه كل ما بهمه أن يذكره وأن يراه بعينه . ولقد تصفحناه قبل أن نكتب عنه هذه الكلمة فوقع نظرنا على صفحة عنوانها ضيوف مصر ، فنامناها فإذا بها قد آتت على كبار من زاروا بلادنا في السنة الماضية وهم سلطان زنجبار وسلطان البهرة وسلطان كاتوا والامير سعود والزعيم الهندية ثريفه حامد على والسيد عبد الرحيم ماسوتتين ، وتحث كل منهم نبذة تتعلق به ، وهكذا لا تفتي بيمررك الى صفحة من صفحاته حتى تجد فيه منظراً حياً تحب أن تحتفظ به لتعود اليه وقت فراغك .

فنشكر لدار الهلال هذه الخدمة الأدبية ، ونرجو لها دوام الترقى .

كلية الشريعة الاسلامية :

أهدانا حضرات طلبة كلية الشريعة الاسلامية بكراسة حايت باسم حضرة صاحب الجلالة الملك ، ضمنوها مطالب لهم رفعوها لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام ليري وأيه العالي فيها . فن مطالبهم : أن تعالج مشكلة المدة الدراسية حتى يبرح الازهرى معهده وما زال لديه فتوة الشباب ونشاط الصبا . ويكون هذا العلاج ناجعاً بالوسائل الآتية :

- ١ — أن تجمل مدة الدراسة في الكلية ثلاث سنوات .
- ٢ — ومدة تخصص المهنة سنة واحدة .
- ٣ — ومدة تخصص القضاء الشرعي سنة واحدة .
- ٤ — ومدة تخصص المادة أربع سنوات بدل ست .
- ٥ — وأن تقسم شعبة التخصص في مادتي الفقه والاصول الى شعبتين :
الشعبة الاولى — يدرس فيها الفقه مع مقارنة المذاهب وتحديد موضع المقارنة .
الشعبة الثانية — تدرس فيها الاصول مع تاريخ التشريع الاسلامي .
- ٦ — إنشاء شعبة للتخصص في مادتي التفسير والحديث .
- ٧ — تخفيض عدد الحصص في أقسام تخصص المادة .
- ٨ — عدد طلاب تخصص المادة يكون نسبيا مع تعميم المكافأة وزيادتها .
- ٩ — صرف المصادر العلمية التي لاغنى عنها .
- ١٠ — إنشاء مجلة فقهية للكلية .
- ١١ — تحقيق فكرة الاتصال العلمي بين كليتي الشريعة والحقوق .
- ١٢ — جواز المأصول على معادلة الحقوق المصرية لمجى تخصص القضاء الشرعي .
- ١٣ — تخفيض درجات الامتحان بجعل الحسنيين في المائة ٤٠ لكل علم و٦٠ بالنسبة للمجموع و ٥٠ بالنسبة لكل علم تقسم تخصص المادة ، والمباح للراشدين بحق دخول الدور الثاني .

وقد توسعوا في بيان حقية مطالبهم وانطباقها على الاصول التعليمية الجامعية .
ولسنا نشك في أن حضرة صاحب الفصيلة لاسناد الامام سيوطي في طلباتهم بما جبل عليه
من العطف على آبائه ، وحبهم لهم كل ما يرقى من شئونهم وينمى من مواهبهم .

مفكرة الأمير :

اعتاد حضرة العامل المنشط عباس افندي عبد الرحمن أن يصدر في كل عام مفكرة تحت
هذا العنوان يبدع في صنعها بقدر ما تسمح له به وسائل الطباعة والجلد ، وقد تدرج
في رقيتها الى حد أن ضاهات أمنائها بم يعمل في أوروبا ، فنشكر له اهتمامه بترقية فن الطباعة
ونرجو له المزيد من التقدم والنجاح .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها

في النفس البشرية

- ١١ -

مقومات التكافل العالمي

كانت الحالة الاجتماعية في العالم قبل الاسلام ، أن كل أمة تعيش على حساب نفسها ، منقطعة الصلات بكل أمم الأرض ، إلا ما تجمعها بها محالفة دفاعية أو دفاعية هجومية لمصلحة الطرفين المادية ، ولم ينشأ الشعور بوجود وجود تكافل عام بين جميع الأمم إلا في القرن التاسع عشر ، حيث كشت فيه بحوث قيمة ، ونشرت له دعوة مؤثرة .

كانت الأمم قبل هذا التاريخ أشبه بالمعسكرات المعبأة ، لا تأمن الغارات المفاجئة لئلا ولا نهارا ، وكان كل فرد منها مهدد الدم إن حدثته نفسه بتجاوز حدود بلده . فلما ازداد العمران ، ونشأت الحاجة الى تبادل المحصولات الأرضية ، والمنتجات الصناعية ، نشأ بحاجتها شعور بضرورة احتمال الأجانب في حدود هذا التبادل . ومع هذا فكان المتغربون للعسادات لا يستطيعون تجاوز مناطق معينة من التخوم المتعاورة أو الشواطئ البحرية ، فإذا آبوا فلا يأمنون على أنفسهم من الغارات البرية والبحرية ، فكانوا يتخذون لذلك أعباءهم الحربية .

كان العالم كله الى ذلك الحين متأثرا بالعوامل المادية ، ولم تكن قد ولدت بعد عاطفة الجامعة الانسانية ، إلا في رءوس بعض أفاض الفلاسفة على نقص في مدلولها . ألم يقل أفلاطون نفسه : إني أجد الله على ثلاث : على أن خلقتني إنسانا ولم يخلقني حيوانا ، وعلى أن جعلني يونانيا ولم يجعلني من جنس آخر ، وعلى أن أوجدني في عصر سقراط ولم يوجدني في عصر غيره ؟ ألا يدل هذا على أن توهم الأجاس السمو على غيرها كان قويا حتى في عقول الفلاسفة المبرزين ؟ ودعوى السمو تقتضي التميز في الحقوق ، وليس هذا من المدل المطلق في شيء . ومثل هذه الأوهام لا تدع محلا في الأذهان لفكرة الجامعة الانسانية .

ولكن الاسلام قد أتى بما يزيل هذا الوهم ، فذكر الناس جميعا بأصلهم الأول وهو آدم وحواء ، ومن كان أبوم واحداً وأمهام واحدة فلا محل لأن يذم بعضهم السمو على بعض من ناحية الجنسية . وترك الطريق مفتوحا لمبدأ سام جديد وهو أن التميز الصحيح يكون بما

يكتسبه الإنسان من صفات روحية ، ومزايا عقلية ، وهذا التميز لا يحتاج في تقريره لغير تحققة في شخص معين ، أو أشخاص معينين ، فيصبح حقاً لا مبرية فيه ، ويسارع الناس إلى الاعتراف به للاستمداد منه ، والأخذ عنه ، وهذا كله مؤدى قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

ولدت مع هذا المبدأ الذي أعلنه الإسلام فكرة الجامعة الإنسانية لأول مرة في تاريخ العالم البشرى ، ولم يدعها محصورة في دائرة نظرية بحتة ، كأكثر النظريات الفلسفية التي نقرؤها في أسفارها الصغمة ولا نجد لها أثراً في الخارج ، ولكنه طبقها على العمل ككل مبدأ جديد أتى به لترقية المجموعة الأدمية .

فأول مظهر يراه الباحث من آثار تطبيق الإسلام لهذا المبدأ ، محوه للفروق الجنسية والاقومية واللونية ، ومحوه للتعرات القومية المتوسطة في جميع المسافة التي بين آدم وعبد وما بعده إلى يوم القيامة ، فاصبح لم يعد يستطيع قائل أن يقول في بلاد العرب ، وهي بقودة الفروق القومية : هذا عدنانى وهذا قحطانى ، أو هذا عربى وهذا تركمانى ، ولا هذا أبيض وهذا أسود ، فصار جميع البشر يمترون إلى أب وأم ، إخواناً لا يتميز بعضهم على بعض إلا بالمميزات الأدبية والروحية . وكان أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يعتبرون الاعتزاز بالقبائل إنما يجب الاستغفار منه . جاء في أخبار حمرو بن العاص أنه حدث بينه يوماً وبين المغيرة بن شعبة حوار ، فسبه المغيرة ، فغضب حمرو وقال : يله هصيم يسبني المغيرة ! فقال له إنه عبد الله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أدعوه القبائل يا أبت وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ! فندم حمرو على ما بدر منه ، وكفّر عنه بأن أعنق ثلاثين عبداً .

وناقش أبوذر في حضرة النبي يوماً رجلاً أسوداً فاحتد عليه وصاح به قائلاً في عرض الكلام : يا ابن السوداء ! فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : طف الصاع طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . فندم أبوذر على ما فرط منه وكفّر عن فعلته بأن وصع خده على الأرض وقال للرجل الأسود : قم فطأ على خدى .

هذه حوادث قد يقرؤها الناس كما يقرءون الفكاهات ، وهي في الحقيقة أمور جليل ، يصغر مجابها كل إكبار ، لأنها تريك ميلاد أصخم مبدأ عالمي في العالم الإنساني على يد خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وقد تمشى أسلوب تطبيق هذا المبدأ على كل ما وضعه الإسلام من أصول روحية وحلقية ، وما قرره من مبادئ أدبية وقانونية ، وما أسسه من معاملات سياسية واجتماعية ، وذهب في تطبيقه حتى في مجال الحرب ، فسمح بها إذا حتمتها الضرورات ، ولكنه أمر بالقصد فيها ،

وحاطها بكل ضروب التخفيف ، مراعاة لمبدأ الجامعة الانسانية ، فقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تمتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « ولا يجزيكم شتان قوم (أى ولا يحملنكم بفصمكم قوم) على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

وأمر النبي مع هذا أن لا يجبر على جرحى الاعداء ، وأن لا يتعقب مهزومهم ، وأن لا يقتل خدام المخارين ، وأن يحسن الى أسراهم ، وأن لا يتعدى على غير المخارين من نساءهم وأولادهم وهيوبهم وقومهم .

أين هذا كله مما يجتهد فيه المتمدون اليوم من إعداد الآلات الجهنمية لهدم المدن الآمنة ونسف دورها على من فيها من النساء والولدان والمهرى والمرضى ، وإحراق مزارعهم وتخطيط بناياتهم ، وهذا كله مما نهى عنه الاسلام مملا بالمبدأ الذى قرره من الاعتداد بالجامعة الانسانية العامة ؟

فهذا السمو الذى تحلى به الاسلام ، يزداد ظهورا إذا قورن بما يجرى بين رقى المتمدين اليوم من المعاملات التى تنافى كل مبدأ عال من هذا الطراز . فإذا أراد الانسان أن يستدل على نبوة نبي ، فلا إخاله يستطيع أن يصادف أظهر ولا أجلى من هذه الأدلة الدامغة . فإذا كان العلم الطبيعى وما حمله الى الانسان من كشف المسابير ، وهتك الحجب عن وحوه الحقائق ، وما تحمات به الفاسفة المعربة من الكلمات المضخمة ، والعبارات المفوقة ، إذا كان كل هذا لم يوصل الانسانية الى كلية من هذه الكليات العلوية التى قررها الاسلام ، وحل أهله على العمل بها ، فى بقعة من الأرض لم يكن للعلم ولا للفلسفة ظل فيها ، أفلا يكون هذا أدل دليل على ما للوحى الالهى من السلطان على قلوب الناس وعقولهم ، أكثر مما للعلم منه بما لا يقدر ؟

وإذا قورنت سيرة قوم كانوا بالأمس أهل جاهلية يا كل بعضهم بعضا ، بسيرة المتمدين اليوم وهم أهل علم وفلسفة ، وعراقة بميدة الفور فى الفكر والنظر ، وتحليل الشئون الانسانية وتركيبها ، فهل تجدد بدا من الحكم بأن الأصول الاسلامية ترفع من نفوس الآخذين بها ما لا ترفعه أصول جميع العلوم والفلسفات مجتمعة ؟

فالاسلام الذى أوجد فكرة الجامعة الانسانية وأخذ يرسخها فى نفسية أهله ، لم يغفل جزئية من جزئيات الامور إلا وقرن بها ما يوحىها هذه الوجهة العالمية الكريمة ، حتى فيما يبذله الانسان من الصدقة ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » ، وحتى فى الهدية . وقد أثبتنا هنا فى بعض بحوثنا أن ابن عباس أمر خادمه بذيخ شاة فقال له وهو يسألها : لا تنس جارنا اليهودى . وما لست غير قليل حتى حاوده بهذا القول ، ثم ما لبث أن كررها الثالثة : فقال له خادمه : كم تقول ذلك ؟ فقال له : إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بمراعاة الجار حتى خشينا أنه سيورثه . فابن عباس لم يفرق بين المسلم وغيره فى حقوق المجاورة ،

وما ذلك إلا لأن اعتباره وصايا تعاليمه وجميع الاسلام لم يحل من الجامعة الانسانية . وهل بعد قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن ان تقاتلوكم في الدين ولم ينخرجوكم من دياركم أن تروم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » مرمى مستريداً ليس البر لا يكون إلا بين المتصافين المتحابين ، ومعناه كمال الخير ، ولا يستعمل إلا لزيادة لعناية على براده ، ولذلك استعمل في الوصاية بالوالدين ؟

وقد امتد سلطان المسلمين الى أمم لم تكن بينهم وبينها آصرة من جنس أو لغة أو دين ، بل لم يكونوا في جاهليتهم يسمعون بوجودها ، فعاشوهم على قدم المساواة ، ورومهم على ما وصاهم به الكتاب ، فرضوا بهم حكماً ، وبدنهم ديناً ، وبلغتهم لغة . ألم تركيف انتشار الاسلام في أمم برمتها بدون إحبار ، فلم تمض على الفرس بعد احتكاكهم بالمسلمين سنون معدودة حتى دخلوا في الاسلام ، وصار منهم كبار أسياحه ، وثقات أئمة ، وقلام في الدحول فيه كل الأمم التي تابعهم حتى فريق من أهل الهند والصين ، ولا يزالون مسلمين مخلصين الى اليوم . ولقد دهش جميع من عفى بهذا الشأن من العلماء الغربيين وغفلوا عن السبب الطبيعي لحدوثه ، وهو سمو تعاليم هذا الدين ، وانطباقها على الفطرة الانسانية والعقل ، وتحليه بفكرة الجامعة الانسانية الكريمة ، مع تجرده من كل الخصوصيات القومية ، ولتخصبات الجنسية ، والمميزات البيئية ، فهو دين عالمي عام باصوله وفروعه ، لا يفرض صبغة قوم على قوم آخرين ، ولكنه يطلق وصاياه وتعاليمه إطلاقة ، مسمياً الحال التي تحدث من الأخذ بها بصبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟

ومن أعظم مظاهر تأثير المسلمين بفكرة الجامعة الانسانية ، نشرهم علومهم ومعارفهم في كل بلد حلوا بها ، ومماهم المتواصل على تحسين حالة الشعوب التي تقع تحت سلطانهم ، وعدم ضيق بتعددية علومهم للأجانب عنهم . على هذا أجمع المؤرخون من بناء الفرنجة ، وذكروا ما شيدته المسلمون من الجامعات في بلاد غيرهم ، وما أقاموه من المراسد ، وما سهلوه لأهل الأديان عامة من الالتحاق بها . فكان كثير من أهل أوروبا يقدمون في طلب العلم الى بلادهم ، فيرحب المسلمون بهم ، ويوسعون لهم صدورهم ، ويخصون لهم في تلقينهم أسرار معارفهم . ولشعور الأوروبيين بكرم نفوس المسلمين ، ورعاية ذرعهم ، كان ملوك أوروبا وأمرأؤها إذا أرادوا الاستشفاء قصدوا بلاد المسلمين لشهرة أطبائها في صناعة الطب ، وتبحرهم في فن العلاج . ومن يأنسك على حياته ، وليس بينك وبينه آصرة من دين ولا قرابة ولا وطنية ، فقد اعتقد فيك الاخلاص المطلق للانسانية .

ومما يوجب الدهش أن فكرة الجامعة الانسانية ظهرت بكل سلطانها في المسلمين ، حتى في عهد حماسهم الدينية . فان هذه الحماسة لم توجد فيهم كراهة المتدينين بغير دينهم ، كما حدث ذلك في كل شعوب الأرض أيام حماسها الدينية ، لسكنها على العكس أو حسدت لدى أبناء الاسلام رحمة بمن يحالفهم في الدين . وهل يوجد أشد صلابة من صمم في دينه وهو الذي حمله التحمس

له أن يعلن إسلامه في وقت كان المؤمنون يعقدون اجتماعاتهم سرا ، ولا يجزؤ أحدهم أن يصرح بأنه انضم الى شيعة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فممر هذا لم يخل تحمسه لدينه وبينه وبين واجبه نحو المعاشين لقومه من أهل الأديان المختلفة ، حريا على المبدأ الاسلامي من مراعاة حقوق الجامعة الانسانية . فقد روى في تاريخه أنه كان يسأل رجال دولته عن غير المسلمين ، فيحسبونهم بأنهم على أحسن حال لا يشكون من شيء ، وأنهم يعاملون بالعدل والانصاف ، ولا يصيق عليهم في أي عمل ديني أو دنيوي . وكان رضى الله عنه لا يكتفى بهذا فيذهب بنفسه اليهم ويسألهم عن أحوالهم ، تعاديا عن أن يكون بهم ما يشكون منه ويحافون أن يجهروا به .

هذه مدنية لم تولد في العالم بعد ، وأطها لا تولد إلا بعد مضي أجيال كثيرة ، وبحيل الى أنها لا تولد إلا بعد أن لا يكون غير الاسلام دين في الأرض ؟

محمد فريد وجدي

الرفق والالانة في الامور

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أعطى حظه من الرفق ، أعطى حظه من الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة » .

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى الله عنها : « عليك بالرفق فان الرفق لا يخالط شيئا إلا زانه ، ولا يفارق شيئا إلا شانه » .

وقال شاعر :

الرفق بمن والالانة سعادة ليس المجاح لمن يطيش ويمحق
وقال آخر :

وفي الالانة إذا ماجد صاحبها حرم ويعقبها التمريط والحرق
وقال بعض الحكماء : الالانة حصن السلامة ، والمجلة مفتاح الدامة .

وقال غيره : إذا لم يدرك الظفر بالالانة فيما ذا يدرك ؟

وقال الفائد الكبير المهلب بن أبي صفرة ساحق الخدوارح : « ناة في عواقبها درك ، خير من عجلة في عواقبها فوت » .

التفسير

سورة الاعلى

- ٢ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » :

عرفت مما كتبناه قبلاً أن المراد من تسبيح الاسم تنزيهه عن الإيجاد فيه بالتأويلات الرائعة ، وعن إطلاقه على غيره بوجه يشمر بشاركهما فيه ، وعن ذكره لا على وجه الإعظام والإجلال . أو أن المراد سبح ربك الأعلى ، وكلمة الاسم مقحمة كما يدل عليه ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم لما نزلت : « اجعلوها في سجودكم » ، والذي يقال في السجود هو سبحان ربى الأعلى . الى آخر ما ذكرناه .

أما قوله تعالى : « الذي خلق فسوى » فهو صفة أخرى للرب ، أو جبر لمبتدأ محذوف ، أو منصوب على التعظيم . وقد قصد بذلك انثناء عن الله وبيان صفاته الجليلة وآياته البديعة التي هي برهان على أنه الرب الأعلى ، الذي تجلت قدرته في مخلوقاته ، وبهرت حكمته في بديع مصنوعاته . والمراد أنه سبحانه وتعالى خالق كل شيء فسوى خلقه بإعطائه ما به يكون كماله ويتيسر معاشه ويتم بقاؤه .

أما قوله : « والذي قدر فهدى » فالمراد به أنه تعالى قدر أجاس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأعمالها وآجالها : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » . ثم وجه سبحانه وتعالى كل واحد منها الى ما يصدر عنه وينبئ له طبعاً أو اختياراً ، وييسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ، وإيداعه من الفسوى ما يعينه على ما أريد منه . ولو تقبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول وتضيق عنه دوائر النقول .

ومن التسوية أن جعل قامة الانسان مستوية معتدلة ، وخلقته حسنة ، على ما قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » . وقد أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، على حسب معيشتة وحياته التي قدرت له . وانظر الى حال الحيوانات الدنيا والعليا

والبرية والبحرية والموائية وما بينها من الاختلاف ، حتى إن بعضها يعيش في التراب ويقتله الأكسوجين ؛ وبعضها بالعكس من ذلك . ولكل طريق مرسوم وحطة ينتهجها يكون بها صلاحه وبقاؤه : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . الى آخر ما دهش له علماء الحيوان . ولا تزال الاكتشافات تظهر من أسرار الله ما تحار فيه الأفكار ولا تحيط بدقائقه ساميات الانظار . ولعلك سمعت ما اكتشفوه الآن من الفقد وما نيط بها من الغايات وبديع الآيات .

وبالجملة : فقد جعل الله تعالى جميع الأشياء مستوية في الإحكام والإتقان (لا أنه سبحانه أنشأ بعضها دون بعض) . وفي ذلك من الاستدلال على وجوده تعالى وحكته ما لا يخفى . فإن الإنسان إذا نظر الى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدرت ما ووضع تما ، وكان موافقا في جميع ذلك للمنفعة الموحودة في ذلك الشيء المحسوس والغاية المطلوبة ، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل أو بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة - علم على القطع أن لذلك الشيء صائما صنعه ، ولذلك وافق شكله ووضع وقدره تلك المنفعة . قال ابن رشد : لا شيء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصنعة في الإحكام . وقد تبين من هذا أن من أحل الطرق التي نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق ومصنوع هي ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التي فيه على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وبخاصة الإنسان ، وهي طريقة نسبتها في الظهور الى العقل نسبة الشمس في الظهور الى الحس .

وحيث انجز لنا القول الى هذا فلنذكر لك شيئا مما في خلقه الإنسان الذي أودعه الله من الخصائص والامرار في صورته ومعناه ما يعجز عنه لسان البيان . وطالما كان يدور بنفسى أن أصل رسالة في تفسير قوله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » وقوله : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » على نحو رسالتنا في تفسير قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل » .

وقد قالوا قديما : نظرك فيك يكفيك . وقال تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون »

فلنتنزه هذه الفرصة ونذكر شيئا قليلا من بدائع خلقه الإنسان ، فنقول .
انظر كيف دور سبحانه الرأس ، وشق فيه السمع والبصر ، والألف والنم ، وسائر المنافذ ، فجعل العين للبصر . قال الغزالي :

ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز عن شرح سره أعلم العلماء وأكبر الأطباء . وانظر كيف ركب هذه العين من سبع طبقات - القرنية ، الغنبيه ، العنكبوتية ، الشبكية ، المشيمية ، الصلبة ، الملتحمة . ولكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة ، ولو فقدت طبقة منها لتعطلت عن الإبصار . وانظر الى هيئة الأشفاق التي تحيط بها وما خلق فيها من

سرعة الحركة لتقى العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره . فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويفلق في غير وقتها .

وقد أذكرني ذلك قول بعض الفلاسفة من الأوربيين : يكمنى هذب العين في الدلالة على الله .

ولا بأس أن نذكر لك قول الآخر : يكمنى في الدلالة على الله خلق الأشياء بجانب الذكر ، فمن علم الطبيعة العمياء الصماء أن ماء السوع لا يكون إلا بخلق الذكر والأنثى

ولا غرو : فهي آية تسترعى الأنظار ، وتنهى العقول والأفكار ، حيث خلق لك أنثى من نوعك تماثلك صورة وشكلا ، وتحالفك ترتيبا ومعنى ؛ وهما كلا منكما لما يراد منه وإن خلقتهما جميعا من ماء مهين ، ولا فرق بينكما في عناصر التكوين ، ولكن يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وقد امتن علينا سبحانه وتعالى بذلك مينا أنها من الآيات البينات والدلائل الواضحات ، فقال عز من قائل : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وحمل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

ومما يحسن ذكره ها هنا قول فكتور هوجو :

« إن القول بأن العين لم تخلق للإبصار وإنما وجدت هكذا فكان بها الإبصار ، لم أقطع أنواع الجنون التي تلم بالعقل الانساني » . ثم قال الغزالي :

ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه ، جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ، ولا ينقص نقصا يضر بها .

وأستلفت نظرك بعد هذا كيف خلق في مائها ملوحة لتقطع ما يقطع فيها ، وجعل طرفيها منخفضين عن وسطها قليلا لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين .

ثم انظر الى الفم والاسنان وما في ذلك من الحكيم ، وكيف جعل الشفتين سترًا للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة الى فتحه ، وهو ستر على اللثة والاسنان مفيد للحمل ، فلولاها لتشوهت الخلقة ، ومع ذلك هما معينان على الكلام ، وبعض الحروف يتوقف عليهما ولا يكون إلا بهما . وكيف جعل اللسان للنطق والتعير عما في ضمير الانسان ، فضلا عن تقايص الطعام وإلقائه تحت الأصراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه الى غير ذلك من الفوائد والمنافع .

ثم جعل الاسنان أعدادا متفرقة ولم تكن كلها واحدا ، فان أصاب بعضها لم تتمتع بالباقي . وقد جمع فيها بين الذفع والجأل ، وجعلها صلبة ليست كمقام البدن لمريد الحاجة إليها . واقتضت الحكمة أن جعل الشاي والأنياب لتقطع الطعام مع كونها جمالا للفم ، فأحكم أصولها ،

وحدد رءوسها ، وبض لونها مع حمرة ماحولها ، وحملها متساوية الرأس ، متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم .

ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة محبوسة لا تظهر إلا في وقت الحاجة إليها ، وهي « الريق » ولو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للإنسان . وحكمتها أن يبل بها ما يمتصغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم . فإذا فقد الأكل عدت تلك الندوة الزائدة التي خلقت للترطيب وبقي منها ما يبل اللهوات والخلق ، لتصوير الكلام ، ولئلا يحف ، فإن جفافه يجلب للإنسان أعظم الضرر .

ثم انظر الى رحمة الله ولطفه إذ جعل للأكل لذة الأكل ، فجعل الذوق في اللسان وجميع أجزاء الفم ، ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من المأذون ، فيجد في ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة الى تناوله ، وليجنب الشيء الذي لا يوافقه ، ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة .

ثم انظر الى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا لباري سبحانه . وقد جعل في الأنف حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطامحه ومشاربه ، ليتنعم بالروائح العطرة ويجنب الخبيثات ، وليستشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه .

ثم انظر الى الأذن كيف جعل فيها انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلاً فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة فيؤذيها ، ولكي يعرف سير ما عسى أن يدخل إليها من الدبيب والحشرات ، فإذا دخل الى المعرج من تلك الانعطافات وقف هناك فسهل إخراجه .

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه ، لأن العين عمل الملاحظة والريّة والجمال ، وهما بمنزلة الصور الذي يمشى بين يدي الإنسان . ويضا كان جعلهما في الجسدين ليكون إدراكهما لما حالف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن يساره سواء ، فتأتي المشمومات إليهما على نسبة واحدة ، وخلقت العينان بغطاء والأذنان بغير غطاء ، وهذا في غاية الحكمة ، إذ لو كان للأذنين غطاء لمع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرض لا ثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ما تراه العين فإنه أحسام وأعراض لا تزول أثناء كشف الغطاء .

ثم انظر الى بقية الأعضاء الظاهرة كاليدين والرجلين ، ثم الباطنة كالعدة والقلب والكبد والرئتين والأمعاء والسكيتين (ولا نفس السبيلين) وما فيك من القوى المختلفة من الغذائية والنامية والجاذبة والدافعة والمصورة وما ينيط بكل من الوظائف والأعمال . حتى إنك تجد

في الخلق منفذين : منفذاً للنفس ، ومجرى آخر بجانبه للطعام والشراب . وقد اقتضت الحكمة أن تحمل هناك غطاء يغطي مجرى النفس عند بلع الطعام ، وهو المسي لسان المزمار ، لئلا تدخل فيه المiette التي قد تسبب الموت . وما أسرع ما ينتفح ويمود حال الأكل . الى آخر ما لا يمكن تفصيله في محالة كهذه .

فلهذا قال على رضى الله عنه : سبحان من يمسح بشحم ، ويطبق بلحم ، ويطمع بعظم ! « فلينظر الانسان مم خلق » . « ألم يك نطفة من مئى ثم كان علقة نخلق فسوى لجلجل منه الزوجين الذكر والانثى » . « خلقتك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك » « أم خلقتوا من غير شئ أم هم الخالقون »

وبعد هذا كله إذا نظرت الى الانسان من حيث روحه وتفكره وإدراكه وتخيله وما أعطى من القدرة على التفنن فيما يريد ، والوصول الى أسرار الملك والملوكوت ، وجدت بطله أعجب من ظاهره ، وروحه أسمى من جسمه .

وبالجملة : فالانسان إذا تفكر فى نفسه استنارت عنده آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقضت عنه ظلمات الجهل . فانه إذا نظر فى نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه باطقات ، شاهدة لمديره ، دالة عليه ، مرشدة إليه .

ولتقف هنا اليوم إشفاقا على القارئ أن يعمل . ولننزع مجالا للحضرات الكتاب الفضلاء ، سائلين الله أن يور بصائرنا ، ويصلح سرائرنا ، ويعرفنا نفوسنا ، فإن من عرف نفسه عرف ربه ما

يوسف الدمجوى

عضو جماعة كبار العلماء

المن بالمعروف يبطل أجره

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويحرق الأجر » .

وقال بليغ : المنة تهدم الصليعة .

وقال غيره : خير المعروف من لم يتقدمه مظل ، ولم يتبعه من .

الزَّنا

الحدود الشرعية^(١)

ذكرنا في مقالنا السابق نص حديث طائفة رضى الله عنها المتعلق بفاتمة الخزومية التي أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حد المرقعة . وبيننا بعض ما يتعلق بهذا الحديث من أحكام . وقد بقي الكلام في أمور :

(١) حد القذف (٢) القصاص (٣) التعزير (٤) حكم ما لا نص عليه في الشريعة سواء كان عقوبة أو غيرها . فإليك البيان :

فأما حد القذف فقد بيّنه الله سبحانه بقوله : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » الآية . والقذف هو عبارة عن أن يتهم شخص آخر بالزنا صريحا كأن يقول له : أنت زان ، أو دلالة كأن ينسب شخص آخر إلى غير أبيه . فمن صدر منه ذلك كان جزاؤه أن يجلد ثمانين جلدة ، ما لم يأت بأربعة شهداء يشهدون بأنهم رأوا بأعينهم المتهم يزني في امرأة لا تحمل له ، لا فرق بين أن يكون القاذف والمقذوف رجلا أو امرأة . وإنما خص الله المقذوف من النساء بالذكر حيث عبر بالمحصنات ، لأن صرر الزنا يتعدى المرأة إلى أمرتها ، فقتلها يصيبهم به معرة شديدة ، بخلاف الرجل . وكذلك خص الله القاذف من الرجال بالذكر حيث قال : « والذين يرمون » لأن النساء يغلب عليهن الحياء عادة فلا تقذف الرجال بالزنا . وقد بينت السنة أنه لا فرق بين الرجال والنساء في القذف ، كما بينت الشروط اللازمة لإقامة حد القذف من عقل وحرية ، إلى آخر ما هو مبين في كتب الفقه .

على أن الآية الكريمة قد أشارت إلى أهم شرط من هذه الشروط ، وهو أن يكون المقذوف محصنا ذكرنا أن أو أنثى . ومعنى إحصانه هنا أن لا يكون قد ارتكب جريمة الزنا قبل قذفه ، أو بعده قبل إقامة الحد ، فإن ثبت عليه ذلك فإنه لا يكون محصنا ويسقط الحد عن القاذف . ومن أتى امرأة بمقد فاسد كأن تزوجها بنسب شهود ، أو أتى امرأة وهي نائمة فلنا منه أنها زوجته وهي ليست كذلك ، فإن حد الزنا يسقط عنه بهذه الشهة ، ولكن هل يرفع عنه فعله الإحصان بحيث لو قذفه شخص بالزنا لا يجلد ثمانين جلدة ، أو هو لا يزال محصنا يحد تأذفه ؟

(١) بقية البحث للنسور بهذا العنوان في العدد السابق .

خلاف . فبعضهم يرى أن الاقدام على هذا الفعل بدون حيلة يرفع الاحصان . وبعضهم يقول لا يرفع عنه الاحصان إلا الزنا الموجب للحد . فهذا هو حد القذف

وقد جمعت الشرائع والعقول على أن القذف بهذا المعنى اعتداء على الأعراض التي يقتضى النظام العام صيانتها ، خصوصا إذا لوحظ ما يترتب عليه من شر وفساد ، لأن قذف المحصنات بالزنا يوجب لا محالة العداوة والبغضاء بين الأسر ، ويولد الضغائن والاحتقادات في نفوس الناس ، وربما أفضى الى الانتقام بقتل الأنفس ، وذلك شر وبيل يجب أن توضع له عقوبة تزرع الناس عنه ، فلا يطلقون لألسنتهم العنان فيه حذرا مما يترتب عليه من شر وفساد .

ولكن بعض الناس يتحيل أن عقوبة الجلد شديدة لا تناسب المدينة الحاضرة . والحواب عن مثل هذا هو أن يقال : ينبغي لمن يشكك بهذا أن يدرك أولا معنى الجرعة ، ومعنى ما يترتب عليها من الآثار التي تؤذى المجتمع الانساني ، ثم يقارن بينها وبين العقوبة ليعلم أن الغرض من العقوبة إنما هو زجر الناس عن كل فعل أو قول يضر بالمجتمع ويؤذى أفراد وجماعته . فإذا فشت الجرائم بين الناس وأصبح كل واحد غير آسئ على عرضه أو نفسه أو ماله فانه لا يكون لهذا معنى إلا أن الانسان الذي ميره الله بالعقل مساو للحيوان المفترس الذي يعتمد قوته على ضيقه ، وذلك هو الهلاك والفتنة للأفراد والجماعات . فلا بد من زاجر يجر المجرمين فاسدى الأخلاق ، ويوقفهم عند الحد الذي يصلح للبقاء . ولا بد أن يكون ذلك الزاجر قاطعا لذات الجريمة كي لا يكون لها أثر بين الناس . فمن مصلحة المجتمع ومصلحة المجرمين أنفسهم أن تكون العقوبة راحرة بصرف النظر عن تفاوت حال المجرمين في الرقة والخشونة أو الذكورة والأنوثة ، فان ذات الجريمة واحدة وآثارها الصارة واحدة .

ولا ينبغي لعالم مشرع أن يقول إن المجرم الذي يهاجم أعراض الناس فينهب بفساد كذبا واعتداء لا يستحق عقوبة الضرب الموحدة ، بل الواجب أن يقول إن هذه الجريمة لها أسوأ الأثر بين الأفراد والجماعات ، فيجب أن توضع لها عقوبة تقلمها من أساسها . فالعقوبة التي وضعها الله تعالى لازمة ضرورية .

فعلى المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن ينزهوا ألسنتهم عن قذف الناس بهذه النماحشة ، إن لم يكن خوفا من العقوبة الدنيوية نفورا من الله الذي وصفهم بأنهم فاسقون . أما المستهترون الذين لا يبالون بأمر الله عز وجل ولا يخشونه فان هؤلاء انحطوا من الأنعام ، فلا زاجر لهم إلا بما يؤذيهم ، وإلا تعادوا في نهش أعراض الناس بدون حساب .

على أن الشاعية والحنانة قالا إن القذف الحق في أن ينفوخ عن قاذفه ، ويسقط بذلك العفو حد القذف . وفي ذلك سعة . فإذا سبق لسان أحد الى قذف شخص بهذه النماحشة فانه يصح له أن يسترضيه ويزيل ذلك الأثر من نفسه ، فإذا عفا عنه فان عفوه يصح ، سواء كان قبل رفع

الامر للحاكم أو ندمه . والمسالكية يوافقون على هذا الرأي إذا كان العفو قبل أن يرفع الامر للحاكم ، أما بعد رفع الامر للحاكم فإن العفو يصح إذا كان المقدوف يخاف على نفسه سوء السمعة . أما إذا كان مشهورا بالعة ولا يؤذيه إداعة التهمة فإن العفو لا يصح . وعلى أى حال فإن القول بصحة عفو المقدوف معقول ، لأنه هو الذى وقع عليه ضرر القذف ، ومتى غفا ذهب أثر الجريمة الصار . فإذا قذفه ثانيا بعد العفو فانه لا يحسد ولكن يعزركى لا يعود الى شتمه . وبمكسك أن تقول إن العفو يستقط حد القذف عند الأئمة الثلاثة خلافا للحنفية . ومع ذلك فإن الحنفية يقولون إنه لا يقام إلا إذا رفع المقدوف الامر للحاكم

ومما ينبغى ملاحظته أن إقامة الحد بالجلد يجب أن يراعى فيها حال المجرم واحتماله للعقوبة ، فإذا كان جسمه ضعيف لا يحتمل أو كان مريضا فانه يؤخر الى أن يقوى على احتمال العقوبة ، فإذا كان ضعفه طبيعيا بحيث لا يرحى له قوة فانه يجمع له أعواد تقدر عدد العقوبة ويضرب بها مرة واحدة . وهذا هو رأى جماهير العلماء . ومن هذا كله يتضح لك أن لشدة فى العقوبة إنما هى بالنسبة للفجار الأوفياء الذين يؤذون الناس بما يوجب حقدهم عليهم وعنده الصفح عنهم ، وهؤلاء شرهم على أنفسهم وعلى المجتمع شديد ، فلا ينبغى لأحد أن يرحمهم فى أى زمان ومكان .

(٧) وأما القصاص فهو أن يماقب الجاني بمثل جنايته على أرواح الناس أو عضو من أعضائهم ، فإذا قتل شخص آخر ، استحق القصاص وهو قتله كما قتل غيره . وقد عنيت الشريعة الاسلامية بالحفاظة على دماء الناس عناية تامة ، مهددت الجناة الذين يعتدون على دماء الناس تهديدا شديدا . ويكون فى زجر المسلم الذى يؤمن بالله واليوم الآخر قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » . فإن فى هذه الآية من الشدة ما تقشعر له جلود القساة إن كانوا مسدين . وقد قال بعض أئمة المجتهدين : إن قاتل النفس خالدا فى النار كالكاثر بدون فرق كما هو ظاهر هذه الآية ، وسواء صح هذا القول أو لم يصح فإنه يكفى أن يحكى القاتل معذبا فى نار جهنم زمنا طويلا ، ويكفيه غضب الله عليه ولعنته إياه ، ويكفيه أن الله أعد له عذابا عظيما ، يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم . لا شك أن من كان عنده متقال ذرة من إيمان وسمع هذه الآية فإنه يفر من العدوان على دماء الناس كما تفر الشاة من الذئب . فلو فرض وقتل شخص آخر فى جميع الظلام ، وأعلنت من القصاص فى هذه الحياة الدنيا ، فإن ذلك شر له لا خير له ، لأن العقوبة الأخرية الشديدة تنتظره ، وغضب الله عليه فى هذه الحياة الدنيا ينتظره . أما من اقتص منه فى حياته الدنيا فانه يكون كفارة له فى الآخرة على التحقيق ، لأن الله أكرم من أن يعذب مرتين ، وقد فعل به ما فعله بغيره جزاء وفا .

وقد عرفت أن القصاص يستقط بالعمو أو الصالح ، بخلاف الحد فإنه لا يستقط بالعمو لأنه حق الله ، ولكن هذا هو رأى الحنفية . أما غيرهم فأنهم يقولون : إن الذى لا يستقط بالعمو هو حد الزنا وحد السرقة بعد رفع الأمر الى الحاكم ، وأما حد القذف فإنه يستقط بالعمو مطلقا . وبذا كنت على ذكر مما بيناه لك فى مقالنا الأول من أن حد الزنا لا يقع إلا إذا شهد بالجريمة أربعة شهود رأوا بأعينهم الفعل نفسه ، وذلك متمذرا لا يمكن تحقيقه عمليا ، فإن تنفيذه يكون منوطا بإقرار الجاني وحده . أما حد الشرب فبعضهم يرى أنه من باب التعزير . وعلى هذا يمكن أن يقال : إن الحد الذى يتصور وقوعه ولا يستقط بالعمو هو حد السرقة بعد رفعه الى الحاكم على الوجه الذى بيناه فى مقالنا الأول .

وهنا سؤال معروف ، وهو أن الشريعة الإسلامية جعلت عقوبة القتل من باب القصاص الذى يصح سقوطه بالعمو مع كونه من أفعال الجرائم وأشدها ضررا بالمجتمع الإنسانى ، ومقتضى ذلك أن تحمله من باب الحدود التى لا تقبل السقوط بحال من الأحوال كي يعلم الجاني أنه مقتول لا محالة فلا يقدم على الجريمة .

والجواب : أن ذلك من محاسن التشريع الإسلامى ودقته . وذلك لأن الغرض من العقوبة قد بيئه الله تعالى بقوله : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » . وإذا كان الغرض من القصاص هو حقن الدماء والكف عن العدوان على الأرواح ليعيش الناس آمنين ، فإن من الضروري أن ينظر الشرع فى كل المواقف التى يترتب عليها حفظ الأرواح وصيانتها . فإذا كانت العقوبة تزجر فاسد الأخلاق الذى تميل نفسه الى الجريمة فتمنعه عن قتل نفسه وقتل غيره ، ولكن يجب النظر أيضا الى ما يرفع الأحقاد والضغائن من نفوس الأسرة حقنا للدماء وحفاظة على الأرواح . ولما كان من البدهى الذى لا ريب فيه أن القتل يحدث عند أولياء الدم حقدًا شديدا ويترك فى أنفسهم لوعة لا تنطفى إلا بالتشفى من القاتل وتحكمهم فيه ، فقد جعل الشارع لأولياء الدم سلطا ما على القاتل الذى يثبت عليه القتل ، فإن شاءوا عفوا عنه فى نظير مال أو غيره ، وإن شاءوا اقتصوا منه بالقتل بدون تمثيل أو تعذيب . وفى ذلك سلوكى نذهب بها أحقادهم ، فلا يعمنون فى العدوان ولا يسرفون فى الانتقام بقتل الأبرياء من أسرة القاتل فتثور ضغائن خصومهم فيقابلونهم بالمثل ، ويترتب على ذلك إراقة الدماء البريئة بأقبح معانيها .

إن الحوادث قد دلت على أن كثيرا من جنابات القتل نشأت من إهمال رأى ولاية الدم وحرصهم على أن ينتقموا لأنفسهم من القاتل ، فهم يعمدون الى اتهام غيره من أغرابه الأبرياء ويكتمون أمره كي يقتلوه عند سnoch الفرصة بأيديهم تشفيا ، وبذلك تسود الفوضى بين الأسر ، وتكثر فيهم حوادث القتل بدون أن يكون للقانون أدنى تأثير على أنفسهم . أما لو كان لولى الدم رأى فى القصاص من أول الأمر فإنه يرى فى تسلطه على القاتل ما يطفى لوعته

ويرفع عنه المهانة ، فتهدأ نفسه ، فإن عفا عنه فذاك وإلا أقص منه وحده ووقفت الفتنة عند هذا الحد . ولا يقال إذا عفا أولياء الدم عن القاتل كان إطلاقه خطرا على الأمن ، لأننا نقول : إن ولى الدم في الغالب يصر على القصاص . وإذا فرض وعفا عنه ولكن رأى الحاكم أن إطلاقه يهدد الأمن العام فله أن يعزره بما شاء ، وله أن يجعله تحت المراقبة التي تحول بينه وبين المدوان حتى يتحقق من حسن سلوكه .

فإن محاسن الشريعة الإسلامية ودقتها أنها جعلت عقوبة القتل قصاصا يقبل فيه الحاكم الصلح أو العفو من أولياء الدم بشروط وتفصيل تطلب من كتب الفقه ولا يسعها المقام .

أما الحماية على الأطراف من يد أوعين أو سن ، فقد جعلت الشريعة الإسلامية عقوبتها القصاص أيضا ، بمعنى أنه يفعل بالجاني مثل ما فعل جزاء وقا ، ولكن يشترط الممانعة بين المضروبين ، فلا تقف عير عوراء في نظير عين سليمة ، ولا يقطع لسان أخرس في لسان متكلم ، ولا تقطع يد عاملة بيد عاملة ، ونحو ذلك مما هو مدين في محله . وهذا هو العدل المطابق ، فإن الذي يمتدى على إتلاف عضو إنسان لا جزاء له إلا أن يتلاف منه ذلك العضو ، كما قال تعالى . « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

وربما يقال : إن في ذلك الجزاء تكثيرا لأرباب الماهات بين أفراد الأمة ، فبعد أن كان الناقص هو المعتدى عليه أصبح المعتدى ناقصا مثله ، وذلك ضار بقوة الأمة وهيبتها .

والجواب : أن في القصاص تقليلا لأرباب الماهات لا تكثيرا ، بل في القصاص قضاء على الجريمة من أصلها . كما قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » لأن الذي يوقن بالجرائم المماثل ، ويعلم أنه إذا اعتدى على عضو من أعضاء بدن غيره قطع مثله منه ، فإنه يحجم عن ارتكاب الجريمة ثانيا ، وبذلك يرتفع العدوان ، فلا يوجد ذو مائة أصلا لا معتد ولا معتدى عليه . أما الذي يعلم أن نتيجة عدوانه عقوبة بالسجن القليل فإنه لا يسأل بتكرار فعله مع كثيرين ، فتزيد أرباب الماهات والجرمون معا . على أن السجن إذا طال أمده فإنه يكون من شر الآفات التي تقضى على حياة الجرم ، فإنه يصبح عاطلا مستهترا بالجرائم كما هو مشاهد في كثير من متعودي الاجرام والسجون . ففي أمكن القصاص بالتساوي بين العضوين كان من العدل أن يقتصر من الجاني بمثل جنايته ، وإن لم يمكن كان للحاكم أن يعززه بما يراه زاجرا له عن العودة ، وراعا للأشراء عن ارتكاب الجرائم . على أنك قد عرفت أن القصاص في نظر الشريعة الإسلامية حق المعتدى عليه ، فله أن يصطلح مع خصمه على مال وغيره أو يعفو عنه ، فإذا رأى الحاكم أن العفو يترتب عليه ضرر بالأمن فله أن يتخذ الوسائل التي يراها لصيانة الأمن .

(٣) أما التعزير فهو « التأديب بما يراه الحاكم راجعاً لمن يفعل فعلاً محرماً عن العودة إلى هذا الفعل ». فكل من أتى فعلاً محرماً لاحد فيه ولا قصاص ولا كفارة فإن على الحاكم أن يعزره بما يراه زاحراً له عن العودة : من ضرب ، أو سجن ، أو توبىخ .

وقد اشترط بعض الأئمة أن لا يزيد التعزير بالضرب على ثلاثين سوطاً . وقال بعضهم وهم المالكية : إن للامام أن يعزبه بما يراه زاحراً ولو زاد عن مائة ، بشرط أن لا يفضى ضربه إلى الموت . وبعضهم وهم الحنابلة قال : إنه لا يزيد في الضرب على عشرة أسواط .

ولكن ابن القيم الحنبلي لم يوافق على هذا ، فقد ذكر في إعلام الموقعين أن التعزير بالضرب قد وصل إلى مائة سوط عند الحنابلة كما إذا وطئ شخص حارية امرأته بذاتها فإنه يعزr بضرب مائة . وقال إن عمر بن الخطاب زاد في حد شرب الخمر أربعين فأوصله إلى ثمانين ، ولا يعقل أن تكون هذه الزيادة من أصل الحد الذي ورد عن رسول الله وهو أربعون .

على ذلك قد عرفت أن بعض العلماء يقول إن عقوبة الشرب كلها من باب لتعزير لا من باب الحد .

وظاهر عبارة ابن القيم في إعلام الموقعين تيميد أن الحاكم أن يعزr بما يشاء من سجن أو ضرب كما هو رأى المالكية . فكل عقوبة تناسب حال البيئة وتخيف المجرمين يجب أن تنفذ .

على أن الحنفية الذين قالوا إنه لا يجوز للحاكم أن يزيد في التعزير بالضرب على ثلاثين سوطاً قالوا إن الحاكم أن يعزr بالقتل ، فإن عقوبة الاوطة عندهم من باب التعزير ، ومع ذلك فانهم يقولون إذا تكررت هذه الفاحشة من شخص فانه يعزr بالاعدام ، إذ لا يليق أن يوجد بين النوع الانساني من تقلب طبيعته إلى هذا الحد . ولا يخفى ما في هذا من سلطة واسعة يتصرف فيها الحاكم بما يرى فيه المصلحة .

فإن قلت : كيف يصل التعزير إلى هذا القدر من العقوبة مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يضرب فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله » فإن ظاهر هذا الحديث يدل على أن عقوبة غير الحد لا يجوز أن تزيد على عشرة أسواط كما يقول الحنابلة ؟

وقد أجاب ابن القيم نفسه عن هذا بأن الحدود كما تطلق على العقوبات تطلق أيضاً على نفس الحناية والمعصية كما ذكرنا في مقائنا السابق . والمراد بها في الحديث الممسية لا العقوبة . فعنى الحديث : لا تنجز العقوبة بالضرب زيادة على عشرة أسواط إلا في الجنایات التي حرماها الله تعالى ، فإن للحاكم أن يضرب عليها ما يشاء ، ومن هذه الجنایات أن يحتل بامرأة محرمة ، أو يشهد زوراً ، أو يفسى شخصاً أو يخذعه ، أو يحتال عليه ، أو يقامر ، أو يذr ماله فيما يؤذى الناس ، أو يسمى بالإنائم بين الناس ، أو يطفف السكيل والميزان ، أو يصرف وقته في الملاهي ،

أو غير ذلك مما لا يمكن حصره هنا . فكل جناية لم يصع لها الفاعر حدا ولا كفارة فإن للحاكم أن يعاقب عليها بالسجن أو الضرب بحسب ما يراه زاجرا للمجرم . أما غير الجنايات من المخالفات كخالفه الابن لأبيه ونحو ذلك مما يقع من الصبيان فإنه يصح التأديب عليها بالضرب ، بشرط أن لا يزيد عن عشرة أسواط ، فهذا هو معنى الحديث ، وهو حسن .

وبالمجلة فإن التميز باب واسع يمكن للحاكم أن يقضى به على كل الجرائم التي لم يضع الشارع لها حدا أو كفارة ، على أن يصع العقوبة المناسبة لكل بيئة ولكل حرية : من سجن أو ضرب أو تقي أو عويص ، أو غير ذلك .

وأجاز بعض الحنفية التميز بالمال على أنه إذا تاب يرد له . فإذا استثنينا من العقوبات حد السرقة ، وحد القذف ، واستثنينا القصاص وبعض الأشياء التي جعل الشارع لها كفارة كالحلف بأقسامه وإتيان الزوجة وهي حائض — فإن عقوبات الجرائم الخلقية والمالية وسائر المعاصي منوطة بتقدير الحاكم واجتهاده ، فعليه أن يضع جميع العقوبات التي تقتضى على الرذائل وتزجر المجرمين .

وفي هذا من دقة التشريع الاسلامي وجماله ما يدل على أنه من لدن عليم خبير ، فإن مما لا ريب فيه أن أحوال الناس تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . فالعقوبة التي تناسب جماعة لهم حالة خاصة ، لا تناسب جماعة أخرى تختلف في عاداتها وأطوارها ، فلا يمكن وضع عقوبة منضبطة يمكن تطبيقها على سائر الناس . فافقه العليم بأحوال عباده الخبير بما تقتضيه طبائعهم فاطأ أمر تقدير العقوبات بأولى الأمور ، ثم كلفهم السهر على مصالح رعاياهم والاستمساك بكل الوسائل المفضية الى تربيتهم تربية صالحة ، والقيام بتأديب المجرمين بالعقوبات المناسبة ، كي يعيش الناس في أمن ودعة وراحة وأطمئنان .

وهنا سؤال ظاهر ، وهو أن عقوبة التميز لم ينص عليها في الشريعة الاسلامية بخصوصها فهل عمل الحاكم في هذا الباب يقال له حكم شرعي أو وضعي ؟ وهذا هو السؤال الأخير .
فيليك الجواب :

(٤) والجواب أنه لا يخرج حكم من الأحكام عن نصوص الشريعة الاسلامية ما دامت السموات والأرض ، وليس معنى هذا أن كل حادثة منصوص عليها بخصوصها ، فإن هذا مما لا معنى له ، لأن الحوادث تتجدد بتجدد الزمان والمكان . ولكن الغرض أن كل حادثة من الحوادث المتجددة المتكررة لا بد أن تدخل تحت قاعدة كلية من قواعد الشريعة الاسلامية ، فالتميز قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويكتفى في ذلك الحديث الذي ذكرناه آنفاً ، وهو « لا يضرب فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله » متفق عليه ، فإنه نص على أن للحاكم أن يعزر بالضرب في الأمور التأديبية ، وفي الأمور الجنائية حسب ما يراه

زاجرا ، إلا أنه لا يزيد في غير الجانيات على عشرة أسواط كما بينا .
وقد عزر كبار أصحابه من بعده بالضرب والسجن والقتل .
فقد ثبت أن صر جمع كبار علماء الصحابة واستشارهم في عقوبة لا تُطافأفتوا بإعدامه حرقا ،
وهذا من أشد ما يتصور في باب التعزير .

وثبت أن عليا وحده رجلا مع امرأة يستمنع بها بغير جماع فجلده مائة سوط .
ولا خلاف أن للإمام أن يسجن الجاني بما يراه راجرا له . ولا معنى لهذا كله إلا أن للإمام
المسلمين أو من ينوب عنه الحق في التعزير بحسب ما يراه زاجرا للمجرمين ، بل يجب عليه أن
يضع العقوبات المناسبة التي يترتب عليها تاديب رعيته وإصلاح حالهم ، لأن كل راع مسئول
عن رعيته بنص حديث رسول الله ، فكل عقوبة من العقوبات التي يراها الحاكم راجرة ،
توصف بما توصف به الأحكام الشرعية بلا نزاع .

وبعد : فإن الذي يطلع على الشريعة الإسلامية ويعمن النظر فيها ، ويقف على حكمها وأسرارها
ويتأمل في نظمها وقواعدها ، لا يسهه إلا أن ينحني أمام عظمتها ، ويجزم بأنها من لدن
حكيم عليم ، فقد جاءت بكل قانون فيه مصلحة المجتمع وسعادته ، وبنت كل أحكامها على ما فيه
مصلحة النوع الإنساني ودفع المفساد عنه في كل شأن من شؤنه ، فلم تترك مصلحة حقيقية
من مصالح الأمم والشعوب إلا حشت عايبها وأمرت بها ، ولم تترك مفسدة من المفاصد الخلقية
أو المادية إلا نهت عنها وحذرت الناس من شرها ، فوضعت نظام الأسرة التي هي أساس بناء
الدمران على قواعد ثابتة لا يمتريها وهن مدى الدهور والأعوام ، فقد جعلت لسكل فرد
من أفرادها حقا ياسبه ويليق به : من تعظيم ، وثقة ، وميراث ، ووصية ، وغير ذلك .
فأمرت الأبناء أن يعطمو آباءهم في غير معصية أو إثم ، وأمرت الآباء أن يربوا أبنائهم تربية
حسنة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « الرموأبناءكم وعلوم الأدب » ثم جعلت لسكل من الآباء
والأبناء حقوقا في الميراث تناسب حالهم ، وكذلك جعلت للزواج حقوقا تناسب كل واحد
من الزوجين بحسب العرف والعادة ، قال تعالى : « وطن مثل الذي عليهن بالمعروف » .
وجعلت للاخوة والأخوات حقوقا على بعضهم بعضا ، وحشت بعد ذلك على صلة الأرحام ويرم ،
وجعلت لهم حقوقا تليق بهم ، ثم من بعدم الجيران ، ثم أهل البلدة ، ثم بيت حقوق الحاكم
والمحكوم خير بيان . وسياتيك به مقال خاص قريبا إن شاء الله . وقد ذكرنا في مقالنا السابق
أنها قضت الوطر من قوانين المعاملات والأخلاق .

وبالجملة فالشريعة الإسلامية لم تترك شيئا إلا وضعت له قانونا أساسه المصلحة المادية
والأدبية ، وقوامه الفضائل الإنسانية ، حتى العادات ، فقد علمت الناس كيف يأكلون ويشربون ،
وكيف يعامل بعضهم بعضا في الحديث والمجلس والزيارة والصعبة ، وكل ما يتعلق بشئون

الفرد وحده أو مع غيره قريبا كان أو بعيدا ، ولم تنف قضية من قضاياها في وجه الإصلاح الذي يتجدد بتجدد الزمان والمكان .

ومن هذا تعلم أن كل شيء يحدث لا بد أن يرجع إلى أصل عام في الشريعة الإسلامية . وقد ألهم الله رسوله أن يأتي بقواعد عامة جامعة يمكن إدخال كل جزئية من جزئيات الحوادث تحتها . وقد ذكر ابن القيم في إعلام الموقعين كثيرا منها يضيق المقام عن ذكره جميعه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « كل مسكر حرام » . و « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » . و « كل قرض جر نفعا فهو ربا » . و « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل » . و « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » . و « كل أحد أحق بحاله من ولده ووالده والناس أجمعين » . و « كل معروف صدقة » الخ . فهذه وأمثالها كليات تدخل تحتها كل جزئية تتجدد من نوعها . فإذا فرض ووجدت جزئية ولم يتيسر لعالم أن يرجعها إلى أصل من أمثال هذه الأصول فإنه يمكنه أن يرجعها إلى قوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » . والضرر هو الضرر . ومعناه أنه ينبغي لكل مسلم أن يرفع ضرره عن غيره . ويجب على كل رئيس قادر سواء كان حاكما أو غيره أن يرفع الضرر عن مرءوسيه ، فلا يؤذيهم هو ، ولا يسمح لأحد أن يؤذيهم . وبما لا شك فيه أن ترك الناس بدون قانون يرفع عنهم الأذى والضرر يخالف هذا الحديث ، فكل حكم صالح فيه منفعه ورفع ضرر يقره الشرع ويؤتاه .

عبد الرحمن الجزيري

اصلاح الاموال حفظ للكرامة

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه . أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله فإن إقلالها في رفق خير من إكثار في خرق .

وقال أيضا . لا يقلل مع الإصلاح شيء ، كما لا يكثر مع الفساد شيء .
ويروى هذا المعنى عن المتلمس إذ قال :

لحفظ المال خير من فناءه وسير في البلاد بغير زاد
قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد
وقال حكيم : إن في صلاح الأموال سلامة الدين ، وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض .

وقال أحيعة بن الحلاج . أصلحوا أموالكم فإنكم لا تزالون ذوي مروءات ما استغنيتم عن عشيركم .

وقال عبد الله بن عباس : اطلبوا النفي باصلاح ما في أيديكم ، فإن الفقر يجمع العيوب .

الدرس الثاني

أنفاه فضيلة الأستاذ الكبير بالسبح المحبب بمدينة القاهرة

في مساء يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٦

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وحنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الفیسط والمعين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين . قد حلت من قبلكم سنن فسروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » الآيات : ١٣٣ - ١٣٨ من سورة آل عمران

المفردات . أسباب المغفرة . سعة الجنة ومكانها ووجودها الآن . الاتفاق في السراء والضراء . تعدد أوصاف المتقين . إرشاد القرآن إلى طريقة البذل . فائدة البذل في الأمة والفرد . المسلمون والبذل . كظم الغيظ والعفو . الاحسان وأثره . الاستغفار والإصرار على الذنب . سنن الله وأرباط السعادة بمراقبتها .

المفردات :

الفقر : الإلباس ما يصون عن الدنس . ومنه : أصبح ثوبك فإنه أغفر للدنس . والغفران والمغفرة من الله : أن يصون العبد من أن تمسه النار . والاستغفار : طلب المغفرة بالقول والفعل . أما طلب المغفرة بالقول مع الاستمرار على الذنب فهو من الإلغيب التي لا يقام لها وزن .

التقوى : جعل النفس في وقاية مما يخاف . وهي في عرف الشرع : حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بتترك المحظورات ، وفعل المأمورات .

السراء : حالة المسرة . والضراء : حالة المضرة .

الكظم : مخرج النفس . وكظم فلان : حبس نفسه . وكظم الغيظ : أمسك على ما في نفسه منه بالصبر حتى لا يظهر له أثر . وكظم القربة إذا ملأها وسدّها .
والغيظ : أشد الغضب . وهو الحرارة التي يجدها اللسان عند قوران الدم .
العفو : أن تترك مؤاخذة من يجنى عليك مع القدرة على المؤاخذة . أما ترك المؤاخذة مع المعجز فلا يسمى عفوا .

الاحسان : الاتيان بالفعل على الوجه اللائق به .

الفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال .

الظلم : وضع الشيء في غير موضعه المختص به : إما بزيادة أو نقصان ، أو ببدول عن وقته أو مكانه . ويقال الظلم لجأوزة الحد الذي هو بمنزلة نقطة الدائرة قلّ تجاوز أو كثر . ولهذا استعمل في الذنب الصغير والذنب الكبير . والظلم ثلاثة أنواع : ظلم بين الإنسان وربه ، وأعظمه الكفر ، والشرك ، والفساق ؛ وظلم بينه وبين الناس ؛ وظلم بينه وبين نفسه .
الصر : أصله الشد . والصرة ما تمقد فيه الدراهم . وقد أخذ منه أصر على الذنب بمعنى شد عليه وامتنع عن الإقلاع عنه . والإصرار : كل عزم شددت عليه .

السنن : سن الحديد إسناته وتمهده . وقد قيل من الأسالة سننت الماء أي أسلته وسكبته . والسنة . الطريقة . وسنة الله تعالى تقال لطريقة حكمه وطريقة طاعته .
البيان : الكشف عن الشيء وتوضيحه . ويسمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره ، نحو « هذا بيان للناس » .

الهداية : الدلالة بلطف . وهداية الله ضرور : منها ما عم به كل مكلف : من العقل ، والفطنة ، والمعارف الضرورية . ومنها ما جاء على لسان الأنبياء . ومنها التوفيق الذي خص به من هدى من عباده ، وهو المراد بقوله : « والذين اهتدوا زادهم هدى » .

أسباب المغفرة :

المعنى - « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » : بادروا الى تحصيل الأسباب الموصلة الى المغفرة والى الجنة .

وهذه الأسباب على تنوعها واختلاف ضرورها ترجع الى طاعة الله ورسوله ، والى الإيمان والعمل الصالح « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . « فن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

سمة الجنة :

وقد جاء في هذه الآية : « وجنة عرضها السموات والأرض » ، وفي آية أخرى « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » . ومعنى الآية على ظاهرها أنه لو وضعت السموات واحدة بجوار الأخرى ، ووضعت الأرضون كذلك ، لكان مجموع هذا كله هو عرض الجنة . وقد يصح أن يكون العرض الإخبار عن السمة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلق الله ، وخص العرض بالذكر للمبالغة لأنه يكون عادة أقل من الطول . والعرب تصف الشيء بالعرض إذا أرادت وصفه بالسمة . ولذلك يقولون : أعرض فلان في المكارم إذا توسع فيها .

مكانها :

وعلى المعنى الأول لا يمكن أن تكون الجنة في السموات والأرض ، بل يجب أن تكون خارجة عنهما ، وليس هناك ما يمنع من هذا ، فإن خلق الله أوسع من السموات والأرض . والعلماء الآن يقولون إن هناك كواكب لمتما يصل نورها إلينا حتى الآن . ولا شبهة في خروج هذه الكواكب عن السموات المعروفة .

وعلى المعنى الثاني يصح أن تكون في السموات ، وأن تكون خارجة عنها . ونحن لا يعنيها أن نعرف موضع الجنة ومكانها : في العالم أم خارجه ؟ ولا أن نعلم أجزائها وكنيتها تركيبها ، وإنما الذي يعنيها ويفيدنا أن نعرف الطرق الموصلة إليها . وقد تكفل الله سبحانه ببيانها ، كما بين بعض أوصافها المرغوبة فيها .

وجودها :

« أعدت للمتقين » : هيئت لمن أطاع الله سبحانه وجعل بينه وبين المصطفى حجاباً . والآية تدل نظائرها على أن الجنة مخلوقة الآن ، لأن الفعل الماضي يُفهم هذا . غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى : « وتفتح في الصور فصمق من في السموات ومن في الأرض » فلا يدل على خلقها الآن . والبحث في هذا لأفادة له ، ولا طائل تحته .

الاتفاق :

« الذين ينفقون في السراء والضراء » :

هذا وصف من أوصاف المتقين الممدوحة . وستأتي لهم في الآية أوصاف أخرى ، هي : كظم الغيظ ، والمغفو ، والاحسان . وقد وصف الله المتقين أول سورة البقرة بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ، ويطيعون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، ويؤمنون بما أنزل على الأنبياء

جميعهم . ويبر في آية « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » أنهم المؤمنون الذين ينفقون المال على حبه ، و يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصبرون في البأساء والضراء ، ويوفون بالعهد . ووصفهم في آيات غير هذه بأوصاف أخرى .

السر في تعدد أوصاف المتقين :

والسر في تعدد أوصافهم وكثرتها : أن التقوى جامعة لصفات الخير ، فهي تستوعب صفات كثيرة من صفاته فرقت في مواضع من الكتاب الكريم لمساببات خاصة .

والسراء : الحالة التي تسر : من يسر ، ورخاء ، ومجدة ، وجاء ، وكثرة أولاد وعشيرة .

والضراء : الحالة التي تصر : في النفس أو في البدن أو في خارج عنهما .

والمنعى : أنهم ينفقون المال في جميع أحوالهم ، لا تمنعهم حالة فرح وسرور ، ولا حالة محنة وبلاء ، وسواء عليهم أكان الواحد منهم في عرس أم في حبس ، فإن البذل طبيعة لهم ، وحبه مستقر في نفوسهم . وغير خاف أن هذه الصفة أنفع للبشر من سائر الصفات ، لأن أثرها متعدد إلى الجماعة الإنسانية ، تنتفع به ، كما ينتفع المتصف بها بالذمة النفسية العاجلة والجزاء الآجل . وهي من الصفات التي يقل المتصفون بها ، لأن الاتفاق شاق على النفس ، والمال عدل الروح كما يقولون ، لأنه وسيلة من وسائل حفظ الحياة والترفيه عنها عند الشدة . لذلك قدم الله هذه الصفة على غيرها من صفات المتقين .

القرآن والبذل :

عن الإسلام أشد العناية بالصدقة والبذل . وقد حث عليها الكتاب الكريم في سور كثيرة جدا ، ويكاد نظام الصدقات الغير المفروضة يكون كاملا في سورة البقرة من قول الله سبحانه : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله » إلى قوله « يأياها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين » . وفي هذه الآيات حث على الصدقة ، وبيان أنه يجب أن تكون خالية من المن والأذى ، وأن تكون من طيبات الكسب لا من المال الخبيث . وفيها بيان أن إخفاءها أفضل من إظهارها .

وفي الحديث الشريف « على كل مسلم صدقة . قيل : فإن لم يجد ؟ قال : يمسك ويتصدق » . وفي الحديث أيضا : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . فهذه العناية في الكتاب والسنة ترمي إلى غرض واحد هو أن يكون البذل خلقا من أخلاق المسلمين وعادة لهم .

فائدة البذل :

ولا شك أن البذل على هذه الطريقة يقوى روابط الأفراد بعضهم ببعض ، ويصلح شأن

الجابحات ، ويحقق سعادتها ، وينفي ضغينة الفقراء على الأغنياء ، ويزيل آلام أهل الزمانة والعجز ، ويوجد التراحم ، وينسي العاطقة ، ويحقق معنى الأخوة .

المسلمون والبنك :

حرص الإسلام على هذا أشد الحرص . ولكن المسلمين ابتعدوا عن هذا الهدى الإلهي ، وسلك طريقه غيرهم ، وأصبحوا يرمون المسلمين بمجمود العاطقة ، وينسبون ذلك إلى الإسلام ، ويباهون بما أوجدوه من معاهد ومصححات ، ودور تعلم ، وأمكنة للفقراء والمعجزة .

كظم الغيظ والعفو :

« والكافمين الغيظ والعافين من الناس » :

أي الذين حبسوا غيظهم مع امتلاء قلوبهم منه ، وصبروا على الأذى والمكروه ، فلم تظهر عليهم آثار الألم النفسى وتهيج الدم الذى يصاحب هذا الألم عادة ، ولم يصدر منهم أذى لمن غاطهم ، والذين تجاوزوا عن عقوبة من استحق العقوبة ابتغاء رضوان الله ومحبة . وهذان وصفان من أوصاف المتقين .

ولا ينفى أن العفو على هذه الصفة محمود فى حقوق الأشخاص . أما حقوق الله تعالى فلا يجوز العفو عنها إلا ما كان منها للامام عند المصلحة واقتضاء السياسة الشرعية . وأما العفو عن حقوق الأشخاص إذا ترتب عليه طمأن المفعو عنه وضراوته على الشرف فلا يصح . وهذا موضع دقيق من أبواب السياسة الشرعية . ولعلماء فيه حديث طويل .

الإحسان :

« والله يحب المحسنين »

ومن الممكن أن يكون هذا وصفا رابعا للمتقين معطوفا على الأوصاف السابقة ، كأنه قال : والمحسنين والله يحب المحسنين . ويكون ذكره على هذا النحو لاعتبار المثال السابق ، للإشارة إلى علو قدر الإحسان . ومن الممكن أن يكون المعنى : إن الذى سبق من الأوصاف يعد إحسانا والله يحب المحسنين .

والإحسان : الإتيان بالعمل على الوجه اللائق . وقد عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والعبادة على هذا النحو لا بد أن تكون عامرة بالإخلاص والمراقبة ، لا يشوبها الرياء ، ولا يقصد منها الكيد .

ومن لطيف ما يروى : أن جارية لعملى بن الحسن كانت تسكب الماء عليه فسقط الإبريق من يدها فشح رأسه ، فرفع رأسه إليها فقالت : والكاظمين الفيض . فقال : كطمت غيظي . فقالت : والعافين عن الناس . فقال : عفا الله عنك . فقالت : والله يحب المحسنين . قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله !

والوجه الأول في فهم الآية هو المتبادر فيها .

الاستغفار والإصرار على الذنب :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » :

اسم الموصول يصح أن يكون معطوفاً على المتقين ، ويكون قوله « أولئك جزاؤهم » إشارة إلى الفريقين - فريق المتقين ، وفريق الذين إذا فعلوا فاحشة ذكروا الله . ويصح أن يكون مبتدأ خبره أولئك جزاؤهم .

والمعنى على الأول : أن الجمة أعدت للمتقين وللذين إذا فعلوا دنبا فاحش القبح أو أى ذنب آخر ذكروا مقام الله جل شأنه ، وما يجب أن يكون العمد عليه أمام ذلك الجلال . من فعل الطاعات ، وترك اجتراح السيئات ، أودكروا نهيهِ ووعيدهِ فطلبوا المغفرة منه ، وأقلعوا عن الذنب ، وتركوا الإصرار عليه في حالة علمهم بأنه ذنب . وفي هذا دلالة على أن الذي يفعل الذنب ولا يعلم أنه ذنب ولا يعلم وعيد الله عليه يكون معذورا غير مؤاخذ ؛ وعلى أن المؤمن لا يرتكب فعل الموبقة علما بأنها موبقة . ونظير هذا قول الله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليا حكيما » . وأما حديث : ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة ، فحديث ضعيف لا يتفق معناه وما جاء في الكتاب العزيز .

والمعنى على الثاني : الذين فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الخ جزاؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

ولعمري درجتان : عليا وهي ترك الشر لأنه خروج على النظام الإلهي ، ودنيا وهي ترك الشر خوف العقاب . وقد قيل : إن الله أوحى إلى موسى : ما أقبل حياء من يطعم في رحمتي بغير عمل ! كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي ! وعن بعضهم : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الضرور ، ورجاء الرحمة بمن لا يطاع حق وجهالة . وعن الحسن رضي الله تعالى عنه : يقول الله تعالى يوم القيامة : جوزوا الصراط بفقرى ، وادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم .

وقوله تعالى : « ومن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ » جملة جيء بها بين المعطوف والمعطوف عليه للبحث على المبادرة الى الاستغفار ، والتوجه بطلبها الى الواحد القهار ، لأنه وحده هو الذى يغفر الذنوب جميعا ، فان رحمته وسعت كل شيء ، وقد كتبها للمتقين ، وللإشعار بأن المذنب لا يَصِحُّ أن يَأْسَ من رحمة الله ، فإن باب الرحمة مفتوح أمامه متى تاب وأُتِىَ وأُقْلِعَ عن المعصية . وقد قال الله تعالى : « إِلَّا مِنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . والجملة استفهامية فى معنى السئى ، ومعناها أنه لا يغفر الذنوب أحد إلا الله سبحانه وتعالى .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وحسنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » .

هذا إما أن يكون جزاء للفریقین - المتقين ، والذاكرين الله إذا فعدوا الخ . وإما أن يكون جزاء للفریق الثانى خاصة ، وذلك بناء على ما تقدم من الوجهن . وقد ورد فى القرآن الكريم لفظ الجنة والجنان كثيرا فى مقابلة النار . والجنة فى اللغة : البستان ، وليس المراد هنا بلا شبهة ذلك المفهوم اللغوى ، بل المراد دار الخلود والنعيم فى الدار الآخرة . ويجب الايمان بها كما يجب الايمان بالنار . ولا تتجاوز فى البحث ما ورد بشأنهما من المصوص . وقد ذكرت الجنة مقترنة بالانهار وأنواع من الشجر المثمر وغيرهما ، وهذا يدل على أن دار النعيم سميت جنة لا شتمالها على الجنات .

« ونعم أجر العاملين » :

معناه : ونعم هذا الجراء أجرا للعاملين . والبس متفاوتون فى هذا الجزاء بتفاوتهم فى الأعمال .

سنة الله فى الاجتماع :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » :

يقول الله جل شأنه : إن نظام الاجتماع البشرى حرى على سنن ثابتة وقواعد لا تتغير ، كما جرى النظام الكونى على هذه السنن . والامة التى تسير على هذه السنن وترافقها وتعمل عليها ، هى الامة النائرة التى تنال الحظ الأوفر والنصيب الأعظم فى هذه الحياة . والامة التى لاتراقب هذه السنن بأن مجهلا أو تملها ولا تعمل عليها بل تعمل على مقتضى الشهوات العاجلة ، أمة يعاجلها الله بالفناء والنيل ، ويماقبها بالخرى والهوان .

ومن السنن الالهية التى تسعد بها الامم : العلم والخلق القويم ، والايمان بالله والدار الآخرة والنبيين والكتب ، وطاعة الله ورسوله .

ومن السنن التي تسعد بها الأمم : القسوة والمنعة ، والسعي للحصول على أسباب القوة مادية ومعنوية .

ومن السنن : العدل ، وفناء الفرد في الجماعة ، واعتبار نفسه فردا منها يعمل لمصلحتها لا لمصلحته الذاتية .

والأمم التي تفرط في هذه السنن تبتلى بالنكال والويل . جرت الأمور على هذا في القديم والحديث . وقد طلب الله إلينا الاعتبار والعظة ، وأمر بالسير في الأرض لتعرف أحوال الأمم وأسباب سعادتها وشقاها .

ومن قبيل السير في الأرض قراءة السير وتاريخ الأمم ونظم الاجتماع والسياسة . وقد تكرّر في القرآن الكريم ذكر السنن : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » :

ما ذكره الله تعالى من أن الله سننا هو بيان لكافة الناس يفهمه كل من له عقل مستعد لفهم ، أما أنه هدى وموعظة ، فذلك لمن اتقى الله خاصة لأنه هو الذي يعمل بما يعلم ، ويتعظ بما يمر أمامه من العظات والعبر .

نموذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهداية والطف !

المكثار لا يأمن العثار

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لجرير بن عبد الله : « إذا قلت فاجز ، فإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف » .

وقيل لعدي بن حاتم : أي شيء أوضع للانسان ؟ قال : كثرة الكلام .

وقال حمير بن يحيى : إذا كثر الكلام اختل ، وإذا اختل اعتل .

وقال هو أيضا : خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيسل .

وقال معاوية لمعمر بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال : من ترك الفضول ، واقتصر على الإيجاز .

وقال خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا كثرة الهذيان ، ولكنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجة .

وقال هو نفسه : عي يذرى بك ، خير من هذر يأتى عليك .

الأخلاق الفلسفية

— ٩ —

(ج) الفرائض

أهمية غريزة حفظ النوع :

أما غريزة حفظ النوع فهي كغريزة حفظ الذات، متصلة تأصلاً وثيقاً بكل أفراد الكائنات الحية من الإنسان إلى « الأميبة » ذات الخلية الواحدة، وهذه الغريزة هي التي ملأت كوكب الأرض وما يتصل به من فراغ بهذه الملايين التي لا تندرج تحت حصر من الكائنات الحية . وأنم مظاهرها — فيما يرى هذا البعض من العلماء — هو الاتصال الجليسي بين ذرات الكائنات وإنائها لا إنتاج أفراد الجنس والاحتفاظ ببقائه ضد الفناء الذي سوف لا يتمكن من القضاء عليه إذا هو أباد الكثير من أفراد . وقد أرجع هذا الفريق من العلماء رقبة الصلة الجذسية إلى هذه الغريزة ، كما أرجع إليها الغريزة الوالدية ، فقرر أن محبة الوالدين أبناءهم ليست إلا أحد آثار غريزة حفظ النوع ، ثم استنتج بعد هذا التقرير أن غريزة حفظ النوع أقوى تأثيراً وأبعد مدى من غريزة حفظ الذات ، لأن الوالدين يؤثران أبناءهم وبناتهم على راحتهم وصحتهم ، بل وعلى حياتهم نفسها . وعند ذلك تولى غريزة حفظ الذات مهزومة أمام غريزة حفظ النوع القسوة الجبارة . وقال هذا الفريق أيضاً : إن غريزة حفظ النوع هي أكثر الفرائض تأثيراً على الأخلاق ، لأن محبة الغير والعطف عليه ، وإيثاره أحياناً والتضحية في سبيله ، كل هذه الأخلاق مستمدة من عطف الوالدين على أبنائهم ، إذ كان الإنسان في بداوته الأولى لا يحب ولا يؤثر إلا ابنه ، ثم توفقت هذه العاطفة عنده حتى تعدت الأبناء إلى أفراد القبيلة ، ثم إلى أبناء الجلمدة ، ثم إلى الجمعية البشرية عامة . وقال : إنها هي التي شذت أنانية غريزة حفظ الذات التي جعلت كل كائن لا يهتم إلا بنفسه ، وكسرت من حدة أنانية الكائنات الحية حتى جعلتها صالحة للوجود . ولولاها لما تحول العنى والفتنة المراحل الطروباني ، بل التزقان الطائشان ، إلى والدين ساكنين يحملان الهموم ويفكران في مستقبل الأسرة التي غرسا نبتتها ، متأثرين بدافع غريزة حب النوع القوى الشديد البطش .

ولقد غالى بعض أفراد هذا الفريق فأرجع غريزة حب التفوق إلى غريزة حفظ النوع ، فزعم أنه ما رغب أحد في النجاح ولا طمع في المجد ولا أغرم بالعظمة إلا لسكني يحقق مطالب هذه الغريزة . وقد أرحموا إليها كنفك غريزة حب الملك والاستعواذ ، لأنهم توهموا أن

الإنسان لا يرغب في الامتلاك إرضاء لشهوة في نفسه ، ولا إطفاء لرغبة في فطرته ، وإنما أغرم بالثروة ليطمئن على أبنائه ، وليضمن مستقبلهم . أما أنا فأرى أن كل هذه الغرائز مستقلة قائمة بذاتها ، وأن كل مظهر من هذه المظاهر ما هو إلا تلبية لمناد داخل فطرت عليه الطبيعة الإنسانية بشكل مستقل هيأها له مبدع الخلائق تهيئات لا يربط واحدة منها بالآخرى أى رباط ، وإلا فإلى متى يستطيع أن يثبتنا بالفرق بين شهوتي الطعام والواقع ، ويدعى أن الأولى غريزة مستقلة ، وأن الثانية مظهر من مظاهر غريزة أخرى إلا إذا كان متحكما ؟ على أن هذا المتحكم قد يقول لنا : إن كليهما مظهر لغريزة جوهرية . فأما شهوة الطعام فهي أحد مظاهر غريزة حفظ الذات ، لأن القوت لازم للحياة . وأما شهوة الواقع فهي أحد مظاهر غريزة حفظ النوع . وعند ذلك توجه إليه هذا السؤال : لماذا لا نعتبر هذا الميل الأخير مظهرا من مظاهر غريزة حفظ الذات كذلك ما دمت توافقنا على أنه لازم من لوازم حفظ الجسم كامل الصحة ، مستمتعا بالمعاقبة ؟

هذا هو ملخص رأى الفريق الأول من علماء النفس في الغريزة . أما الفريق الثانى فيعتبر كل واحدة منها جوهرية قائمة بذاتها ، ناشئة من انفعال داخلى قد هيأه الخالق جل وعلامكانه في الجسم الإنسانى ، ونظم له طريقه الخاص به بين مسالك الأعصاب وتعاريج الغدد . وهما نستطيع أن نقف وقفة دهشة واستغراب عند رأى الذين يقولون : إن الغرائز نتيجة مران طويل قام به كل نوع من أنواع الكائنات الحية ، فنقول لهم : لو كانت الغرائز نتيجة مران للنوع لما ارتقت عدة أنواع في غريزة واحدة ، لأن مران كل نوع يختلف عن مران الأنواع الأخرى . ولو كان الأمر كذلك ، لازم أن يأخذ الجسم بعد المران شكلا جديدا في الأعصاب والغدد والمضلات ، ليوجد فيه استمداد للغريزة الجديدة . وفوق ذلك فكأن أصحاب هذا رأى يزعمون أن غريزة حفظ الذات مثلا لم توجد في الإنسان إلا بعد أن رأى الخطر محققا به ، وأنه يجب عليه أن يحفظ ذاته ، وأن يشغف بكل ما ينميها ويقويها . وهنا تولدت عنده غريزة حفظ الذات ، وهلم جرا . ولا ريب أن هذا قول أقرب إلى اللغط والهرء منه إلى المنطق المستقيم والبحث المنظم والتفكير الدقيق .

أما الفريق الثانى الذى يقول باستقلال الانتفاعات ، فقد أوصل الغرائز المستقلة الى أربع عشرة غريزة ، واعدوا لآكثرها انفعالات داخلية نشأت عنها . وإليك مثلا موجزا من هذه الغريز : (١) غريزة النوع ، والعامل المؤثر فيها : الشهوة الجنسية . (٢) غريزة البحث عن القوت ، وعاملها شهوة الطعام والشعور بالجوع . (٣) الغريزة الوالدية ، وعاملها المحبة الأبوية والأموية . (٤) الحرب ، وانفعاله الخوف . (٥) الاقتناء والادخار ، وعامله شهوة الملك . (٦) القتال والتنازع ، وعاملها الغضب . (٧) النبذ ، وعامله التنقز . (٨) الاجتماع ، وعامله الحنين .

(٩) غريزة السيطرة ، وعاملها الوجدان الإيجابي . (١٠) غريزة الخضوع ، وعاملها الوجدان السلبي . (١١) غريزة حب الاستطلاع ، وانفعالها النفساني هو التعجب . وهلم جرا .

تقسيم الفرائز :

قسم بعض علماء النفس الفرائز الى فصائل مختلفة ، مجتمع أفراد كل فصيلة منها تحت راية واحدة ، فسمى الفصيلة الأولى بالفرائز الشخصية ، وقد جمع تحت رايته كل ما يتعلق بحفظ الذات : كالبحث عن القوت ، والحرب من الغناء ، والسيطرة على الغير ، والخضوع له . ودعا الثانية بالفصيلة الوالدية ، وقد ضمنها غريزة محبة الوالدين للأبناء ، ودفاعهم عنهم ، وكل ما يتعلق بذلك .

وعنون الثالثة فصيلة الفرائز الاجتماعية ، وهي شاملة لكل ما يجذب الانسان نحو مجتمعه الذي يعيش فيه .

وسمى الرابعة بفصيلة المطابقة البيئية ، وهي جامعة لكل ما يربط الشخص ببيئته من الفرائز : كشاركة هذه البيئة في الاستهواء وحب الاستطلاع ، وكغريزة التقليد البيئي

وسائل تعديل الفرائز :

أجمع علماء النفس على أن الفرائز يمكن تعديلها وتربيتها ، وقد ذكرنا لهذا التعديل وسائل كثيرة ، من أهمها : (١) تغيير البيئة الصالحة لنمو هذه الغريزة واستبدالها ببيئة تصطدم معها ، لكي تتمطل وتضعف شيئاً فشيئاً حتى تنخبو حدوتها . (٢) استعمال غريزة ضد أخرى ، لكبح جماح الأولى : كقاومة غريزة السيطرة على الغير بغريزة الخضوع والاستسلام ، وكقاومة غريزة الهجوم بغريزة الخوف . (٣) الثواب والعقاب فانهما وسيلتان من وسائل تعديل الفرائز وتربيتها . (٤) إعلاء الفرائز وتوجيهها الى سبل أسمى من سبلها الأولى : كاستعمال غريزة الخوف من المظاهر المادية في الخوف من جرح العاطفة والتعدي على الكرامة ، وكتوجيه غريزة الهجوم لافتراس الضعفاء الى الهجوم ضد الظالمين ولنصرة الضعفاء . (٥) التثقيف وتنوير الذهن ، فانهما من خير أنواع العلاج الذي يستعمل في كبح جماح الفرائز ، وتسييرها بطريقة ممتدة ، واستخدامها للوصول الى غايات الخير والسعادة .

الدكتور محمد مغرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

اللغة العربية بين القوة والضعف

في برامج الدراسة — دعائم الإصلاح

— ٢ —

لما هممت بالكتابة في موضوع اللغة العربية ، ومهدت له بمقالى السابق واصفا فيه بعض مظاهر العواصف الثورية التي ولدتها النهضة الأدبية في مصر ، عولت على أن أتبع آراء العلماء والباحثين من رجال الإصلاح تسجيلا لتلك الآراء ، وجمعا لأطراف الموضوع ، وتصويرا له في صورته العملية حتى يمكن أن نجمل من هذا البحث وحدة شاملة لتشخيص الداء الذي قعد باللغة عن النهوض الى المستوى اللائق بمكانتها من الحياة ، ووصف العلاج الذي إذا اعتمد عليه دعاة الإصلاح نهضت باللغة وأعادها الى محدها العتيق ، تفعل ذلك قصدا الى إسعاد من ييهم أمر التنفيذ ، وهذا في نظرنا واجب على كل من يتصل بخدمة هذه اللغة الشريفة .

أظننا ، أو كاد ، موسم الامتحانات العامة ، وفيه تتكشف سوءات البرامج التعليمية للغة العربية ومناهجها المدرسية التي تجعل من دروس اللغة صورا تلقينية لا تتصل بتفكير الطالب وتكوينه الثقافي ، وخير الطلبة حينئذ من ينقل حافظته بمجموعة من الألفاظ يضعها على ورقة الامتحان كما يصف عامل المطبعة حروف موضوع من الموضوعات دون أن يعلق بنفسه وذمه أثر فكرى أو حمل من آثار ذلك الموضوع ، وهؤلاء هم الأفلون الذين يثبون وثبا الى الصف الأول في ترتيب النجاح ، أما الكتلة العظمى فهم أولئك الذين ينظرون الى اللغة العربية نظرة الكراهية والنقل ، ولا يعرفون عنها كثيرا ولا قليلا ، وهم الذين يبدو في أجوتهم ذلك الصعف الزرى ، وتتمثل في طرائق إجاباتهم هلهلة الأسلوب ومجبة الأداء ، مما يشعر الناظر إليها لأول وهلة أنهم أباعد عن فهم هذه اللغة وقواعدها ، فهم يشعرون فيها لغما التائه في مجاهل الصعراء .

يلبس الاساتيد ضعف الطلبة في اللغة أثناء عملية التصحيح ، أو هم بالحرى يشعرون به في أوقات الدراسة ، لأنهم إذ ذاك الصق بالتلاميذ ، وأعرف بهم ، وأقدر على كشف خبيثة حياتهم العلمية ، وليس الامتحان إلا مظهرا من مظاهر التورية وكشف المستور ، وهو مع ذلك صاحب الفضل الأول في تنبيه الغيورين على لغتنا الى هذه الصيحة الداوية في طلب الإصلاح وتدارك الأمر قبل الفوات . وقد كان الإحساس بضرورة الإصلاح شاملا للجمهرة من الأدباء وعلماء اللغة والرحميين من رجال المعارف الذين أفرعهم ما شاهدوه من الجهالة الفاشية في جميع فرق الطلبة على اختلاف أعمارهم التعليمية ، وتمدد المراحل التي قطعوها في حبرات الدرس ، فعبروا عن ذلك في تقاريرهم الرسمية التي رفعوها الى الوزارة فسجلته ، في بلاغ رسمى نشرته

الصحف : أنها « لاحظت في تقرير حضرات المفتشين أن كثيراً من طلبة المدارس الأميرية ولا سيما طلبة بعض كليات الجامعة ضعاف في اللغة العربية » وقد عنت الوزارة بهذا الأمر وكانت مفتشية لبحث عن معرفة أسباب هذا الضعف . وقد بحث المفتشون عن الأسباب ومثلوها في تقريرهم في ثلاثة أسباب : (١) المناهج (٢) قلة الحصص (٣) ضيق مكتبة التنفيذ . وقد انتظرنا وانتظرت اللغة معنا أثر هذه العناية من جانب الوزارة ، فمرت الأيام تتلوها الأيام ولم تبد الوزارة حراكاً ، حتى رسد أمر المعارف إلى العالم الصليح صاحب المعالي بهي الدين بركات باشا ، فأبدى اهتماماً حمده له ، وارتقبوت لنهضة الثقافة عامة واللغة والأدب خاصة في عهده الميمون .

كان حميلاً من معالي وزير المعارف — وهو المشرف الأعلى على مرافق الثقافة في الأمة المصرية التي تدين لها الشعوب العربية بالزعامة الأدبية — أن يتحدث في قضية اللغة العربية حديثاً نشرته الصحف ، وتناوله العلماء والباحثون والشرح والتعليق ، فبعث إلى قلوب المتوجسين حيفة على مستقبل العربية البقين والطمانينة . ومن حق مصر — ومركزها في الشرق مركز القدوة والزعامة — أن تعمل جهدها للحرص على زعامتها العظيمة التي ستكون لها نتائجها الخطيرة في مستقبلها ، وأول مظاهر هذا الحرص العناية بلغة القرآن الكريم ، وإنهاصها من كبوتها حتى يعود لها سؤدها الذي كان لها في عصور الإسلام الذهبية . ومن حق وزير معارفها أن يمسئد العناية بإبراز ذلك المظهر فيما يفضي به من حديث ، وبما يتخذ من وسائل لتوطيد الإصلاح الأدبي في أسلوب اللغة وماهجها الدراسية . ومن واجب المصلحين من رجال اللغة والأدب أن يكونوا رداً صالحاً للوزير الجليل على تنفيذ خطته الإصلاحية حتى يكون من تضايف القوى أثر صالح ، وعمل مشر يحقق للعربية ما تصبو إليه من قوة وارتقاء .

عرض الوزير في حديثه عن قضية اللغة العربية إلى أمور مهمة تقع مما نحن بسبيل البحث فيه موقعاً عظيماً ، هو الذي دفعنا إلى تخصيص نقاطه التي تتصل بصميم الموضوع ، وبسط ما فيها من جمال ، ثم نقى بذكر ما نرثيه معتمدين على تقريب الأمر إلى حيز العمل والتنفيذ . أبدى معالي الوزير ما لاحظته منذ ولي وزارة المعارف في المرة الأولى « أن اللغة العربية لا تزال غريبة على الطلاب ، وأننا لم نستطع أن نجعلها سهلة التداول ، ولأن نبلغ بطلبتنا المستوى الذي يصل إليه نظراؤهم من الطلاب في البلاد الأجنبية بالنسبة لاعتهم »

هذا قول صادق ، لأنه يصف الواقع الذي أحس به جميع المشتغلين بخدمة الثقافة والأدب ، ولكن المغزى البليغ فيه أنه جاء على لسان الوزير بعد أن سجد رجال المعارف في تقاريرهم التي أصابتها منذ وصلت إلى أضياف الوزارة سكرة الراحة والهدوء من عاء السفر الطويل ، فندمت إلى أن يدق لها جرس المنبه الأعظم ، فكان هذا الحديث هو ذلك المنبه الذي أيقظها من رقدتها .

لم يقف معالي الوزير في حديثه عند حد تشخيص داء اللغة في طلابها ، بل ذكر ما يراه من وسائل العلاج والإصلاح في ثلاث نواح مختلفة ، وهذا في نظرنا هو موطن الأهمية من حديث الوزير :

(الأولى) جعل الكتابة العربية مفهومة ، مع المحافظة التامة على خصائص الخط العربي .

(الثانية) تسهيل قواعد اللغة والبيان بحيث يستطيع الأشخاص العاديون إدراكها من غير عناء .

(الثالثة) تغيير نظم التدريس تغييراً يجعل الطلبة يعتادون التحصيل والدرس بأنفسهم دون أن يكونوا على الدوام مجرد آلات لحفظ ما يلقى عليهم .

ثم شرح هذه المسائل شرحاً وإن يكن مجملاً لكنه وضع به أيدي المصلحين على موطن الداء في كل واحدة منها ، فقال في الأولى : « إن الولد المصري لا يستطيع في سن التاسعة أو العاشرة أن يقرأ غير كتب الأفعال المشكولة ، ولا يستطيع أن يقرأ حريدة أو إعلاناً ، إذ أن القراءة عندما ليست وسيلة الفهم ، وإنما هي وسيلة القراءة » . وكل معاليه أمر علاج هذا الموضوع إلى المجمع القوي ، لأنه الهيئة الفنية التي تصطبغ بهذا النحو من الإصلاح .

وقال في المسألة الثانية : « إن قواعد النحو والصرف واللغة لا تزال تدرس الآن بنفس الطريقة القديمة التي مضت عليها قرون وقرون من غير أن تتطور في أسسها ولا في شكلها » . وأهاب معاليه بالعلماء « أن يسهلوا تلك القواعد ويبسطوها » .

وقال في المسألة الثالثة : إنه « لاحظ أن لبرامج في التعليم الثانوي تخصص أكثر من نصف المحصل لتعليم اللغات ، ومع ذلك فإن الطلبة الذين يتخرجون في المدارس لا يبلغون المستوى الذي تتطلبه الحياة العملية » ووضع لعلاج ذلك الاقتراح الآتي : « وهو تكليف الطلبة في المدارس الثانوية ، وفي الفرق الأخيرة من المدارس الابتدائية ، بدراسة كتاب أو كتابين يختارهما الطالب من بين قائمة كتب توصي بها المدرسة عند بدءه الإجازات ، على أن يمتحن الطلاب في أول العام الدراسي التالي فيما يكونون قد درسوه من تلك الكتب ، ويمتحنون درجات يحاسبهم في نجاحهم آخر العام » .

هذا رأى معالي وزير المعارف العالم الحليل ، غصناه بأوسع الجهد لنضمه تحت أنظار قرائنا حتى يحيطوا علماً بما يتصل بموضوع بحثنا ، وهو حد خطير . وليس ريب في أن هذا الرأي سيكون له أكبر الأثر في الإصلاح المنشود لسببين : (أولاً) لما اشتمل عليه من حقائق عملية ارتفعت بالبحث عن حيال النظريات المجردة . و (ثانياً) لأنه رأى رجل عظيم يقبض بيده على أزمة التنفيذ في كل ما يتصل بالثقافة ، وهو حريص أشد الحرص على أن ينفذ كل ما يثبت البحث فأثبته وثقه لغة العربية .

يظهر للتمام فيما ظهر من أحداث أو كتابات في الصحف أو في تقارير المفتشين أن الباحثين نظروا للموضوع من جهة المدرسية ، وهذا وإن يكن من دعائم الإصلاح لكنه ليس هو كل الإصلاح المطلوب ، فأنت أيها القارئ قد رأيت فيما سبقنا لك من رأى جماعة المفتشين أنهم قصروا الكلام على المباح والحصر ومكتبة التميز ، وفيما يخصناه من حديث الوزير أنه أدار بحثه على ثلاث نواح ، هي إصلاح الخط العربي ، وتسهيل تدريس قواعد اللغة والبيان وتغيير نظم التدريس .

والواقع أن قضية اللغة العربية في حاجة إلى بحث شامل يتناول برامجها الدراسية من قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ومناهج تلك البرامج ، وطريقة تنفيذها ، ويتناول أدب اللغة تاريخاً ونصوصاً وأسلوباً ، ويتناول فقه اللغة تحصيلاً وتنظيماً ، ويتناول تحبيب الفصحى إلى الناس حتى تكون لغة أبحاثهم وكتاباتهم . ولهذا أوجلتنا دعائم الإصلاح التي استقر عليها رأينا في :

١ - النظر في برامج دراسة اللغة العربية ومناهجها من جهة الكتب المقررة ، وصلة فنون العربية ببعضها ، وترتيب أبواب كل فن وتوزيعها على لفرق المختلفة ، وهذا يشمل النظر في برامج الجامعة الأزهرية ، ومدرسة دار العلوم ، وكلية الآداب والمدارس الأميرية ، والعمل على توحيد تلك البرامج بسبب الأعمار التعليمية للطلاب .

٢ - إصلاح أسلوب الحديث العام في مجتمعات الثقافة : مثل الجمعيات العلمية ، والأدبية ، والأندية التي يؤمها المتعلمون .

٣ - وضع رقابة فنية تسمى بأسلوب الصحافة من الناحية اللغوية والأدبية ، ويجب حينئذ تحريم الأسلوب العامي الذي تصدر به بعض المجالات .

٤ - خصوع جميع المصالح الحكومية في كتاباتها الرسمية لقوانين اللغة والأسلوب الأدبي بقدر المستطاع .

٥ - العمل على نشر الأسلوب الصحيح في عبارات سهلة عن طريق الخطابة والمحاضرات والمحادثات والشرائح الدورية في موضوعات تناسب حالة كل طائفة من الوجهة الفكرية ، كالوعظ الدينية ، والنصائح الخلقية ، والإرشادات الاجتماعية ، وأحداث الزراعة والصناعة والتجارة وما إليها ، مما يدخل في برامج محاربة الأمية والجهالة ، ونشر العلم والثقافة بين طوائف الشعب .

هذا - في رأينا - هو أهم ما يجب أن يولييه المصلحون عنايتهم في وقت أجمعت الآراء على أن الفرصة مواتية ، والإحساس بضرورة الإصلاح عام ، وأن رءوسا عالية قادرة تناولته فيجب ألا يذهب هذا الإحساس بددا ، وأن يقوم الإصلاح على جعل اللغة العربية لغة قومية للتمام بين طوائف الأمة ، ولغة أدبية في جميع وسائل الثقافة .

وسنن أن ذلك قريب الحصول لو وحسد العناية الكافية والرعاية الرقيقة . ولا تقصد الى أن تعلم الشعب قواعد النحو والعرف والبلاغة التي يمر عنها المتعلمون ، وإنما تقصد الى الإلماع في التلقين عن طريق الوسائل التي نشرحها حتى تتشرب النفوس الأساليب الصحيحة ، وتمتد الألسن العربية من طريق السذاجة الفطرية التي أمكن بها كل شعب أن يقيم لغة لتفاهمه .

وأما تدريس القواعد للتعلمين فسلمين أنه يجب أن يكون تدريجياً متمشياً مع الفطرة الأولى ، فتدرس القواعد العامة التي يكثر تداولها في الأحاديث العامة أولاً ، ثم يتبعها ما يتصل بها مع توسع قليل ، وهكذا حتى يكمل الفن مرغوباً فيه محبوباً .

صادق إبراهيم حمودة

حسن البديهة

عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص عن ولاية مصر وأسندها الى عبد الله بن أبي سرح ، فكثرت خراجها عما كان عليه على عهد سلفه ، فلما لقيه عثمان يوماً قال له : لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو !

فأجاب عمرو على الفور : ولستكم . عصفتم صفارها يا أمير المؤمنين ! كنى عثمان عن مصر باللقحة وهي الساقة الحلوب ، وأخبره بأنها أتت نابن فرير بعدد . فأجاب عمرو بقوله : ولستكم أهرتم صفارها بمدم ترككم لها ما يكفيها من الابن استئثاراً به .

ورثي يوماً كثير راكباً ومحمد بن علي الباقر رضي الله عنه يمشي معه . فقال له قائلاً : أتركب ومحمد يمشي ؟ فقال : هو أمرني بذلك ، فطاعني له في الركوب أفصل من عصياني له في المشي . وركب الرشيد ومعه جعفر فرأيا أحمالاً مقبلة ، فسأل الرشيد عنها فقيل له : هدايا خراسان . فقال الرشيد لجعفر : أين كانت هذه أيام أخيك ؟ (وكان والياً عليها) . قال في دور أصحابها يا أمير المؤمنين !

محترك الفلسفتين

الروحانية تجهز على المادية في أوروبا

لما انتشرت المادية في أوروبا وطغمت الى هدم جميع العقائد المبينة على وجود الروح ولعالم الروحاني ، وكادت تناع هذه الغاية بنشاط قادتها وأشباعهم ، تدارك الله الناس بانتداب حم غفير من علية العلماء للبحث في النفس البشرية على أسلوب علمي تجريبي ذي صلاح شتى ، فثبت لهم من طريق الحس وجود الروح والعالم الروحاني ، وتوالت البحوث في جميع عواصم العالم المتمدين وعقدت لها المؤتمرات ، وألفت فيها الاقاذيميات ، فسدط المذهب المادي سقوطا لا انتعاش له منه ، وأصبح اليوم وقفا على أهل الجود من الدين يزعمهم كل حديد .

ومن تولوا أكثر هذه الحركة المباركة من أعلام العلم المنارين العلامة (كاميل فلامريون) الفلكي الفرنسي الكبير ، فقد صحب جميع أدوارها في نحو ستين سنة من حياته الطويلة الخمسة ، وكتب فيها كتابا قيمة منها كتاب دعاه (الموت وفاهضته) يقع في أربعة مجلدات (La mort et son mystere) ، كافح فيه الماديين بالادلة المحسوسة فكان انتصاره عليهم باهرا . وهو ليس الوحيد في هذا الباب ، فهناك من أمثله مئات ، وإنما بدأنا به لتقديم عهده بهذه البحوث ، حتى إذا غصنا آراءه ، رحلنا الى غيره تباعا لئلا نلغ في صرح الثقافة العصرية لا بد من سدها ، لتصبح ثقافتنا كاملة من كل وجه ، والله المستعان :

كتب هذا العالم الجليل في المجلد الاول من كتابه المتقدم ذكره تحت عنوان (المادية مذهب ضال وناقص) صدره بكلمة حكيمة للاملة الالهي (كوبريك) وهي قوله : « لئلا نهدم الظواهر » قال فلامريون :

« ليس في الناس من يجهل (الفلسفة التجريبية) لا وجست كومت ، وأصالة ترتيبه للعلوم ، متزلا تدريجيا من الكون الى الانسان ، ومن علم العلك الى علم الحياة (البيولوجيا) .

« وليس في الناس من يجهل أيضا (ليقريه) حليقة نحوست كومت المذكور ، فإن معجبه مائل في جميع المكتبات ، ومؤلفاته منتشرة في كل مكان ، وقد عرفت شخصه ، وأقول إنه كان عالما عالي القدر ، من مؤلفي دائرة معارف القرن الثامن عشر ، ومفكرا بعيد الغور ، ولكنه كان ماديا ملحدا عن اقتناع ، ومخلصا لمذهبه للدرحة القصوى . وكانت دماة وجهه لا تتفق وجمال روحه . فقد كان واحدا من القئين إذا نظر إليهم فاطر صعب عليه أن لا يتذكر مذهب الاصل القردي للانسان .

الى أن قال :

« وقد اشتغل ليريه بالمسائل النفسية التي عولنا على بحثها هنا ، فلستطيع أن نعتد على براهنه اعتمادنا على براهن نديده (تين) (aine) ، باعتبار أنها أصول للحجج المادية الراهة . فلا تخش أن نكافهم وحها لوجه ، وأن نقبض على النور من قرنيه . »
« عقد ليريه فصلا في كتابه (العلم من الناحية الفلسفية) على الفيزيولوجية النفسية صرح فيه بما يأتي :

« اليوم لا يمكن الشك في أن الظواهر العقلية والخلقية هي من الحوادث الخاصة بالنسيج العصبي ، وأن الانسانية ليست إلا حلقة ، بل أعظم حلقة في الواقع ، من سلسلة ممتدة ليس لها حد مقطوع الى آخر درجة من الحيوانية . كذلك لا يمكن الشك تحت أي عنوان يضع الباحث الإنسان ، على شرط أن يستخدم الأسلوب الحسي المؤسس على المشاهدة والتجربة ، وأنه يكون عاملا في مجال الفيزيولوجيا لم يخرج عنه . أما أنا فلا أتصور وجود فيزيولوجيا لا تشغل منها النظريات والعواطف بكل ما هي عليه من سمو محلا عظيما . »

منافسة طاميل فلامبريون لبرنارد ليبير :

قال الأستاذ كاميل فلامبريون بعد نقل هذه القطعة عن ليريه :

« هذه هي قاعدة المذهب المادي في الروح وأنا أدعو القارئ أن يزن بدقة هذا النوع من الفهم . »

« قالوا : لا يجوز لنا أن نسلم بوجود الروح (لاسا لم نر قيام أية خاصية بدون مادة ، ولأننا لم نصادف قوة الجاذبة العامة بدون جسم ثقيل ، ولا الحرارة بدون جسم كهربائي ، ولا الآلة الكيماوية بدون مواد قابلة للاتحاد ، ولا الحياة والحس بدون كائن حي حساس مفكر . »

« والحقيقة أن هذا التدليل معيب فلسفيا ، لا بقاءه على التسليم بأمر يحتاج هو نفسه الى دليل يثبت ، وذلك الأمر هو (الخاصية) . »

« ثم إن تشبيه الفكر بالجاذبة والحرارة والآثار الآلية ، الطبيعية والكيماوية للأجسام المادية ، فيه نسوية بين شيئين مختلفين جدا لا تزال مسألتهما معلقة ، وهما الروح والمادة . »

« فإن إرادة الكائن الإنساني ولتكن إرادة فعل ، هي ميزة لشخصية واعية ، ولكن الحاذبة والحرارة والضوء والكهرباء فهي حالات غير شخصية ولا واعية ، ثم هي قد تكون في بعض الحالات المادية ضرورة عمية ، فصلا عن أنها أمور مادية بحتة . فإخلاف شاسع بين ركني هذا التشبيه كما بين الليل والنهار . »

« فهذا التدليل العلمي نفسه فاسد من أساسه ، فالحرارة مثلا لا تأتي دائما من جسم حار ، فان الحركة التي ليس فيها أدنى حرارة يمكن أن تنتج منها حرارة ، بل الحرارة نفسها شكل من أشكال الحركة . أما الكهرباء فاهيتها لا تزال مجهولة .

« وإنى لأصرح بأننى لا أفهم أن رجلا في مثل ألمعية (ليتره) زعيم المذهب المادى يكتفى بمثل هذا التدليل ولا يتبناه الى أنه دائر حول التسليم بأصل هو نفسه يحتاج لدليل ، أو حول لعب باللفظ . ذلك لأن هذا التدليل معتمد على كلمة (الخاصة) والذي كان يجب إثباته بالحس أولا هو أن (التسكر حاصية من خواص المادة العصبية ، وأن الشيء غير الواعى يمكنه أن يلتجئ الكائن الواعى ، مما هو فى الأصل متناقض) .

« إن الانسان قد يجروء بصموبة على تشبيه قطعة من الخشب بقطعة من المرمر ، أو بقطعة من المعدن ، ولكن أصحابنا الماديين لا يجدون بأسا من تشبيه الروح المدير ، والعقل المفكر ، وعواطف الحرية والعدالة والرحمة والارادة ، بوظيفة من وظائف المادة العضوية . فهذا الأستاذ (تير) يؤكد بأن الملح يفرز المفكر كما يفرز الكبد الصفراء ألا يتبين القارىء من هذا أن موطن العقل لدى هؤلاء الناس قد غشى لهامة لا تقبل عن صمابة اللاهوتيين ؟ ليس فيه دلالة على أن هؤلاء العلماء انقادوا لرأى ليس عليه دليل ، وخضعوا لمذهب تقليدى محض ؟

« بهما ونحن فى بداءة هذه المناقشة أن لا نعتد على الكلمات الجوفاء ، فاهى المادة ؟ هى فى العرف العام ما ندركه بحواسنا ، أى هى ما يرى وما يلمس وما يوزن . نسلم لهم ذلك الآن ، مع التصريح بأن الصحف الآتية ستثبت أن فى الانسان عنصرا مستقلا عن الحواس المادية ، أى أصلا عقليا شخصيا يفكر ويريد ويعمل ويظهر بعيدا عن جسده ، ويرى بغير العينين الجسديتين ، ويسمع بغير الأذنين ، ويكشف المستقبل الذى لم يوجد بعد ، ويبين أشياء مجهولة . فافترض أن هذا العنصر الانسانى الذى لا يرى ولا يلمس ولا يوزن خاصية من خواص الملح ، قول بلا دليل وتعمل متناقض ، كما لو قيل أن ملحاً يستطيع أن ينتج سكرا ، وأن السمك يمكنه أن يكون من سكان الأرض القارة .

« إن الذى زيد أن نبينه هنا هو أن المشاهدة الحسية نفسها (وليس لنا أسلوب فى البحث غير أسلوب ليتره) وتبين ولودانتك من أئمة المادية ، إذا أنارفض المذاهب البيزانتية فى الاعتماد على الالفاظ باعتبار أنها هذيان (. قلنا الذى زيد أن نبينه هنا أن المشاهدة العلمية والتحررة تثبت أن الكائن الانسانى ليس بمجرد مادى بحت له خصائص متنوعة ، ولكنه كائن نفسانى أيضا متمتع بخصائص تخالف خصائص الجسم المادى .

« عجبا ! كيف استطاعت عقول من أمثال كومت وليتره ويرتلو أن تتصور أن كل موجود

لا يمكن أن يخرج عن دائرة مشاعرنا ، وهي الآلات البعيدة المدى في القصور والنقص ؟ وعلى هذه القاعدة تستطيع السمكة أن تعتقد إن كان لها عقل فانه لا يوجد شيء خارج الماء ، والكلب إن افترض أنه يتعبدى لترتيب المعارف الكلية لا يرتبها اعتمادا على حاسة النظر كما يفعل الانسان ، ولكن اعتمادا على حاسة الشم ، والحائم السياحة لا تعمل في ذلك إلا على الحاسة التي تهديها في سيرها ، والجملة لا تركز إلا على حاسة عصبها المقدم الخ .

« الروح متسلطة على الجسد ، فذراته ليست نقائذة له ولكنها منقادة اليه ، وهذا الظن العقلي نفسه ينطبق على العكس يكون برمته ، وعلى العوالم الدائرة في الفضاء ، وعلى النباتات والحيوانات . فالورقة من الشجرة ممتعة بأعضاء ذات وظائف ، والبيضة التي تفقس ممتعة بأعضاء كذلك ، وهذا التمتع يعتبر من الأمور المصادرة عن عقل .

« فالعقل العام ظاهر في كل شيء ومالي للوجود ، وهو لا يخفى . ومن الحال أن يحل الانسان آلات العين والابصار والاذن والسمع بدون أن يستنتج أن عضو البصر وعضو السمع مصنوعان بعقل . وهذا الاستنتاج يكون أكثر وضوحا إذا حلت مسألة تلقيح رهرة وحيوان وإنسان ، وتطور البيضة النسوية الملقحة ووظيفة المشيمة (الخلاص) وحياة الجرثومة والخميرة ، وتكون هذا الكائن الصغير في بطن أمه ، والاستحالة العضوية للمرأة ، وحدث الابن في ثديها ، وميلاد الطفل ، والارضاع ، وتطور الطفل جسديا وقصيا ، كل هذه الأمور مظاهر لا تمقض لقوة مدبرة عاقلة ترتب كل شيء ، وتقود أصغر الجواهر المادية بمثل النظام الذي تقود به الكرات الكوكبية أو النجمية في هذه اللانهاية السماوية . وهذا العقل لم يتولد من مخ .

الى أن قال :

« وإسالم نفهم ما هو الله ، هذا أمر من الواضح بمكان ، وماذا يثبت هذا المعجز ما ؟ يثبت انحطاطنا الروحاني .

« أما من جهة وجود العقل المدبر ، والفهم ، والنظام العقلي في كل شيء ، فهذا أمر لا يمكن إنكاره . والعلم التحريبي يقف في الطريق إذا قرر أن جميع الحوادث الكونية تستحيل في نهاية تحليها الى المذهب التنوي أي المادة والحركة ، أو الى التوحيد الطبيعي المادة وحواسها . فالتاريخ الطبيعي وعلم النباتات والفيزيولوجيا الحيوانية والانتروبولوجيا (علم التاريخ الطبيعي للإنسان) تكشف جميعا للمشاهد عن عنصر متميز عن المادة والحركة ، هو الحياة . ألم يبين لنا (كلود برنار) الفيزيولوجي أن الحياة ليست نتيجة الترات المادية ؟

« وزيادة على هذا فإن الوجود يتكشف لنا عن حالة حركة مستمرة ، لأن الحركة ملازمة للذرات المادية أنفسها ، وهذه الحركة ليست من العالم المادي لوجود النظام شاملا للكائنات والأشياء كافة .

« المذهب الذي يعتبر الفكر الانساني وظيفة من وطائف المخ ، أو الذي يحاول أن يربنا تواريا وتوازنا بين عمل المخ وعمل الفكر ، نستطيع أن نعدّه كما عدّه البسيكولوجي (بيرغسون) Bergson مذهباً ناقصاً كل النقص .

« يقولون بأن الأشياء التي يتذكرها الانسان مخترنة في المخ على حالة محاولات مطبوعة في طوائف من العناصر التشريحية ، فإذا رالت من الذاكرة فذلك إلا لأن تلك العناصر التشريحية التي هي مستقرها تكون قد فسدت أو دثرت . والتأثيرات التي تأتي من الأشياء الخارجية تبقى في المخ كما تبقى على الزجاج الفوتوغرافية الحساسة أو على صفيحة الفوتوغراف » لا مشاحة في أن هذه التشبهات سطحية ، فانه إذا كان التذكر النظري لشيء من الأشياء مثلاً ناشئ من تأثير هذا الشيء على المخ : فلا يكون لهذا الشيء ذكرى واحدة بل ثلث من الذكريات أو ملايين ، لأن أبسط الأشياء وأبسطها يتغير في صورته وحجمه ولونه على حسب النقطة التي ينظر إليه منها ، ألهم إلا إذا قصرت نفسك على حد معين كلما نظرت إليه ، وكانت عينك تجرد في حجاجها فترسم على شبكتها الصورة بعد الصورة ثم تنتقل الى المخ صور لا يحمي لها عدد وغير قابلة لأن يرسم بعضها على بعض .

« فإذا تكور الخيال إذا كان التأثير البصري واقعا من شخص تتغير صورته ، وحسبه يتحرك ، ويختلف لباسا ومحميا في كل مرة تنظر إليه فيها ؟ مما لا نزاع فيه أن ضميرك لا يحفظ عنه إلا صورة واحدة ، وتكاد تكون لك ذكرى غير قابلة للتغير عن كل شيء . وكل شخص تقع عليه عينك . وهذا دليل واضح على أن في هذا الأمر شيئا غير الاحتزان الميكانيكي الذي يظنون به قوة الذكر في الانسان .

« ويمكننا أن نسرى ما قلناه أيضا على الذكرى السمعية . فإن الكلمة قد يلفظها أفراد مختلفون ، أو فرد واحد في أوقات مختلفة وفي حالات متباينة ، فتمطى لغات لا يشبه بعضها بعضا ، فكيف يصح بعد هذا تفسيه الذكرى السمعية بنظرية الفوتوغراف ؟

« هذا الاعتبار وحده يكفي لأن يشككنا في النظرية التي تعزو مرض نسيان الكلمات الى فساد أو الى دور الذكريات المطبوعة تشريحيًا في القشرة المخية .

« ولكن لننظر ما يحدث في هذه الأمراض على رأى هذا المؤلف نفسه (يريد بالمؤلف الأستاذ ليتريه المتقدم ذكره) فقد قال :

« إذا كانت إصابة المخ خطيرة ، وذكرى الكلمات متأثرة بشدة ، فقد يحدث أن تهيبجا ما أو انهغالا ما يعيد حياة الذكرى التي كان يظن أنها ضاعت نهائيا . »

« أفيمكن هذا إذا كانت الذكرى مطبوعة في المادة المخية وقد فسدت هنا أو دثرت ؟

فالامر يحسرى كما لو كان المخ أداة للذكر لا أنه خارز له . فالمريض يفقد الكلام يعجز عن وحدان الكلمة متى احتاج اليها . ويظهر كأنه يدور حولها وليس له من القوة ما يجعله يضع يده على مبتغاه منها ، والعلامة الخارجية للقوة في المجال الفيزيولوجي هي الضغط دائما . ويظهر أن الذكر تسرى عليه هذه القاعدة أيضا . وأحيانا بإبدال المريض الكلمة الصائغة بجمل متمددة يدخل تلك الكلمة في واحدة منها وهو لا يدري .

« فلنعمل المسكرة الآن فيما يحصل من مرض فقد الكلمات الآخذ في التناقص ، أعنى لما يكون نسيان الكلمات متدرجا في درجات الخطورة ، فنجده دائما أن الكلمات تزول من الذاكرة بترتيب محدد كما لو كان المرض ملما بقواعد الاحرومية . فتزول أولا أسماء الأعلام ثم تليها الكلمات العامة ، ثم النعوت ، ثم الأفعال طبقة بعد طبقة فيصيب المرض كل طبقة منها الواحدة بعد الأخرى .

« نعم ولكن المرض يمكن أن يحدث من أسباب كثيرة الاختلاف ، وأن يأخذ أشكالا شديدة التباين ، وأن يسد في جهة من المخ ثم يمتد في أى اتجاه كان ، ولكن نظام ضياع الذكر يبقى على ما وصفناه ، فهل هذا يكون ممكنا إذا كان المرض في المحفوظات نفسها ؟

« وإذا كانت المحفوظات ليست مختزنة في المخ ففى أى محل تحتزن ؟ وهل يكون لقولنا معنى إذا كان كلامنا عن شىء آخر غير الجسم ؟ إننا نعلم أن القوالب المطبوعة يمكن حفظها في علبة ، وأن الاسطوانات الفونوغرافية يمكن إيداعها في بيوتها ، ولكن كيف تحتاج المحفوظات التى ليست بأشياء مرئية ولا محسوسة لمكان يشملها ؟ وكيف يعقل أن يكون لها مكان ؟ هل هذه المحفوظات فى شىء غير العقل ؟ وإذا كان العقل هو الوجدان نفسه ، فالوجدان قبل كل شىء ذاكرة » انتهى .

زى أن ندع ترجمة بقية هذا الحوار المعنى النافع للأعداد التالية لكى لا يسأم المطالع من التطويل

محمد فريد وجدى

تواضع المنصور

خطب أمير المؤمنين المنصور الخليفة العباسى يوما فقال بعد أن حمد الله وصلّى على رسوله :
أيها الناس اتقوا الله . . .

فقام إليه رجل وقال . أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور : مرحبا مرحبا ، لقد ذكرت جليلا ، وخوفت عظيما ، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قبل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، والموعظة منا بدت ، ومن عندنا خرجت . ثم مضى فى كلامه .

يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه

معجزة الخلق الكريم ، جلادة في الحياة لا تنبأ بالجن ، ولا تحفل بلذات العيش ، وقوة في شكر الخالق ، وأداء الواجب في أشد ما تكون الأيام تجهما . أنظر لأصحاب هذه المزايا ، وقليل مام ، فأرى الحكمة عالية في قوله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور » ، إذ كان اصطفا هذا الصنف لحل لواء الإصلاح ، والقيام بحجة الله تعالى على عباده بعد عجم عودهم ، فتبين للناس أنهم لم يكونوا ليلينوا لمغامر الشهوات ، أو تقف بهم العوادي دون أداء الواجب .

أذكر بمناسبة هذا ، والحديث ذو شجون ، أني استيقظت في إحدى الليالي على صوت مؤذن الفجر وهو يعضى في أدائه كوسيقى روحية تعبض على المؤمنين آيات الحب والوفاء والاجلال للرب الكريم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، يديم الخلق ويتوفاهم بالليل ، ويبعثهم ويعلم ما حرجوا بالنهار ، جديان يعاقبهما عليهم بانتظام ، جعل أبيضهما معاشا ، وأسودهما لباسا « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون »

وأيسا جعل للسان في غدوه ورواحه ، وليله ونهاره ، ملائكة لحراسته من بين يديه ومن خلفه ، بإمره تعالى ، وكذلك سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه .

تأملات جاشت بنفسي في ذلك الحين ، فحبيب هي وأمثالها لدى المفكر ترك الراحة لتلبية دعوة الله الذي أسفغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ونهضت من مرقدى أسعى إلى المسجد ، لأداء الصلاة مع الجماعة المنتظرة ، وكان أكبر الظن عندي ، أنه سيحضر إلى المسجد في هذا الوقت ، مع تلامه الخالك ، ويرده القارس ، شباب وكهول ممن توفر فيهم الدفء والقوة ، والكنى ما سرت حتى رأيت رواده وطلاب جماعته ممن فطمهم الدنيا عن نعيمها ، وأرضعتهم بلأياها .

فهذا كفيف بأئس يسمى بعكازه ، وذاك فقير عليه أئمال من الشياح لا نفى عنه فتبلا أمام شدة الجو ، وهنا شيخ يمشى بخطا المنجلد يتم حاله عن صغفه ومرضه . تعددت الأفراد ، وتفاوتت الصفات ، كانوا عقدا ينتظم كثرة ممن قيل فيهم بحق : نحن قوم إن امتحنا شكرنا ، وإن أعطينا آثرنا .

كانوا ذوي ضعف وفاقة مادية في الأشباح ، وقوة وثراء في العزم واليقين وسمو الروح . كانوا مظهر من مظاهر الإيمان الصحيح ، يقود صاحبه إلى الخير ، ويفتت صفور العقبات أمامه حيث يقف الكسالى أصحاب التعلات باهتين ، واحتقرت همتي بالقياس إليهم ، فقد سعت

والعوامل تشجع ، وهم حضروا والظروف تثبط . تأهبنا للصلاة وانتظمت صفوفنا لها ، وأحرم الإمام ، وأحرمنا تلك الكلمة الخالدة « الله أكبر » التي يتجاوب صداها في قلوب الموحدين ، والتي يجب أن تكون شعار المؤمن في أمره كله ، فلا يعبء ولا يحشى ولا يريد بعمله إلا الله الذي أوجده ورباه على موافق فضله وحيره ، فلا ينبغي أن يعبء غيره .

وما سعد سلفنا إلا بهذا المبدأ النبيل من التوحيد الخالص في القول والعمل . وما شقينا إلا بالافتقار فيه على النطق وإصاغته عملا ، فضعنا بالاندماج في غيره تعالى من أصحاب الجاه والمال أملافي النفع منهم ، وبإضاعة استقلال الصمير وعرة المؤمن وأداء الواجب بلا تهيب ، وكانت العاقبة الخرى والحرمات والهوان ، وزول الشقاء والبلاء ، وكنا كمن قيل فيهم « فإ أغنت عنهم آلهمم التي يدعون من دوت الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيب » .

وأدينا الصلاة مع الإمام ، وكانت مدرسة لتنمية المواطف الطيبة ، وإفاضة المعارف والتحليلات ، وكانت ساعة مباركة تمنينا لو طال ، فما أبعد نظر الشارع في فرض الصلاة والدعوة إلى الجماعة فيها واغشوع !

إن ذلك كله لتبعية الإنسان ليدأوى نفسه بالرجوع لمخالفه حتى لا يهلك بالانقطاع إلى عالم المادة الصاحب المصنئ ، وللفت نظره إلى الاتحاد والاجتماع للخير عسى أن يتعرف حال إخوانه في الانسانية والدين ، فيتبادل معهم التعاون على البر والتقوى وتسهيل سبل الحياة ، فقد يعرف منهم حالة تتطلب واجبا إنسانيا فيؤديه ، من السؤل عن غائب وعيادة مريض وقضاء حاجة وتفريج ضائقة وإصلاح بين متخاصمين وما إلى ذلك مما يهيئ وسائل التعارف والتعاون ، ويجعل المؤمنين كمثل الجسد إن اشتكى منه عضو تداعى له باقي الأعضاء بالسهر والحمى ، وكالبنيان يشد بعضه بعضا فيسعدون في أولام وأحسرتهم . وفي خشوع الصلاة حياة القلب وإمداده بتيار روحى من الملأ الأعلى يغذيه بدوائه وما يصلحه .

نعم لقد كانت لحظات غم وانتهاج للخير ، وساعة عبرة وعظة خرجت منها إلى أنه إذا كان أداء الواجب وفعل الخير في الظروف المواتية حسنا ، فأحسن منه وأجل وأدل على صدق الإيمان أن تؤديه والإامير هاتجة والأوقات غير مسعفة .

وفي القرآن الكريم كبير الثناء على أصحاب هذا الخلق « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » . « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . وفي الحديث الشريف « حير الصدقة ما كانت من مقل » أى من فقير إلى أفقر منه .

وقد أدى سلفنا رسالة الإيمان والإصلاح في أوقات عصيبة ، قطعوا الفيافي واجتاروا

البحار ، وجاهدوا في سبيلها ، وللعدو يومئذ دولة قوية ، فلم يعباوا بتعب يصيبهم ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . كانت همتهم في الحياة أن يكونوا في موقف النافع لا المتفجع ، وأن يقيموا مجد ربهم ودينهم لا يمجّد أنفسهم ، تمت لهم كلمة ربك الحسنی من الفوز والنصر المبين ، إذ حققوا الحكمة الخالدة « احرص على الموت توهب لك الحياة . وفر من الشرف — أي حب الجأء والظهور — يتبعك الشرف » .

خرجوا من المحن والبلاء المحس في جهادهم كما يخرج الذهب بعد العرض على النار لتصفية حوره نقياً مشرقاً ، ويصاغ لنفاسه حلياً وعملة لقضاء الحوائج ، ففتحوا الممالك ، وأداروا الشؤون بهمة وحزم ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فصدقهم وعده ، وأورثهم أرض عدوهم في الدنيا ، وسوف يورثهم جنات البقيع في يوم الجزاء ، تحقيقاً لقول الله « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » ولنا فيهم الأسوة الحسنة ، وإمام الجميع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين وكبير المصلحين .

فلنجدل وحبنا دائماً الدين ، أي الحق والتفصيـلة والواجب ونصرتها فينصرنا الله ، وهو تعالى يقول « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . « ولننصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . تعاليت ربى ما أكرمك ، لانت الغنى عن خلقك ، القادر على نصره دينك وحدك ، إذ لا يجررك شيء في السموات ولا في الأرض ، ولكن كرماً منك دعوتنا للمساهمة في نصره الدين احتباراً لنا ولتقودنا إلى عز الدنيا والآخرة ، فتكتب لنا إن صدقنا ثواب المجاهدين وأجر العاممين ، ولتميـز الله الخبيث من الطيب ألا لا عذر للمتخفين ، ففى ميدان الجهاد متسع للعاممين . « ولو شاء الله لا تقتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع الحسنيين » .

عبد الوهاب إبراهيم
الواعظ العام لمركز الصف

تدهور الاخلاق

يروى أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت يوماً قول لبيد :

ذهب الدين يماش في أكنافهم وبقيت في خلف بكبله الأجرب

وقالت : لله أبوه ما كان أشعره ، لقد صدق ! قالوا وكيف يأثم المؤمن ؟

قالت : كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث لا يعلم . ثم ذهب أولئك وجاء قوم كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث يعلم . ثم من بعدهم قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله فإذا سأله أعطاه (أي أحب أن صاحب الخلة يسأله المعونة ليعطيه ولكنه لا يعطيه قبل السؤال) . ثم جاء من بعدهم قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله فإذا سأله منعه ، ثم بعد ذلك يفضحه فيقول : جاءني فلان يسألني فلم أعطه .

طائفة العيسوية في أوربا

تعمل الخوارق فيعملها الباحثون لتعليلا روحانيا

اشتهر بمض الطوائف الاسلامية بعمل الخوارق ، وقد شاهدتهم ناس كثيرون في كل زمان ومكان وكتبوا عنهم ما يحير العقول ، ولكن العلماء المعاصرين كانوا يمزون هذه التأكيدات الى سرعة تصديق أولئك المشاهدين ، ويقررون بأنها مما يمكن تعليله بالشعوذة لا أكثر ولا أقل .

ولا تزال هذه الطوائف موجودة الى اليوم في بلاد الشرق وفي مصر ، وروى من لا يشك في صدقهم أنهم رأوا رجالا منهم يجلسون على المواقف المملوءة بالنيران المتأججة ، وأن لها كان يتخلل جلايبهم دون أن يتحدث فيها تأثيرا ما .

وكتناقرأنا عن الأستاذ الكبير السير وليم كروكس أحد رؤساء المجمع العلمي البريطاني ، ومن أقطاب علم الكيمياء في العالم ، أنه أمام فتاة نوما مخطاطسيا وأمرها أن تقبض على حجرة متقدة بعد ما أوعز اليها بأنها لا تحرقها ، فقبضت عليها دقائق ولم تحدث بها أقل أذى . وعقب على تجربته هذه بقوله : إنه لا يعرف مادة كيميائية خاصتها مع الحس بالنار على الإطلاق .

ولما التأم مؤتمر عام المباحث الروحية في ياريز سنة ١٩٠٠ تحت رئاسة الأستاذ الطبيعي الكبير (الفرد روسل ولاس) رأت لجنة من لجانه أن تحدث تجارب جديدة مع الطائفة الاسلامية التي تدعى بالعيسوية . فاستدعوا أفرادا منها الى بعض قاعات المؤتمر اجتمع فيه حشد من أعضائه يبلغ عددهم ستائة رجل ، وطلبوا اليهم أن يعملوا بعض الخوارق التي اشتهرت عنهم ، وأن يخضعوا في عملها لسكل ضروب التحجيس التي تفرض عليهم ، فقبلوا .

ورأى أولئك الباحثون أن يستعينوا بواحد من الذين فيهم خاصة رؤية السلالات الروحانية بأبصارهم وهم أبقاظ ، ليروا ما يحدث من شأنها في أثناء ظهور هذه الخوارق . وهذه خاصة معروفة توجد لدى بعض الناس بدون كتب يرون بواسطتها الاشعاعات الجسدية ، والسيالات الحيوية بدون أقل تكلف .

خضر من رجال طائفة العيسوية ثلاثة رجال ، فأحاط بهم الجريون من كل ناحية ، وراقبهم مراقبة شديدة ، وأخضعهم لاسلوب التحجيس العلمي الدقيق ، فكان ما عملوه محيرا لعقولهم لعدم إمكانهم تعليله بعامل طبيعية .

وضعوا أمامهم أثونا مملوء تارا ، فأخذ هؤلاء العيسوية يحرقون فيه راتينج البسحوان ، وشرع أحدهم في استنشاق أحرته بشدة ، وطقق يميل رأسه يمينا وشمالا حتى حدث له خدر جملة في حالة عصبية فقد معها وعيه . وعند ذلك تناول ثعابين حية وقطع أعناقها بأسنانه ،

ووضع ثعابين أخرى حول عمقه . ثم كسر قدحا من الزجاج وشرع يعضق قطعه تحت أسنانه مضغاً غنياً ، ثم يرددها بحالة مرعبة ، حتى أن أحد إخوانه استعاض من يده طاع القدح رحمة به وكان آخذاً في مضغه ليلتله كما ابتلع ما فوقه .

ثم وقف هذا العربي بقدميه عاريتين على حد سيف جراز ، وأخذ ينقل نفسه عليه . ولما نزل حل حزامه من وسطه وأثرل سراويله الى نحو عشرين سنتيمترا وتزع قيصره وأسند بطنه الى ذلك السيف الذي كان يحسكه له اثنان من إخوانه ، وتعاق في الهواء بحيث صار جسده كله مرتكزا على ذلك السيف ، ومكث على هذه الحالة دقائق . وكان علو السيف عن الأرض نحو ثمانين سنتيمترا .

فتمكن أشعاص من الحاضرين من رؤية حرج عريض في أعلى بطن ذلك العربي ، ولكنهم لم يروا دما سائلا منه . وما كان أكر دهشهم حين رأوا أن ذلك الجرح اندمل في الوقت ، بعد أن تمسح باللعاب فصار كأنه لم يكن .
ثم أقبل عربي ثان فأدخل إبرة كبيرة في خديه مخترقة لسانه .

وجاء اثنان فأدخل مسجرا حادا في وسط حجمته ، ودفعه بواسطة قطعة من الخشب . وكان قطر ذلك المسجرا أربعة ملليمترات ، فنفذ في عظم الجمجمة على صق اثني عشر ملليمترا .
ثم إن هذا العربي نفسه أدخل إبرة طويلة تحت جفنه الأيمن ، فأحدثت هذه الإبرة جرحا يبلغ عرضه من أربعة الى خمسة ملليمترات ، ولكن لم تمض دقيقتان حتى اندمل ذلك الجرح كما شاهدته الحاضرون .

هذه الخوارق عملها هؤلاء العيسوية الثلاثة الواحد بعد الآخر وهم يرقصون نارة على الرجل اليمنى ، وطورا على اليسرى مترجمين بنشيد لهم ، وضاربين على بنادير يبلغ قطر الواحد منها من ٥٠ الى ٥٥ سنتيمترات .

تعليل الباحثين لهذه الخوارق :

إن هذه الاعمال مما سمع به الناس في الشرق ، وراة الجماهير رأى المين ، لا يمننا أمرها بقدر ما يهملها تعليل ما حتى أوروبا لها تعليل مقبولا . وهم لأجل أن يستطيعوا ذلك صدوا الى سؤال ذلك الرجل الذي يرى السيارات يعيبه مما شاهده في أسماء هذه التجربة . فاحبرم بأنه رأى عند جلوس العرب القرفصاء ناقوسا كبيرا من قوى روحانية تعلمهم في خوفه ، وفصلهم عن الجماعة المحيطين بهم . قال : وكان ذلك الناقوس من قته يشبه البلور الناصع الشفافية ، وكان يأخذ في العتامة شيئا فشيئا كلما قرب من الأرض .

قال الشاهد : وقد دام هذا الناقوس شاملا لهم مدة ما كانوا في حالة سكون وخشوع ، ولكن لما سطع دخان البخور تحول هذا الناقوس الى قصص يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار ،

وعرضه مترا ونصف متر ، وطوله أربعة أمتار ، وكان ذلك القفص يفصل هؤلاء العرب عن المجريين .

ولما أخذ العيسوية في أعمالهم ، رأى ذلك الرجل حولهم كأن شرائط لونها كلون البن المسحوق تتحرك بجنايبهم ، وكان طول كل شريط من ٧٥ الى ٨٠ سنتيمترا وعرضه سنتيمترين . ماذا كانت تلك الاشرطة ؟ قال ذلك الرائي الروحاني : لعلها ارواح طبيعية وحيات كوكبية . لما أتم العيسوية أعمالهم أخذوا يدعون لأعضاء المؤتمر . وفي أثناء تلك الدعوات كان ذلك الروحاني متصلا بهم قلبا وعقلا ، فرأى على بعد متر وستين سنتيمترا من الأرض وحيا ذهبيا على مثال وجوه بعض الموميات المصرية ، يقبله بالإشارة من بعد نحو ١٥ سنتيمترا ، وكان ينظر إليه نظر الدهش للغاية . قال ذلك الروحاني : ولعل هذه الصورة هي صورة أو انعكاس صورة شيخ العيسوية المسمى بابن عيسى . انتهى .

نقول : إننا نقلنا هذه الحادثة باعتبار أنها حادثة محققة وقعت في مؤتمر عام حضره مئات من الناس في أشهر عواصم الأرض . ولنا نقطع بما ذكره ذلك الروحاني من رؤية الناقوس والقفص والاشربة والرأس ، فقد يكون رأى شيئا وغابت عنه أشياء ، وكان يجب استحضار ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الروحانيين ، ويكلفون كتابة ما يرونه كل على حدة وينظر في تطابق أقوالهم . وعليه فهذه تجربة ينقصها أهم أركانها . على أن البحوث والتجارب متواصلة في هذه الناحية ، وفي الاطلاع عليها نابع للمدور ، ومناعة من الشكوك .

ولا يسبقن الى ذهن القراء أن هؤلاء الباحثين من هواة المعجائب يحبون أن يطلعوا عليها إشباعا لماطفة فيهم ، ولديهم يستكثرون من الاطلاع على ما يشتر منها ويوسعونه تمحيضا ليدونوه في مجموعات لهم ، ثم يعمدون الى ترتيبها بقرن كل شيء منها الى نظيره ليسهل بحثها للوقوف على أسبابها الحقيقية ، فإعكس تمليله منها بالأسباب الطبيعية أهملوه ، وما لا يمكن تمليله بها نظروا فيه ليعرفوا مستقر علته ، هل هو في روح العامل نفسه ، أم في عالم آخر أهم منه ، مستهدين في ذلك كله بالحوادث التي شاهدها ومحسوها تمحيضا علميا بأنفسهم وبواسطة من سبقهم من العلماء في هذا السبيل

وقد تأسست في لوندرة جمعية من العلماء تدعى جمعية المباحث النفسية منذ سنة ١٨٨٢ لا تزال قائمة الى اليوم ودأبة على استجماع هذه المشاهدات العلمية ، وقد بلغ مجموع ما جربه أعضاؤها بأنفسهم وما حققوه مما جربه غيرهم حفا بعيدا بلغ عدد المجلدات التي تشتمل عليه أربعة وخمسين ، ولا يزالون يزيدون مادته .

وقد بذلت هذه الجمعية التي يتولاها أكبر العلماء الانجليز جهودا حبارة في سبيل الحصول على الحوادث الحقيقية ، وأموالا طائلة . فاهيك أن هذه الجمعية إذا ترائى اليها أن واحدا من الناس فيه خاصية من الخواص الروحية لفظة استقدمته ، فاذا حضر أوسعته بحثا

واستطلاعاً ، فإذا لم يمكنه الحضور ، عينت الجمعية لجنة من رجالها وأشخصتهم الى حيث هو ليبحثوه بأنفسهم ووقفوا عنه تقريراً ، فان رأت الجمعية أن ما شوهد عنده يستحق التدوين دونه في مجموعتها مبينة الوسائل التي استعملت معه والوسائط التي اتخذت لا لقاء كل غش وتدليس يمكن أن يتذرع به لتضليل الباحثين في حالته .

وقد أفادت هذه الجمعية قائدة لا تقدر ، فان الخوارق وجدت في العالم منذ وجوده فكان لباس يصدقونها بدون بحث ، ولكن لما تولدت الشكوك العلمية ارتأى الناس فيها ثم قذفوا بها جملة الى عالم الخرافات العامة ، ولم يستنوا من ذلك معجزات الانبياء ولا كرامات أهل الرياضات . ولكن حوادث طرأت منذ نحو تسعين سنة لفتت الأنظار بشدة الى هذه الناحية من الأمور ، فانتدب كثير منهم لبحث ما اشتهر بين الناس منها فبحثت لهم صحة الكثير منها ، فأغرى ذلك غيرهم للبحث فيها ، وتشعبت طرق النظر ، وكثرت نتائج التعارب الى حد أن أصبح مجموع ذلك مادة علم حديد صنوه ميتابيشيك Metapsychique أى ما بعد علم النفس الرسمي ، صار له في كبريات المواسم أكاديميات معدودة من معاهد الدراسات الرسمية .

ولولا أن قبض الله هؤلاء العلماء لتمحيص هذه الخوارق لآزداد المذهب المادى سلطاناً على العقول ، ولأصبح مقرر العقائد الدينية في مركز لا يستطيع الدفاع عنه . « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز »

محمد فريد وجري

حول سن أسامة بن زيد

نشرت مجلة الأزهر الغراء بالجزء الأول من المجلد التاسع مقالاً فيما يتضمن سيرة أسامة ابن زيد ، للأستاذ الشيخ سيد احمد متولى الشيخ ، وفي المقال قال حفظه الله : « فلما بلغ عمره ثمانى عشرة سنة قلده الرسول إمارة الجيش في السنة الحادية عشرة لأربع يقين من صغره ، وأمره أن يسير الى الشام حيث قتل والده زيد . ثم حتم مقاله بقوله : روى أن أسامة رضى الله عنه مات خارج المدينة المنورة ثم حمل إليها فدفن بها ، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين من الهجرة ، وعمره إذ ذاك لم يتجاوز خمسين عاماً . »

فإذا نظرنا الى هاتين الفقرتين نجد أن فضيلة الأستاذ أثبت أن أسامة مات وعمره لم يتجاوز خمسين عاماً ، ولا نعرف على أى دليل بنى هذا الرأى . ف وفاة الرسول كانت سنة ١١ هـ في السنة التى قلده الرسول أسامة إمارة الجيش وكانت سن أسامة ١٨ عاماً أو ١٧ ك بعض الروايات ، وأن وفاته كانت سنة ٥٨ هـ ، فيكون عمره ٦٤ عاماً أو ٦٥ هـ ، فما رأى فضيلة الأستاذ في ذلك ؟

محمد محمد النقي

من بابل ونظر مدرسة إيشادى

من عمل صالحا فلنفسه

لا أجد في كل ما قرأت من عبارات الحث على الفضائل ، والرحم عن الرذائل ، عبارة أبلغ في إثارة جميع دواعي الخير في النفس ، وأفعل في ردع جميع دوافع الشر فيها ، من هذه الآية الكريمة : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام لمبيد » .

فإن الإنسان إذا هم بنووية شهوة ، أو بتحقيق رغبة ، تيقظت فيه حوافر الطلب ، وغرائز الرغب ، غير معتدة بقانون يحكم من مطامعها ، أو يرد من جماعها ، فترك رأسها تعسف كل طريق يبدو لها لتحقيق مرامها . فإذا أذكرها صاحبها بالقانون تحملت الأعداد لمصائبها ، وتخلت الحيل للاتصالات من سلطانه ، وإن لوح لها العقل بالعقاب الأخرى ، قابلته بالأجبا إلى المتاب ، قبل موعد الحساب . وهكذا لا تتراءى لها عقبة مادية أو أدبية إلا وجدت وجها لتذليلها ، وحيلة لتسهيلها ، اللهم إلا حيال هذه الآية ، فإنها تذهن صافرة ، وتخشع حائرة ، مضطرة إلى هذه الحال بظاهر طبيعي مستقر في طبيعتها ، ومعتبر أنه أكبر غرائزها ، ألا وهو حفظ الذات من العطب ، فإذا بدر للنفس أن شيئا له أثر في هدم بنيانها ، أو إفساد كيانها ، أحست بدافع تعسائي يصدها عنه ، فإن ضعف عن ردعها ، وهو يضعف عن ذلك غالبا ، فإنه يترك أثرها من التثبيط في اندفاعها ورائه ، وليس فيما يعترف الناس طاملا برحى منه تعديل الاندفاعات الإنسانية وراء المبيدات له إلا هذه الغريزة فهي مَعُولُ الخلقين والمرين والمعلمين ، وتكاثر الفلاسفة والمتكلمين في كل زمان ومكان . فإن ظهر أنه غير منتج للأثر المرجو منه في الردع إلى عهدنا هذا ، فسيكون له التأثير كله يوم يستقر العقل في سلطانه ، باتساع دائرة العلم ، وتدفق ينابيع الحكمة ، وبلوغ الإنسانية سن النضج .

فهذه الآية الكريمة التي قامت على أقوى غرائز النفس قد استكلت جميع عوامل التأثير فيها ، فهي باتارتها جميع قوى هذه الغريزة تنقوى بغريزة أخرى وهي غريزة جلب المنفعة ، فإن الإنسان كما هو مفعول على الحرب من المبيدات ، مفعول أيضا على استجلاب المنافع . وإلى جانب هاتين الغريزتين قد اقترنت بما يلبيه إلى مبدأ المسؤولية الشخصية ، وهو مبدأ شديد الفعل في تقويم الخلق الإنساني . إذ يوجد بون بعيد بين من يعتقد أن الحوادث تجري على طريقة الخط ، وبين من يعتقد أن لكل أثر سببا يحدثه ، فقله تعالى : « وما كان ربك بظلام لمبيد » يضطر الإنسان للثبوت قبل الأقدام على الأعمال ، ويُعيد له لتحمل تبعاتها ، غير منهم مأملا غيره فيما يحيق به مما لا يسره أن يكون هدفه في الحياة .

فإن أجدد المعلمين والمرين ، والناس أجمعين أن يحلوا هذه الآية الكريمة محلها من دروسهم وتأملاتهم ، فإنها من أكل الزواجر عن الغي ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

النحو والنحاة

أشرفنا في باب النقد والتقريط الى كتاب بهذا العنوان ، ألفه ونشره صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل محمد احمد عرفة المدرس بكلية الشريعة في الرد على كتاب (إحياء النحو) للأستاذ الفاضل ابراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب ، الذي اقترح فيه إصلاح النحو على قواعد غير التي وصفاً أئمة الأولون . وقد رأينا أن نشر مقدمة هذا الرد لزيادة بياض الموضوع المتنازع فيه ، وحرصاً على بصيحة ثمينه في وجوب تنزه المناظرين عن هجر القول نقلها عن حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر .

قال المؤلف :

وبعد : فينبى وبين الاستاذ ابراهيم مصطفى مؤلف كتاب « إحياء النحو » معرفة لأزمها ولا أشكو منها . وهى وإن لم تبلغ الصداقة لم يشبها دخل ولا انحراف . كنا نتقابل لماما فكنت أقوم بما يجب له ، وكان يقوم بما يجبلى . اشتركنا مع آخرين في وضع مناهج « كلية اللغة العربية » بالازهر الشريف فاحببته وملت إليه ، إذ رأيتنا تنفق في كثير من الآراء الإصلاحية ، ورأيت صادق النية فيما كنا نعالج من شؤون .

ما كنت أقدر أنه سبأنى يوم اضطر فيه إلى مفاضة آرائه ، والوقوف معه موقف المحصومة ولكن هكذا شاء القدر ، وهكذا كان .

قرأت له كتاب « إحياء النحو » فمرت منه وأنكرت ، وما أنكرت أكثر مما عرفت . فقد أنكرت منه أنه يحل النحاة مذاهب لم يقولوها ، وتقدها ، وأبان خطئها . فصور النحاة لقارئى كتابه قوما بلها أو عمروين ، يقولون ما لا يُعقل ويفهمون ما لا يُفهم . وأنكرت منه أنه انتحل مذاهبهم وهجنهم إذ لم يصلوا إلى ما وصل إليه - أى إلى مذاهبهم . وأنكرت منه أنه قعد قواعد في العربية لو أخذ الناس بها لغيرت من روح العربية ، ولأفضى ذلك إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجهها .

وأنكرت منه أنه هم في الطعن ولم يخصص ، حتى أدخل سيويه وكتابه . وهذا يصرف المتعلمين عن هذه المناهل العذبة ، ويصددهم عن هذا الخير الذى ينشئ عقولهم ، ويسقل ألسنتهم ، ويفضى بهم إلى سر العربية .

أنكرت ذلك كله ، ورأيت حتما على أن أكتب كتابا أصح به تاريخ العربية الذى أفسده هذا الكتاب ، وأرد به الأمور إلى نصابها . ولكن تذكرت أفنى تعدت قوما من قبل فافسد

النقد ما بيني وبينهم ، ولقيت من خصوماتهم عنتا ، وأن هذا النقد حرى أن يفسد ما بيني وبين الأستاذ .

تذكرت ذلك فأحجبت عن النقد ، وعولت على أن أترك الأمور تجري مجاريها ؛ ولكن تمتلئ هؤلاء النحاة وهم في أجدانهم بهضمون هذا الهضم بعد أن ملأوا الدنيا علما ، ويحاف عليهم هذا الحيف . وقد خرسست ألسنتهم الباطقة التي كانت تجلجل في الدنيا . عدا عليهم البلى فاعجزم عن إقامة الحجج ودفع التهمة . ويارب يوم لو رماه أحد بباطل لدفعوا الشبهة بالحجة والباطل بالحق الواضح المبين .

واذ قد آلوا إلى ما آلوا إليه فقد صار خفا على أبنائهم الذين تخرجوا عليهم ، واعتذروا من علمهم أن يقوموا عنهم برد التهم ودفع الماديات . هذا واجب إنساني ، إذ نصرمة المظلوم والأخذ بيد الماحز حق إنساني ، ولو اختلفت الدار وشط المزار .

وهو واجب الاساندة على أبنائهم الذين هذبوا عقولهم واشتركوا في تنقيفهم . وعار على الأبناء أن يظلم الآباء ويعتدى عليهم ولا يدفعوا عنهم هذا الظلم وهذا الاهتداء . ثم هو واجب اللغة العربية ، إذ يجب على أبنائها أن ينقوا عنها تحريف الغالين ، وتاويل المقصرين . ثم هو واجب للعلم في نفسه ، إذ يجب على العلماء أن يقرروا الأمور في نصابها ، ويضعوا الأشياء مواضعها .

وأخيرا هو واجب علينا لتلاميذنا ، إذ حتم علينا أن نعرفهم الحق من الضلال ، وأن نسدد خطاهم ، وأن نحكم لهم فيما اختلف الناس فيه . قامت هذه العوامل كلها في نفسي ، فأكرتها على حامل المعرفة ، وقلت ما قاله أرسطو : إن أفلاطون صديقي والحق صديقي ، ولكن إذا تعارضت صداقة أفلاطون وصداقة العلم أكرت صداقة العلم على صداقة أفلاطون .

لأ أكرم القارئ أني كتبت هذا النقد مرتين . فقد كتبتة أولا بعد أن قرأت الكتاب بامعان وموازنة ، قرأت المؤلف ببصر الناقي البعيد ، ويتجاهل الداني القريب ؛ ويدرك الخفى المستور ، ولا يدرك الظاهر المكشوف ؛ وينقل أمجاز نصوص ليستشهد بها على ما رآه ، ولو نقلها كلها صدورها وأمجازها لدلت على نقيض ما رآه ، فأمنت أنه لم يؤت من جهل ، وأنه مدرك مذاهب النحاة على ما هي عليه من حق وسمو ، وإعما شوهها ومسحها من علم ، ولسب للنحاة التقصير من علم ، وانتحل مذاهبهم عن علم ، وحاربهم بها عن علم بأنها أسلحتهم ، وأفسد ما أفسد من قواعد اللغة من علم وعن قصد . وأمنت أن الدكتور طه حسين حينما اتنى على الكتاب كان منا مرا مع المؤلف على إخفاء الحق وستر الواقع ، لظن في ميراث السلف ، والاعلاء من شأن تكريم الحديث .

أمت بهذا وذلك ، فكنتبت الكتاب بهذه العقيدة ، فسموت عليهما كل القسوة ، واشتدت عليهما كل الشدة ، ووقفت مواقف هدة آيين هذا ومبلغ صاحبه من الأمانة في العلم ، وخطر هذه الطريقة على التفكير وعلى المتعلمين . وطالما وقفت حائراً لا أدري من أي حالهما أحب : أمن جرأتها على ستر مذاهب النحاة وهي لا خفية ولا مستورة ، أم من حرأتهما على انتحال هذه المذاهب والتزين بها ، وخدعة الناس عن هذه الرواية الثقيلة ، وإيهامهم أنها الواقع لا ريب فيه .

كنتبت النقد وأنا منطو على هذه العقيدة فجاء لأدنا شديدا قارسا ، ثم أطلت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شبح الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي على شيء من التدبير في هذا الكتاب ، فغير رأيي في هذا التدبير وقال : انقد الفكرة ودع صاحب الفكرة ، وليكن نقدك عفيف القفط ، تقي الأسلوب . وإذا كان الناس قد اعنادوا سماع الهجر والنقش في المساجلات العلمية فما أحرأك أن تسمع الناس يوما آخر من النقد تنحلي فيه نزاهة العلماء عن ساقط القول ، ويتجلى فيه صدق اللهجة وقوة الحججة وعفة الأسلوب ، والعدل في الحكم ، والانصاف في الموازنة . وبدل أن تتصور مخالفيك كما تصورتهم ، يحسن أن تتصورهم رفعة في سفر انقطع بهم الطريق واعتسفوا طرقا مهلكة ، فرأيتهم وأنت على الجادة يتخطون في ليل داس ومحمراء مهلكة ، فيجب أن يأخذك من الشفقة والرحمة عليهم ما يأخذ هذا المسافر الذي على الطريق من الرحمة والشفقة على هؤلاء الممتسين .

أدب كريم ، وخلق عظيم ، وهدى نبوى ، وسجيا حسان ، لا تكون إلا لمن كان مثل الأستاذ الأكبر ، راض نفسه على أن يرى الناس جميعا أبناء وأخوة ، يسره إصابة المعيب ، ويشفق على المخطئ ، ويدعو له بالهداية والنوفيق ، ويم الجميع بالحب والاحسان !

وما سمعت هذه النصائح الغالية حتى شرح الله صدرى لما قل ، فرجعت الى الكتاب فكنتبه مرة ثانية ، وأسقطت منه هذه المواقف التي كنت ألقها من صاحب الفكرة ، وجعلت هدفي الفكرة . فما كان في الكتاب من حلم وأدب في المناظرة فالأستاذ الأكبر مرجعه ، وإلى هذه النصيحة مرده . وما كان فيه من نبو واعتساف فن نزوات النفس وجراح الطبع ، وللطبع جروح والنفس نزوات .

محمد عرفة

تاريخ الادب العربي^(١)

قبل الاسلام

الآغاني الشعبية

كان فن الآغاني منتشرا انتشارا واسعا في بلاد العرب ، ولم يكن مقصورا على المتنازين من الأدباء ، بل إنه كان بصاعة شعبية تناولته جميع القبائل ، فأجبت به ذكريات بعض حوادثها التاريخية في أشعار عديدة لبيان تطوراتها وشرحها ، وكانت أغلب هذه الأشعار تنشأ بوحي الساعة والماسبة ، فلم تكتمل فيها الصناعة الفنية بقدر ما ظهر فيها من قوة في اللفظ والتعبير مما يشهد لمنشئها بالسيطرة على اللغة ، ولقد اهتم الرواة بجمع هذه الأشعار الدائعة بين القبائل المختلفة اهتماما يتناسب مع مالها من قيمة تاريخية ، وللأسف لم يبق لنا منها حتى الوقت الحاضر سوى مجموعة واحدة غير كاملة ، وهي أغاني قبيلة « هذيل » التي كانت ترعى المعز على التلال في جنوب مكة ، والقليل من هذه الآغاني فقط هو ما يرجع الى المصور الوثنية ، وأغلبها نشأ في عصور الاسلام الأولى ، ولكنها على الرغم من ذلك تعطينا صورة صادقة عن هذا الفن الشعبي القديم ، خصوصا إذا علمنا أن الاسلام لم يكن له الأثر المنتظر على تفكير العرب وشعرهم . ولم يجهد هؤلاء الشعراء أنفسهم في محاكاة الفصائد في بنائها الفني ، بل إنهم كانوا يرمون مباشرة الى غرضهم الأصلي الذي كانت دائما ينحصر في مدح أنفسهم ومذمة القبائل المعادية لهم ، وقليل ما نسمع في أشعارهم النغمات المذبة أو العبارات الرقيقة التي لا يدعو إليها عادة إلا الشعور بالحزن في المراثيات ، وكذلك لم تكن للمرأة في حياة هؤلاء الرعاة قيمة كبيرة ، فنادر في أشعارهم النسيب ، ولم يظهر له أثر إلا في بعض التلميحات القارصة .

شعراء البادية :

وعلى تقيض هذه الآغاني التي احتضنتها القبائل وتمهدت فنونها في دأثرها الضيقة ، نشأت تلك الأشعار الجامعة التي نظمها من لفظتهم قبيلتهم وشردوا في الصحراء فاعتمدوا على أنفسهم وقوتهم لا يخشون القمة أو النار بعد أن هجرتهم قبائلهم ، فصار السكل عدوا لهم وهم عدو للجميع ، وكأن هذه الروح التي هزأت بالأحداث ولم تبال بهذا الاستقلال العنيد أخذت تنفس في أشعارهم وأغانيتهم .

(١) تكملة للتقاليد للشعر في الجزء التاسع من المجلد الثامن (رمضان سنة ١٣٥٦) مترجما من اللاتينية نقل عن كتاب « تاريخ الادب العربي » للمستشرق الألماني الكبير الأستاذ الدكتور « بروكلمان » .

وأشهر من عرف من هذه الفئة من شعراء البيداء هو ثابت بن جابر الفهمي ، ولم تحفظ لنا الرواية أنباء أكيدة عن حياته ، ولكننا نعلم أنه كان سببا في متاعب جمة جررها على قبيلة هذيل ، وأما بقية حياته فيخيم عليها القموض ، ولم يبق من أشعاره إلا النزر اليسير أهمها مرثية نظمها في خاله الذي قتل في حملة على قبيلة هذيل .

وعرف كذلك من زملائه الشنفرى الذى طافه في الشهرة وتوفى قبله ، وإليه تنسب «لامية العرب» ، وهى مقطوعة شعرية طويلة بالغة أعلى درجات القوة اللفظية ، يصور فيها آلام رحالة الصحراء ، ولو كانت هذه الأشعار من نظم أحد الشعراء المتأخرين كما يزعم بعض مؤرخي الأدب وعزيت خطأ الى الشنفرى ، فإن هذا الشاعر فضلا عن معرفته التامة للحياة العربية القديمة كان يملك خيالا حيا منقطع الطير مما يكفل له مكانا ممتازا في مقدمة نقول الشعراء القدماء .

ولم يقل كذلك من هذين الشاهرين الجامعين شهرة عنتر بن شداد من قبيلة عبس ، وهو ابن جارية سوداء ، تمكن بشجاعته من أن يرغم أباه على الاعتراف بكامل حقوق بنوته ، واشتركت قبيلته في حروب داخلية طويلة ، قضت على قوة أغلب القبائل العربية قبل الإسلام ، وسقط عنتر قتيلًا في إحدى هذه الحروب ضد قبيلة طى . ولقد بقي عنتر ماثلا في خيال الشعب أكثر من غيره من الأبطال ، وصار بعد ذلك محورا تركز عليه أغلب الأساطير والحكايات ، التي أخذت تتسع دائرتها بعد الإسلام بقرون عديدة .

واشتهر كذلك من قبيلته عمر بن الورد - وكان عنتر يتغنى بشجاعة أبيه - وتمثل أشعاره البدوى الذى يرى أعظم الفضائل في مساعدة قبيلته والاختذ بناصر الضعيف منها ، فكان لا يعبأ بالسطو والقتل في سبيل أهله وصغيرته ، ولم تأت الرواية بكثير مما امتازت به حياته ، ويغلب على الظن أنه توفى قبل الإسلام بقليل .

ويشبهه في الروح الفسكزية هاشم بن عبد الله من قبيلة طى ، وكان يقيم بصحراء الشام ، وتراجع شهرته التي صمت بلاد العرب والفرس حتى الآن إلى كرمه الذى لاحد له بالرغم من أسباب الحياة القاسية في الصحراء ، مما أهلى قدره ورفع منزلته وجعله مضربا للأمثال ، وكانت هذه الفضيلة موضوع أغلب أشعاره . ونحن إذا كنا في بعض الأحوال لانتق بأكثر ما نسبته الرواة إلى أغلب الشعراء من بضاعة غريبة ، فإننا أكثر رغبة حيل ماروى عن حاتم من الأشعار في الكرم وهو أظهر الفضائل العربية القديمة .

وإلى جانب هؤلاء الشعراء الذين يتغنون بفضائل العرب النبيلة ، ظهر أكبر شعراء الجاهلية في الحكم وفلسفة الحياة ، وهو زهير بن أبى سلمى المزنى ، وكان على أبواب عصر جديد ، فأدرك في كهولته النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكان الشعر في بيته وراثيا ، فظهر من أهله

أخته وابنه بين الشعراء المعروفين ، وحضر من الحروب الطاحنة التي أهلكت قبيلتي عبس وذبيان آخرها ، حيث اتفق الفريقان على حسم الخلاف ورضيا بالموضع المطالبة بالدم ، فجدد حملهما ، وخلده في قصيدته المعروفة في المعلقة . ولا نعلم بين أشعاره بالروح البدوية العنيدة ، وإنما نرى فيها حكمة الحياة الدنيا ، وبطلان التسابق والتغالب في طلب السعادة الدنيوية دون أن يجد لذلك حلا ، اللهم إلا في دين جديد يعطي الحياة قيمتها .

بقيت هذه الروح الجامعة والنفس الآلية سائدة بين شعراء هذه الطبقة من البدو ، وميزة لهم عن سواهم من شعراء القبائل والحضر ، إلى أن ظهر في أفقهم امرؤ القيس ، فامتاز بشخصية فذة وقرينة خصبة ، فبزم جيما بشاعريته الناضجة ، وفاقهم بمواهبه المتعددة ، فاستطاع التعبير بأشعاره عن جميع نواحي الحياة البدوية وتصوير مآسيها بأعلى بيان . وامرؤ القيس بن حجر ينتمي إلى أصل مدكي ، ويرجع نسبه إلى آل كندة من جنوب بلاد العرب . قتل أبوه في الدفاع عن إمارة أسلافه في هضاب داخلية بلاد العرب ضد بني أسد . ولم يكن امرؤ القيس بما جبل عليه من ولع بالحياة الحرة الطليقة ، وتعلق بالشعر والخيال ، ليقبل قيود الامارة وواجباتها ، أو يرضى بحلال الحكم وأمنته ، فقام على وجهه في البيداء ملتصقا بمتاع الحياة مع أراهه من شعراء البدو ، ولكنه لما بلغه خبر قتل أبيه سارع في الأخذ بثأره ، ومن ثم أخذت حياته لونا جديدا ، وامتلات بالمغامرات الخطيرة ، ولو أنه لم ينس حظها من متاع الدنيا في أوقات فراغه ، وكلما سنحت له فرصة لذلك . فلما انتهزت مغامرته في الأخذ بثأر أبيه التحا إلى أحد أقاربه عمرو بن المنذر وكان حاكما على ولاية صغيرة بالعراق ، ولكنه ما لبث أن طرد منها فولى هاربا إلى الحيريين في جنوب بلاد العرب ، واستطاع هناك جمع فريق من أمثاله المغامرين ، ولكنه لم يتمكن بهم من مغالبة جيوش المنذر التي فرقته جمعهم ، وتعمقه المنذر برجاله من قبيلة إلى أخرى حتى هبط على السموهلي اليهودي فأواه ، وانجبت إليه منذ ذلك الحين أنظار قياصرة الدولة الرومانية الشرقية ، فاستنداه حوستان إلى بزنطة عام ٥٣٠ ميلادية لاستخدامه في أغراضه السياسية لتهديد تخوم مملكة الفرس التي لاتفصلها عنها سوى صحراء البدو الرحل ، وعهد إليه بعض الأعمال بفلسطين ، ولكنه توفي في طريقه إليها بأنقرة . ولما كانت أغلب القصص قد جعلت منه بطلا في المغامرات النسائية ، فإن وفاته أثارت بعض الروايات الخيالية ، فقليل إنه مات مسموما بأمر القيصم الذي قضب لشرفه المثلوم بسبب ما جرّه امرؤ القيس من فضائح على إحدى أميرات بيته .

وتعتبر أشعار امرؤ القيس من أروع ما أنتجته شعراء العرب قبل الإسلام ، وللأسف لم يحفظ لنا منها التاريخ إلا قليلا ، وأقوى ما ظهر فيها من مميزات خاصة ، العبارة الصريحة التي استعملها في التعبير عن شهواته الجنسية ، بل والتي لاتصرف التستر أو الخجل في وصف المواقف الجريئة .

شعراء الملوك :

ولقد ساعدت نفس هذه السياسة التي استندت امرأ القيس الى بزنطة على قيام دويلتين على حدود صحراء الشام من الشرق والغرب تحت سيادة العرب : الحيرة بنفوذ القرس ، ودمشق بنفوذ الدولة الرومانية الشرقية ، لصد تيار البدو الجارف من بلاد المدينية ، فنشأ في كل من هاتين المنطقتين حضارة حملت الطابع العربي مع تأثرها بمميزات الدولة صاحبة النفوذ ، وهكذا كان الحال في العهد النعالي لبلد الوطنية بهما وأخصها فنون الشعر التي وجدت في الحيرة ، دون دمشق ، أرضاً خصبة ، حيث كان سادتها وحكامها من البدو ، فلم يكن أخصاؤهم من الشعراء في حاجة الى تغيير تعبيراتهم البدوية الأصلية ، ولذلك لم تختلف أشعارهم في مدح سادة الحيرة عما تعودوه من قول في الاحتفاء بأمرائهم في البادية .

وأشهر هؤلاء الشعراء من أنصاف الحضريين هو النابغة من قبيلة ديبان ، وازدهرت آثاره الشعرية وذاعت في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي إبان حكم المنذر الثالث والرابع ، والنعمان بن أبي قابوس ، الى أن آثار عليه حنق النعمان وغضبه لما بلغه من اجترائه على الاتصال المريب بالملكة ، وما كان من أمر وصفه الدقيق لمحاسنها مما كشف عن معرفة أكيدة بها ، فلم يستطع بعد ذلك البقاء في الحيرة ، ولجأ الى بلاط القسائين بدمشق ، وبها نظم قصيدته الكبيرة التي يرجو بها كسب عطف مليكة وولي نعمته ، ولقد تم له ذلك أحياناً فعاد الى الحيرة ، وتوفي بها قبل الاسلام بقليل .

وظهر بعده من خول شعراء الجاهلية عمرو بن العدة الملقب بطرفة ، وكان يخدم عمرو ابن هند وأخاه قابوس من ملوك الجيل الثاني في بلاط الحيرة . اشتهر طرفة بشعره في النسب بشعور رقيق ، ولكنه كثيرا ما جحت ألفاظه والتهبت عباراته في هذا الميدان ، فكان يذكرنا إذن بأشعار امرئ القيس ، ولم يصل الى أيدينا من أشعاره إلا ما قاله في أول شبابه ، وهو ملئ بمباريات المرح والمرور ، طافح بنزوات الحياة ، وكان أكثر ميلا الى وصف الخمر ومتاع النساء ، ولم يفعل - كبدوي أصيل - أمر الإبل ، فتناول وصفها بكل دقة وخبرة تامة ، ولم يترك عضوا من أعضائها إلا وأسهب في وصفه ، وكان كثيرا ما يخرج بشعره عن هذه الموضوعات البريئة ، فيطرق بها باب التهكم والا زدراء ، ودفعته نزوة الشباب في هذا المضمار الى حنقه ، فلم يرفع لجلال الملك حرمة ، ودفع بحياته غمنا لطيفه ونزواته ، ولو أن الملك لم يجرؤ على التخلص منه علنا بالبلاط لما بينه وبين أخيه قابوس من ولاء وعبة ، فأرسله بكتئاب الى حاكم البحرين لمساكفاته ، فلما وصل إليه علم حقيقة أمر الرسالة التي يحملها ، وكانت أمرا بأعدامه ، فدفن هناك حيا .

واشتهر كذلك من معاصريه أوس بن حجر ، ولو أنه لم يكن من شعراء الملوك المقيمين ، إلا أنه كان ضيفاً كثير التردد على بلاطهم ، وروح أوس بموطنه إلى البحرين حيث بدأ حياته الشعرية محترفاً لكسب عيشه ، ولكنه ما لبث أن ترك موطنه لضيقة ، وجاب بلاد شمال العرب ونهر الفرات مترعاً بأشعاره بين خيام البدو ، ولم يحفظ لنا التاريخ من أغانيه إلا مقاطع قصيرة لم ترتفع إلى متوسط الشعر الجاهلي ، ولكنها امتازت بالوصف الصادق .

شعراء الحضر :

لم تسمح أحوال الحياة وظروفها بقيام حياة مدنية مشتركة بين العرب إلا في الأراضي الساحلية الغربية من شبه جزيرة العرب ، ويدهى أن هذه الجاهات كانت لا تزال تحمل طابع الحياة البدوية وأنظمتها ، فاخضعت القبائل المختلفة لبعض الأماكن والجاهات ، فنبتت مكة لقبيلة قريش ، والطائف للناقف . وفي يثرب أقامت قبيلتنا الأوس والخزرج وإلى جوارها بعض قبائل اليهود .

لم يكن قيام الحياة المدنية المشتركة في يثرب من الأمور المستطاعة ، لما كان بين هاتين القبيلتين العربيتين من حروب مباحة قبل الإسلام . وكانت هذه المفاخر أساساً لأشعار قيس ابن الخاتم شاعر أوس ، الذي قتل أبوه وجده في قتالهما ضد الخزرج ، فأثار بين القبيلتين حرباً دامية للأخذ بثأرها ، فلما هدا القتال اغتاله أعداؤه ، وقتل بعد ظهور الإسلام وقبل الهجرة إلى المدينة .

كان قيس بن حاتم كثير الشبه بشعراء البادية ، ولم ينحرف عن طريقهم أو يشذ عن لونه كما نرى في معاصره أمية بن أبي السلت شاعر الناقف بالطائف ، وكان قد غلبت عليه الأفكار الدينية المسيحية وأخذ منها بعضها ، وحضر الإسلام ولكنه لم يدخله ، ولعل أسباباً سياسية هي التي منعت من الدخول في الإسلام اتحاداً مع عظماء موطنه في تضامهم مع أهل مكة الذين كانوا يرون في النبي صلى الله عليه وسلم عدواً لحقوقهم وامتيازاتهم ؛ ولقد رثى قتلى المسلمين بعد موقعة بدر بمروية طاق انتشارها أسباب دينية ، ونوفى ولم يدخل في الإسلام عام ٩ هجرية . ولم يحفظ لنا التاريخ من أشعاره إلا قطعاً ناقصة اهتم بحمها وتفسيرها علماء القرن الثالث من الهجرة ، ولقد قال فيه الأصمعي ، وهو حجة الشعر القديم : إنه شاعر الآخرة ، كما سبى منثرة شاعر الوغى ، القتال .

ولما كانت الروح الغالبة في أهل مكة هي الروح التجارية العملية ، فانا نجد أن المواهب الشعرية لم تنم بها نمواً كافياً ، ولم يظهر منها في هذا العصر القديم إلا الشاعر المكي مسافر ابن أبي عمرو بن أمية ، وترجع شهرته الشعرية إلى حادثة غرامية أكثر من مقدرة الفنية ،

فيحكى أنه خطب إحدى بنات قبيلته واسمها هند وهى ابنة عتبة بن ربيعة ، وأولع فى غرامها ولكنها رفضته لرفقة حاله ، فرحل الى عمرو بن هند ملك الحيرة طمعاً فى المال والثروة ، فلما بلغه هناك خبر زواجها من غيره مات حزناً عليها .

شعراء اليهود والمسيحيين :

كان غرب شبه جزيرة العرب موطناً لبعض قبائل اليهود التى أقامت فى تيمه ويثرب ، بعد هجرتهم إليها على أثر تخريب بلادهم على يد « تيتوس » و « أدريان » . ولقد ظهرت بميزات اليهود الخاصة واضحة كذلك فى بلاد المغرب حيث أخذوا عن العرب كل مظاهر الحياة الخارجية ، واستمروا الى أبعد حد مع تمسكهم الشديد بدين آبائهم ، وتمكوا أيضاً من التقدم والتطور به بنفس الخطوات التى سار عليها أسلافهم فى فلسطين وبابل ، وأهم المظاهر الخارجية التى أخذوها عن العرب هى اللغة وفنون الكلام ، ولو أن ما حفظت لنا الرواية من بقايا مؤلفاتهم الشعرية لا تعدل المأثور عن البدو الأصليين فى الملقظ أو الأسلوب القوي .

وأشهر من ظهر بين شعراء اليهود هو السموءل بن عاديا ، وكان حاكماً على الأبلق بجوار تيمه ، ولم يكسب شهرته بطريق الشعر بقدر ما كسبها بفنبل خصاله وشرف أفكاره ، فروى أن أمراً القيس — وكان السموءل يثوي فى حصنه — ترك لديه دروعه الخسنة وهى البقية الباقية له من ثروة عند ما أراد الرحيل الى بزنطة ، فلما علم خبر وفاته أرسل إليه ملك الحيرة أحد رعاياه على رأس جنود مسلحين لاسترجاع هذه الدروع الثمينة ، فابى السموءل تسليمها بالرغم من وقوع ابنه فى أسرهم وقتله على مرأى منه بصورة قاسية ، فكانت هذه التضحية الغالية سبباً فى تخليد اسمه ، وجعلته مضرباً للأمثال فى النبل والشرف . ولم يبق لنا من آثاره الشعرية إلا بعض القطع الشعرية القصيرة يذكر فى إحداها حمله هذا . ولقد عرف من بعده أحد أسلافه وأحد أحفاده فى مبادىء الشعر .

بقيت الديانة اليهودية محصورة فى بقاع ضيقة من بلاد العرب ، ولم ينظر لها البدو أبداً نظر الاعتبار ، بل أحلوها مكان الضيف الأجنبي الغريب الذى لا أثر له فى حياتهم الفكرية . وأما المسيحية فكانت منذ ظهورها على جانب عظيم من الأهمية : ففى الفولتين المتأخنتين لصحراء العرب بدأ ظهورها للبدو كقوة مهيبة الجانب : غرباً دينا للدولة الرومانية الشرقية التى انتفى إليها أسراء العرب الفسائيين فى دمشق ، وشرقاً كدين للشعوب الآرامية التى استطاعت بحضارتها العالية أن تترك أثراً ظاهراً فى البدو ، كما يتضح ذلك من الألفاظ الأجنبية العديدة التى تسربت الى لغتهم ، هذا فضلاً عن اعتناق أسراء الحيرة من النخيين المتأخرين الديانة المسيحية بعد أن دخلها أكثر رعاياهم من أصحاب السلطة والنفوذ ، وكان هؤلاء يسمون أنفسهم « عباد » . ولقد اهتموا اهتماماً كبيراً بالأدب العربى . وهم أول من دون لغة الشعراء تحريراً ، إلا أن التاريخ

لم يحفظ لنا من أعمالهم الشعرية إلا نقايا قليلة ، وقد يرجع ذلك الى اختلافهم التكرى الظاهر من الروح الوثنية القديمة .

وأعظم هؤلاء الشعراء المبادئ قيمة وأكثرهم أهمية في الادب العربي ، هو عدى بن زيد سليل بيت كريم من أهل الحيرة ، وكان أبوه مديرا للشئون المدنية في حكومة المنذر ، واختص ابنه بتربية عالية وثقافة فارسية ممتازة أهله لتولى بعض شئون بلاط القرس بالمداين ، وبعث برسالة سياسية الى بزنطة ، فدرس في طريقه اليها بمحاضرة العرب في وسطها الآخر بدمشق ، وبها نظم أول أشعاره ، فلما عاد إلى موطنه وكان أبوه قد توفي ، فانت نفسه الحياة السياسية وفضل الإقامة بضيعة أبيه مشغلا بالزراعة ، ولم يفتك في الأعمال المدنية إلا والمنذر على فراش الموت ، وكان قد أوصى ابنه النعمان عنده ، فساعدته على الاستيلاء على عرش أبيه ، وكان بنو مزينة ، وهم جماعة من الأشراف ، يعملون على رفع ابن غيره من أبناء الملك المنوفى على أريكه الملك ، فأنار غضبهم عليه وأرادوا لانتقام منهم ، ونجحوا في الوشاية به عند النعمان الذي دعاه الى الحيرة ، فلما قدمها أمر بقتله .

ولعدى أشعار في الحمر ترجع الى سقى شبابه الأولى ، وكانت ذات أثر بعيد المدى في تطور هذا الضرب من الأشعار في تاريخ الادب العربي ؛ ولكن الناحية الجدية من الحياة سرعان ما تغلبت على شعوره ووجدانه ، فأنذر بالموت والتفناء في هذه الحياة الدنيا .

ماهى حقيقة الزهد

قال حكيم : ليس الزاهد في الدنيا من زهد فيها وقد أعرضت عنه ، ونفرت منه ، ولم تمكنه من متاعها ، وضائق عليه مع اتساعها ، وهو مضطر الى ذلك لظهور سرته ، ونفود يصرته ، وإنما الزاهد في الدنيا من أقبلت عليه ، وحشدت فوائدها اليه ، وحسنت له في ذاتها ، وأمكنته من لذاتها ، فأعرض عنها وزهد فيها .
وقد نظم هذا المعنى شاعر فقال :

إذا المرء لم يزهد وقد حمت له ضروب من الدنيا فليس يزاهد

فازهد على هذا المعنى لا يقتضى أن يهمل الانسان وجوه المكاسب ، وأن يقتصر على الدون من المطالب ، ولكن الزاهد هو من يعيش كما يعيش الناس ويعمل عملهم ، ويسلك في محاولاته كل السبل المؤدية للنجاح فيها ، فإذا حصلت له ثروة وكان يحب الزهد أمكنه ان يكون بأزائها على ما يجب .

في هذه الحالة يتبين له إن كان زاهداً من قصور فيه أم من ممو نفسه عن التانيات .

العمل الصالح طريق الحياة الطيبة

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » :

إذا نظر الانسان في الحياة نظرة فاحص ، وأمن فيها الفكرة ، واستقصى أحوالها استقصاء الساقط البصير ، وتتم ما ينشأ عنها من النتائج والمصائب ، خرج من ذلك بالنتيجة التي تحدث عنها القرآن وذكرها باري السكون الخبير ، وهي أن العمل الصالح ، أو سلوك السبيل القصد ، هو عامل الحياة الطيبة ، وركى العيش الرغيد ، بصرف النظر عن الثروة والغنى ، فليس كل ثرى سعيدا ، كما أنه ليس كل فقير شقيا . وإن المال وإن كان طريق السعادة حينما فقد يبين هذا الطريق ويكون سبب الختف أحيانا ، وذلك فيما إذا انحرف صاحبه عن الجادة واتبع الهوى . وأحسب أنني لست في حاجة لأن أعدد الأمثلة وأستطرد في ذكر الوقائع ، إذ الحوادث جمة والشواهد كثيرة :

هذا شاب أعرفه تلميذا بالمدرسة وحيدا مدالا ، ترك له أبوه ثروة قيمة ، فاستحوذ عليه جند الشيطان وعدلوا به عن طريق الهداية الى المأثرة ، وانحازوا به الى الفوارة والفساد ، فعقد ثروته غب قليل ، وأصبح من بعدها فقيرا معذما لا يملك شروى فقير .

وذاك كهل خاف له والده ثروة طائلة من مال وعقار ، استغلها استغلالا حسنا ، واستثمرها استثمارا منتجا ، فعنى بالزراعة عناية طائفة ، فواته بمحاصيل وافرة ، وكان حرصه على الغلة حرصا شديدا مدهشا ، وإذا به في يوم من الأيام والمصرف يضع يده على كل ما يملك ، فدهش الناس وأخذوا يتساءلون ما هذا ؟ فلان أفلس ! كيف ذلك ؟ ! إنه كان زارعا مجتهدا ، ولم يكن ناجرا حتى يقال إنه ضارب في السوق ، أو انهار السعر فاستفحلت الخضارة .

وهنا هتفت الجواء بصوت جهورى رددته الغابات والمخارج ، فدوى في الآذان كهزيم الزعد تستصفي به الأفئدة وتستنتصت القلوب ، قائلة : على رسلكم أيها القوم ، عم تتساءلون ؟ أنسيتم طاقبة البنى وغاب عنكم مصير الخيف والجور ؟ أجهلتم نهاية الدر وما آل العمر والفحشاء ؟ أذهلتم عن فاية الانحراف عن الصراط السوى ، والحيد عن الطريقة المثلى ؟

يا سبحان الله ! كأن الناس غفلوا عن القصص السماوى والمدالة الالهية ، يظلمون ويحسبون أن الله قائل ، ويفحشون ويظنون أن الجبار تارك ؛ ألا تبأ للمصاة ، وسحقا للغواة ، ورمى

الله الفجرة نفاقرة ! ما الذى حدث يا جواء ؟ فخيرهم أينما الاسكنة مما جرى وكان ؛ ألم يحس المنكوب في جوف الليل يطلب النفس ، ويتربص لاستغواء ضحية ، ويصب من أمواله الثراء والأحاييل لا يقع العفيفات في الرذيلة ؟ يا لله ! تعجبون من الشئ وقد رأيتم المقدمات ، وتجاهلون المسببات وقد شاهدتهم بعين رؤوسكم الأسباب ؟ ! تريدون صراحة فوق هذى ؟ فجوزى حليمة فجيعة ، واستلابا باستلاب ...

هذا ما كان من تروته . وأما ما اتخذ من عرضه فبحسبكم أن تعلموا أنه قد أصيب في ابنه بمثل ما أصاب به بنات قومه ، والجزاء من جنس العمل .

ياسادة : لولا التعرض لشخصيات لذكرت الأسماء . فلتأخذوا العبرة ثم أسدلوا على ما بقى سترأ من النسيان ، واسحبوا عليه ذبلا من التفاضى .

هيه . أرايتم المال وأبصرتم عواقبه ؟ أشاهدتم الثروة وأحسستم أضرارها إذا كان صاحبها لا يقيم للأخلاق القاضة وزنا ؟

إن الله عز وجل وعد من يدأب على الخير ، ويقيم على البر وصالح العمل ، إذا قرن ذلك بالإيمان بالله واليوم الآخر - أن يمتعه بالحياة الطيبة ، ويرزقه القناعة والرضا في حياته الدنيوية .

فليست السعادة جمع المال ، والتوفر على الاكثار من هذا الحطام ، ولكن السعادة في هدوء النفس وطأينة القلب وراحة البال ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى من كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » . رواه البخارى ومسلم .

من لم يكر وان صدح أو بلبل غريد ينشدنا من رائع النظم ، وجزل التريض ، ويظهر لنا الحكمة في ثوب مفوف ورداء قشيب ، ويظهر لنا بصوته الرخيم وجرسه الموسيقى ، ويشف أسمعنا وينقى عقولنا بذلك البيت الرائع .

يمزغنى النفس إيت قل ماله ويغنى غنى المال وهو ذليل
وينتفى بقول الشاعر :

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنمت فكل شيء كاف
وينتفى بهذا التصور :

ملك القناعة لا يخشى عليه ولا يحتاج فيه الى الانصار والغول

قل يربك ما هي الحياة وما هو العيش الذى نتراحم على أبوابه ونتطاحن في سبيله ونقتل في الوصول إليه ؟ أليست الحياة تنفخ الروح في الجسد ، واشتمالها عليه تلك الحقبة من الزمن الذى قدتر الله أن يلبث وإياها في هذه الدنيا العماخبة ؟ أليست هي انقراط عقد اليبالى ، وتصرم الأيام ، وكر الشهور والأعوام ؟ أليس العيش سدة الخلة وستر المورة ، فنى وجد الانسان ما يند هذه ويستر تلك ، وبقي شر الخصاصة والموز ، حمد الله وماش عيشه الصالحين

الطيبين ، وإن تفضل الله عليه بما قام بحقه ، ووضع في محابه فكسب بذلك جزاء المجاهدين ، وآخر العاملين ؟

هذا حسن ولكن النفس طبعته على تطلب المال ، وأمانها من هذه الناحية لا تقف عند حد . وقد بما ظال الشاهر :

أعلم النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
كلام طيب وجليل ، ولكن يجب ألا نجري وراء الخيال ، فالأمانى بضائع الموتى وصفقات
الآخرين أصحالا ، فلا تؤذى الروح بالترهات الباطلة ، فليس كل أمل يتحقق ، فلا تنفيل
ثراء كاذبا يزدريك سراه ، ولا تنوم زخرفا باطلا يخدعك حبابه ، لا تبني قصورا في الهواء ،
وتفيد آمالا في الجواء ، ولكن اعمل لتحصيل المال إن اشتيت من الطرق المشروعة وإجمال ،
فإن حصلته فكف واحدا ممن استفاد وأفاد ، وجعل المال ثمنا لثواب ، لا أداة للتدنى
في الاقتذار ، فإن سلكته في طلبه مسلك الأنانيين فلا مناص من الشغناء ، ولا معدى من
التزاع والبغضاء ، وعشت منغنص الضمير ، كدر النفس ، قلق الفكر والبال . فاقنع بما قسم الله ،
وارض بالكفاف ، وعش مبيشة للعالمين الراضين .

إن الله عز وجل يصدد أن يقسم توكيدا لكم ، وتثبيتا ليقينكم ، وتقوية لمقيدتكم ، وربطاً
للإيمان على قلوبكم ، بأن من يصدق بالقرآن والرسالة ، ويعتقد بالبعث والجزاء في الآخرة ، ثم يصدر
من هذا وقد ركن إلى الاحسان والبر ، وعكف على المعروف والخير ، واتخذ قنع الناس ديدنا ،
والسعي في قضاء حوائج الخلق مجرا وطادة ، يبني بذلك وجهه الله ويريد مرضاته ، بأن يحية الحياة
الطيبة في هذه العاجلة ، ويميزه الجزاء الآوفى ، ويثبه المثوبة الحسنى في الآخرة . فهل فطن
المسلمون لهذه المكرمة ؟ هل فاه السراة لتلك الآية البيئة فواسوا الناس بحلم وجاههم ،
وأزروم في شدتهم ، وشاركوم في السراء والضراء ؟ إن الحياة عمر يعبر ، وسفر قاصد ،
وسوق قام ونحن نجار فيه ، فهل خففنا الرحل لتجتاز في الموعد ؟ هل اكتنينا بقليل المؤنة
في السفر القريب ، وتصرفنا بلباقة لتريح قبل أن يفض السوق ؟ إننا غرباء أو عابرو سبيل
في هذا الدار ، فهل استوحشنا منها وأخذنا الأهبة لدار القرار ؟

إن الحياة لعب وملاهة ، والدنيا سلم ومرقاة ، فرحم الله امرأ جانب اللهو واللعب ، وابتدر
الصعود قبل أن يكسر السلم وينقص الدرج . رحم الله امرأ ابتلاه الله بالافلال فقع من الدنيا
بالبسير ورضى بالبلاغ ، وصبر على البلوى وراقب الله في السر والنجوى ، ووضع نصب عينيه
قول الملك القدوس السلام : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » فاصاب السجج في الدنيا ، وظفر
بجزيل الاجر في العقبى ، وكان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأولئك هم المفلحون ما

عبد الرحيم الوريدي

واعظ مركز فوه

الحرية الديمقراطية للرأة الأوربية

نحت هذا العنوان قرأت اليوم (٢١ فبراير سنة ١٩٣٨) في جريدة ألمانية *Hamburger Zeitung am Mittag* هذا الخبر :

« نشرت الجريدة الرسمية الفرنسية للقوانين في يوم الأحد ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ قانوناً بإلغاء القانون الخاص بمنع المرأة المتزوجة :

(أ) من توقيع أذونات الصرف المالية (الشيكات) .

(ب) من فتحها حساباً جارياً في أى بنك من البنوك .

(ج) من توقيع أى عقد مالى .

(د) من استيلائها على الإرث مباشرة بدون إذن القاضى في ذلك كله » .

لم يدهشنى هذا الخبر دهشى لو بقيت بمصر ولم تسنح لى الفرصة لتعرف أحوال البلاد الغربية ودراسة الحالة الاجتماعية للمرأة الأوربية على الخصوص ، لأن الصورة التى فى ذهن الشرق عن أوربا صورة مبالغ فيها نحو ناحية الكمال والرق الإنسانى ، بفضل الحضارة الثقافية والأدبية التى تقوم بها الأفلام السينمائية ، ومدارس الإرساليات الأجنبية ، والنشرات والكتب التى تحمل طابع البحث العلمى .

من هذا التصوير المبالغ فيه يود كل شرقى أن يكون أوربياً ، وأعلى الأقل يحاول أن يظهر بمظهر أوربى . كما ترغب المرأة الشرقية وخصوصاً المصرية فى أن تحمل طابع المرأة الغربية مهما كلفها ذلك من مجاعة لمادات وطنها ، وإسراف فى تقليد « منالها » (Ideal)

من هذا التصوير يتجلى الموضوع الأسمى فى الشرق لسيادة الأوربى ، ويتبين بوضوح تكلف العناء والتضحية بالقومية فى اتباع مشورة الوصى الغربى .

إن مدينة أوربا مركزة على المادة وثقافتها ، للوصول الى المادة . فحديثها تشمل فى المخترعات الهندسية والكيمائية ، وثقافتها فى تعليم سلطة السلطان وسياسة الاستثمار . مدينتها القوة الحربية ، وثقافتها التبشير الروحى ، وأبحاثها العلمية تصور الأمم الضعيفة بصورة مشوهة كي يكون هناك محل للنداء « بوجوب تمدن الشعوب غير الناضجة فى المياسة والادارة » .

وهذه المدنية المادية من أكر عوامل انتشار المذهب اطلقى النفعى ، وتربية الشعور الإنانى (Egoism) ليس فقط تجاه الشعوب غير الأوروبية ، وإنما فيما بين أمم الغرب أنفسها ، بل فيما بين أفراد الأمة الواحدة منها . وكلما تمكنت المادية من هذه المدنية وقوى هذا الشعور الإنانى ، ضمعت القضايا الخلقية الروحية ، وقلت قيمتها العلمية ، وأصبحت ، فقط ، أداة للدعاية بين الشعوب الضعيفة أو القطرية ، باسم « الإنسانية » وحملها على الاستسلام باسم « الأخوة فى الإنسانية » . ولذلك كان أضعف الشعوب وأزهدها فى السلطان ، كالشعوب الهندية ، هو الممتنع لهذه المذاهب الروحية بأمانة وإخلاص .

عن هذا الشعور الإنانى تأسست علاقة الرجل بالمرأة فى أوروبا ، وهى أقرب الى علاقة مادية منها الى علاقة نفسية روحية . ففى انكلترا الى الآن ، وفى فرنسا لغاية تاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ تمنح المرأة المتزوجة من التصرف فى شئونها المالية الخاصة بها ، ويعتد سلطان الرجل وقوامته عليها الى حاجتها الاقتصادية المادية ، بينما لا يحرم القانون ، بل قد تمنحه العادة (١) حسبما يكون منشأ المرأة فى الحياة الاجتماعية ، أن تتخذ الزوجة صديقاً لها ، كما يتخذ الزوج صديقة له .

لا تمنح المرأة فقط من التصرف فى أمورها الاقتصادية ، بل عليها بحكم العرف ، والعرف قانون ، أن توحس لخطيئها بيت الأسرة المقبلة التى ستسكن منها مبدئياً . ولهذا لا يفهم الأوروبي المادى ماقرضه الاسلام على الرجل من صداق زواجه ، ويحاول أن يصور المرأة المسلمة بالسلمة القابلة للبيع والشراء ، ولا يستحي حتى فيما يسميه أبحاثاً علمية ، أو فيما تطلع به الجرائد اليومية على الرأى العام ، من تسمية المهر فى الاسلام « ثمن شراء » (Kaufpreis)

لا يود أن يفهم الأوروبي أن المهر هو نصيب الرجل فى بناء الحياة البيتية ، وأن هذا الالتزام من جانبه وحده ، لما فرض له من قوامته على المرأة ، ولما فرض فيه بحكم الطبيعة من أنه المكافح فى الحياة . فتكون المرأة فى أوروبا هى التى تتحمل تأسيس الأسرة وحدها ، قلب للوضع الطبيعى ، وأشبه شئ بوسيلة مغرية للرجل على زواجها ، كأن طبيعة الأنوثة فيها غير كافية للإغراء ، وكأن الرجل لا يثمر فى طبيعته بالحاجة الملحة الى المرأة لسد هذا النقص فيه حتى تستمر صنة الكون فى البناء والتجديد فى حياة البشر الاجتماعية ، ولكنه المذهب المادى الذى قارب أن يحول ما بقى فى نفوسهم من شعور إلى غرائز لا يكون للارادة عليها سبيل .

الاسلام حبر على المرأة ولكن فى التصرف فى عفافها وحلقها ، وأباح لها فى جانب ذلك

(١) فى الطوائف المتوسطة لا تقل السراء الحرية فى المعاملة على العظمى والسفاه الحق والتعلق بالقديم من نظيرتها فى البيئات الشرفة .

التصرف في مالها . هو لم يحجر عليها في الواقع وإنما أؤمها برعاية حقوق قرينها فيما كان سبب الزواج ، وفيما المحافظة عليه سبب سعادة الحياة الزوجية . لم يسج لها وإنما اعتد باستقلالها ، وأكد لها هذا الاستقلال فيما بعد اقترانها ، في الوقت الذي هو مظنة التبعية ، والذي هو في الواقع مبدأ التبعية في حياة المرأة الزوجية في الأمم التي تدعى أنها منبع الديمقراطية ، وأنها رسل الحرية في الشعوب التي تبني الانحجار بالرقب ، أو تبني الاسر والرق باعتبار أنه تدبير من تدبير الحرب المشروعة .

إذا كان إطلاق التصرف المالي للمرأة هو الحرية الديمقراطية الفسوية في القرن العشرين ، فللمرأة المسلمة أن تتر بتمتعها بهذه الديمقراطية منذ القرن السابع الميلادي . وإذا كانت قوامة الرجل الأوربي على المرأة ، في شئونها المالية ، فليفخر الرجل المسلم بأن قوامته على زوجته فيما يصون عليها شرفها وكرامتها . وإذا عدت أوروبا مبدأ التبعية والحجر على المرأة في تصرفها المالي ظاهرة من ظواهر المدنية ، فليعتز الشرق الاسلامي بمبدأ الاسر في الحرب من أسباب ضمان الظفر والنصر الذي لا يلبث أن يتبعه الترغيب في العنق ثانية ، وحمله غاية أنواع الكفارة عن ارتكاب أشد أنواع الاجرام مقتنا عند الله وعند الناس .

المادية والروحية مذهبان متقابلان ، وكلما غلت أوروبا في المادية تراءى لها الحق في القوة وتمثل لها الظلم عدلا . كذلك كلما غلا الشرق في الروحية تراءى له الحياة الحقة في الزهد والتواكل والاحتلام . أما المذهب الخيار فهو مذهب الاعتداد بالنفس ، والمحافظة على السلطان واتباع العدل فيه ، هو المذهب القائل :

(أ) « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . » والفائل أيضا :

(ب) « ولا يظلم ربك أحدا . . . »

محمد المبرهي

دكتور في الفلسفة واهل النفس

وهو عضو بمئة تخليد ذكرى الأستاذ الامام محمد عبده

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

وقفنا بالقارىء في البحث السابق عند الكلام عن مشروعية الوقف في الشريعة الاسلامية ، وكيف أنه نظام صالح قصد به الى ترفيه نوع من العيش عن فئة فقيرة كفاها ذلك السؤال ورقة الحال ، وكيف أن هذا النظام قد أخذ به كثير من الامم المسيحية ، فبس نوعاً من العقار على فئات من ذوي الخصاصة ، واشترط بقاء تلك الجبوس بقاء مؤبداً لتظل غلته متلاحقة الاثر على من حبست عليهم أعيانها .

والآن نحاول في شيء من البسط أن نعرض للعقار الموقوف وما لحقه من الأشجار والزرع المتنوعة ومدى الفرق بينها وبين المنقول ، وهل هي تابعة للعقار في حكم الوقف أو غير تابعة ؟ وهل المنقول يدخل في ذلك الحكم أو لا يدخل ؟ والكلام مستفيض في هذا البحث الطريف بين الأئمة المشتغلين والاعلام المحققين .

فما تواضع عليه علماء الفروع أن العقار هو الأرض سواء أكان عليها بناء أم لا ، وذلك شامل للأرض الفضاء المعدة للزراعة أو للبناء ، كما يشمل الدور والجوانيت والمصانع ، وهذا من غير خلاف صحيح الوقف متى كان مستوفياً لشرائطه التي أفصنا عنها الكلام في بحثنا السابقة . فيدخل في وقف العقار بطريق التسع من غير تخصيص عليه كل ما يدخل في بيعه وإجارته ، وهذا هو الضابط الشامل ، الذي وصحه الفقهاء للاحاق ما لا ينص عليه بما نص عليه في حكم الوقف .

نقل صاحب الفناوى الهندية : « أن الواقف إذا وقف أرضاً مملوكة له دخل ما فيها من البناء والشجر بجميع أنواعه إذا كان الشجر من نوع يحسب في الأرض لأكثر من عام ، بحيث إنه يصبح موقوفاً تبعاً لوقف ذلك العقار وإن لم ينص عليه الواقف في إيجابه . ويدخل في ذلك أيضاً الطريق العام الموصل الى تلك الأرض والماء الموجود بها ، لأن غلة تلك العين لا يمكن استثمارها إلا بواسطة ذلك الماء المستقر في الأرض الموقوفة وقت وقفها ، ولأن الطريق الموصل اليها ضروري الاتصال بها فلا يمكن إلا أن يكون تابعاً لها في وقفها ، وذلك ظاهر في الاجارة بدون نص على المياه وعلى المساقى الموجودة في الأرض المؤجرة » اهـ

وعلى هذا النظام حرت المحاكم الشرعية ، فصدرت منها عدة أحكام تحدد ذلك الانجاء ، وتبين مدى تنعية ما لم ينص عليه مما هو ضروري للأعيان الموقوفة .

وعلى الجملة فإن الواقف إذا وقف ضيعته لحق بها في الوقف ما كان متصلاً ببقائها واستثمارها ، وسبباً من أسباب نفعها وتأيدها : كرحى الماء والدواليب والآلات البخارية

التي توصل اليها الماء . ويتفرع على ذلك الاتجاه تفرع آخر وهو أنه لا يلحق بالأرض الموقوفة ما بها من زرع وقت وقفها ، وهو ما لا يمكن في الأرض لا أكثر من سنة : كالقمح والشعير والقطن سواء كان ذلك الموجود قيميا أم غير قيمى . ويدخل في ذلك الثمر الموجود على الشجر وقت الوقف ، سواء أكان مما يؤكل كالنخيل والبرقوق ، أم لا كالورد والياسمين ، بل يبقى كل ذلك ملكا لواقف دون إلحاق بالأرض الموقوفة . فلو قال الواقف : وقتت هذه الأرض بجميع ما فيها من المرافق وما يخرج منها ، وكان بالأرض زرع أو على الشجر الموقوف ثمر وقت الوقف ، فهذا النوع من الوقف على رأيين عند العلماء : فذهب بعضهم إلى أن الثمرة تكون للواقف ولا تلحق بالأرض الموقوفة قياسا ، ويلزم الواقف التصديق بها على الفقراء على وجه النذر لا على وجه الوقف استعسافا . وذهب البعض الآخر : إلى أن الثمرة الموجودة على الشجر يوم الوقف داخلية في الأرض الموقوفة ، ليسير قصد الواقف على نسق واحد ، وليكون عمله في هذا الخير أوفى غاية وأبلغ قصدا . وحجة الأولين أن الواقف لما قال أرضى صدقة موقوفة فقد أوجب على نفسه الصدقة المستفادة من غاية الوقف ومدلوله ، فيلزمه التصديق بالثمره الموجودة على الشجر يوم الوقف .

ونقل صاحب الاسعاف عن العلامة الناطقى أن ثمرة الشجر ملحقة بالأرض الموقوفة فيكون حكمها حكم الثمرة التي تنبت بعد الوقف ، وعليه تصرف في الوجوه التي سماها الواقف لأنها من غلة الوقف . وأنت خبير بأن الخلاف بين العلماء على إلحاق ثمر الأشجار بالأعيان الموقوفة وقت الوقف أو عدم إلحاقه ، خلاف شكلى ؛ ضرورة أن الوقف صدقة وأن الواقف يوم وقف ضيعته وبها أشجار عليها عمار لم يكن غرضه إلا أن يخرج منها لله ولرسوله ولفقراء المؤمنين ، فتوجيهها إلى الصدقة أو إلى الوقف توجب به منفعة الفقراء سواء أكانت داخلية في الوقف أم غير داخلية .

وحكم الثمار على أحد الرأيين حكم المواشى والمحارث والتواريخ وما إليها من المنقولات المستعملة في الزراعة وليست منصلة بالأرض اتصال ثبات وقرار . لكن نقل العلامة صاحب البدائع وصاحب الاسعاف أن الواقف إذا ذكر هذه الأشياء في إهداء وقفه وقع وقفها عند الصاحبين صحيحا ، فعند أبى يوسف لأن المواشى والمحارث والتواريخ وما إليها تابعة للأرض في إنماء ثروتها واستنبات غلتها وإعدادها للتداول بين الناس واستثمارها والانتفاع بها . وقد يصح من الأحكام تبعا ما لا يصح قصدا وهذا أولى وجوه التسمية لما تقدم . وعند محمد رضى الله عنه لأن مذهبه يحيز وقف المنقول استقلالاً ، فأولى أن يحيزه تبعا للمعار إذا كان من مقوماته وسببا أوليا في إصلاحه وإعداده للاستغلال والانتفاع اهـ .

فإذا تقدم العهد بها وأصبحت غير صالحة لتداولها فيما أعدت له بيعت واشترى بشئها

ما يسد كفاية العين الموقوفة على غلط سابقتها ، فإن لم يكن ثمنها كافيا للوفاء بإعدادها كتلت من غلة الوقف بحيث تصبح قادرة على أداء مهمتها حتى ولو لم يشترط الواقف ذلك لتحقيق ضرورة وجودها ككره غير منفصل عنها . وقضاء المحاكم الشرعية يفسر ذلك الاتجاه ، وهو ما نشاهد في كل مناسبة من هذا النوع . واستثنى العلماء من ذلك نوما آخر وهو ما إذا جعلت الأرض مقبرة فلا يدخل فيها الشجر والبناء ولا موضعهما ، بل يكون ذلك ملكا للواقف ولورثته من بعده . ذلك لأن موضع الشجر والبناء يوم الوقف كان مشغولا بهما فلا يمكن وقف تلك الأرض المشغولة ضرورة أنها غير صالحة لوقفها ، والوقف إنما يقع صحيحا إذا تحققت شرائط صحته ، وليس هذا منها .

غير أن العلماء بعد ذلك حكوا عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه منع الوقف في المنقول سواء كان الوقف له استقلالاً أو تابعا لعقار في بعض صورته السابقة ، وسواء جرى العرف بوقفه أم لا . وحجة أبي حنيفة في المنع أن الشرط في الوقف أن يكون الموقوف متابدا للبقاء ، والمنقول لا تابدا فيه ، وذلك يجري منه مجرى القياس . فالقياس أخذ أبو حنيفة ، ونحوه صاحبان نحو وقوع الوقف وحوازه وصحته في المنقول تساويا استقلالاً ، فأما تبعا فقد مر عن أبي يوسف وعبد رضى الله عنهما تجوزهما تبعا للأرض الموقوفة في المواشي والمحاريث والتواريخ وما إليها ، لأن غلة الأرض لا تنأى كاملة بدونها . وأما استقلالاً فلورود النص بوقوعه في السلاح والكرام ، فقد وقف خالد بن الوليد رضي الله عنه دروما له في سبيل الله . وحبس طلحة رضي الله عنه سلاحه وكرامه في سبيل الله ، وحين علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاز له إجازة مطلقة . فسنن الصحابين في ذلك التجوز النص ، والنص مما يترك به القياس كما لا يخفى على المطلعين .

ثم اختلف الأئمة بعد فيها وراء ذلك ، فنع أبو يوسف وقف المنقول استقلالاً منعاً مطردا إذا استثنينا واقعى طلحة وخالد بن الوليد استنادا إلى رأيه المعروف وحجته المشهورة . وفصل محمد بين ما جرى العرف فيه بوقف المنقول وبين ما لم يجر ، فصار جرى به العرف في وقفه استقلالاً من المنقولات كالقدوم والفأس والمنشار ، والنياب التي يغطي بها الميت والحنازة والقدور والأواني التي يحتاج إليها في غسل الموتى ، صحن وقفه . وما لم يجر العرف بوقفه كالمهبي ، للأطعام كالنياب والأمنعة من الفراش والبسط والحصر لغير المساجد والأواني المستعملة لانتماع الأحياء بها لا يصح وقفه ، لأن التعامل مما يترك به القياس فنزلته والحالة هذه في منزلة النص على عدم جوازها .

يبقى بعد ذلك أن العلامة صاحب الفتاوى الهندية والعلامة صاحب الاسماء نقلا أن المعبر من العرف عرف إقليم الواقف في عصر وقفه ، ويتفرع على ذلك الاتجاه أنه لو تعارف قوم

وقف الدنانير والدرهم والمكيلات والموزونات والأكيسة للفقراء والمموزين ، أو تعارفوا وقف بقرة أو أبقار أو نحوها على أن ماخرج منها من سمن ولبن وغيرها فهو للفقراء صح وقفه في رأى محمد رضى الله عنه ، فندفع الدرهم والدنانير في الصورة السابقة بضاعة أو مضاربة وحيثما يصرف ويجمع على الجهة التي سماها الواقف في كتاب وقفه ، أو يشتري بها عقار إن أمكن ثم يحمل وقفا على تلك الجهة ، وتباع المكيلات والموزونات في بعض الصور السابقة ثم يفعل بها ما فعل بالدرهم والدنانير بحيث يكون مصير الكل واحدا يؤدي الى نوع من أنواع البر والمعونة .

وعلى هذه الطريقة يجوز دفع الحب الى من ليس عنده حب من الفقراء ليزرعه ، ثم بعد الحصد يوتي بمثله الى جهة العين الموقوفة ثم يعطى الى غيره على النحو السابق .

ويحل في ذلك الترخيص ما إذا تموزف بين قوم في عصر من العصور إقراض الدرهم والدنانير إقراضا حسنا الى المحتاجين على أن يردوها الى جهة الوقف لتنتج مندولة بين الجميع .

وحكى محمد رضى الله عنه جواز وقف المصاحف والكتب على المساجد والمدارس لطلبة العلم لجريان العرف بذلك . فلو وقف الواقف مصاحف لقراءة في مسجد معين جاز للمتدربين على ذلك المسجد أن يتلوا فيها القرآن أغنياء كانوا أو فقراء ، وهكذا يظنون متدربين عليه حتى يدركه الغناء ويصبح منهار البناء وإذا ذاك تنقل تلك المصاحف الى مسجد يكون قريبا من تلك الجهة . أما إذا وقف الواقف كتبه على مدرسة بعينها وأعد لها خزانة كان الانتفاع بها قاصرا على طلاب تلك المدرسة وعلمائها ومن اليهم ، وليس لهم في هذه الحالة نقلها من محلها إلا إذا أمر من له الولاية العامة كالقاضى في ذلك العصر أو من في حكمه بنقلها إذا عرضت ضرورة ملحة تبرر ذلك النقل ، وليس لهم أن يحتجوا هذه الكتب لأنفسهم ينداولونها كل على قدر ما وصات اليه يده ، ومعلوم أن الولاية العامة القضائية من حقها تفسير شروط الواقفين ، وتخصيصها إذا كانت عامة وتقييدها إذا كانت مطلقة ، وتنصليها إذا كانت مجملة . وعلى الجهة لها الحق في تحديد أغراض الواقفين وردها الى المصلحة من هذا الانشاء وتأيدته وقائه قائما يؤدي الى جماعة من جماعات الانسان لوما من أنواع البر والفضيلة ، فرجوع الامام محمد الى العرف رجوع الى ما يساوي النص في مدلوله .

وإذا وقف الواقف كتبنا على طلبة العلم وعين لها مكانا خاصا وضعبها فيه فلكل طالب علم أن ينتفع بها فقيرا كان أو غنيا لاستوائهما في الحاجة الى الانتفاع بالكتب وتنوع أغراضهم ومقاصدهم تسعا للعلوم التي تصبو إليها نفوسهم ، وليس من الضروري أن كل غنى يجمع كل كتاب يحتاجه ، لكن إذا شرط الواقف ألا يخرج كتبه من ذلك المكان صح شرطه واتبع . أما إذا صكت ولم يشترط عدم نقل الكتب الى خارج المكان الذي وجدت فيه فقد تردد بعضهم

في جواز النقل . فنقل العلامة صاحب كتاب أتع الوسائل عدم جواز النقل . ونقل الزيلعي جوازها ، وفصل صاحب ملتي الأبحر فقال : إذا أمن النقل جاز وإلا منع فيجوز في رأيه أن يبقاها الطالب أو من له إليها حاجة ، على شريطة أن يحتفظ بها ليردها إلى جهة الوقف حتى تبقى متداولة النفع بين روادها ، ويد مستعير الكتب يد أمانة لا يضمن ما أتلفه إلا بالتعمدي أو بالتفريط والاهمال ، فإن شرط واقف الكتب ألا تعار كنيبه إلا بالتذكرة المعروفة في عصرنا الراهن (بالاستشارة) صح شرطه واتباع ، لأنه يتضمن منفعة للواقف ، ولأن فيه دفعا لمظنة هلاك الموقوف أو تآكله .

وحكى صاحب الدر المختار : لو شرط الواقف ألا يخرج كنيبه إلا برهن وقع شرطه باطلا إذا أريد بالرهن مدلوله الشرعي في باب الرهن لأنها في يد المستعير أمانة والرهن بالأمانات باطل . ويتفرع على ذلك أن لو أخذ خازن الكتب من المستعير رهنا فتلطف في يده أو هلك لاضمان عليه لأنه رهن باطل والرهن الباطل أمانة في يد المرتهن .

أما إذا قدم المستعير رهنا على قصد أن يكون ضامنا للكتب المستعارة كان تكون معدومة النظر أو تخينة القيمة أو مشرفة على العفاء فلا خطر فيه ، لأنه يكون رهنا لقويا لاشرعيا ، فإذا جهل قصد الواقف في اشتراط الرهن حمل على الرهن القوي لا على الرهن التقيي تيسيرا للناس وضمانا لتأييد الموقوف ودوامه وسعة انتفاعه .

وجملة القول أن شروط الواقفين قد تكون في بعض الأحيان منافية لمصلحة الوقف أو لمصلحة المستحقين وقد لا تكون منافية . ومن هذه الناحية جعل الاشراف للولاية القضائية .

فللقاضي تحديد مرامي الواقف وتبيين أغراضه ، بل له بحكم ولايته القضائية أن يلغي بعض الشروط التي قد يشرطها الواقف في كتاب وقفه منافية لما بدأ في عصر من العصور أن إلغاه أجدى على الوقف من إبقائه ، ولهذا مثل بارز في عصرنا الراهن ، فقد طرحت على محكمة طنطا الكلية الشرعية مادة من مواد التصرفات تتعلق بهذا البحث المستفيض مما صنوفه حقه في عدد تال إن شاء الله .

عباس طه

المهامي الشرعي

ملخص الأحكام الشرعية :

على المعتمد من مذهب المالكية :

هذا كتاب قيم وضعه حضرة الأستاذ محمد حامد الهادي الشرعي أمام محكمة بنغازي من طرابلس الغرب ، أتى فيه على الأقوال المعتمدة من مذهب الإمام مالك رحمه الله استمدته من حواشي وشرح مختصر الإمام خليل بن اسحق ومجموع الأئمة وشرحه ونحفة الإمام أبي بكر ابن حاتم وشرحا ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد وقوانين ابن جزى وتبصرة ابن مرقون مع وثائق ابن سلون وفناوى أخرى للمالكية . وقد بوبه أحسن تبويب ، ورتب مسائله أكل ترتيب ، وطبعه طبعة متقنة على ورق جيد .

وقد قرطه حضرات المشايخ الاجلاء الأستاذ ابراهيم باكير عضو المحكمة الشرعية ببغداد سابقا ، ومفتي طرابلس وشيخ المدرسة الاسلامية العليا الأستاذ محمد أبو الاسعاد ، وقاضي طرابلس الأستاذ محمود أبو رحبيص . فنرجو لهذا الكتاب القيم أن يحل محله من كل مكتبة يعنى صاحبها بدراسة مذهب الإمام مالك رحمه الله .

النحو والنحاة :

بين الأزهر والجامعة .

انتدب حضرة الأستاذ الفاضل ابراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب لاصلاح النحو ، وباب الاصلاح مفتوح على مصراعيه في كل زمان لدى كل أمة حية ، فوضع فيه كتابا أسمى (إحياء النحو) فقد فيه أساليب أثمته السابقين ، وخطأهم في بعض مذاهبهم ، فرأى فضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد احمد عرفة المدرس بكلية الشريعة رأيا مخالفا لأكثر ما ذكره ، فوضع فيه كتابا قال فيه :

« قرأت كتاب — إحياء النحو — فعرفت منه وأنكرت ، وما أنكرت أكثر مما عرفت ، فقد أنكرت منه أن نحل النحاة مذاهب لم يقولوها ، ونقدتها ، وأبان خطاها ، فصور النحاة لقارئ كتابه فوما يلها أو ممرورين يقولون ما لا يعقل ، ويفهمون ما لا يفهم ، وأنكرت منه أنه اتحل مذاهبهم ، وجنهم إذ لم يصلوا الى ما وصل إليه ، أي الى مذاهبهم ، وأنكرت منه أنه فمد قواعد في العربية لو أخذ الناس بها لغيت من روح العربية ، ولأفنى ذلك الى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجههما » .

كتب الأستاذ هذا مم مضى يتم ما تصدى له من نقد ذلك الكتاب في ترتيب غاية في البراعة ، فبين أولا مقاصد كتاب إحياء النحو ، ثم عقد فصلا في تحديد معنى النحو

عند النحويين . ثم أتى بخلامة تتضمن ما عابه المؤلف على السجدة من ذلك . ثم شرع في نقل أقوال المؤلف ونقدها واحداً واحداً في نحو ٢٣٠ صفحة مستديلاً على صدق مذهب الشواهد .

ونحن لم يتسع وقتنا بعد لقراءة الكتابين ، ونرجو أن نوفق إلى ذلك ، ولكنا نقول أي غائدة أجل لمريد التوسع في هذه المطالب الجلية من الاعتلاج على حوار بين رجلين أحدهما يمثل مذهب الأحرار المسلمين ، وآخر يمثل مذهب المحافظين ؟

لا جرم أن مطالعة موضوع في تحقيق مسائل النحوم أشق الأمور على محترفيها ، ولكن قراءته على صورة هذا الحوار يجعله أشبه بقصة مسلية ، وبخاصة لو كان كل من المؤلفين مبدع في بيانه ، متين في أسلوبه .

زى من الحسن وقد وصفنا أحد المؤلفين بالحسرية والآخر بالمحافظة أن نسين أن الحرية والمحافظة في المسائل العلمية لا بد منهما كما هو الشأن في المسائل السياسية ، ولكل منهما طرفان ووسط . فلو ترك الأمر للمحافظين لوقفوا مع كل شأن عند القديم فلا يترق عما كان عليه ، ولو ترك الأحرار حياهم على غاربهم لتغيرت أوضاع المسائل تغير الأزياء واحتل نظامها التدريجي فخرجت عن حقائقها وبعدت الشقة بينها وبين أصولها الأولية ، وليس هذا ولا ذاك من مصلحة التطور العقل والعلمي للأمة .

وبعد فإن مسألة بقاء القديم على قدمه من علوم العربية أصبح متعذراً فلا بد من إعادة النظر بما يوفق بين مازع الأحرار والمحافظين ويصون جوهر العربية من الجود ومن الضياع مما . وهذا لا يكون إلا بطرح هذه المسألة على الجمع القسوى بعد تعديله بتمثيل حزب المحافظين والأحرار فيه تمثيلاً كاملاً .

تحقيق مبادئ العلوم الأحد عشر :

للعلامة الشيخ علي رجب الصالحى .

هذه رسالة متممة وضعها الأستاذ العلامة الشيخ علي رجب الصالحى رحمه الله تعالى في تحقيق مبادئ العلوم الأحد عشر ، وهي المطلق وعلم الكلام والأصول والفقه والمعاني والبيان والبديع والنحو والتصريف والتفسير والحديث . وقد أجل رحمه الله كل هذه المعلومات القيمة في نحو تسعين صفحة ، وقد أجاد فيها إجادة العالم المحقق ، فن أراد معرفة مبادئ هذه العلوم في بيان شاف خال من التعقيد وجد من هذه الرسالة خير هاد له فيما هو بسيله وقلما يحصل على مثل هذه الثمرة من كتبها المطولة . فنحن على همة نجله فضيلة الأستاذ الشيخ محمود الصالحى أمين دار الكتب في كلية الشريعة في طبع هذه الدخيرة للمرة الثانية .

احتفال الازهر بعيد الجلوس

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام برنجل خطبة بليغة
يسرد فيها بعض مآثر حضرة صاحب الجلالة الملك

يحق للأمة المصرية أن تتخذ يوم جلوس حضرة صاحب الجلالة العاروق عيدا من أجل أعيادها ، فاقدر نالت على عهده أعز أمنية لها وهي الاستقلال التام ، وآنت من بين تقييده ، وسمو نفسيته ، ورجاحة عقله ، وجمال خلاله ، أكل ما يُرَخَّى من ملك تتجده أمة مثلاً أعلى لها في سيرتها ووطنيتها . فلا غرو إن جعلت من يوم جلوسه عيدا عاما لها ، تظهر فيه من آيات الولاء لذاته المحبوبة ، وعرشه الممدى ، أجل ما تستطيع أمة إظهاره في أي عيد من أعيادها الوطنية . ولولا أنه حفظه الله رأي رحمة برهينه أن لا يتكلف الناس إقامة معالم الزينات ، ولدت عواصم هذه البلاد أجل حلة من الأتوار في تلك الليلة السعيدة . على أن ما تكنه القلوب لجلالته من الحب الخالص ، والولاء الصادق ، قد أشرق في تلك الليلة على الوجوه فاستنارت بنور معنوي ، نعمت به القلوب والبصائر ، فكان ذلك أهنا لها من أنوار تلهي الأبصار وتصرفها عن شهود هذا الروح المنفرد .

وإن هذه المحلة التي تطبق بلسان الأزهر ، وتعبّر عن صميم وجدانه ، تزف الى الحضرة الملكية العلية واجبات التهنئة ، واجبة الله عز وجل أن يعيد هذا العيد الكريم على صاحبه وعلى الأمة المصرية حافلا بما حفل به هذا العام من الدعوات الصادقة بحفظ حضرة صاحب الجلالة مؤيدا في ملكه ، موفقا في حكمه ، محبوبا من شعبه بمنه وكرمه !

محمد فريد وهدي

احتفال الأزهر :

احتفالاً بهذا العيد الملكي الميمون وجه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر ، دعوة عامة الى الناس كافة ، فوافت الساعة الثامنة حتى كان المسجد الجامع يتوج بألوف مؤلفة من العلماء والوجهاء والموظفين والطلاب ، يتدافعون بالنواكب لشهود الاحتفال ، وما مضت دقائق حتى شعر الحاضرون بتقدم الأستاذ الامام ، تحف لاستقبال فضيلته جماهير غفيرة من الناس ، فدخل المسجد تحف به القلوب والأبصار ، وما مضت خمس عشرة دقيقة بعد الساعة الثامنة حتى بدأت الحفلة بتلاوة آيات من الكتاب

الكريم . ولما أتمها القارئ شحنت العيون الى فضيلة الاستاذ الأكرم تشوفا منهم لسامع ما تعودوا سماعه منه في أمثال هذه الأعياد الكريمة من الكلم النوايغ ، وماهى إلا هنية حتى نهض فضيلته وارتجل خطبة بليغة ، حلاها مصوته المترن ، وعباراته السليقة ، وبيانه الأحاذ ، ساردا من بحامد جلالة الملك العظيم ما وعته القلوب قبل المقول ، مشيدا بذكر ما أثره العظيمة على الأزهر والأزهريين مما خلده أبني أثر في تاريخه . ثم قال فضيلته :

« مضى حول كامل كله خير وبركة منذ تنوؤ حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول — أمزه الله — عرش ملكه السعيد .

« ولقد علمت في هذا العام آثارا كثيرة أظهركم عليها حضرة صاحب الجلالة ، وعرفتم منها ما يكتنه قلبه الكبير ، وما تنطوى عليه نفسه الكريمة ، من الخلال الحميدة المحيطة .

« وأظهر هذه المآثر التي أحدثكم عنها الليلة — وما أثر جلالاته كلها على سياق واحد من الخلال والروعة والكمال — هى حبه للعلم والدين ، وحبه لوطه وبلاده ، وحبه لرعيته ، وإحسانه ، وبره بالفقراء ، والضعفاء

« أما حبه للعلم والدين ، فقد دلت عليه أشياء كثيرة تعرفونها ، أيسرها عطف جلالاته على بهائم الصين والبلقان التي وفدت على الأزهر لتتروى من معارف الاسلام فيه ، فقد شملها جلالاته برعايته وإحسانه ، الى جانب ما تعلمون من كريم حبه على الأزهر ، وبره به ، حين تفصل جلالاته فامر بفرشه بفاخر السجاد ، وحين أمر أن يكون ديمه من نادر الرام .

« وتقدمت من جلالاته ثماء تشرق بامقائه ، حديثا طويلا جليلا عن تصقه بالعلم والاملاء ، وعن حبه عليهم ، وإرادته الخير لهم ، فقد قال جلالاته حفظه الله : إنه يرغب أن يكون أهل العلم في مصر ، وفي مقدمة طلبه الأزهر الشريف ، حريصين على دروسهم وعلى تهم دينهم ، مقدرين المسئولية الملقاة على عواتقهم ، متحابين بأخلاق نبهم الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه .

« وما حبه لرعيته فأنكم ترون مقدار تعلق البلاد جميعها بجلالاته ، ومقدار الحب الذي توليه الرعية له . هذا الحب يقابله أبها الاخوان حب من جلالاته لرعيته ، وإبه لحب لوتهمون عظيم . وأما إعزازه لبلاده ، وحبه لرغبة شأنها ، وعلو مكانتها ، فهو حب يملك على جلالاته كل قلبه ، لجلالاته حفظه الله يرى أن أهم شىء يريد أن يحققه هو أن تكون البلاد عريضة الجانب ، قوية نظائمة من النبلاء . نعم ، وجلالاته يريد أن يرى بين المصريين نوابهم في الدين ، وفي الهندسة ، وفي الطب ، وفي القانون ، وفي الآداب ، وفي كل ما ينصل بمبادئ النشاط لعسكري والعمل في هذا العصر . يريد جلالاته أن يرى النوايغ بين رعاياه لأنهم عنوان البلاد ، ومجد البلاد هو الأمل الواحد لجلالاته ، والعمل الواحد الذي ينفق فيه جهودا لا قدرة لغيره على بذلها راضيا مقتنضا . ولو رأيتم أنه حضر بنفسه حفلات كثيرة للجيش ، وأنه يولى هذا الجيش كبير عنايته ، لاخذتم من ذلك أقطع الأدلة على عميق حبه لوطنه ، وجليل عمله في سبيل إعزازه .

« وأما بزه وإحسانه ، فقد سمعتم كما قرأتم من أنبائه الشيء الكثير ، ولكن الذي لم تسمعه أو تقرأه أنجزه وأكثرت ، مقاطعة الخير مستولية على حلالته ، وإرضاء هذه العاصفة لا يكون إلا بالبدل ، وهذه المقاطعة هي الخلية التي يجب أن يتحلل بها كل ملك . ولكن بعض الملوك قرءوا منها ، وجلالته لم ينفر منها ، فهي عنده من أحسن الخلية ، وأحسن الزينة . »

« ولقد رأيتم من تواضعه ، ومن احترامه للدين ، كيف كان يحصر الدروس الدينية في رمضان ، ويجلس لسماعها كما يجلس أي أحد من رعاياه . وهذه سنة جديدة سيكون لجلالته أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

« ولعلكم سمعتم أن مواظبة جلالته على صلاة الجمعة ، وتأدية شعائر الدين ، كان لها أبلغ الأثر في توجيه الشباب إلى العناية بالدين وشعائره . فاسمحوا لي أن أقول لكم بأن هذا الأثر السافع لم يتناول الشبان وحدهم ، وإنما تناول الفتيات ولسيدات اللواتي اقتدين بجلالته في حق الدين ، والانصراف إلى طاعة الله ورسوله .

« ونعم : ففي مقدوري أن أميل معكم الحديث عن جلالته فيما أعرف وتعرفون من كريم حماله ، وسديد أعماله ، ولكنني أكتفي الآن بهذا سائلا الله العلي القادر أن يديم على جلالته نعمة الإيمان والاسلام ، ونعمة المحافظة على محبته لشعبه ، وعزازه لوطنه ، وبه بالضعفاء والمساكين ، وأن يجعل من عيد الأمة بيوم اعتلائه عرشها ، صفعة جديدة في يسرها وريائها وسعادتها » ا

قصيدة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان المدرس بكلية اللغة العربية

أحلت أنعم المليك حبالى ليت شعري ، ماذا يكون مقالى ؟
يا حياة الاسلام في أى شرع أن تجيروا تكليفنا بالحال ؟
أى شيء في مصر لم يك شعرا فومت نظمته مسموطة اللاكى ؟
يتراءى الجلال فيه ، الى القرن الى كل ساحر من جمال
صور أبدعت يد الله فيها فوق ما أبدعت يد المثال

زعموا مطلع الكواكب في الآف ق ما هذه الشمس العوالى ؟
تحدثت من عباط السبل آفا ق ، وحالت في القطر كل مجال
هلها أقلت تسام في العبد د ، وقامت بحفلة استقبال
لا تقولوا : أنارة من خيال ليس هذا البيان طيف حيال
جلوس « الفاروق » أسعد عيد صار في الدهر مصرب الأمثال

ملك طابت الحيلة يدينه ساء ، ودانت شواهي الآمال
وجرى طيره سُعدا على الدبر ن ، وعاد الزمان في إقبال
صالحات تسمو إلى صالحات ونوال يقبض إثر نوال
حين أعتت بلاغة القول عنه صورته بلاغة الأفعال



بأشبيه الفاروق في الاسم والعة ل ، وفي الحزم والهدى والحلال
ذكرتنا خلالك الغر عهدا كان للدين عهد الاستقلال
فقرأنا في القمعل خير مثال واجتلبنا في الاسم أصدق قال
وارتقبنا يوما أمل سعيدا يشغل الكون مجده والليالي



هتف الأزهر الشريف ، وما الأثر هر إلا إرادة المتعالي :
« عش لمجد الاسلام بأين فتواد يملأ الشرق نورك المنلالي »

احتفال الأزهر بالمولد النبوي :

احتفل الأزهر المعمور بذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأضني لذلك وحبا
الجامع والادارة العامة بالأنوار الكهربائية الساطعة ، وم المسعد ألوف من الطلبة والعلماء
الأعلام . يتقدمهم معالي وزير الأوقاف وأصحاب الفضيلة شيوخ السكيات ومدرسوها ،
وكان الناس يتشبهون لسماح كلمة من السكيات الجامعة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام
الشيخ محمد مصطفى المراغي ، فانفق أن فضيلته كان متعبا فلم يستطع تولى رئاسة الاحتفال ، فقام
مقامه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ ابراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية فألقى كلمة بديعة في
مناقب النبي صلى الله عليه وسلم وختمها بالدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول
قوبلت من الحاضرين باستحسان عظيم وتقدير كبير .

وأتى بعده صاحبنا الفضيلة الأستاذان الشيخ عبد الجواد رمضان والشيخ ابراهيم بديوي
قصيدتين عماوين قولتنا بالإعجاب العظيم ، ختماها بالدعاء أيضا لحضرة صاحب الجلالة الملك
فاروق صاحب المآثر الجللى عى الأزهر والأزهريين .

وجلة الأزهر ترجو الله أن يعيد هذه الذكرى الكريمة على الشعوب الاسلامية في مشارق
الأرض ومغاربها وهي مرفوعة الأعلام ، عزيزة لا ترام ، بفضل الله وكرمه .

ذكرى المولد النبوى الكريم

عوامل الخلود فى الديانة الاسلامية :

كلما حال الحول ، وأهل هلال ربيع الاول ، دمانا من صميم القلب داع للقيام بما يجب علينا لروح المحمدية الشريفة ، من الاشادة بذكرها ، والتنويه بها ، وفاء ببعض حقها علينا وعلى الانسانية كلها . أما علينا فبما أفدناه من عقائد صحيحة ، وآداب سامية ، وأغراض كريهة ، وزعامة فى الأرض لم تُلْبَسْ لامة قبلنا . فان كان قد أصابنا فى العهد الاخير قسرح فقد أصاب جميع الامم فرح مثله ، وسيندمل إن شاء الله ونصيح أكثر مما كاسحة وقوة ، وأبقى ضلعة وفتوة . وأما حقها على الناس فيما نشرته من العلم والحرية فى آفاق المعمور ، رفعت به حجباً عن قلوب غُسل ، وأعین صمى ، وعقول غُسل ، وما ألقته من النور على العقائد والتقاليد ، وعلى الحق والباطل ، وعلى الخير والشر ، وعلى العدل والظلم ، استنارت به قوس كادت تصير أشباحاً من كثرة ما أحيطت به من سُدف الآوهام ، وركمف الأهواء ، فسطاعت أن تلقى عن عواتقها أنياراً ، وعن كراهلها آصاراً ، وتخلع من اعتناقها أغلالاً ، وغنى أرجلها أصغافاً ، تخلصت بذلك الانسانية من غياهب متراكبة طال عليها الأمد فيها حتى كادت ترتكس الى البهيمية الباحثة .

ليس فى تاريخ الملل والنحل والمذاهب ما يدل على أن رجلاهما ممت عبقرية ، وارتقت ألعيته ، أتى بدستور عام للحياة البشرية فى جميع نواحيها الدينية والأدبية والاجتماعية ، اعتبر صالحاً لكل زمان ومكان ، لا يمتريه تدل ، ولا يتحيفه تنقص ، غير عهد خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم .

هنا قد يقول قائل : أما أنه أتى بدستور عام للحياة فمصحح لا يمكن المراء فيه ، وقد أتى كل مصلح قبله وبمده بدستور عام كذلك ، ولكن التقطع بأن ذلك الدستور يصلح لكل زمان ومكان ، لا يمتريه تبدل ، فما لا يمكن التسليم به ، لأن كل تجديد يأتي مناسباً لزمان الذى حدث فيه ، ويقت مابق التناسب بينه وبين الأحوال المحيطة به ، ومتى بطل هذا التناسب أصبح حقيقاً لا يكتفى حاجة أصحابه ، فنضطرهم الحياة لتلمس دستور أوسع منه دائرة ، وأكثر مناسبة ، ثم لا يلبث هو أيضاً أن يدركه القصور عن شمول الطوارئ الجديدة ، فيؤسّع أو يؤخذ بغيره ، فإصراركم على هذه الدعوى ، وخاصة فى هذا العصر ، عصر التطورات السريعة ، أمر لا يمكن التسليم به مهما موهنتوه بالوغارف الكلامية ، وضروب الخيالات الخطائية .

فنقول لهؤلاء : الأمر أهون مما تظنون ، فإن الدستور الاسلامي لم يكن خالداً وصالحاً لكل أمة في كل زمان ومكان لأنه أنزل البنا ، وجاء ماسبباً لأحوالنا في عهد من عهود حياتنا الاجتماعية ، لا ! ولكننا نعتقده خالداً لأنه قائم على الأصول العالمية الخالدة التي لا يعترها تبدل . بهذا استحالت القصة التي نحن بصددنا الى مسألة فلسفية بحثية ، وهي : هل وصع الله للنفس الانسانية أصولاً أدبية خالدة خلود النواميس الطبيعية ، تتولى تطور الجماعات ، وتترأى لها مثلاً علياً ، فتسدق بفرازها الطبيعية للوصول اليها ، في محاولاتها بلوغ الشأو المقدر لها من الكمال الصوري والمعنوي ؟ وهل الاسلام هو تلك الأصول الخالدة ؟

ليس في الناس من ينكر أن في العالم نواميس أدبية لا تتغير ، حتى ولا من طائفة الماديين أنفسهم . وكيف يمكن إنكار أن للاحق والعدل والخير والفضيلة والجمال أصولاً حقيقية مطلقة ، ولها أعلاماً منصوبة في السكون الخارجي والروح الانساني ، وأنها معايير دقيقة توزن بها جميع الاعمال الانسانية ، وتُعرف آثارها في الأحوال المختلفة ، وتدل على مقادير انحراف تلك الأعمال عن الجادة القويمة ؟

إذا لم يكن لهذه الأصول الأدبية أصول خالدة في العالم المعنوي ، على مثال الأصول للمادية الموجودة في العالم الحسي ، لاختلت موازين الأمور ، فلم يعد يمكن التفرقة بين حق وباطل ، وعدل وظلم ، وخير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، وجمال وقبح ، ولأصحت قوى الانسان المعنوية فوضى لا ترتكز على أصل ثابت ، ولا تقوم على قاعدة ثابتة .

أما وقد تقرر هذا علينا فقد بقي أن نثبت أن الاسلام يقوم ساؤه على الأصول الخالدة التي يتألف من مجموعها الناموس الأدبي العام ، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت أنه خالد مثلاً ، وأنه يصلح كذلك لكل زمان ومكان .

نشرع الآن في تفصيل هذا الاجال ، بمررد مقومات الاسلام وأصوله الأولية ، وبيان مبلغ انطباقها على الدستور الأدبي العام :

١ - الاسلام دين الفطرة :

قال الله تعالى : « فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، أي أقم وجهك للدين الحق الذي فطرت عليه النفس البشرية ، بحيث لو تركت وشأنها لاهتدت اليه من تلقاء نفسها . حنيفاً أي مائلاً عن العقائد الزائفة التي ايسست من الفطرة ، ولكنها من توليدات الخيال ، وتصويرات الاوهام .

يقول الله تعالى . إن ما عطرت النفس عليه هو الدين القيم ، لأن الناس كلهم يشتركون فيه ، ويتفقون عليه ، ولا ينشأ الخلاف إلا بسبب ما يزيده قادة الدين على هذه لأوليات الفطرية من الآراء والشروح ، وهي التي جعلت الدين أدياناً ، وأنشأت من الاحواز في الانسانية أعداء .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حالة الفطرة فقال : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يمجسانه أو ينصرانه » أى أن كل إنسان يولد خالصاً من جميع الشوائب الاعتقادية ، مفلطراً على الدين الحق ، وهو ما يؤديه إليه النظر في الوجود بدون تلقين ملقن ، ولكن الذى يفسد عليه هذا الصفاء والنقاء أن أبويه يتوليان بالتلقين فيشويان صفاء جوهره بما لُتقاهما أيضاً من صور الخيالات التى لم ينزل الله بها من سلطان .

لاشك في أن هذا الأصل من أوليات الدستور الإلهي العام ، الذى لا يعقل زواله في عهد من عهود البشرية ، بل هو الغاية التى يرمى إليها كل علم ، وتنطال إليها كل فلسفة في الأرض ، وقد رأيت أنه هو معنى الاسلام ، فأقسم لو لم يكن لدي من الأدیان غير هذا الأصل كحكم له بالخلود والصلاحية لكل زمان ومكان ، فما ظنك وقد جمع الاسلام كل الأصول الخالدة للدستور الإلهي العام ؟

٢ - إقامة العقل والبرهان حكيمين بين الحق والباطل :

الجماعات في حاجة الى تقرير العقائد ، وسم النظم ، وبناء المذاهب ، وتحرير الحقوق والواجبات ، وفي العالم عدد لا يحصى مما وضعت الأمم منها ، وقامت أجيالاً عليها ، وكل منها يدمى أن ما هي عليه هو الحق الذى لا تشوبه شائبة ، وما عداها فباطل لا يصح التعميل عليه . والمسلمون تألفت جماعتهم بعد هؤلاء جميعاً ، وقد جرت العادة أن اللاحق يقنيس بمن سبقه في الوجود ، ويقنأس به في شئونه الأدبية والمادية .

ولكن الاسلام كما أمر أهله بأن يستعرضوا كل رأى ، ويستمعوا كل قول ، ويقنيسوا كل حكم (١) ، أمرهم أن يزنها بعيزان العقل ، وأن يحاكموها الى الدليل ، فان قبلتها أخذوا بها ، وإن جافتها رفضوها غير آسفين . قال الله تعالى « لعلكم تعقلون » وقال : « افلا تعقلون » ، وذكر المالكين يوم الدين فقال : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » .

وهذا الأصل كما هو يدهى هو من أصول الدستور الإلهي المقرر ، الذى لا يعقل تخلفه في عهد من عهود الانسانية ، وهو صالح لكل زمان ومكان أيضاً .

فعلى الفطرة والعقل والدليل نبي الاسلام ، فبحكم الفطرة يتخلى الآخذ به عن كل صورة ذهنية ، وكل عقيدة تقليدية ، وكل وراثة بشرية ، لتصير تفسيته كمنفسية الطفل نقية من جميع

(١) قال الله تعالى : « فمشرعي بالدين يستمعون القول وينصرون أحسنه (أى ما يطبق على حكم العقل منه) أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » وقال : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « غدا الحكمة ولو من مشرك » .

الشوايب، مستعمدة لقبول المعارف الحقيقية . وبحكم الخضوع لسلطان العقل وسطوة الدليل لا يستخذى لاية عقيدة يولدها الخيال ، ويوحى بها الوهم ، ويدلى بها كل من يريد فساد ضميره بالخزعبلات والوساوس ، لا سلاسل مقادته والتسلط عليه .

وما دام للاسلام هذه الاصول الثلاثة الخالدة فهو باق بقاء السموات والارض ، وصالح لكل زمان ومكان ، لا يميل أن يزول منها دارت به الأدوار ، وتقلب عليه الأعصار .

بقى أن نقول : إن كل ما جاء في كتاب الاسلام غير هذا فأصول أولية ، يتألف منها دستور على يحفظ الآخذ به عن سَمَزَالِ النظر ، ومزالق التفكير ، ويوجهه الى يناسع الحكمة ، ومصادر الهداية ، ويؤديه الى غايات المعرفة ، ونهايات العلم ، وهو ينحصر في هذه السكليات التي أجمعت عليها كل فلسفات العالم ، واعتبرتها أصولاً أولية للحكمة ، وهي :

دوام النظر والتفكير في الوجود إجمالاً ، وفي الكائنات التي فيه تفصيلاً . ودرس أحوال الأمم والاعتبار بها ، وتَنَوُّر نوااميس الاجتماع من خلالها ، والاستهداء بالاعلام الالهية المنصوبة في الوجود لهداية السالكين الى الحقائق الخالصة من الشوايب ، والتجرد من جميع الصبغ الوضعية ، ومن الهوى في الحكم على الاشياء ، والاجتهاد في تحصيل العلم حيث كان وعند أية أمة وجد . والاختذ بالاحسن من كل شيء ، والعمل بمبدأ حرية البحث وعدم الاستخذاء للتقليد ، وعدم الجود على شيء ، والجري على سنة التجديد ، استبقاء للناسب بين أهله وكل جديد ، واعتبار الفضائل وسائل لبوغ السكال الذي قدره الخالق للانسان في هذا العالم ، واعتبار وحدة الانسانية ، وأن الناس ما انقسموا الى أمم وشعوب وقبائل ليتعالموا ويتناكروا ، ولكن ليتعارفوا ويتحابوا ، وأن باب الاجتهاد في الدين وفي الاحكام مفتوح الى يوم القيامة ، لا تختص به طائفة ولا تستأثر به أسرة .

هذه هي الاصول الاساسية للاسلام ، وكلها كما ترى أصول حاصلة على إجماع أهل العلم والفلسفة في العصر الحديث ، وهي مع هذا أصول خالدة قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان ، وفي كل أمة من أمم الارض ، كُتِب لها السمو وطول البقاء . فهل تعجب بعد هذا البيان من قولنا إن تعاليم الاسلام خالدة خلود النوااميس الطبيعية ، وإنها تصلح لكل زمان ومكان ؟



وبعد فلعلك تعجب أن يكون مشرق هذا السور كله رجل أمي ، ببت في بيئة كل ما فيها يغرس في نفسه خلاف هذه الاصول ، أمن تعديد وتشبيه ، الى توحيد وتزنيه ، ومن إياحة بهيمية ، الى أخلاق ملكية ، ومن فوضى حيوانية ، الى حكومة ديموقراطية ، ومن جاهلية وحشية ، الى مدنية منالية ، ومن فرقة متطرفة ، حتى بين أولاد العمومة والخوالة ، بله الرابطة الجنسية والوطنية ، الى طائفة عالمية تترع الى تأسيس زمالة عامة بين الناس كافة ،

على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، ومن مطاعم قاصرة لا تتمدى محيط الأسرة والدار ، الى مطاعم لنيل رعاة العالم وإقامة دولة الحق في الأرض ، ومن أحكام مستمدة من عادات الطاهلية وأهوائها ، الى شريعة قائمة على الحقوق الطبيعية المطلقة ، وعلى المثل العليا للعدل والمساواة والحرية ، ومن الانفاس في الطينيات ، الى سمو روحاني ليس فوقه مرقى لمترفع .

مكيف يعقل أن تدعى هذه البيئة ، وعواملها ما سردت عليك ، نفسية كنفسية محمد صلى الله عليه وسلم يبرزها نفسيات عباقرة الأرض مجتمعين ، فيأتي بما أتوا به منفردين ، ويتبنى من العدم مجتمعا نموذجيا لما يجب أن يكون عليه العالم كله حين يبلغ الكتاب أجله ، ويريد أن يعم نوره العالمين ؟

إن من يمز عليه أن يعد مجدا من المرسلين ، وجب عليه أن ينسب كل ما أتى به من هذه الأعمال الخيرة للمقل الى مواهبه الشخصية ، ونفسيته القوية ، فكان الخضم لأجل أن لا يعتبره واحدا من عشرات الألوف من الرجال الذين شرفهم الله بوحيه ، يسهل عليه أن يرفعه الى درجة من السمو لم يصل اليها بشر في الأرض . وفي الوقت نفسه يزعم أنه كان كاذبا فيما ادعاه من النبوة ! وفي هذا تناقض خطير لا يرضاه قائل لنفسه . فهل عهد في سنن الله أن المتصف برذيلة الكذب يستطيع أن يكون مصدر أصول تبلغ من السمو الى هذا الأفق الأعلى ، ثم يؤيده الله حتى يحقق كل ما وعد بتحقيقه من الأعمال الكبرى ؟ إنه قال عن ربه وهو ضعيف لاحول له ولا طول : « أم يقولون نحن جميع مستصر . سبهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . وقال وأشياعه يسمون سوء العذاب من اضطهاد المشركين إياهم : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . وقال وهو في تلك الحالة أيضا : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » . وقال وقد بلغ الملح بأصحابه مبلغه ، وشد المشركون عليهم ليفنومهم وهم شرذمة قليلون : « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فليظفر هل يذهبن كيده ما يفيظه » . وقال وأصحابه من الضعف بحيث لا يستطيعون الصلاة آمنين : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولجعلن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

من أين كان لكاذب أنت ينال على الله الى هذا الحد فيؤيد الله كل ما قاله حرفا بحرف ؟ فهل من خصائص الكذبة أن الله يخضع لهم النواميس فيتحكموا في الحوادث الاجتماعية بما لم يستطعه أي ملك كريم ولا رسول عظيم . بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ؟

التفسير

سورة الاعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى . « والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أخشى ، سنقرئك فلا تنسى ، لا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليسرى » :
ذكرنا لك مرة من تقدير الله تعالى المبني على العلم والحكمة في خلق الانسان ، ونذكر لك اليوم نماذج صغيرة في خلق بعض العوالم ، فنقول :

من تقديره تعالى المنظور على الاسرار العجيبة والحكم الغريبة التي لا يحيط بها إلا رب العالمين ، أن طوت بين أشكال الكواكب ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأما كمها ومداراتها ، جعل منها الكبير والصغير والمتوسط ، والأبيض والأخر ، إلى غير ذلك . ثم جعلها مختلفة المازل ، فنها ما يتوسط قبة القلوك وما يكون في جوانبها ، ثم خالف بينها في الحركة التي تقطع بها البروج ، فنها ما يقطع الملك في شهر ، ومنها ما يقطعه في عام ، ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاماً ، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك .

ثم إنها دائبة الحركة لا تقتر ولا تنف على مر الدهور وكر المصور :

شمس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دوماً ساجعات إلى ما لست أدري طائرات
يطير له بها الجرم المميك

فصباحان من قدرها أحكم تقدير ، وديهما أحسن تدبير !

ثم انظر بعد ذلك إلى كثرتها التي تفوق الحصر ، وإلى اختلاف طلوعها وغروبها ، فبينما ترى كوكباً يأخذ في الغروب إذا كوكب آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والنصاع ، وكوكب آخر في الربع الشرق ، وكوكب آخر في وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب وكأنه رقيب ينتظر بطويعه غيبته ، إلى آخر ما لا يأتي عليه البيان . وقد ذكرنا منه جملة في بعض ما كتبناه عن الفورد أوفيري وغيره .

وحيث بناهنا أن نقصد قول القائل :

عجبا للطبيب يلحد في الخا لنق من بعد درسه التشرىحا
ويرىنا علم النجوم الذي هو حب للدين أن يكون صريحا

ثم لننقل إلى ما في الأرض من التقدير البديع ، فترى الحق سبحانه وتعالى جعلها فراشا لتكون مقر الحيوان ومسكن الانسان ، وجعلها ذلولا تطلقها الأقدام ، وتثبت فيها الزروع ويعمل منها القين ، وتبنى فيها الابلية ، ولوجعلها من حجر أو حديد لم تمكن المعيشة عليها للإنسان ولاحيوان ، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وهي له كفات في حياته ومماته .

وبالجملة فقد هيأها لكل ما يراد منها ، فأخرج منها ماءها ومرماها ، وجعل فيها كل ما يحتاج اليه من على ظهرها من النبات والأقوات ، والثواكه والثمار ، والورود والأزهار ، فلك فيها كل ما تعميل اليه تسكك ويصبو اليه حسك ، من منظور ومسموع ، وهشموم وملحوس ، وما يحتاج اليه من الغذاء والدواء ، بل أوجد منها الرجال والنساء : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشعر تنتشرون » . فليت شمري ما هذه الأرض التي أخرجت لنا جميع الأشياء حتى الرجال والنساء ، وماذا أودع فيها حتى آتقنا كل ما يحتاج اليه مما يكون وجودنا متوقفا عليه !

ومن آيات الأرض التي اقتصنتها عناية الحكيم تعالى أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، فهذه سهلة وهذه حزنة ، وهذه تلبت وتلاصقها أرض لا تلبت ، وهذه خصبة وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ويلبها رخوة ، وهذه سوداء ويلبها أرض بيضاء ، وهذه تصلح لنبات كذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره (ليعتاج الناس بعضهم لبعض ، وليكون ذلك سببا في التآلف والتعارف) إلى غير ذلك من الأسرار . ويكفيك في هذا قوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

فاشكر إلهك الذي نوعها هذا التنوع ، وفرق أجزاءها هذا التفريق ، وحص كل قطعة منها بما خصها به ، وألق عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج الماء والمرعى ، وأمسكها عن الزوال ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ، ووضع فيها معادنها وجواهرها ومناقمها ، وهيأها مسكنا ومستقرا للأنام ، وجعلها ذلولا غير مستصعبة ولا ممتعة ، ووطأ مناكبها وذل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأثبت أشجارها وأخرج ثمارها ، وصنعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ، وبسطها

وفرشها ، ومهدا وطحاها ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها . وهو الذي يحسبها أن تتحرك الحركات الملهكة فيسقط ما عليها من بناء ، ويموت ما عليها من حيوان وإنسان . وهو الذي أنشأ منها النوع الانساني الذي هو أيدع المخلوقات وأحسن المصنوعات ، وجعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والمعادن والأرزاق والحيوان ، والذي جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتمطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أيدان الحيوان والنبات . وهو الذي جعل فيها الجبال والحدائق والعيون ، وجعل باطنها بيوتا للاموات ، وظهرها بيوتا للأحياء . وهو الذي يحييها بعد موتها فيترل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ في الحل بما ينخلق في بطنها ، فإذا كان وقت الولادة وجاءها المخاض اهتزت وأنتت من كل زوج بهيج . فحرارة الريح للإخراج ، وحرارة الصيف للإيضاج . وبالجملة لو لم يكن هذا التدبير العجيب لاختلت مصالح العالم وفسد نظام الكون .

ومما يحس أن نلفت نظرك إليه ، ولعلك حريص عليه ، أن الأرض فيما أثبتته الاكتشافات الجديدة ، وهو مذهب قديم أيضا كما في كتب الفلسفة القديمة ، أن لها حركتين : حركة حول نفسها ، وحركة حول الشمس ، وأنها تسير لغاية السرعة ونحن عليها لا نحس بشيء من ذلك . فأى تدبير أحكم هذا الصنع ، وأى علم أتقن هذا الإبداع ، وأى قدرة قمته وأحكمت تلك العلاقات التي بين الأرض والشمس ، بل بين عالم الأرض وعالم السماء ؟ وأمر الشمس في جرياتها وتديرها مع توابعها من السيارات أعجب من ذلك كله .

ولنتل هنا قوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون »

فيا لك من آيات حق لو اهتمدى بهن مريد الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة فليست وإن أصفت تحجب المناديا

والخلاصة الوجيزة : أن المراد بالتقدير والتسوية أنه تعالى خلق ما أراد على وفق ما أراد ، موصوفا بوصف الأحكام والاعتقان ، مبرا عن الاضطراب والتشويش .

والهداية قد تكون هداية فكر ونفعل كما في هداية الانسان الى كثير من مصالحه ، وقد تكون هداية جبيلية بالإلهام كما في الحيوان . (وإبداع تلك القوى الطبيعية في الأشياء هو نوع من الهداية والتسخير) . وقولهم إن كذا طبيعي معناه أنه إلهي لا نعمتل فيه . وكل

ما كان حلياً لا دخل لصاحبه فيه قيل له طبيعى ، إشارة إلى أنه على غاية ما يكون من الإتقان ، لأنه يلى محض لا دخل لعمل الفكر فيه . فاداً قولنا طبيعى ، مرادف لقولنا . يلى .

أما قوله تعالى : « والذى أخرج المرعى » فاعلم أنه سبحانه لما بين ما يختص به الناس أو هو ظاهر فيهم ، أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من الدم ، فقال : « والذى أخرج المرعى » أى هو الذى أنبت العشب ، فلا ينفى أن يبعد غيره من الأصنام التى يعبدونها المشركون . والمرعى : ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش . وروى عن ابن عباس أنه الكلاء الأخضر .

أما الغناء : فهو ما ييس من النبات حملته الأودية والمياه وألوت به الرياح .

وأما الأحوى : فهو الأسود . وقال بعضهم : الأحوى هو الذى يضرب إلى السواد . وقال الفراء وأبو عبيدة : الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل مُدْهَمَتَانِ ، أى سوداوان لشدة خضرتهما .

وهذه الأوصاف يتضمن كل منها لتدريج ، ففى الوصف بها تحقيق لمعنى التربية ، وهى تبليغ الشئ ، كماله شيئاً فشيئاً ، وفى نقل الأشياء من طور إلى طور ومن حال إلى حال دليل على تصرف القادر العظيم والاله الحكيم ، كما قال بعد أن بين أطوار الإنسان من النطفة والمعلقة والمضغة ثم نفخ الروح فيه « فبارك الله أحسن الخالقين » وكما قال « ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » . وقد أفاض علماء التوحيد فى تغير العالم ودلالته على الحدوث ، والبرهنة بذلك على وجوده تعالى وقدرته ومشيئته وحكمته .

أما قوله : « سنقرئك فلا تنسى » فهو بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته ، وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحي وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين . ويستبين منه التسبيح الذى ينزه به ربه المأمور به فى أول السورة . فإن تنزيهه تعالى وما يليق به من جلال وكمال يجب أن يؤخذ من الوحي الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا من كلام أرباب العقول الذين يصيبون ويخطئون . والسبب للتفنيس أو التأكيد .

أما قوله : « إلا ما شاء الله » ففيه احتمالان : أحدهما أن يقال : هذا الاستثناء غير حاصل فى الحقيقة ، وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئاً . قال السكبي : إنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئاً . وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله : « إلا ما شاء الله » أحد أمور :

(١) التبرك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » . وكأنه تعالى يقول : أنا مع أى عالم بجميع المعلومات وعالم بمواقب الأمور

على التفصيل لا أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة ، تبيننا لكون الأشياء كلها مرتبطة بمشيئتنا ، وتعلما لكم أن ترجعوا كل شيء إلينا ، فعليكم أن تقولوها في كل شيء ، وأن تلاحظوها عند كل حمل .

(٢) قال القراء : إنه تعالى ما شاء أن ينمى محمد عليه السلام هينا ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسيا لذلك لقدر عليه كما قال : « ولئن شئنا لدهبن بالذي أوحينا إليك » ، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك . وقال لمحمد عليه السلام : « لئن أشركت ليحبطن حملك » مع أنه عليه السلام ما أشرك ألبتة ، ففى من هذا القبيل . وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة به حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته . فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاؤه عليه السلام على التيقظ في جميع الأحوال .

(٣) يصح أن يكون الغرض من قوله إلا ما شاء الله ، نفي النسيان رأسا كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهى فبا أمك إلا ما شاء الله ، ولا يقصد استثناء شيء .

(٤) قال مقاتل : إلا ما شاء الله أن ينسى ، ويكون المراد من الإساء هاهنا نسجه كما قال : « ما نسخ من آية أو نسها فأت بخير منها أو مثلها » فيكون المعنى : إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها فبأمرك ألا تقرأ ولا تصلى به ، فيصير ذلك سببا لنسيانه وزواله عن الصدور .

أما قوله تعالى : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » ففيه وجهان :

أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ مع جبريل عند الوحي مخافة النسيان ، فقبل له : إن الله عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذي في قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه . ويكون مثل قوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءانه ، فاذا قرأناه فاتبع قرءانه » .

والثاني : أن يكون المعنى فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ فاه أعلم بمصالح العبيد فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في النسخ .

أما قوله تعالى : « وبسررك للبسرى » فالبسرى هى أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .

إذا هرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه :

أحدها أن المعنى سنتركك فلا تنسى ونوفقك للطريقة التى هى أسهل وأيسر يمتنى في حفظ

القرءان .

وثانيها : قال ابن مسعود . البسرى الجملة . والمعنى نيسرك للعمل المؤدى إليها .

وثالثها : نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به .

ورابها : نوقفك للشرعة وهى الخنيفة السمحة السهلة .

واقطع غمطك لتلك كله ، فالأولى أن يراد ذلك كله ، فهو تعالى يسره لكل ما هو خير وسعادة . وقد قال « ويسرك لليسرى » بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى دالة على عظمة العطاء . وقد دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتح على أحد غيره . وكيف لا وقد كان صبيا لا أب له ولا أم ، نشأ في قوم جهال ، ثم إنه تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين وهاديا للخلق جميعين ، حتى استحق أن يقال له : « وإليك نعلنى خلق عظيم » بل أنت يقسم الحق بحياته حيث يقول : « كعمرى إنهم لى مسكرتهم يعمهون » ثم يقول له : « ولست بمطيك ربك فترضى » . فسبحان من عباده وأعطاءه ، وجعله أشرف خلق الله ! نسأل الله أن يجعلنا من محبيه ومحبيه بعمه وكرمه .

وتعلق التيسير به عليه الصلاة والسلام ، مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما فى قوله تعالى « ويسرلى أمرى » ، للإيدان بقوة تمكنه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها . وذلك نظير قوله صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وبالجملة فالعى : نوقفك توميقا مطردا لا صعوبة فيه ، ولا مشقة تعثره ، فى كل باب من أبواب الدين ، علما وتعلما ، واهتداء ، وهداية ، فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحي والاحاطة بما فيه من أحكام الشرعة السمحة والنواميس الالهية ، مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكامل غيره ، كما تفصح عنه الفاء فى قوله تعالى : « فذكرى إن نعمت الذكرى » .

هذا واعلم أن عادة القرءان أن يرجع الأمور كلها الى الله تعالى ، مبينا أنه لاشئ يخرج عن مشيئته وإحاطته ، فيقول : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالأساس » ويقول : « من يهد الله فهو المهتد » . ويقول : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . ويقول : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » . ويقول : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم » ويقول : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا يرسله من بعده » وهو العزيز الحكيم . ويقول : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ » ويقول : « اليه يرجع الأمر كله » . ويقول صلى الله عليه وسلم : « كل ميسر لما خلق له » . ويقول فى تفسير الايمان « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » . الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة مما يثبت إحاطة الربوبية ، ويبين أن الله هو مسبب الأسباب وطاقم كل باب .

وهكذا يجب أن يكون رب العالمين ، وأقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، ولكن ينبغى أن تعلم أنك من الأسباب أيضا ، وقد خلقت حلقة هجيبة ، فجعل فيك من العلم والاختيار والاستعداد لقبول ما جاءت به الرسل ، ومن العقل والفكر ما يعرفك التجددين ، ويهديك الى سعادة

الدارين ، ما لم يجعله لغيرك ، وإن كانت ذلك كله على حد محدود وقدر معلوم لا يخرجك عن إحاطته أو يملكك مستطيعا لمخالفة مشيئته أو منازعة روييته ، مع ملاحظة أن النظام لعام للعالم قد يقضى بوجود الشر القليل لما يترتب عليه من الخير الكثير . وقد قالت الفلاسفة : إن ترك الخير الكثير من أجل شر قليل شر كثير .

ولتلاحظ مع هذا أن للإمكان حدودا ، وللممكن استعدادا خاصا يقتضى أحكاما خاصة . والإمداد إنما يكون على قدر الاستعداد ، وما وراء هذا لا يكون ، وبعد ذلك كله سر القدر والحكمة التي اختص بها تعالى ، والعلم الذي كان به نظام المكنونات وتدير المخلوقات ، ذلك النظام الذي روعى فيه حال الممكنات كلها لا شخصك الضئيل . وقد قال تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . « وفوق كل ذي علم عليم » .

فاعرف قدرك ، وقف عندما جاء به الشرع ، وإياك أن تتعداه ، واتهم عقلك وقدس رسوئك ، واعرف سعة العلم وعظمة الربوبية .

وقد دلتك على ما يسعدك في الدنيا والآخرة ، وما يجب لصغير مثلك مع من لا يعلم عظيمته إلا هو . والله يتولى هداك ؟

يوسف المجهوي

عضو جماعة كبار العلماء

الادب في عرف الحكماء

قال بعض الحكماء : عقل بلا أدب فقر ، وأدب بلا عقل حنف .

وقالوا : عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح .

وقالوا : لا عقل إلا بأدب ، ولا أدب إلا بعقل .

وقال بزرجمهر : العقل يحتاج إلى مادة الأدب ، كما يحتاج الأبدان إلى قوتها من الأطعمة .

وقال أيضا : الأدب صورة العقل ، فحسن صورة عقلك كيف شئت .

وقال ابن المقفع : كما أن الأدب لا يكمل إلا بالعقل ، فكذلك لا يكمل العقل إلا بالأدب .

وقال حكيم : احرم على أن لا يكون أدبك أغرر من عقلك ، فإن من زاد أدبه على عقله كان كالراعي الضعيف في الغنم الكثيرة .

وقال عبد الملك بن مروان . لا عب ولذك سبعا ، وأدبه سبعا ، واستصحبه سبعا ، فإن أفلح فأنت حبله على ظريه .

السنة

الجرائم الخلقية والإيمان بالله ورسوله

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه . (٢) آثار الجرائم الخلقية الضارة بالاجتماع . (٣) عناية الشريعة الاسلامية بمحاربة هذه الجرائم . (٤) علاقة ذلك بالحدود الشرعية التي ذكرناها .

(١) أما معنى هذا الحديث وأمثاله فقد احتشمت فيه آراء كبار المفكرين ، وأهم ماورد فيه رأيان : الرأي الاول : أن من ارتكب كبيرة من الكبائر التي نهى الله عنها نهايا جازما كالزنا والمواطاة والسرفقة وشرب الخمر وترك الصلاة ونحوها من المرائض الدينية ، فإنه لا يوصف بالايمان حال ارتكابه الجريمة قطعا ، فاذا ما قضى الوطر من جريمته فلا يخلو : إما أن يندم على ما مرط منه من رذيلة خلقية ويتوب الى الله تعالى توبة نصوحا ، وفي هذه الحالة يعود اليه إيمانه مرة أخرى ؛ وإما أن يستعذب الجريمة فيقسو قلبه وينسى دينه وربه ، وتستولي على نفسه الرذيلة الخلقية والشهوة الفاسدة ، فيستمر على ارتكابها ، وإن فاته يجزع من أجلها ويعمل على الحصول عليها بدون خوف من الله الذي حرمها عليه ونهاه عنها ، وفي هذه الحالة لا يعود اليه إيمانه ، وإذا مات مصرا على ذلك يخلد في النار .

وقد وردت أحاديث صريحة في هذا المعنى ، منها ما رواه أبو داود من قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة ، فاذا أقبل رجع اليه الإيمان » . ومعنى أقبل : تاب من تلك الجريمة . ومنها ما رواه البيهقي « إن الإيمان سربال يسره الله من يشاء ، فاذا زنى العبد نزع منه سربال الإيمان ، فان تاب رد عليه » . ذكرهما الحافظ المنذرى . والسربال : الثوب من الصوف والقطن والكتان . ويطلق أيضا على درع الحديد ، كما قال تعالى : « سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم » .

فهذان الحديان صريحان في أن الإيمان يتزع حال ارتكاب الجريمة ولا يمود إلا بعد لتوبة منها . أما التوبة فانها تختلف باختلاف حال الجريمة ، فإذا كانت الجريمة انتهاكاً لحق الله عز وجل وحده كشرب الخمر وترك الفرائض ، فإن التوبة منها تكون بالانصراف عنها انصرافاً جازماً بحيث يصير على أن لا يعود مرة أخرى . وإذا كانت متعلقة بحقوق المباد فان التوبة منها تكون برد تلك الحقوق الى أصحابها أو استباحهم فيها .

وقد يقال : إن هذا المعنى لا يمكن تحقيقه في التعمد على الاعراض ، فإذا زنى شخص بامرأة آخر فانه لا يعقل أن يرد اليه مثل هذا الفعل . وكذلك لا يعقل أن يطلب منه العفو عن هذه الجريمة .

والجواب . أن مثل هذه الجريمة لا يلزم ذكرها ، بل تكفى بيته عند طلب العفو ، إلا إذا أراد الاعتراف بها ليظهر نفسه بالحد المقرر للعقوبة ، وفي هذه الحالة لا يلزم أن يطلب من الزوج العفو ، بل لا ينبغي له ذلك مطلقاً ، وعليه أن يعترف أمام من يقيم عليه الحد بالكيفية التي ذكرناها قبل .

أما الرأي الثاني : فهو أن الجرائم لا تخرج المرء عن الإيمان على أى حال ، فإذا مات وهو متلبس بالجريمة ولكنه مؤمن بالله ورسوله ، فانه لا يخرج بهذه الجريمة عن الإيمان ، ولكنه يموت عاصياً ينطبق عليه قول الله عز وجل : « إن الله لا يقدر أن يشرك به ويعمر مادون ذلك لمن يشاء » . وقد وردت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى ، منها ماورد في الصحيح من أن المكلف إذا مات مؤمناً دخل الجنة وإن مرق وإن زنى .

ولا معارضة بين هذا وبين الأحاديث التي وردت في تمذيب المصاة أو في سلب الإيمان عنهم .

أما الأول فلأن الكبير يعذب عليها عذاباً مؤقتاً فلا يخلد صاحبها في النار كالكافر ، وقد عفو الله عنها فلا يعذب عليها أصلاً كراماً وإحساناً .

وأما الثاني فلأن الإيمان هو الاعتقاد بأن الله إله واحد وأن محمداً رسول الله . وهذا الاعتقاد لا يتناقى مع ارتكاب الجريمة حتماً . وقولهم : إن الذي يؤمن بأن في هذا الجهر ثعباناً لا يمكنه أن يدخل يده فيه ، فانه صحيح لكنه لا ينطبق على ما نحن فيه . وذلك لأن الله سبحانه قد أجل العقوبة على ارتكاب الجريمة وقال : إن من تاب عن جريمته عفيت عنه وبدلت سيئاته حسناً . فالإيمان بالله تعالى وبالعقوبة لا ينافي ارتكاب الجريمة التي تمحى بالتوبة لأنه يرتكب وهو مؤمن بالله الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، فإذا أصر على جريمته زمناً طويلاً على أن يتوب منها بعد ثم مات قبل أن يتوب ، كان تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء سامحه .

وما ورد من أن الجرائم تنافي الإيمان كما في هذين الحديثين وأمثالهما، فإن المراد به الإيمان الكامل . وإن شئت قلت نفي العمل الصالح، والعمل الصالح ليس جزءاً من حقيقة الإيمان، ولكنه شرط في تحققه . نعم إذا قال لا إله إلا الله مصداقاً بها ولم يعمل صالحاً أبداً فإن إيمانه لم يتحقق بفقدان شرطه وهو العمل في الجنة ولو كان قليلاً . وهذا المعنى ظاهر من الأحاديث التي ذكرت، لأن قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » معناه أن الإيمان الكامل الذي شرطه العمل غير متحقق فيه، لأن الزنا جريمة نهى الشارع عنها، فالتلبس بها وإن كان لا ينافي الاعتقاد، ولكنه ينافي العمل . وعلى هذا القياس . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة فإذا أفلح رجع إليه الإيمان » فإن المراد بالإيمان الكامل الذي شرطه العمل الصالح على الوجه الذي بينا . والتأويل هاهنا لا بد منه للتوفيق بين هذه الأحاديث الصحيحة، وبين قوله تعالى: « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فإن هذه الآية الكريمة صريحة في أن الله تعالى لا يغفر الشرك، أما غيره من الموبقات فإنه ترك الفصل فيها لمحيثته، فإن شاء غفرها وإن شاء عذب عليها .

ولا ينبغي أن هذا صريح في أن مرتكب الجريمة إذا مات ولم يقب منها لا يكون كافراً، لأن الله سبحانه قد نص على أن الكفر لا يغفره جزاءه، وترك ما دونه لمحيثته . على أن القائلين بهذا لا يفرقون في هذا بين حقوق الله وحقوق العباد، لأن الآية عامة تشمل جميع الجرائم والموبقات ما عدا الشرك بالله عز وجل .

وقد يقال: إن حقوق العباد خاصة بهم، وقواعد الدين الاسلامي تقتضي أن يكون أمرها منوطاً بأصحابها وحدهم .

والجواب: أن الله سبحانه قادر على أن يرضى أصحاب الحقوق بمنحهم نعماً أكبر مما يتصورون فيسأحووا فيما وقع عليهم من عدوان وحيف . وهذا الرأي هو المشهور بين كثير من العلماء . ولكن الذي ينبغي أن يقال في هذا الموضوع: أن الله سبحانه قد أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وخص المسلمين بالقرآن الكريم المشتمل على كل ما فيه صلاح المجتمع الانساني من أوامر ونواه وعظات وأمثال . وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يترتب للنوع الانساني في حياته الدنيا، فلم يترك وسيلة من وسائل السعادة إلا حث عليها وأمر بالتمسك بها، ولم يدع شيئاً من الرذائل الخلقية الصارة بالفرد أو المجتمع إلا نهى عنها وحذر منها تحذيراً شديداً . فالدين الاسلامي قد جاء بكل فضيلة، ونهى عن كل رذيلة، وشرع للناس ما فيه سعادتهم الدنيوية والآخورية . وقد وعد الله المؤمنين العاملين بالقوة الخلة والسعادة الدائمة، وأوعدهم العاصين عذاباً أليماً وشقاء لا طاقة للانسان على احتاله، والقرآن الكريم ناطق بذلك في غير موضع منه، فإنه قد حذر من الجرائم وأوعدهم عليها

سوء المصير ، بل صرح في بعض آياته بخلود بعض المجرمين فقال : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وقصب الله عليه ولعنه » ، وكذلك لمن الظالمين في غير موضع منه كما لمن العصاة الذين حُبيب اليهم التسوق وانتهاك الحرمات .

ولا ريب في أن قول الله صدق لا يتخلف أبداً ، وإن كان هو سبحانه صاحب السلطان المطلق والارادة الكاملة ، فإن شاء أت يعفو عن إساءة من عباده فعل بدون أن تمنحه قوة أو يقف دون إرادته مانع ، فانه هو القاهر فوق عباده ، ولكنه هو الذي رسم لعباده طريق السعادة واضحة جليلة ، وحمل لها وسائل مادية معقولة ، وأبان للناس ما يضرهم وما ينفعهم في حياتهم القافية والباقية ، وأقام لهم الأدلة المحجة على ذلك ، وقال لنا : من سلك سبيل السعادة وصل الى ما يحب ، ومن سلك سبيل الشقاء وإيثار اللذة العاجلة كان جزاؤه العذاب الخالد ، ولم يبين لنا وسيلة لمعوه في هذه الحياة الدنيا سوى التوبة من الذنوب والافلاج عنها ، والرجوع اليه بعد التردد والعصيان . فمن ذا الذي يخاطر نفسه بعد ذلك ويقذف بها في الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة ، فيغصب عليه ربه ويعرض نفسه لعذاب جهنم طمعاً في عفو لم يعرف له سبباً سوى التوبة ؟

نعم قد قال الله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . وقال « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، والله على كل شيء قدير » . ولكن من ذا الذي يستطيع أن يحزم بأنه هو الذي يشاء الله له العفو والصفح ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يحزم بأن غفرانه يحصل بدون توبة مع أن صريح الآيات الأخرى يدل دلالة واضحة على أن الله لا يعفو إلا عن التائبين ، ولم يستثن من العقوبات إلا التائبين ، ولم يغفر إلا للتائبين ؟

قال الله تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » . وقال : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . وقال : « والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . وقال « ثم توفى كل نفس ما كسبت » الى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإنسان لا بد أن يأتى جزاء عمله من خير أو شر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس مجزون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر » . وقال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

من هذا كله يظهر حلياً أن الله تعالى قد فرض على عباده أن يؤمنوا به وبرسوله ، وأن يعملوا صالحاً ، وإن لم يفعلوا كان جزاؤهم العذاب الأليم يوم القيامة . ومن عمل صالحاً

وآخر سينالون حساساته لا تذهب عند الله تعالى ولكنه سيلقي جزاء سيئاته . على أن هذا يكون قريبا من عفو الله تعالى كما قال سبحانه : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » . فهذه الآية الكريمة نزلت في جماعة تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم قادرون عليه ثم تدموا على ما فرط منهم واعترفوا بأنهم قد أحرموا ، وبذلوا أموالهم ليكفروا بها عن ذنبهم هذا ، فقبل الله سبحانه توبتهم وقال لنبيه : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » الآية .

روى أن سبعة من المتخلفين عن القتال مع رسول الله تدموا فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين على مائدة كلما قدم من سفر ، ورآهم موثقين فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلهم ، فقال : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، فنزل قول الله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » الآية ، فحلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شك أن فعلهم هذا توبة ظاهرة ، وأن سيئاتهم الكبيرة قد محيت بهذه التوبة ، لأن التوبة الخالصة تمحو الذنوب والآثام .

ومما ينبغي الالتفات إليه في هذا المقام أن الجرائم الخلقية التي تسقط المروءة والكرامة كالزنا والسرقة ونحوها ، لا يصح لمرتكبها المجاهرة بها إلا إذا كان يريد أن يقام عليه الحد لتنظيف نفسه ، فلا يلزم من رد المال المسروق مثلا أن يقول لصاحبه : إني سرقته ، بل يكفي أن يقول له : هذا مالك ظفرت به فخذ . وهكذا كل الجرائم التي ارتكبت في الخفاء فإن على مرتكبها أن يخفيها إن كانت من حقوق الله عز وجل ثم يتوب منها توبة نصوحا ولا يعود ، وأن يردّها لأصحابها إن كانت مما يرد ، أو يستسمح فيها على الوجه الذي ذكرناه .

هذا ما ينبغي أن يقال في هذا المقام . ومحصله : أن الذنوب الكبائر لا يمحوها إلا التوبة والعمل الصالح ، وكل ما ورد في كتاب الله أوسنة رسوله من أن الذنوب الكبائر قد يغفرها الله تعالى فإنه محمول على ما إذا تاب الإنسان من جرمته . ولكن القول بأن مرتكب الكبيرة كافر يخلد في النار قول هراء لا يقام له وزن بمد قول الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . وليس من المعقول على أي وجه أن يستوى المؤمن الذي يؤمن بالله ورسوله وكتبه بالكافر الذي يبعد خالفه ويكفر به ، فيخلد في النار .

نعم إن عصاة المؤمنين يعذبون بنسبة أعمالهم ثم يخرجون بعد ذلك من النار إلى الجنة كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة في غير موضع .

(٢) أما الآثار العظيمة المترتبة على العدوان على الأعراض والأموال فإنها لا تقف عند

حد ثمن مضار الزنا وآثاره السيئة في المجتمع الانساني ، ضياع النسل ، والجناية على الذرية . وهذه قضية بدهية لا ريب فيها . فلو أدرك الزناة ما قد يترتب على لذة مؤقتة تنقضي على الفور من الشرور والمفاسد ، لمان عليهم أن يغتيا من هذا الوجود ولا يرتكبوا تلك الجريمة المشينة ، إذ قد يترتب على عملهما القبيح وجود ولد قد تحققه تلك الماهرة في مهده ، وقد تسقطه جنيا ، وقد تلده إنسانا كاملا ثم تنبذه بالمرء ممرضا لمحن الحياة ومصائب الأيام ، لا يعرف له أما تحنو عليه ولا أبأ يرحم طقوله ، وقد تقذف به الأقدار في حضنة من يربيه على غير دين أبويه ، أو على أخلاق فاسدة ، فينشأ عضوا ضارا بالمجتمع الانساني ، وذلك بلاء عظيم وشر مستطير . وإذا كانت الزانية متزوجة كانت خيانتها أشد وجنابتها أعظم ، فإنها تدخل ضمنرا غريبا بين أولادها تغش به زوجها ، وقد يكون في آخر أمره نكبة على الأسرة بتمامها ، فانه قد ينزع الى أبيه الحقيقي ويتبعه في أخلاقه الفاسدة ، وذلك شر مستطير .

لعل بعض الفساق يقول : إنه يمكن اتقاء هذا الخطر باستعمال الوسائل التي تمنع الحمل والولادة ! وتلك لعمر الله أشد ضررا على المجتمع الانساني وأكبر جناية على العمران . فان هذه الجريمة إذا فشت في أمة انقرضت في وقت قريب ، لأنها بذلك تكون قد قصت بيدها على ذريتها ونسلها ، وحكمت على نفسها بأن تكون أقل إدراكا من الحيوانات التي تتناسل لبقاء العمران الى الأمد الذي أراده الله ، فضلا عما يلحقها من الهوان بنقص أفرادها شيئا فشيئا . وأي خيانة أكر من أن يصحح الانسان لأمه في هذه الحياة إلا قضاء شهوة بهيمية لا يعرف لها غاية ولا يدرك لها نتيجة مع أنها لم تخلق إلا للتناسل وبقاء النوع الانساني ؟ فإذا وجد بين الناس بهيم في صورة الانسان لا يقدر ذلك ولا يحفل به فإذا يصنع في الاعتداء على أعراض الناس وإفساد أخلاق نسلهم وناتهم وأهليهم ، بل إفساد أخلاق نساءه وبناته وأهله في آخر الأمر ، لأنهم يتبعونه في خلقه ويقلدونه في فسادهم ! وأي وسيلة يتق بها ذلك الحيوان هذا الخطر الدائم ؟ ! فليتصور الزاني والزانية قبل الإقدام على تلك الفعلة الشنعاء أن أمرهما قد انكشف ، وأن الزوج أو الأخ أو الأب دهمهما وها على تلك الحال فإذا يكون موقفهما حينئذ : هل تبقى ثورة الشهوة وسلطانها فلا يحفلان به ، أو تخور عزيمتهما وينطلع قلماهما ولا يبقى للشهوة في تلك اللحظة أثر كأنها لم تخلق فيهما من قبل ! ثم ماذا يكون حال ذلك الزوج المسكين أو الأب أو الأخ : أفلا يهون عليه في هذه الحالة أن يصحى بكل ماله ؟ وكثير من الناس يطيش لبه من هول ذلك المنظر فيقتلها ثم يقتل نفسه وهو لا يدري . وليس ذلك من باب الغرض والتقدير وإنما هو أمر كثير الوقوع بين الناس .

وعلى فرض نجاة الزناة من الفضيحة الدنيوية أفلا يعلمون أنهم سيفتضحون في الآخرة ، وأنهم سيؤدون ثمن ذلك لاصحاب الحقوق غاليا ، يوم يسأل الظالمون عن أعمالهم ولا يجدون

لهم وليا ولا نصيرا ؟ ألا يعلمون أنهم إن سترُوا أنفسهم عن الأعين فإن الله مطلع عليهم ، وأنه خير بأصاغلهم ، وأنه لى يترك مثقال ذرة من حقوق العباد بل يأخذها كاملة من هؤلاء المجرمين إن كانت لهم حسنات ، فإن لم تكن لهم حسنات حملوا سيئات أصحاب الحقوق في يوم لا يضيع فيه مثقال ذرة من الحقوق ؟

فاذا وجد فريق من الناس قست قلوبهم وعميت بصائرهم ، وأصبحوا لا يبالون بحقوق الناس ولا يستحيون من الله تعالى ، ولا يحسبون حساب يوم كان شره مستطيرا ، أفلا ينبغي لهم أن يحسبوا حساب نساءهم وذرياتهم ، فإن الزانى قدوة سيئة لأهله وبناته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عفوا تعف نساؤكم » . فاذا وجد فريق من الناس لا يبالى بفلس ولا يحفل بمرض ولا يعنيه فساد نسائه وذريته ، ولا فساد نساء الناس وذرياتهم ، فذلك أخط مرتبة عن درجة حمار الوحش والفردة وغيرها من الحيوانات التى تقار على أنثائها .

فاذا قست هذه الروح فى أمة من الأمم (وهى روح الإباحة والفوضى) فانها تزول سريعا وتنقرض عاجلا ، ولا يبقى لها ظل فى الوجود . ومن وراء ذلك كله غضب الله وسخطه وعقابه الدائم .

لا ريب فى أن ذلك وحده كافى فى زجر النفس عن الزنا ، فلا حاجة الى تذكير الناس بما ينشأ من الأمراض التى تترتب على اختلاط الزناة ببعض ذلك الاختلاط المفقوت منها اتخذوا من أساليب الحيلة والحذر ، ولا ما ينشأ عن الزنا من ضياع الأموال والجرأة على ارتكاب المحرمات ، فانازى كثيرا من الناس فقدوا أموالهم بسبب امرأة فاجرة وأصبحوا لا قيمة لهم فى الوجود ، وزى كثيرا منهم قد فسدت كل أخلاقهم وأصبحوا أعضاء فاسدة فى جسم المجتمع بسبب هيامهم بزانية ، وأمثال ذلك أكثر من أن تحصى .

فضرار الزنا واضحة مفروسة ، ولكن الزناة لا يبالون بدين ، ولا يشعرون بقضية ، ولا يعرفون لأحد حرمة ، ولا يقدرّون عظمة الله الذى يعلم خائنة الأعين ، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

(٣) لهذا كله غنيت الشريعة الاسلامية بأمر الزنا ، فقد وصفه الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه فاحشة لها أسوأ الآثار ، قال تعالى : « ولا تقرّبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . وقال : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقأنا ما يضعفله العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب » فهذه الآية صريحة فى أن قتل النفس والزنا من الجرائم التى يخلد صاحبها فى النار إذا لم يتب من ذنبه . وكفى بذلك رجرا عن الزنا . فمن تخيل أن حد الزنا سهل لعدم إمكان إثبات الزنا

الموجب للحد ، فليتصور ماذا يكون حاله إذا أفلت من عقوبة الدنيا ووجد أمامه عذابا خالدًا مضاعفاً .

من أجل ذلك كان المؤمنون حقاً في عهد الرسول صلوات الله عليه يؤثرون إقامة الحد عليهم في الدنيا فراراً من عذاب الله يوم القيامة ، وهؤلاء هم القدوة الصالحة الذين يقولون للناس : احذروا شهوة فاسدة تنقض على الفور ولكن أسهل عقوبة عليها هو الإعدام .

أما اللواط فهو من أسوأ الرذائل الخلقية التي لا تليق بالنوع الانساني ، فإن الله تعالى قد خلق الانسان من ذكر وأنثى ، وجعل الأنثى محلاً لذلك العمل الخاص ، واللواط خروج غريب عن النظام الفطري ، واعتداء صريح على ما تقتضيه طبيعة الانسان ونظام الكون ، لأنه يقلب الذكر أنثى ، ويجعل الرجل كالأنثى في أحص أوصافها التي خلقت لها ، وذلك شروبييل وفساد كبير . ومن أجل ذلك قال تعالى توبيخاً لقوم لوط : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون » . ويؤخذ من هذه الآية أن قوم لوط أول من خرج عن طبيعة الانسان فسفوا تلك المادة الشائنة ، وجعلوا الرجال محلاً لتلك الشهوة التي اختص بها النساء .

ومجيب أن نرى حدود تلك العادة تنتقل من هؤلاء الاشرار الذين خفف الله بهم وأباعد من الوجود ، الى غيرهم من النوع الانساني مع أنها لم تكف توحداً في الحيوانات الأخرى ا وإلى ذلك تشير الآية التي ذكرناها ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول لهم : إن تلك الفاحشة لم يسبقكم بها أحد من العالمين . والعالم : اسم لكل ما سوى الله ، فيشمل الانسان والحيوان . ومما لا ريب فيه أن اللواط من أرذل الجرائم الخلقية التي يترتب عليها انتهاك حرمة الانسان ، وقلب الرجل امرأة ، وتعميره على المهر وفساد الاخلاق ، فضلاً عما في اللواط من الانصراف عن النساء ، فيترتب على ذلك ضياع النسل ، وإهمال المرأة وإغراؤها على الفساد ، وغير ذلك من الشرور والمفاسد التي لا تحصى .

٤ — لهذا كله عنيت الشريعة بمحاربة هذه الاخلاق ، ووصفت لها الزواجر الشديدة من حد وتعمير على الوجه الذي بيناه .

عبد الرحمن الجزيري

« يتبع »

الدرس الثالث

ألفاه فضيلة الأستاذ الأكبر مساء يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رمضان

سنة ١٣٥٦ بمسجد أبي العلاء بالقاهرة

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لفضى بينهم ، وإن الدين أوردوا الكتاب من بعدم لفر شك منه مريب) .

(الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الشورى)

المفردات . سبب الاختصار في الآية على الأنبياء المذكورين . الشريعة المتحدة عند جميع الأنبياء . الشريعة المختلفة بحسب الاستعداد . حكمة تقويم أن شريعة الله واحدة . الإيمان بالله مودع في العطرة . حاجة الناس إلى الهدى الإلهي . التدين والحرية . المدنية والعقل . الاسلام والوحدة . موقف المشركين من الدعوة . اختلاف أتباع الأنبياء . أسباب الاختلاف . التعصب للرأي . قاعدة القرءان عند الاختلاف . اختلاف المسلمين . ضرر غرورهم بالفلسفة . المحصار دائرة العقل . ليس كل خلاف مذموماً . عاقبة التعصب للرأي .

المفردات :

الشرع في الأصل : اسم للطريق الواضح ، واستعير للطريقة الإلهية التي بينها الله على لسان أنبيائه .

الدين : يقال للطاعة ، ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِنْ أُسْلِمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ » . ويقال للملة ، ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » .
الوصية : التقدم الى الغير بشئ ، يعمل مقتربا بالوعظ .
الإقامة : إقامة الشيء ، توفيقه حقه من علم وعمل .
التفرق : سيورة الشيء فرقا ، ويطلق على تشتت الشمل وتفرق الكلمة . والتفريق جملة فرقا وهو يدل على التكثير . والتفريق : الجماعة المتفرقة من جماعة أخرى .
كبر : شق وعظم .
يجتنب : يصطفى .

المعنى :

الخطاب في الآية موجه الى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . والمعنى أن ما أمرتم به وما كلفتموه من الشريعة هو الذي تطلب من أمة نوح وأم إبراهيم وموسى وعيسى ، وتوصوا بإقامته وعدم التفرق فيه .

سبب الاختصار على الأنبياء المذكورين :

وقد اقتصر سبحانه على هؤلاء الأنبياء مع أن هذه الشريعة طلبت من أمم الأنبياء جميعهم ، لأن هؤلاء الأنبياء هم مشاهيرهم : فنوح عليه السلام يقترب اسمه با كبر حادثة في التاريخ هي حادثة الطوفان ، وهو مبدأ للطور الثاني من أطوار التاريخ . وإبراهيم عليه السلام جد الأنبياء جميعهم . وكلاهما بمد ذلك معروف بالحجاج وقوة الدليل .

أما إبراهيم ، فترى حجاجه في قوله تعالى : « فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ بِهَذَا رَبِّي لَا كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجْهٌ وَجْهِي لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وأما نوح ، فترى حجاجه فيما يحكيه الله عنه من قوله لقومه : « مَا لَكُمْ لَا تَرْحَمُونَ اللَّهَ وَآثَارًا ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ، وَجَعَلَ الشَّمْسُ مَرَاجًا . وَاللَّهُ آتِبْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سَاغًا ، لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا » .

ولكل منهما بعد ذلك طريق يغير طريق الآخر في معاملة قومه : أما إبراهيم فيتمثل طريقه في قوله تعالى : « رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهم أضلّل كثيرًا من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم » ، فمؤثر برحمة الله للعصاة ، وخطب الله مستمطرا عليهم رحته . وأما نوح فيتمثل طريقه مع العصاة من قومه في قوله : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفّارا » ، فطلب من الله إغناء العصاة قطعا لدابرهم ومحو آثارهم .

وأما موسى عليه السلام ، فرحل من رجال الحرب والجلاّد ، وقائد من كبار القواد ، وكبير من كبار الساسة ، ونبي عظيم جاء بالتوراة فيها هدى ونور ، وهو مبدأ لطور الثالث من أطوار التاريخ .

وعيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . والاول يذهب مذهب نوح في الشدة ، والثاني يطلب ممن يُعلم على خده الايمان أن يدير خده الأيسر .

الشريعة المتعددة

والمراد بالشريعة التي أوصى بها إلى هؤلاء ولم تختلف ، هي الأمور التي لا بد منها لكل النوع الانساني ، وهي العقيدة الصحيحة في الله واليوم الآخر والكتب والانبيا ، والفضائل التي تعود على المجتمع الانساني بالخير والفلاح : كالصدقات ، والاحسان ، والوفاء بالمهد ، والعبادات المهدبة للنفوس والمرفقة للوجدان ، والتي يقنعها الخير ، وتوثق الصلات بالجماعة الانسانية .

الشريعة المختلفة :

أما صور العادات ورسومها وما في الشرائع من قوانين منظمة للتعامل وبحققة العدل ، فقد اختلفت في الشرائع حسب اختلاف استعداد الأمم ، كما هو معروف الآن في اختلاف الشرائع الوضعية ، ولذلك قال الله تعالى في هذا النوع الذي يختلف باختلاف العصور والاستعدادات : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » . ولم يقتصر الأمر في اختلاف هذا النوع على الشرائع المتعددة ، بل حصل فيه الاختلاف في الشريعة الواحدة تبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها ، وتبعاً لاختلاف البيئات والظروف .

حكمة تقرير أن شريعة الله واحدة :

والعرض من تقرير هذه الحقيقة ، وهي أن الشريعة واحدة عند الجميع ، تثبيت المسلمين وشرح صدورهم ، لأن الشيء إذا كان معروفاً تابعت عليه الأمم في العصور المختلفة ولم يكن

بدعا ، كانت النفوس أكثر تقبلا له مما كان بدعة : « قل ما كنتُ بدعا من الرسل وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم إن أتمتع إلا ما يوحي اليّ » . كما أنه يقصد منه لفت نظر غير المسلمين الى الاسلام ، لأنه إذا كان ماحاه به جد صلى الله عليه وسلم مما تلا لما جاء به الانبياء في الجور ، لم يكن هناك مبرر اتركه والاعراض عنه .

وقد كرر القراء ان الكريم هذه الحقيقة في مواضع متفرقة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ولم يكتف القراء ان يقرر هذه الحقيقة ، بل أمرنا بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا إليه . ولا شبهة في أن الأديان جميعها مشتملة على الإيمان بالله واليوم الآخر ، وترك الشرور والإيثم والمعدوان ، والتخلق بالأخلاق العاضلة « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وحمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الإيمان بالله مودع في الفطرة :

بل إن أكثر البشر يؤمنون بخالق مدبر صاحب سلطان غيبي . وهذا المقدار مودع في الفطرة ، ولا يعقل فهم هذا النظام في العالم دونه ، ولذلك قال القراءن : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . غير أنهم مع هذا يحتفلون في فهم صفاته وتدييره وتقديره . وأكثر الذين يؤمنون بالله يؤمنون بالرسول الذين خصهم الله بنوع من الهدى والرفق العطرى ، وأيدهم بالآيات البينات ، وصارت حالة الناس بعدهم خيرا مما كانت قباهم ، وكانت حالة من اتبعهم خيرا من حالة من فارقهم وشذ عن هديهم .

حاجة الناس الى الهدى الإلهي :

والحكمة في هذه الشرائع الإلهية أن الانسان إذا ترك الى مداركه الحسية ونظرياته العقلية ، ضل وكره الحياة ، وكان أشقى من أنواع الحيوان . وشقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه . فقد دلت التجارب على أن العقل غير مؤيد بالشرع الإلهي ، يذهب مذاهب شتى ، منها الصواب ، ومنها الضلال . وهو قيا عدا المحسات والماديات ضلاله أكثر من صوابه . وهذه آراء العلماء في الفلسفة والأخلاق يشبه بعضها هذيان المحموم ، وبعضها لا يدرك له محصل

على كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين . وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها لم تسعد الأمم بها . فلا بد من هداية تصدر عن المصوم يحملها من عند الله العلي الحكيم . وقد دلت التجارب أيضا على أن الأمم التي حملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذي حملت به .

وأما أنه لولا الدين لما احتمل الانسان هذه الحياة ، فاتها على قصرها مملوءة بالمصائب والويلات : فن فقر مدقع الى مرض مزمن ، ومن فقد الأهل والمشيخة الى فقد العزة والجاه ، ومن شرف رفيع الى ذلة ومهانة . واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الانسان أمل ينتظره ، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ، ليس في طاقة الانسان .

فلا اعتقاد بالآخرة يرفه العيش ، ويجعل المؤمن في سعادة نفسية ، ويقويه على احتمال الصعاب ، وعلى الصبر على معاشره الناس ، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما ، فان دائرة العقل محدودة ، وهو قاصر عن إدراك خفايا المستقبل .

التدين منظم للحرية وليس مقيداً لها :

وإذا قيل إن التدين مقيد للحرية ومانع من التمتع بالذات فكيف تكون فيه المساوى والعزاء ؟ فالجواب : أن الاسلام أباح الطيبات وحرم الخسائث ، ولم يحظر من المذات إلا ما يضر الانسان ، وليست السعادة في حرية الهائم بل في حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته ، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه .

بناء المدنية على الدين لا على العقل :

وقوام آداب الأمم وفضائلها التي قامت عليها صروح المدنية الحقبة ، مستند الى الدين . وبعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العقل والعلم . غير أنه لاشبهة في أن الأمم التي تروم هذا التحول تقع في اضطراب وفوضى لا تعلم عاقبتها . وليس من الميسور أن تبني للعامة قواعد التفصيل على أساس علم الأخلاق ، أو أية قاعدة علمية أخرى ، ولكن من الميسور دائماً أن تبني قواعد التفصيل على أساس العصمة للدين . فالتدري يحاوله العلماء وهم وخيال .

ولما بين الله تعالى أن أساس الدين واحد ، طلب منهم بقوله : « وأن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » إقامته وعدم التفرق فيه . طلب المحافظة على الدين جميعه ، وذلك يكون بفهمه والعمل به ، بحيث لا يخل العبد بشيء منه ، وبحيث يكون العمل موحها الى الله العليم الحكيم الذي لا يأمر إلا بما فيه الإصلاح ، ولا ينهى إلا عن الشرور والآثام . وطلب سبحانه أن يكون الناس متوحدين في الدين وفي إقامته ، غير متفرقين في العلم به والعمل عليه .

الاسلام والوحدة :

وقد مدح الله الوحدة وذم التفرق ، وأنذر من يجحد عن الوحدة في مواضع من كتابه العزيز : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وادكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » . وفي الحديث الشريف : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » . وفي الحق أنه ما استقامت أمة على سنن الرشاد ولا تم لها نظام ولا بلغت ما تريد من المجد والعز إلا بالوحدة . وما عرت أمة وهابها الأعداء ولا قام فيها عدل وجرت أمورها على الطريق السوي إلا بالوحدة . وأعظم الأمم قوة وأكثرها منعة هي الأمم التي سبت الحسنات لتتسلت منها ، وسبت لمصيبات ، واستحالت كلها الى أفراد متجاسدة في اللغة والدين والمقيدة والغاية . والأمة التي تشر الطوائف فيها بأصولها التي اشتقت منها ، وتشر بأن هناك فارقا بين طائفة وأخرى ، لا تزال تعاني الشدائد .

التفرق يوزع القوى ، فشخص يبني وشخص يهدم ، وشخص يهاجم وآخر يدافع . أما الوحدة فتجمع القوى ، وتوجد التعاون بين الأفراد لبلوغ الغايات وتسم أرفع الدرجات . ولتفرق أماره من أمارات عدم المصوح ، فإن العقل الناضج يلازمه عادة حب الإنصاف ، حتى إذا طرح شيء للبحث وكانت هناك عقول ناضجة واتجاه دقيق لا تصده الأهواء ، لا يلبث الحق أن يظهر مشرقا أبيض الوجه ، ولا يلبث الخلاف أن يزول .

وقد حمل الاسلام على الوحدة في كثير من المظاهر ، تخليفة واحد تتجه اليه الأنظار ويكون قبله الجميع ، أفضل من حلفاء متعددين . وصلاة الجماعة خلف إمام واحد يضمهم ويوحدهم ، أفضل درجات من الصلاة مع التفرق . وقد أمر المسلمين بالاجتماع في الجمعة والعيد والحق . كل ذلك تنمية للوحدة وتقوية لها . وقد هدم نظام الجنسيات والمصيبات ، وسوى بين الجميع في الأخوة ، وجعل الفضل للتقوى . وهكذا عبد التامل نجده يرمى الى الوحدة في جميع التكاليف . ذلك لأن الوحدة أساس الإصلاح في الحياة الدنيا ، وأساس العزة والسلطان .

موقف المشركين من الدعوة المحمدية :

« كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي إليه من يئيب » : شق على المشركين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وترك ما كانوا يعبدون . نعم : شق عليهم هذا وظهرت آثاره في أقوالهم وأعمالهم ، فقد جالدوه وأعنتوه ، وآذوه بأنواع من الأذى

صبر عليها بتثبيت الله إياه « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » . وكتب السير مملوءة بأنواع الأدى وما لاقاه صلى الله عليه وسلم من شر المشركين وقد آذوه بالقول فقالوا : « أَجْعَلُ الآلَةَ إِلهًا واحدًا ؟ إن هذا لشيء عجيب » . وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهنكم ، إن هذا لشيء عراده ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ، أنزل عليه الذكر من بيننا » .

ورموه بالسحر والجنون ، وبأنه يحكى أساطير الأولين ، وطالبوه بأشياء لا يصدر طلبها إلا عن حق وجهالة . كل هذا فعلوه لأنهم دُعوا إلى الحق فمز عليهم ترك ما كان عليه الآباء وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أئمة وإنا على آثارهم مقتدون .

وقد عزى الله نبيه الأكرم بقوله : « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » فلا نجبرع واصبر : إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ومعنى ذلك أنهم تركوا دعوتك لأن الله لم يخترهم ولم يصطفهم للهداية ، ولم يخصهم بالفيض الإلهي الذي به تقبل نعمة الدين ، ولم يوفقهم للإقبال عليه والإجابة إليه .

وقد يكون المعنى أنهم تركوا الانقياد كبرا وأنفة ، لأنهم قالوا : أأنتى عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر . وقالوا : لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . فقال الله لهم : إن الله يصطفى من عباده للرسل من يشاء ، للحكمة التي يعلمها : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » : « أم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم » . فالاصطفاة شأن من شئون الله يضعه حيث شاء ، ولا يتقيد بما تقدرون من أحساب وأنساب .

تفرق أتباع الأنبياء :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » :

هذا خاص بأتباع الأنبياء ، وما قبله كان خاصا بالمشركين . فإن الذين لم يقيموا الدين هريقان : فريق المشركين وقد بين الله تعالى أنهم تركوا الدعوة أنفة وكبرا ، وفريق أهل الكتاب وقد بين الله في هذه الآية أنهم تركوا الدعوة بغيا وظلما . والاختلاف كما حصل بين أتباع نبي وأتباع نبي آخر ، حصل في أتباع النبي الواحد ، وكان الخلاف بعد وجود الحججة ، وبعد وجود الدليل الذي هو سبب من أسباب العلم . والخلاف بعد وجود الدليل لا يكون إلا ظلما وبغيا .

قد يكون المعنى : وما تفرقوا ولم يؤمنوا بالاسلام إلا بعد أن قامت الحججة عندهم من كتبهم ومن حال النبي صلى الله عليه وسلم على صدقه في دعواه .

وقد يكون المعنى : إن أتباع كل نبي تفرقوا في دينهم ، وذهب كل فريق إلى رأى يخالف رأى

الآخرين ظلما ونظما ، طلبا للرياسة وحبا في التنافس ، فلما كل فريق الى رأيه وقبح رأى الآخرين ، ونشأ عن ذلك المداوة والبغضاء ، ووجد الظلم والبغى .

أسباب الاختلاف :

وقد يكون من الحق أن نعرض هنا لبيان شيء من أسباب الخلاف الذي يقع بين أتباع النبي الواحد في فهم دينهم ، فنقول :

إن الخلاف يحدث أولا من تعدد الآراء بسبب تعدد الأفهام . وقد يكون ذلك عن حسن نية وإخلاص طوية في حب الوصول الى الحق . وبعد أن توجد الآراء المتعددة يمتد كل فريق أنه على الحق ، ثم قد يلوح الحق في جانب فيكبر على بعض المتخالفين في الرأي أن يرجع عن رأيه الى رأى غيره مع قيام الدليل على خلاف رأيه ، وقد تكثر هذه الحال وتشتد بعد أن يوجد للرأي أتباع وأنصار . ويكون التمسك بالرأي أشد لدى الأنصار بعد أن يموت صاحب الرأي ويبقى المقلدون .

التعصب للرأي :

في هذه الأحوال يصعب جدا الرجوع عن الآراء إلا على من وهبه الله حب الإنصاف وكان الحق عنده أغلى مما يظنه شرفا وكرامة عند الاتباع وعند الناس . ومن عادة الاتباع أن يكونوا مقلدين لا يصحقون الدليل إذا عرض عليهم ، أو تغلبهم حجة الجاهلية فيتمسكون في التأويل ، فإذا عرض الكتاب عليهم أو لوه حتى يردوه الى رأيهم ويكون دليلا لهم أو لا يثنى رأيهم ، وكذلك يفعل الآخرون . إذ ذلك يصير الكتاب تابعا للآراء لا متبوعا ، ويصير محكوما بعد أن كان حاكما .

هذه الحالة لا يمكن أن تروى إلا إذا أخلص الناس في حب الحق ، وراعوا حرمة الكتاب ، وآمنوا بأن الحق أغلى من الآراء والأفهام . وإذا لم توجد هذه الخشية من الله ساءت حال المختلفين ، وأصبح أهل الدين الواحد شيئا وأحزابا يضرب بعضهم رقاب بعض .

قاعدة القراءان عند الاختلاف :

ولا منجى من هذه الأحوال إلا باتباع قاعدة القراءان الكريم . فقد قرر وجوب الرجوع اليه عند الاختلاف : « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . وقضى أن عدم الرد اليه مناف للإيمان . وقال في آية أخرى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . وفي آية أخرى : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل

من قبلك ، يريدون أن يتحاكوا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فهذه الزواجر السالفة تحتم على المسلمين أن يعتبروا ويتنبهوا ، ويفتحوا أعينهم لكتاب الله وسنة رسوله ، وأن يردوا الخلاف إليهما .

اختلاف المسلمين :

وقع المسلمون فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبلهم : تفرقوا في العقائد ، وتفرقوا في الفروع . ولو أنهم حكموا قاعدة التفرع وردوا الى الكتاب والسنة من غير تعسف في التأويل ، لضافت دائرة الخلاف ، ولما بقيت متسعة — كما نراها اليوم — أكثر من ألف سنة . وقد ضلت الأمة الطريق ، ولعبت بها الأهواء ، واختلت الأعمال ، وحل بها الشقاء ، وسلط الله عليها من استبد بها . وقد من القراء ان عليها بأنها كانت متفرقة فألف بينها ، وكانت مستضعفة فكسكن لها في الأرض وأورشها ديار الأقوياء . لكنها كفرت بأنهم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ونسأل الله لها التوفيق الى هدى القراءن .

ولا يغوتنا في هذا المقام أن نذكر ما نقله الامام الرازي عن شيعة في موقف المقلدين من النصوص التي تكون مخالفة لآراء أئمتهم ، عند تفسيره لقوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض المسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف ذلك ، فلم يقبلوا تلك الآيات ، ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون الى كالمتمسجين — يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية وردت عن سلفنا على خلافها ! وقد شكنا الغزالي وغيره أيضا من هذه الأحوال . نموذ بالله من الخذلان .

غرور المسلمين بالمقل والفلسفة :

وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية ، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القراءات ليرجع إليها ، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب . فإن لفلسفة أوهاما لا تزيد على هذين المصائب بالحي . والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله .

انحصار دائرة العقل :

وهناك مناطق في الخلق لا يصل إليها العقل . والى الآن لم يعرف الانسان كل أجزاء

حسمه على صغر ذلك الجسم ، فكيف يرقى الى دائرة ليس بينه وبينها صلة ؟ فعلى العقل أن يقف عند حده ، ويعرف اختصاصه . وعلى العقلاء أن يسموا في تقريب هوة الخلاف ، فقد اتسع الخلاف واشتد حتى مس عقيدة التوحيد نفسها عند من يقر بها . فقد أشركوا مع الله في الدعاء وهو أساس العبادة وركنها الأعظم ، وأشركوا مع الله في الاستمانة ، والتقرب بالتذوق ، والقربان ، والطواف ، والتمسح ا

ليس كل خلاف مذموما :

ويجب أن يعلم في هذا المقام أنه ليس كل خلاف مذموما ، فإن الخلاف الذي لم ين على الهوى يعذر صاحبه ، ولكن مثل هذا الاختلاف لا يحدث شرا ، كما كان الاختلاف بين الصحابة والسلف الصالح رضى الله عنهم . انظر الى خلافهم في البسطة مثلا : فبعضهم يقول إنها آية من القامحة تفرض قراءتها في الصلاة . وبعضهم يقول بخلاف ذلك . ومع أنها مسألة خطيرة فانه لم يحدث بينهم سوء من ذلك الخلاف ، لأن الإنصاف كان موجودا ، والرمي بالكفر لم يكن معروفا إلا عند تكذيب الله ورسله .

والخلاصة : أن حقيقة الدين هي الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن التفرق يجيىء من الجهل ، ومن التقليد ، ومن حب الرئاسة . والاسلام يطالب الناس جميعهم بالتوحيد وعدم التفرق . ولا يصلح حال المسلمين إلا بالرجوع الى الكتاب . ولا تقوم لهم قائمة إلا بوحدة تضم شملهم حتى يتكونوا كما ورد في الحديث الشريف « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . « المؤمن للهو من كالبنيان يشد بعضه بعضا » . لذلك فرض الاسلام الدعوة الى الدين الحق ، وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفرض الرد الى الله ورسوله عند الاختلاف .

ومتى عرت الأمة بالوحدة ، وشعر كل فرد أن الفرد الآخر من المسلمين جزء من الوحدة يكله ، ظهرت النتائج مشرقة لامعة : من سلطان ، ووهبة ، وارتفاع كلمة ، بحيث إذا أهين فرد من أفراد الأمة ألم له الباقون ، وإذا أهين في قطر بعيد هبت الأمة تطالب بنصره والانتقام له . أما الأمة التي لم تكتمل فيها الوحدة فلا يظهر فيها أثر التعاون والتعاقد .

« ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم » :

الكلمة هي أن الله وعد بعدم معاجلتهم بالمذاب ، ولولا هذه الكلمة لانسأصلهم وقضى بينهم بهلا كهم .

عاقبة التعصب لأرائي :

« وإن الذين أوردوا الكتاب من بعدم إني شك منه مريب » :

يتنا من قبل أسباب الاختلاف بين أتباع الانبياء ، وأن هذا الاختلاف متى استقر أصبحت المذاهب ديناً مع أن بعضها يخالف ما في الكتاب . عند حدوث هذه الحالة يعرض الشك في الكتاب نفسه عند من يجيء بمد استنقرار هذه المذاهب ، لأن أصحاب كل مذهب يدعون أنه يوافق الكتاب ، ولمض هذه المذاهب لا يتفق والكتاب ، ولا ينطبق على العقل والمصلحة . إذ ذاك يتعرض الكتاب نفسه لشك فيه عند مرضى القلوب وضعفاء الايمان . والله ولي الهداية ، وبه العون والتوفيق .

حسن التخلص

يقال إن عمر بن الخطاب ولي رجلاً من قريش عملاً فبلغه أنه قال :

استقى شربة ألد لديها واسقى بألف مثلها ابن هشام

فأمر بدماله من عمله ، فلما قدم عليه قال له : أألت القاتل وأنته البيت . فقال الرجل : نعم يا أمير المؤمنين وقد قلت بعمد :

مسلاً بدماء بما سحاب إني لا أحب شرب المدام

فقال أمير المؤمنين : أكفنا قلت ؟ ووده الى عمله .

وأتى عبد الملك بن مروان بمصلحة بن هبيرة وكان من أسر من جيش الخوارج تحت

قيادة مدعي الخلافة شبيب . فأمر بقتله وقال له أألت القاتل :

ومنا سرود والبطين وقعب وما أمير المؤمنين شبيب ؟

فقال يا أمير المؤمنين : إنما قلت أمير المؤمنين (بالفتح) فاستحسن ذلك منه وأطلقه .

الاخلاق الفلسفية

المبادئ

عرف بعض علماء النفس المادة بأنها انعطاف مكتسب بالخبرة والتعلم يدفع الانسان الى تكرير فعل معين ، أو انفعال خاص على نظام معين . وقد اتفق العلماء على أن للمبادئ آثاراً قوية على سلوك الانسان الذي تتكون منه أخلاقه ، وهذا هو الذي يحددنا الى دراستها كما درسنا الغرائز آنفاً .

آراء الفلاسفة فيها :

كما أن « سقراط » هو الكاشف الأول لأهمية الغريزة ، وهو الذي أوضحها وأشار الى أثرها على السلوك ، كذلك « أفلاطون » هو أول من اهتم بدراسة المادة ومنحها مكاناً فسيحاً بين صفحات كتبه ، وإن كانت لم تنل من لفته إلا ذمناً وقدحاً ، لأنه يرى أنها سيئة كلها ، ولا تنتج خيراً ألبتة ، وهو لهذا يقول : بثت الفضائل الرجعية المؤسسة على مبادئ قديمة .
وأما « أرسطوطاليس » فهو أول من حلل المادة تحليلًا نفسيًا دقيقاً لا يزال العلماء المحدثون يعمدون به الى اليوم ، ويرون أنه محدد متقن ، لأنه يقول : المادة تتكون شيئاً فشيئاً من حركات غير طبيعية إلا أنها مكررة . فاصل العادة إذًا ، ونشؤها الأول هو التكرار الذي ينتهي بحملها أشبه شيء بالطبيعة وبإعطائها قوة تثبت قوتها . وأثر المادة على الانسان عنده قوى جداً ، لأن المرء لا يسمى عادلاً إلا بتكرار مواقف العدالة ، ولا يمد شجاعاً إلا بتمرين أعمال الشجاعة ، ولا يصل الى مرتبة الحكيم إلا بدوام مزاوله الحكمة . وليس الفضل في كل هذا إلا للعادة التي إذا ثبتت وقويت أصبحت طبيعة ثانية .
وأما « إبيكتور » فهو — مع أنه ليس له في المادة نظرية فلسفية خاصة — يرى أنها إحدى الوسائل التي تسطع القضية العملية بوساطتها في معاء هذا الوجود .

وأما « ديكارت » فهو يطبق على المادة نظريته المعروفة في اجتماع الجسم والروح ، وهي التي ترى أن اجتماع الجسم والروح اللذين هما من جوهرين مختلفين يولد حركات خاصة ليست العادة إلا بعضها .

وأما « كونديلاك » فقد رأينا أنه يرجع أصل الغرائز الى العادات ، ويحكم بسابقتها حتى على غريزتي حفظ الذات والنوع اللتين كانتا لدى الانسان منذ الدقيقة الأولى التي نبض فيها قلبه بالحياة .

ولقد خالى بعض الفلاسفة الآخرين في قيمة العادة مغالاة شديدة ، فمزا إليها كل القوانين الروحية التي تمر بها البشرية . ونسب إليها بعض آخر تسعة وتسعين وتسعمائة في الألف من أعمال الإنسان .

ولما سئل هذا البعض عن مصير الفرائض المفترية ، أجاب بأن مظاهر الفرائض هي العادات ، وبأن العادة كثيرا ما تكون أداة صالحة لإرضاء الغريزة ، ولكن مهما يكن من أمر مغالاة هذا البعض ، فإن الذي لا شك فيه هو أن للعادات سلطانا كبيرا وأثرا بارزا على سلوك الإنسان . وهذا السبب هو الذي روج « جان جاك روسو » وأرعب « كانت » من العادات ، وأخافهما على مصير السلوك الانساني من نتائجها التي قد تكون سيئة في بعض الاوقات ، فقال « روسو » في كتابه « إميل » : « خير عادة أن لا يكون للمرء عادة » . وقال « كانت » في كتابه « معالجة التربية » : « إنه كلما زادت عادات الإنسان ضاقت حريته ، وقل استقلاله ، فيجب أن يمنع الأطفال من أن يعتادوا عادة ما » .

على أن « جان جاك روسو » لم يحتفظ بهذا الفور من العادة ، ولم يستطع أن يحول تيار آرائه بعيدا عنها ، حتى إن كتاب « إميل » نفسه لم يتبرا من العادة كما كان يبدو للوهلة الأولى ، إذ نرى « روسو » يصرح في نفس هذا الكتاب بأن التربية ليست إلا تعويدا على عادة مخصوصة ، ولكن القارئ الذي ألف قراءة آراء « روسو » لا يدهش من مشاهدة التناقض في كتبه ، وليس لهذا من سبب — فيما أرى — سوى اضطراب حياة الرجل العقلية . أما « كانت » فيخيل إلى أنه تأثر في هذا الرأي بما ملين : الأول هو مغالاته في مناصرة الحرية الانسانية التي قد يعدو عاها سلطان العادة فيقيدها . أما العامل الثاني : فقد يكون هو « روسو » نفسه ، لأن مؤرحي الفلسفة الاوربية الحديثة يفتنوننا بأن كتاب « إميل » قد نال من نفس « كانت » منالا لم يحزه أي كتاب آخر من كتب المعاصرين .

وإذا كان الفزع من نتيجة العادات هو الذي اوحى الى « روسو » و « كانت » المناداة بالبعد عن العادات ، فإن التأكد من حسن نتيجة العادات الطيبة هو الذي حمل « روسو » و « جوستاف ليبون » على الدعوة الى وجوب تحويل كل الصفات الحسنة الى عادات لاشعورية في الإنسان .

ولا ريب أن جميع هؤلاء العلماء الأربعة لا يقصدون إلا الوصول بالإنسان الى الكمال مطلق ، ولكنهم اختلفوا في الطرق والوسائل الموصلة الى هذا الكمال لا أكثر ولا أقل .

تأصل للعادات في النفس :

إن الأعمال إذا تكررت التكرار الكافي لصيرورتها عادة ، وإذا استحكمت الشروط

الأساسية التي يجب أن تتوفر في العادة ، وهي القابلية النفسية وإبراز العمل الى حيز الوجود بناء على هذه القابلية وبطريقة منظمة ، أقول : إذا توفر لها كل ذلك سميت عادة وخلق لها تيار خاص يسير في الأحزمة العصبية سيرا مستقلا حافظا شخصية ذلك التيار حفظا تاما . ولهذا السبب كان من الصعب جدا تغيير العادات ، لأنه يترتب عليه تغيير المجرى العصبي الذي يسير فيه تيار العادة القديمة ، وهذه الصعوبة هي التي حدثت لبعض العلماء الى أن يقول : إن العادة طبيعة ثابتة .

على أن صعوبة تغيير العادة لا تحول بيننا وبين الاعتقاد بأن مرونة الأعصاب ولو الى حد تبعثنا عن اليأس من إمكان تغيير العادة تغييرا تاما ، وتقذف في نفوسنا الأمل القوي في التغلب على العادات السيئة وإخضاع جدوتها ، وإن كان ذلك يتحقق في الأطفال والشبان أكثر من تحققه في الكهول والشيب .

نتائج العادة :

للعادة نتائج حسنة وأخرى سيئة ، نذكر من أهمها ما يأتي : (١) إن من نتائجها الحسنة توفير التعب في الأعمال اليومية التي أصبحت بالمادة آلية ، ولولاها لاحتاجت من الإنسان الى تفكير طوي ، ولتكلفته عناء شديدا في تنظيمها وفي إجادة القيام بها ، لأن الإنسان تعود على غسل الوجه واللبس والافطار والخروج الى عمله والجلوس الى مكتبه ، وأمثال هذه الأعمال التي يقوم بها في كل يوم بطريقة آلية ، فهي لا تكلفه من عناء التفكير عشر ما يجب لعمل شيء لم يكن قد تعود من قبل . (٢) العمل على تقدم الإنسانية ، لأن المجهود الذي كان ينبغي أن يصرف في هذه الأعمال في كل يوم قد تحول الى نواحي أخرى ينجم عنها رفق الفرد والهيئة الاجتماعية بأسرها . (٣) تنظيم أعمال الإنسان وجعل كل فصيلة منها تصوى تحت راية خاصة . (٤) تسهيل القيام بأغراض الفرائض وتيسير إرضاء رغباتها .

أما نتائجها السيئة فقد ذكر منها العلماء . (١) الركود والجود ، لأن الشخص إذا تعود على عمل شيء بعينه لم يفكر في الافلاص عنه ، بل يصح هذا الافلاص شاقا على نفسه ، مبغضا إليها . (٢) سيطرة العادة على الإرادة الإنسانية ، وضغطها على حرية الفرد والجماعة .

وسائل تغيير العادة :

إذا كان العلماء قد أجمعوا على إمكان تعديل الفرائض وهي فطرية خلقت مع ذات صاحبها في لحظة واحدة ، فليس من المعقول أن يحتلوا في إمكان تغيير العادة ، وهي المحدثنة المكتسبة من المرات والتعلم . وقد حددوا لذلك التغيير وسائل ، من أشهرها ما يأتي . (١) عدم السماح

لأنه بالتفكير في المادة المراد تركها مطلقا (٢) شغل العقل لعادة أخرى جديدة سواء أ كانت ضد الأولى أم من فصيلة أخرى . (٣) تغيير البيئة التي تتكرر فيها هذه العادة . (٤) حمل صاحب العادة السيئة على التصريح برداءة هذه العادة أمام أشخاص يهمهم احترامهم واحتقارهم يباه ، لكي لا يستطيع العودة إليها بعد هذا الإخراج ؟

الدكتور محمد غنوب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

بلاغة استنتاج الحاجات

قدم الأخنف بن قيس سيد بني حنيفة على معاوية بن أبي سفيان فأقام أشهراً لا يسأله فيها جاء .

فقال له يوما : يا أمير المؤمنين إنك تعينى مرعى وبيلا ، وتوردنى ظمأ طويلا ، أفيأس وراوح ، أم حبس ونجاح ؟ فمضى حاجته .

ووقف أعرابي على رجل يستمعيه فقال : إني امتطيت إليك الرجاء ، وسرت على الأمل ، ووفدت بالشكر ، وتوسلت بحسن الظن ، فحقق الأمل وأحسن المثوبة ، وأقم الأود ، وعجل الصراح .

وقال بعض الشعراء مستنجزا :

جملت فداك قد وجب الزمام وقد طال التلبث والمقام
وقد أرف الرحيل إلى بلادى فرأيتك لا عذمتك والسلام
وقال أبو الطيب في مثل هذا :

لقد نظرتك حتى حان مرئيلي وذا الوداع فكن أهلا لها شيئا
وكتب بليغ لصاحب حاجته : بنا إلى معروفتك حاجة ، ولك على صلتنا قوة ، فانظر في ذلك بما أنت له أهل ونحن له أهل .

وكتب بعضهم يستنجز : حقيق على من أزهق بقول أن يشر بفعل ، والسلام .
ووفد بشار بن برد على يحيى بن خالد فامتدحه فوعده خالد ومطله ، فتصدى له في طريقه وهو يريد الجامع وأخذ يمتان بقلته وأنشد :

أطلت علينا منك يوما سحابة أصاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها بجلى فييأس طامع ولا غيثها يهيم فتروى عطاشها
فقال له لن تنصرف المحابة حتى تبلك يا أبا معاذ ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

المذاهب الإسلامية

إن ما يقرؤه القارئ بين حين وآخر عن أعمال الاستاذ الامام ليناج الصدر ، وتقبله الأمة بحزيل الشكر . ومن هذه الأعمال العظيمة ما كتبه مجلة الأزهر الفراء عن دروسه الدينية والتحدث عن المذاهب الإسلامية ، وجهده لازالة التعصب المذهبية . وهذه منقبة جليلة لها أثرها العظيم في حياة المسلمين الاجتماعية .

العمل لازالة التعصب إذ لا بد من الخلاف :

وقد أشار الاستاذ الامام أن الخلاف لا يمكن إزالته ، وعلينا أن نعى لازالة التعصب وتضييق دائرة الخلاف .

الطريق للوصول لذلك :

وقد أشار أيضاً أن الطريق المؤدية لذلك أن نعرض كلام الأئمة على الكتاب والسنة ، وأنه إذا فعلنا ذلك وجدنا بعد حين أن المختلفين قد التقوا في ساحة الوحدة . وهذا حق لاسموية فيه ، إذ تذهب أقوال كثيرة لا دليل عليها من السنة . وهناك أقوال أخر تستند على الحديث الضعيف ، فيذهب هذا وهذا ويبقى الخلاف منحصراً في فهم المراد ، واختلاف أنظار المجتهدين في طرق الاستنباط . وهذا نستحصل على تضييق دائرة الخلاف . وبما أن الخلاف سيقى فيجب علينا إذاً أن نعى لازالة التعصب والتقليد الأعمى .

وأنا أشير الى طرق إذا وجدت لا بد وأن نصل الى الغاية التي نرى إليها :

- ١ — ما أشار اليه حضرة مدير المجلة من تأليف هيئة كبار العلماء لهذا الأمر الخطير .
- ٢ — ما أشار اليه الاستاذ الامام من عرض أقوال الأئمة المجتهدين على الكتاب والسنة .
- ٣ — أن يكون الأهر كعبة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ويدرس فيه المذاهب العلوية : كذهب الزيدية ، والامامية ، والاصماعيلية إن كان له بقية ، فهو الاحق من سواء .
- ٤ — يجدر بالمؤلفين من العلماء أن يتعرضوا لخلاف مذهب العلوية أيضاً ، فيذكروا زيد بن علي ، وجعفر الصادق ، والهادي ، والباقر ، الى غير ذلك .
- ٥ — أن يتعاضى المؤلفون عما يشير الروح المعصية بين المذاهب الإسلامية ليس بالقول بل بالعمل ، فليعلم أن ينظروا الى المذهب المخالف بنظر العدل والمساواة ، وإن قالوا قديماً تكره صلاة الشافعي خلف الحنفي فعلياً أن تقول : الاقتداء بالمخالف والموافق سواء .

وأما مسألة تقليد العوام ، فقد رأى الاستاذ الامام أن العامى يجب عليه أن يلتزم مذهبه حتى لا يكون متنبها للرخس .

وأما رأى أن هذه المسألة مما يشير روح التعصب ، ولا يمكن إقناع العامة وهم سواد الأمة إذا ائتمناهم على تقايد مذهبهم وحظرنا عليهم تقليد سواء . وأرى أن هذا التقليد لا بأس به . يؤيد هذا أنه لو فرضنا شافعيًا توطأ على مذهبه ولم يثبت عنده النقص من لمس المرأة وصح عنده مذهب الامام مالك في التكلم لمصلحة الصلاة واعتقد بجميع ذلك ، ألا تكون صلاته صحيحة ؟

ولو أفنى على هذا وقلد أفلا تكون صلاة المقلد أيضا كذلك ؟ هذا إذا قلنا إن المجتهد المصيب واحد ، وإذا قلنا بذهب المصوبة فالأمر أوضح .

وعلى هذا فلا مانع من التوضؤ على مذهب والصلاة على مذهب آخر ، ولا بأس بتتبع الرخص وهو الأرفق العامة وفيه مصلحة الأمة ، وعليه تدل الأصول الشرعية ، فقد قال الله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وإلى هذا ذهب المحقق الكمال بن الهمام واختاره الخضرى بك في أصول الفقه . لكن قال : على المسلم أن يكون هواه تبعاً لدينه ، ولا يكون دينه تبعاً لهواه . وهو كلام حسن .

ونسأل الله أن يجمع كلمة المسلمين ويتعظوا بقول الله « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » ، إنما أمرهم إلى الله ، ثم يتبهم بما كانوا يفعلون . ولمثل هذا فليعمل العاملون ؟
بدر الدين علاء الدين

من لطائف الكرماء

وقف أعرابي على معن بن زائدة في طريقه فأنفذه :

يا واحد العرب الذي أضنى وليس له نظير

لو كان مثلك في الورى ما كان في الدنيا فقير

فأمر له بألفي درهم .

وقال له رجل فقال : إني جعلت فصلك سبيي اليك ، وكرمك وسيلتي عندك .

قال معن : سل حاجتك .

قال الرجل : ألف درهم .

قال معن : قد أربحتني أربعة آلاف درهم فاني حدثت نفسي أن أعطيك خمسة آلاف .

فقال الرجل : أنت أكبر من أن تبيع على مؤمك . فأعطاه معن خمسة آلاف .

موازن الحكم الادبي

الدوق :

قال العلامة ابن خلدون في المقدمة : إن لفظة الدوق يتداولها المعشون بفوق البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان ، فالتكلم بلسان العرب والبليغ فيه ، يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء غماطياتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب ، حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير معنى البلاغة التي للعرب ، وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى عنه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، بل وبغير فكر إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة . قال : وقد استعير لهذه الملكة عند ما ترسخ وتسنقر اسم الدوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم ، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث البطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجداني لسان كما أن الطعوم محسوسة له ، ومن ثم قيل له : دوق (١) .

ثم يخص ابن خلدون في بحثه عن الدوق فيعتبره ميزاناً من موازين الحكم الادبي ، بل يعتبره الحاكم المستبد بذلك فيقول : وملكة البلاغة - التي هي الدوق - تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ، ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعيبة ، والتراكيب المخصوصة ، لما قدر عليه ولا وافقه لسانه ، لأنه لم يعتده ولا تهديه إليه الملكة الراسخة عنده ، وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن لسان العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم ، أعرض عنه وجهه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . . . ثم يقول : ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تساق ألقاظه الى الدهن ، ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خلفا شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسيج على الأساليب العربية ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر . والحاكم بذلك هو الدوق . . . ويقول أيضاً : فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتاني أو ابن المعتز أو ابن هاني أو الشريف أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابي ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبية أو ترسل البياني أو العماد الأصمهاني لتزول طبقة هؤلاء عن أولئك كما يظهر ذلك للناقد البصير ، صاحب الدوق (٢) .

وكل ما قاله ابن خلدون إما هو ترديد وتلف لاقوال النقاد الذين سبقوه كابن سلام والآمدى والحرطاني وابن رشيق وغيرهم ؛ فقد تسكلموا جميعهم عن الدوق ، وأشاروا الى أهميته في الحكم الادبي وتقدير الكلام ، فقال ابن سلام في كتابه « الطبقات » : وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم به كسائر أصناف العلم والصناعات ، إذ منها ما تنقغه العين ، ومنها ما تنقغه الأذن ، ومنها ما تنقغه اليد ، ومنها ما ينقغه اللسان ؛ ومن ذلك القول : لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعايينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجبهة بالدينار والدرهم . لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ، ولا طراز ولا حس ، ويعرفها الباقد عند المعاينة ، فيعرف بهرجها وزائنها ، وستوقها ومفرغها . وكذلك البصر بالرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ماضعة اللون ، جيدة الشطب ، نقيّة الثمر ، حسنة العين والأف ، طريقة اللسان ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار أو بمائتي دينار ، وتكون أخرى بألف أو بألفين ، ولكن لا يحد واصفها مزبداً على هذه الصفة . وتوصف الدابة فيقال : خفيف العنان ، لين الظهر ، حديد الحافر ، نقي السن ، نقي الميونة ، فيكون بمخمسين ديناراً أو نحوها ، وتكون أخرى بمائتي دينار أو أكثر . ويقال للرجل والمرأة في القرامة والثناء : به حسن الخلق ، ندى الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، وتوصف الأخرى والأخرى بهذا الوصف وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة ، والاستماع بلا صفة ينتهى إليها ولا علم يوقف عليه . وإن كثرة المدارسه للشعر لتعين على العلم به . وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به . وقد نقل ابن رشيق هذا الكلام وقرضه ثم قال وهو يعقب عليه : وقد سمعت بعض الخذاق يقول : ليس للجودة في الشعر صفة ، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميز ، كالترند في السيف ، والملاح في الوجه . وهذا راجع الى قول ابن سلام ، بل هو بعينه ، وإنما فيه فصل اختصار (١) .

أما الأمدى فقد توسع للموضوع غاية ، وجرى فيه شوطاً لم يلحقه فيه غيره من المتقدمين ، فأدار الكلام على معنى ما قال ابن سلام ، بل هو قد اعترف لابن سلام بالفضل والسبق ، وقال أيضاً بأن دعبل بن علي الخزاعي قد تناول هذا المعنى في كتاب ثقه عن الشعر . ثم مضى يحصن ويناقش الرأي مناقشة يحاول فيها أن يقنع القارئ قبل أن يقنع نفسه ، ومن رأيه أنه لا يكفي في العلم بالشعر والحكم عليه « أن يكون عندك حزانة كتب تشتغل على عدة من دواوين الشعراء ، وأنت ربما قلت ذلك ، أو حفظت القصيدة أو الحسين منه » ، وإنما هو شيء « لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة ، وطول الممارسة ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتراج ، فلن ينفع النظر إلا من يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ، ومن إذا علم أصف ، ثم إن العلم بالشعر إن جاز أن يدعيه كل أحد ، وأن يتعاطاه من ليس من أهله ، فلم لا يدعى

أحد المعرفة بالعين ، والورق ، والخليل والسلاح ، والرقيق والبز ، والطيب وأنواعه ، ولعله قد
 لانس من أسر الخبل وركوبها ، والرقيق واقتنائه ، والنياب ولبسها ، والطيب واستعماله ،
 أكثر مما عاينه من أسر الشعر وروايته ، فلا يهتم نفسه في المعرفة بالشعر تهمة إياها بالمعرفة
 ببعض هذه الأشياء مما عاينه وتناوله . وما ياله وقد ركب الخبل كثيراً لما راقه من الفرس ملاحه
 سيه ، واستدارة كفه ، ويريق شعره ، وحسن إشرافه وعنقه ، وموضع نتاجه ، وصحة قوائمه
 وسلامة أعضائه ، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة . وكذلك السيف لما بهره جلاؤه
 وصقاله وصفاء حديدته ، لم يعض فيه اختياره حتى شاور من يعرف حسنه ، وجوهره وفرونده
 ومضاءه ، وكذلك لما أعجبه من ثوب الوشي حسن طرزه ، وكثرة صوره وبديع نقوشه ،
 واختلاط ألوانه ، لم يبادر الى إعطاء ثمنه ، حتى رجع الى أهل العلم بجوهره وكثرة مائه ،
 وحوادة رقعته ، وصحة نساجه ، وخلاص إبريسمه ، فكيف لم يفعل ذلك بالشعر لما رافه حسن
 وزنه وقوافيه ودقيق معانيه ؟ ولم لم يتوقف عن الحكم له على ما سواه حتى يرجع الى من هو أعلم
 منه بالفاظه ، واستواء نظمه ، وصحة سبكه ، ووضع الكلام منه في مواضعه وكثرة مائه
 ورونته إذ كان الشعر لا يحكم له بالحوادة إلا بأن تجتمع فيه هذه الخلال ؟

ثم أخذ الأمدى يناقش هذا الكلام ويراجعه على نفسه فيقول : فإن قلت : وما العلم
 بالخليل والبز والرقيق والذهب والنفضة التي لم يطبع الانسان على المعرفة بها والعلم بحيدها ورديتها
 كما طبع على الكلام ، فكان كل أحد متكلماً وليس كل أحد صيرفياً ولا زاراً ولا نوحاً ؟ قيل :
 ولا كل أحد يكون شاعراً ولا حطيباً ولا منطيقاً بليغاً ولا بارعاً ، ولو كان ذلك كذلك لما رأيت
 أحداً يتكلم فيضحك منه ، فالانسان المتكلم يعلم معاني ألفاظ لغته ولا يعلم حيدها من رديتها
 ومتغيرها من مرذولها ، كما أنه يعلم أيضاً أنواع النياب والجواهر والخليل والرقيق ويميز بين
 أجناسها ، ولا يعلم جيد كل جنس من رديته ، ورفيعه من دونه ، فكأن المعرفة بكل جنس
 من هذا صناعة ، فكذلك المعرفة بكل جنس من أجناس لسكلام صناعة ، فإذا رحمت
 في المعرفة بتلك الى أهلها فارجع أيضاً بهذه الى أهلها . وقد قيل خلف الأحمر : إنك لا تزال
 ترد الشيء من الشعر وتقول : هو رديء والناس يستحسنونه ! فقال : إذا قال لك الصيرفي إن هذا
 الدرهم زائف فاجهد جهدك أن تنفقه فلا ينفعك قول غيره إنه جيد ، فمن سبيل من عرف
 بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملبسة له ، أن يقضى له بالعلم بالشعر والمعرفة
 بأغراضه ، وأن يسلم له الحكم فيه ، ويقبل منه ما يقوله (١)

ولقد أشار الجرجاني الى عمل الذوق وأهميته في الحكم الادبي غير مرة في كتابه
 « الوساطة » ، فقال وهو يتحدث عن السرقات الأدبية : وهذا باب يحتاج الى إنعام الفكر

وشدة البحث ، وحس النظر ، والتحرز من الاقدام قبل التبين ، والحكم لا بعد الثقة ، فقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواصح الجلى على من لم يكن مرتصا بالصاعة متدربا بالنقد (١) . ثم قال وهو يتحدث عن مواقع الكلام : فأما المختل المعيب ، والماسد المضطرب ، فله وجهان : أحدهما ظاهر يشترك في معرفته ، ويقل التعاقل في علمه ، وهو ما كان اختلاله وفساده من باب اللحن والخلط من ناحية الاعراب واللغة ، وأظهر من هذا ما عرض له ذلك من قبل الوزن ، فإن العامى قد يعجز بذوقه الأعارض والأضرب ، ويعمل بطبعه بين الأجناس والأبهر ، ويظهر له الانكسار البين ، والرحاف السائغ ، والآخر غامض يوصل الى بعضه بالرواية ، ويوقف على بعض الدراية ، ويحتاج في كثير منه الى دقة الفطنة وصفاء القرينة ، ولطف الفكر ، وبعد الغوص ، وملاك ذلك كله ، وتعامه الجامع له والزمام عليه ، صحة الطبع وإدمان الفكر ، فانهما أمران ما اجتماعهما في شخص فقصر في إيصاله عن غايته ، ورضيا له بدون نهايته (٢) .

وكذلك أشار الشيخ عبد القاهر المرحاني الى صلة الذوق بصيرفة الكلام والحكم عليه في مواضع متفرقة في كتابه « دلائل الإعجاز » فقال وهو يتحدث عن اللفظ والنظم : « واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقفا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة » ، وقد ختم دلائل الإعجاز بكلام طويل انتهى فيه الى أن العمدة في إدراك البلاغة إنما هو الذوق والاحساس الروحاني ، فلا يصح للإنسان أن يرى الزأى في الأدب ، ويقضى في الشعر « إلا إذا صحت قريحته ، وصح ذوقه ، وتمت أداته » ، ثم أتى لهذا الكلام بكثير من الشواهد والأمثال ، وحث القارئ على التدبر فيها والتأمل .

فقدة الأدب العربي ، كلهم أو حلهم ، على أن الذوق ضرورى للحكم الأدبي ، فهو يؤدى صلا كبيراً في تمييز الكلام ، وتقدير ما يمرض له من حسن التعبير أو خلله ، وجمال التصوير أو قبحه ، وقوة المعنى أو تهافته ، وتناسق الخيال أو شذوذه .

قد تقول : ولكن كيف هذا فتعتبر الذوق ميزانا من موازين الحكم الأدبي ، ينتهى الى رأى قاطع ، ويؤدى الى نتيجة ثابتة ، ويسمو عن التناقض والتخلية ، مع أن الذوق — على ما هو معروف — كمية مبهمه ، حظ الناس منها يختلف ويتباين نظرا لاختلاف استعدادهم وتباين مواهبهم ، فنجد الشيء الواحد يستحسنه بعض الناس ويستقبحه آخرون ، ولا شك أن هذا الاختلاف إنما أتى من اختلاف الآذواق ، وإلا فلتشئ في إدراك حقيقة واحدة كما يقول المناطقة ، فلا يصح أن تقول إنه حسن قبيح في آن واحد . ثم إن الذوق — على ما يبدو — يختلف باختلاف الزمان والمكان ، ويتباين بقباعد المصور والأمصار ، فكل

جيل ذوقه ومشربه ، ولكل شعب هواه ومترعه ، بل إن الذوق الواحد قد يختلف في جيل بعينه باختلاف الظروف الوقتية الطارئة التي تعرض له . وقد دعا قال عبد الكريم بن ابراهيم :
قد تختلف المقامات والأزمدة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، وتجد الشعراء الخذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا يخرج من حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربما استعملت في بلد ألقاظ لا تستعمل كثيراً في غيره (١) .

وأنا أقول لك بأن هذه المسألة بعينها قد كانت مثار نقاش طويل ، وجدل قوى بين لنقاد القرنين في القرن السابع عشر ، إذ تصدى الناقد المشهور « بوالو » لبحث في الجمال الفني والشعري ، فاقضاه سير البحث أنت يورد على نفسه هذا السؤال : هل الجمال بوجه عام — وهو محور الفنون الجميلة — من الأشياء الأكيدة الثابتة التي لا تتغير في الذوق والادراك ؟ وقد أجاب « بوالو » على ذلك بالإيجاب الحازم ، وعلل الجواب بأن الفنون الجميلة مثل الشعر والتصوير التي يتحلى فيها روح الجمال ، ليست مختصة بأمة من الأمم أو زمان من الأزمنة ، وقد حلت هذه النظرية « بوالو » على أن يسلم لمعارضيه بأن الذوق السليم الذي يميز الفث من السمين ، لا يمكن أن يتغير بتغير الأقاليم والمصور ، فيصدر حكيمين مختلفين على شيء واحد ، بل إن ما كان جيلاً البارحة هو كذلك اليوم وغداً ، ودليل ذلك أن رواية مثل « وديب الملك التي حازت رضى اليونان في المصور الأولى لا تزال إلى الآن تستفر إعجاب الناس أجمعين ، على الرغم من تفاوت المشارب والآراء ، والمضارة بين المحدثين القديين والحديث (٢) .

وهذا الذي قاله « بوالو » كلام محل لا يشع الباحث ولا يقنع السائل ، وأحب أن أنهي بك إلى الإقناع والإشباع في ذلك بما قاله العلماء من تقسيم الذوق إلى قسمين : ذوق ذاتي شخصي وهو الناشئ عن شخصية الفرد نفسه ، والذي يتحلى عن كل شخص فيما يله وما يكره ، وما يحب وما يبغض ، والذي عنه يصدر بما يقرأ وما يكتب ، فتكتسب كتاباته ذلك الروح الخاص الذي يلزم كتابة كل أديب له ذات أدبية مستقلة . وذوق مكتسب وهو مزاج من العقل والشعور ينقدح في ذهن الشخص ، ويتمكن بالارتياض وإدمان النظر في آثار الكتاب وروائع الشعراء حتى يصير جزءاً من طبيعته ، وملئكة راسخة في نفسه . وم على أن الذوق الشخصي لا عمل له في النقد والحكم على الآثار الأدبية . فعلى الناقد أن يتحلل منه ما استطاع حتى لا يحكم بهواه ، ويخضع النقد لميوله وزماته ، وقد تكون هذه الميول بمنأى عن الوضع الأدبي الصحيح ، والحقيقة الفنية الثابتة .

أما الذوق المكتسب فهو عنصر أسيل في باب النقد الأدبي ، وهو الذي نعتبره ميزاناً

من موازين الحكم الادبي ، ويمكن أن ينتهي في ذلك الى حكم قاطع ، ويؤدي الى نتيجة ثابتة ، ويسمى بصاحبه عن التناقض والتعالية ، لأن الدوق المكتسب ليس كالدوق الشخصي يخضع لسيول والأهواء ، ولكنه يخضع لقوانين علمية ، ويرجع الى أصول أدبية ، ويستعين بثقافة شاملة ، وكل هذه تحمله على الضبط والتحرير ، وتعينه على صواب الحكم والتقدير ، وهذا الدوق المكتسب هو الذي يمتد به التقاد العرب في الحكم الادبي . وقد نقلنا لك فيما سبق كلاما عن الأمدى يقول فيه : « فن سيل من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملاسة له ، أن يقضى له بالعلم بالشعر والمعرفة بأغراضه ، وأن يسلم له الحكم فيه ويقبل منه ما يقوله » ، وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون : « إن الدوق ملكة تحصل بالممارسة والاعتقاد والتكرار لكلام العرب ، فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيويه والعامري والمغشمري ، وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجافاً مع حصول هذه الملكة لهم ، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط ، وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم ، واستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها ، وكانهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم (١) »

ومما لا شك فيه أن هذا الدوق المكتسب كان له أثر كبير في الادب العربي وتاريخه ، فعمله كان يعتمد التقاد في أحكامهم الأدبية ، وبه استعان الرواة على إدراك الدخيل والمنحول في شعر شاعر بعينه أو كتابة كاتب بعينه ، وقد ذكر ابن سلام فيما ذكر من ذلك أن دؤاد بن متم بن نيرة قدم البصرة في بعض ما يقوم له من الجلب والميرة ، فأتاه أبو عبيدة وابن نوح ، فسألاه عن شعر أبيه متم وقلما له بحاجته ، وكفياه ضيعته ، فلما نقد شعر أبيه متم جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، وإذا هو يسلك طريقته ، ويحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متم ، ويشير الى الوقائع التي شهد بها ، فأدركا أنه كلام دون كلام متم ، فرداه عليه . وروى عن يونس السجوي أنه كان عند نشار وقد أُنشد في شعر الأعشى :

وأُنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما

فأنكره نشار وقال إنه لا يشبه كلام الأعشى في شيء . قال يونس : فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت عند خلف الأحمر ، فأخبرني أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى . ولا شك أن نشاراً وأبا عبيدة وابن نوح ، إنما ردوا ما ردوا من الشعر ، وميزوا ما ميزوا من الأبيات اعتماداً على فوق أدنى مكتسب ، وملكة فنية راسخة تمت لهم عزالة الشعر والنظر فيه .

فالدوق المكتسب ذو خطر كبير في النقد الادبي « ولكنه كمثل ملكة أخرى لا يسمع نفعه ، ويعمل عمله إلا إذا حسنت تربيته ، والترية لها كمثل تربية صالحة ، يجب أن يكون

أساسها الارشاد والتحذير وقوامها التنشئة على الصواب ، والتعويد على الاحسان منذ البداية ، ولا يد أن تكون هناك نماذج كثيرة معروفة من الأدب الحسن ، والكلام الجيد الفصيح ، حتى يصح ويدشأ نشأة قويمة ، وحتى يعرف من نفسه إذا ترك وشأه : أي الكلام جدير بالاقبال عليه ، وأنه حقيق بالاعراض عنه ، فإذا ميزت له مراتب تلك النماذج ، أمكنه بعد أن يميز من نفسه مراتب الكلام »

« ومهما يكن من شيء ، فإن المتنبس العمل لفصاحة في أي أدب يجب أن يلتمس في كلام نحوله ، وأعيان البيان فيه . على كلامهم يجب أن يربى الذوق ، وعقياهم يجب أن يقيس . وفي الحق أن علوم البلاغة في أي لغة لم تستبسط إلا من مثل ذلك الكلام ، وليس يعوز الأدب العربي شيء من هذا كله ، ففيه من كل نوع من أنواع البلاغة المثل بعد المثل ، فيه القرآن هو المثل الأعلى الذي لا يفتأ يرقى بمن يهتدى به في مراقب البلاغة ، وفيه تحققت غاية البلاغة البشرية في كلام الرسول وكلام خلفائه وأصحابه ، وفيه قبل ذلك ومن بعد ذلك مثل للبلاغة بعضها فوق بعض ، وبعضها يذوق من بعض ، لا يستطيع الأديب ولا الناقد أن يهماها وهو يطمع أن يكون له في العربية مكان بين المهجدين (١) »

محمد فرهمي عبد اللطيف

(١) راجع النقد التحليلي لفرماوى ،

من الشعر ما يزيل الطيرة

خرج طاهر بن الحسين قائد المأمون لقتال علي بن عيسى قائد الأمين وقد جعل في كه درام يفرقها على من يصادفه من المتسولين في طريقه ، وذهل أنها في كه فأسيبه ، فسقطت وتبددت الى كل وجه ، فتغير لذلك وجهه وتطير منه ، وكان معه شاعر فقال له : لانس من هذا أيها الأمير ثم أئشه :

هذا تفرق جمعهم لاغيره وذهابها منه ذهاب المم
شيء يكون المم نصف حروفه لاخير في إمساكه في الكم

الاشتراكية في الاسلام

اهديت اليها نسخة من كتاب اصول الاقتصاد البشري في التوزيع فرايا في بحوثه
فضلا ممثنا تحت عنوان (الاشتراكية في الاسلام) فأثرنا لثمة هنا تعبها لفائدة ، فان به
دلائل على ان الاسلام - سبق جميع النظم الاقتصادية الى تحرير حقوق الفقراء على الاعباء .

إن الباحث في الدين الاسلامي ، المتأمل فيما جاء به من الأحكام والمبادئ ، يجد في ثناياها
نوعاً معقولاً من الاشتراكية جذبوا بأن يسمى (بالاشتراكية المنظمة) ، لأن القلوب تطمئن إليه ،
ولأن النفوس تحصل به من شوائب الآثمة ، وتنمحص فيه لحب الخير ، وتتهياً لأنكار الذات .
أجل : إن في الدين الاسلامي نوعاً سامياً من الاشتراكية التي تحجى الغوضى وتدعم قواعد
العمران ، لا يتبرم بها الغنى ، ولا تغرى للفقير على العطل والكسل .
نجد هذا النوع ماثلاً في نواحي كثيرة من أبواب التشريع الاسلامي : في زكاة المال
بأنواعه ، وفي زكاة الفطر ، وغيرها .

ولكي تتبين كنه هذه الاشتراكية ومبلغ دقتها ، نسوق إليك طرفاً من أحكام الشريعة
الاسلامية التي لها صلة بموضوعنا :

زكاة المال :

فرض الله الزكاة في أنواع ثلاثة من المال ، هي :

الأنعام (١) والحراث (٢) والعين (٣) ، كما فرض الزكاة على التاجر في عروض تجارته .

زكاة الأنعام :

أما زكاة الأنعام فقد فرض شاة على من يملك خمساً من الابل الى خمس وعشرين ، وفي خمس
وعشرين الى ست وثلاثين (بنت محاض (٤)) ، وفي ست وثلاثين الى ست وأربعين (بنت
لبون (٥)) ، وفي ست وأربعين الى إحدى وستين (حقة (٦)) ، وفي إحدى وستين الى إحدى
وتسعين (جذعة (٧)) ، وفي ست وسبعين (بنتي ليون) ، وفي إحدى وتسعين (حقن)
وأما البقر ففي كل ثلاثين (تبيع (٨)) ، وفي كل أربعين (مُستنة (٩)) ، وفي الستين (تبيعان) .

(١) الابل والبقر والغنم . (٢) الميوب بأنواعها . (٣) الذهب والفضة . (٤) وهي ما أوفت
سنة ودخلت في الثانية . (٥) وهي ما أوفت سنتين ودخلت في الثالثة . (٦) وهي ما أوفت ثلاثاً . (٧) وهي
ما أوفت أربعاً . (٨) وهو ما أوفى سنتين ودخل في الثالثة . (٩) وهي ما أكلت ثلاثاً ودخلت في الرابعة .

وأما الغنم ففي أربعين منها (جذعة) أوجذع ذوسنة ودخل في الثانية ، وفي مائة وإحدى وعشرين (شاةان) ، وفي إحدى وما تين (ثلاث شياه) الى أربعمائة ، وفي أربعمائة (أربع شياه) . ثم لكل مائة شاة بعد ذلك .

زكاة الحرث :

في كل خمسة أو سق (١) نصف عشر الحب إن كان الزرع يسقى بألة ، أو العشر إن كان يسقى بالسبح أو المطر .

زكاة العين :

في كل ما تقي درهم أو عشرين ديناراً شرعية (٢) فأكثر أو المجتمع منهما ربع العشر . هذا بملاحظة أن فرض الزكاة في الأنعام والعين لا يجب إخراجه إلا إذا حال عليها الحول . أما زكاة الحرث فتجب على المالك إذا طالب الزرع .
هذه مقادير الزكاة الواجب على من يملك هذه الأنصبة إخراجها .

زكاة الفطر :

وكما قرض الله علينا زكاة المال فقد قرض علينا زكاة الفطر في كل سنة لتنام شهر رمضان ، حيث جعل على كل مسلم ومسلمة أن يخرج من ماله صاعاً (٣) من غالب قوت بيده برا أو ذرة أو شعيراً أو تمرأ ... الى آخره .

وإذ عرفت ذلك فلما نسوق إليك الأدلة من الكتاب والسنة على مشروعية زكاة المال وزكاة الفطر :

فن الكتاب : قول الله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها » . « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » . « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .

ومن السنة : قوله صلى الله عليه وسلم : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » . وقول النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه والياً على اليمن : « فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » .

أما زكاة الفطر : فقد وجبت بالسنة ، إذ ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث منادياً ينادي في لجج مكة « ألا إن صدقة الفطر واجبة » .

(١) أربعة أراذيل وويّة (٢) تساوى ٩١ خيه معري (٣) أربعة أمداد .

الاسلام دين الفطرة ، دين الاخاء والمساواة . والمسلمون — منذ انبثق نوره فيهم — سباقون الى التعاون والاشتراك . يدلك على هذا ما كان من الانصار حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة (بلدتهم) ، فقد ثبت أنهم تنافسوا في نزول المهاجرين بديارهم تنافسا شديدا ، لم يحسمه إلا أنهم حكوا القرعة بينهم ، فأنزل مهاجر على أنصارى إلا بقرعة . وكان الانصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (١) . رضوا أن يقسموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين . وكانوا يرون ذلك قليلا بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم . وكان رسول الله يمتكن الإخاء بين المهاجرين والانصار . وكان هذا الإخاء على المساواة والحق ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام . وكان عليه السلام يقول لكل اثنين : « تأخرا في الله أخوين أخوين » . ودام هذا الميراث الى أن نسخ الله بقوله : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

كان الانصار يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ، بل فيما هو أكثر من ذلك ، فقد ثبت أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يتنازل له عن إحدى زوجتيه .

من هذا نعلم مبلغ ما كاد عليه المسلمون في صدر الاسلام من الجنوح الى الإيثار (٢) وترك الأثرة ، والتزوع للاشتراك الى الحد الذي فصلناه لك في معاملة الانصار للمهاجرين ، وذلك بمحض إرادتهم وصادق رغبتهم . وظلت الحال على ذلك الى أن فصلت الموارث وشرعت الزكاة وغيرها من مقومات الرابطة بين الأغنياء والفقراء .

هذه هي الاشتراكية الحققة المنظمة التي لا إفراط فيها ولا تفریط ، بل السماح المنزل من السماء ليحاط به حق كل من الفريقين قبل الآخر ، كي لا تتزعزع قواعد العمران ، ولا ينهار صرح المجتمع (٣) .

(١) حاجة . (٢) الإيثار : تفصيل الغير على النفس ، والأثرة على عكس ذلك .

(٣) وإلى هذا المعنى يشير الشاعر وهو يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

الإشتراك يكون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلاء
داويت منتدا وداووا طفرة	وأحف من بعض الدواء الداء
الحرب في حق لديك شريفة	ومن السموم الباقعات دواء
والبر عنك ذمة وفريضة	لامنة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سميحة	حتى التقي الكرماء والبشلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل في حق الحياة سواء
فلو أن إنسان تخمير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء

هذه هي حدود الاشتراكية في الاسلام ، أجلنا لك القول فيها ، وألعبنا الى شيء من تاريخ نشأتها وتطورها منذ ظهر الاسلام الى أن توطدت هذه القواعد ، وسنت هذه الحدود ، فلا تتجاوزها ولا تتعداها .

أما الاشتراكيات الموضوعية ، فلهها غير مأمونة العواقب ، لا يوجد فيها ما يجمع دعائها من التطرف والغلو . ولهذا كانت دائما مثار المخاوف ، ومبعث القلق للعقلاء ورجال الحكم وعلماء الاجتماع .

وإذ عرضنا للكلام عن الاشتراكية الاسلامية في ناحية المال ، فيجدر بنا أن نلح الى ما في الدين الاسلامي من الاشتراكية المعنوية التي نراها ماثلة أمام أعيننا في مواضع كثيرة مما تعبدنا به الدين الحنيف من أنواع العبادة المختلفة :

هذه صلاة الجمعة والجماعة ، وصلاة العيدين : تحمل في أضايرها (١) - علاوة على ما في الاجتماع من تضامن وتأزر - معنى آخر ساميا لا يقل أهمية من هذا ، وهو الإشعار بالمساواة وزوال الفوارق الدنيوية مهما جل خطرهما ، حيث يشترك الجميع في السجود والركوع والخشوع ، ويقف الغني الى جانب الفقير ، والسوقة بإزاء الأمير ، لا تافع ثمة ولا متبوع ، ولا سلطان إذ ذاك إلا لمن له السكل يضرعون ، وباهمه يكبرون ويمهلون : (الله) .

وفي الصوم والحج والعمرة وغيرها من العبادات : يلتقي المسلمون في غاية مشتركة ، ويتجهون الى غرض واحد ، يجوع الغني في صومه كما يجوع الفقير ليشعر بشعوره ويحس باحساسه فيرق له ويحنو عليه ، ويدري الغني إذا أحرم كما يعرى الفقير حين يتجرد الجميع من لباسهم تحت وهج الشمس وقر البرد ليجد الغني في نفسه ما يحفزها الى العطف على الفقير . ذلك فضلا عما في اجتماع المسلمين في صعيد واحد مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وتباين أحناسهم ، وتباعد بلادهم ، من مزية التعارف والتواد والتحاب .

هذه مظاهر الديمقراطية الحقة التي عجزت الاشتراكية الوضعية عن تحقيق بعض منها ، وهي دعائها قديما وحديثا دون الوصول الى شيء منها ، ذلك لأن هذه من وضع البشر ، وتلك من وضع خالق القوى والقدرة ، وهو الله لا إله إلا هو له الحد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ؟

عبد العزيز مرزا

من عالم ما بعد الطبيعة

كان الناس في الأجيال الماضية يعتقدون بعالم ما بعد الطبيعة ، كما يعتقدون بعالم الطبيعة سواء بسواء ، وكانوا كلما رأوا أمراً لم يحجر به العادة ، ويشذ عن النظام المقرر للعادات ارتاحوا له ، وعدوه مظهراً من مظاهر عالم الروح ، ولكن لما حرر العلامة (بيكون) الانجليزى الدستور العلمى فى القرن السابع عشر ، وشدد فى وجوب عزل الظنيات عن المقررات العلمية تجرّيداً لها عن كل مائس اليها من الآراء والظنون والأوهام ، نشأ فى الناس ميل عام الى بى كل عالم يحجى* من الروايات حاصلها على شرائط التحييص العلمى ، فقفذ بكل ما يروى من أمور ما بعد الطبيعة الى عالم الخرافات بحجة أنها لم تمحص على موجب الدستور الرسمى ، ولم تتوافر فى مشاهدتها وروايتها الصفات العلمية التى يؤمن معها وقوع الخطأ منهم ، وجواز الانخداع عليهم .

من هذا الحين وقع التشكك فى حوادث ما بعد الطبيعة ، ودرج المتعلمون على النكذيب بها . ولما كان الدين مبنيًا على أمور من صميم ما بعد الطبيعة ، فقد أصابه نصيب كبير من هذا الشك ، وألحد أكثرهم فيه ، واعتبر وجوده موقوفًا على تمسك العامة به . هذه نتيجة طبيعية لاشية فيها . فإدام عالم ما بعد الطبيعة غير موجود ، وليس فى الحوادث اليومية أثر يدل عليه ، وكل ما يظن أنه أثر من آثاره ومظاهر من مظاهره ، قذف به الى عالم الأوهام لعدم تصرية الدستور العلمى عليه ، فالنهاية معروفة لا تخفى على أقل الناس تقديراً للأمر .

ولكن موجد الكون ومدبره لم يشأ أن تطفى المادة على الروح طفيئاً يرمى بالإنسان الى أحضان البهيمية الباحثة ، وهو الذى خلقه ليبلغ الى درجة من السكال يستاهل معها أن يكون خليقته على الأرض ، فخبب الى كثير من العلماء الجريصين على تطبيق الدستور العلمى أن يدرسوا أمور ما بعد الطبيعة عقب حادثة حدثت فى مدينة هيدسفيل بالولايات المتحدة قامت لها هناك الصحافة وقعدت ، واهتم بها العالم الغربى كله ، فانفتح أمام العلماء باب ما بعد الطبيعة على مصراعيه ، وشاهدوا من ظواهره ما كانوا يمدون من بلهج به محضراً أو ممتوها . فلم يكتف هؤلاء العلماء بما شاهدوه ، ولكنهم دونوه فى مؤلفات لهم ، وألقوا لدراسه الجمعيات ، وجمواله المؤتمرات ، وحدثت بذلك فى العالم حركة روحية لم يوجد لها مثيل فى عهد من عهود الانسانية ، وقد بينا ذلك كله فى بحث نشرناه فى أحد أعداد المجلد الثامن تحت عنوان (استحضار الأرواح فى أوروبا) توجه نظر القارى* اليه .

ولما كانت هذه الحركة مما تقبت إيمان المؤمنين ، وتوثيقهم بأدلة لا تنقض على وجود عالم

الروح ، مما يساعد دعاة الدين على رفع علمه بين الجماهير ، كان حقا على كل عامل على خدمته أن لا يفعل هذه الساحة من المباحث الجديدة التي فتح الله بها على العالمين .

لذلك رأينا أن نتتبع هذه الحركة في جميع تطوراتها نقلا عن أوثق مصادر العلم ، فان في ذلك مصداقا لقوله تعالى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟

أول ما نبدأ به من ذلك كتاب كتبه الاستاذ الايطالى الكبير (ميكولى كيايا) الى الاستاذ الطائر الصيت سيزار لومبروزو المدرس بجامعة تورينو بايطاليا ومؤسس علم الجراثيم يدعو به الى بحث الخوارق النفسية التي كان يهزأ بالباحثين فيها ، ثم نبهه بما كان من أمر الاستاذ الأخير واضطراره لبحث هذه الظواهر ، وتسريته عليها الدستور المعنى الصارم ، واعتراه بخبطه الأول ، وصيروره من أكبر العوامل على إداعتها في الخافقين .

كتاب الاستاذ كيايا الى لومبروزو :

سيدى :

في الفصل الذى كتبته تحت عنوان : (تأثير المدنية على العقيدة) المنشور بالعدد ٢٩ من مجلة (فانقولا ديلا دومينيك) قرأت فيها قرأته من المصارات السالفة حدود الابداع الكتابي والمنطقي ، عبارة قيمة ظهرت لي أنها فذلك الحركة العلمية من أول ما اكتشف الانسان حروف الأبجدية الى عهدنا هذا . تلك العبارة هي قولك : « كل قرن يمر غير ناضج بالنسبة للاكتشافات التي لم تحدث بعد ، وهو لا يدرك حقيقة قصوره ولا الوسائل التي تعوزه لإحداث تلك المكتشفات . وتكرر مظهر من مظاهر الكائنات وانطباعه على تلك الصورة في المخاخ البشرية ، يجعل العقل أقل قابلية لاكتشاف النواميس التي يخضع لها . ومضى خمس عشرة أو عشرين سنة تكفى لأن تجعل الناس أجمع يعجبون باكتشاف جديد كانوا يعتبرون الكلام فيه جنوا في الوقت الذى حدث فيه . والى اليوم لا تزال الجامعات العلمية تهزأ بالتنويم المغناطيسى وبالعلاج بالمشابهات ، ومن يدري إذا كنت أنا وصحباي الذين نهزأ بعلم استحضار الأرواح لم نسكن في ذلك على ضلال مبين ، كما هو حال المنومين سواء بسواء ؟ فان كنا لانشر باسمنا مخدوعون فذلك يرجع الى الغرور المحيط بنا من كل مكان . وعند ذاك يكون مثلنا كتل المصابين في قوائم العقلية ، نمارض الحقيقة الواقعية ونهزأ بالذين لا يشاركوننا في هذا الاستهزاء » انتهى .

« لقد أعجبت بهذه العبارة الحكيمة كل الإعجاب ، ورأيتها انما تطبق على أمر اشتغل به منذ زمان ، فاقبستها بلا إعطاء مفتبطا بها ، ولم أحاول شرحها تحاميا من تفسير معناها ، ثم رأيت أن أعمل بسنة من سنن القروسية الكاملة فأستخدمتها دعوة للمناضلة .

« على أن نتأخر هذا التحدى لن تكون خطرة ، ولا دموية ، فانا سنتناول مخلصين شرفاء ، ومهما تكن نتيجة هذه المنازلة كأن أسقط أنا في الميدان أو أصرع خصمى ، فان ذلك سيكون لقصد حسن وغرض شريف . وسيكون أثر هذه المصارعة إصلاح أحد المخلصين وتقوية ، وفي ذلك خدمة عظيمة لقضية الحقيقة .

« يتحدث الناس اليوم كثيرا عن مرض خاص اكتشف في الجنان الإنسانى ، فيشاهدونه كل يوم ويجهلون سببه ، ولا يدرون بأى الأسماء يدعونه . هذا المرض واضح كل الوضوح ، وأعراضه المحسوسة قد ثبتت بالتجربة ، وقامت لها الحجة بحاسة اللمس بوجه خاص ، أى بالحاسة التى هى المحك العام لجميع المعارف الصحيحة .

« وإن الناس ليطالبون الى العالم المصرى أن يبدى رأيه فى هذا المرض بالحاح ، ولكنه يجيبهم بإبتسامة (بيرون) (١) الاستهزائية ، ذلك كما يقولون لأن العصر لم يستعد بعد لهذا البحث .

« ولكن منشئ العبارة التى أتيت بها أقفا لم يكتبها لجهد التلهى بكتابتها ، ويظهر أن الأمر على نقيض هذا ، وأنه لا يتم بسمة الاحتقار إذا دعى ليشاهد حالة خاصة جديدة بأن تستدعى انتباه رجل كلومبروزو ، وتشغل باله جديا .

« أريد بهذا أن أتكم عن مريضة من أحط طبقات الهيئة الاجتماعية ، تبلغ الثلاثين من عمرها أو تسكاد ، وهى من الجبل بمكان . وفطرتها ليست بفاتنة ولا هى متدعة بتلك القوة التى ينمتها علماء الجرائم المعاصرون ، بالقاهرة ، ولكنها تستطيع متى أرادت ذلك نهارا أو ليلا ، أن تخلب بظواهر مدهشة تابعة لمرضها ساعة من الزمان عقول طائفة من عجب الاستطلاع يتفاوتون فى درجات الاحلاد وفى قبول الاقتناع .

« فقد تجلس على كرسى وتربط عليه ، أو يُقضى على يديها قبضا قويا ، فتحتذب بقواها الخفية الأثاث الذى يحيط بها ، وترغمه فى الهواء ، وتدعه معلقا فى الفراغ ، ثم تنزله بحركات تموجية كأن ذلك الأثاث تحت تأثير ارادة غير ارادتها ، وتزيد وزن تلك المقولات ، وتقل منه كما تشاء ، وتقرع جدران الحجرة وسقفها وأرضها بتوقيع منتظم على حسب ما يقترحه عليها الحاضرون . ويتفجر من جسمها أنوار تشبه ضوء الكهرباء فتحيط بها أو بالحاضرين فى مظاهر غاية فى الغرابة . وهى ترسم ما يريده المجهزون على أوراق يقدمونها لها ، فنكتب عليها أحرأ أو توقيعات أو أعدادا أو عبارات ، بمجرد مديدها نحو المحل المراد إحداث الكتابة فيه . وإذا وضع فى زاوية من زوايا الحجرة إناه فيه طبقة من الجبس الرخو ، تنطبع

(١) بيرون Pyrrhon فيلسوف يونانى قديم واسع منسوب الادارية من اهل القرن الرابع قبل المسيح.

فيه بعد برهة صورة يد صغيرة أو كبيرة ، أو صورة وجه في أقصى درجات الدقة ، مطبوع مواجهة أو من الجنب ، يمكن أخذ شكله على الجبس . وقد حفظت وجوه اخذت بهذا الأسلوب تمثل جميع الأوضاع ، ويستطيع من يريد أن يدرس هذا الأمر دراسة جدية أن يعتمد عليه .

« ثم إن هذه المرأة ترتفع في الهواء معهما كانت الارتبطة التي تمسكها بالأرض ، فتصير مضطحة في الفراغ على الرغم من نواويس توازن القوى ، وتبدو كأنها قد تحللت من قوانين الجاذبية العامة . وهي ترسن الآلات الموسيقية : كالآرغول والفاغوس والظبور ، كما لو كانت لمست بالأيدي ، أو حركت بفتح أعصاب من عالم ما بعد الطبيعة .

« إنك لتفسر هذه الأمور بأنها حالة خاصة من النوم المغناطيسي ، وستقول بأن هذه المريضة مشموزة في ثوب امرأة تستحق أن يزوج بها في مستشفى ، فأرجوك أيها الاستاذ العظيم أن لا تغير وضع المسألة . فكلنا يعلم أن النوم المغناطيسي لا يحدث غير الوهم هنية . ومتى ارفضت الجلسة ياخذ كل شيء صورته الأولى . ولكن الأمر يجري على خلاف هذه السة ، في الحالة التي نحن بصدها ، فإنه تبقى بعد رفع جلستها آثار كل ما حدث فيها من الخوارق ، وتبقى أدلة محسوسة لها جذيرة بالاعتبار .

« فإذا تقول في ذلك ؟

« ولكن اسمح لي أن أستمع في سرد ما أنا بسبيله : إن هذه المرأة في بعض الأحوال تستطيع أن تطيل قائمتها أكثر من عشرة سنتيمترات ، فهي من هذه الباحة كالذئبية المصنوعة من مادة الجوتايركا المرنه ، أو كأداة آلية من نوع جديد ، فانها تأخذ صوراً غريبة . فكم لها من سيقان ومن أيدي ؟ لا ندرى من ذلك شيئاً .

« فانه بينما تكون أعصابها مقبوضاً عليها من الحاضرين المفرطين في بعد التصديق ، نرى أنه قد نشأت لها أعصاب أخرى لا ندرى من أين خرجت . ونجد أن الأحذية تضيق عن اشتغال تلك الأرجل السحرية ، وهذه الحالة الخاصة تضطرنا للقول باحتمال تدخل قوة خفية في الأمر .

« لا تضحك حين أقول « تضطرنا للقول بتدخل قوة خفية » ، فاني لا أثبت شيئاً ، وسيكون لديك وقت لضحكك بعد قليل .

« بينما تكون هذه المرأة موثقة بالارتبطة ، تظهر ذراع ثالثة في المكان لا يعلم أحد من أين أتت ، وتبدأ بإحداث مداعبات مسلية للمجربين ، كأن ترفع التبعات من رؤوس أصحابها ، وتجردهم من ساعاتهم ودرامهم وخواتمهم ودبابيسهم معارة تتوق الوصف ، ويتلطف مزوج بالمرح . وتزيد فتخلع ملابس الحاضرين وصديقاتهم وأحذيتهم ، وتتلطف البرانيط ثم تردّها الى أصحابها ، تعبت بشوارب الرجال ثم تصلحها ، وأحياناً تضرب بعض الحاضرين بجمع يدها (باليونية) إذا اغتاظت من شيء .

«اليد التي تأتي بهذه الأمور غليظة ودبيرة (وقد لوحظ أن يد الوسيطة صغيرة) ، وتلك اليد لها أظافر كبيرة ، وهي رطبة ، وتنتقل نجاة من درجة الحرارة العادية الى البرودة الجليدية للمحنت ، بحيث تحدث عند ملامستها القشعريرة . وإذا أراد أحد أن يمسها ، قبلت أن يقبض عليها وأن يفحصها بعناية ، متى سمح بهذا الفحص النور الموجود بالحجرة ، ثم ترفع وتبقى معلقة في الفضاء كأنها مقطوعة المصم ، وتظهر إذ ذاك كالأيدي الخشبية التي تستعمل للدلالة على الحوائث التي تبين القفزات .

«إني أقسم لك بأني خرجت من فار (سبرسيه) (١) هادئ البال . وبعد أن تحلصت من هذه السحريات استعصت كل ما أثر في نفسي منها ، وانهيت الى أني كذبت نفسي وإن كانت شهادة حواسي تؤكد لي أني لم أكن واقعا تحت تأثير غرور أو وهم . والى جانب هذا توجد أكداً من مؤلفات أشهر المجريين من القدامى والمعاصرين ، لا فائدة في تسميتها ، تشهد بصحة هذه الخوارق وتؤيد الناحية الواقعية منها .

«في أثناء هذه الجلسات تحدث دائماً أشياء جديدة وغير منتظرة ، وتنتهي بتبادل السلام وبالمصافحة بالأيدي ، (وهذا نادر) ، مع أشخاص كاسين بالاقشة ، يظهرون للمجريين ثم يختفون كالظلال في مدى هنبهة قصيرة .

«ولا يمكن أن تنسب هذه الأمور الخارقة للعادة الى الشعوذة ، ولعلك تقول بوجوب الاحتراس من التديليس ، وبفتيش الشخص الذي أنا بصده تفتيشاً دقيقاً ، لمنع وقوع أي ختل أو تزوير ، فأعلم أن الحوادث التي تحدث لا تتفق دائماً ونوع الاحتياطات التي يتخذها المحاصرون . وفي هذا سر يجب البحث في كشفه ، فانه يجب أن يعتبر باس الشخص الذي تحصل على يديه هذه الخوارق ليس هو المتصرف فيها . إذعنا لامشاحة فيه أن هذا الشخص فيه غامة إحداثها ، ولكننا لا نتحدث إلا بتدخل عامل مجهول .

«يلتج من كل هذا صعوبة عظيمة في دراسة أساس هذه الشعوذة المهيبة للعقل ، وضرورة حمل سلسلة من تجارب لجمع عدد منها يصلح لتسوير عقول المخدوعين ، وكسر شريرة الخصوص الذين ، كما هو معروف ، ينكرون فصل العقول التي جرتها من قبل . هؤلاء الخصوص الذين يدعون اكتشاف القوى الطبيعية الخفية استناداً الى قرينة بسيطة . فغرام من مجرد سقوط فتاحة على الأرض ومن حركة البندول (الرقاص) يستنتجون السواميس الكبرى التي تعمل في الكون . «إذا تقرر هذا فإليك دعوتي للترال ، فإذا لم تكن قد كتبت العبارة التي اقتبستها منك لمجرد اللذة الكتابية ، وإذا كنت تحب العلم حقاً لذاته ، وإذا كنت متزها عن الآراء الموروثة ،

(١) سبرسيه ساحرة مشهورة كانت موجودة قبل الميلاد بنحو ألف سنة ، يصر بها التل في قلب الاعيان .

أنت أيها العلامة الأول للأمراض العقلية في إيطاليا كلها ، تفضل فأبرز لي في الميدان وكن مقتنعا بأنك ستنازل رجلا قويم المذهب كريم الشيمة .

« فإذا استطعت أن تنقطع عن أعمالك أسبوعا ، وأن تترك البحوث العزيزة عليك ، فبذل أن تمضي ذلك الأسبوع في الحلاء ، عين لي مكانا نجتمع فيه ، ونخبر الوقت الذي تستحسنه لأقدم لك فيه ساحرتي المذكورة .

« واتخذ حجرة لا يدخلها غيرك قبل التحرية ، وضع فيها ما تريده من المأخذ والآلات الموسيقية ، وأوصد الباب بالأقفال . ولست في حاجة أن أقدم لك تلك السيدة في حلة الفردوس الأرضي ، لأن هذه الحواء الجديدة لا تصلح لأن تنتم من الشعبان الذي خدعها بإيقاعها في الفتنة .

« وسيحضرننا أربعة رجال كما هو المألوف في كل مازلة منطبقة على قواعد الفروسية ، تختار أنت منهم اثنين لا أراها إلا ساعة الصدام ، وأنا أختار الاثنين الآخرين .

« ولم تُشترط قط شروط أفضل من هذه بين فرسان الخوان المستدير (١) . ومن الواضح أن التجربة لو أخفقت فلن أعزوها إلا إلى حكم القدر . أما أنت فستحكم على باني مصاب بالهذيان المرضى ، وإني أرجو أن أنشئ من أوهامي . ولكن إذا تكلمت جهودا بالجناس ، فإن استقامة أخلاقك ستفرض عليك كتابة فصل تشهد فيه بدون لف ولا كتمان ولا سوء فهم ، بصحة هذه الطواهر الخارقة للعادة ، وتبعد بأمك تحاول البحث عن علل حدوثها .

« فإذا رفضت هذا النزال ، ففسر لي هذه العبارة وهي قولك : « هذا القرن غير مستعد » . لا مشاحة في أن هذه العبارة يمكن أن تنطق على العقول العامة ، ولكنها لا تنطق على رجل كلومروزو تتوجه إليه نصيحة (دانتة) وهي : « الشرف يجب عليه بسلاح الحقيقة أن يطبق شفي الكذب »

هذا ما كتبه الأستاذ أركول كيايا إلى الأستاذ سيزار لومبروزو ، وكلاهما من أقطاب العلم في إيطاليا ، فلم يرفع لومبروزو هذا الكتاب رأسا ، ثقة منه بأن هذه الخوارق لم تخرج عن كونها مخارق ، ولكن حدث أن رجال العلم الإيطاليين والفرنسيين والانجليز والالمان والبولونيين ، اهتموا بفحص الوسيطة التي ذكرها الأستاذ كيايا ، ونشروا نتائج بحوثهم على رؤوس الأشهداء ، فأغرى هذا الصوت العلمي الاجماعي الأستاذ لومبروزو على الشروع في بحث هذه الخوارق ، ففعل ، وبذل كل محاولاته العلمية في إثبات تدليسها فلم يفلح ، فكتب ممترا بخطه الأول . وسننشر اعترافه في الجزء التالي لهذا .

وبعد فقد أنقذ الله العقيدة في العالم الروحاني بهذه المكتشفات الجديدة ، وهي ليست

(١) الخوان : هو الترابزة وقد جرت عادة الجريين للشئون الدسيسة الاجتماع حول خزان ووصع أيديهم عليه .

بجديدة ، فقد لازمت الانسانية من أول نشوئها ، ولكن العلم الطبيعى هو الذى شكك فيها منذ ألى سنة ، وكان تشكيكه محصورا فى بعض العلامة من قاعدته ، فلما استبحر وراحت مادته ، وطمأ أهل أنهم قد ذهبوا الى جميع مساتيره ، عم الاتحاد جمهورهم ، ونشروا آراءهم بين الدهماء ، فذاع بين أكثر المتعلمين . ولولا أن الله تدارك الناس بهذه الآيات البالغة ، لبلغت الكبرياء برحال العلم حدا لا يطاق ، ولعم الاتحاد جميع الطبقات .

وقد أحسن العلامة الفرنسى الكبير الكونت دوجاسباران حيث قال فى كتابه (الأخوة المتحركة) بعد دراسة علمية مدققة لهذه الحوارق . قال :

« فى الوقت الذى بلغت فيه كبرياء العلوم الممحصنة الى حد لم تبلغ اليه من قبل ، وفى العهد الذى أ كثرت فيه من مكتشفاتها ، وحيل لها أنها قد أدركت جميع مساتير الخليفة ، نشأت مشاهدة صغيرة منفصلة للعلماء لم تكن متفارة ، ولم تقبل الالتئام مع أى نوع من أنواع المعارف الرسمية . فهل يعمد الى تغيير نظام هذه الأنواع العلمية لأجل هذه المشاهدة الصغيرة ؟ وهل يقل العلماء أن يتنازلوا عن عصمتهم المزعومة ؟ وهل يعترفون بجهلهم وبأن معلوماتهم قاصرة محدودة ؟ لا لا ! فأهون من كل ذلك أن يتنازلوا هذه المشاهدات الجديدة حقها فى الوجود . فلا ينبغى لها أن توحده . وعليه فهى ليست بموجودة ، وليس لها محل من هذا العالم . فان المجامع العلمية التى تعرف كل شئ ، وتفهم كل شئ ، لم تعرف ماذا تفعل بها . فتصور بعد ذلك هل من الصعب أن يثور ممثلوها على هذه المشاهدات ، ويؤلبون الجماعات الجاهلة عليها ، مع الاستمرار فى الاعلان عن أنفسهم أنهم وخدم الرجال العقلاء للدرجة القصوى ! »

نقول : يعبر الكونت دوجاسباران عن هذه الحوادث (بالمشاهدة الصغيرة) ، وهذره أنه يتسكلم عنها على عهده فى سنة (١٨٥٤) أى قبل نحو خمس وعشرين سنة ، أيام كانت قاصرة على حركات الأخوة والتحايل مع صغار العالم الروحانى بواسطة القرع عليها . ولكن فى مدى هذه البرهة الطويلة من الزمن (١) قد تطورت هذه المشاهدات المخارقة ، وبلغت الى حد لنت اليه نفاذ قطاب العلم فى كل أمة ، كما يتضح ذلك من الفصل الذى كتبناه فى المجلد الثامن من هذه المجلة تحت عنوان (استحضار الأرواح فى أوروبا) . وسيرى القراء مما نشره هنا أن هذه الحوارق قد أثبتت بالأدلة المحسوسة أن وراء عالمنا هذا عالما محجوبا عنا ، وأن فيه كائنات مجردة عن المادة لها عقل وإرادة ، ولا يهمنا نحن أن تكون تلك الكائنات أرواح الموتى أم حنة ، أم عالما آخر . فالمدار على إثبات وجود العالم الروحانى الذى ينكره الماديون ويتشددون فى إنكاره ، وهو أساس الدين ، وبالله التوفيق .

محمد فرير ومجدي

(١) البرهة هى القطعة الطويلة من الزمن ، خلافا لفظ العامة من انها تعنى النقطة القصيرة منها .

شمس الهداية

سارت قافلة الرمن بالانسانية في صحراء الوجود حتى طال عليها الامل ، بين ليل دامن ونهار هجير ، تقيامن مرة في استواء على مهيج من الهدى يكشف عنه بصيص من نور الحق ، ينبعث من خلال سحاب متكاثف ، فلا يكاد يبصر حتى يظلم ، فتراجع لتسكن حتى تصبح ، وما كان إصباحها بأمثل من إمسائها ، وتستجيم حتى يذهب عنها الروح ، وما كان استحمامها بأهدأ لها بالاً من روعها ، وتركس أحايين فاذا رأسها في رجلها فتمشي الى الخلف مسرعة وهي تزعم أنها الى الامام تسير ، فاذا أشرقت عليها شمس الهداية لنضيء لفتها لها سبيلهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستشفوا نياهم ، وأصروا على المعنى إماماً في الضلال ، واستكبروا استكباراً حجب عن بصائرهم ضياء الحق بغيث من العناد مركوم ، فلم يبق لهم من الشمس إلا لقعها وصعيرها وم فيها كالحون ، يلهثون في اضطراب متدافع ، وبين أيديهم ظل ظليل ، وماء غير ، ودوحة من الايمان وارفقة الاقاني ، تترى اليهم دعوات المرسلين ليفيخوا الى جنة هرصها السموات والارض أعدت للستقين ، فلم تنمر دعواتهم إلا إعراساً ، ولم يردم إنذارهم إلا فراراً ، وم إذ ذاك في بُداعة أطوار الحياة بعد أن حبوا قليلاً من مهد النشأة الاولى ، وفرارة الطفولة ، في حضن الأبوة المعانة والادمية الممثلة ، وكأنهم نسوا أوجهلوا ففتنوا ، وم لا يزالون في دور الحضانة ، وأمعنوا في الحيدان عن الحادة ، فبعث الله اليهم نوحاً ثانياً ورسولاً وهادياً ليرشدكم الى سواء السبيل ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يردد صيحة الحق ، ويدعوهم الى الله حتى استيأس من استفتاح قلوبهم ، فصرح عن ضمير الغيب فيهم ، قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يردم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستشفوا نياهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلبت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمهدكم باموال ونين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً .

فلما بلغ كتابهم أجله ، وعاد آخر الطبيعة على أول القطرة فسحقها إلحاداً لا ينقي الى الايمان ، وسرى دم الاجداد في شرايين الاحفاد ، تبييننا للحكمة الالهية في اعتقاب داء الأرواح لمظاهرها في الأفراد حتى يصبح داء الجماعة المعصية ، وتحقيقاً للوراثة الفكرية المنحدرة من الأصول الى القروع — لم يبق لدائم دواء إلا الإفناء لتتجدد البذرة ، وتستقبل الانسانية من صمرها جيلاً جديداً لم تلحق به أوضار التقليد الآبله ، فكانت النهاية : وقال نوح رب لا تدنر على الارض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ،

في هذا الانقضاء العام لتلك الأمة من الداس حكمة التطهير والوقاية ، حتى يكون القحاح في مهابت أئمة الخير ، وأخصب للهداية ، وأحيا للحق ، كالتربة الطامية إذا انصب عليها وهيج الشمس يمس وتضامت في أحشائها حيويتهاء ومهدت قوتها الدافعة ، فإذا جادها المزن بصيب من السماء انساب إليها الشباب في نضرة الحياة « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنتت من كل زوج بهيج » .

أعلمني الله طوفان نوح عليه السلام على الأرض ليطهرها من كدورات الانسانية ، ولم يبق إلا بذورا صالحة للإبنيات صلاحية تتمشى مع ملائعتها الزمنية ، فاختصر هذا الذنب الانساني وأزهر ، ونقى وأتمر ، ونظر الى السماء بعد أن كانت دائم النظر الى الأرض ، وأعبد نفسه لدجومها ، وتغلها في أحجار ينحتها ، وتمايل من صنع يده يعكف لها ، فكان ذلك على ما فيه من حماية إيذاها بولادة العقل الانساني الذي أنف أن يتعبد للتراب لذاته ، وإن جملة مظهر عباداته ، وما يفنى هذا العقل وهو في طفرته ، والطفولة غريزة إذا رضيت ، عنيدة إذا أبت ، خير ما فيها طامة التقليد الساذج في إصرار الكهولة المتعالة على جهل افلا بد من رعاية مسددة بنبا السماء ، تقوده في سبيل معبدة ، لتكشف له عن بعض مظاهر الوجود ليري ويسمع ، فبحث الله خليفه ابراهيم هاديا ورسولا ، بمخاطب العقل في مهده ، وقد أمانه الله بالحس الصادق ليشهد على صدقه « وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، إني أراك وقومك في ضلال مبين » ليصرف أنظارهم عن الطين والتراب ، ويلفت نفوسهم الى آيات الله في الآفاق « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

هذه عظمة السماء مكواكبها وأفارها وشموسها أخرى وأجدر أن تكون منازل لرحال العقل في أسفاره ، ومسارح له في تجواله ، فهي منار الداجي ، وهداية الساري ، ولكنها مسخرة لقوة قاهرة ، قد وسما الفناء بعيسه « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لنى لم يهدينى ربي لا كونى من القوم الصالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم نى برى مما تشركون » إنما الألوهية بجمع الكالات ، سلطانها على الخليقة مسوط ، ومظاهر وجودها على السكون سابقة ، تمنح كل موجود عناصر وجوده ، فاليها وحدها يكون النظام والخضوع ، والتوجه بالعبادة والخشوع « إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

هكذا كان ابراهيم الخليل عليه السلام يأخذ بقومه سُعدا الى السماء ليحرد عقولهم من رقة التقليد الأرضي ، فتأبى عليهم طبيعتهم إلا الركون الى تراث الآباء « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ! وللعقل الانساني مهما كثف ومضات من النور خاطقة كانت تعاودهم

إذا صدمتهم صخرات الصلاة فيقرون بالحق في خيرات ، ولكنهم سرطاف ما ينكرون « فرجموا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » . والطبيعة غلابة قاهرة ، وهي فيهم كشيعة فائمة ، استولت على مشاعرهم ، وتحكمت في مداركهم ، فلم توقظهم قارعات الحجاج ، ولم تنبههم داويات النذر ، ولم يبق إلا الأسف الحزين على إهدار كرامة العقل الوليد « أفأترككم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » ! فكان جوابهم حماقة الضعفاء ، وجهالة الخلق « قالوا احرقوه وانصروا آلهمكم إن كنتم فاعلين » ، فرد عليهم كيدهم ، وكاد لهم في أمرهم ، وقلب عليهم شرهم ، وحمل منه آية الكرامة والرياسة الإلهية خليله « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الآخسرين » من بدائع سنن الله تعالى مع رسله الكرام أن جعل شرائعهم في أصدق صور الملائمة لطبيعة أمتهم التي بعثوا لهدايتها ، وجعل آياتهم متمشية مع الاستعداد الفكري لأولئك الذين خصهم الله بدعوتهم ، فقد رأينا مما قصه القرآن الحكيم أن أمة نوح عليه السلام لم تكن لضعف تفكيرها الفكري مستعدة لقبول الهداية الإلهية ، فكان جراؤها في آية رسولها ، وحق عليها الفناء ، وكانت أمة إبراهيم عليه السلام قد استقبلت من أمر العقل عقلاً ناشئاً لم ينضج ، وجادلت عن عقيدتها النفاذية حتى كشف لها الغطاء ، فأبصرت بإصدار الأرمذ في لحظات خاطفة ، ثم عادت الى مكانها من الحياة خاسرة ، وتركت الى الزمن يصهرها ، والى شموس الهداية توالى عابها إثراتها لتقتل بأشعة الحق حرائيم الباطل ، حتى يبقى الجسم في حصانة من الأمراض الطارئة ، ويستمد لقبول نوح من الدواء جديد .

ومن لطائف الحكمة الإلهية أن أبى الله آية الهدى وأصول الخنيفية بين تلك الأمة ، وجعل أفتانها العديدة تنفر من دوحه إبراهيم عليه السلام ، ليسرى من نفحها بين القينة والقينة سمات توقف إحساس الأمة ، وتنبه شعورها الى التمعن لصوت السماء من جديد .

يلحظ المتأمل في تاريخ البهوات أن انقطة التي كانت بين زمرى إبراهيم وموسى عليهما السلام هي أخطر نقطة في أفق الوحي الإلهي بمطالع شموس الهداية ، ولم يعرف فيما قصه الله عليهما في كتبه السماوية ، وفيما ذكره التاريخ القديم عدد من أنبياء الله ورسله الكرام أكثر مما كان في هذه الحلقة من الزمان . وهذا أيضاً من حكمة الله تعالى في الخلق ، تمكيناً للأسباب والدوافع من إفضاح العطرة في دور مراوحة العقل الانساني وخصوعه للتزوات المادية في أشكائها المختلفة .

فلما بعث الله موسى عليه السلام في هذا الدور من أطوار الحياة الى بني إسرائيل ، كانت الانسانية قد اتخذت سماتاً من التفكير العاقل الذي انجسه الى تعرف بعض ظواهر الوجود في صور شتى تعتمد في أصلها على الدين ، وظهرت بعض النظريات الفلسفية في الجنس الاغريقي

مستفادة من الدراسات المصرية التي كانت احتكارا لرجال الدين لا ينالها سواهم من بقية طوائف الشعب، وكان من أظهر تلك الدراسات مباحث القوى الخفية كالسحر والطلاسم وما إليها مما استخدم في تنويم العامة واستعبادهم تحت ستار الدين وسلطان الغيب، فظلت الشعوب على جهالتها، واستخدم العلم في إدلالها، وقد كان بنو إسرائيل الشعب المفصل من شعوب الانسانية حينئذ لما كان فيه من نتائج النبوات، ودلائل الهداية « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فصلتكم على العالمين ». فلما أهماهم الهوى، وأضلهم الطمع في الحياة الدنيا، واستعبدوا الحرص على الدوائق، صرف الله عنهم نعمته، وأحل بهم تقمته، وسلبهم عزمه، وساط عليهم فرعون يسوءهم الخسف والعذاب الاليم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فبعث الله فيهم موسى عليه السلام ليستقذهم من جبروت فرعون، وينقشلهم من وهدة العبودية التي فرضها عليهم كما فرضها على قومه، فاستخفهم فأطاعوه، وتآله لهم فعبدوه « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، إنه كان من المفسدين ».

أيده الله تعالى موسى بآيات من جنس أبرز معارفهم وما مهرؤا فيه، ففعلج بمعجزته على سحرة فرعون وعلماء قومه وفلاسفتهم، والعلم كشاف الحقائق، يسوق صاحبه الى مراتع الرى، ومشارع الحق، ويقوده الى منازة الهداية والايمان، فأمن السحرة لموسى إيمان العلماء الذين قدروا الحجة حق قدرها، وصموا بفطرم على سخافات فرعون، ولم يأبهوا لوعيده وتهديده، وأشرفوا على الحياة الدنيا فمبروها، فتصاغرتم أمامهم ذليسة، فكان حسبها ذما وتنقيصا في نظرهم أنها بين فكى الفناء تدور « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر، فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولا تملكنكم في جذوع النخل، ولتعلمن آينا أشد عذابا وأبقى، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا، ناقض ما أنت قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ».

أنجى الله بنى إسرائيل من عبودية فرعون، وخرجوا من مصر حائدين الى الأرض المقدسة، وفي تفكيرهم النواء وجهالة، فانهم ما كادوا يخلصون من تاليه فرعون حتى اتخذوا الى الشرك الوثنى في أحط مسوره، يطلبونه ديننا لهم « وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكثون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون. وقد عكفوا على عجل السامرى، وشبهوا الله تعالى وتقدس بخلقهم « فقالوا أرنا الله جهرة ». فقضى الله عليهم بالامناء الجزئى في الشبه أربعين عاما حتى تناكل فعل الزمن تلك الشجران الخبيثة التي نبشت في أرض الشرك الوضع، وبديد ذلك الجيل الناشئ في أحضان الوثنية، ويخرج جيل جديد يستطيع أن يفهم جلال الألوهية وقداسته التوحيد.

فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم أرسل الله إليهم عيسى بن مريم عليه السلام بشريعة روحية تقوم على التسامح المطلق ، وتحقير الدنيا والتزهيد السكلى فيها ، والدعوة الى النشرف والاستكانة لتنظامن تلك النفوس الحائرة ، ولكهم أوا وعاندوا ، وحرفوا كلمات الله عن مواضعها ، وهما يقتل المسيح ، فلم ينالوه ، ورفع الله إليه طاهرا مطهرا .

استقرت المسيحية الى جانب شريعة التوراة ، فاصطدم اليهود من جهة النظام الاجتماعى بدولة الرومان ، ومن جهة الشريعة والدين بالمسيحية الزاهدة ، ولكن المسيحية لم تلبث أن انتحل الآخذون بها عقائد وتقاليذ ليست منها ، فأخذ ملوكهم يستغلون اسمها فى بسط رواق العمودية القاسية على الشعوب المستضعفة ، كما استعالت من قبلها اليهودية الى رسوم اقتصادية مرابسة ، ودب الى دولة الرومان التاريخية داء الشيوخوخة والهرم ، كنتيجة لتلك الهزات العاصفة الداخلية ، والحروب الناشبة مع الفرس ، وفشو الترف واللهو بين خاصة الشعب وعامته ، فأخذت تزوى وتذبل ، حتى أدركها الاسلام على روبة من الرماذ المهيل .

كان هذا الجانب من العالم رقى جوانبه من الوجهة الفكرية والاجتماعية ، وقد صار الى ما صار اليه من التردى والاحدار فى هاوية الجهالة الفكرية ، والقوضى الاجتماعية ، والبلادة الدينية ، خصوصا لسنة الافناء والتجديد . أما الجانب الآخر فقد كانت فيه دولة الفرس جائمة على صدر الشرق بكسرويتها الطاغية ، تحت عوامل خطيرة تسوقها حثيثا الى الفناء . ومن ثم تلك العوامل حالتها الدينية الغربية العتيقة ، فديانة الفرس مجوسية بكاء ، تؤله الميران ، وقد طال عليها الزمن تحت نير تلك الديانة ، ففعلت فى تكوين نفسية الأمة فعلها الممى ، مما كان له أثر ظاهر فى حياة الأمة الفكرية ، فإذا كان الجانب الآخر من العالم شهد نظريات فلسفية لها قيمتها العلمية ، فإن الفرس لم تتكون لهم فلسفة خاصة عظيمة الأثر كفلسفة اليونان والرومان ، اللهم إلا نوع من التفكير تمثل فى خطرات الحكم والأمثال التى هى نتيجة صقل الذهن وإجالته فى حيايا الوحود . وأظهر ما كان لهم من الهببات الفكرية نهضة مصلحهم (زرادشت) ، لا يجذب فيها الباحث نظريات محددة الغرض ، قائمة الأصول والقواعد ، ومع ذلك فانها أيضا فلسفة موضعية لا مجال مطلقا لموازنتها بفلسفة أرسطو وأفلاطن وسقراط وسواهم من فلاسفة الجانب الغربى للعالم ، وكانت الفرس دائما إذا نهضت للنحل من عقيدتها الموروثة اضطربت اضطرابا عنيفا يدفع بها الى الوراء ، فهى حينما استقبلت مذهب (مائى) ومثنويته التى فلسفها بعض أتباعه الى نظرية (النور والظلمة ، أو الخير والشر) لم تستطع بناءه على قواعد علمية تقر به من الحياة العلمية ، فظل أشل كسيعا حتى هاجمه إياحية (مزدك) التى هدمت نظم الحياة ، وجعلت المال والنساء شركة شائنة بين الناس ، لا يقيد بها قانون ولا نظام ، ولا خلق ولا شعور ، فاضطربت الأمة الفارسية بهذا المذهب اضطرابا زلزل أركانها ، وأشعل فيها

نيران الفتن الجامحة التي خاض عمارها بعض ملوكهم الذين كانوا يحكون الامة حكما استبداديا قتل فيها النخوة والرجولة والكرامة الذاتية والاعتداد الشخصي ، مما أضعف شوكتها وفرق كلمتها ، فلم تستطع أن تدفع عنها عدوا جارحيا كان لها بالمرصاد ، وطعمت فيها الأمم ، وتذابب عليها جيرانها ، وتصدى لها العرب قبيل الاسلام في واقعة كانت أول تعبير عن القومية العربية الطافرة .

أظل القرن السادس الميلادي الوجود وقد أسدل ليل الضلالة على الحياة نوبا من الجبال قائما ، وتراءت ذؤبان الاستبداد في صور الملوك المنطهين والحكام المتحجرين ، تنكث بأشباح الانسانية المبعثرة هنا وهناك ، فاضطربت الأفكار ، وتبليت الخواطر ، وضعفت المزائم ، وفنيت القوى الفردية من مقومات المجتمع ، وطعمت معالم الديانات ، وفشت الضلالات ، وتمثلت حيوة الأمم في أشخاص الملوك الذين أوهموا شعوبهم أنهم من طيبة لا تجرى في أخاديدها خصائص البشرية ، وتأهلوا لهم فعبودهم ، وتحاموا عن مخالطتهم فقدسوهم ، وانطبع في مخيلة الأمم للملوك صور لا يرتفع إليها الخيال ، ولكن العقل الانساني في هذا الطور كان قد بلغ رصده ، ونكاملت خصائصه ، فتطلع الى منفذ من منافذ الهداية ، وأنى له والظلام كثيف ، والفطر فاسدة !

لقد عهد الناس من سنن الله معهم إذا اشتدت بهم الكربات ، وصاقت عليهم الممالك وعم الظلام أرجاء الارض ، أن يكشف عنهم كربهم ، وينير لهم سبلهم ، ويطلع عليهم شمس الهداية فتبدد بأشعة الحق ظلام الضلالة ، فتفترج الكربات ، وتتكشف الغمات ، وكانت بشارت الكتب السماوية تتوالى مبشرة بالمقصد الأعظم ، والمخلص الأكرم ، فاشرب العالم شرقه وغربه ينظر الى الآفاق ويرقب الآيات ، ويترصده الأنبياء ، فهل عجزت روما وأثينا بمالهما من قوة فكرية وفلسفة علمية ونظم مدنية عن إرسال أحد المفكرين والفلاسفة ليقبض الانسانية من وهدهدتها ؟ وهل عجز الشرق وهو مهد الديانات السماوية ، ومهبط الوحي ، ومطلع النبوة ، ومشرق الهداية وفيه فارس صاحبة القهر والسلطان ، وفيه اليهود أصحاب شراعة التوحيد ، عن تجديد عهده في الإصلاح الديني الكريم ؟ ! ويل للعقول من فلسفة روما وأثينا ، فانهما في الوقت التي كانت تقرر مدارسهما أعظم النظريات في الفلسفة الالهية والخلقية ، كانتا تريان أن الناس لم يخلقوا من طينة واحدة ، وأن بعضهم متاع يتصرف فيه مالكه بما يشاء من أنواع التصرفات ، حتى بالقتل والاحراق ! فأين المخرج ؟ ومن أين يكون الخلاص ؟

هناك في زاوية من الدنيا حيث لم تندس الفطر الانسانية ، في الجزيرة الحبيسة بمجاليها حيث الامة العربية قائمة في مرحلة من العالم ، سليمة التكوين ، قوية الشكيلة ، فنية الحياة ، شرما فيها جهالة ضالة ، وضلالة جاهلة ، كالصدا على وجه المرأة ، ليست محتاج في قبول الصور وانطباعها على أديمها إلا الى سقل وتنظيف . وهناك في أم القرى حيث البيت العتيق ، بين

وذيان مكة ووهادها ، وفي سفوح جبالها ، تقطن قريش ساذنة البيت ، وعامرة البلد الحرام ،
يخار إياها العرب في حكوماتهم ، وينفذون عليها في تجارتهم ، وينعنا كون الى فصاحتها
في بلاقاتهم .

هذا سيدها عبد المطاب يجلس على وسادته في ظل الكعبة المشرفة فتتدف عليه البشري
أن قد أقبل إليك وايد جديد ، اهتر قلب عبد المطلب فرحا ، وسمى الوليد « مجدا » ، فتهاست
قريش : ما هذا الاسم وايس في أسماء آبائه وأجداده ؟ فقال عبد المطلب : رجوت أن يحمده
في السماء . غناية من الله هي التي أتت على لسان عبد المطلب هذا الاسم الكريم ، لينتدق
ما أضمره الغيب لهذا الوليد من شأن عظيم .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم كما يولد الناس ، وشب كما يشبون ، ليس في أمره ما ينافر
طبيعة الحياة العادية ، أو يخالف قوانين النشأة الانسانية . وإذا كانت قد احتفت بميلاده
إرهاصات ترونها كتب السيرة فهي من قبيل إشعار الحياة وإعدادها للبعث من جديد ، بعد
نوم هميق في حوالك الصلال ، كأنما تقول الطبيعة بإرهاصات : ها هي ذى شمس الهداية الخالدة
قد أذنت بإشراق ، فاستيقظوا لتسيروا في ضوئها الوهاج الى ذروات السعادة ، وأسنة المجد
والسيادة ، فلا استعباد بعد اليوم ولا عبودية لمن أبصر الضوء فخر نفسه من رقة الحياة
والضلالة ، ولا استبداد ولا فوارق بين أبناء الانسانية ، ولكن ستكون محبة وسلام ، وعدل
وإخاء ، وعطف ورحمة .

أربعمون ستة قضاها محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بين ظهراني قومه ، يعرفون مدخله
ومخرجه ، ومراحه ومغذاه ، ونشأته ومرياه ، وعشراءه وأصدقاءه ، لا يخفى عليهم من أمره
شيء ، لأنه لم يحاول أن يخفى على الناس شيئا من أمر حياته ، ولا كان ذلك في طمعه ، ولا حدثته
به نفسه . أربعمون عاما كان فيها طفلا ، وفقى ، وشابا ، ورجلا ، مات أبوه فلم يترك له مالا
يذكر ، وماتت أمه ولما يشب عن دور العبا ، فماش في كفالة جده شيخ قريش وسيدها
عبد المطلب كأعز ولده ، يراه ويحنو عليه حنو أب فقده قبل أن يراه ، ولما مات جده كان
في كفالة عمه وصنو أبيه أبي طالب ، وهو من تحار قريش الصارين في الاقطار ، فتعاقى به مرة
وسافر معه الى الشام ، ولقيه راهب بصرى ، وكان عليا يبشائر الكتب السالفة ، وعليها بمحمد
اليهود على من يتزع منهم راية التوحيد التي عزقوها ليميد اليها عزها ويعلى كلمتها ، لحذر عمه
عليه اليهود ، ورجع به معه بعد رحلة قصيرة وأبقاه بمكة مع أبناء ههومتته ، فلم يرض بحياة
البطالة والكسل كغيره من شباب مكة وفنبايتها ، ولكنه حمل وجاهد ليأكل من كسب يده ،
وآجر نفسه لرعى الغنم على قراريط يأخذها ، وله برعها من قبل ذلك عهد ، لأنه اشترك
مع إخوته من الرضاع في رعيها وهو في طمولته الطاهرة .

ثم اشتغل بالنجارة ، فكانت ميمون القيبة ، وافر الأرباح على قلة ماله ، فتسامع بأمانته
وصدقه وسمو أخلاقه أنرياء قريش وذوو تجارتها ، وأرادوه على العمل لهم في تجارتهم ،

ولكن الغيب كان قد أضمر الخديجة بنت خويلد الاسدية مجداً لا يدانيه في الحياة مجد ، فسبقت اليه وعاقدته على أن يعمل في مالها ، وسافر الى الشام ومعه غلامها ميسرة ، فرأى منه كمالا خافيا ورعاية ربانية حدث بهما سيده ، فرغبت فيه زوجا ، وخطبته الي نفسها ، وسنها أرمون ستة ، ومنه خمس وعشرون ، فاحتشار همه ، فأجابته وخطبها له ، وأصدقها من كريم ماله ، فكان لها عليه الصلاة والسلام خير زوج طير النساء ، وكان هذا الزواج المبارك عوناً له على هدوء نفسه والتمسك بربه في عزلة ومحابة لما كان عليه قومه من وثنية وجهالة ، فقد صرفه الله بمحكمته عن هوى الشباب وأنهارهم ، وبعث اليه التفاسيح والتشادق والتماظم بالأشعار في الأسواق . روى صاحب الشفاء أنه صلى الله عليه وسلم تحدث عن نشأته بعد مبعثه فقال : « لما نشأت بفضت الى الأوثان ، وبعث الى الشعر ، ولم أحم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك بحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بمدحها حتى أكرمني الله برسالته ، قلت لية لعلام كان يرعى معي لو أنصرت لي غنى حتى أدخل مكة فاستمر كما يسر الشباب ، ففرحت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف والمزاهر لمرس بعضهم ، فجلست لذلك ، فضرب الله على أذني ففمت فما أيقظني إلا مس الشمس ، ولم أفهم شيئا . ثم مراني مرة أخرى مثل ذلك » ولم تكن هذه المحابة عن جفوة منه لقومه ، ولكنها إنكار لمصيح عاداتهم وكرهية لعقائدهم . ولقد كان له بالخيرين منهم صلات اجتماعية وروابط إصلاحية تدل على ما كانت تنطوي عليه جوانحه من قاب مقبم بالرحمة والاحسان وحب الخير ، والدفاع عن الحق ، ورد المظالم انتصافا للظالمين ، فاشترك في (حلف الفضول) وتحدث عنه بعد البعثة فقال : « لقد شهدت مع صومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لأجبت » .

أما أخلاقه الكريمة في هذا الطور حسب الحياة أن تسمع الى قول الله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » ! ونرى عظمة أجل وأعظم من عظمة نفس تعيش في بيتات وثنية موبوءة برذائل جاهلية ، ثم لا يعاق منها بشع نعله شيء ، ويعترف له قومه أجمعون بهذه العظمة الخلقية حتى ارتضوه حكما بينهم في أحطر حادث في تاريخهم . ذكر رواية السيرة : أن قريشا اختلوا عند بناء الكعبة في الحجر الأسود ، أبهم برصيه في مكانه ، حتى كادوا أن يقتلوا ، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم ، فكان عبد الامين أول داخل ، فقالوا : هذا الامين ، رضينا ، فحسم نزاعهم بمحكمته ، وأرسمى الحجر بكرم يده ، وأرضى كل قبيلة صنيمه

الله أكبر ! حياة كالشمس الضاحية ، متصلة الحلقات ، معروفة العناصر ، يقف صاحبها وحيدا يدعو الى دين جديد يقب وجه التاريخ ويفار معالم الحياة ، ويسوى بين السادة والعبيد ، ويمحو الفوارق الجنسية ، ويفسر راية العدل ، ويقلل الانسانية من عنبرتها ، فاهده القوة التي أمام العالم أجمع تنادي به أن اخلع ثوب جهالتك ، وتعال الى أعمل عنك أوضار ضلالة

القرون الخوالي؟ إنها قوة الايمان بسمو العقيدة، وجلال المبدأ، سيطرت تلك القوة على شخصية النبي صلى الله عليه وسلم قصصنا الدنيا بحقيقتها وخطيرها في نفسه الى جانب دعوة الحق التي أرسلها بها، وتحمل في سبيلها ما يدك الجبال الراسيات، وما زاد على أن قال: « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون ». فلما تجمعت لدى قومه عوامل الذعر من سلطان الايمان أجمعوا أمرهم واستعانوا بقوام المادية، فقال كلمة الجلال السجوى لبشرهم أن المالم بإنسه وجنه وسمائه وأرضه لو اجتمع على أن يلفت قلبه عن دعوته لحظة ما استطاع الى ذلك سبيلا. والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته .

وكيف وهو لم يدع الى ملك أورياسة أو ثراء، وإنما يدعو الى الله الواحد الأحد، وطرح الدنيا تحت قدميه، وكان دعاؤه: اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واحشني في زمرة المساكين .

أكرمه الله بمعجزات باهرة خرقت قوانين الطبيعة وزقتها، فما تحدى الناس بها، لأنه جاء ليخاطب العقول، فكانت معجزته الكبرى الخالدة التي تحدى بها العالم أجمع كتاباً من الله هادياً يخرج به الناس من الظلمات الى النور، ويفتح به أعينا همياً وقلوباً غلغاً، ويرد على الانسانية روحها التي الظاهر، ويميد اليها إحساسها وشعورها وينبه مداركها، ويبلغ للناس قوانين العدالة في غير مصانعة لنفس، ولا محاباة لقراءة .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، وفي غير صفينة على عدو أو خصم « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، وفي غير اسطالة أوحيف: « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » « وجزاء سيئة سيئة مثلاً، فمن عفا وأصلح فأحره على الله » . ويعلم الناس قوانين المساواة الحقيقية، ومعاهد التفاضل بينهم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وحملناكم شحوباً وقبائل لنعرفكم، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » . « الناس سواسية كأسنان المشط — كلكم لآدم من تراب — لا فضل لأمري على محبي إلا بالتقوى أو بعمل صالح » . وبين لهم قيمة الاخاء والتعاطف، ويوثق بينهم رابطته « إنما المؤمنون إخوة » « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

تعالم سامية، وآداب حكيمة، وشرعة مهيبة جامعة تخيرى الدنيا والآخرة . هذا ما طلعت به شمس هداية محمد صلى الله عليه وسلم على الحياة، فما أهدأ الحياة بها، وما أسمى وأحلى ذكراها الخالدة ! فرحياً بربيع الهدى، وموسم النبوة، ومهيبة الكمال الانساني ومرتع الوحي الالهى، ومشرق شمس الهداية الابدية، ومطلع الحق الى يوم الدين ! اللهم إنا نسألك بما تحب أن تسأل به أن تصلى وتسلم على شمس الهداية محمد النبي الامي، وأن تبلغه منا أركي النعية وأكرم التسليم ؟

أحاديث الوفود في الاسلام

— ١ —

كثيرا ما يذكر التاريخ وفودا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على بعض خلفائه ، فيوجز المؤرخون فيما دار بينها وبين من وفدوا عليه من الأحاديث ، وقد يكون فيها الطريف المعجب ، أو الحكيم المبهذب ، فرأى حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ حسن خطاب الوكيل أن يتحرى ما دار من هذه الأحاديث بين الوفود والموفد إليهم من مصادرها الصحيحة ويطلع بها مجلة الأزهر . وهذه أولى كلماته :

لما كانت سنة تسع ودخل الناس في دين الله أفواجا ، تناهت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوفد عليه عروة بن مسعود الثقفي « منفردا » ليسلم ، وهو السفير الثاني الذي كانت قريش أرسلته سنة ست يوم الحديبية إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليثنيه عن عزمه ، ويخوفه من بطش قريش ، ويحول وجهته عن دخول مكة ، فكان من خبره أنه لما وصل إلى مصكر رسول الله ورآه المغيرة بن شعبه قادما ، قام من فورده ولبس أداة الحرب وسل سيفه ووقف وراء كنف النبي يرقب الحال ويسمع المقال . فما انتهى المجلس بعروة قال : يا محمد إن قريشا لبسوا جلود الغر ، وعاهدوا الله أن لا تدخلها عليهم غزوة أبدا ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : جئنا معتمرين لا محاربين .

فقال عروة : يا محمد كافي بك وقد لافيت قريشا وأسلمك قومك فتؤخذ أسيرا ، فأبى شيء أشد عليك من هذا ؟ ومد عروة يده وأمسك بها لحية رسول الله كمادة العرب في المناظرة مع التنظير .

عند ذلك صاح المغيرة بعروة : أخر يدك عن لحية رسول الله ! فلم يحفل عروة بقول المغيرة ومضى في حديثه وأمسك بلحية النبي صلى الله عليه وسلم . فضربه المغيرة بمؤخر السيف على يده وقال له : أخر يدك عن لحية رسول الله قبل أن لا ترد إليك ، فإنه لا يلبغى لمشرك أن يمسحه !

عند ذلك رفع عروة رأسه وقال للمغيرة : ما أفطك وما أغلظك ! ثم التفت إلى النبي وقال : يا محمد من هذا الذي قد آذاني من بين أصحابك ؟ والله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا شر منزلة ! فتبسم رسول الله . فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ فأجابه النبي : هذا ابن أخيك شعبة .

فقال عروة للمغيرة : ألسنت أسمر في غدرك ؟ فوالله ما غسلت يدي من غدرك إلا أمس ،
لقد أورثتنا المداوة في ثقيف (١)

لما لم يفلح في مهمته رجع الى قريش وقال يامعشر قريش : إن محمدا قد عرض عليكم خطة
رشيد فاقبلوها ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا . ففروا رأيكم ، يا قوم رأيت الملوك
ما رأيت مثل محمدا وما هو بملك ، ولقد رأيت الهدى معكروفا وما أراكم إلا مستصيبكم قارعة
فلم تبعأ قريش بمحمدا به عروة ، فانصرف الى الطائف ، الى أن كانت سنة تسع فوفد على رسول
الله وأسلم . فسأل رسول الله أن يعود الى قومه ويدعوهم الى الاسلام ويبين لهم أنه دين قيم ،
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنيهم قاتلوك .

فقال عروة : يا رسول الله إني أحب اليهم من أنكارهم . ولما جاء الطائف أشرف على عليته له
ودما قومه الى الاسلام ، فلما سمعوا مقالته قاموا الى أقواسهم وسهامهم ورموه من كل ناحية ،
فأصابه سهم فأرداه قتيلا ، فجاءه أحداهم وهو يتخبط في دمه وقال له متشفيا فيه : ما ترى
في دمك ؟ فأجاب عروة وهو يجود بنفسه : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها إلي ، وليس في
إلا ما في هؤلاء الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ترحل عنكم ،
فادفوني معهم ! ثم مات شهيد النصيح والاحسان ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

ولما دفنه قومه حسبا طلب ، قال قاتل منهم . لا طاقة لنا بحرب محمدا وأصحابه ، فأرسلوا اليه
من يفاوضه في إسلامنا على شروط نبلغها اليه . فاتفقوا على أن يرسلوا الى النبي خمسة من أشرفهم ،
فلما دنوا من المدينة نزلوا قنطرة بها قوجدوا المغيرة بن شعبه برعى في نوبته وكاب رسول الله
ومرحه ، وكانت رمايته نوبا بين أصحابه ، فلما رأهم المغيرة وسألهم عما جاءوا من أجله ، ترك الركاب
ونشط في السير ليخبر رسول الله بمقدمهم عليه ، فلقبه أبو بكر رضى الله عنه فقال له : ما الخبر ؟
فقال المغيرة : هذا وقد ثقيف جاء ليسلم . فقال له أبو بكر : أقسمت عليك بالله لا تسبقني الى
رسول الله حتى أكون أما الذي أحدثه ا فقال المغيرة : لك ذلك ، ورجع . فلما دخل أبو بكر
وأخبر النبي بمقدم وفد ثقيف ، أمر النبي بأن يكونوا في خيمة في المسجد ، وأن يكون السفير بينه
وبينهم خالد بن سعيد بن العاص مدة إقامتهم حتى تتم مهمتهم ، وأمر بأن تولم الولا ثم ضيافة
منه وكرما . فكانوا إذا ذهبوا الى الطعام لا يأكلون إلا إذا أكل خالد بن سعيد أولا ، ثم أبلغوا
السفير شروطهم ، وهي :

(١) أن يدفع لهم النبي الملات ثلاث سنين .

(٢) وفي حين هدمها يكون بأيديهم .

(١) والندوة هي أن الغيرة كل قتل ثلاثة عشر رجلا من ثقيف في حاضيت قبل أن يسلم ، وكانوا قدموا معه
على ملك فاعطاهم عطاء وافرا فرأى القوم حرمان الميرة من نصيبه ، صبر حتى ثملوا من الخمر وهذا عليهم قتلهم .

(٣) وأن ينفهم من الصلاة .

فلما أبلغ خالد بن سميد إلى النبي ما اشترطوه ، أمره بأن يبلغهم ما يأتي :

(١) أما الإبقاء على اللات فلا يكون أبدا .

(٢) وأما كسرهما بأيديكم فسنعفيكم منه .

(٣) وأما إعداءكم من الصلاة ، فلا خير في دين لا صلاة فيه .

فلما استأسوا منه خلصوا نجيا ، فقالوا : نقبل وندخل في دين الله مخلصين بلا قيد ولا شرط . وتم إسلامهم وطلبوا من النبي أن يبعث معهم من يؤمهم ، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكانوا قد تركوه في حراسة ركايبهم لأنه كان أصغرهم سنا . وكان من خبره أنه لما قدم معهم كان يذهب خفية إلى رسول الله ، وأسلم وتعلم منه فرائض الدين وأحكامه ، وبلغ من حرصه أنه إذا لم يتيسر له مقابلة الرسول كان يتوجه إلى أبي بكر ويتعلم منه . فلما أذعن أصحابه للإسلام أظهر إسلامه وحاله ، فكان نصيبه أن أمر عليهم لعلمه يدينه وأحكامه ، ولما رجعوا إلى قومهم مبشرين ومنفرين أرسل النبي صلى الله عليه وسلم وراءهم أبا سفيان والمغيرة ليتوليا هدم اللات ، فقال المغيرة لأبي سفيان : تقدم أنت واهدما . فأجاب أبو سفيان : بل تقدم أنت فهم قومك . ولما علاها المغيرة بالمعول قام فريق من قومه (وهم بنو معتب) يحرسونه خشية أن يصيبه ما أصاب عروة من قبل ، فلما هدمت نظر إليها أبو سفيان وقال : واهأ لك ، واهأ لك !

ثم قدما على رسول الله بعد أن أخذ المغيرة مالها وحليها ، وقصى من ذلك المال دين هروة والأسود ابني مسعود بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ؟

مسند خطيب الوكيل

البيان زين للرجال

فيل لبزرجهر : أي شيء أستر نفسي ؟ قال : عقل . قالوا : فإن لم يكن له عقل ؟ قال : فقال . قالوا فإن لم يكن له مال ؟ قال : فأخوان يعبرون عنه . قالوا : فإن لم يكن له إخوان ؟ قال : يجلس صامتا .

وقال شاعر :

وما حسن الرجال لهم زين إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه له وجه وليس له لسان

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

وقفنا بالقراء في البحث السابق عند الكلام عن وقف المقول بعد الاقاضة في وقف العقار وما تلاحق فيه من أوجه الخلاف حول شروطه المصححة له .

والآن نحاول في شيء من البسط أن نعرض لوقف المقول استقلاً . وقد تصاربت فيه أقوال علماء الفروع ، فلم عن ذلك تضارب أحكام المحاكم الشرعية ، واختلاف وجهة النظر بين الباحثين تبعاً لاختلاف المحققين من العلماء .

فن المقول الذي جرى العرف بوقته الشجر والبناء ، فقد رجح الامام محمد جواز وقفهما ، وشروط لذلك الجواز أن تكون الأرض القائم عليها البناء والشجر موقوفة ، تحقيقاً لمعنى التأييد المقصود ، سواء أكان الواقف لتلك الأرض هو الواقف لها أم غيره هو الواقف لها ، على شريطة أن تكون الأرض الموقوفة في يد واقف الشجر والبناء من طريق الاستحكار ، وهو عقد إجارة يقصد به استبقاء الأرض مقررة للغرس والبناء أو لأحدهما في يد المستأجر مادام يؤدي إلى المؤجر أجر المثل . ويتنى على ذلك الفرع عند محمد رضي الله عنه أنه لو كانت الأرض التي أقيم عليها البناء والشجر مملوكة للواقف يومئذ على سبيل العارية أو الاستئجار ، وقع الوقف باطلاً لاتقاء التأييد المطوى في نوايا الواقفين ، ضرورة خروج الأرض عن ملكية الواقف بعد موته ، واحتمال طلب ورثة الميت نقض البناء واقتلاع الأشجار المغروسة ، أو احتمال طلب المالك للأرض هدم البناء واقتلاع الشجر بعد استرداد العارية وانتهاء مدة الإجارة أو فسخها في خلال المدة .

وجلى مما سبق بيانه أن الأرض المملوكة إذا قررت للاحتكار في يد واقف البناء والشجر صح وقف ما يفرس فيها من شجر ، أو ما يقيم عليها من بناء ، لنحقق معنى التأييد المقصود حينئذ فيها . ويظهر أن العلماء استثنوا تلك الحالة لأن الأرض وإن لم تكن موقوفة بالمعنى الفقهي ولكنها محكرة بالقدر الذي يكفل استمرارها وأبديتها ، فصح أن تفرس فيها أشجار ويقوم عليها ساء بطريق الوقف تبعاً لهذا التحكير .

لكنهم بعد ذلك اختلفوا في جواز وقف البناء والشجر على الجهة التي وقفت عليها الأرض ، فشرط قوم منهم أن تتوحد الجهة الموقوف عليها في الأرض والبناء والشجر ، ورحح آخرون القول بعدم التعين للجهة التي وقفت عليها الأرض ، وبالتالي بعدم التزام أن توقف الأشجار والبناء على الجهة التي وقفت عليها الأرض ، فيجوز للمحتكر أن يقف البناء والغرس على نفسه ثم للقراء

من لعمدة ، كما يجوز له توحيد جهة الوقف ، وعند اختلاف الجهة يجب على جهة وقف البناء والغرس دفع أجر الحكر الى جهة وقف الارض ، وهو أحر المثل للأرض خالية من البناء . ويتفرع على ما سبق أنه لو بنى المحتكر في الأرض الموقوفة المستأجرة مسجداً ، وقع البناء صحيحاً ، وفي هذه الحالة يكون أجر الحكر في خلال مدة الاجارة على المستأجر ، فإذا انقضت تلك المدة كان أجر الحكر مستحقاً في بيت المال .

ثم إن العلماء بهذه المناسبة عرضوا في شيء غير قليل للكلام عن حكم الغرس والساء في الأرض الموقوفة ، وافترضوا حالات ثلاثاً تنظم هذا الحكم ، فقالوا : الغرس للشجر والمقيم للبناء في الأرض الموقوفة إما أن يكون هو الواقف أو الناظر على العين الموقوفة أو غيرها ، فإن كان هو الواقف وكانت نفقتهما من مال الوقف أو كانت نفقتهما من مال الواقف وصرح بذلك في إشهاد وقفه ، انحاز الغرس والبناء الى جهة الوقف ، وجرى عليهما ما يجري على الأرض الموقوفة من الأحكام . أما إذا كانت نفقتهما من ماله ولم يصرح في إشهاد وقفه بالحيازها الى جهة الوقف فهما داخلان قطعاً في ملكيته سواء صرح بملكيته لهما في إشهاد وقفه أم أطلق ، وذلك مطرد الحكم في تلك الحالات الثلاثة .

غير أن علماء الوقف استثنوا حالة أخرى فيها إذا غرس الواقف شجرة في مسجد ، فإنها تكون في تلك الحالة منحايزة الى جهة المسجد ، ضرورة إجماع علماء الفروع على أن ما صنعته في المساحد من أشجار وزروع لا يكون ملكاً لأحد . وعليه فإن كانت تلك الشجرة المفروسة ذات ثمار مأكولة فلا يباح الأكل منها إلا إذا تعلم من طريق صحيح أن الواقف غرسها للسبيل وهو الوقف على العامة . أما إذا غرست لظليل المسجد ، أو جهل قصد الواقف من غرسها فلا يباح الأكل منها ، بل تباع ثمرتها ويصرف ثمنها في مصالح المسجد .

وقتل صاحب تنقيح الحامدية وتابعه العلامة ابن عابدين : إن كان صاحب الغرس والبناء هو الناظر على الوقف فالغرس والبناء تابعان لجهة الوقف طبعاً في جميع الأحوال ، ويستثنى من ذلك ما إذا غرس أو بنى من ماله وأشهد على ذلك وقت البناء والغرس أنه يبنى ويغرس لنفسه لا لجهة الوقف فإنه يكون حينئذ ملكاً خالصاً له .

لكن العلماء رتبوا على تلك النظرية حالة أخرى ذات شقين فقالوا : إن كانت إقامته للبناء أو غرسه لشجر صاراً بمصلحة العين الموقوفة فلا يمكن من أحدهما ، كما لا يمكن من الانتفاع من بناءه أو غرسه ، لأنه يعتبر متمدياً في تلك الحالة ، ومضياً لماله ، لأنه وضع الغرس أو البناء في غير ملكه الصالح لملكية على حالة تدعو الى الإضرار بمصلحة الوقف التي اعتبرها الشارع مصدراً لجهة يراد أن ينقطع ، ويؤمر من القاضي بالترصص حتى ينهار البناء وتموت جذور الشجر ، وإذا ذاك يرد اليه قصه وحطبه ، ويبقى عليه بعد ذلك لومة الجحانة ،

لأنه أخل بتطبيق شروط الواقفين ، وبما يجب أن يراعى في الوقف من التأيد ، ويعتبر في هذه الحالة ناقصا يجب عزله . وعلى تلك النظرية درجت المحاكم الشرعية .

أما إذا لم يضر الغرس أو البناء بطبيعة الأرض الموقوفة منع من التمكن من الغرس أو البناء ، ضرورة أنه حين يقيم بناء أو غرس أشجارا يكون هذا التصرف منه واقعا في غير ملكه فلا يمكن منه بادي ذي بدء .

وإن كان الباني أو الغارس غير الواقف وغير الناظر وهي الحالة الثالثة ، كان البناء والغرس متحازين الى جهة الوقف على شريطة أن تكون بمقتضاها من الوقف ، سواء بنى أو غرس لنفسه أو أطلق ، لأنه لا يملك في هذه الحالة أن يبني أو يغرس من مال الوقف ، أو كانت بمقتضاها من ماله وقد ذه الناظر بذلك ليرجع على الواقف بما أتقته ، أو لم يأذن لملكه بنى أو غرس لجهة الوقف . فإن غرس أو بنى لنفسه بدون إذن ناظر الوقف فالغرس والبناء له ، وأمر في هذه الحالة بتزعهما إن لم يضر بالأرض . ولناظر أن يشترطيهما على حساب الوقف إن رأى المصلحة في ذلك بشئ أقل من قيمتهما منزوعة ملكيتهما .

أما في حالة ما إذا أضر الغرس والبناء بترية الأرض أمر الباني أو الغارس من القاضي بالتربص حتى ينهار البناء أو تموت أصول الشجر ، وفي هذه الحالة ترد اليه الأحطاب والانقاص لأنه هو الذي ضيع باختياره ماله بالنعدي على أرض لا يمكنها .

وفي جميع الحالات التي يكون الغرس والبناء ملكا لمن أحدثهما وأمر بالتربص حتى ينهار البناء أو تموت أصول الشجر ، لا يكون شغل الأرض بهما حائلا دون تأجيرها ، ضرورة أنها وضعا في الأرض الموقوفة بغير حق شرعي ، فلا يد لصاحبها عليهما . وفي هذه الحالة الأخيرة يتم الأجر قسمة تناسبية بين الأرض خالية من البناء بحسب قيمتها ، وبين البناء والغرس بحسب قيمتهما ، فما أصاب أرض الوقف من ذلك التقسيم فهو منحاز الى جهة الوقف ، وما أصاب الغرس والبناء فهو ملك للغارس أو الباني .

بقي أن علماء الوقف فصلوا ما يحور بيعه وما لا يجوز من الأعيان الموقوفة ، واحتفظوا في مجموع نصوصهم وفروعهم بأحكام الوقف لا تتعداه ، ونوعوا في فروع الأعيان الموقوفة تنوعا يشهد لهم بطول الباع وسعة الاطلاع ، مما سنوفيه حقه من البحث في أعداد تالية ، إن شاء الله .

هــبـسـطـر

المحامى الشرعى

الجامع الكبير : للإمام أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني :

الإمام محمد بن الحسن أحد صاحبي أبي حنيفة كان من أفذاذ الفقهاء ، قال الإمام محمد بن شعاع الثلجي في جامع الكبير الذي نحن بسبيل تقريره « ما وضع في الإسلام كتاب في الفقه مثل جامع محمد بن الحسن الكبير » وقال العلامة الكوثري : « والحق أن هذا الكتاب آية في الإبداع ، ينطوي على دقة بالغة في التفرع على قواعد اللغة وأصول الحساب ، خلا ما يحتوي عليه من المفرد على دقائق أصول الشرع الآخر ، فلهذه ألفة ليكون محكا لتعرف نهاية الفقهاء ، وتيقظهم في وجوه التفرع ، الخ الخ » .

وليس بعد هذه الشهادات فيه قول لقائل . وقد مرنا أن لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر اباد الدكن بالهند قد عنيت بطبعه في مصر طلبا أنيقا معجبا بهمة وكيلهم فضيلة الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان . فنشكر لهذه اللجنة جهدها . أكثر الله من أمثالها .
ويطلب الكتاب من وكيل اللجنة لعطفة الأمير رقم ١ بالأزهر ومن مكتبتى الحلبي والمكتبة التجارية .

تحفة الأحياء وبغية الطلاب : في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات :

هو كتاب تاريخي يقع في أكثر من أربعمئة صفحة يذكر تاريخ الخطط والمزارات والبقاع المعروفة مما يشوق الباحث أن يعرفه ، وهو من وضع العلامة المؤرخ أبي الحسن نور الدين علي بن أحمد السخاوي الحنفي . وقد عني بتصحيحه والتعليق عليه كل من صاحب الفضيلة الشيخ محمود ربيع المدرس بالأزهر ، والأستاذ حسن قاسم مدير مجلة هدى الإسلام . وفي الكتاب طرائف يحسن الاطلاع عابها ، وفيه تراجم كثيرة ربما عر وجودها في كتاب آخر .

منار الرشاد :

وضع حضرة الأستاذ إبراهيم السيد اسماعيل ابن القاش المدرس بمدارس الحكومة المصرية كتابا بهذا الاسم ضمنه مباحث همة في العلوم الآلية والدين والطبيعة والفلك والروح وما يتصل بها من الرؤيا واللاهوت والمراعاة والنبوة ، والمراد من ذلك أن يضع كتابا في الترشيد يخدم الباقية فيما يفيدهم في أمر دينهم ودنياهم .

وقد عني المؤلف بطبعه طلبا متقنا ، وحلى بعض فصوله بالصور العلمية ، وهو يقع في عشر صحف ومائتي صفحة ، فنشكر له هديته .

جمهرة وسائل العرب : في عصور العربية الزاهرة :

هذا كتاب جليل القدر كانت سلسلة المطبوعات العربية في حاجة ماسة إليه ، فاهيك

أنه يشتمل على رسائل ثمعرب في زمن الجاهلية وصدر الاسلام . فيه كتاب المنذر الأكبر ملك الحسيرة لكسرى أنوشروان ، والملك عمر بن هند الى عامله بالبحرين ، وعبد العزى ابن امرئ القيس الكلبي الى قومه ، وعدي بن زيد العبادي الى أخيه ، وكتاب النعمان بن المنذر الى كسرى ، وكتاب عبد المطلب الى أخواله يثرب ، وكتاب التحالف بين عبد المطلب وبين بني خزاعة ، وكتاب أكنم بن صبيح الى بني مله . هذا في عصر الجاهلية .

أما في عصر الإسلام ففيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المهاجرين والانصار واليهود بالمدينة ، وكتبه الى هرقل وكسرى والنجاشي والمقوقس والحارث بن أبي شمر النسائي صاحب دمشق ، والمنذر بن ساوى ملك البحرين ، يدعوم بهام وقومهم الى الاسلام . وهذه وثائق تاريخية مهم أن يجدها كل من يعنى بالبحث في الشؤون الاسلامية بمجموعة في كتاب .

هذا غير كتبه صلى الله عليه وسلم الى القبائل والى بعض أصحابه ، يليها كتب أبي بكر الى المرتدين والى عماله وقواده في ساحات الحرب ، وكتب عمر بن الخطاب ، وكتب عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب رضى الله عنهم ، وبعض الردود عليها .

هذا الكتاب على هذا الوجه يعتبر عملاً جليلاً كانت المكتبات العربية في أشد الحاجة اليه ، فنشكر حضرة مؤلفه الأستاذ المفضل أحمد زكي صفوت المدرس بدار العلوم ما بذله من جهد ، وما أنفق من وقت ، ومأناه من بحث . ونشكر كذلك لمكتبة السيد مصطفى الباني الحلبي إبداعها في طبعه ، وإحسانها في ضبطه .

يقع هذا المجلد في ٦٠٨ صحائف ، وسيليه ثان وثالث ورابع . نغيا الله هذه المهمة وألهم أهلها الثبات والمنارة .

نوافع الشباب : ملحق لجهة الهلال :

هو آخر ما وصلنا من الملاحق القيمة لجهة الهلال ، وموضوعه من أحل المواضيع ، وهو دراسة نفسية تحليلية لنوافع الشباب من جميع البيئات المالية ، فنجد فيه بجانب الاسكندر المقدوني وموزار ووليم بت ، مصطفى كامل وجاني دارك وغيرهم . وضعه حضرة الأستاذ أحمد قاسم جوده بكالوريوس في الآداب .

هذا الكتاب من أفضل الكتب التي ألقت حديثاً وأكثرها نفعا للشباب ، فانهم بالاطلاع على حياة النابغين من الشباب العالميين يتيقظ فيهم روح النشاط والمنارة للوصول الى مثل الغايات البعيدة التي وصل اليها أسلافهم من أفذاذ الناشئين . فنشكر لجهة الهلال عنايتها بهذه الموضوعات الحية ، ونرجو لها المزيد من التوفيق .

Zainab added that Umm Salamah also related to her that the Prophet (Allāh bless him and give him peace) used to kiss her when he was fasting, and that she used to perform the ghusal together with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) from the same vessel, when in a state of ritual impurity through sexual intercourse.

Chapter 22.

On a woman who assumeth for her menstruation a gown other than that worn when in a state of purity.

We are informed by Mu'adh b. Fadhlah, who had it from Hishām, through Yahyā, through Abu Salamah, through Zainab, the daughter of Abu Salamah, through Umm Salamah, who said:

"While I was once lying with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) under one bed-cover, my courses came upon me. I then stole out of bed and put on my menstruating-gown. 'Have thy courses come upon thee?' asked he. I replied that it was so. He then called me and I lay with him under the bed-cover."

قالت: وحدثنى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم، وكنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة.

— ٢٢ —

باب من اتخذ ثياب الحيض
سوى ثياب الطهر:

حدثنا معاذ بن فضالة قال حدثنا
هشام عن يحيى عن أبي سلة عن زينب
ابنة أبي سلة عن أم سلة قالت:

« بينما أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم مضطجعة في تحميلة حضت فانسلت فأخذت ثياب حيض فقال: أتفيسن؟ قلت نعم، فدعاني فاضطجعت معه في الحميلة. »

received it from Qatādah, who was told it by Mu'adhah that:

A certain woman¹ once asked 'A'ishah: "Should any of us make up the prayers she hath missed *during her courses*, after her purification?" "Art thou a Harūrite?"² asked 'A'ishah. "When we had our courses in the time of the Prophet (Allāh bless him and give him peace), he never ordered us to do so." Or—added Mu'adhah—"A'ishah said: "we used not to do so."

Chapter 21.

On sleeping with one's wife when she is in her courses and wearing her menstruating-gown.

We are informed by Sa'd b. Hafs, who had it from Shaibān, through Yahyā, through Abū Salamah³, through Zainab the daughter of Abū Salamah⁴, who related to him that her mother Umm Salamah said:

"Once while I was *lying* with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) under one bed-cover, my courses came upon me. I stole out of bed and put on my menstruating-gown, when the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) said to me: 'Have thy courses come upon thee?' I replied that it was so. He then asked me to join him under the bed-cover."

همام قال حدثنا قتادة قال حدثني معاذة:

«أن امرأة قالت ليعائشة: أتيجزى إحدانا صلاتها إذا طهرت؟ قالت: أحروريبة أنت؟ كنا نحيض مع النبي صلى الله عليه وسلم فلا يأمرنا به، أو قالت: فلا نفعله.»

— ٢١ —

باب النوم مع الحائض وهي في ثيابها:

حدثنا سعد بن حفص قال حدثنا شيبان عن يحيى عن أبي سلة عن زينب ابنة أبي سلة حدثته أن أم سلة قالت:

«حيضت وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الخميعة، فانسألت فخرجت منها فأخذت ثياب حيضتي فلبستها، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحيضت؟ قلت: نعم، فدماني فأدخلني معه في الخميعة،

1. Mu'adhah the narrator herself, who was considered one of the most learned faqīhs among the Tābi'is.

2. Harūrah is a village near Kūfah, where the Kharijites first made their pact against 'Alī. They were an extremely strict sect, who maintained that women should perform prayers in place of those missed during menstruation.

3. The son of 'Abd-ur-Rahmān b. 'Auf.

4. 'Abdullāh b. 'Abd-ul-Asad, the first husband of Umm Salamah the Prophet's wife.

whom she replied: "Do not hurry until you see the cotton come out white". By this she meant that they were then clear of their courses;

and on the daughter of Zaid b. Thābit having heard that certain women called for lamps in the middle of the night to see if they were clear of their courses and saying that the womenfolk of the *Companions* used not to do so, and blaming them for doing so.¹

We are informed by 'Abdullāh b. Muhammad, who had it from Sufyān, through Hishām, through his father, through 'A'ishah that:

Fātimah bint Abu Hubaish was subject to constant menstrual discharge and when she questioned the Prophet (Allāh bless him and give him peace) about it, he said: "It is only blood oozing from a vein, and not menstruation; so when thy period cometh give up prayer, and when it passeth perform thy ghusl and then make thy prayer."

Chapter 20.

A woman is not obliged to make up the prayers she hath missed during her courses;

and, Jābir and Abu Sa'īd related the words of the Prophet (Allāh bless him and give him peace): "She is remitted her prayer during her courses."

We are informed by Mūsa b. 'Isma'il, who had it from Hammām, who

قَتَّقُوا: لَا تَعْلَمُونَ حَتَّى تَرَيْنَ الْقَصَّةَ
الْبَيْضَاءَ، تُرِيدُ بِذَلِكَ الطَّهْرَ مِنَ
الْحَيْضَةِ،

وَلَمَّا سَمِعَتْ ابْنَةَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ
نِسَاءً يَدْعُونَ بِالْمَصَابِيحِ مِنْ خَوْفِ
الَّيْلِ يَنْظُرْنَ إِلَى الطَّهْرِ، فَقَالَتْ:
مَا كَانَ النِّسَاءُ يَصْنَعْنَ هَذَا، وَعَايَتْ
عَلَيْهِنَّ:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ حَدَّثَنَا
سُفْيَانُ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ:
أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ أَبِي حُبَيْشٍ
كَانَتْ تُسْتَحَاضُ فَقَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ذَلِيلٌ نَفْسِي
وَلَيْسَتْ بِالْحَيْضَةِ، فَإِذَا أَقْبَلَتْ
الْحَيْضَةُ فَدَعِيَ الصَّلَاةَ، وَإِذَا أُذْبِرَتْ
فَاغْتَسِلِي وَصَلِّي.

— ٢٠ —

بَابُ: لَا تَقْضِي الْحَائِضُ
الصَّلَاةَ،

وَقَالَ جَابِرٌ وَأَبُو سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَدْعُ الصَّلَاةَ:
حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ حَدَّثَنَا

1. Her blame was on the ground that lamp-light was not strong enough to enable them to apply this test with certainty, and accordingly they could not be sure that they were in a fit state to begin their fast. It appears that the question arose during the month of fasting. Zaid b. Thābit had several daughters, and the commentators consider it probable that Umm Kulthūm is the one meant here.

We are informed by Yahyá b. Bukair, who had it from Al-Laith, through 'Uqail, through Ibn Shihâb, through 'Urwah, through 'A'ishah, who said :

"We set out with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) on the Farewell Pilgrimage. Amongst us were some who assumed the ihram for the 'umrah, and some who did so for the Hajj. When we arrived at Makkah, the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said : 'Let him that hath assumed the ihram for the 'umrah and hath not an animal for sacrifice, leave it, and let him that hath assumed the ihram for the 'umrah, having brought an animal for sacrifice, not leave it until he have done so through the sacrifice of his victim; and let him that hath assumed the ihram for the Hajj, complete his hajj.' "

"Then," added 'A'ishah, "my courses came upon me, and I continued in that state until the Day of 'Arafah arrived, so that I had only assumed the ihram for the 'umrah. Accordingly the Prophet (Allâh bless him and give him peace) commanded me to loose and comb my hair, and assume the ihram for the Hajj, abandoning the 'umrah. I did so until I had completed my hajj, after which he sent with me Ab d-ur-Rahmân b. Abu Bakr, commanding me to perform a 'umrah instead of the one I had abandoned, starting from At-Tan'im."

Chapter 19.

On the appearance of the courses and their disappearance;

And on certain women having sent to 'A'ishah sachets containing cotton wads stained with yellow, to

حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت :

« خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فبينما من أهل بعزرة وبينما من أهل يحنج ، فقد مننا مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحرم بعزرة ولم يهد فليحليل ، ومن أحرم بعزرة وأهدى فلا يحل له حتى يحل ينحر هديه ، ومن أهل يحنج فليست حجة . »

قالت : فحيضت ، فلم أزل حائضاً حتى كان يوم عرفة ولم أهلب إلا بعزرة ، فأمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أنقص رأسي وأمشيط وأهلب يحنج ، وأنزله العزرة ، ففعلت ذلك حتى قصيت حبلي ، فبعث معي عبد الرحمن بن أبي بكر وأمرني أن أعتمر مكان عمرتي من التميم . »

بَابُ إِقْبَالِ الْمَحِيضِ وَإِدْبَارِهِ ، وَكَثْرُ نِسَاءٍ يَبْعَثْنَ إِلَى عَائِشَةَ بِالْذُرَجَةِ فِيهَا الْكُرْسُفُ فِيهِ الصَّفَرَةُ

Hishâm added: In all that there was no animal for sacrifice,¹ nor fasting, nor almsgiving.²

Chapter 17.

*Formed or unformed?³

We are informed by Musaddad, who had it from Hammâd, through 'Ubaidullah b. Abu baker, through Anas b. Mâlik, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said:

"Allâh (be He magnified and exalted) placed in charge of the womb an angel who saith: 'Lord, this is a drop of sperm; Lord, this is a clot of blood; Lord, this is a piece of flesh.'⁴ Then when Allâh willeth that this should be completely formed, the angel saith: 'Is it to be male or female? Wretched or blessed? What shall be its portion? And what its life-span?' It is then written thereon in its mother's womb."

Chapter 18.

On how a woman in her courses is allowed to assume the ihram for the Hajj and the 'umrah.

قال هشام: ولم يكن في شيء من ذلك هدي ولا صوم ولا صدقة.

— ١٧ —

بَابُ مُعَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُعَلَّقَةٍ:

حدثنا مسدد قال حدثنا حماد عن عبيد الله بن أبي بكر عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله عز وجل وكل بالرحم مملكا يقول: يارب نطفة، يارب علقة، يارب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ مما الرزق وما الأجل؟ فيكتب في بطن أمه».

— ١٨ —

بَابُ كَيْفَ تَهْلُ الْحَائِضُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ:

1. It does not necessarily follow from Hishâm's words that there was no sacrifice of victims, but the fact of the Prophet's sacrifice on behalf of 'A' isah did not reach him, for the Prophet had intended the sacrifice without mentioning it. (Al- 'Aim in loco).

2. It is clear from the two preceding hadiths that menstruation is no impediment to the performance of the various rites of the pilgrimage to Makkah apart from the circumambulation, which can be performed, however, after the ghusl. The loosening and combing of the hair was ordered here to set a commendable practice for women in their courses or after childbirth who should perform a ghusl in preparation for the ihram of the hajj.

3. This title is quoted from another hadith related by 'Alqamah, explaining the purpose of this hadith, namely to show that blood emitted during pregnancy is not menstrual, but appears only in the event of miscarriage, as implied by the word "unformed". Some commentators hold that Al-Bukhârî wished to give an exposition of the words of the title quoted from the Qur'an (Surah 22 : 5).

4. According to the stages of the development of the embryo.

Chapter 16.

On a woman loosing her hair when performing her menstrual ghusl.

We are informed by 'Ubaid b. Ismā'il, who had it from Abu Usamah, through Hishām, through his father, 'A'ishah, who said:

"We set off shortly before¹ the new moon of Dhul-Hijjah. Then the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) said: 'Let him that desireth to put himself in a state of ihrām for the 'umrah, do so. For my part, but that I had brought animals for sacrifice, I should put myself in a state of ihrām for the 'umrah. Thereupon some assumed the ihrām for the 'umrah and others for the Hajj. I was among those who assumed it for the 'umrah, and when the Day of 'Arafah arrived I was in my courses. So I complained to the Prophet (Allāh bless him and give him peace) and he said: 'Give up thy 'umrah, loose and comb thy hair, and assume the ihrām for the Hajj.' I did so, untill, when the night of Al-Hasbah arrived, he sent with me my brother 'Abd-ur-Rahmān b. Abu Baker, and I proceeded to At-Tan'im, where I assumed the ihrām for a 'umrah instead of the 'umrah I had abandoned."

— ١٦ —

بَابُ تَقْضِ الْمَرْأَةِ شَعْرَهَا

عِنْدَ غُسْلِ الْمَحِيضِ :

حدثنا عبيد بن اسماعيل قال حدثنا
أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة
قالت :

« خَرَجْنَا مُوَاهِبِينَ لَيْلَةَ ذِي
الْحِجَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُهْلَ بِعُمْرَةٍ
فَلْيُهْلِلْ ، فَإِنِّي لَوَلَا أَنِّي أَهْدَيْتُ
لَاَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ ، فَأَهْلُ بِعُمْرَتِهِمْ
بِعُمْرَةٍ وَأَهْلُ بِعُمْرَتِهِمْ بِحَجٍّ ، وَكَنتُ
أَنَا مِنْ أَهْلِ بِعُمْرَةٍ ، فَأَذَرَ كَتْفِي يَوْمَ
عَرَفَةَ وَأَنَا حَائِضٌ فَتَسَكَّوْتُ إِلَى
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : دَعْنِي
عُمْرَتُكِ وَأَتَقْضِي رَأْسَكَ وَأَمْتَشِطِي
وَأَهْلِي بِحَجٍّ ، فَفَعَلْتُ ، حَتَّى إِذَا
كَانَ لَيْلَةُ الْعَقَبَةِ أُرْسِلَ مَعِيَ
أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فَخَرَجْتُ
إِلَى التَّنِيمِ فَأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ مَكَانَ
عُمْرَتِي . . »

complete owing to her condition, so the Prophet ordered her to abandon it for the Hajj. She accordingly performed the waqfah on the day of 'Arafah, while in her courses, and purified herself the next day, completing the Hajj. She then recommenced and complete the interrupted 'umrah in order to do as the others had done, and obtain the double blessing. She was enabled to perform the Hajj by the Prophet sacrificing a cow on her behalf.

1. They started out five days before the new moon and arrived in Makkah five days after it.

We are informed by Músa b. Ismā'īl, who had it from Ibrāhīm, who received it from Ibn Shihāb, through 'Urwah that 'A'ishah said :

"I was in a state of iḥrām and called the iḥlāl with the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) on the occasion of the Farewell Pilgrimage. I was among those performing the 'Umrah,¹ who did not bring victims for sacrifice."

'A'ishah implied that her courses came upon her then, and she did not purify herself until the Eve of 'Arafah,² when she said: "O Messenger of Allāh, here is the eve of 'Arafah and I have only been fit to perform the 'Umrah on account of my courses." "Loose thy hair and omb it, and suspend thy 'Umrah", I said the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace). I did so, and when I had accomplished the pilgrimage, he commanded 'Abd-ur-Rahmān³ on the night of Hasbah⁴ to set me on the 'umrah starting from At-Tan'im,⁵ instead of the 'umrah which I had abandoned for the Pilgrimage.⁶

حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا
إبراهيم حدثنا ابن شهاب عن عروة
أن عائشة قالت :

« أَهَلَّكُنَّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَكُنْتُ
مِنْ تَمَتُّعٍ وَلَمْ يَسُقِ الْهَدْيَ، فَرَزَعَتِ
أَنْفَا حَاضَتٍ وَلَمْ تَطْهَرْ حَتَّى دَخَلْتُ
لَيْلَةَ عَرَفَةَ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ
هَذِهِ لَيْلَةُ عَرَفَةَ وَإِنَّا كُنْتُ
تَمَتُّعْتُ بِعُمْرَةٍ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : انْقِضِي رَأْسَكَ
وَامْتَشِطِي وَأَمْسِكِي عَنْ عُمْرَتِكَ،
فَعَمَلْتُ، فَلَمَّا قَضَيْتُ الْحَجَّ أَمَرَ
عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَيْلَةَ النَّصَبَةِ
فَاعُمْرَنِي مِنَ التَّيْمِمِ مَكَانَ عُمْرَتِي
الَّتِي نَسَكْتُ. »

1 The 'umrah is a simple visit to the sacred Mosque at Makkah, which can be made at any time except the three days of the Hajj (the obligatory Pilgrimage), omitting the sacrifices. It is a meritorious act but has not the merit of the Hajj.

2. 'Arafah is a mountain 12 miles from Makkah, where the pilgrims assemble on the great day of the Pilgrimage, the ninth of Dhul-Hijjah, and perform the midday and afternoon prayer and hear the sermon.

3. 'A'ishah's brother

4. A station between Makkah and Minā. The night of Al-Hasbah is the eve of the day of the dispersal of the pilgrims, and it was so called because the pilgrims spent the night at that place.

5. A place about a parasang from Makkah on the way to Al-Madīnah, where there is a mosque known as 'A'ishah's Mosque.

6.—reading سَكَت for مَكَت as in another version. When 'A'ishah set off she had put herself in a state of iḥrām for the Hajj, but not having the necessary animals for sacrifice, she, among others like her, had to abandon it for the 'umrah. This she was unable to

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, CAIRO.

ترجمة جامع صحيح البخارى

لؤستاذ ابراهيم بن الموصى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

L. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Menstruation

(CONTINUED)

Chapter 14.

On the menstrual ghusl.

We are informed by Muslim, who had it from wuhaib, who received it from Mansûr, through his mother, through 'A' ishaah that :

A woman of the Ansâr once said to the prophent (Allâh bless him and give him peace) : "How shall I perform the ghusal after my courses?" "Take a perfumed rag and purify thyself." This he said three times. Then the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was overcome by shame and turned away his face; or he said ("A ishaah-added) : "Purify thyself with *the rag*." I then drew the woman aside and explained to her what the Prophet (Allâh bless him and give him peace) meant.

Chapter 15.

On a woman combing her hair when performing her menstrual ghusl.

كتاب الحيض (تابع ما قبله)

— ١٤ —

باب : غسل الحيض :

حدثنا مسلم قال حدثنا وُهَيْبٌ حدثنا منصور عن أمه عن عائشة :

« أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَيْفَ أَغْتَسِلُ مِنَ الْمَحِيضِ ؟ قَالَ : خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَوَضَّئِي ثَلَاثًا ، ثُمَّ إِنْ أَلَيْسَ بِوَجْهِهِ أَوْ قَالَ تَوَضَّئِي بِهَا ، فَأَخَذْتُهَا فَجَعَلَتْ بَيْنَهَا فَأَخْبَرْتُهَا بِمَا يُرِيدُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . »

— ١٥ —

بابُ امْتِشَاطِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ

غَسْلِهَا مِنَ الْمَحِيضِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها

في النفس البشرية

- ١٢ -

مقومات السياسة الدولية في الاسلام

كل أمة تتألف في أية بيئة من بيئات العالم لا تحلو من أن تتصل بعلاقات سياسية مع الأمم المجاورة لها والبعيدة عنها ، لأن المجاورة والمبادلات التجارية سواء أكانت بين جماعات دانية أو قاصية تولد أزمات سياسية ، قد تتطور الى مشاكل دولية ، على حسب ما تعالج به من الأصول المرعية لدى تلك الأمم . فلكم حر سوء معاملة المجاورين وأنحباب الرحلات التجارية الى حروب طاحنة كان من نتائجها إزالة بعض الدول من خريطة العالم ، وما حدا تلك الجماعات الى هذه الاساءات إلا عدم وجود أساس ركين فيها للسياسة الدولية تسير على مقتضاه ، أو لها شيء من ذلك ، ولكنه مشبع بروح الأثرة التي لا تستقيم معها علاقات حسنة ، وتقصى دائماً الى التناحر بين الجماعات المتنازعة .

فوجود سياسة دولية مشبعة بروح العدل والمسالمة ، أمر لا مفر منه لكل أمة تريد أن تتقى الأخطار الخارجية ، أو تقلل من دواعيها حيد الاستنطاعة .

فهل للاسلام سياسة من هذا النوع يقوم بناؤها على أصول الحقوق لعامة المتفق عليها بين الأمم المتمدة اليوم ؟

نقول : نعم ، للاسلام سياسة دولية تقوم على أصول الحقوق الطبيعية ، وهي أرق بما لا يقدر من الحقوق المتفق عليها اليوم ، لأن هذه وضعية لا تزال بعيدة عن المثلى العليا ، وتلك المثلية هي المثلى العليا نفسها . ولبيان هذا الاجمال نقول :

أول أساس للسياسة الدولية في الاسلام هو قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . فهذه الآية تسقط أمهات المزاعم القومية التي تسول لها الأثرة ، وتكثُر اليهم الأمم الأجنبية . ولكن الاسلام يعلن بأن الناس جميعاً أبناء أبوين معروفين ، وهم سواء في الحقوق ،

وأن الأمم والشعوب وإن اختلفت في البيئات ، قد خلقت لتتعارف وتتعاون على تدليل عقبات الحياة ، لا لتتناكر وتتناحر في سبيل البقاء ، ولا يجوز أن تكون الفروق في الأديان واللغات والعادات والألوان ، بصادرة للأمم الرشيدة عن أن تتعارف وتتصافى في مجال المعاملات ، ويكون أقربها إلى الله أخشاهها له ، وأوقفها عند حدوده ، وهو الذي يتولى وحده السرائر . هذا مؤدى هذه الآية الكريمة التي هي الأصل الأول للسياسة الدولية لدى المسلمين ، وهذه تفرعت جميع المعاملات التي تحقق معنى هذه الرماله العالمية ، التي يريد بها الإسلام في هذه الحياة بين جميع الأمم .

فرمى الإسلام والحالة هذه ربط جميع شعوب الأرض برباط ألفه عامة ، تبنى على أعمر وأواصر الانسانية ، ولا تقوم الفوارق الجنسية والعنصرية والدينية عقبات كأداء في سبيل تحقيقها . وأول من باشر العمل على تأسيس هذه الألفة بين أفراد النوع البشري هو نبى هذه الأمة صلى الله عليه وسلم ، وجاءت آيات الكتاب كلها داعية ومعيّنة على وضع هذه السياسة العالمية .

ولما كان الدين لا يخرج عن معتقدات وعادات ومعاملات ، فقد جاءت كلها في الإسلام إما رامة إلى هذه الغاية الكريمة أو مهيئة لها ، ومطابقة لقواعدها العامة كل المطابقة .

أكثر ما تظهر هذه الروح الاسلامية السامية هو فيما قرضه الكتاب على أهله في المواطن الخطيرة من الدفاع لحاية أنفسهم ، أو الهجوم لكسر شرية عدوم . فقد أمروا فيها بمراعاة أصول مشبعة بروح الاستبقاء والمطف ، لا بروح الاصطلام والعسف ، كما يحصل بين أمم كتب عليها أن تعيش مؤتلفة لا متنازعة ، وإنما دفعنها الضرورات لتحكيم السلاح فيما شجر بينها من خلاف مسايمة لسن الاجتماع ، قال الله تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين حادىتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » .

ولما كان قد يتوهم أن الإسلام يقضى بمقاومة كل من لا يدين به من الأمم تبين الله هذا الأمر على وجه برفع كل نسي فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتسخطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فاذا أدت العداوة بين المسلمين وبين بعض الجماعات إلى تحكيم السيف ، أمرهم الله أن يقاتلوا أعداءهم ، وأن يستسلوا في القتال ، ولكن على شرط أن لا يحملهم الاستيسال على العدوان والتجنى ، بل أن يباشروا الحرب مستشعرين روح العدل المجرد عن الهوى . فكان الإسلام أول من كاشف العالم بأن في كل شيء عدلا يناسبه حتى في التناهر المحض ، فقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين قاتلوكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال تعالى : « فمن اعتدى

عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين . وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا (أى ولا يحملنكم بنفسكم لهم على أن تعتدوا عليهم) وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

فإن العدل في الحرب في شرعة الاسلام أن لا تسرف في القتل ، وأن لا تتعبد على المحارب لك ، وأن لا تتعبد المهزومين ، وأن لا تجهز على المحرسي ، وأن لا تهين الأسرى ، وأن لا تقتل خدم المحاربين والمرافقين لهم في المخطوط الخلقية ، فإذا دخلت بلدا معاديا فلا تحرق أشجارها ، ولا تهدم دورها ، ولا تهرق روحا من شيوخها ونسائها وولدها ورجال دينها . وقد تراءى النبي صلى الله عليه وسلم ممن ارتكب شيئا من ذلك حتى إنه نهى أصحابه أن يسبوا قتلى أعدائهم ، فقال عقب وقعة بدر وقد سب بعض الصحابة قتلى المشركين : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون » ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم . وهذا نهاية ما يؤثر من السوء الخلقى لشعب دعى لأن يضطلع بخلافة الله في الأرض ، وأن يعمل على إقامة دولة الحق في العالم كله . وإذا كانت هذه أصوله في المواقف التي تخطى فيها الرأس تحت تأثير سورة الغضب ، والاسنة المدربة تهق الأرواح وتحمد الأنفاس ، فما ظنك به في مواطن العافية ، والسلام ناشر أوليته ، والهمم تتأري في التكيف بعقائل المحامد ، لنيل الدرجات العلى ، والزنى من الحق المطلق ؟

ثم إن الحاجات الاجتماعية قد تدعو لعقد المعاهدات ، وإبرام الاتفاقات ، وتقرير المهادنات ، فإزاء هذه الحاجات قرر الاسلام أن يكون شعار أمته الوفاء المطلق بها ، من غير نظر إلى فائدة تبدو في نقصها ، أو مصالحة تدعو إلى تأويلها ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » . وذكر صفات المؤمنين الصادقين فقال : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وزاد ذلك تأكيداً فذكر وجوب الوفاء بالعهد وجوب الصبر في أشد المحن ، وأخرج المواقف ، فقال : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرون في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . وأوصى سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد حتى بالنسبة لمشركي العرب الذين كانوا ينقضون عهدهم في كل فرصة يظنونها موافية لهم في إيذاء المسلمين ، فقال تعالى : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » . يوصي الله بالوفاء لهم وهو يعلم أنهم لا يتخرجون من نقض عهدهم ، لأول بادرة من فائدة

تبدو لهم ، فقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون » . ولكي لا يؤثر غدر المشركين في قلوب المؤمنين فيحملوهم على مجاراتهم في رديلة نقض العهد ، مقابلة للعزل بالمثل ، عاد ذكر المسلمين بأن الله يأمر بالعدل بين الناس وبالإحسان ، وهو فوق العدل ، وبالبزؤى القريب ، وأنه يحرم كل حمل حسيس ، وكل منكر وظلم ، باعتبار أن هذه الصفات لذاتها من لوازم الإيمان ، لا يجوز الهوادة فيها لأي اعتبار كان ، فقال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الإيمان بمد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كذبا ، إن الله يعلم ما تفعلون » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا كواثروا قوامين لله شهداء بالغت ، ولا يحرمكم شركاء قوم على أن لا تمدوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله حبير بما تعملون » . أي ولا تمحمدكم كراهتمكم لقوم على ما يرتكبونه ضدكم من التعديات المسكرة ، على أن تتخطوا طريقة العدل في معاملتهم .

هذه غايات قصية من السمو السياسي لا يزال العالم بعيدا عنها ، وقد حمل بها المسلمون في عهد لم يكن للوفاء بالعهد فيه من حافز غير الخوف من انتقام المهاد ، لأن غرض الاسلام لم يكن توفير المصالح المادية لأهله حسب ، ولكن تطهير قلوبهم من أفداء الصفات الحيوانية ، وجعلهم أمة نموذجية تقوم على حراسة المثل الخلقية العليا في الأرض . وقد ثبت من استقراء حوادث التاريخ أن الاستقامة الخلقية في السياسة ، كانت دائما أعود على أهلها بالنموذ في مجالات الحياة الاجتماعية العامة من العوج والتلون والترول على حكم القوة .

ومن الأخلاق السياسية التي بنى الاسلام في أهله قبول السفراء واحترامهم ، والتفاوض معهم على قدم المساواة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتفل بالوفاءدين عليه ، ويحبوهم بالطافه ، حتى روى أنه فرس عباده لو قد نصارى نجران وأجلسهم عليها .

ويروى عنه ما هو أعظم من ذلك مما يدل على مرونة سياسية حقة يجب أن تؤثر عنه ، وتشر بين الناس ، ذلك أنه لما كانت السنة السادسة من الهجرة ، أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعتصر ، أي يطوف بالبيت الحرام في غير أوان الحج ، فاستنفر الناس لذلك فاجتمع اليه ألف وخمسمائة ، فخرجوا ليس عليهم من السلاح إلا السيوف . فلما بلغ قريشا ذلك حاجها ف أرسلت بديل بن ورقاء ليتعرف مقصدهم ، فعاد اليهم وأخبرهم أنهم جاءوا معتمرين ، فقالت : أريد محمد أن يدخل علينا في جتوده معتمرا فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عوة ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبدا وما عين تطرف . وأرسلوا اليه حليس بن علقمة . فلما عاد اليهم أيد قول بديل بن ورقاء ونصحهم بأن يدعوهم وما أراد فلم يقبلوا نصيحته وأرسلوا اليه

عروة بن مسعود الثقفي ، فقال له : « يا محمد قد جمعت أولئكَ الناس ثم جئت إلى أصلكَ وعشيرتك لنقصها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عسوة أبدا » وكان عروة يتكلم بهذا ويمس لحية رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان المغيرة بن شعبه ، وهو أحد الصحابة ، يقرع يد عروة كلما علم بذلك . ولما عاد إلى قريش أيد رأي صاحبه فقالوا لا بأس من أن يجيء في العام المقبل ، أما هذا العام فلا . وأرسلوا مهيل بن عمرو ليبتفق مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك . فقبل رسول الله هذا العرض وأخذ يعلى على علي بن أبي طالب نص العقد ، فأملأه : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سفير الجاهليين : لا تعرف الرحمن الرحيم ، اكتب : باسمك اللهم . فقبل رسول الله ذلك منه . ثم مضى في إملأه فقال : يا علي اكتب . هذا ما صاغ عليه محمد رسول الله . فاعترض مفوض قريش على هذه العبارة ، وقال : لو تعلم أنك رسول الله ما خالفناك . فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم كاتبه أن يحو ما كتب ، ففكره على محو ، فعاذ رسول الله بيده .

يتحکم الجاهلی فی وجوب حذف کلّی الرحمن الرحیم وها عربیتان والقصد منهما تمجید الخالق ، ویأی إثبات عبارة (رسول الله) بحجة أنت قريشا لا نمتقد لصحة بيوته ، ويفي عن أن إثبات هذه العبارة في العقد لا يقتضي إيمانهم به ، ولكن الجاهليين لا منطق لهم . فاعجب من سمو منطق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حذفها ، لأن ذلك الحذف لا يقتضي سلها منه .

هذه ، لا أقول مرونة سياسية ، ولكني أقول إنها حكمة نبوية ، ورسول الله فدوة لأمته ، وقد جرى خلفاؤه في أحفل عصور الاسلام بالعظام على مثل هذه الخطة من المياسرة والملاية ، وتحدي المثل العليا في المعاملة والمعاملة ، واستشعار أسمى الصفات النفسية حتى في الخصامة والمقاتلة ، فوضعوا بذلك أصول سياسة دولية هي أحكام قواعد ، وأرسخ وطائفة ، وأجمع لمبادئ الانسانية ، من أية سياسة في الارض من يوم أن خلق الله الخلق إلى اليوم .

فمن يتأمل في أقوال أنطاب العالم الحديث من أن السياسة لا قلب لها ولا ضمير ، وأنها يجب أن تنف على أصول تتارع البقاء ، ومحاربة الأقوياء ، ويقارنها بأصول السياسة الاسلامية ، يجد اليون شاسعا بين المذهبين ، ولا يسه إلا أن يعترف بأن تلك سياسة جاهلية من آثارها استبقاء الإحن والأحقاد بين الأمم والشعوب ، وإثارة الحروب بينها مع ما تجرّه من خراب على العمران ، وهذه السياسة أساسها العدل المطلق ، وثمرتها التقريب بين الجماعات البشرية ، والقضاء على المنازعات المصلحية ، وردّها جميعا إلى دستور من التعاون والائتلاف حدير بكرامة الانسانية ، ومليء بإيجاد رعاة عامة بين البشر كافة ، مصداق لقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .

التقوى

سورة الاعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « فذكر إن نعمت الله كرى » :

اعلم أن كمال حال الانسان في أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه ، وقد ورد « تحلقوا بأخلاق الله »

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملا في نفسه بمقتضى قوله تعالى : « ونيسرك اليسرى » أمر بأن يكمل غيره ليكون تاما وفوق التمام فقيل له : « ذكر » لأن التذكير يقتضى تكميل الناقصين وهداية الجاهلين . ومن كان كذلك كان فياضا للكمال ، فكان تاما وفوق التمام .

والمراد بتعليق الأمر بالتذكير على الانتفاع به ، الحث على التأمل والسطر حتى ينتفعوا بالتذكير ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق . قد أوضحت لك السبيل إن كنت تعقل . فيكون مراده الحث على القبول والانتفاع به . أو يقول : إن هذا التعليق يجري مجرى تنبيه الرسول أنه لا تنفعهم الذكرى ، كما يقال للرجل : ادع فلانا إن أجابك ، وكأنت قلت : ما أراه يجيبك . ولك أن تقول : إن التذكير واجب في أول الأمر ، فأما التكرير فلمله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود .

على أن المالكية صرحوا بأنه لا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا إذا ظنت الاطاعة . وقد أنكر عليهم بعض الشافعية ، ولكن هذا هو المعقول ، فإن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها ولو على سبيل الظن لم تشرع ، وأفعال العقلاء تصان عن العبث .

والمالكية أن يتمسكوا بظاهر هذه الآية ، ويمثل قوله تعالى في الآية الأخرى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . وعلى كل حال فعلى المؤمن أن يكون حكيما في كل ما يأتي ويذر . والشريعة لا تعرف إلا الحكمة . ولكن لا بد أن ننبه مع هذا على أن الناس الآن قد تهاونوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى وصلنا إلى ما نحن فيه من شيوع المنكرات واقتراف جميع المحظورات . وفي رأي أن العلماء لو تضافروا على الأمر بالمعروف والنهي

عن المكر، وعرفوا الناس أن ذلك واجب عليهم لافرق بين صغير وكبير، لحف الأمر ودب الحياء في النفوس من الناس إن لم يكن من الله، ولكننا على ما قال الأولون «افتضحنا فاصطلحنا» ! ثم بين تعالى من تنفمه الذكرى فقال: «سيد كرم من يخشى». والخشية إما حاصلة بالفعل، وإما حاصلة بالقوة محتاجة لمن يثيرها من القلوب، وإما غير حاصلة بالفعل ولا بالقوة فلا مطمع فيها. فالأول حال الخاصة، كما يشير إليه قوله تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء». والثاني حال العامة. والثالث حال المتكبرين والمعاندین، فانهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، «وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الفی يتخذوه سبيلا».

وقد سمى الله ذلك تذكيرا لقوة الدلائل وظهورها، فكان العلم بالحق كان حاصلًا ثم رال. أو نقول: إن كل مولود يولد على الفطرة، ففيه أصول الخير والاحساس بالحق والدين، ولكن تفسد فطرته باتباع الشهوات واقتراء المكرات، وصحبة الفاسقين والجاهلين والمعاندین، كما تفسد العين الصحيحة لعدم حفظها من الآفات وقلة تمهدها بما ينفع النظر ويجلو البصر. والأرواح محتاجة الى الرياضة بعلوم الدين، ومذاكرة الكتاب والسنة، وكتب المواعظ كإحياء علوم الدين وغيره. كما أن الأجسام محتاجة للرياضة البدنية.

أما قوله: «ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى» فحيلك فيه على ما بيناه قبلا من أن أصناف الخلق ثلاثة: العارفون، والمتوقفون، والمعاندون. فاقسمان الأولان لا بد أن يكون لهما خوف وخشية بالفعل أو القوة، وصاحب تلك الخشية لابد وأن يستمع الى الدعوة وينتفع بها، فيكون الأشقى هو المعاند الذي لا يستمع الى الدعوة ولا ينتفع بها. ولهذا قال تعالى «ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى». وقد تفسد نفس الانسان بالكبر والعناد حتى لا ينفع عنده برهان ولا يؤثر فيه بيان. وقد قال الله تعالى في حق قوم هذا شأنهم: «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون».

فانظر الى أي حد وصلوا من التصلب في العناد ومجاعة الحق حتى أنكروا المحسوس. ونظير ذلك قوله تعالى: «ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين». ويقول في الآية الأخرى: «ولو أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا». ويقول: «ولئن آمنت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قلبك» الى غير ذلك مما بين لنا أن الفطرة قد تصل الى حد من الفساد لا مطمع فيه.

وعلى كل حال فالإنسان يجمع العجائب والفرائب، فقد يلطف حتى يكون ألطف من الهواء وأسلس من الماء، وقد يكشف حتى يكون كالخجارة أو أشد قسوة.

ومما يحس لتنبه عليه في هذا المقام أن هذه الأعمال المقبولة من الكبر والحرص والحسد ونحوها ، إنما خلقت في الإنسان لحكم بليغة ، وقد جعل لها الحق سبحانه وتعالى مصارف لو صرفت فيها لكات فضائل لا ردائل ، وكان هذا موضع الابتلاء والامتحان .

ولقص عليك شيئا من ذلك فنقول : مثلاً خلق فيك الحسد لتصرفه في المنافسة في فعل الخير والغبطة عليه والمسايرة إليه ، وحلقت فيك غريزة الكبر لتستعملها في التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يخال بين الصفيين في الحرب : « هذه مشية ينفصها الله إلا في هذا الموطن » . وقال فيمن فرط في بعض آداب الصلاة حرصا عليها : « زادك الله حرصا ولا تعد » . وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه فقال : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » وقال : « وليجدوا فيكم غلظة » .

وخلق فيك غريزة الحرص لتصرفها فيما ينفع ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « احرص على ما ينفعك ولا تعجز » . وخلق فيك الشهوة القوية لتقوم بما جعله لك من التزوج بأربعة ، ولتسرى بما شئت ليحفظ بذلك بقاء النوع ، ويكثر من أفراده ، وهو أحب مخبوءاته إليه (ولقد لك علمه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته) .

وجعل فيك غريزة حب المال لتتفقه في مرضاته ، وتترود منه لمعادك . وجعل فيك غريزة حب الجاه لتصرفه في تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصر المظلوم وإعانة الملهوف وإعانة الضعيف وفتح أعداء الله .

وهكذا جميع القوى التي ركب فيك جعل لها مصرفا ، وقد أودعها الله فيك لمصالح اقتضتها حكمته ، فليس المطالب تهملها ، وإنما المطلوب صرفها في مجاريها ، واستعمالها في موضع دون موضع ، ومحل دون محل على حسب ما يقتضيه الشرع والعقل والحكمة ، وهو موضع الانتلاء ، وسلم الارتقاء ، وميدان العقل والفكر . إلى آخر ما يرشدك إليه قلبك الطاهر وفسك الزكية .

واعلم أن الكبر من أعظم الآفات بل هو أسوأ وجاعها . وهو الداء المضال الذي لا تنفع معه موعظة ولا نفيذ فيه دواء . وإذا عجز الرسل وهم أعظم أطباء النفوس عن هداية المتكبرين فغيرهم بالأولى . وقد قال تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل النجى يتخذوه سبيلا » .

وماذا ترحو من اشتعل لفسه حاسة الالهية والالهية تبنى المشاركة ، فكيف تسمع نفسه الجاهلة المتأهلة أن تكون سامعة لغيرها أو تابعة لمن سواها ؟ فإذا ترسخ ذلك الخلق الذميم في النفس اعتقد صاحبه أنه أنسى من غيره ، وأن كل من عداه دونه .

وقد قال الامام الغزالي : إن في النفس خريزة الترفع على الغير ، وهي تريد أن تقول : أنا ربكم الاعلى كما قال فرعون ، إلا أن فرعون وحده من يقبل منه ذلك ولا يعارصه ، فكيف مع هذا يقبل المتكبر النصيح من غيره ، أو يصفى للحق من بهي أو رسول ؟ وكيف لا يتحد على غيره إذا رأى فيه فصيلة ترفع عليه وهو لا يرى إنساناً أحق بالتبجيل والتعظيم منه ؟ فلا فرو إذاً أن يدفعه كبره الى كل رذيلة ، ويحول بينه وبين كل فصيلة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » لأن الكبر كما عرفت يورط صاحبه في رذائل الأخلاق التي تورثه المقت في الدنيا والآخرة .

وبالجملة فالمتكبر لا يرجى له فلاح ولا ينتظر منه صلاح « كذلك يطبع الله على كل قلب منكب جبار » .

وانظر إن شئت الى ما حكاه الله عن أولئك المتكبرين في قوله « أنؤمن لبشرين مثلنا » . « إن أتم إلا بشر مثلنا » . « ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون » .

فانظر الى ذلك المطلق الغريب ، بل الضلال البعيد الذي حيل لهم أن من كان مثلهم في البشرية يجب أن يكون مثلهم في كل شيء (وهكذا تكون فلسفة المتكبرين وعلوم الجاهلين) . والخلاصة أن هؤلاء ما معهم من اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا جهلهم وتكبرهم وانفتهم من أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وإلا فيراهم صدقه صلى الله عليه وسلم أوضح من الشمس وأجلى من الحسن . ومن نظر في هذا القرآن وما فيه من العلوم والمعارف وأصول السعادات ومجامع الخيرات ، لم يشك في أنه تنزيل من حكيم حميد .

فأكابر الفلاسفة الأولين والمحدثين لم يصابوا من الإصلاح العلوي والعملي ، ولا من الآثار التي ظهرت في الوجود وبقيت على ممر العصور ، الى عشر معشار ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الإصلاح الروحي والجسدي والاجتماعي والفردى : « قل لئن احببت الالانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » . وقد قال برناردشو المعاصر لنا :

« إن رجلاً كمحمد لو قدم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم ، لثم السحاح في حكمه ، ولقاده الى الخير وحل مشاكاه بوجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

ولو نظرت في حال الامة العربية في هجيتها أيام الجاهلية ، ثم نظرت في حالها بعد الاسلام مادياً وأديباً ، لرغبت تلك المسجرة السكبى التي أتى بها ذلك الرسول الامى الذي ما قرأ كتاباً ولا خطه يمينه .

ولعمري إنها لا كبر الآيات وأبهر المعجزات . وهذه المعجزات المعسوية في نظر المنصرين أكبر من المعجزات الحسية التي أقامت فيها كتب السير وامتلأت بها أسفار المؤرخين .

كفناك بالعلم في الامى معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

فإذا نظرت مع هذا الى أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم من التوحيد وأصول الدين قد شهدت به المقول السليمة والمطر الطاهرة ، وواقته عايه أربعة وعشرون ألفاً ومائة ألف نبي كلهم جاءوا بالتوحيد وإثبات الصانع عز وجل ، وادعوا الوحي وأناموا على ذلك البراهين ، وهو عدد يحيل العقل تواظوم على الكذب ، ثم نظرت في حالهم فوجدتهم على خلاف أهل الدنيا فلا يتنافسون ولا يتحاسدون ولا يشكاذبون ، ولو كانوا في عصر واحد وصقع واحد كما إبراهيم ولوط مثلاً . ثم انظر الى من تعرف من المتراجين على الدنيا في الصغير والكبير حتى العلماء .

ثم ألقت نظرك بعد ذلك كله الى زهدنا صلى الله عليه وسلم في الدنيا ونعيمها ، وعدم طلبه أجراً على أعماله الشاقة ، وما كان عليه من الشرائع الشريفة والأخلاق الكريمة ، واستواء الشريف والوضيع عنده في الحق ، واعتراف السحرة والكهان فيما مضى ، والفلاسفة اليوم بقصور ما عندهم مما عنده ، فصلا من كونه كان بحجاب الدعوة وكان يخبر بالمغيبات الكثيرة فتقع كما أحبر وفي القرآن من ذلك شيء كثير . وكذلك فيه تنويه ببعض معجزاته الحسية حلالة لمن جهل ذلك . وذلك مثل قوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . الى غير ذلك ، ثم بقاء دينه وقرآنه وآثاره وأفعاله حتى اليوم . ونحن نعلم ذلك كله إما بالمشاهدة وإما بالتواتر ، وهما يوجبان العلم الضروري كما بين في محله .

أقول : من نظر في ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضاعفه كان صدق الرسول عنده من أوضح الواضحات وأول الضروريات شهادة العقل والنقل والوجدان والبرهان والحدس والحس : إلا عند من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وانقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان الفسيح ، ولندع تمصيله الى لسان حاله الفصيح : ولنرجع الى التفسير فنقول :

أما النار الكبرى فإما أن يراد بها نار جهنم فتكون الصغرى نار الدنيا . وإما أن تكون الصغرى والكبرى في الآخرة فإن فيها نيراناً مختلفة ودركات متفاوتة ، كما أن في الدنيا ذنوباً ومعاصي متفاوتة ، فكما أن الكافر الذي كذب بالحق وتولى عن قبوله هو أعظم المحرمين ، كذلك هو أعظم الممذيين في الآخرة ويصلى أعظم النيران .

هذا والآية نزلت على ما قيل في الوليد المخزومي وعنه بن ربيعة وأبي بن خلف ، وهي منطقية على كل من شا كلهم في كبره وتعتته في كفره . وقد أفادت الآية أن هناك من يصلى أقل من النار الكبرى ، فأنها يثبت أن الذي يصلها هو الأشقي ، فيكون للشقي نار أخف منها فتكون الأقسام ثلاثة :

المتقى الذى يخشى ربه ، والاشقى الذى كذب وتولى ، وبينهما أرباب المعاصى والذنوب
التي لم تصل الى ذلك الحد .

أما قوله : « ثم لا يموت فيها ولا يحيى » فالمراد أنه لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه ،
كما قال : « لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » . وهذا على مذهب العرب :
تقول للمبني بالبلاء الشديد : لا هو حي ولا هو ميت .

وقد قالت سليمان زوجة صخر أخى الخنساء لمن سألها عنه :
لا هو حي فيرجى ولا هو ميت فيبكي . فسمعا صخر فأنسا قصيدته المشهورة
التي أولها :

أرى أم صخر لا تعمل عبادتى وملت سليمان مصجى ومكانى
لعمري لقد نبهت من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنان
فأى امرئ ساوى بأم حليمة فلا ماش إلا فى شقى وهوان

وإنما قيل « ثم » للإشارة الى أن هذه الحالة أقطع وأعظم من الصلى ، فهو مترخ عنه
فى مراتب الشدة . وفيه إشارة الى أن العذاب الروحانى أشد من العذاب الجسمى . وقد يصل
الى حالة يهون عندها كل شيء . وليس أوضح فى بيان هذا من قوله تعالى فى حق الكافر :
« ويأتية الموت من كل مكان وما هو بميت » .

وكذلك النعيم الروحانى أعظم وألذ من النعيم الجسمى ، بل هو النعيم على الحقيقة « فلا
تعلم نفس ما أحق لهم من قررة أعين » .

أسأل الله أن يديم علينا نعمة الايمان ، وأن يثبتنا على الايقان والاحسان بمنه وكرمه !

يوسف الربوى

عضو جماعة كبار العلماء

ذم البخل

قال حكيم : لو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من خير بخلهم ، وصدمة الناس لهم ، وإطباق
القلوب على بفضهم ، إلا سوء الظن بربهم فى الخلف ، لكان عطيا ، فان الله تعالى يقول :
« وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » . وكفى البخل مرة أن يمنع نفسه اكتساب الحسنات مع
افتقاره إليها ، ويحرمها مباح الشهوات مع اقتداره عليها .

البيان

الحكم في نظر الاسلام

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ألا تستعملني ! قال : فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذ بحقها ، وأدى الذي عليه فيها » . رواه مسلم .

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالاً . (٢) بيان الصفات التي يجب أن يكون عليها الحاكم . (٣) واجب الرئيس الأعلى بإزاء ذلك . (٤) خطورة الحكم وعاقبة أمره . (٥) حقوق المنصب .

١ — معنى الحديث ظاهر ، وهو أن أبا ذر رضى الله عنه (من مشاهير الصحابة الذين لم سبق في الاسلام) طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند اليه رئاسة حمل من الأعمال فأبى رسول الله عليه ذلك لأنه لم يوفيه الصفات التي يجب أن يكون عليها الرئيس ، ثم أبان له خطورة الحكم وعظم مسئوليته فقال له : إن رئاسة الأعمال أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة الخ . ومعنى كونها أمانة أنها تستلزم القيام بحقوق الناس على الوجه الكامل ، وهذه الحقوق في عنق الرئيس ، فلا بد له من أدائها لهم كاملة في هذه الحياة الدنيا ، وإلا كانت طاقبة أمرها حسراً ووبالاً عليه يوم القيامة ، فليس الحكم مجرد لذة من اللذات المظيعة التي تستعدها النفس ولا يسأل المرء عنها ، كلا بل هي تكليف شاق وحمل ثقل ، فلا ينبغي لأحد من المسلمين أن يلى أمراً من أمورهم وهو ضعيف في أية ناحية من نواحيه .

ومن أحسن العظات التي تؤخذ من هذا الحديث أن أبا ذر لم يعارض في وصفه بالضعف ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه ، ذلك لأن الرسول صلوات الله عليه ثقت به الى حقيقة أغلغ عنها ما هو كامن في طبيعة الانسان من حب المنصب والجاه ، فلما أدرك ذلك أذعن للحق خاضعاً . وأروع من هذا وأجل أن هذا الرجل العظيم يتحدث بذلك عن نفسه وهو قريح العين منشرح الصدر ، فلم يبال أن يقال عنه إنه ضعيف غير صالح لولاية الأعمال . وليس هذا بفريب لأن

هؤلاء السادة البررة لا يرون وجودهم لانفسهم غيب ، بل يرون وجودهم لخدمة المجتمع الانساني ، فكل هم منحصر في خدمة المجتمع الاسلامي بقول شريعة رسول الله عليه الصلاة والسلام اليه بالدقة والامانة كي ينتفع بها ، سواء عليه بعد ذلك ان يعظم أو يصغر ، أو يساء أو يسر . على أن في ذلك أيضا تبصرة وذكرى لهؤلاء الذين يتهافون على المناصب تهافت اللسور على الجيف وهم ليسوا بأكفاء لها ، وإذا تخطتهم رئاسة ملؤا الدنيا ضحيجا وجاءوا بالشغواء من كل صوب لاغتصابها من يد مستحقها ، فإن هؤلاء الأشرار من أشد الجناة على العدل والنظام .

٢ — أما الصفات التي يتصف بها الحاكم فقد أجملها الحديث بقوله : يا أبا دربنك ضعيف ، والاضطلاع بمسئولية الرياسة يستلزم القوة بكل معانيها . فالحاكم يجب أن يكون قادرا على إقامة العدل بين الناس ، فلا يظلمهم ولا يتركهم يتظالمون ، قادرا على حفظ أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، كما قال عمر بن الخطاب لرؤساء القبائل : إني لم أرسل محالي إليكم ليصربوا وحوهم ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلتكم إليكم ليصوتوا دعاءكم وأعراضكم وأموالكم ، ويقسموا بينكم ما رزقكم الله من في الخ .

وأن يكون قادرا على معرفة أحوال رعيته والظر في كل شئونها المادية والأدبية ، عاملا على ترقيتها والنهوض بها الى المستوى اللائق بها . ومن أحسن ما روي في هذا أن عمر قال : والله لو عثرت دابة في العراق لرأيتني مسئولاً عنها . فقيل له وما ذنب أمير المؤمنين في ذلك ؟ فقال : أمير المؤمنين مكلف بإصلاح الطرق وتسويتها ليحشى عليها الناس والدواب بدون عثار واضطراب .

وأن يكون قادرا على الدفاع عن رعيته بالقول والفعل ، فلا يسمح لأحد أن يعتدى عليها أو يهين كرامتها ، أو يطمع في استخدامها بكل ما يمكنه من حول وطول

وأن يكون حازما لا ينشئ عن الحق بشفاعة الشافعين ، ولا يحيل مع العاطفة فيغدق على من يجب ويحرم من يفيض .

وأن يكون رحيما فلا يقسو في مواطن الرحمة .

وأن يكون قادرا على تأديب العصاة والجرمين الذين يسعون في الأرض فسادا .

وأن يكون قادرا على ضبط نفسه عند الغضب ، فلا يحمله نزق السلطان وكبرياؤه على المظالم والاستبداد بالناس انتقاما لظهورته وإرضاء لغضبه .

وبالجملة فشرط الحاكم أن يكون قويا في عقله وتفكيره ، قويا في إرادته وتقوده ، قويا في عدله وحلمه وضبط شهوته ، قويا في جلده وصبره على سياسة رعيته بما يناسب حالها مهما ترتب على ذلك من مشقة وتضحية ، قويا في معرفة أحوال رعيته بنفسه ، فلا يرضى لوشاية واث

ولا يعبأ برأى جاسوس كاذب ، وإلا كان ضعيفا لا يحل للرئيس الأعلى أن يسند إليه أمرا من أمور المسلمين . وهذه الأوصاف كلها مصرح بها في كثير من الأحاديث الصحيحة ووصايا الخلفاء الراشدين وكتبهم إلى محالهم . فكل من ولي أمرا من أمور المسلمين فإنه يكون مسئولا عن حياته والقيام عليه بكل ما يصلحه ، فإن عجز وجب عليه أن يتخلى عنه لغيره ، وإن قصر أو أهمل كان جزاؤه الخزي في الدنيا والآخرة .

ومن هذا تعلم أن كل شيء يرهق المحكومين ويصيرهم ، ويفسد أخلاقهم ويصيق عليهم وسائل معاشهم ، ويلبس منهم حقوقهم ويقعد بهم عن الرقي العلمي والمادى ، يكون الحاكم مسئولا عنه ولا ينجبه عند الله مجزء ، لأنه إن عجز وجب عليه أن يترك المنصب للقادر عليه . وكل شيء ينهض بالامة إلى ذروة الجود ويحفظ أخلاقها ، ويثب الأمن بين ربوعها ويجهلها عزيزة الجانب فإنه واجب مقدس على الرئيس أن يقوم به .

٣ — أما واجب الرئيس الأعلى وهو الامام الأعظم أو خليفة المسلمين ومن يقوم مقامه بإراء ذلك ، فهو أنه لا يحل له أن يسند أمرا من الأمور إلى غير أهله . لا يحل له أن ينيب عنه في مصالح المسلمين ضعيفا في إرادته أو في شهوته ، أو في عقله ، أو في دينه ، أو في سياسته العامة أو الخاصة على الوجه الذى يبياه . بذلك أمر الله الخلفاء صريحا في قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . ومعنى الآية الذى يدل عليه السياق بوضوح : أنه سبحانه يقول : إنى آمركم أيها الخلفاء والرؤساء الاعلون أن تسندوا المناصب إلى أهلها اللاتيين بها القادرين عليها وعلى أدائها على الوجه الأكمل . فطراد بالأمانات المناصب كما هو صريح الحديث الذى معنا ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لا بى ذر : إن المنصب أمانة ، أى حق من الحقوق المتعلقة بذمة الرئيس ، فلا يصح أن يحمله ضعيف ليس أهلا له . وقوله سبحانه : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » خطاب لسلك من ولي من أمر المسلمين شيئا سواء أكان إماما أم أميرا أم قاضيا أم رئيس قبيلة أم رئيس أسرة أم رئيس جماعة . فكل واحد من هؤلاء يفترض عليه أن يقضى بين الناس بالعدل ، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيته الخ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله سائل كل راع عما استتراه حفظ أم ضيع » . رواه ابن حبان فى صحيحه .

ومما لا يخفى فيه أن الامة التى ييدها انتخاب الحاكم أو انتخاب من ينجبه ، مسئولة عن مختاره للحكم كستولية الامام الأعظم سواء بسواء ، فإذا لم تنتخب الكفء القادر اللائق للحكم كان وزرها عند الله عظيما وعقوبتها شديدة .

٤ - وأما خطورة الحكم وعاقبة أمره ، فإن الحكم تارة يكون أداة صالحة ينفع الحاكين والمحكومين ، وتكون عاقبته سعادة في الدنيا والآخرة ؛ وتارة يكون من شر الوسائل المردية لصاحبه في الدنيا والآخرة . وقد رغبت الشريعة الإسلامية في الحكم الصالح ، وحذرت عليه ، وحذرت من الحكم الظالم الفاسد ونهت عنه نهيا شديدا ، فمن الأول قوله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله » الخ . فأتت ترى أنه قد بدأ السبعة بإمام المسلمين وخليفتهم العادل ، وقوله : « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط ، موثق ، ورجل رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » رواه مسلم . ومعنى قوله : « ذو سلطان مقسط » ، ذو ملك عادل . وقوله صلى الله عليه وسلم « يوم من أيام عادل أفضل من عبادة سنين سنة » الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على فضل الرئيس العادل والحاكم الموفق القادر .

ومن الثاني قوله عليه الصلاة والسلام « من ولي شيئا من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فإن كان محسنا نجح ، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر فهو فيه سميع خريفا » . وقوله : « إنكم ستحرقون على الإمارة » ، وستكون ندامة يوم القيامة » من حديث رواه البخاري . وقوله : « الإمارة أولها ملالة ، وثانيها ندامة ، وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل ، وكيف يعدل مع قريبه » ؟ من حديث صحيح رواه الطبراني وغيره .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمة أتى أحد ولي من أمر الناس شيئا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة » . وقوله : « من ولأه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » وقوله : « لا تقدر أمة لا يقضى فيها بغير الحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعنع » الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على خطورة الحكم في نظر الدين الاسلامي ، وكلها أحاديث صحيحة .

لقد نظر المسلمون الأولون الى أوامر الدين نظرا صادقا مقدسا ، فكانوا يستمعون القول فيمضون عليه بالنواجذ ولا يجحدون عنه قيد شعرة ، وهؤلاء هم المؤمنون حقا الذين عرفوا قدر الدنيا وقيمتها ، وأيقنوا أن شهواتها لا تثبات لها ولا استقرار ، فلم تحدعهم شهوة الجاه والسلطان ، ولم تفرم لهم الرئاسة وشهوة النفوذ ، ولم يفتنهم ملق الناس وطاعتهم بإيام وتفاهيم في الزلنى منهم والتهافت على إرضائهم بحق وبغير حق ، فكل ذلك لم تكن له أية قيمة في نظر أسلافنا الصالحين ، فكانوا يفرون من المناصب فرار السليم من الأجر والفتنة من الذهب ، ومنهم من آثر السجن والتحذيب على تولى منصب لأنه كان يخشى أن لا يؤديه كاملا فيعرض نفسه لظلم الخلق وسخط الخلق . ولو أن هذه الروح الطيبة قد استمرت حية بين المسلمين لما كانت المناصب مصدر فرقة وبلاء على الأمم والشعوب مما نرى بهضه الآن ، فقد منى

الناس بمشاق المناصب الذين لا يرون لأنفسهم حياة إلا إذا غمرتهم أبهة المنصب واستمتعوا بشمراته الطيبة ونعيمه اللذيذ ، فطلقوا يتهاقنوا عليها تهافت الفراش على لئار من غير شعور بواجب أو دين أو خلق كريم . فها نحن أولاء نرى المناصب قد جذبت الى حبيها الناس شبابا وشيوخا وكهولا كما تجذب قوة (المغناطيس) قطع الحديد بدون إرادة واختيار ، وكل يدعى أنه أهل وغيره ضعيف ، وكل يقذف صاحبه في عرضه وكرامته وحلقه ودينه ، ويرى به من حائق في سبيل شهوة الجاه والسلطان والمال ، حتى لقد يجئيل الى من ينظر الى تهافت الناس على المناصب وتنازعهم في سبيل الحصول عليها أنه إذا تمكن أحدهم القصد على منافسه لم يتأخر . وذلك واضح ، فقد رأينا بعض الناس لا يبالي بآثام الصالحين الذين لا تحوم حولهم الريب فاقبح التهم كذبا من أجل المنصب ، رأيناهم يسلطون أذنانهم وسفهاءهم على الخوض في المصالحين العاملين على تهذيب الأخلاق وخدمة الدين لتوهم أنهم يحولون بينهم وبين المناصب ، رأيناهم يتهمون الأئمة الذين لا هم لهم إلا الإصلاح الخلق والدين بما هم براء منه لتوهم أنهم من العوامل التي تحول بينهم وبين لداتهم الفاسدة ورأينا غير الأكفاء يذلون الأموال والشهداء ليظفروا بالمنصب ولا يدلون بآثامهم الأكفاء الأبرياء العاقلين بما لو ثبت عليهم لقضى على حياتهم قضاء مبرما . ورأينا الناس يصلون الى المناصب فيضفون أصابعهم في آذانهم كي لا يستمعوا صيحات المظلومين ، ولا يكون لهم هم إلا ملء بطونهم ويطون أهلهم وأقربائهم ومحسوبيهم . رأينا كل ذلك ناعينا ومعتناه بأداسا ، فهل الذي يفعل ذلك مسلم يدين بالاسلام بعد ما قدمناه من هذه الأحاديث ؟ اللهم كلا ! فهذا هو الاسلام شاهد عليهم ، وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرهم وبشرهم فقال : لا يحمل لأحد أن يأخذ مناصبا وهو غير أهل له ، ومن وصل الى منصب وهو له أهل فإنه يجب عليه أن يجرد نفسه من كل شهوة ، وأن يعدل بين الناس بكل معنى العدل ، نصرف النظر عن قريب وأجنبي وعدو وصديق ، ومن حكم فعدل كان له عند الله أحسن المثوبة ، ومن حكم وجار وغر كان له عند الله أسوأ الجزاء ، ومن عجز عن إقامة العدل وحب عليه أن يترك المنصب للقادر على العدل ، وإلا غضب الله عليه ، ولم يشفع له عجزه .

هذا هو الاسلام وهذه نصوصه الحكيمة تبين لنا قيمة المناصب ، وتوضح لنا الغرض منها أوضح بيان . ففي تحريم على غير الكفاءة القادر أن يلى أسرا من الأمور وهو عاجز عن أدائه على الوجه الأكمل ، وتوجب على القادرين أن يعدلوا فيما يسند إليهم من الأمور كما أمرهم الله ورسوله . وهذا المعنى كان له أعظم الأثر في نفوس أسلافنا من أئمة الاسلام وعلمائهم العاملين ، فقد كانوا ينساقون الى السجون من أجل أن ينقلدوا مناصبا عاليا ، فلا يرضون ويفصلون لسحق والتعديب على المنصب الذي يظنون أنهم لا يستطيعون القيام بحقه على الوجه الأكمل . والحق أنهم كانوا في ذلك مثلا أعلى لمن كان له قلب .

• — أما حقوق الإمارة فتؤخذ مما بيناه آتيا . وأتم حقوق الرئاسة إقامة العدل بين المرءوسين فأما عدل الامام الاعظم أو خليفة المسلمين فأتمه إسناد المناصب الى مستحقها ، ورد المظالم الى المظلومين من رعاياه ، وتأديب الخارحين على القوانين الشرعية التي تنتظم صلاح المعاش والمعاد ، ومراقبة رعيته بكل ما يستطيع من قوة ، فلا يهمل أمرا يرق عقولهم وأخلاقهم ، ولا يدخر وسعا في الوسائل التي تحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم ، ويكون لهم مثلا كاملا في معاملة بعضهم بعضا بالعدل والانصاف . فالامام الاعظم العادل هو مصدر سعادة أمته وهنائها .

وأما عدل الولاية والحكام ومن يليهم من الرؤساء فإنه من أقوى الأركان التي تقوم عليها سعادة المرءوسين ، ويستقر عليه الأمن والنظام . فإذا جار الحاكم وقشت المظالم بين الناس كان ذلك شرا ووبالا عليه وعلى مرءوسيه ، فإن المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من حباه في سبيله ، فتنتقطع بينهم روابط المودة ، ويمس كل منهما في الأضرار بصاحبه ، فضلا عما يسرى لهم من خلق الظلم ، فيتسلطون على خلق الله فيظلمونهم كما ظلمهم ، وبذلك تسود الفوضى وتحبب المظالم الى الأقوياء ، ويحل بالناس الشقاء وتتهارد أئمة الممران . ويتبع ذلك عدل القضاة وعدل الشهود ، فإذا جار القاضي ولم تنسط الشهود كان في ذلك البلاء كل البلاء ، فإن النظام العام يختل بعد ذلك كل الخلل ، وتهدر الدماء والأموال والأعراض بدون أن يحمد المظلوم ملجأ ينصفه . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القضاة ثلاثة : واحد في الجنة ، واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ففضى به ، ورجل عرف الحق لخبار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » رواه أبو داود وغيره . فالتقاضي الممدوح في نظر الدين هو الذي يعرف الحق ويقضى به . وذلك يحتاج الى جهاد عظيم حتى ينتزه القاضي عن التحيز والميل مع أقرابه وأصدقائه أو من تربطه بهم رابطة أو نجمعه معهم جامعة ، أو يكون له في الميل معهم غرض يناله من مال أو رقي ، أو شهوة ، فالتقاضي لا ينجو إلا إذا كان بالنسبة للخصوم كالميزان المنضبط ، فلا يعيل متقال ذرة الى أحد منهم الا بالحق . ومما لا ريب فيه أن صمدة القاضي في معرفة الحق إنعام الشهود ، فإذا تحير الشاهد أو شهد زورا وضلل القاضي أو امتنع عن أداء الشهادة فقد احتمل كل هذه المسؤولية ، وكان من أشق خلق الله وألعمهم عند الله وعند الناس . ويكفي في الحث على ذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » الآية

ومعنى « قوامين » مواظبين على أداء العدل . ومعنى « شهداء لله » تشهدون بالحق ابتغاء مرضاة الله . وقوله « ولو على أنفسكم » مبالغة في الحث على أداء الشهادة ، فكأنه يقول : ينبغي أن يقول الإنسان الحق ولو على نفسه التي بين جنبيه أو ولده الذي هو ألصق الناس به ، لأن ما يقوله الإنسان على نفسه إقرار لا شهادة ، إلا إذا أريد من الشهادة بيان الحق مطلقا ، ولكن الأول أوضح بدليل قوله :

«أو الوالدين» الخ ، فإن شهادة الوالد لا تصح ، وكذا شهادة الولد . فالغرض من الآية المبالغة في قول الحق بحيث لو فرض وشهد الانسان على نفسه أو على ولده أو والده فإنه يجب عليه أن يقول الحق . وكان بعض السلف يرى جواز شهادة الوالد لولده وبالعكس عند صلاح الدين والأخلاق ، عملاً بهذه الآية الكريمة . ومعنى قوله : « إن يكن غنياً أو فقيراً بالله أولى بهما » أن الشاهد ينبغي له أن يفض النظر عن كل اعتبار ، فلا يتحيز لحصم أيا كان حاله ، فلا تحمله الماطفة أو الرحمة أن يشهد لمصلحة أحد بغير حق ، ولا تحمله القرابة أن يتحيز لأقربائه ، فلا يراعى في هذا المقام إلا الله عز وجل الذي أمره أن لا ينشئ من ذكر الحق قيد شعرة ، والله أولى بالفقر منه . ومعنى قوله تعالى : « وإن تولوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » إن تولوا ألفتكم من قول الحق فلا تنطقوا به ، أو تعرضوا عن أداء الشهادة رأساً ، فإن الله خبير بكم لا تخفى عليه خافية من أمركم فيجزى بكم على ما فعلتم شر الجزاء في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . هذه صورة مصغرة لأداب الحكم في الاسلام ، فالحق المستول أن يوفق المسلمين الى ما فيه صلاحهم وفلاحهم ، إنه سميع الدعاء .

عبد الرحمن بن محمد الجزيري

تشاورم الادباء والرد عليهم

غري الادباء في كل زمان ومكان يذم الزمان ، والشكوى من الاخوان ، حتى زعموا أن الاقتار من نصيبهم ، والحرمان مغري بهم ، فقال أبو النضر بن أبي الفتح كشاجم :

غبط الناس بالكتابة قوما حرموا حظهم بحسن الكتابه
وإذا أخطأ الكتابة حفظ سعات تأؤه فصارت كآبه

وقال ابن صادة الأندلسي :

أما الوراقة فهي أنكد حرفة أغصانها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بأيرة غائلط تكسو المرأة وجسمها عريان

وقد رد الحسن البصري عليهم رداً حكيماً ، فقد سأله سائل فقال : لم صارت الحرفة (أي الحرمان) مقرونة بمن حمل العلم والأدب شعاراً ، والثروة بمن كساه الجهل والحق عاراً ؟ فأجابه بقوله : ليس الأمر كما زعمتم ، ولكنكم طلبتم قليلاً في قليل فأعجزكم : طلبتم المال وهو قليل ، عند أهل العلم والأدب وهم قليل ، ولو نظرتم الى من تحارف من أهل الجهل لوجدتمهم أكثر إقتاراً ، والمال عندهم أشد تقاراً .

الدرس الرابع

ألفاه فضيلة الاستاذ الأكبر مساء يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان

سنة ١٣٥٦ بمسجد السلطان الخنقي بالقاهرة

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : (قُلْ تَدْعُوا أُنْزِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ : أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَلْبَنُ بَالْقِسْطِ ، لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الانعام)

أثر هذه الآيات في نفس العربي . الماثور في فضل هذه الآيات . ما قصه الله عن المشركين قبل هذه الآيات . ما حرمه الله من الحيوان . موقف الفقهاء من آية تحريم الحيوان . الاحتجاج بالمشيئة . طريقة القرآن في الرد عليه . الحجة البالغة . الوصايا العشر . سبيل الحق وسبيل الباطل .

أثر هذه الآيات في نفس العربي :

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى منى ومعه أبو بكر وعلى ، فوقف على مضارب القوم ، وكانت فيهم مفروق بن عمرو ، وقد غلب على القوم لسانا وبيانا ، فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إلام تدعو يا أبا قريش ؟ فقال : أدعو إلى توحيد الله وأتى رسوله . فقال : وإلام ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات . فقال مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أبا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ويأثم الدي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . فقال مفروق ما هذا : من كلام أهل الأرض ولو كانت من كلامهم لعرفناه ، دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفتك قوم كذبوك وظاهروا عليك — وأفتك قوم : صرف عقلم .

المأثور في فضائها :

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : من سره أن ينظر إلى وصية عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات « قل تعالوا — إلى : لعلكم تتقون »

وعن ابن عباس : هذه آيات محكمات لم ينسخن شيء من الكتب ، وهن محرمات على بني آدم كلهم ، وهن أم الكتاب ، من عمل بها دخل الجنة ، ومن تركها دخل النار

ما قصه الله عن المشركين في التحليل والتحريم :

وقبل شرح هذه الآيات نقول : إن الله سبحانه وتعالى قص علينا في الآيات السابقة من أول قوله « وجعلوا لله ما ذرأ من الحرت والأنعام نصيبا » إلى قوله : « وهم يربهم يعدلون » بعض النظم التي كان عليها أهل الشرك في الحرت والأنعام ، وقتل الأولاد ، وفي التحليل والتحريم من غير إذن الله . وقص علينا من ذلك ما يأتي :

أولا — أنهم جعلوا لله نصيبا مما خلق من ثمار الزروع وغللتها وتناج الأنعام ، وجعلوا لشركائهم من الأصنام والأوثان نصيبا ، وفرقوا بين النصيبين فقالوا هذا لله وذلك للشركاء . وكانوا يحولون أحيانا ما جعلوه لله إلى الشركاء بذيج السماتك عندها والافتاق على سدتها . أما ما كان للشركاء فلم يكن يحول إلى الله . وفي ذلك يقول الله تعالى : « ساء ما يحكمون » لأنهم لم يكفهم أن أشركوا بل أشركوا معه في القسمة وفصلوا عليه الشركاء .

ثانيا — أن شركاءهم زينوا لهم قتل أولادهم اتقاء لثمار في البسات ، وخوف الفقر في البنين

والبنات ، ففسدت فطرم ، وفقدوا ماطقة الرحمة من قلوبهم ، وحلت محالها وحشية قاسية
ترضى بنحر الولد ودفن البنات .

ثالثا - أنهم كانوا يقطعون بعض أنعامهم وأقواتهم ، ويحجرون النصارى فيها إلا على
أهلهم التى خصوها بذلك .

رابعا - أنهم كانوا يحرمون ظهور بعض الأنعام فلا تركب ولا يحمل شيء عليها . من
ذلك : البسيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . فالبسيرة الناقة التى نتحت خمسة أبطن آخرها
ذكر ، فتشق أذننها ولا تركب ولا تفر من ماء ولا مرعى . وكان الرجل يقول : إذا قدمت
من سفرى أو برئت من مرضى فإقضى سائبة ، فتسبب وترك ولا يلتفع بها . فهذه السائبة .
وإذا ولدت الشاة أنثى فعلى لحم ، فإن ولدت ذكرا فهو للإله ، فإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت
الأنثى أنحاه فلم يذبحوه للإله . وهذه هى الوصلة . وكان الفحل إذا ولد له عشرة أبطن قالوا :
حى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ، فذلك هو الحامى . ولم تذكر هذه فى هذه الآيات ،
وإنما ذكرت فى آية المائدة « ما حل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » .

خامسا - أنه كان لهم أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى شأن من شئونها ، لا فى الركوب ،
ولا فى الحلب ، ولا فى الحمل والسحب ، ولا يحجون عليها .

سادسا - أنهم كانوا يخصون لبن البسيرة وما أشبهها بالذكور ، فإذا ماتت أكلها الذكور
والإناث . وإن ولدت ذكرا حيا جعلوه للذكور ولا تأكل منه الإناث ، وإن ولدت أنثى تترك
للنتاج .

وقد سفه الله أحلامهم فى ذلك كله فقال - « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم
وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

وبين أنه هو الذى خلق الزرع والبساتين لقائدة الناس ، فهو حلال لهم ، ولم يجعل لأحد
فيها حقا إلا حق الله وهو حق الصدقة ، وأنه خلق الأنعام للركوب والدبح ، وأحل ذلك كله ،
وأنه هو الرزاق ، وهو الذى يمنح الرزق ، فلا يجوز أن يمتدى على الأولاد بالقتل خوف
الفقر والحاجة .

بعد أن بين الله هذه الأحوال ، ذكر محرمات الطعام فى آية ، وذكر المحرمات الأخرى
فى هذه الآيات التى تعسرها . أما محرمات الطعام فقد ذكرها فى آية « قل لا أجد فيما أوحى
إلى محرما على طعام يطعمه ، إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير فإنه رجس ،
أو فسقا أهيل لغير الله به ، فن اصطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » .

ما حرمه الله من الحيوان :

حرم الله في هذه الآية الميتة ، وتشمل المتردية ، والطليحة ، وأكيلة السبع إذا لم تدرك تذكيتها قبل الموت ، وحرم الدم المسفوح ، وحرم لحم الخنزير ، وحرم مادبج لغير الله ، ورخص للجائع الذي لا يجد قوتاً حلالاً يأكل منه أن يتناول من هذه المحرمات قدر الضرورة بدون تعد ، على أن لا يكون باغياً قاصداً الأكل لذاته ، بل قاصداً دفع الضرورة وبقاء الحياة .

موقف الفقهاء من آية التحريم :

وحي حصر محرمات الحيوان في هذه الأربعة خلاف كثير بين الفقهاء . فقد رأى البعض الحصر في هذه الأربعة ، ورأى بعض إضافة الحمر الأهلية ، وأضاف آخرون سباع الطير والوحش . وموضع القول في ذلك فروع الفقه .

الاحتجاج على الشرك والمعاصي بالمشبهة :

فص الله علينا ما سبق ، وقص شبهة يشترك فيها مع المشركين غيرهم ، ذكرها في قوله : «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تنصبون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ! قل فقله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » .

وحصل هذه الشبهة أن الله شاء هذا الشرك ، وشاء أن يحرم هذه المحرمات من الزروع والحيوان ، بل شاء أيضاً كل ما عصى به ، ومتى كان ذلك عشيته كان راضياً عنه لأنه لا يقع في السكون شيء يكرهه . وأيضاً فإن الشيء الذي يشاءه الله لا بد أن يقع ، فالمبد مضطرب فيه وجبور . وعلى ذلك فلا يوجه لوم على الشرك والمعاصي ، لأن الإنسان مضطرب فيها ، ومع أنه مضطرب ، فهما برضا الله سبحانه وبمشيئته .

طريقة القرآن في إبطال تلك الشبهة :

هذه شبهة من شبه إبليس وجنوده ، قصها الله في كتابه العزيز ، وبين بطلانها بطرق : منها أنه بين لهم أن الذين كانوا قبلهم كذبوا مثلهم فسلط عليهم عذابه ، وأذاقهم بأسه ونكاله ، ولولا أنه غير راض عن هذه المعاصي وأنهم مختارون فيها لما فعل معهم ذلك لأن هذا يعد ظلاماً ، والمخاطبون لا يرضون بنسبة الظلم إليه . ثم بين لهم أنهم بهذه الشبه يخرصون ويظنون وليس بيدهم حجة ، لأن الحجة قائمة على خلاف مزاعمهم (وستأتي) . ثم تحدثهم فقال لهم : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ هل شهداء لكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . وقال : قلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين .

الحجة البالغة :

والحجة البالغة هي أن الله تعالى سنانا في الكون والخلق ، وقد كانت سنته في خلق الانسان أن جعله عاقلا مستدلا مائرا ، وأعطاه وسائل الاستدلال والنظر ، وهداه النجدين : طريق الخير ، وطريق الشر ، وبعث اليه الرسل يرشدونه ويبينون له الحلال والحرام ، فقطع عنه ولم يبق له تعالى إذا أشرك أو عصى ، فذلك بمحض اختياره ، واختياره أمر ضروري مقطوع به ، عليه قامت الشرائع ، وعليه وضعت القوانين ، ورتبت الاجزى ، ووضعت قواعد الاخلاق للهداية . نعم : إن الله تعالى علم ذلك ، علم أنه سيختار هذه المصيبة ، والعلم في مرتبة الانكشاف لا تأثير له ، فلا يكون سببا للحبر ، ولا يمكن أن يكون علم الله على خلاف ذلك لأنه يكون جهلا مستحيلا على الله . فهذا العلم الانكشافى التابع لاختيار الانسان نجى الارادة والمشيئة على وقفه ، ولا يمكن أن تكون على خلافه . فعلم الله ومشيتته ليستا من أسباب الجبر ، ووجودهما لا يدل على الرضا ، لأنه لا يرضى لعباده الكفر ، ووقوع ما يريد ولا يرضاه لاشئ . فيه . ولو شاء الله هداية الناس جميعا لهداهم ، على معنى أنه يخلقهم خلقا آخر على طبيعة أخرى مثل طبيعة الملائكة ، لا يعصون الله ما أمروا ويفعلون ما يؤمرون . ولكن الانسان إذ ذاك لا يكون هذا المخلوق الذى أريد أن يكون صاحب اختيار ، وأريد أن يكون حليفة فى الأرض تكون سعاده بارادته وشقاؤه بارادته ، فهذه طريقة فيها منتهى الكمال للتنوع ، وإن لزمها نقصان فى بعض الأمور .

نعود بعد هذا الى شرح الآيات فنقول : بعد أن بين الله سبحانه ما كان عليه المشركون ، ودحض حججهم ، وزيف شبههم ، وبعد أن بين المحرمات من أنواع الحيوان ، بين فى هذه الآيات أصول الفضائل والبر ، وبينها تعرف أصول المحرمات . بين ذلك فى عشر وصايا جاء بمصها بطريق التهى ، فتكون الفصيلة فى الضد ، وجاء بمصها على طريق الامر فيكون المحرم ضد ما أمر به . هذه الوصايا العشر : منها الفصيلة فى العقيدة ، والفصيلة فى القول ، والفصيلة فى الفعل ، والفصيلة فى الأموال . وسيتضح ذلك من بيانها :

الوصايا العشر :

« قل تعالوا أقل ما حرم ربكم عليكم » :

أصل الفعل تعال وتعالوا : الامر بمن كان فى مكان عال لمس دونه أن يصعد إليه ، ثم استعمل بعد ذلك فى الامر مطلقا ، والتلاوة : القراءة .

ومعنى ذلك : قل أيها النبي هؤلاء الذين وصفت لك أحوالهم وما كانوا عليه من اتساع اللظن ، وتحريم وتحليل بالهوى وشرك : أقبِلوا أباغكم عن الله سبحانه ، وهو صاحب الحق المكلف في العبادة وفي التشريع ، يحلل ويحرم طبقاً للحكمة ، ومراعاة لمصلحة العباد .

والسر في تكليفه تلاوة ما حرم الله ، الإرشاد إلى أن وظيفته ليست إلا التلاوة والبلاغ ، لأن التحليل أو التحريم ليس إلا لله « ولا تقولوا إنما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

وقد بين الله سبحانه هذه المحرمات ، وهي :

أولاً - « ألا تشركوا به شيئاً » .

يعنى لا يجعلوا شيئاً من الأشياء شريكاً له مستحقاً للعبادة ، له حق التحليل والتحريم ، وحق تقديم القرابات ، وحق الدعاء والاستعانة به ، سواء أكان ذلك الشيء عظيم القدر كالشمس والقمر والكواكب ، أو عظيم القدر في المعنى كالأنبياء والصالحين . فدعوا الأصنام والأوثان وكل شيء مخلوق فإن كل من في الوجود سواء وإن كان عظيماً بالنسبة إلى موجود آخر ، فهو صغير بالنسبة إلى ذاته : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » وعن ابن عباس : إن ودّاً وسواعاً ويصوث ويصوث وكسراً وهي الأوثان التي كانت في قوم نوح أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا نصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً باسمائهم ، وعند تقادم الزمان عبدت بذبائح تدبغ مذبوحة وغير مذبوحة . واستشع بها ودعيت .

ثانياً - « وبالوالدين إحساناً » :

يعنى وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً كاملاً لا شائبة فيه لإساءة وإن كانت صغيرة ، سواء أكانت الإساءة في القول أم في الفعل . وقد جاءت هذه الوصية بجملة النهي عن الشرك ، فدل ذلك على مكانتها وعظم شأنها . وقد قرر الله سبحانه طلب الإحسان بالوالدين وقرنه بالتوحيد في مواضع كثيرة . ففي سورة النساء « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » . وفي سورة الاسراء « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » وفي سورة العنكبوت « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . وفي سورة لقمان « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » .

وفي السنة أحاديث كثيرة في فضل البر بالوالدين ، والتحذير من إساءتهما . من ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » . فقدم بر الوالدين على الجهاد الذي هو أكبر الحقوق العامة على الإنسان .

وسبب ذلك أن حق الوالدين يتلو في الدرجة حق الله ، لأن الله جل شأنه هو الخالق والوالد سبب ظاهري من أسباب الخلق والوجود . ثم إنه احتمال عاء الغيبة والاتفاق ، وتولى إسماعيل الولد جهد الطاقة كما يعلم وكما يقدر ، وذلك بالفرقة الفطرية . فالوالد مستحق للبر ، ومستحق للشكر . ولذلك قال الله : « أن أشكرن ولوالديك إلى المصير » .

ثالثاً — « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » :

نهى الله عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن ذلك حق وسفاهة وحبل ، لأنه خروج على المطرة ، فلا يوجد شخص لم تفسد فطرته يرضى بقتل ولده ، لأنه إن رضى بذلك كان أخط درجات عن الوحوش والأنعام والسوائم . وأيضاً فإن الذي يؤمن بإله رزاق يمنح الرزق إن أراد ويمنحه إن أراد « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » « أم من هذا الذي يوزقكم إن أمسك رزقه » « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودعها ، كل في كتاب مبين » إن الذي يؤمن بإله هكذا لا يقدم على ذبح ولده خشية الفقر والإملاق .

رابعاً — « ولا تقرروا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » :

الفاحشة في الأصل : ما اشتد قبحه من الذنوب . والمراد منها هنا مثل المراد من قوله تعالى : « وذروا ظاهر الأثم وباطنه » وهو كل ما حرمة الله سبحانه مما كان ضاراً بالأفراد في أنفسهم أو أموالهم أو عقولهم أو دينهم أو عرضهم ، أو ضاراً بالجماعات في مصالحهم السياسية والاجتماعية ، فيشمل المحرمات من أعمال الجوارح : كالسرقة ، والزنا ، وقتل النفس ، وشرب الخمر . ويشمل أعمال القلوب كالبيات ، والحسد والحقد ، والضعينة ، وتدمير المكاييد خلق الله . نهى الله عن ذلك كله سرا وعلتنا ، فظاهراً وباطناً .

خامساً — « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » :

حرم الله قتل النفس مطلقاً لا فرق بين مسلم وذمي ، ومعاهد ومستأمن ، لأن لهؤلاء مع المسلمين عهداً يجب الوفاء به ، ولأهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما عليهم متى كان لهم عقد الذمة . وفي الحديث الشريف : « من قتل معاهداً لم يرحم رائحة الجنة ، وإن ربحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » . وفي رواية : « من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله ، قد أخفر

يذمة الله فلا يرح راحمة الجنة ، وإن ربحها ليجد من مسيرة خمسين عاما . واستثنى الله القتل بالحق ، وهو معروف عند الفقهاء . مثل قتل النفس ، والردة ، ومحاربة الله ورسوله .

بعد أن بين الله تعالى هذه الوصايا قال :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » :

والوصية ما يعهد الى الإنسان عمله من فعل خير أو ترك شر ، مقترنا بذلك بما يرجى تأثيره من موعظة .

والمعنى : أن الله وصاكم بهذه الأشياء لينبه عقولكم حتى تستعملوها فتدركوا أن الله اللطيف الخبير لا ينهى إلا عن شر ضار ، وأنه خلق الخلق وكلف الإنسان في الأرض وسلطه عليها يتمتع بما شاء منها ماعدا الخبائث وما كان ضارا ، وأن هذه الأشياء ظاهرة القبح يدرك قبحها بالعقل بعد التأمل ، وحكم الله فيها مطابق لمقتضى العقل الصحيح .

سادسا — « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » :

نهى الله عن أكل مال اليتيم ، وقد أبرز العبارة عن ذلك في طريق أبلغ في الدلالة على الغرض ، فنهى عن الاقتراب منه فضلا عن أكله ، إلا في الحالة التي تكون أحسن لليتيم ، بحيث يكون التعامل معه محققا للمصلحة له . فولى اليتيم مطالب أن يستثمر ماله على أحسن الوجوه وأفضلها ، والذي يتعامل مع ولى اليتيم بالبيع والشراء لليتيم مطالب بأن يكف نفسه عن تصرف يعود على اليتيم بالضرر . وفي هذا المعنى قول الله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح » . نهى الله عن قربان ماله إلى أن يبلغوا الأشد ويستحكم عقولهم وجسمهم ، ويستطيعوا معرفة الضرر والنافع ، وذلك ببلوغهم سن الرشد مع تحقق الرشد . قال الله تبارك وتعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » .

سابعا — « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » :

أمر الله تعالى بأن يكون التعامل في المكيلات والموزونات بالعدل ، وهو يكون بين طرفين ، فلا يأخذ واحد أكثر من حقه ، ولا يقصه الآخر حقه .

وقد جاء في هذا المعنى قول الله تعالى : « وبل للظالمين الذين إذا اكْتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون » .

في هذه الوصية والتي قبلها النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، سواء أ كانوا راشدين أم غير راشدين . وإذا كان الله تعالى نهى عن خسة من البر تزيد أو تنقص وأوعده عليها

بالويل ، فكيف يكون حال من يحتال لا كل مال البتة ؟ وكيف يكون حال من يأخذ الرشوة
ليعدل عن الحق ؟ وكيف يكون حال من يستغل عقل الناس من الضعفاء والبلهاء للاستيلاء
على أموالهم ؟ أولئك لهم نار جهنم وبئس القرار !
بعد هاتين الوصيتين قال الله تعالى :
« لا تكلف نفسا إلا وسعها » :

ومعنى هذا أنه لما كان التحرز التام قد يكون خارجا عن الطوق في معاملة البتة ،
وفي الكيل والوزن ، نبه الله إلى أن المطلوب هو ما في الوسع . فتي كانت النفس بعد التحري
مطمئنة إلى أن مصلحة اليتيم تحققت ، وإلى أن العدل وجد في الكيل والوزن ، كان في ذلك
الخروج عن العهدة ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وطاقتها .
فأمنّا - « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » :

طلب الله العدل في القول ، وهو يكون في الشهادة والحكم ، والنصيحة والمشورة ،
وفي التعليم والفتيا ، وفي كل شيء طريقه القول ، ولو كان العدل في القول ضارا بذوى القربى
والصدقة ، بل ولو ترتب عليه ضرر الشخص نفسه « يأبى الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط
شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » « يأبى الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء
بالقسط ، ولا يجرمكم شئنا أن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »
فأسعّا - « وبمهد الله أوفوا » :

طلب الله الوفاء بالعهد ، وهو أنواع : منها العهد بين العبد وربّه ، بالترام أحكامه من أوامر
ونواه . وذلك يكون بقبول الدين كله ، والاعتراف به ، والعمل على مقتضاه . فالوفاء بمهد الله
هو الطاعة لله ورسوله . ومنها العهد الذي بين الأفراد والجماعات ، سواء أكانت بالقول
أم بالكتابة . ومنها العهد الذي بين دولة ودولة أخرى . وهناك عهد ضمنية يحددها العرف
والعادة بين الناس ، وتقتضيها حياة الجماعة .

وعلى الجملة فالعهد الترام يجب على المسلم وفاؤه ما لم يكن محرما مناقضا لكتاب الله
وسنة رسوله . فإذا كان العهد مناقضا لأحكام الله وجب نفيه ، وكل شرط بين المسلمين جائز
إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا . ومثل هذا العهد مناقض لنظام العام ، فلا يكون
له احترام .

وقد حث القرآن في مواضع كثيرة على الوفاء بالعهد . من ذلك قوله - « وأوفوا بالعهد
إِنَّ العهد كان مسئولا » . وقوله « وأوفوا بمهد الله إذا طهدهم ولا تنقضوا الإيمان

بمد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تعملون » . وقوله « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

بعد أن بين الله سبحانه هذه الوصايا الأربع قال :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » :

أي أنه وصانا بهذا لتتذكر نعمه وما حاطا به من الأصول النافعة في الحياة ونظام المجتمع ، ولتنتعظ بهذا التذكير فوجه همتنا الى المحافظة على كل ما فيه خير ومصلحة .

ولمذ هذا كله بين الله سبحانه أن مادعا الخلق اليه من الدين الخفيف والقرآن المطهر الذي اشتمس على قواعد العدل وعلى النظام المصلح للجماعة الانسانية ، هو الصراط المستقيم الذي يجب على الناس اتباعه وسلوكه ، وعدم الخروج عنه الى الطرق المضلة المبعدة عن السعادة ، فقال :

سبيل الحق وسبيل الباطل :

« وأن هذا صراطي مستقيما فتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خط خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . ثم خط حطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : هذه السبل ليس فيها سبيل ، لا عليه شيطان يدعو اليه .

وقد أفرد سبيل الله وجمت السبل الأخرى لأن سبيل الله سبيل الحق ، والحق واحد لا تعدد فيه ، وعلى الناس طلعه . أما الباطل فتعدد وطرقه متعددة ، لذلك يجب على المسلم دائما أن يتحرى سبيل الله ، وأن يحد للوصول الى معرفته وسلوكه ، لا يعنى أحد من ذلك ، وكل مكلف على قدر وسعه وطاقته . والذي يخالف الطريق بمد الجبد وبذل ما في الوسع معذور . وللمخطي أجر وللمصيب أحران . أما المسلم الذي يخالف الحق وفي إمكانه البحث عنه فهذا غير معذور ، وقد اتبع الطرق المتفرقة وكان في إمكانه اتباع الطريق المستقيم .

« ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » :

معناه أن العمل بهذه الوصايا موصل الى تقوى الله التي هي السعد عن الشرور والمعاصي التي تفضب الله ولا يرضى بها لعباده . ومن الواضح أن هذه الوصية الأخيرة جماع الخيرات والبركات ، والذي يتبعها يتبع النهج القويم والصراط المستقيم . وفقنا الله الى معرفته ، وأعانا على سلوكه

والحمد لله أولا وآخرا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين !

اللغة العربية بين القوة والضعف

في برامج الدراسة - دعم الإصلاح

- ٣ -

دوافع نفسية عدلت في في العدد الماضي عن متابعة الحديث في موضوع اللغة العربية وقضية إصلاحها ، الى ظلال النبوة أنتم أريحيها ، والى شمس الهداية أستضيء بنورها ، والى ذكرى الميلاد الحمدي أستوحى من سماء آيات الايمان غصة مشرقة ، وعظمة الاسلام قاهرة باهرة ، ومبعث الحياة الفاصلة في شرايين الانسانية من قلب البيت العتيق في البلد الأمين ، حيث بلغ الكتاب أجله ، وابتدأ منتهى أطوار التجديد على روابط الاخاء والإصلاح في أهم مظاهره ، وأخص دواعيه ، في وقت نحن فيه أحوج ما يكون الى ذكرى ذلك التجديد المحمص الفياض بالحياة والانجاز ، لنقبس من شعلته ، وترسم سبل هدايته ، وتناثر آثاره فيما تدفعنا إليه دوافع العصر من مناحى الانشاء والتجديد . والآن نعود الى حديث اللغة ، وهو أوس ما نحس به حياتنا فيما تتطلب من تجديد لا زيف فيه ، وإنما يعتمد على الحقائق النابتة التي نستمد عناصرها من ذخائر الماضي المجيد ، ومطالب الحاضر الوليد .

في مقالنا الثاني عن « اللغة العربية » قلنا إنها في حاجة الى بحث شامل يتناول برامجها الدراسية من قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ومناهج تلك البرامج ، ويتناول أدب اللغة تاريخياً ونصوصاً وأساليب ، ويتناول فقه اللغة تحصيلاً وتنظيلاً ، وتحبيب الفصحى الى الناس حتى تكون لغة أحاديثهم وكتاباتهم ، وذكرت لذلك خمس دعائم يقوم عليها الإصلاح المنشود .

وأولى تلك الدعائم هي النظر في برامج اللغة الدراسية في الجامعة الأزهرية ، ومدرسة دارالعلوم ، وقسم اللغة العربية من كلية الآداب في الجامعة المصرية ، والمدارس الأهلية ، والعمل على توحيد تلك البرامج في جميع هذه المعاهد بنسبة الأعمار التعليمية للطلاب ، والنظر في الكتب المقررة وتمحيصها ، وتركيز صلة الفنون العربية ببعضها ، وترتيب أبواب كل فن وتوزيعها على الفرق المختلفة توزيعاً يكفل وحدة الثقافة الأدبية العربية ، ويعيد للفصحى نضارتها وبهاءها .

(١) الجامعة الأزهرية : لا يتخالف أحدنا شك في أن الأزهر هو جامعة الشرق الوطنية الفسدة التي ظلت - وستظل - قرابة ألف سنة تؤدي رسالتها في نشر علوم الشرق ومعارفه وفنونه ، وهو الحارس القوي الأمين للغة الإسلامية ، والشريعة المطهرة الحنيفية ، ولا يمتري أحد في أن اللغة العربية وعلومها تنزل من علوم الاسلام ومعارف الشرق منزلة الإنسان من

جوارح الانسان ، ولا نبعد كثيرا إذا قلنا بل منزلة القلب من الجسد ، لأنها لسان الاسلام الرمزي ، بها زل القراء ان الكريم ، وهو المستور المهيمن على جميع شئون الحياة ، فإذا اغتور الائمة وهن ، أو أصابها جود باعد بينها وبين السنة المسلمين وعقوهم ، استعجم عليهم فهم كتاب الله تعالى ، وأغلقت دونهم أبوابه ، وارتدوا عن أسرارهِ التشريعية حاسرين ، فيضرب الجبل رواقه في ساحتهم ، وينشر عليهم رايته ، وتستعوذ عليهم الضلالة ، وتقتل فيهم روح الفضائل التي تلعب من معين القراء ان الحكيم ، ويميشون لأجسامهم كما يمشي الماديون في عصرنا آلات تحركها النزوات والشهوات . ولو أن باحثا رمى بنظره الى ماضي المسلمين لرأى في يسر ووضوح ان عهود التقدم والقوة ، وأزمان المجد والسيادة في تاريخ الأمة الاسلامية كانت مرتبطة أشد الارتباط بفهم القرآن وأسانيهه فهما ينطبق على شريعة القصص ، وأن عصور الناحر والضعف وأيام الركود والانحطاط في ذلك التاريخ كانت مظهرا من مظاهر تبرير الالسنه وتبايل الأفكار والجبل بأحكام الاسلام ، وعدم فهم أسلوب القرآن في أوامره ونواهي ، وآدابه وتعاليمه فهما يستقى من منابع القصص ، ويستمد من مشارعها . ولم تكن العناية باللغة في عصور الاسلام الذهبية بأقل من العناية بأى شأن من شئون الدين ، بل لقد كان الدين دافعا قويا على العناية بها ، وحسبنا أن نعلم أنها لم تدون قواعدُها إلا صونا للقرآن أن يدلّ إليه اللحن على السنة حمراء المعجم كما ذكره مؤرخو النحو ، وقد روى ابن الأثير في الطبقات أن السبب في طلب سيبويه النحو وتبريزه فيه وإمامته لأهله أنه كان يستمل على حماد بن سلمة ، فقال حماد يوما : قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من اصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء ، فقال له حماد : لحت ، ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه : لا حرم لأطلين علما لا تلحنني فيه أبدا ، وطلب النحو .

وقد دأب العلماء منذ القديم على أن يصلوا بين علم العربية والدين بأوثق الصلات ، حتى أن بعضهم يغلبه على جميع العلوم من أجل أن فهم الأحكام وأخذها من الأصول متوقف على التفقه في فنون الإعراب . قال العلامة جبار الله الزنجشیری في فاتحة كتابه (المفصل) : والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء — يقصد من يفضون من العربية — في قلة إصنافهم وفقر جورم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجيدون علما من العلوم الاسلامية فقها وكلامها وعلی تفسيرها وأجبارها إلا وافتقاره الى العربية بين لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع ، ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومائلها مبني على علم الإعراب ، والتفسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين ، والاستظهار في مأخذ النصوص بأقوالهم والتشتمل بأهداب فسرهم وتأويلهم ، الى أن قال : ومن لم يتق الله في تنزيله فاجترأ على تماطى تأويله وهو غير معرب ركب عمياء وخبط خبط عشواء ، وقال ماهو تقول واقتراء وهراء ، وكلام الله منه براء ، وهو المرقاة المنصوية الى علم البيان ، المطلع

على نكت نظم القرآن ، الكافل بإبرار محاسنه ، الموكل بإثارة معادنه ، فالصاد عنه كالساذ لطرق
الخير كي لا تسلك ، والمريد بموارده أن تعاف وتترك .

فالنظر كيف تراه جعل العلوم الإسلامية مفتقرة الى العربية ، وجعل الصاد عنها كالساذ لطرق
الخير . وهذا أيضا الامام عند القاهر الجرجاني شيخ البلاغة وواضع نهجها يقول في كتابه
دلائل الإعجاز : « ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا وأسبق فرما ، وأحلى جنى وأعذب وردا ،
وأكرم نتاجا وأنور سراجا من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ويصوغ الخلى ،
ويلفظ الدر وينث السحر ، ويقرى الشهد ويريك بدائع الزهر ، ويحبك الخلو البائع من الثر ،
والذي لولا تحفته بالعلوم وعنايته بها وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة » . ثم قال زاريا
على من لم يقدر هذه العلوم حق قدرها : « وأما المعو فظنته ضربا من النكف وبأيا من النصف
وشينا لا يستند الى أصل ، ولا يعتمد فيه على عقل الى أشباه هذه الظنون وآراء لو علموا
مغبتها وما تقود اليه لتمودوا بالله منها ، ولأنقوا لأنفسهم من الرضا بها ، ذاك لأنهم بإشارم
الجهل على العلم في معنى الصاد عن سبيل الله ، والمبتنى إطفاء نور الله تعالى ، وذاك أنا إذا كنا
نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، وبانت وبهرت ، هي أن كان على حد
من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ، ومنتها الى غاية لا يطمح اليها بالفكر ، وكان محالا أن يعرف
كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب ثم بحث عن العلل التي بها كان
التباين في الفضل وراد بعض الشعر على بعض ، كان الصاد عن ذلك صادّا عن أن تعرف حجة الله
تعالى ، وكان مثله مثل من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى . . . الخ »
ثم قال في موضع آخر : « وأما زهدم في البحر واحتقارهم له ، وإصغارهم أمره وتهاونهم به ،
فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم ، وأشمه بأن يكون صدّا عن كتاب الله
وعن معرفة معانيه » .

فهو قد أبلغ الحجة في بيان مقام علوم اللغة العربية وآدابها ، من علوم الشريعة وحفظ القرآن
الكريم ، والكشف عن أسرار إيجازه ومعانيه . وهذا إمام من أئمة اللغة والأدب وهو
أحمد بن فارس يقول في كتابه المرسوم بالصاحي : « إن لعلم العرب أصلا وفرما ، أما الفرع
فمعرفة الأسماء والصفات ، كقولنا رجل وفرس ، وطويل وقصير ، هذا هو الذي يبدأ به عند التعلم .
وأما الأصل فالتقول على موضوع اللغة وأوليها ومنشأها ، ثم على رسوم العرب في مخاطبتها ، وما لها
من الافتنان بتحقيقا ومجازا ، والساس في ذلك رحلان : رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره ،
وآخر جمع الأمرين معا ، وهي هذه الرتبة العليا ، لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنة ، وعليها
يعمل أهل النظر والفتيا » .

هؤلاء ثلاثة أعلام من علماء اللغة وواضعي فنونها ، سقنا بعض كلامهم هنا لتبين على

صوته المتكررة التي قامت عليها دراسة اللغة العربية منذ نشأتها انشأة فنية ذات أصول وقواعد معروفة في المدارس الاسلامية القديمة ، حتى يتسنى لنا أن نحكم حكما صحيحا على الطريقة التي اتبعها الأزهر ، باعتباره أكبر مدرسة نظامية للمعلوم الاسلامية ، في دراسة علوم اللغة وقواعدها ، فهو منذ عهده بالحياة العلمية المنظمة نظر الى اللغة العربية نظر رعاياها إليها ، ودرس كتب أئمتها ، وأخذ عنهم مذاهبهم وماراثق تعليمهم ، وتأثر أثرهم فيها ، وأعطى كما أعطوا اللغة من القداسة ما هو من خصائص أمور الدين ، ودرسها على أنها وسيلة من وسائل فهم الدين ، وهو قد درس فيها درس من علوم اللغة النحو والبلاغة ، والمعرض والقافية ، والأدب نصوصا وتاريخا ، فكانت دراسة النحو في نظره وسيلة لفهم النصوص الشرعية من القرآن والسنة ، وتوجيه عبارتها توجيها لمدقه السليقة وتأييده القواعد ، وكانت دراسة البلاغة لأجل تبين وجوه إيجاز القرآن وللكشف عن أسرار أسلوبه الذي تفرد به فأعجز الفحول اللسن ، وأظم الأبياء المقاول ، وكانت دراسة العروض لمعرفة أوزان الشعر وقرائه التي توخاها العرب في أشعارهم وجعلوها سنتهم في قريضهم حتى يستطيع تبين مبادئ أسلوب القرآن لأعارض الشعر وتقاسيمه تبينا علميا يتضح به الرد على من زعم أن القرآن قول شاعر ، تحقيقا لمعنى قول الله تعالى في ترتيبه عن هذه الغمزة « وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون » . ويتضح به دحض مزعمهم على النبي صلى الله عليه وسلم فيما حكاه القرآن عنهم بقوله : « ثم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون » تقريرا لتأويل قوله تعالى في تشریف نبيه الأعظم صلوات الله عليه : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »

ومن العروض قد يبدو في بداية النظر أنه أبعد فنون العربية عن دوافع الدين ، ولكن الأزهر ، كغيره من مدارس الاسلام ، درس العروض وأمن في بحثه إجابة لداعية دينية ، لا تقل أهمية عن أية داعية من داعيات الدين .

ودراسة الأدب والنظر في روائعه شعرا ونثرا كانت في نظر الأزهر أيضا مهنلا يدعو إليه الدين ، لأننا لو لم نتفهم الجمال الفني في الأدب المشهور عن أشعر شعراء العربية ، وأكتبهم وأخطبهم ، ونذكر موطى السمو في ذلك الأدب ، ونكشف عن أسباب ذلك الجمال ، لما أمكسا أن نقرر حجية القرآن من جهة إيجازه البلاغي عن طريق الموارد العلمية ، وهذا المذهب هو الذي سلكه الامام الجليل أبو بكر الباقلاني في كتابه إيجاز القرآن ، فقال في أحد فصوله : « فترجع الآن الى ما ضمنناه من الكلام على الأشعار المتفق على حودتها وتقديم أصحابها في صناعتهم ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب ، وتباعد مواقع البلاغة ، ونستدل على مواضع البراعة » ثم عرض الى امرئ القيس ووصف شعره وعلو طبقته ، وتكلم على بدائع المحدثين من الشعراء ، مبينا أن معانيهم وأغراضهم مهما عظمت في شريعة الأدب فهي في متناول البشر

إلا أنها تتفاوت تارة ، وتتقارب أخرى ، الى أن قال : « ونظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص ، وقبيل عن النظم متخلص ، فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه فتامل ما نقوله في هذا الفصل لأمري القيس في أجود أشعاره » وأخذ بعد ذلك ينقد معلقته ليبين « أن طريقة الشعر شريعة مورودة ومنزلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ... فاما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه ، فإن المقول تنبه في جهته ، وتجار في بحره ، وتضل دون وصفه » .
وصنع مع البحري في أجود شعره صنيعه مع أمري القيس في معلقته ، وأكد المعنى الذي من أجله عقد هذه الموازنات ، والذي على غراره كانت دراسة الأدب في مدارس الاسلام فقال « والشعر قبيل ملتبس مستدرك ، وأمر ممكن منطبع ، ونظم القرآن حال من أن يملق به الوهم أو يسو إليه الفكر ، أو يطمع فيه طامع ، أو يطلبه طالب « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »

هذه سبيل من دراسة الأدب هي أدق سبله وأخصبها وأنفعها ، هي سبيل النقد الأدبي القائم على قواعد العربية وموازين البلاغة ، لم يعرفها أولو البجاجة من المنادية ، وقد عرفها علماء الاسلام ، وعلى هديها درسوا الأدب ، وهذه الفقه في البحث والسمو في الفن يصورها الباقلاني بقوله : « واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان ، قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تغطن لها فيه ، وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر » .

وقد أخذ الأزهر عن هؤلاء الأجلاء هذا النهج في دراسة الأدب دراسة نقد طاحص ، وتدقيق وبحث ، ليتوصل بهذه الدراسة الى كشف الغطاء عن الجمال التي في أسلوب القرآن ، ويظهر بالبحث العلمي فوقه وهيئته على ما عدها من الكلام .

على هذا السن سار الأزهر جهودا طويلا يدرس في حرية مطلقة : في الكتب ، والفنون ، والزمن ، دون أن يف تقيده براج موضوع ، إلا الحدود العامة التي توجهها مهمته ورسائله في الحياة ، فأنتج ثروة علمية في البحث والتأليف ، ولا سيما ذلك النوع الذي يدور على النقد الممثل في الحواشي والتقارير بصورة واضحة ، لم يحفظ التاريخ للجامعة من الجامعات العلمية مثله ، وقد كان لعلوم اللغة منها أوفر حظ وأكبر نصيب ، لأنها أرزت الى أمته ، ولأذت بحرمه بعد أن تنفوس مجدها في بغداد ، وتشتت شمل حاتها ، فلهذا الى الأزهر ، وفتح لهم ذراعيه ، وضمهم بين عطفه ، وعادت لهم الطمأنينة بعد القلق ، والهدوء بعد الاضطراب ، وقبوا على العلوم والفنون شرحا وبحشا ، ولكثرتهم في شبه عزلة عن المجتمع الذي استولى عليه الجهل واستحوذت عليه العجبة ، وغرقت اللغة العربية في محيط من البربريات المتكاثرة بشكائر العناصر التي ذكرت قوميتها القديمة فأحييت لغاتها ، ولم يبق للعربية ذكر إلا في ساحة الأزهر وحلقات

دروسه وأقلام مؤلفيه ، وفي هذه الحقبة كانت تدرس فيه أمهات كتب اللغة والأدب على طريقة القدامى في العرض الممزوج بالبحث والاستطراد على ما هو ماثل في كتاب الكامل للمبرد وكتاب الأمل لابن علي التالبي ، وفيها ألف السيوطي وشيوخه كتبهم ، وألف الشيخ جمال الدين بن هشام صاحب المغني بعض كتبه ، ثم تعاقب شراح الآلفية وأصحاب الحواشي والتقارير ، وفيها جاءت كتب السعد التفتازاني وأقرانه في البلاغة ، ولم يحق درسها غير الأزهر ، حتى جاء دور النهضة بعد الركود والليقطة بعد الجود ، وبدأت الشعوب الإسلامية تبحث من جديد ، وانفتحت إلى اللغة العربية كأداة لتنظيم العام بين شعوب الإسلام والعرب ، ورابطة قوية قومية بينهم ، وخرج بعض علماء الأزهر إلى المجتمع قليلا قليلا فعرفوه وعرفهم ، ومن هنا تبدأ للدراسة في الأزهر ، ودراسة اللغة وعلومها على الأخص ، مرحلة جديدة وجهته وجهة فيها شيء من النظام وتحديد الأغراض في كل فن ، فبدأت دراسة اللغة وفنونها تأخذ سمما جديدا يتصل كثيرا بمحاضراتنا التي نعول عليه في الأخذ بناصر اللغة العربية وقضية إصلاحها وسنبين ذلك في المقال التالي إن شاء الله تعالى .

صادق إبراهيم عريمره

العطف على الإخوان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك ، تبوأ من الجنة منزلا » .

وقال حكيم : « المودة جسم وروحها الزيارة » .
وقال شاعر :

رأيت أخا الدنيا وإن بات آمنا على سفر يسعى به وهو لا يدري
تأملت إلا عن يد أستيدها وزورة ذي ود أشد به أذرى

وأحسن ما قيل في استدعاء الزيارة قول حميد بن مهران لأبي أيوب الهاشمي يستدعيه لزيارته :

أفبك الردى يا بديع الورى ومن حل من هاشم في الدرى
وفديك من وده في المغيب إذا امتحن الود واهى العرى
وصالك يمدد صدق الرجا وصفو المدام وطيب الكرى
وقد تلفت النفس من وامق إلى أن تراك فماذا ترى ؟

موازن الحكم الأدبي

٢ - الدوق

في المقال السابق اعتبرنا الدوق من الضروري لحكم الأدبي ، وقد بسطنا هذا الاعتبار بما فيه الكفاية ، فاستعرضنا آراء النقاد السابقين ، وناقشنا هذه الآراء بما قد ينقدح في ذهن القارئ من السؤال والاعتراض ، وما زلنا حتى انتهينا الى القول بثقافة الدوق ثقافة رشيدة حتى يصح له « الحكم الأدبي » على الوضع الصحيح ؛ وقد بينا الطريق الى هذه الثقافة ، وهو طريق التربية على تذوق النماذج الأدبية من روائع الشعر والنثر ... وفي هذا المقال نتناول ناحية من نواحي الموضوع لا بد منها ، إشباعاً للبحث ، واستيفاءً للسكلام ، وإفادة للقارئ ، وإنما تدور هذه الناحية حول التعليل لحكم الدوق ، والاحتجاج لما يقضى به في مسائل الأدب والنق ، خصوصاً وقد اختلف النقاد في ذلك وتباينت أقوالهم ، وذهب بعضهم فيها مذهبا يتصل بالهوى أكثر مما يتصل بالحق ، فإن سنان الخماجي يرى أن حكم الدوق يعلل في جميع الأحيان ، وأن هذا التعليل يمكن أن يلتبس من كتب البلاغة والقواعد التي قررها الباحثون في النقد ، فيقول وهو يقدم كتابه « سر الفصاحة » الى القارئ : « فأما من يفرق بين الكلام المختار وغيره ، فإنه وإن كان غير مقتدر الى كتابتي هذا كافتقار القارئ من هذه الصناعة ، الزاغب في اقتباسها ، فهو محتاج اليه من وجه آخر ، لأن العالم بالفصاحة إذا قطع على فصاحة بيت من قصيدة ، أو فصل من رسالة ، أو كلمة أو ما أشبه ذلك ، وفضلته على غيره ، لم يمكنه أن يبين من أين حكم ، ولا لاي وجه فضل ، بل إنما يفرع الى مجرد دهواه ، ومحض قوله ، فإذا عرف ما بينته وفصلته في هذا الكتاب ، علل واستدل ، وذكر الوجوه والأسباب ، كما أن العارف بالشعر صحيح النظم بذوقه ، والمغرب يعرب بطبعه وحادته ، فإذا وقف على علم العروض والنحو ، علل في البيت الموزون ، والكلمة المعربة ، وقال : إنما كان هذا صحيح الوزن لأنه من الدائرة العلانية ... وذكر ما يحسن فيه من الزخاف وبقيح ، وفصل ما يفصله العروضيون ، وقال في الكلمة المعربة : إنما كانت مثلاً مرفوعة لأنها فاعلة ، والفاعل في كلام العرب مرفوع ، وما يجري هذا الجري ، وعلى مثل هذا النحو يقول في الفاسد الذي ينفرمه ذوقه ، أو يكرهه طبعه ، ويعمله على حد هذا التعليل الذي ذكرته (١) » وقد عرض الأستاذ عباس العقاد من الأدباء المعاصرين الى هذه المسألة بأوضح وأجلى مما قاله ابن سنان فقال وهو يناظر صاحبا له : « إن الناقد الذي لا يحسن تعليل آرائه في الشعر

ليس بناقد ، وإنما هو قارئ محدود يدارى مجزه عن الفهم والتعبير بالوقوع في جوار الدوق الذى يحميه من المطاردة ! أما أنا فرأى في هذه المسألة أن الدوق يعطل ، وأن النقد هو تحليل الاستحسان والاستهجان ، أى تحليل الدوق . ومن الملاح والخير للأدب أن تقرر هذه القاعدة في النقد ، لأنها من جهة صحيحة معقولة ، إذ نحن لا نستحسن المعنى أو التعبير إلا لسبب يختلف في الوضوح والغموض ، ولكنه موجود لاشك في وجوده ، ومن عمل النقد - بل عمله الوحيد - أن يظهر هذه الأسباب ، ويرد كل طاقة منها الى قسطاس مستقيم ، فليس تحليل الدوق بالمتنع ، ولا هو الباب المألق ، ولكنه شيء قد يسهل وقد يتعذر كما يسهل ويتعذر كل إدراك وكل تعميم . ومن الصلاح والخير للأدب أن يقرر تحليل الدوق في استحسان الكلام واستهجانه ، لأن هذه القاعدة فضلاً عن صحتها خليقة أن تقطع السبيل على من يبذون الآراء وهم غير أهل لأبدائها ، وتوجيه الأدهان إليها ، فإن مطالبة المستحسن بالسبب الذى يبنى عليه حكمه ، ثمومه أن يلقى الحكم بحساب ، وتعمص الناس من تبلبل الأفكار ، واختلاق الدماوى بغير برهان ! »

وهذا الذى قاله ابن سنان وقاله المقاد ، كلام مردود في إطلاقه ، فإن تحليل الدوق أمر يتعذر على الناقد في جميع الأحوال ، ولو استقام له ذلك مرة فانه يصعب عليه مرات ، وابن سنان والمقاد من الرجال الذين زاولوا مسائل النقد ، ومارسوا الأحكام الأدبية ، فكان الظن أن يكون ذلك واضحاً لهما كل الوضوح ، خصوصاً وكثيراً ما زارهاا بلقيان بالحكم الأدبي ولا حاجة لهما إلا الدوق والدوق لحسب ! ولا شك أن ابن سنان غطى كل الخطأ إذ يزعم أن الحكم في الأدب والتحليل له ، كالحكم في مسائل العروض والنحو والأهراب . وكفى بآبن خلدون كان يقصد الى تنفيذ هذا الزعم إذ يقول : « فلكة البلاغة تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب . وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم ، أعرض عنه وبجه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يمجز عن الاحتجاج لذلك ، كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانبة ، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم (١) »

ثم لاشك أيضاً أن المقاد غطى أو بتعبير أدق محدود التقدير ، ينظر الى موضوع النقد نظرة قاصرة فيرى أن تحليل الدوق معقول وليس بالمتنع لأننا « لا نستحسن المعنى أو التعبير إلا لسبب يختلف في الوضوح والغموض » ، ثم يرى أن عمل النقد الوحيد أن يظهر السبب في هذا الاستحسان . وقد نسي المقاد أن هناك ما هو فوق المعنى والتعبير ، وفوق الوضوح والغموض ، مما يتميز به الكلام ويتركه الناقد المطبوع بذوقه ، حتى ليتجلى في إحساسه

مشرقة واضحا ، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنه فضلا عن الاحتجاج له ، فعانه شأن الشافعي وقد سئل في مسألة فقال : إني لأجد بيانها في قلبي ولكن ليس ينطلق بها لساني . والناقد في هذا المعز ليس يعاجز ولا مقصر ، ولا يصح أن تهمه بالعي والفتاهة ، لأن ما يحسه في الكلام في هذه الحال شيء لا يرجع الى الالفاظ والمعاني ، وإنما يرجع الى ما فيه من المعاني الروحية ، تومض في ثنايا الكلام كوميض البرق في ثنايا الظلام فتخطف القلب كما يخطف البصر ، وإن هذه المعاني أكثر ما تتجلى في كلام الله حين يتحدث ذو الجلال عن ذاته وصفاته ، وقدرته وقوته ، وجلاله وعزته . . . ولقد كان لهذه القوة الرائعة الأثر الأقوى في رياضة العرب ، واجتذاب نفوسها نحو الاسلام ، وهي التي كانوا يشعرون بوقتها من غير أن يعلموا كتبها (١) ، تلك حقيقة ظاهرة قد أدركها كثير من النقاد من قبل ، وقد يكون الآمدى أول من أدركها ونبه عليها في القرن الرابع الهجري ، فتجده يقول وهو يوازن بين الطائيين : « وسترى محاسنها وبدائعها وعجيب اختراعها ، فإني أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضها ومعانيها في الأشعار التي أرتبها في أبواب الكتاب ، وأنبه على الجيد وأفضله على الرديء ، كما أنبى الرديء وأرذله ، وأذكر من علل الجميع ما ينتهي إليه التخليص ، وتحيط به العناية ، ويبقى ما لم يمكن إخراجه الى البيان ، ولا إظهاره الى الاحتجاج ، وهي علة ما لا يعرف إلا بالدربة ، ودائم التجربة ، وطول الملاحظة ، وبهذا يفضل أهل الخدافة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن قصت قريحته وقلت دريته ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج . . . ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمان من كل عيب ، موجود فيها سائر علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدربة الطويلة ، وكذلك الجاريتان البارعتان في الجمال المتقاربتان في الوصف ، السليمتان من كل عيب ، قد يفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلا كبيرا ، فإذا قيل له وللنحاس : من أين فضلت أنت هذا الفرس على صاحبه ، لم يقدر على عبارة توضح الفرق بينهما ، وإنما يعرف كل واحد منهما بطبعه وكثر دريته وطول ملاسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه مختلفا .

وقد حكى اسحاق الموصلي قال : قال لي المصنم : أخبرني عن معرفة النظم وبيتها لي . فقلت : إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولا تؤديها الصفة . قال : وسألتني عبد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكنتني التبيين ، ولكنهما تقاربا ، وفضله هذا بشيء تشهد به الطبيعة ، ولا يعبر عنه السان (٢) .

(١) الزمهرى لشيخ عبد الله بن أبي تمام والبيهقي . (٢) المراهة بين أبي تمام والبيهقي .

ولقد جاء ابن شهيد الأندلسي من بعد الأمدى في القرن الخامس الهجرة فتناول هذا المعنى بالتوضيح من الناحية الفلسفية والنفسية ، واسمع له وهو يقول في قصة « التواضع والزواج » : « وقد تكون هناك صور من الكلام تملأ القلوب ، وتشقق النفوس ، فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه . . ثم يقول : وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ! وذلك كقول امرئ القيس :

تنورتها من أدركات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر طالي

فهذه الديباجة إذا تطلعت لها أصيلاً من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق بالنفس ، والاستيلاء على القلب كما ترى . . وهذا كلام حله ابن شهيد على ما اشترطه في شخصية الأديب من قوة الطبع ، وصفاء الروح كما بينا ذلك في بحث نشرناه منذ سنوات عن مذهب ابن شهيد في النقد (١) .

ومعنى هذا الكلام الذي يقرره ابن شهيد أنك إذا تأملت بعض الصور الكلامية الرائعة ، لا تجد روعتها أصلاً من جزالة اللفظ ، أو طرافة المعنى ، بل قد تكون سهلة التناول ، قريبة الغور ، ولكن روعتها ترجع الى ما يمكن في ثناياها من القوة الروحية للكاتب أو الشاعر ، وهذا معنى قد توسع في شرحه أبو الحسن الجرجاني وهو ينافح عن المتنبي إذ يقول مخاطباً صاحب بن عباد : « وربما توسعت في الدعوى فضل توسع ، وملت مع الخيف بعض الميل ، حتى تناولت طائفة من المختار فجعلته في المتنق ، وأخذت صدرأ من الحيد فجعلته مع الرديء ، ولسنا تنازعك في هذا الباب ، فهو باب يضيق مجال النقد فيه ، ويصعب وصول البرهان إليه ، وإنما مداره على احتشاد القرائع الصافية ، والطبائع السليمة التي طالت ممارستها للشعر ، لحذفت نقده ، وأثبتت عياره ، وقويت على تمييزه ، وعرفت خلاصه . . فأما وأنت تقول : هذا غث مستبرد ، وهذا متكلف متمسف ، فأما تخبر عن نبو النفس عنه ، وقلة ارتياح القلب إليه ، والشعر لا يحبب الى النفوس بالنظر والحاجة ، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمفايسة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقر به منها الروفق والحلاوة ، وقد يكون الشيء متقفاً محكما ، ولا يكون حلواً مقبولاً ، ويكون جيداً وثيقاً ، وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً ، وقد نجد الصورة الحسنة ، والخلفة الثامة مقلية تموت ، وأخرى دونها مستحالة موموفة (٢)

وهذا الذي قاله الجرجاني كلام واضح في معناه ، سليم في حقيقته ، يدركه من له أدنى دربة بصيرة الكلام ، والنظر في مظاهر الفن . وقد كنا نود أن نستشهد له بكثير من الأمثلة لولا خوف الإطالة . على أننا نحسبه من الواضوح بحيث لا يحتاج الى استشهاد

محمد فهمي عبد اللطيف

دفاع عن القرآن الكريم

مقدمة :

حديثي في هذه المقالات حديث بحث ودرس ونقاش وجدل ، وإن شئت فقل حديث مناظرة ومخاصمة .

وكان الأمر سهلاً حيناً لو أن موضوع البحث والدرس والنقاش والجدل والنزاع والمقصومة مسألة فرعية من مسائل الدين الفرعية ، أو قاعدة أصولية من قواعده الأصولية . هذه المسائل الفرعية ، وتلك القواعد الأصولية من شأنها عادة أن تكون في بعض الأحيان موضوع نزاع بين العلماء .

أما موضوع النزاع في حديثي هذا ، فهو أصل أصول الدين بأسره وهو القرآن الكريم ، لا من حيث لفظه وما فيه من فصاحة ، ولا نظمه وما فيه من بلاغة ، ولا من حيث معانيه وأحكامه ، ولا من حيث ما تضمنه من مواعظ وعبر ، وقصص حكيمية وأمثال رشيدة ، ولا من حيث ما اشتمل عليه من قوانين تنظم المجتمع ، وتضمن للبشر سعادة الدنيا والآخرة ، بل من حيثية هي أولى تلك الحيثيات جميعها ، وناحية أخرى أخطر من هذه النواحي بأسرها ، ناحية تخص جوهره وذاته وماهيته وكنهه ، وهي (قرآنية القرآن) أي أنه هو القرآن أو ليس القرآن . فأظنك أيها القارئ الكريم تشاركني الرأي في أن موضوع هذا النزاع والجدل من أعظم الموضوعات خطورة ، وألصقها مساساً بالعقيدة . وكان الأمر يكون حتى مع هذا أيضاً — سهلاً نوعاً ما ، لو أن المقصومة مع رجلين عاديين ، وطالين معاصرين صريحين .

لكن ، والمقصومة مع رجلين خطيرين ، أحدهما من أخطر علماء أواخر القرن الثالث وأول القرن الرابع الهجري ، أي بين عصرنا وعصره أكثر من عشرة قرون هجرية ، ولعلماء الطبقات فيه آراء متناقضة ، والثاني من أخطر علماء الغرب المستشرقين في عصرنا هذا . فأظنك أيضاً تشعر شعوري ، وتحس إحساسي ، بأن هذا النزاع ، وذلك الجدل والنقاش ، يزداد خطورة ، ولا يكون من السهولة واليسر في شيء .

أما المعاصر فخطورته من نواح مختلفة : فهو مستشرق انجليزي ، وهو مشرف على الدراسات الشرقية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وهو أستاذ اللغات السامية وآدابها

في إحدى جامعات أمريكا ، (يقع في القاهرة نصف العام ، وفي أمريكا نصفه) ، ذلك هو الدكتور أرنولد جفري .

أما صاحب القرن الرابع للهجرة ، فهو الذي أدهش أباه من سرعة حفظه لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثرة مروياته ومحفوظاته ، حتى رماه أبوه بالكذب وعدم الضبط ، وهو الذي كان على ثلاثمائة ألف حديث من حفظه بدون كتاب ، وهو الذي كان — بعد أن فقد بصره — يجلس على درجة المنبر ويجلس ابنه دونه بدرجة ويحلى على الناس الأحاديث ، ويرشد ابنه إلى موضع الحديث من الكتاب ، وهو الذي أنار ضجة عظيمة بين علماء عصره بعلمه وآرائه ، واجتهاده واستنباطه ، وهو الذي حوكم أمام أحد الأمراء في أشياء خطيرة نسبت إليه ، وهو الذي أوقع علماء الطبقات في حيرة لا يدرون : أيعدون مناقبه وسجاياه ، كما لو كان من النقات ، أم يذكرون عيوبه ، كما لو كان من المجروحين ؟ ذلك هو عبد الله بن سليمان السجستاني المتوفى سنة ٣١٦ هـ

فهذان خصمان حطيران ، وصلهما مختلف ، فالناصر يطن على القرآن ، ويؤمن أنه تطور ، ويستشهد بأراء ذلك الخطير القديم .

والثاني : عالم كبير ألف كتاب المصاحف ، وإن شئت فقل كتاب اختلاف المصاحف ، روى فيه الروايات الأحادية التي كانت موجودة في صحف بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لم يجمع عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جمع سيدنا عثمان القرآن ، ووجد ذلك العالم الغربي في كتاب هذا العالم الشرقي ما يبرر — في زعمه — تطور القرآن ، فعمد إليه ونشره ، ولم ينشره كما وجده ، بل تصرف فيه تصرفاً معيباً يتنافى مع أمانة العلماء ، فعمد إلى بعض الروايات الظاهر ضعفها وترجم لها (بباب كذا) مثل (باب ما غير الحجاج في مصحف سيدنا عثمان) ولم توجد هذه التراجم في النسخة المخطوطة .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل وضع مقدمة مملوءة بالغمز والطنين على القرآن ، ووضع ملحفاً إنجليزياً للكتاب ملاء بنصوص تخالف القرآن الكريم تمام المخالفة ، وزعم أن هذه النصوص كانت في مصاحف بعض الصحابة ، فانقسم الكتاب الذي طبعه الدكتور جفري بذلك على ثلاثة أقسام :

(١) مقدمة الدكتور جفري .

(٢) كتاب المصاحف ، لابن أبي داود .

(٣) الملحق الإنجليزى ، للدكتور جفري .

وقد قسمت مقالتي في الرد عليه على ثلاثة أقسام :

(١) نقض مقدمة الدكتور جفري .

(٢) الرد على كتاب المصاحف .

(٣) مناقشة النصوص العربية الواردة في الملحق الانجليزي .

وضمنت كل قسم عدة مباحث ، ووضعت له فهرسا تحليليا بمواده ومباحثه .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما إليه قصدت ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت ، وهو رب
العرش العظيم .

صلى الله عليه وسلم

ترجمة ابن أبي داود :

من ميزان الاعتدال في نقد الرجال للعافظ الذهبي :

عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني أبو بكر الحافظ الثقة ، صاحب التصانيف ، وثقه
الدارقطني فقال : ثقة إلا أنه كثير الخطأ في الكلام على الحديث . وذكره ابن عدي وقال :
لولا ما فرطنا وإلا لما ذكرته ، إلى أن قال : وهو معروف بالطلب ، وخاصة ما كتب مع أبيه ، وهو
مقبول عند أصحاب الحديث ؛ وأما كلام أبيه فيه فما أدري إيش تبين له منه . حدثنا علي بن
عبد الله الدهري سمعت أحمد بن محمد بن عمر بن كوكرة سمعت علي بن الحسين بن الجنيد سمعت
أبا داود يقول : ابني عبد الله كذاب .

قال ابن ساعد : كنا نأما قال أبوه فيه . ثم قال ابن عدي : سمعت موسى بن القاسم الأشيب
يقول : حدثني أبو بكر سمعت إبراهيم الأصماني يقول : أبو بكر بن أبي داود كذاب . وسمعت
أبا القاسم البغوي وقد كتب إليه أبو بكر بن أبي داود رقعة يسأله عن لفظ حديث لجه فلما قرأ
رقمته قال : أنت والله عندي منسلخ من العلم . وسمعت عبد الله بن أحمد بن داود السجستاني يقول :
من البلاء أن عبد الله يطلب القضاء ، وسمعت محمد بن الضحالك بن عمرو بن أبي حاتم يقول :
أشهد على محمد بن يحيى بن مندة بين يدي الله أنه قال أشهد على أبي بكر بن أبي داود بين يدي الله
أنه قال : روى الزهري عن عروة قال : حلفت أطاير فلان من كثرة ما كان يتسلق على أزواج
النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الذهبي : قلت : هذا لم يسنده أبو بكر إلى الزهري ، فهو منقطع ، ثم لا يسمع قول
الاعداء بعضهم في بعض .

وهنا شكك الذهبي مما كتبه على ما نسب إليه أمام أمير أصفهان أبي ليلى ، وحكم عليه
بالقتل ، والذي خلصه هو محمد بن عبد الله بن حفص الهمداني ، وجرح الشهود ، وكان ابن
أبي داود يدعو الهمداني طول حياته ، ويدعو على الشهود الذين شهدوا عليه في هذه المحاكمة .

ثم قال الذهبي بعد أن سرد حديث المحاكمة : قال احمد بن يوسف الأزرق سمعت ابن أبي داود يقول : كل الناس في حل إلا من رماني بيفض على رضى الله عنه .

قال ابن عسدى : كان في الابتداء نسب الى شيء من النصب فنفاه ابن الفرات من بغداد ، فردّه على بن عيسى ، حدث وأظهر فضائل ، فصار شيخا منهم . قلت : كان قوى النفس وقع بينه وبين ابن صاعد أو بين ابن جرير نسأل الله العافية . قال ابن شاهين : أراد الوزير على بن عيسى أن يصلح بين أبي بكر بن أبي داود وابن صاعد لجمعهما وحضر القاضى أبو عمر فقال الوزير لأبى بكر : أبو محمد بن صاعد أكبر منك فلو قتلت اليه ! قال : لا أعمل ، فقال له : أنت شيخ زيف . قال أبو بكر : الشيخ الزيف ، الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الوزير : من الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال أبو بكر : هذا هذا . ثم قال : إني أذل لأجل رزق يصل الى على يدك ، والله لا أخذت من يدك شيئا أبدا ، وعلى مائة بدنة إن أخذت منك شيئا ! فكان المقدر بمد يزن رزقه بيده ويبعثه على يد خادم .

وقال محمد بن عبد الله القطان : كنت عند محمد بن جرير فقال رجل : ابن أبي داود يقرأ على الناس فضائل على رضى الله عنه . فقال ابن جرير : تكبيرة من حارس . قلت : وقد قام ابن أبي داود وأصحابه وكانوا خلقا كثيرا على ابن جرير ونسبوه الى بدعة اللفظ ، فصنف الرجل ممتقدا حسبا بمعناه تنصل فيه مما قيل عنه وتألم لذلك . وقد كان أبو بكر من كبار الحفاظ وأئمة الأعلام حتى قال الخطيب : سمعت الحافظ أبا محمد الخلال يقول : كان أبو بكر أحفظ من أبيه أبى داود . وروى ابن شاهين عن أبي بكر أنه كتب في شهر عن أبى سعيد الأشج ثلاثين ألفا . وقال أبو بكر القاش والمهدة عليه : سمعت أبا بكر بن أبي داود يقول : إن تفسيره فيه مائة ألف وعشرون ألف حديث .

قلت : ولد سنة ٢٣٠ هـ ورحل به أبوه غلى الكبار وسمع عيسى بن حماد صاحب الميث ابن سعد وطبقته وانفرد من طائفة . قال أبو بكر احمد بن ابراهيم بن شاذان : ذهب أبو بكر الى سجستان فاجتمعوا عليه وسألوه أن يحدثهم فقال ليس معى كتاب . فقالوا : ابن أبى داود وكتاب ! قال فأناروني فأملت عليهم من حفظى ثلاثين ألف حديث ، فلما قدمت قال البغداديون لعل بأهل سجستان ، ثم فتحوا فتعاضدوا كثره بستة دنانير ليكتبوا له النسخة فكتبته وحبى بها عمرضت على الحفاظ نطقا ونفى في سنة أحاديث ، منها ثلاثة رويتها كما سمعت . وقال الحافظ أبو على النيسابورى : سمعت ابن أبى داود يقول : حدثت بأصبهان من حفظى بستة وثلاثين ألف حديث أرموني الوم في سبعة أحاديث ، فلما رجعت وجدت في كتابى خمسة منها على ماحدثهم . قال صالح بن احمد : الحافظ أبو بكر بن أبى داود إمام المراقى ، كان في وقته في بغداد مشايخ أسند منه ولم يبلغوا فى الآلة والاتقان ما بلغ . وقال ابن شاهين : أمل علينا أبو بكر

سنين وما رأيت يده كتابا وبعد ما مى كان ابنه أبو مسهر يقعد تحته بدرجة ويده كتاب فيقول له : حديث كذا ، فيقول من حفظه حتى يأتي على المجلس . ولقد قام أبو تمام الريني فقال له : لله ذلك ما رأيت مثلك إلا أن يكون إبراهيم الخري . فقال أبو بكر : كل ما كان يحفظ إبراهيم فأنا أحفظه وأنا أعرف الطب والنجوم وما كان يعرفها ، رواها أبو ذر عن ابن شاهين : أخبرنا أبو المعاني القرافي أنبأنا أكل بن أبي الأزهر أنبأنا سعيد ابن التيا (كذا) أنبأنا محمد بن محمد الهاشمي أنبأنا محمد بن عمر الوراق من أصله حدثنا عبد الله بن أبي داود وحدثنا عيسى بن حماد حدثنا الليث عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة » . أخرجه مسلم والنسائي عن قتبية عن الليث . مات أبو بكر في آخر سنة ٣٩٦ هـ وصلى عليه زهاء ثلثمائة ألف نفس ، وصدا عليه ثمانين مرة ، وخلف ثمانية أولاد ، وما ذكرته إلا لأتزهه اه الذهبي

من مبعين

وجوب اقامة حدود الله

قال الله تعالى : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، وروى أبو داود في مراسيله التي أخرجه في سننه عن مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقيموا الحدود في السفر والحضر على البعيد والقريب ولا تبالوا في الله لومة لائم » .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حد يقام في الأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا »

وقد بين الحسن البصري رضي الله عنه الحكمة في ذلك فقال : « إن الله تعالى أنزل الحدود ليزجر بها عن الخطيئات والفواحش ، وأنزل القصاص حياة لمبادء ، فأقتصوا وحدوا ولا تخافوا في الله لومة لائم ، ولا يحمل لأحد أن يشفع في إسقاط حد من حدود الله تعالى ، ولا يجوز للشفوع اليه أن يشفع فيه لما روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حالت شفاعة دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله تعالى » .

وهذا لا ينفي دواء الحدود بالشبهات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا الحدود بالشبهات » . وقال عمر رضي الله عنه : « أوقفوا الحدود ما وجدتم موقفا ، ولأن بخطيء الامام في المنع خير من أن بخطيء في العقوبة ، فإذا وجدتم مخرجا للمسلم فادرءوا عنه الحدود » .

الاخلاق الفلسفية

- ١١ -

الورثة

الورثة هي عبارة عن انتقال من السلف الى الخلف ، وقد يكون هذا الانتقال معنويا وقد يكون ماديا . ولما كان للماديات على المعنويات في كثير من الاحوال آثار بضرورة المجاورة لا تنكر ، فقد رأينا أن لا نهمل التكلم هنا على الموروثات المادية مع أننا بصدد ورثة الاخلاق ، لأن هذه الأخيرة متأثرة بقوى أخرى كامنة في النفس ، وهذه القوى منها ما يخضع للعالم المعنوي ، ومنها ما ينقاد للشهوات المادية .

وإذا كان الأمر كذلك فقد وجب علينا أن نغير الموروث من الماديات شيئا من الاهتمام ، ولكن قبل أن ندخل في تفاصيل الورثة يجب علينا أن نعترف صراحة بأن قوانين الورثة لا تزال لدى جميع العلماء المشتغلين بهذه البحوث فامضة مضطربة ، يحوطها الظن ويشملها الوهم والتكهن اللذان لا يغنيان من الحق شيئا . فإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن هناك شيئا اسمه الورثة وآمنوا بأن بعض ما عندنا كان عند آبائنا ، وأن كثيرا مما كان في أسلافنا قد انتقل إلينا ، إلا أنهم قد اختلفوا وتصاربت آراءهم ، بل وقفوا موقف الحيرة والارتباك في تحديد ما يورث وما لا يورث ، وتبيين ما ينتقل بقله وما ينتقل بكثرة ، وتعليل اختلاف الفرعين الصنوين اللذين نبنا من أصل واحد ، ولماذا يرث أحد التوأمين عن جده الأعلى ، والثاني عن الأدنى ؟ ثم لماذا ترث البنت عن أبيها أو جدها لا ييها ، ويرث الولد عن أمه أو جدته لأمه ؟ وما السبب في أن يرث أحد الأشقاء في أسرة من الأسر الشجاعة من أبيه ويختص بها وحده دون إخوته الجبناء ، ويرث الثاني الكرم دون بقية أشقائه البغلاء ؟ وفي أسرة أخرى نشاهد أن كل واحد من الأبناء يأخذ بنصيب ولو ضئيلا من كل صفات أبيه ، ثم ما هو السر في أن بعض الصفات يظهر في الابن المباشر ، والبعض الآخر لا يظهر إلا بعد أجيال ؟

وفوق ذلك فقد اختلفوا فيما إذا كانت الورثة تغلب البيئة أو البيئة تغلب الورثة . وأصحاب الرأي الأخير قد تباينوا أيضا فيما بينهم ، فذهب فريق منهم الى أن البيئة مهما قوت لا تستطيع أن تمحو مظاهر الورثة وآثارها . وقال آخر : إنها تستطيع أن تخفص صوتها على مر الأجيال إخفاتها نهائيا . وقال فريق ثالث : إن البيئة الملائمة هي الوسيلة الوحيدة لإبراز آثار الورثة ، كما أن البيئة المخالفة تحول بين الورثة وبين الظهور على مسرح الحياة العلمية .

أقول : إن العلماء قد اختلفوا في كل هذا وتباينت مذاهبهم تباينا يحول بيننا وبين إبداء الرأي اليقيني في الوراثة وتناجها ، وإن كنا لا نشك لحظة في أنها موجودة وعققة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . وقبل أيضا : « الولد سر أبيه » . وقالت الحكمة : « كادت المرأة أن تلد أخاها » . وإني لمعجب كل الإعجاب بعبارة : « دساس » في الحديث الشريف ، لأنها تبين بدقة مقدار ما في الوراثة من خفاء وإبهام قد يكونان من أسرار الطبيعة التي استأثر الله بعلمها .

الموروثات :

تنقسم الموروثات المنتقلة من الآباء إلى الأبناء إلى قسمين : مادي ومعنوي . فأما المادي فهو جراثيم الأمراض وكرات السمعة التي يتركب منها الدم ، ومئات الأعصاب وضعفها ، وضخامة الجسم وضآلته ، والقصر والطول واللون وتقاطيع الوجه وتناسب الأعضاء وتناظرها . وأما المعنويات ، فهي : الذكاء ودقة التفكير وسرعة الملاحظة وأضدادها ، وكثافة الإرادة وضعفها . وقد قسم بعض الأخلاقيين الموروثات إلى خصائص حيوانية ، وخصائص إنسانية ، وخصائص محلية ، وخصائص عائلية . فأما الخصائص الحيوانية فهي كغريزي حفظ الذات والنوع . وأما الخصائص الإنسانية فهي كالإرادة والتفكير ونحو ذلك . وأما الخصائص المحلية فهي التقاليد الخاصة بكل شعب لا تتعداه إلى غيره . وأما الخصائص العائلية ، فهي صفات الآبوين أو الأجداد من السلسلين . ولقد أجمع علماء الأخلاق على أن هذه الموروثات لها أثر قل أو أكثر على الأخلاق . وقال فريق من أولئك العلماء : إن الأخلاق نفسها تورث . وقال فريق آخر : إن العوامل المؤثرة في الأخلاق هي التي تورث ، وأما الأخلاق ذاتها فهي تتكون مستقلة عند كل فرد ، وأنها تتأثر بالبيئات تائرا فرديا . فبقدر ما يكون العامل الموروث قويا ، وبقدر ما تكون البيئة صالحة لنمو هذا العامل ، يكون الخلق ظاهر التأثر بهذا الموروث .

ولقد قال جمع آخر من الأخلاقيين : إن الصفات والأخلاق والخصائص لا تورث ، وإنما الذي يورث هو استعدادات لهذه الصفات ولتلك الخصائص ، وهذا هو ما يسمى بالصلاحية . وإذا آمننا بهذا المبدأ استطعنا بسهولة ويسر أن نتبين سر تغلب البيئة ، لأن تغلبها على الصلاحية أقرب إلى الذهن من تغلبها على الشيء المرحود بالفعل . وهنا نستطيع أن نفهم معنى الحديث الشريف القائل : « وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . ونستطيع كذلك أن نعلن سطحية بعض الأخلاقيين المحدثين من المصريين القائلين : إن القدماء كانوا يستمدون

أنت الطفل يولد صحيفة بيضاء ينقش فيها أبواه ما يشاءون من صفات وأخلاق ، وإن العلم الحديث قد أثبت عكس هذه النظرية (١) .

ولا ريب أن مؤلف هذا الكتاب يقصد من قوله : (القدماء) الحديث النبوي ومن تأثروا به من مربى المسلمين كالإمام الغزالي وأضرابه . ونحن نستطيع أن نعلم في صراحة — مع غض النظر عن العاطفة الدينية — أن في هذا الرأي من السطحية والتقليد بلا تثبت ما لا يحق على الباحث الدقيق ، لأن هذا الرأي الذي سقناه آنفاً ، وهو رأي الاقتصاد على وراثته الاستعدادات دون وراثته الأخلاق نفسها هو من الآراء المحترمة في أوروبا ، فكيف نزعهم يا هذا أن العلم الحديث هدم نظرية الحديث النبوي ؟ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أتم إلا تخوضون » .

البيئة :

تنقسم البيئة الى قسمين : طبيعية وهي شاملة لجميع الكائنات الحية ، إذ هي عبارة عن المؤثرات الطبيعية التي يحيا فيها الكائن الحي كالارض وما عليها من نبات أو ما فيها من جذب وإقفار ، والمناخ وما يكتسفه من حرارة وبرودة ورطوبة وأمثال ذلك .

واجتماعية وهي خاصة بالإنسان ، لأنها هيئة مدنية مؤلفة من بقى البشر تألها اضطراريا . وقد تكون في البيت وفي المدرسة وفي المصنع والمتجر ، وفي الطرقات والمنزهات . والبيئة بقسمها مؤثرة على الوراثة إذا اتبنا الرأي الأول ، ومبرزة نتيجة الاستعداد الى حيز الوجود إذا قلنا بالرأي الثاني . وعلى أى الأحوال إننا نلاحظ أن تأثر النبات والحيوان بالموروث أكثر من تأثر الإنسان به . وعلة ذلك واضحة وهي أن النبات والحيوان تتمتع فيهما الوراثة بجزئية أكثر من الموجودة في الإنسان ، لأن الوراثة في الحيوان والنبات لا تضايقها إلا بيئة واحدة ، وهي الطبيعة . أما في الإنسان فتضايقها بيئتان : الطبيعية والاجتماعية . ولهذا فتأثير الوراثة في الإنسان أضعف منه في باقي الكائنات الحية .

المركنور محمد غروب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر كتاب الأخلاق للأستاذ أحمد أمين صفحة ٨

تاريخ التصوف الاسلامي

وتأثره بالفلسفة

نشأة كلمة صوفي :

اختلفت آراء الباحثين في هذه الكلمة ، وتناقضت فيها نظرات التأمل ؛ فمن قائل في تخريجها :
إنها من العفاء أو العفو ، وقال أبو الفتح البستي :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدما وعلوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فني صافي فصوفي حتى لقب الصوفي

وذهب آخرون الى أن الكلمة منسوبة الى الصنفة ، وهي الناحية المستقوفة من المسجد ،
وكان قد أوى إليها في أول الاسلام جماعة من فقراء المهاجرين لا مساكن لهم ، فكانوا يصيدون
الله فيها ، ويخرجون جهادا مع النبي صلى الله عليه وسلم عند الحاجة . كان عددهم سبعين ، وقد
يزيدون وينقصون أحيانا ، فلما ولي عمر الخلافة أخرجهم من المسجد وأمرهم أن يحترفوا
ويعملوا ، محتجا بأن الله قد وسع على المسلمين ، وأصبح الجاد فيهم يجد فوق ما يكفيه .

وقيل إن كلمة الصوفي نسبة الى الصف الأول ، لأنهم في الصف الأول بقايرهم من حيث
المحاضرة والمناجاة . وقيل في نسبتهم الى صوفة القفا أي ما يشد في نقرة القفا من شعر
يرسلونه متلبدا معصا كالصوف .

ويذهب أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ سنة ٩٨٨ م صاحب
كتاب المص (الذي طبع في مطبعة بريل في لندن سنة ١٩١٤) وقد اعتنى بنسخه وتصحيحه
نيكلسون الانجليزى (« أن لبسة الصوف دأب الأنبياء وشعار الأولياء ، فلما أضفتهم الى
ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجازا » . وقد وافقه على هذا الرأي الاستاذ ندلكه .

ويقول في موضع آخر من الكتاب : « أما قول القائل إن الصوفية اسم محدث أحدثه
البغداديون فقال ، لأنه في وقت الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ كان يعرف هذا الاسم ،
وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عنه أنه
قال : رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانيق فيكفيني
ما معي » .

وقد جاء في الرسالة القشيري مع شرحها لشيخ الاسلام زكريا الانصارى المتوفى سنة

١٩٢٦ هـ ١٥١٩ م : « ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق كذلك ، لأن مصدر صفاً ، صغو ، بتأخير حرف العلة عن الناء ، والأظهر فيه أنه غير مشتق بل هو جامد كالقرب . وجاء في الكتاب الذي جمع أخبار مكة عن محمد بن اسحق بن يسار المتوفى سنة ١٥٠ هـ : إن مكة قد حلت قبل الاسلام في وقت من الاوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجيء من بلد بعيد رجس صوفي فيطوف بالبيت وينصرف . فان صح ذلك دل على أن هذا الاسم كان يعرف قبل الاسلام ، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح ، والله أعلم .

ويذهب بعض مؤرخي الاسلام في معنى التصوف الى القول بأن أول من انقرد في الاسلام بخدمة الله عند المسجد الحرام رجل يقال له صوفة ، واسمه الفوث بن مروان ابن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وصمى الفوث صوفة لأن أمه جعلت في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكمة يخدمها ، وجاء أناس لمشابهتهم إياه في الانقطاع الى الله فسموا بالصوفية ، وكانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية (راجع جلاء العيين) .

وقال أبو عبيدة : صوفة وصوفان يقال لكل رجل ولي من البيت شيئاً من غير أهله أو قام بشيء من أمر المناسك .

وروى عن سفيان الثوري رحمه الله المتوفى سنة ١٦١ هـ أنه قال :

لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء (وقيل أبو هاشم هذا أول من صمى بالصوفي) أما الأستاذ (لوى ماسنيون) فيقول في كتابه مجموع نصوص لم يسبق نشرها متعلقة بتاريخ التصوف في بلاد الاسلام المطبوع سنة ١٩٢٩ بباريس عند كلامه على عبدك الصوفي المتوفى (٢١٠ هـ - ٨٢٥ م) إنه :

« صاحب عزلة ، بغدادى ، وهو أول من لقب بالصوفي ، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة ، وعلى رهط من الثأرين بالاسكندرية ، وهو يعد من الزنادقة بسبب امتناعه عن أكل اللحم » انتهى

والذى يقصده الأستاذ ماسنيون أن أول من صمى ببغداد بهذا الاسم هو عبدك الصوفي ، وكان قبل بشر بن الحارث الخافى المتوفى سنة ٢٢٧ والمري بن المخلص السقطي المتوفى سنة ٢٥٣ هـ

ويقول فريق من العلماء : إن كلمة الصوفية دخيلة على الاسلام . فبرون الانجليزى يقول : إن أصل الكلمة فارسية من باشمينا بوش ومعناها لا يمسو الصوف . ويقول الدكتور ترومب الذى ترجم كتاب السيخيين : إن كلمة الصوفية دخيلة على الاسلام من الهند . ويقول صاحب كتاب المع إن الصوفية كلمة جاهلية واسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون .

ويقول فريق من كتاب العصر الحديث : إن كلمة التصوف ليست عربية ولا فارسية ولا هندية وإنما هي كلمة يونانية مشتقة من صوفيا ومعناها الحكمة ، وهي كلمة متداولة بهذا المعنى بين اللغات الأوروبية الى اليوم .

ما الذي تحمله هذه الكلمة من المعنى الاجمالي :

يقول ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان علم التصوف :

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصلها المكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والاهراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد مما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والافتراء عن الخلق في الخلوة للعبادة ؛ وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلما نشأ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجبغ الناس الى مخالطة الدنيا ، احتصم المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة »

ويقول الشيخ الشعرائي في كتاب الطبقات :

« إن طريق الصوفية مقيدة بالكتاب والسنة ، وإنها مبنية على سلوك أخلاق الانبياء والأصفياء . »

وسأل سائل محدثين على القصاب ، وهو أستاذ الجنييد الصوفي الشهير ، عن معنى الصوفية فقال :

« أخلاق كريمة ظهرت في زمان صكريم من رجل كريم مع قوم كرام »

ويقول الأستاذ عبد فريد وجدي في دائرة المعارف ، في معنى الصوفية - « إن التصوف هو مذهب كان الغرض منه تصفية القلب عن غير الله ، والصمود بالروح الى عالم التقديس باحلاص العبودية لخالق والتجرد عما سواه ؛ وهذا قديم كقدم التزعة التي أوجدته ، فان الانسان منذ ألوف من السنين أدرك أن خلف هذه الغلف الجسدية مرا مكنونا ، فنشأ هذا المذهب ؛ وهو معروف في الهند والصين منذ ألوف السنين ، وله عند الهنود أساليب شديدة على النفس » .

التصوف الاسلامي بدأ على صورته الفطرية البسيطة منذ الصدر الأول للإسلام ، فلو حظ على كثير من الصحابة ميلهم الى الزهد وإعراضهم عن الدنيا ، بيد أن هؤلاء الزهاد والمتقشفين لم يتسموا باسم خاص ، ولم ينتسبوا الى طائفة معينة ، ولم تطلق كلمة الصوفية على جماعتهم إلا في أواخر القرن الثاني للهجرة . وما زال هذا النوع من السلوك ينمو ويتزايد أنصاره الى أن ولد بعض الأبحاث والنظريات ، والعلم نتيجة العمل ، لهذا رأينا رجالاً من مفكرى القرن الثالث الهجرى وعلى رأسهم المحاسبى وذو النون المصرى يسدهون بوصف بعض الأحوال النفسية والطواهر الصوفية . ومن أقدم ما كتب في هذا الباب نظرية الاتحاد التي ترجع الى عهد

متأخر ، فان أبا يزيد البسطامي أول من قال بها ، ثم جاء الجنيد والحلاج فرفعاها الى عنان السماء . وهذه النظرية أدق شيء في التصوف الاسلامي ، وهي تنحصر في أن الاتحاد الصوفي يؤدي الى الاشتراك في ذات الله تعالى وحلول اللاهوت في الناسوت ، وقبول شيء إلهي في داخل العبد . وبالرغم من أن القرآن لا يشير الى هذه النظرية مطلقا بعبارة صريحة نرى أن أنصارها لم يعدموا الحيلة في دعمها ببعض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي نستطيع أن نذكر منها قوله تعالى : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » . « وهو معكم أينما كنتم » . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » .

وقوله عليه السلام في الحديث القدسي :

« ما تقرب الى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى يحبني وأحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » . ولقد أحدثت نظرية الحلول خلافا بين المؤيدين لها والمخالفين لها من الأشاعرة الذين يقولون إن التصوف عبارة عن الأحوال النفسية والأخلاق العملية التي تسمى بالمرء الى درجة السكال دون الوصول الى مذهب الحلول الذي قال به الحلاج .

وجاء على أعقاب الأشاعرة الغزالي في كتاب الاحياء يرفض رفضا باتا نظرية الاتحاد الحلاجية ، فهو يرى أن علم القلوب لازم لزوم المرئيات والمحسوسات ، لأن هناك عالمين : عالم الباطن وعالم الظاهر ، فإذا كان بعض العلوم يتولى عالم الظاهر بالدراسة والشرح ، فلا بد من علم خاص لتوضيح عالم الباطن ، وهي المعرفة التي هي غاية التصوف السامية . أما اتحاد العبد مع الرب فهذه قضية منقوضة عقلا ، وغير مقبولة نقلا .

وإذا ما استعرضنا تصوف الفارابي نجد أنه يتفق ومذهب الامام الغزالي على رفض مذهب الحلول الذي ذهب اليه الحلاج .
عبد الحميد سامي بيومي

أحسن ما قيل في العقل

قال الأصمعي : « لو صور العقل لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار » .
وقال شاعر :

وأفضل قسم المرء لله عقله	فليس من الخيرات شيء يقاربه
يزين الفتى في الناس صحة عقله	وإن كان محظورا عليه مكاسبه
وشين الفتى في الناس قلة عقله	وإن كرمت أخلاقه ومناسبه
إذا أكل الرحمن للمرء عقله	فقد كلت أخلاقه وما ربه

مولد محمد

صلى الله عليه وسلم

(١) من أمارات رقى الأمم ومساهماتها فى صرح الحضارة الصحيحة ، المؤذن بارتفاع مدارك الانسانية الحقة ، عرفان الجليل وشكران النعم والوفاء بالعهود ، لذلك ترى المهرجانات كل يوم فى الشرق والغرب يزداد نشاطها مفيدة بآثار العباقر ، معطرة أرجاء الفضاء بأريج زهورم العبقرة . والتاريخ سجل خالد أمين يحفظ فى ثناياه الصحائف التى يخطها بمداد الأعمال لأبنائه ، وسطور تلك الصحائف تارة تحببها الخير ويزينها النفع والفائدة للمجتمع ، فتستحيل الى نور يكسوه الجلال ، وتمتع عليه العظمة جلاباب الكبرياء والوقار ، وتارة أخرى تنال تلك السطور مسحة من القار يظلمها غيم الشقاء المتلبد من سوء الفصال ، فتستحيل الى حمة خالطها الفسق فأصبحت مغزعة ترتعد فرائس الانسانية من رؤيتها وسماع أخبارها ، مادة أكف الضراعة نحو بارئها ألا يبلاوها بهؤلاء العتاة الذين تغيرت فيهم الطباع فعزلوا عن مراتبهم من الإصلاح الى الافساد ، فحق عليهم المقت ولحقهم الدمار ، وقال الله تعالى فيهم : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترقيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١) . وقال تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكوز ما يشاء فماتهم كتنوء بالعصبة أوى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندى ، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » (٢) . وقال تعالى : « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم ليس لى ملك وهذه الأنهار تجري من تحتى أملا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » (٣) .

(٢) من اليسر على الكاتب أن يصور المعاني المحدودة ويحدد الصفات المتناهية ، ولكن من العسير المتعذر بل من المستحيل عليه أن يعطى الصور السكاملة والمهايات الحقيقية لمن يبلغ الغاية ووصل القدوة فى جميع الصفات الانسانية ؛ ومن هذا حاله وتلك كيفيته فللكاتب وجبه المندر إذا ما قدم تصورا لبعض أجزاء تلك العظمة وبعض نواحي هذا الجلال . وليس يراع

الكاتب بعجزه عن بلوغ تلك المنزلة بأشد عييا من عجز عدسة المصور في التقاط الصورة غير المتساهية الأطراف أمامها . من أجل هذا يصح لمثل من الضعفاء إراء ما يدركونه من خير عهد صلى الله عليه وسلم على بنى الانسان أن يصفوا آثاره ويعدوا بعض خصاله وفضائله مع اعتراف بالمعجز . ومن عرف أن محمدا صلى الله عليه وسلم لحق والداه بالدار الآخرة بعد شهرين من حمل أمه به ، وأن والده لم يترك له من حطام الدنيا سوى بعض أبرة وبعض شياة ، ساورت نفسه الشفقة واستولى عليها العطف على ذلك الجنين الذى لحقه اليتيم وهو لا يزال مضغة في ظلمات الأرحام ، لم ير الدنيا بعد ، ولم تنفخ فيه الروح ، ولم يدب في عروقه دم الحياة . ولت الأمر وقف به عند هذا الحد بل لم يكند يشب عن الطوق بعد ميلاده حتى فقد حنان الأم قبل أن تنتهى طفولته ويقوى هوده ، وإذا بمحمد عبد المطلب يكفله ويضمه الى عياله ، ثم يرد مورد أبويه ويصير مصيرهما ، فيضحى محمد فى حضنة عمه أبى طالب يذهب به الى الشام ليعلمه التجارة تبعا لعادات أهله وعشيرته الذين يتكسبون الرزق من هذا الباب .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم تاسحا على غير منوال ، فقد كان فريدا فى يتمه ، فريدا فى إرضاعه ، فريدا فى تميد ، فريدا فى مرحه وجده . والعظمة والعقوبة إذا خلا قلب امرئ خلعا منه ثوب التقليد والمحاكاة ، وألبساه ثوب التبصر والتقدير والتجديد ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، ولأمور فى نصابها ، غير ناظر الى تقليد موروث أو قديم تواضع عليه الآباء . وهكذا نظر محمد صلى الله عليه وسلم الى الحياة واستقبلها بالعين المحردة حتى آناه الله الحكمة ، قال تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » (١) . وحمله الله رحمة ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) . وأرسل لكافة الناس بشيرا ونذيرا ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣)

لم تكن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مقصورة على إسعاد طائفة من الناس كغيره من الأنبياء الذين سبقوه ، ولم يكن نظره فى أفق محدود ، بل لقد تعدى نوره وتصويره الى أفق العالم كله ، وحمل على إسعاده إسعاده يكفل له الرقى والحضارة فى هذه الحياة الدنيا والآخرة . فإذن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة شاقة للقاية ، تحتاج الى روح عالية تصل فى سموها وعلوها الى مقدار قايته ونالة مقصدها وعزيمتها . فحمد الذى حمل على طاقته هذا العبء الذى تنوء به شم الجبال ، وينقل كاهل السموات والأرضين لو طلب منها حمله ، مضطر الى أن يضع أمامينا لىبي عليه القصر المشيد الذى تعيش فيه الانسانية وادعة هائلة آمنة مطمئنة ، وذلك الأس هو الاسلام الذى حدد أركانه ، ونظم عقدها فى خمسة ، حيث جاء على لسانه فى أول كتاب الإيمان

من صحيح البخارى : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء
الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

هذا هو الاسلام الذى أراد محمد أن يشيد عليه صرح سعادة الانسانية . فهو يريد أن يرتفع
بالعقل البشرى الى التوحيد الذى لا تشوبه وثنية ، ولا يتخالجه عبادة الشجر والحجر واللات
والعزى ومناة الثالثة الأخرى التى كان عبادهما يتزلون الى الخفيض فى درجة تفكيرهم ، ويحبسون
عقولهم من التفكير فى مبدع هذا الكون الذى منحهم من النعم ما لا تستطيع معبوداتهم
جميعها أن تمنحهم منها قليلا ولا كثيرا . قال تعالى . « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له :
إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسألهم الذباب شيئا
لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدرُوا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » (١) .

ولقد قرن محمد صلى الله عليه وسلم الإيمان بالله بالإيمان برسائله ، ثم طلب من المؤمنين إقامة
الصلاة أيضا وترويضاً لنفوسهم على الصبر فى تحمل المشاق وإظهار الشكر لمسدى النعمة بخضوع القلب
وخشوع النفس ، ثم طلب من أغنياء المؤمنين إخراج بعض أموالهم لمواساة الفقراء إخوانهم
فى الدين « إنما المؤمنون إخوة » . وجعل هذا المقدار الذى يدفعه الغنى لأخيه المحتاج صلة
تطيب بها نفس الفقير ، فلا تتور نفسه ولا يحترق قلبه حقدا على أهل الثراء . وهذا النظام الذى
وضعه محمد صلى الله عليه وسلم من توزيع الأموال بهئته الكيفية هو الذى يدعونه اليوم
بالاشتراكية المنظمة التى تحاول الأمم الراقية فى العصور المتحضرة أن تعالج بها طغيان الطبقات
بعضها على بعض ، وحقن الدماء التى تجلبها الثورات العنيفة التى يقوم بها أهل الفاقة وأرباب
الموز . وقد جعل من دلائل الأخوة فى الاسلام والتساوى بين المؤمنين وفوقهم فى أماكن
معينة تجمعهم فيها مواسم الحج ، فيظهرون فى القيام بمناسكهم بظهر واحد ، يلبسون ملابسهم
على هيئة واحدة ، يدعون الله تعالى بدعاء واحد ، متجهين بقلوبهم وأرواحهم الى رب واحد رب
السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له كميًّا » (٢) .

ثم هو لم يجعل اجتماعهم هذا خاليا عن النظر فى شئون سعادتهم والتفكير فى أمور حياتهم
وجمع الكلمة على ما فيه خيرهم ورفاهيتهم ، قال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا
وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات
على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير » (٣) .

وفكرة اجتماع المؤمنين بعضهم مع بعض فانظر فى أمورهم تارة جعلها الاسلام محمية
فى الجمعة والميدين ، وتارة أخرى جعلها عامة غير محلية ، وتشمل اجتماع المسلمين من جميع بقاع

الأرض في مكان واحد في كل عام لشهادة منافعهم؛ وهذه هي فكرة الحج والغاية منه . وهذه الفكرة قد نزعَت إليها الأمم المتحضرة ، فدمت إلى المؤتمرات في عواصم البلدان المتمدية ، ولكنها على ما نظن لن تصل إلى ما وصلت إليه فكرة الحج ، لأن فكرة الحج دعوتها عامة شاملة ، ودافعها وجدان قوى ووازع ديني ، فقل أن يختلف عن آدابها المسلمون بخلاف الثانية ، فانها لم تترك فيها إلا الأمم ذوات المصالح الخاصة ، وكثيرا ما تحجهم الدول عن المساهمة في هذه المؤتمرات إذا لم تر لها مصلحة ولم تصل إلى فائدة منها .

ولقد ختمت فريضة الصوم هذه الأركان ؛ وللصوم في الطب الحديث فوائد حمة ومزايا متعددة لا يستطيع مثلي أن يقوى على تحليلها . ويكفي أن نقول إن أطباء العصر الحديث يستعملون الصوم علاجاً شافياً ودواء مفيداً لبعض الأمراض . فالصوم فوق إداثه للصحة فهو عماد الصبر وتحمل المشاق ، وفوق حله للصائم عند لحوق العطش والجوع به على إطفاء التقدير المحتاج ، فهو مقو للجسم ، منشط للأعصاب ، مجدد للقوة .

لقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأسس التي فصلناها فيما سبق ، وكانت نفسه الطموحة إلى إسعاد البشرية تبغى إخراج العالم كله من الظلمات إلى النور ، ولكن الإرادة الإلهية شاعت هداية البعض دون الجميع ، قال تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » (١) وقال تعالى : « فاعلمك بأخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٢) .

لقد شاعت الإرادة وكان ما شاعت من التفرقة بين أبناء الانسانية ، فلا بد من أن يدفع بعضهم بعضاً ، ولا بد من أن يقف كل قبيل يدافع عما ارتضاه لنفسه من العقيدة وما أطمأنت إليه ، فكان لإمامنا على محمد صلى الله عليه وسلم أن يضع الخطط الحازمة التي تصون لاتباعه عقائدهم ، وترقى بهم إلى مواطن العزة والكرامة . من أجل هذا ونحوه اشترع محمد الهجرة ، وجبها إلى أتباعه ، ليقرروا يدينهم عند المعجز عن امتشاق السيوف المواضي ، واتحاد جميع الوسائل لرد أعداء المعتدين . ولقد هاجر أصحابه إلى الحبشة مرتين في السنة الخامسة والسابعة من الهجرة . وكانت الهجرة محبة للرجال والنساء على السواء . وإن شئت أن تقرأ ذلك فانظر ما قاله ليل زوجة عامر بن أبي ربيعة إحدى المهاجرات لأرض الحبشة حينما استوت على ظهر بصيرها تريد الخروج إلى الحبشة فاقترب منها امرئ الخطاب قبل إسلامه وقال لها : إلى أين يأمر عبدالله ؟ فقلت له : قد آذيتهمونا في ديننا ، نذهب في أرض الله حيث لا تؤذي أفهذه العبارة تعطينا الصور الواضحة لما كان يساور نفس هؤلاء المهاجرين ، وصدق إخلاصهم للعقيدة وتقائهم في سبيلها .

ولقد وضع من المبادئ التي تصون العقيدة شرعة الجهاد ، قال تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واعلم عليهم وماؤم جهنم وبئس المصير » (١) . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا

إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » (١) . وقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (٢) .

هذه هي قواعد الحرب التي رسمها الله تعالى لنبيه محمداً حفظه على دينه ، ويقابل تلك القواعد قواعد السلم والأمان ، والمعاهدات ، إلى غير ذلك مما يقصر مثل هذا المقام عن تبيانها وتوضيحها . ولقد كانت الكرامة والعزة من أبرز صفات المؤمنين التي تجلب إليهم الغزو ولا تقبل منه معذرة الإقامة في بلد تمتن فيه كرامته ويستخف فيه دينه . قال تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كُتِم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » (٣) .

فاذن الاسلام لا يسمح لأهله بالإقامة على الضيم ، ولا بالتغاضي عن الكرامة . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في تحبيب الجهاد لأهله من المؤمنين : « لعدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » . ويقول « لعدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب » . ولو ذهبنا نعدد المبادئ الإسلامية لخرج بنا البحث عن تحرير مقال إلى تحرير أسفار . ولكن مما نقص به النفس ويوقعنا في الهم والحزن ، أن تكون هذه المبادئ الإسلامية في واد والمسلمون في واد ، فيصبح المسلمون « بأسهم بينهم شديد ، تحسمهم جميعا وقلوبهم شتى » فتتقاسمهم الأمم وتنقص أطراف أرضهم وتوزعها غنائم ، لم يوجف عليها العدو خيلا ولا ركابا . وهذه الحال المؤلمة قد أطلقت السنة أعداء الاسلام بالظن في مبادئه والتشكيك فيها : بأنها لو كانت مبادئ حقة لأعرت أهلها ورفعت شأنهم ، ولما أصبحوا أعتاتا مستضعفين في مشارق الأرض ومقاربيها . وقد قاتهم أن الاسلام عز لمن تمسك به ، وكرامة لمن نصره ، ونصر لمن جاهد من أجله ، قال تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن ينصركم الله فلا نصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٤) .

وقد ولي المسلمون عن آيات ربهم وأعرضوا عنها فوكلهم الله إلى أنفسهم ، ولقد شقي من ولي أمر نفسه قاطعا المدد بينه وبين ربه ، فأصبحت حياتهم ذليلة ، وأوطانهم مستضعفة ، وكرامتهم مضیعة ، فالهم أسبغ على المسلمين إيمانا حقا وإسلاما صادقا ، وهي لهم من أسرم رشدا !

عبد الله مصطفى المرافى

الحامى الشرعى بوزارة الأوقاف

مولد الحبيب

صل الله عليه وسلم

ألقيت في احتفال الأهرام بالمولد الشريف

طوّفوها قلائداً وعقوداً واملؤها مواكبها وبنوداً
أشرفت طلعة الحبيب ، خفيوا في خضوع ، جلالها المودوداً

ظل هذا الزمان نحماً ، قلماً حان ميلاده ، تجلى سموداً
وأناف البيت العتيق على الشم س ، وأرخى من القنار بروداً
أقبل الروح والملائك يسعرو ن ، سراط ، يستقبلون الوليداً
وشدا الطير في الجزيرة بشراً فاستهلت : نهائماً ونجموداً
ومشى الخوف في المدايق فارحاً م بشاء ، كان المشيد الوطيداً
نبأ الحق أقصره وأبض البأ س ، فأعسى حروطاً وعديداً
دب فيما بنى الفناء سريماً حين وافى من سوف بيني الخلوداً

بسمه المولود الشريف أنارت طاماً مظلماً ، وأجبت وجوداً
نعمته أمش البوادي شداها فاستعالت خائلاً ووروداً
لقت العالمين منها زواها لم يكن في محاسنها معبوداً

أدرك الفيل بالفرزة معنى كان عند الفيل معنى بعيداً
حاقه لما رأى الجلال - عن اليد ت ، ولولاه لم يكن ليحيداً
آية فوليد عنت العجب م ، فراح تظلم المولوداً
لو تسنى لها شهود سناه لتراحت على ثراه سجوداً

يا أجل الأمام ، مولدك الفذ م ، أفاد الوحود روحا جديدا
أعيت الفلقات دون مدهاء بعد ما أنضت القوى والجهودا
فرقت في الحياة ، فاختلف النسا س ، وأوليت قومك التوحيدا
شرعة كلها الممداد ، ودين أنصف الناس : سيدا وهودا
خسر الدين والحياة جميعا وطن لم يعيش بطه سميدا



يا بيا جرى بمولده الكو ن سرورا ، وبهجة ونشيدا
صدق العزم في مديحك ، لكن قل ووجدى ، فإ أجدت قصيدا
لا تكلى الى قصورى ، وكلى يوم تمطى مقامك المحمودا

هــمـاـهـمـa

بكلية اللغة العربية

آفة الإنسان هوالة

قال الله تعالى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

وقال فيلسوف : « الملائكة روح وعقل ، والبهائم نفس وهوى ، والإنسان يجمع الكل ابتلاء . فان غلب الروح والعقل على النفس والهوى فضل الملائكة ، وإن غلب النفس والهوى فضله البهائم . فالعقل من زاد عن مراتع الهوى نفسه ، وكفها عن شهوات تقرب اليه ربه » .

وقال آخر : « الهوى خادع للألباب ، صارف عن الصواب ، صاحبه أعمى مبصر ، أصم سميع » .

وقال أبو بكر بن دويد :

وآفة العقل الهوى فن علا على هواه عقله فقد نجا
وقال غيره :

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى طرق الرشاد إذا اتبعت هواكا
وقال حكيم لولده : « اعص هواك وأطلع من شئت » .

من عالم ما بعد الطبيعة

نشرنا في العدد الماضي كتابا أرسله الأستاذ الايطالى (كيبارلى) الى زميله الأستاذ الكبير (سيزار لومبروزو) ، ذكر له فيه ما شاهدته من الخوارق بواسطة امرأة أمية ودعاه ليرى ذلك بعينه . وقد ارتاح القراء لهذا المقال لأنهم رأوا فيه دحسا عمليا لمزاعم الماديين من أن لا موجود غير المادة وقواها الطبيعية ، وأن كل ما يقال مما ينسب لروح أو لعالم الروح فأوهام لا حقيقة لها ، ورثها الناس عن الأقدمين جيلا فجيلا حتى ارتفعت الى درجة العقائد المتأصلة في النفس البشرية . فإذا صح قول الماديين هذا بطلت جميع الأديان ، ولم يجد الداعون اليها وسيلة لاقتناع النابتة التي تتلقى العلم عن هؤلاء الماديين ، وهى ألحد الانسان في الدين ، ويُس من خلوده في دار بعد هذه الدار ، تغير معنى الحياة في نظره ، ورعى الى تحطيم جميع القيود الأدبية التي قيد أبائنا بها غرائزهم الشهوانية ، ليسلكوا في حياتهم طريقة ترفهم عن حضيض الحيوانية . هذا هو السبب في تماقت كثير من أبناء هذا الجيل على المبادئ الاباحية ، واندفاعهم في تيار الملاذ الجسدية .

هذه نتيجة طبيعية فانه ما دام الانسان لا يرى لوجوده الدينى غاية تملو به عن الحياة الأرضية ، مال لاستيفاء جميع ملاذها ومتعها ، ويكون قصارى جهده من يدعون الفضيلة أن لا يتجاوزوا حدود القانون منها ، والقانون الوصى لا يعنى إلا بحفظ النظام الاجتماعى ، ولا يهمه ما وراء ذلك من مطالب الروح العلية .

ولكن هيات أن تقنع الروح البشرية من حياتها بهذه الحصة الخفيفة من الملاذ البدنية، فهي لا تفتأ تطالب صاحبها برفع الحجب التي تحول بينها وبين عالمها ، فان قصر تنسكرت له وبسمت من جميع المتع الجثمانية ، وكلما ظهر لها أن تلك الحب غير قابلة للتعظيم ازدادت قلقا وحيرة ، وقصت أيامها بين هم ناصب ، وهلع من الفناء واصب ، حتى يودع الوجود على أسوأ ما يتصوره عاقل .

قضت الفلاسفة المادية على أهلها بأن يدحضوا القول بوجود العالم الروحاني ، وأن ينشروا ذلك بين الناس ، فقفضوا باليأس والشؤم على نموس لاتحصى ، خدعها أنهم يمثلون العلم الرسمى ، والعلم وبخاصة في هذا العصر سلطان لا حد له على النفوس ، فأبى الله أن يطول على عباده أمد هذه المحنة ، فتركس الانسانية الى الحيوانية الباحثة ، حفز ألوف من أقطاب العلم والفلسفة والادب الى بحث ما تتناقله الألسن من الخوارق التي تظهر على أيدي بعض الأفساد ، فتبين لهم أن وراء هذه المادة عالما لا ينتهى عجائبه ، هو العالم الحق الثابت ، وما هذه العوالم المادية

إلا وجه من وجوهه ، ومظهر من مظاهره ، فكان حظ الروح من هذه البحوث لا يمكن تقديره ، ودحضت شبهة الماديين دحوضاً لا قيام لها بعده ، كما سيتبينه القراء مما نكتبه في هذا العدد .
قرأ الأستاذ لومبروزو تحدى الأستاذ كياليا له فلم يرفع به رأساً ، ثقة منه أن هذه الخوارق لا تستحق البحث ، لقيامها على التروير والتدليس والتخداع المشاهدين لها . ولكنه ما عثم أن حُجب إليه بحجتها بعد ما آس أن رجالاً ممن لا يشك في راحة عقولهم ، قد محصوها وشهدوا بصحتها . فاجتمع ببعض إخوانه في جلستين : أولاها في ٢٨ فبراير ، والثانية في ٢ مارس من سنة ١٨٩١ ، فرأى بعد أخذه جميع التحولات ما لم يكن يتوقعه من الخوارق ، فلم يسمه إلا أن كتب لصديقه المسيو جيوفلي كاتب تقريرى تينك الجلستين ، كتاباً يقر فيه بصحتها ، وقد جاء فيه هذه العبارة :

« إنى خجل كل الخجل ، ومتأسف من بقي السابق بكل إصرار إمكان حدوث هذه الأمور الروحية » .

ثم نشر الأستاذ (لومبروزو) تقريراً لما شاهدته ، كتبه بقلمه إحقاقاً للحق ، ولم يخش فيه لومة لائم ، افتحته بقوله :

« كنت شديد الانكار للمذهب الروحاني بحيث لم يلق شأوى فيه إلا قليل من العلماء . ولأجل التحقق من ذلك يكفى أن يطلع القارئ على كتابي (المجانين والشواذ) ، وعلى كتابي (بحوث في النجوم المغناطيسية) ، فقد استرسلت فيهما في الانكار الى حد أن أوسعت الروحانيين سباً .

الى أن قال :

« بما أنه قد اقترح على أن أحصى حوادث تحدث بمحضرة وسيطة خارقة للعادة حقاً هي مدام أورابيا ، فقبلت هذا الاقتراح مرتاحاً الى أن هذا التمهيص سيكون بمساعدة رجال متمسكين في الأمراض العقلية ، وهم تامبوريني وفيرجيليو ونيانكي وفيزيوني ، وقد كادوا يكونون مثلي في التكذيب بصحة المسألة التي نحن بمسئدتها ، وتوقعت منهم أكبر مساعدة لي في مراقبة ما يحدث من الظواهر .

« اتخذنا قبل البدء في التجارب أشد ما يستطاع من التحولات . ولما حصنا الوسيطة من ناحية علم الأمراض العقلية الحديث ، رأينا أن لديها قصوراً في التعقل ، واضطرابات هستيرية وربما كانت صرعية ، وآثار حرج عميق في العظم الجداري الأيسر للرأس .

« وقد أبطلت أنا والدكتور تامبوريني حركة رحلي الوسيطة ويديها بواسطة أيدينا وأرجلنا ، وبدأنا تجاربنا وأعمناها تحت ضوء مصباح مسرح ، وكان أحداً يشعل بفتة من آن لأخر عوداً من النقاب لمباغثة كل تدليس .

« أما الحوادث التي شاهداها والوسيلة على تلك الحالة فكانت عجيبة : إذ استطعنا أن نشاهد في الصبوء الساطع ارتفاع المنضدة وكراسينا أيضا ، ووجدنا أن القوة التي كانت تكفي لإزالتها تعادل من خمسة الى ستة كيلو غرامات

وبناء على طلب أحد الحاضرين وهو المسيو جيوفلي ، الذي كان يعرف الوسيلة منذ زمن بعيد ، حدثت طرقات في باطن المنضدة . هذه الطرقات كانت تحجب في الوقت نفسه على المسائل التي توجه الى القوة التي تحدثها ، متعلقة بمعرفة أسنان الأشخاص الموجودين ، وما سيحدث وحدث من الأمور ، وذلك بفعل ما يدعى أنه روح ميت .

« فعما أطفأنا المصباح اتسداًنا نسمع طرقات شديدة في وسط المنضدة . وبعد قليل من الزمن أخذ جرس صغير كان موضوعاً على رخوان يبعد عن أوزابيا بأكثر من مترين في الهواء وعلى رؤس الجالسين ، ثم نزل واستقر على مضدتها . وبعد هههه ذهب واستقر على سرير يبعد عن الوسيلة بنحو مترين .

« وبينما كنا نسمع رنين الجرس بناء على طلب أحد الحاضرين كلفنا الدكتور اسندي بأن يقوم ويقف خلف مدام أوزابيا ، وأن يشعل عوداً من الثقاب ، ففعل واستطاع أن يرى الجرس معلقاً في الهواء ، ثم ذهب وسقط على السرير خلف السنار .

« وسعماً بعد ذلك ، وكنا لا نزال في الظلام ، أن منضدة تتحرك ، وذلك بينما يدا الوسيلة كانتا مقبوضا عليهما بشدة من الدكتور تامبوريني ومنى . وفي الوقت نفسه أحس الأستاذ فيزيولي بيد تجذب شاربيه ونحز ركبتيه ، وكانت تلك اليد صغيرة وباردة .

« وفي الوقت عينه أيضاً سحب الكرسي الذي كنت جالسا عليه أدا من تحتي ثم أعيد الى مكانه ثانية .

« وانتقل لحانة من مكانه بساط ثقيل لحجرة النوم كان على بعد أكثر من متر من الوسيلة ، كأنه مدفوع بتيار من الريح واتجه الى مغليا جسمي كله ، فحاولت أن أنخص منه ولكني لم أستطع ذلك إلا بعد بذل عناء كبير .

« وشاهد بقية الحاضرين السنة صغيرة مصفرة من النار تتألق على بعد عشرة سنتيمترات فوق رأسي ورأس الدكتور تامبوريني .

« ولكن الذي أدهشى أكثر مما مر هو انتقال صحن مملوء دقيقاً دون أن يسقط ما فيه ، كأنه استحال الى جيلاتين متماسك . وقد كان هذا الصحن موضوعاً في حجرة النوم على بعد أكثر من متر ونصف متر منا . وقد كانت الوسيلة قد فكرت في تحريكه ولكن على وجه آخر أي بإثارة ما فيه على وجوهنا ، فقد قالت لنا وهي في دور تشنجاتها : « خذوا حذرکم

فسألني بالتحقيق الموجود هنا على وجوهكم جميعاً . عند ذلك أخرجنا المصباح وقضينا حلقة الاجتماع التي كنا عليها حول المضدة فوجدنا ضمن التحقيق قد انتقل من مكانه .

« وبعد قليل رأينا قطعة كبيرة من أثاث الحجر التي نحن فيها موجودة بعيدة عن حجرة النوم ، وعلى مسافة مترين منا ، تسعى نحونا ببطء كأن أحداً يحملها . فكان الناظر إليها وهي تتحرك يخيل إليه أنه يرى حيواناً كبيراً يتقدم إلينا .

« وقد كررت هذه التجارب أخيراً مع الأستاذة دواميس وكيايا وفردينوا ، فرأيت فوق ما رأيته أن كرسيًا قفز من الأرض إلى سطح المضدة ثم عاد إلى مكانه الأول .

« وقد عملت تجارب مشابهة لهذه بواسطة الذكارة بارت وديفيوزا فكتبنا لي بأنهما شاهدا مراراً جرساً يذق وهو معلق في الهواء دون أن يجره أحد . وكان معهما البنكيري هيرشي فطلب أن يتكلم مع روح إنسانة كانت عزيزة عنده ، فرأى وجهها وكنيته بالفرنسية ، وقد كانت فرنسية الجنس وماتت منذ عشرين سنة ، وكذلك الدكتور مارث رأى أباه ومانقه هذا مرتين وقد شاهد الجميع السنة صغيرة من الذهب فوق رأس الوسيطة مدام أورابيا » (١)

هذا ما كشفه الأستاذ الكبير لومروزو بقلمه بعد أن كان من أشد الناس إنكاراً للخوارق الروحية ، وقد انهمك بعد ذلك في بحثها ووضع فيها كتاباً حافلاً بالتجارب اعترف فيه بأنه أصبح مؤمناً بوجود الروح وخلودها ويمكن الاتصال بها بواسطة وسيط .

ولكننا لا نمنى هنا بمسألة الاتصال بأرواح الميتين ، فالذي يهمنا هو وجود عالم روحاني أرق من هذا العالم المادي ، وفيه كائنات ماثلة تحدث للمعبرين خوارق عادات انجست أمامها أروع الرسوم العلمية في هذا العصر . ومتى أثبتنا وجود هذا العالم فقد رفعنا من أمام الأديان أكبر عقبة وصمها الملحدون ، وقضينا على الفلسفة المادية قضاءً أبدياً .

وما طال لسان الفلسفة المادية ، وباهت بسلطانها على العقول ، حتى عقول كثير من رجال الدين ، إلا لأنها تحدث خصومها بالأدلة المحسوسة والمشاهدات ، فقالت كل معقول لا يؤيده دليل محسوس لا يمكن اعتباره صحيحاً ، فإن كنتم تزعمون أن وراء هذا العالم عالماً فيه كائنات متجردة عن المادة ، ولو كائنات جنية ، فأتونا بدليل محسوس على وجودها . فهذه الخوارق التي من الله بها على الناس في هذا العصر ، على الأسلوب العلمي نفسه ، هي الأدلة المحسوسة التي تتحدى الفلسفة المادية خصومها بطلها .

محمد فريد وجري

(١) مسرّب من كتاب اختراق الحس الانساني للامانة الراسي البر دوروشا الطبيعة الرابعة .

L'extériorisation de la sensibilité. Par Albert de Rochas .

الفلسفة الشرقية

شرح حضرة الأستاذ الأسمى الدكتور محمد غلاب أحد محرري هذه المجلة في طبع مجموعته الفلسفية ، وهي تقع في ثلاثة مجلدات . وقد تم طبع المجلد الأول منها ، فرأينا أن ننقل المقدمة الفلسفية الممتعة التي افتتح بها تلك البحوث ، فقد أوجزت من تعريف الفلسفة وفوائدها دراستها والفلسفة الشرقية وأطراد تقدم الفكر البشري ما لا يمكن أن يستخلصه المستفيد إلا بعد مطالعات تستغرق سبب طويلا . فنشكر لحضرة المؤلف دراساته المدققة وجهوده الموفقة ، راجين له دوام الانتاج على هذا الأسلوب القيم ، والتحميص الحكيم . قال وفقه الله :

سنحاول في هذا الكتاب دراسة النظر الانساني وما مر به من تطورات قبل أن يطلق عليه ذلك الاصطلاح الفني وهو كلمة « فلسفة » التي سندرس في كتاب « الفلسفة الاغريقية » معناها ونشأتها ، وما تعاقب عليها من تعريفات مختلفة ، وما عرّج فيها من موضوعات متباينة ، وذلك لأن تفكير الشرق القديم ليس متفقا على تسميته فلسفة بين العلماء والباحثين بسبب اعتماد ما فيه من آراء عقلية من التعاليم الدينية ، وإن كان كثير من أولئك العلماء يرون وجوب تسمية النظر الشرقى فلسفة ، لأن هذا الاعتماد من الدين لا يفقده قيمته . وسندم في هذا أن خصومهم في الرأي لم ينكروا اسم فلسفة على منتجات فلاسفة أوروبا في القرون الوسطى التي أسس أو استمد كثير منها من تعاليم الكنيسة المسيحية .

وسواء أصبح الرأي الأول أم الثاني فإن لهذا النظر الشرقى تاريخا يمكن أن نحده ، كما نحده تاريخ كل فلسفة ، بما يلي :

تعريف تاريخ الفلسفة :

هو دراسة المذاهب الفلسفية المختلفة وما طرأ على نظرياتها من تطورات ، دراسة نقد وتمحيص ، مؤسسة على ملاحظة ما عسى أن يكون للزمن أو للبيئة أو للمزاج أو للمبكرة أو للثقافة من تأثير خاص عليها .

من ذلك التعريف المتقدم يتضح جيدا أن دراسة تاريخ الفلسفة هي دراسة للفلسفة نفسها ، وأنها بهذا تختلف عن دراسة تواريخ جميع العلوم الأخرى .

كيفية البحث الصحيح :

غير أن الدراسة التي من هذا النوع لا تيسر إلا إذا شعر الباحث الذي يحاول استخلاص

إحدى الحقائق من حوادث التاريخ المتراكمة المعقدة ، بأنه يجب عليه أن يبسط أمام عقله مشاكل تلك الحوادث مشكلة إر مشككة ، وأن يستعرض حلولها التي قام بها القدماء حلابة حل ، ثم يتأمل في هذه الحلول تأملا دقيقا وفي حياد تام ، فإذا ارتضى أحدها ، ولكنه رأى أن براهينه غير مقنعة ، لضعفها أو لظلمتها ، وجب عليه أن يقوم بمجهوده في إتمام ما كان مدلفه قد بدأه حتى يصبح حلقة مكملة لسلسلة الحياة الفكرية ؛ وإن لم يرتض تلك الحلول جميعها حاول أن ينشئ حلا جديدا لتلك المشكلة ؛ وفي هذه الحالة يصبح رأيه مدرسة جديدة ، لها سلسلة خاصة أو حلقة بارزة من سلسلة التفكير العام . فإذا فرغ الماحث من النظر في هذه الحلول ، وجب عليه أن يقسم تلك المشاكل الى فصائل وطبقات ثم يوازن بين تلك الفصائل من ناحية وبين جزئيات كل فصيلة منها من ناحية أخرى ، كي يصل من وراء هذه الموازنة الى بعض الحقائق المنشودة . وهذا هو الذي قام به الفلاسفة والعلماء الباحثون في تاريخ الفلسفة ، إذ بدءوا جهودهم ببسط مشاكل الكون ، وأخذ البعض منهم يحلها ، وجعل البعض الآخر يستعرض ما تقدمه من حلول ، ليقول فيه كلمته بعد النقد والتحجيص .

من هذا النهج الذي رسمناه لك تستطيع أن تستخلص أنه لا بد للبحث القيم المحترم من أمرين ضروريين : أحدهما ترتيب المقدمات ترتيبا طبيعيا غالبا من الخطأ والتهوئش . والثاني : التتره التام عن الأغراض والآهواء .

فوائد دراسته :

أما أهم الفوائد التي تعود علينا من دراسة تاريخ الفلسفة ، فستطيع أن نوجزها فيما يلي :

- (١) خلق روح النقد عندنا بيئة قوية لا تتيسر في أية مادة أخرى ، إذ من الحقائق التي لا تقبل الجدل أن روح النقد الحر الصحيح لا توجد في أي مجال آخر وجودها في الفلسفة .
- (٢) تشبع نفوسنا بحب الحقيقة التي نشاهد ، بعد استعراضنا تاريخ الفلسفة ، أنها هي الكائن الأسمى لدى كل عقل ، المحبوب من كل قلب ، ولولا ذلك لما كد جميع الفلاسفة العظماء ، والمفكرين الأعداء ، قرائحهم ، وأضنوا عقولهم في البحث عنها والجري وراءها كل هذه القرون الطويلة .

هذا كله من الناحية العملية البهنة . وهناك ثمرة أخرى عملية ، وهي تشبعنا بحب الخير والفصيلة ، والنضحية والسمو ، الى غير ذلك من الصفات النبيلة التي ندرسها في تاريخ الفلسفة ملموسة في أخلاق أولئك الفلاسفة ، فنقتدي بهم في حياتنا العملية .

أهمية دراسة النظر الشرقي :

ولما كان مهد هذا النظر العقلي هو الشرق القديم ، فقد وجب علينا أن نتعقبه في مواطن

نشأته ونموه ، لتفسير لنا متابعته في شبابه ونضوجه ، ولكن كثيرا من العلماء المحدثين يرون أن بحثا من هذا النوع يكون من العصر بموضع إن لم يكن متعذرا ، لسببين :

الأول : أن فكرة بدء الخلق في الشرق تعتمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدّها من الفلسفة ، وإن شئت فقل : إن الدين والفلسفة في الشرق شيء واحد ، ولهذا لم يعرف التاريخ نظرية فلسفية ظهرت في الشرق القديم مستقلة عن الدين ، وإنما مهد النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثيرات الدينية من غير استثناء هو بلاد الاغريق . وهذا هو الباعث الأول الذي قلل من أهمية دراسة الفلسفة الشرقية في نظر علماء المصور الحديثة ، وحط من قيمتها عندهم .

الثاني : أن المصادر التي وصلت اليها عن فلسفة تلك الشعوب الشرقية قليلة لا تكفي لإشباع الرغبة العلمية عند المدارس المتقدمة التي لا يرضى من المشكلة بأقل من الإحاطة بجميع نواحيها .

لهذين السببين تعود أكثر العلماء أن يبدؤوا بحوثهم عن الفكر البشري بالفلسفة الاغريقية ، وإذا عني أحدهم بدراسة الحياة العقلية في الشرق القديم ، درسها على أنها ديانة لا مذاهب فكرية .

أما نحن فنسألك هنا دراسة النظر العقلي بين هذه المنتجات الشرقية ، ولي تعوقنا العقبة الأولى ، لأننا سنحاول فصل المذاهب والآراء العقلية من الدين بقدر المستطاع ، ولن نمنعنا الثانية ، وهي ندرة المصادر ، إذ أن ما لدينا منها يمكننا من الإلمام بها الى الحد الكافي .

نعم : إن المستشرقين ليس لديهم في الفلسفة الشرقية بحوث شاملة تجمعها وحدة متماسكة ، ولكن لبعضهم بحوث متفرقة تناول كل بحث منها ديانة شعب من هذه الشعوب على حدة ، وذلك مثل الكتب الآتية :

- (١) مؤلفات المستشرقين : كالاسانذة : « ماسبيرو » و « لوريه » و « موريه » و « بريستيد » و « بترى » و « يلكنسون » و « ريدير » وأمانهم .
- (٢) مؤلفات المستشرقين : ك « أولترامار » و « ماسون أورسيل » .
- (٣) مؤلفات المستشرقين : ك « زانكير » .
- (٤) مؤلفات المستشرقين : ك « مارك » و « توسان » .
- (٥) مؤلفات المستشرقين : ك « جاكسون » و « مولتون » .

وهذا كله عدا البحوث المتفرقة التي كتبها المستشرقون في معرض ما كتبوا عن الشرق . وإذا ، فأنت ترى أننا سنتخطى هاتين العقبين اللتين حالتا بين كثير من الباحثين وبين مزاولة هذا البحث الذي نرمي من ورائه الى غاية هامة ، وهي إثبات أن الفكر البشري سلسلة متصلة الحلقات لم يحل بين تأثير السابق منها في اللاحق بُعدُ الزمان ، ولا شقة المكان .

هل للفلسفة الشرقية أثر على الفلسفة الاغريقية ؟

ولكن هذه الغاية لا تتحقق لنا إلا بعد حل تلك المشكلة العميقة التي تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ ، والتي لم يهتدوا الى حلها حتى اليوم حلا حاسما يقف تيار الاعتراضات من الجهات المعارضة ، وإن كانت بحوث المستشرقين والمستصرين في العصر الحديث قد وصلت الى ترجيح إحدى كفتي الميزان في هذه الفكرة الخطيرة التي يترتب عليها اتجاه الحكم على الاغريق وعلى الشعوب الشرقية القديمة الى ناحية غير التي كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث . تلك المشكلة هي : هل الفلسفة الاغريقية ابتدعت في يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية ، أو هي تراث شرقي نقله الاغريق ؟

قرر « أرسطو » أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في تاريخ العقلية البشرية في تلك المستعمرة اليونانية التي تدعى « إيونيا » والتي سبق أن أسسها قوم من الاغريق القدماء الذين هاجروا في عصور ما قبل التاريخ الى آسيا الصغرى ، وأسسوا بها تلك المدن التي لم يلبث الاغريق الأصليون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسي والأدبي ، فأفسحوا بذلك الطريق أمام العقل الاغريقي الجبار ، وحلوا عقالة الذي كان قد أمسك في آسيا الصغرى في عصور ما قبل الاستعمار الجديد . وأول من بدأت العقلية القديمة تتمثل فيه هو « تاليس الميليئي » أول فيلسوف في الدنيا . واذأ ، فالفلسفة إغريقية الأصل والمنصر ، وهي لا تصعد ، في رأي أرسطو ، الى ما وراء القرن السادس قبل المسيح . ولكن « ديوجين لايرس » المؤرخ الاغريقي الشهير الذي عاش في القرن الثالث قبل المسيح يحددنا في كتابه « حياة الفلاسفة » من فلسفة المصريين والقرن في العصور الغابرة حديدنا يثبت أن الشرق قد سبق الغرب الى النظر العقلي ، وأنه كان أستاذة ومعلمه .

فأنت ترى تعارض هاتين المبررتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً ، وترى كذلك أن لكل منهما أضياعاً ومؤيدين ، ففريق يسلك منهج « أرسطو » فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل في هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظهر لفلاسفتهم بعد الاسلام من مجهودات في شرح الفلسفة الاغريقية وتوجيهها . أما في العصور الآتية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحى ، ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية ، بل إنهم نسبوا كل شيء عندم الى السماء حتى تلك المنتثرات الأخلاقية المترعة من الفضائل العملية والمصوغات في حكم مقتضبة . ويتخذون دليلاً على هذا ما تزدهم به كتب التاريخ من إزهار الدين وإجذاب الفلسفة في الشرق كل هذا الوقت الطويل الذي تلا المصور الآتية ، ويقولون ، إنه لو كان للشرق فلسفة ، لشمها ناموس التقدم ، ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث في بلاد

الإغريق ، ومن أشهر أصحاب هذا الرأي في العصور الأخيرة « بارتلي سانت - هيلز » الذي يقول في مقدمة ترجمته لـ « الكون والفساد » ما نصه :

« أما من وجهة الفلسفة الشرقية ، فالتأثير لا تعرف ، بل ربما لن تعرف أبداً ، من أمرها شيئاً معيناً بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية واتقلاياتها ، فإن أزميتها وأمكنيتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء . إنها مستعصمة دون إدراكنا ، مدعاة للشكوك ، لما يفشاها من كثيف الظلمات ، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الصبط الكافي لما أقادما ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا في الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيراً . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر في فلسفتنا مع التسليم بأنها تقدمتها في الهند وفي الصين ، وفي فارس وفي مصر ، فإننا لم نستعمر منها كثيراً ولا قليلاً . فليس علينا أن نعتمد إليها ، لنعرف من نحن ومن أين جئنا (١) » ثم قال : « ولقد تصدبت فوق ذلك لتبيين أن العقلية الإغريقية هي التي دامت العالم بهذا النفع العلمي الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها . فإذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم ، فما هو إلا مدد مبهم غاية في الإبهام . لأمراء في أن المصريين والسكندانيين والهنود لهم في ماضي الانسانية مقام كبير ، ولكنهم مع ذلك في الفلسفة ، أوفى العلم بمباراة أمم ، ليسوا شيئاً مذكوراً في حاش الإغريق الذين لم يكونوا ليعلموا منهم » (٢) . وقال أيضاً : « وإن العلم على جميع صورته كان معدوماً في الشرق ، فاخترعه الإغريق ونقلوه إلينا » (٣) .

ولهذا الرأي مقلدون (٤) وأذئاب مقلدين (٥) في مصر كما هي الحال في كل فكرة تطعن على الشرق .

هناك فريق آخر يذهب الى ما نقله « لا إرس » من أن الفلسفة الإغريقية ليست إلا تراناً شرقياً متغلةلاً في القدم ، ويستندون في هذا الى براهين أهمها ما يأتي :

(١) إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظارنا مديبات شرقية صاربة في التقدم بسهم نفاذة كمدنيقي مصر والعراق مثلاً ، وأنشأتنا بأن هذه المديبات سابقة على مدنية الإغريق بعدة قرون ، وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المديبات وبين الفلسفة الإغريقية مثل علاقة نظرية « تاليس » الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو : الماء ، بأنشودة خلق الكون الدينية العراقية التي تصرح بأن كل شيء في الكون منشؤه الماء ، إذ جاء في مطلعها ما ترجمته : « حين لم تسكن السماء العليا بعد قد عارت باسمها ، ولم تسكن الأرض هي الأخرى

(١) راجع مقدمة « الكون والفساد » لارسطو ترجمة الاستاذ احمد لطفي السيد باشا صفحة ٢ (٢) انظر صفحة ١٠٤ من مقدمة كتاب « الكون والفساد » لارسطو . (٣) انظر صفحة ١٠٦ من هذه المقدمة . (٤) انظر قادة الفكر لـ الدكتور طه حسين بك . (٥) انظر قصة الفلسفة اليونانية للشيخ أحمد أمين

قد تسمت بهذا الاسم ، كان أبوها « أبسو » وأمهما « تياما » (وهما : الماء) أو جوهر كل شيء
مترجمين امتزاجاً تاماً قصد التناسل والاختصاص (١) .

إذا لاحظنا أن الأنشودة العراقية كانت قبل « تاليس » بمهد بميد ، وأن سيادتها
في القرن السادس قبل المسيح كانت على أهم ما يكون قوة وتغلباً في النفوس ، ولا حظنا
الصلات الاجتماعية والتجارية في ذلك العصر بين العراق و « يونيا » استطعنا أن نرجح
في سهولة ويسر كمة نأثر « تاليس » بتلك الأنشودة العراقية القديمة ، بل استطعنا أن نحرم
بأن من المستحيل أن يكون « تاليس » قد ابتدع نظريته في أصل الكون .

(٢) إن العلماء المقتنعين بالبحث في الإنسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه
المختلفة قد قروا أنهم التقوا أثناء محوهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الاغريقية لا يمكن
أن تكون من أصل غربي ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

(٣) إن الباحثين الآثريين قد عثروا على كلمات : العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى
في الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها في الغرب بقرون لا يعرف مداها ، بل إنهم قد تأكدوا
من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق .

(٤) إن علماء الرياضيات قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبني الأهرام في بلد
لم تقطع فيه الهندسة العملية أشواطاً بعيدة . وفي هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر
لم يكن فيها هندسة علمية ، وإنما كان فيها هندسة عملية خُشب ، مثل الدكتور طه حسين وأمثاله
من جاحدي علم الشرق وفضله جعوداً لا يستند إلى التاريخ أو إلى البحث العلمي (٢) .

(٥) هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية إلى ما وصلت إليه الأدلة السابقة ، وإن كان
أنصار هذا الرأي يستأنسون بها مثل رحلة « تاليس » إلى مصر والشرق الأقصى ، ومثل وجود
العناصر الأولى من منطق « أرسطو » في المدارس الهندية السابقة لمصره ، ومثل وجود الكلام
عن الجوهر الفردي في المدارس الهندية كذلك ، أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود
وغير ذلك مما يستند هذا الرأي الأخير ويقويه .

إذا عرفنا كل هذا وتبيننا أن هذه الفلسفة الاغريقية العظيمة إنما هي وليدة الأساطير الشرقية
أو هي تطور الوثنية الشرقية على حد تعبير « أوجست كونت » فقد وجب على كل باحث في الفلسفة
أن يبدأ بمحوته بفلسفة هذه الشعوب الشرقية ، ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي
تكون منها الجسم المراد درسه من جهة ، ولكي يصل أوائل حلقات السلسلة العقلية بأواخرها
من جهة ثانية .

(يتبع)

(١) انظر صفحة ٣ من مقدمة الجزء الاول من كتاب « بربيه » (٢) انظر قادة الفكر الدكتور
طه حسين بك .

نظام الوقف في الاسلام

بيننا فيما سبق أن الوقف لازم في رأى المصاحين خلافاً لآبى حنيفة ، فلا يجوز بيعه أو رهنه أو هبته أو الوصية بشرط منه ، ولا يجوز أن يجري عليه تصرف من التصرفات النافذة للملكية ، لأنه حبس عين اشترط معه أن ينتهى الى جهة بر لا تنقطع ، فهو تصرف أبدي الوجود دائب الإنتاج مستفيض النفع لنوع من بنى البشر ، فكان خليقاً ألا تدرس آثاره وتعلم دياره .

لكن المتأخرين من الفقهاء أباحوا بيع الوقف في حالات كثيرة حفزت اليها ضرورات ملحة وتجلت فيها مصلحة الوقف . فإذا تبين أن عينا من أعيان الوقف لا تفعل على المستحقين غلة تناسب مع مقدارها القيمي جاز للنظر بيع هذه العين واستبدالها بعين أخرى أكثر غلة وأفضل ريعاً ، وهذا لا يكون إلا بعد أن يحيزه القاضى . وقد جرى العرف في المحاكم الشرعية على أن الخبراء المعارين المنصلين بالمحاكم هم الذين يقدرون كل عين على حداثتها ويوازنون بين مصلحة البذل والمبدل منه ولهم الرأى الأعلى في هذا الوزن ، وللقاضى أن يأخذ به ، كما أن له أن يشرك معهم خبراء من ناحية المستقبل ليدو الرأى بالتضامن متضافراً على المصلحة المشتركة .

ويجوز بيع الوقف إذا استغرقته ديون الدائنين ، كما إذا وقف الواقف عينا عليها دين مستغرق هرباً من إيفاء الغريم حقه ، فللقاضى أن يحكم بنقض الوقف لتعود الى الواقف ملكيته تحقياً لمعى العدالة في التصرفات الشرعية ، لينظر الغرماء بديونهم ، ولينظر سنة التعامل في الرهن والبيع والشراء قائمة بين الناس لا عوج فيها ولا أمتاً . وهما ينقل صاحب الأشياء والظائر : أن العين المبيعة وهى موقوفة يقع بيعها باطلاً ، فلا يجوز للمشتري أن يتصرف فيها تصرف الملكية ، بل ذهب علماء الفروع الى أن الوقف إذا بيع بغير مسوغ من المسوغات الشرعية كان البيع باطلاً ، فلا يملكه المشتري إطلاقاً ، بل يسترد منه بحكم القاضى ، ويرجع الثمن على بائعه وليس له حبس الوقف نفية استيفائه الثمن ، فإن كان عقاراً طالبه القاضى بأجر المثل في المدة التى وضع فيها يده عليه سواء أعلم بوقفها أم لم يعلم ، وليس للقاضى أن يقبل تعلته بأنه انتفع بالعين على أنها مملوكة لأنه يعتبر في تلك الحالة متأولاً في معنى الملكية ، كما يحيل اليه صاحب الفتح القدير ، ضرورة أن الوقف يعمل فيه بما هو أتمم لجهة الموقوف عليه . وبدهى أن أخذ أجره المثل أتمم لمصلحة الوقف من تركها .

ونقل ابن عابدين أن المشتري إن كان مغروراً رجع بالأجر على البائع أيضاً ، وإلا رجع بالثمن

دون الآخر . وفرع العلماء على تلك القاعدة فروعا شتى فقالوا إن كان في عقار الوقف المبيع بناء فهدمه المشتري أمره القاضي بإعادته ، فإن تعذرت إعادته فنيا كان القاضي بالخيار : إما أن يصمت البائع قيمة البناء قائما ، وإما أن يصمن المشتري تلك القيمة ، فإن ضمنها البائع نفذ بيعه في الانتقاض لأنه ملكه بالضممان فاعتبر بأنما للملكه ، وإن ضمن القاضي المشتري قيمة البناء لا ينفذ البيع ، وإذ ذاك يملك المشتري الانتقاض بالضممان . وعلى القاضي أن يمرر المشتري إن كان عالما بالوقف كما يعزر البائع لا يشترا كهما في ارتكاب معصية ليس فيها عقوبة مقدرة شرعا ، فاعتبر العلماء التمييز أقل مراتب العقوبة . وجب في هذه الحالة أن البيع إذا صدر من ناظر الوقف كان فاسقا وقضى القاضي بمرله من النظر . فإذا تبين أن المشتري قد استحدث بعد الهدم ما هو أنفع لجهة الوقف من المنهدم وأجدي على مصلحة المستحقين أخذ منه لا إلى عوض ، لأنه في تلك الحالة يعتبر متبرعا بما أحدث . وقد أبان صاحب البدائع الطريقة التي يعرف بها قيمة البناء قائما ، وهي أن تقدر الأرض خالية من البناء ، ثم تقدر وعليها لبناء قائما ، فيكون الفرق بينهما قيمة البناء . فإن لم يكن في الأرض بناء فأحدث فيها المشتري بناء ، فإن كانت أنقصه من مال الوقف حكمه حكم الوقف ، وإن كان من مال المشتري فهو ملك له ، وإذ ذاك يؤمر برفعه لتخلص الأرض لجهة الوقف وتسلم للمشتري ملكية أنقاضه . وهذا مقيد بما إذا لم يضر رفع البناء بثمرة الأرض .

ومن المسلم به عند علماء الفروع أن الوقف لا يجوز بيعه إلا بمسوغ شرعى على نحو ما أسلفنا بابه ، فإذا لم يوجد مسوغ شرعى بطل بيعه أو كل تصرف يحمله إلى الملكية سواء كان البائع هو الواقف أو الوارث أو المستحق حتى لو كان البيع بأمر القاضي ، ضرورة أن آراء الفقهاء متضاربة على لزوم الوقف والقاضى مقلد ، فليس له أن يأخذ بالرأى المرجوح . ولا يوجد بين العلماء من قال بعدم لزوم الوقف إطلاقا حتى إن أبا حنيفة ومالك وبعض أتباعهما حين قالوا بعدم لزوم الوقف قصروه على بعض صور اعتبروا فيه الوقف معارضا لبعض النظريات الاجتماعية ، وكما عرفت أن الصاحبين اعتبروا لزوم الوقف حقا من الحقوق العامة بين بنى الإنسان يتوارث الخلف عن السلف بشروط الواقفين في كتبهم وفيها على بعض الناس وإبقاء على جهة بر لا تنقطع .

فإذا قضى القاضي ببيع عين من الأعيان الموقوفة بدون مسوغ شرعى لذلك البيع كان قضاؤه غير نافذ . ولا يعرف في تاريخ القضاء الشرعى القديم منه والحديث أن قاضيا قضى ببيع العين الموقوفة بدون مسوغ شرعى . فالوقف في تصرفاته محدود الرسوم والمعالم ، جار مع التطورات الاجتماعية والدينية ، وهو نظام له نظائر في البلاد النصرانية مع كبير فرق بين ما عندنا وما عندهم في دقة الأسلوب وضمان المستغل والتوزيع على المستحقين بالقسطاس المستقيم .

والقاعدة التي نحن بصددنا منسجمة على العقار والمقول بناء كان أو شجرا أو نحوهما

مع فرق بين المنقول وغير المنقول ، فالبناء إذا تهدم لتقادم العهد به أو لسكارة أملت به لا يجوز بيع نقضه من خشب وحجر وحديد ونحوها بأمر القاضي إلا في حالتين :

الأولى — أنت يستحيل إعادته بعينه في العمارة الجديدة بأن كانت طبيعة تلك العمارة لا تقبل تلك العناصر القديمة ، وإذا وضعت كمناصر أساسية لها كانت لا تحتل ما يجرد فوقه من بناء ، وكانت غير متناسقة مع العناصر الجديدة الأخرى ، أو كان الفن الهندسي لا يقر وضعها على نحو من الأنحاء .

الثانية — الغشية هايتها من الضياع والتلاشي بحيث يكون وصول الأيدي إليها غير مأمون العاقبة ودعت الضرورة إلى تأخير ، كأن لم يوجد ريع يمكن التمييز به ، أو وجد ولكن حوله نزاع لا تنتهي الخصومة فيه إلا بعد زمن يمضي ، وفي هذه الحالة يحفظ الثمن لينفقه في عمارة الموقوف ولا يصرف إلى المستحقين لأن حقهم جلي في الغلة لا في أعين الموقوف ، وإذا بيع النقص في موضعين عند تعذر إعادته وعند خوف هلاكه .

وغنى عن البيان أن تعذر بيعه مشروط فيه أن يكون الواقف قد أحرأه في وقفه ، فإذا اشتراه الناظر من غلة الوقف بخالص ماله جاز بيعه لأن في سيورته وقفا خلافاً ، والمختار أنه لا يكون وقفاً ، وهذا يدهى الظهور ، لأن الداخل في الوقف لا بد أن يكون في متناول كتاب الواقف حيث يكون الواقف قد أجرى عليه وقفه وصنعه كتابه ، فما كان من غلة هذا الوقف فلا يكون وقفاً على الراجح .

وعلى هذا يجوز بيع الشجر إذا كان غير مثمر بطريقة يمكن استغلالها ، أو كان غير موريق فلا يمكن الاستغلال به كالسبخ والصفصاف وبعض الأشجار الأخرى لمصلحة الوقف لأنه غلة في الجملة ، فلا بأس أن يصرف منه في الوحوه التي مماها الواقف في إشباده وقفه ، فإن هلكت تلك الأشجار أو فسدت جذورها أو عرض لها عارض الإزالة استتبتها الناظر مرة أخرى تحقيقاً لمعنى التأييد ، وإن كان الشجر مثمراً أو يفتقع بظله كالتوت والجزير وما إليهما فلا يجوز بيعه ما دام حي الخضور يانع الفروع تحقيقاً لمعنى التأييد أيضاً ، إلا إذا كان لبعض الشجرات ظل يضر بثمار البعض الآخر . وهكذا يراعى معنى التأييد في العين الموقوفة تحقيقاً لمعناه الفقهي ولقرضه الاجتماعي مما سيبحثه بيانه بمريد إيضاح في الأعداد التالية .

عيسى ط

المحامى الشرعى

فتح القدير :

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :

هذا تفسير للكتاب الكريم يقع في خمسة مجلدات ، ألفه العلامة الكبير محمد بن علي بن محمد ابن عبد الله الشوكاني من كبار شيوخ الزيدية . وهو من نخبة العلماء القريبين منا ، فقد ولد سنة ١١٧٣ وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ وإنما سمي بالشوكاني نسبة الى شوكان وهي قرية بينها وبين صنعاء كيلو مترات قليلة .

تصفحتنا تفسيره في المواطن التي تظهر فيها مذاهب الرجال فلم نلقه جائب السنة الصحيحة في واحدة منها ، وكل ما آتينا أنه مجرد للتوحيد تجريدا كاملا لا يقبل فيه هوادة ، من توسل بمخلوق ، أو استتصار بمجماد .

وقد نارت حوله في حياته نواثر بسبب خلعه ربة التقليد وقوله بضرورة الاجتهاد ، وقد نحامل عليه علماء زمانه فهاجوا عليه العامة زاعمين أنه يريد بما يذهب إليه هدم مذهب أهل البيت وهو الزيدى . فاضطر أن يؤلف في تقدير قدر أهل البيت كتابا سماه (در السجاية) بَيِّن فيه مذهبه الحق ، فكان معقلا حصينا له ضد الناثرين عليه .

أما التفسير الذي بين أيدينا فحسن العبارة ، سهل المأخذ ، ملم بأطراف المسائل ، لا يدع لطالب البيان حاجة في نفسه . وقد زاده دوتقا ما أفرغته عليه مطبعة السيد مصطفى البابی الحلبي من جمال الطباعة والتقسيمات البينة ، فأصبح سفرا يقتنى ويعتني به ويرجع اليه .

المختصر في علم الفقه :

على مذهب الامام أبي عبد الله الشافعي رضي الله عنه :

وضع هذا المختصر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد كامل طخضري المدرس بمعهد دمياط الديني . وقد قال في مقدمته :

« عهد الى هذا العام بتدريس علم الفقه لطلاب السنة الأولى بمعهد دمياط . مشاهدت الطلاب منصرفين الى تصفح القسم الأول من كتابي (التهذيب في علم الفقه) وهو كتاب وصعته من عامين لطلاب السنة الثانية ، فهو فوق متناول طلاب السنة الأولى المبتدئين ، نظرا لاشتماله على الأقوال المختلفة وتفصيلات المسائل وأدلة الأحكام .

« فرأيت واجبا على تمشيا مع الخطة التي انتهجتها من العناية بأمر الطلاب الذين يوكل الى التدريس لهم ، ومراعاة صالحهم - أن أقرب لهم تناول المعلومات بأسلوب عصري جديد ،

بوضع كتاب يشتمل على المنهاج المقرر عليهم ، وهو قسم العبادات ، من (شرح العلامة ابن تاسم الغزى على مترى الغاية) للقاضى أبى شجاع رحمهما الله .

« وقد توخيت فيه أن يكون سهل العبارة ، حسن الترتيب ، خاليا من التعقيد ، قاصرا على المعتمد من الأقوال من غير ذكر الأدلة ليكون مناسبا للتأشيق » .

وقد وفى الأستاذ بكل ما قال بأحسن أسلوب ، وأقوم عبارة ، وأجل ترتيب جريا على سبيلينه ، وتوفية بيرفاعه من تقريب العلوم الى الأذهان ، وصحبها فى قوالب جديدة تناسب حالة المعاصرين .

فنعلم لفضيلته هذه النزعة للكرامة واجبين الله أن يكثر من أمثاله العاملين .

رسالة التوحيد :

هى رسالة فى علم التوحيد وضعها فضيلة الأستاذ المتقدم ذكره لطلاب السنة الثانية بمعهد دمياط مطابقة للبرنامج الجديد ، ولا حاجة لنا لأن نقول إنها جاءت مناسبة لمقول النانث ، وفى لغة يفهمونها ، ويسرنا أن هذه الرسالة تيد غير المصنفين بالعلوم الدينية ، ، فكثيرا ما مسمناهم يتمنون أن لو كان بعض العلماء يضع فى التوحيد وغيره كتباً نعيدة من المصطلحات الفنية . وإنا نرجو أن يؤتى فضيلة المؤلف أن يلحق هذه الرسالة بما يلها فإنها نعمت الذخيرة العلمية لدى المؤمنين .

مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث :

كتاب قيم للحافظ أبى عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهير زورى المعروف بابن الصلاح . موضوعه علم الحديث ، وهو علم مفيد لأهل هذا العصر ، فإن الأئمة الأولين قسموا الأحاديث الى صحيح وحسن وضعيف وموضوع وشاذ ومنكر الخ فن الآءور التى تم كل مسلم أن يعرف بميزات هذه الأنواع فهذا الكتاب الذى بين أيدينا يبين ذلك كله بأوضح عبارة . وفى الكتاب غير ذلك كلام عن الرواة والناسخ والمنسوخ الى آخر ما يهم مرهدهم الأحاديث . فثنى على ناشره الفاضل شرف الدين الكتفى بهندى بازار - بومى .

جمعية المحافظة على القرآن الكريم :

ستعقد الجمعية بالقاهرة امتحان مسابقة لوظائف التدريس بمدارس الجمعية فى القرآن الكريم حفظاً وتلاوة وتجويدا ، والاملاء والحساب والخط والمطالعة والانشاء وفق برنامج كفاءة التعليم الأولى ، فن أراد دخول المسابقة فليقدم طلبا باسم سمادة رئيس الجمعية بشارع المسكة نازلى رقم ١٢ من الآن بشرط أن يكون خاليا من العاهات .

وسيدأ الامتحان من الساعة السابعة من صباح يوم السبت ٦ اغسطس سنة ١٩٣٨

Shaddād, who heard his maternal aunt Maimūnah the wife of the Prophet (Allāh bless him and give him peace) say that:

When she was unable to pray in consequence of her courses, and was lying down on the floor beside the place where the Prophet (Allāh bless him and give him peace) prostrated himself in prayer on his prayer-mat, part of his garments used to touch her as he prostrated himself.

The end of the
Book of Menstruation.

الشيواني عن عبد الله بن شداد قال سمعت خالتي
ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم :

أَنَّهَا كَانَتْ تَكُونُ حَائِضًا لَا تُصَلِّي
وَهِيَ مُقْبِرَةٌ بِحِذَاءِ مَسْجِدِ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي عَلَى
مُخْرَتِهِ إِذَا سَجَدَ أَصَابَنِي بَعْضُ ثَوْبِهِ .

﴿ انتهى كتاب الحيض ﴾

"The Prophet (Allāh bless him and give him peace) once said to me: 'When thy courses come upon thee leave off thy prayer, and when they pass away wash the blood from off thee and perform thy prayer'."

« قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
إِذَا أَقْبَلَتِْ الْخَيْضَةُ قَدَعِيَ الصَّلَاةَ ،
وَإِذَا أَذْبَرَتْ فَأَغْسِلِي عَنْكَ الدَّمَ وَصَلِّي .

CHAPTER 29.

— ٢٩ —

On prayer over women *who have died* in childbirth and the practice to be followed in regard to it.³⁷

We are informed by Ahmad b. Abu Suraij, who had it from Shabābah, who received it from Shur'ah, through Husain Al-Mu'allim, through Ibn Buraidah, through Samurah b. Jundad that:

When a certain woman³⁸ once died in childbirth, the Prophet (Allāh bless him and give him peace) performed the funeral prayer over her, standing opposite the middle of the body³⁹.

بَابُ الصَّلَاةِ عَلَى النِّفْسَاءِ وَمُسْنَدُهَا :
حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي سُرَيْجٍ قَالَ أَخْبَرَنَا
شَبَابَةُ قَالَ أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ عَنْ حُسَيْنِ الْمُعَلِّمِ
عَنْ ابْنِ بَرِيدَةَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ :
أَنَّ امْرَأَةً مَاتَتْ فِي بَطْنٍ فَصَلَّى
عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ
وَسَطَهَا .

CHAPTER 30.

— ٣٠ —

We are informed by Al-Hasan b. Mudrik, who had it from Yahyā b. Hammād, who received it from Abu 'Awānah surnamed Al-Waddāh (narrating from his manuscript), who was told it by Sulaimān Ash-Shaibānī, through 'Abdullāh b.

بَابُ
حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مَدْرِكٍ قَالَ حَدَّثَنَا
يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ قَالَ أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ - اسْمُهُ
الْوَضَّاحُ - مِنْ كِتَابِهِ قَالَ أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ

³⁷ Ibn Rashid and other commentators consider that this chapter should not be included under the heading of this section. It seems, however, that Al-Bukhārī's object in citing this hadith is to show that the body of a woman dying in childbirth is not "unclean," since the Prophet allowed it to intervene between him and the qiblah, and the same applies to women in their courses—as is seen in the following hadith.

³⁸ Umm Ka'ab by name.

³⁹ According to the Sunnah the imām must stand opposite the breast in the case of a man, and the middle of the body in the case of a woman.

2. We are informed by Mu'allā b. Asad, who had it from Wuhaib, through 'Abdullāh b. Tāwūs, through his father, through Ibn 'Abbās, who said:

"A menstruating woman is permitted to depart home, if her courses come upon her, *before she hath performed the farewell circumambulation*. At first Ibn 'Umar used to declare that she must not depart until she had performed it. Subsequently I heard him say: 'She may depart, for in fact the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) allowed this to women.'"

٢ - حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ قَالَ حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

« رُخِّصَ لِلْحَائِضِ أَنْ تَتَفَرَّ إِذَا حَاضَتْ . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا إِنَّهَا لَا تَتَفَرُّ ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : تَتَفَرُّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَخَّصَ لَهَا »

CHAPTER 28.

— ٢٨ —

When a woman suffering from constant extra-menstrual discharges findeth herself clear of her courses²⁵;

Ibn 'Abbās saith: "She should make a ghusl and perform her prayer, even though she be clear only for a short space in the day;"

he also saith: "Her husband may have intercourse with her so long as she is allowed to pray—prayer being the weightier²⁶ matter."

We are informed by Ahmad b. Yūnus, through Zuhair, who had it from Hishām, through 'Urwah, through 'A'ishah, who said:

بَابُ إِذَا رَأَتْ الْمُسْتَحَاضَةَ الطَّهْرَ
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَغْتَبِلُ وَتُصَلِّي
وَلَوْ سَاعَةً
وَيَأْتِيهَا زَوْجُهَا إِذَا صَلَّتْ ، الصَّلَاةُ
أَعْظَمُ .

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ عَنْ زُهَيْرٍ قَالَ
حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

²⁵ i.e., she is able to distinguish the menstrual discharge from the extra-menstrual.

²⁶ i.e., greater in the eyes of Allāh than intercourse. for if the greater matter of prayer is permissible, how much more the lesser one of intercourse.

Umm Habibah was subject to constant menstrual discharges for seven years, so she questioned the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) on this, and he commanded her to perform the ghusl saying: "This is a ruptured vein." After that she performed a ghusl before every prayer.

CHAPTER 27.

On a woman menstruating after the Ifādah-circumambulation.³²

1. We are informed by 'Abdullāh b. Yūsuf, who had it from Mālik, through 'Abdullāh b. Abū Bakr b. Muḥammad b. 'Amr b. Hazm, through his father, through 'Amrah bint 'Abdur-Rahmān, through 'A'ishah the wife of the Prophet (Allāh bless him and give him peace) that:

She once said to the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace): "O Messenger of Allāh Safiyyah bint Huyayy's courses have just come upon her." The Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) replied: "Is she then to keep us back from leaving Makkah? Had she not performed the Ifādah-circumambulation with you?" "Certainly", was the answer. "Then depart,"³³ said he to Safiyyah³⁴.

أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ اسْتَحِضَتْ سَبْعَ سِنِينَ فَسَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَأَمَرَهَا أَنْ تَغْتَسِلَ ، فَقَالَ « هَذَا عِرْقٌ » فَكَانَتْ تَغْتَسِلُ لِكُلِّ صَلَاةٍ .

— ٢٧ —

بَابُ الْمَرْأَةِ تَحِيضُ بَعْدَ الْإِفَادَةِ :
١ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُجَيْجٍ قَدْ حَاضَتْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَعَلَّهَا تَحْبِسُنَا ؟ أَلَمْ تَكُنْ طَائِفَتُ مَعَكُنْ ؟ فَقَالُوا بَلَى ، قَالَ « فَاخْرُجِي » .

32. This ceremony is also known as طواف الزياره or طواف الزكركن . It is an essential rite in the Pilgrimage from which no one is excused . In the case of a menstruating woman, she must stay behind in order to perform it after purification . If she goes home without doing so, she is considered to be still in a state of ihram . The rite takes place on the day of the Courban sacrifice, and consists in proceeding from Minā to Makkah, there performing the circumambulation and returning to Minā.

33. That is to say she is considered to have completed the Pilgrimage and to be free to leave Makkah with the rest—the farewell circumambulation طواف الوداع being excused to a menstruating woman.

34. Safiyyah was a Jewish noblewoman whom the Prophet married at the instance of the Sahābah, after she had been made captive at the Battle of Khaibar.

shâm h. "Urwah, who received it from his father, through 'A'ishah that

Fâtimah bint Abu Hubaish once questioned the Prophet (Allâh bless him and give him peace) saying: "I am subject to constant menstrual discharge, and am consequently never in a state of purity. Am I therefore to give up prayer?" "No," replied he, "that is only blood oozing from a vein; but leave off the prayer a number of days equal to those of thy period. After that perform thy ghusl and make thy prayers."

CHAPTER 25.

On extra-menstrual discharge of yellow and cloudy matter.

We are informed by Qutaibah b. Sa'id, who had it from Ismâ'il, through Ayyûb, through Muhammad, through Umm 'Atiyyah, who said:

"We used to take no notice of yellow and cloudy matter".

CHAPTER 26.

On the ruptured vein from which blood oozeth extra-menstrually.

We are informed by Ibrâhîm b. Al-Mundhir, who had it from Ma'n, who was told it by Ibn Dhî'b, through Ibn Shihâb, through 'Urwah and 'Amrah, through 'A'ishah the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that:

أَبُو أُسَامَةَ قَالَ سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ عُرْوَةَ
قَالَ أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ عَائِشَةَ
أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ أَبِي حَبِيشٍ سَأَلَتْ
النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : إِنِّي
أَسْتَحَاضُ فَلَا أَطُهِّرُ، أَفَأَدْعِي الصَّلَاةَ ؟
فَقَالَ : إِنَّ ذَلِكَ عِرْقٌ وَلَكِنْ دَعِيَ الصَّلَاةَ
قَدَرِ الْأَيَّامِ الَّتِي كُنْتَ تَحِيضِينَ فِيهَا ثُمَّ
اغْتَسِلِي وَصَلِّي .

— ٢٥ —

بَابُ الصُّفْرَةِ وَالْكُدْرَةِ فِي
غَيْرِ أَيَّامِ النِّحْيِ :
حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ حَدَّثَنَا
إِسْمَاعِيلُ عَنْ أَبِي يُونُسَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَطِيَّةٍ قَالَتْ
« كُنَّا لَا نَعُدُّ الْكُدْرَةَ وَالصُّفْرَةَ
شَيْئًا . »

— ٢٦ —

بَابُ عِرْقِ الاسْتِحَاضَةِ :
حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ قَالَ حَدَّثَنَا
مَعْنُ قَالَ حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي ذُئْبٍ عَنْ ابْنِ
شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ وَعَنْ عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ
زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

CHAPTER 24.

On a woman having three courses in one month;

and on the credibility of women in the matter of their periods and pregnancy, this credibility being established by what is possible in menstruation—according to the word of Allāh (be He exalted): "It is not lawful for them to conceal that which Allāh hath created in their wombs;"³⁰

and it is related through 'Ali and Shuraih that if a woman produce evidence from trustworthy intimate members of her family that she hath had three periods in one month, she shall be believed;

and on 'Atā's statement that her periods must be accepted if conforming with her previous habits;³¹

and on Ibrāhīm having concurred with it;

and on 'Atā having stated that the period latesth from one day to fifteen;

and on Mu'tamir having said through his father: "I questioned Ibn Sirīn about a woman seeing blood after the five days of her period. He replied that the women were the best informed on this subject."

We are informed by Ahmad b. Abu Rajā, who had it from Abu Usamah, who heard it from Hi-

— ٢٤ —

بَابُ : إِذَا حَاضَتْ فِي شَهْرٍ ثَلَاثَ حِيضٍ ،
وَمَا يُصَدَّقُ النِّسَاءُ فِي الْحِيضِ وَالْحَمْلِ
فِيمَا يُمْكِنُ مِنَ الْحِيضِ اقْوِلِ اللَّهُ تَعَالَى :
وَلَا يَجِزُّ لِهِنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ
فِي أَرْحَامِهِنَّ ،

وَيُذَكَّرُ مِنْ عَلَى وَشُرَيْحَ : إِنْ
امْرَأَةٌ جَاءَتْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ بَطَانَةٍ أَهْلِهَا
مِمَّنْ يُرْضَى دِينُهُ أَنَّهَا حَاضَتْ ثَلَاثًا فِي
شَهْرٍ صُدِّقَتْ ،

وَقَالَ عَطَاءُ : أَقْرَأُوهَا مَا كَانَتْ .
وَيَعْنِي قَالَ إِبْرَاهِيمَ ،
وَقَالَ عَطَاءُ : الْحِيضُ يَوْمٌ إِلَى خَمْسَ
عَشْرَةَ ،

وَقَالَ مُعْتَمِرٌ عَنْ أَبِيهِ : سَأَلْتُ عَنْ
سَيِّرِينَ عَنِ الْمَرْأَةِ تَرَى الدَّمَ بَعْدَ قَرْنَتِهَا
بِخَمْسَةِ أَيَّامٍ ، قَالَ : النِّسَاءُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ
حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي رَجَاءٍ قَالَ حَدَّثَنَا

30. Surah 2: 228

31. The legal status of a divorced Muslim woman in regard to her liberty to remarry, claims for alimony, etc. is based upon the recurrence of her periods from the time of her divorce. Her statement after divorce is accepted only if it conforms with her previous menstrual condition.

'We used to nurse the wounded and tend the sick. One day I asked the Prophet (Allāh bless him and give him peace) whether there was any harm in one of us not going out²⁴ if she had no wimple²⁵.' 'Let one of her friends lend her one of hers',²⁶ replied the Prophet, 'and let her attend any work of piety²⁷ or congregational invocation of the Faithful.'

Ha'rah added: "Then when Umm 'Atiyyah²⁸ arrived at Basrah I asked her if she had heard the words of the Prophet (Allāh bless him and give him peace) and she said: 'Yes, my father be his ransom! (she never mentioned his name without saying: 'My father be his ransom!') I heard him say—Let marriageable girls and secluded women (or secluded marriageable girls)²⁹ and women in their courses go out and attend works of piety and congregational invocations of the Faithful, but let women in their courses hold themselves apart from the place of prayer—' 'Women in their courses?' I exclaimed. 'Do they not attend the Day of 'Arafah, and such and such?' replied she."

كُنَّا نُدَاوِي الكَلَمَى وَنَقُومُ عَلَى
الْمَرَضَى، فَسَأَلْتُ أُخْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا
جِلْبَابٌ أَنْ لَا تَخْرُجَ؟ قَالَ: لَتَلْبَسَهَا
صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا وَلَتَشْهَدَ الْخَيْرَ
وَدَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ.

فَمَا قَدِمْتَ أُمُّ عَطِيَّةُ سَأَلْتُهَا:
أَسَمِعْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ:
بِأَبِي نَعَمْ—وَكَاثَتْ لَا تَذْكُرُهُ إِلَّا قَالَتْ:
بِأَبِي—سَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَخْرُجُ
الْمَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ (أَوِ الْمَوَاتِقُ
ذَوَاتُ الْخُدُورِ) وَالْحَيْضُ وَلَيَشْهَدَنَّ الْخَيْرَ
وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْتَزِلُّ الْحَيْضُ الْمُسْلَى.
قَالَتْ حَقِصَةٌ فَقُلْتُ: الْحَيْضُ؟ فَقَالَتْ:
أَلَيْسَ تَشْهَدُ عَرَفَةَ وَكَذَا وَكَذَا؟

24. —to an open air congregation.

25. A wide covering for the head, back and breast, but not necessarily the face, which women wear out of doors.

26. Or—cover her with her own.

27. —such as attending study circles and visiting the sick.

28. The sister of the woman who sojourned at Qasr Banī Khalaf.

29. Umm 'Atiyyah the narrator is doubtful as to which,

AL-AZHAR REVIEW

Published By AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة مختصر صحيح البخاري

للمستاذ ابراهيم عيسى المصري

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Menstruation

(Continued)

كتاب الحيض (تابع ما قبله)

CHAPTER 23.

— ٢٣ —

On women in their courses being present at the two Feast-day¹ prayers, or at a congregational invocation of the Faithful², holding themselves apart from the place of prayer.³

We are informed by Muhammad b. Salâm, who had it from °Abd-ul - Wahhâb, through Ayyûb, through Hafsah, who said.

“We used to prevent our girls of marriageable age from going out to the Feast-day prayers. A certain woman, however, who came and sojourned at Qasr Bani Khalaf,⁴ transmitted through her sister, whose husband had accompanied the Prophet (Allâh bless him and give him peace) on twelve of his campaigns, and who had herself been with him on six of them, the following hadith:

بَاب شُحُودِ الْحَائِضِ الْعِيدَيْنِ
وَدَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ وَيَمْتَرِلْنَ الْمَصَلَى :

حدثنا محمد بن هرون بن سلام قال أخبرنا
عبد الوهاب عن أيوب عن حفصة قالت :
« كُنَّا نَنْهَى عَوَاتِقَنَا أَنْ يَخْرُجْنَ فِي
الْعِيدَيْنِ فَقَدِمَتِ امْرَأَةٌ ، فَزَلَّتْ قَصْرَ
بَنِي خَلَّافٍ فَحَدَّثَتْ عَنْ أُخْتِهَا ، وَكَانَ
زَوْجُ أُخْتِهَا غَزَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ثَلَاثِي عَشْرَةَ ، وَكَانَتْ أُخْتِي مَعَهُ فِي سِتِّ
قَالَتِ :

1 i.e. the Post-Ramadân Feast and the Feast of the Courban-sacrifice.

2. —such as *الاجتماع لسماء الامانة* (assembly for prayers for rain).

3 Though they may not perform the prayers, they may supplicate.

4. A place in Basrah.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها

في النفس البشرية

- ١٢ -

المقومات الشرعية في الاسلام

لم تر الأرض شريعة أرسخ قواعد في العدل ، ولا أبعد مدى في المساواة واحترام الغير ، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية ، وأشمل لعناصر التطورات الانسانية ، من الشريعة الاسلامية ، ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية ، وراعت في وضعها لا مصلحة المجتمع الاسلامي وحده ، ولكن مصلحة المجتمع البشري كله ، بل والمجموع العالمي عامة ، ولاحظت في بناء جماعتها أن لا يكون أمرهم قائماً على التضخم بامتصاص دماء المقهورين ، ولكن على بذل النفس والنفيس في سبيل إقامة المثل الأعلى للحياة الانسانية الكاملة .

هذا كلام يحتاج لبيان ، فإليك :

أدرك الانسان في القرون المتأخرة أن هنالك عدلاً مطلقاً ، وحقوقاً طبيعية لكل فرد وكل جماعة ، وأن قصارى أمر الشرائع التي تعتبر طائفة هي التي تقرب بالانسان الى هذا العدل المطلق وهذه الحقوق الطبيعية ، لا أن تؤتيه بها كاملة ، لقيام عقبات من طبائع شتى تحول بين المشترعين وبينها . ولكن الاسلام اتفرد عن جميع الشرائع في تقرير العدل المطلق والحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات معا .

شريعة الاسلام في القرآن الكريم ، وهي في الجلة أصول أولية من العدل والمساواة على إطلاقهما ، وقد تركت لأولى البصر تقدير الحقوق ، وتحديد التبعات ، وتقرير العقوبات (إلا في مواطن معدودة) .

وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم في حوادث حفظتها السنة الصحيحة ، وجاء الأئمة بعدهم ففعلوا بأمور أخرى لم تكن وقعت على عهد صلى الله عليه وسلم ، وقد راعى جميعهم فيما فاضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة ، جماعت مذهبهم أعدل ما عرفه البشر الى اليوم . أطلق الشارع حق النظر في الشريعة لكل إنسان حتى من لا يقبل منهم النظر في أحقر

الأمور لدى الأمم كافة كالأرقاء ومن في حكمهم ، فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط في هذه الشؤون ، واعتبر كلامه إما اجتهدا مطلقا منه ، أو اجتهدا في مذهب من المذاهب المعروفة ، حتى لا يستطيع أحد أن يأتي بقول من أقوال المشرعين المعاصرين لا يكون قد سببهم إليه إمام من الأئمة أو عالم من علماء المسلمين . فلذا أريد أن يعمل من جملة هذه الأقوال قانون عام أمكن عمله على حال أو حال من حال كل قانون في الأرض ، ويكون مع ذلك قابلا للتطور الى ما لا حد له ، لأن الاسلام لم يصع للاختصاص حدا ، ولم يعين له أهلا ، ولم يحدد له زمانا ، ولكسه ترك بابه مفتوحا ليسع جميع التطورات العقلية التي تدخل فيها العقول في كل زمان ومكان ، حتى لا يكون للمسلمين عذر في تركه والتعميل على الشرائع الأخرى .

هذا من ناحية الأصول الأولية ، التي أقيم عليها صرح الشريعة الاسلامية ، فهل راعى المشرعون المسلمون هذه الأصول ، وهل أساغها الناس في تلك العصور وتعدوها على أكمل الوجوه ؟

نحن مضطرون لتقديم هذه الأسئلة ، لأن تنفيذ مقتضيات العدل المطلق والمساواة الكاملة ، لم يحصل الى يوم في أرق أم الأرض من اللاتي نصبن أنفسهن وصيياء على العالمين ، فهل تنفذه أمة في أول عهدها بالاحتجاج ، وتقوم بحقه في الحدود التي تعرفها نحن ليوم ؟ نعم : تنفذه الأمة الاسلامية ، وقامت بحقه طوال عهد قوتها ، واليك طرفا من سيرتها في ذلك ، والحوادث أدلة لا تقبل الشك :

ساوت بين خاصة المسلمين وعامةهم ، وبين الكافة من أهل الملل الأخرى أمام القانون ، ونظرت في منازعاتهم على بساط المساواة المطلقة ، ولم تعدل للفروق التي بينهم من نواحي الجنس والدين والميراث الأدبية والمادية ، ألم يسو العاروق رضي الله عنه بين يهودي وعلى بن أبي طالب ، وبين أحد العامة وحبلة بن الأيهم ملك غسان ، وبين واحد من الرعية وابن عمرو بن العاص قاض مصر وأعطاه درته ليضربه بها كما ضربه ابن عمرو بعصاه ؟ ألم يقصب النبي صلى الله عليه وسلم من أبي ذر الغفاري عند ما ظن لأحد السود يا ابن السوداء ، وقال له : إني رجل فيك جاهلية ؟ سمعت منذ خلق الله العالم الى اليوم أن مشرطا قرر أن من يقتل عبده أو عبد غيره يقتل به كما فعل ذلك الامام مالك ؟

إننا نكتب هذا ونحن نترحم طرفا من هذه الآيات الباهرة ، ونسأل : هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التي بلغت درجة المثل الأعلى في العدل والمساواة مصدر غير الوحي الإلهي ؟ وهل يستطيع رجل نشأ في جزيرة العرب ، بيئة الفخر بالآباء ، والمدوان على الضعفاء ، أن يأتي بمثل هذا العدل في ذلك العهد البعيد هنا ؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم في القرآن :

قلنا في مفتتح هذه المقالة إن الشريعة القرآنية أصول أولية من العدل المطلق ، وقد تركت لأولى البصر تحديد التبعات ، وتقدير العقوبات ، إلا في مواطن معدودة ، فهذه المواطن هي الزنا والقذف والسكر والسرقه والافساد في الارض . الشريعة الاسلامية قررت على الجريمة الاولى الرجم إن كان مرتكبها محصا ، وعلى الثانية مائة جلدة ، وعلى الثالثة ثمانين جلدة ، وعلى الرابعة قطع اليد ، وعلى الخامسة قطع اليد والرجل من خلاف أو النفي .

هذه العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشتريين . وقد أباحوا هم الزنا وشرب الخمر ، وقرروا على القذف والسرقه والافساد في الارض عقوبات لا تناسب وخطرها . فكان من أثر ذلك أن انتشرت الجرائم في العالم المتمدن انتشارا رهيبا لم يكن معروفا من قبل ، ولا يمر يوم دون أن يزداد الجرمون عددا ، وتكثر وسائلهم الشريرة ، حتى أصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وأنفسهم .

ولكن الاسلام دين إصلاح عالمي يرمي الى تأليف مجتمع تفل فيه الشرود والآثام الى أقصى حد ممكن ، ويسود فيه التكافل في الحياة ، والترافد حيال عقوباتها . وفي الارض مذاهب إصلاحية كثيرة ممثلة في الأديان الموجودة ، وفيما تركه الفلاسفة الأولون من التعاليم ، وما رآه المفكرون المعاصرون من النظم ، من أول حكومة الفرد الى الاشتراكية الشيوعية ، بل الى القوضى الباحثة .

وقد طمعت هذه المذاهب كلها فكانت آثارها غير مرضية ، إذ زادت الجرائم حتى في عهد المدنية الراقية ، والفتوحات العلمية العظيمة ، ولا تزال في ازدياد . وقد ألح المشتريون في الغرب على دراسة مناشئ الجرائم ووسائل علاجها ، ولبقوا كثيرا من أساليبهم فأخفقت جميعا . ولم يبق إلا وسيلة واحدة وهي تشديد العقوبة على الجرمين ليكون في ذلك ردع لأهل النفوس المريضة ، ووازع لقوى التزمت الخبيثة .

وخير لاى مجتمع أن تقطع بصع أيد من أن يتماهى اللصوص فيه على المدوان على الناس ليلا ونهارا ، وكثيرا ما جرت تعدياتهم الى إزهاق نفوس زكية .

والجلد إذا كان مشروعا في الاسلام بالنسبة للقاذف والسكران فإن مبدأ الجلد معمول به الى اليوم في أرق البلاد مدنية كإنجلترا وألمانيا عقابا على بعض الجرائم .

فاذا رأى بعض الناس أن عقوبة الرجم شديدة فقد احتاط لها الاسلام فوضع للوقوع تحت طائلتها ضمانات قوية ، وهي أن يشهد بها أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل

باعينهم واقفا بحيث لا تتسرب الى واحد منهم شبهة من ملامسة أو مفاخذة أو غير ذلك . وهذا يكاد يكون مستحيلا .

فإن لم يتم نصاب الشهادة فلا بد لا منحقاق العقوبة من الاعتراف بالجريمة ، فإن لم يعترف بها سقطت عنه وعن شريكه في الأثم وإن اعترف .

ومن أعظم ما يعرف من الاعتداد بمصلحة المتهم أن الرأى لو اعترف وبدى في الرجم ثم عاد فأنكر ، رفعت عنه العقوبة ، وهذا غاية ما يعرف من الرحمة بالإنسانية . وفيه دليل قاطع على أن الاسلام لم يقرر ما قرره من هذه العقوبات إلا للردع لا للانتقام أو التشي .

ومن خصائص الشريعة الإسلامية قيامها على العلم وهو غير محدود ، وعلى الفهم وهو قابل للتطور ، وعلى اعتبار الأحوال المحيطة ، والعوامل الخارجية ، وعلى الاعتداد بناموس الترقى . وقد تظهر هذه الخصائص كلها جلية من النظر في الأمور الآتية .

(أولها) أن التشريع في الاسلام لم يودع الى طائفة خاصة ، ولا حصر في طبقة معينة ، ولا جعل من حظ أمة دون أخرى ، ولكنه حمل حقا شائما للكافة يتناوله من شاء من المسلمين حتى المهاليك والموال . ثم ترك للرأى العام الحكم في الأخذ بما قيل أو إهماله .

(ثانيها) أنه لم يوصع للتشريع في الاسلام أسلوب مقرر لا يجوز تمديه ، فترك لكل ناظر الخيار في انتخاب أسلوبه ، فلهذا تخالفت أساليب مجتهدى الاسلام ، ولم يعند المسلمون باختلافها بل اعتدوا بمقدار انطباقها على الأصول الأولية للكتاب والسنة .

(ثالثها) أنه لم يخص التشريع في الاسلام بزمان دون زمان ، فقد كان للقرن الأول أئمة ، وللثاني أئمة يبلغ عددهم نحو سبعين يتبعهم الناس بدون حرج . ونفس العلماء أنه كان في كل قرن علماء وصلوا الى درجة الاجتهاد ، وقرروا أن باب مفتوح الى يوم القيامة ، ومعنى هذا أن الفيض الإلهي لا يتوقف على جيل من الناس دون جيل آخر حتى قالوا : كم ترك الأول للآخر . أى كثير .

(رابعها) أن أحدا لم يحجر على أحد في اتباع أى المذاهب الفقهية شاء ، ولم يضطهد أحد من المسلمين بسبب مذهبه قط ، وإنما نه العلماء على المبتدعة ، وعلى من خرج عن دائرة الاسلام منها .

(خامسها) إجماع المسلمين على أن الاجتهاد في تنوير سرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها ، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب ، وهم في ذلك كله يصدر عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قال « للمجتهد أجران إن أصاب ، وأجر إن أخطأ » . وفي هذا أكبر تشجيع على النظر والتأمل ، ومحاكاة الأدلة المختلفة والتحري عن الحق الصميم .

(سادسها) كان المسلمون لا يروهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى ، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم ، وكانوا يكبرونها الى حد أن جعلوا لها علما خاصا سموه علم الخلاف ، فكانوا يتدارسون كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل ملكة السريان في سرائر المسائل المعقدة . وسرى الترحيب بهذا الخلاف الى العامة حتى قالوا : « اختلافهم رحمة » .

هذه الوجوه أعجب ما يروى عن شريعة دينية ، فلا يسع أى مشرع من المعاصرين أن لا يظهر دهشه منها ، يدري بعينيه أنها تضع شريعة الاسلام في مستوى بعيد عن الموامل التي تلحق بالشرائع فتصيبها بالوقوف والتعجب ، وتوجد لها من الماعة وقوة الحياة ما تنقي بها كل خطر يخطر بالبال من دواهي الاحلال ، وتضمن لها الخلود والنفوق في وسط كل تطورات العقل والعلم معا .

وما أضر بالشرائع الدينية السابقة في العالم كافة إلا أن أمحايها اعتبروا جزئياتها ثابتة في درجة ثبوت كليتها ، فتقدمت الجماعات التابعة لها في العلوم والصنائع والفنون ، وحدثت فيهم مع تنالي العصور أمور وشئون ، ونشأت لهم عادات وآداب ، وحدثت بينهم وبين الأمم الأخرى ارتباطات ، وكل ذلك يقتضى تشريعات جديدة ، ونظم مناسبة لها . فوجدوا قائمون بشرائعهم أنفسهم بين أمرين : فإما أن يعطوا تقدم تلك الأمم لتدوم على ما كانت عليه قبل حدوث التطورات الجديدة عليها ، وإما أن يغيروا في أوضاع شريعتهم ، فمز عليهم الأمر الأخير ، فلم يجدوا بدا من الأمر الأول ، فذلوا وسعهم في عرقلة كل تقدم للأمم التي أوقعها سوء حظها تحت سلطانهم ، وكثيرا ما لجأوا الى العلاج في هذه السبيل ليدوم لشريعتهم سلطانها ، ولهم مكائهم الممتارة ، فلم يفلحوا ، وكانت النتيجة أن تركت الشعوب الدين لمثلها ، وأخذت هي في تقدمها . وقد اتقى الاسلام ذلك كله بأسلوبه البديع كما رأيت .

هيب أن عقولا قد تمردت الى أقصى حد ، فلم تخضع إلا لأحكام عقولها غير معتدة بأى أصل في الأرض . فأنها بذلك التمرد لا تستطيع أن تسقط الشريعة الاسلامية ، لأن العقول مهما تمردت فلا تستطيع أن تمرد على الحقائق ، وما دامت في هذه الدائرة فهي في دائرة الاسلام نفسه ، وهو يريد منها أن تمرد على الأباطيل لنصل الى الحق المجرد عن الملبسات .

هذه مقومات الشريعة الاسلامية ، فإذا أراد المسلمون إظهار عظمتها وخلودها فليقيموا هذه المقومات وليمملوها ، غير وابين ولا متواكلين : « والدين جاهدوا فينا لنهديهم سبينا وإن الله مع المحسين » .

محمد فريد وجدي

التفسير

سورة الاعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « قد أفلح من تزكى » : أى فاز من كان عمله زاكيا ، وذلك إنما يكون إذا تطهر من الشرك والمعاصي . ومن اقتصر من المفسرين على التطهر من الشرك فلكون ذلك هو الأهم ، ولكونه أنسب عما تقدم فى الآيات قبلا . وعلى كل حال فالتركية على درجات متفاوتة جدا ، ففى مقولة بالتفكيك المختلف المراتب البعيدة . وقيل « تزكى » : أى استكثر من التقوى ، مأخوذ من الزكاء وهو النماء . ومعلوم أن التقوى درجات متفاوتة ، وكلها زكاء ونماء لدى النظر الصحيح .

هذا ويمكنك أن تأخذ تفصيل التزكى الذى نيط به الفلاح من بيان القرآن نفسه ، حيث يقول : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن الفحشاء معرضون » الى آخره . ومن ذلك البيان قوله : « فيه هدى للعتيق ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » ، ثم قال بعد تلك الأوصاف : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

« وذكر اسم ربه فعلى » : أى تذكر ما ربه من العظمة والحلال ، وأنه سيقف بين يديه وسيجزيه بكل ما عمل . « فعلى » أى صلى الصلوات أحسن امتثالا لأمره وقيامه بواجب ربه . ويجوز أن يكون قوله « تزكى » إشارة الى التصديق بالجنان ، « وذكر اسم ربه » الى النطق باللسان ، و « صلى » الى العمل بالأركان ، لما أن الصلاة عماد الدين ، وأفضل الأعمال البدنية ، ونهاية عن الفحشاء والمنكر ، فلا بدع أن تذكر ويراد جميع الأعمال البدنية . ويجوز أن يكون قد اقتصر على ذكر الصلاة لأن العرائض والواجبات البدنية لم تكن تامة يوم نزول السورة .

ومن البعيد غير الظاهر قول بعضهم : إن المراد من « تزكى » أخرج الزكاة مطلقا ، أو زكاة

العميد ، لأن المعتاد في التعبير عن إخراج المال أن يقال : زكى ، ولا يقال تزكى ، وإن كانت تركية النفوس إنما تكون بفعل كل محمود وترك كل مذموم ، فيدخل فيها إخراج الزكاة ، بل عدم التغرير في واجب من الواجبات . وبالحلقة المتركي يتحل بكل فضيلة ، ويتعدى كل رذيلة . ولا يسهل علينا أن نترك هذا المقام من غير أن نقول كلمة في التربية وما فيها من نقص عندنا : معلوم أن التركي الذي حث عليه القرآن وناط به العلاج في قوله : « قد أفلح من تزكى » وقوله : « قد أفلح من زكّاها » إلى غير ذلك ، إنما هو نتيجة حسن التربية والتعليم ، وليس أجدى على الانسانية ولا أضمن لسعادتها من تعاليم الدين ، وغرس مراقبة الله تعالى في النفوس ، مع بيان محاسن الاخلاق التي يجب التحل بها ، وبيان مساوئها التي يجب البعد عنها ، إلى آخر ما جاء في الشريعة المطهرة . ولا تكون التركية الصحيحة إلا بهذا .

وعلى المرءي أن يعترف التلاميذ أنه لا بد في سبل السعادة من الضغط على النفوس وكبح جماحها ، وقمع هواها ، وعدم الاسترسال مع شهواتها ، وبيان أن لها أخلاقاً غريبة يجب مراقبتها والاحتراز منها ، فإنها مجبولة عليها ، فلا بد من محاربتها بسلطان العقل وسلاح الدين والعلم ، وذلك مثل الكبر ، وسوء الظن ، والترفع على الخلق ، ومثل الحسد ، وحب الاستئثار ، والتفرد بكل نعمة ، والعلو على كل أحد ، حتى قال الغزالي : « إن في كل نفس ربوبية كامنة ، فهي تشتهى أن تقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قال فرعون » ولكن ظروفها لا تسمح لها بذلك . ومثل محبة المال غير المعتدلة التي أُنعت الناس وكانت أس البلاء ومبغ الشقاء ، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة . ومثل محبة النساء ، تلك المحبة التي كادت تغطي على كل شيء ، والتي فعلت الأفاعيل بالبسات والبنيان ، خصوصاً في هذا العصر الخليع . ومثل محبة الخلاء المفرطة ، مع بيان جهل النفوس الغريزي في الانسان ، كما قال تعالى في حقه : « إنه كان ظلوماً جهولاً » .

ولا تنس قول الله تعالى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » ، « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » إلى آخر ما جاء في الكتاب والسنة وهو كثير . ثم العناية بنفس مكارم الاخلاق في النفوس : مثل الشجاعة ، والحلم ، والكرم ، والرحمة بالضعيف ، ومواساة المحتاج ، والشفقة على كل ذي روح ، والمحبة لعموم المسلمين ، وبيان أن الايمان لا يتم إلا بذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » ، « وكما قال : ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ولعمرك الله لو تمت المحبة بين الناس لكانوا في أبهى عيش لا يمانه إلا يعيش أهل الجنة في الجنة . إلى آخر ما لا نسمه هذه المحالة . ولعلنا نعرض له في فرصة أخرى .

أما التربية عندنا فهي عبارة عن تلقين بعض نظريات ناقصة ، ولا فائدة للنظريات في تربية

الملكات وتكوين الأخلاق ، بل لابد من العمل وتكرار العمل ، والمراقبة الشاملة للماملين ، والتقوية الحسنة في المعلمين .

وبكل أسف نقول : إن غالب الأساتذة عندما إنما يقومون بما يفرضه عليهم البرنامج الذي يسألون عنه (والذي يجب تعديله وإطالة النظر فيه) ، بل الأمر عندنا أشد وأسى من ذلك كله ، خصوصا في تربية البسات واختلاطهن بالبنين ، وغرامهن بروايات الغرام ، مما جعل التعليم الذي يقصده به تربية النفوس وسيلة من أكبر وسائل الفساد ، وإنا لله وإنا إليه راجعون !

ومسألة التربية من أول ما يجب على الحكومة إصلاحه والتفكير فيه ، فإن سعادة الأمة مرتبطة بتربيتها وتهذيبها ، وعلى قدر ما يكون لها من صلاح التربية وفسادها يكون حظها من السعادة أو الشقاوة .

وقد يقول قائل : إن كثيرا من الأوروبيين على حظ كبير من الأخلاق ، فنقول له : إن الأوروبيين درسوا علم النفس دراسة صحيحة ، وعرفوا مبادئ الأخلاق وغرائز النفوس ، فاهتدوا إلى مصالح دينهم علما وعملا ، أما نحن فقد درسنا ذلك العلم دراسة نظرية لا عملية ، مع أن الاسلام لا يقيم وزنا لغير العمليات . وكما تظالمننا الجرائد كل يوم بما يتندى له جبين الحياء وتبكي له عين الدين ، مما لا يمكننا أن نذكر شيئا منه هنا !

ولندع هذا الموضوع ، ولنعد إلى التفسير فنقول :

« بل تؤثر الحياة الدنيا » : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : ولكن أنتم لا تتركون أنفسكم بل تؤثرون . وأما قوله : « والآخرة خير وأبقى » فهي جملة في محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون ، مؤكدة للتوبيخ والعتاب ، أي تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير في نفسها ، كما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذة والبهجة حالم من جميع الشوائب والمخضات ، مع كونه أبديا لا انصرام له . والله در القائل :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقلا

قال ابن مسعود لأصحابه يوما : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ فقالوا : لا ، قال : « لأن الدنيا أحضرت ومجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وأن الآخرة زويت عنا ، فأحببنا العاجل وتركنا الآجل » . وذلك مصداق قوله تعالى : « كلا بل تحبون العاجل وتذرون الآخرة » . وأي قدر للدنيا التي يزيد منكراها على معروفها ، ولا يفي مرجوها بمخوفها ، إن أحسن مرة أساءت مرارا ، سلامتها مقدمة السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها الزائل لا يشر إلا الحسرة والندم ، إن أعطت واحدا من بينها جميع ما طلعت عليه الشمس ،

جعلته حصيدا كان لم يفس بالآمس ، تنفى أصحابها سرورا ، وتعدم غرورا ، حتى يأملون كثيرا ،
ويبنون قصورا ، فتصبح دورهم بمد القصور قبورا ، وجمعهم بورا ، وسعيهم هباء منتورا .
أظن يساق تشتريه سفاهة وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت عدو أم صديق لنفسه فأنتك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنعمك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة
فيا طاملا فانار جسمك لين لجربه حررات بحر الظهيرة

وأبلغ من ذلك كله قول الله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغس بالآمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون . والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . وألفت نظرك إلى التعبير بدار السلام وما فيه من التعريض بدار الآفات .

ويقول صلى الله عليه وسلم نصيحة لنا وخوفا علينا : « والله ما المقر أخشى عليكم ولكي أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتانسوها كما تانسوها فتهلككم كما هلكتهم » ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « ما رفع الله شيئا من هذه الدنيا إلا وضعه » .
وأبلغ وصف لها ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وكيف يؤثر العاقل الدنيا على الآخرة مع كون الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ؟ والدنيا بعد ذلك مخرج خيرها بشرها ونعيمها بألمها ، ومع تلك الميوب كلها فالدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقي خير من لقائي بالضرورة .

ثم قال تعالى « إن هذا لى الصحف الأولى : صحف إبراهيم وموسى » : يعنى أن فلاح من تزكى الخ منصوص عليه في صحف إبراهيم وموسى . وقيل : إن الاشارة راجعة لكل ما في السورة . والظاهر أنها راجعة لقوله : « قد أفلح من تزكى » الخ . ويدل له بعض ما ورد في كتب السنة .

هذا وقد روى عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله : ما كانت صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : « كانت هبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل ! » أخرجه ابن الأثير في جامعته .

وكانت صحف ابراهيم عشرة ، وكذا صحف موسى عليه السلام . والمراد بها ما عدا التوراة .
وفي حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن عساكر وغيره : أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب :
أنزل على شيت خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى ابراهيم عشر صحائف ؛ وأنزل
التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

وقد ذكروا أن محافى صحف ابراهيم : « على العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ،
حافظا لسانه ، فإن من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . وعلى العاقل أن يكون
طالباً لثلاث : لقمة لمعاشه ، أو تزود لمعاده ، أو تلذذ في غير محرم » . وما أحسن قول من قال :

أرى رجالا بأذى الذين قد قنعوا وما أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دينا الملوك كما استغنى الملوك بدنيام عن الدين

قال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من حزم يبق لسكان ينبغي لنا
أن نختار حزما يبق على ذهب يفنى ، فكيف وقد احترنا حزما يفنى على ذهب يبق !
فأصبهنا على ما قال القائل :

نرفع دنيانا بتزيق ديننا فلا ديننا يبق ولا ما نرفع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وباد بدنياه لما يتوقع

وبعد : فإني هذه الآيات كاف في نيل كل سعادة ، والبعد عن كل شقاء ، لأن قوله تعالى :
« قد أفلح من تزكى » إشارة الى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغي ، أما في الأمور النظرية
فمن جميع العقائد الفاسدة ، وأما في القوة العملية فمن جميع الأخلاق الذميمة . وقوله .
« وذكر اسم ربه فصلى » إشارة الى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى . وأما قوله : « فصلى »
فهو إشارة الى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى . وهذه أمور لا يجوز أن يختلف
باختلاف الشرائع . ولهذا قال : « إن هذا لى الصحف الأولى » .

وقد روى عن أبي ذر أنه قال : هل أنزل عليك يا رسول الله شيء مما في صحف ابراهيم
وموسى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا أبا ذر « قد أفلح من تزكى » . ولعل هذا هو السر
فيما روى عن ابن عباس من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الاعلى .
كما أخرجه الترمذى وغيره . وقد سنلت عائشة : بأى شيء كان يوتر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ قالت : « كان يقرأ في الأولى بسبح اسم ربك الاعلى ، وفي الثانية بقل يا أيها الكافرون ،
وفي الثالثة بقل هو الله أحد والمعوذتين » . أخرجه أبو داود والنسائي والترمذى . فكان
صلى الله عليه وسلم يختم عمله بالوتر المشتمل على هذه السورة التي تحث على تسبيح الله وتذميره ،
وتذكير من يحشى ، وبيان أن طريق الفلاح إنما هو تزكية النفوس بامتثال أوامر الله تعالى ،
والحمت على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة التي هي خير وأبقى ، وأن ذلك مندوب
إليه محثوث عليه في صحف ابراهيم وموسى .

ولا بد أن ننبه هنا على أن الدين لا يريد من الناس أن يتركوا الدنيا ولا يدعوها تستقر في أيديهم ، أولا يطلبوا أن يكونوا أرفع أمما وأعز بيها ، كيف وهو يقول : « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » ، ويقول : « سلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأتمم الاعلّون » ؟ إلى غير ذلك . فما أراد من المؤمنين إلا أن يصيروا أحرارا فيها غير مستعبدين لها . فما أحب لهم إلا أن يكونوا أعراء لا أذلاء ، ملوكا لا عبيدا ، فهو يريد منهم أن يجعلوها وسيلة لا مقصدا ، طالما أنهم إذا قاموا بتعاليم دينهم جاءتهم الدنيا وهي راغمة ، فكأت في أيديهم لا في قلوبهم ، وكانوا ملوكا في الأرض ملوكا في السماء ، يضمنون كل شيء في موضعه ، شأن الحكيم الذي عمل بتعاليم سيده ، فأخذ منها ولم تأخذ منه ، وبعد عنها ولم تبعده عنه .

وقد عجلنا بذكر هذه الكلمة خوفا من ذوى الجبهالات وأرباب الغايات ، بمن لا يضمنون الحقائق ولا يعرفون غير الأهواء .

ولنختم هذا المقال بقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحییکم » ، « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .

أسأل الله أن يجعلنا ممن تركى وذكر اسم ربه فصلى ، وأن يعرفنا قدر الدنيا التي حقرها صلى الله عليه وسلم غاية التحقير حتى جعلها لا تساوى جناح بعوضة ، كي لا نفتر بها ولا نطمئن إليها بمنه وكرمه !

يوسف الربوى

عضو جماعة كبار العلماء

الاحتياال لتوقى النوازل

قال حكيم : الحازم يحتال للأمر الذى يخافه لعله أن لا يقع فيه ، فليس من القوة التورط في الهوة ، ومن لم يتأمل العواقب بعين عقله ، لم يقع سيف حيلته إلا على مقتله .

وقال شاعر في هذا المعنى :

إذا المرء لم يحتل وقد حد جده أصاع وقاسى الصعب وهو مقصر
ولكن أخو الحرم الذى ليس نازلا به الأمر إلا وهو للتقصد مبصر

السنن

الكبائر والسيئات

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله : وما هي ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وفذف المحصنات المؤمنات الغافلات » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه . (٢) هل الكبائر منحصرة في السبع المذكورة ؟ (٣) حد السحر وما يترتب عليه من الآثار .

(١) أما معنى الحديث فهو ظاهر ، لأن معظم القضايا التي اشتمل عليها معلومة من الدين بالضرورة ، فكل مسلم يعلم أن الشرك بالله كفر مطلق العظيم الذي خلق الإنسان وأمده بما يحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا من مطعم ومشرب ، وهواء وشمس وقر ، وأرض وسماء ، وغير ذلك من باقى الموائم المسخرة لهذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك لنفسه وجوداً ولا عدماً ولا ضراً ولا نفعاً . وأى مسلم يحكى عليه أن الشرك بالله القاهر فوق عباده حمود ظاهر واعتداء صريح على مقام الألوهية المقدس ، فلا يصدر إلا من سفاهة جاهل بنمسه وبكل ما حوله من المظاهر الدالة دلالة واضحة على أن الله واحد لا شريك له ؟ بل أى عاقل يجحد ربه الذي خلقه من ماء مهين وجعله شراً سوياً ، أو يشرك معه في عبادته أحداً من خلقه عن عقيدة أو نفاق أو رياء ، أو يبعد ربه على حرف : فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ؟ لا ريب في أن الإنسان الذي يشرك مع الله غيره في معنى الألوهية يكون كالحيوان الأعجم الذي لا يدرك شيئاً من دلائل الوجود الواضحة التي لا تخفى على من له أدنى تمييز وإدراك ، فإن من يشرك مع الله أحداً في الإيجاد أو في الرزق فقد أسكر الإله الذي لا يمائله أحد من خلقه في أخص صفاته ، وهي كونه تعالى منفرداً بالخلق والإيجاد .

وأى مسلم يجهل أن قتل النفس التي حرم الله جريمة من أسوأ الجرائم وأقبحها أثراً في المجتمع الإنساني ؟ ويكفى في شناعتها واستنكارها قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وأى مسلم يخفى عليه أن أكل الربا من الكبائر المحرمة لما يقترب عليه من استدلال المحتاجين واستنزاف أموالهم ، وحصر الثروة في أيدي المرائين الذين يستغلون اقتناص أموال الناس وحدها بين أيديهم بدون أن يستخذموها في مصالح المجتمع وإصلاح حال الإنسان ؟ أى مسلم يخفى عليه أن أكل مال اليتيم جريمة ، من أرذل الحرام وأخسها ، لا يأتيها إلا الأندال الذين قست قلوبهم وزعت منهم عاطفة الرحمة والانسانية ، وأصبحوا كالحيتوانات المفترسة ، بل هم أضل سبيلا ؟

أى مسلم يخفى عليه أن الفرار من قتال الأعداء الذين يريدون انتهاك حرمان الوطن والدين ، واستغلال الأحرار الأعزاء ، واستغلالهم استعمال الأرقاء الذين لا إرادة لهم ، حرمة من شر الجرائم ، وموبقة من أسوأ الموبقات ؟

لارب في أن كل هذه الخصال كباير تنافي الفضائل الانسانية ، وتتعارض مع الحياة الكريمة ، وإذا فشت في أمة من الأمم أهلكتها لا محالة .

أما قذف المحصنات فقد بينا آثاره الصارة فيما أسلفنا من القول في الحدود ، وسند ذلك ما يترتب على السحر من الآثار الصارة قريبا . فالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو المربي الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى ، قد نهى أمته نهيا جازما عن هذه الجرائم الموبقة التي يترتب عليها هلاك المرء في الدنيا والآخرة ، فهي من مخاري هذه الحياة الدنيا ، ومن شر آفاتها التي تدفع إليها الشهوة وتستغلها الانقاص الضميعة ، ومن ورأها الخزي الدائم والعذاب الاليم .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثاني : فهو أن الموبقات المذكورة في الحديث معناها المهلكات ، وهي موجبة لهلاك الدينوى والأخروي لا محالة ، ولكن الحديث الذي معنا لم ينص على كل الموبقات ، بل هناك موبقات ذكرت في الأحاديث الصحيحة الأخرى ، وقد حصرها بعض العلماء في إحدى وعشرين ، منها السبع المذكورة في الحديث .

وثانها : شهادة الزور ، وقد ورد في الصحيح أنها أكبر الكبائر ، عن أبي بكر رضي الله عنه قال : « كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أبئكم بأ أكبر الكبائر ؟ (ثلاثا) : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، ألا وشهادة الزور ، وقول زور ، وكان متكئا فجلس ، فزال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

أما كون شهادة الزور جريمة خلقية شائنة تنافي بالنظم العمرانية وتقضى الى الفوضى في كل نواحي الحياة فظاهر لا يخفى على أحد ، فهي شر مستطير يجب على الناس أن يتزهدوا عنه أنفسهم تنزيها تاما .

ثاسعها : الخين الغموس ، وهو أن يخاف على حصول شيء وهو عالم أنه لم يحصل : كأن

يقول : والله ليس لك على دين وهو يعلم أنه له ، أو يخالف على أن فلاناً لم يضرب فلاناً وهو يعلم أنه ضربه ، فقد روى البخاري أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال : الإشراف بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس ؟ قال : الذي يقطع مال امرئ مسلم (يعني يمين هو فيها كاذب) . ولا نزاع في أن هذه اليمين الفاجرة من الكبائر ، بشرط أن يترتب عليها قطع حق ، أو إيذاء من لا يستحق الإيذاء ، أو إدانة يرى ، أو نحو ذلك . أما إذا لم يترتب عليها شيء من ذلك فإنها تكون صغيرة لا كبيرة . وبعضهم يقول : إن اليمين الغموس كبيرة مطلقاً ، لأن الخالف بها قد انتهك حرمة اسم الله تعالى ، لجراؤه العذاب الأليم ، إلا إذا تاب توبة نصوحاً . وليس لليمين الغموس كفارة إلا التوبة منها عند جمهور العلماء ، وقال الشافعية : إن لها كفارة كغيرها من الأيمان . ومتى أخرج كفارتها سقط عنه إيمانها .

ماشرها : الزنا وقد سمى الله فاحشة ، قال تعالى : « ولا تفربوا الزنا إنه كان فاحشة » . وأقلمه أن يزني المرأة بحليلة جاره ، فإن في ذلك العمل المنكر جرعتين : إحداها الاعتداء الصريح على عرض إنسان غافل . فافيتهما : انتهاك حرمة الجوار . ولا يصدر ذلك إلا ممن قسا قلبه وأسئ ربه ، وأصبح كالحيوان الآدمي الذي لا هم له إلا قضاء شهوته . روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : إن ذلك لعظيم ، ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك » . رواه البخاري ومسلم وغيرهما . وحليلة الجار : هي زوجة الجار .

الحادية عشرة : الخمر ، وشرب الخمر كبيرة من الكبائر التي لها أضرار في حياة الإنسان الصحية والغرفية ، وكان بعض كبار الصحابة يرى أنها أكبر الكبائر ، فقد روى أن أبا بكر ومرو سألوا عبد الله بن عمرو عن أعظم الكبائر فقال : شرب الخمر . رواه الطبراني بإسناد صحيح . وقال صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر » .

الثانية عشرة : النجاسة ، وهي من الجرائم الضارة بالمجتمع الإنساني ، لأن النجاس دائماً يسعى بين الناس ليقطع ما بينهم من صلوات ومودة ، ويجعل بعضهم لبعض أعداء ، وكفى بذلك شراً . أما كوف النجاسة من الكبائر فقد صرح به حديث البخاري ، وهو « أن رسول الله مر بقبرين يعذبان ، فقال : إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، بل إنه كبير : أما أحدهما فكان يمشي بالنجاسة ، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله » . فهذا كان يسهل عليهما النجاسة وعدم الاستبراء من البول ، ويظلمان أنهما من الأمور الهينة ، وهما عند الله من أسوأ الموبقات ، لما يترتب على الأول من قطع صلوات المودة بين الناس ، ولما يترتب على الثاني من فساد العبادة .

الثالثة عشرة : عدم التنزه من البول . الرابعة عشرة : اليأس من رحمة الله . الخامسة عشرة : الأمن من مكر الله . السادسة عشرة : استئصال بيت الله الحرام . السابعة عشرة : منع ابن السبيل من فضل المال .

الثامنة عشرة : عقوق الوالدين وقد عرفت من الحديث الذي ذكرناه في شهادة الزور أن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله .

التاسعة عشرة : إحتفاء بعض غنائم القتال ، ويقال له : غلول ، فمن كان في ميدان القتال وغنم من الأعداء شيئاً وأخفاه عن معه فقد ارتكب كبيرة .

وقد عد بعضهم السرقة من الكبائر . والواقع أن السرقة من شر الحرائم ، ولكن الشارع لم ينص على أنها كبيرة ، وإن ذكر أنها أسوأ من هذه الكبائر في الدنيا والآخرة ، فقد نبى الإيمان عن السارق فقال : « لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . وفي بعض الروايات : « فإن سرق فقد حلق ربة الإيمان من عنقه » . وقد جعل الشارع لها عقوبة شديدة تتناسب مع فظاعتها كما بيناه لك فيما سلف . على أن الغرض إنما هو هذه الكبائر التي نص في الأحاديث على أنها كبائر ، فليس الغرض حصر الجرائم الدينية في هذه الأشياء ، وإلا فإن ترك الصلاة من أكبر الجرائم ، حتى قال بعض الأئمة : إن تارك الصلاة يقتل كفراً واحداً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « تارك الصلاة لاحظ له في الإسلام » . ومثل الصلاة باقي الفرائض التي بنى عليها الإسلام ، وهي : الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلاً . فهذه أركان الإسلام ، من تركها حامداً وهو قادر عليها تغير عند مشروع فقد هدم دينه من أساسه .

(٣) وأما السحر الوارد في الحديث ، فإن المراد به الأقوال والأفعال التي تنافي أصول الدين ، وتتعارض مع الأحلاق الشرعية ، ولهذا عرفه الفقهاء بأنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى وتنسب إليه مقادير الكائنات . ولا ريب في أنه بهذا المعنى كبيرة من فظائع الكبائر ، بل قد يكون ردة ظاهرة بصرف النظر عما يترتب عليه من الآثار ، لأن الذي يعظم به غير الله بما هو مختص بالله وحده كافر . وقد نقل عن بعض فاسدى الأحلاق الذين يحترفون السحر أنه يسب الإله ويسجد لما يسميه قرينة . ومنهم من يضع المصحف الشريف تحت قدمه ، ومنهم من يهين الملائكة بالسب ، ومنهم من يصف الإله بما لا يليق به ، وكل ذلك ردة صريحة وكفر شنيع بلا نزاع ، فهو من أكبر الجرائم سواء ترتب عليه الأثر المطلوب أو لا .

وقد فسر بعض الفقهاء السحر بأنه أمر خارق للعادة ينشأ عن سبب معتاد . ثم إن هذا السبب إن كان هو العبارات الفاحشة التي أشرنا إليها كان ردة ، وإن كان بالمعاني الخالية من ذلك كالأسماء الإلهية ، أو استعمال معاني الأحرف التي لاتنافي الدين فانه ينظر فيما يترتب

عليه من الآثار : فان ترتب عليه ضرر لمظلوم غافل ، أو إساءة الى برىء ، في نفس أو مال ، فانه يكون محرما .

وحاصله : أنه إذا كان أقوالا وأفعالا تنافي الدين وتوجب تكفير صاحبها كان كفرا بصرف النظر عما يترتب عليه من الآثار ، وإن كانت هذه الأقوال أو الأفعال محرمة كان حراما ، أما إن كانت جائزة فانه ينظر لما يترتب عليها من الآثار . فان كانت محرمة كان حراما ، وإلا فلا . هذا هو حكم الفقهاء في السحر ، ويكاد يكون مجمعا عليه في المذاهب ، وهو حكم صحيح صادق ، وفتوى لا غبار عليها .

وقد بحث كثير من العلماء في حقيقة السحر فقال بعضهم : إنه تخيل لا حقيقة له ، والى هذا الرأي ذهب كثير من العلماء ، ومنهم الاسترأباذى من الشافعية ، وأبو بكر الرازى من الحنفية ، وابن حزم وكثير من العلماء غير هؤلاء ، فهذه الفئة تجزم بأن السحر هو من باب الخيال كالألعاب السبائية التي يقوم بها مهرة الخوافة ومن على شاكلتهم ، ولكن جمهور العلماء يقولون : إن للسحر حقيقة ، وقد ترتب عليه آثار حقيقية ، وهؤلاء فريقان : فريق قال : إن الآثار المترتبة عليه محدودة ، فقد يؤثر في بعض النفوس بعض التأثير ، وفريق قال : إن الآثار المترتبة عليه غير محدودة ، فقد يقلب بالسحر الحيوان إنسانا والعكس ، ولكن قائل هذا لم نعول عليه . والرأى المعتمد هو الأول ، وقد ذكر بعض المحققين أن السحر صناعة من الصناعات التي يستخدمها الإنسان في إظهار الأمور على غير ما هي عليه في الواقع ، وقد يكون لبعض أنواع السحر تأثير ما على بعض النفوس أو الأبدان . هذا هو رأى المحققين من العلماء .

على أن الباحث في هذه المسألة يجب عليه أن ينظر الى الواقع ، ويجعل للنظر الصحيح قيمته في حكمه ، فهل هناك أدلة واقعية تثبت أن السحر قد ترتب عليه آثار صحيحة ؟ وهل هناك أدلة من الكتاب أو السنة الصحيحة تدل على ذلك ؟

الواقع أن الذين قد شهبوا بإتقان السحر هم قدماء المصريين ، وهؤلاء قد تحدث عنهم القرآن الكريم ، فقد أخبرنا بأن فرعون قد جمع من قومه كل سحار عليم وجاء بهم مجتمعين ، فماذا كان من أمرهم ؟ إنهم لم يأتوا إلا بخيال لا حقيقة له ، كما قال تعالى : « تخيل اليه من سحارهم أنها نسعى » . فهذا صريح في أن سحرة فرعون ، وهم أمهر السحرة ، لم يأتوا إلا بخيال لا حقيقة له ، ولو كان للسحر أثر حقيقى لجاءوا به في هذا الوقت العصيب ، وليس من المعقول أبدا أن يأتى فرعون بكل سحار عليم في مقام الانتصار لأعز شيء عندهم ، ثم يكون قصارى أمرهم أن يأتوا بخيال لا حقيقة له وهم عالمون بنفيه . الواقع أن هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن قصارى أمر السحر هو ذلك الخيال الذي جاء به سحرة فرعون . فهذه هي حجة الذين يرون أن السحر خيال لا حقيقة له .

أما التفريق الثاني فإنه يخرج بقصة هاروت وماروت الواردة في القرآن الكريم ، قال تعالى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعملون السحر وما أزل على الملوكين بابل : هاروت وماروت » . ولكن الواقع أن هذه الآيات الكريمة لا تصلح حجة لأنها لم تتعرض لحقيقة السحر ، فقد يكون نوعا من أنواع الفتن أو الحيلة التي يسمى بها بعض النمامين للتفريق بين الزوجين ، ولهذا حددت الآيات الآثار المترتبة على أعمال هؤلاء ، فقد قال تعالى : « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » . فكل ما كان يترتب على فعلهم من الآثار هو بين المرء وزوجه ، وهذه مسألة قد تقع نصير السحر الخارق للعادة ، ولنا من الواقع ما يؤكد هذا ، فإن كثيرا من النمامين قد أخذوا فتننا تفرق بين الزوجين ، فليس في الآية الكريمة حجة على أن السحر له أثر حقيقي . ولم يبق للقائلين بأن السحر له أثر حقيقي إلا الاستدلال بحديث البخاري الذي رواه عن السيدة عائشة من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سحر ، وأنه كان يخجل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعل . وهذا حديث صحيح لم يتعرض أحد للفتح في أحد من رواه ، وليس من المحس أن يقال : إن مثل هذه الأحاديث مخزى في المسائل الشرعية لا في المسائل الاعتقادية فإن العقائد لا تنسب إلا على الأدلة اليقينية والأحاديث مهما كانت صحيحة فهي أحاديث آحاد لا تنبذ إلا الظن ، لأن الأحاديث الصحيحة يجب أن يكون لها قيمتها في الآثبات ، فهي معصدة للبراهين العقلية .

إنما يجب أن تفهم الحديث على وجه يطابق أصول الدين ، ويوافق ما يقص به العقل السليم ، وإلا فلا يصح لنا أن نحتج به على عقيدة من العقائد .

وهذا الحديث الذي رواه البخاري فيه شيء يجب أن ينزه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قول عائشة : إنه كان يخجل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعل ، لأنه إذا أخذ على ظاهره كان قدحا في رسول الله ، وهو المصون المنزه في تكفيره وإدراكه عن كل شائبة من شوائب النقص ، ولهذا يجب أن تفهم هذه الجملة على وجه معقول واضح :

إن هذه الجملة نطقت بها السيدة عائشة تريد بها أنه كان يخجل إليه أن يأتيها فلم يستطع ، وبالتالي أنه كان يحيد في نفسه رغبة في جماعها فإذا هم بها عجز عن الفعل . ونظرا لكون هذا متعلقا بها عبرت عنه بهذه العبارة حياء . ويدل على ذلك ما رواه عبد الرزاق عن ابن المسيب وعروة ابن الزبير عن أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر في هذا المعنى فقط ، وأن السحر لم يحدث في قواء الباطنة أي أثر ، بل حبسه عن إتيان روجه عائشة . وهذا هو النوع المعروف بين الناس (برط الزوج) . وعلى هذا يرتفع الاشكال الذي أورده بعضهم على الحديث وحكم بعدم صحته لمصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن التأثير في أي ناحية من نواحي الإدراك بأي أثر ولو مؤقتا . ولهذا قال في فتح الباري : إن بعض العلماء قال : إن تأثير السحر منحصر في التفريق بين المرء

وزوجه أو نحو ذلك . فإذا فهمنا هذا الحديث على هذا الوجه لم يكن فيه ذلك الضرر الذي هوّل به بعضهم وأنكر من أجله الحديث . فلا مانع حينئذ من أن يكون للسحر بعض التأثير الحقيقي في بعض الأحيان . على أن هذا الحديث لا يدل دلالة قاطعة مطبعا ، لأنه لا يفيد إلا الظن ، ولهذا قال المكرون للسحر . إن مثل هذا الحديث الصحيح يصح الاحتجاج به في الأحكام الفقهية الفرعية ، أما في إثبات عقيدة فلا ، لأن اعتقاد أن السحر له تأثير حقيقي ، لا يمكن إثباته إلا بالدليل العقل الذي يؤيده الواقع ، ولم توجد في الخارج إلا حوادث آحادية ينقلها أناس فيبرتقات ، ولو كان له حقيقة لقصها علينا كتاب الله تعالى في مسألة سحرة فرعون .

عبد الرحمن الجزيري

في ذم الكبر

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ما وجد أحد في نفسه كبرا إلا لمهانة يجدها في نفسه » .

وقال بعض الحكماء : « الكبر أحب سرائر القلوب ، وأعظم كبائر الذنوب ، لا يرى صاحبه أبدا إلا فظا غليظا ، ولا يرى لأحد سواه في الفصل حظا حطيظا ، وكفى به شيمة مشنومة ، وحلة مذمومة ، أهلكت الأكابر حديثنا وقديما ، وعاد بها الكريم من الرجال ذميا ملينا » .

وقالوا : « من قل له ، كثر عجه » .

وقال أبو مسلم : « ما ضاع إلا وضيع ، ولا فاجر إلا لقيط ، ولا تعصب إلا دخيل » .
قال يحيى الدين محمد النعوى :

ومعتقد أن الرئاسة في الكبر فاصبح ممقوتا به وهو لا يدرى
يجر ذبول الفخر طالب رفعة ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجور
وقال غيره :

وقل لمنعم بالنيه من حق لو كنت تعرف ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين ، منقصة للعقل ، منهكة للعرض فانتبه

اللغة العربية بين الضعف والقوة

في برامج الدراسة — دعائم الإصلاح

— ٤ —

تحدثنا في المقال الثالث عن الدوافع التي كانت سببا في وضع قواعد اللغة العربية وتأصيل فن النحو والبلاغة وغيرها من فنون الفصحى ، وأبنا أن أهم تلك الدوافع كان يرجع الى أمر ديني ، لأن الغرض الأعظم للرعييل الأول من أئمة اللغة كان صون القرآن الكريم والسنة النبوية أن يتطرق إليهما لحن ، أو يعتاص على غير أهل السليقة فهم شيء من أسلوبهما المبين ، وأوضحنا أن هذا الغرض الديني مثنى الى المدارس الاسلامية فكانت تدرس فنون اللغة على ضوءه ، وأن الأزهر كان ولا يزال في طليعة مدارس الاسلام المظني يدرس اللغة العربية وفنونها على ذلك النهج الذي أتصله القداي ، وقد أضمن الأزهر في تشبته بهذا المنهج الدراسي حتى تميز من بين الجامعات العالمية والمعاهد العلمية في طرائق الدراسة بطريق البحث العميق الذي يعتمد على نقد الجملة في مفرداتها وتركيبها ومدلولها ، وكان من أثر ذلك تلك النهضة التأليفية التي خلفت للتاريخ الاسلامي ثروة من الكتب لم يكن لغير المكتبة الاسلامية مثلها ، وكانت في أكثر العهود إنعما تصدر عن الأزهر الذي جعل لمصر في العالم الاسلامي مكان الزعامة الادبية ، فرحل إليها أفاضل العلماء الذين نبت بهم أوطانهم ، وضافت عليهم ساحات بلادهم ، فتقبلتهم مصر بقبول حسن ، وأسبغت عليهم من نعمها ما مكن لهم وسائل البحث العلمي ، وفتح أمامهم مغاليق الأسفار ، بينما كانت الجهالة ضاربة أطنابها في العالم شرقه وغربه ، وتقلص ظل الفصحى ، وانتشرت العجمة في أقطار الاسلام ، بانتشار الآلسنة الحاكمة المسيطرة ، وظل الأزهر يصول مع نفسه في الميدان وحده ، وكان من المسير جدا أن يفرض الأزهر أساليبه العميقة على الجماهير المتبريرة ، وكان من المسير أيضا أن يرل الأزهر عن طرائقه في البحث ليلقن الناس من جديد مبادئ اللغة العربية تلقيا يعيد إليها ألسنتهم ، ويعيدها الى مخاطباتهم .

فلما أخذت الحياة في الشرق تستيقظ على دوى النهضة في الغرب ، وتنبه الى خطر اللغة نفر من أساء العروبة في الشام ، وبدؤوا محاولاتهم في الإصلاح الفسوي ، نهضت مصر الى الأزهر تستنهضه أن يعدها بروح من عنده ، وتطلب إليه أن يسعها بمن ادخرتهم في رحابه ليقوموا من ألسنتها ، ويصلحوا من مجتمعا ، وينشثوا جيلا جديدا ينهد في مراتع العربية

الخاصة ، فقد تم الأزهري نواحي أبنائه مليئة أدمعتهم بقواعد اللغة واصول فنونها ، محاطة بأسوار من الاعتراضات والاجوبة والبحوث ، والأزهري علمهم ألا ينفذوا الى تلك القواعد والاصول إلا من طريق هذه البحوث والاعتراضات لتكون صافية من شبه تقية من التوهينات .

ومن أين للأمة في بدء نهضتها شباب له من المدارك ما يستطيع به أن ينفذ وراء أستاذة الأزهري الى قواعد اللغة متحطيا أسوارها الأزهريه ؟ فكر جماعة من المصلحين الذين عرفوا شيئا من طرق التعليم عن مدارس الغرب وجامعاته ، فأروا أن يستخلصوا بعضا من شباب الأزهري لم يسكنوا مرحلة الدراسة الأزهريه ، ولكنهم تفقوا من قواعد العلم ما فيه غنية ، وأن يختاروا لهم فريقا من الأساتذة ليس من دأبهم التعمق في الأبحاث اللفظية ، والوقوف عند غايتها ، وأن يكون في فطرم استعداد الى الأدب الانشائي ، وأن يكون لهم نظر في نصوص الأدب العربي ، وأن يجعلوا الى جانبهم فريقا لم تطل إقامته في الأزهري ، بل أضاف الى حياته الأزهريه حياة مدرسية أوحياة أوربية أخذ عنها طرقا جديدة في التعليم والتربية ، وتم بهذا الوصف إنشاء مدرسة دار العلوم لدراسة اللغة العربية دراسة نظامية لجميع فنونها ، وتخرج أساتذة يقومون على تربية الجيل الجديد وتعليمه تعليما يكفل للأمة معالجة الاصلاح اللغوي من طريق نشر الثقافة ، فهي المعهد الثاني بعد الأزهري للقيام بمهمة الاصلاح اللغوي ؛ ومن الانصاف أن نقرر أنها قدمت الى الأمة في هذا السبيل خدمة جلي ، قصر دونها كل معهد سواها قبل إصلاح الأزهري الحديث .

فإذا كان الأزهري ظل طوال حياته المباركة الحارس الأمين لثراث اللغة العربية ، ولولاه لكانت الآن إحدى اللغات الأثرية ، فإن مدرسة دار العلوم استطاعت في مدى حياتها أن تغذي النهضة بمجودها المدرسين ؛ وقد طلت تستمد من الأزهري طلابها فيمدها الأزهري من خيرة أبنائه ، وصفوة شبابه بمن تكوّن عقولهم تكوينا علميا ومرورا على البحث ، فإذا دلفوا إليها تلقته بنظامها ومارئتها التعليمية وفنونها العربية وكتبها الأزهريه ، فتم صقلهم ، وتخرجهم أساتذة لهم علم الأزهري وبجته ، ولهم نظام الطرق الحديثة في التربية والتعليم .

كان هذا التعاون بين الأزهري ومدرسة دار العلوم أجدى ما عرفته النهضة الأدبية في مصر ، بل في الشرق العربي ، وتخرج به قادة الاصلاح الأدبي وزعماء النهضة اللغوية ؛ فهل كان من الخير للعلم واللغة والأدب ، ول مستقبل الأمة الثقافي ، أن يدوم ذلك التعاون وتقوى أواصره ، أو كان من الخير أن يزول وتتقطع وشائجه ؟

تقوم وزارة المعارف على إدارة مدرسة دار العلوم ، وقد أنشأتها كما قدمنا لتخرج أساتذة يقومون بمهمة تدريس اللغة والأدب في مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية ، وعولت منذ

إنشائها على أخذ طلابها من بين طلبة الأزهر الذين قطعوا مرحلتيه الابتدائية والثانوية ،
 وهم حينئذ يكونون قد درسوا جميع الفنون العربية ، فلا يحتاجون إلا إلى تنظيم معلوماتهم
 وتعرف طرق الانتفاع بها ، وتطبيقها على مرافق الحياة ، وعرض المصوّر الأدبية ، والمرآة
 على الكتابة وقرص الشعر ، ومن ثم بقي البرنامج الدراسي لغة فيها ، وحدا ، وهو في دار العلوم
 عينه في الأزهر من جهة الكتب والفنون وتوريثها على الفرق المختلفة ، فكان من هذا الوضع
 الحكيم ذلك التعاون الصادق ، وكانت نتائج الطيبة ونفحات المباركة التي يشهد بها تاريخ
 النهضة ويشهد بها الواقع المحسوس ، ولكن الوزارة في زمن مضى لم تستمر في هذا التعاون
 فراح تفسد عراه وتشتت لمدرسة دار العلوم مدرسة تجريبية يتقدم إليها حاملو الابتدائية
 من مدارس الحكومة ، أو من كانوا من مدارس المعلمين الأولية ، ومن الغريب أنها أبقت
 البرنامج الدراسي للغة العربية في دار العلوم بعينه الذي كان يدرسه طلاب الأزهر فيها بعد
 درسه في قسميه الابتدائي والثانوي ، ولكن دار العلوم استمضت على هذا النظام الذي يقطع
 صلتها بالأزهر ، وأنت إلا أنت تعود إليه تستمد تلاميذها ، وتسير معه في خدمة اللغة
 وآدابها ، وعاد إليها وضعها الأول الذي كانت به حلقة الاتصال بين الأزهر ومدارس
 الحكومة ، ونشأ على يديها جيل يفهم اللغة العربية ، ويتحاطب بها ، ويكتب بأساليبها ،
 ويقدرها قدرها ، وشعر الأزهر بحاجته إلى الخروج من عزلته الثقافية ، والتعرف إلى حاجات
 الأمة في تعليمها وتربيتها بطرق تتفق مع نهضتها ، فطلب الإصلاح ، وألح في الطلب ،
 ووضعت لإصلاحه مشروعات متعددة ، لم يطمش إلى بعضها ، لأنها باعدت بينه وبين طبيعته
 الدراسية المميقة ، وكادت تحمله إلى مدرسة ضيقة الحدود ، لا تجد فيها علوم الإسلام وفنون
 العربية مكانها اللائق بتاريخها وتاريخ الأزهر ، فأبى إلا أنت يصلح إصلاحا يدنو من طبيعته
 وينتزع من تاريخه الدراسي ، حتى وضع مشروع الجامعة الأزهرية الذي جعل التعليم في مرحلتيه
 الابتدائية والثانوية موحدًا في برامج ومناهجه ، وجعله في مرحلته الثالثة قاعًا على التخصص
 السوعي ، وأنشأ له كلياته الثلاث ، وحدد لكل كلية منها اتجاهًا خاصًا تدرس العلوم الإسلامية
 في دائرته ، وكان من الطبيعي أن تعنى كلية اللغة العربية عناية فائقة بالثقافة العربية ، وأن تكون
 الدعامة القوية في الإصلاح اللغوي والنهوض الأدبي ، وقد امتاز مشروع الجامعة الأزهرية
 بالتخصص الفني الذي جعل مرحلة رابعة للتعليم في الأزهر ، وخمس كل كلية بعدد من الشعب
 الفنية ، تدرس كل شعبة فنانًا أو فنيًا يشتد الاتصال بينهما ، وأريد من هذه المرحلة التبحر
 لعلمي والتوسع في البحث والاعتماد على طريقة الأزهر العميقة التي سار عليها في عهوده الماضية
 مع الأخذ بجانب من النظام الذي يجعل ذلك البحث العميق مفيدًا ومستجدًا ، ورأى الأزهر
 أن مدرسة دار العلوم أقرب إلى روحه ومناهجه فاستعان في نهضته وإصلاحه الدراسي
 بأسانئها ، وهم قبل ذلك أبناءه الذين رباهم بين أحضانها ، ثم قدمهم إليها لتتصل من أفكارهم

وتهذب معارفهم وتنظم معلوماتهم ، وكان حظ كلية اللغة العربية من هؤلاء الأفاضل أوفر حظ ، لوحدة الغرض والمناهج الدراسية بين المدرسة والكلية ، وقد أدوا رسالتهم خير أداء ، وازدادت الصلة بين كلية اللغة العربية ومدرسة دار العلوم وثوقا ، ولو لقي من ولاية الأمور عناية في شيء من الإخلاص لصار إلى وحدة علمية تتضافر فيها القوى على إتمام الفنون العربية وإعادة مجدها الذي كان لها في عصور الإسلام الذهبية ، وهذا ما تقصد إليه من توحيد برامج الدراسة في مناهج اللغة العربية ، تحقيقا للإصلاح المنشود من أقرب طريق .

وإذا انجھنا إلى ناحية الجامعة المصرية وجدنا بكلية الآداب فيها قسما خاصا باللغة العربية يستقى من منابع مدارس الحكومة ، وهذه المدارس في اللغة العربية يغنونها لا توازي مطلقا القسم الابتدائي بالجامعة الأزهرية ، لحامل الشهادة الابتدائية من الأزهر يدرس في النحو الأجرومية مشروحة ، والأزهرية والقطر والشذور ، ثم هو بعد ذلك يدرس الألفية وشرحها لابن عقيل ، وحامل الشهادة النهائية للمدارس الثانوية الحكومية لم يدرس من النحو إلا فصولا مختصرة من أبواب مختارة لا تعطى الطالب فكرة عن فن النحو وقيمته من بين فنون العربية ؛ أما الفنون الأخرى من فنون اللغة العربية كالصرف والبلاغة والمعرض فليس لها وجود على في مدارس الحكومة ، اللهم إلا شذرات من البلاغة لا تفيد الطالب فائدة علمية في شيء من حياته الثقافية .

هؤلاء الطلاب الذين درسوا هذه الدراسة الضعيفة في اللغة العربية يتقبلهم قسم اللغة العربية بكلية الآداب ليخصصهم في فنون العربية ، ويدرس لهم كتما ، ويسلك بهم مسلكا سلتحدث عنه في مقال تامل إن شاء الله تعالى ؟

صالح إبراهيم عرمود

قلّة الكرام بين الناس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس كابل مائة لا يكاد يوجد فيها راحلة » .
وقال حكيم : « الكرام في اللثام كالنورة في جبهة الفرس ، أو كالرقعة في يد الدانة » .
وقال غيره : « لا يكاد يوجد كريم ، حتى يخاض إليه ألف نعيم » . وقال ابن المعتز : « إذا خرفت الدولة ، وقرب زوالها ، هبطت بالاختيار ، ورفعت درج الأشرار » .
وقال السموأل بن عادي :

نعيرنا أما قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أما قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

أصول التشريع

بحث في الاجتهاد والاجماع

آثار الاجتهاد . تعويل الصعابة والأئمة عليه . هل ورد لكل حادثة نص ؟ ما حكم الاجتهاد شرعا ؟ هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد ؟ كيف ينظم الاجتهاد والاجماع ؟

١ - آثار الاجتهاد :

ما زال السلف والخلف يأمررون بالاجتهاد ، ويمدحونه ويحضون عليه ، لما يترتب عليه من حماية الوطن الاسلامي من احتلال الشرائع والقوانين الأجنبية له ، ولضمان حفظ الشريعة الاسلامية ، وبقائها واستمرارها ، وحفظ جديتها ، ونشاطها وعدم فتورها ، ولضمان صلاحيتها لكل زمان ومكان ، ولسد حاجات الناس في التشريع ، وتنكفي أحكام الحوادث والوقائع التي تتجدد وتحدث في كل يوم ، ولتكون غنية المجتمع الانساني في أفضيته ، ومرافقاته ، وعقوده وتوثيقاته ، وجمع معاملاته وتصرفاته التي تحتاج الى تشريع وقوانين الى يوم الدين .

٢ - تعويل الصعابة عليه :

ولعظم فوائد الاجتهاد ، وحليل آثاره ، عول عليه الصعابة رضى الله عنهم بعد أن استأثر الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، وسدوا به حاجات المسلمين في كل شأن من شئون الحياة الداخلية والخارجية التي تحتاج الى تشريع ، ولم يرد لها نص خاص .

قال ولي الله الدهلوي : لما انقضى عصر الرسول الكريم ، وتفرق الصعابة في البلاد ، وصار كل محابي مقتدى به في ناحية من النواحي ، وكثرت الوقائع ، ودارت المسائل ، واستفتاهم الناس فيها ، فأفتى كل محابي حسب ما رآه من عبادات الرسول ، وبما حفظه وعقله من فتاواه وأفضيته صلى الله عليه وسلم ؛ أو بما استنبطه من ذلك ؛ وإن لم يجد فيما حفظه أو استنبطه ما يصلح للجواب اجتهد برأيه ، وعرف الملة التي أدار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها الحكم في منصوصاته ، فطرد الحكم حينما وجدها لا يالو جهدا في موافقة غرضه عليه الصلاة والسلام .

وقال في « غر الاسلام » : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانقطع الوحي ، واتسعت المملكة الاسلامية اتساعا عظيما ، فواجه المسلمون بهذا الفتح مسائل كثيرة ، في كل شأن من شئون الحياة ، تحتاج الى تشريع ، في جميع الشئون الداخلية والخارجية ؛ ولم يدع أحد أن القرآن والسنة الصحيحة نصا في المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج

عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع ، وهو (الرأى) الذى نظم بعده ذلك ومضى (القياس) .

جرى على هذا كثير من الصحابة ، فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص . وقد نقل إلينا المؤرخون ، والمحدثون والعقهاء ، جملة صالحة من المسائل التى استعمل فيها الصحابة رأيهم . فلم يكذب تنوفى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى رأوا أنفسهم أمام أكبر مشكلة قانونية ، وهى : من يتولى الأمر بعده : أمن المهاجرين ، أم من الأنصار ، أم من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير ؟ وإذا فصل فى ذلك ، فمن هو خير من يتولاها ؟ لم يرد فى كل ذلك نص من كتاب ولا سنة .

لم يكن إلا أن يستعملوا رأيهم ، وقد كان ، فالمحضر الذى ذكره المؤرخون لاجتماع السقيفة يدلنا على كيفية استعمال رأيهم ، وتقليب الأمر على وجوهه .

ولم يفرغ أبو بكر من مبايعة الناس له حتى واجه مسألة الردة ، فرأى فوما يمتنعون عن أداء الزكاة مع إقرارهم بالاسلام ، وإتيانهم للصلاة ، فكيف يصنع بهم ؟ ولم تحدث حادثة كهذه فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلجئوا الى (الرأى) ، فقال عمر : كيف تقاتلهم وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشولوا لإله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ؟ فقال أبو بكر : ألم يقل إلا بحقها ؟ فمن حقها إيتاء الزكاة ، كما أن من حقها إقام الصلاة .

وكذلك عرست فكرة جمع القرآن فى مصحف ، واختلف الرأى أولاً بين أبى بكر وعمر حتى شرح الله صدر أبى بكر لما يقول عمر .

وعرضت لهم مسألة الجسد مع الأخوة : هل يرث الأخوة ؟ فالقرآن لم ينص على هذه المسألة ، إنما نص على الأب مع الأخوة ، فذهب ابن عباس وأبو بكر الى أنه يحجبهم كالأب ، وذهب آخرون ، ومنهم زيد بن ثابت ، وعلى ، وعمر ، الى إرثهم معه

وأرادوا أن يعطوا العطاء ، أعنى الضم الذى يضمونها فى الحروب ، فاختلفوا : هل يسوى بين المهاجرين والأنصار ؟ فقال عمر : لا تجعل من ترك دياره وأمواله مهاجراً الى النبي صلى الله عليه وسلم كن دخل فى الاسلام كرها . فقال أبو بكر : إنما أسلموا لله وأجورهم على الله ، وإنما الدنيا بلاغ . وكان أبو بكر يعمل برأيه فيسوى بينهم ، ولما أفضت الخلافة الى عمر فرق بينهم ، ووزع على تفاوت درجاتهم .

ولما رجعت الى زيد بن ثابت مسألة من مات عن زوج وأبوين ، أعطى للأُم ثلث ما بقى ، فقال ابن عباس : أين وجدت فى كتاب الله ثلث ما بقى ؟ فقال زيد : أقول برأى ، وتقول برأيتك .

والمتنبع لما روى عن العصر الأول في (الرأى) يرى أنهم كانوا يستعملون كلمة (الرأى) بالمعنى الذى نعلمه الآن من كلمة (المدالة) ، وبعبارة أخرى : ما يروى إليه الدوق السليم مما فى الأمر من عدل ، وظلم . وفصره ابن القيم « بأنه يراه القلب بمد فكر وتأمل ، وطلب لمعرفة وجه الصواب » .

وكان سيدنا عمر رضى الله عنه يجتهد في تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآية ، أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه ، وهو أقرب شىء الى ما يعبر عنه الآن : بالاسترشاد بروح لقانون لا بحرفيته .

وعلى الجملة فبالاجتهاد عما تفقه الاسلامى ذلك النمو العجيب ، وأصبح بحرا زاخرا لا ساحل له ، ونضحى فى سمته وثرائه وشموله لا نظير له فى جميع الشرائع والقوانين القديمة والحديثة . وحسبه فضلا ، وكفاه فخرا أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل والانصاف إلا ولتقبه مسلم قول فيه يوافق حاجة من حاجات البشر فى التشريع .

هل ورد لكل حادثة نص ؟

نعرض القرآن الكريم لجميع أنواع ما يصدر عن الانسان من أعمال : الى العبادات من صلاة وصوم ، الى النظم الاجتماعية من زكاة وحج ، وأحوال الأسرة من زواج وطلاق وميراث ، الى الأمور المدنية كبيع وإجارة ورياء ، الى الأمور الجنائية من قتل وسرقة وزنا وقطع يد ، الى الشؤون الدولية كالقتال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب ، وهو فى كل هذا يتعرض غالبا للأمر الكلية ، ولا يتعرض كثيرا للتفاصيل والأمور الجزئية ، كما فى « فجر الاسلام » ، فهو قد نص على الأصول وترك معرفة الحكم فى الجزئيات الى النظر والاستدلال ؛ ولذلك قال ابن تيمية : البارئ سبحانه وتعالى قادر على التنصيص على حكم الحوادث والوقائع ، ولم يفعل ، ولكنه نص على أصول ، ورد معرفة الحكم فى الفروع الى النظر والاستدلال .

وقال الشهرستاني : نعلم قطعا وبقينا أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لم يقبل المحصر والمعد ، ونعلم قطعا أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك ، والنصوص إذا كانت متناهية ، والوقائع غير متناهية . وما لا يتناهى لا يصطبه ما يتناهى . علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار ، حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد .

وقال ابن سراج فى كتابه إيجاز القرآن : لم ينص الله تعالى على حكم جميع الحوادث مفصلا .

وقال الامام النووي فى شرح مسلم : إن النصوص الصريحة لا تنى إلا بالسير من المسائل الحادثة .

وقال العلامة ابن خلدون : نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشياء بالأشياء ، وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم ، وتسليم بعضهم لبعض في ذلك ، فإن كثيرا من الوقعات والحوادث بعده سنوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة ، ففاسوها بما ثبت ، وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الالحاق تصحيح تلك المساواة بين الشيئين أو المثليين حتى يطلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد ، وصار ذلك دليلا شرعيا بإجماعهم ، وهو (القياس) ، وهو رابع الأدلة . واتفق جمهور العلماء على أن أصول الأدلة هي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ؛ وإن حالف بعضهم في الاجماع والقياس ، إلا أنه شذوذ .

وقال إمام الحرمين في البرهان . لم يخل أحد من الصحابة عن اجتهاد . ومن أوصف لم يشكل عليه إذا نظر في التناوي والأفضية أن تسعة أعشارها صادرة عن الرأي المحض ، والاستنباط ، ولا تماق لها بالنصوص ولا بالظواهر .

ومما ذكر يبين أنه لم يرد لسلك حادثة جبرية ، أو واقعة فرعية ، نص خاص ، لذلك عول الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة والعلماء على الاجتهاد في دائرة الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، فسدوا بهذا حاجات الناس في التشريع . ولو سرننا على منهاج سلعنا الصالح وسحننا على متوالم في الاجتهاد ، ما ابتلى المسلمون باحتلال الشرائع والقوانين الأجنبية للوطن الإسلامي ، وزاد نمو الفقه الإسلامي وتقوّض وسيطر على عالم التشريع ، فما هو الدواء لما نحن فيه ؟ هذا ما سننكلم عليه في مقال تال ؟

السيد عفيفي

من علماء الأزهر الشريف
بالمحاكم الشرعية

ما حد العقل ؟

قيل لحكيم : ما مقدار العقل ؟ فقال : « ما لم يركأ في إنسان فلا يعرف له مقدار » . وقال آخر : « لكل شيء غاية وحد ، والعقل لا غاية له ولا حد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة والطيب »

واختلفت فلاسفة المسلمين في ماهيته كما اختلفوا في حده : فقال بعضهم : هو نور وضعه الله طبعاً ، وغرزه في القلب ، كالنور في العين ، وهو يمتص ويزيد ، وبذهب ويعود ، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور ، كذلك يدرك بسور العقل كثير من المحجوب والمستور ، وعمى القلب كعمى البصر ، قال الله تعالى . « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الأعمى من عمى بصره ، ولكن الأعمى من عميت بصيرته » .

دفاع عن القرآن الكريم

- ٢ -

تمليق على ترجمة ابن أبي داود

من الناس فريق يتحرى الحقائق العلمية حين يسردها من معلوماته التي حصلها من الاطلاع على الكتب أو تلقاها من أمواه المشايخ والأساتذة ، ويراعى الصبغ والدقة حين ينقلها عن كتاب من الكتب مع إسنادها الى المصدر الذي نقل عنه ، شأن العلماء الذين لا يعينهم إلا تقرير الحقائق من حيث هي حقائق ، دون أن يكون لهم غرض معين سيئا كان أو حسنا .

ومنهم فريق دأب على تشويه الحقائق العلمية ، سواء قررها من معلوماته ، أو نقلها عن كتاب ، وهؤلاء لا يخلو حالهم من أن يكون لهم غرض معين يريدون أن يصلوا إليه حسنا كان أو سيئا ، وأن يحملوا القاري على الوصول إليه واعتقاده ، فتراهم يذكرون بعض الحقائق ويتركون بعضها ، وقد تكون تلك الحقائق مفاهيم مسائل علمية بعضها مرتبط ببعض ، فإذا سردت الألفاظ الدالة عليه جميعها دلت على معنى كامل ومفهوم تام ، بخلاف ما إذا ذكر البعض وترك البعض ، فقد يدل المذكور على معنى ولكنه غير المعنى الكامل الذي يفيد الفائدة النامة . وإذا ما نقلوا من كتاب تراهم يقولون جملة ويتركون جملة ، وينقلون عبارة بالدم ويتصرفون في أخرى . وفي كتب التراجم والطبقات : ينقلون مدح المترحم ويتركون تجريحه ، أو العكس ، ومع ذلك لا يذكرون اسم المصدر المقول عنه . وهؤلاء هم أصحاب الأغراض من العلماء الغربيين . فالدكتور ارثر جفرى : كتب في مقدمته بعض عبارات المدح والنساء على ابن أبي داود ، ولم يذكر كلمة واحدة في تجريحه ، ومع ذلك لم يبين لنا المرجع الذي رجع إليه وأخذ عنه من كتب التراجم والطبقات .

فرحنا نحن إليها باحثين منقبين فلم نجد كثيرا منها تعرض له مع شهرته .

فكتاب تهذيب التهذيب لابن حجر ، مع كونه يقع في اثني عشر مجلدا بملاوءة بتراجم الرجال ، لم يجده ذكره ، وكذا الحال في غيره من كتب الرجال ، فتركنا المراجع الخاصة بالثقافت ، وأتيننا الى كتب الجرحون والفضلاء ، فوجدنا الذهبي ترجمه بالترجمة الوافية السابقة ، في كتابه الذي ألفه في نقد الرجال وسماه : ميزان الاعتدال في نقد الرجال . ومن عجب أنى وجدت الدكتور جفرى نقل عنه ما يخص المدح وترك ما يخص التجريح ، ولعله لم يشأ أن يوشدنا الى لكتاب الذي أخذ عنه خشية أن تقف على تجريح ابن أبي داود ، وهو إنما

يريد أن يصل إلى غرض معين لا يساعد عليه عبارات التجريح ، ذلك أنه يريد أن يقرر في نفس القاريء أن ابن أبي داود حجة بدليل ما ورد من الثناء عليه في كتب الطبقات ، فينقل من ذلك إلى أن كتابه ثقة ، ويعلم الله أن كتابه قائم على فكرة التشكيك في كتاب الله تعالى . وقد استوفينا الرد عليه فيما يأتي :

من هنا يتضح جليا أن المستشرقين ومعظم علماء الغرب لا يدكرون حقيقة من الحقائق العلمية التي تتصل بالدين الاسلامي ، ولا واقعة من الوقائع التاريخية التي ترتبط به أو لعالم من علماء المسلمين ، ولا ولهم فيها غرض معين ، ويجب علينا ، نحن علماء المسلمين ، أن نكون على جانب كبير من الحيلة والحذر . والآن أنتقل بالقاريء إلى تلخيص وحيز لترجمة ابن أبي داود ، حتى يكون عمده صورة صحيحة عنه من الثناء عليه أو تجريحه

الثناء عليه :

- (١) قال الذهبي : ما ذكرته إلا لأتزره .
- (٢) قال الدارقطني : هو ثقة .
- (٣) قال ابن عسدى : هو مقبول عند أصحاب الحديث .
- (٤) قال أبو محمد الخلال : كان أبو بكر أحفظ من أبيه أبي داود .
- (٥) قال الذهبي : كان أبو بكر من كبار الحفاظ وأئمة الأعلام .
- (٦) قال الذهبي : أملى على أهل سجستان ثلاثين ألف حديث من حفظه .
- (٧) قال ابن شاهين : أملى علينا أبو بكر سنين وما رأيت بيده كتابا .
- (٨) قال أبو تمام الزينبي : لله درك ما رأيت مثلك (يخاطب ابن أبي داود) ، لا أن يكون إبراهيم الخليل ، قال أبو بكر : كل ما كان يحفظ إبراهيم فأنا أحفظه ، وأنا أعرف الطب والنجوم وما كان يعرفها .
- (٩) تقدير الناس له بعد وفاته حتى صلى عليه رهاء ثلاثمائة ألف نفس ، وصلوا عليه مائة مرة .

تجريحه :

- (١) قال الدارقطني : هو كثير الخطأ في الكلام على الحديث .
- (٢) قال أبو داود (والد المترجم) : ابنى عبد الله كذاب .
- (٣) قال ابن صاعد : كفانا ما قال أبوه فيه .

- (٤) قال ابراهيم الاصفهاني . أبو بكر ابن أبي داود كذاب :
- (٥) قال أبو القاسم البغوي : أنت والله عندي منسوخ من العلم (يحاطب ابن أبي داود)
- (٦) قال أبو داود (والد المترجم) . من البلاء أن عبد الله يطلب القضاء
- (٧) روى محمد بن الضحاك بسنده عن ابن أبي داود رواية تدل على إسناد تهمة شعاع لابن أبي داود (أمسك القلم عن ذكرها لما فيها من الشناعة) ، وحوكم عليها أمام أبي ليلى (أمير أصفهان) وشهد عليه الشهود ، فأمر الإمير بقتله ، ثم جاء محمد بن عبد الله بن حفص الحمداني ، وجرح الشهود وخرج به من فك الأسد .
- (٨) قال الوزير علي بن عيسى لابن أبي داود . أنت شيخ زيف . (والريف : الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) .
- هذه خلاصة تصور لقاريء حال ابن أبي داود تصورا صحيحا دقيقا ليستطيع أن يقدر كتابه تقديرا مبليا على أساس .
- قال الدكتور جفري مبتدئا مقدمته :

« بتقديم هذا الكتاب — يعني كتاب المصاحف — للقراء على أمل أن يكون أساسا لبحث جديد في تاريخ تطور قراءات القرآن » .

أقول : يرى الدكتور أن التطور في القرآن جائز ، بل واقع . وأراه ، كما يراه كافة علماء المسلمين ، مستحيلا عقلا وشرعا . فالخلاف ، هل القرآن الكريم تطور ؟ كذا يقول الدكتور جفري ، أم هو لم يتطور ولن يتطور ؟ كذا نقول ويقول معنا علماء المسلمين جميعا . فالمسألة نظرية كما ترى يحتاج في إثباتها إلى الدليل ، بل هي من أخطر النظريات المتصلة بالدين لأنها تتعلق بأصل أصوله ، وأى شيء أخطر من هذا التطور المشؤم الذي يوقع المسلمين في الشك والارتباك في القرآن الكريم ؟

ولم يمت الدكتور جفري ذكر الدليل على تطور القرآن ، بل حملة كتاب المصاحف نفسه ، الذي نجمش في سبيل طمعه ونشره مشاق الأسفار ، وقطع في الحصول عليه كل سهل وصعب حتى التقط صورته من المكتبة الظاهرية بدمشق .

فهو يقول : اقرأ الكتاب « إن شئت » تجد فيه الدليل على تطور القرآن ، تجد فيه قراءات الصحابة قبل مصحف عثمان ، وتجد فيه أثمان نفسه قراءة مخالفة لقراءته في المصحف الامام ، وتجد فيه تغييرا وتبدلا حدثا في المصحف الامام نفسه أحدثها الحجاج ، وترجم لذلك ابن أبي داود فقل : باب ما كتب الحجاج في مصحف عثمان ، وفي مكان آخر من الكتاب : باب ما غير الحجاج في مصحف عثمان . وتجد فيه غير هذا وغير هذا مما هو كثير من أمثاله ، أفتريد دليلا على تطور القرآن أكثر من هذا ؟

لما لاحظت أن باب ما كتب الحاجب بن يوسف في مصحف عثمان هو بعينه باب ما غير الحاجب في مصحف عثمان ، رواية ومروية ، أي أن ما ورد في هذا الباب هو بالحرف الواحد ما ورد في الباب الثاني ، نفت نظري هذا التكرار وغامر في الشك ، خصوصا وأن هذا الموضوع هو أظهر ما يدل للدكتور جفري على التطور ، فرجعت إلى النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية المنقولة عن نسخة الشام ، استعبر خبر هذا التكرار فأنبأتني بأن الأمر سهل ، وأنها رواية فقط كررت لمناسبة من ابن أبي جملة ، كما يحدث ذلك كثيرا في كتب الروايات ، وأن ابن أبي داود لم يترحم لهذه الرواية بباب في كلا الموضوعين .

وأن الذي تصرف هذا التصرف « بوضع البابين » وأخرج الأمر عن سهولته ، واتهم فرصة تكرار الرواية ليشن الغارة على مصحف سيدنا عثمان ، إنما هو الدكتور جفري . فهو الذي ترحم لهذه الرواية بباب ما كتب الحاجب ، وبباب ما غير الحاجب ، حين أراد طبع الكتاب . فاقولك يا حضرة الدكتور ؟ وهل هذه أمانة العلماء ؟ الذي نعهد أن العلماء إذا أرادوا أن ينشروا كتابا مؤلف معين تفرض عليهم أمانة العلم والنقل أن ينشروه كما هو ، وأن لا يتصرفوا فيه بما يخرجه عن أصل وضعه ، أو على الأقل ينبهون على تصرفهم ويبينون حكمته ، إذ كل من قرأ أو يقرأ النسخة المطبوعة لا يشك مطلقا في أن الترجمة بالمابين السابقين من وضع ابن أبي داود نفسه ، مع أن الأمر ليس كذلك . فلم هذا يا دكتور ؟ ثم ألا ترى ممى أن تصرفك هذا يجعل الشك يتطرق إلى النسخة المخطوطة التي طبعت عليها الكتاب « نسخة الشام » ، خصوصا وأنت لم تبين لنا الأصل الذي نقلت هي عنه ؟ ثم ألا يكون هذا مدعاة إلى تطرق الشك في نسبة الكتاب إلى ابن أبي داود ؟ ثم تريد أنت أو ابن أبي داود أو كلاهما أن تصمم أن الحاجب غير في المصحف الإمام أحد عشر حرفا وبديل آية مكان آية . ولو صح هذا لما خفي على المؤرخين ، ولتناقله الناس جيلا بعد جيل ، ولكن ذلك أشهر من ضربه بيت الله (الكعبة) بالمنجنيق . ثم كيف يسع الخليفة في دينه أن يعلم ذلك ويقره ؟ بل كيف كان مع خاصة المسلمين وعامةهم في دينهم أن يقرأوا ذلك ؟ وإن قلنا : إنهم هابوه لغلظته وجفائه ، فهل هابه الخليفة وهو ال من قبله ؟ ثم ما الذي منع المسلمين من حرق هذا المصحف الذي غير وبديل فيه بعد وفاته ؟ وأخيرا كيف كان يموت الحاجب على فراشه ولم ينفرد دمه على سيوف المسلمين ، والدين بمدى عنفوان شبابه ؟ الحق يا دكتور أن علماء الطبقات إن صح كلامهم في أن ابن أبي داود (كذاب) فليكن في هذا وأمثاله .

دليلك يا دكتور جفري هو كتاب المصاحف ، ونحن لا نسلم أن جميع روايات كتاب المصاحف صحيحة ، فعليك الإثبات ، ونسند المنع بما يأتي :

أولا — أن علماء الطبقات يقولون : إن ابن أبي داود كذاب (راجع كتب الطبقات) وترجمة ابن أبي داود في أول الكتاب .

ثانياً - أن مرويات ابن أبي داود في كتابه تنافى الإجماع الذي انمقد على مصحف عثمان ، وهو أقوى إجماع عرفه المسلمون حتى الآن .

ثالثاً - أنها تنافى ماقرره علماء الأصول من أن المروى آحاداً لا يكون قرآناً - راجع كتب أصول الفقه - وبالأخص الآمدي في كتابه الأحكام في أصول الأحكام .

رابعاً - أن ابن أبي داود نفسه (المؤلف) يرى أن مروياته ليست قرآناً - راجع صفحة ٥٣ ، ٥٤ من الكتاب والخلاف بيننا وبينك في تطور القرآن ، وهذا ليس قرآناً .

وقد علمت أن تغيير الحجاج في مصحف عثمان غير صحيح . فقد انتقض دليلك حجة ، ومع هذا فبانتقض لك الدليل تفصيلاً فأقول :

ما الذي تقصده بإدكتور من التطور . أتقصده التطور في متن القرآن ، أم التطور في القراءات السبع ، أم التطور في القراءات الشاذة ، ولا شيء وراء هذا ، والكل مستحيل ؟

مسي مسين

—

هل للعاقل علامة يعرف بها ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للعاقل عشر خصال يعرف بها : يحسم من ظلمه ، ويتواضع لمن دونه ، ويسابق الى بر من هو فوقه ، ويتنزه الفرصة إذا أمسكنته ، لا يفارقه الخوف ، ولا يصحبه المنف ، يتدبر ثم يتكلم ، فإذا تكلم غتم ، وإذا سكوت سلم » .

وقال حكيم : « علامة العاقل ثلاثة : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وترك ملا يعني » . وقال غيره : « لا تعجب العاقل يحدث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منعه ، ولا يعد بما لا يستطيع إنجاز » .

وقال غيره : « العاقل إذا والى بذل في المودة نصره ، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره ، فيستعين مواليه بعقله ، ويمتصم معاديه بعنقه » .

وقال المهلب بن أبي صفرة : « يعجبني أن أرى عقل الرجل زائداً على لسانه ، ولا يعجبني أن أرى لسانه زائداً على عقله » .

وقالوا : « زيادة العقل على اللسان فضيلة ، وزيادة اللسان على العقل رذيلة » .

الفلسفة الشرقية^(١)

هل تقدم الفكر البشرى مطرد؟

غير أن هذه النتيجة وهي ثبوت تملسل الثقافة البشرية تخلق لنا مشكلة جديدة ينبغي أن نلقي بحلها ، وهي : هل الفلسفة سائرة منذ العصور القديمة في تقدم مطرد ، مترتبة كل حلقة منه على ما قبلها ترتب الفرع على الأصل ، أو هي خاضعة خصوصا مصادفيا لمتخلف الأزمنة ومتباين العقليات والبيئات ؟ .

أجاب على هذا السؤال كثير من العلماء ، فرد بعضهم بالإيجاب على صوره ، وقد أبد بهذا دعوى الماضى التأثير على الحاضر والمستقبل . وأجاب البعض الآخر بالسلب على صدر ذلك السؤال ، وبالإيجاب على محزه ، فحلل بحجابه قطع الصلة بين المذاهب الفلسفية المختلفة ، وهي وحدها الجديرة بتسميتها مذاهب . أما ما تأثر منها بما قبله تأثرا جليا فهو عند هذا البعض تقليد لا مذهب . وقد ذهب فريق ثالث من الباحثين الى إقرار تأثير السابق في اللاحق مع جحود فكرة التقدم المطرد ، لأنه يرى أن ذلك التأثير قد يكون سلبيا عكسيا كتأثير « السوفسطائيين » المنكرين للحقائق المطلقة في فلسفة « سقراط » الذى وصع أيدي تلاميذه ومعاصريه على تلك الحقيقة ، إذ أبانها لهم إبانة لا حيل الى الشك فيها .

ويصرح الأستاذ « برييه » بأنه يميل الى الرأى الثالث الذى يجحد التقدم المطرد ، ويعتبره خرافة من الخرافات التى لا تمت الى الحقيقة التاريخية صلة . ويراهنه على ذلك هو ما يشاهده من المد والجزر الذين يكادان يرافقان المشاكل الفلسفية منذ أول عصورها الى اليوم ، فتارة مادية لا تعرف حل مشا كل الوجود سبيلا غير الطبيعة من : ماء وهواء ، وتراب ونار وذرات ، وما يقوم بها من حركة وتحول وكون وفساد ، وما تحل فيه من فراغ ، كما كان يرى الفلاسفة الأولون : « تاليس » و « أناكساندر » و « أناكسيمين » و « هيراكليت » و « ديموكريت » . وتارة أخرى عقلية منطقية تؤسس قضاياها التى تصل بها الى الحقيقة المطلقة على الجزئيات المحسة كما هو مذهب « سقراط » ثم مذهب « أرسطو » مع الاحتفاظ بفروق بين المذهبين ليس هما موضوعا . وتارة ثالثة « بصيرية » تؤسس قضاياها على الكليات التجريدية المبسطة من داخل النفس البشرية بوساطة وحى البصيرة ، كما هو مذهب « أفلاطون » ثم مذهب « أفلوطين » الاسكندري من بعده . وتارة رابعة رياضية ذات قواعد لا تتخلف كالمهندسة

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان في الجزء السابق لحفرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب .

والحساب سواء بسواء ، كما هو مذهب « ديكارت » وتلاميذه الرياضيين . وخامسة تجريبية لا تتجه أlient نحو ما وراء الطبيعة ، كما هو مذهب الفلاسفة الانجليز . وهي مرة تكرر الحقيقة المطلقة ولا تعترف إلا بحقائق اعتبارية ، مقياسها الانسان الذي يؤمن بها وحده دون أى التفات الى الواقع أو المنطق ، كما هو رأى المدرسة « السوفسطائية » . وأخرى تحمل الحقيقة المطلقة موجودة وجودا تعدد المناقشة فيه ضربا من العبث ، كما هي مذاهب : « سقراط » و « فلاتون » و « أرسطو » و « الاسنويسية » و « الأفلاطونية الحديثة » وهلم جرا . وفوق ذلك ، فاما نلاحظ أن بعض المصور الفلسفية يسوده الاختلاف الشديد فى آراء الفلاسفة ومذاهبهم ، حتى لا تكاد ترى فيه فكرة واحدة تعم روح العصر كله كما كانت الحال فيما بعد عصر « سقراط » حيث ظهرت المدارس : « الميجارية » و « السينيكية » و « السيرينية » (الكروناية) ، أو فى عهد ما بعد « أرسطو » حيث ظهرت المدارس : « الاسنويسية » (الرواقية) و « الايبيكورية » و « الارتياية » أو « البيرونية » ، بينما نرى عصر آخر تكاد فكرة واحدة تدرسه من أوله الى آخره ، مثل القرن الثامن عشر الذى شملته التجريبية الانجليزية شمولاً لم يدع فيه لغير تلك الفكرة موطئا .

أضف الى هذا أنه لو كانت الفلسفة سائرة فى ساحة التقدم لما اعتورها ذلك الانحطاط الشامل الذى رافقها أكثر من ألف سنة انتهت بعصر النهضة ، ثم بانتصار الفلسفة الحديثة . ولا ريب أن هذا كله يقوم برهانا ساطعا على أن ناموس التقدم المطرد لا يشمل الفلسفة وتاريخها بآى حال .

على أن أنصار التقدم المطرد يسوقون كبرهان قوى على رأيهم ما شاهدوه تاريخ الفلسفة من تطور البحث الفلسفى من المادة الحية بذاتها عند « الدينا ميكين » من المدرسة « الايونية » الى المادة المتأثرة بحركة أجبية آتية اليها من الخارج عند « الميكايكين » من تلك المدرسة أيضا ، ثم من اعتبار منشأ هذه الحركة هو الروابط الطبيعية بين جزئيات المادة ، كما هو مذهب « أناكسياندر » الى اعتباره قوى الحب والبغض المتعارضتين ، كما هو رأى « أمبيدوكل » ثم الى اكتشاف وجود قانون عاقل هو مصدر هذه الحركات ، ثم الى ترقى البحث بعد ذلك ووصوله بهذا القانون الى إله واحد يصرف الكون ، كما عند « كزينوفان » ثم « أناكزاجور » ثم « سقراط » ثم « أفلاطون » الذى حمت قداسة الإله مؤلفاته حتى أطلق عليه اسم : « أفلاطون الإلهى » .

وكذلك كانت الحال بإزاء المنطق إذ جاء « أرسطو » فأقام دماثم منطق الشائخة على أساس مفاهيم « سقراط » العامة ، ثم أخرج للناس هذه البحوث الرائعة التى كانت بدورها مصباح « ديكارت » الذى بدد ظلام القرون الوسطى الدامس ، فديكارت فى منطق القيم افتنى أثر

« أرسطو » ، و « أرسطو » أخذ كلياته المكونة من جزئيات عن روابط «سقراط» وصلاته العامة ، و « سقراط » أخذ طريقة استخدام الجزئيات المعلومة للوصول الى مجهولات عن « أناكزاجور » الذي سبق « سقراط » في اتخاذ نظام الكون برهانا على وجود خالقه . وفي جميع حلقات هذه السلسلة يلاحظ المتأمل اطراد التقدم بهيئة لا سبيل الى الشك فيها . وأصحاب هذا الرأي يجاوبون على اعتراض خصومهم بالمخطاط الفلسفة طوال القرون الوسطى بأن تلك كارثة نشأت من ظروف طارئة ، ثم صدمت الفلسفة صدمة غير طبيعية فعافت تقدمها ودحا من الزمن ، فلما انتشمت ماد الباموس الطبيعي يقوم بعمله في اطراد التقدم كما كان . وأما شخصيا أميل من بين كل هذه الآراء المتقدمة الى الرأي القائل بتأثير الساق في اللاحق مع إنكار التقدم المطرد في سير الفلسفة . وأرى أن أثر القديم في المحدث قد يكون سلبيا عكسيا ، كما أثرت الفلسفة السوفسطائية المنسكرة للحقائق المطلقة في مذهبي « سقراط » و « أفلاطون » تأثيرا عكسيا جعلهما يبرزان الحقيقة المطلقة في مظهر الملموسات .

ينبغي تجنب الحمقى

قال الجاحظ : « لا تحالس الحمقى فانه يعلق بك من مجالستهم يوما من الفساد ، ما لا يعلق بك من محاسبة العقلاء دهرًا من الصلاح ، فان الفساد أشد التحاما بالطباع » .
وقال الاحنف بن قيس : « إني لأجالس الاحق ساعة فأتين ذلك في عقلي » .
وقال لقمان لابنه : « لا تعاشر الاحق وإن كان ذا جمال ، فانه كالسيف حسن مخبره ، قبيح أثره » .

وقال حكيم : « صحبة الاحق غدر ، ومجاورته خطر ، والبعد عنه خير » .
وقال مسكين الدارمي :

اتق الاحق لا تصبه	إنما الاحق كالثوب الملق
كلما رقت منه جانباً	حركته الريح وهنا فاعرق
أو كصدع في زجاج فاسد	هل ترى صدع زجاج يرتق
وإذا طائته كي يروعى	زاد جهلا وتعمادي في الحق

وقال علي بن إسماعيل :

لاتيأسن من اليبس وإن جفا	واقطع حبالك من حبال الاحق
فعداوة من عاقل متجمل	أولى وأسلم من صداقة حرق

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

خصوصة في زواج

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر السؤال الآتي :
 نكر بالغة يتيمة زوجها لآبها بتفويض منها ، وبعد أيام فلال أنكرت التفويض
 وخاصمت ، فمن يكون الخصم الحقيقي : أم الزوج ، أم الجد المذكور ؟
 والفتوى تكون على مذهب الامام مالك رضى الله عنه .

الجواب :

الذى نص عليه في مذهب الامام مالك رضى الله عنه : أن الولي غير المجبر ، كالجد في صورة
 الاستفتاء ، إذا روج المرأة وزعم أنها وكلته في العقد عليها ، أو أنها رضيت بالعقد بعد علمها به ،
 وأنكرت هي ذلك بأن قالت : لم أوكله ابتداء ولم أرض به بعد عصى ، فإن كان إنكارها قد حصل
 فوراً ، وعلى إثر علمها بالعقد ، صدقت بلائمين ، ولا يلزمها العقد ؛ وإن حصل بعد سكوتها زمناً
 يسيراً صدقت بيمينها ؛ وإن حصل بعد سكوتها زمناً طويلاً يعمد العرف رضا بالعقد ، فإنها
 لا تصدق في إنكارها ، ويلزمها العقد . وهذا التفصيل كله عند عدم البيينة ، فإن شهدت البيينة
 بأنها فوضت أمر تزويجها لولي ، أو رضيت بالعقد عقب علمها به ، فلا كلام لها أصلاً ، ولزم
 عقد النكاح .

ودكر في المذهب أيضاً : أن الزوج له حق في هذا العقد المتنازع في الرضا به وعدمه .
 هذا ما وجد في المذهب ، ومنه يعلم أن الجد والزوج كل منهما خصم للزوجة في صورة
 الاستفتاء . أما الجد ، فلتعديه عن المرأة حيث عقد عليها بدون إذنها على ما تزعم ، وأما
 الزوج ، فلا لأنه صاحب العقد .

فإن أراد السائل بالخصم الحقيقي من تنازعه المرأة في التعدي عليها ، فهو الجد ، لأنه هو
 الشخص الذى تزعم أنه عقد عليها بدون إذنها ورضاها ، وإن أراد من تنازعه في صحة العقد
 أو فساده ، فهو الزوج . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النمام

معرض الآراء عن العالم الاسلامي

إن حركة النهوض التي تبدو آثارها في العالم الاسلامي في هذا العصر قد لفتت أنظار العالم إليه ، وأخذ الذين يمتنعهم أمره من الأوروبيين يدلون بأرائهم في أسباب هذه الحركة ومصيرها ، وفي وجوه انتفاء تناجحها . ونحن خدمة لقضية الاسلام نرى أن ننقل تحت هذا العنوان ملخصا لتلك الآراء غير متحملين تبعاتها ، ولكننا نأتي بها رامين لفرض واحد وهو أن يعلم العاملون على إنعاش المسلمين ما يقال عنهم ، وما يثار من الإرجافات حولهم ، وحول صراميمهم الإصلاحية :

مصر والخرقة :

جاء في جريدة (الاكسيون فرنسي) تحت هذا العنوان بقلم (بول أولانبييه) ما يأتي :

« عرض المسيو موريس بيرنو في مقال حديث له نشره في جريدة (الديبا) على مصر والاسلام الى مسألة إعادة الخلافة في شخص ملك مصر . وليست هذه أول مرة اضطلع فيها ملوك هذه البلاد بأعباء هذا المنصب السامي ، فلقد كانت القاهرة مقرا للخلافة دومتين ، فكانت طوال القرن العاشر ممثلة في الفاطميين ، ومن القرن الثالث عشر الى السادس عشر كان يقوم بها بعض سلالة العباسيين ، ثم تسلمها السلطان سليم من آخرهم ، وبقيت في عهدة السلاطين العثمانيين الى سنة ١٩٢٣ حيث أبطلها مصطفى كمال ، وأند آخر خلفائهم عبد الحميد ، وهو الآن يمضي أياجه في ناحية من شواطئنا الصافية الأديم .

« ليس للمسلمين السليين اليوم خليفة إذا استثنينا المراكشيين الذين يعتبرون سلطانهم حاكما وخليفة معا .

« ولكن الخلافة منصب ديني ، وهي وإن كانت قد فصلت عن السلطة دفعات كثيرة في مدى التاريخ ، فإنها اقتضت دائما أن تكون الأمة التي تمثلها مستقلة استقلال تاما . فثل الخليفة كثل البابا لا يجوز أن يكون تابعا لسلطة دنيوية ، فيجب أن تكون له السيادة المطلقة على مملكة من الممالك مهما كانت صغيرة .

« لقد وجدت الخلافة من عهد (محمد) أي من منتصف القرن السابع الى أيامنا هذه ، فهي تعتبر جزءا متمما للاسلام ، ولا يجوز أن يتطرق لأحد الظن بأنها لمود حركتها منذ نحو

عشر سنين ، أن المسلمين لم يعودوا يكثرثون بها ، فانهم متألمون من عدم وجودها ومدى التمييز فيها . فلذلك يجب الاعتقاد بأنها ستمود في يوم من الأيام لتد حاجة دينية ، ولا يجوز مواجهة الاسلام دون أن يكون فيه أمير للمؤمنين ، كما لا يجوز مواجهة الكاثوليكية دون أن يكون لها بابا .

« إن إعادة الخلافة أمر في رأينا لا بد منه ، فهل في ذلك ما نخشى منه من قيام كتلة إسلامية تتوجه ضد الدول الأوروبية التي تحت سلطانها رعايا مسلمون ، وآخرون منهم تحت الحماية ، كفرنسا وإسبانيا والمجثرة وإيطاليا والبرتغال وهولندة وبوغسلافيا ؟ لا نطش ذلك ، فالتاريخ يرينا أن خلافة القسطنطينية كانت غالبا عنصرا معذلا ، وأماما على حفظ النظام العالمي ، ولم تكن سببا لإثارة القلاقل والنواضح .

« وعليه فنحن نعتقد أن الخلافة بإرضائها الأمانى الدينية للمسلمين ، ستكون أماما للسلام الاجتماعي ، وأن المطالب بالدستور في تونس مثلا لن ينال منها أقل مساعدة ، بل سيكون الأمر على العكس .

« فالخوف من التعصب الذي اشتهر عن المسلمين أصبح من الهذيان التي يجب كسطلها من عقول الفرنسيين . فان حمل الجنرال ليوتي في مرا كس يكفى وحده لإزالة هذا الوهم . أما الحقيقة فهي أنه لا توجد ديانة تضارع الاسلام في التسامح . والقرآن نفسه يحمى المصارى واليهود بنصوص صريحة .

« وهو الأمر الذي جرى عليه سلاطين المسلمين حيال رعاياهم المسيحيين ، فهل نستطيع أن نقول مثل ذلك عن معاملة الأمم المسيحية للمسلمين ؟ » . انتهى ما نقلناه



يبدى الأوروبيون ميلا لإعادة الخلافة الاسلامية أكبر مما يبدىه المسلمون ، ويلوح لما أنهم يرمون من وراء ذلك لأن تكون أماما مهدئا للشعوب الاسلامية التي تظهر اليوم اضطرابا عظيما للحصول على حقوقها الاجتماعية والسياسية ، والنخلص من نير الاستعمار طرفة .

ثم عرض المايو (بول اولانييه) الثلاثة الملوك المستقلين الذين يصلعون للخلافة ، ومن بينهم حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، لحكم لجلالته بالأولوية ، ثم قال :

« وبعد : فيوجد غير هذه الخصائص التي تتمتع بها بلاده ، خصائص أخرى تريد في وجوده تفضيل شخص جلالة الملك فاروق على من ذكرناهم : فهو شاب ، وحاصل على جميع المزايا الأدبية والطبيعية التي يرحو الناس أن يروها في شخص ملكهم ، وقد أبان بالدليل عن تمتعه بعقلية سياسية فوق ما يمكن أن تسمح بها سبه ، وذلك بمحصله على سلطته الشرعية دون

الاصطدام بعقبة ماء، ولكن محض الحب العميق الذي عرف كيف ينه في قاب شمه . وغير هذا فان أمامه الوقت الكافي لأن يتوج جهوده بإعادة منصب سام هو منصب الخلافة الإسلامية .

المسلمون ينشلون الأشياء العصرية :

كتبت جريدة (باتري فالبران) الصادرة في ٢٤ مايو تحت هذا العنوان قولها :
« إن نمتي أمنية لكل مسلم صالح هي أن يحج الى مكة ولو مرة واحدة في حياته ، ليكون له الحق في وضع شريط حول طربوشه في هذا العالم الديوي ، ولأن تمتع له أبواب جنة مجد في العالم الآخر . ولما كان المسلمون متقشرين في جميع بقاع آسيا وأفريقيا فالشقة بينهم وبين مكة طويلة وشاقة للكثيرين منهم ، ومع هذا فقد اعتادوا الى هذه الأيام أن يقوموا بهذه الرحلة إما مشاة على أقدامهم ، أو راكبين حميرا أو جمالا ، ولكن جد أخيرا من يستخدم الاوتوموبيلات .

« فكيف أمكن التوفيق بين هذا النوع من الانتقال وبين النصوص الشديدة الجامدة للقرآن ؟
« وهناك خطوة أخرى في سبيل التقدم ستعمل في احتفالات هذا العام ، ذلك أنه لما كان الحج الى مكة في أكثر السنين سببا في انتشار الأمراض الوبائية الفتالة كالطاعون والكوليرا والتيفوس ، وأن أحد العوامل الرئيسية في انتشار هذه الأوباء هو تلوث العين المقدسة (زمزم) التي يمكن الاستقاء منها بأي وعاء حتى المنخذ من غلاف القرع وما اليه ، فقد تقرر هذه السنة أن ماءها يوزع على المؤمنين معقما وفي زجاجات مغلقة » انتهى .



هذا ما كتبه حريدة يقرؤها عشرات الآلاف من القارئین ، وقد سمح كاتبها لنفسه أن يكتب عن الاسلام كأنه يكتب عن دين شعب من المتوحشين . فان كان يعذر بأنه لم يعلم عن الاسلام شيئا صحيحا ، فكيف يعذر في تسجيله عليه أشياء ليست فيه ؟ ويلوح أنه كتب عن الاسلام كتابة الواثق بما يكتب ، ولم يقرأ من كتابه آية واحدة . فلو كان فعل لقرأ قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقوله تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وهاك نصهما بالفرنسية :

« Dieu veut votre aise , il ne veut pas votre gêne » « li ne vous a rien commander de difficile dans votre religion » . (١)

قلنا لو كان قرأ هاتين الآيتين لما استطاع أن يصف القرآن بالشدد والجود حتى يحيل لقارئيه

(١) هذه الترجمة مبنية من كتاب ترجمة القرآن للمستشرق « زاميرسكي » Zamirsky .

أنهم حيال كتاب من تلك الكتب التي لا يمكن أن تأخذ بها إلا الجماعات الساذجة التي تعيش في السكوف والمناور . فهل غاب عن كتاب تلك الجريدة أن المسلمين اضطلوا بالزمام العامة على الأرض قاطبة أحيالا متعاقبة ، وأنهم اقتبسوا جميع العلوم والفنون والصنائع التي كانت موجودة على عهدهم ، وتقبوا عما قد كان متروكا منها وأعادوه إلى الحياة ، وزادوا عليه زيادات لا تزال موضع إعجاب المؤرخين والباحثين إلى اليوم ؟

إذا كانوا لا يجهلون ذلك ، فكيف يوفقون بين هذه النهضة العلمية والعملية وبين أصول كتاب يحرم على أهله استخدام وسائل الانتقال الحديثة ، ويحتم عليهم الوسائل العتيقة ؟

الاسلام هو الوطن الحقيقي للمسلمين :

كتب المسيو (أندريه كلو) في جريدة (تريبون دى ناسيون) البارزية الصادرة في ١٢ مايو الماضي بحثا في الاسلام قال فيه ما يأتي :

« قد بين لنا المستشرق العظيم (لوتروب ستودارد) ظاهرة في الاسلام كانت تظهر لنا مذهبة فقال : « مهما أظهر الشرق من الشر في اقتباس آرائنا في القومية والوطنية ، فإن هذه المبادئ تنسرب فيه إلى مخاض مشحونة من قبل بأصول التكامل الاسلامي والأخوة المقررة بين جميع المؤمنين ، فينتج من ذلك تلون المبادئ الجديدة بألوان تلك الأصول القديمة ، بحيث لو استعمل المسلمون كلمات القومية والجنسية فانها تنصرف لديهم إلى معان مبيانة للمعاني التي نقصدها نحن منها » .

ثم عقب المسيو أندريه على هذا القول بقوله :

« في الاسلام — وهذا أمر كثيرا ما نساءه — الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة الدينية كلها متداخلة . فالقومية لا توجد فيه إلا بالنسبة لغير المسلمين ، فهي إذن لم تفقد مدلولها الحقيقي . أما المسلمون فكل منهم مهما كان جنسه يعتبر وطنيا في مجسوة الوطن العام وهو الاسلام . فإذا شخص تونس أو سوريا أو مصر أو إلى العراق اعتبر فوراً مصريا أو عراقيا ، وكانت له جميع الامتيازات ، وعليه جميع الواجبات التي للمولودين في تلك البلاد . فالأخوة الاسلامية ليست بكلمة فارغة . وهي باحتلامها عبدأ القومية الأوروبية قد ولدت لدى المسلمين معنى أوقعنا في شيء من الحيرة ، فأصبحت قومية جامعة إسلامية » .

هدد الحجاج إلى مكة :

جاء في جريدة (لافيبي ماروكين) تحت هذا العنوان بتاريخ ٨ أبريل ما يأتي :

« كان عدد الحجاج إلى مكة في هذه السنة عظيما جدا ، فقد اجتمع حول جبل عرفات ١٢٠ ألف حاج من مختلف الاجناس والأصول والألوان

« وبما أنهم كانوا جميعاً متلقين بالاحرمه على حد سوى ، وطارى الرءوس والاقدام ، فلم يسكن من الممكن تمييز العالم عن الآى منهم ، ولا الأمير عن العبد ، ولا الفنى عن الفقير . فلم يكن أمام الرأى هناك إلا مخلوقات بشرية تجردوا من جميع المميزات الارصية ، ضارعين الى الله ، ظالبي رحمته وبركاته الإلهية .

« من أين جاء هؤلاء المائة والعشرون ألفاً من المسلمين ؟ إن فى بيان أجاسهم لا يخلو من فائدة .

« إليك أصولهم مقتبسة من الاحصاءات الرسمية للحكومة السعودية : « ١٧ من السنغال ، و ٧٦ من الكاب ، و ٢٣٨ من رنجبار ، و ١٦٠٨٩ من حاوة ، و ١٧١ من تركيا ، و ١٩١١ من العراق ، و ٧٣٦ من فلسطين ، و ٣٠٨٠ من سورية ، و ١٥٢٣٨ من الهند ، و ٥٥ من الصين ، و ٨٩٠ من بخارى ، و ٦٠٤٦ من الدكاره ، (إن سود دافور ووادى أكثر ما يعرفون باسم الدكاره ، وهم بعد تأديتهم فريضة الحج يتزلون على الشواطىء العليا للنيل بقصد الاتجار هالك . هؤلاء الدكاره يؤلفون جماعات كثيرة ويقيمون وسط قبائل العرب والبعاولية . وقد أطلق المؤلفون القدماء كلمة دكوروى على سود السودان الغربى الذين قبلوا الاسلام ديناً لهم) ، و ٣٧٠٩ من أمانستان ، و ٢٨٠ من مسكات ، و ١٠٠٩٦ من مصر ، و ٢٠٥٤ من السودان و ٧٧١ من الصومال الايطالى ، و ٥٠١ من الحبشة ، و ٦٠٧ من حصرموت وعدن ، و ٥٥٧ من الحبش ، و ١١ من إيران ، و ٤ من اليابان ، و ٥٩ من يوغوسلافيا ، و ٧٢ من الكرد ، و ٥٢٥٠ من المغاربة .

« هذا العدد الأخير يشمل جميع المغاربة الموجودين بين حدود طرابلس الى المحيط الاطلانطى . فان أهل الحجاز يطلقون اسم المراكشين على جميع الذين يقطنون ما وراء نهر النيل . فليس الفرنسيون هم الذين تفردوا بحمل علم الجغرافيا .

« ومع هذا فان مسألة الجنس لا قيمة لها تذكر فى الحجاز حيث لا يؤبه فيه إلا للجامعة الدينية .

« ومع هذا فان عدد الحجاج الذين دخلوا الحجاز من طريق البحر أو البر قد قدر : ١٧٢٢٤ نسمة . يضاف الى هذا العدد حجاج العرب أنفسهم لأجل أن يباع عدد الذين أدوا هذه الفريضة الى ١٢٠٠٠٠ نفس ، وهو العدد الرسمى الذى نشر فى قوانين المطوفين » .

محمد فريهر ومجدي

احاديث الوفود في الاسلام

- ٢ -

من أجل منع الزكاة

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعون رجلا من بني تميم ، وكان النبي قد بعث بشر بن سفيان المدوني الى بني كعب من خزاعة لآخذ صدقاتهم (الزكاة) ، ولما كانوا يجاورون بني تميم على ماء لهم ، تعرضت بنو تميم لبشر وحالوا بينه وبين ما أخذ من صدقات جيرانهم حقدا وحسدا ، وقالوا : والله لا ندع بعيرا واحدا يخرج به بشر ! فلما رأى بشر إصرارهم على منعه حتى العتة وعاد الى المدينة وأحبر النبي صلى الله عليه وسلم بما كان .

فأرسل النبي هينة بن حصن الفراري في خمسين من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري ، فسار عبيثة ، وكان يسير الليل ويكنس النهار ، وأتاهم من حيث لا يشعرون ، فأخذ منهم أحد عشر رجلا ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبيا ، وعاد بهم رهينة الى المدينة ، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحجزوا في دار رملة بنت الحارث فحجزوا .

فجاء في أثرهم وفد القوم ، وفيه عطارد بن حاجب ، والزريقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وفيس بن الحارث ، وعمر بن الأهم ، في ملا من قومهم ، فلما دخلوا المدينة مروا بالدار التي بها أسراهم ، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري ، فتحمس القوم وولوا وجوههم نحو المسجد ليكلموا النبي صلى الله عليه وسلم في شأنهم ، فلما دخلوا المسجد لم يجدوا رسول الله بين أصحابه ، ووجدوا بلالا يؤذن لصلاة الظهر ، فلم ينتظروا خروج الرسول إليهم ، بل ذهبوا مسرعين ونادوا من وراء الحُجُرَات (مساكن أزواج النبي) بصوت جهوري ، أن اخرج إلينا يا محمد ونشاعرك ، فإن مدحنا زين ، وشتمنا شين .

فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تأذى من صياحهم ، وكان بلال يقيم الصلاة ، فتعاقبوا برسول الله يكلمونه قبل أن يصلي بالناس ، فوقف لسمع مقالاتهم ، فقالوا : نحن ناس من بني تميم حننا بخطينا وشاعرنا لنشاعرك ونشاعرك ! فقال لهم النبي : ما بالشعر أمرنا ، ولا بالفخر أمرنا ! ودخل بين لصفوف وصلى صلاة الظهر . فلما قضيت الصلاة جلس في رحبة المسجد فتقدموا اليه وقالوا : يا محمد ! إن مدحنا زين ، وإن شتمنا شين ، نحن أكرم العرب . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : كذتم بل مدح الله الزين ، وشتم الشين ، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب !

وفي هذه الحادثة أُرسل الله : « إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرَات أكرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » .

ولما سمع القوم مقالة الرسول صلى الله عليه وسلم هدأت تأثرتهم ، وخففوا من حديثهم وغلوائهم ، ولجأوا الى شيء من الملاطفة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وأدركوا أنهم ربما قالوا بالحسنى ما لم ينالوا بالسوأى ، فقالوا : يا محمد ائذن لخطيبنا يتكلم . فقال النبي : أذنت له فليقل . فقام عطار بن حاجب فقال :

« الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهلنا ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عددا ، وأيسره عدة ، فن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا براء من الناس وأول فضلهم ؟ فن يفاخرنا فليعد مثل ما وعدنا ، وإلا لو شئنا لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الاكتار فيما أعطانا . أقول هذا الآن لتأتوا بمنثل قولنا ، وأمرنا أفضل من أمرنا » ا

عند ذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس وقال له : أجب الخطيب ا فقال :
« الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، وسبح كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأفضلهم حسبا ، فأُنزل عليه كتابه ، وأتبعه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الإيمان فأمن برسول الله المهاجرون وذوو رحمة ، أكرم الناس أحساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله : نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله ، ثم آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً . أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . والسلام عليكم » ا

ثابت بن قيس هذا كان يعرف بخطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فما سمع وفد بني تميم خطبة ثابت بن قيس قال قائل منهم : يا محمد ائذن لشاعرنا أن يقول ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أذنت له .
فأنشد شاعر القوم :

نحن الكرام فلاحى يعادلنا منا الملوكة وفينا تنصب البيع
الى غير ذلك من أبيات طوال .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أجبه يا حسان ، فأجابه حسان بقصيدة منها :
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يوازره فيما أحب لسان حائك صنّع
ففيهم أفصل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أو سمعوا

عند ذلك تقدم الأقرع بن حابس وقال : يا محمد إني قلت شعرا فاصمه ، فقال له : هات ما عندك ، فأنشد :

أتيناك كيا يعرف الناس فضلنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأننا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
إلى غير ذلك من أبيات .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أحبه يا حسان ، فأنشد :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى وجاء الملوك واحتمل المضام
ثم مضى في إنشاده فقال :

بنى دارم لا تمخروا إن فخركم يعمود وبالأعد ذكر المكارم
هبطتم علينا تفحرون وأنتم لنا خول ما بين ظئر وخدام
فإن كنتم جتم لحقن دماءكم وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجملوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زيا كزى الأطاجم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأقرع :

لقد كنت غنيا يا أبا دارم أن تذكر ما كنت ترى أن الناس قد نسوه ! فنجل الأقرع واعترف بالحق ، وأنصف في المقال فقال مخاطبا قومه : والله لخطيئه (يريد النبي) أحطب من خطيئنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ثم تقدم وأسلم ، وحسن إسلامه ، وتقدم بقية الناس وأسلموا معه .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برد الأسرى إليهم ، وكسام وزودهم وأجازهم ، فأعطى كل واحد منهم اثنتي عشرة أوقية من الفضة . وأراد أن يتأكد من إعطاء الجميع فقال : هل بقي منكم أحد ؟ فقال قيس بن عاصم أحد رجال بني نعيم : لم يبق منا إلا غلام حدث (يريد عمرو بن الاحتم) ، فقال النبي : ائتوني بهذا الغلام . فلما حضر وعرف أنه عمرو ، أعطاه مثلهم ولم يبخسه شيئا .

حسن خطاب الوكيل

البطل الاسدي أبو سلمة الخزوي

أبو سلمة يدعى الى أسرة بني مخزوم ، وهو ابن عم لام سلمة المحرومية ، واسم والدته (برّة) ، وهي بنت عبد المطلب ، تزوجت أولاً بعد الأسد المخزومي والد أبي سلمة ، وتزوجت ثانياً ندياً رهم بن عبد العزى القرشي العمري .

يحدثنا المؤرخ (المطهر بن طاهر المقدسي) في البدء والتاريخ - أن 'باسلمة لم يكن ابن عمه الذي سلب ، بل كان أخاً له من جهة الرضاع ، فإن ثوية هي التي أرضعت النبي وأباسلمة معاً . واستنتج من ذلك أن 'باسلمة يتصل بالذي يسبب : الأول القرابة ، والثاني الرضاعة ، ولهذين السببين آثار عظيمة نجات في أبي سلمة . ولقد تصفحت كثيراً من المصادر التاريخية مطبوعة ومخطوطة باحثاً ومنقباً عن تاريخ ولادة أبي سلمة فلم أثر على تاريخ ميلاده بالنسب ، غير أنه كان ترباً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان يعيش في صغره ، وذلك أنه كان في دار فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب خال أبي سلمة نخل ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يذهب مع أصحابه كل يوم الى تلك الدار ، ومنهم أبو سلمة يلتقطون ما يسقط من الرطب .

وذكر ابن حجر في الإصابة أن سميان والد أبي سلمة قتل كافراً يوم بدر ، قتله حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم .

رحلة أبي سلمة الى اليمن :

تتنازل بلاد اليمن عن سائر البلاد العربية بالزراعة والخصوبة والصناعة والتجارة ، لذلك كانت محط رحال التجار ، وقلة الوافدين من مختلف البلاد .

عزم لقيف من أهل مكة للرحيل الى بلاد اليمن وشهدوا رحالهم ، وكان منهم أبو سلمة ، ولم يكن الاسلام قد ظهر بعد ، كما أن التاريخ لم يذكر لنا أن 'باسلمة كان متزوجاً بأبى سلمة أثناء هذه الرحلة وفي ذلك الوقت أم لا .

ويبدو لنا من خلال هذه الرحلة أن القوم لم يسبق لهم السفر من الطريق الذي سلكوه ، ولم يكن معهم دليل حبير بالمسالك ، فضلوا الطريق فأخذوا ينجبسون في الوهاد والنجاد ، حتى فقد الماء واشتد بهم العطش ، وخارت قواهم وكادوا يموتون ، فأخذت نافذة أبي سلمة تنزع الى ناحية وتجاذبه الزمام وهو يجمعها ، فقال لأصحابه : إن ناقتي تحاذيني فاني أرى أن أرخي لها العنان

ونقنقثرها لعلها ترشدنا إلى ماء نطقي. منه ظمأنا. سارت الباقية ممرعة وتبهوها حتى أوردتهم إلى الماء، فأقبلوا على الماء فارتووا وأنقذوا حياتهم. وبينهم جالسون إذ جاءهم رجل فقال: ممن أنتم؟ فقالوا: من قريش، فقال: إن رئيسنا يطلبكم لينحدث معكم. وقد كان هذا الرئيس عمرو بن الحارث بن مضاد بن عمرو بن الحرث الجهمي. فلما وصل أبو سلمة إلى عمرو هذا سأله ممن أنت؟ فقال: أنا من قريش، فقال: من أي فرع من فروع قريش؟ قال: من بني مخزوم بن يقظة، ثم سأله: من أي فرع من فروع بني مخزوم؟ فقال: أنا أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عمرو بن مخزوم بن يقظة. سأله عمرو: هل تعرف لمن هذه الآيات:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال أبو سلمة: لا. فقال عمرو: هذا شعري، وإني عمرو بن الحرث بن مضاد الجهمي. ثم سأله عمرو: هل تعرف لماذا سميت الأجياد أجياداً؟ قال أبو سلمة: لا أعلم لي بهذا، فسأله أبو عمرو: لماذا سمى القمقيعان قمقيعاً؟ فتجاهل أبو سلمة ولكنه أدرك أنه أمام رجل من عظماء العرب، كما لمح من خلال أسئلته المتنوعة أنه يريد الفخر والتظاهر بالأس والقوة، والتحدث عن ماضي قومه ومواقفهم في الحروب وشس القارات. وإنما أتينا على هذه القصة لتستبسط من اختياره لمقابلة هذا الرئيس أنه كان زعيم صحبه وممتازا عنهم بفصاحة اللسان وحسن البيان.

اسلام أبي سلمة:

كان أبو سلمة أعرف الناس بصدق النبي صلى الله عليه وسلم واستقامة أخلاقه، فلما عرض عليه الاسلام لبى دعوته قبل أن تتخذ دار الأرقم مركزاً للدعوة.

وتعرف هذه الدعوة بدعوة الأفراد، لأن النبي كان يدعو إلى الاسلام سرّاً، وكان يخلو بمن يتوسم فيهم خيراً ويمرض عليهم الدخول في الاسلام، فأسلم أبو سلمة بعد أن أسلم عشرة، فكان هو الحادي عشر من المسلمين، وكان ممن أودوا بسبب دينهم فهاجروا إلى الحبشة مرتين، ولما استقر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة لحق به إليها تاركاً زوجته وابنه، فداق من ألم الأمر ما لم يكن يحيطر لهم نبال. وهذا دليل على أنه كان يؤثر النبي صلى الله عليه وسلم على أهله وماله، فأكرم رسول الله وغادته وأعطاه داراً.

وتدل الأبحاث على أن أبا سلمة كان يعرف الكتابة، وهذا بما لا رمية فيه، ولكن لم نقف على دليل يرشدنا إلى الزمن الذي تعلم فيه الكتابة: أقبل الاسلام أم بعده؟ ونحن بين أمرين: إما أن نقول: إنه تعلم الكتابة في اليمن مهد الكتابة والقراءة حينما سافر إليها، وإما أنه أخذها عن خاله أبي طالب، وهو الذي أظهر الكتابة في الحجاز.

وإذا عرفنا قيمة الكتابة في تلك العصور المظلمة أدركنا منزلة أبي سلمة ومهمو مكاتبة وعلو منزلته .

أبو سلمة والولاية :

عرفنا شيئا عن سيرة أبي سلمة وأخلاقه ومنزله ومبادئه للإسلام وإخلاصه له ، كل ذلك رشحه لأن يكون واحدا من كبار أقطابه ، فولاه النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهذا منصب عظيم ، ومركز خطير ، خصوصا إذا قدرنا الظروف التي كانت تحيط بالإسلام في ذلك العهد ، وما يجب أن يكون عليه من مثله في عاصمته من الكياسة وحسن السياسة ورجاحة العقل .

أبو سلمة والفروسية :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن أبيا سفيان كان قاعلا من الشام بتجارة لقريش ومعه ثلاثون رجلا لحراستها فأراد أن يضعف شوكتها ويقل حدها ، فعزم على اعتراضها ، وبلغ أبيا سفيان ذلك ، فأرسل يستنفر قریشا لقتال المسلمين ، فلبوا دعوته وخفوا لحاية أموالهم . وخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خمس وثلاثمائة من أصحابه فيهم أبو سلمة ، فخاض المعركة لشجاعة نادرة ، وأبلى نلاء حسنا فيها ، ولم يشبكه أن مع المشركين قومه من بني مخزوم ، وكان لهم فيها مائتا بعير . وفي هذا دليل على أن الإسلام كان قد استوهم قلب أبي سلمة فلم يمد يفكر في شيء غير نصرته ، وهذا منتهى الاخلاص للبعدا .

أبو سلمة والقيادة :

بعد غزوة أحد أراد طليحة وسلي بن أبي خويلد أن يحاربا الرسول في صفر من السنة الرابعة للهجرة ، وكانا يحرضان أقوامهما على القتال ، وكانوا يسكنون في قطن من أرض أسد بالقرب من « قيد » على طريق مكة ، وقد لبى دعوتهما الكثيرون ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الخبر ألف كتيبة من مائة وخمسين من المهاجرين والانصار وجعل أبيا سلمة قائدا عليهم ، فلما تراءى خبر خروجه مع عسكره إلى طليحة ومن معه ، دب الرعب في قلوبهم ، وأخذ الفرع منهم كل مأخذ ، ففروا قبل محي . أبى سلمة وجيشه الصغير ، فما علم أبو سلمة بذلك قسم جيشه ثلاثة أقسام ، أخذ فرقة معه ، وأرسل الفصائل الأخرى لارتداد أرض بني أسد لتبحث عن هؤلاء الذين حدثتهم نفوسهم الخبيثة لغزو الرسول ، وأمرهم أن يأسروا كل من يظفرون به ، ومع أن الله قد كفى المسلمين القتال فأنهم قد عثروا على بعض الأموال والمسدد التي كان يحملها طليحة وأصحابه فآخذوها غنيمة باردة ، ومع أن التاريخ لم يحصر هذه الأموال ويكشف لنا عن عددها بالضبط لكن يمكن أن نستنبط من خلاله أنها كانت كثيرة ، فإن هذه الأموال قد وزعت على الجيش

بعد إخراج الحس ، فكان نصيب الجندي الواحد سبعة من الال والشيء . وقد قطع أبو سلمة عشرة أيام في تطهير البلاد من الأعداء ومطاردتهم . وإذا كان أبو سلمة قد اشترك في الحروب والغزوات السابقة جندياً ، فقد كتب له بفضل إخلاصه وبسالته أن يكون قائداً مطفراً .

هل اشترك أبو سلمة في غزوة حنين :

روى بعض المؤرخين أن أسامة اشترك في غزوة حنين التي وقعت في السنة الثامنة للهجرة . وهذا القول مردود ، لأن المؤرخين قد اختلفوا في سنة وفاة أبي سلمة على ثلاثة أقوال : فبعضهم يقول : إنه توفي في السنة الثمانية للهجرة ، ومنهم يقول : إنه توفي في السنة الثالثة للهجرة ، وآخر يدعى أنه توفي في السنة الرابعة للهجرة . ولم يرد قول آخر في وفاته يرتفع إلى أكثر من السنة الثانية . وأما أسرد هذه الأقوال الثلاثة على علاتها للدلالة على عدم صحة اشتراك أبي سلمة في هذه الغزوة .

وفاة أبي سلمة :

أصاب أبو أسامة الجشمي أبا سلمة بطلعة نجله في غزوة أحد ، فعولج واندمل الجرح على فساد في جسم أبي سلمة ، فعانى منه أشد الآلام ، وعاش ما حرمه لذة الحياة وطيب الكرى ، فلما ذهب إلى محاربة طليحة تحرك الجرح واشق من تلقاء نفسه في غزوة قطن ، وتوفي في ٣٠ جمادى الآخرة من السنة الرابعة للهجرة كما نص عليه ابن حجر في الإصابة .

مات أبو سلمة قطويت صفة محبذة لرحل من أخلص الرجال وأوفاهم لرسوله ، فكان مثالا للجندي الباسل ، والقائد المتفكر ، والوالى القدير .

استلقى أبو سلمة على فراش المرض ، وكانت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعودونه للاطمئنان على صحته ، ولكن المرض ألح عليه فدنا من الموت ، وفي ٤ جمادى الآخرة ذهب رسول الله ليموده كعادته ، فما وطئت قدمه عتبة داره جاد بروحه وأسلم نفسه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم افسح له في قبره ، وأصم له فيه ، وعظم نوره ، واغفر ذنبه . اللهم ارفع درجته في المهدين ، واخلفه في تركته في الغابرين ، واغفر لنا وله يارب العالمين ! إن من يعم النظر في هذه القصة لا يشك في أن النبي قد حزن لفقد أبي سلمة أشد الحزن . وهذا الدماء أسطح برهان على مكانة أبي سلمة من قلبه .

وبعد غسله وتكفينه صلى عليه النبي صلاة الجنازة ، فكبرت سبع تكبيرات على خلاف عادته ، فسأله المصلون وراؤه : أسهوت يا رسول الله أم نسيت ؟ فقال : ليست منهما واحدة : لو كبرت على أبي سلمة أنما كان أهلاً لذلك !

وقد روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أول من يعطى كتابه يمينه أبو سلمة ابن عبد الأسد، وأول من يعطى كتابه بشماله أخوه سليمان بن عبد الأسد « الاصابة ٩٥ - ٩٤ »
وهذه شهادة من رسول الله على مقام أبي سلمة الديني ورفعة شأنه في الدار الآخرة .
وحدثنا صاحب نزهة المجالس قال : ذكر الله أبا سلمة وأخاه في سورة الكهف والصفات .
ويحدثنا صاحب أسد الغابة أنه نزل في شأن أبي سلمة « فأما من أوتي كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه »

مجتمعي حسن كامون پوری الهندی
دكتوراه في التاريخ وفلسفة الأخلاق والتربية الحديثة
من كلية اللغة بالأزهر

ذم اخلاف الوعد

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

وقال بعض الأدباء : « خلف الوعد ، من أخلاق الوغد » .

وقال آخر : « فلان يفتح موااعيده بالأطماع ، ويختدعها بالخبيثة والامتناع » .

وقال غيرها : « فلان أول وعده طمع ، وآخره يأس ، وما هو إلا كالسراب يفر من رآه ويخلف من رجاه » .

وقال شاعر :

لسانك أحلى من جنى السحل موعدا وكفك بالمعروف أضيق من قفل

وقالوا : « من وعد وأخلف لزمته ثلاث مذمات : دم اللؤم ، وذم الخلف ، وذم الكذب » .
وقال شاعر :

ألا إنما الانسان غمد لقلبه ولا خير في وعد إذا كان كاذبا
ولا خير في قول إذا لم يكن فعل فان تجمع الآفات فالخلف شرها
ولا خير من البخل المواعيد والمطل ولعاصر يخاطب من أخلفه الوعد :

فجملت من طمعي أروح وأذهب ووعدتني عدة ظفنتك صادقا
قالوا مسيلة وهذا أشعب فإذا حضرت أنا وأنت بمجلس

الاخلاق الفلسفية

— ١٢ —

بواعث أعمال بنى الانسان وفائتهم

من المشاهد أن الآلات « الميكانيكية » تدور بحركات مخنفة تقودها أو تدفعها ، وأن الحيوانات تسير في الحياة متأثرة بموامل خفية تقودها وتدفعها كذلك مثل الفراش الحيوانية . وهذان النوعان : الجماد والحيوان : لا يشعران بهذا المحرك شعور تأمل أو تفكير ، لأنهما يستويان في عدم تقدير دورهما في الحياة ، وإن كان الحيوان يمتاز عن الجماد بالحيوية والاحساس والحركة « اللاآلية » عند أكثر الفلاسفة المحترمين ، إذا استثنينا « ديكارت » القائل بأن الحيوان يسير في الحياة متأثراً بحركات آلية مخنفة . ومهما يكن من الأمر ، فإن الجماد والحيوان يسيران في الحياة متأثرين بدوافع وبحركات لحسب . أما الانسان فله هذه الدوافع والحركات ، ويمتاز عن الجسدين السابقين بإدراك لهذه البواعث ، ثم بقايات يرى إليها من وراء ما يأتيه من أعمال وما يرمعه من خطط وما ينتهجه من أنساق . غير أن هذه الحركات بالنسبة الى الانسان تسمى بالبواعث . وقد حصرها أكثر الفلاسفة في أربعة بواعث ، وهي : اللذة الساجدة عن الغريزة ، والمنفعة الناشئة من الانانية ، والعاطفة النابعة من القلب ، والواجب المؤسس على الشعور بالالتزام . وقد قصرها بعض الاخلاقيين الكونيين على ثلاثة ، فأسقط منها باعث العاطفة القلبية . والرأى الاول عسدى هو الصحيح ، لأن أصحاب الرأى الثانى متأثرون ناجواهم الاقليمية ، وبيناتهم الجافة التي لا تؤمن بما يسمى المواعظ القلبية . وإذا فهذه البواعث الأربعة هي محركات الانسان ودوافعه الى كل ما يأتيه من أعمال ، غير أنها قد تؤثر فيه مجتمعة بعضها مع بعض حيناً ، ويقوده واحد منها منفرداً حيناً آخر . فقد تعارض اثنان منها فيتنازعا في نفس الانسان تنازعا شديداً ينتهى بقلبه أحدهما وانتهزام الثانى ، فينتج عن ذلك فعل الخير والفصيلة تارة ، والسقوط في هوة الشر والذيلة تارة أخرى . ولا شك أن ذلك يحتم علينا أن نختار في الأمر ، وأن نعمل على حفظ التوازن بين هذه البواعث ، لنستطيع أن نمتنع منها في تربية أخلاقنا ، وهذا يتطلب منا دراسة كافية لهذه البواعث تتلاءم مع احتياجنا الشديد الى معرفتها . وأول ما يجب علينا أن نعرفه عنها هو تفرقها بين البواعث التي يضرنا الاتقياد إليها دائماً ، وبين البواعث الأخرى التي لا بأس بالخصوع لها في كل الظروف والأحوال ، لأنها مأمونة الجانب ، محققة الخير . فالتعمم الاول الذى لا يسفى الخضوع له ولا يصح إفراده بتسلم زمام أعمال الانسان كلها هو اللذة الغريزية ، والمنفعة قسميها ، والعاطفة القلبية .

وأما القسم الثانى الذى لا ينجس منه خطر ولا ينتظر من إطاعته ضرر ، فهو الواجب ، لأننا لو أطعناه فى كل سلوكنا وتصرفاتنا لخطونا خطوات واسعة نحو السكالم ، وبن قاسينا فى سبيل ذلك ألوان المتاعب وأصناف المشقات .

أما البواعث الأخرى فإذا منحناها أكثر مما يستلزم الاعتدال ، ولم نصدم بعضها ببعض الآخر ، وبعضها بالواجب المقدس ، كان الخطر والسقوط من الأمور المحققة . ولكن هذا التفريق بين تلك البواعث لا يتيسر لنا إلا بعد معرفة مهابا هذه البواعث ، لأن الفرق بين كل شيئين يتوقف على تعريف ذينك الشئين . وإليك تعريفات هذه البواعث :

١ - اللذة :

هى ميل حسى يوجع الانسان الى البحث عن ترضية مباشرة لغريزة من الغرائز الحيوانية ، ويجذبه الى حالة لذيدة متمارسة مع الألم .

ومن المحقق أن الأصل فى اللذة ليس رذيلة من الرذائل ، لأن الواقع الذى لا ريب فيه هو أن اللذة خير من الألم ، لأنها ترتبط ببعض الغرائز الأساسية فى الحياة ، إذ أننا نشاهد أننا حين نأكل ونشرب ونتناسل إنما نلبي داعى اللذة الضرورية فى الحياة ، غير أن الإفراط فى هذه اللذائذ كثيرا ما يوقع الانسان فى الرذيلة ، لأن الشخص الذى يندفع وراء هذا سرعان ما يسقط أسيرا فى قصة الخواص التى تقوده حتما الى القسوة والظلم والشراسة وغير ذلك من أنواع الرذائل والشرور ، لأن إرضاء اللذائذ الحسية يصطدم غالبا مع العدالة والعفة . وفوق ذلك ، فإن الانسان الشهوانى لا يحترم القوانين الزمنية التى تقرر أن الزمن الحاضر هو مزيج من ذكريات الماضى وتحصيرات المستقبل ، ولا يفكر فى أن السرور الحاضر قد يجر الى آلام مقبلة ثقيلة الوطأة .

ومن الذى لا ريب فيه أن اللذة هى أكثر البواعث تمردا الى الخطأ وسيرا بالانسان نحو الضلال . ومع ذلك فقد رأينا أن بعض المدارس الفلسفية الاغريقية كالسيبكية والايبيكورية قد بنت فلسفتها على اللذة الحسية ، وإن كانت هذه الأخيرة قد عادت فعدلت مبادئها بعض الشيء ، إذ نصحت الانسان أن لا يلقى بنفسه هريسة فى أيدي الشهوات ، وأن يحتفظ بشيء من حريته الداخلية ، ولكن هذا التعديل كان عبثا ، لأن تحقيقه يكاد يكون مستحيلا بعد الذى كان من رؤساء هذه المدرسة . ولما رأى الاستويسيون ذلك للعبث لم يسمهم إلا أن يعلنوا فى صراحة ووضوح أن اللذة شر ، وأن الألم خير من الوجهة الاخلاقية . وحين جاءت الديانة المسيحية قررت إدانة اللذائذ الحسية ، لأنها كانت متصايفة من مادية الاسرائيليين من ناحية وتأثرت بالاستويسيين من ناحية أخرى . غير أن هذه الفكرة لا يمكن أن تصادف نجاحا ، لأنها تخلق بين الانسان وطبيعته سوء تفاهم كما يقول « أناتول فرانس » إذ ليس من المطلق

في شيء أن نحتقر جراً من وجودنا وهو الجسم فتحول بينه وبين لذائذه البرينة المعتدلة ونحكم بأدانة كل الممرات الحسية التي تحفظ حياتنا من التلف وتساعد قواها العقلية على إبرار المنتجات النافعة الى حيز الوجود . فهو إذا ضروري في الحياة ولا يمكن الاستغناء عنه ألبتة وإن كان من الواجب وقفه عند حد معين حده الفلاسفة المعقولون بالاعتدال أو بالغة ، وهي درجة الحيولة بين اللذة وبين الطفيلان على الفضيلة .

٢ — المنفعة :

هي البحث عن أكبر لذة ممكنة حاضرة كانت أو مستقبلية بأقل ثمن ممكن ، وهي تتفق مع اللذة في أنهما لذتان حسيّتان ، ولكنهما يختلفان في أن المنفعة تقدر الوقت ، لأنها تبحث عن أكبر لذة بأقل ثمن وفي أطول مدة ممكنة ، وهي تنقسم الى قسمين : المنفعة الشخصية ، والمنفعة العامة . فأما المنفعة الشخصية ، فوجهة نظرها المرء بصحته وتقوية عقله ، في ذاتها حسنة ، لأنها كثيرا ما تنتج نتائج قيمة ، مثل عناية المرء بصحته وتقوية عقله ، وسعيه لتحسين حالته المادية بطريقة مشروعة شريفة ، ولكنها من الناحية الأخلاقية كثيرا ما تصطدم مع الرحمة ومع العدالة أو القناعة أو غيرها من الفضائل الأخرى ، فضلا عن الغيرة والتضحية . ولهذا فإن « إبيكتور » المؤسس الأول للأخلاق النفعية قد نصح للناس أن يستعملوا الحكمة في أنانيتهم ومنفعتهم ، ليسوا إلى الكمال المطلق ، ولكنه لم ينصح في نصائحه ، لأن النفعية لا يمكن أن تكون مثلاً أعلى ترى إليه الأخلاق ، بل ولا يمكن أن تقود الى السعادة المنشودة ، لأن البحث عن السرور الحسي بنوعيه : العاجل وهو اللذة ، والآجل وهو المنفعة ، لا يوصل الى السعادة . وقد تنبه النفعية الى هذا حين اندمجوا في الهيئات الاجتماعية ، وآمنوا بأن المنفعة العامة تحقق السعادة الطويلة أكثر من المنفعة الخاصة ، فعملوا لها متأثرين بأنانيتهم ، لأنهم — كما قلنا — يقدرون الوقت والكمية . وعلى هذا الأساس قد بنيت المدرسة الانجليزية النفعية مذهبها ، ولكن المشاهد هو أن المنفعة العامة كثيرا ما تتعارض مع المنفعة الخاصة ، وإن كانت الأولى أرقى في نظر الأخلاق من الثانية .

٣ — العاطفة :

هي ميل فلي أو افعال شعوري يدفع الانسان الى الرغبة في بعض الافعال أو عنها ، وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام : عاطفة الأنانية ، وهي ميل غريزي يسوق الانسان الى منفعتة الخاصة دون ليعات الى وجود غيره مطلقا . والثانية عاطفة حب الذات ، وهي ميل الى تفصيل نفسه عن الغير مع الانتماء الى وجود هذا الغير . والثالثة : العاطفة الخارجية ، وهي ميل القلب الى الغير ونفوره منه ، وهي المقصودة بالذات في الأخلاق . ويمكن أن يكون هذا النوع من المواقف

رحمة أو صداقة ، وجبا أو بغضا . والعاطفة باعث لا بأس به ، غير أنه لا يمكن أن يكون مثلا أعلى للأخلاق في نظر كثير من الفلاسفة ، بل إن بعضهم يحمل على العاطفة ويسئ بها الظن ولا يمتريج لها كباعث أخلاقي ، ويحذر الناس من أن يمنحوها سلطة قوية ، لأنهم لو فعلوا لكافت النتيجة ملغيان العاطفة على ما عداها من البواعث ، وقد تنادوا في هذا التحذير الى حد أن حكم المتطرفون منهم بأن ما تبث العاطفة على فعله لا يمد عملا أخلاقيا ألبتة .

الركنور محمد محبوب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

أحسن ما قيل في شكر المنعم

أورد الثعالبي عبارات من الشكر فقال : « شكري لا يقع في نعمه الظاهره ، موقع النقطة من الدائره . لاشكرنك ملء القلب واللسان ، شكر حسان الى غسان . لاشكرنك شكر الاسير لمن أطلقه ، والمملوك لمن أعتقه ، لاشكرنك شكر الزياض للديم ، وزهير لهرم .

وقال الأمير أبو القتيان محمد بن حيوس :

سأشكر مادام اللسان يطيعني صنوا أنت من حودك المتنازع
توالت على من لا يدل بخدمة عليك ولا يدل اليك بشافع

وقال ابراهيم بن المهدي مخاطبا الحسن بن سهل وقد شفع له عند المأمون :

رددت مالي ولم تضن على به وقبل ردك مالي قد حققت دمي
لئن جمعتك ما أوليت من حسن إني لفي اللؤم أحظى منك بالكرم

وقال آخر :

لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة أعلى من الشكر عند الله في الثمن
إذن منحتكها مني مهذبة حذوا على خدم ما أوليت من حسن

وقال آخر :

لقد أفرطت في برى وقد قصرت في الشكر
وشكري عند إحسا نك كالتقطرة في البحر

تاريخ التصوف

أهم مذاهب الصوفية :

شهاب الدين السهروردي أو الشيخ المقتول سنة ١١٩١ ميلادية وفي المحرم سنة ٦٣٢ هجرية ، أحد أعقاب أبي بكر رضى الله عنه ، وكان تلميذا لعمه أبي الجيب ، وللصوفي الشهير عبد القادر الجيلاني ، وكان شيعيا لمشايع بغداد ، والتفحوله عدد من المتصوفة والزهاد ، ومات في بغداد سنة ٦٣٢ هجرية ، وكتب عنه ياقوت في معجمه مقالا قال فيه :

« به سافر في شابه الى بغداد حيث درس القرينة والفقه ، ثم الى أصغهان ، وكان يعمل كسقاء ، وكان يعيش من عرق حينه ، وتولى رئاسة المدرسة النظامية ، ثم توجه بعد ذلك الى دمشق سنة ٥٥٨ حيث أولاه نور الدين الزنجاني شرفا كبيرا ، وهناك أسس طائفة من الصوفية » .

ويقول عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان : « إنه كان مقبها عافى المذهب ، يخرج عليه كثير من الصوفية في المهادنة والخلوة » . أنتج السهروردي كتابه عوارف المعارف ، وهو من أهم كتب التصوف ، حيث حوى أكثر من ستين بابا ، وكلها منصبة على نشأة العلوم للصوفية ، والإبانة عن آداب المتصوفة ومذاهبهم وأقوالهم وأخبارهم ، وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من أن ديلبر نورس كلارك قد ترجمه ، وأن البارون كارادى فو قد تكلم على هذا الكتاب في مؤلفه عن الغزالي .

ماخص مذهب :

المعكرون عنده رجال أسرة واحدة ، وفروع شجرة مباركة ، وإن انتسبوا الى شعوب مختلفة . وعلى الاجمال فزهاد الهند وفلاحفة الاغريق وحكام العراق يسعون وراء غرض واحد هو أن الله نور الانوار ، ومصدر جميع الكائنات ، من نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادى والروحى ، والعقول المفارقة ليست إلا قبسات من هذه الانوار .

تناول الكلام في هذا المذهب رحل من أهل القرن الثالث عشر يدعى ابن سبعين ، وزاد عليه من عنده شرحا ، مصرحا بما رآه علماء السنة من الأمور التي لا يجوز التصريح بها ، وخاصة للعامة الذين قد يفتنون بها ولا يفهمونها على وجهها . وقد وقف المستشرق الإيطالي إمرى سنة ١٨٥٣ في مخطوطات على رسائل له دارت بينه وبين الامبراطور فريدريك الألماني

المتوفى سنة ١٢٥٠ تحت عنوان الرسائل الصقلية ، وقد قام بتحليلها بعده في الصحيفة الآسيوية الفرنسية المستشرق الدانمركي مهران .

ملخص الرسائل المتبادلة :

تتناهض هذه الرسائل في أن فردريك الثانى وجه الى ابن سبعين عالم صقلية وفيلسوفها أربعة أسئلة متعلقة بقدم العالم والمقولات العشر وما وراء الطبيعة في عاقبة ومبادئه وطبيعة النفس ، وقد أجاب عليها ابن سبعين إجابة موسعة مستفيضة ، وضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة ، وفي استطاعة كل من يطلع عليها أن يقف بنفسه على نظريات ابن سبعين الصوفية والفلسفية التى تتناهض في أن الله أصل العقول المنصرفه في الكون صدرت عنه بعض الفيض والانعام ، والعقل الفعال هو أحدها يدير شئون العالم ويمد الكائنات بصورها ، فهو مصدر النفوس البشرية على الإطلاق ، وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهي ميالة دائما الى الاتصال به ، ولا يحول دونها إلا أدران الجسم وشهواته ، فإذا تبرغ الانسان للدراسة والنظر فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، ومما الى درجة العقل الفعال .

هذه النظرية إذا تأملناها نجد أنها تكرر لما قاله القارابى وابن سينا ، الذى أوردها في كتبه ، وفي الوقت عينه رفض لمذهب الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما الحلّاج .

فمنصوف السهروردي وابن سبعين مؤسس على علم الفلسفة ، وفي رأيهما أن الكائن الممكن يستمر كائنا آخر واجب الوجود بذاته لصحة الوجود ، ويفيض عليه فأنخلق والابداع ، وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله ، والكائنات جميعها مظاهر لعلوه وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود . فهذا الكلام الذى أورده السهروردي وابن سبعين أصل لمذهب وحدة الوجود الذى اعتنقه جماعة من الصوفية بعد انحطاط الدراسات الحكيمية في الاسلام ، وقد تكونت في أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وانتهت بمد ذلك في بلاد الأندلس والشرق ، وكان من أكبر أنصارها محي الدين بن العربى المتوفى سنة ١٢٤٠ م وحلال الدين الرومى المتوفى سنة ١٢٧٣

من هنا نرى أن الصوفية عنسد بعض الناس امتزجت بالفلسفة امتزاجا كلياً حتى أصبحنا لا نستطيع دراسة الثقافة الاسلامية والتفكير الفلسفى في عصور الاسلام المتأخرة ، بعيداً عن دراسة التصوف وعلم الكلام .

والصوفية أنفسهم لم تسلّم نفوسهم من شر الفلسفة التى اندمجت في عقائدهم ، وأنصروا بذلك عرضة للقد .

فالمهروردي قتل بأمر صلاح الدين ، وابن سبعين اسحر في مكة ، واتهم ابن العربي بالاحقاد والزندقة .

أثر القرآن في تكوين نظريات الاسلام الصوفية :

لم يكن الدين الاسلامي ليفصح مجالا للرهبانية المسيحية والنقشب الهندى ، بل كثيرا ما حرض على العمل للدنيا والتمتع بلذات الحياة : « قل من حترم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »

فهو بعيد في تعاليمه عن طريقة القسس والرهبان في بيعهم وصوامعهم ، وسنة فقراء الممرد ، إلا أنه بالرغم من ذلك نجد أن هناك تعاليم مختلفة هندية وفارسية وإغريقية ومسيحية أثرت في تكوين بعض المتصوفة من المسلمين ، وبجانب هذه التعاليم مؤثرات خارجية أثرت فيهم أيضا ، وهي القرآن والأحاديث .

ففرق من العلماء الأجانب يسكر أثر القرآن في لصوفية ، وفرق آخر ينبت وجود هذا الأثر ، فمن الفريق الأول البارون كارادى فو الذى يزعم أن القرآن لم يكن الكتاب الذى يختب إليه الصوفية ، لأنه يعنى بالأمور الخارجية وليس فيه الخنن القلبي

وهذا كلام لا يصدر من عالم كبير كالبارون إلا إذا كان متحيزا مغرضاً ، وأظن أن كارادى فو ليس من أولئك المتحيزين المغرضين ، لأن كل الكتب السماوية حاظت الأرواح قبل أن تخاطب العقول . ولو لم يكن القرآن روحا من عند الله يمازج الأرواح ويفذيها لما رسعت قواعده في العقائد هذا الرسوخ الذى لا يقف عند حد « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان واسكن جعمناء نورا هدى به من نشاء » .

أما الفريق الثانى : فهو الاستاذ ماسينون ، وبجانبه الاستاذ مرجليوث ، وهما يقرران « أن القرآن البذور الحقيقية للتصوف ، وهذه البذور كمنيلة بتسميته في استقلال عن أى غذاء أجنبي » .

والحقيقة أن القرآن أعان الصوفية الحققة كما أعان المتكلمين والفقهاء على نصرة آرائهم . وهناك آيات كثيرة استطاع الصوفية استغلالها في نواح كثيرة ، ومصطلحات الصوفية فضلا عن نظرياتهم ترجع الى أصل في كتاب الله ، والعلم اللدنى الذى يتباهى به أهل الكشف والواصلون ما هو إلا صورة مأخوذة عن قصة الحضر الذى قال الله في شأنه « فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا وجهه من عندنا وعللناه من لدنا علما » .

التصوف الاسلامي والفلسفة اليهودية :

الفلسفة اليهودية في القرون الوسطى هي صدى للفلسفة الاسلامية ، واليهود هم تابعو طريقة العرب في تقرير مذهب أرسطو ، وقد فازت الفلسفة على أيديهم منذ القرن الثالث عشر الميلادي فوزا عظيما ، وأصبحوا أنصارها طاول القرون الثلاثة التالية ، فأخذوا الحسكة الاسلامية ونقلوها الى لغتهم وتدارسوها بينهم ، وكان شيخهم الأكبر موسى بن ميمون الذي اعتنق كل نظريات الفلسفة اليونانية ولاسلامية ، وصادفت نظرية السعادة بوجه خاص هو في نفسه ، ووجد فيها محالا للتوفيق بين الفلسفة والدين . فهو يعتقد أن البحث والتفكير هما سبل السكال الانساني ، وأن العلم هو العبادة التي يستطيع العبد التقرب بها الى الله وكشف الحقائق الغامضة ، وكلما أعمق الانسان في الدراسة والظفر كلما ازداد قربا من ربه . وهذا كما ترى كلام قاله المسلمون الاولون بل نص عليه القرآن نفسه .

تأثر كثير من فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين بكثير من الآراء الفلسفية الاسلامية ، وذلك أن مسيحي القرون الوسطى وقفوا على ترجمة رسائل الفارابي الى اللاتينية ، ووقفوا عليها مفصلة في مؤلفات ابن سينا وابن رشد ، وفي كتاب موسى بن ميمون (دلالة الحائرين) الذي مدحه الفيلسوف اسبينوزا وعرفه ليهنر .

اسبينوزا كالفارابي كلاهما يمد السعادة غاية لمدهم لفلسفي ، وكلاهما صوفي النزعة ، وتصوفا عبقلي نظري مبنى على العلم والدراسة

ويقول اسبينوزا : لو كانت هناك سعادة فهي في التصوف ، ثم دراسة الحياة عن هذا الطريق الممهد طريق الصوفية

عبد الحميد سامي يبرسي

القناعة في شرف وعلو همة

قال أبو العير الهاشمي وقد كشف في قوله هذا عن فهم صحيح لأشرف وعلو الهمة ، وأنهما ليسا بالمال ، ولكن بالفضائل والفعال :

قمت تقى بما رزقت	وتعظمت في العلا همى
ولبت الصبر سائبة	هى من قرنى الى قدى
فاذا ما الدهر طابنى	لم يجدنى كافر النعم
لا أقول الله يظمنى	كيف أشكو غير منهم

المهمة بأدلة وجود الروح

للماء الغربيين ولوع عظيم اليوم بمجمع كل ما يروى من الشئونات الخارقة للمادة ، رجاء الوصول من هذا الطريق الى معرفة خواص الروح الانسانية ، ومدى استقلالها عن المادة . وهم لا يصدقون الى تدوين حادثة من الحوادث إلا بعد أن يؤلفوا لجنة لفحصها ، واستجباع أدلتها ، وأخذ أقوال الذين شاهدوها ، وكثيرا ما يحضون تلك المحاضر أمام هيئة رسمية لعدم تطرق الشك إليها في المستقبل . وإنهم لينفقون في هذه السبيل نفقات باهظة ، ومثروهم لا يبخلون عليهم بالمال للأغراض العلمية . فإذا وقعت حادثة من هذا القبيل بمصر مثلا وكتب الجمعية المباحث النفسية الانجائزية أو غيرها ، أوفدت الى مصر رجالا من أعضائها للتحقق من صحتها ، ودونها في مجموعتها إن كانت صحيحة ، وإلا منعتها إذا لم تستوف أساليب التحجيس الذي اتفقوا فيها بينهم عليه .

وغرضهم من هذا الجمع ترتيب كل طائفة منها مع نظائرها ، لإمكان معرفة القانون الطبيعي السائد عليها ، والحالة النفسية التي تحدث مصاحبة لها ، وغير ذلك مما يكشف للباحث المصانير التي تحيط بهذه الأمور الروحية . وإذا كنا نحن في بلادنا هذه نعيش مثل هذه العناية بمجمع هذه الحوادث مُسْتَرِين عليها أسلوبا تعصبيا يخرجها من حيز الشهادة أو الأمور المفتعلة ، لوحدنا بين أيدينا وما خلقنا مثل ما يجدونهم في بلادهم اليوم من الحوادث التي لا مزية فيها ، وكنا عملنا مع العاملين على إعادة دولة الروح في الأرض .

العلامة الكبير (كاميل فلامريون) الفيلسوف من أشهر رجال العصر في إثبات وجود الروح وخلودها ، وقد قال في كتابه (الموت وغامضته) ما ترجمته :

« إن شعور الانسان بما سيتبعه من الأمور الجديرة بالتفات خاص فادعوا أعداء قرائي عنادا أن يحصوه ويقلبوه على كل وجه .

« مثال ذلك ما روينا في محل آخر من أن الأستاذ (ديالويه) مدير مرصد باريس كان يشعر في بعض أن ركوب البحر سيحرق عليه مصيبة ، وكان يرفض أن يحتل صوته لهذا السبب ، حتى حضر إليه أحد أقرانه وهو المسيو (ميتو) في أغسطس سنة ١٨٧٢ ورجاه أن يمضي معه أسبوعا من الرياضة ، فقصدا مدينة شيربورغ ففرق الانسان معاهما عائدا من زيارة مرفئها بتأثير ربح شديدة .

« فالشعور بالحوادث المستقبلية ، والانذارات النفسية التي من هذا القبيل ، من الكثرة

بحيث تخرج عن حدود الأمور الاتفاقية . ولا يدهشنا أن يهتم الباحثون بالنقيب عن عثتها .
فإنها جزء من الحوادث الواجب دراستها . فقد تكون حادثة واحدة يمكن تفسيرها بالاتفاق
المحض ، ولكن تفسير عشر حوادث أو عشرين أو مائة أو ألف بالاتفاق فذلك مما لا سبيل إليه .
« وقد كتب الدكتور (مينوسافاج) في مجلة (ايلديز مجازين) الأمريكية في مارس
سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

« كان في إحدى ضواحي نيويورك شاب ، ثم دروسه في البلاد الأجنبية بجامعة
(هيد لبرج) ، وكان أعمد ما يكون عن المزاج انشوري الوهمي ، وكان لطول قامته وقوة
عضلاته اشتهر بين محبيه بالمصارع ، وكانت العلوم التي آثرها على سواها هي الرياضيات
والطبيعية والكهرباء ، ولما عاد من البلاد الأجنبية لم يعرف من صحته إلا أنها جيدة للغاية ،
وكان يقيم مع أمه في دار حلوبه لها في تلك الأثناء ، وكان من عاداته أن يذهب كل يوم بعد
العشاء فيتمشى خطوات وهو يدخل في (بيته) . في ذات ليلة عاد الى بيته هادئاً لم يكلم أحداً
ودخل غرفته ، فلما أسفر الصباح دخل الى حجرة ولده قبل أن تنبه من نومها ، ومسح
وجهها بيده بقصد إيقافها بتلطف ، ثم قال لها .

« يا أماه : سأخبرك بشيء غريب محزن جداً ، فيجب أن تدركي بالشجاعة لتكوني قوية ،
وتتحملني ساعة !

« دهشت والدته مما سمعت ، وسألته عما يقصده من قوله هذا .

« فأجابها بقوله . يا أماه إنني عارف بما أقول ، إنني ساموت قريباً !

« فألم بالأم من الكرب والاضطراب ما يُنوقع من كل أم في مثل هذه الحال ، وسألته
أن يزيد بها بياناً .

« فقال لها : بينما كنت أعمشى أمس مساء في الميادين ظهر لي شيخ ومشي الى جانبي
وأخبرني بأنني ساموت قريباً ، فلا بد من أني ميت كما قال :

« فتأثرت الأم مما سمعت أشد تأثراً ، واستدعت طبيباً وكأشفته بما سمعته من ابنها .

« فقرر الطبيب بعد ما أطل في فحص الابن أنه لم يجد عنده شيئاً غير طبيعي ، وهذا بال
الأم بقوله لها : إن ما حدثك ابلك به لم يكن غير هذيان محض ، وإنه لا يجوز لها أن تفكر
فيه ، وإنه لا تخشى غير أيام معدودة حتى تضحك هي وولدها من خوفهما الوهمي .

« فلما أصبح الولد في اليوم التالي شكاً من انحراف ألم به ، فاستدعى الطبيب ثانية ،
فهرى بوسوستهما ، فاشتد المرض في اليوم الثالث على الشاب ، وأحضر الطبيب مرة ثالثة ، فرأى
التهاباً حدث في الرائدة الدودية ، وقرر أن تستأصل بعمل جراحي . فلم يمض الولد بعد
استئصالها غير يومين ، ولم يمض بين ما رآه وبين موته غير خمسة أيام !

قال الاستاذ كاميل فلاميريون عقب إيراد هذه الحادثة :

« اعتاد الناس طيشا أن يعللوا أمثال هذه الروايات بالهذيان ، ويخيل اليهم أنهم يحلون المسألة بحذقها على هذا النحو ، وليس هذا من الجد في شيء ، وليس على هنا إلا أن استمد من الأسانيد التي لا تحصى من استفتائي الذي حملته (١) لأزيد على ما قدمت أسانيد جديدة مختلفات الطبيعة ، ولأدل بذلك على سمة المجال المجهول الذي علينا اكتشافه . وقد وقعت الآن يدى على الكتاب الآتى وهو يحالف الكتاب السالف ذكره ، ولا يقل عنه فى الغرابة ، وقد أرسله صاحبه الى من استأببول فى ٣٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ ، قاله :

« سيدى الاستاذ :

« فى سبيل البحث العلمى التحريى الذى تبدلون فيه بأخلاص عظيم ساعات كثيرة من وقتكم بقصد تكميل العلم العام ، أرى من واجبي أن أفصى اليكم بمحادثتين شاهدتهما بنفسى :

« قابلنى فى بيتى رجل من معارفى ذات يوم باستأببول فى نحو منتصف الساعة الثانية عشرة صباحا وقال لى :

لا أدرى لماذا أنا منذ هذا الصباح مشغول الفكر بأن عمى قد توفيت فى (جنوا) ؟

فسألته : هل يعلم أن عمته مريضة ؟

« فأجابنى بأنه مقاطع لأسرته منذ عشر سنين ولم يصله منها خبر ما .

« وبينما نحن نتحدث وأنا جاد فى أن أثبت له أن شعوره هذا وهم باطل ، إذ أقبل خادمه حاملا اليه تلفرا من مدينة (جنوا) وبه أن عمته قد توفيت فجأة فى تلك الصبيحة عينها .

« وهذا الرجل نفسه هب من نومه فجأة فى ليلة ٣١ يوليو الماضى وقال لزوجته بأن ملك إيطاليا السابق قد قتل ، فلم تعارضه زوجته اعتقادا منها بأنه يحلم . فلما أصبحت أخبرته بما رآه فى الحلم ، فقال لها : إن ذلك لم يكن حاما ، ولكن تلك العبارة خرجت من فمى وأنا لا أعلم لماذا ولا كيف خرجت .

« وكان بينهما مطلا على الميناء ، فقال لزوجته : إن أدل دليل على أن ملك إيطاليا لم يميت هو أن السفن الراسية رافعة أعلامها .

« وبعد مضى ساعة عاد الى البافذة فرأى فى هذه المرة أن تلك السفن قد خففت راياتها الى أنصاف سواربها (علامة الحزن) ، فدهش من هذا التغيير وأسرع الى الاستعلام عنه ، فقبل له : إن ملك إيطاليا (والد الملك الحالى) قد قتل غيلة فى الليل !

(١) يريد الاستاذ كاميل فلاميريون من قوله (استفتائي) أنه كان قد نشر الجرائد يطلب من كل من رأى شيئا لا يمكن تليله بالاسباب الطبيعية أن ينهى اليه به زيادة لمادة العلم ، واستجاءت لأدلة الروح ، فوردت اليه ألوف من الاجوبة نشرها فى مؤلفاته .

« خاف صاحبي من هذا التوافق العجيب ، فجاء يستشيرني باعتبار أنني طبيب للأمراض العقلية ، ويسألني هل ما حدث له يعتبر عرضاً خطيراً لاصابة مخية ، فهدأت بآله ، ولكنني دوت هذه الحادثة ، لاسيما وصاحبنا كما قالت عنه رزين للدرجة القصوى ، وجدير بالثقة من كل وجه .

« فأرجوكم ، وأنا في انتظار جوابكم ، أن تنفصلوا بالقوة عن جرائي بالكتابة إليكم قبل أن أنشر عن معرفتكم شخصياً ، وتكرهوا بقبول شكري واحترامي .

الدكتور ل . موعبري

طبيب الأمراض العقلية بالمستشفى الملكي الإيطالي

بشارع كابرستان رقم ٢٠ باستانبول

قال الأستاذ كاميل فلامبريون عقب إيراد هذه المشاهدة .

« لقد شكرت هذا الدكتور الكريم على كتابه هذا الذي ضممته الى أمثاله الكثيرة . فمن الجبون اعتبار كل هذه الحوادث من الأوهام ، إذ يكون ذلك بمثابة إنكار الشمس وقت الزوال . فالكاثن الانساني لا يزال بالنسبة إلينا سرا غامضاً ، وعلم الجامعات قد صل سبيل الرشاد الى الآن ، ولكن العلم الذي أخذ على نفسه البحث عن الحقيقة يحب عليه بعد الآن أن يقتنع بأن هناك حمائص للروح لا تزال مجهولة ، وهي أهم الأشياء التي يجب كشفها ومحددتها وتفسيرها .

« وإليك حادثة هامة للغاية تدل على الشعور عن بعد بالحوادث ، حصلت لامرأة عن زوجها ، وهي مستخرجة من مجموعة (الفانتاسم أوف ذي ليفنج (١) . هذه الحادثة تتعلق بالدكتور (أوليفيه) الطبيب بمدينة (هويلووت) فنستر ، وهي :

« في ١٠ أكتوبر من سنة ١٨٨١ دعيت للقيام بعيادة مريض في الريف على بعد ثلاثة فراسخ من داري ، وكان ذلك في وسط ليل دامس ، فسرت في طريق أجوف تحفه أشجار قد قامت حفايه وصارت عليه كالثقة ، وكان الظلام شديداً الى حد أني لم أدر كيف أقود حصاني ، ففكرت في سير فطري ، وكانت الساعة حينذاك تسعة ، وكانت الطريق التي سلكتها تعلوها حجارة غليظة مستديرة مكونة لا محذور شديد ، فكان الحصان ينحدر منها ببطء عظيم . فما راعني إلا انثناء يدي الحصان ثم وقوعه خاة ماذا فنه على الأرض ، واستدعى ذلك سقوطي من فوق رأسه ماساً الأرض بكنتي ، فأكسرت إحدى رفقوتي .

(١) هذا اسم مجموعة الحوادث الروحية التي حققتها جمعية اساتذ النفسية اشكفة في لوندرة من جامعة من علماء الانجائيز سنة ١٨٨٢ ولا تزال موجودة الآن .

« في هذه اللحظة كانت امرأتى تجمع ثيابها في الدار وتستعد لدخول السرير ، فسمعت بأنى قد أصبت بأذى ، واعترتها رعدة عصبية ، وأخذت تبكى ، ثم اسندت الخادمة قائلة لها : أصرعى الى فانى خاتمة ، فقد حدث لزوحى سوء ، وهو إما ميت أو مجروح . ولبثت طول غيبتي عنها ممسكة بالخادمة عندها ولم تقترع عن البكاء . وأرادت أن ترسل رجلا ليبحث عني ، ولكنها لا تدري الى أى قرية قصدت . أما أنا فمدت الى دارى في الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وناديت على الخادمة لتؤتى بمصباح وترفع السرج عن حصانى قائلا : إنى قد جرحت ولا أستطيع أن أحرك كفى .

« فتحقق بذلك شعور امرأتى » .

الدكتور أوليفيه

طبيب هو يلحوت ، فينستر

ثم مضى الأستاذ كاميل فلامريون متابعا بحثه فقال :

« وقد كتب الى العلامة المدرس المسيو (سافيللى) من كوستا بحزيرة كورس في سنة

١٩١٢ يقول :

« المشاهد أن المسائل التي نعنون بدرسها قد أصبحت في نظر القارئ في الدرجة العليا من الافادة ، وإنى متعق بأنى رجائكم بمتابعة أبحاثكم فيها إنما أعبر لكم عن رأيهم جميعا . »
« إن مسألة ماهية الزمان صعبة الحل للغاية ، وقد أجاب أحد الرياضيين المشهورين باحثا سأله القول القصر فيها بقوله . « لتكلم في شىء آخر » . ومع هذا فاني أرى من واجبي أن أرسل اليكم بمشاهدات توجب الحيرة الشديدة ، ولا يمكن أن يتسرب إليها الشك أصلا :

« بينما كان أبى عائدا الى داره ذات ليلة يرافقه أحد أصدقائه ، إذ طرق آذانهما صيحات ازجاج منبهة من نساء بيكين ويولون ، فلم يشكا في ماروء نازلة عليهن ، وظنا أن أحدا قد قتل عندهن ، فوقفا أمام الدار التي تبعت منها هذه الصيحات ليستكشفوا حلية الغير ، فكان نصيبهما أن انقطعت الأصوات فجأة ولم يمودا يسمعا شيئا .

« فما كانت الليلة التالية ، ومرأتى إزاء هذه الدار ، سمع مثل الصيحات التي سمعها في الليلة السابقة ، ولكنها في هذه المرة لم تكن وهمية ، وعلم أن طفلا لم يكن به مرض في الليلة الفارطة أصيب فجأة في أثناء النهار بالختناق ومات من ساعته بما يشبه موت الفجأة . حدثت هذه الحادثة في مدينة باراز ، وهي مجاورة للمدينة التي أودى فيها وظيعتى التدريسية » .

عقب الأستاذ كاميل فلامريون على هذا الكتاب بقوله

« هذه الحوادث الحسية تثبت كلها الوجود الروحاني للنفس ، مستقلة عن الخصائص الطبيعية

للحواس . فالروح والجسد شيان متميزان لكل منهما خصائص خاصة به » .

ما أورده الاستاذ الفلكي من هذه الحادثة الاحيرة أورد نظيرة لها الاستاذ الكبير شارل ريشيه عضو المجمع العلمي الفرنسي ومدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب في كتابه (الميتا فيزيك) أى ما بعد العلم الرسمى لنفس . وقد قدم كتابه هذا للمجمع العلمى الذى هو واحد من أقطابه . وقد ذكر من مئات الحوادث المحققة فيه أن شقيقه كانت راكبة المترو في باريس ، وعندما انتهى الى إحدى المحطات حدثت صدمة هائلة عند وقوف القطار ، ونزل كثير من الركاب وتراكم بعض رجال البوليس وأخرجوا طفلا من تحت العجلات جريحا ، والناس حوله يأسفون ويتألمون . ونهضت هى مدعورة ، ونظرت الى الجالسين معها فوجدتهم ساكنين هادئين كأنه لم يحدث شئ ، فدهشت من جودهم وأعادت النظر الى الخارج فلم تر شيئا مما كانت تراه قبل ثانية واحدة ، بل لم تر أثر الحدوث أمر غير عادى ، غارت فى أمرها وجلست واجمة . وما كان أشد دهشها حين رأت أن الضجة الهائلة التى حدثت فى المحطة السابقة تكررت فى المحطة التى تلتها ، ولكنها كانت هذه المرة حقيقية ، فأخرج من تحت العجلات عامل ينطف جسمه دما ، وكان التأثر عليه عاما . وكان المنظر الذى رآته ثانى دفعة هو عينه الذى رآته أولا ، لا يختلف عنه جملة ولا تفصيلا ، وقد تمثل لها قبل حدوثه بوضع دقائق .

هذه الحوادث وأمثالها التى يظنها بعض الناس تافهة ، تهدم مقررات الفلسفة المادية هدمًا ورجحًا ، لأن أصحابها بنوها على أصول مادية بحجة باعتبار أن الكون كله ليس فيه غير المادة وقواها ، وأنه لا يوجد عالم روحانى يعكس الاتصال به والاستعانة بشئ منه . وقيامًا على هذه الأصول هدموا الأديان وسفهاوا أحلام الآخذين بها . فنبوت أمثال هذه المسائل التى يعنى بجمعها اليوم العلماء الغربيون تثبت وجود العالم الروحانى والروح الانسانية معا . وقد جمع العلماء المعنيون بأمرها عشرات الآلاف منها مما تحققوا من صحتها .

محمد فريد وجدى

أيها الناس ان لكم معالم

خطب النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال :

« أيها الناس إن لكم معالم فاتموا الى معالمكم ، وإن لكم نهاية فاتموا الى نهايتكم ألا وإن المؤمن بين مخافتين : بين أحل قد قضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دياره لآخرته ، ومن الشبهة قبل الهرم ، ومن الحياة قبل الموت ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعقب ، وما بعد الدار دار إلا الجنة أو النار » ١

الحاجات الانسانية

وأثرها في بناء الجماعات ، وإقامة المدنيات

يخيل لمن لا بصيرة له في العلوم الاجتماعية أن تقليل الحاجات المادية في الأمم يحفظ صيها ما لها ، ويكفل لها استقلالها ، ويجعلها أقل احتياجا الى سواها ، فترى كل همه مصروفا الى مكافحة ما لا فائدة له في نظره من الكاليات رجاء أن ينشئ شعبا لا تنعدي مطامعه ما يقيم صلبه ، ويكسو جسمه ، لينصرف بكليته الى السكالات الروحية ، والترقيات المعنوية . وهذا خطأ خطير يقع فيه أكثر النصحاء والمرشدين . وقد تسبوا خلال العصور في إهلاك جماعات دانت لتعاليمهم فلم تلبث أن انحلت ووابطها ، وفنيت في أجساد أمم أخرى ، ومها جماعات لم تصادف مزاجها لها في الحياة بقيت على ما كانت عليه قرونا كثيرة في حالة تحجر ووقوف .

هذا يحفزنا لأن نعقد فصلا في الحاجات الانسانية وأثرها في بناء الجماعات وإقامة المدنيات نقتبسه من صميم العلم الاقتصادي ، نرجو أن يستهدي به من عهد اليه إرشاد جماعة من الجماعات ، سواء بالقاء الخطب في المحامع ، أو بالوعظ في المساجد .

الحاجات هي العوامل المولدة لحركات الجماعات :

الحاجة الحيوية التي يشعر بها الانسان هي العامل الوحيد المولد للحركة المعاشية في العالم ، وهي بهذا الوصف أساس علم الاقتصاد السياسي .

كل كائن حي لاجل أن يصل الى كماله الشخصي مضطر لأن يستعين بالعالم الخارجي ، وأن يستمد منه عناصر يحيا بها حياته المقدرة له . وهو مضطر لذلك بمجهود للحصول على حاجاته ، لأن حصوله عليها يدفع عنه ألما ، والحربان منها يوقعه في أذى .

لحاجات الانسان طبائع مختلفة عظيمة الخطر ، ولكل طائفة منها قوانين اقتصادية محصر الكلام عليها فيما يلي :

(أولا) الحاجات الانسانية غير محدودة العدد . وهذا مما يميز الانسان عن الحيوان ، وهو الباعث على المدنية بأوسع معاني هذه الكلمة .

وقد شوهد أن حاجات النوع الانساني تتدرج في نوعها وقيمتها على نسبة تقدمه في سلم الحضارة . وحياته من هذه الناحية كحياة الطفل من نوعه . فانه عند ميلاده لا يتطلب أكثر من الغذاء المناسب له والمهد ، ثم تنشأ فيه بنمو جسمه احتياجات للأغذية المختلفة والملابس المركبة والالاعيب المروضة ، ولا تكاد تمضي عليه سنة حتى تنشأ له حاجات جديدة .

كذلك الحال في الحاجات البشرية ، فاننا اليوم وقد قطعنا أشواطاً في المدنية نجد أنفسنا في حاجة ماسة الى أشياء تتملق بالصحة والطاقة والتعلم والتراسل والسياحة لم تكن معروفة لدى أسلافنا . وما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سيضمرون باحتياجهم لأكثر منها ، ولو أتيج لنا أن نقف على خبر كائن أرق منا في بعض السكواكب ، لآسنا عنده احتياجات حمة لأمور لم نتخيلها نحن الآن تخيلاً .

إذا علمت ذلك فما حكمك مذ الآن في الأمم التي تقنع بالقليل من الحاجات ولا تعد مطامعها الى ما يبعد عن الدائرة التي حصرت نفسها فيها ؟ هذه الأمم إذا بقيت مكتفية من الغذاء بشيء من الفاكهة والخضر والخبز ، ومن المأوى بجدار يقيها قبح الشمس ، فبشرها بالجلء الماحل عن هذه الأرض التي لم تستطع الاستفادة منها مع ما منعت من القوى والقدر التي تبلغ بها أرقى مراتب الوجود المادى والمعنوى .

هنا يمكن أن يقول قائل : هل ترقى الانسان في الاحتياج خير له أو شر عليه ؟

الجواب يحتاج لشيء من التفصيل . ذلك أن هذه الحاجات التي تنشأ للانسان هي عوامل تحفزه للعمل ، وتضطره للتفكير في الابتكار والاختراع ، وهذا يدفعه للترقى في العلم ، فاذا أردنا أن نعمل على تقليل هذه الحاجات كنا عاملين على حذف هذه العوامل ، فنتقل الجهود العقلية ، وتبطل حركة الحياة الاجتماعية ، ويهبط مستوى الثروة العامة .

ومما يجب أن يعلم في هذا الموطن أيضاً أن الحاجات الاقتصادية المحضة ليست مجردة من نتائج أدبية عالية ، وذلك أن كل حاجة منها هي بمثابة رابطة جديدة تزيد انضمام الناس بعضهم الى بعض ، لأن نيلها لا يتأتى إلا باشتراك مجموعهم في إيجادها . ومن هنا ينمو في البشرية الشعور بالتساعد والترافد . فان الرجل القليل الحاجات لا يحتاج لفرد ، ولكن يكتفى بنفسه ، وهو ما لا يجب أن يكون بين النوع الانسانى الذى علق ترقى أفراد على التعاون الاجتماعى .

(ثانياً) الحاجات الانسانية محدودة في مقاديرها . هذا من الأصول الخاطئة لعلم الاقتصاد السياسى التي تبنى عليها النظرية الجديدة على قيمة الأشياء . وهؤلاء أن اسكل حاجة يشمر بها الانسان مقداراً خاصاً لا تتجاوزه الرغبة . مثال ذلك أن الانسان يحتاج لمواد الغذائية ، ولكن احتياجه إليها يقف منها عند حد لا تتجاوزه ، خلافاً لحاجاته الصناعية أى الاجتماعية ، فلا تكاد نجد لها حداً تقف عنده . فانك لا تستطيع أن تتخيل مقدار المال الذى يشبع نهمة الرجل المتمدن .

(ثالثاً) أن الحاجات الانسانية متعارضة ، ومعنى ذلك أن الحاجة من الحاجات لا تحصل إلا بإملاشة حاجة أخرى أو امتصاصها . وهذا قانون اقتصادى خطير يبنى عليه إمكان إصلاح الأمة بواسطته . وذلك بإنشاء احتياجات عالية للأمة لتبديد احتياجاتها السافلة . وقد شوهد أنه

يمكن الاستمارة عن مادة مادية بمادة عقلية ، فيمكن إحلال التردد على الوادى الادبية محل التردد على الملاهي العمومية . والمدار في الاستفادة من هذه الأصول على الحكومات الرشيدة ، والمعلمين الهداة .

(رابعها) الحاجات الانسانية متآكلة . هذا الناموس يظهر يادى بدء أنه منافع للتقدم ، وليس هو كذلك . فالباس من ناحية العمل أليسوا متزاجين ومتآكلين في وقت معا ؟ فالتخالف يوجد بين الحاجات التي تطلب لفرص واحد ، لا بين الحاجات التي تطلب لأغراض شتى . حاجة الانسان للتغذى من نوع من الأغذية تنعادي وحاجته لنوع آخر منها ، ولكنها تأتلف مع حاجته للخوان والكرسى والفوطه والسكين الخ .

(خامسها) الحاجات الانسانية تميل لأن تمير عادات راسخة ، أو كما يقال طبيعة ثابتة ، وهذا له قيمة كبيرة بالنسبة لأجور العملة . ذلك أن الانسان متى ارتفع الى مستوى من العادات صعب عليه أن ينحدر عنه فجأة . فلقد مضى زمن كان العامل الفقير لا يلبس الأبيض ، ولا يضع في رجليه حذاءين ، ولا يتعاطى القهوة ولا التبغ ، ولا يأكل اللحم ولا خبز القمح ، ولكنه أصبح أسير هذه الحاجات الآن بحيث لو صار غير قادر على توفيتها فجأة هلك لا محالة .

ولو أضفنا الى هذا أن العادة متى سر عليها في الأمة أجيال متعاقبة ، رسخت في الأعقاب بالوراثه ، وشمرت الحواس بضرورتها شعورا كبيرا ، من هنا نعلم خطر تلك السلطة الاستبدادية التي تكتسبها الحاجة ، وإن ظهرت في أول أمرها هينة لا تذكر .

(سادسها) أن بين الحاجات التي تطورت الى مادة راسخة في الأمة ، وبين العادات التي تنشأ حديثا منازعة قوية وحربا طاحنة ، نتيحتنا ثلاثى ماديات قديمة وقيام عادات جديدة على أنقاضها . وهذه العادات الجديدة قد تكون أرفع من القديمة أو أحط منها .

هذا الناموس الطبيعي يمكن الاستفادة منه في ترقية الأمم بإنشاء حاجات جديدة لها ذات أغراض شريفة ، وتقويتها بحيث تصح فيها عادة أو طبيعة ثانية ، ومتى تم ذلك في عدة حصل عالية القيمة ، حفرت الأمة الى باحات الشرف والكرامة بدوافع ذاتية لا أثر للتمنع فيها ، وكان حفظ الجماعة من ورائها عقليا للغاية .

من هنا يرى القراء العلاقة الوثيقة الموحدة بين الحاجات الاقتصادية وبين الشؤون الاجتماعية ، فالرجل الذي ينتدب لترقية نفسه أمته ، لا يجوز له أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا لم بجميع هذه الأصول المقررة لئلا تكون تعاليمه ضارة بدل أن تكون نافعة . وكثير من المصلحين يفشلون لا إغفالهم هذه الحقائق العلمية .

الذي نلاحظه على أكثر الذين ينتدبون لاصلاح الجماعات ، سعيهم المتواصل لتقاعيل حاجات أفرادها ، وتبسيط معيشتهم ، توها منهم أن ذلك يحفظ عليهم صحتهم وأموالهم ، ويحصر همهم

في وجهة واحدة وهي الترقى ماديا وأديا . فلو قدرنا لهؤلاء المصلحين نجاحا ، رأينا أنه قد ابتقى عليه فساد اجتماعي كبير ، تظهر آثاره في تدهور الصناعات ، وانحطاط الفنون ، والنتيجة الطبيعية لهذا ، قلة الأعمال وانتشار البطالة واشتداد الفاقة على الطبقة الأخيرة من الأمة ، ومتى جاءت هذه انصرفت الى التلصص والسلب ، وارتكاب الجبايات ، والتجأ الى دعاة المذاهب الانقلاية .

من هنا يدرك الناس حكمة الاسلام في تحليته منع الحياة ما دامت في حدود الاعتدال ، وبعبارة عن المآثم والمدوان . قال الله تعالى . « قل من حرم ربة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . وفي الحديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد آنسا اعتراضا من بعض الجماعات على هذه الرخصة ، زاعمة أن مهمة الدين الحث على الزهادة والاشقيشان ، وتكره الناس في منع الحياة ولذاتها ، فكيف يبيحها الاسلام الى حد أن يُنزل فيها قرآنا . وإني لأظن أن القراء قد فقهوا الآن ، بعد ذكرنا لمكان الحاجات من شئون الاجتماع ، أن هذا التنويه وراه من الحكمة ما لا يستطيع أن يكره إلا متعنت . فلو كان الاسلام سام أهله الاشقيشان في المعيشة ، والقناعة من المصنوعات بما يسد الحاجة منها ، ورهْدم في الدنيا حتى كرهوا كل متعها ولذاتها ، لما قامت لهم جماعة ، ولا انتظمت لهم حياة ، ولا ازدهر لهم علم وتلاوات لهم مدنية . ولكنهم كانوا يجتنبون عن الأرض بعد جيل أو جيلين من قيامهم ، غير تاركين وراءهم إلا ما تركه كل جماعة لم تنفع بوجودها ، ولم تستفد من مواهبها .

من أجل ما بلغت ليه نظر القاري* - ونحن نصد هذه المعصرة العلمية للكتاب - أن الله سبحانه وتعالى قد علم ما سيقال في ترخيصه في نعيم الحياة وزيلتها من الاعتراضات التي مثارها قصر النظر ، فديل الآية بما يشعر بأن هذا الأمر سوف يدركه الذين يعلمون الحقائق ، ويذوقونها بين الناس ، مصيغين به الى معجزات القرآن معجزة جديدة ، فقال تعالى : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

محمد فريد وجدي

القضاء الشرعي والقضاء القانوني في مصر

لما استوثق الأمر للمنفور له محمد علي باشا العظيم في مصر ، فرض الباب العالي يومئذ عليه بحكم أن مصر ولاية عثمانية التزامات كثيرة ، أولى هذه الالتزامات وأوجبها رعاية أن ينجح في إدارة نظام الحكومة سياسية كانت أو إدارية أو قضائية على مجموعة أحكام كانت تعرف في ذلك الحين في البلاد العثمانية « بقانونامة السلطان » ، وهي الصادرة في سنة ١٨٣٩ م . وبدهي أن ذلك الوالي العظيم لم يقف عندما رسمته له الدولة العثمانية من حدود وبرايج ينظم بها ولايته طبقا لأحكام الدولة العامة ، بل جاوز مجوده السخي تلك البرايج الى توسع سخي فيما يراه مرفها عن البلاد ، وكفيلًا بامناء حيويتها ، وأخذها بأفضل المثل وأسل الطرائق ، فنسروب الاصلاح التي تمت في عهده مثلا :

١ — محالس شرعية يتولى الفصل فيها فضاة شرعيون في المواد الشرعية . كالمواريث والوصية ، والحمايات الكبرى التي تتصل بروح الشريعة السمحة .

٢ — محالس تعرف يومئذ بمجالس الاقاليم يتولى فيها كبار الموظفين الاداريين كالمديرين والمأمورين الفصل في الشئون الادارية والمالية .

٣ — محالس مختلطة تتألف عند الاقتضاء من فضاة شرعيين وموظفين مدسكين للفصل في بعض الموضوعات طبقا لأحكام الشريعة السمحة وبعض مواد القانون المعمول به في ذلك الحين .

٤ — مجلس الأحكام ، ويؤلف من كبار أصحاب الماصب في الدولة . ومن أولى اختصاصات هذا المجلس النظر في شئون بلاد القطر المختلفة والفصل فيها فصلا نهائيا بما يحقق رغبات الأهلين ، ويكمل اطراد الصوالم العامة ، ومراجعة بعض أحكام المجالس الادارية إذا وقع بشأنها تظلم ، أو لوحظ عليها خروج عن جادة المألوف في قوانين البلاد وأنظمتها . ومقر هذا المجلس مدينة العاصمة ، وكان داخلا في اختصاصه وضع القوانين التي تقتضيها المصلحة العامة :

ثم لما تصاعفت الجهود عند ذلك الوالي العظيم ، واستشعر المنافع الجلى الناجمة عن ممارسة التجارة في شتى صورها ، وما تفيده على القطر من فوائد كان لها أجل الأثر في مستقبل البلاد ، أشف مجلسا مختلطا يتألف من أعضاء وطنيين وأعضاء من الأجانب للفصل فيما يرفع إليه من المنازعات التجارية التي تقع بين مصريين وأجانب ، على أن يصدر في حكمه عن القانون الفرنسي مع مراعاة تطبيق أحكام الشريعة المفراء المنصوص عليها في باب التجارة من كتب الفروع .

ولما تولى المغفور له سعيد باشا ، نهج على منهاج والده بما يسير حاجات البلاد ويحقق أمانيها ، لما كاد يستقر على العرش حتى أسرع في عام ولايته سنة ١٢٧٠ هـ فأعاد مجلس التجارة الذي كان قد أهمل بعد إنشائه في عهد المغفور له محمد علي باشا ، وحظا ذلك المجلس في إبحاث الإصلاح خططا واسعة ، محققا لأغراض فرمان الصادر في سنة ١٢٥٦ م - ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ ، فانشا سعيد باشا محاکم نظامية كانت تعرف في ذلك العهد بالمجالس المحلية ، وهي المعروفة عندما اليوم بالمجالس الملقاة ، وذلك العهد يعتبر فاتحة عهد القضاء القانوني في الديار المصرية .

وكيفما كان الحال فقد كان تفكير ولي الأمر في إنشائها يومئذ إحدى حسناته ، يضاف الى ما أدخل في حلال ولايته كثيرا من صروب الإصلاح على مجلسي التجارة اللذين كان أحدهما بمدينة القاهرة والآخر بنجر الاسكندرية ، وتقرر يومئذ طبقا للأمر الصادر في ٣ سبتمبر سنة ١٨٦١ أن يؤلف من أعضاء وطنيين وأعضاء من الأجانب يعيرون بطريق الانتخاب المبين بقوانين ذلك العهد ، وينظر أحد المجلسين في استئناف الأحكام الصادرة من المجلس الآخر .

ثم إن هذه المجالس ما زالت تخطو الى أعلى مناهج الإصلاح رويدا رويدا حتى جاء عهد إسماعيل العظيم ، فقد دخلت في عهده في أفق من الإصلاح جديد ، فبعد أن أتم القصر البارز في شتى وجوهها ، شمرت السلاد بقوة حيويتها ورفعة شأنها وغرتها ومنعتها ، فتم لمصر الاستقلال لفضائي والاستقلال الإداري في ذلك العهد بمقتضى فرمان التخصيص المصرية الصادر في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ ، ومن ذلك الحين وثبتت مصر الى الملا وثبة موفقة ، وهذه المجالس هي :

١ — أقلام الدعاوى في مصر والاسكندرية والأقاليم القبلية والثغور ، واختصاصها النظر في الدعاوى المدنية الى ما لا تتجاوز قيمته ١٥٠٠ قرش .

٢ — مجلس مشيخة البلد ، ويختص بطائفة من الشؤون الادارية : كلاحظة الأضرحة والمساجد والمكاتب ، وبعض أمور محمية كقيد المواليذ والمنوفين وحصر الاهلين .

٣ — مجلس دعاوى البلد ، ويختص بالحكم في الحقوق المدنية التي لا تتجاوز ٥٠٠ قرش ، وفي بعض المسائل الزراعية والحرائم النافذة كالمشاجرات والسرقات البسيطة ، وكان عليه فوق ذلك أن يسمي في الصلح بين المتخاصمين أيا كان الموضوع بالغة قيمته ما بلغت .

٤ — المجالس المركزية ، وأتم اختصاصها الحكم استئنافيا في الأحكام الصادرة من مجلس دعاوى البلد ، وابتدائيا في الدعاوى المدنية التي تزيد قيمتها على ٥٠٠ قرش ولا تتجاوز ٢٥٠٠ قرش ، ثم امتد نطاق اختصاصها الى أن بلغ ١٥٠٠٠ قرش .

- ٥ — المجالس الابتدائية فى عواصم المديرىات والمحافظات ، وتنظر فى الدعاوى المدية مما تزيد قيمته على ٢٥٠٠ قرش ، وكذلك فى الدعاوى الجنائية .
- ٦ — مجالس الاستئناف ، وكانت فى الوجهين البحرى والقبلى ومصر والاسكندرية ، وتنظر استئنافا فى الأحكام الصادرة من المجالس الابتدائية .
- ٧ — مجالس التجارة ، وكانت فى أهم ثغور القطر ومادره ، وتنظر فى الخصومات التجارية ، وتستأنف أحكامها أمام مجلس استئناف مقره الاسكندرية .
- ٨ — مجلس الأحكام ، ومقره القاهرة ، ومن اختصاصه إعادة النظر فى أحكام مجالس الاستئناف فى الدعاوى التى تتجاوز قيمتها ٢٥٠٠ قرش .

وتلك هى جهات التعدد فى مساحى القضاء فى ذلك العصر ، واحتصاص كل واحد منها على أن القوانين التى حرى تطبيقها فى ذلك الحين أمام تلك المجالس كانت متعددة ، فبعض هذه المجالس كان يتعد الأحكام الشرعية قاعدة له فى قضاياها ، والبعض الآخر كان يفصل بمقتضى القوانين العثمانى والفرنسى فى الشئون التجارية ، ويقضى البعض الآخر فيما يرفع إليه من منازعات بموجب اللوائح والتعليمات والمنشورات التى كانت تصدر تبعا لأسبابها وعللها البواعث عليها مما يدل على أن تشريعا خاصا للبلاد فى ذلك الحين لم يكن قائما حتى يمكن الرجوع إليه فى تطبيق الوقائع والحادثات كأساس دائم وقاعدة مطردة ، فقد كانت المنشورات تتلو المنشورات بين إثبات وتعديل بالزيادة والنقص على هدى ما كان يراه مجلس الأحكام القديم ، ثم المجلس المخصوص الذى حل محله ، ثم ديوان الحفانية الذى تلى عنهما ذلك الاحتصاص فيما بعد .

وقد استمرت مجالس التجارة تؤدى وظيفتها الى السكان ، وتحقق رغبات الأهلى بأمانة وإنصاف بين الوطنيين بعضهم مع بعض من ناحية ، وبينهم وبين الأجانب من ناحية أخرى حتى سنة ١٨٧٥ م ، وفى ذلك الحين نشأت المحاكم المختلطة على الخط الفرنسى فتناول اختصاصها وظيفة تلك المجالس بعد إنشائها والتعفية عليها . ومما لا سبيل الى الجدل فيه أن المحاكم المختلطة حين أنشأتها الحكومة المصرية كانت صرورة من الصرورات الملحة التى حفزت الحكومة على إنشائها ، وأقل مراتب تلك الصرورة تلاقى الأصرار التى كانت تنجم عن طريقة التقاضى الساقطة على إنشائها ، فإن المعاهدات الدبلوماسية والتقاليد المرعية كانت تقتضى أن الرعية الأجنبية ليست خاضعة لقضاء البلاد ، فإذا كان المدعى مثلاً أجنبيا والمدعى عليه رعية رفع الدعوى عليه أمام المجلس المحلى ، وإذا كان المدعى رعية والمدعى عليه أجنبيا أقام الدعوى عليه أمام المحكمة القنصلية .

وغير خاف أن المحاكم القنصلية ذات تعدد فى القطر تبعا لتعدد الطوائف الأجنبية الخاضعة لقضاها ، ولكل طائفة قوانين تباين قوانين الأخرى من بعض الوجوه ، فكانت

هذه الفوضى الصاربة من أقوى السوائت على العبت بالحقوق وصياع الثقة في المعاملات واضطراب الأحوال ، وهذا يبدو كلما تصفح المرء تلك العهود التي سبقت ، والأمثلة قائمة من سوانق الماضي على صدق ذلك الاتجاه :

١ - كانت الدعوى تتعدد بتعدد المدعى عليهم إذا اختلفوا جنسا ، فيخاصم كل منهم أمام قنصلينه التابع لها ، وفي ذلك من تطويل أمد التقاضي وكثرة العقبات القضائية ما لا حاجة اليه ، يضاف الى ذلك تضارب الأحكام وتناقضها في موضوع واحد في كثير من الأحيان نعا لاختلاف القوانين المطبقة واختلاف وجهات النظر في تقدير الدعوى وظروف الحال .

٢ - لم يكن للمدعى عليه سبيل الى رفع دعواه على المدعى أمام نفس المحكمة المنظورة أمامها الدعوى الأصلية في حالة ما إذا أراد المدعى عليه أن يرفع دعوى فرعية تمقض دعوى المدعى من أساسه ، وتبين للمحكمة ذات الاختصاص نفسه في دعواه ، فتضيق على المدعى عليه فائدة ضم الدعويين الى بعضهما ، والاتنافع بحكم يصدر فيها معا .

٣ - كان الاستئناف يرفع أمام محكمة المستأنف ، فإذا كان المستأنف من تبعية ألمانيا مثلا والمستأنف عايبه من تبعية اليونان وصدر الحكم لمصلحة المستأنف ، لم يكن في استطاعته مباشرة التنفيذ على اليوناني لصدور الحكم من محكمة ليس لها عليه ولاية قضائية ، وما الى ذلك ، وهو كثير الأمثلة والشواهد .

ولقد أثرت تلك المتناقضات وما بدا يومئذ من عدم صلاحية ذلك النظام القائم كأساس تقوم عليه العدالة في نفس اسماعيل العظيم ، فوطن عرمة الصادق على إزالة تلك الأضرار ، وأرسل وزيره الأول الطيب الذكر نوبار باشا موفدا من قبله ليفاوض الدول في إنشاء محاكم محتنة تختلف كل الاختلاف في قضائها عن قضاء البلاد بين الوطنيين والأجانب ، وفي قضائها الدين يوكل اليهم تطبيق القوانين المتصلة بالرعية الأجنبية ، وظلت المفاوضات تقطع مراحلها قرابة سنين تبعا لتعدد الدول واختلاف ميولها وتضارب أهوائها في هذا المشروع الخطير حتى ٢٨ يوبيه سنة ١٨٧٥ ، وفي ذلك العام أنشئت المحاكم المختلطة ، وافتتحت رسميا وإن لم تباشر مهامها القضائية إلا في شهر فبراير سنة ١٨٧٦ ، ثم وضعت لها قوانين خاصة مقبسة في أكثر نصوصها ومبادئها من القوانين الفرنسية .

أما المحاكم الأهلية والمحاكم الشرعية ، وكيف تطورت أنظمتها حتى بدت غاية في الصلاحية على الوجه الأكمل ، فوعد الحديث عنها أعداد تالية .

عبداس ط
الحاجي الشرعي

تأين للرحوم الشيخ عبد ربه مفتاح :

في اليوم السابع من شهر صفر سنة ١٣٥٧ توفى الله الأستاذ العالم الغيور الشيخ عبد ربه مفتاح رئيس جماعة الوعظ والارشاد التاميين للارهر ، فأسى لموته كل من عرف حلاله الكريمة ، وشيمه الزكية ، وغيرته المتهمة على الاخلاق والآداب الاسلامية .

شيعت جنازته بحف بها أقطاب العلم ، وأعلام الدين ، من داره الى الجامع الأزهر حيث صلى عليه ، ثم حل الى الجبانة حيث ووري جثائه التراب ، وصعدت روحه الى مارثها طاهرة نقية ، فرحمه الله رحمة واسعة ، وتولى آله ودويه بفضل وكرمه .

وفي اليوم السادس من شهر ربيع الثاني ، احتفل حصرات أمحباب الفضيحة وحال الوعظ والارشاد بتأينه بنادي الشبان المسلمين ، فكان في مقدمة المحتفلين حضرة صاحب الفضيحة الأستاذ الكبير وكيل الجامع الأزهر وحصرات أمحباب الفضيحة شيوخ الكليات ووكلائهم ومائة كبيرة من أعلام العلماء ونجباء الطلاب . فافتتح الحفلة حضرة صاحب الفضيحة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان بكلمة بليغة ، ثم تلاه فضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن ، ثم تلاه فضيلة الأستاذ الشيخ علي جعفر فأنشد قصيدة عامرة الآيات ، ثم عقبه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عثمان فألقى كلمة قيعة . ثم وليه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكي معاه بكلمة متممة ، ثم نهض بعده فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولي فارتحل كلمة مؤثرة ، ثم قام بعده فضيلة الشيخ عبد الجواد رمضان فأنشد قصيدة عصماء ، ثم ألقى على أثره الأستاذ البليغ محمد افندي الهياوي قصيدة ثرية في المعاني ، ثم وقف حضرة الأستاذ حسن افندي لبنا فأسمع الحاضرين كلمة بليغة ، ثم احتتم التأين فضيلة الأستاذ الشيخ محمد التواب بقصيدة حكيمة ، ثم تفضل الأستاذ أحمد والي الجندي فشكر الحاضرين بالنيابة عن الحاضرين . وعندما انتهى شرع الأستاذ الشيخ عبد العزيز الدريبي في تلاوة آيات من الكتاب الكريم . ولما انما انصرفت الجماهير طهجة بالدعاء لراحل الكريم ، واستتزال الرحمة عليه .

وبجدة الأزهر تتقدم بالتمزية لحضرات العلماء الاحلاء أساتذة العقيد وتلامذته ، ونحمن من بينهم حصرات أمحباب الفضيحة الوعاظ الافاضل الذين آسوا من شمائله وفضائله ما أترع قلوبهم أسى على فقده ، ونافض أدمهم أسفا على بعده .

مطبوعات جديدة :

علم المنطق :

لا أظن أن علم المنطق أسس قياده ، وذلك عقباته الى الحيد الذي أوصله إليه فضيلة الأستاذ المفضل الشيخ محمد حسين النجار المدرس بمعهد أسيوط . فلقد وفق من تأليفه الى وضع لم يسبقه إليه مؤلف ، ضارح به متأخرى الغربيين في تقديم الامثلة والتوسع في ضروبها ، وفي

تأخير القواعد ، والا كثار من الجداول والتقسيم ، بحيث تكاد كل صحيفة تنطق بما فيها ، فننتهي على همة المؤلف المفضل ، ونطمح كل محب لتعلم المنطق أن يلجأ الى هذا الكتاب ، وهو يقع في جزأين مجموع صفحتيهما لا يتجاوز تسعين صفحة .

علم الاجتماع :

وضع الأستاذ الفاضل مصطفى قومي احدى الحاصل على إجازة التعليم والفلسفة والاجتماع كتابا في علم الاجتماع أتى فيه على نشأة علم الاجتماع ، وتطوره التاريخي ، وحالته في دور انهضة الغربية ، وفي القرن التاسع عشر . وخرج من هذا على الإلمام بالمذهب الانجليزي فيه ، ثم خرج من هذا الى دراسة وفيه لعلم الاجتماع نفسه ومذاهب أعلامه فيه ، ثم خرج من ذلك الى بحث موضوع علم الاجتماع ، ثم الى تركيب المجتمع ، فالمجاميع الاجتماعية ، وهي ما يتألف منها ما يسمى بالفيزيولوجيا الاجتماعية ، ثم اختتم هذه الفصول كلها بالكلام عن علم الاجتماع العام .

هذا الكتاب في نظرنا يعتبر أوفى فذلكا ظهرت بالعربية لعلم الاجتماع ، في عبارة عربية خالية من التعقيد التي ، والتطويل المدل ، فنشكر حضرة المؤلف الأسمى خدمته العلمية راجين له دوام التوفيق .

أيام الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم بدر :

وصح حضرة الفاضل ابراهيم عبد الوهاب افندي بالنسبة رسالة صغيرة ضمنها تاريخ وقعة بدر التي حدثت بين مشركي قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم وانتصر فيها بنحو ثلاثمائة مقاتل على نحو ألف من عبدة الأوثان . فكانت فتحا عظيما في الاسلام تدور من خلاله ضروب من البطولة ، ونماذج من الفناء في العقيدة ، ووجود من إغفال الذات لمصلحة الجماعة . يجب التنويه بها ، والاشادة بذكرها ، وقد أدى حضرة المؤلف من هذه الداحية ما وجب . فله الشكر .

واحة الغريب :

هو ديوان شعر من إنشاء حضرة الشاعر الفاضل عبد السلام رستم احدى ، فيه أنواع شتى من أغراض الشعر ، في كثير منها عبقة من الرقة والاسحاح ، وإن كانت تصدر عن عرافة في التشاؤم كما يدل عليه اسم الديوان ، فلقد تحمست الحياة للشاعر حتى قال :

ألا ليت هذا الدهر يكشف سجنه برجة أيام الطمولة ثانيا
أقيم عليها في هناء وغبطة جهولا فلا أدري الحياة وما هيا
لا يخلو هذا الديوان من طرف رائحة ، وكلم نابغة ، تجعله جديرا بأن يقتنى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأزهرى كما ينبغي أنه يكونه

طلبت جريدة الدستور الى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى أن يكتب كلمة فيما ينبغي أن يكون عليه الأزهرى ، فتمفضل حفظه الله بتلبية طلبها ، فرأينا أن ننقل هذه المقالة عنها إداعة لما تضمنته من النصائح القوال والحكم البوالغ ، فإن هذه الكلمة على إنجازها لم تدع فضيلة من الفضائل التى يجب أن يتحلى رجل العلم بها إلا أنت بها فى بلاغة عالية وعبارات خلاصة ككل ما يصدر من فضيلته ، قال حفظه الله :

طلبت الى جريدة « الدستور » كتابة كلمة فى موضوع « الأزهرى كما ينبغي أن يكون » . وقد أبديت رأيي فى هذا الموضوع مرات فى مناسبات مختلفة ، ومع ذلك فلا أجد مانعاً من الاعداد على سبيل الذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين :

أول ما يجب أن يكون عليه الأزهرى : هو المحافظة على الشعائر الاسلامية محافظة تامة بحيث لا يقصر فى شيء منها ، ولا يمكن غيره من الاحتفاظ عليه بركة ، حتى يكون قدوة لعمله لا بقوله لحسب ، والقدوة العملية تترك فى النفوس أثراً صالحاً ، وتؤثر فيها ما لا تؤثره الأقوال ، والشعائر الدينية فى جللتها من أكبر الوسائل لطمأنينة النفس والتحلى بالأخلاق الفاضلة ، وهى التى توجد الصلة بين العبد وربّه ، وتقوى صلات الأفراد ، وتمسك حال الجماعات . ويصاحب هذا ملازمة الاخلاق النبوية ، والتصرف فى هدى القرآن والسنة ، ومجاهدة النفس ورياضتها على احتمال الأذى والمكروه فى سبيل العمل بالأخلاق الدينية وأداء الشعائر الاسلامية ، حتى تصير الفضيلة شعاراً وملكاً ، وحتى تصدر أعمال الخير عن غير تعلم وروية . ومن لوازم الداعى والمرشد أن يكون شجاعاً صادقاً قوى الإيمان بما يدعو إليه ، يرى فى الأقدام لذة ، وحقا للنفس الخيره يؤديه احتساباً لله ، لا على أنه مكلف به يؤديه للأجر وزيادة الدرجات والمراتب .

ومن حق الداعى أن يكون نصيراً بالوسط الذى يعيش فيه ، حبيراً بأحوال النفوس ، واسع الخيلة فى التنقل من طريق الى طريق ، يقصد الى الهداية المطلوبة من طريقها النافع . وليس يفعل فى النفوس من جلال تسكبه التقوى وملازمة حدود الله ، ومن جمال يلقيه العلم الناضج على صاحبه ، ومن هبة يوجد بها الاعراض عن الدنيا وعدم الحرص عليها ، وقد شاهدنا

فقراء ليس لهم جاه رمي ، ولا عزة عصبية ، يهاهم أمحبات المقامات الرفيعة والأموال المكسوزة ، وينكشون أمام هيبتهم التي نسطها التقوى وزانهم بها العزيز الحكيم .

والحرص على الدنيا يفسد على العالم لذة العلم ، ويقسد عليه الغاية التي يطلبها ، وهي الهداية ، والناس لا شئ زاهدون في العلماء إذا رأوهم مقبلين عليها ممرضين عن الآخرة .

فلنكس الدنيا مطلوبة بالقدر الذي تستحقه ، وفي الدرجة التالية لدراسة العلم ومحصيله واللذة به نفسه ، وباعتباره وسيلة من وسائل الآخرة ، وطريقا لرضى الله ورسوله .

ولقد كانت للآزهرين تقاليد متوارثة محمودة ، وهي عطف الكبير على الصغير ، وتوفير الصغير الكبير ، واحترام الأسلاف ، والصبر على الدرس والتحصيل ، وتفهيم المسائل بطلبها وأسمائها ، وما يتفرع عنها ويتولد منها ، لا يبالون في سبيل ذلك بالوقت والجهد ، ويرونه أكبر لذة للنفس وأكبر متاع للعقل ، ويرويه واسطة الجهد وطريق الشرف والكرامة ، وكان طالب العلم إذا لم يفهم كتابا أعاده ، وإذا لم يفهم مسألة فقتش ضمن يفهمها منه ، وكانت اجتماعاتهم لا تحل من المذاكرة في مسألة من مسائل العلم ، وقد رأينا منهم من كان أهلا للتدريس وللتقدم للامتحان وكان يحجم لأنه يريد الاستزادة وتكميل النفس ، فالعلم نفسه تفوق لفته لذة الحصول على الدرجة ، والدخول في مضمار الحياة . كانوا يجيدون تحضير الدروس قبل إنقائها على التلاميذ بقدر ما يسمح به الجهد ، وكانوا يجيدون تحضير الدروس وفهمها قبل تلقيها عن الشيوخ ، بل كان نوافذ الطلبة لا يذهبون إلى تلتقى الدروس إلا لحل مشكلة عرضت لهم ، أو انتظارا لتحقيق مسألة من مسائلها . . كانوا يضعون هذا مع الطمأنينة واللذة وسعة الصدر ، لا للنجاح في الامتحان ، ولا لطلب الرزق . وكانت التسعة تجمل فقرهم وتزين علمهم ، لا يمكن أن يمر في خاطر أحدهم أن الفقر نقيصة ، وأن الاسراف في البحث مضيعة للوقت .

ولا نكر مع هذا أن ملازمة بعض المؤلفات المختصرة ، وترك المناهل العذبة من كتب الأسلاف ، وعدم التوسع في الاطلاع على تراث الأقدمين ، ضيق دائرة التفكير ، وأوحد إسرافا في تحليل الألفاظ وإبداء ما تحتمله من الوجوه ، وأوحد انحرافا عن الحادة القويمة في طلب العلم وبحث مسائله وتحقيقها ، وبمدا عن أساليب اللغة العربية الصحيحة ، وإهراضا عن مسارية الناس في الحياة وإدراك ما تتطلبه الحياة ، بل وشغلهم عن القرآن والسنة من ناحية الهداية التي جاء بها القرآن ، إلى نواح أخرى متكلفة . وتلك هي الأدواء التي ألم منها الناس وسعوا لإزالتها .

لكن في الوقت الذي نريد فيه إزالة هذه الأدواء ، لا يصح أن ينسى الأزهرى جوهر تقاليده ، بل يجب عليه أن يحافظ عليها ، وأن يصرفها إلى وجوه الخير ، وما يعود على دينه وأمته وملته بالصالح والفلاح .

وقد اشتد تطلع الناس إلى الأزهر ، واعتند شوقهم إلى رؤية منتجات العقول فيه ،

يريدون منه كتباً قيمة سهلة التناول ، جيدة التحرير ، تهذب فيها المسائل ، وتجذب القارئ إليها ، وإلى بحوث شائعة جذابة تذلل مسائل العلوم وتدنيها إلى مستوى تفكير الجيل ، وتزيل عن الدين الشبه الذى يلقى ظلها التعليم المدنى الحديث وفروعه .

واشتد شوق الناس إلى مشاركة أهل الأزهر فى الحياة العامة لإصلاحها وتهذيب نظمها وردّها إلى الحياة الدينية البريئة النافعة ، وإلى الدعوة الحقّة إلى الدين ، وتقويم المورج من الأخلاق ، ومقاومة تيار الإلحاد والمادة .

يتطلع الناس إلى الأزهر فى هذا ، فى مصر ، وفى غيرها من البلاد الإسلامية ، ولا أنكر أن فى بعض المطالب إسرافاً وشيئاً من عدم الانصاف ، لكن هذه هى آمال الناس ، يجب أن تحترم بقدر الاستطاعة ، وأن يعمل الأزهر على تحقيقها كلها ، أو تحقيق ما يمكن تحقيقه منها . وفى البلاد الإسلامية حركة ترمى إلى أن يسيطر التشريع الإسلامى على الحياة فى جميع فروعها ، فإذا أعد لهذا قبل الشروع فى تنفيذه ؟

هل فكر الناس فى درس الحياة ، وفى درس القوانين التى تسطّ ظلها على البلاد والحكومات ، وفى درس طرق التعامل الجديدة ، التى أصححت من مقومات الحياة ، ومن مقتضيات العصر وظروفه ؟

وهل فكر الناس فى آمال الجيل الحاضر ومطالبه ؟ وهل أعدوا العدة لذلك ؟

وهل وازنوا بين القديم والجديد ، ورأوا أن ما كان منبعاً من العظم من قبل يكفى اتباعه الآن لاستقرار الحياة ؟

لا أريد أن أقول رأياً فى هذا بالنسبة أو الإثبات ، ولكنى أريد أن ألفت نظر أهل العلم إلى هذا ، وإلى ما يتطلبه منهم من التنبّهات ، وإلى ما تتطلبه تلك التنبّهات من الإعداد العالى القوى ، والبحث والدرس

وفى الحق أن الحياة تسير بحملى مسرعة على النمط الذى وجد فى تقريب المسافات من سفن بخارية وكهربائية ، وطائرات تقطع أحواز الفضاء ، ومحاطبات تجرى فى سرعة البرق . والحياة العلمية فى البلاد الرافية تجري على هذا الهيج ، لكن الحياة تسير عندنا سير الجمل فى البادية . ونحن نقراً كتباً لافهارس لموضوعاتها ، وبصينا الإعياء أحياناً قبل أن نصل إلى معرفة المراجع الوافية فى مسألة من المسائل ، وكذلك الكتب تحوى أحسن الأفكار لكنها غير حسنة الوضع والتنويب تختلط فيها مسائل باب بمسائل باب آخر . هذا إلى أن لم يوجد جديداً نافعا فى علم من العلوم حتى الآن .

تلك حطرات مريمة تحتاج إلى تفصيل ، وعسى أن يوجد من يفصلها ، والله المستعان .

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها

في النفس البشرية

— ١٤ —

مقومات التطور الأدبي والاجتماعي في الاسلام

إن تطور الجماعات في الناحيتين الأدبية والاجتماعية من الأمور التي يجب أن تُعنى بها الشرائع لأنها من أسس الأمور بحياة الأمم . فالجماعات التي تعيش على حالة من الأحوال ولا تصادف من الشريعة التي تقود ميولها ، وتدير قواها المعنوية ما يسهل لها سبيل التطور في الآداب والعادات والعلوم والصنائع ، تقف حيث هي ، وتسبقها من كان دونها من الجماعات ، وتدخلها في طاعتها .

وقد دل التاريخ على أن شرائع حنت على أهلها من هذه الناحية جنابات تعتبر غاية في القناعة ، فقد أجمع المؤرخون على أن المسيطرين على أوروبا بعد القرن الرابع من الميلاد أمسكوا أهلها في حالة جهود أكثر من ألف سنة ، فلم ينبغ منهم عالم واحد في علم من العلوم ، وانحط ما كان لديهم من آثار اليونانيين والرومانيين من المعارف والفنون ، حتى بعث الله المسلمين فاستخرجوا تلك السكنوز المدفونة من قبورها ، وأرسلوها نورا ساطعا صهروا به الناس ، وبما زادوا عليه من نورم قرونا كثيرة ، حتى استحقوا أن يلقبوا ببنات المدنية الحديثة .

وما أتيت الأديان ، ودب إليها الصمغ ، إلا من ناحية إغفال قاداتها هذه الناحية في تعاليمهم ، ناحية التطور في كل مجال من مجالات النشاط العلمي والعمل .

والذي حدا أولئك القادة إلى سبب طريق التطور في وجوه أتباعهم ، أنهم تخيلوا أن التطور يخرجهم من الأصول القديمة ، وينفض إلى ضياع ما اتتمنوا على حفظه سليما من كل تحول ، وغفلوا عن أن التطور إذا عدا على شيء فاعما يصدو على الباطل ، أما الحق فيريده جلاء ولألاء . فإذا كان الذي يتمسكون به حقا فلا خوف عليه من أي تطور كان ، وإن قلب الأوضاع كلها رأسا على عقب ، وإن كان باطلا قمينا يحافظون عليه ، فانهم إن استطاعوا دفع التغيير عنه جيلا أو جيلين اضطروا في النهاية للقهر في إزاء القوى الغالبة للانتقال ، وانهارت بانهدام صروح ربما كان بقاء بعضها ضروريا .

أما شريعة الاسلام من هذه الناحية فلا أقول إنها قد احتاطت لها حسب ، ولكني أقول إنها قد فرضت التطور على أهلها فرسا ، ودفعتهم إليه دفعا ، لأنها شريعة عهد الرشد للأمم ، وقد علم الله أن الأمم في هذا المهد تطفر في الترقى طفرا ، وتقطع المراحل إليه قفزا ، فهي بحاجة

الى شريعة لا تناسب حالتها الراهنة حسب بل تهيب لها وسائل التقدم ، وتعبد لها طرقه ، وتعدها فيه بقوة معسوة فوق قواها الطبيعية ، لتحفظ وجودها بين أم لا تكاد تغرب عن واحدة منها الشمس حتى تدوى الجواء باكتشاف جديد تحدته يؤثر في الأحوال العامة تأثيرا صميقا يجب المبالاة بقتائجه ، وماذا تغني المبالاة المجردة إذا لم تقترن بالعمل ، وأنى يكون عمل إذا لم يكن علم عال ومحاولات تبليغ النهايات المعروفة ؟

قلنا : إن الاسلام قد فرض التطور على أهله فرصا ودعمهم إليه دفعا ، وإلا فكيف تمعر انتقل المسلمين بعد أخذهم بهذا الدين من عداد الأمم الجاهلية المسودة ، الى مصاف الأمم العالمة السائدة ، أستغفر الله بل الى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم ؟ وقد اعترفت الأمم كافة لها بالزمامة فرونا طوية كانت فيه تؤم عواصمها تأخذ عنها فيها العلم والحكمة ، وأسرار الصنائع والفنون ، أليس هذا لأن الاسلام يفرض على متبعيه التطور فرضا ، ولا يكتفى بأن يسمح لها به مماها ؟

إن قول الله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقوله : « وقل رب زدني علما » وقوله : « هل ينسوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، وقوله : « حذا الحكمة ولو من مشرك » ، كل هذه الآيات والأحاديث فرضت على المسلمين العلم ، ودفعت بهم الى مضايقه دفعا ، والعلم يؤدي الى الترقى لاحالة ، بل هو طريقه الوحيد في كل أدوار البشر .

هل اكتفى الاسلام بهذا اللون في تحبيب العلم الى الناس ، وإجبارهم على التعمول عليه ؟ لا ، ولكنه لم يدع لوما من ألوان التأثير في العقول ، ولا باعثا من بواعث التوثب في النفوس إلا استخدمه في هذه السبيل ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كن عالما أو متعلما ولا تكن الثالثة فتهلك » وقال : « لموت عالم واحد أشد عند الله من موت قبيلة » وقال : « فقيه واحد خير من ألف طابد » وقال : « يوزن مداد العلماء بمداء الشهداء فيرحه » .

هذا كله وأمثاله مما يكاد لا يحصى يفسر ما حدث من الانقلاب العظيم في جماعة العرب ، وإلا من ذا الذي كان يتخيل أن أولئك الجاهلين ، بعد فترة من الزمان لا تعتبر في حياة الأمم شيئا يذكر ، يصحون وفي أيديهم قيس العلم يمشو الى نوره العالم أجمع ، يأخذون عنهم ما جعلهم الله أمناء عليه دون خلقه ، فكانوا الحافظين ليراث الانسانية من ناحية ، والواسطة في إحيائه ، وتسهيل الانتفاع به ، من ناحية أخرى ؟

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الاسلام قد أوجب على متبعيه الاندفاع في التطور إيجابا ، ولم يكتف أن يبيحه لهم إباحة ؟

هل وضع الاسلام حدا للتطور ؟

لا ، إن الدين الذى يقول لمُتبعيه « وخلق ما لا تعلمون » يفتح أمامهم باحة اللاهية فلا يدع فى أنفسهم حاحة الى السؤال عن الحدود والغايات . لذلك رأيت المسلمين الأولين بعد وفاة نبيهم يست سئير اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة . ولا عجب فإن الدين الذى يصرح بأن عقل آيات الله وإدراك أسرارها من حفظ أهل العلم دون سواهم وحدهم فيقول « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » يجب أن يوصف بأنه دين العلم غير منازع .

هل وضع الاسلام لشهوات العقول حدا ؟ وهل أوصد فى وجهه مستفيد محالا ؟

الهم لا ، ولكنه أباح لها أن تجول فى كل مجال ، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية .

وقد ندب الاسلام المسلمين الى تعلم اللغات الأجنبية ، وحضهم على تعلم كل علم حتى العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظاهمية ، إن لم يكن للاستفاد منها فلتقاء الصرر الذى يجيىء من قبلها ، كالعلوم الطلسمية والسيما وأسرار الحروف وغيرها .

ومن من الناس يحظر سالة أن الاسلام يسمح بتعلم السحر ، وهو من أخص العلوم الظلمانية ، وقد أعدم مئات الألوف من المتهمين به فى الأمم ، وألقوا فى النار أحياء ، ولا تزال بعض القوانين الأوروبية تعاقب من يشتغل بالاتصال بالعالم الخفى ولو من ناحية التحارب العلفية .

لم يحرم الاسلام من هذه العلوم الظلمانية إلا العمل بها ، حتى قال المسلمون فى حكمهم : « تعلم السحر ولا تعمل به » .

هذا تسامح عظيم ، بل مراعاة حققة للطبيعة البشرية ، فإن الانسان مدفوع بطبعه لأن يروى كل مجهول ، ويتحسس من كل محجوب ، ويرمى بنفسه الى كل مرمى ولو كان وراءه حتفه . فالدين الفطرى المباشى لطبائع النفوس لا يسمح أن يوصد على العقول باحة ، ولا أن يضع لمرماها حدا . ولو كان فعل ذلك لكسر الناس كل حاجز وصعه ، وجازوا كل حد رسمه ، ولأصبح دينا خياليا يعرف ولا يعمل به ، والله لا يريد إلا أن يكون الاسلام دين للمالين العمى .

ومما هو حدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالشغل بجميع هذه العلوم الباطنية ، ولكنهم ألقوا فيها كتماناً لا تزال موجودة الى اليوم ، منها المطبوع ومنها المخطوط ، وكثير منها محفوظ بدار الكتب الملكية ، وفى مكنتات الأفراد فى جميع البلاد الاسلامية .

ومن أغرب ما زويه أن المسلمين اشتغلوا كثيرا بكيمياء الذهب ووصلوا منها الى نتائج عملية ، فقد صرح بعضهم بأنه قد أنجح فيما تصدى له منها ، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا

تفعل قبل سنين معدودة ، إذ أعلن علماء من الكيماويين في أوروبا بأنهم قد توصلوا الى عمل الذهب ولكن ينتمهم من عمل مقادير كبيرة منه أنه يشكف قدر ما يصنع منه .

وثبت أيضا ، كما قرره الأستاذ (دريبر) وغيره ، أن العرب بحثوا في مذهب التطور والاستعالة ودرسوه في بعض دورهم العلمية بأوسع مما يفعله الأوروبيون اليوم ، إذ أنهم سَمَّروا عوامل التطور العام على المحدثات أيضا ، فكأنهم صنعوا بتلك العوامل الى أعلى مصادرها ، ولم يقصروا النظر فيها الى طور متوسط منها .

وقال بعض المؤرخين : إنه قد ثبت أن العرب وصلوا في رحلاتهم الجغرافية الى شواطئ أمريكا ، وإن كريستوف الذي اعتبر مكتشفها قد عثر هناك على أشياء مادية تدل على وصول العرب اليها قبله .

وقد شهد كبار المؤرخين الاجتماعيين أن العرب قد وصلوا من بعض الفنون والصنائع الى شأو لم يبلغه الأوروبيون بعد . قال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) في كتابه (تمدن العرب) :

« العرب مع ولوعهم بالابحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع والفنون ، فقد أكتبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جدا . وإنما وإن كنا لم نزل مجهل أكثر الطرائق التي سلكوها لذلك ، فأننا نعرف نتائجها وآثارها ، فنعرف مثلا أنهم احتفروا المساحم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والوثيق والحديد والذهب ، وأهم برعوا جدا في الصباغة ، ومهروا في سقي الفولاذ مهارة سيده المدي ، وأنهم في كثير من فنون الصنائع ، قد برعوا براعة لم يدع لهم شأو فيها للآن (تأمل) » .

نقول : إذا كانت أوروبا على ما وصلت اليه من الابداع الفني والصناعي تشهد على لسان كابر من العلم والفنون فيها بأن المسلمين وصلوا من السكال العملي في كثير من الصنائع الى أبعد مما وصلت هي اليه ، فإن ذلك لا يمكن أن يكون ثمرة تعاليم دينية حاملة ، وأزيد فأقول : ولا تعاليم حانة عليه من الطراز المعروف ، ولكنها تعاليم من نوع أرفع ، يسندها من جميع نواحيها بواعث محضض للتكامل ، وبلوغ غايات السمو في كل ضروب النشاط الروحي والعقلي ، قد مزجت مزجا مقبسا على القاطليات البشرية في كل دور من أدوارها . من لم يفترض هذا الافتراض ، مستهديا بعض التفصيلات العملية ، فلا يستطيع أن يفهم كيف يؤدي هذا الدين جماعة يؤلفها على غير نظام الجماعات ، طفرة بدون تدرج ، ثم يقذف بها في قابوس الحياة المنتظم الأمواج ، الى ساحل للسو الروحي والمادى لم تصل اليه أمة قبلها .

والذي علينا بعد هذا الافتراض أن ندرس الاسلام دراسة تحليلية لتصل من مجموع تعاليمه الى كنه هذه العوامل القعدة ، المنبئة في صميم تركيبه .

به قد قيل : لو كان الاسلام كما تدعى لكان حال الشعوب الآخذة به غير ما هي عليه اليوم ،
وأنا قد قلت . لو لم يكن هو كما ادعيت لما أمكن تعليل قيام جماعته الأولى على النحو الذي كانت
عليه في مدى من الزمان لا يكفى عشرة أضعافه لاحداث بعض التطورات التي دخلت فيها ،
حتى انتهت الى ما انتهت اليه . فان اعتبر حصوم الاسلام ما قالوه شبهة سلبية ، فانا قد قلنا لها
كما ترى بحقيقة إيجابية ، وأفنا على حقيقتها كل دليل ؟

محمد فريد وجدي

من نهايات الوفاء

لما قتل أبو امرئ القيس بن حجر قصد الى القسطنطينية يستنجد بأمبراطور الرومان
على قتله أبيه ، وكان معه أدرع ثميّة ، فرأى أن يودعها السمومول بن عازيا ، فر ملك غسان بمحصن
السمومول وطلب اليه أدرع امرئ القيس ، فامتنع ، وكان له ولد خارج الحصن ، فهدده بقتله
إن لم يقبل ، فأجاب السمومول بأن تكله ولده خير له من عدم الوفاء بهده . فقبض الملك على
ولده وقتله ، فخلد الأعشى هذه الحادثة في شعره فقال :

كن كالسمومول إذ طاف الهمام به	في جحفل كسواد الليل جرار
بالألق الفرد من تياء منزله	حصن حصين وجار غير غدار
فسامه خطتي خسف فقال له	قل ما بدا لك إني مانع جاري
فقال تكل وغدر أنت بينهما	فاختر وما فيهما خط فختار
فشك غير طويل ثم قال له	أقتل أسيرك إني مانع جاري
فقال تقمده إذ رام يقتله	أشرف سمومول فانظر في الدم الجاري
أأقتل ابنك صبرا أو نجى بها	طوعا فأبكر هذا أي أسكار
فشك أوداجه والصدر في مضض	عليه منطويا كالذئع بالنار
واختار أذراعه من أن يسب بها	ولم يكن عهدده فيها يختار
وقال لا أشترى طارا بمكرمة	فاختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديما شيمة خلق	وزنده في الوفاء الثاقب الواري

لو صحت هذه الرواية لكانت من غرائب النفسية الانسانية .

السبعة

تعدد قراءات القرآن وما يتعلق بها

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرأتني جبريل على حرف فراجعتني فلم أزل أستريه ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » . رواه البخاري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) معنى الأحرف السبعة التي تلقى بها النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم ، وهل هي غير القراءات السبع المشهورة ، أو غيرها ؟ (٢) هل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم كتبت في زمن النبي أو كانت محفوظة فقط ؟ وهل وحد شيء من هذه الأحرف في مصحف عثمان ، أولا ؟ (٣) ما السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ؟ (٤) ما حكم قراءة القرآن أو كتابته على عكس الترتيب الموجود في المصحف ؟

(١) أما الجواب عن الأول : فهو أن المراد بالأحرف السبعة المذكورة في هذا الحديث غير القراءات السبع قطعا ، حتى قال بعض أئمة القراء : من ظن أن الأحرف السبعة المذكورة في الحديث هي القراءات السبع فهو غبي جاهل ، ولهذا أسكر ابن عمار على من وقف بالقراءات عند هذا العدد ، وقال : إنه فعل ما لا ينبغي ، لأنه بذلك قد أشكل الأمر على الناس ، وأوهم غير العلماء أن هذه القراءات هي المرادة بهذا الحديث ، ولو نقص عن السبع أو زاد لكان صوابا .

ومن هذا يتضح أن القراءات السبع غير الأحرف السبعة الواردة في الحديث المذكور بلا نزاع . أما المعنى المراد من الأحرف السبعة الواردة في هذا الحديث فقد اختلف في بيانه العلماء على أقوال كثيرة ، أصوبها وأدقها ما نقله العلامة انصاري في حواشيه على المواقيف عن الإمام ابن قتيبة الهمداني ، ونقله أيضا الحافظ ابن حجر في شرح البخاري . وحاصل ذلك أن من تتبع اختلاف لهجات العرب في القراءة سواء كانت مشهورة أو شاذة موافقة للقراءات السبع أولا ، فإنه يجده منحصر في هذه الأوجه السبعة

وبيانه أن اختلاف عبارتهم في القراءة إما أن يكون بزيادة كلمة أو بنقص كلمة ، وعلى كل

ثانيتها : أن يكون بسبب الاعراب ، كقوله تعالى : « إِن تَرَوْا ثِقْلًا أَنْ قُلْتُمْ » ، وفي رواية « أَنَا أَقْلُ » بالضم ، وقوله تعالى : « وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » ، وفي قراءة « وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » بفتح الزاء وضما .

فتمحصل أن التغير إما أن يكون راجعا الى زيادة كلمة أو نقص كلمة ، وإما أن يكون راجعا الى نفس الكلمة في الشكل ، أو في إيادها بمرادفها ، أو إبدال فعل ماض بمضارع ، وإما أن يكون راجعا الى وصف الكلمة من تقديم وتأخير وإعراب .

وسبب نزول القرآن على هذه الأوجه السبعة : أن العربي مجبول على لفته ، فلو كلف بالقراءة على وجه واحد فانه يصر عليه التحول ، وقد جاء الذي صلى الله عليه وسلم اللسان بشريعة سمحة ليس فيها على الناس من حرج ، قال تعالى : « وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ، فلو نزل القرآن على حرف واحد لصر على باقي القبائل التحول عن لغتهم الى القراءة به . وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على هذه الأوجه ، بل المراد أن بعض القرآن نزل بلغة قريش وهو معظمه ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن الخ . فمن مماتحة الدين أن يصر الله حفظ القرآن وتلاوته على العرب في أول أمرهم ، فأثرت على الأوجه التي ينطقون بها ، ولم يكلفهم التحول عن لغتهم لما يعلم في طبائعهم من الحمية والتعصب للغاتهم . فلو كلفهم من أول الأمر النطق بلغة غير لغتهم لغفروا من تلاوة القرآن وشق عليهم حفظه ، وذلك كان شأن التشريع الاسلامي في جميع أطواره ، فانه متى على مصالح الناس الصحيحة التي يترتب عليها سمادتهم في الدنيا والآخرة ، ودفع المضار التي تؤذيهم أديبا وماديا .

ومما ينبغي الالتفات اليه في هذا المقام أن القرآن الكريم قد أنزله الله تعالى على هذه الأوجه التي ينطق بها العرب يومئذ بدون أن يتغير شيء من معناه الحكيم ، أو ينقص شيء من بلاغته وفصاحته التي تحدى بها جميع معارضيه من غول البلاغة وأساطين البيان ، بل كان اختلافه في التعبير آية أخرى من آيات إعجازه ، إذ لو نزل على وجه واحد ولغة واحدة لسهل على الآخرين أن يحتجوا على محرم عن ممارسته بنزوله على غير لغتهم ، فقطع الله على جميع العرب هذه الحجة الممتدة من أول الأمر . وأما ما روى عن عمر من أنه أنكر على ابن مسعود قراءته « حتى » : « عني » بلغة هذيل وقال له : إن القرآن نزل بلغة قريش ، فقد أجابوا عنه بأن عمر قد راعى في ذلك نزوله في أول الأمر قبل أن يطلب النبي صلى الله عليه وسلم من ربه التخفيف عن الناس .

ثما أنا فاني أفهم في ذلك أن عمر طلب من ابن مسعود أن يقرأ بلغة قريش ، لأن معظم القرآن قد نزل بلغة قريش ، وقد طال عهد الناس يومئذ بالاسلام ، فمن الحسن أن يهدى عمر لجمهور

على قراءة القرآن بلغة واحدة ، ويعرّضهم على ذلك ، دفعا لما عساه أن يحدث من الاختلاف في كتاب الله تعالى . وأما قوله : فانه نزل باللغة قريش ، فانه يريد أن معظمه نزل بلغتهم . والحديث الذي مما يدل على ذلك دلالة واضحة ، فان القرآن نزل أولا على وجه واحد ، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم من ربه أن يزداد على ذلك الوجه ، ولم يزل يزداد له حتى انتهى الى هذه السبعة . وفي رواية مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : إن أمي لا تطيق ذلك . ومعنى هذا أنه لو نزل باللغة قريش خاصة لانصرف الآخرون عن تلاوته والنظر فيه ، وهم حديثو عهد بالإسلام ، لم تذهب من صدورهم زعة الجاهلية الأولى ، ولم يفارقهم النعصب الشديد لآلقتهم ، فعفا الله عنهم واستجاب لنبيه دعاءه في شأنهم ، وأنزل عليه القرآن على حسب لغاتهم ولغات قبائلهم المشهورة . وليس الغرض أن كل كلمة قد اجتمعت فيها اللغات السبع ، بل اللغات السبع مفرقة فيه كما ستمرّفه . على أن معظمه نزل باللغة قريش كما ذكرنا آتفا . ولا يرد أن لغات العرب أكثر من سبعة ، لأن المراد أشهرها وأقصاها .

أما علاقة هذه الأحرف السبعة بالقراءات السبع المعروفة ، فهي أن القراءات السبع وغيرها بعض هذه الأحرف المذكورة في الحديث ، بمعنى أن ما نقله ثمة القراء متواترا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بعض الأحرف التي نزل بها القرآن ، لما بيناه من أن الأحرف السبعة المذكورة في الحديث تشمل لغة معظم القبائل العربية ، والقراءات السبع المتواترة وغيرها لا تخرج عن لغات العرب المصيبة حتما ، ولذا كان من المتعذر نقل مفردات الأحرف السبعة المذكورة في الحديث كلها بطريق التواتر .

على أن نهاية المسلمين الشديدة بكتاب الله تعالى ، وحرصهم على تدوين كل ما يتعلق به ، جعل بعض جهابذة العلماء على جمع الروايات المختلفة ، سواء كانت متواترة أو غير متواترة ، في كتاب ضخم .

وبما لا يخفى فيه أن التواتر لم يقف عند القراءات السبع المعروفة ، بل قد تواتر غيرها أيضا . وقد وضع بعض المحققين ضابطا لقراءات المقبولة ، سواء كانت من السبع أو من غيرها وهو : « كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق لفظه خط المصحف الإمام ، فهو من القراءات المقبولة ، سواء كانت سبعة أو سبعين أو أكثر من ذلك » .

والحاصل . أن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، وهي مختلفة في كثير من نواحي التكلم ، فاقترضت حكمة العليم الخبير أن يتزل القرآن على نبيه مشتملا على كل لغات العرب المشهورة ، كي لا تقوم لهم حجة على عجزهم عن محاكاته والإتيان بمثله ، وكان الملهوق يومئذ قد غلبت عليهم الأمية ، فكانوا يحرسون على حفظ كل ما ينقلونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقل إلينا ما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترا على الصبغ المتواتر من القراءات .

(٢) أما الجواب عن الثاني وهو - هل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم كتبت في زمن النبي الخ ، فهو أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب الوقائع والأحوال ، فلم يكن نزوله مرتباً على الحالة التي هو عليها الآن . ومن البديهي أن ترتيبه على هذه الحالة بأمر الله عز وجل كما استعرفه ، فكانت تنزل الآية أو الآيات فيأمر النبي كتابة الوحي الذين كانوا يعرفون الكتابة يومئذ ، فيكتبون ما يوحى إليه بنصه وشكله ، ويبلغه للناس ، فيحفظه القراء المشهورون بالحفظ كما أزل بحسب لغاتهم المختلفة ، وهكذا ، حتى تم نزوله وترتيبه ، فعرض النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كما هو على جبريل ، وبلغه للحفاظ مرتباً بحفظه على حالته التي تواتر بها إلينا .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يباشر تحفيظ كبار الصحابة بنفسه زيادة على تعليم كتابة الوحي الذين كانوا على جانب عظيم من الذكاء والفظنة والأمانة . ومن الذين علمهم الرسول مباشرة عبد الله بن مسعود ، فقد روى عنه البخاري أنه قال : « والله لقد أحدثت من في رسول الله بضعا وسبعين سورة » . وفي رواية لابن أبي داود أن ابن مسعود قال : « أخذت من في رسول الله سبعين سورة » ، وإن زيد بن ثابت لصبي من الصبيان . فهذا صريح في أن ابن مسعود تلقى القرآن سورة سورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عبد الله بن عمر : كانت تنزل السورة فنحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونتعلم حلالها وحرامها الخ . فهذا صريح في أنهم كانوا يحفظونه سووا كاملة مرتبة على هذه الحالة التي تواترت إلينا .

ومما هو واضح أن العرب يومئذ كانت لهم مقدرة شديدة على الحفظ ، حتى كان بعضهم يحفظ كل ما يسمعه من أول مرة . وقد سمع ابن عباس قصيدة عمر بن أبي ربيعة وهي تبلغ سبعين بيتاً تقريباً مرة واحدة حفظها حفظاً جيداً وقرأها طرداً وعكساً . فلم يمتهم الحفظ متفرقة عن الحفظ جملة واحدة كما قد يتوهم .

وبالجملة : إن الحفاظ الذين كانوا يتلقون القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا على جانب عظيم من الضبط والذكاء والفظنة ، ومنهم أبو بكر وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وسالم ومعاد وأبي بن كعب وغيرهم من خول الأدياء وأساطين الحفاظ ، فهؤلاء هم الذين حفظوا القرآن مرتباً على ما هو عليه بمد أن تم نزوله ، ونقله عنهم غيرهم من القائل ، بحيث نقلت كل قبيلة ما يوافق لغتها التي نزل بها .

ومن هنا نعلم أنه لم تكن هناك حاجة إلى كتابة القرآن مرتباً ، لأن الحفظ كان كافياً ، ولكنه كتب متفرقاً كلمة كلمة ، وكانت الكتابة يومئذ على الجلد والأحجار المساءل ومحو ذلك ، فلما توفي الرسول صلوات الله عليه قتل كثير من القراء ، فتنبه عمر لذلك وقال لأبي بكر : أحشى أن يذهب القرآن بموت القراء فنصوب أن نجمع الآيات المتفرقة التي كتبت

في عهد الرسول مرتبة طبقا للمحفوظ لنا ، فوافق أبو بكر بعد تردد لأنه كان يحب الوقوف عند الحد الذي تركهم عليه الرسول ، فجمعت آيات القرآن المنفرقة ورتبت وفقا للمحفوظ بدون تغيير في الرسم الذي كانت عليه ، لأنها كانت مشتملة على كثير من لغات العرب التي نزل بها القرآن ، فكل ما فعله أبو بكر رضي الله عنه أنه جعل كل آية بجوار صاحبها حتى كتلت كل سورة على حدة ، ولكنه لم يرتب السور ، ولم يحدف شيئا من اللغات المدونة فيه .

ولما شاع القرآن بين العرب وانتشر الاسلام في الأمصار والأصقاع ، وقرأت كل قبيلة بلغتها ، دب الخلاف بين الناس ، وأخذ بعضهم يكفر صاحبه ويقول له : أنت تقرأ القرآن على غير ما أنزل ، لأن كل واحد كان يحفل ما نزل به القرآن من لغة الآخر . فاستشار عثمان كبار الصحابة في أن يجمع الناس على قراءة واحدة كي لا تحدث بين المسلمين فرقة ، فوافقوه على رأيه . فجمع القراء المشهورين ، ومنهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله ابن عباس وغيرهم ، فكشوا له المصحف بلغة قريش ، لأن معظم القرآن نزل بها ، وأقرم على فعلهم سائر الصحابة يومئذ ، فبعت به الى الجهات المنفرقة ، وأمر بحرق ما عداه .

فعمل عثمان رضي الله عنه كان مشتملا على أمرين لم يعملهما أبو بكر :

أحدهما : أنه جعل الكتابة مقصورة على لغة واحدة بعد أن كانت بلغات متعددة .

ثانيهما : أنه رتب سور القرآن لجعل كل سورة عقب الأخرى على حسب الترتيب الذي تلقاه الحفاز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العالمين .

وقد أحسن عثمان رضي الله عنه ومن وافقه من أئمة الدين بذلك العمل الجليل كل الاحسان ، فقد سد على المفسدين والمنافقين الذين في قلوبهم مرض باب الاختلاق على كتاب الله المين ، وحسم مادة التفرقة في أصل الدين ومنبعه المعين . وما كان ذلك إلا بتوفيق الله العلي الكبير الذي قال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . فقد صدق وعده الذي وعده به ، فألهم عثمان وباقي أصحاب رسول الله الأعلام وسيلة حفظه ، ولولا ذلك لكان اختلاف لهجات العرب اسكثيرة المتشعبة من أكر العوامل التي أتاحت لأعداء الدين أسعد الفرص لتحريف ذلك الكتاب الكريم وتبديل عباراته كما بدل غيره من الكتب . فالحمد لله الذي ألهم عثمان ومن وافقه من المسلمين وسائل حفظ كتاب الله والعناية بكل ما يتعلق به .

فهذا هو جواب السؤال الثاني . وحاصله أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش ، وهو معظمه ، وما نزل بهذه اللغة كتب بها ، وبعضه نزل بلغة هوازن ، وما نزل بهذه اللغة كتب بها أيضا ، وبعضه نزل بلغة هذيل ، وبعضه نزل بلغة اليمن فكتب بلغتهما ، وهكذا . ولا يخفى أن القبائل التي نزل بعضها بلغتها يجوز لها أن تقرأ جميعه بهذه اللغة لأن في نزول بعضها بلغتها ترحيبا لها في قراءته جميعه بهذه اللغة فالذي حصل في زمن أبي بكر رضي الله عنه هو أنه جمع الآيات المنفرقة سوفا فجعل كل آية بجوار صاحبها طبقا

للمحفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون زيادة ولا نقص ، جعل كل سورة على حدة ولم يرتبه اكتفاء بترتيبه في صدور الحفاظ ، على أنه لم يفسر شيئا من المكتوب بل أبقاه على حاله ، أما عثمان رضي الله عنه فقد كتب مصحفا بألف قريش خاصة ورتبه طبق المحفوظ .

ومن هذا تعلم أن الأحرف السبعة كان بعض القراءات مكتوبا بها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أنها كانت محفوظة يتداولها الحفاظ في القائل ، وأنها لم يوجد منها شيء في مصحف عثمان ، لأنه كان مقصورا على لغة قريش . وهذا هو المذهب الذي لا ينبغي أن يلتفت إلى غيره .

٣ - وأما السؤال الثالث ، وهو : ما السبب في اختلاف القراءات السبع بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ؟ فقد أجاب عنه بعضهم بأن القرآن قد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بنذات العرب على الوجه الذي تقدم ونقله القراء من الصحابة إلى الجهات المختلفة على هذه الحالة ، فتواتر نقله بلغات متعددة ، فلما كتب المصحف العثماني وقعت به إلى تلك الجهات التي كان بها بعض القراء من الصحابة ، حملوا بما يمكنهم العمل به من ذلك المصحف ، فكل ما تلقوه متواترا عن الصحابة مما لا تدل عليه كتابة المصحف ، ثبتوا عليه وتركوا ما يخالف المصحف . واليك نص عبارة الحافظ ابن حجر في ذلك : قال ابن أبي هاشم : إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة . وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال : فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه مما عاينوا من الصحابة بشرط موافقة الخط ، وتركوا ما يخالف الخط امتثالاً لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن ، من ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار . إلى آخر ما قال .

والذي أفهمه في ذلك : أن عثمان رضي الله عنه لم يحرم قراءة القرآن باللغات التي تواترت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لما عساه أن يترتب على ذلك من فرقة بين المسلمين ، فكثرت مصحفه ليسكون مرجعا يرجع إليه الناس عند الاختلاف ، فإذا قرأت قبيلة بلسانها المتواترة وأنكرت عليها الأخرى أمكنهم الرجوع إلى الأصل . وظاهر أن غرض عثمان ومن وافقه حفظ أصل القرآن وصون عباراته من التبدل والتحريف ، وذلك يحصل حتما بالإجماع على التحك من ما كتب في مصحفه ، أما غيره من المد والتسهيل والادغام والظهار ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تغيير في نص القرآن فذلك ما لا ضرر فيه ألبتة ، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : « يا عمر : القرآن كله صواب ما لم تحمل رحمة عداها أو عذابا رحمة » . ومعناه أن الذي يضر هو تبديل القرآن وتحريمه ، أما كل ما يوافق اللغة العربية ولا يغير المعنى فإنه لا يضر ، فصحف عثمان منع الفرقة في أصل اللفظ ، وحمل العبارة مصونة

من التحريف ، ورتب القرآن طبقا للمحفوظ ، ولم يمنع القراءات المتواترة التي توافق لغات العرب ولم يترتب عليها فرقة .

وقد ذكرنا لك فيما مضى الضابط لذلك ، وهو « كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق لفظه خط المصحف العثماني فهو من القراءات المقبولة » . فالمصحف ضبط اللفظ الدال على المعنى ورتب المتواتر عن الرسول ، أما غير ذلك مما تواتر نقله فلم يمنعه أحد من الصحابة ، ولم يقل أحد من المسلمين بعدم حوازه ، وذلك لأن الدين الاسلامي مبني دائما على جلب المصالح ودرء المفاسد ، فأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اعتبروا بالكاتب التي تقدمتهم وحرّفوا المتسدون ، ففعلوا كل ما يمكنهم من صون القرآن عن التحريف ، فسكل ما طنوه أو توهّموه يفضى الى ذلك قضوا عليه بكل ما أوتوا من قوة ، وكان الله لهم في ذلك ناصرا ومؤيدا ، وأما ما عدا ذلك مما تواتر نقله عن رسول الله ولا ضرر منه فلم يتعرضوا له ، لجزام الله عن الدين أحسن الجزاء .

(٤) أما الجواب عن السؤال الرابع وهو : ما حكم قراءة القرآن أو كتابته على عكس الترتيب الموجود في المصحف ؟ فهو أن هذا السؤال على ثلاثة أوجه :
أحدها : حكم قراءة الآيات غير مرتبة ، كأن يقرأ « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، قبل الآم » مثلا .

ثانيها : حكم القراءة معكوسة كما كان يفعل العرب في الشعر والنثر للدلالة على مهارتهم في الحفظ : كأن يقول مثلا « من الجنة والناس ، القى يوسوس في صدور الناس » .
ثالثها : حكم قراءة سورة قبل أخرى عكس الترتيب الموجود في المصحف ، كأن يقرأ آل عمران قبل البقرة ، والنساء قبل آل عمران . ويعبر الفقهاء عن ذلك بالتشكيك إذا كان في الصلاة .

فأما الجواب عن الأول والثاني ، فإنه لا يجوز بلا نزاع ، لما فيه من ضياع المعنى المراد ، والتخلط على السامعين . وقد صرح السلف بحرمة ذلك .

وأما الجواب عن الثالث فإنه يجوز خارج الصلاة بلا كراهة . وثما في الصلاة فقد صرح الفقهاء بأنه مكروه تنزيها ، سواء قرأ المصلى سورة فوق التي قرأها أولا ، أو قرأ آية ، وإنما كانت قراءة الآية مكسبة في هذه الحالة مكروهة لا محرمة ، لوجود الفصل بين القراءتين بالصلاة ، فلا يترتب عليه الاشتباه الحاصل من وصل الآيات لبعضها ببعض .

أما ما ورد في صحيح البخاري من أن عائشة قالت لمن سألها في ذلك : « وما يضرك إن قرأت آية قبل أخرى » فإرادها : إن قرأت سورة قبل أخرى . ولذا قال الجمهور : إن ترتيب السور كتابة في المصاحف ليس لازما . والله أعلم .

دفاع عن القرآن الكريم

- ٣ -

استعالة تطور متن القرآن

أصبحت مهمتك في الشرق غير خافية ، وهي حث المسلمين على أن يبحثوا عن تطورات قرآنهم ، وتطورات قراءاته ، ليعلموا أن القرآن الذي يقرءونه الآن مغاير لما كان يقرؤه أصحاب رسول الله . وقد دينا علينا من المنطق أن النتائج العقلية تنتجها الأدلة المنطقية ، والدليل المنطقي ينتج استعالة تطور القرآن ، وهو القرآن كلام الله أحكمت آياته ، وكل كلام الله أحكمه ، يستحيل أن يلحقه تطور ، فالقرآن محال أن يلحقه تطور . فإن أنكرتم أن القرآن كلام الله انتقل البحث الى أصل الدين الاسلامي ، وهل القرآن من عند الله ثم من عند محمد ؟ وهو موضوع قديم ، والمناظرات فيه بين علماء المسلمين وبين غيرهم مشهورة مستفيضة ، وإن سلمتم أنه كلام الله ولكن لم يحكم آياته (لا حل أن يلحقه التطور) قلنا : إن الله أخبر بالحكم آياته « الكر كتاب أحكمت آياته » ، فإن لم ترضوا بهذا الدليل رجع البحث الى معارضة القرآن ، فأجمعوا علماء الغرب جميعا وأتوا بآية مثلها ، فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا أبد الأبد — ودهر الداهرين — فسلوا ، لنصل الى النتيجة التي تهدم ما بنيتم وتمرمون بناءه في العالم الاسلامي . وإن لم يعجبكم المنطق بسطنا لكم القول بسطا فنقول :

تعلم يا دكتور كما تعلم أن من مقتضيات التطور ومقوماته اعتبار الظروف والملابسات التي تؤثر في الشيء فتسقطه من طور الى طور ومن حال الى حال ، وهذا غير معقول بالنسبة للقرآن بحال ، لأن العرب الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، من أخلاقهم الثابتة ، وطوائفهم وطبائعهم ، التمسك بقوميتهم ولغتهم ، والمحافظة الثابتة على نظمهم ونثرهم ، فلما آمنوا بإماما أسسه الزهراء والمحمزة ، وتمكن الايمان في قلوبهم ، لاجرم تمسكوا بالقرآن الكريم ، وحافظوا عليه كل المحافظة ، لأنهم وجدوا فيه ما بهر عقولهم من الفصاحة والبلاغة (وم فرسان هذا الميدان) ، واستمروا هكذا حياتهم ، ثم ورت هذا الحرص عليه من بعدهم من التابعين ثم من بعدهم ، طبقة بعد طبقة ، حتى بلغ الامر بكم أن رميتموهم أتم (بأعلماء الغرب) بشدة التعصب فنقل الى درجة الجودا

فهل يتصور عقلا أن من كان هذا حالهم باعترافكم أن يزيدوا أو يقصوا أو يقدموا أو يؤخروا ، أو يغيروا أو يبدلوا في أعز عزيز لديهم وهو القرآن الكريم حتى يلحقه التطور

المنشود لكم ، والذي تحنون المسلمين على البحث وراءه ؟ في الحق أن ذلك ليس معقولا ، بل هو في عداد المستحيلات .

ونسوق اليك دليلا منصوحا على شدة محافظة القوم على لفظ القرآن الكريم ونظمه :
 دوى من عمر بن حاصر الأنصاري أن سيدنا عمر بن الخطاب قرأ قوله تعالى : « والسابقون
 الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه بإحسان » ، فقال زيد بن ثابت : « والذين
 اتبعوه » بزيادة الواو ، فقال عمر : اتفوني بأبي بن كعب ، مسألة عن ذلك فقال أبي : « والذين
 اتبعوه » ، فجعل كل واحد يشير إلى أنف صاحبه بأصبعه ، فقال أبي : والله أفرأيتها رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع الخطئة ! فقال عمر : إذا فتابع أباي . راجع كتاب تاريخ القرآن
 للزنجاني صفحة ١٤ و ١٥

أليس هذا دليلا واضحا على أن القوم كانوا يهتمون بحفظ نصوص الآيات بحيث إن زيادة
 حرف واو أو نقصها أمر مهم به مع أنه قد لا يغير المعنى كثيرا ؟

على أن وصول القرآن الكريم إلينا عن طريق (النوازل) المفيد للعلم الضروري ، يفيد بدهة
 أن القرآن لم يلحقه أي تطور .

ثم كيف يلحق القرآن التطور وقد أعجز الله البشر جميعا أن يأتوا بمثله أو يزيدوا عليه
 أو ينقصوا منه ؟ لأن الله أحكم آياته ، فالقرآن المحكم آياته هو المشرف على الحوادث الكونية ،
 المقرر لأحكامها في كل زمان ومكان ، الصابط لأحوال الأمم الاحتمالية والعمرانية ، المحقق
 لسعادتها الدنيوية والأخروية ، فقد ظهر لك مما تقدم أن التطور محال أن يلحق القرآن
 الكريم ، بل ظهر أنه المسيطر والمهيمن على جميع التطورات التي وقعت وتقع في الكون .
 خذ مثلامنه يناسب ما نحن فيه : قال الله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا
 عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلَّبون » . نزلت هذه الآية على النبي
 صلى الله عليه وسلم مخبرة عن حال الكفار (في عصره) عن أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا
 عن سبيل الله الخ ، فبقيت هذه الآية الكريمة مقررة أحوال الكفار الذين جاءوا بعدهم وحاولوا
 ما حاولوا : من إنفاق أموالهم للصد عن سبيل الله ، ثم من نعدم ثم من نعدم ، ملقة بعد طقة
 إلى الآن . فسل « يادكتور جفري » التاريخ يثبت بأن الكفار السابقين في العصور الخالية ،
 أنفقوا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ثم غلبوا ، واستمر الدين في طريقه إلى الآن ، فقد حاولوا
 ما محاولون ، وأنفقوا أصعاف ما تنفقون ، ثم جاءوا بالمشل والخسران المبين ، فما أشبه الليلة
 بالبارحة ؟ فستكون عاقبتكم عاقبتهم ، لأن آية الله قائمة ! ثم أليست معي في أن هذا دليل يضاف
 إلى ما تقدم على أن القرآن لا يلحقه استطور ، بل هو الحاسم على جميع التطورات ؟

استحالة التطور في القراءات السبع :

والتطور في القراءات السبع في أعداد المنحنيات ، لأن علماء الأصول قرروا أنها متواترة ، والتواتر : نقل طائفة تقوم بالحجة القاطعة بقولهم عن طائفة مثلها ، وهكذا . فالمحافظة على النقل دون أي تغيير أو تبديل ، شرط أساسي في التواتر ، بل هو شرط منه ، ولذلك كان التواتر مفيدا للعلم الضروري ، فإذا نحن نعلم بالبدهة أن القراءات السبع التي وصلت إلينا هي بضبطها وشكلها وطريقة أداؤها ، هي نفس القراءات التي أجمعت الأمة عليها ، ونقل هذا الاجماع بالتواتر ، فالتطور مستحيل فيها كما ترى .

التطور في القراءات الشاذة :

والقراءات الشاذة كما سميها بعض أهل الإصلاح - أو الروايات الأحادية (كما سميها البعض الآخر - هي المزلق) الذي ائلق فيه علماء الغرب لما يحيط به من القموض والخفاء ودراسة أخلاق اللهجات ، ولأنها كانت في عصر رسول الله ، وكانت - على ما يقولون - في مصاحف بعض الصحابة ، وغير ذلك ، مما يجعل لهذا البحث عناية خاصة .

إن القراءات الشاذة هي (المزلق) الذي ائلق فيه علماء الغرب ، لما يحيط بها من الظروف والملايسات التي تجعل دراستها ليست بالأمراهلين ، بل تجعلها من الخطورة بمكان ، فكانت المدخل الوحيد ، الذي دخل المستشرقون منه لتشكيك في مصحف سيدنا عثمان ، فيقولون : إنها كانت في مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم ، وإنهم كانوا يقرءون بها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعندي أن ذلك يرجع الى سدين رئيسيين : (١) عدم فهم المستشرقين أسرار البلاغة (٢) التقصير في دراسة اللهجات .

أما الأول : فلأن المستشرقين يشق عليهم تفهم بلاغة القرآن وتذوق أسرار التراكيب ، فهم إن استطاعوا أن يعلموا قواعد النحو والصرف ومتن اللغة وقواعد البلاغة ، واستطاعوا أيضا - مع التزل - أن يطبقوا هذه القواعد على بعض المواد ، فلم يستطيعوا أن يفهموا على معاني القرآن الكريم ، وأن يفهموا ما فيه من بلاغة وإيجاز ، وذلك لفقدان الذوق العربي ، واللهجات العربية ، الناشئ ذلك طبعا من تربيتهم الغربية .

وأما دراسة اللهجات العربية فليست بالشئ السهل اليسير ، فإن لسكل قبيلة من قبائل العرب لهجة خاصة تختلف عن لهجات بقية القبائل ، غير أن بعض هذه اللهجات قريب من بعض ، ويظهر أنها تنحصر في سبع لهجات رئيسية ، ولذلك زل القرآن على سبعة أحرف .

ومن الثابت تاريخيا أن وفود القبائل المختلفة كانت تعد على النبي صلى الله عليه وسلم

ليأخذوا عه القرآن ويتفهموا أحكام الدين ، والقرآن نزل بلغة قريش ، فكيف كان يمكن أن تقرأ هذه الوفود القرآن وهم ليسوا قريشيين وألسنتهم مختلفة ؟ إذ من الصعوبة أن يتكلم عربي ذو لهجة خاصة بغير لهجته إلا بعشقة وجهد عظيمين ، فمثلا : قوله تعالى : « كلوا أصواء لهم مشوا فيه » هذه لغة قريش ولهجتها ، لكن قبيلة أخرى لا تستطيع أن تقرأ « مشوا » ولكنها تقول « سموا » أو « مروا » ، فكان لابد أن يوسع لهم النبي صلى الله عليه وسلم في الالفاظ حيث المعنى واحد . وكذلك قوله تعالى : « للذين آمنوا انظرونا » لا تستطيع غير قريش أن تقول « انظرونا » ولكنها تستطيع أن تقول « اهلونا » أو « آخرونا » أو « ارقبونا » وهكذا ، فلا بد من الترخيم في ذلك في مبدأ الامر حتى تسهل لغة قريش عليهم ، فما سهلت عادوا إليها ، وقرأوا القرآن على حرف واحد ، وهو الذي أجمع الصحابة عليه ، وكتب في مصحف سيدنا عثمان .

في الحديث المروي عن أبي بكر قال : « جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استرده ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل : استرده ، حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكل شاف كاف » .

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً ، أشهرها خمسة ، وأشهر الخمسة واحد ، وهو الذي تقتصر عليه هنا لشهرته ، ولعدم السماع بحثنا هذا لمثل هذا لتطويل ، وهو أن المراد : سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بالاعاط مختلفة ، نحو : أقبل ، آمل ، هلم . فالمعنى واحد واللفظ مختلف ، وفي البخاري ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام اهـ

وهذا هو الذي عليه أكثر أهل العلم : كسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن وهب ، والطبري ، والطحاوي ، وغيرهم . ومع هذا فإن ذلك كان لضرورة يقدر بقدرها ، فإذا ارتفعت الضرورة ارتفعت الرخصة والسعة ، قال الطحاوي : إنما كانت السعة للناس في الحروف لمعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات ، ولورام ذلك لما نبأ له بالإعشقة عظيمة ، فوسع لهم في اختلاف الالفاظ إذ كان المعنى متفقاً ، فسكوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب ، وعادت لغاتهم الى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدروا بذلك على تحفظ الالفاظهم ، فلم يسمهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها اهـ .

وقال ابن عبد البر : بمان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد اهـ .

أرأيت يا دكتور جفرى أن هذه القراءات التي أردت أن تجعلها مدخلا للظن على مصحف عثمان كانت لضرورة الأمية في العرب واختلاف لهجاتها ، وثنا كانت رخصة ثم انتهى أمدها ، وحادوا جميعا يقرءون بحرف واحد ، وهو الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عرضه عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم عام العرض الأخير ؟
وأرأيت أن القراءات الفاذة لم تتطور إلا بمقدار ؟ وثنا تطورها كان راجعا وريداً وريداً الى لغة قريش التي نزل بها القرآن بعد أن اعتاد العرب التلق بها ، وأرأيت أنه لم يكن هناك زيادة كلمة ولا نقص ، وإما كان هناك لفظ بدل لفظ لضرورة اختلاف اللهجات : (مشوا فيه) (سموا فيه) (انظرونا) (امهلونا) على نحو ما تقدم ، ثم لما استطاعوا أن يقرءوا مشوا ، وانظرونا ، وهما من لغة قريش ومما وقع الإجماع عليهما في المصحف الامام ، حادوا اليهما ؟ فإين ذاك يا دكتور من التطور الذي تفشده وتريد أن تجعله أساسا للتشكيك في مصحف سيدنا عثمان ؟

ولعل هذه الأبحاث تكون بذات بال عند حضرات أعضاء المجمع اللغوي الملكي حينما يبحثون دراسة اللهجات ، فإن حضراتهم على ما أظن — سيجعلون دراسة اللهجات عند العرب أساسا لدراساتها في العصور المتأخرة الى عصرنا هذا .

وعندي أيضا أن هذه الأبحاث قد يستأنس بها القائلون بحواز ترجمة القرآن ، فانه إذا جاز أن يرخس رسول الله صلى الله عليه وسلم لغير قريش من العرب أن يمسبوا عن معنى القرآن بألفاظ من لسانهم مرادفة لانفاظ من لغة قريش للضرورة حيث المعنى واحد ، جاز لأئمة المسلمين وعلمائهم أن يرخسوا في ترجمة القرآن « للضرورة » عنها ، لأجل أن يتفهم معاني القرآن من لم ينطق بالعربية ، قياسا على فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذي لا يجوز إغفاله أن الرسول صلى الله عليه وسلم رخص في ذلك لضرورة قدرت قدرها وارتفعت الرخصة عند ارتفاع الصرورة ، فيكون مقتضى القياس أن يرخس في ترجمة القرآن بقدر ذلك ، فلا يجوز لمن ينطق بالعربية أن يقرأه مترجما ، ولا أرى أن هذا قياس لازم ، ولكنه للاسئناس .

ولعل أغرب وثجب ما صنمه الدكتور جفرى في ملحقة الذي ألحقه بكتاب المصاحف ، تلك الآيات والصور المخالفة للقرآن الكريم التي يقول إنه نقلها من كتب التفسير والقراءات دون أن يبين لنا كتابا معينا ، حتى يمكن الرجوع إليه ، فاقروا أيها الناس نماذج مما كتبه الدكتور جفرى في ملحقة الانجليزي صفحة ١٧٩ في سورة البينة ما نصه :

« رسول الله إليهم يتلو مضمنا مطهرة وفيها كتب قيمة » ورأيت اليهودية والنصرانية أن أقوم الدين الخنيفية مسلمة غير مشركة . ومن يعمل صالحا فإن يكفره »

وفي صفحة ١٨٦ في سورة الاعراف ما نصه :

« أخرج لعباده من القطن والكتان والطيبات من الرزق الحلال قل هي للذين آمنوا يشركهم فيها الكفار في الدنيا خالصة لهم يوم القيامة »

وفي سورة العصر ما نصه :

« والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لى خسر ، وبه فيه الى آخر الدهر ، أعصارا عصرًا بعد عصر ودهرًا بعد دهر ، لا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآتَمَرُوا بِالتَّقْوَى وَتَمَرُوا بِالصَّبْرِ » .

هذه بعض النماذج على كثرتها ، فاحكموا بعد أن تقرءوا هل هذه من القراءات التي رخص فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للقبائل التي اختلفت لغاتها ولهجاتها عن لغة قريش ولهجاتها ؟ وهل هذه مما اتفق معناه واختلف لفظه ، أم هذه من الألفاظ التي بعثت في كتب التفسير والقراءات ، كتبها العلماء ليردوا عليها ، جمعها الدكتور حفري وصنعها سورا وآيات ليشكك المسلمين في المصحف الامام ؟ !

حسن حسين

ثم رديلة الى رياء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله عملا فيه ذرة من رياء » .

وقال الحسن البصري : « لأن تطلب الدنيا بأقبح ما تطلب به ، أحب من أن تطلبها بأحسن ما تطلب به الآخرة » .

وكان الشبلي إذا رأى من يدعى التصوف يقول : « ويلكم لا تقرءوا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب » ، وقد خاب من افتري » .

وقيل : « كان الناس يراءون بما يفعلون لا بما يقولون » ، فصاروا يراءون بما يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا يراءون بما لا يقولون ولا يفعلون » .

وصلى رجل صلاة خفيفة فقبل له : أقصرت الصلاة ؟ قال لا بل هي صلاة ليس فيها رياء . ونظر أبو أمامة الباهلي الى رجل في المسجد وهو ساجد يبيكي ، فقال : نعم الرجل لو كان هذا في بيتك » !

وقال شاعر :

تصنع كي يقال له آمين وما معنى تصنعه الأمانة
ولم يرد الإله به ولكن أراد به طريقا للخيانة

الاخلاق الفلسفية

— ١٣ —

بواعث أعمال بنى الانسان وغاياتهم

وقمصانك في المقال السالف عند باحث العاطفة، وأبشأ لك أن بعض المدارس الفلسفية قد غالى في الاحتياط من العاطفة، وجزم بأن الأعمال المبعوثة عنها لا تعد أعمالا أخلاقية. واليوم نريد أن نوجر لك هذه الفكرة، مستشهدين بشيء من نصوص أنصارها، فنقول :

من هؤلاء الفلاسفة الذين احتاطوا من العاطفة احتياطا مبالغا : الرواقيون ، إذ أنهم قد عدوا اتداع المواطن واعتبارها باعنا من بواعث أعمال الانسان نوبا من الصنف وخور العريضة واحطاط النفسية ، والانعياح في شخصية ذلك الغير الذى يتحكم في عاطفتنا وهم يصرحون بأن الشخص الذى يذعن لمعافته ويحترمها كباعث من بواعث أعماله ليس إلا عبدا أسيرا لا أكثر ولا أقل وإليك ترجمة شيء من آراء هذه المدرسة الرواقية : سئل « إبيكتيت » : كيف يجب أن يحب أصدقاؤنا ؟ فأجاب : كما تحب الأرواح العالية والنفوس السعيدة ، لأن العقل لا يمكن أن يطلب إلينا يوما أن نسقط ونسفل الى حد أن نتلاشى في غيرنا ، أو أن نصنع أنفسنا الحرة الطليقة في أغلال الآخرين ، وهو لا يأمرنا كذلك بالبكاء والنحيب عند فراق الغير في حالى الحياة والموت ، فأحب أصدقاؤك على شرط أن تحمض نفسك من هذه الوضائات المقدمة ، إذ من ذا الذى يمنعك من أن تحب أصدقاؤك على أنك شخص حر مستقل ، وعلى أنهم أشخاص مستقلون معرضون للفراق والموت ؟ فإذا وصعت نصب عينيك هذه الفروض المذحقة ، فإن الحوادث لا تستطيع أن تحفض نفسك الى حد أن تلقى بك في حضيض البؤس والبكاء عند موت ابن أو فراق صديق .

فما سمع منه محاوره هذه الاجابة ، وجه إليه سؤال آخر فقال : ألم يكن « سقراط » يحب أبناءه ؟ فأجابه : « بلى ، ولكن كان يحبهم محبة الرجل الحر الذى لا يقفل الى حد أن يفقد استقلاله تحت عنوان هذه المبررات الحقيرة . فاليوم ينحط حضوما للعاطفة البنوية ، وقد يتسفل رضوخا للعاطفة الأبوية ، وبعد غد يفقد شخصيته إذ طافا لمعاطفة الصداقة ، وهلم جرا . »
« لاشك في أن الطبيعة قد خلقت بعضنا لأجل البعض الآخر ، ولما كنا قد قصت بأن نعيش مجتمعين طورا ومنفرقين طورا ثانيا ، فيجب علينا حيال هذا النظام أن يسعد بعضنا البعض الآخر إذا اجتمعا ، وأن لا نأسف على ما دنا إذا افترقنا ، لأن هذا الفراق نظام من أنظمة الطبيعة المقدسة التى يعد الألم عند حدوثها خروجا على هذه الأنظمة . ولقد أراد أحد الشبان أن يسافر

إلى إحدى الجهات لحضور موقعة حرية فيها ، فلما وقف لوداع والده قال له هذا الوالد : اذهب يا بني ، لئلا تجوت لأوقدن هنا ناراً تدل على أن في هذا المنزل قلماً يجبك ، وإن كانت فائدة نجاتك من الخطر مقصورة عليك وحدك . الى أن يقول : وإذا تغلبت عليك العاطفة حتى جعلتك لا تؤد أن يموت لك أحد ، فأحكم بأنك مجنون ، وأنت مفتئت على حقوق غيرك ، وإذا حولت العاطفة عن عقاب غادملك كثرت غلطاته ، ونضاعفت أخطاؤه ، إلى آخر ما قال .

ويرى فريق آخر من الفلاسفة أن العاطفة إذا كانت أقوى البواعث ، فإنها تحقق أرقى غايات الانسان ، لأن المتصرفين مثلاً يطلبون إلينا أن نعمل الخير تحت تأثير عاطفة حب الله . وأنصار الانسجام والانساق يأمررون بالبعد عن الشر ، لأنه قلب للنظام وتشويه لروثقه ، وهم في هذا مدفوعون بعاطفة حب الجمال .

وعشاق الحقيقة يتفانون في البحث وراءها إرضاء لعاطفة تتحكم في نفوسهم ، وتدفع الى هذا المنهج الذي يسلكونه . ولقد أدع بعض الأخلاقيين باعث المنفعة في باعث العاطفة ، فزعم أن الاندفاع وراء المنفعة ليس إلا حضوراً لعاطفة داخلية تأمر النفس وتقودها نحو الانجذاب الى المنافع المادية . ولقد قال فلاسفة القرن الثامن عشر النفعيون : إن باعث المنفعة هو وحده الباعث الانساني الحق ، لأنه مؤسس على عاطفة صادقة ، وهي عاطفة الفائدة الفردية . ويقول : « هتسسون » . إن العاطفة هي التي تبث على فعل كل خير ، فإذا أحسست بالنعطاف نحو أي عمل ، وشعرت بأن باعثه هو عاطفة الاحسان فلا تردد في عمله ، وأيقن بأنه خير ، لأن اتباع العاطفة هو أصدق قانون يتبع ، وأهدى سبيل تسلك .

ويقول « آدم سميت » : إن في داخل نفوسنا عاطفة تشعر بمجاذبية نحو الخير ، وبنفور من الشر ، فيجب أن تتخذ هذه العاطفة قائداً لنا في جميع أعمالنا ، وأن تكون هي الباعث الأوحد لكل الاعمال الانسانية ، وينبغي أن نمد كل ما يرضيها خيراً ، وما يقززها شراً .

أهمية العاطفة :

إن العاطفة مع كل ما وجه اليها من نقد وقدح ، باعث هام جداً ، ولا يمكن إنكاره ، أولاً : لأنه طبيعي ، وكل ما كان طبيعياً ، فليس من السهل شله أو تعطيل عمله أو القضاء على أثره . ثانياً : إنه من غير الممكن جعود ما للعاطفة من قيادة لكثير من الاعمال الاخلاقية . ثالثاً : إنها كثيراً ما تكون هي الصلة بين القوة التي تدرك الخير وهي الضمير ، والقوة التي تحققه في الخارج وهي الارادة . وعلى الجملة : إن حب الجمال والنظام يدفعنا الى عمل الخير ، وحب الحقيقة يبعثنا الى البحث المتواصل عنها حتى تبلغ درجة الحكمة . وحب الاحسان يهذب النفس ويلفها درجة الكمال ، وما هذه الانواع الكثيرة من الحب إلا ضروب مختلفة

من الميول العاطفية التي نحن نصددها ، والتي تدفع الانسان نحو الكمال . غير أنه مع ذلك كله يجب أن نعترف بأن العاطفة كثيرا ما تتأثر بدوافع خارجية . وإذا كان هذا شأنها فهي أقل قيمة من أن تكون الباعث الوحيد للأعمال الأخلاقية ، وإلا لكات هذه الأعمال مضطربة وغير تامة البناء .

أما وقد تشعب بنا الحديث عن البواعث ، وترامت أطرافه الى ناحية كل باعث منها على حدة ، فانا نرى من الحق علينا أن نحصر الموضوع في ذهنك بعض الشيء ، بأن نوجز لك رأى أحد الفلاسفة الأوربيين في هذه البواعث الثلاثة ، وهو رأى معتدل قيم يرحب بهذه البواعث كلها ، ولكنه لا يستطيع أن يجيز طغيان أحدها على الآخرين ، ولا يقبل إفراط بعضها في اضطهاد البعض الآخر . وهالك ترجمة هذا الرأى : « إن هذه البواعث الثلاثة التي ذكرناها آتفا متصلة بعضها ببعض تمام الاتصال بحيث لا يمكن فصلها أو إعطاء واحد منها الزمام الأعلى مع حفظ توازن الحياة الانسانية وانسجامها ، ولكن الخير كل الخير هو في تنسيقها ، والاحد من كل واحد منها بالطرف الضروري الذي لا يمكن الاستغناء عنه . فإذا شعر الانسان بأن واحدا من الثلاثة الأول حاول الطغيان على صاحبيه ، وجب عليه أن يستعين على هذا الطاغى إما بأحد عدويه الآخرين ، وإما بالواجب حتى يردّه الى مرتبة الاعتدال ، لأن الشخص الذي لا يجمع في كل أعماله إلا لباعث الميل الغريزي يقترب من الحيوان شيئا فشيئا حتى يفقد إنسانيته ، وإن كان هذا الباعث من الضروريات التي لا يمكن لأى إنسان الاستغناء عنها إلا مع اضطهاد محته وانقضاء عليها . وكذلك الشخص الذي لا يخضع دائما إلا لباعث العاطفة القلبية يخشى عليه أن يفضل في هذه الحياة ، وأن لا ينجح في معمران عراكها الدائم ، ولا ينتصر في حربها الطاحنة الباجية من غريزة تآزع البقاء ، أو نظرية بقاء الأقوى والأصلح ، ومع ذلك فإن هذا الباعث ضرورى في الحياة ، لأنه منبع الاخلاص العالي والتضحيات السامية ، ولأنه هو الزمام لقاسمى الذي يضيق الخناق على الغرائز الحيوانية التي لا تعرف إلا الانانية المغالية . والشخص الذي لا يستمع دائما إلا لصوت المنفعة ينحدر الى هوى البخل والشره والانانية المروعة التي تحولها في نظر الناس جميعا الى صورة تمیضة مستردلة ، ومع ذلك فإن هذا الباعث ضرورى أيضا ، لأن كل إنسان يجب عليه أن يعرف كيف يجذب الى نفسه المنافع المادية ، ليستطيع أن يسير الى جانب أنفاره وأنداده ، أو يجب عليه على أقل تقدير أن يعرف كيف يكسب قوته لكي لا يكون مالة على غيره في الحياة .

وهنا أقف عند الباعث الرابع فلا أستطيع أن أقول عنه شيئا ، لأنه لا يمكن أن يعد اضراؤه بتسلم زمام كل أعمال الانسان طغيانا على البواعث الأخرى ، وإن كان ذلك غير ممكن ، لأن الانسان ككائن حي يجب أن يذعن للغرائز في بعض أعماله ، وبصغته إنسانا ذا شعور وقاب حساس ينبغي أن يخضع لصوت قلبه في بعض أعماله الأخرى ، وهلم جرا .

على أن كثيراً من الأعمال قد يعملها الإنسان متأثراً فيها بباعين مختلفين في وقت واحد ، كما لو أراد الشخص أن يتغذى بغذاء جيد ، ليحفظ صحته من المرض ، ولكن حفظ الصحة ليس مقصوداً لذاته ، بل إن غايته العليا هي أن يحيا ، ليقدم خدمات جليلة إلى وطنه ، أو ليحول أسرة تتركز عليه في هذه الحياة . فهذا الشخص قد أَرْضَى غريزته بالغذاء الجيد ، وأذعن لعاطفته القلبية نحو أسرته أو نحو بى وطنه ، وقام بالواجب في هذا العمل الثانى . وكذلك إذا مسح فقيراً شيئاً من المال يكون مذعناً لباعى العاطفة والواجب ، وهكذا دواليك ؟

المركنور محمد غمريب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتيم »

يجب أن يوافق القول الفعل

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تعملون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيباً » .
وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « من كان كلامه لا يوافق فعله فأعما يوجب نفسه » .
وقال حكيم : « ما الدخان بأدل على النار من ظاهر الرجل على باطنه » .
وقال أكنم بن صيفى : فضل القول على الفعل دناءة ، وفصل الفعل على القول مكرمة » .
وقيل : « أحسن المقال ، ما صدق بحسن الفعال » .
وكان رجل يكثر النشاء على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال له يوماً وقد ألح عليه فى النشاء : « أنا دون ما تقول ، وفوق ما فى نفسك » .

وقال بعض الحكماء : « لأن يكون لى نصف لسان ونصف وجه على ما فيهما من قبح المسطر ، وسوء الخبر ، أحب الى من أن أكون ذا وجهين ، وذا لسابن ، وذا قولين مختلفين » .
وقال زهير :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن غامها تخفى على الناس تعلم

أصول التشريع

— ٢ —

بحث في الاجتهاد والاجماع

- (١) ما حكم الاجتهاد شرعا ؟ (٢) هل يجوز خلو الزمان
عن مجتهد ؟ (٣) هل يعتبر في المجتهدين عدد التواتر ؟
(٤) مما قيل في الاجتهاد - (٥) كم يلزم لكل فطر من
المجتهدين ؟

في العدد الماضي أتينا بشيء من آثار الاجتهاد وفوائده ومراياه ، وتمويل الصحابة
والائمة عليه ، وجئنا ببعض النصوص التي تثبت أنه لم يرد لكل واقعة فرعية ، أو حادثة
جزئية نص خاص بها .

وفي هذا العدد نذكر شيئا عن حكم الاجتهاد من الناحية الشرعية ، ونبين : هل يجوز
خلو العصر عن المجتهدين ؟

وخطتنا فيما نذكره أننا نقتصر على الاتيان بنصوص العلماء والائمة المسلم لهم بالزامة
العامة ، الذين لهم حق الكلام في مثل هذا الموضوع ، والحكم في مثل هذا البحث ، والاجابة
عما ذكر فيه من أسئلة .

(١) ما حكم الاجتهاد شرعا ؟

قال الامام الجلال السيوطي :

١ - الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفاية ، ولا يجوز شرعا خلو العصر
منه ، ونصوص العلماء من جميع المذاهب متفقة على ذلك .

٢ - فقد نقل المازني في مختصره عن الامام الشافعي رضي الله عنه : أنه نهى عن
تقليده وتقليد غيره ؛ ولا يمكن نهى الخلق كلهم عن التقليد ، لأن العوام يجوز لهم التقليد
بالاجماع ، وإنما نهى الشافعي عن ذلك حتى لا يجمع أهل العصر كلهم على التقليد ، لأن فيه
تعطيل فرض من فروض الكفايات ، وهو الاجتهاد ؛ بحث على الاجتهاد ليكون في كل عصر
من يقوم بهذا الفرض .

٣ - وقال الامام الماوردي في الجزء السابع من كتابه الحاوي الكبير : فإن قيل : لم
نهى الشافعي عن تقليده وتقليد غيره ، وتقليده جائز لمن استفتاه من العامة ؟ قيل : التقليد

مختلف باختلاف أحوال الناس بما فيهم من آلة الاجتهاد المؤدى اليه أو عدمه ، لأن طلب العلم من فروض الكفاية ، ولومع جميع الناس من التقليد ، وكلفوا الاجتهاد ، لتعين فرض العلم على الكفاية ، وفي هذا احتلال نظام وفساد ، فلو كان يجمعهم التقليد لبطل الاجتهاد ، وسقط فرض العلم ، وفي هذا تعطيل الشريعة ، وذهاب العلم ، فلذلك وجب الاجتهاد ممن تقع به كفاية ، ليكون الباقيون تبعا ومقلدين ، قال الله تعالى : « فلو لا نقر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . فلم يسقط الاجتهاد من جميعهم ، ولا أمر به كافةهم .

٤ — وقال الروائي في كتابه البحر :

إنما نهى الامام الشافعي عن التقليد ليقصر طالب العلم في تعترف وجوه الأحكام ، ودلائلها ، ثم ينظر فيها لدينه ويحتاط لنفسه .

٥ — وقال الامام البغوي في كتابه التهذيب :

العلم فرض عين ، وفرض كفاية . وبعد أن تكلم على فرض العين قال : وفرض الكفاية : هو أن يتعلم ما يبلغ رتبة الاجتهاد ، ويحل الفتوى والقضاء ، ويخرج من عداد المقلدين ، فعمل كافة الناس القيام بتعلمه ، غير أنه إذا قام من كل ناحية واحد أو اثنان سقط الفرض عن الباقيين ، فإذا قعد الكل عن تعلمه عصوا جميعا ، لما فيه من تعطيل أحكام الشرع .

٦ — وقال الامام ابن سراقه في كتابه إيجاز القرآن :

لو كان القرآن جميعه جايئا محكما لعدم الثواب على الاستنباط ، وسقط حكم الاجتهاد المؤدى الى شرف المنزل ، وعظم المروءة ، ولهذا المعنى لم ينص الله تعالى على حكم جميع الحوادث مفصلا ، بل أمان بعضها ، وذكر أشياء في اجملة وكل بيانها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبان النبي صلى الله عليه وسلم منها ، وكل ما يطر منها الى العلماء بعده ، وجعلهم ورثته ، والناقلين مقامه في إرشاد أمته الى حكم التأويل ، ولو كان جميع العلم جليا لا يحتاج الى بحث واجتهاد ، ولا الى نظر واستنباط ، لكان في ذلك إبطال الشريعة .

٧ — وقال ابن سراقه أيضا في أحكام الموطأ :

إن طريق أقسام الفقه ، وحدوده ودلائله ، وتفريعه ، طريق استنباط ، وذلك يختلف في الناس على حسب ما أراد الله من تفضيل بعضهم على بعض بقوة الاستنباط ، وصحة الاجتهاد .

٨ — وقال الامام الغزالي في كتابه البسيط :

أما سفر الولد للصح بعد الوجوب ، فانه لا يتوقف على إذن الوالدين ، لأنه واجب متعين ؛ وأما سفر طلب العلم ، فان كان متعينا لما يحتاج اليه ، فلا يحتاج الى الاذن ، بل أولى من الحج ،

لأنه على الفور ، وكذلك إذا كان يطلب رتبة المجتهدين حيث شغل البلد عن المجتهد ، فلا يشترط الاذن كالخج ، بل أولى ، لأنه على الفور ، وإن كان يطلب رتبة الفتوى وفي البلد مفتون فقيه وجهان ، والظاهر أنه يجوز بغير إذن .

وقال الجلال السيوطي تعليقا على هذا . انظر كيف جعل رتبة الاجتهاد فرضا ، وجعله على الفور ، مقدما على الخج حيث شغل البلد عن المجتهد .

٩ — وقال ابن القصار في كتابه المقدمة ، وهو من أئمة المالكية .

أنفى أصحابنا بأن السلم على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية ، وتكلم على فرض العين ، ثم قال : وأما فرض الكفاية فهو السلم الذي لا يتعلق بحالة الايمان ، فيجب على الأمة أن تكون منهم طائفة يتفقون في الدين ، ليكونوا قدوة للمسلمين ، حفظا للشرع من الضياع ، والذي يتعين لهذا من الناس من جاد حفظه ، وحسن إدراكه ، وطاعت سجيته .

١٠ — أما أئمة الحنفية ، والحنابلة ، فقد نقل ابن الحاجب في مختصره ، وابن الساعاتي في كتابه البديع أنهم قالوا :

لا يجوز خبر المصروع من مجتهد ، لأن الاجتهاد فرض كفاية ، والخطو عنه يستلزم اتفاق الأمة على الباطل .

٢ — هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد ؟

قال الامام الجلال السيوطي :

نص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد ، وأنه لا يجوز خلو العصر منه .

١ — فذهبت الحنابلة الى أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله » . رواه الشيخان وغيرهما ، قالوا : لأن الاجتهاد فرض كفاية ، فيستلزم انتفاؤه اتفاق المسلمين على الباطل ، وذلك محال لعصمة الأمة من اجتماعها على الباطل .

٢ — وقال الامام الزركشي في المحرر : ولم ينفرد بذلك الحنابلة ، بل حرم به أيضا جماعة من الشافعية ، منهم الاستاذ أبو اسحاق ، فقد قال : وتحت قول الفقهاء : لا يخلو الله زمانا من قائم لله بالحجة ، مر عظيم ، وكأن الله تعالى ألهمهم ذلك . ومعناه : أن الله تعالى لو أخلى زمانا من قائم بالحجة لزال التكليف ، إدا التكليف لا يثبت إلا بالحجة الظاهرة ، وإذا زال التكليف بطلت الشريعة . ومنهم الزبيدي ، فقد قال في المسكت : لن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة في كل وقت وعهد وزمان ، لأنه لو عدم المجتهدون لم تتم الفرائض كلها ، ولو بطلت الفرائض لحلت النعمة بذلك في الخلق ، كما جاء في الخبر : « لاتقوم الساعة إلا على شرار الناس » . وقد

نقل هذه العبارة الزركشى في البحر المحيط وقال : إن وجه ذلك أن الخلو من معتهد يلزم منه اجتماع الأمة على الخطأ ، وهو ترك الاجتهاد الذي هو فرض كفاية .

٣ — وعلق الجلال السيوطي على عبارة الاستاذ أبي اسحق السابقة فقال : قول الاستاذ أبي اسحق : كأن الله ألهمهم بذلك ، يشعر بأنه لم يقف له على مستند من الحديث مع أنه له مستندا ، فأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكن لا تبطل صحاح الله وديناته ، أولئك هم الآفلون عددا ، الأعظمون عند الله قدرا » . وهذا موقوف له حكم الرفع ، لأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي .

٤ — وقال إمام الحرمين في البرهان : إذا خلا الزمان عن مجتهد ، صار كزمان الفترة — أي فتنعتل أحكام الشريعة ، ويبطل التكليف .

٥ — ونقل ابن عرفة عن ابن عبد السلام — وهما من أئمة المالكية : لا يخلو الزمان عن مجتهد إلى زمن انقطاع العلم ، كما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، وإلا كانت الأمة بجمعة على الخطأ .

٦ — وقال الجلال السيوطي :

أقام الله في الأعصار ، قائما له بالحجة من العلماء الأجبار ، وضمن حفظ شريعة نبيه المختار ، بطائفة من أمته موهودين بالنصر والإظهار ، وخص شريعة رسوله محمد بالاستمرار ، كما خص أمته ببقاء المجتهدين فيها على مرور الأعصار ، ولقد غلب على الناس الجهل ، فاستعظموا دعوى الاجتهاد ، وعدوه منكرا بين العباد ، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر .

٣ — هل يعتبر في المجتهدين عدد التواتر ؟

١ — نقل ابن عرفة عن الفخر الرازي أنه قال في المحصول :

لوجب من المجتهدين واحد — والعياذ بالله تعالى — كان قوله حجة .

قال الجلال السيوطي : فاستعاضتهم تدل على بقاء المجتهدين في عصرهم . والفخر الرازي توفي سنة ٦٠٦ هجرية .

٢ — وقال التبريزي في تنقيح المحصول :

لا يعتبر في الجمع بين عدد التواتر ، فلو انتهوا — والعياذ بالله تعالى — إلى ثلاثة ، كان إجماعهم حجة ؛ ولو لم يسق إلا واحد كان قوله حجة ، لأنه كل الأمة ، وإن كان ينبو عنه لفظ الإجماع .

٣ — وقال الزركشى في البحر :

قال الأستاذ أبو إسحاق : يجوز أن لا يبقى في الدهر إلا مجتهد واحد ، ولو اتفق ذلك فقوله حجة كالإجماع ، ويجوز أن يقال للواحد أمة ، كما قال تعالى : « إن إبراهيم كان أمة » . ونقله الهندي عن الأكثرين ، وبه حرم ابن شريح في كتاب الودائع فقال : « وحقيقة الإجماع هو القول بالخلق ، فإذا حصل القول بالخلق من واحد فهو إجماع » .

٤ — مما قيل في الاجتهاد :

١ — قال الغزالي في المنقول :

الاجتهاد ركن عظيم في الشريعة لا ينكره منكر ، وعليه عول الصحابة بعد أن استأثر الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، وتابعهم عليه التابعون الى زماننا . والغزالي توفي سنة ٥٠٥ هـ

٢ — وقال في المستصفي :

إننا نعتقد أن الله سراً في رد العباد الى طنونهم حتى لا يكونوا مهملين ، متبعين الهوى ، مسترسلين استرسال البهائم من غير أن يزمهم لجام التكليف ، فيردم من جانب الى جانب .

٣ — وقال الإمام التنوخي في شرح مسلم :

قال الله تعالى : « ولودعوه الى الرسول والى أول الأمر منهم لعله الذين يستنبطونه منهم » ؛ فالاعتبار بالاستنباط من أكد الواجبات المطلوبة ، لأن النصوص الصريحة لا تبقى إلا باليسير من المسائل الحادثة ، وإذا أهمل الاستنباط فالتقصاء في معظم الحوادث والأحكام البازلة أو بعضها .

٤ — وقال العلامة محمد بن الحسن الحلي :

أصول الفقه كملت في العهد النبوي ؛ والفروع لا تنتهي أبداً ، لذلك شرع الاجتهاد .

٥ — وقال ابن برهان :

فقد جمل الله المذاهب دولا ، والآراء نوماً ، ولذلك المعنى يحدث في كل زمان مذهب تعنى إليه الأفتدة ، وتقبل نحوه الأنفس .

٥ — كم يلزم لكل قهار من المجتهدين ؟

١ — قال إمام الحرمين في النهاية : قوام الشرع بالمجتهدين ، ويجب أن يكون في كل

قطر من يراجع في أحكام الله تعالى ، وقد قال الفقهاء : يجب أن يمتد في هذا مسافة القصر ، فإذا سكن مجتهد بقعة استقل به من هو على مسافة القصر منه في الجواب .

٢ — وقال الزركشي في كتابيه : القواعد ، والبحر :

لا بد أن يكون وجود المجتهد من فروض الكفاية ، ولا بد أن يكون في كل قطر من يقوم به الكفاية ، ولهذا قالوا : إن الاجتهاد من فروض الكفاية .
وعلى الجملة فقد اتفقت نصوص العلماء والأئمة ، كما رأيت ، على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات ، ولا يجوز شرعا حلو العصر عن مجتهد .
فهل في هذا العصر مجتهدون ؟

وكيف نوجد المجتهد إذا لم يكن موجودا ؟
وهل أئمت الأمة بترك فرض الاجتهاد إن كانت تركته ؟
هذه أسئلة تحتاج إجابات . وسنحاول ذكر شيء عنها فيما يتبع

أما بعد : فانه ليس بمزير على مصر وهي مركز الاسلام في العالم ، وفيها الأزهر الشريف صار الاسلام الذي يشع منه نور السلم والدين على العالم الاسلامي فيملؤه هدى وضياء .
أقول : إنه ليس بمزير على مصر وهي كما ذكرنا أن توجد المجتهد ، وتقوم بفرض الاجتهاد لتدفع إثم تركه عن المسلمين ؛ خصوصا في هذا العصر الذي يجلس على عرشها فيه ذلك الملك الصالح أمير المؤمنين « فاروق الاول » أطال الله بقاءه وأدام ملكه ، وأيده بنصر من عنده ؛ وخصوصا في هذا العهد الذي يتولى مشيخة الأزهر فيه ذلك الامام المصلح الجليل الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي طالما دعا الى الاجتهاد ، وحث عليه .

السيد عفيفي

من علماء الأزهر الشريف بالحكام الشرعية

ذم سوء الخلق

قال أبو هريرة رضى الله عنه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشؤم فقال :
« الشؤم سوء الخلق » .

وأخرج البيهقي في شعب الایمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سوء الخلق زمام من عذاب الله في يد شيطان يحمله الى النار » .

وقال عمر رضى الله عنه : « إذا كان في الانسان عشر حصال تسعة منها صالحة وواحدة هي سوء الخلق ، أفست هذه الخصلة تلك التسعة .

وقال شاعر :

وكم من فني أوزى به سوء خلقه فأصبح مذموما قليل المحامد

على بن أبي طالب

بينما أنا أشرع في تحرير تلك السيرة المقدسة لأمتاع القراء من روضها الجلى وعرفها الدكى، جمعت البراعة وجدت القريحة، وخفقت الجنان واصطربت البيان، فتراجعت بحسن الأدب بعد معرفة لسبب: إذ وجدتني لست أهلاً لترجمة ذلك الامام الذى امتدحه الله فى كتابه، واختطبه الى كريمة بنيه، فكان صهره وابن عمه، وأول خليفة من آل بيته، وكان معه فى شرف العنصر الكريم، ومعدن النسب الصميم. ثم بدا لى أن أقتبس من نور القرآن وأدب السنة فى البيان الى ماصح من أقوال السلف والخلف، فأمسكت برمق من الرجاء، وقلت: يتبع الثناء الثناء، كما يتبع الخادم المخدم، وعلى ذلك فأقول:

نسبه وكنيته وصفته:

هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً، أسلمت وهاجرت الى المدينة، وماتت فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكنيته أبو الحسن، كنى بأبى كبير السبطين، وكناه النبى صلى الله عليه وسلم بأبى تراب، حيث وجده نائماً وقد غشيه التراب على أثر مكثه كانت بينه وبين روجه فاطمة، فلما لقه الرسول بقوله: «قم أباً تراب» فكانت أحب الكنى اليه بعد ذلك. وجاء فى صفته أنه كان: أصلع، بطينا، مخموش الساقين، وسيم الوجه، إذا انشم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. وقد نعت ضرار الصداقى لمعاوية بن أبى سفيان بنعت لا تكاد توجد إلا فى الأنبياء، فبكى معاوية عند ذلك وقال: «رحم الله أبى الحسن، كان والله كذلك!».

مولده ونشأته وإسلامه.

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة، ونشأ بها النشأة العالمة، فى كفالة الرسول كأحد أولاده. ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان متروجا خديجة، وكانت ذات مال كثير، وكان الرسول يتجر فيه، فحصل له ربح وفير، فمما أصيبت قريش بالقحط والمجاعة، قال الرسول لعمه العباس: «إن أخاك أباً طالب كثير العيال، والناس فيها ترى من الشدة ما نطلق بنا فلنخفف من عياله: نأخذ أنت واحداً وأنا واحداً». وكان لأبى طالب من الدكر أربعة أولاد، كل واحد بينه وبين الذى يليه عشر سنين، وكان أسنهم طالبا، فمعيلاً، فجمعراً، فعلياً، فلما جاء الاسلام أسلم على الجعفر فعقيل، أما طالب فأتى على الكفر كأبيه. وكان إسلام على وهو صغير فى السنة الثامنة أو العاشرة من عمره قبل أن يتدنس بشئ من رخص الجاهلية، ولذلك قيل فيه: «كرم الله وجهه» لأنه لم يسجد لصنم قط

ولما علم أبوه بإسلامه وصلاته مع الرسول قال له : « أي بني : أي شيء الذي أنت عليه ؟ »
قال : « يا أبت آمنت بالله ورسوله ، وصدقت ما جاء به واتبعته . » فقال له : « أما إنه لم يدعك
إلا إلى الخير فألزمه . »

أقول : هذا اعتراف صريح بصدق الرسول . ومثله قوله :

ودعوتني وزعمت أنك ناصبي ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديننا لا محالة إنه من خير أديان البرية ديننا

ولكنه اعتراف غير مجده ، لأن شرط التصديق المجبي أن يصحبه إيمان وقبول لما جاء به
الرسول ، وقد ثبت أن الرسول دعاه إلى كفة التوحيد وهو في مرض موته فأجابه بقوله : « والله
لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها عينك » . وكذلك كانت معرفة علماء أهل الكتاب بالرسول ،
فإنها لم تجدهم نقما مع أن القرآن أحبر أنهم يعرفونه بنموته في التوراة كما يعرفون آبائهم ، بل
قال عبد الله بن سلام بعد أن أعزه الله بالإسلام : « أنا أعلم برسول الله مني باني » . فقليل له :
وكيف ذلك ؟ فقال « لاني لست أشك في عهد أنه نبي ، أما ولدي فلعل والله قد خانت » .
والله در الأستاذ البوصيري حيث يقول :

بينه تورانهم والآناجي ل وهم في جحوده شركاء
عرفوه وأمكروه وظلما كنتمه الشهادة الشهداء

شجاعته وفروسيته :

إن من المقرر في علم النفس أن التفاوت بين أفراد النوع الإنساني لا يشبه أي تفاوت
آخر ، فإن الرجل ليقدر بألف رجل أو بآلاف أو بأمة ؛ وإن من حق على كرم الله وجهه
أن يقدر في باب الشجاعة والعروسية بشعب كامل ، كما قدر الله تعالى إبراهيم الخليل في باب
النبوة بأمة كاملة . ومن أدلة ذلك موقعه الخطير أمام جيش معاوية بصفين ، فقد حمل عليهم حملة
عنيفة صدعت مقدمتهم ، وتفضت صفوفهم ، حتى لم يبق لأهل الشام يومئذ صف ، إلا تقهقر
إلى الذي يليه ، وكاد معاوية أن ينهزم ويرجع بجيشه من حيث أتى ، لولا أن تداركه عمرو بن
العاص بدهائه لا يساعده . وهذا مما يدل على أن قوة الجيش تقاذه لا بكثرة جند ، ألا ترى
إلى جيش المسلمين بثوثة مع الأمراء الثلاثة وعدمه ، وإلى الفرق السبع بين كونه مغلوبا معهم
وقالبا مع خالد ! ولم لعلى رضي الله عنه من موقف مشرف أعز الله به الإسلام وأعلى منار
مجده ، فمن ذلك موقعه مع طلحة بن أبي طلحة الذي كان بيده لواء المشركين يوم أحد ، حيث
خرج من مقدمة الصفوف وطلب البراز مرارا فلم يخرج إليه أحد ، فقال : « يا أصحاب عهدي زعمتم
أن الله يجعلنا بسيفكم إلى البار ويعجلكم لسيوفنا إلى الجنة ، كذبتم ! واللات والعزى

لوتعلمون ذلك حقا فخرج الى بعضكم ! فخرج اليه على فقتله . ومن ذلك أيضا موقفه مع عمرو بن عبد ود في غزوة الأحزاب ، فانه قد اقتحم الخندق يومئذ في جماعة من مرساة قريش ، ثم نادى : هل من مبارز ؟ فقام علي ، فقال : أنا له يا رسول الله ! فقال له الرسول : اجلس فانه عمرو ، وكان عمرو من أشجع العرب وأعلم الناس بالحرب ، ثم نادى عمرو ثانيا ، وجعل يوبخ المسلمين ، فقام علي فقال : أنا له يا رسول الله ! فقال له الرسول : اجلس فانه عمرو ، فقال : وإن كان حمرا ! فأذن له الرسول في مبارزته ودعا له ، فلما التقيا دعاه الى كلمة التوحيد فلم يقبل ، فدعاه الى العود بقومه الى مكة فلم يقبل ، فدعاه الى المبارزة ، وكان بينهما صراع شديد ، فضربه على فقتله ، وكبر المسلمون ، وانهمز المشركون الى الجانب الآخر من الخندق ، ثم أقبل على الى الرسول ووجهه يتهدل ، فقال له الرسول : « حدثني عن موقفك مع عمرو حين التقيت به » فقال : « وحدثني لو كنت في جانب وأهل المدينة في جانب لقدرت عليهم ! »

إمارته :

بينما الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر وقد أبطا عليه الفتح ، جاءه المرسوم الالهي بإسناد الامارة الى علي كرم الله وجهه ، فقال : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يولي الدبر ، يفتح الله عز وجل على يديه » . فبات المسلمون وكلهم يتمنى أن تكون الامارة له ، حتى قال عمر بن الخطاب : « ما أحببت الامارة إلا ذلك اليوم » . فلما كان الغد بعث الرسول الى علي جاء به سلمة بن الأكوع يقوده وقد عصب عينيه ، فقتل الرسول في كفة الشريفة ومسح عليهما فرأى حتى كأن لم يكن بهما وجع ، ثم أعطاه الراية وألبسه درعه وقلده سيفه وقال له : « امض لما أمرك الله » ، فلما كان عند الحصن الذي هو أكبر معقل لليهود ، خرجوا إليه ، ودارت رحى القتال بينه وبينهم ، فنصره الله وهزمهم شر هزيمة ، وتم الفتح على يديه كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

أقول : إن الفصيلة والعزة والكرامة ، فيما ناله علي في تلك الامارة من وسام الشرف القدسي ، أما حصول الفتح على يديه فليس فيه غرابة ولا عجب ، لانه كالشيء يقع موقعه ويصادف أهله ، ألا ترى اليه وهو يقدر نفسه في مواجهة الرسول بشعب قوي حيث يقول : « لو كنت في جانب وأهل المدينة في جانب لقدرت عليهم » ؟ ولم يخف على الرسول صدقه في ذلك التقدير من قبل ، فقد عهد إليه أن يبيت مكانه في تلك الليلة المأكرة بالباغية التي اتفقت فيها قبائل العرب على الفتك به صلى الله عليه وسلم ، ولو كان علي غير متين في الحلم والدين لا فتخر بتلك الذكرى العالمية التي ملأت ما بين المخافقين ، ونالت إعجاب أهل المشرقين ، وكان من حقه أن يتمثل بقول سلفه في البطولة والشجاعة :

إذا مارأني الغرب ذل لهيبتني ولا زال باع الشرق عنى يقصر

مكانته عند الله والرسول :

إن فضائله التي أكتسبته تلك المكانة السامية ليس في إسكان مني أن يحيط بها ، ولكن في الامكان أن أقتطف منها نبذة على سبيل التبريك بها والتيمن بذكرها ، فمن ذلك ثناء الله جل ذكره عليه في القرآن الكريم كقوله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . نزلت في علي وفاطمة والحسين ، فقد حلقهم الرسول كساءه ، وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » . ومن ذلك حديث المؤاخاة بينه وبين الرسول ، فقد كان موضع الغبطة والاعجاب عند جميع الأصحاب ، أخرج الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخى بين أصحابه خاء على رضى الله عنه يسكى ويقول : يا رسول الله آحيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، فقال له الرسول : « أنت أخى في الدنيا والآخرة » ! ومن ذلك أيضا حديث خطبة أبي بكر وعمر فاطمة الزهراء بنت الرسول من أبيها ، وأن الرسول سكنت ولم يرجع إليهما شيئا ، وأهما انطلقا الى علي فطلبها اليه أن يحطها لنفسه ، وأنه لما سأل الرسول في ذلك أجابه بقوله : « لقد أمرني ربى أن أزوجه منك » . والله در على حيث يقول :

محمد النبي أخى وصبرى	وحمة سيد الشهداء صمى
وجعفر الذى يصحى ويمسى	يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرمى	مشوب لحما يدى ولحى
وسبطا أحمد ابنائى منها	فن منكم له سهم كهمى
سبقتكم الى الاسلام طرا	غلاما ما بلغت أوان حلى

عبقريته في العلم والذكاء :

لقد جاء في القرآن المجيد أن الله تعالى يمد بالعلم من لدنه أهل التقوى ، كما قال جل ذكره : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، وهؤلاء هم العلماء الربانيون الذين تولى الله تعليمهم في سرائرهم ، وأطلق بالحكمة ألسنتهم ، ومن أجل ذلك كان علماء الصحابة على جاب كبير من الثقافة العلمية ، لأنهم كانوا على جاب كبير من التقوى ، وكان أوفرهم نصيبا وأكرمهم مددا من الرسول : علي بن أبي طالب ، ولهذا كانت اليه الفتوى في حياة الرسول وبعده ، حتى ضرب به المثل بعد وفاة الرسول ف قيل : « قصية ولا أبأ حسن لها » قال عبد الله بن عباس : « قسم علم الناس على خمسة أجزاء ، فكان لعل منها أربعة ولأسائر الناس حرة شاركهم فيه فكان أعلمهم به » . وقال عبد الله ابن مسعود : « كان على رضى الله عنه أقرض أهل المدينة وأقضاهم » . يريد أعلمهم بعلم الميراث والفصل في القضايا بين الناس . ومن دلائل عبقريته المدهشة أنه كان يسأل عن الأمور المشككة فيجب فيها على البديهة كما يجيب أحدنا إذا سئل عن نصف الاثنين ، ألا ترى الى جوابه

وهو على المنبر في الفريضة المنبرية المشهورة وقوله على الفور : « صار ممحاً تسماء » فإن أكثر العلماء لا يصل إلى تلك النتيجة إلا بواسطة عمل الفكر والقلم معا ومن ذلك جوابه للمرأة التي جاءت تشتكي وتقول : « مات أخي ولم آخذ من تركته إلا درهما واحدا ، وقد خلف ستائة درهم » فأجابها على اليدوية بقوله « لعل أخاك قد ترك سواك زوجة وأما وابنتين واثني عشر أخا » ، فقالت : نعم ، فقال « ذاك حقك » .

وأغرب من ذلك كله وأعجب قوله رضى الله عنه : « لو أذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصعب على الفاتحة وفر سبعين نعيرا لعملت »

أقول : إن هذه الثقافة العالية الخارقة للعادة ليست من ثمرة العلم السكبي ، وإنما هي من عرات التعليم الإلهي ، ولذلك قال بعض الأصوليين : « لو لم يكن شاهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أصحابه لكفوا في إثبات نبوته » . وقال أبو يزيد البسطامي لمن أنكر عليه علمه في مثل هذا : « أخذتم عليكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت » .

خلافته :

هو أول خليفة من نبي هاشم ، وأول من لقب بأمر المؤمنين من آل بيت الرسول . بويع له بالخلافة بعد عثمان بن عفان على كره منه . وسبب الخلاف بينه وبين معاوية أن قتلة عثمان كانوا يوم بويع له مجتمعين ولم تغمد سيوفهم ، فرأى رضى الله عنه أن من الحكمة تركهم حتى يغمد نارا فتنه وتم البيعة ، ورأى معاوية أنه يجب الأخذ بدم عثمان قبل الشروع فى البيعة ، وانضم إليه فى هذا أهل الشام وطائفة من أهل مصر والعراق . على أن تخلف معاوية وأمثاله من الصحابة لا يقدح فى بيعة على ، لأن الصحابة على بكرة أبيهم قد أجمعوا فى زمن الشورى على أنها لعل أول عثمان ، وقد نفي ذلك الإجماع على ما كان عليه قبلا ، قال العلامة الحافظ ابن حجر : « إن بيعة على كرم الله وجهه قد ثبتت بالإجماع السابق ، وإنه لا اعتداد بالخلاف الطارى » .

وإنى أشفق على القارى الكريم أن ينتقد شيئا من أعمال الصحابة رضى الله عنهم ، لأنها مبنية على الاجتهاد وطلب الوصول إلى الحق . وقد أسلفت لك أن عليا كادى النهاية أن يتغلب على معاوية وجيشه لولا خدعة عمرو بن العاص ودعوته إلى التحكيم الذى لم يقبله على ، ولم يرض بمن أنابوه عنه ، ولكنه رأى جيشه قد انقسم عليه فتنازل بالقبول حسنا للنزاع ، وكأنى به وقد غلب على أمره وهو يقول :

لقد بان وجه الرأى لى غير أنى غلبت على الأمر الذى كان أحزما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

مقتله :

كان من عادة علي كرم الله وجهه أن يحمي بغير حرس نخرج يوما لصلاة الفجر كمادته وهو يقول : « أيها الناس : الصلاة الصلاة » ، فضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادي على قرنه ، فأدركه الناس وقبصوا عليه حتى قتله الحسين بعد موت أبيه ودفنه . ومدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر . وعمره ثلاث وستون عاما . وقد ذكر له العلامة ابن خلكان كرامة بعد موته حيث قال : خرج هارون الرشيد مرة إلى الصيد كمادته ، فأنهى به الطرد إلى موضع قبر علي الآن ، فوقفت اليهود دون القبر ولم تتقدم نحو الصيد ، فتمجيب الرشيد من ذلك ، فجنابه رجل من أهل الخبرة وقال : يا أمير المؤمنين أرايتك إن دلتك على قبر ابن صملك علي بن أبي طالب مالى عندك ؟ قال : « لك أتم مكرمة » ، قال : هذا قبره ، فقال له الرشيد : « من أين علمت ذلك ؟ » قال كنت أجيء مع أبي فيروز قبره ، وأخبرني أنه كان يحمي مع جعفر الصادق فيزوره ، وأن جعفرا كان يحمي مع أبيه عبد الباقر فيزوره ، وأن عمدا كان يحمي مع أبيه علي زين العابدين فيزوره ، وأن عليا كان يحمي مع أبيه الحسين فيزوره ، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر . فأمر الرشيد أن يحصر الموضع . ثم تزايدت الأبنية فيه بعد ذلك ، والله أعلم ؟

سيرة محمد متولى السني

من علماء الأزهر الشريف

أحسن ما قيل في المروءة

قال الحكماء : « المروءة جامعة لأشتات المبرات ، جالبة لأسباب المسرات ، دالة على كرم الأعراق ، باعثة على مكارم الأخلاق ، ناظمة لفلائد الفوائد ، عاقلة لشوارد المحامد . وقد جمع الله تعالى منفرداتها في قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . وجمعها النبي صلى الله عليه وسلم على نوع آخر فقال : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، وحذتهم فلم يكذبهم ، فهو من كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته » .

اللغة العربية بين القوة والضعف

— ه —

برامج الدراسة — دعائم الإصلاح

لم أكن أتوقع عندما بدأت أعالج موضوع إنهاض اللغة العربية في برامج الدراسة : ان تسرع الأيام مساعدة بالعباية الجديدة التي تجلت مظاهرها من مختلف الجهات أفرادا وجماعات ، وفي الطليعة وزارة المعارف صاحبة الشأن الأول فيما يختص بثقافة الجيل الجديد من شباب الأمة الذين سلكت بهم الحياة طريق التعليم المدني في مدارس الحكومة ، فكان من المصادفات الموقفة ظهور هذه الحركة المشاركة من جانب رجال الثقافة ، وفي مقدمتهم الوزير الأديب صاحب المعالي « حبيب هيكيل باشا » ، فقد أظهر معاليه من الاهتمام بأمر اللغة وإنهاضها من كبوتها ، واستصلاح المسلكات والألسنة والأقلام : أن تتنادى في شئوننا العلمية والأدبية بالفصحى - ما حقق أمنية الأدباء في وزير الأدب والثقافة ، ولشد ما كانت عظمتهم حينما رأوا مظاهر العمل الجدي تأخذ مكانها من برنامج الإصلاح ، وتنال منه اللغة أوفر نصيب . فقد أمر معاليه بتأليف لجنة للنظر في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ووضعت هذه اللجنة تقريرها ورفعته الى معالي الوزير ، وهذا في ذاته عمل مشكور سيحفظه تاريخ النهضة في عداد محامد عهد الوزير الأديب .

أما تقرير اللجنة من الوجهة لعمية فلسا الآن بصدد التعرض له ، لأننا نحب أن نقرئ في درسه وبحته ، ولكننا نأخذ على أولى الشأن طريقة تأليف تلك اللجنة وتخصيصها لطائفة معينة من رجال الثقافة والتعليم ، وإهمال أعظم معهد إسلامي قام منذ ألف سنة على حراسة الفصحى ودراسة فنونها دراسة بؤات مصر مكان الرعامة الأدبية في الشرق العربي .

إن الإصلاح النقابي إذا لم يقم على أساس توحيد الوجهات الدراسية في المواد العلمية العامة في جميع معاهد العلم ، لا يمكن أن يؤدي الى نتائج المرموقة ، ولا يتأتى توحيد الوجهات الدراسية إلا إذا اعتمد على التفاهم بين أبناء المعاهد كلها ليتم التعاون الإجماعي على الإصلاح ، فكيف ساغ لدعاة الإصلاح إهمال الأزهر الشريف وهو من سمع الدنيا وبصرها !!

إن في الأزهر - فوق قدميه الابتدائي والثانوي في معاهده - كلية للغة العربية ، تدرس اللغة العربية وفنونها على أحدث الأنظمة ووفقا بالأغراض الإصلاحية ، وتستطيع بأساتذتها وطلابها مفاخرة بهم أن تقف من المعاهد العلمية الدارسة للغة العربية والأدب العربي موقف الصدارة ، أذا كان من البر بأكبر جامعة إسلامية ، وأعظم معهد عربي ، وفيه هذه

الكلية العظيمة لدراسة اللغة وفتونها أن تستشار — على الأقل — في مهج الإصلاح اللغوى حتى يعرف رأيها ومذهبها فيه ؟ وليس هذا الإصلاح مما يخص وزارة المعارف ومدارسها حتى يختص بدراسته وحالها ، ولكنه أمر يتعلق بلسان الأمة العربية كلها في جميع بلدان الشرق ، ويتعلق بلغة القرآن الكريم ، وعلى قواعدها يتوقف فهمه الآن ، والأزهر هو الذى يستطيع أن يمثل أقطار الشرق العربى من الوجهة العلمية ، وهو الذى يستطيع أن يصور صلة الإصلاح اللغوى بأسلوب القرآن الحكيم .

إننا نعتقد أن الفرصة لا تزال سانحة للتعاون ، فعسى أن يتدارك الناهضون بالإصلاح الأمر قبل فواته ، فالأزهر الآن يجب أن ينظر إليه فى الحياة العلمية الإسلامية ودراسة العلوم العربية ، نظرة تقدير تتلاءم مع حلاله التاريخى ، وتتفق مع حاضره الباهض فى عهده الممارك ، وهو لن يرضى الدينية فيما يتصل بكيانه ورسالته فى الحياة .

هذه ملاحظة طائفة تنصل عوضوع اللغة العربية ، ولا يعمتها بدأوها من أن لغتبط بهذه النهضة الإصلاحية على يدى معالى الوزير الأديب ، وأن سجل سعيه الحميد فى استعمال اللغة الفصحى فى دراسة جميع المواد أدبية وعلمية ، وهذه إحدى دعائم الإصلاح الحسنى التى أقام عليها بحسنا ، وقد أصدر معالى الوزير قرارا يعزز به سعيه الحميد جاء فيه : « لمد الاطلاع على ما تقدمت به الهيئات المختصة من حيث ضعف مستوى تلاميذ المدارس الثانوية فى اللغة العربية ، وبناء على ما تجميع لدينا من الأدلة على ضرورة النظر فى هذا الأمر ، تقرر تشكيل لجنة تكون مهمتها وضع المبادئ التى تتخذ أساسا لإنهاض التلاميذ فى اللغة العربية واصلتهم بحركة التحديد والثقافة العربية الحديثة ، وما يتطالع ذلك من غرض المناهج ، واقتراح ما يدرس للتلاميذ من الكتب فى الأدب والقراءة الخاصة ، وغير ذلك » .

ومع أن هذا القرار شكل هذه اللجنة أيضا من طائفة معينة من رجال التربية والتعليم فأما محمد لمعالى الوزير جهوده ، ولا يقوى اعتراضنا هنا قوة اعتراضنا هناك ، لأن هذا إصلاح على جزئى وذاك إصلاح عام كللى ، والتعاون بين جميع المعاهد فى كل شأن من شئون الإصلاح العلمى خير ما يعتمد عليه الإصلاح . ولنعد الى بحسنا واصلين حلقاته بما قدما :

أوضحنا فى المقال السابق أن برامج الدراسة فى الأزهر والمعاهد الدينية كانت متفقة تمام الاتفاق مع برنامج مدرسة دار العلوم فى منهاج فنون اللغة العربية وكتبها التى تدرس فيها ، وأن دار العلوم كانت تعتبر فى نظر الأزهر ومعاهده شعبة تخصص فى فنون اللغة وطرائق دراستها ، فهى وإن كانت تدرس كتب الأزهر كالألفية وشرحها وحواشيه فى النحو والصرف ، وكالتأخير وشرحه للملازمة سعد الدين التفتازانى فى البلاغة ، لكنها فى الحق تختلف كثيرا فى طرائق دراسة تلك الكتب عن الأزهر ومعاهده ، فالنظام الذى كان يجعل

لدار العلوم الحق في أن تفتح أبوابها للناهين من طلبة الأزهر والمعاهد الدينية بعد إتمامهم من المرحلة الثانية من المراحل التعليمية في الأزهر ، كان كفيلا بأن يضم جوائع دار العلوم على نخبة من الطلبة قد درسوا تلك الكتب التي سيدرسونها في معهدهم الجديد ، غير أن الدراسة الأولى كانت دراسة بحث عمق في الألفاظ والعبارات ، تربي في الطالب ملكة الدقة والعمق في الفهم ، وتثبته على النقد ومحاكاة التقليد والتأمن على ما يقال كيفما يقال ، والدراسة الثانية دراسة تطبيقية تعنى أشد العناية بعرض الشواهد والأمثلة وفهمها فهما منطبقا على قوانين تلك القواعد التي أفرغ لأزهر لبحثها جهده وعنايته ، وكان من نتائج تلك الدراسة أن ظل الأزهر دهرًا دهرًا يخرج علماء باحثين ، يدورون حول عبارات المؤلفين أخذًا وردًا وتوليدًا وتحقيقًا ، ولم يستطع إزاء ذلك أن يعد الأمة بمحاجاتها الثقافية في هضمتها الأدبية والعلمية ، لأنها كانت في حاجة شديدة إلى تبسيط الأساليب الدينية واللغوية ، وفي حاجة إلى أدب إنشائي يلائم طبيعة الحياة الجديدة التي امتزج فيها الغرب بالشرق ، واحتلقت فيها الثقافات المختلفة ، وضرت فيها كل أمة بهم على قدر حظها من النهوض العلمي والرفق الثقافي ، وظل الأزهر بعيدًا عن أداء رسالته بطريق التلميع والإذاعة ، وإن كان قد وقي بحق الدراسة والتحقيق ، والتأخر في تاريخ التعليم في تلك الحقبة يرى أثر ذلك واضحا في سجل العلماء المحققين ، فهم كانوا في الأزهر كثرة لا تحصى ، ولكنه لا يجد منهم إلا عددا قليلا جدا برز بأسلوبه وأبحاثه إلى ساحة النهضة ، وشارك فيها مشاركة فعالة ، وهذا القليل من رجالات الأزهر استطاع أن يوجه النهضة ويقنع منها مكانا لزعامة الفكرية ، لأن الدراسة الأزهرية مكنت فيهم روح الاستقلال وحرية الرأي وحس البحث ، وكانت لهم إلى جانب ذلك أذهان نيرة وقراء صافية ، فلما خرجوا إلى الحياة ورأوا ألوانا جديدة من التفكير تقدموا إليها بمعارفهم وملكاتهم الأزهرية ، فعضموا منها في أوجز زمن مالم يستطع غيرهم هضم مثله في أضغاث رمهم . ولا حاجة لنا أن نضرب الأمثال بالاستاذ الامام وتلاميذه وأقرانه ممن كانوا فلاة جرد التاريخ ، لأن شأنهم في النهضة مشهور معروف .

ومن الحق أن نعترف أن الأزهر في جهرته لم يكن ليرضى عن مذاهب تلك الفلة في التفكير ، وهذا سر مجافاته للإصلاح في ذلك الحين ، مما باعد بينه وبين صرافق الثقافة المدنية في مدارس الحكومة ومعاهدها ، بل باعد بينه وبين محامع الأدب وأبدية العلوم والمعارف ، ومحامل الثقافة العامة ، فلم يسطع في أفقه نجم شاعر يتغنى بأمال الأمة ويردد آلامها ، ولم تشرق من صفاته شمس كاتب فارح يحدد للفصحى ديباجتها ويميد لها مجدها ، ولكن نتائج الدراسة التطبيقية في مدرسة دار العلوم كان لها أثر عملي هو الذي حفز الأزهر على طلب الإصلاح ، مما سنتحدث عنه ، إن شاء الله بعد .

صادق إبراهيم عرجونه

التفسير

سورة والعصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأيضا أن تفسر هذه السورة الكريمة لما فيها من عظيم الفوائد وجليل العوائد على إنجازها واختصارها ، حتى قال الشافعي رضي الله عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتمهم . كيف لا وقد أرشدتهم الى أن سبيل السعادة إنما هو الإيمان والعمل الصالح الذي يعود عليك وعلى بني نوعك ، وليس يكفيك أن تعمل ذلك في خاصة نفسك ، بل عليك أن توصي أخاك بانتهاج الحق والتزام الصبر على ما عسى أن يلقاه في هذه السبيل ، مع بيان أنك إذا لم تفعل ذلك أحاط بك الحسر من كل جانب ، كما تدل عليه كلمة « في » المفيدة للطرفية المحيطة ، مع الإقسام على ذلك ، الى آخر ما سيتضح لك في تفسير السورة . ولهذا كله روى الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب أن الرجلين من أصحاب رسول الله كانا إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر الى آخرها ، ثم يتفارقان . وكانهما يقصدان بذلك القيام بالنواصي بالحق والصبر عند الفراق ، وكانها وضعت بجانب سورة التكاثر للإشارة الى أن من أطام التكاثر في خسر ، وأن من لم يلهم التكاثر هم الراحون الفائزون ، وليسوا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وبالجملة : ففي السورة من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، ما لا يخفى .

البيان التفصيلي :

المراد بالعصر الدهر ، وقد قرأ على فيما يروى عنه : والعصر ونوائب الدهر . وهو تفسير للمراد بالعصر ، وليس قرآنًا ، فهو نظير « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » وهي صلاة العصر .

نورود هذه المقالة بعد الشروع في الطبع لم نستطع أن نضعها في المحل الجدير بها

وقد أقسم به تعالى لما فيه من التقلبات والأعاجيب الدالة على قدرة الله تعالى وسعة تصرفه ، وعظيم سلطانه ، الذي يعرفك كما يشاء ، فيقلبك من صحة لمرض ، ومن فقر لغنى ، ومن ذل لعز ، ومن حياة لموت ، الى آخره .

ومن لطيف ما قيل : إن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو صيغت مائة سنة ثم نلت في العصة الأخيرة من العمر ، بقيت في الجنة أبد الآباد ، فعلت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك المصعة التي ثبت فيها ، فكان الدهر من أكثر النعم لديك وأجداها عليك . فلذلك أقسم به لتعلم أن ما يمر من الليل والنهار فرصة ثمينة يجب أن لا تضيئها أو تفرط في شيء منها : « وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » . فإخسارة من ضيع عمره الذي يمكنه أن يربح فيه السعادة الأبدية ويفوز بالنعيم المقيم الذي لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال :

إنا لنفرح بالأيام تقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من مائع النلج : كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن ، ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن . فقلت : هذا معنى إن الانسان لى خسر : يمر به الزمن فيمضي عمره ولا يكتسب فيه شيئا .

ويصح أن يراد بالعصر : أحد طرقي النهار ، وهو الوقت المعروف ، فيكون تعالى أقسم بالعصر كما أقسم بالصبح والفجر ، الى آخره ، لما في ذلك من دلائل القدرة ، وكأنه إشارة الى أنه ينبغي لك أن تتذكر بمضي النهار ومجيء العصر خراب الدنيا ومضي الأجل ، وأن الانسان الذي يفعل عن ذلك في خسر . ويصح أن يكون تعالى قد أقسم بذلك الوقت لتعظيمه ، لأن الصلاة فيه هي الصلاة الوسطى على ما هو المشهور ، وقد ورد تعظيمه في السنة من وجوه كثيرة ، والقرآن يقول : « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا » . وفي الحديث « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » . وإن شئت فاقصر على أن المراد الدهر ، فهو أقرب وأظهر .

أما قوله : « إن الانسان لى خسر » . قال فيه للاستغراق دليل الاستثناء . والمراد بالخسر : النقصان . وإن شئت قلت : الهلاك وذهاب العمر في غير فائدة . وإن شئت قلت : إنه في سلال ممين وجهالة عمياء . ونهى خسر أعظم من ضياع السعادة الأبدية بحقر لا يبقى في يدك منه شيء أبته ! « أفرأيت إن متعانم سنين » ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنه ما كانوا يمتنعون . خسر يجعل الكافر يقول : « يا ليتني كنت ترابا » : وليته مع ذلك يبلغ في حياته الدنيا ما يؤمل ، أو يصل الى ما يقصد ، هيئات هيئات ! وإنما هي أوهام خادعة وأمانى باطلة ، كسراب بقيمة يحسبه الظن أن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

ألم تر أن المرء طول حياته يحاول أمراً لا يزال يعالجه
يدور كدود القز ينسج دائماً ويملك فما وسط ما هو ناسجه

والخلاصة : أن الناس — إلا من استثنى الله — في خسران . في مناجرتهم ، ومساعدتهم ،
وصرف أعمارهم في مبالغهم الدنيوية وشهواتهم البشرية . ولك أن تقرّر حسر الانسان بأن
روحه ملوثة ربانية هبطت إليك كما قال ابن سينا :

هبطت إليك من الملأ الأرفع ورقاه ذات تعذر وتنع
إلى أن قال في بيان قصر هذه الحياة وسرعة انقضائها :

فكأنه برق تأنق بالحي ثم انطفئ فسكأنه لم يلمع

وقد كنت واصلاً من الشرف والرفعة إلى أن الله جعلك خليفة في الأرض ، وسجد لك
ملائكته . وقد كان يحملك بهذا الاستعداد الذي أودعه الله فيك ، وذلك السر الذي أشار إليه
بقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » أن جعله قادراً سردياً ، عالماً بجميعها
بصيرة ، إلى غير ذلك من النعمت الجليلة والصفات الجميلة . ويقول الله لأبليس : ما منعك
أن تسجد لما خلقت بيدي . فانظر إلى ذلك التشريف الذي يسر إلى غاية العناية بالانسان ،
حيث خلق باليدين جميعاً ، بخلاف غيره من المخلوقات ثم انظر كيف نزل من فوق ذلك العز
الشامخ الذي كان به في أعلى عليين مع الأنبياء والمرسلين ، إلى حضيم الحيوانات ، يرفع في الظلمات ،
ويتقلب في صنوف الآفات ، لمقتضى شهواته الشهيمية ، واتهما كه في مطاله الدنية . والله در أحد
أئمة الشافعية حيث يقول :

إلى كم نادى في غرور وغفلة	وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
أترضى من العيش اللذيذ تعيشه	مع الملأ الأعلى بعيش الهيبة
لقد صاع صر ساعة منه تشتري	بملء السما والأرض أبة ضيعة
فيادرة بين المزال أرميت	وجوهرة بيعت بأبجس قيمة
فإن يباق تشتريه سفاهة	وسخطا برضوان ومارا بحجة
أأنت عدو أم صديق لنفسه	فأنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما	فعلت لمستهم لها بعض رحمة
فيا عاملاً تثار جسمك لين	لجربه صرات بحسر الظهيرة
وجريه في لسع الزماير تجترى	على لسع حبات هلك عظيمة

إلى آخر ما قال .

وبالجملة : فما أشد حسر الانسان ، وما أعظم الفرق بين حاله إذا نظر إلى حياته العنصرية وطاعته
لسلطان الهوى والشهوة ، وانقياده لنفسه الأماراة بالسوء ، وإلى ما كان عليه حال حياته

الروحية قبل تعلق الروح بالبدن عند ما كانت تشرح بين أفراد الملائكة الأعلى ، وتسبح في ذلك العالم الذي يبعد كل البعد عن ملابسة الادماس والألوات . وعلى كل حال فليس الشأن أن تكون إنسانا حيوانيا ، بل الشأن أن تكون إنسانا روحانيا ، ولا تكون كذلك إلا إذا سافرت من ظاهرك الى باطنك ، وهناك تعرف ما يحب عنك من شريك وهو قدرك الذي حمل الملائكة تسجد لك قبل أن تزل الى حضيض حيوانيتك كما قلنا ، فكن ممن عرف نفسه فعرف ربه ، ولا تكن ممن نسوا الله فأفسام أنفسهم . ومن الغريب أن الانسان هو الحيوان الناطق ، وأن روح الانسانية هو ذلك النطق المراد به الادراك والتفكير ، فانه المعنى الخاص بالانسان ، وأما الحيوانية فأمر مشترك بينه وبين الحشرات وجميع الحيوانات ، ومع ذلك لا نجد من أكثر أفراد هذا النوع إلا الحيوانية المشتركة ، لا النطق والتفكير الذي هو مبرك وروح إنسانيتك .

واختصار الموضوع : أن حسر الانسان إنما نشأ من ظنه أنه إنسان بحسه ، فاعلاما أودع فيه من الأسرار التي تجعله « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ولتعلم أن رأس مال العبد قلبه ، وبضاعته عمره ، فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أسأ بالله فهو مغبون ، فاحتد فيما ينفعك قدر الاستطاعة ، واستغفر من ذكرك وتقصيرك ، وأيقن أن كل لحظة يحصر فيها قلبك أو يذكر فيها لسانك أو يتعطف فيها عقلك ، فهي كثر تخمين ، فاستكثر من الخيرات بقدر ما يمكنك ، وتباعد عن الغفلات بقدر ما تستطيع ، وحل الله التأييد والتسديد ، ولا تكن ممن قيده عالم الشهادة عن عالم الغيب . واعلم أن من غفل عن الله ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، ولذلك قال تعالى « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

ولا يفوتك أن سلاح الشيطان إنما هو الشهوات ، فاذا غلقت بابها لم يجد الشيطان مدخلا الى قلبك ، وإذا تأملت علمت . فإذن عدو نفسك التي هي مركز شهواتك التي يوقد الشيطان بها ناره في قلبك ، وقد قالوا : من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره . فان كنت تحبها فأحسن اليها بمحافتها وحياسنها ، واشغلها بمراضى الله ، فانك إن لم تشغلها شغلتك : « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » .

ومما يحسن أن نلفت نظرك اليه : أنه أتى سبحانه وتعالى بمؤكدات كثيرة : فاقسم بالعصر ، وأتى بإن واللام ، واسمية الجملة ، ثم ذكر « في » التي للظرفية ، التي تقيد أن الحسر محيط بالانسان من كل جهاته . وسر الإتيان بذلك المؤكدات أن الانسان يحفل بحسراته وينكره ولا يكاد يدركه ما دام لا يشعر بحقيقته العلوية وروحه السماوية . ومن أين له أن يدرك ذلك وهو مكبل بشهواته ، مسجون في سجن طبيعته ؟

وإجمال القول : أن الآية تشير الى أن الانسان في غاية الحسرات ، كما يوشد اليه تنوين

التمظيم ، مع أنه لا يشعر بشيء من ذلك الخمراني ، بما زين له من سوء عمله وتحكم شهواته :
« أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا » ، ويقول تعالى في الآية الأخرى : « وكذلك زينا لكل
أمة عملهم » ، وإن تطلع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله .

ولنختم كلمتنا لليوم بما ينسب للامام علي كرم الله وجهه ، قال :

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر

وتزهر أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

أسأل الله أن يعرفنا سرار إنسانيتنا ، ولا يحرمنا من أنوار روحانيتنا ، وأن يخلصنا

من قنوسنا الأمارة ، حتى نلقاه آمنين مطمئنين ، راضين مرضيين ، بمنه وكرمه .

يوسف الدمجوي

عضو جماعة كبار العلماء

الحياة رأس مكارم الاخلاق

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مكارم الاخلاق
عشرة ، تكون في الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه ، وتكون
في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله لمن شاء من عباده : صدق الحديث ، وصدق
البأس ، وأن لا يشيع وجاره وصاحبه جائعان ، وإعطاء السائل ، والمواساة بالنائل ، والمكافاة
بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذم للجار ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياة » .
وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء حلقا وحاق هذا الدين الحياة » .

نقول : ليس المراد من الحياة ما هو معروف من الأزواء وتهيب الكلام بين الرجال
في المناسبات ، ولكن المراد منه أن تهيب الانسان إتيان كل عمل لا يصبغ صدوره من رجل
يعرف قدر نفسه . ولذلك قال يزيد بن علي : « إني لاستحي من الله تعالى أن أفضي اليه شيء
أخفيه من غيره » ، وعقب عليه شارحه بقوله : « الحياة من الناس يكون بكف الأذى ، وترك
المحاهرة بالقبيح » .

وقال الشاعر :

ورب قبيحة ما حال بيني وبين وكوبها إلا الحياة

فكان هو الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياة فلا دواء

معرض الآراء العالمية

الجامعة الأزهرية هيكل الفكر الاسلامي

جاء في جريدة (لا تريبون دوجنيف) الصادرة بتاريخ ٤ يوليو سنة ١٩٣٨ ما ترجمته :
 وليست الجامعة الأزهرية بالقاهرة أكبر جامعة اسلامية غصب ، ولكنها أقدم جامعة علمية
 في العالم أجمع . في اليوم التاسع من رمضان سنة (١٣٦١) للهجرة الموافقة لسنة (١٩٨٣)
 من تاريخها أقيمت أول صلاة في الجامع الأزهر ، وبعد سنين قليلة أضاف إليها الخليفة الأزهر
 (كذا) جامعة علمية . وقد بلغ عدد طلابها الآن نحو عشرة آلاف مستمع جاءوا إليها من جميع
 الأقطار التي دخل إليها الاسلام . ففيها مصريون وهم سواد الطلبة الأعظم ، ولكنك ترى
 بجانبهم عرماً من جميع نواحي بلاد العرب ، وهنودا وصيبيين وأندلسيين وبابانيين وأفغانيين وفارس
 وصوماليين ومراكشيين وجزائريين وتونسيين وطرابلسيين . فقد اجتمعت فيها جميع الألوان
 الجلدية من الأبيض الناصع الى الأسود الغامق . وهؤلاء الطلبة يمتازون عن الدهماء بهمة يمشاء .
 وهم عادة حيدو اللباس ، وفي أرجلهم أحذية ، وعليهم جبة من طراز الحرامل ذات لون قاتم .
 ويكادون يكونون جميعاً يتقاصون مرتبات مالية من الجامعة ويتعلمون بالمجان ، وهم يعيشون
 بفضل هبات وقعت عليهم يحصلون منها لا على الغذاء والغطاء فحسب ، ولكن على شيء
 من الدرامم لحاجتهم الصغيرة . وهم يقيمون معاً في مبان فسيحة ، كل قبيل مع أنشاء جنسه
 وبلده ، وتسمى هذه المباني بالأروقة (كذا) . فيوجد هنالك رواق السودانيين ورواق
 الهنود الخ ، وعدد هذه الأروقة ثلاثون . وحفظ هذه الجامعة يكلف الحكومة ملايين كثيرة
 كل عام (كذا) .

« هذه الجامعة تستعمل مبانى أخرى غير المسعد . فالمسجد ممتاز بتعليم التوحيد والفقه ،
 ولكن هنالك بالخزيرة (كذا) دور أخرى لتلقين جميع الفروع العلمية . فلتعليم اللغة العربية
 والتمق فيها دار مها . وقد بقي المسعد المركز الجامع لكل هذه الفروع ، ومستقر القيادة
 لها وهو الذي يحفظ على هذه الجامعة صيغتها الدينية الأصلية . وهنالك يقيم الأستاذ الأكبر
 للجامعة ، شيخ الأزهر ، والمتربع في دست هذا المنصب اليوم يسمى محمد مصطفى المراغي
 وهو رجل دو حاه عظيم .

« الدروس في هذه الجامعة مطولة جداً ، وهي موزعة على سبع عشرة سنة في نهايتها يختبر
 الطلاب للحصول على لقب دكتور من الأزهر . هذا اللقب يعطى صاحبه حق التدريس في أية

مدرسة من العالم الاسلامي ، وترشح لمنصب القضاء الاسلامي ، ولنفل أي منصب في المملكة حتى أرقاها درجة ، وتعد حاملها للوعظ في المساجد .

« في نهاية السنة الحادية عشرة الدراسية تعمل امتحانات تعطي للناحجين الحق في أخذ شهادة تدعى بالاهلية التي تمكنهم من الحصول على وظائف التعليم الاولى ، وعلى تأدية بعض المهام في المساجد .

« إن الطابع الديني لهذا التعليم يقتضى أن يؤدي الطلبة جميع واجباتهم الدينية في المسجد . وفي ساعات التدريس أو في أثناء تأدية الصلوات يحظر دخول الناس الى الأزهري لغير الطلبة والمدرسين حظرا دقيقا . والدروس تعلى بالمسجد نفسه ، فيجلس الشيخ المدرس على الأرض في وسط حلقة من الطلبة » .

هذا ما قالته الجريدة التي نقلنا عنها ، وكثير مما قالته يحتاج لتقويم .

يقظة العالم العربي :

الجامعة الاسلامية :

جاء في العدد الصادر من حريدة (البوبولير) الفرنسية في ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٨ تحت هذا العنوان مياتني من مقال باسماء (جورج وجنير) :

« مهما يكن من أمر فإن فكرة الجامعة الاسلامية تتقدم تقدما عظيما فان كل مسلم كما هو معلوم يجب عليه كما أمره النبي أن يحج الى مكة في حياته ولو مرة واحدة . وهذا يحقق له السعادة المستقبلة ويكسبه نوما من ألقاب الشرف وهو لقب (الحاج) ما دام حيا . وفي العهد الذي كانت فيه البلاد المقدسة تحت سيطرة الباب العالي الضعيف المتداعي ، لم يكن للحج أي صبغة سياسية . فقد كانوا يستغلون الحاج استغلالا ماليا ، ولكنهم ما كانوا يثيرون روح العصبية فيهم . أما اليوم فإن ملك الحجاز وهو يعتبر الوارث لملك محمد يرمي لمصلحته الى تأسيس الوحدة الدينية للمسلمة مليون من المسلمين المنتشرين في قارتي آسيا وأفريقيا .

« لذلك ترى الحاج الذين يهودون الى أوطانهم من مكة مصابين بضرب من الجنون المقدس ، وبنوة من العقيدة الوحداية بوشك عود الدين الحق المتزه عن البدع . وقد لاحت لي فرصة للتحدث طويلا في هذه الايام الأخيرة مع شاب عراقي أخذ بعضا من ثقافته من مدارسنا وهو يفيض حماسة وطنية . فأكد لي أن الاسلام على وشك أن يخرج من ركسف الظلمات التي غمره فيها جبن رؤسائه ووساوس النماء فرونا طويلة . فالاسلام عنده هو القرآن ، القرآن هو كل شيء ، ولا شيء غير القرآن . وقد جره هذا الايمان الى مدى بعيد . وعلى هذا الصرب من

التحسس كان يخبرني بمحباب عن حالة الأمن بالحجاز ، وما يلاقه السارق هناك من المحاكاة على أسلوب القرآن والحكم عليه بقطع يده ، لأن هذا هو الذي قرره نبي الاسلام .
« كنت استمع اليه وأفكر فيما يكون عليه من الفرية الوطنية الفرنسي ، وقد يصل الى درجة السبابة عن الامة ، وما كان يأتيه من الاعمال إذا كان كذب التعاح لمشروع بلوم فيوليت ونال أمثال محدثي هذا الحقوق السياسية كاملة (١) .

« ليس المحاج وحدهم ينفردون بشهر هذا المذهب الرمزي ، ولكن يشاركون في إذاعته كبار أهل الاطلاع والعلماء والادباء المتخرجون في جامعات دمشق والقاهرة ، المتصلون في القرآن ، فانهم يشنون في المساجد والروايا أو الراباتات التقاليد القديمة والمذاهب والعبادات والاعمال التي تنماوت في درجات غلوها ، ويأخذ بها المسلمون الحاليون . هؤلاء المنعمون الذين يدعونهم بالعلماء هم الذين يوقدون على الدول الحامية وعلى من يحالها من الرؤساء السياسيين والدينيين حرما عوانا ، وقد أصبحت نتائجها محسوسة للدرجة القصوى .

« هؤلاء العلماء يعلنون خيانة المراتبين للدين . فانه في سنة ١٨٣٠ كان يوجد بالبلاد المغربية رجال محترمون يقال لهم المراتبون . وكان مصدر سلطانهم على الناس أنهم من ذرية محمد ، وكانوا يعيشون بما يردم من هدايا المؤمنين . فلما تعين المسيو بوجو (Bugeaud) احترم هؤلاء المراتبين وبذل لهم حايته وأدمم بالانعامات عن سعة ، واستمدت معونتهم كل حكومة قامت في تلك البلاد ، وكان منهم أصدقاؤه كثيرون مخلصون لفرنسا . وكان متى قال أحد المراتبين : « إذا كنا قد أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك ، وهو على كل شيء قدير ، فإذا أراد أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعمل وكان ذلك عليه أمرا يسيرا لا يزيد عن كسح فتاة من تين . ولكنهم كما ترون يمدم بالقوة ، وهي مظهر قدرته الإلهية ، فلنحمد الله ولنخضع لارادته » كان متى قال أحد المراتبين ذلك آمن كل سامع له بما يقول .

« ولكن تدخل في هذا الأمر العلماء ، فتراهم منذ عشر سنين يمجدون في هدم سلطان المراتبين ويسحقون مذهبهم بآيات الكتاب ، ويهزمونهم في كل مجال مما يقنيسونه من أحاديث الرسول ، مما يجعله حصومهم كل الحبل . فتجدهم يقولون للمؤمنين : « إن المراتب والامام والمفتي موظفون لدى الفاتحين ، فهم يخونون الاسلام والمسلمين ، وأتم تطونهم مالا ليصلوا بسكم ويباركوا عليكم ، والله ورسوله يردون ذلك ولا يقبلونه منكم . فنحن الذين نعرف القرآن ونمثل الايمان الذي أرسل به محمد » .

« ويقولون للأهوات الجاهلات المتشبعات بالغزجلات : « إذا ذهب أولادك الى مدارس

(١) في وزارة السبوليسون بلوم كان قد أعد النائب فيوليت مشروع قانون بمنح التوفيقين والمجازين الحقوق المدنية التي يجلبهم مواطنين فرنسيين لهم الحق أن يكونوا بوابا عن الامة الفرنسية في مجلس نواب فرنسا .

الفرنسيين ، واتبعوا تعاليم الرؤساء الدينيين الذين رضيههم الفرنسيون ، فإن ذكورهم يشبون عجميين ، وإناهم طاهرات .

« وقد نجح هؤلاء في حمل الناس على البراءة من مواطنيهم الذين قبلوا أن يعدوا من الفرنسيين وامتنعوا من دفنهم في مقابر المسلمين . وهؤلاء القادة ينفذون أوامر تأتيمهم من القاهرة ودمشق ومكة ، وهي المدف التي تعمل فيها جماعات خفية لتنفيذ أغراض على جانب كبير من الخطورة . والبيعة في ذلك تقع على الحكومة الفرنسية ، فهي التي تركت هؤلاء المتنصين أو الخبيثين يبنون دعوتهم ، ويضعفون سلطان أسدقائنا المرابطين » انتهى

محادثة مع بعثة مسلمي الصين :

جاء في جريدة (جورنال دو طهرات) التي تطبع باللغة الفرنسية في العاصمة الايرانية ما ترجمته :

« حفلياً بمقابلة السيد جلال الدين مازنشاغ رئيس البعثة الصينية ، والسيد ابراهيم ما نينغ وكيله اللذين يمثلان ٤٨ مليون مسلم صيني وقد نشرنا خبر وصولهما في العدد الصادر يوم الاثنين الماضي .

« وقد تحققنا أن الغرض الذي ترمي إليه هذه البعثة هو درس الروابط الأدبية والثقافية والمدركات العقلية التي يمكن أن تجمع بين قلوب ٤٠٠ مليون من الكائنات البشرية وتؤلف بينها برابط أخرى صلباً بالاصول المقدسة للإسلام .

« أما الاعضاء الخمسة المؤلفون لهذه البعثة فقد عيّنهم الجمعيات الاسلامية ، وهي جمعية مسلمي هانكيو ، وجمعية الشبان لمسلمي نانكين ، وجمعية مسلمي بكين ، وجمعية مسلمي شنغهاي ، وجمعية مسلمي كوانج مي » .

وبعد أن ذكرت الجريدة أن هؤلاء الاعضاء اختيروا من نخبة الشباب المتعلمين قالت : إنهم جميعاً يشكلمون التركية والفرنسية والانجليزية والعربية .

« ولما سألناهم عن يوم مغادرتهم للصين ، وهن الفرص الذي يرمون إليه من رحلتهم أجابوا : « غادروا أرض الصين في شهر فبراير من سنة ١٩٣٨ . والذي حدا بنا الى هذه الرحلة أن الثمانية والأربعين مليوناً من مسلمي الصين يرجون الاتصال أدبياً وثقافياً بجميع إخوانهم المنتشرين في العالم بأسره . وقد كلفونا أن نزور أشهر مراكز الاسلام ، وبخاصة من بلاد الشرق القريب ، وأن نعرب لهم عن انعطافهم إليهم انعطافاً مبدئياً على وحدة المنور الأعلى لمجموع المسلمين .

« إن المسلمين يؤلفون مجوعاً عدد أفرادهم ٤٠٠ مليون ، ولا يشك إنسان في أن الامتراح

الأخوى بينهم يكون عملا عظيما نمرته حفظ السلام العالمى وتمكينه ونشر روح الاخاء بين الشعوب .

« فتطبيق هذه الأصول العالمية بالانصال المباشر بالشعوب التى تجمعتنا وإيام رابطة الأخوة هو سرى البرنامج الذى دعينا لقيام به .

ولما سألهم مندوب الجزيرة عما شعروا به من التأثيرات عند زيارتهم لبلاد الشرق الغرب أجابوا :

« لما تركنا الصين ووصلنا الى السويس انتقلنا منها الى مكة ، وكان وصولنا اليها فى شهر ذى الحجة والحجاج يندوت اليها من كل صوب . فالامر الذى أثر علينا أكبر تأثير هو أن هذه العناصر المختلفة من الشعوب ذات اللغات المتباينة ، والبيئات المتباعدة ، قد اشتركت كلها فى فهم مثل أعلى واحد دان له الجميع .

« ولما تكلموا عن مصر قالوا :

« لقد استقبلنا فى مصر أحسن استقبال . وشاهدنا السرور العظيم والارتياح الكبير للذين قابل بهم المصريون على اختلاف بيناتهم خير خطبة حضرة صاحب السمو الامبراطورى الامير ولى عهد المملكة الايرانية لحضرة صاحبة السمو الملكى الاميرة فوزية . فان هذا القران يقرب بين الشعوب الشرقية ويكون نواة لكتلة أخوة يقوى بها ركن السلام العام .

ثم ذكروا أن البعثة لقيت مثل هذه الحفاوات فى سورية والعراق . ولما سئلوا عن رأيهم فى إيران قالوا :

« كنا نسمع ونحس بالصين وفى كل بلد حللناه من الشرق الغرب عن إيران عبارات الإعجاب والاطراء ، وكنا متشوقين أن نرى بأعيننا ما تم من التقدم لبلادكم الجميلة التى يعد ماضيها إحدى مفاخر الشرق بأسره .

« لقد كنت أنا دائم الانعطاف لإيران حتى إنى نشرت فى سنة ١٩٣٥ فى شنگهاى كتابا دعوته « إيران الحديثة » وهو يدلكم على مبلغ شعورى وتمنياتى الطيبة لها . كل ما كان عندى من المعلومات عن إيران كان خاصا ببلاد فارس القديمة ، ولكن المعلومات التفصيلية التى تفضل على بها فتصلكم العام السابق بإيران السيد (كى استوفان) دفعتنى لأن أعرف الصين بأسرها مبلغ تقدم إيران الحديثة .

« وأنا أقول لكم مخلصا بأن كل ما رأيناه هنا يفوق ما كنا نأمل أن نراه ، فان العمل العظيم الذى بدأه جلالة امبراطوركم العظيم رضا شاه بهلوى سيتبع مجراه صعدا ، لانه مبني على العواطف

القومية والعوامل الوراثية فإن التجديد عندكم يستند على الإصلاحات التي يستدعيها الزمان الحاضر وتتكل باستلزام ما كان منها في الزمان الماضي البعيد .

« والذي أدهشنا في إيران أن نتحدد عندكم لم يكن مجرد صورة طبق الأصل لما هو عليه الحال من الإصلاحات والعادات في الغرب ، حتى ولو كانت ترمى الى تقدم ، ولكنه تطبيق مزايا العصر الحديث على الأحوال المحلية والمحيط الاجتماعي فالرج بين ما هو قديم وما هو حديث »
« وبعد ما زرتا مصر وسوريا والعراق وأفغانستان ، ووقفنا على تيار الشعور السائد في تركيا وأفغانستان ، اعتقدت بعثتنا اعتقادا راسخا بأن معاهدة (سعد آباد) قد وثقت هائيا روابط الحب وحسن الجوار بين جميع هذه الشعوب الشرقية ، وسيزيد التآرج بين الأسرتين الحاكمين مصر وإيران أو أواصر الأخوة بين الشعوب الشرقية توثيقا وشدة اتصال . »

محمد فريد وجردي

ما قيل في فضيلة الوفاء للاخوان

قال حكيم : « الوفاء أفضل شمائل العبد ، وأوضح دلائل المجد ، وأقوى أسباب الاخلاص في الود ، وأحق الأفعال بالشكر والحمد . »

وقال آخر : « الوفاء من شيم الكرام ، والفدر من حلائق اللئام . »

وقال غيرها : « من صحب الناس بلسان صادق ، وعاملهم بحسن الخلائق ، وأثوم نفسه رعى المهود والموائق ، فقد أرضى المخلوق والمخالق . »

وقال أديب : « من تحلى بالوفاء ، وتحلى عن الجفاء ، فذلك من إخوان الصفاء . »
ولقد أحسن من قال :

إذا أنت محصت المودة صافيا ولم تر عن وصل الصديق مجافيا

ووفيت بالعهد الذي خاله الوري ولم أر مخلوقا على العهد باقيا

فقد حزت أسباب المكارم كلها وجددت للعليا رسوما عوافيا

ومن أحسن ما قيل في الوفاء قول مسلم بن الوليد :

يحود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ومن أغرب ما أثر عن وفاة الاخوان ما ذكره الزبير بن بكار في كتابه (الموفقيات) قال :

« استشهد باليرموك الحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، فأتوا بماء وهم

صرعى وفيهم رمق فتدافعوه ، كلما دفع الى رجل منهم قال اسق فلانا حتى ماتوا ولم يشربوه »

أي أن كل واحد منهم آثر صاحبه على نفسه .

أحاديث الوفود في الاسلام

— ٣ —

كان عدى بن حاتم الطائي رجلا شريفا في قومه ، فلما سمع بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام ، تخوف على نفسه وأهله ، فقال لفلان له يرعى إيله : لا أبالك ، أعزل لي من إيلي أجيالا ذللا سماء فأحبسها قريبا مني ، فلذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأخبرني .

فبينما هو جالس ذات يوم إذ جاءه غلامه يسبح ، فقال : يا عدى ما كنت صائما إذا غشيتك خيل محمد فأصنمه الآن ، فاني قد رأيت الرايات فساتت عنها فقيل لي : هذه جيوش محمد

فقال له عدى وقد هاله ما سمع : قرب لي أجيالي ، واحتمل أهله وولده ، وخلف أخته في الحاضر واسمها (سفانة) (١) وفر هاربا إلى الشام .

ومن خبر هذه الحادثة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عليا رضي الله عنه لهدم صنم طي ، وأمدته بمائة وحسين رجلا من الأنصار ، فأغار عليهم مع الفجر وهدم الصنم ، وأحرق أخشاب خزانته فوجد فيها ثلاثة أسياف وثلاثة أذرع فأخذها ، وغنم سبيا ونمسا وشاة وفضة ، وقدم بجميع ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان في السبي سفانة ، ولما صر بها رسول الله قامت تكلمه فقالت : يا محمد امنن علي فقد هلك الوالد ، وغاب الوافد .

فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ومن وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم .

فأجابها النبي قائلا : الفار من الله ورسوله !

فجلست حزينه ، فلما كان الغد صر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتفقد الأسرى ، فقامت وقالت مقالة الأمس ، فأجابها بما أجاب به أولا ، فجلست حزينه .

فلما كان بعد الغد وجاء النبي صلى الله عليه وسلم لتفقد حال الأسرى جاء على بن أبي طالب إلى سفانة وأشار إليها أن قومي إلى النبي وكلية ، فأشارت إليه أنها تخشى أن يردّها ، فأكد لها بأن تقوم إليه .

فلما صر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت وقالت : يا محمد . أ رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فاني ابنة سيد قومه ، وإن أبي كان يحبني القمار ، ويفك العاني ، ويشبع

(١) سفانة بفتح السين الدرة الثنية أو هي الهؤلوة .

الجانح ، ويكسو العاري ، ويقرى الضيف ، ويظم الطعام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أما ابنة حاتم الطائي !

فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم مقاطها ، قال لها : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما أترحننا عليه ، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق .

هنالك تأثرت سقانة من مقالة النبي ومن منه عليها ، فأسلت وقالت تشكر للنبي منه عليها ، وبره بها : « شكرتك يد افترقت بعد غي ، ولا ملبكتك يد استفتت بعد فقر ، وأصاب الله بعمروفك مواضعه ، ولا جعل لك الى لثيم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم إلا وجهلك سببا لردّها عليه »

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلست هي فرحة جذلة بما نالت وقالت . وبعد ساعة أرسل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقول لها : لا تعجلي حتى تحدى ثقة يملكك بلادك . وبعد أيام قدم رهط من بني فارس الى النبي : إن لي ثقة في هذا الرهط . فأذن لها بالرحيل بعد أن كساها وأعطاها جمالا بحلة ، وعفا عن بقية السبي وأجازهم ، ووصى بها الرهط . فخرحت شاكرة الى أن قدمت الشام .

فبينما أخوها عدى ينظر الطريق إذ رأى غليظة تؤمه ، فقال : ابنة حاتم يا ترى ؟ فاذ هي هي ، فلما جاءت مجلسه قالت : أيها القاطع الظالم ، احتملت أهلك وولدتك وقطعت بقية والديك ! فجعل عدى مما قالت أخته وقال : أي أحية : لا تقولي إلا خيرا ، فوالله مالي من عذر ، لقد كان مني ما ذكرت ! أقيسى عندى ولا تخافى ولا تحزنى وقرى عينا .

ولما استقر بها المقام قال لها عدى : ماذا ترى في أمر هذا الرجل يا سقانة ؟ (يريد النبي صلى الله عليه وسلم) . قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن نبيا فليسابق ليهِ فصيلة ، وإن يكن ملكا فانت أنت في عز اليمن . فقال لها عدى . والله إن هذا لهو الرأي الحسن .

وخرج من فوره يطلب المدينة ، فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد قال له النبي : من الرجل ؟ قال : أنا عدى بن حاتم ، فقام اليه وأخذته الى بيته ، وبينما هو يمضي معه إذ أهابت امرأة محموز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقف لها ، فدنت منه وكلته في حاجة لها . يقول عدى : فقلت : ما هذا بأمر ملك . ثم انصرفت المحموز ومضى عدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل المنزل تناول النبي عليه الصلاة والسلام وسادة من جلد محشوة ليفا وطلب من عدى أن يجلس عليها . فقال له عدى : بل اجلس أنت عليها . فأكد عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس هو ، فجلس عدى وجلس النبي على الأرض . قال عدى : فقلت : ما هذا بأمر ملك . هالك سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألسنت يا عدى من القوم الذين

لهم دين؟ (وكان من العرب المنتصرة) ، فأجاب عدي : نعم . فقال له النبي : مالي أراك تسير في قومك بالرباع (أخذ ربع الغنائم) كمادة الحرب ؟ فأجاب عدي : نعم . فقال له النبي : وذلك لا يحل لك في دينك . فتعجب عدي من مقالة النبي وأنه عرف منه ذلك وما به عليه . عند ذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا عدي : لعله يمنعك من الدخول في هذا الدين (الإسلام) ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت (الكعبة) لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيضاء من أرض بابل قد فتنحت عليهم !

هناك مد عدي يده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم وحسن إسلامه . يقول عدي : ما دخل وقت الصلاة إلا وأنا مشناق إليها . وكان رضى الله عنه من فضلاء الصحابة ، ولم يرتد مع من ارتد من العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ثبت على إسلامه . وكان يبعث لصدقات (زكاة) قومه إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنهما ، وماش إلى أن حضر فتوح العراق ، ومات سنة ثمان وستين وهو ابن مائة وعشرين ، عليه رحمة الله ، إن رحمة الله قريب من المحسنين !

حسن خطاب الموكبل

العدل قوام المال

قال حكيم « الملك يبقى على العدل والكفر ، ولا يبقى على الإيمان والجور » .
وقال عمرو بن العاص : « ملك عادل ، خير من مطر وابل » .
وسأل عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة عن حال رعيته مع ولاته ، فقال : « رأيت الظالم مقهورا ، والمظلوم منصورا ، والغنى موفورا ، والفقر مبرورا » .
فقال الخليفة : الحمد لله الذي وهب لي من العدل ما تطمش إليه قلوب رعيته .
وتعرض له منظم في بعض الطرق فوقف له وأزال شكايته . فقال له بعض خاصته : هلا صبرت يا أمير المؤمنين حتى يستقر بك المنزل ؟ فقال له : « الخير سريع الذهاب ، وحشيت أن أفوته بنفسي ، وإنما هي فرصة قدمت فيها العزم ، واستصعبت الحزم » .

أمراض القلوب

لما كان القلب محط نظر الله وعنايته ، لأنه البيت الذي لم يتخذ سواه سكنا لتثريه وحدانيته وصمدانيته ، ومهيئا لقيوساته وإمداداته ، ومجلى غنى أسرارهِ ومكنون اقتدارهِ ، ويريد ألا يدخله سواه من زخارف الدنيا وبهجتها ، وألا يصرفه عنه صارف من مهام الدنيا وعنائها ، إذ هو مسرح جنود الرحمن وجنود الشيطان ، ولا يقوى على تعزيز مراكز جنود الرحمن أمام هجمات جنود الشيطان إلا بتحصنه بحصون العلم بالله ، وتدرجه بالثبات على مراصيه ، وهدم قلاع التحالفات والمكرات ، ولا سبيل للوصول إلى العلم إلا من طريق السقي والتعظيم — لا جرم أن أرسل الله الرسل يسمون للناس أمان السلامة ومواطن النجاة ، ويبينون لهم محجة الله التي يرتقيها من عباده ، فن سلكها تابعا لرسوله كان من المؤمنين « ومن يتبّع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

تلك المحجة تملكت بالعبد ظاهرا وباطنا ، أمرا ونهيا . فالأمر الظاهري طاعة ، والنهي معصية ، والأمر الباطني إيمان وعلم ، والنهي نفاق وجهل ، وظاهر العبد تسع لباطنه ، لأن القلب ملك والأعضاء جنوده ورعيته ، لا تصدر ولا ترد إلا عنه وبإذنه ، وقد بين ذلك ترجمان الحكمة الإلهية صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « إن في الجسد ضعة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهي القلب » . وصلاح القلب إنما يكون بطهارته من الصفات المدمومة ، والاعتقاد السيئ ، إذ هي أمراض تعطل القلب عن القيام بالعبودية الحقّة للربوبية المطلقة .

لأرباب أن أشد مصائب الإنسان الأمراض ، وكما أن المرض يكون جسديا ، يكون قلليا : « في قلوبهم مرض فرادهم الله مرضا » . كما أن أحدهما أشد فتكا وأعظم خطرا من الآخر ، وكلاهما يحوجّه الرعاية والعلاج ، فكلما ازدادت خطورة المرض ازدادت الأهمية به ، واشتدّت الحيلة له لإيقاف تياره عن الانتشار في الأعضاء ، ثم أخذ في سبيل استئصاله من شأفته حتى يبرأ ويؤدي وظيفته في المجتمع البشري . وإن مرض القلب أشد خطرا على الانسانية من أعظم الأمراض الجسدية ، إذ يمرضه يفسد فيفسد كل من خالطه . وقد دعا قال الشاعر :

واحذر مخالطة الدنيء فإنه يعدي كما يعدي الصحيح الأحرب

لا شك أن القلوب المريضة هي المدبرة بالمعالجة ، والشديدة الحاجة إلى القاهة والشفاء ، إذ كانت موضع الإيمان ، ومحط نظر الرحمن ، وبها دخول الجنان أو النيران ، فلا يصبر

على تلك الأمراض الفتاكة إلا عاقد الشهور بالكرامة ، عديم الإحساس ، مما يحمل من أوصار الدنيا وأقدار الخطايا . بيد أنه لا يحمل وسخ الثياب ، قدر النعال خوف استهجان الناس لبزته ، واحتقارهم لهيئته ، واشتمزازهم من كبره رائحته . ولو أضمن النظر قليلا لأدرك أن هناك من ينظر الى طويته ، عالم بخفايا سريره ، يحتقره لفالته ، ويفضه لدناءته « يعلم السر وأخفى » .

فلست أدري أى مؤمن ذلك الذى يتحاشى أن يطلع عبد مثله على رث ثيابه ، وبشع هندامه ، ولا يتحاشى أن يراه الله قدر الباطن ، وسخ الضمير ، سىء العقيدة ، محشوا بالفش والحققد والمكر والكبر والمجب والرياء ، مملوا تعافا ومداهنة وحيل وخداعا ، طاويا على العداوة والآذية والتشنى ، ومعالجة الظالم ، والآثرة والآثانية ؟

كيف يصبر المؤمن على تلك الأمراض القلبية التى تعدمه الشرف الانسانى ، وتفقده العزة والكرامة ، وتحرمه الرضاء الالهى ، وتزيل من قلبه غض الحكمة الربانية ، ليبس شجرة الإيمان من فقد مياه الاحسان ، التى تبخرت بسموم تلك الأمراض الباطنية ، ويخلع حلية العمودية التى هى وصف المصطفين الاخيار ، ويتسفل الى حضيض البهيمية ، ويتخلق بأخلاق الشياطين ، فتموت روحانيته التى هى ميزته عن سائر الحيوان ، فيكون ميتا فى صورة الأحياء ، عدوا فى عداد الأجباء « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

لا يخفى أن كثرة أمراض القلب من نتيجة التربية الأولى ، فلوربى الانسان من صغره على حب الدين ، وأشرب فى قلبه تعظيمه ، وتغرن على تعاليمه الحقة ، وأزم بملاحظة الأمر والنهى ، وحوسب على التقصير والتمدى ، وجوزى على القبيح والحسن ، لشب على احترام الدين ، ولغار عليه غيرته على ماله وعرضه ، بل لا اقتداه بلحمه ودمه .

إن الانسان من أصل فطرته يميل الى الخير والجمال ويستريح له ، وينفر من الشر والقبيح ويألم منه ، سنة الله ولن تحمد لسنة الله تبديلا . ولهذا الفطرة أفاض الله الأمر والتكليف ، ورتب الثواب والعقاب ، وجعلها مصدر التفكير والتمييز ، ومرسح النبطة والسرور بعد عمل الخير ، وموضع التائب والتوبخ بعد عمل الشر ، وهى التى تدفع المحسن للزيادة من الإحسان ، وتحمل المجرم على الندم والتوبة . فان انعكس الانسان وصار لديه الحسن قبيحا والقبيح حسنا ، فذلك نتيجة تغلب القوة الغصبية أو البهيمية على إرادته التى لم تستطع مقاومة هجوم تلك القوة ، وما ضمها إلا خروجها عن حيلة الدين وعدم التحرز فى أخذ محابها من الأوجه المستورة ، وقلة النبصر فى أساليب خدع النفس وحيلها ، وما النفس الأمارة بالسوء إلا أعدى أعدائه ، ولا ينكر عداوتها إلا أهوج أخرق .

كما أن الممدة بيت داء الأجسام ، كذلك النفس بيت داء القلوب ، فمن رام أن يتمتع بصحة

قلبه ويدخل حظيرة ربه ، ويتمتع في مجلس قربه بلذيق الخطايا ورؤية حبه ، فليصلح بيت دأته ، وليأخذ في أسباب شفائه ، نقطع أسباب شقاؤه ، بقوة العزيمة وصدق الإرادة ، فيبدل ذميم أخلاقه بمحاسن الشيم ، ويروض نفسه على ترك العادات القبيحة ، ويتأنقها على فعل الحسن ، ولا يزال هذا عمله ليل نهار حتى تحوت النفس ويدفنها تحت أطباق الثرى ، فكلما دفنها أرضاً أرضاً سما قلبه سماء سماء ، فإذا دفنها في الأرض السابعة ارتقى قلبه إلى ما فوق السماء السابعة ، وصار معلقاً بالعرش ، فتكشف له الأسرار العلوية ، ويجول في سماء الموم القلبية ، وينهل من بحار الحقائق السكوبية ، فيسمع بالله ، ويبصر بالله إلى الله ، ويغاض عليه من المعارف والحقائق ما به يتحقق بالخلافة الربانية ، إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

قد يمرض الجسم فيبرأ القلب ، إذ يتفقه من غفلته ، ويصحو من سكرته ، ويشعر باحتياجه إلى من يده محمته ، وفي قبضته ناصيته ، ويعلم شدة غضبه عليه بما تارف من جرعة ، وفعل من خطيئة ، ويتحقق بمداه عن مغالي رحمة ، ومازل لطفه ورأفته ، فيضجل أن يسأله البرء وهو في حمة الخطايا ، ومستنقع السفالة والدنايا ، فيكسر أغلال محابه ، ويتفقت من قيود شهواته ، ويخلم ثوب النواية من عنقه ، ويقف بين يدي ربه خاشعاً خاضعاً ذليلاً ، قائلاً : « رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي » ! فيجيبه الرب جل جلاله . « وإني لغفار لمن تاب وآمن وحصل صالحاً ثم اهتدى » .

عبد العزيز الجعري

هل يتأتى تبرير الاسراف

قال الله تعالى : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرقين » ولكنه حد النذل حداً عادلاً فقال : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل لسط فتقعد ملوماً محسوراً » وقال في ذم الاسراف : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يابى مناد كل ليلة : اللهم اجعل لكل منفق خلفاً ، ولكل ممسك تلفاً » .

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً : « أنفق بلال ولا تخش من دى العرش بقلالا »
نقول : لا تناقض بين هذه الأحاديث والآية الكريمة ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالاعتدال في كل أمر ، ولكن للأدباء مجالات يتقحمون منها على ما لا يحسن أن يؤخذ عنهم ، من ذلك ما قاله علي بن ذكوان :

انفق ولا تخش إقلا لا فقد قسمت بين العباد مع الآجال أرزاق
لا ينفع البخل مع دنيا مولية ولا يضر مع الإقبال إنفاق

في سبيل مكافحة المذهب المادى

التلبانيا والانتقالات النفسانية الى مسافات بعيدة

من واجبتنا، بجانب تجلية الحقائق الاسلامية، أن نكافح المذهب المادى الذى انتشر بسرعة النار في الهشيم في الطبقات التى تتعلم العلوم الطبيعية، ورسخ في أذهانها أن ما شذ عنها من المظاهر الروحانية أو هام لا يجوز الاعتداد بها، بل هى حزبلات يجب تطهير العقول منها. ولقد أمضى العلم الطبيعى في مكافحة الروحانية أكثر من ثلاثة قرون، ولكن جماهير من أخسر أقطابه عادوا أخيراً فاعترفوا بخطئهم تحت تأثير حوادث لم يمكنهم تكرانها ولا تحليلها فأخذوا في جمع شوارد الخصائص الروحية وترتيبها لتتوّر ما تدل عليه من الحقائق العلمية. كل منا يعرف أن المنازعة بين العلم والدين قد حى وطيسها في القرون الأخيرة الى حد أن أنكر ممثلو العلم على الدين حتى أصوله الأولية، من العقائد الغيبية، وكان خطأ الكثيرين من ممثلى الدين عظيماً في إهمال البحوث التى تدعم تلك الأصول وتقويها، ولو كانت مستقاة من مصادر أجنبية، فلا عاب علينا أن نستعين بالدين وفقوا أنفسهم لمناهضة المادية من علماء الغرب، بعد أن كانوا بالأمس من أقوى أنصارها، لأن هذا يعتبر من آيات القهر الإلهي، ومصدقا لقوله تعالى: «كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز».

اكتشف العلماء المعاصرون الذين يبحثون في النفس صحة ما كان يعتقد الساس من شعور الروح بالشيء قبل وقوعه، وبتأثير نفس بعيدة على نفس أخرى، فتلقى في روعها ما تريد أن تعرفها به، وقد سمو هذه الظاهرة الأخيرة (بالتلبانيا)، وقد جربوها عملياً وكرروا تجربتها مئات من المرات وثبتت لهم صحتها. ونحن نحب أن نطلع القراء على بعض ما يستند إليه العلماء لاثبات صحتها، فنها ما أرسله الدكتور (بوارسول) من جامعة باريس الى الأستاذ الكبير كاميل فلانريون وأثبتته في كتبه قال:

«أرسل إليكم ثلاث حوادث من أنواع مختلفة ولكنها تصلح لأن نعينكم في مباحثكم عن الظواهر الروحية، أما ضامن لكم صحتها، لأنى احدثت أن لا أعير اهتماماً إلا لما أراه بنفسى من الحوادث التى من هذا القبيل:

(١) بينما كنت في (بلفور) إحدى ضواحي فرنسا منذ نحو شهرين إذ رأيتني أفكر ذات يوم بصفة وإيلاج غريب في رصيفي (جورا)، وكنت لا أفكر فيه مرة واحدة في كل سنة، إذ لم تكن توجد بيني وبينه غير علاقات وظيفية انقطعت منذ ثلاث عشرة سنة، ولم أره بعدها قط. فلم تمض بضعة دقائق (تأمل) حتى رأيتني وإياه وجها لوجه في مفترق عدة طرق. وما أنه كان آتياً على بسكيت من شارع عمودي على الذى كنت سائراً فيه، فكان مستحيلاً على أن أراه قبل تلك اللحظة من بعيد. هذه حادثة لا أحاول تحليلها ولكنها أدهشتنى.

(ب) نظرا للمهنتى الطبية فأنا معرض كثيرا لأن أستخدمى ليلا والذين يعمرون أمام بيتى ليسوا بقليلين ، ولكن إذا كان من بينهم واحد يقصد أن يرين الجرس ، فأنى أستيقظ من نومي من تلقاء نفسى قبل أن يصل الى بابى بنحو عشرين مترا ، فأعرف بهذه العلامة أنه سيستخدمنى أحد الناس .

وقد شاهدت محبة هذه الظاهرة لا مرة واحدة ولكن مائة مرة منذ اثنتى عشرة سنة . ولاجل أن أكون مُقْرِصًا فى روايتى هذه يجب على أن أقول بأنى لو كنت صاحبا ، وهو ما يحدث كثيرا ، فلا أستطيع أن أثلبأ بشئ من ذلك . ويجب على أن أقول أيضا بأنى إذا كنت مستغرا فى النوم ، عقب يوم أمضىته منعبا ، فإن هذه الظاهرة النفسية لا تحصل .

(ج) من بين مرضاى شابة مصابة بالهستيريا ، وقد اعتدت أن أحدث لها نوما مضاعفيا وإعازات بسهولة عظيمة جدا . وكثيرا ما أوعزت اليها أن تستيقظ فى الساعة السابعة ، فكانت تنبته من نومها فى تلك الساعة بدقة عظيمة . فكل من مارس صناعة التنويم يعلم أن ليس فى هذا الأمر شئ غارق للعادة ، ولكن الذى هو جدير بهذا الوصف ما حدث من أن زوج هذه السيدة استبطأ يوما من الأيام ساعة يقظتها فقدم عقرب الساعة التى كانت توضع على المنضدة المجاورة للسري ، وكانت الساعة إذ ذاك ٦ و ٣٠ دقيقة لحملها ٧ و ٣٠ دقيقة فقدمها ساعة عن موعد يقظتها ، ولكنه وهو يدير العقرب لا يصاله الى الوقت المذكور رأى امرأته قد تنبته من نومها فجاء عند وصول ذلك العقرب الى الساعة وهو الموعد المقرر لها . فجاءنى زوجها وقص على ما رأى . ولكنى لما أنا عليه من صعوبة التصديق أردت أن أحقق هذا الأمر بنفسى ، وفعلته بضع مرات .

« ويجب على أن أقول إن هذه السيدة تقرأ وهى نائمة وأعيها مغلقة عدد السماعات فى ساعتى حتى لو غيرتها ، ولكن على شريطة أن أنظر أنا الى عقاربها . وكذلك كانت تخبرنى عن اسم الشئ الذى أمسك به وراء سهرى على شرط أن أقبص عليه بيدي . »
ونشر الاستاد الكبير (سيزار لومبروزو) وأصح علم الجرائم كتابا أرسله اليه زميله الاستاذ (دوسانكنيس) المدرس بجامعة تورين بإيطاليا معه وهو :

« كنت فى رومية دون سرنى التى بقيت فى الريف . وبما أن بيتى قد سرق فى السنة الماضية ، فكان أخى يأتى وينام معى فيه ، فأخبرنى ذات ليلة أنه ذاهب الى تياترو (كوستازى) فأويت الى البيت وحدى ، وشرعت أطالع ولم أكُد أفعل حتى شعرت بذعر شديد فى نفسى ، حاولت أن أقشعه عني وتشاغلته بخلق ثيابى ، فلم يقد ذلك فى تهدى روعى ، وألقى فى قلبى أن أخى فى خطر وأن التياترو الذى هو فيه يحترق . أطفأت النور فلم يجدنى أطفأؤه نغما ، وازداد كربي حتى اضطررت الى إيقاد المصباح حلافا لعادتى ، وأما زمع أن أبقي صاحبا حتى يعود أخى . وقد كنت إذ ذاك خائفا كأنى غلام صغير . وبعد منتصف الليل بساعة سمعت الباب

يفتح ، فإكان أكثر دهشتي حينما قص على أخى الملع الذى أصاب المتفرجين عندما أخذت النار تنهم التيارات . وقد وافق ذلك بالضبط الساعة التى شعرت فيها بالقلق العظيم .
واليك حادثة عظيمة الخطر من انتقال الفكر من إنسان لآخر أفصى بها الدكتور (كانتار) الى الجمعية الطبية فى (انجير) بفرنسا وهى :

« طفل يدعى (لودوفيك) دون السابعة من سنه كان متمتعا بخاصة حل المسائل الحسابية تشبه خاصة (اينودى) المشهورة . فانهى أمر والده أن لاحظ فيه (أولا) أنه لا يصغى الى منطوق المسائل التى تلقى إليه إلا قليلا . (ثانيا) أن وجود أمه معه كان شرطا مؤكدا لنجاح التجربة . وكان ذلك يتوقف على أن يكون الحل المطلوب تحت نظرها أو محصلا فى فكرها .
« استنتج الأب من ذلك أن ابنه كان لا يحسب ، ولكنه كان يتلقى الحل كما هو من فكر والدته . ولذلك رجاها أن تفتح قاموسا وأن تسأل ابها عن رقم الصفحة التى تحت نظرها فأجابها الولد على الفور قائلا : هى صفحة (٤٥٦) وكان الأمر كما قال : فكررت التجربة عشر مرات فلم يخطئ فى واحدة منها .

« فإذا كتبت عبارة فى مذكرة ، فكان يكفى الغلام مهما كانت طويلة ، أن تمر الأم بعينها عليها ليردها إذا سئل عنها ، حتى لو كان للسائل أجنبية »
وروى الدكتور (فرواساك) فى كتابه الحظ والقدر (Chance et Destinée) صفحة (٥٩٩) حادثة اتصال حدثت له هو ، قال :

« رأيت فى النوم حينما كنت طالبا داخليا فى مدرسة الطب بمدينة (دوبويزن) أن أبى أصيب بمرض سيفسى به الى القبر . فاستيقظت فى كرب عظيم وحاولت أن أتصلب عليه قائلا لنفسى بأنى قد تركت أبى يوم الأحد الماضى فى صحة تامة . وكان يومنا إذ ذاك الأربعاء . وأخذت أفزع نفسي أنه من الضعف الأدبى أن أفلق نفسي الى هذا الحد بسبب حلم ، وعزمت على أن لا أفكر فيه . ولكن صورة أبى وهو فى حالة التزع كانت لا تزال ذهنى . فاجتمعت تخلصا من هذا الكرب ، وإن كنت فى غاية الخجل من ضعفى ، أن أشرح الى (مان حرمان) حيث كان أبى . فلما وصلت اليه وجدته مصابا بتريف صدرى قضى عليه فى خمسة أيام »

إن صدور كذب فى بيئة الاتحاد بأعضاء لحوال العلماء تدون مثل هذه المشاهدات تدل على تطور عظيم فى العلم نفسه ، وهذا كله مصداق لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » .

محمد قريش وجدى

في الحث على فضيلة الصبر

أدى حضرة صاحب الخلافة الملك صلاة الجمعة يوم ٢ من جمادى الآخرة في مسجد سيدى عبد الرزاق بالأسكندرية ، فأتى فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الجبروى خطيب المسجد خطبة بليغة في فضل الصبر نشرها هنا لنفاستها ، قال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه :

أما بعد . فيقول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

فالؤمن يغالب شدائد الحياة ، ويحتمل حوادث الأيام ، ويصبر على مكاره الدنيا ، لأن له جناتا ثابتا ، ويقينا صادقا ، وعزما مكيئا . المؤمن حق الإيمان لا يتسرب اليأس الى قلبه ، ولا يصيب الضعف فؤاده ، ولا ييس من روح الله ، إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون . إخواننا المسلمين : عموا أولادكم الصبر حتى لا تذهب نفوسهم بحمية اليأس والقنوط . علموم أن اليأس والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد ، وإعما الإيمان يعلم الإنسان الصبر ، ويفتح أمامه أبواب الرجاء ، وكلما اشتدت الخطوب ، وفجعت الآرزاء ، تذكر قوله تعالى :

« فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

إخواننا المسلمين : الصبر محمود في جميع الأحوال : في الصحة والمرض ، في الغنى والفقر ، في طاعة الله ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « يابى أتم الصلاة وأمر بالمعروف وأنهى المنكر واصبر على ما أصابك » ، إن ذلك من عزم الأمور . ورضى الله عن ابن عباس إذ يقول : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله ، وصبر عن محارم الله ، وصبر على المعصية عند الصدمة الأولى .

إخواننا المسلمين : ليس من الصبر أن يرضى الإنسان بالذل والصغار ، ولا أن يجبن في مواطن الإقدام ، فإن ذلك هجر وهوان . تسامى عنه أصحاب بيئنا الأمين « فإوهنا لما أصابهم في سبيل الله » وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين .

إخواننا المسلمين : لقد صبر المسلمون الأولون صبر الأبطال ، ولم يعبتوا لطيش المبطلين ، ولم يخفوا بأذى المعتدين ، قبلهم الله من خوفهم أمنا ، ومن ضعفهم قوة ، وصدقهم وعده : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ » .

إخواننا المسلمين : هذا سبيل الله فاسلكوه ، وطريق النبي فاتبعوه ، وهدى القرآن فاعلموه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَجِبَا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ . إِنْ أَصَابَتْهُ مَرَأَةٌ شُكْرًا فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبْرًا فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

الفتوح الاسلامية حيرت العلماء

تلميل المشرع الكبير مونتكيو

حيرت الفتوح الاسلامية العلماء الاجتماعيين تحيرا لم يجدوه حبال مسألة اجتماعية أخرى ، فقد بلغ ملك المسلمين في ثمانين سنة حدا لم تلبه جميع فتوحات الرومانيين في ثمانمائة سنة ، ولم تصل أمة قبلهم ولا بعدهم الى مثل ما وصلت إليه الأمة الاسلامية من سعة الملك ، وتناذ الكلمة ، ووحدت الأجزاء ، وارتياح الناس الى حكومتها .

وقد افتمت العقول في تلميل هذا التوفيق الباهر ، فقال بعضهم . إن سببه أن الأمم على عهد ظهور الاسلام كانوا في شقاق بعيد ، وثورات طاحنة ، واختلافات دينية ، فدهمهم المسلمون وهم على تلك الحالة فدوحوهم .

وقد رُد عليهم هذا التلميل بأن المسلمين لما ولوا وجوههم شطر الشام وفارس ومصر ، لم تكن دولتا الرومان والفرس لا في حرب فيما بينهما ، ولا في شقاق في داخل بلاديهما ، فكان هيراقل الروماني في أوج عظمته وأبهة ملكه ، لا يزعمه مزاحم في بلاده ، ولا عدو مغير من خارجها .

نعم كانت فارس مقطعة الاوصال تحت حكومة إقطاعية ، استقل فيها كل أمير بما تحت يده ، ولكنهم لما آنسوا استقلال شأن العرب ، وحدوا كلمتهم ، وعدلوا صفوفهم ، وداوا كلهم لملك اختاروه من أعرق أسرم الملكية وهو يزيدجرد ، فلما واجه سعد بن أبي وقاص فارس ، واجهه منها أمة مترصة الآحاد كالبنيان ، متحالفة الجماعات على الاستماتة في الدفاع ، لأنهم كانوا يملكون عربا كثيرين ، ويأتقون أن يكونوا محكومين بهم .

فسقط بذلك قول الذين يعللون الفتوحات الاسلامية بتخايل الشعوب وتناحرها . ومها كانت الشعوب متخالفة فهل يعقل أن أمة واحدة تتحكم في الأرض فلا تتحد من يدها عن أغراضها ، لاسيما وهي خارجة من بلاد طال عليها النوى فيها ، محكومة غير حاكمة ، أو بادية غير متحضرة ؟

وقد عليها بعضهم بالعصبية الدينية التي بثها النبي صلى الله عليه وسلم في القبائل ، وما وعدوا به من الصيرورة الى حنة عرضها السموات والأرض ، فاصلتوا من بلادهم لا يردم شيء ، فاكسحوا كل ما وصلوا اليه من البلاد طمعا في تلك الجنة .

وهذا تلميل ساقط كالذي سبقه ، إذ لو صح لانتج مسألة تعتبر من أعقد المسائل ، فإن ثبت

إعنان كهذا يدفع صاحبه الى التضحية بنفسه للحصول على أمر غيبي ، لم تجر به سنة الله بين البشر ، لاسيما وقد كان العرب قوما ماديين حسيين لا يسهل خدعهم بالعقائد الغيبية ، فهم من الذين كانوا يفضلون العاجل على الآجل مهما كانت قيمته . فأى قوة روحية يمكن أن تتغلب على هذه النفوس الممتنعة بالماديات فتضلعها عنها بوعود خلافة لتلقى بها في وجه العالم بأسره طبلا للموت في سبيلها ؟ كل فلسفة نفسية تقف هنا عاجزة عن التعليل ، معترفة باستحالته من طريق علمي .

ومن الناس من عليها بحب العرب للنهب والسلب ، فلما اطمأنوا الى داعية منهم يقودهم اليها ، انفخوا حوله وأيدوه ، وقاموا بما قاموا به مما ظاهره فتح وباطنه نهب وسلب .

وهذا التعليل منقوض أيضا ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أول مادهم الى الخروج من تقاليدهم ، وترك موروثاتهم ، واتباع أحكام العقل في عقائدهم ، وقد لبث فيهم سنين كثيرة يدعوهم الى هذه الأصول ، حتى آمن به جمهور من الناس . ولم يأمرهم بالقتال للدفاع عن أنفسهم إلا بعد أن انتقل الى المدينة ، وهنالك اشتغل بنشر الاسلام بين القبائل ، ودعوتهم اليه صريحة لا لبس فيها ، وليس منها وجوب مقاتلة الأمم طلبا للفتح منها . فأساس هذا الدين هو تصحيح النظر ، وتقويم النفس ، وإصلاح القلب ، والسمو الى أرفع ما يصل اليه جهد طالب الكمال . أما ما تقتضيه الحياة الاجتماعية بعد ذلك من حماية الحوزة ، أو نشر الدعوة ، أو غير ذلك ، فقد سنت لها أحكام لم ير العالم أعدل منها كما سبق لنا بيانه في كثير من المواطن . فمن أين يستدل أصحاب هذه الشبهة على ما يقولون وليس له أثر في كتاب ولا سنة ، ولا في شرح من شروح الأئمة ؟

وذهب المشرع مونتسكيو في كتابه أصول الشرائع الى رأى آخر ، فقال عند إلمامه بالآناوات الحكومية : « إن هذه الآناوات المعروضة قد كانت سببا لهذه السهولة الغريبة التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم . فالشعوب رأيت بدل أن تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي تخيلها حرم البراطرة ، أن تخضع لآداء جزية خفيفة ، يمكن توفيتها بسهولة ، وتسلمها بسهولة كذلك ، ووجدت نفسها سميدة بأن تستغنى لآمة متبررة تعاملها على هذه الصورة من أن تدين لحكومة فاسدة كانت تكابد تحت سلطانها كل صروب المواطن دون حرية لم تنعم بها قط ، مضافا اليها كل ويلات عبودية عتيقة » .

نقول : إن هذا التعليل وإن كان فيه إشادة بشعاع المسلمين إلا أنه لا يفسر نجاحهم في هذه الفتوحات السريعة التي اتمروا بها بين البشر .

لأن أول هذه الفتوح كانت الشام تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح ، ولم يكن العرب قد جروا من أمر الجرية في شعب على سنة تسامعت بمزاياها الأمم الأخرى ، فالتقت الجيوش

الإسلامية بجيوش رومانية مدرة تفوقها عددا وعددا ، فهزمتها وأجبرتها على ترك حصونها المنيعة وفلاعها التي لا ترام ، ولم تكف عنها حتى فتحت الشام كلها وغادرها أمبراطور الرومان وهو يقول : أودعك أيتها البلاد إلى الأبد !

وأى سيرة استعمارية كانت قبل هذه فتت في عضد الجيوش الرومانية ، وحسنت لها التسليم للعرب ؟ وأية علاقة بين الجيوش المحاربة وبين قلة الاتاوات أو كثرتها ؟ إن المحاربين كانوا هم الطبقة الثانية في تلك الأمم بعد رجال الدين ، وكانوا متحكين في رقاب النعماء يبتزون أموالهم ولا يدفعون للحكومة أموالا ، فالمعقول أنهم كانوا يدفعون أعداءهم بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية ، لا أن يسلموا لهم ليكونوا رعية لهم ، وليسوا هم بالذين تفتنهم قلة الاتاوات ، ولا الحرية المحبوبة ، فقد كانوا منها بالمكان الممتاز .

وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش الإسلامية تهرم جيوع الرومانيين ، كانت جيوش أخرى لهم ترد جنود الفرس المعروفين بصلابة العود على أعقابهم في دات بلادهم ، ومنهم كمثل الرومانيين في الامتيازات المالية والادبية ، ويسقطهم من مراتبهم تغلب جنود أجانب عليهم . إن تحليل مونتسكيو كان يشته به لو أن العرب كانت لهم مستعمرات تنعم باليسر ، وكانت الجيوش المحاربة تامل بالسيف ، وتنت تحت أفعال الضرائب ، أو لو كانت الأمم نفسها هي التي تحارب ، وقد قلنا إن المسلمين إذ ذاك كانوا لا يزالون في أول عهدهم ، ولم تزل الأمم من حكمهم ما يحجبها فيهم .

على أن مونتسكيو يصف المسلمين الأولين بالأمّة المنبرية ، فهل عهد في تاريخ البشر أن أمة منبرية تكون مثلا يضرب في قناعتها ، وحسن معاملتها لمن تقهرها من الأمم ؟ إن المعروف بين الناس أجمع أن الأمم المنبرية لا تقف نهمتها للمال عند حد ، فلا تزال بالمفهور حتى تبيد خضراءه ، ولا تدع له شيئا . فمن أين جاء هذا الأدب العالي للمسلمين ، المنبريين في نظر مونتسكيو ، على خلاف سنة العالمين قديما وحديثا ؟

إن مونتسكيو قد زاد المسألة إشكالا ولا يحجبها إلا افتراض واحد ، وهو الحق ، إن الأمّة الإسلامية كانت على شريعة إلهية تمثل أعلى درجات العدل والانصاف ، وإن ما احتازته من الملك الذي لم ينبغ لأمة قبلها ولا بعدها ، لم يقو على إفساد قلوبها كما أفسد قلوب الفاتحين قبلها ، وإن الله قد أيدها بروح من عنده ، وقذف بها في وجه العالم لترده من التي التي كان فيه ، ولتتحطم السلاسل والأغلال التي كانت في أعناق الأمم .

هذا هو التحليل الصحيح ، والله غالب على أمره ما محمد قريش ومجري

القضاء الشرعى والقضاء الملى

فى مصر قديما وحدينا

أسلفنا لحصرات القراء لحة عن القضاء القانوى وكيف تطور من عهد ساكن الجنان عهد على الكبير حتى عهد اسماعيل العظيم ، وكيف أن المفقور له سعيد باشا وثب فيه وئمة موقفة ، لجعل تطوراته خاضعة لتطور الملايات التى تخضعت عنها المصور المتعاقبة بحكم الظروف الطارئة وما حدث فيها من أحداث وعمر ، بعد أن سيطرت المحاكم الشرعية أحقابا من الزمن على القضاء وكانت مردا للمتناقضين فى جميع منازعاتهم ، فلم يكن من الصورى النحرى عن جسدية الخصوم ، والتفرقة بين المعاملات المدنية والأحوال الشخصية . وقد ظلت المحاكم الشرعية تؤدي مهمتها على أفضل وجه وأكمله بين السكان حتى صدر من سلطان بنى عثمان فرمان الشهاى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ الذى قضى بإدخال مدة إصلاحات فى الولايات العثمانية وفى جملتها ولاية مصر يومئذ ، وكان من بين هذه الإصلاحات وضع نظام القضاء . وقد تقدم أن المرحوم سعيد باشا هو أول وال سدد العزيمة نحو تنظيم حالة القضاء فى الديار المصرية ، ووضع له نظاما يكفل حسن التقاضى ويبحث الطمأنينة الى تقوس المتقاضين طبقا لقواعد ذلك فرمان المشار إليه ، فوجه عنايته الى المحاكم الشرعية بنوع خاص بعد إنشاء المجالس المحلية ، وقد تبع ذلك أن اتفق مع الباب العالى سنة ١٢٧٢ على أن يكون تنصيب القضاء فى القطر المصرى من حقوق الحكومة المحلية ، وبمقتضى أوامر صادرة منها ، وقد استثنى من هذا التعيين قاضى مصر ، لأن الحكومة العثمانية يؤمئذ استمكت بحقها المطلق فى تعيين ذلك القاضى ، لبقى لها مظهر الولاية القضائية العليا فى البلاد من جهة ، ولتظل السيادة فى أكبر مظهر من المظاهر الشرعية فى حوزتها من جهة أخرى . وقد نشأ عن هذا النظام الجديد أن أصبح القضاة الشرعيون موظفين تابعين فى شئونهم الإدارية والمالية للحكومة المصرية . وقد كانوا من قبل مستقلين فى تصرفاتهم حتى فيما يجبونه من الرسوم القضائية ، تبعا لاستقلالهم الذى استمدوه من سلطة الباب العالى مباشرة ، لأنهم كانوا يعينون بمقتضى فرمانات سلطانية يجعلهم بحكم تعيينهم بمنأى عن أية رقابة صادرة عن الحكومة المحلية .

ومن النصفة التاريخية أن يذكر اسماعيل العظيم أنه ساهم فى التنظيم القضائى بما لا ينبغي إغفاله ، وما يكتب له فى سجل الإصلاحات من الأعمال ، وإن كانت هذا التنظيم فى عهده لم ينظم المحاكم الشرعية كلها بل جاء عمله متناولا للحكمة مصر حسب تطبيقا للقرار الذى أصدره

فى ١٠ محرم سنة ١٢٩٣

ثم إن العناية لم تقف بهذا الإصلاح الى ذلك المستوى ، بل تطورت من ذلك الى ما هو أبعد غورا وأجل فائدة ، فقد أدخل عليه عدة لوامح صدرت كلها حفزت الحاجة الى إصدارها على هدى التحارب والحوادث ومقنضيات الزمن . وأولاها بالذكر لأئحة سنة ١٨٨٠ ، فلائحة سنة ١٨٩٧ ، فلائحة سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، فلائحة يوليو سنة ١٩٣١ مما سيأتي عنه الكلام مفصلا .

وبما لا بد من الإشارة إليه مع بالغ الأسف أن نشاء المجالس القضائية على اختلاف طرائقها من محنطة ومحلية وأهلية قد أثر مع طول الزمن في نتائج المحاكم الشرعية وقصر في مدى اختصاصها تقصيرا كان من أثره أن أصبحت المحاكم الشرعية لا تقصى إلا في الأحوال الشخصية لذات الانسان ، وقد زعت من اختصاصها موضوعات كانت داخلة في ولايتها الشرعية ، فكان ذلك الاقتطاع الذي ما يزال يحز في قلوب سواد هذه البلاد ويدي جراحها أثرا مباشرا لتلك القروق التي اندفع إليها السكان اندفاعا يحكم الامتيازات الأخنية وما وضعت في أعناق السكان من التزامات وما سنته من أنظمة تحدد اختصاصها أمام المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة وما أدخل على لأئحة المحاكم الأهلية مقتبسا من قوانين أجنبية ومن أنظمة أكثرها فرنسي ، فكان من الضروري أن يصطبغ القضاء الاهلي بصبغة غير شرعية ، وأن يشيع فيه للقضاء المدني شيوما يجعل المحاكم الشرعية بمثابة عن أن تفرص عليها ولايتها القضائية مما لم يحسن الكشف عنه بعد .

والقضاء الشرعي ما يزال مرتقبا إن قريبا وإن بعيدا بزوغ شمس من الإصلاح الديني تنتظم ربوع البلاد وتقيم عليها إحلاصا ويقينا ، وما نشاهده اليوم وقبل اليوم من الأسباب الخوافز للهمم ، الداعية الى وضع قانون يوحد بين مرافعة لناس في قضائهم الشرعي ويفرض سيطرة عامة لأحكام الشريعة السمعة على مرافق المتقاصين حتى لزم عن ذلك أن قام دعاء من كبار القضاة الشرعيين في القضاء العالي في محاضرة دعا إليها مستشاري محكمة النقض والاستئناف وذوى الرأي الحصيف يطالبون بوضع قانون يدعي قانون فؤاد ينتظم الهيمنة على القضاء في سائر مرافقه بما حملته الشريعة في ثيابا نصوصها وأحكامها من تناول مرافق الناس بالنصف والعدالة المطلقة والمساواة - سوف تتوحد معه العزائم وتتجه به القوى الى ملاذ البلاد الأعلى وسيدها الاوحد فاروق الاول ، أهد الله عرشه ، فينتس القضاء والعلماء الى سدته العلية وضع قانون يدعي بقانون فاروق كما وضع قانون جسنيان في عهد الامبراطورية الرومانية بعد قيام العلماء والمشرعين بالمطالبة بوضع هذا القانون .

ولنحو ثلاثة عشر شهرا قام الاستاد الكبير والعلامة المحقق عبد السلام ذهني بك المستشار بالمحاكم المختلطة يقترح وضع هذا القانون ، وقد لقي يومئذ اتجاها طيبا وثناء موفورا .

ثم إن مصر منذ دخلت في حوزة الأتراك والقضاء الشرعي فيها محصور في الحنفية ، لأن المذهب الحنفي كان ولا يزال مذهب العثمانيين ، وقد جرى العمل منذ ذلك العهد على تعيين قاضي قضاة مصر من لدن السلطان مباشرة ، وهي الطريقة التي كانت متبعة في تعيين قاضي مصر الأكر ، حتى صدر عقب إشهار الحرب الكبرى مرسوم بقانون عمرة ١٢ سنة ١٩١٤ الذي ألغى وظيفة القاضي المشار إليه وأحل محله رئيسا للمحكمة العليا ليس له ما كان لسلطته من ضروب الامتياز الذي فرض على مصر يومئذ فرضا .

وأى قانون أسمى منزلة وأكثر تحريا لمصالح المتقاضين ومراقفهم من ذلك القانون الشرعي الذي يتناول مصالح الناس ويهيمن على مراقفهم ؟

فأصول الفقه الاسلامي ظلت مناط سعادة البشر منذ بعثة الرسول الأعظم ، وحكت بها أُمم وأحبال بعد انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى في عهود متلاحقة نعتبر أرمي عصور التاريخ وأحفلها بالمعظّمات والمعظّم .

ولا أدل على ديمقراطية الشريعة الفراء وحلوصها الى الفطر والطبائع وتغسلها للقلوب وأخذها بالهودة والرفق ، من أعمال أئمة المسلمين وإقامتهم الحدود الواضحة لتكون مرد الناس في أمر معاشهم ومعادهم ، ففي القرآن الكريم أحكام بعضها ناسخ وبعضها منسوخ ، وقد تتعارض السنة بحسب الظاهر ببعض الأحكام المستمدة من نصوص الكتاب ، فتمتحنر الى بحث وترجيح من المجتهدين ، مما أدى الى نصب الخلاف بين العلماء تحريا لمناط الصواب واستهداء بأدق نصوص الكتاب ، وقد أخذ كل من المجتهدين رصوان الله عليهم يعزز رأيه ويصير مذهبه حتى تشعبت المذاهب ونحى كل مجتهد نحو من رأى يسانده بالحجة والدليل ، غير أنها تلاقت بعد ذلك في أرنبة من المجتهدين حوالى القرن الثانى والثالث من الهجرة ، وهم الأئمة الأعلام : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وابن حنبل .

فالمذهب الحنفي وهو المنسوب الى الامام الاعظم أبى حنيفة النعمان مباه الرأى والقياس ، واعتبار العرف والعادة أصلا من الأصول ، وهو مذهب أهل العراق والهند والصين وما وراء الهند والعجم ، وهو كذلك مذهب الدولة العثمانية ، وأشهر الأئمة فيه هم أبو حنيفة وهو إمام المذهب ، وأصحابه أبو يوسف ومجد والحسن بن زياد ، ورأى الامام مقدم عند تكافؤ الأدلة لآيه رب الدار ، ورب الدار أدري بما فيها ، ومتى ظهرت قوة أى واحد من أئمة المذهب حمل رأيه ، وقد صرح الامام الاعظم لاتباعه بذلك ، فقد روى صاحب كتاب أنفع الوسائل ، وحكاها الامام الزركشي في المحيط ، أن الامام أبى حنيفة قال لأصحابه يوما :

« متى ظهر لكم الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع السلف الصالح فاعملوا به

واصرخوا برأى عرض الحائط »

ومذهب المالكية هو المنسوب الى الامام مالك بن أنس رضى الله عنهما وهو طريق أهل الحديث ، واختص بهذا المذهب أهل المغرب والاندلس ؛ وأكثر الأقطار اتباعا له الممالك الافريقية .

أما المذهب الشافعي ، وصاحبه عبد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، فهو على ما حكاه العلامة ابن الحاجب : نزع من رأي الحنفي والمالكي ، وقد انتشر هذا المذهب في مصر والوراق وخراسان وما وراء النهرين .

أما المذهب الحنبلي المنسوب الى احمد بن حنبل ، فدار أحكامه على القرآن وسنة الرسول ، وهو قليل الانتشار ، وأتباعه يوجدون في العراق والشام .

وغير ساف على المطلعين من أهل الرأي أن القضاء الشرعي كان في الماضي بعيد يتعدد بتعدد المذاهب ومعتنقها ، فقد كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض يقضى بحسب نصوص مذهبه تبعا لمذهب المتقاضين ، وكان هذا النظام سائدا في الديار المصرية لأنه يحقق رغبات المتقاضين المختلفة ويشد الطمأنينة الشاملة في نفوس المتقاضين ، وقد ظل الحال كذلك الى أن استولى السلطان سليم على مصر عام ٩٢٣ فوحد القضاء من ذلك التاريخ وقصره على مذهب أبي حنيفة بحكم أن المذهب الحنفي هو مذهب السيادة العثمانية كما أسلفنا . وقد ظل هذا النظام معمولاً به في مصر حتى سنة ١٩٢٠ وما تلاها من السنين بعد أن أظهرت الحاجة الملحة بإجلاء أن مرافق الناس قد تطورت ، وأن مذهب أبي حنيفة لم يعد يتسع لرخص التي تتطلبها العصر الجديد مسايرة للرغبات المتعارضة ، وأخذوا على أيدي الذين يعنون بمرافق الناس ومصالحهم ، فاقترح المصلحون من ذلك التاريخ من قضاة وعلماء اقتاس ما تمس اليه الحاجة من أحكام المذاهب الأخرى من غير مذهب أبي حنيفة ، وبقيت رسالة المذاهب الأخرى تنتشر في أنحاء القضاء الشرعي .

وما يدرينا لعل في القانون الموضوعي المرمع إبراره ما ينتظم مجموعة خصبة من آراء الفقهاء المجتهدين والعلماء المشرعين في المذاهب الأخرى .

نبي أن نعلم ما هو ذلك السبب الذي جعل مصر ما كفة حيننا من الزمن على القضاء بمذهب أبي حنيفة حسب بعد معرفتنا بأن ذلك النظام كان تابعا لتقليد عثمانى وضعه السلطان سليم أخذا بأحكام مذهبه ، فقد نقل العلامة الكبير عبد الفتاح بك السيد المستشار بمحكمة النقض أن البواعث التي حفزت العثمانيين يومئذ على اتخاذ مذهب أبي حنيفة قاعدة لتقاضيتهم مع سريانه الى الولايات التابعة ومصر منها في الطبيعة : أنه مشتمل دون سواء على اعتبارات فقهية تلائم أولياء الكلمة في البلاد العثمانية ، وتقتنع رغبات الذين يلون السلطة فيها وفي الولايات التابعة

لها ، وعلى مبادئ "عصرية ليس لكل من يلى أمور البلاد معدى عنها ، وذلك يظهر فى الأحوال التالية :

- ١ — جواز تقليد الامام غير القرشى .
 - ٢ — عدم صان ولى الامر فى حالة ما إذا أمر بتعزيز من استحق التعزيز شرعا فبات فى أمثاله .
 - ٣ — الترخيص لولى الامر بان يأخذ من أرباب الأموال قهرا عنهم ما يكفى لتقوية الجيش عند الحاجة .
 - ٤ — كون من أحياء أرضا مواتا لا يملكها إلا إذا كان قد أحيائها باذن من ولى الامر .
 - ٥ — الترخيص لولى الامر إذا عجز صاحب الأرض الخراجية عن رعايتها وأداء خراجها بأن يؤجرها للغير رغماعه ويأخذ من أحرثها ما يفي بالخراج .
- لكنك كما مررت أن حاجة الناس قد تطورت الى أبعد من ذلك ، وأن السيطرة المدنية أمتست مستأثرة بأكثر هذه المبادئ ، والعماليون كانوا فى أوسع المعاذير يوم كانت السيطرة للشرعية المطهرة وحدها دون سواها ، أما اليوم وقد تشعبت المسالك وتعدد القضاء فى مصر حتى وصل فى بعض الأحيان الى خمس جهات ، فليس ما يوجب نقاء مذهب أبى حنيفة وحده قاعدة للتقاضى مع مادفمت اليه الدوافع ودل عليه أصدق التجارب من تطور سريع يستتبع أخذ الناس بتشريعات ملائمة لما يطالبهم الزمن به من أحداث وحوافز .
- وغنى عن البيان أن مصر وهى زعيمة الشرق لابد لها أن تركز فى طبيعة وجودها الاستقلال على أنظمة صالحة تحرى مصالح الجمهور فى أكمل صورها وتنشد شكلا للقضاء الشرعى شوع خاص يقيمه على أمتن الدعائم وأوثق العرى ويؤاخذ فيه بين مصاحتى القضاء والمحاماة مع قيام المصلحة العامة رقيقة عليهما ، ويجعل من القاضى الشرعى خير الأمثلة لتحقيق العدالة والمساواة بين المتقاضين وبعث الطمأنينة الى قلوبهم على السواء .
- أما الحديث عن القضاء الشرعى وكيف تطور فى أشكاله الى يومنا الراهن ، ثم عن النظام القضائى لغير المسلمين ، فموضوعنا به بحوث تالية ، فالى الغد القريب ما

عالم ط
المحامى الشرعى

(لیس هو صاحب السنن)

ورد فی مقال «دفاع عن القرآن الکریم» المنشور فی الجزء الرابع ترجمة عبد الله بن أبي داود، فضل بعض القراء أنه هو سليمان بن الأشعث أبو داود صاحب السنن أحد كتب الحديث الستة. ومع أن فی المقال المذكور ما يدفع هذا الظن فإنما نقب على أن عبد الله بن أبي داود المترجم فی المقال المذكور ليس هو صاحب السنن ولكنه ابنه، أما الأب فلا يختلف فی فصله اثنا.

كشف الحجاب والزان عن وجه أسئلة الجاز:

هذا كتاب للأستاذ المشهور عبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة (١٩٧٣) قام بطبعه حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله عبد الرزاق خلف نوال الكردي بالجامع الأزهر. موضوع هذا الكتاب: الجواب على ثمانين مسألة وجهت إلى الأستاذ الشعراني في أوقات مختلفة، فجمع أجوبتها في كتاب. أمثلة من تلك المسائل: إذا كان المبدى يشهد أن أفعاله كلها خلق لله تعالى فم يتوب؟ هل خرج أحد من رقب الآكوان وتحرر منها؟ هل يمكن إرادة صفات النفس الردية بالرياضة؟ كيف صح تعقل الوحدة الالهية ونحن لا نتعقل أنفسا إلا اثنين روحا وجسما؟ الخ. فنشكر حضرة ناشر الكتاب عمله، لأن الأستاذ الشعراني ممن يستأنس بأرائهم في مثل هذه الشؤون.

التشريع الاسلامي:

هي مجلة أسبوعية علمية قضائية تولى إصدارها فضيلة الأستاذ محمد افندي محمود بدير المحامي الشرعي، قرأنا في العدد الأول منها فصولا متمعة في التشريع الاسلامي وفي مبادئ أخذت بها المحاكم الشرعية، وفي أحكام أصدرتها المحاكم في شئون تهم القارئ معرفتها، وللمجلة فوق ذلك صبغة علمية أدبية عامة، يرجى أن تفتح لها مكانا بين صحافتنا الاسبوعية الراقية.

التحفة للفوزية في تعليم الفارسية:

لما مواطن مجتهد مخلص في عمله في أفغانستان يشغل هنالك وظيفه في وزارة معارفها، وقد اطلعتنا على مؤلفات نافعة له في تعليم اللغة العربية للأفغانين. وقد أنحفنا اليوم بكتاب في تعليم اللغة الفارسية، دعاه بالتحفة الفوزية، إشارة إلى أنه وضع الكتاب لحضرة صاحبة

السمو الملكي الأميرة فوزية مخطوبة حصرة صاحب السمو الامبراطوري ولي عهد الامبراطورية اليرانية . وقد سلك في وضعه مسلكا جديرا بالاعجاب على الاسلوب التعليمي الأوربي ، وجعل في آخره قاموسا يحتوي على جميع ما في الكتاب من الكلمات في اللغات الثلاث اليرانية والعربية والانجليزية ، لقاء عملا من أجل الأعمال في هذه الظروف . فنهى حضرته على هذا التوفيق .

مذكرة في أحوال الوارثين على المذاهب الأربعة :

هذا كتاب جليل القدر وصعب الفصيلة الأستاذ الشيخ على حسن حسن البولاق خريج محصل الأزهر والمدرس بمعهد الرقائيق في الموارث على المذاهب الأربعة ، ضمنه حساب الموارث بأسهل الطرق ، لقاء ساد الحاجة ماسة من حاجات الناس التي تقع يوميا ويسأل عنها ، وإنا لندرجو أن يجد هذا الكتاب ما يستحقه من عناية الناس فإن لمثله أمكنة خاصة من كل مكتبة منزلية ، وهو يقع في أكثر من مائتي صفحة ، فنثني على همه الأستاذ المؤلف ، ونرجو أن يكثر الله من أمثاله .

كتاب الاجناس :

هو كتاب ممتع وضعه إمام اللغة أبو عبيد القاسم بن سلام النحوي المتوفى سنة ٢٢٤ فيما اشتهر في اللفظ واختلف في المعنى من كلام العرب ، وهو موضوع مروض للعقل ومعلم في آن واحد . قام بنشر هذا الكتاب السادة شرف الدين السكتي وأولاده بمدينة بومبي بالهند ، فنشكر لهم هذه الخدمة النفيسة الجليلة .

استدراك

وقع في الجزء الخامس الخطأ الآتي .

ص	ص	خطأ	صواب
٢٩١	٥	مائة جلد	ثمانين جلد
٣٣٢	١٤	والد أبي سلمة	أخا أبي سلمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العالم كله يتلمس دين الفطرة اليوم المنتقل للإسلام

إن الدراسات الدينية التي توالت في العالم المتقدم منذ أكثر من مائة سنة ، كشفت عن أمور كثيرة جديدة بالتمام السطر ، أو لها أن التدين صفة عامة لجميع بني البشر حديثهم وقديهم ، فلم يُعثر على أمة لا دين لها ، ولا على قبيل من القبائل البائدة قبل أن يدون التاريخ إلا ولها آثار تدل على أنها كانت تدين لشيعة ، وأنها كانت تعرف أن وراء المحسوسات عالماً محسوساً عن الأبصار فيه كائنات تُرجى معوتها ، وتُستدر رحمتها .

ولما انتصف القرن التاسع عشر ، زادت الدراسات الدينية تماثلاً في صميم الأديان القديمة فظهر ما بينها جميعاً من الصلات الوثيقة ، وما يجمعها من العقائد والتقاليد .

كان مذهب الماديين في تدين الإنسان إلى ما قبل مائة وخمسين سنة ، أن الإنسان لما ظهرت فيه صفة العقل ، واتسع مداهها بخيالات والتصورات ، اضطرب خيال الخفايا التي تحيط به من كل جانب ، والمخاطر التي تناوئه من كل مكان ، أن يعتصم بملجأ يحتمي فيه من هذه النوارل ولو توهم ، فليجأ إلى خياله ، فصور له عالماً عالياً وراء هذا العالم تمرره آلهة وأصناف آلهة وملائكة مقرون ، وأن من هذا العالم تنتزل على الناس النعم والنقم ، ومنها تصدر الأوامر لعوامل الطبيعة أن تسخو على بعض الناس وأن تص على آخرين . وما زال بهم الخيال حتى صور لهم ما يجب أن يتقرب به إلى تلك الأرواح العلوية من القرابين والهدايا المتنوعة من الأطعمة ومن ضروب العبادات ، ركوعاً وسجوداً ، وصياماً وجهاداً إلخ . ومن هذه الحالة الساذجة نشأت الأديان الكبرى المعروفة ، حاملة طابع وأسميها من الرجال أصحاب المطامع الواسعة ، أو من الرجال ذوي المقول الراقية من أمثال (باسكال) و (جول سيمون) و (أرنست رينان) وأضرابهم ، ممن وصلوا من العقيدة بالمخاليق إلى درجة التوحيد والتزيه المطلقين . ولم يحفز العلماء الماديين إلى مثل هذا التطرف في الحكم إلا وقوفهم مع الحس المجرد ، وزعمهم أنه لا سبيل إلى سائر المعقولات الإنسانية غير الحواس الحس .

ولكن الروحيين ، وزيدهم الذين يعتقدون بأن العالم مركب من عنصرين : أحدهما مادي ثاني ، والآخر روحاني باق ، فقد قرروا أن الإنسان اهتدى إلى عالم الروح بما ركب فيه منه ، ولولا ذلك لم يشعر به ولم يستد إليه ، وقد أظهر الإنسان حتى في أشد أدوار توحشه تملقه

بذلك العالم ، واعتداده به أكثر مما أظهر من تعلقه بالعالم المادى . ومن يتأمل فيما فرصه على نفسه من العبادات الجسدية ، والتفصحيات القربانية ، والشكائم التى اتخذها لصد ميوله طامعا مختاراً ، يجد أن أثر العالم الروحاني على نفسه كان شديدا الى حد لا يمكن القول معه بمذهب الحسين . فلو كان الخوف من حوائج الحياة هو الذى اضطر الانسان للعا الى عالم ما وراء الطبيعة ، تخفت وطأة الاضطرار عنه كلما ازداد علمه بأسباب تلك الجوائع ، ولكن المشاهد خلاف هذا ، فقد اشتد تطلع أهل العلم الى ذلك العالم اشتدادا يزوا به المتوحشين والجهال أضغاث مضاعفة . ولا يقل أن مثل الطبيعى المبقرى (ماسكال) ، ولفيلسوف السياسى الخطير (جول سيمون) ، والنقاد الفيلسوف الكبير (ارنست رينان) وغيرهم يقوون على أثر ورأى سدها ولحمته الوهم ، ولا يتفصلون منه مع بلوغهم درجة الامامة فى الفاسفة والنظر السليم .

لا جرم أن نظرية الماديين قد سقطت حتى فى نظر العلماء الذين لا يؤيدون الاديان الشككية مثل جيو (Guyo) مثلاً ، فقد كتب فى كتابه (اللادينية فى المستقبل) يقول :

« إن نظرية التلاسفة الحسين كان ينتظر سيادتها المطلقة على العقول منذ بضع سنين ، وقد كان رضا الكثيرون بدون أن يستتجوا منها سائر نتائجها الضرورية ، أما الآن فقد اتضح أنها واهية »

أما النظرية السائدة اليوم فى البيئات العالية للدراسات الفلسفية بسبب ثنها غير ظنية ، ويمكن تحقيقها إذا صمد الانسان يبحث الى مناشئ العقائد الانسانية . وهذا الامر مهما كان صعبا ، فإن وراءه رجالا يهتمون به غاية الاهتمام . وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الخليل فاحاد ، هو الأستاذ الطائر الصيت « ما كس مولر » الالماني ، فانه كتب فيه كتابا جايلا أسماء (أصل الدين وارتقاؤه) أثبت فيه بالصوص الدينية الفسكربتية ، وهى أصل الديانات عهدا وأقدمها تاريخا ، بأن الانسان أول ما عبد عبد الخالق جل وعلا على صفته غير المحدودة . وما هذه الاوثان والأصنام فليست إلا نبات الخيال استدعتها محبة الانسان للسر كل ما يشعر به فى نفسه ، قال :

« إن هذه الآلهة المجسمة ليست إلا تمثيلا طرأ على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية . وباء على هذا ، فقد ركع آباؤنا وسجدوا أمام الله الحق ، حتى قبل أن يجسروا على الاشارة اليه باسم »

ثم حرم هذا المؤلف بأن أصل الاديان كلها واحد ، وما استدعى اختلافها إلا ما أحدثته الترعاب الانسانية ، والاهواء النفسانية من حب التحديد والتقييد والمصر

هذا كلام لم يحاف العقل ولا النقل ، وهو مصداق لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس »

فما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بفيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوم إليه ، الله يحنبى إليه من يشاء ويهدى إليه من يئيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بفيا بينهم »

أما قول الماديين السابق فلا ينطبق على علم ثابت ، ولا يستطاع أن يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط بيميد عنهم ، فاهم متى آمنوا خرج مركزهم حيال مسألة من المسائل ، اعتادوا التعسف في التفلسف ، وملاؤا الأرض احتمالات وفروضا . ولو كانت أعرق في العسفة والهديان مما تعالوا عن قبوله أولا . سلهم قائلا : هل يعقل أن الانسان يعبد شيئا مجسما قبل أن تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت إليها ؟ هل يتصور أن الانسان بمجرد خروجه من عالم العيب أكب يعبد الحجارة والجبال ، والأودية والأشجار ، دون أن يكون له شعور ولو مبهم ، سابق على ذلك النحديد ؟ لا يتصور غير ذلك بوجه من الوجوه . إذن فأول عبادة قام بها الانسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة لخالق الحق المنزه عن الحدود والقيود . وقد جاءت البحوث التي قام بها ما كس مولر مؤيدة لذلك كل التأييد كما رأيت .

يقول الماديون ، مما يدل على أن آباءنا الأولين كانوا محددين مجسمين : لا مطلعين ولا مرهين أن لغتهم غالية مما يدل على الاملاق وعدم الحد ، فلا نجد فيها لفظة (لا نهاية) .

تقول أن حبو اللغة منها لا يدل على عدم وجود معناها . على أنها في كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما في إنشاء التخاطب ، كقولنا لانهاية ولا حد ، أولا غاية ، أو لا آخر وهكذا . ومع هذا فإن اللغات القديمة قاصرة عن أشياء كثيرة حتى في الحسوسات ، فلم يوجد في واحدة منها الاشارة الى تدرج الألوان وتداخل بعضها في بعض بدون حد ، وليس في أغلبها إلا أربعة ألوان فقط : الأبيض ، والأسود والأحمر والأصفر ، فهل يصح أن يقال أنهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الألوان والسماء فوق رؤوسهم تتألق في حلتها الزرقاء ؟ . على أن فكرة (ألا نهاية) يعيل إليها المنوحش أكثر مما يعيل إليها المتمدن . ألتست نرى أن الجاهل من الناس إذا أراد أن يصف لك اناس بلدة من البلاد لم يحد في ذهنه من أوصاف المبالغة ما هو أقرب من قوله : تلك بلدة ليس لها أول ولا آخر ؟ وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمنوحشين أكثر مما يشاهد عند من عداهم . إذن ففطرة الماديين قاصرة ، ولم يتقدم الى القول بها إلا أصولهم القاصية عليهم بعزو جميع المدركات الى الحواس الخمس ، وما أضيق هذا المجال وأحرجه

وقد سبق لنا أن بينا في مقال خاص بأن في ثبوت أن أول ما كان الانسان عليه من الدين

التوحيد الخالص من شوائب الخيالات ، وأنه كان تاما في جميع النوع البشري ، فلما دخت عليه التلويمات الخيالية تعددت أشكاله ، وتوعدت صوره ، وذهب كل فريق من الناس بما تأثر به عقله منها ، فأصبح للناس أديان شتى ، وانتهى على تكثرها وقوع النزاع بين الجماعات البشرية ، فبنا سبق لنا أن بينا أن في ثبوت هذه الحقائق ثبوتا علميا في أخريات القرن التاسع عشر معجزة علمية للقرآن ولنبي صلى الله عليه وسلم معا .

فان قول الأستاذ (ماكس مولر) إن الانسان منطور على توحيد الله ، يعد منه ترديدا لقوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وقد رأيت أن هذا الامر لم يطرأ في عالم الدراسات الدينية إلا في أخريات القرن التاسع عشر ، ولم يذعه إلا كتاب الأستاذ (ماكس مولر) في سنة ١٨٨٩ .

وفي قوله . إن النوع البشري كان له دين واحد ، هو ماد كره آتفا من التوحيد ، فهو موافق لما ذكر في القرآن نومه قبل حدوثه بنحو ثلاثة عشر قرنا ، وهو قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة . فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » الآية ، ومعها كان الناس أمة واحدة فاحتلفوا فأرسل الله لهم أنبياء ورسلا يهدونهم الى الحق ، وهم ما احتلفوا إلا بسبب ما نسلط عليهم من الخيالات والصور الذهنية المختلفة ، وذلك بدليل قوله تعالى في آية أخرى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاحتلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » ومعها صريح جدا وهو أن الناس كانوا في مبدأ أمرهم على دين الفطرة الحق ، فاحتلفوا باتباع الأهواء ، والأخذ بالباطيل ، ولولا كلمة سبقت بتأخير معاقبتهم الى يوم القيامة ، لقضى بينهم عاجلا فيما فيه يختلفون ، بإهلاك المبطل ، واستبقاء الحق .

فهذا الاستكشاف العلمي الذي لم يتعد الأستاذ (ماكس مولر) اليه تصديق القرآن فيما ذكره عن دين الانسان ، وانكر حفره اليه ما ثبت من مراعاة أقدم المخطوطات والمحفورات البشرية في اللغات الهندية القديمة ، وفي البيضة التي يرجح أن الانسان الأول سكنها وتكاثر فيها ، وانتشر منها الى سائر بقاع الأرض .

وراد الله تعالى هذا الامر بيانا مصرح بأن الاسلام الذي أورله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الاول الذي أورله على نوح ، وهو معدود في البشر الثاني ، فانه قد ثبت أن جوائح مائية كانت اجتاحت ذرية آدم الى نوح وكان عددهم قليلا على نسبة قرب نوح من آدم .

وقد اشتبه على بعض الناظرين هذا الامر ، وقالوا . كيف يطفى الماء على اليابسة فيحتاج أمة برمتها ، كأهم لا يعلمون أن الحوادث الارضية كثيرا ما أحدثت ما يعرفه من تتبع أدوار

الخليقة حتى بعد تدوين التاريخ، فقد تار مرة بركان فيزوف سنة (٧٩) بعد الميلاد فضر مدينة بومبيتي بمرمتها، وأباد أهلها جميعا وهم لاهون (١) وكثيرا ما حدث زلزال فأطغى السائلة على اليابسة، وأهلك مئات الألوف كما حدث في مسينا من إيطاليا سنة ١٩٩٠ إذ زلزلت الأرض ههناك زلزالا شديدا، هدم الدور على أهلها، وأطغى المياه على المدينة، فقتل من أهلها نحو مائتين وخمسين ألفا، وكانت كارثة ارتفاع لها الناس جميعا.

وقد حدث زلزال مند نحو عشر سنين في ليابان، كان لا يقل في شدته عن زلزال مسينا. وثار أواذى البحر فأعارت على الشواطئ، فأغرقت ثلوثا مؤلفة.

والأعاصير متى أطلق لها العنان حدثت من الخسائر مالا يدخل تحت حصر، وقذفت بالمياه على الأرض، فأحناحت جماعات بمرمتها، والتناثرات العالمية تنقل اليها هذه الحوادث من حين إلى حين.

الخلاصة، أن العالم اليوم يتطلب الدين الأول للإنسان الموافق للغريزة التي فطر عليها الإنسان خالصة من شوائب الخيالات، وهذا هو الاسلام بأخص معانيه، وليس له معنى غيره، وإن كان لا بد من الاستشهاد بقول عالم اجتماعي عن صحة ما نقول، فهذا الأستاذ (هنري برنجية) يقول كما ورد في المجلد ٢٤ من مجلة المجلات الفرنسية:

« إذا كان النقد التاريخي قد هدم كل الأشكال المتحجرة في الأديان، فإنه لم يستطع أن يعدو على الضرورة الدينية، بل شهد باستمرارها وحيويتها في كل دور من أدوار التاريخ، فكل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد على أن الإنسان مفلطور على الاعتقاد بالله رغم أنه ».

إلى أن قال: « هذه هي الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التي استغلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان، فمن المستحيل عليه أن يطفئها، ولكنه سينقلها إلى المستقبل ».

محمد فريد وجدي

(١) بومبيتي هذه مدينة من مقاطعة نابولي بإطالية كانت مستورة ملهى لاسرياء الرومانيين، وكان يسكنها ثلاثون ألف نفس، فلما تار بركان فيزوف القريب منها صهرها كلها بخرم يطغى من الرمال والمحمود السائلة والحم البركانية، ثم غرق على الصبيان حتى كانت سنة ١٧٤٨ فعثر ملاح إيطالي على تمثيل على الأرض، فأمرت الحكومة بالممر هناك، فأكتشفت لهم المدينة، ومازالوا يحفرون حتى حردو لحم عن ثلاثة أشخاص مرأوا ما يحش من مسعات الهلاك: وجدوا أنه قد أحدهم طوقا، اللحم وهم يأكلون ويشربون، وبدمون ويشربون، ويشربون ويلعبون، واستعاد التاريخ بكتف الانتقام من هذه المدينة كثيرا من طغاة الرومانيين وطراذ حيائهم وشكل معيشتهم البيئية والاجتماعية

التفسير

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والعصر إن الإنسان لئى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » :

ذكرنا في مقالنا السابق أن القرآن يدل على أن الإنسان محيط به الحسر من كل جوابه ، كما تشير إليه كلمة « في » ، فكأن الحسر ظرف له يتقلب فيه ولا يخرج عن محيطه « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الخ .

وقد قال بعض الحكماء : إذا فسد الإنسان فلا تقل عما يصدر عنه من هديان أو عدوان أو فساد أو عناد ، فإنه مستعد لشر لا نهاية له كما أنه مستعد لخير لا نهاية له ، فإن سار في طريق الشر أفيض عليه من وسائله والترقى فيه ما لا يعلمه إلا الله ، وإن سار في طريق الخير أفيض عليه من وسائله والترقى فيه ما تعبطه عليه الملائكة .

والجلمة فالإنسان محل الابتلاء والاختبار بين تيارات متعاكسة وعواطف متخالفة ، وأهواء متصادمة ، ولا نجاة له من ذلك إلا بالالتجاء الى الله ، والتزام ما رسم له من خطط ومناهج : بامتنال أوامر واجتناب نواهيه .

وقد قال على كرم الله وجهه مبينا لضعف الإنسان وخلقه العجيبة « أعجب ما في الإنسان قلبه له مواد من الحكمة وأضداد من الطيش والسفه ، إن سح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الغضب اشتد به الفيظ ، وإن أضعف بما يهوى نسي التحفظ ، وإن ناله الخوف فضعه الجرع ، وإن استمد مالا أطفاه الغنى ، وإن عصته طاقة شغله الفقر ، وإن جهده الجوع أقعده الضعف ، وإن أفرط في الشبع أضرته البطنة ، وكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد . وهو لا يكاد يخلو من إفراط أو تفريط .

وكل هذا يشرح لما قوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفا » ، وقوله عز وجل : « لقد خلقنا الإنسان في كسد »

وقد جاءت الشرائع لترشده الى طريق الخير والصلاح ، وتهديه العرطا المستقيم الذي يوصله الى الفوز الدائم والسعادة الابدية . وما حقّرت في نظره الدنيا وقالت له : إن الآخرة هي دار القرار ، إلا لترجمه من همومها وغموها ، فانها منبع السلاء وأس الشقاء ، ولا ينجو من شباكها وارتباكها « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

يريد الله هذا الاستشاه وهذه الأوصاف أهم آسوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بحوارهم « وتواصوا بالحق » وهو أداء الطاعات وترك المحرمات « وتواصوا بالصبر » على المصائب والأفداز ، وما عسى أن يكون من أذى من يؤذيهم عندما يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ، فانهم لشدة محبتهم للصالحات وقوة حديهم على أباء جنسهم ومزيد رحمتهم بإخوانهم لا يقتصرون على ما يخصهم ، بل يوصون غيرهم بمثل طريقهم ، ليكملوا في أنفسهم ، وليكونوا بعد ذلك سببا لكمال غيرهم ، فإن ذلك شأن أهل الدين وورثة المسلمين . وقد قال الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » ، وقال : « إنما المؤمنون إخوة » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

ويكفي في هذا الموضوع أن القرآن يخبرنا عن سبب لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم : أنهم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه »

والتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما هو مطلوب واجتناب ما هو منهي عنه ، إذ الإقدام على ما تكرهه النفس والاحجام عما تحبه صعب شديد ، ولا سبيل الى ذلك كله إلا بالصبر .

ولا بد أن يكون لاح لك مما قدمناه أن في هذه السورة الخلية وعيدا شديدا يجب الانتباه له والالتفات اليه ، فإنه تعالى حكم بالمعاملة على جميع الناس إلا من كان متصفا بهذه الأشياء الأربعة : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر . فكما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه دعاء غيره الى الدين ، والعمل الصالح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبذل النصيحة بقدر المستطاع . وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم ، فإن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وقد كرر تعالى التواصي للحض على الدعاء الى الله ، ثم التبات عليه بحيث لا يضجر ولا يمل ، وعلى المؤمن أن يقل الموعظة الحسنة ولا يفر منها ، فإن ذلك ملاك سعادته . وقد قال عمر بن الخطاب : « رحم الله امرأ أهدى الى عبوي » .

وبالجملة : فهذه السورة تنبها أن الناس كلهم في غفلة عما يراودهم ، إلا الذين آسوا وعملوا الصالحات ، فانهم في تجارة لن تبور ، حيث باعوا القاني الخسيس واشتروا الباقي النفيس ،

وقدموا الباقيات الصالحات على الغايات الرأعيات ، فبالها من صنعة ما أربحها ، وبغية ما أنجحها !

هذا ويدخل في عموم الصبر : الصبر عن المأصبي التي تشتاق إليها النفس بحكم الحيلة البشرية ، والصبر على الطاعات التي يشق على النفس أدائها ، والصبر على ما بدتلى الله عز وجل به عباده من الالاب والمصائب ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : الصبر على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثائة درجة ، وصبر على البعد عن محارم الله تعالى فله ثمانائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله ثمانمائة درجة . وقد قالوا : إن الصبر على البلاء نضاعة الصديقين . ويروى عن داود عليه السلام أنه قال . يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . ويقول بعض العارفين : إن أحر الصابرين فيما فاتهم ما كانوا يريدون أعظم من النعمة عليهم فيما يملكون من محوباتهم . فعلى الانسان أن يدفع الخزع عن نفسه بالتفكير فيما سيناله من الثواب الباقي والنعيم الدائم .

وتأمل كثيرا في قوله تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، فقد جعل تعالى كل شيء بحساب إلا أحر الصابرين فإنه بغير حساب . وفيه در من قال :

عطيتُهُ إذا أعطى سرور وإن أخذ الذي أعطى أنايا
فأى النعمتين أحق شكرا وأحمد عند منقلب إيايا
أنعمت التي أهدت سرورا أم الأخرى التي أهدت ثوبا

والخلاصة : أن الناجين من هذا النوع الإنساني هم الذين آمنوا اشرف الفصيلة وخسة الرذيلة ، كما يشير إليه قوله تعالى « وصديق بالحسي » وهم الذين آمنوا بالجرا وجميع ما جاء به الرسل ثم عملوا الصالحات : بأن يكون كل إنسان نافعا لنفسه وأهله ولقومه ولاناس أجمعين ، بعيدا من أن يصر أحدا (إلا لكف صرر أعظم منه) ، ثم يدأب على التواصى بالحق والصبر ، فإن التواصى بالحق والصبر حفاظ كل خير ، ورأس كل أمر .

فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضا عليه بأن يدعو كل صاحبه الى الاعتقاد بالحقائق النانئة التي لا تنازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل ، وأن يبعدوا بأنفسهم عن الأوهام والغالطات التي لا دليل عليها ولا فطرة تهدي إليها .

ومعلوم أن رأس الاعمال الصالحة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » . ويقول الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا

منكم خاصة « فلما نسوا ما دُكروا به أنجبنا الذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بمذاب بنيس بما كانوا يفستقون » ، ومن الذين ظلموا ، الذين لا يهون عن السوء كما هو واضح من الآية ، فإنه ما نجح إلا الذين يهون عن السوء .

هذا وأظنك في غنى من أن أقول لك : إن ذكر الصبر بعد الحق مع دخوله فيه لكمال الاعتناء به ، أو تقول : إن الأول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى الله تعالى ، والثاني رتبة البوذية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى .

ولتقف هنا اليوم ، وزجو أن يكون لنا جولة تتم بها هذا المقام ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوي

عضو جماعة كبار العلماء

في ذم النهميمة

قال الله تعالى في ذم الكفار : « هاز مشاء بنميم » .

وقال الحكماء : « لم يمش ماش ، شر من واش ، والساعي بالنهميمة يهلك نفسه ، ومن سعى به ، ومن سعى إليه » .

وحكي : أن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان العنبي رأى رجلاً يسعى برجل عند صديق له ، فقال له : نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه لسانك عن التكلم به ، فإن السامع شريك القائل ، وإنما نظر شر ما في وعاثه فأفرغه في وعاثك ، ولو ردت كلمة ساع إلى فيه ، لسعد رادها كما شق قاتلها ، والتمام شر من الساحر ، فإن التمام يفسد في الساعة الواحدة ما لا يفسد الساحر في المدة الطويلة .

وأني رجل عبد الله بن عباس وهو والي البصرة من قبل علي بن أبي طالب بنهميمة ، فقال له : إن شئت سألتنا عما جئت به فإن كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً ماقتناك ، وإن شئت أفلناك . فقال الرجل : إن شئت أن تفعل فأفعل .

وقال شاعر :

نوخ من الطرق أوساطها	وعند عن الجانب المشتبه
وسمك من عن سمع التقي	ح كصون اللسان عن الطلق به
فانك عند سمع الحدي	ث شريك لقاتله فاتبه

السُّنَنُ

حكم خروج النساء من بيوتهن

وما يتعلق بذلك

عن عائشة قالت « خرجت سودة بنت زمعة ليلاً فرآها عمر فعرّفها ، فقال : إنك والله يا سودة ما تحقّقين علينا ، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له وهو في حجرتي يتعشى وإن في يده كعراً (١) ، فأنزل الله عليه ، فرُفع عنه وهو يقول . قد أذن الله لكم أن تخرجن لحوائجكن » . رواه البخاري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه . (٢) حكم خروج النساء لمصلحة دينية أو دنيوية . (٣) الاسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة في الحقوق العامة والواجبات إلا فيما تأباه طبيعة كل منهما .

(١) معنى الحديث ظاهر : وهو أن سودة بنت زمعة إحدى أزواج الرسول صلوات الله عليه خرجت من دارها ليلاً بعد نزول آية الحجاب لقضاء حاجة ، وكانت طويلاً القامة ، فرآها عمر رضى الله عنه فعرّفها بطول قامتها ، فناداها بقوله : إنك يا سودة ما تحقّقين علينا ، ليلفتها إلى أن خروجها من دارها ينافي الحجاب المطالب بالنسة لها ، لأنها تعرف بقامتها وإن كانت مستترة ، فكان عمر قد فهم من آية الحجاب (الآتى بيانها) أن المرأة مأمورة باجتناب كل ما يدل عليها ويجعلها معروفة للناس .

وكان رضى الله عنه غيوراً على المؤمنات ، حريصاً على محو عادات أهل الجاهلية وآثارهم الذميمة ، لما كان يعرفه من فسادهم ، وانتهاك حرمة الاحلاق بينهم ، وكان من شر عاداتهم تهتك النساء واحتلالهن بالرجال اختلاطاً معيماً أفضى إلى إباحتهن واحتقارهن في نظر الرجال إلى أبعد مدى .

فلما سمعته سودة رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان موجوداً عند عائشة وقتئذ يتعشى في حجرتها ، فأخبرته بما وقع من عمر ، فأوحى الله إليه أن حجاب المرأة ليس معناه

(١) اللرق يتنجح البين : المقام للعبه ، فادأ أكل لجه ملى عراة بعم البين .

حجبها في المنزل بحيث لا تخرج منه ، وإنما معناه ستر جسمها وربتها عن أعين الرجال كي لا تفرى بها أهل الفسوق الذين لا يبالون بالآداب والأخلاق ، فلها أن تخرج لقضاء حاجتها وهي مستترة بإستر يحجب بدنها عن أعين الرجال الذين يساقون بدافع شهواتهم الى الاعتداء على حقوق غيرهم من حيث لا يشعرون ، وذلك هو معنى الحجاب المفروض على النساء في قوله تعالى : « وإذا سألتوهن منأنا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » . ومعنى الآية : أنه لا يجوز لنساء الرسول أن يحتلطن بالرجال ويكلموهن بدون ساتر يغطي أبدانهم ويسترها عن أعينهم من ملالة ونحوها .

فأية الحجاب نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس من المعقول أبداً أن يفرض الله على نساء الرسول التحجب عن الرجال وهن أمهاتهم دفعا للرغبة المتوهمة ، ويبيح للنساء المأونات غيرهن الاختلاط بالرجال وهن مكشوفات .

فما أورده بعض الناظرين من أن هذا الحكم خاص بنساء الرسول فلا يكلف به سواهن ، لا قيمة له مطلقا . على أن علة الأمر بالحجاب نص الله عليها ، وهي قطع وساوس الشهوة من النفوس وتطهيرها منها كي لا يكون للشيطان سبيل عابها . وظاهر أن نساء النبي لا يطمع فيهن أحد من المسلمين وهن أمهات المؤمنين ، وإن وجد شخص ضعيف النفس والمروءة وحدثنه نفسه بذلك كان نادرا لا يعبأ به . فالنقصود بهذا الحكم النساء عامة ، وإنما بدأ بنساء النبي ليعلم الناس ما لاختلاط النساء بالرجال من خطر شديد .

على أن الآية التي بعد هذا تدل على غرض الشارع من الحجاب ، وتبين أنه عام يشمل زوجات النبي وسائر نساء المؤمنين ، وهي قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْرِينَ عليهن من حلابهن ، ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذَيْنَ » . والجلباب رداء خاص تستتر به المرأة من رأسها الى قدميها ، يشبه الملافة ونحوها . ومعنى يدْرينَ الجلباب : يرخينه عليهن ويغطي به وجوههن وأبدانهن . ومعنى قوله تعالى : « ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذَيْنَ » : ذلك أقرب الى معرفتهن وتمييزهن من الإماء اللاتي كان يقصدن يومئذ بعض فاسدى الأخلاق . وذلك لأنهم كانوا يتعرضون للإماء حين يخرجن مع النساء ليلا لقضاء حاجتهن فيختلطن بالحرائر فيصيب الحرائر أذى المتعرضين من حيث لا يقصدونهن . فأمر الله الحرائر بتغطية وجوههن ليتزن عن الإماء فلا يصل إليهن أذى المتعرضين .

وحاصل المعنى : أن نساء المؤمنين كن يخرجن بعد آية الحجاب وأبدانهم ورءوسهن مستورة بالجلباب ، ولكن وجوههن مكشوفة كالإماء ، فترتب على ذلك عدم تمييزهن من الإماء ليلا ، فأمرهن الله بتغطية وجوههن كي لا يتعرض لهن أحد .

ومن هذا يتضح أن كشف وجه المرأة لا يجوز إذا تعرض لها بعض فاسدى الأخلاق

في الطرق ، وأن غرض الشريعة الإسلامية من الحجاب هو صيانة الآداب العامة ، والقضاء على فوضى الأخلاق في كل زمان ومكان . فلو أن المسلمين عرفوا هذا المعنى وعلوه لازواجهم وبناتهم ، لقصوا على التبرح وفساد الأخلاق ، وحفظوا بذلك أعراضهم وأنسابهم .

وبعد : فهل للمرأة أن تكشف وجهها إذا لم يترتب على كشفه فساد ؟

الجواب : أن جمهور الأئمة يقولون محواز ذلك ، فإذا لم يترتب على كشف الوجه افتتان بالمرأة أو تمحش بها أو إغراء لها على الفساد ، كان كشف وجهها جائزا . وحالف الشافعية في ذلك فقالوا : إن وجه المرأة عورة فلا يصح كشفه للرجال ، بخلاف وجه الرجل فإنه ليس بعورة فيصح للمرأة أن تنظر إليه عند أمن الفساد باتفاق الجميع .

(٢) مما لا ريب فيه أن الشريعة الإسلامية قد حررت المرأة من قيود الجاهلية، وجعلت لها مكانتها اللائقة بها في المجتمع الإنساني ، وأباحت لها فعل كل ما لا تقيصه فيه ، فلم تمنع من الخروج من ديارهن لقضاء حوائجن إلا إذا ترتب على ذلك الخروج شريضر المرأة ويفسد أخلاقها . فللمرأة أن تخرج من دارها وهي مسترة غير متبرحة ، ولها أن تذهب إلى محال العادة وتحضر مجالس الوعظ . وهذا الحديث الذي معاصر في هذه الإباحة وقد جاء أيضا في الحديث المتفق عليه ، عن أم عطية الأنصارية أنها قالت : «أمرنا أن نخرج العواتق والحائض في العيدن يشهدن الخير ودعوة المسلمين ويعتزل الحائض المصلى» . والعواتق . البنات الأنكار البالغات والمقاربات للبلوغ . ومعناه ظاهر ، وهو أن النساء سواء كن بالغات أولا يجب على أولياء أمورهن أن يخرجوهن ليحضرن مجالس الخير . أما ما روى عن عائشة من أنها قالت : « لو رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثه النساء لمنعهن عن المساجد » فليس فيه ما يدل على حكم شرعي بل هو من باب زجر النساء اللاتي يخرجن من قواعد الحجاب وآداب الإسلام ، فهو من باب تمت النظر إلى ما سنه الرسول صلوات الله عليه وعدم الخروج عنه .

وبالجملة : فإن قواعد الدين الإسلامي قد أباحت للمرأة أن تسلك كل سبيل لا ريب فيه ، وأن تسافر الأعمال الدينية التي فيها مشاق وأسفار طويلة ، ففرض الله على المرأة الحج مع زوجها أو مع دى رحم محرم كابنها وأخيها وعمها ، وجعل للرجل الحق في أن يصحب زوجته في أسفاره إلى أي حبة مأمونة . ولكن كل ذلك مشروط بأن لا يترتب على خروجها فساد خلق ، وأن لا تخرج متبرجة تعرض زينتها وبدنها للرأين ، وأن يكون خروجها بإذن زوجها . فتي توفرت هذه الشروط جاز للمرأة أن تخرج لقضاء حوائجها ، وحضور مجالس العلم والوعظ بلا نزاع ، فإذا تعرض لها شخص فاسد الأخلاق بأذى بعد ذلك كان حقيرا في ذاته حقيرا عند الله والناس جميعا

(٣) ومن هذا تعلم أن الشريعة الإسلامية إنما أمرت النساء بالحجاب لما يترتب على التبرج من فساد خلق ، لا لتقص طبيعى في المرأة يقتضى حجبها ، بل قد سوت الشريعة بين الرجل

والمرأة في الحقوق والواجبات العامة الديوية والاخرية ، إلا ما لا تقتضيه طبيعة كل منهما ، فأما الحقوق الديوية فإن معظمها وأهمها يرجع الى باب الأموال ، وقد سوت الشريعة الاسلامية بين الرجل والمرأة في هذا الباب ، فلم تحمل لأحدهما ميزة على صاحبه في ذلك ، فلمرأة حرية التصرف في مالها مادامت رشيدة مكلفة كالرجل سواء بسواء ، ولا يحجر عليها في تصرفها إلا بسبب من الأسباب الموجبة للحجر كما يحجر على الرجل بذلك السبب . نعم إن بعض الأئمة قال إن للرجل حق التصرف في بعض أموال امرأته بدون إذنها ، وله الحق في أن يحجر عليها في ذلك القدر . ولكن جمهور الأئمة على خلاف ذلك . وهذه ميزة عظيمة تدل على ما للمرأة من المكانة والتقدير في نظر الشريعة الاسلامية ، فإن حرية التصرف في باب المال دليل واضح على اعتبار المرأة وتقديرها ، فما دامت المرأة حرة التصرف في مالها من بيع وشراء وهبة وصدقة وإجارة وغير ذلك من أنواع العقود بحيث لا تصح إلا إذا صدرت منها أو من وكيلها ، كانت في نظر الشريعة الاسلامية عاملاً قوياً في بناء دعائم العمران وخدمة المجتمع .

فلمرأة الحق المطلق في أن تتصرف في مالها فيما ينفعها حال حياتها وبعد مماتها ، وليس لزوجها ولا لغيره أن يحبسها من حقها في التصرف .

ويدهى أن إنفاق المال على وجه صالح ينفع المجتمع ، له أكبر الأثر في تخليد ذكرى الانسان في الدنيا ، وهو من أكبر الوسائل الموجبة للمساعدة الاخرية . فإذا أتيحت للمرأة أن تكون خالدة في هذه الحياة الدنيا بما تنفقه من أموالها في إصلاح حال المجتمع ، وأن تكون لها في الآخرة أعلى المنازل وترفع الدرجات بلا مرقق بينها وبين الرجل ، لم يكن وراء ذلك شيء ينقص أجرها أو يقلل احترامها .

ولعل قائل يقول : إن الشريعة الاسلامية وإن سوت بين الرجل والمرأة في باب التصرف بصورة واسعة ، ولكنها لم تسو بينهما في قسمة الميراث حيث جعلت لها نصف الرجل .

والجواب عن ذلك : هو أن قسمة الميراث بالصورة التي جاء بها القرآن الكريم مطابقة للنظم الاجتماعية في كل زمان ومكان ، بحيث لو خرج الناس عنها قيد شعرة لكان ذلك إجحافاً معيياً . وذلك لأن الرجل يجب أن يمتاز بهذه الميزة المادية لما تستلزمه حياته من تكاليف تزيد عن حياة المرأة المسلمة ، فالرجل مكلف بأن ينفق على المرأة كل ما تحتاج اليه من طعام وشراب وسكن بحسب حاله وحالها ، ومكلف بأن ينفق على أولاده وأقربائه الفقراء ، ومكلف بالدفاع عن عروسة ووطنه ، ومكلف بأن يقوم بأعباء ما تستدعيه العادة والعرف من مضافة ونحوها . كل ذلك يجب على الرجل أن يقوم به وحده . أما المرأة فله لا يجب عليها شيء من ذلك مادام الرجل موجوداً . فالل الذي ترثه المرأة يعد ربحاً خالصاً لها قد لا يساويه نصيب الرجل المضاعف الذي تكتسفه مطالب كثيرة .

فن الغفلة أن يقال : إن المرأة مغبوة في الميراث ، بل المقول الظاهر أن المرأة لو زادت عن هذا القدر لكان ذلك إجحافاً ظاهراً بالرجل . وهذه الممانى لا يصح لمشرع أن يفعل عنها ، وإلا كان تشريعه ظالماً في الواقع ، فيترحم به الناس عندما يصطدمون بالحوادث الطبيعية . فالشريعة الإسلامية قدرت المرأة حق قدرها في باب المال فأعطتها النصيب اللائق بها ، وجعلت لها حق التصرف في نصيبها كالرجل سواء بسواء .

وقد ظن بعض الجهلة بالتشريع وطبائع الأمم أن الشريعة الإسلامية مهيئة للمرأة في هذه الناحية ، وقد غفلوا عن أن بعض الأمم العريقة في المدنية تجعل للرجل حق الحجر على زوجته في تصرفها المالي ، وبعضها يرى الحق في الميراث لولد المتوفى الأكبر . ولكن الشريعة الإسلامية قد نظرت إلى المصلحة من جميع جهاتها ، وقررت العدل المطلق الذي لا يتخلل ميزانه في وقت من الأوقات ، فهي صادرة عن إله عليم خبير بلا نزاع .

وأما الحقوق الآخروية فالتسوية فيها كاملة تامة ، وقد صرح القرآن الكريم بذلك ، قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، فهذه الآية صريحة في تسوية المرأة بالرجل في الجزاء الآخروي بلا فرق ، وكذلك آية « إن المسلمين والمسلمات » إلى قوله « أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » . وإذا كانت المرأة مساوية للرجل في الحقوق الدنيوية العامة ، ومساوية له في النعيم الخالد يوم القيامة ، فمن السخف أن يقال : إن المرأة أحمق قدراً وأضعف منزلة من الرجل في نظر الشريعة الإسلامية . ولكن الشريعة الإسلامية أحاطت بما يصون عرضها ويحفظ لها كرامتها ، لأن لها حالة اقتضتها طبيعة الآونة ، فرفعت عنها تكاليف الحياة ومشاقها ، وقصرتها على تدبير منزلها ومراقبة تربية أبنائها وبناتها وهم في مهدهم ، وحتمت عليها أن تلتزمهم وتعلمهم الأدب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أوموا أولادكم وعلوهم الأدب » . فإن لم ينشأ الصغير على الفضيلة عاداه وتعود الشهورات الفاسدة ، فصار عضواً فاسداً في المجتمع يضر ولا ينفع . وكلفت الرجال باحتفال مشاق الحياة وتكاليفها ، والعمل على صيانة زوجة وأولاده من الضياع ، والقيام بهم بما يحوطهم ويرعاهم بحسب ما يتاح له في هذه الحياة . وبما لا ريب فيه أن ذلك هو المناسب اللائق لطبيعة كل منهما . فعلى الرجل السكدة وتحصيل المال اللازم بقدر ما يستطيع تحصيله ، وعلى المرأة أن تدبر منزلها ، وأن تربي أولادها ، وتهي لهم طعامهم وشرابهم بحسب حالهم وحالها . فالرجل عامل في تكوين الأسرة وتربيتها في الخارج ، والمرأة عاملة في تكوين الأسرة وتدبيرها في الداخل .

(يتبع)

عبد الرحمن الجزيري

سيرة خالد بن الوليد

إذا أهربت براعة الأدياء وأبدعت عبقرية الشعراء في تراجم الأبطال الفاتحين ذوى البسالة
الخارقة والآثار الخالدة ، فلما يترجمون عن خالد بن الوليد بصفته زعيم جماعتهم وكبير قوادهم ،
ولا يذكرون أحدا منهم بجانبه إلا كما تذكر البئر بجانب البحر ، أو النجم بجانب البدر ،
أو الهر بجانب الهزير .

نسبه :

هو أبو سائب خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة
ابن كعب ، يجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر في مرة بن كعب . وأمه لبابة
لصفري بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين ، وأخت لبابة الكبرى
زوج المباس بن عبد المطلب .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة ، ونشأ بها في بيت منيع وشرف رفيع ، بين فرسان
لا تغرب الشمس يومئذ على مثلهم ، فلما بلغ أشده كالت واسطة عقدهم وفارس حلبتهم
وحامل لوأثمهم ، ولم يزل معهم يقاتل وعنهم يتناصل حتى صقلته الخطوب وصهرته الحروب ،
فأصبح بعد هذا البلاء الحس مصرب الأمثال في جميع الأحياء ، كدأب أبيه إذ يقول الله تعالى
فيه : « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا معدودا ، ونيب شهودا ، ومهدت له
تمهيدا » إلا أن الله قد أعز خالد بالاسلام وأنص أباه بالكفر .

إسلامه :

يقول خالد عن سبب إسلامه . « لما أراد الله عز وجل ما أراد من الخير ، قذف في قلبي حب
الاسلام ، وحضرتني رشدي ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم
فليس موطن أشهده إلا انصرفت منه وأنا أرى في نفسي أئى في غير شيء وأن هذا سيظهر
ولا بد ، فما جاء صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء تغيب عنه ولم أشهد دخوله مكة بل دخلها
معه أخى الوليد ، فطلبني عاياه الصلاة والسلام فلم يجدني ، فكتب أخى الوليد إلى كتابا
يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — أما بعد : فإني لم أر أعجب من دهاب رأيك من
الاسلام ، وعقل كعقلك لا يجبل مثل الاسلام لأنه لا يجبهه أحد ، وقد سألت رسول الله صلى

الله عليه وسلم عنك فقال لي : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « مأمئله يجهل الاسلام ، ولو يجعل نساكنه مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقد مناه على غيره » . فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة » قال فلما قرأت هذا الكتاب نشطت وازددت رغبة في الاسلام ، ومرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ، ورايت في المنام كأنني في بلاد ضيقة جدبة تخرجت منها الى بلاد خضراء واسعة . فلما أجمعت على الخروج الى المدينة المنورة ، لقيت صفوان بن أمية فقلت له : يا أبا وهب : أما ترى أن محمدا قد ظهر على العرب والمعجم ؟ فلو قدمنا عليه واتهمناه فإن شرفه شرف لنا ا فقال : لو لم يكن يبقى غيري ما اتبعته أبدا ! فقلت في نفسي : هذا رجل قتل محمد أمه وأخاه بئدر . ثم إني لقيت عثمان بن أبي طلحة الحنفي الذي قتل محمد أباه طلحة وصمه عثمان وإخوته الأربعة : الحارث ، ومذافع ، والحلاس ، وكلاب ، يوم أحد ، فكرهت أن أذكر له ذلك ، ثم رحوت الخيف فيه فقلت له ما قلت لصفوان ، فأسرع الإجابة ووعدني إن سبقتني أقام بمحل كذا ، وإن سبقتني إليه انتظرتني فيه ، فلم يطلع العجر حتى التقينا فغدونا حتى اتينا الى الهدوة ، وهي اسم محل بطريق المدينة ، وإذا بممرو بن العاص قد أقبل فقال : مرحبا بالقوم . فقننا : وبك يا صمروا فقال : الى أين مسيركم ؟ قلنا : للدخول في الاسلام . فقال : وذلك هو الذي أقدمني . فتصاحبنا حتى أتينا المدينة فالتقينا في الطريق بأخي الوليد بن الوليد فلم علينا ثم قال : أسرعوا في مشيكم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سر بقدمكم . فأسرعتنا حتى اتينا الى الرسول والمسلمون حوله فرحون بإسلامنا . فتقدمت فبايعته وقلت له : « إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله » . فقال صل الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي هدانا لهذا . قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلك إلا الى خير » . ثم تقدم عثمان بن أبي طلحة وممرو بن العاص فبايعا كذلك .

بطولته وإمارته :

لقد كان خالد نطلا عالميا ، وسيدا عصاميا ، وأميرا عبقريا ، أبي النفس ، ذهبي المعدن ، ذكي القلب قوى الساعد ، كبير العقل ، بعيد النظر ، رجب الصدر ، كالبحر الزاخر ثباتا ، والليث الزائر إقداما . وكان مغزق قومه في كل عارة شنت منهم أو عليهم ، وكان معقل أمنهم في كل حرب طاحنة ، يتقون به إذا دارت رحاها واندلج لهيها . وكان في به وقصد تقلد سيفه وتكعب قوسه وامتنطى جواده وهو يجول في ميدان القتال ويقول :

لا يعلأ الأمر صدري قبل موقعه ولا نصيق به ذرعا إذا وقما

وإن تعجب فمعجب كل المعجب موقعه الخطير نفوة مؤنة ، حيث تسلم القيادة بعد قتل الأمراء الثلاثة ، وبعد أن كاد جيش المسلمين يولى الأدار لأنهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف

ولا يقل عدوم عن مائة ألف . فلما نادى فيهم المنادى لخالد تراجعوا الى صفوفهم ، ودارت رحى القتال بينهم وبين عدوم ، فحمل عليهم خالد حملة جبارة كانت موضع إعجاب العالم أجمع ، فقد تكسرت في يده يومئذ تسعة أسياف . وفي اليوم التالي رتب خالد جيشه على وضع آخر . فجعل الميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، وجعل الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، ثم واجه الكفار به وقد تغيرت أوصاعه ونظمه ، فظفروا أنه مدد جاء للسليدين ، فخارت قواهم ، وارتعدت هراثصهم ، وارتحل الخوف بهم الى بلادهم ، بعد أن قتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة وأخذوا بعض أمتعتهم .

قال أبو محمد بدر الدين العيني في شرحه على البخاري : لقد رفعت الأرض يوم مؤتة لسيد البشر ، فلما أخذ خالد اللواء قال صلى الله عليه وسلم : « الآن حى الوطيس » اللهم إنه سيف من سيوفك فانت نصره » ١ فن يومئذ حى خالد سيف الله .

أقول : لو أن عترة بن شداد العبسي أدرك خالدًا في هذا الموقف الرهيب لأثره بمدحه وقال له : أنت أحق منى بقولى :

ملأت الأرض خوفا من حسامي وخصمي لم يجحد فيها اتساعا
ولو أرسلت رجمي مع جباب لكان يهيتي يلقي السباعا
لأن عترة يقول من قصه في بعض مواقفه :

زلت عن الجواد وسقت جيشا سبقي مثل سوق للنياق
وفي باقي النهار ضمنت حتى أسرت وقد عى عصدي وساق

أما خالد فقد قاتل في موقف واحد بتسعة أسياف تغللت مضارها في صدور الأعداء ونحورهم ولم يلحقه كل ولا ملل ولا إعياء . فهو إذا بهذا الساعد الصلب والساق المنقولة أحق من عترة بقوله :

خلقت من الحديد أشد قلبا وقد بلى الحديد وما بليت

وهو إذاً جدير بكل ما أسند إليه من قيادة الجيوش في كل أطوار حياته . فقد ثبت أن أعنة الخيل كانت له في الجاهلية وبعد الجاهلية مع كفار قريش في كل مشاهد الميمنة ، ما عدا الحديدية فإنه لم يشهد بها . ولما أقره الله بالاسلام كانت له أعنة الخيل أيضا ، فقد صح أن سيد البشر صلى الله عليه وسلم قلده الولاية العامة لأمة الخيل ، وأوصى به أصحابه ، قال عمرو بن العاص : « والله ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد في أمر حزيه منذ أسلمنا ، وكذلك كما عند أبي بكر وعمر رضي الله عنهما » . وقد أخرج الامام أحمد عن أبي عبيدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خالد سيف من سيوف الله ونعم فتى المشيرة » . وأخرج ابن عساکر عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خالد سيف من سيوف

الله سلمه الله على المشركين . ولا أذهب بعيدا إذا قلت إن أبا بكر قد جعل خالدًا عدلا لعمر ابن الخطاب في ولاية تمانها وندم على فوات الفرصة فيها ، حدث ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد أن أبا بكر قال في مرض موته ، بعد أن عدد أشياء كانت له رعة في فعلها وأخرى كانت له رعة في تركها : وددت أني وجهت خالد بن الوليد الى الشام ، ووجهت عمر بن الخطاب الى العراق ، فأكون قد بسطت يدي كلتيهما في سبيل الله .

تحمل ديات بني جذيمة عنه :

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : « بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد الى بني جذيمة فدعاهم الى الاسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلنا ، فجعلوا يقولون : صبا نأ صبا نأ ، جعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع الى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم «مصر» خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره ، فقلت والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره ، حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فدكرناه ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد - مرتين » ! أقول : ذكر الامام أبو محمد الميني في شرحه على البخاري أن ابن عمر راوى الحديث قد فهم عن القوم أنهم أرادوا بقولهم صبا نأ : أسلنا ، فذلك أقسم بالله عن نفسه وعن أصحابه أن أحدا منهم لا يقتل أسيره . وأما خالد فإنه قد علم أن القوم لا يعجزهم أن يقولوا أسلنا مكان صبا نأ ، لأنهم من العرب ولسانهم عربي ، فلما قالوا : صبا نأ صبا نأ ، فهم منهم أنهم لم يصبروا بكلمة الاسلام أمانة واستكبارا كما هو الحال في بني إسرائيل إذا قال الله لهم : « ادخلوا الباب سعدا وقولوا حطة » فقالوا : حطة ، فذلك عاقبتهم خالد بالقتل والأسر . وما كان انتقاد النبي عليه إلا لتعذله وعدم تشبهه من أمرهم من غير جناح ولا إثم ، لأنه قد اجتهد فأخطأ ، وكان خطؤه في مهمة دولية لا شخصية ، فذلك تحمل النبي صلى الله عليه وسلم عنه دياتهم . ثم استدعى علي بن أبي طالب فقال له : « أخرج الى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واحمل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، تخرج علي ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفع لهم ديات الدماء وما أصيب من الأموال حتى ميلفة الكلب ، وبقيت معه بقية من المال فقال لهم : « هل بقي لكم دم أو مال لم يود ؟ » قالوا : لا ، قال : « فإني أعطيك هذه البقية احتياطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يعلم ولا تعلمون » ، ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل ، فقال له : « أصبت وأحسنت » .

ولما أن تقول اقتداء بالرسول : لقد أصاب أبو بكر وأحسن أيضا في عفوه عن خالد في دماء مالك بن نويرة ومن معه ، كما عفا عنه صلى الله عليه وسلم في دماء بني حذيفة . وكان من حديث مالك بن نويرة وقومه أنهم سمعوا الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم خالد من قبل أبي بكر ندموا على ما فعلوا وأدوا الصدقة على أصولها ، وبقي مالك في جماعة

منهم منحيرا مترددا بين إخراجها ومنعها ، ثم تفرقوا على ذلك ، فبعث خالد في طلبهم فجاء بهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم ، فلما وصل الخبر إلى دار الخلافة طلب مصر من أبي بكر أن يقتصر من خالد وأُخ في الطلب ، فقال له أبو بكر : « يا عمر تأول خالد فخطأ ، فارفع لسانك عنه فأني لا أنلم سيفنا سله الله على الكافرين »

كرامته ومساكنته عند الله :

ورد في النصائح لابن ظفر أن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما تحصن منه أهل الحيرة أرسل إليهم أن ابعدوا لي رجلا من عقلائكم ، فأرسلوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس الغساني وكان من المعمرين ، وكان في يد عبد المسيح قارورة ، فقال له خالد : ما الذي في هذه القارورة ؟ قال : سم ساعة . قال : ما تصنع به ؟ قال : إن وجدت عندك ما أحبه لقومي وأهل بلدي حمدت الله وقبلته ، وإن لم أجده فشربته وقتلت نفسي به ولا أرجع لقومي بما يسوؤهم ! فقال خالد رضي الله عنه : هاتها . فناوله القارورة فأفرغها خالد في راحته وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله ، بسم الله رب الأرض والسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم . ثم شربه فغشيه عرق ثم سُرى عنه ، فأنصرف عبد المسيح إلى قومه ، وكأوا نصارى نسطورية إلا أنهم عرب ، فقال لهم : جننكم من عند رجل شرب سم ساعة فلم يضره ، فأعطوه ما سألكم ، وأخرجوه من أرضكم راضيا ، فهؤلاء قوم مصروع لهم وسيكون لهم شأن عظيم . فصالحوه على ثمانين ألف درهم من الفضة .

أقول : لا غرابة في هذا ، ولا يرد : كيف لا يؤثر السم في خالد مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث : « ما زالت أكلة حبير تعادني في كل عام حتى قطعت أبهري » ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد رعب إلى الله في شرف الموت على الشهادة حتى لا تموته فضيلتها ، فحقق الله له في تلك الموقعة السكيدية أمورا ثلاثة : (١) تكليم العظم له ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام . « إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » (٢) عدم تأثير السم فيه صلى الله عليه وسلم بدليل أن لشرب البراء مات من تلك الأكلة دون النبي صلى الله عليه وسلم ، (٣) الموت على الشهادة تحقيقا لرغبته الشريفة حيث انقطع أبهره ، وهو العرق المتصل بالقلب .

عزل عمر له وجعل أبي عبيدة مكانه :

لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة عزل خالدًا عن القيادة الصامة وأسسها لأبي عبيدة أثناء وقعة اليرموك على أحد الرأيين المذكورين في كتب التاريخ ، أو حين حصار دمشق كما هو الرأي الآخر ، ومعاد الله أن يكون ذلك لموجعة في نفس عمر أو لمنقصة في خالد ،

بل لأنه كان ميمون القلبية مبارك الطلعة ، قد حالف الظفر والنصر وحالفه في كل حروبه ، تخاف عليه عمر في ديه من الاعجاب بنفسه فعزله ، كما خاف على ولده عبد الله بن عمر في دينه فلم يعهد اليه الخلافة بعد أن رغبت الصحابة في البيعة له . ولما على ذلك دليلاً : (١) أنه اعتذر اليه بقوله . ما عزلتك لريبة فيك ولكن قد افنت الناس بك خفت أن تقتل بهم . (٢) أنه كان يترحم على أبي بكر ويصفه بأنه كان أعرف بالرجال منه حيث أسند ولاية الأمة لخالد . ويؤيد هذا ما ورد في التاريخ أن خالد بعد أن فتح قنسرين بلغه أن هرقل يؤلب الجيوش لرد المسلمين عن حصار حمص ، فخف لتجدتهم قبل أن يأتيه أمر من أبي عبيدة ، فلما بلغ ذلك عمر أثنى عليه وقال : « لقد أمر خالد نفسه ، فرحم الله أباه لقد كان أعلم بالرجال مني » . على أن عمر قد أطلق لخالد اليد والعنان بعد طول اختار وحسن بلاه ، فلم يزل خالد بعد ذلك يطارد هرقل من بلد إلى أخرى حتى خرج من سورية وهو يقول « السلام عليك يا سورية سلام من لا يراك بعد » .

وبالجملة : فقد كان خالد عالماً من الإعلام في الدين والحرب والتدبير ، وكان له الأثر الحسن في قمع الفتن وتقويض دعامات الشرك ، واتساع نطاق الفتح . وكان من أشد الناس بحثاً عن سيرة حننهم وصراقتهم ، حتى قيل إنه وجد قارورة فخري يد حندي فقال له : ما هذه ؟ قال : قارورة خل . قال : هي خل ، فكانت خلا كما قال . وقد بقي رضي الله عنه متفعللاً في الحروب حتى أتم فتح الشام والعراق ، واتخذ بعد ذلك مدينة حمص وطناً له إلى أن توفي فيها سنة ٥١ ودفن بها داخل مسجد طامر مسمى باسمه .

روى أنه لما حضرته الوفاة قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، وهأما أموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نمت أعين الجبناء ! والله أعلم .

سيرة محمد منبولى الشيخ
من علماء الأزهر

آراء الشباب

كان بعض الحكماء يقول : عليكم بآراء الأحداث ومشورة الشباب لأن لهم أذهانا تقدر الفياصل ، وتحطم القوابل .

وقال غيره : آراء الشبان حصرة بضرة ، لم يهرع غضبها هرم ، ولا أذوى زهرها قدم ، ولا خبا من ذكاتها بطول المدة ضرر .

ولكن يرى الأكثر أن آراء الشيوخ خير من آراء الأحداث ، فانهم بما اختبروه من الصروف ، وما عرّكوه من الأمور ، يدركون من لباب المسائل ما لا يدركه من يدفع في هذه المضائق .

اللغة العربية بين القوة والضعف

دعائم الإصلاح

— ٦ —

تأبى طبيعة الحوادث في هذا العصر والارض ، أن تمنح لقوانين اليرث والآانة ، أو بعبارة أخرى قوانين الدرس الفاحص ، والحصص الدقيق ، فنحن أن أخذنا لمالج موضوع اللغة العربية في ألسنة أبناء العرب ، وبرامج الدراسة في المعاهد والمدارس ، والحوادث تتلاحق ويطوى بعضها بعضا وفي ثمايها مفاجآت تستوقف النظر ، وتستدعى كثيرا من التأمل ، فقد حمدنا لوزارة المعارف أخذها بزمام الامر في قضية اللغة ومشكلتها المدرسية ، وعرضنا آراء رجالها ، وتربصنا مع المتربصين لثرى الوسائل العملية التي ستعتمد إليها الوزارة لتصل من طريقها الى الإصلاح المنشود ، وإذا بالصحافة تطلع علينا بمشروع إصلاح مدرسة دار العلوم بعد الذي كان من شأن الوزارة في هذا العهد ، وتألينها لجنة تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة ، وتناصي الأهر في تلك اللجنة ، مما تحدثنا عنه في مقالنا السابق ، وعتبنا على الوزارة عتبا رفيقا ، ورجونا أن تتدارك الامر بحكمة تحفظ على أكبر معهد عربي إسلامي في الشرق قاطبة كرامته ، وأوضحنا مافي ذلك التناسي من مساعدة بين معاهد العلم المتجانسة في طبيعتها الدراسية تمانسا يقضى بوحدها لتتضافر الجهود على خدمة الأمة وثثقيف أبنائها ، ويتوفر لها هذا الجهد الموزع ، والمال المستمر ، والوقت الداهب في غير منفعة قيمة .

إصلاح أي معهد من معاهد العلم لا نعارضه ولا نكرهه ، ولا سيما إذا كان ذلك المعهد من المعاهد التاريخية التي استطاعت بفضل جهده وقوة حيويتها أن تسجل لها فضلا كبيرا في نهضة الأمة الثقافية ، وفي خدمة اللغة العربية وآدابها وقصونها كدرسة دار العلوم التي تقدرها تمام التقدير ، ولكن الذي نكرهه ونعارضه شدة المعارضة ، ونحب أن ينتزه عنه من وضع الله في أيديهم مستقبل تربية الأمة وتهذيبها والاشراف على ثقافتها — هو العمل تحت ستار الإصلاح على تقويض دعائم الوحدة الثقافية التي يجب أن تحقق في عصرنا الحاضر بين معاهدنا المتجانسة في برامجها ووجتها ، فإن العالم أجمع تنبه الى ضرورة هذه الوحدة الثقافية فأسرع إليها الخطى ، وتحققت في كثير من الأمم التي تربطها وشائج عنصرية أو روابط أدبية ، ونحن في الشرق العربي ، بله مصر زعيمة هذا الشرق ، أحوج ما نكون الى التقريب بين معاهدنا في برامجها وتوحيد ثقافتها ، لأن الاعتماد على الثقافة أصبح من دعائم السياسة الظاهرة ، وقد أحس المسئولون من رجالنا نعم هذا التوحيد الثقافي وأدوا به ، وليس يبعد ما نشرته

لصحافة عقب انتهاء دورة المؤتمر الطبي الأخيرة التي انعقدت في العراق ، وحصرها كثير من أقطاب المصريين ورجال وزارة المعارف ، من أحاديث وآراء لسعادة الأستاذ الجليل المشاوي بك وكيل معارفنا في وجوب العمل على توحيد الثقافة في الأقطار العربية بقدر ما تسمح به تقاليد كل أمة في ظل المصحى ، وقد لقي هذا الاتحاد في مصر والعراق وسائر أقطار المضاد ترحيبا وردته الصحافة ، واستبشر به المصلحون والأدباء ، ورأوا فيه سراجا يضيء أمام الشرق ليل مستقلة الداجي ، ويوطد عرش الزعامة لمصر ، ويفتح أمامها من أبواب الأمل ما هي خليفة به في عهدها الزاهر .

إن مشروع إصلاح دار العلوم الذي أخرجته وزارة المعارف في عهد صاحب المعالي هبكل باشا ، لا يترك مجالاً للدين يريدون توحيد الثقافة الأدبية في معاهدها ، بل يوصد أبواب الأمل أمام المصلحين الذين يحنون بقضية اللغة العربية ورفع مستوى الطلبة ، ويوسع شغلة الخصومة بين ثلاثة معاهد عليا تخدم اللغة العربية والأدب العربي ، هي الأزهر ومعاهده وكلياته ، وكلية الآداب وشمعتها العربية ، ودار العلوم . ولست الآن بصدد مناقشة المشروع من الوجهة العملية أو من الوجهة الفنية ، ولكنني أتحدث عنه من وجهة ما يخلقه وراءه من نتائج لست أدري أكانت مقدرة في أفهام واضعي المشروع والأميرين به أم لم تكن منهم على ذكر !

إن توحيد البرامج الدراسية للغة العربية في معاهدها أول وأهم دعائم الإصلاح ، وكل عمل يعتمد على إهدار هذه الدعامة فهو هباء لا قيمة له ، لأن فنون اللغة العربية مهما اختلفت فروعها وتنوعت طرائق دراستها فهي ثقافة من نوع واحد يجب أن يكون حاذقوها متعدي المشارب ، ولا يتأتى ذلك إلا بتوحيد برامج الدراسة ، وقد أبتأ أن دار العلوم في نظامها القديم كانت تدير مع الأزهر العتيق في طريق واحد ، وتدرس ما يدرسه الأزهر من فنون وكتب ، ولولا النظام الدراسي الذي أخذت به دار العلوم نفسها منذ نشأتها مسيرة لطبيعة العصر في تجديد طرق التربية والتهذيب لمعدتها قسما من أقسام الأزهر ، وليس من شك في أن هذا التقارب ، بل الوحدة في الجوهر ، بين هذين الممهدين العظميين كانت تقضي من المصلحين شيئا من الشجاعة ومواجهة الحقيقة في الجهر بضم دار العلوم إلى أحضان منبها الذي أمدها طوال عمرها المبارك بأنضر أزاهيره التي تفتحت فيها فكان منها هذا الأريج الذي ملأ الشرق بمبيقه ، ولكن الأزهر العتيق لم يكن من طبعه التسرع ، بل كان رزينا هادئا ، نظر إلى الأمر الواقع ورأى أنه في حاجة إلى مسيرة الحياة وتجديد نظامه الدراسي وأخذ بطرائق التربية الحديثة ، فتم له ما أراد مع الاحتفاظ بصبغته القومية ، وكانت كلية اللغة العربية إحدى الكليات التي أوجدها نظام الجامعة الأزهرية على أحدث طرز عرفته

الجامعات الكبرى ، وكانت دار العلوم أول المعاهد وأقربها وشيخة بطبيعة الجامعة الأزهرية ونظامها الدراسي الجديد ، فاستعان بها الأزهر ، وفتح أمام أساتذتها أبوابه ، وجعل من كلية اللغة العربية دار علوم أزهرية ، تدرس دراسة الأزهر في البحث والتعمق ، ولكنها في نظامها وأساتذتها معهد جديد كل الجدة بالنسبة إلى الأزهر قبل نظامه الحديث ، وإن شئت فقل : هي دار العلوم محذدة بصيغة أزهرية ، فالطلبة الذين كان الأزهر يغذيهم مدرسة دار العلوم هم الذين اقتصدوا كراسي كلية اللغة ، والأساتذة الذين يدرسون لطلبة دار العلوم هم الذين يدرسون لطلبة كلية اللغة ، والكتب والفنون التي يدرسها الدرهميون هي الكتب والفنون التي يدرسها الأزهريون في كلية اللغة ، ويزيدون بصيغتهم الأزهرية في البحث العميق والنقد الدقيق ، مما يعرفه لهم أساتذتهم الدرهميون ، وفي كلية اللغة العربية إلى جانب أساتذة دار العلوم طائفة عظيمة من توانخ الأزهر وأذكيائه الذين استدارت أفكارهم فجمعوا بين القديم والحديث يدرسون لطلبة الكلية كتباً أزهرية وفنوناً عربية إسلامية دراسة تجمع إلى البحث والنقد التطبيق والدق ، وهي مرة تحتاجها الدراسات الجامعية الراسخة .

وقد قرّض نظام الجامعة الأزهرية لكلية اللغة قسم تخصص في المهنة ، جعله لدراسة التربية الحديثة وطرق التعليم وجميع ما يحتاج إليه المعلم في حياته المدرسية ، مما يزيد في قيمة هذه الكلية العظيمة ، ويجعلها أصلاح معهد لتخرج أساتذة يقومون على تربية النشء تربية فاضلة .

ليت شعري مِم كان هذا التغيير والتبديل لنظام معهد كان بطبيعته يسير إلى مسبعه لبتلاق معه في كلية اللغة التي نعتت وسارت في دراستها كما وصفنا ، وقد خرجت طلبة تولى امتحانهم رجال المعارف فعرفوا فيهم الكفاءة العلمية والحذق الفني لطرق التربية والتعليم ؟ نعم إن النظام الجديد لمدرسة دار العلوم ربط بينها وبين الأزهر برباط قوى ، فأبقى لها حق استقائها من أبنائه ، ولكن هذا لا يزيل الاعتراض ولا يحل المشكلة ، لأن المسألة لا يطرأ عليها من هذا الأفق الضيق ، بل الواجب يقصى بالنظر فيها من الوجهة القومية التي يقصد بها مصلحة الأمة في مستقبلها الثقافي ، وتلك المصلحة القومية تحتم توحيد المعاهد التي تقوم بدراسة اللغة العربية والأدب العربي وفنونهما ، وقد كاد يتم هذا التوحيد بين الأزهر ومثلاً في كلية اللغة وبين مدرسة دار العلوم ، ولم يكن ليقف أمامه إلا شيء من روح التفاهم بين أساتذة وطلبة المعهدين ، وهم إخوان متقاربو الثقافة والأخلاق ، بل متحدوها ، فجاء هذا النظام المنسحق مباعدة بينهما مشعباً لبراج الدراسة الاموية ، مما يؤدي حتماً إلى اختلاف الترمات ، وتآرث نيران التعصب المعهدي الذي يقضى على الوئام العلمي والصدافة الروحية لأبناء الأمة المستطلين بثقافة واحدة .

إن هناك فكرة صالحة كانت تؤدي إلى الغرض المقصود من إصلاح دار العلوم والاحتفاظ بها مع التوفيق في التوحيد الدراسي ، ذلك أن تجعل دار العلوم قسما تخصصيا يدخله حامل الشهادة العالية من كلية اللغة ، ويقضى فيه سنتين يدرس فيهما الترية وهلم النفس وطرق التعليم دراسة تفصيلية تكون الطالب تكويناً فنياً بعد تكوينه العلمي في أقسام الأزهر وكلية ، وهو القسم الموحود الآن بتخصص الأزهر تحت اسم تخصص المهنة ، وبذلك يتسع الأفق أمام الطلاب والخريجين ، فيأخذ الأزهر منهم حاجته ، وتأخذ الوزارة حاجتها ، ويسود الوفاق العلمي جو المعاهد اللغوية الأدبية . وليس من العسير أن تحتفظ دار العلوم مع ذلك بشخصيتها ، فلا مانع أن تبقى مستقلة نوع استقلال في نظامها وإدارتها ، تحت إشراف مشترك بين الأزهر ووزارة المعارف ، لا يسر على المصالحين التوفيق فيه بين مصلحة العلم في دائرة تقاليد المعهدين .

عندئذ يصبح أن يكون المصلحون قد نجحوا في مهمتهم التي تحلق تياراً فكرياً يتجه إلى الشرق العربي فيعمل فيه عمله في توحيد الثقافة العربية حتى تستعيد لغة القرآن الكريم مجدها وسيادتها الأدبية ؟

صادق إبراهيم عربزود

العلم وفضيلة طلبه

قال حكيم : « العلم أفضل مكتسب ، وأكرم منسب ، وأشرف ذخيرة تقتنى ، وأطيب ثمرة تجتنى ، وبه يتوصل إلى معرفة الحقائق ، ويتوصل إلى رضاء الخالق ، وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها ، وأكرم فروعه وأزكاها ، لا يضيع أبداً صاحبه ، ولا يفتر كاسبه ، ولا يخيب طالبه ، ولا تحبط مراتبه .

وقال شاعر :

والعلم فيه جلاله ومهابة	والعلم أنفع من كنوز الجواهر
تغنى الكسوز على الزمان وصرفه	والعلم يبقى باقيات الأعصر

وقال غيره :

أحل ما يبتغى يوما ويكتسب	ويجتنى من حل الدنيا وينتخب
علم شريف صميم النفع قد رفعت	لحامليه بأفاق الملا رتب
إن عاش جيل سامياً أبداً	لا يستنضم ولا ينسى فبحسب
وإن تمت فتناء شائع حسن	وبعدها رحمة ترجى وترقب

أصول التشريع

- ٣ -

بحث في الاجتهاد والاحكام

- (١) من هو المجتهد الذي يتأدى به فرض الاجتهاد ؟
(٢) ما مراتب الاجتهاد ؟ (٣) ما هي طبقات الفقهاء والمجتهدين ؟

اثبتنا فيما سبق بما نشرناه من نصوص العلماء من جميع المذاهب أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات ، وأنه لا يجوز شرعا انقطاعه ، ولا خلو العصر منه ، وأنه متى قصر أهل العصر حتى تركوه أجمعوا كلهم ، وعصوا بأمرهم ، وهذا هو الذي يحفظ جدة الشريعة الاسلامية القراء ، ويدعم نشاطها ونهضتها وعدم قنورها ، ويعصم صلاحيتها لكل زمان ومكان ، ويجعلها تكنى أحكام الحوادث والوقائع التي تحدث وتتجدد كل يوم . فن هو المجتهد الذي يتأدى به فرض الاجتهاد ؟ وما أنواع المجتهدين ؟ وما مراتب الاجتهاد ؟

قال الامام الجلال السيوطي : طبع كثير من الناس اليوم (١) بأن المجتهد المطلق فقد من قديم ، وأنه لم يوجد من دهر إلا المجتهد المقيد ، وهذا غلط منهم ، ما وقفوا على كلام العلماء ، ولا عرفوا الفرق بين المجتهد المطلق ، والمجتهد المستقل ، ولا بين المجتهد المقيد ، والمجتهد المنتسب ، وبين كل ما ذكر فرق ، ولهذا ترى أن من وقع في عبارته أن المجتهد المستقل مفقود من دهر ، يمس في موضع آخر على وجود المجتهد المطلق .

والتحقيق في ذلك : أن المجتهد المطلق أعم من المجتهد المستقل ، وغير المجتهد المقيد ، فإن المستقل هو الذي استقل بقواعد لنفسه يبنى عليها الفقه خارجا عن قواعد المذهب المقررة .

وأما المجتهد المطلق غير المستقل فهو الذي وجدت فيه شروط الاجتهاد التي اتصف بها المجتهد المستقل ، ثم لم يتكرر لنفسه قواعد ، بل سلك طريقة إمام من أئمة المذاهب في الاجتهاد ، فهذا مطلق منتسب لا مستقل ، ولا مقيد . هذا تحرير الفرق بينهما ، فبين المستقل والمطلق عموم وخصوص ، فكل مستقل مطلق ، وليس كل مطلق مستقلا .

وبهذا الذي ذكر صرح ابن الصلاح ، ثم النووي ، قال في شرح المهذب :

« المفتون قيمان : مستقل ، وغيره

(١) ولد السيوطي ٨٤٩ هـ وتوفي ٩١١ هـ

فالمستقل شرطه :

١ — أن يكون قيا بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية من الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وما التحقق بها على التفصيل .

٢ — وأن يكون مألما بما يشترط في الأدلة ، ووجوه دلالتها ، وبكيفية اقتباس الأحكام منها . وهذا يستفاد من أصول الفقه .

٣ — مارفا من علوم القرآن ، والحديث ، والناسخ والمنسوخ ، والنحو واللغة والتصرف ، واختلاف العلماء واتفاقهم ، بالقدر الذي يتمكن معه من الوفاء بشروط الأدلة والاقتباس منها .

٤ — ذا دربة وارتياض في استعمال ذلك .

٥ — مألما بالفقه ، ضابطا لأمهات مسائله وقضاياهم .

فمن جمع هذه الأوصاف فهو المفتي المطلق المستقل ، الذي يتأدى به فرض الكفاية ، وهو المجتهد المطلق المستقل ، لأنه مستقل بالأدلة بغير تقليد وتقيد بمذهب أحد .

القسم الثاني : المفتي الذي ليس بمستقل .

ومن دهر طويل عدم المفتي المستقل ، وصارت الفتوى الى المتسبين الى أئمة المذاهب المتبوعة .

وللمفتي المنتسب أربعة أحوال :

أحدها : أن لا يكون مقلدا لإمامه لا في المذهب ، ولا في دليله ، لا تصافه بصفة المستقل ، وإنما ينتسب اليه لسلكه طريقه في الاجتهاد .

وادعى الأستاذ أبو إسحاق هذه الصفة لأصحابنا ، حكى عن أصحاب مالك وأحمد وداود وأكثر الحنفية أنهم صاروا الى مذاهب أئمتهم تقليدا لهم ؛ ثم قال : والصحيح الذي ذهب اليه المحققون ما ذهب اليه أصحابنا وهو أنهم صاروا الى مذهب الشافعي لا تقليدا له ، بل لما وجدوا طريقه في الاجتهاد والقياس أسد الطرق ، ولم يكن لهم يد من الاجتهاد ، سلكوا طريقه ، فطلبوا معرفة الأحكام عن طريق الشافعي .

وذكر أبو علي السنجي نحو هذا فقال : اتبعنا الشافعي دون غيره لأننا وجدنا قوله أرحم الأقوال وأعدلها ، لأننا قلناه .

قال النووي — من زياداته ما نصه : قلت هذا الذي ذكرناه موافق لما أمرهم به الشافعي ثم المزي في أول مختصره وغيره : من نهي عن تقليده وتقليد غيره . قال : ثم فنوى المفتي في هذه الحال كفتوى المستقل في العمل بها والاعتداد بها في الإجماع والخلاف .

الحالة الثانية : أن يكون مجتهدا مقيدا في مذهب إمامه مستقلا بتقرير أصوله بالدليل ، غير أنه لا يتجاوز في أدلته أصول إمامه وقواعده . وشرطه كونه عالما بالفقه وأصوله وأدلة الأحكام تفصيلا ، نصيرا بمسالك الأقيسة والمعاني ، تام الارتياض في التخريج والاستنباط ، قويا بالحق ما ليس مخصوصا عليه لإمامه بأصوله ، ولا يدري عن شوب تقليد له ، لا لإجلاله ببعض أدوات المستقل ، بأن يحل بالحديث ، أو المريية ، وكثيرا ما أحل بهما المقيّد ، ثم يتخذ نصوص إمامه أصولا يستنشط منها كفعل المستقل بنصوص الشرع ، وربما اكتفى في الحكم بدليل إمامه ، ولا يبحث عن معارض كفعل المستقل في النصوص ؛ وهذه صفة أصحاب الأصحاب الوجوه ؛ والعامل بفتوى هذا مقلد لإمامه لا له .

ثم ظاهر كلام الأصحاب أن من هذا حاله لا ينادى به فرض الكفاية ؛ قال ابن الصلاح : ويظهر تأدي الفرض به في الفتوى ، وإن لم يتأد في إحياء العلوم التي منها اعتماد الفتوى ، لأنه قام مقام إمامه المستقل تقريبا على الصحيح ، وهو جواز تقليد الميت ، وقد يستقل المقيّد في مسألة أو باب خاص . وله أن يفتي فيما لا نص فيه لإمامه بما يخرج به على أصوله .

الحالة الثالثة : أن لا يبلغ رتبة أصحاب الوجوه لكنه فقيه النفس حافظ لمذهب إمامه ، عارف بأدائه ، قائم بتقريرها ، يصور ، ويقرر ، ويحرر ، ويمهد ، ويذيف ، ويرجع ، لكنه قصر عن أولئك لقصوره عنهم في حفظ المذهب ، أو الارتياض في الاستنباط ، ومعرفة الأصول ونحوها من أدلتها .

الحالة الرابعة : أن يقوم بحفظ المذهب ، ونقله ، وفهمه في الواضحات والمشكلات ، ولكن عنده ضعف في تقرير أدلته ، وتحرير أقيسته ؛ فهذا يعتمد نقله وفتواه فيما يحكيه من مسطورات مذهبه . وما لا يجده منقولا إن وجد في المنقول معناه بحيث يدرك بغير كبير فكر أنه لا فرق بينهما جاز إلحاقه به ، والفتوى به ؛ وكذا ما يعلم اندراجه تحت ضابط مذهب في المذهب ، وما ليس كذلك يجب إمساكه عن الفتوى فيه . انتهى كلام النووي في شرح المذهب ، تبعا لابن الصلاح في كتاب أدب الفتيا .

فقد قسم المجتهد الذي ليس بمستقل إلى أربعة أقسام .

الأول : المطلق ، وهو الذي لم يقلد إمامه ، ولكن سلك طريقه في الاجتهاد

الثاني : المقيّد ، وهو الذي يسمى مجتهد التخريج .

الثالث : مجتهد الترجيح .

الرابع : مجتهد الفتيا .

وإنما جاء العاط لاهل عصرنا من ظنهم ترادف المطلق ، والمستقل ، وليس كذلك ، لما قد عرفته .

قال الامام السيوطي . والذي ادعيناه هو الاجتهاد المطلق ، لا الاستقلال ، بل نحن تابعون للامام الشافعي رضي الله عنه ، وسالكون طريقه في الاجتهاد امتثالاً لأمره ، ومعدودون من أصحابه ، وكيف يظن أن اجتهادنا مقيد ، والمجتهد المقيد إنما ينقص عن المطلق بإخلاله بالحديث ، أو العربية ؟

ثم قال : وليس على وجه الأرض من مشرقها الى مغربها أعلم بالحديث والعربية مني ، إلا أن يكون الخضر أو القطب ، أو أولياء الله ، فإن هؤلاء لم يقصد دخولهم في عبارتي ، والله أعلم . انتهى كلام السيوطي بنصه .

هذا هو تقسيم الشافعية لمجتهدين . أما الحنفية فقد قسموا الى سبعة أنواع ، قال ابن كمال باشا : طبقات الفقهاء سبع :

الطبقة الأولى أو الطبقة العليا من طبقات الاجتهاد : هي طبقة المجتهدين في الشرع ، أو طبقة المجتهدين المطلقين ، كالأئمة الأربعة : أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وابن حنبل ، ومن سلك مسلكتهم من الأئمة ، شأن هؤلاء تأسيس قواعد الأصول ، واستنباط أحكام الفروع من الأدلة الأربعة الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، على حسب تلك القواعد من غير تقليد لأحد ، لا في الفروع ولا في الأصول .

الطبقة الثانية . طبقة المجتهدين في المذهب ، كتلاميذ أصحاب الطبقة الأولى ، كأبي يوسف ، ومجد ، وزفر ، والحسن ، فسلكتهم استخراج الأحكام من الأدلة على مقتضى القواعد التي قرروها أسانديتهم ، فانهم وإن خالفوا في بعض أحكام الفروع ، لكنهم يقلدونها في قواعد الأصول ، وهم يمتازون عن المعارضين في المذهب ويفارقونهم ، كالشافعي ونظرائه من المخالفين في الأحكام لأبي حنيفة غير مقلدين له في الأصول . فهذه هي الطبقة الوسطى من طبقات الاجتهاد .

الطبقة الثالثة : طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب : كالخفاف ، والطحاوي وأبي الحسن الكرخي ، وشمس الأئمة الخارني ، وشمس الأئمة السرخسي ، وغير الاسلام البزدوي ، وغير الذين قاضيهان ، وأمثالهم من أئمة الحنفية ، ومن في طبقتهم من الأئمة الشافعية والمالكية وغيرهم من الأئمة المعارضين في المذهب ، فانهم لا يقدررون على المخالفة للشيوخ لا في الأصول ، ولا في الفروع ، لكنهم يستنبطون الأحكام من المسائل التي لا نص فيها عنهم على حسب أصول قرروها شيوخهم ، ومقتضى قواعد بسطها أسانديتهم . فهذه الطبقة هي الطبقة السفلى من طبقات الاجتهاد .

الطبقة الرابعة طبقة أصحاب التخريج من المقلدين : كالرازي وأضرابه ، فانهم لا يقدررون

على الاجتهاد أصلاً ، استكنهم لإحاطتهم بالأصول وضبطهم للمأخذ بقدرون على تفصيل قول مجمل دى وجهين ، وحكم مهم محتتم لأمرين ، متقول عن صاحب المذهب ، أو عن واحد من أصحابه الداهيين برأيهم ونظرم فى الأصول والمقايضة على أمثاله ونظآره فى الفروع .

وما وقع فى كتاب الهداية فى قوله كذا نخرج الكرخى ، ونخرج الرازى ، من هذا القبيل الطبقة الخامسة : طبقة أصحاب الترجيح من المقلدين : كابى الحسن القدورى ، وصاحب الهداية ، وأمآلهما ، وشأنهم تفصيل بعض الروايات على بعض آخر نقولهم : هذا أولى ، وهذا أصح ، وهذا أرفق للناس .

الطبقة السادسة : طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقوى والقوى ، والضعيف ، وظاهر الرواية ، والرواية البادرة كأصحاب المتنو المتبعة من المتأخرين : كصاحب الكتز ، وصاحب المجمع ، وصاحب الوقاية ، وشأنهم ألا ينقلوا فى كتبهم الأقوال المردودة ، والروايات الضعيفة .

الطبقة السابعة : طبقة المقلدين الذين لا يقدرون على ما ذكر ، ولا يفرقون بين الغث والسمين ، ولا يعززون الشمال من اليمين ، بل يجمعون كطالبا الليل قال بعض العلماء : وفى الحقيقة أن هذه الطبقات السبع تكاد ترجع الى طبقات الشافعية بتدخل بعضها فى بعض كما يفهم ذلك بالتأمل ؛ فالتقسيم لها جعلى ، كمن قسم الفقهاء الى ست مراتب :

الاولى : رتبة المبتدئ ، وهو من لم يقدر على تصوير المسألة

الثانية : رتبة المتوسط ، وهو من قدر على تصويرها ، ولم يقدر على إقامة الدليل عليها .

الثالثة : رتبة المستهى ، وهو من قدر على تصوير المسألة ، وعلى إقامة الدليل عليها .

الرابعة : رتبة مجتهد الفتوى ، وهو من قدر على ترجيح الأقوال كالنوى والرافعى .

الخامسة : رتبة مجتهد المذهب ، وهو من قدر على استنباط الفروع من قواعد أمامه كالبيوطى والمزنى .

السادسة : رتبة المجتهد المستقل ، وهو من قدر على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة والاجماع والقياس بشروطها الموصحة فى الأصول .

وإن زيد المجتهد المطلق المنتسب المنفرد بآراء خاصة كانت سبعا كالحنفية .

قال ابن السبكى : جلست بمكة بين طائفة من العلماء ، وقعدنا نقول : لو قدر الله تعالى بمد الأئمة الأربعة فى هذا الزمان مجتهدا طارفا بمذاهبهم يركب لنفسه مذهبا بمد اعتبار هذه المذاهب المختلفة ، لأردان به الزمان ، وانقاده الناس . فالاجتهاد أمنية العلماء المصلحين فى كل

زمان ، وبإبه مفتوح الى ما شاء الله ، وما مع منه إلا القصور والضعف والاعراض عنه ، حتى قال مجد الدين بن دقيق العيد : عز المجتهد في هذه الأعصار .

وليس ذلك لنمدر حصول الاجتهاد بل لإعراض الناس عن اشتغالهم عن الطريق المفضية الى ذلك .

والخلاصة : أنه يتضح مما عرضناه في هذا المقال من طبقات الفقهاء والمجتهدين أن المجتهد الذي يتأدى به فرض الكفاية هو المجتهد المطلق المستقل ، وأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحا لا يغلّق الى ما شاء الله ، وليس من مصلحة الشريعة الغراء إغلاقه لما سنبيه في المقالات الآتية إن شاء الله تعالى .

السيد عفيفي

من علماء الأزهر الشريف

محرر مجلة المحاماة الشرعية السابق

هل تحط بصاحبها الفضائل

افتن الشعراء في تصوير المعاني ، وتنافسوا في الممكن والمحال منها حتى أدت بهم حسرة الحرمان الى اتهام الفضائل بأنها من أسباب الشقاء ، فقال أبو الحسن علي المعروف بابن النخل :

الدهر ضد ذوى الفضائل كلهم	حتى كان عدوه من يفهم
لو كنت أجهل ما علمت لسرني	جهلى كما قد ساءنى ما أعلم
كالصمو يرتفع في الرياض وإنما	حبس الهزار لأنه يترنم

وقال آخر :

يطرى لأهل الفضل دون الورى	مصائب الدنيا وآفاتنا
كالطير لا يحبس من بينها	إلا التي تطرب أصواتها

وقال غيره :

قد عقلنا والعقل شر وثاق	وصبرنا والصبر مر المذاق
إن من كان فاضلا كان مثي	فاضلا بعد قسمة الأرزاق

نقول: هذا هذيان محض ، فإن الرزق لا يدور على الإنسان بسب أنه فاضل ولكن بسبب أنه يتعامل الاممال التي تستدره ، فكل شاعر وكل كاتب يقفل عن هذا ويريد أن يعترف الناس من أموالهم ويغدقوها عليه وهو قاعد !

أحاديث الوفود في الاسلام

- ٤ -

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر رجلاً (من كندة باليمن) ومعهم صدقات قومهم ، فُسِرَ رسول الله بهم وأكرمهم ، وأزلمهم منزلاً حسناً في ضيافته . ولما استلوا عما جاءوا به قالوا : جئنا بحق الله علينا في أموالنا . فطلب منهم رسول الله رد ما جاءوا به وقسمته على فقرائهم ، فقالوا : يا رسول الله ما جئنا إلا بما فضل عن فقرائنا .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الهدى بيد الله عز وجل ، فمن أراد الله به خيراً شرح صدره للاسلام .

هنالك تقدم أحد رجال الوفد وسأل النبي عن الاسلام والقرآن والسنة والأحكام ، فزاد النبي عليه الصلاة والسلام رغبة فيهم . ثم استأذنه في العودة الى بلادهم فتلطف بهم وقال لهم : ما يجعلكم ؟ قالوا : نرجع الى قومنا فنحبرهم بروية رسول الله ومولاتنا له وكلامنا معه وما رد به علينا . عند ذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم بلالا وقال له : أجزم يا بلال بأرفع ما تحب به الوفود .

ولما جاءوا ليودعوا رسول الله سألهم : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً . فقال النبي : أرسلوه الينا ، فأقبل الغلام حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أنا من الزهط الذين أتوك آتفاً فقضيت حوائجهم ، فأقضى حاجتى . فقال له رسول الله : وما حاجتك ؟ قال : يا رسول الله إن حاجتى ليست كحاجة أصحابي ، والله ما أخرجنى إليك إلا أن تسأل الله أن يغفر لى ويرحمى ، وأن يجعل غنائى فى قلبى . هنالك دعا النبي ربه قائلاً : اللهم اغفر له وارحمه ، واجعل غناه فى قلبه . ثم التفت الى من حوله فقال : من أراد الله به خيراً جعل غناه فى نفسه ، وتقاه فى قلبه ، وإذا أراد الله به عيباً شرأ جعل فقره بين عينيه . ثم أمر له بعطاء مثل ما أعطى أصحابه . وشدت رحال القوم وعادوا الى بلادهم وفى رحالهم الغلام المحدث الزاهد الورع الفائز بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كان من خبر هذا الوفد أن وفد مرة أخرى على رسول الله فى موسم الحج عنى إلا ذلك الغلام المتحدث عنه ، سأله النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال : ما فعل الغلام الذى جاءنا معكم ؟ قالوا يا رسول الله : ما رأينا مثله قط ، ولا حدثنا بأقنع منه بما ررقه الله ، لو أنف الناس

اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها ! فقال لهم النبي : الحمد لله ، إني لأرجو أن يموت جميعا . فقال رجل منهم : أوليس يموت الرجل جميعا ؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم : تنشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك .

هذا وما زال هذا الفتى على أفضل حال من الزهد والقناعة الى أن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد من العرب ، فقام هذا الفتى فيهم خطيبا فذكرهم الله والاسلام ، فلم يرجع منهم أحد .

ولما ولي أمر المسلمين أبو بكر رضى الله عنه لم ينسه ، وذئب يسأل عنه . ولما بلغه موقعه الطيب وما قام به من نصيح قومه وتذكيرهم بأيام الله ، كتب الى ريد بن الوليد عامله على حضر موت يوصيه به حيرا .



ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من بني عذرة باليمن ، فلما دخلوا عليه حيوه بحالم يحبه به الله فقالوا : عم صباحا — تحية الجاهلية — فقال لهم رسول الله : من القوم ؟ فقال رائدكم : نحن من بني عذرة ، نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا خزاعة وبني بكر عن بطن مكة ، فلنا قرابات وأرحام .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفى بكم ! ولما استقر بهم المقام سألهم النبي : ما منعكم من تحية الاسلام حين دخلتم ؟ فأجاب رائدكم : يا محمد كنا على ما كان عليه آبائنا فقدمنا مرتادين لا تمننا ولقومنا ، فإلام تدعو ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى رسول الله الى الناس كافة . فقال رائدكم : فما وراء ذلك ؟ فقال له رسول الله : الصلوات ، تحسن ظهورهن ، وتصلبن لمواقيتهن ، فانه أفضل العمل . ولم ينته النبي من ذكر بقية الفرائض حتى تقدموا وأسلموا جميعا وحسن إسلامهم .

ثم عاد رائدكم الى إلقاء الأسئلة فقال : يا رسول الله إني فينا امرأة كاهنة وفريش والعرب يتحاكمون اليها أنفسها عن أمورنا ؟ فقال له النبي : لا تسألوها عن شيء . فقال الرائد : وما ترى يا رسول الله في التبايع للأصنام ؟ فقال له النبي : أنها كم عن ذلك . عند ذلك تقدم رجال الوفد فقالوا : يا رسول الله نحن أعوانك وأصدارك فسر النبي بهم وأجارهم ، وكسا أحدهم يدا وهو رائدكم ومنكلمهم .



ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من (بلي) : حى من قضاة — وفيه شيخهم

أبو الضبيب ، فتركوا صيوطاً على رويغ بن ثات البلوى ، فقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هؤلاء قومي . فقال له : مرحباً بك ويقومك فأسلموا . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي هدانا لهذا كنا كنا للاسلام ، فكل من مات منكم على غير الاسلام فهو في النار ، فمن يرد الله به خيراً يهده للاسلام .

عند ذلك تقدم أبو الضبيب شيخ الوفد وجلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إنا قدسنا عليك لنصدقك ونشهد أنك نبي حق ، ونخلع ما كنا نعبد وآياؤنا . فأجابه النبي : الحمد لله الذي هدانا لهذا كنا كنا للاسلام . فقال أبو الضبيب : يا رسول الله لي رغبة في الصيافة فهل لي في ذلك أجر ؟ فقال له النبي : نعم ، وكل معروف صنعتته إلى غنى أو فقير فهو صدقة .

فاسترسل أبو الضبيب في الأسئلة فقال : يا رسول الله ما وقت الصيافة ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاثة أيام . فقال أبو الضبيب : فما بعد ذلك ؟ فأجابه النبي : فصدقة ، ولا يحمل للضيف أن يقيم عندك (أي فوق الثلاثة) فيخرجك . قال أبو الضبيب : يا رسول الله أ رأيت الصلاة من الغنم أجدها في الغلاة من الأرض ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لك أو لأحبيك أو للذئب . قال أبو الضبيب : فالبعير ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : مالك وله ، دعه حتى يحده صاحبه .

لما انتهت هذه الأسئلة قاموا وعلوا إلى دار مضيغهم رويغ ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم يحمل تمرًا وقال : يا رويغ استعن بهذا التمر لضيوفاك . وبعد ذلك أقاموا ثلاثة أيام . ولما جاءوا ليودعوا رسول الله أجازهم ، وانصرفوا عائدين إلى قومهم فرحين بما آتاهم الله من فضله .

من خطاب الوكيل

ذم التعجير في الكلام

قال بشر بن المعتمر من كبار الخطباء المبرزين : « إياك والتعجير فإنه يسلك إلى التعقيد ، فتستهلك معانيك ، ويمنعك من إصابة حراميك » .

وقد منسحوا النزل إلى حضيض العامة للتأثير على السامعين ما دام القصد إبلاغهم ما يجب أن يفهموه ، فقالوا : إياك والنحو بين العامة ، فإنه كاللحن بين الخاصة » .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

فِي الْوَقْفِ

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر السؤال الآتي
شخص اشترى قطعة أرض ليقم عليها مسجدا ثم قدم مبلغا من المال لوزارة الأوقاف لتقوم
بتشييد المباني اللازمة للمسجد ، وقد شرعت الوزارة في إقامة تلك المباني على جزء من هذه
الأرض وترك الباقي منها كهدية للمسجد من الجهة الشمالية ، وجعل باب المسجد العمومي
من الجهة القبلية ، وجعل فيه باب من الجهة الشمالية يفتح في الحديقة ويستعمل لتوصيل الهواء
للمسجد ، كما جعل في الحديقة جملة أبواب . ثم استخرج تصريحاً من وزارة الداخلية (قسم الصحة)
بإنشاء مدفن له بالجانب الشمالي الشرقي من الحديقة . وبعد سنة تقريبا من استخراج هذا التصريح
حرر إشفادا شرعيا منه ومن وزارة الأوقاف نصه هكذا : « وقعت وزارة الأوقاف مباني
المسجد ووقف هذا الشخص أرض القطعة بتمامها » . ولم ينص في هذا الإشفاد على بناء المقبرة
لا بنى ولا إثبات مع أن الواقف يقصد قبل تحرير هذا الإشفاد وحين تحريره أن تقام المقبرة
في الجزء المذكور من الحديقة ، ولم ينص عليها اعتادا على قصده واعتقادا منه بأن عدم النص
عليها لا يمنع من إقامتها ، واعتادا على ما جرى به العرف من إقامة مدفن للواقف بجوار
مسجده ، كما يشهد بذلك كثير من المساجد الموجودة الآن بمصر .

فهل يسوغ شرعا لهذا الواقف - على أي مذهب من المذاهب الأربعة - أن يتخذ
قبراً له في الجزء الباقي من قطعة الأرض المذكورة ؟

الجواب :

مذهب المالكية يرى في هذه الحالة أن للواقف أن يتخذ في قطعة الأرض المذكورة
قبراً له ، لأن عبارته التي جاءت بصدد وقف هذه القطعة لم تكن نصاً صريحاً في عدم اتخاذ
مقبرة ، فله أن يفسرها بما أراده منها مما ينطبق على نيته . وسعيه في أخذ تصريح من وزارة
الصحة باتخاذ مدفن له في هذه القطعة الى أن حصل عليه قبل الإشفاد ، يعتبر قرينة عند
المالكية تصرف عبارة الواقف عن ظاهرها ، وتدل على ما أراده منها ، وهو أن تكون
مسجداً ، وأن يتخذ جزءاً منها قبراً . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

جواز تشريح الجثة

لمصلحة التحقيق

فتوى الحاضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية

ورد على دار الإفتاء كتاب من وزارة الحفانية ومعه ترجمة لخطاب حضرة سكرتير مجلس بوبال بالهند ، ونص الترجمة كما يأتي :

أرجو التكرم بإفادتي عما إذا في حالة الوفاة غير المادية مثل الوفاة بالسم التي تحصل للمسلمين يصرح بتشريح الجثة وهل هو حازي بلادكم ؟ وذلك لأنه في بعض المقاطعات الإسلامية بالهند خصوصا مقاطعة بوبال لا يصرح (البوليس) بتشريح الجثة بعد الوفاة بمعرفة إدارة التحقيق وإني أكون شاكرا إذا تكرمت بإفنائنا بواسطة دار الإفتاء المصرية من حفظه القرآن والحديث فيما إذا كان يرجع إلى تشريح الجثة في حالة الوفاة المشكوك فيها أي غير الطبيعية ، ولا ؟ وتقبلوا عظيم تشكراتنا .

الفتوى :

اطلعنا على الترجمة العربية لخطاب حضرة سكرتير مجلس بوبال بالهند المؤرخ ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٧ الوارد إلينا بكتاب وزارة الحفانية رقم ٢٤٩٦ المؤرخ ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٧ بشأن الاستفتاء عن تشريح جثة الميت في حالة الوفاة غير المادية مثل الوفاة بالسم .

ونفيد أننا لم نجد بعد البحث في كتب الفقهاء تعرضا لهذا الموضوع ، وما وجدناه لهم هو موضوع شق بطن من ماتت وولدها حي أو بالعكس ، وموضوع شق البطن لأخراج ما يكون قد ابتلعه الميت من مال قبل وفاته . فقال علماء الحنفية في الموضوع الأول : إنه إذا ماتت امرأة حامل واضطرب في بطنها شيء وكان رأيهم أنه ولد حي ، شق بطنها ، لأن هذا وإن كان فيه إبطال لحُرمة الميت ففيه صيانة لحُرمة الحي وهو الولد فيجوز .

وإذا مات الولد في بطن أمه وهي حية فإن خيف على الأم قُطع وأُخرج بأن تدخل القابلة يدها وتقطعه بأكله بعد تحقق موته .

أما لو كان الولد حيا فلا يجوز تقطيعه ، لأن موت الأم به موهوم ، فلا يجوز قتل آدمي حي لاسي موهوم .

والمأخوذ من كلامهم في الموضوع الثاني أن المال إما أن يكون للبيت أو لغيره. فإن كان له فلا يشق نطه لاستخراجه، لأن حرمة الأدب وإن كان ميتا أعلى من حرمة المال، ولا يجوز إبطال حرمة الأعلى لصيانة حرمة الأدنى. وكذلك الحكم فيما إذا كان المال لغيره وقد ترك الميت مالا لأنه لا يشق نطه في هذه الحالة أيضا، بل تدفع قيمة المال مما تركه الميت إلى صاحبه. إما إذا كان المال لغيره ولم يترك الميت مالا فإنه يشق، لأن حق الأدنى مقدم على حق الله تعالى، ومقدم على حق الظالم المتعدي، وقد زالت حرمة هذا الظالم بتعديده على مال غيره. هذا مذهب الحنفية في الموضوعين.

وأما مذهب الشافعي خلاصته في المسألة الأولى أنه إذا ماتت امرأة وفي جوفها جنين حي شق جوفها وأخرج إن كان يرجى حياته بعد الإخراج، بأن يكون له ستة أشهر فصاعداً، أما إذا كان لا يرجى حياته بعد الإخراج فالأصح أنه لا يشق نطها وخلاصة مذهبه في المسألة الثانية أن المشهور للأصحاح إطلاق الشق حيثن من غير تفصيل إذا كان المال لغيره وطلبه. وقال بعضهم: إنه يشق جوفه إذا لم يضمن الورثة مثله أو قيمته. أما إذا طلع جوهرة لنفسه فلها وجهان مشهوران الأول أنه يشق، والثاني أنه لا يشق.

والخلاصة أن عند الشافعية رأياً بالشق مطلقاً لاستخراج المال من الجوف.

هذه خلاصة ما نقله الامام النووي في شرح المذهب، وقد نقل فيه عن أبي حنيفة وسحنون المالكي أنه يشق مطلقاً في مسألة المال.

وقد عصمت مذهب الحنفية في ذلك.

ونقل عن احمد وابن حبيب المالكي أنه لا يشق، والذي وجدناه في كتب السنة ما جاء في السنن الكبرى للبيهقي وسنن أبي داود وسنن ابن ماجه عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كسر عظم الميت ككسره حياً». قال السيوطي في بيان سبب الحديث ما نصه: «عن جابر حرقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس النبي صلى الله عليه وسلم على شفير القبر وجلسنا معه فأخرج الحفار عظاماً ساقاً أو عضداً فذهب ليكسره فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تكسره فإن كسرك إياه ميتاً ككسرك إياه حياً ولكن دسه في جانب القبر. ١ هـ»

وبهذا الحديث استدل من قال من الفقهاء بعدم حواز شق بطن الميت لاستخراج ما فيه من مال مطلقاً.

والذي يقتضيه المظر الدقيق في قواعد الشريعة وروحها: أنه إذا كانت هناك مصلحة راجحة في شق البطن وتشریح الجنة، من إثبات حق للقتيل قبل المتهم، أو تبرئة هذا المتهم من تهمة القتل بالسم مثلاً: أنه يجوز الشق والتشريح، ولا ينافي هذا ما جاء في الحديث الشريف من قوله عليه

الصلاة والسلام « كسر عظم الميت ككسره حياً » فإن الظاهر أن معنى هذا الحديث أن لعيت حرمة مكرمة الحى فلا يتعدى عليه بكسر عظم أو شق بطن أو غير ذلك لغير مصلحة راجحة وحاجة ماسة . ويؤيد ذلك ما نقلناه عن السيوطى فى بيان سبب الحديث فانه ظاهر أن الحفار الذى نهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن كسر العظم كان يريد الكسر بدون أن تكون هناك مصلحة فى ذلك ولا حاجة ماسة اليه .

وبما قلناه يتفق معنى الحديث الشريف وقواعد الدين الاسلامى القويم ، فإنها مبنية على رماية المصالح الراجحة ، وتحمل الضرر الأخف لجلب مصلحة تمويتها أشد من هذا الضرر . على أن الظاهر الآن أنه يجوز شق بطن الحى إذا علم أنه لا يموت بهذا الشق وكان فيه مصلحة له . ولعل الفقهاء لم ينصوا على مثل هذا بل أطلقوا القول فى تحريم شق بطن الحى لأن فن الجراحة لم يكن قد تقدم فى زمنهم كما هو الآن . وبهذا علم الجواب عن السؤال ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فضل الكلام فى الحياة

لما كان الانسان مدنيا بطبعه ، وكانت حاجته الى أمثاله شديدة ، أمده الله بفضيلة التكلم ، وحلاه معها بموهبة البيان ، زيادة فى الاحسان اليه . وقد عبر عن فضل هذه المنفعة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فقال : « الكلام قاض يحكم بين الخصوم ، وضياء يجلو الظلم ، حاجة الناس الى مواده كحاجتهم الى مواد الاغذية » .

وقال أبو الفرج البها فى رده على الذين يفصلون الصمت على الكلام :

« من زعم أن الصمت أشرف مرتبة وأرفع منزلة من الكلام ، فقد حكم على الكلام بالنقصان ، وأحسب الى محل البيان ، ولو كان الصمت أفضل من الكلام لتصدنا الله به فيما استدنا له بالالهام ، وكان توحيد الله بحجج العقول فى غنى عن واسطة أو رسول »

وقد قاب عن أبى الفرج أن الذين مدحوا الصمت إنما ذموا فضول الكلام ، لا الكلام الذى تدعو اليه الضرورة وتكون كل زيادة فيه فيبهة وزرثرة . ألم يلقه أن أفصح ناطق بالصاد محمداً صلى الله عليه وسلم قد نعى على الثرثارين المتفيهقين ؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تكلم بخير ولا تأسكت » . فانظر كيف فصل خاتم المرسلين الصمت على الكلام المجرد من الخير .

على أبى أقول : إنه لم يظهر فى العالم كله شرقه وغربه إنسان مدح الصمت على إطلاقه ، ودم الكلام على إطلاقه .

أكبر أسباب الخلاف

بين أصحاب الأديان

بماذا تزرع الاسلام لحسم مادة هذا الخلاف ؟

أ أكبر أسباب الخلاف بين الأمم تمصها لأنبيائها ، وذهابها في تقديسهم وتزويدهم مذهب لا يتفق مع العقل ، ولا يستقيم على دليل .

كانت الأمم في اليهود السابقة لا تدين للمقررات العلمية ، ولا تخضع للأحكام العقلية ، هائمة بين الخس والخيال ، في واد لا يحده حد طبيعي ، ولا يسوده نظام من أى نوع كان .

كان الخس يزعم الأمم بأنواع من الفواعل الوجودية . من حورورد ، وجوع وطمأ ، ومرض وموت . فكانت تفعل طبيعتها هذه الفواعل أيما افعال ، فتطلب الخس بالجذ والكدر ، فان أخفقت في ارتياد الخس من عالم يعلم متناول جسمها ، نظرت الى السماء مناجية الروح الاعلى قيوم السموات والأرض ، وهي زعة ليس أكل ولا أحق منها لو وقعت عند هذا الحد . ولكن الخيال يطمس جلالها وجمالها بما يحمل إليها من صنوف الأوهام والتصويرات الباطلة ، ويحمل الأمم على تجسيد هذا الشعور العالي ، فتدين الأمم لأنصاب وأصنام تتخيل فيها الوساطة أو الخلول ، أو غير ذلك من الاحلام . فان رق شعورها وترفت عن التجسيد الصوري ، جسدت الخالق ذهنيا ففرضته ملكا سماويا جالسا على كرسي الجلال وبين يديه الملائكة ياتغرون بأمره على طراز الملوك الأرضيين .

فكل رسول أرسل الى تلك الأمم ، وسلم من بطشها ، رفعته الى أرفع من مستوى البشرية ، وأكثرها دماء اساقه ، وكان أكبر أسباب هذا الفلو ، اعتماد أولئك الرسل في تأييد دعواهم على المعجزات . فكان عيسى عليه السلام يحكي الموتى وما دون ذلك من شفاء الأكمة والأبرص والاعمى ، وموسى أوتى العصا وغيرها ، وأوتى من قبلها أنواعا أخرى من المعجزات . وكان لا سبيل الى إخضاع الأمم للقانون والشرية إلا بهذه الوسيلة ، فان سلطان العقل لم يكن له عليهم من سبيل .

فكانت هذه الخوارق من أكبر أسباب رفع الانبياء الى درجة البنوة لله تعالى ، والفلو في تعظيمهم ولا سيما بعد موتهم الى حد نسوا معه الخالق ذاته ، فجلت العبادة لهم دون سواهم . فلما جاء دور الاسلام كانت الأمم قد دخلت من حياتها الادبية في دور العقل والتفهم ، وعرفت لأحكام العقل ونواميس الكون قيمتها ، فلم تعد للمعجزات من أثر على خيالها ، حتى أن العرب لما أرادوا أن يبطالوا دعوته النبي صلى الله عليه وسلم ، اقترحوا عليه أن يأتيهم

بالمعجزات ، ويؤخذ من سياق طلباتهم ، أنهم كانوا لا يأبهون بها ، بل يشكون فيها وينسبون حدوثها للشعوذة . فقالوا كما حكى الله عنهم في قوله تعالى « وقالوا لن تؤمن لك حتى تنفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسما أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف (أى من ذهب) أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا . »

يرى لقارى من سياق هذه التحديات مبلغ استخفافهم بالآيات . وقد نصر الله تعالى على أنهم كانوا من الشك بحيث إنهم لو كانوا رفقوا الى السماء لقالوا إن ذلك من تخيلات السحر لا من الله عز وجل ، فقال تعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » سكرت أبصارنا : أى سدت عن الإبصار بالسحر .

الى هذا الحد كان قد وصل الشك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم في صحة المعجزات ، وهو كما يدل على التغافل في الانكار والجحود ، يدل على مبلغ خلاص العقل من الأوهام والخزعبلات . فان الجاهل الذى يتشدد في تصديق المحسوسات الخارقة للعادة ، وينسحل لها أسبابا حتمية ، أحريه أن لا يقبل ما دونها من التخيلات السحرية ، والزخارف الشعوذية .

فاقتضت حكمة الخالق الحكيم أن يرسل الى الناس في هذا الدور الأخير رسولا يأخذ الناس بأحكام العقل ، ويردم الى مقررات العلم والحس ، فكان نبي الله صلى الله عليه وسلم في مهمته ذلك النحاح الذى لم يصادفه رسول قبله أدل دليل على مبلغ ما يفعله البرهان الصحيح والعلم المؤسس على الحق الصريح في نفوس الأمم .

من هنا انتقل الناس من دور التذليم مجرد رؤية الخوارق ، الى مستوى النظر في الحوادث ، والاستدلال بالأعلام الوجودية ، وهى خطوة واسعة في سبيل رقى البشرية ، تعتبر الغاية القصوى في حياتها الدينية .

فكان سلاح نبي الاسلام في بث دعوته العقل ، ووسيلته النظر في الكون ، والاستدلال بأعلامه وبياناته ، وهذا مظهر لم يكن عهده الناس من مظاهر النبوة . فبعد أن كان الانسان يقول للقاءم بدعوة : ما هي معجزتك ؟ صار يقول له : ما دليلك العقلى ؟ فان أدلى بالدليل كفاه ذلك عن كل خارق للعادة (١) .

(١) ليس مؤدى هذا الكلام أن النبي صلى الله عليه وسلم لم تصدر منه معجزات كسائر الرسل (حواء الانبياء) ولكن مؤداه أنه لم يجعل المعجزات أساسا لدعوة أما معجزاته صلى الله عليه وسلم مكتوبة شهدها عدد من الناس لا يدع للشك فيها مجالا .

سقطت في هذا الدور دولة الخوارق، وقامت دولة الأحكام العقلية والقياسات النظرية، فقام المتدينون بالاسلام على غير السمت الذي كان يقوم عليه من قبلهم من الأمم المتدينة . قاموا على سمات العلم والنظر في الوجود والاستدلال بالحوادث ، فلا غرو إن أصبح المسلمون بعد عدد محصور من السنين أرق الأمم علما وعملا ، وأنهدم بالوجود وحوادثه خبرا .

فكأوا يدرسون الطبيعيات والرياضيات ، وينقبون في الأرض عن خفايا المعادن ذات القيمة العظيمة في الصنائع والفنون باسم الدين والقرآن وحلقة الله في أرضه ، بينما كان من تقدمهم يقتل بعضهم بمصا تأليها للرجال ، واختلاف في الأباطيل التي أحاطوا بها عقائدهم ، فلابحج إن دوخ المسلمون من تلك الأمم في أقل من قرن مالم تستطع أكبر الأمم شأنا أن تدوخه في قسرون عديدة . ولا غرابة إن بلغ المسلمون من المدنية الفاصلة مالم تنافه سوامم من الأمم البائدة .

إن من المدهشات بل من المعجزات التي تشهد لهذا الدين بأنه وحى إلهي صادق ، أنه حشر إلى حظيرته في قرن من الزمان نحو مائة مليون من الأتباع بحض وجوده لا سيف ولا إغراء . لأن المسلمين كانوا إذا أرادوا إخضاع أمة جريا على ناموس التغالب ، خيروها بين ثلاث : الاسلام أو الجزية أو الحرب ، وكانت الجزية التي يضربونها على الأمم لا تبلغ بعض ما كان يحسبه ولاتهم منهم لضرب وجوههم ، فكان يسهل على كل أمة تغلب لهم أن تدفع الجزية ، فما الذي اضطر هذه الملايين إلى الدخول في الاسلام غير ممانحة هذا الدين وانطباقه على أحكام العقل ، وظهور أهله بمظهر السكالم والفضل ؟

أما الدعوة فقد كان المسلمون أهملوها طمعا من أكثر الولاة في زيادة أموال الدولة بما يحسب من الجزية ، فإن الرجل كان بمجرد دخوله في الاسلام يعفى من الجزية ، فيكون في ذلك مجز لا يبراد الحكومة .

لهذا السبب كان بعض الولاة يكرهون أن تدخل الأمم المفتوحة في الاسلام تفاديا من نقص الإيرادات .

ولكن الشعوب كانت ترى الفرق واضحا بين تعاليم دينها وتعاليم الاسلام ، فكانت تتراعى إلى أحصانه طائفة مختارة ، حتى بلغ عدد من دخل منهم في أقل من قرن في الاسلام نحو مائة مليون كما قلنا ، وهذا عدد لم يسمع بمثله في تاريخ دين من الأديان .

ولا يزال الاسلام سائرا في طريقه من الانتشار العظيم ، ولو كان المسلمون اليوم على ما كان عليه أبائهم من الفصائل التي ينسبهم إليها دينهم لا انتشر دينهم بلا دعوة انتشارا لا يدع لغير الاسلام من الأديان مجالاً لمنازعته .

وقد بذل الاسلام مجهودا عظيما ليزرع في الأمم عقيدة تأليه النبيين حتى لا تنقف هذه العقيدة حجر عثرة أمام ترقبهم ، فقال تعالى :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم » .

وزاد على هذا بيانا فذا كر شيئا من تفصيل حالات أولئك المرسلين حتى يزيل كل احتمال لارتفاعهم عن مستوى الانسانية ، فقال تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ، وكان ربك بصيرا » . كأنه قال إن من يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق لا يصح أن يكونوا آلهة أو أجزاء من آلهة ، فهم أفراد من خيار هذا النوع لا فرق بينهم وبين سائر أفرادهم إلا أنهم اختيروا لأن يكونوا رسلا لله الى عبادهم .

كان لهذه الآيات تأثير كبير في كسر غلواء المتدينين ، وصد تيار التأليه عن النبيين ، ولم يزل هذا التأثير يرقى وينتشر حتى صرنا في قرن لا يحسر واحد فيه أن يعلن هذه العقيدة إلا في بلاد لم تأخذ حظها من العلم والنظر .

وأخذ نوابغ القرون الأخيرة يبتنون في الناس مبدأ تنزه الخالق عن الولد والشريك ، وأن المرسلين ليسوا إلا رجالا اقتبسوا النور عن الخالق وعكسوه على الناس ، فقال حكيم الشعراء (فيكتور هوجو) كما نقلته المحلة الروحية عنه :

« إن الشعور العطرى المودع في صميم الانسان بوجود الله تعالى أتى اليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله عز وجل) ، أما الديانة اليهودية والصائنية والبوذية والمعددة والمناوية والمحمدية والمسيحية فهي من نور القمر ، لأن موسى وبوذا وزرادشت وأورفيه وكورنسيوس وماني وعبد عيسى هم أنواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويمكمنه على من دونهم من العالمين ، فالديانات التي هي أقمار الشمس الإلهية مهمتها إفاضة النور على الانسان في غياهب حياته وظلمات بقائه » انتهى كلامه .

هذا كلام فيه جهات من الضعف الى جانب جهات من القوة مارزة فيه ، ولكنه مما يستشهد به على أية حال للدلالة على تحول العقلية البشرية عن تأليه الأنبياء ، وعلى اتجاه نظرها الى الديانة الاسلامية بعد أن كان التعصب يحول بينها وبينه .

فالحوائل التي كانت تفرق بين الأمم ، وأشدّها الغلو في تقدس أنبيائهم ورفعهم الى درجات الألوهية ، كادت تكون في عداد الآثار التاريخية . فاذا وصل الانسان الى الخلاص منها توحدت الأديان على أسلوب القرآن ، وكان الفوز لأصوله على مر الأزمان .

محمد فريد وجدي

دفاع عن القرآن الكريم

- ٤ -

مناصرة نقض مقدمة الدكتور جفرى

نكلمنا فيما مضى على استعالة النطور في القرآن الكريم ، وفي القراءات السبع ، وبيننا ما تستلزمه القراءات الشاذة من دراسة اللهجات ، ومعنى الأحرف السبعة ، ومعنى الرخصة في هذه القراءات في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان انتهاء أمدّها . وتم بذلك نقض دعوى الدكتور جفرى النطور في القرآن الكريم ، وإبطال دليله عليها ، وهو كتاب المصاحف نفسه ، بما لا مزيد عليه .

وزيد الآن أن نتابع بحث المقدمة لننقضها جملة جملة كما وعدنا بذلك في أول مقال لنا ، حتى نكون قد درسنا الموضوع دراسة وافية ، ويكون حضرات القراء قد استفادوا فائدة تامة .
قال الدكتور :

« نشر في أيامنا هذه علماء الشرق كثيرا مما يتعلق بتفسير القرآن وإيجاده وحكامه ، ولكنهم الى الآن لم يبينوا لما ما يستفاد منه النطور في قراءاته ، ولا ندرى على التحقيق لماذا كفوا عن هذا البحث في عصره نزعة خاصة في التقييد عن تطور الكتب المقدسة القديمة وما حصل لها من التغيير والتحوير ونحاج بعض الكتاب فيها » .
إذا حللنا كلام الدكتور جفرى تحليلا علميا صحيحا دقيقا ، خرجنا منه بالنتائج الخمس الآتية :

- (أولا) أن علماء المسلمين ألفوا كثيرا في تفسير القرآن وبلغته وإيجازه .
- (ثانيا) أنهم لم يبحثوا عن النطور في القرآن وقراءاته .
- (ثالثا) أن الدكتور جفرى حيران في السبب الذي من أجله أغفلوا هذا البحث .
- (رابعا) أن الدكتور جفرى يصرح علنا بأن الكتب القديمة « التوراة والإنجيل » حصل فيها تغيير وتبديل .
- (خامسا) يؤخذ من بين السطور أن الدكتور جفرى يحث المسلمين على البحث وراء تطور القرآن ليمسوا ما حصل فيه من التغيير والتبديل أيضا كما علم ذلك عن الكتب المقدسة السابقة .

أليس هذا التحليل صحيحا ودقيقا ؟ افترأوا كلمة الدكتور جفرى بإمعان ، وانظروا تحليلنا لها لتعلموا أننا غير متجنين عليه ، ولتعلموا أن حضرة لا يتورع في سبيل تشكيك

المسلمين في قرآنهم أنت يصارح النصارى واليهود بأنه حصل في التوراة والانجيل تغيير وتديل .

وستتناول هذه النتائج بالبحث والدرس ، ومنحيب الدكتور عن حيرته :

أما الأول - وهو أن علماء المسلمين ألفوا كثيرا في تفسير القرآن الكريم وبيان إعجازه وأحكامه ، فلم ولا شيء فيه . غير أنك يا دكتور لم ترد به الشاء على علماء المسلمين وبيان عايتهم بالقرآن الكريم وكثرة التأليف في تفسيره وبيان بلاغته وإعجازه ، وإنما أردت أن تجعل ذلك تمهيدا لما بعده وهو أنهم لم يبحثوا عن التطور في القرآن الكريم ، فكأنك تميب عليهم انصرافهم نكبتهم الى التأليف في التفسير ونحوه وعدم انتباههم الى البحث عن التطور ، وهذا ظاهر من السياق ، ومفهوم من بين السطور ، وهو ما لا سلمه لك محال ، ولا ترضى بهذا الطعن المستور على علماء المسلمين مع أنهم لم يفعلوا إلا الواجب ، على ما سنبينه .

وأما الثاني - وهو أن علماء المسلمين لم يبحثوا عن التطور في القرآن ، فلأنهم يعتقدون أن القرآن لم يتطور ، لأن التطور - كما قلنا - من مقوماته ملاحظة الملاحظات المحيطة به التي تنقله من طور الى طور ومن حال الى حال ، وهو محال في القرآن ، ولأنهم يعتقدون أن القرآن هو الحاكم المهيمن على الزمان وأهله في كل عصر ، وعلى جميع أحوالهم وشؤونهم الدينية ، والاجتماعية ، والعمارية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وكل ما يحيط ويتصل بهم في حياتهم الأولى والآخرة ، وما كان هذا شأنه فلا يتطور ولن يتطور ، ولأنهم يعتقدون أن إجماع الأئمة في عصر من العصور على أمر من الأمور له مقامه واحترامه ، لأنهم لا يحسمون إلا إذا استندوا في إجماعهم على الكتاب والسنة ، فما بالك بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم على مصحف عثمان وهو أقوى إجماع وأفضل ، فهم يعتقدون اعتقادا لا يتحمله أدنى شك أن المصحف الامام الموجود بين أيدينا هو الذي كان بين أيدي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصل اليناعن طريق التواتر الذي يفيد العلم الضروري البديهي ، نقرؤه ونعبد تلاوته كما كانوا يقرءونه ويتعبدون بتلاوته ، ولأنهم يعتقدون أن القراءات السبع لم تتطور لأنها وصلت إلينا أيضا عن هذا الطريق : طريق التواتر ، وليس فيها خلاف إلا في طريقة الأداء ، لا كما كنته أنت يا دكتور جفري في ملحقك الانجليزي الذي ألحقته بكتاب المصاحف لابن أبي داود من حديث القطن والكنان وما إليهما مما نثرنا منه نماذج فيما تقدم ؛ ولأنهم يعتقدون أن القراءات الشاذة لم تتطور لأنها اختلاف في لهجات العرب رخص فيها للضرورة وارتفعت الرخصة بارتفاعها ، (راجع المقال السابق) .

هذه الحقائق الثابتة كلها لم يبحث علماء المسلمين عن التطور في القرآن والقراءات ؛ وبهذا البيان تذهب حيرتك ويتضح السبب الذي من أجله كف العلماء عن هذه المناقش مع

كثرة إنتاجهم في علوم القرآن ، فعليك ، إن كنت من طلاب الحقائق كما تقول ، أن ترجع الى التاريخ والى كتب أصول الفقه لتعلم منها هذه الحقائق ، فعليك تكف بعدا مع الذين كفوا .
وأما الثالث — فغير محتاج الى التعليق بعد ما تقدم من البيان .

وأما الرابع — وهو تصريحك بأن الكتب المقدسة القديمة حصل فيها تبديل وتغيير : فشارك أنت وعلما اليهود والنصارى ، فإن هذا الطعن لا يتصل بالمسلمين من قريب ولا من بعيد .
وأما اعتقادنا في هذه الكتب المقدسة فهو أنها في الأصل كتب سماوية أنزلت من الله تعالى على سيدنا موسى ، وسيدنا عيسى ، عليهما الصلاة والسلام ، وأن القرآن نسخهما إلا بعض أحكام أقرها .

قال تعالى : « وأزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه » .
وأما أنها طرأ عليها بعد ذلك تغيير وتشدب أو لم يطرأ فهذا لا يعيبنا نحن المسلمين ، وليس من شأننا البحث عنه لأنهما على افتراض محتمل وسلامتهما قد نسخهما القرآن كما تقدم

فهل تعتقد أنك كنت تلك المقدمة بلافاة ودقة ، فتمرر الكرام على علماء المسلمين دون أن ينتبهوا لها وينقصوا ما يتصل بكتائبهم منها ؟ وهل تظن أن في المسلمين فردا واحدا سينزع بما كتبت ويبحث عن التطور في القرآن الكريم وعن التغيير الذي تقصده ؟ أما أنا فأكف لك يا دكتور بأن ذلك لا يسكون ولن يكون . فالقرآن محفوظ من الله تعالى ، مصون عن التغيير والتبديل الى أن تقوم الساعة وقد ثبت ذلك أيضا بالدلائل القاطعة .

ولم يكنف الدكتور بإعلان التغيير والتبديل في (التوراة والانجيل) بل أقام الدليل على ذلك حيث قال في المقدمة « من منا يجمل مبلغ سرور علماء الغرب حين أن عثروا على القطع القديمة ، من القرطاس والبردى ، التي حفظت لنا آيات وأسفاراً من التوراة أو الانجيل كانت بفضل رمال مصر محفوظة من البلى والدور مع طول الزمن » ؟

ونحن نقول له :

إن ما ثبت من هذا التحريف هو مائه اليه علماء المسلمين قديما واستكروه من تركيبه .
فصرحوا بوقوع التبديل والتحريف في التوراة والانجيل وأنبتوا ذلك على مقتضى أسلوبهم العلمي ، وكان أنصار هاتين الملتين ينكرون عليهم ذلك ، فإذا كانت الابحاث الحديثة قد جاءت مؤيدة لأقوالهم فذلك يدل على صدق نظرم ودقة تحليلهم ، وقد سُرُوا أسلوبهم على الأحاديث فنقروا المدخول منها .

أما القرآن فلم يحدوا للنقد اليه سبيلا ، ولو وجدوا لنهبوا اليه ، بل لم يكن ليكن إخفاؤه ، لأن زول القرآن حصل على مشهد من أمة برمتها ولم يكن سرا بين رجال معدودين ، فكل ما كان يحدث حول القرآن يشيع بين الكافة وينقل منهم الى من بعدهم .

ثم أقول : أت هذا المبحث والمباحث الثلاثة الآتية بعد . خاصة نقض علماء اليهود والنصارى على دعوى التطور في التوراة والانجيل ، فالدكتور حفري يحكي وقوع التنازع والتخاصم بينهم ، وسبب أن يقرر أن الإعالية تمت مع العقل دون النقل . أي أنها رضية بالتطور الذي لحق الكتب المقدسة .

ونحن لا يمتنع في هذه المباحث الأربعة لأنها ليست مرتبطة بالقرآن الكريم ، فإذا ما أفضلنا مناقشة الدكتور حفري فيها ، فلا نأنا نعتقد بوقوع التطور فيها قبل أن تثبت لهم الأبحاث ذلك .

ولكن عند التحقيق يلزمنا التعرض لهذه المباحث ، ليس لمساعدة علماء اليهود والنصارى في الرد عليها ، ولكن لمبين رئيسيين :

أولها — أننا معاشرة المسلمين معتقدون التوراة كتاب سماوي أنزله الله تعالى على رسوله موسى عليه السلام ، وأن الانجيل كتاب سماوي أنزله الله تعالى على رسوله عيسى عليه السلام ، فنحن نؤمن بكتابتيهما الأصليين ورسالتيهما إيماناً يساوي إيماناً بالقرآن ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ الإيمان بذلك إيمان بالقرآن . « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله » ، وإن كنا نعتقد أنهما نسخا بالقرآن ، دون التفات إلى ما ثبت من أن هذين الكتابين الموحدين الآن بين أيدي اليهود والنصارى مدلان أو محرفان . أقول : حتى ولو كانا سليمين من التحريف والتبديل ، فقد نسخا بالقرآن الكريم واجماع المسلمين ، إلا ما كان موافقاً لهما ، فهو مقرر عندنا بالقرآن لاهما ، وإيماننا بهما غير محرفين لا يضطرنا إلى الدفاع عنهما وهما في الميزان اليوم ، وإن كنا نرجو لو ظهرت لهما سختان غير محرفتين لتسلم جميع الكتب السماوية من الطعن والنحرص .

ثانيهما — أن الدكتور حفري يريد أن يجمع هذه المباحث المتعلقة بالتوراة والانجيل بعلماء الكتابين ، توطئة وتمهيدا لإثبات التطور في القرآن الكريم . ولنا قول ذلك من عند أنفسنا ، ولكن سياق كلامه في المقدمة دال على هذا ، فقد بدأها بدعوى التطور في القرآن ، ثم أدرج حديث التوراة والانجيل ، ثم عاد إلى حديث القرآن وتطوره . على زعمه — مستندا إلى كتاب . تاريخ القرآن لنولكي الألمانية .

فهذه السببين رأينا أن تعرض لنقص هذه المباحث المتعلقة بتطور القرآن الكريم فقول :

صريح كلام الدكتور في هذا المبحث يتلخص في أمرين :

الأول — أنه وقع خلاف بين علماء الغرب (اليهود والنصارى على ما سيأتي صريحا) في أن التوراة والانجيل دخلهما التطور ، ووصل هذا الخلاف إلى درجة النزاع والتخاصم .

الثاني — اعترافه صراحة بأن الذين يعمون تطور الكتب المقدسة هم أهل العقل ، وأن الذين يحيزونه هم أهل العقل .

أما الأول — فظاهر التمييز أن هذا الخلاف والتزاع والخصام واقع بين علماء كل طائفة : أي أن بعض علماء التوراة يقول بأنها تطورت والبعض الآخر يحيل ذلك ، وأن بعض علماء الانجيل يحيز تطوره والبعض الآخر يحيله ، وهذا أمر طبيعي فانه متى ثبت تحريف الكتاب المنزل كان أهله في شك منه مررب .

وكذلك الحال في كل كتاب ، إذ التطور من أخص مقتضياته التغير والتحول ، وتطور الكتب المقدسة يسى عنها صفة التقديس التي كانت لها ، وهذا لا يهنا معشر المسلمين فهذه الكتب قد نسخت في مذهبنا .

ومعشر المسلمين يعرف فوق ذلك الأسباب التي قضت بالتحريف على هذه الكتب . فالانجيل بل الانجيل ليست هي الكتاب الذي أنزل على عيسى ويشير اليه القرآن الكريم في آيات كثيرة . فان هذه الانجيل تحوى سيرة عيسى عليه السلام وتاريخ حياته ، ومؤلفوها معروفون ، وقد وجد إنجيل خامس يدعى إنجيل برنابا وترجم الى العربية منذ نحو عشرين سنة وقد تبين منه أنه موافق لما ورد عن المسيحية في القرآن الكريم . وكان يوحد أنجيل كثيرة أخرى أهملت منذ قرون .

أما الانجيل الذي أنزل على عيسى فليس له وجود اليوم . ومن يعرف الظروف التي وجدت فيها المسيحية ، والاصطهادات الشنيعة التي وقعت على أهلها وهم مشردون هنا وهناك ، وسوادهم الأعظم أميون ، يدرك استحالة التحفظ على كتاب فيها إلا ما حفظه أولئك الاتباع من عبارات الصلاة ، وبعض الصائغ والوصايا التي كان يشها عيسى عليه السلام فيهم وهي كل مادونه الانجيليون في كتبهم عنه .

أما التوراة فالظروف التي أحاطت بها كانت أشد من الظروف التي أحاطت بالانجيل ، فان الأمة اليهودية وقعت في حروب طاحنة ، واستباح بلادها فانهون أقوياء هدموا معبدها وأحرقوا كتبها وشتتوا جماعتها في الأرض .

جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت كلمة توراة :

« العلم المعصرى ولا سيما النقد الألماني أثبت بمسد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى وإنما هي عمل أخبار لم يذكروا اسمهم عليها ، ألفوها على التعاقب ، معتمدين في تأليفها على روايات سمعية معها قبل أسرايل . »

أما التطور الذي يتوهمه الأستاذ جفرى في القرآن ، وزعمه أن العقل يقضى ببحنه ، فأمر لا تفهمه .

نحن نفهم — كما يفهم غيرنا — أن للعقول دخلا في العلوم كالطب والهندسة والعلوم الصناعية والكونية ، وإحداث الطائرات وطرق الانتفاع بالكهرباء وما إلى ذلك .

ونفهم فوق ذلك أن للعقول دخلا في فهم معاني الكتب السماوية كتفسير القرآن وتأويله وبيان أحكامه والعبرة بمواعظه والانتفاع بما صار إليه حال الأوائل من الأمم التي خالفت رسلها ولم تحجب داعي الله ، ونحو ذلك .

أما أن للعقول دخلا في كتب الله المقدسة ، وأما أن لها دخلا فيما استأثر الله به ، وأعجز عنه البشر ، وتولى هو جل شأنه حفظه ، وجعله حاكما على حوادث الأزمنة محققا لسمادة البشر مخرجا لهم من الظلمات إلى النور .

أقول : أما أن للعقل دخلا في هذا كله ، فهذا مما لا يفهمه ولا يعقله إلا الدكتور جفري ومن كان على شاكلته ، فهو يسي أصحاب التهجم على الكتب السماوية والبحث وراء إثبات تغييرها وتبديلها أصحاب العقول ، فله أن يسي ما شاء .

مسح مسين

مما عيب على الفحول

مما عيب عليه من لحول الشعراء أبو نواس في قوله :

جاد بالأمـوال حتى حـسبوه الناس حقـا

فإن ما يمدد من الاسراف في البذل حقاً ، لا يمكن أن يمدد فيعده جوردا محمودا ، وكرما معقولا . فكأنه ذم بمدوحه أقبح القدم .

وكقول أبي نواس :

مارال يهذي بالمكارم دأبـا حتى ظننا أنه محـوم

من عادة المحموم أن تضطرب حركاته ، وتختل أعماله ، ولا يسكن جأشه ، ومثل هذه الحالة لا تتفق وإهداء المكارم ، فانها إن لم تنب على عقل ناضج ، وثبت كامل ، وتقدير دقيق ، أصبحت بالوساوس أشبه ، وبأهل البلاءة أولى .

وعيب على أبي الطيب قوله :

ليت أنا ارتحلت لك الخـيـل وأما إذا نزلت الخيـام

فإن في هذا من تحقير النفس ، مالا يصح صدوره ممن يعرف لاداته حقها ، ولكرامته مكانها .

الشعر والشعراء في الاسلام

الشعر ديوان العربية ، والثرثرة البانعة لأديبها وحكمتها ، والعربية لغة الدين ، ومستودع أسرارها ، سمى من الجوامع الأدبية بين شعوبه ، فلا يجمل بمجلة تتنبد لتجلية الحقائق الإسلامية أن تمنع من التصدي له على أسلوب ينطق على وظيفتها . ناهيك أن رسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم اتخذ لنفسه شاعرا يزود عنه بحرقات الشعر ما كان يوجهه إليه شعراء المشركين من نقائس سحرهم لحل عقدة جماعته ، وهدم أصول دعوته ، وقد روى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشعر لحكمة » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وناهيك به من شديد في الدين ، يتكلم عن الشعر وينشد ما يحضره منه حتى سأل مرة جلساءه عن أشعر الشعراء في رأيهم ، فقال كل منهم ما يعلمه ، فعارضهم وقال : بل أشعرهم هو الذي يقول . من ومن ، يعنى زهير بن أبي سلمى .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : « روي أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم » .

وكان على عليه السلام ، ومن هو ، يقول الشعر ويتمثل به ، حتى إنه كان إذا أراد المبارزة ينشد :

أي يومى من الموت أفر يوم لا يُقدَّر أم يوم قُدر
يوم لا يُقدر لأرهبه ومن المقدور لا ينجو الخذر

وروى يزيد بن عمرو بن مسلم الخزاعي عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ومنشد ينشده قول شريك بن حامر المصطلق

لا تأمن وإن أمسيت في حرم إن المنايا تحمي كل إنسان
فأسلك طريقك تحشى غير مخشع حتى تلاقى الذي مئى لك الماني
فكل ذي صاحب يوما مفارقة وكل زاد وإن أبقيته فان
والخير والشمر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبي صلى الله عليه وسلم - لو أدرك هذا الاسلام لأسلم .

وقدم أبو ليلى النابغة الجعدي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشده شعره الذي يقول فيه :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لفرحو فوق ذلك مظهرنا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم الى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : الى الجنة يا رسول الله بك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الى الجنة إن شاء الله . فلما بلغ الى قوله :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواحر تحمى صفوه أن يكدرها
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أضمرها

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك ! فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنقض له تنية .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الشعر ويستنشد من يرويه . قال ابن أبي شيبه : إن النبي صلى الله عليه وسلم أورد الشريد فقال له : تروى من شعر أمية بن أبي الصلت شيئا ؟ قال : نعم .

قال : فأنشدني ، فأنشده ، فجعل يقول بين كل قافيتين : هيه ، حتى أنهشده مائة قافية ، فقال : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن رواحة : أخبرني ما الشعر يا عبد الله ؟ قال : شيء يخرج في صدرى فينطق به لساني . قال : فأنشدني ، فأنشده شعره الذي يقول فيه :
قبلت لله ما آتاك من حسن قفوت عيسى بأذن الله والفخر

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وإياك قبلت لله ، وإياك قبلت لله !

وقال زياد بن طارق الجشمي : قال حدثني أبو جبرول الجشمي ، وكان رئيس قومه ، قال : أسرنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

أمن عليا رسول الله في حرم فاك المرء زجوه ونظير
أمن على نسوة قد كنت ترضعها يا أرجح الناس حلما حين يختبر
إنا لنشكر للنعمى إذا كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه ، فقال عليه الصلاة والسلام : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم ، قالت الأنصار : وما كان فهو لله ورسوله ، وردت ما كان بأيديها من الأموال والدرارى .

وأنشد عمر بن الخطاب قول زهير بن أبي سلمى :

فان الحنن مقطعه ثلاث : يمين أو تماد أو جسداه

فجعل عمر يعجب بعرفته بمقاطع الحقوق وتفصيلها ، وإنما أراد بمقاطع الحقوق : اليمين أو الحكومة ، أو البيعة .

قال سعيد بن المسيب : كان أبو بكر الصديق شاعرا ، وعمر بن الخطاب شاعرا ، وعلى
أشعر الثلاثة ، ومن قول علي عليه السلام بصفين حين كان يحارب معاوية :

أمن راية سوداء يحقق ظلها إذا قيس قدمها حصين تقسما
فيوردها في الصف حتى يردها حياض المنايا تقطر السم والدم
حزى الله غنى والجبراء بكفه ربيعة خيرا ما أعف وأكرما

ودخل كعب بن زهير بن أبي سلمى على النبي صلى الله عليه وسلم مادحا إياه بقصيدة بدأها
بغزل وهو :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول منيم إثرها لم يفسد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغر غصيص الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول
ما إن تدوم على حال تكون بها كما تلوث في أنوابها القول
ولا تمك بالوعد الذي وعدت لا كما يحسك الماء النرايل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأبايل
ولا يفرنك مامنت وما وعدت إن الأمانى والأحلام تصيل

ثم خرج من هذا الى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، فكساه بردا ، فلما آلت الخلافة
الى معاوية اشترى هذا البرد بعشرين ألف درهم .

هذا شأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في تقدير الشعر والشعراء ، وقد حرى الناعمون
على هذه الخطئة ، فكان منهم الشعراء المجيدون كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وهو أحد الفقهاء
السبعة من أهل المدينة . ومنهم عروة بن أذينة وكان من ثقات رواة الحديث . ومنهم الشعبي
الامام المشهور ، وروى عنه أنه قال : « ما أنا بشيء من العلم أقل من رواية الشعر ، وإن شئت
أن أنشد شعرا شهرا لا أهيأ بيتا فعلت » .

وكان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد الكبير شاعرا يحب الشعر الجيد . روى عنه أنه
على زهده ونسكه سمع سكران يتغنى بهذا البيت وهو :

أدنى الهوى فأننا الدليل وليس الى الذي أهوى سبيل

فكتبه فقال له أصحابه : أنكتب بيت شعر سمعته من سكران ؟

قال : أما محتم المثل : رب جوهرة في مزيلة ؟

هذه كانت مكانة الشعر عند المسلمين الأولين ، وما أحدا من الى الحين اليه إلا صحة شعورهم ،
ولطف حسوسهم ، فان الشعر غناء الأرواح ، وترنাম الخواطر ، فاذا صدق عنه فاعما يكون

ذلك لتفساد الشعور ، وغلظ الحسوس ، ولا جرم أن انحطاطه في أمة يُشعر بانحطاطها في جميع مقومات الحياة الأدبية .

نحن هنا نريد أن نعلم بالشعر العربي على أسلوب يستخدم اللغة العربية ويرقى ملكتها في النفوس ، فننتصدي للشعر على طريقة النقد والتحصيل من الوجهتين اللفظية والمعنوية معاً ، ولا نمتنع في أثناء ذلك من أن نأثني على تراجم الشعراء ونواديرهم .

اصطناع المعروف

قال زهير بن جندبمة لولده : « عليك باصطناع المعروف واكتسابه » وتلذذوا بطيب نسيمه ورضاه ، وارصوا مودات الرجال من أئمانه ، قرب رجل قد صغر من ماله فعاش هو وعقبه في الذكر الجليل .

وقال شاعر في مثل هذا :

إذا كنت ذا حظ من المال فاكسب به الاجر وارفع ذكر أهل المقابر
وقال الفقيه المنصوري :

سألت رسوم القبر ممن نوى به لأعلم ما لاقى فقالت جواسسه
أنسأل من عاش بعد وفاته بمعرفه إخوانه وأقاربه
وقال أبو نصر الميكاكي :

الجود رأى موفق ومسدد واليذل فعل مؤيد وممان
والبر أكبر ما وعته حقيبة والشكر أفضل ما حوته يدان
وإذا الكريم مضى وولى عمره كفيل الثناء له بعمر ثمان

وقال بعض الأعراب : « الدرام مياهم تسم حمدا ودما ، فمن حبسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له » .

أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو ماله
ألا إنما مالى الذي أنا متفق وليس لى المال الذي أنا تاركة

وقال بشار بن برد من قصيدة مدح بها خالد بن برمك :

أخالد إن المال يبقى لأهله جمالا ولا يبقى الكنوز مع الحد
فأطعم وكل من طارة مستردة ولا تبقيها إلا العواري للرد

الاخلاق الفلسفية

— ١٤ —

بواعث أعمال بنى الانسان وغاياتهم

باعت الواجب :

لقد أبنا فيما تقدم أن البواعث الثلاثة السابقة لا تصلح لأن تكون مثلاً أعلى للأخلاق ، لأنها لا يمكن أن تكون عالية ولا ثابتة من ناحية ، ولأنها لو أصبحت مثلاً أعلى ترى اليه الاخلاق لترتب على ذلك إما انتصار الغريزة البهيمية وسقوط الانسانية في حميض الحيوانية بسبب الخضوع لباعثي اللذة أو المنفعة ، وإما الصعق والتعرض للأخطاء الكثيرة بسبب الاذعان للماطفة . وإذا فليس أمامنا كقانون عالمي عام وكباعث يبيل بقود الى الغاية القصوى سوى الواجب ، وما ذلك إلا لأن البواعث الثلاثة الأولى عامة يتحقق بعضها لدى الحيوانات ، والبعض الآخر لدى الانسان الناقص . أما الباعث الرابع وهو الواجب فلا يتحقق إلا عند الانسان الكامل أو الآخذ في أسباب الكمال .

تعريف الواجب :

الواجب : هو أمر إلزامي ينصب على الإرادة الانسانية ، ليقصرها على الرضوخ للقانون الاخلاقي العام الذي أملاه صوت الصمير الأوحى على البشرية جماء .

ولما كانت الانسانية في حاجة ماسة الى الانضواء تحت علم قانون واحد ، نأت حاله ، ولم تستطع البواعث الثلاثة الآتفة الذكر أن تحقق للجمعية البشرية هذه الوحدة المنشودة ، وثبت أن الواجب هو وحده القادر على تحقيقها ، فقد صرح كثير من الاخلاقيين الروحيين المحدثين بأنه هو أهم البواعث وأرقاها ، بل هو الوسيلة الوحيدة التي يصل الانسان عن طريقها الى المثل الأعلى . فهو إذاً باعث فطري دعت اليه الضرورة الملحة . والفرق بينه وبين غيره من البواعث هو أنه شاق مغن قد حفت سبيله بالأشواك ، وامتلات بالمصاعب والعقبات ، وأن غيره سار لذيذ ، لأنه لا يكلف تعباً ولا عناء . وما أحسن وصف « كانت » للواجب إذ يقول : « إيه أيها الواجب ، لست أدري في أى أرض بقيت شجرتك المقدسة التي تظل بظلمتها الخالد كل الذين يذعنون لقانون الاخلاق الأبدى الملهم من الصمير ! أيها الكلمة العالية والمعنى السامى ، أنت لا تقدم الى المرء لذة حسية ولا سروراً مادياً ، بل بالمعكس أنت تتبعه

وتثقيفه ، ولكن في مقابل ذلك تمنحه ثمتا جليلا ، وعوصا نبيلًا ، وهو أنك تعلمه الاستمتاع بحريته والمحافظة على كرامته ١ .

غير أن بعض الأخلاقيين قد ذهب إلى أن الواجب ينبغي أن يعد مبررا أو مقصدا أكثر منه باعنا ، لأن الباعث هو ما يدفع الإنسان إلى عمل من الأعمال في سهولة وبدون تفكير ولا مقاومة ، والواجب عندهم ليس كذلك . وإذا فهو ليس باعنا . ولكن رأى هذا البعض عدى غير صحيح ، لأنى لا أوافقهم على هذه الشروط التى أوجبوا وجودها فى الباعث ، وإنما أنا أقرر صحة ما رآه أكثر الفلاسفة الروحيين : وهو أن الواجب باعث ، وإن كان يمتاز عن بقية البواعث الأخرى بما ذكرناه له آنفا من رفعة وامتياز ، لأن أقصى غايات الحياة الإنسانية يجب أن تكون إخضاع الإرادة لكل مواد القانون الأخلاقى الخالدة ، ولا مهنة للواجب غير هذا الإخضاع الذى هو الطريق الوحيد للوصول إلى السكالك المطلق الجدير بالكرامة الإنسانية ، والذى لولا الواجب لما وصلنا إليه ، لأن الحياة أمامنا مفعمة بمختلف المقاصد ومتباين الغايات التى من شأنها أن تتنازع الإرادة البشرية تنازعا يوقعها فريسة بين برائن الضعف والتناقض والخطأ والارتباك .

ومن أوضح الفروق بين ما يدعوا إليه الواجب وما تدعوا إليه البواعث الأخرى - هو أن الأول يكتب قيمة وجلاله من نفسه لا من غيره ، وأما غايات البواعث الثلاثة السابقة فلا قيمة لها إلا باعتبار الصلات التى تربطها بالعوامل الخارجية المحسوسة . ولهذا لا يمكن أن يكون الواجب عاطفة ، لأن غاية العاطفة أقل قيمة من المثل الأعلى من ناحية ، ولأن ما لغاية العاطفة من قيمة مكتسب من صلاته بالعالم المحسوس من ناحية ثانية ، ولأنه قد ثبت الضلال لبعض العواطف ، وما ثبت لبعض يحوز على السكالك من ناحية ثالثة . والواجب لا يمكن كذلك أن يكون نوما من المتفعة والأمانية ، لأنه يناقضها تمام المناقضة ، ولا يحتمل أن يكون لذة حسية ، لأنه متعب شاق كما قدمنا . ولو أنه كان أحد هذه البواعث الثلاثة أو مائتها ، لما كان له على الإرادة هذه السلطة المطلقة . على أن عنصر الواجب يختلف كل الاختلاف عن عناصر هذه البواعث جميعها ، لأنه هو صفة من الصمير ، وأما هى فنانمة من أصول مختلفة لا تتساق إلى عنصر الصمير كغريزتى حفظ الذات وحفظ النوع مثلا .

الآن ، وبعد أن انتهينا من البواعث وأبنا ما يمكن من بينها أن يكون مثلاً أعلى للأخلاق وما لا يمكن ، سنحوز لك إلى شىء هو أكثر من البواعث السابقة اختصاصا بالإنسان ، ولا يمكن أن يستمتع به غيره من بقية الكائنات الحية وهو الغاية

الغايات :

لقد رأينا أن البواعث تقود أعمالنا نحو غايات متعددة ، وأن هذه الغايات تختلف فيما بينها

رفعة وصحة تبعاً لاختلاف البواعث ، وسيرا وراء نظام التفاضل الذي قررنا وجوده بينها . ولما كان الإنسان بظفرته ميالاً إلى التطلع الدائم نحو أنبل الغايات وأشرفها فقد رأى أن الضرورة تحتم عليه التفكير في كل هذه الغايات المتباينة التي ترى إليها السواك الطبيعية تفكيراً متواصلاً ينتهى به إلى العنور على ضالته المنشودة ، وهى قصوى الغايات ومتهى النهايات . ولو أنه أهمل تفكيره ولم يلب صوت ضميره وترك نفسه يسحب مع تيارات هذه السواك المتعارضة ، لذهب طعمة الحياة وفريسة الارتباك ، لأن هذه البواعث متعادية فيما بينها عداة يجعل التوفيق بينها مع إرضائها جميعاً ومساواة بعضها ببعض الآخر متعذراً إن لم يكن مستحيلاً . وإذا فوجب على الإنسان لكي يوفق بينها أن يقر فيها نظام الأريستوقراطية فيحكم الفاضل منها في المفضل ، ويسود الشريف على المشروف . وإذا أردنا أن نتبين الميزات التي توجد في بعض البواعث فتعدونا إلى الحكم بأفضليته على البعض الآخر ، فما علينا إلا أن نقرم منهجى « ديكارت » و « كانت » في هذه النقطة ، وهما يحصران هذه الامتيازات الداعية إلى تمصيل باء على آخر في السكالم الإنسانى والسعادين : الشخصية والاجتماعية . فالباعث الذى يحقق هذه الغايات الثلاث هو الذى يستحق السيادة المطلقة .

غير أن كل واحدة من هذه الميزات الثلاث أو بعبارة أدق : الغايات الثلاث لها وسيلة ناجعة يتوصل بها إلى تحقيقها ، وأن العلماء والباحثين قد اختلفوا في هذه الوسائل اخلافاً شتى أتينا لك فيما سبق على كثير منها : وذلك كفاية السعادة الشخصية مثلاً فانها لا تتحقق عند « لايبكوريين » ومن نحا منحوم إلا بالممرات الجسمية ، ولا يحصل عليها المرء في نظر الروحانيين إلا بالفضائل والخيرات والاستهانة بالماديات ، وكذلك الوسيلة التي تحقق فاية السعادة الاجتماعية هى في نظر بعض المدارس طموح الشخص إلى سعادته الذاتية التي لا تتحقق إلا باسعاد الجماعة التي هو فيها . وعند البعض الآخر هى شعوره بوجوب رد نعى ما تقدمه إليه هذه الجماعة من صيانة روح ومال ، واستتباب أمن واستقرار سلام . وهى عند البعض الثالث إحساس المرء بأن عليه واجباً نحو الجماعة يندى أن يؤديه لها دون نظر إلى نتيجة ولا طمع في مكافأة .

وأما الغاية الثالثة وهى السكالم الإنسانى ، فلا شك أن وسيلتها التي لا سرء فيها لدى كل الفلاسفة المعقولين هى القيام بالواجب وعدم مخالفة الضمير المقدس في كل ما يبادى به . وكما أن الأخلاقيين اختلفوا في الوسائل المؤدية إلى بلوغ السعادين . الفردية والاجتماعية ، فقد اختلفوا كذلك في درجتيهما : فأكثرية علماء الاجتماع ترى أن السعادة العمرانية مقدمة على السعادة الفردية ، لأن نتائج الأولى أكبر قيمة وأعظم أثراً من نتائج الثانية ، ولأن الفرد ليس إلا جزءاً من هذه المجموعة الكلية أو عصوا في جسم الاجتماع العام ، بل إن بعضهم غالى فزعم أن السعادة الفردية منفصلة عن سعادة الاجتماع لا توجد إلا في الخيال .

وقد رأى قسم آخر من الاجتماعيين المحدثين أن السعادة الشخصية هي الأساس الجوهرى المقصود بالذات ، وأن الجمعيات التعاونية ليست إلا وسائل لتحقيق السعادات الفردية . وإذا فن العبت أن نحاول الوصول الى غايتنا عن طرق طويلة منعبه مع إمكان سيرنا فى طرق أخرى قصيرة ممبده . وفوق ذلك فان المعايه بالسعاده الاجتماعيه فى رأى هؤلاء الفلاسفه الذاتيين تولد ما يسمى بالديكتاتوريه العامه أو بالاصطهاد الاجتماعى ؟

الدكتور محمد مغرب
أستاذ الفلسفه بكلية أصول الدين

« يتبع »

مكان النحو من العربية

كانت العربية الفصحى لسان العرب ينطقون بالفاظها وتراكيبها المختلفة بدون لحن ، مقودين الى ذلك بسليقتهم ، فلما جاء الاسلام واحتلط العرب بالفرس والديلم والروم وغيرهم ، فسدت سليقتهم فصاروا يلحنون فى لغتهم ، وقد اتقى الكثيرون منهم فى أول الامر هذا العيب اللسانى فصاروا يرسلون بأبائهم ليتربوا فى البادية لينشوا على عدم اللحن ، ولكن ما لبثت البادية بسبب ما أحدثه الاسلام من الحركة الحيوية فى جميع القبائل العربية أن أصيب أهلها باللعن أيضا ، فصار النطق بالعربية الصحيحة مقصورا على كبار الأدباء وأهل العلم ، ثم طمت المجمة فشاغ اللحن فيهم أيضا وأصبحوا يعدون المقيم على الإعراب فى المحادثات العادية متقعرا متشددا ، فاقترنت الفصحى على لغة الكتابة واستعان الناس على ضبطها بالنحو . فكان أيوب السخيتانى يقول : تعلموا النحو فانه جمال الوضع ، وتركه هجنة للشريف .

وقال شاعر :

والمره تكرمه إذا لم يلحن	النحو يصلح من لسان الألكن
فأجلها منها مقيم اللسان	فاذا أردت من العلوم أجلبا
وتراه يسقط من لحاظ الأعين	لحن الشريف يحطه عن قدره
نال النباهة باللسان المعان	وترى الهنى إذا تكلم معربا
أبناءهم مثل المعلوم فأقن	ماورث الآباء فيما ورثوا

وقال عبد الملك بن مروان : اللحن فى المطلق أفصح من آثار الجدى فى الوجه .

في سبيل مكافحة المادية

الانتقالات النفسية الى مسافات بعيدة

نقلنا طرفا من المشاهدات التي حققها العلماء الاوربيون لإثبات بعض خصائص النفس الاساسية ، وزيد أن نتابع هذه الفتوحات العلمية إجهارا على الدماء الباق للمادية هنا وهناك ، إذ لا يمكن أن يحترم دين ، أو تقوم أخلاق وأثر المادية مائل في الأذهان . إن الماديين صاحوا في وجه الدينين قائلين لهم : إنكم تسمكون بالآوهام فأين هي الروح ؟ رونا إياها لمقول بوجودها كما تقولون . هؤلاء إذا لم تقابل تحدياتهم بمشاهدات علمية ، تثبت خصائص الروح وتدل على وجودها ، عدوا أنفسهم خالين ، وعادوا في السخر بالدين والمندنيين . فعلى كل مؤمن أن يحتفظ بما تنقله لهم هنا ، فانه السلاح الماضى لحجج المبطلين ، ولا سبيل الى إبطالها إلا هذه الطريقة العلمية .

قال الأستاذ الكبير كاميل فلامريون في كتابه (الموت وقامضته) وهو . ومن خصائص النفس التي تثبت وجودها في الجسم مستقلة عن كل شيء فيه ، قال :

« إليك مثلا آخر نشر في فبراير سنة ١٩٠١ في مجموعة الجمعية العلمية للمباحث النفسية مما رآه باحثو هذه الأمور مكررا مائة مرة بعد ذلك التاريخ والحادثة الأخيرة تتعلق بإبصار واضح جدا عن بعد ٣٣٠ كيلومترا ، والذي حدث له وهو المستر (دايفد فرازر) أستاذ المحاضرات في جامعة (سانت أندريه) وهو الذي دونها بقلعه في العبارات التالية قال :

« حدث أمر هام منذ بصح سبين منعتني من العود الى دارى في لوندرة في آخر الأسبوع . فلمدم رغبتى في تمضية يوم الأحد بمشستر قصدت يوم السبت بعد الظهر (ماتلوتش باث) لتمضية ذلك اليوم فيها بهدوء ، ثم العود الى دارى يوم الاثنين قطار الصباح .

« فلما وصلت الى الجهة التي يعمتها ، وأويت الى فندق لأسرة قريب من المحطة ، طلبت قليلا من الشاي ، ودخلت الى الهو لاستدفئ ، لأن يومى ذلك كان من شهر يناير ، والبرد في أقصى درجاته ، والتلج يسقط بكثرة ، والترمومتر يشير الى درجات كثيرة تحت الصفر .

« فرأيتني وحدى في تلك اللحظة بذلك الفندق ، فتمكنت من الجوس على كرمى كبير منتظرا الشاي أمام مدفأة حامية الوطيس ، ولم يكن الظلام قد أرخى سدوله بحيث يصح إيقاد الغاز ، ولا النور بكاف لا مكان القراءة ، فأدبرت ظهري الى النافذة ولم أفكر في شيء خاص . وبينما أنا في تلك الحالة من الهدوء والسكينة إذا بي قد أضعت معرفة المكان الذي أنا فيه ، وبدلا من أن أرى أمامى حائط الحجرة ، والوحدات المعلقة عليها ، إذ كشفت أمامى

وجهة بيتي في لوندرة وامراتي واقفة أمامه على عتبة الباب تكلم صانعا ممسكا بيده مكينة كبيرة . وظهر على وجه امرأتى أنها متكدرة جدا ، وأحسست أنا أن الرجل الذى كان يكلمها كان في بؤس عظيم . لم أسمع حديثهما ولكن ألقى في روعى أن هذا الرجل يطلب منها المعونة . في هذه اللحظة قدم الى خادم الفندق الشاى ، فقال هذا المطر من أمامى ، فكان التأثير الذى أحدثه في نفسى من العظم ، واقتناعى بحقيقته من القوة ، بحيث إنى بعد أن تناولت الشاى كتبت الى امرأتى كتابا أخبرها فيه بما حدث لى ، وأرجوها أن تسترشد علما بأمر هذا الرجل ، وإن تعينه على حاله بقدر ما تستطيع .

« وإليك تفصيل ما حدث في لوندرة : جاء غلام صغير فطرق باب دارى (الذى هو على بعد ٢٣٠ كيلو مترا من المكان الذى كنت جالسا إداك فيه) فغاطب الخادمة متطوعا أن يرفع الناج المركوم على الامريز وعتبة لدار في مقابل بنسات . وبينما الغلام يتكلم إذا برجل قد أقبل في أطمار ، فقال للخادمة : أرحوك أن تحصىنى أنا بهذه الخدمة ، فإن هذا الغلام قد ينفق البنسات التى يأخذها منك في شراء حلوى ، أما أنا فحتاج إليها لشراء خبز ، فإن في عنتى امرأة وأربعة أطفال مرضى جميعا وليس لديهم ما يأكلوه ولا ما يستدفنون به ، فرجته الخادمة أن ينتظر وذهبت فأخبرت امرأتى ، فأقبلت تكلم الرجل المسكين . فكرر قوله بأنه كان مريضا ، وأن أسرته في حالة بؤس شديد ، ولكنه قبل أن يمتنن نفسه في القبول أراد أن يحاول أن يجد أى عمل كان . فكان هذا المنظر هو الذى رأيته ساعة حدوثه ، ويلوح لى أنه انتقل الى بسبب تأثر عقل امرأتى بما سمعته من بؤس الرجل الفقير .

« وإليك آخر ما حدث : فإن امرأتى وعدت ذلك الرجل بأنها ستذهب الى داره في المساء وستنظر فيما يجب عمله لمساعدته . فما ذهبت إليه وحده صادقا ، فأعطته ما قدرت عليه من الدرام والملابس والأغذية والوقود . ولست في حاجة لأن أقول إن كتابى الذى وصل إليها صباح الاثنين أحدث لها دهشا عظيما . وبعد أيام معدودة رأيت الرجل بنفسى فوجدت أنه هو بعينه الذى رأيته فيما رأيته ، وقد وحده صحلا عند لبنان ، وكان يأتى لتوزيع اللبن على سكان الحى الذى أنا فيه مدة سنتين » .

التوقيع — دافيد فرازر هاريس

قال الأستاذ (كاميل فلامريون) عقب نشره هذا الكتاب :

« أليس في هذه المشاهدة الحقة دليلا مطلقا على وجود خاصة للروح لا علاقة لها بالمين المادية ولا شبكيتها ، ولا بالعصب البصرى ولا بالمخ ؟ أليست الروح هى التى كانت تعمل وحدها في هذه المشاهدة ؟ وقد حدث فيها انتقال روحانى عن بعد لأن الرأتى لم ير المنظر وحده ولكنه أدرك أيضا طبيعة المحادثة بين الفقير وامراته ؟

« الاتصالات النفسية العقلية بين الأحياء » قد تتكيف أحيانا بصورة سلبية كما يبناه فيما سبق ، فيسمع الإنسان صوتا أو نداء ملحا ، وهذا الصوت وذلك النداء يقابل رغبة أو عزيمة أو غرضا أو أمرا صادرا من بعيد يحمل السامع على إطاعته . فاليك حادثة عظيمة الشأن جدا شهدناها بنفسه الدكتور (نقولا) والكونت (غونوميس) من جزيرة كورفو ، قال الدكتور المذكور :

« في سنة ١٨٦٩ كنت من رؤساء الأطباء في الجيش اليوناني فالتقت بامر وزير الحرية بحامية (زانتا) . فبينما أنا اقتراب من الجزيرة لأشغل مركزي الجديد ، وأنا على نحو ساعتين من الشاطئ ، إذ سمعت صوتا باهيا يقول لي بدون انقطاع باللغة الإيطالية : « اذهب وقابل فولتيرا » .

« وأخذت هذه المارة تتكرر حتى حيرتني . وبقي وإن كنت في حالة جيدة من الصحة في ذلك الوقت فأني خشيت أن أكون مصابا بهذيان سمعي ، ولم يكن عندي ما يحملني على أن أفكر في اسم المسيو فولتيرا الذي يسكن (زانتا) ، بل إنني ما كنت أعرف هذا الاسم وإن كنت رأيت صاحبه مرة منذ عشر سنين . فأخذت أسد مسامي وأتساعل بالكلام مع رفاقي فلم يجد ذلك تقعا ، واستمر الصوت يطرق أذني على ما كان عليه

« وصلنا أخيرا إلى البر فتممت الفندق من فوري وأخذت أفتح حقائي ، ولكن ذلك الصوت لم يزالني ، وبعد قليل دخل على الخادم ، وقال . إن أحد الناس بالباب ويريد أن يكلمني . فسألته من هو ؟ فأجابني اسمه المسيو (فولتيرا) وما اسم الخادم هذه المارة حتى دخل هذا الشخص وهو يبكي وفي غاية اليأس ، ورجاني أنت أذهب معه لأرى انه واقع في مرض شديد .

« فذهبت معه وإذا بابنه الشاب في حالة جنون مطلق ونهيج ، عارى الجسم في حجرة خالية ، وقد يش من جميع أطباء (زانتا) من منذ خمس سنين ، وكان مسطرحا بشعا ويزيده بشاعة ما كان يمتريه من السوب المصحوبة بالصفيير والجوار والمواء ، وأصوات أخرى للحيوانات ، وأحيانا كان يحف على الأرض كالنعبان ، وأحيانا أخرى كان يجثو على ركبته في حالة ذهول ، وفي أوقات أخرى كان ينكلم ويتشاجر مع كائنات . وكانت النوب الشديدة تنتهي بدور إغماء تام وطويل ، وعند ما فتحت عليه الباب هجم على شراسة ، ولكي ثبت في مكاني ولمسكت به من ذراعه ناظرا إليه بتحديق ، فلم تمض غير ثوان حتى قلت قوة عينيه ، ثم أخذ يرتعد ووقع على الأرض مغصا عينيه ، ولم يمر نصف ساعة حتى صار في حالة انتقال بومي ، فعالجته بهذه الوسيلة مدة شهرين ونصف شهر ، رأيت في خلالها أكثر من حادثة مفيدة ، وبعد ما تم له الشفاء لم يقع في انكسار »

التوقيع : الدكتور نيقولا

« واليك الكتاب الذى أرسله المسيو فولتيرا الى الدكتور قولافى ٧ يونيو وفيه تأكيد تام لما سبق ذكره ، جاء فى آخره :

« قبل حضوركم الى (زاننا) لم تكن بينى وبينكم أدنى علاقة ، ولو أنى أمصيت سين كنيرة فى جزيرة كورفو بمنصب عضو الجمعية التشريعية ولم يكلم أحدا الآخر قط ، ولم أقل لكم كلمة واحدة عن حالة ابنى ، ولم أفكر فيكم ، ولم أطلب معونتكم ، حتى قصدت أن أراكم عند وصولكم الى (زاننا) بوظيفة طبيب عسكرى ، ورحوتكم تلبية ابنى مما ألم به .

« فنحن مديون بجهاته لكم ، ثم للتبؤيم المضطيسى ، وأرى من واجبى أن أقدم لكم شكرى الخالص ، وأن أوقع على هذا » :

محكم المخلص الشاكر

ديمترى فولتيرا

وبلى هذا توقيعات إضافية هي :

(لورا فولتيرا) امرأة المسيو فولتيرا ، و (ديوبيزو د . فولتيرا) الكونت كليسو بليغرى ، و (يونا ستاز فولتيرا) الابن الذى كان مريضا ، و (س . سابولوس) شاهد ، و (لورزو ميركاتى) شاهد و (ديمترى) الكونت جبرينو شاهد .

وكان الدكتور (بالم) Balme من نائسى بفرنسا يعالج الكونتس دو . ل . المصابة بالذسيبسيا (وهو مرض معدى عصي) . فكانت تأتي الى عيادته ولم تدخل قط الى بيته الواقع خارج المدينة . فبعد مضي ثلاثة أيام على إحدى زياراتها أى فى ١٩ مايو سنة ١٨٩٩ سمع الدكتور وهو داخل الى داره فى أثناء اجتيازه الدهليز هذه العبارة : « إنى أشعر بألم شديد وليس عندى من يسعنى بالملاج » . ثم سمع كأن جما سقط على الأرض . وكان الصوت صوت الكونتس دو . ل . فبحث الطبيب فى الأمر ، فعلم أن أحدا من البيت لم يرو ولم يسمع هذه السيدة ، فدخل الى حجرة عمله وأوجد نفسه فى حالة نوم مضطيسى خفيف وتقل نفسه الى دار الكونتس فشاهد كل ما رآه عمله وأخذ به مذكرة .

فلما جاءت الكونتس لعيادته أخبرته بجميع ما شعرت به « فرأى أنه مطابق لما رآه بنفسه . ثم سألتها قائلا

« عن أى شىء كنت تبحثين حوالك بعد أن دخلت الى حجرتك ؟ » .

« قالت كان يخبيل الى أن إنسانا ينظر الى » .

قال الاستاذ كامبل فلاسريون بعد أن أورد هذه الحوادث :

« فالسمع عن بعد لا يمكن تصديقه إذا لم نرد أن نعترف بوجود روح أو نفس أو أنية

نفسية (مهما كانت الكلمة المستعملة للدلالة عليها) تعمل خارجا عن الجسم وعن مرمى الحواس » وهذه الحوادث كلها من التتابعية والانفعالات النفسية التى لا يمكن الشك فيها تبين ضروريا من الخصائص الدورية للنفس تخالف ما تعلمناه من البسيكولوجيا الفيزيولوجية الرسمية : وهى النظر والسمع عن بعد بواسطة الأمواج النفسية .

« ليس لى أن أعود الى ما كتبتنه عن الانتقالات الفكرية . فان مسألة قراءة الأفكار قد شوهدت مرارا في تجارب جديدة . اليك تجربة منها نشرها الدكتور (ج . دو ميسيمى) عن وسيط له في حالة انتقال بومى ، قال : إن الكشف الذى كان يحدث لوسيطى كان يمتد الى قراءة أفكار الحاضرين معى ، فقد رجوت مرة اثني عشر شخصا من الجمعية أن يقفوا أمام الوسيط ورجوتهم أن يفكر كل منهم في نوع خاص من الأزهار بدون أن يفهم واحد الى غيره بما يفكر فيه . ثم انتفت الى المصوم وأمرته بأن يسبح بصوت عال الزهرة التى يفكر فيها كل من الحاضرين . فسماها كلها بدون أن يحطىء . وبغير أقل تردد قارئا أفكارهم كأنه كان يقرأ كتابا » .
التوقيع : الدكتور ج . دو ميسيمى

« هذه تجربة من مائة من هذا النوع . فالانتقال الفكرى ثابت ثبوت انتقال الحرارة والصوت والكهرباء والمغناطيسية الشمسية .

« فالإبصار التلباتى يحصل بدون مساعدة العين ، ولا يمتد طول المسافة ولا العوائق المادية . وليس الزمن يؤثر فيه كالمسافة . فقد يرى الانسان حادثا حاصرا أو ماضيا أو مستقبلا على السواء . وهذا العمل النفسى يستخدم خاصة عقلية مستقلة عن الجسم .

« فادا اعترض معترض على استدلالنا على وجود الروح من الشعور بالأمور المستقبلية ، ومن هذه التأثيرات التلباتية ، بأن هذه الخصائص الطبيعية يمكن أن تكون من خواص المخل لا من أصل عقلى مستقل عن الجسم ، ولا يمكن أن تثبت وجود روح ذات شخصية متميزة فى الانسان أكثر مما تثبت حاسة الشم القوية عند الكلاب أو ميزة الحمام السباح . إذا اعترض معترض بهذا أجبتنا بأن التحليل الدقيق للمشاهدات يؤدى كل عقل خالص من الأوهام الى أن يستدل منها استدلالا محالفا لاستدلال المعترض . لأن الأمر فيها يتعلق بعمل فكري لا بعمل جسدى . فنحن مغمورون هنا فى عالم روحانى غير منظور ، فليعر هذه الشعورات الى ما يسمونه الشخصية اللاواعية من الانسان أو غيرها ، فالأسماء لا نهما ، فان الذى ندركه هنا هو وجود أنية عقلية عامة وهى الروح .

« فليست شبكة العين ولا العصب البصرى ولا ما يتصل منه بالمخ هو الذى يعمل فى إحداث هذه الأمور ، فان كل الأعمال التى يمكن تصور حدوثها من أية مادة مخية لا تستطيع أن تكون

شيئا في عقل الغير، ولا إدراك حادث يجري في الجهة المقابلة التي نحن فيها من الكرة الارضية، ولا كشف أمور لم تحدث بعد.

« اليك حادثة أخرى من النظر عن بعد جاءت في عاية الإحكام رآها غلام عمره سبع سنين أرسلها مشاهدا الدكتور (جان) من أركان الحرب في الحرب الأخيرة الى الأستاذ ريشيه (أحد أعضاء المجمع العلمي ومدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب الفرنسية) قال :

« منذ عشر سنين كنت أعالج في قرية (كوجوليس) غلاما مريضا بناهر السبع السنين . فاستدعيت لعيادته في صباح يوم من الأيام دعوة مستعجلة ، فقصت على أمه وهي وجلة بأن ابنها أصابه دور جفائي من الهذيان ذلك أنه استيقظ كمادته ظاهرا عليه التحسن في صحته ، ولكن ما وافق الساعة العاشرة حتى وقف في سريره ذعرا من مشهد خيالي أمامه ، فكان يتخيل إليه أنه يرى الماء في كل مكان ، ثم أخذ يستمرخ لتخليص أبيه ، زاحما أنه على وشك الغرق ، أما أبوه فكان غائبا في مدينة (نيس) حيث يقيم أخوه ليصلي معه بصحة أيام .

« فلما وصلت الى الغلام كان قد هدأ ، ولكنه مصر على القول بأنه رأى أباه وهو يغرق ، وما لبثت أمه حتى ورد اليها تلغراف من أخي زوجها يستدعيها بسرعة وينفها بأن زوجها غرق في نيس في الساعة العاشرة حيث كان يريد تنجيه أخيه من الغرق ، وقد كان التي بنفسه في اليم تخلصا من الألم . وكان آخر ما سمع من الأب قوله « يا ولدي المسكين »
قال الأستاذ (كاميل فلا مريون) عقب هذه المشاهدات :

« يظن الظالمون إن هذه الحوادث نادرة ، أو غاية في الندرة ، ومشكوك فيها ، وغير ثابته ، وهذا صلال بعيد ، فإن أحاديثي مع الناس منذ نصف قرن أثبتت أنه يوجد على الأقل واحد في كل عشرة قد علم ، سواء أ كان ذلك بنفسه أم ممثلا من أحد أفكاره ، حادثة تلباتية ، أو إخبارا بغيث ، أو إنذارا بموت ، أو رؤية لشيء مستقبل ، أو أي حادث نفسي ، ولكني لا أدري لماذا يكتمون ذلك ويبالغون في إخفائه ، كأنه شيء لا يصح التصريح به .
« لاشك أن هذا من آثار التربية الصالة ، أو الخشبة الوهمية . »

ونحن بعد هذا كله نقول : إننا نقل هذه المشاهدات عن كبار الاوربيين ولم نأت بحجبا بأسماء إسلامية ، لأننا لا نريد أن تهتم بتحيز في نقل الحوادث النفسية ، تجريدا للدليل من كل غلو أو جنوح لنظرية معينة . ولا شك أن نقل إقرارات الذين كانوا بالأمس أقطاب الاتحاد ، أوقع في النفس من نقل أقوال المؤمنين . ولذلك نجدنا نتحرى شهادات أولئك الأقطاب في كل موطن يحتاج لأقامة الدليل على وهن المادية .

محمد فريد وعمرى

عجائب المخلوقات

في العالم الحيواني عجائب أحصى بعضها فلات أسفاراً كثيرة ، ولو لمحي الناس بدراسة طبائع هذه المخلوقات لوجدوا منها ما لا يمكن حصره ، ولقد كان الناس يحسبون الحيوانات مجردة من العقل والتفكير ، فلما جاء العلم أثبت لها عقلاً وتفكيراً مناسبين لها على قدر درجتها من المجموعة الحيوانية .

ولقد كان (ديكارت) العالم الفرنسي الكبير يعتبر الحيوانات آلات مجردة من كل روية ، فجاءت المشاهدات العلمية بنقيض ما ذهب إليه . وقد عني العلماء بالبحث في أعمال الحيوانات وسيرتها ، فوجدوا أن خصائصها الأدبية لا تفرق عن مثيلاتها في الإنسان إلا في الكم فقط ، وذلك مصداق لقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمانكم » ، ما فرمنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون .

وقد درس الأستاذ كاتروفاج العلامة الفيزيولوجي الفرنسي الشهير المتوفى سنة ١٨٩٢ عقليات الحيوانات وتسمياتها ، فوجد أن كل ما في الإنسان من إدراك وإحساس وعواطف وميول يشاركه فيها الحيوانات ، إلا في خاصة التدين فقد اختلفت بين الإنسان وحده ، وهي التي دلت على سموه عن الحيوانات ، ومباينته لها ، وهو فارق لا يمكن تقديره لبعده أثره ، وعظيم خطره .

فما شاهده العلماء الباحثون في طبائع الحيوانات أن طريقتهما في الانتحار هي طريقة المتوحشين من الناس . ذلك أن الرجل المتوحش إذا أراد أن لا يبقى حياً امتنع عن الأكل والشرب ، واستمر على ذلك حتى يموت . وقد شوهد أن هذا هو عين أسلوب الحيوان في الانتحار ، فقد رُويت كلاب وخيول تركت الأكل وماتت متعرة بجباب حث ساداتها وفاء لها . وما كان أحد يعرف أن في الحيوان شعوراً وفاء إلى حد أنه يكره الحياة في سبيل فقد صاحبه ورثي لدى القرود المحافظين على وحدة الزوجة أنه إذا مات الذكر امتنعت الأنثى عن الأكل حتى تلحق به ، وإذا ماتت الأنثى امتنع ذكرها عن الأكل حتى يموت .

وقد شوهد أن من الحيوانات من يعمد إلى إزهاق روحه بالشدة ، فإن بعض أنواع الثعابين إذا رثي الواحد منهم أنه محصور ولا يستطيع التحرك من حصمه ، لوى فكليه على نفسه وعض جسمه فمات .

ومن ذلك ما نقله القائمقام (دوكاتسروت) في مجلة (الأتور) الفرنسية في مجلد سنة ١٨٨٢ ، أنه أسرى حية من ذوات الجرس ، فلما رأت نفسها محصورة ، وأنه لا مخلص لها من الاستسلام ، عضت نفسها في وسطها ، وأفرغت في جسدها ممها فماتت بعد بضعة دقائق .

وقد شوهد أن الانتحار يكون عاما في بعض الأنواع المنحطة من الحيوانات كالأسماك
والسلاحف والحشرات ، فقد شوهد أن الجماعات منها تنحدر انتحارا بالامتناع عن الأكل
ولا يعلم لانتحارها من سبب للآن .

أما خصائص الذكاء فقد شوهد أن الحيوان يشارك الإنسان فيها . فرئى أنها تتذكر
من أحسن إليها ، والمواطن التي ربيت بها ، وتحقد على من أساء إليها ، ولا تتجرد من ذلك
أذناها رتبة ، وأحطها حجة .

وقد رئى أن الحيوانات المتمتعة بذكاء متمتعة أيضا بخيال ، فشوهد أيضا أن الحصان
والفيل يحلمان ، وأن القرد كثيرا ما يصاب بالكابوس ، وعلم أن كثيرا من الحيوانات تصاب
بالجئون كما يصاب به الإنسان .

وشوهد أن خيولا وكلابا أصيبوا بالجنون من جراء اتساع عقولهم .

وقد عرف أن لدى الحيوانات خاصة التقليد ، فتأخذ عن بعضها ما تحتاج إليه في أمر
حياتها ، والتقليد يقتضى النظر والاختيار ، فقد روى أن الهررة تأخذ عن الكلاب
أسلوب النع .

ورئى أن الأورنج والشماتزبه من أجناس الفردة الراقية يتعلمون بسرعة فتح الأقفال .
وقد تعود قرد كان يملكه الطبيبى الكبير (بوفون) استعمال المفتاح بكل مهارة .

وشوهد أن أحد قردة حديقة الحيوانات في مدينة (درسد) أراد أن يكون حرا ليخرج
من قفصه متى أراد ، فعلم إلى مفتاحه فأخفاه باعثناء عظيم بمد أن سرقة بحيلة مجيبة .

وقد تمكن بعض العلماء من تعليم هررة ومميز وكلاب دق الأجراس وفتح الأبواب .
وقد رووا عن بعض الأبقار والبغال والخيول أنهم علموا ما يشبه هذا .

وقد شاهد الأستاذ (هارتمان فول) أن في زريبة للبقر بقرب جنيف تعلم الأبقار فتح
الحنفيات بأفواههم ، فاستصعب السائس لها مفتاحا ليتحاى به شر أولئك الأبقار .

ومن أغرب ما رئى في العالم الحيوانى الحيوانات التى تصنع لأنفسها ملابس . وقد عى
بدراسة هذه الحيوانات العلامة الطبيعى (ريو مور) صاحب الترمومتر المنسوب إليه .

ذلك أنه رأى نوما من العث فيه ميل لتغطية جسده العارى ، فوجدتها تعمد إلى نسج حلة
لنفسها من ذات النسيج الذى تقع فيه وتحميها معها حينما ذهبت . وفي المادة يكون لون حلتها
كلون النسيج الذى تستعير منه حيوطها ، فان كان أزرق أو أحمر أو أصفر أو مغلاط منها جاءت
حلتها ورقاء أو حراء أو صفراء أو مكونة من جميع هذه الألوان . وهى تعتق بأن يكون باطن
حلتها مغشى بالحرير .

ويوجد جنس من الحشرات يبيل ظهره وينغمس في التراب حتى يكتفى ظهره بطبقة منه ، وفصده من ذلك أنه يخفى وجوده على أعدائه ، فإذا تلمسوه لم يجدوا غير التراب فيتركوه وشأنه .

وقد ذكر الأستاذ ايف دولاج والدكتور حولد صميث في كتابهما المسمى (بنظريات النشوء والارتقاء) : أن دارون نقل عن (برهم) وغيره من علماء التاريخ الطبيعي أنمالا حيوانية تدل على انتشار روح التعاون بين أفرادها . وقالوا إن حيوانات كثيرة تتحد لجماعتها ديزابات لاجبارها بالخطر المتوقع حتى لا يؤخذوا على غرة .

قالوا : ولدى الحيوانات المحترمة يتقدم لقطيع ذكوره الأقوياء ، ويتأخر الإناث والضعفاء ، ليكون أولئك حماة للجماعة عند حدوث الخطر . وقد اعتادت الذئاب أن تغير مجموعة ، والبجع أن تصيد كتائب متساعدة .

وشهد أن الحيوانات المسماة مهادرياس تقلب الأحجار لتجد تحتها غيبتها من الحشرات ، فإذا وجدت حشرة كبيرة الحجم تساعد على حملها بإحاطتها من كل ناحية ، ثم تشرع في اقتسامها .

وقد نقل دارون عن (برهم) هذه المشاهدات العجيبة وهي : أن فردا من أفراد الحيوان المسمى (سيركوبيتيك) أسره نسر وأخذه في برائته وشرع يطير به ، فصاح فهب على صياحه أساء جنسه الذين كانوا يحاوره ، واحتاطوا بالنسر وأخذوا ينشغون ريشه ، فوجد نفسه مضطرا لترك فريسته والمهرب بنفسه ولا صار بلا ريش واضطر للعيشة على الأرض فهلك .

وقد لاحظ العلامة (برهم) أن النسر لا ينقض على فرد إذا كان سائرا مع أبناء جنسه ، تقاديا من خوفهم للدفاع عنه . أما إذا كان وحده أسره ولا كرامة .

ويروي دارون أن القردة لا يتعردون من المطف والرحمة ، واستشهد على قوله هذا بأنه لو اتفق أن هلك بعض القردة وترك صفارا ضعافا كفلقهم بقية القردة ذكورا وإناثا ، واعتسوا بهم كبعض آبائهم .

ويروي دارون أيضا أن بعضهم شاهد غربانا ونسورا تحمل الأغذية لأبناء جنسهما إذا أصيبوا بمرض أو غيره إلخ .

إذا صح هذا ، وهو مما يرويه دارون ليتخذ حجة على أن الإنسان والحيوان سواء في جميع الخواص النفسية ، وإنما ارتقى الإنسان فيها على نسبة سعة مداركه ، وكثرة وسائله ، فقد غفل دارون عن أن حصومه قد انتهزوها فرصة فردوها عليه ، دلة على فساد مذهبه .

ذلك أنه يبنى كل التطورات الحيوانية والانسانية على نظرية الانتخاب الطبيعي ، ومؤداه أن الأحياء من كل جنس تتنازع الحياة فيسبق الأقوياء إلى مواطن الحياة قبل غيرهم ، فيستأثرون

يغيرها ويحرمون الضعفاء ، فيزداد الأولون قوة والآخرين ضعفاء ، فتجىء ذرية الأولين قوية والآخرين ضعيفة ، وتوالى الأجيال بفنى الضعفاء ولا يبقى إلا الأقوياء .

فيحدد تنازع ثان بين الأقوياء على المثال المتقدم ، فهلك الأضعفون وتبقى الصفوة الممتازة . وفي كل جيل يورث المنتصرون زرارهم ما اكتسبوه من صفات ومميزات جديدة ، وعلى هذه الوثيرة ترفت المملكة الحيوانية ، وافتقت الى أنواع وأجاس ورتب وفصائل الخ . ولكن خصوم دارون استخدموا المشاهدات التي أوردها هو في هدم نظريته هذه فقالوا : المشاهدات بين طوائف الحيوانات تكاملا وتساعدوا وأنتم تزعمون ذلك بأنفسكم ، فكيف تدعون على نزاجمها وتناقضها ناموسا خطيرا أقمت عليه نظرية جعلت الوجود في نظر الأخذ بها آليا محضا لا أثر فيها للإرادة ولا الاختيار .

وقد تصدى لهذه النظرية بمثل هذه الأسلحة عيسا العلامة الروسى (كروبشكين) في كتابه (التساعد عامل من عوامل التطور) وقد عزا كثيرا مما ذكره لعلماء الروس ومنهم الزولوجى المشهور (كسلر) .

قال الحائى (كروبشكين) :

« أيضا تجد الأحوال الطبيعية سيئة ، والمناخ شديد القسوة ، والغذاء عظيم الندرة ، وأسباب الهلاك تغطي على وسائل النقاء ، بحيث لا تتغلب عليها الحياة إلا بصعوبة ، فلا تصادف في مثل هذه البيئة تنارعا في الحياة بين الأحياء ، ولكن على العكس تجد تساندا وترافدا بين الآحاد ، مما له أثر بعيد في حفظ حياة الجماعة ، ودعمها للتطور والارتقاء . فدراسة العالم الحيوانى تدل على أن غريزة الاجتماع تشمل جميع الحيوانات حتى التى لا يتخيل أن لها حياة اجتماعية كالسرطان (أبو جلابو) » .

نقول . لقد كثرت الطعون فى الدارونية وتعددت مناجيها وقد لا يعضى جيل آخر حتى تصبح نرا بمد عين وتعمل محلها نظرية علمية أخرى أولى بالبقاء .

على أن مسألة نشوء الكائنات الارضية وتنوعها ، وذهابها فى التسوع الى حدود يكاد لا يتصورها العقل ، ولا يستطيع أن يحصيا العدد ، كل هذا فيما نظن مما لا يمكن تفسيره تفسيرا يتفق وعظمته وجلاله . فالذين يفسبون كل هذه الوجودات والموالم الى الخبط والاتفاق والمادة وقوتها الجردة من العقل يرتكبون ضد أنفسهم إساءة لا تحتمل ، ولا يمكن أن يصل العالم من البله لتصديقهم ، والاعتداد برأيهم ما

محمد فريد وهبى

دفع شبهات عن الاسلام

ينفق المشككون في الاسلام ، من أى ملة أو نحلة كانوا ، في احتلاق الأكاذيب عليه ، أو على القليل في تجسيم ما يكون فيه رائحة شبهة ، فينفخون فيه حتى يجعلوه جبلا لا يمكن قطعه ، ويستنتجون منه استنتاجات ضد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان مدعيا وليس بنبي .

لو سألتهم ولم تصنن عليه بالنبوة ولم تصنوا بها على ألوف مؤلفة من رجال ليس لهم ماص كماضيه ، ولا حاضر كحاضره ، ولا أثر في العالم يوازي عشر عشر أثره ؟ لم يجدوا جوابا ، ولكنهم لا يجادلون ، ويصرون على أنه لم يكن صادقا فيما ادعاه لنفسه !

لم لم يكن هو صادقا وكان غيره صادقا ؟ هل حفظت عنه ضلالة ؟ هل سجلت عليه فاحشة ؟ هل أحصيت له دينية ؟ هل قنته السلطان فتأله كالاسكندر ؟ أم ازدهاه الملك فاستهتر في اللهو والنقص ؟ أم لقحته كبرياء العظيمة فأمر الناس بالسجود له ؟

لقد ولد محمد عبداً لله ، ولدت عبداً لله ، وعاش بين ظهرائي قومه عبداً ورسولاً لله ، ودانت له جزيرة العرب كلها فعامل الناس معاملة عبد لله ، وأمرنا أن نصلي ونتوه بأنه كان عبداً لله ، فلائى سبب تحرمونه ما تسخون به على ألوف من أمته ؟

ولم تألب عليه قومه ليقنلوه أو يثبنوه (أى يجمعونه الحركة) وعده الله بالنصر ، فقال تعالى : « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ، ثم ليقطع فليمنظر هل يذهبن كيده ما يغيث » ، أى من ظن أن الله لا ينصر محمداً في الدنيا والآخرة ، وهو لا شك ناصره ، فليمدد بحمل الى سقف بينه وليشتق نفسه ، ثم لينظر هل أفاده شق نفسه شيئا ، وهل أخر من نصر الله محمداً ؟

ولم يؤيده الله وبكبت خصومه لحسب ، ولكنه حملة مؤسسا لامة ملأت الارض علما وحكمة ، وكانت سدا في حل النفوس من آصار التقاليد الضارة ، وأغلال العادات السيئة ، ودفعت بها الى باحات من الرق الصورى والمعنوى بلغت بها ما بلغت الى اليوم ، ولا تزال تنقلب في أدواره حتى تصل الى ما قدر لها من الوجود العالى ، والحياة الكاملة .

يتحكك أصحاب الشبه في آيات من الكتاب لينبتوا منها ما يحط من قدره ، ويظامن من إشرافه ، كأن يدعوا مثلاً أنه كان قبل بعثته على الديانة الوثنية ، مستندين في ذلك على قوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغى ؟ »

نقول ليس في الآية ما يدل على زعمهم ، فقد أورد المفسرون معنى قوله تعالى : « ووجدك

ضالاً فهدي » فقالوا إن منها ما روى عن ابن عباس « وجدك ضالاً عن معالم النبوة ، وأحكام الشريعة ، فأفلا عنها فهذا إلها » ، ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ضللت (أي تهت) عن جدي عبد المطلب وأنا صبي ضائع ، كاد الجوع يقتلني فهداني الله . »

هذه بعض الوجوه التي أوردها المفسرون ، ويدل عليها أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار بجبل حراء الديار ذات العدد ، حتى أنه مكث مرة أربعين ليلة ، فعلم كان يفعل ذلك إذا كان على الوثنية ؟ وهل كان من عادات الوثنيين أن يلجأوا إلى هذه الوسيلة في جميع أحوالهم ؟ أليس ذلك منه كان ليهديه الله إلى ما كان يحتاج صدره من تطلب الحقيقة ، وتصور ما ستر عنه من أسرار الملكوت ؟

ألم يصدق الله ظنه ، وبؤانيه بطلبته في ذلك الغار نفسه ، فرفع عنه حجاب الغيب ، وبرز إليه ملك من الملائكة ، وأوحى إليه من الله ما أوحى ، بما كان سبب سعادته ، وسعادة أم لا يحصى لاحادها عند اليوم ؟

وإني ألفت نظر المعارضين إلى أن هذه الآية التي يتخذون ألفاظها حجة على إبطال نبوته من أدل الأدلة عليها . ذلك أن الذي يكون من غلط القلب وفساد الطوية بحيث يكذب على الله فيدعي أنه رسوله ، يكون مفتوناً بنفسه غاية الافتتان ، شغوفاً بالأبهة والعظمة كل الشغف ، فكيف مع انصافه بهذه الأمراض النفسية يسهل عليه أن يأتي بمثل الآيات المتقدمة الدالة على أنه كان يتباً متروكاً ، وأنه كان فقيراً محتاجاً ، وأنه كان ضالاً بالعمى الذي يفهمه المحصوم ؟

أليس المعروف عن المدعين الكذابين ، ومخافة المستحلين للتراتب العلوية ، أنهم يبالغون في تعظيم أنفسهم ، ورفع شأنها ، بادعاء عصمتها عن القائص ، وتزهوا عن المثاقن ، حتى أنهم ليدعون لأنفسهم النبوة لله تعالى ؟

فمن هو ذلك المدعي الذي تطاوعه نفسه العاتية على الكذب على الله ، ثم ينزل فيلصق بها أقل عيب ، أو يقول عن نفسه إنه كان ضالاً فهدي ؟

كان ضالاً ! هذه الكلمة يستكبرها على نفسه أقل أفراد الناس ممن لا يدعون النبوة ، فكيف بها من مجترئ على الله يريد أن يتفضل على الناس ويتحكم بدعوى النبوة في رقابهم ؟ أليس هذا دليلاً بأن القرآن ليس بكلام محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كلام إله محمد ، أنزله عليه ليكون نوراً وهدى للخليقة ؟

يقول قائل : يحتمل أن يكون محمد قد أطلق أمثال هذه العبارات على نفسه في كتابه من باب المبالغة في التحايل ، ليقال إن هذا الكتاب لو كان كلامه لما سمح لنفسه أن يورد أمثال هذه العبارات على شخصه .

نقول: إن لكل محتال غرضا يرى اليه، وهو إما نيل جاه، أو ملك، أو مال، فلا يزال محتال بالريه والكذب حتى يناله ثم يتمتع به. وقد ثبت أن محمدا صلى الله عليه وسلم عاش فقيرا ومات فقيرا، لم يصب من الدنيا شيئا مع أنها كانت طسوع يديه. فلم يفتش الديباج، ولم يكتس الحرير، ولم يتحل بالذهب، بل كان يته على أبسط ما يكون عليه بيت، ولبسه كلبس أوساط الناس، وثبت أنه لم يشبع قط حتى من خبز الشعير.

وإذا كان يريد نيل جاه، فإن الذي يسمى له إنما يجتد وراءه ليمتتع بوارمه، كأن يتقدم الناس إذا شئ، وأن تنحني رؤسهم له إذا مر بهم، بل أن ينجروا بين يديه سجدا الخ، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس، وكان يمشي وسط أصحابه، وكان ينهى أن يقام له إذا غشبه في مجلس، وكان يكره أن يمدحه أحد في وجهه، ونهام من إطرائه.

فإن كان يسعى ليكون ملكا، فقد بلغ من السلطان على أصحابه، والتأثير عليهم بحيث كان لو أمرهم أن يعاملوه معاملة الرعية للوكها لقمعوا وزادوا، ولكنه بقى على ما كان عليه في أول أمره، فلم يسوع مأكله، ولم يغير ملابسه، ولم يتخذ له حرسا ولا حجابا، حتى ولم يستبد بأمر، وكان يأتيه الأعراي الجاهل فيجده من رداءه، أو يلفظ له في القول، فيهم أصحابه بزجره فيمنعهم.

لو كان محمد صلى الله عليه وسلم محتالا أ كانت نتائج حياته تكون على ما ترى من تاريخه؟ وهل كان يوفقه الله لمداية أمته، وإعلاء كلمته، فبدكر اسمه مع اسم الله كل يوم مرات في مشارق الأرض ومغاربها؟ هل عهد من سنة الخالق أنه يؤيد المدعين الكذابين، ويرفع درجاتهم حتى على النبيين والمرسلين؟

لقد مدت أقوام محمدا صلى الله عليه وسلم وكرهوه، محفوزين لذلك عما كان يبتكره لهم رؤساء أديانهم من الأكاذيب والتهم الباطلة، حتىذكروا أنه أمر أتباعه بالسجود له، وأنه كان شهوانيا، ومنهم من تطرف فقال بأنه كان نهما في سفك الدماء، وأنه أمر بادة كل من لا يقول بدينه. كل هذا لينشوا حوله حوا من الظن والتهم لا تدع لظاهر في أمره طريقا الى فهم حقيقة أمره، لأنه لو فهمت حقيقة ما كان عليه، وصحة ما كان يدمو اليه، لما بقى على ظهرها من يقول بغير دينه. وما زال الناس من أمره في غيابة حتى قبض الله رجالا من العلماء الغربيين للانتصاف له، والافراق بفصله. ولكن الى أن تصل كتاباتهم الى سائر طبقات الناس يجب أن يمر وقت طويل، ولا ضير ما دام المستقبل مكفولا له ولديه القويم « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، او لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ».

محمد قمرير وجهدي

القضاء الشرعي والقضاء المدني

وقفاً في البحث السابق عند الكلام عن مدى سلطة الولاية القضائية الشرعية وكيف أنها كانت في الماضي القريب مردداً لمرافق الناس جميعاً ، في مختلف البلاد الإسلامية ، حتى تطورت المرافق ، ونشأت حوافر حادة كان من شأنها بجمعة أن أغفلت شطراً من الولاية القضائية الشرعية وصيرتها في حوزة ولايات قضائية أخرى

فما لا مرية فيه أن المراد عند الفقهاء بالولاية القضائية هو الولاية المتحدة التي تهيمن على المرافق المتعانة للتقاضين الذين يحق لهم التقاضي في حدود تلك الولاية دون غيرها ، حتى لقد توضح الفقهاء على أن الولاية القضائية ينبغي أن تكون في حقيقتها ذات سيطرة عامة شاملة لمرافق الناس جميعاً ، وهي كذلك في البلاد المستقلة لأنها عالمية الدلالة والنطبيق .

لكن الحال في البلاد الإسلامية في الشرق مع بالغ الأمل يختلف عن ذلك حد الاختلاف ، ومصر من هذه البلاد الإسلامية في الطبيعة ، فقد حدث تأثر انقلابي خطير في تلك البلاد الإسلامية تبعاً لما أبرم فيها من معاهدات ، وما نشأ فيها من تقاليد وطادات ، وما نجم عن أحكام تلك المعاهدات التي جعلت من السكان فروقا قائمة ترداد قوة ومنعة بتقديم العهد عليها ، وتنع ذلك ضرورة تنوع في الولاية القضائية تبعاً لتنوع القوانين التي تطبق على سكان البلاد . فكانت تقوم في مصر قبل اليوم ولايات قضائية متعددة . لكن مصر وقد كتبت معاهدة الاستقلال ، وهي معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ تغير فيها الحال تبعاً لتغير مركزها السياسي فيما يتعلق بتنوع هذه السلطة القضائية ، فقد نصت معاهدة ٢٦ أغسطس على إلغاء الامتيازات الأحادية بمفاوضة مصر مع الدول في شأن هذا الإلغاء ، فأُسفرت تلك المفاوضة عن معاهدة مونتريه ، تلك المعاهدة التي قصرت من أمد المحاكم المختلطة إلى حد كبير ، وأحالت اختصاص المحاكم القنصلية إلى المحاكم المختلطة لتتأخر الفصل فيما كان يعرض عليها طيلة فترة الانتقال ، وبعد ذلك يصبح عدنا ولايتان قضائيتان لا أربع ، وهي : الولاية القضائية الأهلية ، والولاية القضائية الشرعية وما في حكمها .

ويدهي أن سماحة الدين الإسلامي وسعة مداه وقبوله للاحاطة بمرافق الناس ومسايرتهم في مآلاتهم وتقاليدهم ، وأخذ معتقبيه بالموادة والرفق ومعاملة غير معتقبيه بهذا العطف وذلك التسامح ، إذا ربطت وإياه معاهدات تكفل تبادل الاخاء بين المتعاهدين ، كان من أولى أصوله الرحمة السامية أن تترك الحرية المطلقة للكتائبيين في ممارسة عقائدهم الدينية يقيمون بها شعائهم في حدود ذلك التسامح ، وأن يدع لرؤسائهم الدينيين الفصل في أحوالهم الشخصية

طبقا لعاداتهم المرعية وتقاليدهم الموروثة ، حتى لقد أفتى الامام مالك رضى الله عنه بأن لكل من اعتنق دينا غير دين الاسلام يقيم في بلد اسلامية أن يختار نوطا من المعاملة لصالحه يسير عليه ، حتى وإن خالفت تقاليد الاسلام وحدوده ، وقد عقدت في الماضي البعيد جدا معاهدات في آماذ متعاقبة بين ملوك المسلمين وسلاطينهم من جهة ، وبين بلاد الفرنجة من جهة أخرى تكفل لهم المحافظة على أنفسهم وأعراضهم وأحوالهم وإقامة شعائر دينهم ، وتمنحهم فوق هذه الحقوق المستمدة من سماحة الاسلام ولين معاملته امتيازات أخرى تبث في نفوسهم الطمأنينة الشاملة ، وتقر في قلوبهم الايمان بمدالة الأحكام الاسلامية .

الاصل في نظام كل مملكة ، أن حق الولاية الشرعية يكون في يدها دون سواها بحيث تكون المحاكم القاعة في تلك البلاد هي وحدها المرد الأعلى لكل ما ينشأ من حصومة بين جميع المقيمين فوق أرض الوطن على السواء ، سواء أكان النزاع القائم متعلقا بالجرائم أم بالأموال أم بالأحوال الشخصية . لكن أخذ غير المسلمين بتسامح الاسلام من جهة ، وإبرام المعاهدات بين ملوك المسلمين وبين الأمم المسيحية من جهة أخرى ، حد من سلطان تلك الولاية القضائية الشرعية وضيق من حقوقها ، فأطلق لغير المسلمين حرية العقائد ، ومنحهم الطمأنينة والأمن الشامل .

وحقيقة المسألة أن لدينا طوائف دينية من غير المسلمين صدرت نشأتها قوانين تنظم أحوالهم الشخصية وجهة تقاضيتهم ، وهي الطوائف الثلاثة التي أئمتنا لها ، وأخرى قدمت قوانينها الى الحكومة المصرية ولم تصدر بها أوامر طالية الى اليوم لكنها مع ذلك تنفذ تنفيذ إداريا ، وهي معترف بها من الحكومة الحالية ، وقد جاء قانون فبراير سنة ١٩١٥ فأقر ذلك التنفيذ وتبد ذلك الاعتراف ، وطوائف أخرى لم تقدم قانونا ينظم أحوالها الشخصية ، وأما الطوائف التي قدمت قانونها ولم يصدر الى الآن مراسيم باقرارها هي .

الاقباط ، والروم ، والكلدان ، والمريان ، والموارنة ، وكلهم من المذهب الكاثوليكي ، الروم والآرثوذكس ، والاسرائيليون .

وتلك الطوائف تنفذ قراراتها الحكومة المحلية بالطرق الإدارية .

وأما طوائف التي لم تقدم قوانينها النظامية الى الحكومة المحلية فهم اللاتينيون ويتبع هذه الطائفة جميع الأورنج الكاثوليك وعدد قليل من الكاثوليك الشرقيين الخاصين بالحكومة المحلية ، وهذه الطائفة لا تنفذ جهات الادارة أحكامها لأن سلطتها غير معترف بها في البلاد الاسلامية والأرمن الآرثوذكس والمريان والنساطرة .

عيسى ط
المحامي الشرعي

الاشتراك في مجلة الأزهر

حرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جواز تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التمويل على نظام الوكالة في التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الجرائد والمجلات التي أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتمويل على القاعدة الحديثة وهي دفع قيمته مقدما .

لهذه الطريقة فائدة للمشاركين وللصحف معا . فاما فائدتها الأولين فلانها تمنحهم نقل المطالبة التي ربما وقفت في وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ما عليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفي ذلك من الضرر المالي على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضر على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويجب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على الصحف ، فلانها لا تسمح لها بعمل ميزانية سنوية مضبوطة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة يفتش لادارة المحلة بطبيعة عمله متاعب لا تخص بسبب تحرير كشوف التحصيل ، وتسديد المتحصل ، وتسرب الخطأ اليه ، والمخلافات التي تنور بذلك السبب بين الادارة والمشاركين ، وبين هاتين الشاحتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إصاعة أوقات الكتاب ، وشغل وقت المدير ، وتكلف الوكلاء الذهاب والحجى ، وسوء ظن المشتركين .

كل هذه المشاكل يحلها شيء واحد ، وهو أن يدفع المشتركون ما عليهم في أى وقت يريدون على شرط أن يكون ذلك قبل حلول السنة المالية للمجلة ، وأولها المحرم ، فان تأخر عن هذا الموعد كان ذلك إيذانا منه بأنه لا يريد الاشتراك .

وقد رأت إدارة هذه المجلة أن تتبع هذه الطريقة التي تمنحها وتجنب قراءها ووكلاءها عننا لاداعية له من جراء مبلغ زهيد .

أما وكلاؤنا فيمكن الاستفادة منهم بتسليمهم قيم الاشتراكات ، وهم يقومون بإيصاها إلينا في الوقت المضروب لتقديعها ، ونجد أسماء المقررين منهم على غلاف هذه المجلة .

فخرجو حضرات قارئنا أن يعذرونا في الجرى على هذه القاعدة من أول المحرم سنة ١٣٥٨ فإنها أولى بكرامة هذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدينا للمجلة بسنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل عنه ،

أو غير ذلك ، فإننا نعتبر ما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، ونقبل منه أن يقدم لنا كل ما
منحت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يتم .

وعليه فنرجو حضرات القارئ أن يقدموا لنا قيم اشتراكهم قبل أول العام الهجري
الجديد ، لنقيد أسماءهم في سجلات جديدة ، ولتصل إليهم أعداد المجلة في وقت صدورها .
مدير مجلة الأزهر

سفيان محمد

المعاملات المادية والأدبية

هو أول سلسلة لمؤلف جديد لحضرة الاستاذ الجليل والكاتب الضليع على فكرى افندى
الأمين الأول ورئيس المقيرين بدار الكتب المصرية سابقا . أما موضوعه فهو ذكر أصول
المعاملات فى الاسلام ، واليك ما قاله المؤلف نفسه فى هذا الصدد : « إجابة لطلب بعض الاخوان
وتنمية للكتاب الذى وضعته فى (أركان الاسلام) رأيت أن أتبعه بكتاب آخر فى (المعاملات
المادية والأدبية) مؤيدا بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ؛ لأن المعاملات أصل من أصول
الدين ؛ بل الدين — كما جاء فى الأثر — هو المعاملة .

« وإنى لا أقصد ذكر جميع الأحكام الشرعية ، والقوانين المدنية التى وردت فى باب
المعاملات ، ومقارنتها ببعضها ببعض ، فهذه لها كتب خاصة مطولة تدرس فى مدرسة الحقوق
ومعاهد التعليم كالأزهر الشريف وغيرها ؛ إنما أقصد بيان المعاملات وأصولها ، وحكمة
مشروعيتها ، والغرض منها وفوائدها ، والمضار التى تنجم من سوء المعاملة مضاعفا إليها بعض
الأحكام الشرعية فى المذاهب الأربعة الخ »

هذا ما قاله حضرة المؤلف بقلبه ، وهو غرض شريف ، الحاجة إليه ماسة ، والأهم إليه
مصرفه ، وقد وفى كل ما ذكره على أكمل وجه بحيث لم يدع فى نفس القارئ حاجة لمزيد .
فنشكر لحضرة الاستاذ الأسمى همة العالية ، ودؤوبه العظيم على نشر العلم ، كما نشكر
لمكتبة المرحوم السيد مصطفى البابى الحلبي عنايتها بطبع هذا الكتاب فى أجل حلة زادت
حسنا وكالا .

إعلان

قررت إدارة مجلة الأزهر تعيين حضرة الشيخ صابر جبارة العربى وكيلًا ومحصلًا لها
فى مديرية المنيا ، فالرجاء اعتناؤه وتسهيل مهمته .

He was present when 'Ammâr said to 'Umar: "When we were once travelling together in a company of soldiers and found ourselves in a state of janâbah etc."

'Abd-ur-Rahmân added that 'Ammâr transmitted the words "sprayed saliva" on to his hands, *instead of "blew the must off his hands."*

3. We are informed by Muhammad b. Kathîr, who had it from Shu'bah, through Al-Hakam, through Ibn 'Abd-ur-Rahmân b. Abzâ, through 'Abd-ur-Rahmân, who stated that 'Ammâr said to 'Umar:

"I rolled in the dust, and when I went to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) he said: 'Stroking the face and the hands would have been sufficient for thee'."

4. We are informed by Muslim, who had it from Shu'bah, through Al-Hakam, through Dharr, through Ibn 'Abd-ur-Rahmân, through 'Abd-ur-Rahmân, who said:

"I was present when 'Ammâr said to 'Umar (citing the hadith as before).

5. We are informed by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Ghundar, who received it from Shu'bah, through Al-Hakam, through Dharr, through Ibn 'Abd-ur-Rahmân b. 'Abzâ, through his father, who stated that 'Ammâr said:

"The Prophet (Allâh bless him and give him peace) struck the ground with his hand, and then stroked his face and his hands."

أَنَّهُ شَهِدَ عُمَرَ وَقَالَ لَهُ عُمَارُ: « كُنَّا فِي سَرِيَّةٍ فَأَجْنَبْنَا . . . »
وقال: « تَقَلَّ فِيهِمَا »

٣ - حدثنا محمد بن كثير أخبرنا شعبة عن الحكم عن زر عن ابن عبد الرحمن بن أبيزى عن عبد الرحمن قال قال عمار لعمر:

« تَمَسَّكَتُ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَكْفِيكَ الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ . »

١ - حدثنا مسلم حدثنا شعبة عن الحكم عن زر عن ابن عبد الرحمن عن عبد الرحمن قال:

« شَهِدْتُ عُمَرَ فَقَالَ لَهُ عُمَارُ (وَسَاقِ الْحَدِيثِ) . »

٥ - حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا غندر حدثنا شعبة عن الحكم عن زر عن ابن عبد الرحمن بن أبيزى عن أبيه قال قال عمار:

« فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ الْأَرْضَ فَسَمَعَ وَجْهَهُ وَكَفَّيَهُ . »

struck the ground with his palms, blew the dust off them, and then stroked his face and hands¹ with them—”

صلى الله عليه وسلم يَكْفِيهِ الْأَرْضَ وَتَفَعَّ فِيهَا ثُمَّ مَسَحَ بِهَا وَجْهَهُ وَكَفَّيَهُ ۚ

CHAPTER 5.

— ۵ —

Dry ablution for the face and the hands is sufficient.

1. We are informed by Hajjāj, who had it from Shu‘bah, who received it from Al-Hakam, through Dharr, through Sa‘id b. ‘Abd-ur-Rahmān b. Abzā, through his father who said:

“‘Ammār transmitted it² in that way.”

Hajjāj added that Shu‘bah struck the ground with his hands, and bringing them near his mouth to blow the dust off them, he stroked his face and hands.

An-Nadr stated that he had it from Shu‘bah, through Al-Hakam, who heard it from Dharr, through Ibn ‘Abd-ur-Rahmān b. Abzā,—Al-Hakam also having heard it from Ibn ‘Abd-ur-Rahmān, through his father, who stated that ‘Ammār said:

“Clean dust serveth for a Muslim’s ritual ablution, sufficing him in place of water.”³

2. We are informed by Sulaimān b. Harb, who had it from Shu‘bah, through Al-Hakam, through Dharr, through Ibn ‘Abd-ur-Rahmān b. Abzā, through his father that:

بَابُ: التَّيَشُّمُ لِلْوَجْهِ وَالْكَفِّينِ:

۱ - حَدَّثَنَا حُجَّاجٌ قَالَ أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ

خَبَرَنِي الْحَكَمُ عَنْ ذَرٍّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيهِ قَالَ:

« قَالَ عُمَارٌ بِهَذَا »

وَضَرَبَ شُعْبَةُ يَدَيْهِ الْأَرْضَ ثُمَّ أَذْنَاهُمَا مِنْ فِيهِ ثُمَّ مَسَحَ وَجْهَهُ وَكَفَّيَهُ .

وَقَالَ النَّضَرُ: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ عَنْ الْحَكَمِ

قَالَ سَمِعْتُ ذَرًّا يَقُولُ عَنْ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِيهِ، قَالَ الْحَكَمُ: وَقَدْ قِيمْتُهُ مِنْ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ عُمَارُ:

« الْعَمِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ

يَكْفِيهِ مِنَ الْمَاءِ . »

۲ - حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا

شُعْبَةُ عَنْ الْحَكَمِ عَنْ ذَرٍّ عَنْ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِيهِ عَنْ أَبِيهِ:

1. as far as the elbows.

2. The text of the preceding hadith.

3. These words are not found in the Yūnūsiyyah edition.

coming from the direction of Bir-al-Jamāl, when a man met him and greeted him. But the Prophet did not return his greeting until he had reached a certain wall, *struck his hands against it*, and wiped his face and hands *with the dust*, after which he returned the man's greeting.²

بِرَّ جَمَلٍ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الْجِدَارِ فَتَسَحَّ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

CHAPTER 4.

— ٤ —

Should one who performeth a dry ablution blow the dust off his hands?

We are informed by Adam, who had it from Shu'bah, who was told it by Al-Hakam, through Dharr, through Sa'id b. 'Abd-ur-Rahmān E. Abzā, through his father, who said:

"A man came to 'Umar b. Al-Khattāb and said: 'I was once junub³ and failed to find water.' Then 'Ammār b. Yāsir remarked to 'Umar b. Al-Khattāb: 'Dost thou not remember how one day we were both travelling together on an expedition? Thou didst leave off thy prayers, but as for myself, I rolled in the dust and performed my prayers. I then mentioned this to the Prophet (Allāh bless him and give him peace) and he said:—It would have been sufficient for thee to do this. The Prophet (Allāh bless him and give him peace) then

بَابُ: الْمُتَيَّمُّ هَلْ يَنْفُخُ فِيهِمَا؟

حدثنا آدم قال حدثنا شعبة حدثنا

الحكم عن زر عن سعيد بن عبد الرحمن ابن أنزى عن أبيه قال :

« جاء رجل إلى عمر بن الخطاب

فقال : إني أجنبْتُ فلمْ أُصِبْ الماءَ ،

فقال عمرُ بنُ ياسرٍ لعمر بن الخطاب :

أما تذكُرُ أنا كنا في سفرٍ أما وأنتَ ،

فأما أنتَ فلمْ تُصلِّ ، وأما أنا فتيممتُ

فصلَّيتُ ، فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ صلى الله

عليه وسلم فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :

إنما كان يكفيك هكذا : فغضب النبيُّ

1. A place in Al-Madīnah.

2 The Prophet not being in a state of ritual purity, did not wish to mention the name of God involved in the greeting. This practice however, was abrogated by the wudū' verse as well as by 'A'isha's hadith 'that the Prophet used to praise Allāh at all times.'

3. — (Junub) = one in a state of ritual impurity through sexual intercourse جنابة (Janābah) = the state of being junub.

CHAPTER 3.

— ٣ —

On performing the dry ablution in towns if water is inaccessible, and there is fear of missing the prayer.

and on 'Atâ having upheld this practice;

and on Al-Hasan having said of a sick man who may have water near him but can find no one to help him to use it, that he may perform a dry ablution;

and on the fact that as Ibn 'Umar was returning from his property at Al-Juruf¹, the time for the afternoon-prayer came when he was at Marbad An-Na'am² where he performed his prayer³; then he entered Al-Madinah when the sun was still high, but did not repeat his prayer⁴.

We are informed by Yahyâ b. Bukair, who had it from Al-Laith, through Ja'far b. Rabi'ah, through Al-A'raj, who heard it from 'Umar the freedman of Ibn 'Abbâs, who said:

'I and 'Abdullâh b. Yasâr the freedman of Maimûnah the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) walked along until we entered the house of Abu Juhaim b. Al-Hârith b. As-Simmah Al-Ansârî, when Abu-I-Juhaim said: 'The Prophet (Allâh bless him and give him peace), was once

بَابُ التَّيَمُّمِ فِي الْخُضْرِ إِذَا لَمْ
يَجِدِ الْمَاءَ وَخَافَ فَوْتِ الصَّلَاةِ،

وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ،

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي الْمَرِيضِ عِنْدَهُ الْمَاءُ
وَلَا يَجِدُ مَنْ يُنَاوِلُهُ: يَتَيَمَّمُ،

وَأَقْبَلَ ابْنُ عُمرَ مِنْ أَرْضِهِ بِالْجُرُفِ
فَحَضَرَتِ الْقَضْرُ بِمَرْبَدِ النَّعَمِ فَصَلَّى ثُمَّ
دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ فَلَمْ يُعِدِّ

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بَكِيرٍ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ

عَنْ جَعْفَرِ بْنِ رَيْعَةَ عَنْ الْأَعْرَجِ قَالَ
سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

« أَقْبَلْتُ أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَسَارٍ
مَوْلَى مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَبِي جُهَيْمِ بْنِ الْحَارِثِ
ابْنِ الصَّمَةِ الْأَنْصَارِيِّ فَقَالَ أَبُو الْجُهَيْمِ:
أَقْبَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَحْوِ

1 A plot of rugged land about three miles from Al-Madinah, where the soldiers of the Faithful used to muster in preparation for a campaign.

2 Literally camel paddocks—a place about two miles from Al-Madinah, and which being a suburb of it, is considered as town.

3 -after having performed a dry ablution—according to Mâlik's narrative.

4 Ibn 'Umar evidently considers that a dry ablution is valid even for prayer performed in a town. Mâlik concurs though Ash-Shâfi, considers repetition obligatory.

lege of intercession; and lastly former Prophets were sent to their own people in particular, whereas I have been sent to mankind in general."

النبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً .

CHAPTER 2.

— ٢ —

On what a man should do if he can find neither water nor earth.

We are informed by Zakariyyâ b. Yahyâ, who received it from 'Abdullâh b. Numair, who had it from Hishâm b. 'Urwah, through his father, though 'A'ishah that:

She had borrowed a long necklace from Asmâ², which was lost. The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) then sent a man to look for it who found it. As the Faithful were overtaken by the hour of prayer and had no water with them, they performed their prayer *without* ablution. They therefore complained about it to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), whereupon Allâh sent down the dry-ablution verse.

At this Usaid b. Hudair said to 'A'ishah: "May Allâh reward thee with blessing, for by Allâh thou hast never been afflicted with any misfortune but Allâh hath turned it into a blessing both for thee and the Faithful."

بَابُ إِذَا لَمْ يَجِدْ مَاءً وَلَا تُرَابًا :

حدثنا زكريا بن يحيى قال حدثنا عبد الله بن غير قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة :

أَنَّهَا اسْتَعَارَتْ مِنْ أُنْتَمَاءٍ قِلَادَةً فَنَزَلَتْ ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَوَجَدَهَا ، فَأَذَرَ كَتِفَهُمُ الصَّلَاةَ وَلَبَسَ مَعَهُمْ مَاءً ، فَصَلَّوْا ، فَشَكَرُوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمُمِ .

فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ لِعَائِشَةَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، قَوْلَ اللَّهِ مَا نَزَلَ بِكَ أَمْرٌ تَسْكُرُ بِهِنَّ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لَكَ وَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْرًا .

1. The word used here قِلَادَةً denoting a long necklace reaching to the waist. In the previous hadith the word حُلَّةٌ is used, being a shorter one of Zafar only. This shows that the two hadiths refer to two separate incidents in the course of the same expedition. At-Tabarânî, however states that the incidents were connected with separate expeditions. (quoted by Al-'Aini).

2. Her sister

him and give him peace) got up there was no water, so Allāh sent down the dry-ablution verse. Accordingly the Faithful performed the dry ablution.

Usaid b. Al-Hudair then exclaimed: 'This is not the first occasion that grace hath been shown on your account, ye house of Abu Bakr!'

Then—added 'A'ishah—we made the camel on which I had been riding get up, and we found the necklace under it."

2. We are informed by Muhammad b. Sinān, who had it from Hushaim; we are also informed by Sa'id b. An-Nadr, who had it from Hushaim; we are also informed by Sa'id b. An-Nadr, who had it from Hushaim, who received it from Sayyār, who was told it by Yazid b. Suhaib Al-Faqir¹, to whom it was related by Jābir b. 'Abdullāh, that the Prophet (Allāh bless him and give him peace) said:

"I have been given five favours which have been given to none before me—I have been granted victory through the awe I struck into the hearts of my enemies at a distance of a month's journey²; the whole earth hath been given me as a mosque and for my purification³, so that any man of my people overtaken by the hour of prayer may perform his prayer; booty hath been made lawful unto me, when it was not lawful to anyone before me; I have been granted the privi-

وسلم حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيّموا.

فقال أسيد بن الحضير : ما هي بأول برّ كنتم يا آل أبي بكر .

قالت : فبعتنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته .

٢ — حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا هشيم (ح) قال وحدثني سعيد بن النضر قال أخبرنا هشيم قال أخبرنا سيار قال حدثنا يزيد - هو ابن صهيب - الفقير قال أخبرنا جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

« أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ مِنْ أَحَدٍ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُعِدْ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ

¹ فقير here not in the sense of "poor," but "suffering from an infirmity of the spine."

² That is to say none of his enemies were further than a month's journey from Al-Madinah.

³ This last phrase gives the connection of the hadith with the title, for surface earth is used for dry ablution.

"We once went out with the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) on one of his expeditions¹, until when we reached Al-Baidā' or Dhāful-Jaish² a necklace that I was wearing fell off. The Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) halted to look for it, and all the Faithful with him—there being no water at hand. So the Faithful went to Abu Bakr As-Siddiq and said : 'Dost thou not see what 'A'ishah hath done? She hath caused the Messenger of Allāh and the Faithful to halt when there is no water at hand, neither have they any with them.' Then Abu Bakr came while the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) was lying with his head on my thigh, having fallen asleep. Thow hast delayed the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) and Faithful,' said Abu Bakr, 'when there is no water at hand, neither have they any with them!'

Abu Bakr³ reproached me—continued 'A'ishah—saying whatever Allāh willed⁴ that he should say, and proceeded to poke me in the side,—nothing preventing me from moving but the position of the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace), on my thigh. The next morning when the Messenger of Allāh (Allāh bless

« خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدِي لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّمَاهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَاسْتَوْا عَلَى مَاءٍ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ فَقَالُوا : أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ وَلَبَسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مِنْهُمْ مَاءٌ، فَجَاءَهُ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعُ رَأْسِهِ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ : حَبَسْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسَ وَلَبَسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مِنْهُمْ مَاءٌ !

فَقَالَتْ عَائِشَةُ : فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْمَعُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَنْتَعِمُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخِذِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

1 That against the Bani Al-Mustaliq in the year 6 A.H., when the incident of the slander of 'A'ishah took place.

2 The narrator is doubtful as to which, both places being between Makkah and Al-Madinah.

3 'A'ishah gives his name instead of saying 'my father,' because his reproaches did not seem to her fatherly.

4 Implying that he lectured her unsparingly.

AL-AZHAR REVIEW

Published By AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة مختصر صحيح البخاري

للمستاذ ابراهيم عيسى المومني

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

By

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

IN THE NAME OF ALLAH THE
ALL-LOVING THE MOST MERCIFUL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

BOOK VII

الكتاب السابع

On Dry Ablution⁽¹⁾

كتاب التيمم

— ١ —

CHAPTER I.

On the word of Allāh (be He exalted): "... and if ye fail to find water², then perform a dry ablution using clean dust, stroking your faces and hands with it".

1 We are informed by 'Abdullāh b. Yūsuf, who had it from Mālik, through 'Abd ur-Rahmān b. Al Qāsim, through his father, through 'A'ishah the wife of the Prophet (Allāh bless him and give him peace), who said:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: «وَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ»:

١ - حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت:

1 The original meaning of تيمم is to aim at or go towards. The expression in the Qur'ān تَيَمَّمُوا "Make for clean surface earth," has become so established that usage has given it the meaning of 'perform a dry ablution, etc.' (Surah 5:6).

2. Or according to Al-Baidāwī: "...if ye are unable to use water."

تكرم حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

لوفود الممالك الاسلامية الى مؤتمر فلسطين بالفاخرة

كلمة قيمة لفضيلته في وجوب تعاون المسلمين

رأى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر أن يكرم وفود الممالك الاسلامية الى مؤتمر فلسطين ، باسم الاسلام ، وباسم مصر ، وباسم الجامع الأزهر ، منابة العلوم الدينية للعالم الاسلامى كله ، فتفضل باقامة حفلة شاي في كلية أصول الدين دما اليها كبراء مصر وعظماؤها ورجال العلم والادب فيها حتى بلغ عدد من لبوا الدعوة نحو ثلاثمائة . وقد أعد فناء الكلية الرحب أحسن إهداء لوضع الموائد فيه في أجل تنسيق ، وصنفت عليها أطباق القطائر ، وصحاف الفواكه ، وأباريق الشاي ، يتحلقها طاقات الورود والرياحين الفضة . وأخذ المدعون يفدون زرافات ووحدا ما حتى حفل بهم المكان وازدان ، وفي نحو الساعة الخامسة شرف مكان الاحتفال حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام ، شرف المدعون للسلام عليه ، فكان يحبيهم عما عهد في فضيلته من المشاشة والبشر ، وكانت ثلة من الجنود تحافظ على النظام أمام باب الكلية .

جلس المدعون حول الموائد ، وأخذوا يتناولون مائدة وطلب ، وهم يتبادلون أطيب السمر ، حتى غربت الشمس وأصبحت المصابيح الكهربية ، فزاد ذلك في رواء المكان ، وقام كثير من المدعويين فأدوا صلاة المغرب ثم عادوا . ولما عاد فضيلة الاستاذ اتجهت اليه القلوب والابصار ، توقعا لسامع كلمة من كلماته الرائعة ، فالبث أن نهض لا لقاء كلمة في هذا الحشد الكريم ، وقد تقلنا هذه الكلمة هنا لناخذ قسطنا من إذاعتها مع المذيعين لها من الجرائد والمجلات ، ولا إحصاء كل ما يقوله فضيلته من كلماته الطنانة التي يضمنها من عوامل الايقاظ والتنبيه ما لا يستطيع غيره أن يضمن مثله في العبارات الموجزة ذات الدلالات البعيدة المدى القوية التأثير في النفوس .

فاليك كلمة فضيلته :

حضرات الاخوان :

سمعتم وقرأتم خطب حضرات السادة أعضاء مؤتمر فلسطين ، واطلعت على أسانيدهم ، وتبينتم منها وجه الحق في قضية فلسطين ، كما تبينتم ما يمانيه العرب ويحملونه أو يحملونه في سبيل قضيتهم العادلة .

وقد انتهى المؤتمر الى تلك القرارات الحكيمة التي أصدرها ، والتي نرجو رجاء قويا أن تؤتي ثمراتها المنشودة بفضل الله ، والله قوي عزيز .

وأنتم لستم بعد هذا بحاجة الى أن تسمعوا مني كلمة في هذه القضية ، وما أنا بحاجة الى إبداء رأي فيها ، فقد علم رأيي منذ اجتماع جماعة كبار العلماء ، ذلك الاجتماع الذي أسفر عن رأي واضح ، وعن نداء قوي لموازرة قضية فلسطين .

وجماعة كبار العلماء تمثل رأي الأحرار تخيلا صادقا ، بل تمثل رأي علماء الاسلام ، غير أنني أراني بحاجة الى تحية صيوف مصر للكرام ، باسم الأزهر ، أقدم جامعة في العالم ، وأكبر معهد إسلامي يقوم على حمل رسالة الاسلام وثقافة سلف المسلمين ، وبحاجة الى شكرهم على تلبية نداء مصر ، وتجهيزهم سرا طويلا للذود عن الحق ، والدفاع عن المظلومين ، أولئك الذين لا يجاهدون طمعا في مقام يأخفونها ، أو سعيا وراء قطعة من الأرض يقتطمونها ، وإنما يذودون عن أوطانهم ، ويدعمون من يريدون إخراجهم أو المظاهرة على إخراجهم .

فهم على جادة الحق في دائرة العقل والقانون ، وقضيتهم من الوضوح والجلاء بالوضع الذي لا يحتاج الى دليل ولا يفنقر الى برهان .

أيها الاخوات :

لا يعلم الخير إلا الله ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد تكون قضية فلسطين وما لابسها من الدواعي الى الايمان بضرورة التعاون والوحدة إيمانا صادقا يحمل على تحقيقها ويدفع تردد المترددين .

ونحن نعيش في عصر طغت فيه شهوات المادة وقوى سلطانها ، وتقدمت القوة ولم يبق للقانون الأخلاق بين الأمم ولا لقواعد العدل نصيب . وقد لمسنا تلك الحقيقة في الأيام القليلة الماضية ، وعرفنا حكمة الأوامر الالهية من وجوب الإعداد ، وعرفنا أن الشريعة يجب أن يكون لها حي من القوة ، وعرفنا حكمة الآية الكريمة :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوي عزيز » .

وقد أوحدت هذه القضية فرصة مباركة تعارف فيها زعماء أمم مختلفة ، وسابقة طيبة للتعاون على الخير ودفع العدوان . ومصر بلد طيب يجمع صفتين : الاسلام ، والعربية ، فمن يرم هذا القطر على أنه عربي فقد أصاب نعيته ووجد أهلا ، ومن يرمه على أنه بلد إسلامي فقد أصاب غرضه ووجد إخوانا .

كلمة الأستاذ الأكبر

فهى لهذا خير أمة تصلح صلة وصل بين الأمم العربية والأمم الإسلامية .
وقد نتم الله على هذه الأمة بمليك مطر على حب الخير والبر بالإنسانية ، ورزق من الصفات
العالية : صفات الشجاعة والأقدام ، وحب العلم ، والعناية بسيادة الإسلام وقواعده — ما نرجو
أن تحياه حياة سعيدة ، وأن تشرق هذه الحياة على جيراننا وإخواننا من الأمم التي نحبها
وتربطنا بها روابط لا قدرة لمخلوق على قصصها ، ذلكم الملك المعظم هو حضرة صاحب الجلالة
مولانا الملك فاروق الأول ، أجزه الله ، وأدامه ذخرا للبلاد !

وإنى لأرجو أيها السادة أن يكون هذا المؤتمر فاتحة خير لمؤتمرات دائمة مستقبله تبث
فيها أمراض الشعوب الشرقية والإسلامية ، وبصدر عنها ما يصلح به هذه الأمم في أحوالها
المختلفة ، حلقة ودينية وعلمية واجتماعية ، وما يقرب بين الأمم الإسلامية في عقائدها وفقهها
وآمالها ، ويعود بها إلى الوحدة التي طلبها الإسلام .

« إن هذه أممتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

أشكركم أيها السادة على تلبية هذه الدعوة ، وأسأل الله للعقيم منكم وللمصافر سلامة
وسعادة . والسلام عليكم ورحمة الله !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشبهات العلمية على الأديان

تحليلها ودحضها على أسلوب العلم نفسه

يهم المدافعين عن الاسلام في هذا العصر أن يعرفوا جميع الشبهات العلمية التي يدلى بها فلاسفة العهد الحاضر على الأديان ، للتدليل على أنها لا تتجه الى الاسلام . لذلك أوجو أن يمدنرنا القراء إن بسطنا لهم هذه الشبهات بسطاً بكل ما تحمله من نتائج قريبة وبميدة ، مع التعقيب عليها بما يثبت أن الاسلام بمنجاة منها .

الفيلسوف الكبير (جيو) Guyo الفرنسي كتاب أسماه (اللادينية المستقبلية) أودعها أمهات الشبهات على الأديان ، وقد طبع مرات كثيرة فنقتطف منه تلك الشبهات فهو أوسع مصدر لها ، قال :

« مما قرره النقاد المعصرى للأديان أمر جدير بالنظر ، وهو أنه قد دلت مباحث المسيو روسكوف والمسيو ريفيل والمسيو جيرادوريل بأنه يستحيل القول بوجود أم في عصرنا هذا على سطح الأرض محردة عن ديانة أو عقائد خرافية حتى في الأمم المتوحشة ، وقد صار الانسان كأنما متديننا بسبب أنه أعقل من غيره من الحيوانات .

« وغير هذا فإن الآثار الباقية من عهد الانسان قبل التاريخ ، تدل بواسطة ما وحدث من الطلائع والمقابر وقطع من الجماجم منقوبة بقصد التعليق ، على وجود الدين إذ ذاك .

« إذن فتدين الانسان يمكن اعتبار وجوده بطريقة لا تقبل الجدل من عصر الحجر المصقول .

« وإذا انتقلنا من الامور المحسوسة الى الظنون ، فيمكننا أن نقول بأن الانسان قبل مائتين وخمسين ألف سنة كانت له عقائد مبهمه سطحية ، ولو لم يكن الى ذلك العهد قد شمر بوجود احترام للموتى يحمله لأن يحفر لهم قبورا ، ولا اتخذ لنفسه صنما يتقرب اليه بالعبادة .

« هنا نقطة ثابتة يمكن قبولها ، ولها نتائج هامة فيما نحن بصددده : ذلك أن الديانة لما لم يكن أصلها من عالم علوى (هذا رأي) فقد ترفت تدريجيا على مقتضى نوااميس مننظمة عامة ، وتولدت من أفكار ساذجة مهمة تناسب تلك العقول الساذجة الاولى ، ثم تدرجت مثرقية حتى وصلت الى مستوى المدركات الكثيرة التركيب ، العظيمة القيمة التاريخية ، كما هي عليه الآن . من هنا

ليس للاديان أن تنوم أنها لم ترقى من أصل بسيط ساذج ، بل هي ترفت على غير علم منها مودة
بحركة الترقى العام الى الحالة التي هي عليها الآن

« بقى علينا أن نحدد تلك الأفكار الأولية التي كانت أساسا للاديان . هنا يتبدى الخلاف
بين رؤساء العلم الدينى (يريد بهم العلماء الباحثين في الاديان لا العلماء الدينين) ، فبعضهم
يعلمون الاديان بواسطة وجدان عال نبع من صميم القلب ممثلا للحقيقة العلية بإيماء إلى ،
وبعضهم يعلمها بقوله إنه خطأ من الانسان في التحرية ، وخطأ من عقله في الاستدلال .
فالاولون يرون أن الدين اندفاع من العقل الانسانى ليسمو عن حضيض الطبيعة التي نحن
متورطون فيها الى مكانات الرفع المملوكة . والآخرين يرون أنه نشأ من تعليقات الانسان
للحوادث الطبيعية العادية تعليلا باطلا ، سواء في ذلك الحوادث التي تقع تحت حسنا أو نجس
في ضمائرنا . فهو في نظر أحد الحزبين أرقى من العلم ، وفي نظر الحزب الآخر هو العلم في طفولته
جميع الفلاسفة المعايين مثل أتباع سقراط وريمان وماتيو أنقوله يمجدون في الاديان
حرثومة مذهبهم الرافى ، ويحنون رءوسهم إحلالا لها على حال توهم أنها استهوائية لولا أن لسان
حالمهم يشعر بأنهم محضون فيما يفعلون . فهم يرون في الاديان شرف وأبقى ما أنشأه العقل
البشرية . أما الفلاسفة الحسية فلا ترى في أصول الاديان إلا مارآه أجوست كومت وهو أنها
وثنية حشنة .

« من هنا يرى القارئ أن مسألة البحث عن أصل الاديان على مقتضى الأسلوب الجديد
الذى تتطلبه روح العصر الراهن هي من المسائل العويصة الحل . وقد كان الناس يتساءلون
من زمان بمسئد : هل الدين وحى إلهى أم وضع طبعى ؟ فانتبت بالناس الحال اليوم لأن
يتساءلوا : هل الدين مطابق للطبيعة الحقة ، أم هو نتيجة ضلال من العقل أو ضلال من النظر ،
كان حدوثه أمرا مقضيا ثم هدبه العلم وأوضحه على تعادى الأزمان ؟ ويتساءلون أيضا ، هل الإله
المذكور في كتب الاديان هو نفسه ذلك المعبود الوهمى الذى كان يعبد الوثنون فكبره
المندنيون وزهوه على نسبة ارتقاء عقولهم ؟ » انتهى كلام الفيلسوف جيو .

ونحن نتصدى لتحليل هذا الكلام والرد عليه ، لأنه في نظرنا يشتمل على قضايا تحكيمية
لا تدعو للضرورة اليها ، بل يوجد في العلم نفسه ما يناقضها .

فقول الفيلسوف جيو الاديان ليست من أصل عارى يدلل أنها نشأت ساذجة مبهمه ،
ثم ترفت وتركبت على مقتضى نوااميس منتظمة عامة ، فلا يصح أن يكون دليلا على أن الدين
أصله رضى . فإن العقل الانسانى نفسه نشأ ساذجا مبهما ، ثم ترقى وتركب على مقتضى نوااميس
منتظمة عامة ، والعقل ليس بأرضى الأصل لأنها مجردة منه ، والمجرد من الشئ لا يعطيه ، فأصل
العقل عارى كما هو بدى ، وكونه نشأ ساذجا مبهما لا يقدح في ذلك . فالحكم على الدين بأنه

أرضي لأعلى لأنه نشأ ساذجا مبهما ثم ترقى — تحكم لا يسوغه عقل ، ولا تقبله فلسفة إلا الفلسفة المادية ، وقد تحطمت أصولها أمام الفروقات الروحية التي توالى في التسمين السنة الأخيرة .

وكيف لا يعتبر الدين علويا وهو ينزع الى التقرب من موجد الخليفة بالإخبات اليه ، والتقرب منه بحرمات النفس من مشتهياتها ، وتنقيد رغباتها وزهاتها ؟

أليس للأصل حق في توجيه التزعة التي يولدها في النفس ، فلو كان ذلك الأصل أرضيا فهل يدفع بالنفس الى ما فوق الأرض ؟ ولماذا ؟ فلماذا لم يوجد حبيب وجيه لإحداث هذا التوجيه المعاكس فلا يمكن أن يعقل ، فلننظر ماذا يقوله الفلاسفة الماديون بعد ذلك لعلنا نصادف ذلك السبب في أقوالهم فتحاكمه الى العلم .

يقول جيو - إن بعض الباحثين في أصل الدين يرون أنه نشأ من تعليلات الانسان للحوادث الطبيعية تعليلات باطلا ، وعلى ذلك فيكون الدين هو العلم في طفولته

ومعنى هذا أن الانسان رأى أن الانهار قد تظنى فتفرق أهله وحرته ، أو تصيب ماشيته وتمتعه ، ورأى الصواعق تنقض فتحرق كوخه وتجتاح بمص ذويه ، ورأى الرياح تركب رأسها فتهدم بيته ، وتقتلع أشجاره ، أو تسقط ثمراتها ، ورأى السيول تصيبه فلا تبقى في طريقها من أشياءه ولا تذر الخ ، فنظر في علل هذه الحوادث كلها فلم يجد لها تعليلات غير هذا : وهي أنها من صم روح أو أرواح شريرة تنصب عليه لاهماله شأنها ، فتنقم منه بإثارة هذه الجوائح عليه ، فعمله ذلك على وجوب الاعتراف بسلطانها وبمصادتها ، وتقرب القرابين لها ، وإهداء أمن ثمراته اليها ، وتعاذى في ذلك وهذبه وتقمحه على نسبة ترقى عقله حتى وصل الى توحيدها ، والى تنظيم العبادات لها وتجريدها ، واعتبر ذلك وحيا إلهيا ، ناسيا أصلها الساذج ، والأطوار التي دخلت فيها تدريجيا حتى وصلت الى ما وصلت اليه .

نقول : وهذا أيضا لا يسمع به العلم ، ولا يسمع به النظر الصحيح ، لأن شيوع الدين في كل مكان ، وقدمه في النوع البشرى ، بحيث لم يصادف الباحثون في أقدم عهود البشرية أمة أو قبيلة بغير دين — يشمر بأنه غريزي في النفس البشرية ، فإن كل ما علم عنه يدل على أنه كذلك ، فمن شأن الفريضة الطبيعية أن تم جميع أفراد النوع ، وأن تكون فيه اضطرارية لا اختيارية ، وأن تكون ذات طبيعة واحدة ، وذات وجهة واحدة . وهذا كله ينطبق على الدين في النوع البشرى .

فلماذا لم يكن الدين غريزيا لو وجدت أم وقبائل غير متدينة ، كما هو شأن كل أمر غير غريزي . ومن الغريب أن الأمم عاشت منعزلة بعضها عن بعض آمادا طويلة لا تحلم واحدة منها بوجود الأخرى ، فلما تم اتصالها بعد استكشافها وجدت أنها متدينة على الأسلوب نفسه الذي عليه

كل أمة في الأرض ، أفلا يدل هذا دلالة محسوسة على أن التدين غريزة فاهرة في النفس البشرية ، وليست صفة مكتسبة من قبل ؟

يقول الفلاسفة الماديون : إن الدين نشأ من خطأ في التعليل ، وهل الإنسان في سذاجته كان يفرع الى تعليل الحوادث التي تصيبه ، كما يفرع اليها الذي وصل عقله الى درجة ما من درجات الارتقاء ؟ هب أنه كان يلجأ الى التعليل ، وهل يصل أفراد النوع كلهم الى علة واحدة ، وعلى نوع معين منها ، بحيث لا يوجد خلاف بين جميع أفرادها إلا في التسمية فقط ؟

هذا بعيد عن النصور ، ولا يمكن قبوله لا علميا ولا فلسفيا ، وإني أنجب للذين يقولونه وهم يرون وهيه الى هذا الحد ! ولكمهم مضطرون لقبوله على علانه ، لأنهم إذا لم يفعلوا اضطروا للقول بوجود غريزة دنيوية في النفس البشرية . وهذا يضطرم للبحث عن مصدرها ، فاذا اتجهوا هذه الوجهة استند عليهم باب الوراثة الحيوانية ، لأن الحيوانات مجردة من التدين ، بل قال كبير الفيزيولوجيين الأستاذ كارتاج الفرنسي إن العارق المميز بين الإنسان والحيوان هو التدين ، أما سائر الصفات النفسية من حب وبغض وأمن وخوف الخ ، فهي شائعة بين الإنسان والحيوان على أقدار متفاوتة .

وإذا لم تكن تلك الغريزة وراثية فكيف نشأت في النوع البشري طفرة ، ومثال هذه الطفرة محال عديم ، لأنهم لو قالوا بإمكانها اضطروا لنسبة التدين الى عامل فوق الطبيعة يكفى لترسيخه في نفس الإنسان وتعميمه بين جميع أفرادها ؟

ولما كان من المتعذر قبول رأى الماديين في أن التدين أصله تعليلات ماطلة للحوادث الطبيعية بعد ما حللناه التحليل الذي رأيت ، فلم يبق إلا القول بأنه غريزة في النفس البشرية غرزها فيها بارئها . وهذا ما يصعب عليهم أن يقبلوه ، لأنهم لا يقولون بوجود بارئ للكون ، وما دئنا نحن معشر الذين نعتقد بوجود بارئ الكون أن نكلف تعليلهم للتدين بتصديق ما لا يعقل ؟

من شبه هؤلاء الماديين أن الدين نشأ ساذجا ثم ترقى بترقى العقول والعلوم ، وهذا القول منهم غريب لأن الدين ينحصر في كلمتين : الخصوع لموحد الكون ، والتقرب اليه بالصالحات . والقرآن الذي هو آخر الكتب السماوية نزولا يصرح بهذه الحقيقة ، قال الله تعالى : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ، وقال تعالى : « وأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي أن الدين الحق هو ما فطر الله النفس الإنسانية عليه من الاعتقاد بقدرته لاحد لها صورت هذا العالم وأبدعته ، ومن العمل بما هي مفطورة عليه من القوانين الناعمة على التكامل .

من هنا يرى أن الدين الذي يعلن القرآن أنه أصل الأديان كلها هو من البساطة بحيث

يعبر عنه بكلمتين : (الإيمان والاحسان) ، وكل ماورد بعد ذلك في القرآن فهو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وتفصيل للاحكام وتعليم للانسان وجوه العبادة الموصلة الى الكمال النفساني فاذا كان الدين من البساطة عند هذا الحد ، كما يصرح به آخر الاديان نزولا ، فمن أين نشأت شبهة الفلاسفة الماديين ؟ إنها نشأت بلا شك من ذهاب قادة الاديان المختلفة مذهب التوسع في فهم هذين الاصلين ، فتكوت شروح وتأويلات نقلها الخلف عن السلف ، وزادوا عليها وقدموها للشعوب باعتبار أنها من الدين ، فأصبحت الاديان بذلك مجتمع أفكار بشرية ، صبغت بصيغة إلهية ، ثم نجتجت عمور الزمن عليها ، فضاعت في أطوارها بساطة الدين الفطرية ، وجاءت الفلسفة المصرية تناقضها الحساب وتنازعها السلطان على الأرواح .

ولكن الاسلام لبقاء كتابه بمنجاة من التعريف ، بقيت آياته الموحاة ظاهرة للعيان ، ومنبذة عن الشروح التي علقت عليها ، فانا وقع نقد من العلم على شيء من أشياء المسلمين ، فلا يقع على الأصول الموحاة ، لأنها أصول علمية عامة اتفق البشر على صحتها وإطلاقها ، ولكنه يقع على الشروح البشرية التي علقت عليها ، وهو مما يمكن الرجوع عنه الى الصواب . وبما أثر عن شراح المسلمين أنهم كانوا لا يأتون بفهم لهم إلا عقوبه نقولهم : (والله أعلم) ، ولم يحرموا على أحد نقده وتجرجه . ولولم يصب المسلمين فتور في بضعة القرون الأخيرة ، ولم يجمدوا على ما وجدوه لا يذكرون فيه ولا ينقحونه ، لكان كل ما شرحت به آيات القرآن موافقة اليوم لأقصى ما وصلت إليه العلوم الكونية من الثمرات العلمية .

على أنه مهما تكن الحال فان جوهر الاسلام لا يلزمه ما عسى أن يكون قد أخطأ بمصهم في فهمه ، أو قصر فيه عن مداه تأثرا بأحوال عصره ، فشبه العلم التي أوردها الفيلسوف (جيو) لا تتناول الاسلام فيما تناولته من سائر الأديان .

يقول (جيو) : إن الفلسفات الحسية لا ترى في الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية حشنة . فبب أن أقدم ما يعرف عن الأديان هي الوثنية الخشنة ، فهل هذا ينفي أن العاطفة التي دعت إليها أرقى وأشرف عاطفة بشرية ؟ ألم يبدأ كل علم عال وسواسيا خشيا فما زال يترقى وينهذب حتى وصل الى درجة عالية من النضج والصقل ؟ فهل الميول التي دعت الى هذه العلوم يتدح في سموها أن لا يصل الانسان الى مراميها طرفة ، وهو محتوش بكثير من القواطع المادية ، والعوائير الطبيعية ؟ أليس يدل على سموها وعراققتها في الكرامة أنها دفعت الانسان رغما عن هذه القواطع والعوائير الى عايات بعيدة من فهم بعض الوجود ، وفهم شيء من قواه ونواميسه العامة فيه ؟ فكذلك الدين لا يتدح في شرفه وكرامته أن لا يكون الانسان قد فهمه على أحسن وجه وهو في أخس أدوار جهالته ، وأحلك عهود حمايته . ومن يوفق الله للاطلاع على دنوحات العلم في الشؤون النفسية في القرن الأخير تتبين له حقائق ينحل من أنه كان يسعى في إبطائها بدون دليل .

محمد قريبر وهري

التفسير

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والعصر إن الإنسان لئ خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » :

ذكر تعالى التواصى بالصبر بعد التواصى بالحق مع كونه داخل فيه ، تنويها لشأنه ، وتنبيها على رفعة قدره . أو تقول : لما كانت هذه الخصال أعنى قول الحق وملازمة الحق والتواصى بالحق في الغالب تجلب لصاحبها من الأذى ما قد تكرهه نفسه ، ذكر تعالى التواصى بالصبر وإن كان ذلك من الحق ، اعتناء به وحشا عليه ، فأن من لم يتفرع بالصبر قل أن يثبت في مقام الدعوة إلى الله عز وجل . وقد قال لقمان لانه في وصيته : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » يعنى أن ذلك من خصال ذوى العزم . وقال تعالى حكاية عن الرسل « ولنصبرن على ما آذيتنونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » وقال تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرة جليلا » وقال تعالى « ودع أذاهم وتوكل على الله » وكان بعض السلف يقول : ما كنا بعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى .

وبالجملة : فالدين الإسلامى لا يرضى من نبيه إلا أن يكونوا من الشجاعة في الدروة العليا ، ومن الثبات بالحمل الأقصى . وانظر إلى تشجيع المسلمين بمدح الخيل التي تعدو ضبعا ، فتدوى قدما ، فتغير صبعا ، إلى آخره . وليس أحض على الشجاعة من هذا فليت شعري ماذا أصاب المسلمين حتى أصبحوا أجبن الجبناء ، وأذل الأذلاء ، يدهانون في دين الله ، ولا يبالون امتثال أوامر الله ، ينفرون من الله ويمدون أيديهم إلى أسبابه ، ويفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه ! ولا غرو فن فرط في تعاليم ربه ، وجهل سفته في خلقه ، فلا بد أن يكون ذليلا عليلا ، وكيف لا يذلون وقد أمرهم الله أن يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضا ، أو كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر ، فأصبحوا متفرقين لا يولى بعضهم على بعض ، بل متقسمين متصارعين ، فما أجدرهم بالقتل والمهانة !

وإذا فسد الانسان فلا تسلم عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان ، وما يحيط به من بلاء وشقاء . وإن شئت فانظر الى الامة الاسلامية حينما كانت متمسكة بدينها عاملة بتعاليم بيها لم تتفرق بها السبل ، ولا زغت بها الأهواء ، كيف امتد ملكها في كل ناحية من نواحي المعمورة ، وكيف صمروا البلاد وأصلحوا العباد ، وكيف أخرجوهم من الظلمات الى النور باعتراف أساتذة أوربا المبرزين ، مثل جوستاف لوبون الفرنسي الذي يقول : « ما رأى التاريخ فاتحاً أعذل ولا أعظم من العرب » ومثل توماس كرليل الانكليزي في كتاب الأنطال ، ومثل درابر الأمريكي وغيرهم . وبالجملة فقد كان المسلمون إذ ذاك أعر الأمام على الاخلاق ، وأرفعها على الاطلاق ، فكانوا ملوكاً في الأرض ملوكاً في السماء ، ثم انظر الى حالهم اليوم وقد أصبحوا بحيث يطعم فيهم كل طامع ، ويهزأ بهم كل قوي ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لنأمرن بالمعروف ولننهون عن المنكر أوليسلطان الله عليكم شراركم فيدهو خياركم فلا يستجاب لهم » . ويقول عليه السلام . « توشك الأمم أن تتداعى لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والاموال كما تتداعى الآكلة الى قصعتها ، فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل » (أي قلة شجاعتكم ودناءة قدركم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم) ثم قال في آخر الحديث . « وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة مسمك ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة . وذلك من معجزاته الباهرة صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وأي ظلم أكبر من ترك التعاون بين أفراد المؤمنين ، وقد قال الله فيهم . « إنما المؤمنون إخوة » . أي ظلم أكبر من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى من العلماء والوزراء والأمراء ، وقد روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما وقعت بنو إسرائيل في المعامى نهبهم علماءهم فلم يبتهم ، فجالسهم في مجالسهم ، وواكلهم وشاربهم ، فغضب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ويقول صلى الله عليه وسلم . « إذا هابت أمتي أن تقول للظالم إنك ظالم ، فقد تودع منهم » وقال (بابي هو وأبي) لا تقدر أمة لا تقول للظالم إنك ظالم ، أو كما ورد .

لقد أصبحنا والله في خسر عظيم ، وشر جسيم ، وصر ما أعظم تسمير لقوله : « إن الانسان لئي خسر » .

وليس يخفى على القارئ الكريم ما وصانا اليه من احتلال الأحوال وضياع الأموال وانتهاك الحرمات واقتراف المنكرات ، وإصلاح الطواهر وفساد السواط ، وفقد الاخلاص ، وذبوع الأغراض واستحكام الأمراض ، والمواظاة على القبح ، وعدم انفعال النفوس بارتكاب الرذائل ، وضياع الفضائل ، وكثافة القطاء على العقول حتى أصبحت تنكر اليقينيات ولا تعترف بالدهيات ، وكأنما اقلبت الرؤوس وانتكست النفوس ، وانطمست البصائر وفسدت الفطر ،

ومعيت القلوب ، وأعضل الداء فمعجز الأطباء ، وضاق عنه نطاق التفسير ولم تنسج له أودية التحذير ، فإننا في عصر أولئك الذين تمجيدك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، من ذوى اللسان الثائرة والقلوب الخوارة ، والشهوات القاهرة والنفوس الفاحرة ، والأفكار الخيالية والتزغات الشيطانية ، وما أجدرهم بما قلناه منذ زمان بعيد :

كل شيء يخاف منه الآنا قد مضى من يواقب الديانا
ليس إلا شقائق وكلام نغفوه كي يخبس — مدح الانسا
وأمر شكية ونسوخ في رياء ياهول ما قد دهانا
من درى الناس شك في كل شيء — بدا منهم كائنا ما كانا

وليس يخفى عليك أن حوادث القتل والسرقات ، وإحراق الزروع الآن في بلادنا المصرية ، وصلت إلى حد أنها ترتكب جهارا نهارا .

وإن شئت فانظر إلى الحر التي فعت الأفاعيل بالناس ، وليت شعري لماذا لا تمنعها الحكومة الرشيدة المسلحة ولو اقتداء بأمريكا المسيحية عند ما تمنعها لا تنتشر أضرارها وكثرة مفاعدها ! أفلا تمنعوها أيها الكبراء والوزراء والنواب والشيوخ ولو بحافظة على دستوركم الاسلامي الذي يصرح بأن مصر دولة إسلامية ، أم أتم من الذين يقولون مالا يفعلون ، ويكتفون بالامتناء دون الحقائق ، فإن لم يكن لديكم وازع من دين فليكن لديكم وازع من الإشفاق على أنساء أمتكم ، والخطوب عليهم من صياح مصالح الدنيا فضلا من الدين الذي جعل الحر أم الخبيئات ، وحذر منها كل التحذير .

وإن شئت أيها القارئ الكريم وجهة أخرى فانظر مسألة السفور والفحور ، تمجدها ندى العيون وتذيب القلوب ، فقد وصلنا فيها إلى حد الحيوانات بل شد وأسكى ، وصر أين الحيوان نفس الانسان واستعداده الغريب .

ومن المفزيات المبكيات أنا نرى كل يوم من تلك الحوادث ما يندي له جبين الحياء ، ولا تفكر في شيء يرضى النخوة والرجولة ، ولا نعتنى لصراخ الدين أو صوت الضمير ، ولا يلتفت لما توجبه الآداب العامة (ولو على سبيل النفاق) .

ولا بأس أن نقول لك إن الفلاسفة قرروا أن هناك قانونا طبيعيا ينبع مقتضيات الأشياء وخصائصها الذاتية ، وقانونا أدبيا يمدح عليك ضميرك وتؤيبك عليه نفسك ، وقانونا شرعيا يكل به الارشاد وتتم به السعادة ، وهو القانون الذي نعت الله به الأنبياء .

وبكل أسف نقول : إننا خالفنا القوانين الثلاثة : فلم نصح لصوت ضميرنا ، ولم نعمل بشرها ، ولا نظرها لمقتضيات الحقائق ولوازمها ، وإلا فن ذا الذي يقول إن اختلاط البنين والبنات وحرية الحركات في الروحات والغدوات لا تجلب ، قطع الولايات وأكبر المخطورات ١٢ وهل ذلك

التعليم السطحي القليل الصَّيِّل المتنوى المعوج في البسات والبين يمكنه أن يقاوم ذلك الأمر الطبيعي الذي هو أعلق شيء بالنفوس، وأكبر ما رأيت وما سمعت سلطاناً على الطباع البشرية، كما يشهد به العقل والحس والشرع والفلسفة ؟ وما كنا نظن أن أحداً يجادل في الحسيات أو ينازع فيما يرى من المشاهدات، ولكن الانسان هو الانسان .

أما كان يجب على الحكومة ونواب الأمة وشيوخها أن يفكروا في تلك المسائل التي ستهدى الأمة إلى مكان سحيق فتسن من القوانين ما يوافق دين الأمة ويحقق مصلحتها، ويمنع عنها تلك الآوثة الفتالة، وإلا فاثمة النباية عن الأمة، وما معنى الحكومة والزمامة، وقد قال صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ! وأظن أن من الواجب القانوني ألا نسترسل في هذا الموضوع أكثر من هذا . فلقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان، ولو شئنا لسقنا أحاديث كثيرة في الرعاة الذين لم يقوموا بما يجب عليهم، فلنقف عند هذا الحد .

وبعد — فشتان ما بين قانون يضعه أرباب النفوس المجهولة على الجهول والضعف والهوى الذي يضل عن سبيل الله، وبين القوانين التي هي تنزيل من حكيم حميد .

تلك القوانين الوضعية التي تبيح الزنا رسمياً وتحمي فاعليه وفاعلاته . ولبت شعري لماذا لا يمنعونه رسمياً ولو اقتداءً بالمنحلترا، بل تلك القوانين التي تبيح الكفر العلني وتحمي معتنقيه محافظة على تلك الحرية التي تقوق حرية البهائم، وما مثلها عندي إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حريته، فهل تراك أحدثت إليه ؟ تلك القوانين التي تجعل دروس الدين في المدارس أسراً ثانوياً لا يترتب عليه نجاح ولا سقوط، فأول ما تفرس في نفوس الشُّعْراء بهذا العمل أن الدين في محل الإهمال ولا ينفى أن يعنى به أو يلتفت إليه، وهي طريقة عملية في التربية ترك في نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين وأهون عقيدة فيه . وما هي ذى أمامنا حوادث فلسطين التي تدمى العيون وتذيب القلوب، وكان يجب أن يصرخ لها المسلمون في كل بقاع الأرض، ولكنهم منفردون متخادلون (وهو ما أسقطهم في نظر الأجانب) فصاروا لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، حتى إن الانكليز غيروا ما هو المعروف من سياستهم استهانة بالمسلمين واحتقاراً لهم، فقد كان المعروف من سياستهم أنهم يحترمون شعور المسلمين ويأبون أن يثيروا الأحقاد والضغائن، أو يهيجوا السكامن في النفوس، محافظة على ما بينهم وبين الأمم الإسلامية من العلاقات والروابط .

ولكنهم في حوادث فلسطين غيروا خطتهم وخالفوا سياستهم، كأن المسلمين لا وجود لهم، وإلا فكيف يرتكبون ذلك الظلم الصارخ الذي لا مبرر له بين جميع المسلمين وبصرهم من أجل اليهود الذين هم أذل أمة في الوجود، ولماذا لا ينتصرون لهم أمام إيطاليا وألمانيا ؟ ولكن ضعف

المسلمين وعدم اتحادهم هو الذي أدى الى ذلك كله . ووالله إن لم يتحدوا فسيرون أضعاف ذلك !
وقد أهاب بهم جماعة كبار العلماء في حلتهم التي انعقدت في يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٨
ونصحوا لهم جميعا أبلغ النصيحة ، فعمى أن يشوبوا الرشد ، ويعملوا على نصرة إخوانهم التي
هي واجبة عليهم بمقتضى الدين والسياسة والانسانية .

كلمة ختامية للزعماء :

أرى من الواجب على زعماء المسلمين أن يتحدوا تمام الاتحاد ، وعلى الأمم الاسلامية ان تحمي
ورابطة الاخوة التي جعلها الله بين المؤمنين ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أو كالجسد
الواحد إذا تألم منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحنى ، كما علمهم نبيهم ، فوالله لو اتحدوا
تمام الاتحاد لحسبت لهم أوروبا ألف حساب ، ولأمسكتهم أن يوجدوا القوة الحسية فضلا عن القوة
المعنوية ، وكان يمكنهم بذلك إنهاء المعامل والمصانع ، وإعداد أنواع القوى كلها ، وجمع
الاموال اللارمة لذلك وهم أغنياء والحدثة ، وفيهم ممالك مستقلة ، فكانوا يستطيعون العمل
سرا وجهرا ، ويرسمون لذلك فيما بينهم خططا حكيمة ، ويسون قوانين مدروسة ، روفة ، الى آخر
مالا نرى الافضة فيه ، ولا نستطيع إظهار خوافيه ، وهو يسير عليهم لو وفقوا وأخلصوا ثم
غيروا الوجهة ، ولم يقولوا مثلنا نحن مصرىون قبل كل شىء : (وكان الواجب عليهم أن يقولوا
نحن مسلمون قبل كل شىء) ١١ ولو اتحدت أسيا وأفريقيا اتحاد أسلافهم لم تقدر عليهم
دولة في الوجود .

أسأل الله أن يصلح شئوننا كلها وألا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه ؟

يوسف الرمهورى

عضو جماعة كبار العلماء

حسب المرء عقله

قال طائوس وهو أحد أقطاب الفقه الاسلامى : « ما فلادة نظمت من در وياقوت بأزين
لصاحبها من العقل ، ولو ناصح المرء عقله لاراه ما يزينه مما يشينه ، فالمغبون من أخطأ حظه
من العقل .

قال شاعر :

يعسد رفيع القوم من كان عاقلا وإن لم يكن فى قومه بحبيب
وإن حل أرضا طاش فيها بعقله وما عاقل فى بلدة بفريب

الشيخة

حكم خروج النساء من بيوتهن

وما يتعلق بذلك من حقوق الزوجية

— ٢ —

ذكرنا في مقالنا المنشور في العدد الذي قبل هذا نص حديث عائشة المشتمل على حوازي خروج المرأة من بيتها لقضاء حاجتها غير متبرحة ، وبيننا بعض ما يتعلق بذلك الحديث من أحكام ، وقد بقي الكلام فيما يأتي :

(١) حق كل من الزوجين على صاحبه . (٢) معنى قوامه الرجل على المرأة ، وبيان التفاضل بينهما . (٣) بيان أن الشريعة الإسلامية تحرم إيذاء المرأة بالثتم والضرب والهجر .

بيننا في مقالنا السابق أن الشريعة الإسلامية تحترم المرأة كل الاحترام ، سواء كانت زوجاً أو أما ، بل قد فضلت الأمهات على الآباء في الحقوق والواجبات . ولكنها شريعة الآداب الفاضلة والأخلاق الكاملة ، ففرضت على كل من الزوجين أن يسلك سبيل العفة والطهارة ، وأن يتجنب كل ما يوجب الريبة أو يضر بعلاقة الزوجية المقدسة ، فلم تفرض على المرأة التحجب وتغطية بدنهما عن الأعين لنقص فيها ، بل لما قد يقرب عليه من فساد مظنون أو محقق . وليست المرأة وحدها هي المستولة ، بل الرجل مثلها سواء بسواء ، فكما يحرم على المرأة أن تبسدي زينتها للرجال ، كذلك يجب على الرجل أن يفض بصره عن النساء اللاتي لا يحلن له كما أمر الله بقوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » ، وقوله : « قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » ، وقوله : « إلا ما ظهر منها » المراد به الوجه والكفان ، فانه يجوز كشفهما للحاجة ، لأن الشريعة التي تتيح للمرأة الخروج لقضاء حاجتها لا بد لها من إباحة كشف الوجه والكفين لصورة التعامل ، ولكنها مع هذا قد حاطته بقيد واضح يحدد الفرض الذي يريده الشارع وهو غض البصر ، وعدم النظر الى جزء من أجزاء المرأة الأجنبية بشهوة فاسدة . فغاية الشريعة دواء الفتنة وسد أبوابها من جميع الجهات . أما ما عدا ذلك من المصالح التي تستلزمها حاجة الانسان فلم تحمّل على أحد فيها من حرج .

والخلاصة : أن الدين الاسلامي قد وضع قاعدة لمعاملة الرجال والنساء تنطبق على مصالح الناس في كل زمان ومكان ، فقال للرجل : إنك قد تعاقدت مع زوجة ، فليس لك أن تتعدها الى امرأة لا تحل لك بأى شهوة من الشهوات . وقال للمرأة : إنك قد تعاقدت مع رجل على أن تكونى متعة له وحده ، فلا يحل لك أن تظهرى شيئاً من بدنك يستمتع به غيره من الرجال . ولما كانت الحاجة ماسة الى خروج المرأة لقضاء حاجتها ، أباح لها أن تكشف وجهها وكفيها إذا لم يترتب على ذلك إغراء الرجال بها ، واقتنائها بهم . فإذا لم تكن المرأة متزوجة انتقلت هذه الحقوق للقائمين بأمرها .

ومن هذا تعلم أن الشريعة الاسلامية لا غرض لها إلا صيانة المرأة والبعد بها عن مظان الشهوات ، والحيلولة بينها وبين فاسدى الأخلاق الذين يطمعون فى سلب غناها ، والقضاء على كرامتها . فالنساء اللاتي يخرجن متهتكات متبرجات طاريات إجابة لدعوة الإباحيين ، إنما يؤذين أنفسهن بالابتذال ، ويؤذين بناتهن ، وإخوانهن ، وأقاربهن ، بالانصراف عن تروجهن ، ويؤذين الصالحين من الرجال الغافلين بإثارة شهواتهم ، وإغرائهم على العروبة والفساد .

وكل ذلك شر وبيل ، جاءنا من فريق الإباحيين الذين يغرون النساء على الخروج عن طبيعتهن التي فطرهن الله عليها ، فلا يتركون فرصة تمر بدون أن يظهر واقيها ما تكفه أنفسهم من زلات فاسدة ، وشهوات ممقوتة ، مستبدلين على ما يشتهون بحرية الاختيارات ، وما أشتجنه هذه الحرية من رقى وصلاحية ، وهم فى ذلك غاطثون واهمون . وإن شئت قلت غالطون أو مغالطون ، لأنه لم يقل أحد فى العالم : إن الرقى منوط بالتبرج والتنهك وفساد الاخلاق ، وإنما الرقى منوط بالعلم والعمل وتهذيب الاخلاق ، منوط بأن يؤدى كل فرد من الأفراد واجبه الذى خلق له فى هذه الحياة الدنيا على الوجه الاكمل ، وليس من الممقول أن يكون التبرج والمجون وحرق حجب الفصيلة على صراخى ومسمع من الملائكة رقى وفلاحا .

وبعد : فلندكر حقوق كل من الزوجين على صاحبه : إن هذه الحقوق قد قررتها الشريعة الاسلامية على اكمل وجه ، فقد قسمتها الى قسمين ، قسم نصت عليه صراحة ، وقسم ناطته بالعرف والعادة ، فما اصطلح عليه الناس ، وجرت به عادتهم مما لا يخالف نصاً من نصوص الدين كان على الزوجين أن يقوموا به ، كما قال تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » . وليس الغرض أن كل ما يجب على المرأة من الحقوق يحجب مثله على الرجل ، بل الغرض أن على كل واحد واحدا يناسبه مثل ما على الآخر ، فالمثالة فى الوجوب ، أما الحرثيات المطلوبة من كل واحد منهما فانها تارة تكون متائلة ، وتارة تكون مختلفة ، فمن الحقوق المتائلة : الاخلاص ، وهو أن ينبعث كل منهما برغبة صادقة لا يشوبها رياء ولا يحاطها نفاق الى القيام بواجبه للآخر . فيجب أن يكون مصدر معاملة كل واحد من الزوجين لصاحبه

الحب الصادق والرغبة الصحيحة . فإذا فقد الاخلاص من الزوجين أو من أحدهما وحل محله الرياء والتمناق لفرض فاسد من مال أو جاه أو نحو ذلك ، فإن علاقة الزوجية تنهار عند أول صدمة ، بل يكاد يكون من المستحيل أن تستمر علاقة الزوجية خالية من شوائب الفساد إذا لم تكن متركزة على الاخلاص في المودة والحب الصادق . وقد وردت في هذا المعنى أحاديث كثيرة تحت الناس على أن يترهوا علاقة الزوجية عن الرغبات الخارجة عنها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « تسكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجهاها ، ولدينها ، فاطر بذات الدين تربت يداك » . رواه البخاري ومسلم وغيرها . فهذا الحديث يبين لنا العوامل التي تدفع الرجل الى الزواج ، ويرشدنا الى أن العامل الصحيح الذي ينبغي أن يكون مناط الزوجية هو مامل الدين والخلق ، وإن شئت قلت مامل العفة والاخلاص وحسن المعاشرة والقيام على تربية الأبناء والبنات تربية صحيحة ، فإذا لم تكن المرأة متصفة بهذه الصفات كان ما عدها من الصفات شرا مستديما ، فمن ظن أن الجمال وحده ، أو المال وحده ، يكفي في علاقة الزوجية فقد أخطأ كل الخطأ وأوقع نفسه في عذاب دائم ، وشقاء مستمر من حيث يخال السعادة والنعيم . وماذا عسى يكون حال الرجل الكريم إذا تزوج جميلة فاسدة الخلق لا يحول بينها وبين شهواتها وازع من خلق ودين ؟ ! وماذا يكون حاله إذا تزوج ذات مال لا سلطان له عليها فتتحكم في نفسها كما تتحكم فيه وهو خاضع دليل ؟ ! لا ريب في أن هذا قلب للنظم الاجتماعية الصحيحة ، وعكس لمقتضى الطبائع الانسانية بدون نزاع .

أما إذا أتيح للرجل أن يتزوج جميلة مخلصة ، أو ذات مال ودين تعرف لزوجها حقه كما يقوم لها بحقوقها ، كان ذلك سعادة لاشك فيها . فالفرض من كل ذلك أن تكون علاقة الزوجية مبنية على تبادل المودة والاخلاص بين الزوجين ، وإلا كانت فتنة وفساد . ومن حقوق الزوجية المتأثلة الأمانة والوفاء . فكل واحد من الزوجين متعلق بزمته حقوق يجب عليه أداؤها لصاحبه كاملة ، وهذا هو معنى الأمانة ، وهي مطلوبة من الزوجين معا بلا فرق . فيجب على كل واحد منهما أن يكون أمينا على عرس الآخر وماله ونفسه ، وأن يكون أمينا على سره . فإذا خان أحد الزوجين صاحبه في شيء من ذلك فقد باء بشر الآثام والأوزار . حرام على المرأة أن تمسكن غير زوجها من التمتع بجزء من بدنها الذي تعاقدت معه على أن يكون هذا مختصا به وحده .

ومن شر الفواحش والآثام أن تخون زوجها في أعز شيء لديه منها فترضى لرجل غيره أن ينتهك حرمة ويسطر على عرضه ، وهو غافل لا يدري ما تصنع تلك العاهرة من جريمة تدك منها الآداب والاخلاق . وكذلك يحرم على الرجل أن يستمتع بجزء من بدن امرأة أجنبية غير زوجته ، أو ينتهك حرمة غيره ويسطر على عرضه ، فإن جريمته هذه مساوية لجريمة امرأته

التي تنتهك حرمة بلافراق ، ولذا كانت عقوبته وعقوبتها واحدة في الدنيا والآخرة ، فكلما زان يستحق الاعدام رجما في الدنيا ، أو العذاب الشديد يوم القيامة .

ومن أهم الحقوق والواجبات المتأصلة التي يجب على الزوجين القيام بها كتمان السر ، فإذا أمر أحد الزوجين إلى الآخر حديثا وجب عليه كتمه وعدم الإفشاء به ، مهما حدث بينهما من شقاق وخصام . وكذلك لا يحل لأحد الزوجين أن يتحدث بما يقع بينهما من الاستمتاع ونحوه من الأمور الخاصة التي من شأنها أن تكون سرا ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر أحدهما سر صاحبه » رواه مسلم وأبو داود وغيرهما .

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعود عنده فقال : « لعل رجلا يقول ما فعل بأهله ، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها ، فأرم القوم ، فقلت إني والله يارسول الله ، إنهم ليفعلون وإنهم ليفعلن ، قال : فلا تفعلوا ، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة ففشيها والناس ينظرون » . رواه أحمد . ومعنى أرم القوم بفتح الراء وتشديد الميم : سكتوا ، فن الحرام الخلقية التي لا يقرها الدين الإسلامي أن يفشي أحد الزوجين سر الآخر سواء كان متعلقا بالاستمتاع ، أو كان متعلقا بشأن من الشؤون الأخرى خاصة كانت أو عامة . فن الحق وسوء الأدب أن يفشي أحد الزوجين سر صاحبه مهما حدث بينهما من شقاق ونزاع .

ومن الحقوق المتأصلة أن ينظر كل من الزوجين إلى الآخر نظر احترام وتقدير ، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف واحتقار ، أو يظن أنها ليست إلا محلا لقضاء شهوة بدون نظر إلى السبب الحقيقي الذي جمع الله الزوجين من أجله ، كما لا يحل للمرأة أن ينحصر غرضها من الرجل في مجرد إرضاء شهوانها ، أو أن تنظر إليه كشخص مسخر لها ربه المادية ولذاتها الجثمانية ، بل يجب عليها أن تجعل علاقته بها أممية وأجل من كل شهوة أولدة ، فهو شريكها في الحياة يصيبها ما يصيبه من سراء وضراء ، ويلحقها ما يلحقه من نعيم وبؤس ، وفي كلتا الحالتين يكون له عندها من رفيع المنزلة ما لا يزل له حادث أو يوهنه بؤس . وذلك لأن الغرض من اجتماع الزوجين تكوين أسرة صالحة تنفع المجتمع الإنساني وتعمل في بناء العمران كما هي سنة الله في ذلك النوع الذي فصله الله على كل الأنواع . فعلى كل من الزوجين أن يوقن بأن سعادة أحدهما مرتبطة بسعادة صاحبه ، وشقاءه مرتبط بشقاءه ، فلا مناص لسكل واحد منهما من العمل على ما فيه خير صاحبه وسعادته مادام في هذه الحياة الدنيا .

وملاحظة : فإن جماع الحقوق المشتركة بين الزوجين هي أن يحترم كل واحد منهما علاقة الزوجية ، ولعلم أنها الوسيلة الصحيحة التي اقتضتها طبيعة الإنسان ، خفعت بينهما وألفت بين

قلبيهما لمرض جليل الشأن ، وهوبناء أسرة صالحة تفيد المجتمع الانساني وتنفيد منه ، فكل شيء يترتب عليه صلاح تلك الأسرة وتكوينها تكويناً فاعماً فإنه يجب على الزوجين أن يتقوما به ويعملا على تحقيقه بحسب استعداد كل منهما .

أما الحقوق المختلفة فإنها تتفاوت بتفاوت حال الزوجين الطبيعية التي فطرها الله عليها . فأما الرجل فإنه يجب عليه لوجه حقوق ، أهمها صيانتها ، والاتفاق عليها وعلى أولادها منه بحسب حاله ، فهذا حق واجب مقدس على الزوج ما دامت الزوجة في طاعته سواء كانت فقيرة أو ذات مال . فالشريعة الاسلامية كلفت الرجال باحتفال مطابق الحياة ومناهبها ، وكلفتهم بالدفاع عن المرض والوطن وكل ما فيه كفاح ونضال ، ورفعتهم عن النساء . ومنها إعفاف المرأة وعدم هجر فراشها ، وأوجب جمهور أئمة المسلمين عليه فراقها إذا عجز عن ذلك كي لا يعرضها الى الزينة والفساد ، ومنها معاملتها بالرفق ، فلا يؤذيها بلسانه أو يده ، أو يمس في وجهها بدون سبب ، وإذا بدرت منها بادرة تستوجب غضبه فلا يقسو عليها ، إذ يجب على الرجل أن يكون حسن المعاشرة مع أهله ، فلا يحل له أن يكون سيئ الخلق غليظ الطبع لا تشعر منه زوجته بعطف ولا تحس بحزن ، لأن المعاملة القاسية تقطع المودة ، وتوجب حقد المرأة على الرجل ، وانصرافها عن الاخلاص له . وقد ورد في هذا المعنى أحاديث صحيحة كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذي وغيره . ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » فلا يحل للرجل أن يشور غضبه للهوات المادية التي تصدر من زوجته لأنه أقدر على احتلال ما يثير النفس ، فعليه أن يردها الى صوابها بالحكمة واللين ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فقد كان أكثر الناس ملاقة لأهله وبراهن ، واحتلالاً لما يقع منهن مما حرت به عادة النساء واقتضته طبيعتهن .

وقد يقال : هذا الحق مشترك بين الرجل والمرأة لأنها مكلفة أيضاً بحسن معاشرته . والجواب أن الشريعة الاسلامية حملت زمام المرأة بيد الرجل ، فهو المكلف بحسن المعاشرة ، فعليه أن يماشرها بالمعروف ، أو يفارقها ، كما قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » . وقال : « فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

أما حق الرجل على زوجته ، فأهمه أن تكون مقصورة عليه وحده ، فلا يحل لها أن تكشف جزءاً من بدنها لغيره من الرجال ، وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه ، وأن لا تأذن لأحد بالدخول في داره وهو كاره ولو كان من محارمها ، وأن تكون مطيعة له متى طلب منها الامتناع بها ، ففعلت المرأة ذلك وحفظت ما عليها من الحقوق المشتركة بينها وبين الزوج ، فقد أصبحت في نظر الدين الاسلامي تستحق أعظم المنازل وأسمى الدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا

صلت المرأة خمسها ، وأحصنت فرجها ، وطاعت لعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت .
رواه ابن حبان فى صحيحه . وقد وردت فى هذا المعنى أحاديث كثيرة صحيحة .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثانى وهو (معنى قوامه الرجال على النساء) فهو أن الرجال خلقهم الله أقوىاء قادرين على الكفاح فى هذه الحياة الدنيا . فهم فى نظر الدين الاسلامى وحدهم المكلفون بمجاهدة الأعداء والحصول على الاموال والارزاق ، واحتمال مصاعب الحياة ومشاقها فى تحصيل ما يلزم لازواجهم وأولادهم من قوت ومسكن وملبس وما يقع ذلك من لوازم الحياة ، أما النساء فليس عليهن فى هذه الحالة إلا مراعاة ابنائهن فى رمن الطمولة ، ومراقبتهم مراقبة دقيقة ، كي يشعروا على الفضيلة ، وعليهن أيضا تدير المنزل ، والمحافظة على أموال الرجل الموجودة بين أيديهن ، فلا يذرنها فى الشهوات التى لا تدرم للحياة ويرهقن الرجل بالامراف ، وهذا وإن كان ركنا هاما من أركان الحياة الزوجية ، ولكن ليس فيه من المشاق والمصاعب مثل ما على الرجال من جهاد وكفاح .

وهذا هو معنى قوامه الرجال على النساء الواردة فى قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » فقوامه الرجال على النساء بين الله سبحانه أسبابها ، وحصر تلك الأسباب فى أمرين : الأول تكليف الرجال بالانفاق دون النساء . الثانى التفاضل الطبيعى بين الرجل والمرأة فى القوة والبطش ، فالنساء فى كل زمان ومكان عرضة لمطامع الرجال ، ومهما أوثقت المرأة من فطنة وذكاء فإنها لا تستطيع أن ترد عن نفسها مطامع الرجال فيها . فالرجل وحده هو المكلف بالدفاع عن عرض المرأة وصيانتها من كل عدوان . فلذا كان من الواجب عليها أن تطيع زوجها من هذه الناحية . فإذا طلب منها أن لا تخالط الرجال ، أو أن تتعدى عن معارك الحياة ، وتربأ بنفسها عن مواطن الرينة والظنون التى تكدر صفو عيشه معها ، وجب عليها أن تطيعه فى ذلك طاعة عمياء ، فإنها تعاقدت معه على أن تكون زوجا له مقصورة عليه وحده . فليس لها أن تخالف مقتضى هذا التعاقد وتلهب قلبه بالغيرة . فهذه هى الدرجة التى ميز الله بها الرجال على النساء . ولا يخفى أنها ليست مهمة لمن فى أى ناحية من نواحي الحياة ، بل هى من مقتضيات الطبيعة . فهى درجة يقتضيها نظام العمران وتستلزمها طبيعة الانسان ، إذ لولا دفع الله الرجال بعضهم بعضا عن النساء لموامل طبيعية لكانت فوضى الشهوات عامة شاملة ، ولأصبحت النساء نهبة يشغفهن الرجال كما تخطف الصواري فراسها ، ويستمتع ذلك انهيار نظام الأسرة وتهدم بناء العمران حتما .

وهذا لا ينافى ما للنساء من حق فى ترقية أنفسهن بتعلم العلوم والمعارف ، وعلى الآباء أن يأذنوا لبناتهم فى تعلم السلم مع المحافظة على العفاف والآداب . ولقد كانت النساء المسلمات

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يحضرن مجالس العلم . وقد سمع منهن سيدات كان لهن على الرجال فضل في العلم والمعرفة . ومنهن السيدة عائشة زوج الرسول فاتها كانت مرجعا لكبار الصحابة في الدقائق العلمية حتى إن امرت به كان يسألها في دقائق المسائل . وقد درج على ذلك المسمون الذين من بعدهم ، فكانوا يعلمون بناتهم كما يعلمون أبناءهم . وقد ألف بعض العلماء كتابا خاصا في فضليات النساء المسلمات . فالدين الاسلامي لا يريد تقييد المرأة وإهانتها ، وإنما يريد رفعها والبعد بها عن مصارع السوء ومطامع فاسدى الأخلاق من الرجال . يريد منها أن تفعل كل ما من شأنه أن يوطد علاقة الزوجية ، ويرفع من شأن الأسرة . يريد منها أن تؤدى وظيفتها التي خلقها الله من أجلها في هذه الحياة ، وهي مصونة العرض عزيزة الجانب لا يطمع في عفافها أحد ، ولا تستهويها لذة فاسدة . فإذا ظمت المرأة بذلك كانت من المقربات عند الله تعالى المحترمات في نظر الهيئة الاجتماعية رغم أنف الإباحين الشهويين .

(٣) أما الجواب عن السؤال الثالث : وهو أن الدين الاسلامي يحرم إيذاء المرأة بالسب والصرب الخ . فإليك قد عرفت مما ذكرناه لك أننا أن من حق المرأة على زوجها أن يعاملها معاملة حسنة ، فلا يحل له أن يؤذيها بيده أو لسانه ، ولكن بعض الناس قد أساء فهم قوله تعالى : « واللاتى يخافون بشوزهن فمظوهن وهجروهن في المصالح ، واصربوهن ، فإن أظعنكم فلاتبخوا عليهن سبيلا » فظن أن القرآن يأمر بضرب النساء . وفي ذلك من المهانة والاحتقار للمرأة ما لا يخفى . ولكن الواقع أن الدين الاسلامي لا يشرع لفئة خاصة ولا لجماعة محصورين ، وإنما يشرع للناس كافة . فمن الضروري أن يراعى في ذلك جميع الحالات المحتملة وإلا كان تشريعا ناقصا . وما لا شك فيه أن النساء تنفاوت في كل زمان ومكان ، فهن العاقلات المبهذبات اللاتى يمكن التفاهم معهن فيما يصلح الأسرة ويزيل أسباب الشقاق ، وما لا ريب فيه أنهن لا يحل صرجهن بأى وجه ، وعلى أى حال . بل لا يحل للرجال إيذاؤهن بالقول المبين ، بل يجب تذكيرهن بما يلزم لدوام المعاشرة من تسامح وصفاء ، وما يجب أن تكون عليه علاقة الزوجية من قوة لا يصح التأثير عليها بالحوادث الطارئة . فإذا لم تقتنع وجب على الزوج أن يصبر عليها ولا يطمعها حتى يزول ما بها .

ومن النساء من يصلحن هجر فراشها زما معينا ، فإذا كانت المرأة تحب زوجها حبا صادقا وفسرط منها ما يستدعى شقا ، فإن له أن يهجرها أياما كي ترعى عن غيها . وليس الغرض من المحر أن يقطعها فلا يتحدث إليها ولا ينفق عليها ، بل يهجر الاستمتاع بها فقط ، فإذا وجدت امرأة لا تصلح للتفاهم ولا تعرف معنى حب الزوج ، فلا يصلحها المحر ، فإذا خرجت عن واجباتها فأساءت معاشرة زوجها لجهلها وعدم معرفتها حقوق الأرواح ولم تفهم معنى الوعظ والهجر ، ولم يؤثر فيها معنى من المعاني الأدبية ، كان للزوج في هذه الحالة

أن يضربها بشرط أن لا يكون الضرب شديداً ، وأن لا يكون على وجهها ، وبشرط أن يكون هذا الضرب الخفيف سببا في إصلاحها . ولعل هذه الحالة لا تكون إلا في النساء الجاهلات الغيبات اللاتي لا يفقهن الحياة الزوجية معنى . فهذا تشريع لحالة خاصة ، فلا يصح أن يجعل عاما يطبق على كل النساء ، ولذا ذكرت الآية قبل كل شيء العظة والنظام بالحسنى . فإذا لم يعد كان المهجر الخفيف ، فإذا لم يعد وكانت المرأة جاهلة غبية يصلحها الضرب الخفيف ، كان له ذلك ، والفرض من كل هذا المحافظة على علاقة الزوجية ، واحتساب وسائل الطلاق . فإذا عجز الزوجان عن الحياة الصالحة ويئس كل منهما من صاحبه كان التفراق بالطلاق .

عبر المصمم المجربى

من عيون الخطب

خطب المأمون في يوم عيد فقال :

عظم قدر الدارين ، وتباين جزاء العالمين ، وطالت مدة التريقين . الله الله إنه الجدل لا اللعب والحق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب ، والصراط والقصاص ، والثواب والعقاب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار .

قال الشعبي : ما سمعت أحدا يشكلم إلا نعتت أن لو سكت غفافة أن يحطى إلا زيادا فانه كان لا يزداد إكثارا إلا ازداد إحسانا . خطب يوما فقال : « أيها الناس لا يمسكم سوء ما تعلمون ، أن تنفخوا منا بأحسن ما تسمعون ، فإن الشاعر يقول :

اصل نقول ولا تنظر الى صلي ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري

قيل إن هذا البيت لخليل بن احمد ، ولكن النقاد حوروا أن يكون الخليل قد استشهد به وليس له .

وخطب الحجاج يوما فقال : « أما بعد فإن الله كتب على الدنيا الفناء ، وكتب على الآخرة البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ، فلا يفرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، وأفصروا طول الأمل ، بقصر الأجل »

وقال أئمة الخطابة : خير الكلام ما لم يكن عاميا سوقيا ، ولا عربيا وحشيا .

وقال أبو الاسود الدؤلي لولده : يا بني إذا كنت في قوم فلا تكلمهم بكلام لم يبلغه سنك فيستنقلوك ، ولا بكلام هو دونك فيزدروك ويحتقروك .

هول رمضان

وإذا رُمي في بلد هل يحكمه سائر البلاد ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم :

كان قد وجه الى فضيلة مولانا الأستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر ، خطاب يطلب النظر في جمع المسلمين في كل الأقاليم على صوم يوم واحد أول رمضان . وقد طلب فضيلته الى بعض حضرات السادة العلماء أن يوافقوه ، بعد بحث الموضوع من الوجهة الشرعية ومراجعة آراء الفقهاء ، بخلاصة بحثهم ونتيجة نظرهم .

وقد كنت ممن تفصل مولانا الأستاذ الاكبر بتوجيه هذا البحث اليهم ؛ فبعد مراجعة كتب الفقه الشافعي واستقصاء النظر في الموضوع ، كتبت هذه الكلمة لنشر في المجلة بمناسبة نواة لما سيديده حضرات أصحاب الفضيلة علماء المذاهب بالأزهر من بيان شاف تفشرح له صدور المؤمنين .

ولادة الهلال فلوكيا :

يولد الهلال ، ويتبدى* الشهر الهلالي متى انحرف القمر عن حالة الاجتماع : أي الوضع الذي يكون فيه الشمس والقمر بالنسبة للأرض في اتجاه واحد على خط مستقيم ، ويكون الجزء المضيء من القمر مقابلا كله للشمس متواريا جميعه عن الأرض ، وهي الحالة المسماة بالحاق ، متى انحرف قليلا عن هذا الوضع ظهر من الوجه المضيء خيط دقيق مقوس ناحية الأرض ، وهذا أول الشهر الهلالي فلوكيا ، وذلك يكون بالنسبة للأرض كلها في لحظة واحدة ، سواء أهل الجهة التي يقابلها القمر حينئذ ، أو الجهة التي يكون متواريا عنها ، وهذا يحصل تارة ليلا في أول الليل أو آخره أو بين ذلك ، وتارة نهارا كذلك .

اعتبار الشهر قد هل شرعا :

ولا يعتبر الشهر الجديد قد هل شرعا إلا إذا رأى أهل الأرض ذلك المحيط المضيء من القمر بعد غروب الشمس والعين المجردة ، فتكون اقلية التي رأت فيها من الشهر الجديد بالنسبة الى الرايين قطعاً .

وأما بالنسبة الى غيرهم فيه خلاف ، فقيل : وغيرهم مثلهم ، متى ثبت الشهر في بقعة من الأرض فقد ثبت في جميع البلاد (ولعل من الواضح أن معنى ثبوته بالنسبة لجميع أهل البلاد أن تكون الليالي التي تقبل بعد رؤيته من الشهر الجديد ، لا أن يحتسب اليوم الذي يتفق أن يكون النهار فيه ساعة رؤية الهلال في بلد ، من الشهر الجديد) .

وقيل : بل كل بلد لها رؤيتها لا يتعدى حكمها الى غيرها .

وقيل بالنمصيل بين البلاد القريبة من بلد الرؤية ، فيثبت حكمها في حقهم ، والبلاد البعيدة عنها فلا يتعدى حكمها اليهم .

ثم اختلفوا في تحديد القرب والبعد : فقيل : يعتبر مسافة القصر ، لأن الشارع ناطق بها كثيرا من الأحكام ، وقيل باتحاد الاقليم .

وقيل وهو المختار : بل العبرة باتفاق المطالع واختلافها ، لأن مسافة القصر لا شأن لها بطول الكواكب ولا غروبها . وهذا هو الذي اختاره الكثير ودرج عليه المناخرون من الفقهاء وهو الأوجه ، قال النووي في المجموع : « إذا رأوا الهلال في بلد ، ولم يروه في غيره فإن تقارب البلدان حكمهما حكم بلد واحد ، ويلزم أهل البلد الآخر الصوم بلا خلاف ، وإن تباعدا فوجهان مشهوران في الطريقين ، أصحهما : لا يجب الصوم على أهل البلد الأخرى ، وبهذا قطع المصنف والشيخ أبو حامد و .. ، والثاني يجب ، وبه قال الصيمري ، وصححه القاضي أبو الطيب و ... ، وأحابوا عن حديث كريب عن ابن عباس (وسيأتي) بأنه لم يثبت عنده الرؤية في بلد آخر بشهادة عدلين . والصحيح الأول .

وفيما يعتبر به القرب والبعد ثلاثة أوجه : أصحها ، وبه قطع جمهور العراقيين والصيدلاني وغيرهم ، أن الساعدي يحصل باختلاف المطالع كالحجاز والمراق وخراسان ، والتقارب أن لا يختلف كبغداد والكوفة ، لأن مطلع هؤلاء مطلع هؤلاء ، فإذا رآه هؤلاء فقدم رؤيته للآخرين لتقصيرهم أو لعارض . والثاني الاعتبار باتحاد الاقليم . والثالث أن التباعد مسافة القصر والتقارب دونها ، وبه قال إمام الحرمين والغزالي والبغوي وآخرون ، قالوا لأن اعتبار المطالع يحوج الى حساب وتحكيم المنجمين ، وقواعد الشرع تأتي ذلك ، وهذا ضعيف لأن أمر الهلال لا تعلق له بمسافة القصر . فالصحيح اعتبار المطالع .

ثم قال بعد كلام نقله عن علماء المذهب - « حصل في المسألة ستة أوجه : أحدها . يلزم جميع أهل الأرض برؤيته في موضع منها . والثاني : يلزم أهل إقليم بلد الرؤية دون غيرهم . والثالث : يلزم كل بلد يوافق بلد الرؤية في المطلع دون غيرهم ، وهذا أصحها . والرابع : يلزم كل بلد لا يتصور خفاؤه عنهم بلا عارض دون غيره . حكاه السرخسي . والخامس : يلزم من دون مسافة القصر . والسادس : لا يلزم غير بلد الرؤية » انتهى ما أردنا نقله عن المجموع .

وقال شيخ الاسلام في المنهج وشرحه : « (وإن رُئي) الهلال (بمحل لم يحكه محلا قريبا) منه (وهو) يحصل (باتحاد المطلع) بخلاف البعيد عنه ، وهو يحصل باختلاف المطلع ، أو بالشك فيه ، كما صرح به في الروضة كاصلا لا بمسافة القصر خلافا للرافعي ، قياسا على طلوع الفجر والشمس وغروبها ، ولأن آخر الهلال لا تعلق له بمسافة القصر . لكن قال الامام : اعتبار المطالع يحوج الى حساب وتحكيم المنجمين ، وقواعد الشرع تأبى ذلك ، بخلاف مسافة القصر التي علق الشرع بها كثيرا من الاحكام والامر كما قال « اه وكتب البجيرى على قوله : والامر كما قال : (أى من الاشكال ، والمعتمد ما قاله المصنف) وسيأتى دفع الاشكال .

وفي الروض لابن المقرئ وشرحه لشيخ الاسلام : « (فرع) : لو (رُئي) الهلال (في بلد لم يحكه) من (في غيره) من سائر الاماكن (ما لم تختلف المطالع) كبغداد والكوفة والري وقزوين ، لانه قريب من بلد الرؤية ، فهو بمنزلة من هو في بلدها كما في حاضري المسجد الحرام . فان اختلفت كالحجاز والمراق وحراسان لم يجب الصوم على من اختلف مطلقه ، لبعده ، ولما روى مسلم عن كريب : رأيت الهلال بالشام ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة فقال ابن عباس : متى رأيتم الهلال ؟ قلت ليلة الجمعة . قال أنت رأيته ؟ قلت : نعم ، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية . فقال : لكننا رأيناه ليلة السبت ، فلا يزال صوم حتى نكمل العدة أو نرى الهلال . فقلت : أو لا تكني برؤية معاوية وصيامه ؟ فقال : لا ، هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقياسا على طلوع الفجر والشمس وغروبها ، ومما قاله المصنف علم أن القريب من بلد الرؤية ما اتحد منه في المطلع . وقيل : مادون مسافة القصر ، وصححه الرافعي وتبعه النووي في شرح مسلم ، وصحح في غيره الأول لانه لا تعلق للرؤية بمسافة القصر . وقال الامام : اعتبار المطالع يحوج الى حساب وتحكيم المنجمين ، وقواعد الشرع تأبى ذلك ، بخلاف مسافة القصر التي علق الشارع بها كثيرا من الاحكام . فإن قلت : اعتبار اتحاد المطالع على ما مر يتعلق بالمنجم والحاسب وقد تقدم أنه لا يعتبر قولها في إثبات رمضان ؟ قلت : لا يلزم من عدم اعتباره في الأصول والأمور العامة عدم اعتباره في التوابع والأمور الخاصة اه . نى وهنا لم يثبت بكلام المنجم والحاسب أصل الصوم وثبوت الهلال على جميع الناس ، بل عدينا به الصوم والهلال الثابت في بلد الى أهل بلد آخر .

ثم المراد بالرؤية المذكورة في كل هذا ، الرؤية ليلا ، ولا عبرة برؤيته نهارا . قال في المنهج وشرحه : « (ولا أثر لرؤيته) أى الهلال (نهارا) » ونقل البجيرى عليه عن القليوبي أنه لا يكون الماضية فنقطر ، ولا للمستقبله فيثبت رمضان مثلا ، أى فلا يغنى عن رؤيته بعد الغروب .

فما سبق نقله عن المجموع وغيره ، يعلم أن ما صححه في المجموع هو ما جرى عليه أغلب كتب

المذهب ، وهو اعتبار اتحاد المطالع واختلافها ، وهو ما تراح اليه النفس ، ويشه ما اعتبره الشارع في أمر الصلاة من أن لكل قوم شروهم وغروبهم وزوالهم وشفقهم وغير ذلك ، وأن البلاد التي تفقد شيئاً من ذلك تعامل بحال أقرب البلاد إليها .

وما يقال من الفرق بين الصوم والصلاة من أن الصوم منوط بوجود الهلال وهو متى ولد في بقعة فقد ولد بالنسبة لجميع أهل الأرض ، رد عليه بأن أمر الأحكام الشرعية مبني على المشاهدات الميسورة لطبقات الأمم بدوياً وحضرياً ، وأمر الحساب والتنجيم لا يتيسر إلا للبلاد التي أخذت بحظ من العلوم ، وقواعد الشرع لا تراعى ذلك بل تأباه ولا تنس ما قدمناه من أن عدم اعتبار الحساب والتنجيم في إثبات أصل الصوم لمعوم الناس لا يستلزم عدم اعتباره في تعدية حكمه ، وقد ثبت في بلد إلى أهل بلد آخر قريب منه .

وحديث « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ليس معناه متى حصلت رؤية ما فصوموا ، بل معناه كما في رواية أخرى : إذا رأيتموه فصوموا ، وإذا رأيتموه فأفطروا . وخير ما فسرته بالوارد .

فتنقل بعد هذا إلى ما جاء في السؤال من النظر في تعميم حكم الصوم لجميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى يجتمعوا في صوم رمضان على يوم واحد ، وبخاصة إقليم طرابلس الغرب بلد السائل ، وهل تتأثر بقبول رمضان في مصر ، فقول :

قد نصوا على أنه متى اتحد البلدان في خط العرض جهة وقدراً بأن يكونا معافى الشمال أو يكونا معافى الجنوب وأن يكون بعدهما عن خط الاستواء واحداً أو متقارباً ، فإنه إذا رئي الهلال في البلد الشرق منهما يلزم أن يري في البلد الغربى ، فإذا لم يرفيه فإما لعارض أو لتقصير منهم ، وذلك أن الشمس تغرب في البلد الشرق قبل غروبها في الغربى ، وكذلك القمر ، فإذا رئي في البلد الشرق فما دأك إلا لأنه مضى عليه بعد ولادته مدة يتسع فيها الخط المضى الذى يبدو منه ، فإذا تأخر الغروب في البلد الغربى ساعة أو ساعتين مثلاً كان ذلك أعون على رؤيته إذ يزيد اتساع الخط المنير البادى منه ، فإذا لم يرفها لعارض أو لتقصير منهم كما قلنا .

وإنما قيدنا بأن يكون البلدان على خط عرض واحد أو متقارب ، لأنهما إذا لم يكونا كذلك جاز أن يتأخر غروب الشمس في البلد الشرق عنه في البلد الغربى : بأن يكون البلد الشرق في الشمال والغربى في الجنوب ويكون الوقت صيفاً ، فإن النهار يطول في البلد الشمال عنه في البلد الجنوبى ، فربما تأخر غروب الشرق حينئذ عن غروب الغربى .

نقل الشهاب الرملى في حاشية شرح الروض عن السبكي قال : « تنبيه لم أر من نه عليه . وهو أنه قد تختلف المطالع ، والرؤية في أحد البلدين مستلزمة للرؤية في الآخر من غير عكس ، فإن الليل يدخل في البلد الشرقية قبل دخوله في البلد الغربية ، فإذا غربت في بلد شرق وبينته

وبين الشمس سبع درج مثلا ، لا يمكن رؤيته فيها ، وإذا غربت في بلد غربي يتأخر الغروب وبينه وبين الشمس أكثر من عشر درج أمكن رؤيته فيها ، وإن لم ير في البلد الشرق ، فإذا غربت في غربي آخر بعد ذلك بدرجتين كانت رؤيته أظهر ، ويكون مكته بعد الغروب أكثر ، وقس على هذا يتبين لك أنه متى اتحد المطلع لزم من رؤيته في أحدها رؤيته في الآخر ، ومتى اختلف لزم من رؤيته في الشرق رؤيته في الغربى ، ولا عكس . وتبعه في المهمات ، قال : « وفي إطلاقه حصول الليل في الشرق قبل دخوله بالغربى نظر إذ محل القبلة إذا اتحد عرض البلدين جهة وقدرنا : أى جهة الجنوب والشمال ، وقدرنا بأن يكون قدر البعدين عن خط الاستواء سواء » اهـ

ومعلوم أن طرابلس غربي مصر ، وهما على خط عرض واحد تقريبا ، فإن خط عرض ٣٠ يمتد في الأفق معاً : مصر وطرابلس ، وهما جميعاً في نصف الكرة الشمالي ، فتى رأت في مصر رأت في طرابلس قطعا ، فإذا لم يروه ظاهرا لعارض أو لتقصير منهم ، فيحب عليهم الصوم لصوم مصر . وحديث كريب عن ابن عباس يمكن تخريجه على ذلك : فإن الشام غربي المدينة فيتأخر غروب الشمس في الشام عن غروبها في المدينة ، فدة التأخر تصلح سببا كافيا لاتساع الخط المميز من القمر فتسهل رؤيته في الشام حيث لا تسهل رؤيته في المدينة . فلا غرو أن يصوم معاوية بالشام ويصوم الناس معه حيث رأوا الهلال ، ولا يصوم أهل الحجاز لاختلاف مطلعهم عن مطلعهم ، لأنهم شرقيون بالنسبة إليهم .

والحاصل أنه إذا صامت مصر لرؤية الهلال لزم الصوم كل البلاد التي تكون غربيها ، ما لم تكن في الشمال كثيرا ، والزمن شتاء ، فربما تأخر غروب الشمس في مصر عن غروبها في البلاد الغربية منها ، فيوحد وقت بين الغروبين يمكن مصر من رؤية الهلال ، إذ يكون قد نما ولا يكون أهل البلاد الغربية متمكنين من رؤيته لتقدم غروبهم .

وأما البلاد التي شرقي مصر كالعراق والحجاز فلا يلزم من رؤية مصر لهلال رؤيتهم له ، فلا يلزمهم الصوم بصوم مصر .

هذا كله في ثبوت الشهر أى تحقيقه . أما في إثباته والعلم به فقد نصوا على أن الأمارات المتبادلة كتعليق القناديل في المنائر ، وكالتصايع بين القرى ليعلم بعضهم بعضا ، إذا كان مثله لا يحصل إلا في رمضان ، كافي في العلم ولزوم الصوم متى غلب على الظن صدقه . ومثل ذلك ضرب المدافع والاشارات البرقية وإذاعة المذياع « الراديو » ، كل هذا مما يحصل به غلبة الظن المؤكد ، ولا سيما عند صدوره من جهة حكومية فإنه حينئذ لا يبقى عذر في التردد ، ويقوى الظن حتى يصير بمنزلة اليقين . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ابراهيم الجبالي

عضو جماعة كبار العلماء

اللغة العربية بين القوة والضعف

— ٧ —

دعائم الإصلاح

كلية الآداب ودواسة اللغة العربية :

من الحق علينا ونحن بصدد الحديث عن اللغة العربية ، ودعائم إصلاحها في دائرة البرامج الدراسية ، أن نتناول بالنظر منهج الدراسة في قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، فانه المعهد الثالث الذي يستفد من مجهود الأمة ومالها وشباب أنائها قسطا كبيرا في دراسة الثقافة العربية التي يجب توحيد برامجها الدراسية في جميع معاهدها تحقيقا للإصلاح المنشود .

وقد وقفنا في المقالات السابقة حق الكلام على لتقارب الدرامى والوحدة في المناهج بين الأزهر ودار العلوم ، وهما المعهدان القوميان اللذان قاما على حماية اللغة العربية منذ نشأتها ، ودراسة فنونها دراسة علمية جعلت منهما قوة ماصمة أمام المفتونين بلى ألسنتهم بلغة الغرب وآدابه وتقافته ، فتنة لا نرى لها منشأ غير الخضوع للقانون الاجتماعى الذى يقرره ابن خلدون في مقدمته ، وهو « إن المغلوب مولع أبدا بالافتداء والغالب فى شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده » ، وهذا — فيما يظهر — مخرج ما نرى من مظاهر الاضطراب الثقافى فى الشرق العربى ، فليست لنا فى بيتنا العلمى وحدة ثقافية تدور فى تربيتنا على محورها ، وليست لنا شخصية قومية نعتز بها فتمصنا فى لغتنا وآدابنا وأخلاقنا من الشدهدى الى هوة التقليد المهن .

إن التاريخ القريب يحدتنا أن أسلافنا الأماجيد أخذوا أيام عزم وسلطان دولتهم ثقافة يونان وفارس والهند والرومان وغيرهم من الأمم ذات الماصى العلى ، ونقلوها الى لغتهم تقديرا للعلم ، وتمظيلا للمعارف ، وإكبارا للفكر الإنسانى وآثاره فى الحياة حتى كان لهم الفضل الاول على الهضبات الأوربية المستعدنة بشهادة كبار المؤرخين والعلماء ، فلم يصابوا بما أصيبت به أمم الشرق العربى فى هذا العصر من الاستهانة بالقومية العلمى وعدم الاعتداد بالنفس ، بل أصاروا ذلك الى لغتهم فهضمت ، والى عقولهم فحصت ، وأبت عليهم أنفسهم النبيلة أن يتأرجحوا بين الأمم فى عاداتها وأخلاقها ونحلها ، فكانوا أئمة الهداية وقادة لفكر ، والباس لهم تبع ، وما كان لهم ذلك إلا لشدة إيمانهم بقوميتهم ، واعتدادهم بشخصيتهم ، واعتزازهم بسلطانهم .

إن الأدهر ظل منذ تسلم من بغداد تراث الاسلام والعرب المعهد الفذ القائم بشأن الثقافة الاسلامية واللغة العربية وآدابها وفنونها في الحدود التي رسمناها ، وقامت الى جانبه منذ أكثر من نصف قرن مدرسة دار العلوم تتعاون معه على إنهاض الثقافة العربية ، ومن ثم كان المصلحون مدد جبر النهضة يرون فيهما دريئة تدفع عن الأمة شر الاندفاع في تيار الاستعجام اللغوي الذي سرى في ألسنة الشباب المتعلم حتى أشفق منه الغير على الكرامة القومية والتراث الأدبي ، ومستقبل الأمة الثقافي ، لأن هذه الروح التقليدية لم يقف أثرها مع الحياة العامة ، بل انبثت في مرافق الحياة الخاصة ، وسيطرت على بينات الثقافة ومعاهد العلم ، وطبعها بطابع أجنبي لم يترك لطلبة مندوحة عن هذه النشأة الغربية في جميع مظاهرها ، وهذا بلا ريب من أخطر الأمور في حياة الأمة

لسنا من يتعصب فيزعم أن الشرق في غيبة وكفاف عن الغرب وعلومه ومعارفه ومذاهبه في الحياة وكشوفه واختراعاته ، وبحوثه ودراساته وصناعاته ، فإن العلم لا وطن له ، وهو حق الفكر الانساني أينما حل وحيثما كان ، والحياة دائمة التدافع والتحاذب في الأفكار والآراء ، وقد كان العلم شرقيا أحيانا طويلا فلم يحجم الغرب أن يأخذ برمامه الى ساحات معاهده ، فأفاد منه وجدد على أساسه الحضارة العالمية ، ووجه التاريخ وجهة تلائم طبيعته المادية واستمداده الطبيعي في أفكاره ونحوه ، وقصد الشرق دون هذه الغاية ، فلم يأنه لأطوار الحياة ، ولبت في سفع التاريخ ينظر الى الماضي نظر الإعجاب والاعظام ، ولم يوقفه من غفلة جهالاته إلا زئير الغرب بقواه المادية وزججته الاستعمار النهم ، فالتفت مدهورا ، وإذا الماضي المعجب لا يعود ، وإذا الحاضر لا يعكس من أمره شيئا ، وإذا المستقبل في ظلام الغيب مستور ، وهذه اليقظة أشبه بيقظة المريض أفاق من غيبته فراح يتلصص لنفسه أسباب النجاة والعافية ، فكان لا بد له من تعرف ماضي تقدم الغرب ونهوضه بعد الذي عهد من ركوده وجهوده ، فرأى سطورا كان قد قرأها في كتاب ماضيه من قبل ، ورأى الفكر الانساني يقود الغرب في حياته ، وكان بالأمس يقود هذا الشرق المبتسئس ، ورأى العلم يرحل في حرية البحث والتحقيق طليقا إلا من قيود الحجة والمنطق ، وقديما ما كان يرحل في معاهد الشرق ومدارسه أيام ازدهار بغداد وقرطبة والقاهرة بحرية أجل وأعظم ، ورأى أن الغرب يفكر فيعمل ، وهذا فيصل ما بين الشرق القديم والغرب الجديد ، فقد كان الشرق عالما مفكرا ، ولكنه كان في علمه وتفكيره نظريا ، فكمن من نظرية فتق الغرب أكامها واجتني ثمرتها كان الشرق بها عليا وكمن من رأى كشف الغرب به عن وجه الطبيعة حقق به كشفا أو أقام على أساسه مصعما ، أو أخرج به مخترعا كان الشرق به خيرا ! لكن الشرق لم يحقق في ماضيه ما حققه الغرب في حاضره .

عرف الشرق أن لا سبيل الى إنهاضه من عثرته إلا بعودته الى سيرته عن طريق الغرب وعلومه ومذاهبه ودراسه ، ليستقي من مناعه ويحيا كحياته حياة علمية تقوم على حرية الفكر

والبحت في عباي* الطبيعة وأسرار الوجود ، ومن هنا كانت الضرورة قاضية بإنشاء نظام جامعي للتعليم المدني العالي على غرار نظام الجامعات الأوروبية ، له خصائصه وميزاته في الحرية الفكرية والبحث العملي ، والدراسات النفسية ، وكانت « الجامعة المصرية » القديمة قد ضمت بين جنباتها جماعة من ذوي النفوس الطامحة ممن درسوا في الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ، يدرسون الأدب العربي وتاريخه وفنونه بطرائق المستشرقين التي صرنا عليها في بنيتهم وجامعاتهم الغربية دون نظر إلى فوارق الطبيعة والبيئة ومناحي التفكير ، حتى إذا أريد تحقيق الفكرة الجامعية بمصاها الواسع جعل من ذلك المعهد « الأهل » نواة لكلية الآداب بالجامعة المصرية الحديثة ، وقسمت إلى أقسام أدبية ، كان في مقدمتها قسم لدراسة اللغة العربية وآدابها وفنونها ، وهذا القسم هو الذي تقصده بالبحث هنا ، لأنه يدرس فنونا من العلم قامت لدراساتها معاهد منذ عشرات السنين ، بل منذ مئاتها ، فهل كانت هناك حاجة تدعو إلى إنشاء هذا القسم ضمن نظام الجامعة ؟ وهل الدراسة الجامعية على طرز الجامعات الأوروبية تنفذ كثيرا في دراسة فنون هذا القسم العربي ؟ وهل الحاجة لا تزال مستمرة تقتضي الأمانة بقاء هذا القسم على حاله وبذلك فسط كبير من مجهود التعليم وأمواله عليه ، أو أن المصلحة القومية تتطلب كثيرا من الإحلاص وتمزيق ثوب العصبية المعهدية والمناداة بحرة بتوحيد معاهد اللغة العربية تحت إدارة واحدة ونظام واحد يكمل للأمة وحدة الثقافة التي تعد شباب اليوم وأساتيد المستقبل ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نعرف شيئا عن منهج الدراسة في هذا القسم لمتبين : هل هناك فوارق جوهرية بينه وبين مناهج الدراسة في معاهدى اللغة العربية الأصليين - « الأزهر ، ودار العلوم » تبرز وجوده إلى جانبهما مستقلا عنهما ؟

يؤلف هذا القسم كما تؤلف كلية اللغة العربية ، وكما كانت تؤلف دار العلوم ، من أربع فرق ، يدرس فيها الطالب من علوم اللغة العربية : النحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب مادة وتاريخا ، ويدرّس معها على الحديث والتفسير من جهة اللغة والأدب والتاريخ ، ويدرّس شيئا من أصول الفقه ، ويلم بتاريخ الفلسفة وبعض نظرياتها ، والتاريخ الاسلامى العام ، ويدرّس لغة من لغتين شرقيتين « الفارسية أو العبرية » وأخرى من ثلاث غربية « الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية » .

هذا مجمل للفنون التي تدرس بهذا القسم يوشك أن يكون مستوعبا لمواد المنهج الأساسية ، فلم يفتة شيء له خطر مما يدرس فيه ، وهو في توزيعه على الفرق الأربع وكتبه التي يدرس منها أو التي يكون عليها اعتماده غير مستقر في مجموعه وجهته على حال ، بل هو خاضع للتطوّرات تغير فيه وتبدل ، كما أن منشأ تكوين هذا القسم ومابعه التي تعدّه بطلابه لا تتركز على أساس

ثابت أو قانون يحتم على طلبته أن يكونوا قد أتموا دراستهم الابتدائية والثانوية في معهد خاص تميز بنوع من الثقافة التي تعد الطالب لحياة التخصص في اللغة العربية وفنونها وآدابها ، وأكثر ما كانت عناصره من طلبة المدارس الحكومية الذين أكلوا القسم الثانوي (بكالوريا) ، وهؤلاء إنما درسوا من المعجوز بعض أبوابه ، ومن الصرف قليلا من فصوله ، ومن البلاغة مسائل منها ، ومن الأدب أبياتا من الشعر المنتخب ، وكلمات من النثر المتخير ، ومن التاريخ الاسلامي والقرآن والحديث تنقلا ، ثم ودرسوا لغة غريبة ، وعلوما أخرى لا تمت الى فنون العربية بصلة أكثر مما تمت به الى فن من فنون العلم عامة ، ولقد شهدت تقارير مفتشى الوزارة بقيمة تكوينهم في اللغة العربية وفنونها ، وكشفت الامتحانات عن ضعف نه الرجال الرسميين الى ضرورة تدرك الاصلاح بما يرفع مستوى الطلبة وينض بالغة

إن هذا التكوين الثقافي المحدود بالحدود الضيقة في منهج اللغة العربية لمدارس الحكومة لا يستطيع إعداد الطالب لتلقى ثقافة عالية في اللغة العربية وآدابها وفنونها ، لأن هذا الطالب ، فوق ضيق منهج اللغة العربية وضآلته عنده ، مرهق أشد الارهاق بكثرة المواد العلمية الأخرى التي تستوعب وقته ومجهوده ، فهو مضطرب بحكم نظامه التعليمي ومواجه أن يقف من اللغة العربية ذلك الموقف الذي كلفته الامتحانات وضاق به المفتشون ومن ورائهم الوزارة ودوائر التعليم ، فكيف صح لكلية الآداب ذات الطرز الجامعي في دراساتها ومناهجها أن تجعل قسمها العربي يعتمد على هؤلاء الطلاب ؟ ! والجامعة في عرف المؤرخين بها مرحلة الدراسة العالية ، ليس فوقها من مراحل التعليم الرسمي مرحلة ، وليس وراءها زيادة لمستزيد ، تتحلى فيها حرية الفكر والتعمق في البحث ، والانطلاق من قيود القواعد والأوضاع المألوفة لغير الجامعيين ، فهي بهذا التقدير يفني أن يكون طلابها قد درسوا الفنون التي يبغيون التخصص فيها دراسة تحيط بأصولها وفروعها ، ليتمكنوا في نظامهم الجامعي من البحث والتحقيق ، والنقد والتدقيق ، ومعرفة ما لتلك الأصول من قيمة علمية ، ومقدار ما لاسلوبها من ملاءمة للروح المصرية ، وما تحتاج اليه من تجديد وابتكار ، فهل لقسم اللغة العربية بكلية الآداب مهج دراسي يتفق مع هذا الروح الجامعي ، ويساير اعتباره العلمي ؟ وهل في مكانة حاملي شهادة الدراسة الثانوية لمدارس الحكومة أن يجروا في شوط النظام الجامعي بالقسم العربي لكلية الآداب ؟

إن الجواب عن السؤال الأول يقتضينا نظرة إجمالية في المنهج الدراسي لذلك القسم ونوزيمه على الفرق الأربع التي يتألف منها .

الفرقة الأولى :

١ — تدرس في النحو كتاب « شذور الذهب » لجمال الدين بن هشام ، وهو كتاب

— على صغره - قُتِمَ جدا في موضوعه ، تدرسه الجامعة الأزهرية لطلاب الفرقة الرابعة من القسم الابتدائي في جميع معاهدها ، فكيف صاغ ل كلية الآداب أن تدرس في نظامها الجامعي « الأعلى » كنابا يدرسه المندثون من طلة الأزهر ؟ وهل ترى كلية الآداب أن في ذلك مسأرة للاعتراف العلمى للروح الجامعى ؟

٢ — تدرس في البلاغة كتاب « المثل السائر » لصياء الدين بن الأثير الموصلى ، وهذا الكتاب من أجود كتب البلاغة التطبيقية ، يحب لفهمه أن تسبقه دراسة كتب قواعد البلاغة دراسة شافية وافية ، وأن يسبقه التطلع في الأدب العربى رواية ودراية وتاريخا

٣ — تدرس في تاريخ الأدب محاضرات على ضوء كتاب « فى الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين عميد الكلية ، وهذا توجيه لدراسة الأدب محقق لكثير من النهوض الأدبى إذا كان الطلبة فى مستوٍ من التحصيل العلمى يقدرون معه على النقد تزييفا وقبولا .

٤ — تدرس فى نصوص الأدب مختارات من كتاب « الآمال » لآلى عى القالى ، وهو كتاب يحتاج دارسه الى الفهر فى معرفة قواعد اللغة وفقها ، والى الحذق فى دراية مذاهب النعابة ، والى التفرس فى تاريخ الأدب ونقده ، ومعرفة صحيحه من منحوه

الفرقة الثانية :

١ — تدرس فى النحو قسما من ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل ، وكتاب « إحياء النحو » للاستاذ ابراهيم مصطفى أحد أساتذة الكلية ، فأما شرح ابن عقيل ، فكتاب معروف لدى الأزهر من زمن بعيد ، وهو الآن يدرس للفرق الأولى من القسم الثانوى فى جميع المعاهد الأزهرية ، وأما كتاب « إحياء النحو » فهو كتاب حديث وضعه وفهمه للنحو العربى ونظرياته ، وسنعالجه بالبحث فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

٢ — تدرس فى تاريخ الأدب محاضرات فى العصر الجاهلى وعصر صدر الاسلام ، وكتاب « فى الأدب الجاهلى » والكتب التى تنقده ، والتعويل فى ذلك على كتابى الأستاذين المصرى والنمراوى .

٣ — تدرس فى نصوص الأدب المعلقات جميعها ، ولا يحى ما يقتضيه فهم المعلقات من اللامام بقون البلاغة ، وقواعد اللغة ، وتاريخ الأدب العربى فى عصر المعلقات ، ومعرفة جغرافية الجزيرة العربية قديما ، وتاريخ القبائل فى حربها وسلمها ، ومن وراء ذلك ملكة النقد الأدبى وسلامة التقوى

٤ — تدرس فى العروض والقافية مع مقدمة تبين نشأة الأوزان الشعرية ، مع دراسة ماجدة من الأوزان فى الأندلس ، وبيان علاقة الموسيقى والرقص بالشعر ، وهذه ناحية قد

توجه النظر الى ما يتخيل فيها من طرافة وحدة في مناهج الفنون العربية ، وهي ليست هناك ، فان القدما من علماء العربية عرفوا وعرف عنهم الأثر ودار العلوم أن بين الشعر والايقاع « الموسيقى » سباقويا ، في « المزهر » للسيوطي « أن أهل العروض يجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الايقاع ، إلا أن صناعة الايقاع تقسم الزمان بالنغم ، وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة ، فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الايقاع ، والايقاع ضرب من الملاهي ، لم يصلح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم » بل عرف العرب وشعراؤهم الأقدمون وعرف الأثر ودار العلوم أن الغناء صير في الشعر وصيقله ، فقد حدثنا السقادي أن الناذلة الذبياني كان يقوى (١) في شعره فلما قدم المدينة - وأهل الحضر أطفحوا من أهل البدو - عيب عيبه ، فلم يأنه له حتى أشمعه القيان غناء في قوله -

أمن آل مية رائج أو مفتد عجلان ذا راد وغير مروء
رغم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وقوله من هذه القصيدة

سقط النصف ولم تزد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـد
مخضب رخص كان بتانه عزم يكاد من الطفاة يعقد

فانتبه اليه ولم يمد ، ولذا كان يقول : دخلت يثرب وفي شعري شيء وخرجت وأنا أشعر الناس . ولم يفت حول الشعراء أن يسجلوا هذه الظاهرة فقال حسان بن ثابت :

نفس في كل شعر أت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضار

وعرف الأدباء وعرف العرب من قبلهم أن بين الشعر و « الرقص » نسبا لا يخف عن النسب الذي بين الشعر والايقاع « الموسيقى » ، ففي أول مرحلة لدراسة الشعر يصرف صغار الطلبة أن من أنواع الشعر العربي نوعا يسمى الرجز ، وإنما أخذ اسمه من رجز الناقة في مشيتها وهو أن تتحرك ونسكن ، ثم تتحرك ونسكن ، ومنه قيل لحجب البعير رقص ، قال حسان ابن ثابت :

زجاجة رقصت بما في فمها رقص القلوص براكب مستمحل

فهل بعد ذلك تنق لدعوى التجديد في هذا المقام ساق تقف عليها ؟ !

(١) قال المرزباني في الموشح : والافواء . اختلاف المجري ، والمجري اختلاف حركة لروي الذي تبنى فيه القصيدة ، وخصمه يرفع يث وحر آخر ، وعلى ذلك قوله : ولا يكون الصب مع الجر ولا مع الرجم ، وإنما يجمع الرجم والجر لقرب كل واحد منهما من صاحبه ، ولأن الراود تلحق في البناء وأنها يحسودون في الردف في قصيدة واحدة

الفرقة الثالثة :

١ — تدرس في علم الصرف كتاب « شذا العرف » للحملاني ، وما يقابل موضوعه من ألفية ابن مالك . فأما « شذا العرف » فتدرسه دار العلوم في سبيلها الأولى ؛ وأما صرف الألفية فيدرسه الأهر في أقسامه الثانوية .

٢ — تدرس في تاريخ الأدب مذكرات من وضع الأساتيد في العصر الأموي ، وهو عصر انقلاب وثورة دامية اعتمدت على تأريث نيران العصبية القبلية ، وفيه نشأت الأحزاب الدينية والسياسية التي كان لها أكبر أثر في توجيه الأدب وموضوعيته ، فلا بد لدارس هذا العصر من الاطاعة بكثير من ذلك .

٣ — تدرس في النصوص الأدبية تحت عنوان « أدب » مختارات من نقائض حرير والفرزدق ، ومنتخبات من شعر الأخطل على حذو النقائض ، وقصائد الراعي ، ولدى الرمة ، والقطامي . وظاهر أن فهم هذه القصائد يحتاج إلى تبحر في اللغة ، ودراسة واسعة للتاريخ والبيئة ، وبعد ذلك تدرس تحت عنوان « كتاب قديم » « المفصليات » وهو كتاب مكتنز بالشعر العربي القديم الذي يتطلب فهمه استعدادا واسعا في اللغة وغربها وقواعدها وتاريخها .

٤ — تدرس في البلاغة علم المعاني من كتاب « الإيضاح » للقرظبي ، وهو من أعلى كتب القواعد في البلاغة ، غير أنه يقتضي ناحية الإيجاز المكتنزة بالمعاني في كثير من مواضع مما لا يقوى على فهمه إلا من غرس على شروح التلخيص وحواشيه ، وعرف مذهب السكاكي وأسلوب مفتاحه ، وفهم عبد القاهر ، وصرن على إشاراته ومقاصده في كتابه « أسرار البلاغة » ودلائل الإعجاز ، ومع كتاب الإيضاح تدرس مقدمة نفيسة للبلاغة يعلمها أستاذ النفس على طلبته ، وبين يدي سورة منها ، فإذا هي تبدأ سؤال عن سبب هذه الحياة ، واستعراض حال الإنسان في الزمن الأول ، وتفكيره القاصر في فهم الحياة ، وإجابة الدين عن هذا السؤال ورصاء الإنسان بهذا الجواب العاطفي حتى تطور في قوته الفكرية وأصبح لا يؤمن بالإلهاميات ؛ ثم يتولى علماء النشوء وعلماء الاجتماع وعلماء الآثار الإجابة عن ذلك السؤال ، وإذا بهذا البحث ينتهي والمشكلة باقية ، ولم نعلم سبب هذه الحياة ، ولا لماذا نحيا ؟ ثم إذا سؤال آخر يشب وثبا دون وصاله مبهمة : لماذا نتعلم ؟ وماذا نتعلم ؟ وبعد أجوبة عن هذين السؤالين تدور في مجالات أنسبه بالمجالات السابقة في بعدها عن حقيقة البلاغة يبدأ الكلام على تعريف البلاغة عند العرب وعند أرسطو ، ويقف على ذلك بتقد البلاغة العربية ، وأما نافضة ، وأن العرب لما ترجموا البلاغة اليونانية لم يفهموها بل شوهوها ، بل هم لم يفهموا تعريفهم الذي وضعوه للبلاغة ، لأنه مبني على قوانين علم النفس وتحليلها ، وهنا تعرض آراء علماء النفس في الإنسان وتركيبه وملكانه وغرائزه ، ثم البحث عن البلاغة : هل هي علم أو فن ؟

مع بيان للفنون حتى الفنون المهارية والمهندسية ، وعلى هذا النحو يدرس الطالب مقدمة للبلاغة تقع في قرابة مائة صفحة .

ومن المَعْدلة أن نعترف بأن هذا نوع من الدراسة البلاغية حديد تفردت به كلية الآداب ، لكننا عاجزون عن فهم صلة هذه البحوث بفن البلاغة العربية ، وقد كنت في دروسى أنمز بمض كتب أئمة البلاغة من المتأخرين لاستطردم الى مباحث فلسفية ومشاكل لفظية قد تستدعيها بعض المباحث البلاغية ، ويظهر أنى كنت بعيدا عن فهم الدراسات العالية لبلاغة ومقدماتها النفسية على النهج الجامعى فى كلية الآداب ، فهل أستطيع اليوم أن أصحح فهمى لبلاغة وأستغفر غمىزى لأئمتها الإعلام ؟ ليت ولعل !!

الفرقة الرابعة :

١ — تدرس النحو جميعه عرضا على طريقة كتاب « إحياء النحو » للاستاذ ابراهيم مصطفى ، وأحب أن أشير هنا الى شيء واحد ، وهو أن هذا الكتاب - الذى حذف وقدم وأخر وغير فى القواعد ، وبدل ودمج بعض أبواب فى أبواب أخرى ، واستغنى بشيء عن أشياء - تدرسه هذه الفرقة النهائية فيما تعبر به العام الدراسى من زمن الدراسة ، وهو بلا ريب أقل من لا شيء بالنظر لمن يريد من « الطلبة » فهم نظرية الكتاب ومذهبه فى النحو العربى ، لأنه لا يستقيم لطالب أن يفهم كتاب « إحياء النحو » إلا إذا كان قد أعمق النظر فى جميع أبواب النحو ، وحقق مذاهب النحويين ، وارتقى الى فلسفة النحو وعلمه ، وأدرك مقاصد واضعها ، ليستطيع بعد ذلك أن يعامل بين ما يعرض عليه من الآراء والمذاهب ويتمكن من نقدها .

٢ — تدرس فى الصرف قسم من الآلفية بشرح الأشمونى مع نظرات تطبيقية من كتاب « شذا العرف » وهما كتابان مقروءان فى الأزهر ودار العلوم .

٣ — تدرس فى البلاغة كتاب « الإيضاح » للقزوينى عرضا وتطبيقا ، وقد أسلفنا الحديث عن قيمة هذا الكتاب العلمية ومهدات فهمه وتحقيقه .

٤ — تدرس فى تاريخ الأدب العصر العباسى فى تراجم مفصلة : لىشار ، ومسلم بن الوليد ، وأبى تمام ، والبحترى ، وهم أشهر شعراء العصر العباسى ، تناولت الأفكار والأفلام فى معاهد الأدب ومخافته تراجم بالبحث والتحرير .

٥ — تدرس فى النصوص الأدبية قصائد من شعر أبى تمام والبحترى وابن الرومى ، ومختارات من كلام بديع الزمان . والكلام فيما تمس اليه حاجة فهم النصوص الأدبية شعرا ونثرا قد سبق .

هذه هي فنون اللغة العربية الصحيحة التي اشتمل عليها منهج الدراسة للقسم العربي بكلية الآداب ، وهذه هي كتبها وطريقة دراستها بذلنا جهدنا في أن نقارب الواقع في وصفها والحديث عنها ، فإذا هي لا تخرج عن فنون تدرس في الأزهر ودار العلوم ، بيد أنها تدرس في الأزهر دراسة استيعاب وتحقيق متدرجة بالكتب الدراسية تدرج الطالب واستمداده العلمي ، وقد أريناك أن بعض الكتب التي يدرسها قسم كلية الآداب يدرسها القسم الابتدائي للأزهر ، وبعضها يدرسها القسم الثانوي ، والفرق الأولى لمدرسة دار العلوم ، وإذا كانت هناك فنون وكتب يدرسها قسم كلية الآداب لا تدرس إلا في كلية اللغة العربية والفرق النهائية لدار العلوم فإن هناك فرقا كبيرا بين طالب كلية الآداب (الذي انتقل إليها طقرا بمدة نهاية المرحلة الثانوية في مدارس الحكومة ، وقد عرفنا وعرفت الرسميات مقدار استمداده في اللغة العربية وفنونها) وبين طالب كلية اللغة العربية ودار العلوم الذي صار إليها بعد تكملة دراسة القسم الثانوي للجامعة الأزهرية ، فيكون قد درس جميع الفنون العربية في كتب واسعة محيطتها بموضوعاتها ، وهذا الذي لاحظناه في تعليقاتنا السابقة على منهج قسم كلية الآداب قصدا إلى أن يبين أن المنهج في ذاته نرى جد الثراء بفنونه وكتبه ولكم يفقد كثيرا من التلاؤم بينه وبين طبيعة الاستعداد العلمي لطالب الذي يدرسه .

وهنا ينساق بنا الحديث إلى جواب السؤال الثاني ، وقد تولت الإجابة عنه كلية الآداب نفسها بفتح أبوابها لطلبة القسم الثانوي للأزهر ، فقد أدركت أن الدراسة العالية التي وضعت لها هذا المنهج في حاجة إلى طلاب صنفوا على البحث والتفقه في دراسة اللغة العربية وقرءوا من كتبها ما يصلح أن يكون دعامه قوية لفهم هذا المنهج . وأنا لا أنكر أن كثيرا من طلبة كلية الآداب الذين أكملوا دراستهم الثانوية في المدارس الحكومية لم يوسع ذهنهم واستعداد أدبي وعكوف على الدراسة والبحث مما جعلهم في مصاف الأدباء الكتاب والشعراء ، ولكن هؤلاء على قلتهم لا يغنيهم ذكاؤهم وسوغهم عن البحث والدراسة في تدرج البرامج الموضوعية إذا أرادوا ثقافة عربية جامعية .

هناك فنون تدرسها كلية الآداب لقسمها العربي مضافة إلى تلك الفنون لم أجيد داعيا لذكرها لأنها لم تكن هي المقصودة بالدراسة في هذا القسم ، ولا لأجلها شيء ، وإنما تدرس هناك كما تدرس في أي معهد من معاهد اللغة العربية سوى اللغات الأجنبية ، وقد أدخلها النظام الجديد في منهاج كلية اللغة العربية ومدرسة دار العلوم .

أما بعد : فهل بقيت شبهة محتج بها الذين يناهضون توحيد معاهد الثقافة العربية تحت إدارة واحدة ونظام واحد بعد الذي بيناه من وحدة البرامج الدراسية في المعاهد الثلاثة العليا ووقور جميع مقتضيات النهوض في كلية اللغة العربية في ظل أعظم جامعة إسلامية في العالم ؟ !

إننا نكرر أن كل إصلاح لا يقوم على دعامة هذا التوحيد لا يغير من الأمر شيئاً ، ولا يفيد في إنعاش اللغة العربية قتيلاً .

ونختم هذا البحث بالكلمة القيمة التي جاءت في تقرير الأستاذ الجليل محمد بك العشماوي وكيل وزارة « التربية والتعليم » ، فانه حامل لواء النهضة لتوحيد الثقافة العربية ، قال : « ويلاحظ أن في مصر حالة شاقة ، وهي تعدد المعاهد التي تخرج معلم اللغة العربية ، ولا يخفى ما في ذلك من ضرر حيث تتنوع الثقافة وطريقة الإعداد وتكثر الثقافات ، ومن الخير أن توحد هذه المعاهد وأن يسودها جو التوحيد ، وأن تتجه لفاية واحدة ، ولكن يخيل إلى أن هذا الأمل لا يزال بعيد التحقيق نظراً للظروف التي تكثف هذه المعاهد ، وكانت سبباً في وجودها في هذا الموضع الشاذ ... لذلك كان على الوزارة أن تفكر في علاج يحقق أغراضها في حسن إعداد معلم اللغة العربية حين ما تنهت الفرصة لإصلاح أبعد مدى وأوسع نطاقاً » .

صالح إبراهيم عرجون

من ارتج عليه وهو يخطب

كان أسلافنا من الأمراء والعلماء لا يكتبون الكلام ثم يقرأونه على الناس كما يفعل أخلافهم اليوم ، فان هذا لا يعتبر خطباً ولكن تعتبر تلاوة بهذا السبب حفظ على أسلافنا من فرسان الخطابة أنهم قد ارتج عليهم باب الكلام بعد صعودهم إلى المنبر فاعتذروا للحاضرين وزلوا .

منهم عثمان رضي الله عنه سعد المنبر ليخطب فارتج عليه فقال : « سيحمل الله بعد هسر يسرا » وبعد عي بيانا ، وأتم إلى أمير فعال ، أخرج منكم إلى أمير قوال « ثم زل .
وإني أرى ولعل كل قارئ يرى معنى أن هذه العبارة على إنجازها تساوى خطبة على طولها .

وصعد عبد الله بن عامر إلى البصرة يوم عيد الاضحى ليخطب خطبة العيد فحصر ولم يستطع الكلام فقال : لا أجمع عليكم عيا وبجلا ، أدخلوا سوق النعم فن أخذ شاة فهي له وعلى منها .
وأراد نابت مولى يزيد بن المهلب أن يخطب فارتج عليه فترل وهو يقول :
قالا أكن فيكم خطيبا فاني يسبي إذا جد الوغى خطيب
فبلغ ذلك المهلب فقال : لو قال هذا وهو على المنبر لكان من أخطب الناس .

أصول التشريع

— ٤ —

بحث في الاجتهاد والاجماع

(١) لماذا كان الاجتهاد في هذا العصر أيسر منه في الماضي ؟ (٢) ما أهم الكتب التي تكون المجتهدين ؟ (٣) مدرسة الاجتهاد والعلوم التي تدرس فيها ويستفاد منها مناصب الاجتهاد . (٤) ما مناط الاجتهاد ؟ (٥) اقتراح بإنشاء قسم في الأزهر للتخصص في علوم الاجتهاد .

١ - لماذا كان الاجتهاد الآن أيسر منه في الماضي :

لا ريب في أن الاجتهاد في هذا العصر أيسر وأسهل منه في العصور الخالية ، ومن أهم الأسباب في ذلك : ظهور المطابع ، ووجود الورق ، وطبع الكتب في العلوم المختلفة ، وسهولة الحصول عليها مع رخص ثمنها بعد أن كانت صعبة المال لا يمكن لغنى أن يحوزها فضلا عن الفقير ، إلا بشق الأنفس وإتفاق المال الكثير ، ولا أدل على ذلك مما ذكره الامام ابن عبد السلام في شرح ابن الحاجب قال : مواد الاجتهاد في زمننا أيسر منها في زمن المتقدمين . فإذا كان الاجتهاد في زمن ابن عبد السلام - وقد توفي سنة ٧٤٩ - أيسر منه في الأزمان التي قبله ، فهو في هذا الزمان أيسر أضعاظ مضاعفة .

وقال الامام ابن عرفة : ما أشار اليه ابن عبد السلام من تسير الاجتهاد هو ما سمعته يحكيه عن بعض الشيوخ . أن قراءة مثل الجزولية ، والمعالن الفقهية ، والاطلاع على أحاديث الأحكام الكبرى لسد الحق ، ونحو ذلك ، يكتفى في تحصيل الاجتهاد . وقال ابن عرفة أيضا : يريد مع يسر الاطلاع على فهم مشكل اللغة بمختصر العين ، والمصالح الجوهرية ، ونحو ذلك من كتب غريب الحديث ، ولا سيما مع نظر كلام ابن القطن وتحقيقه أحاديث الأحكام . وبلغ درجة الامامة ، أو ما قاربها في العلوم المذكورة غير مشروط في الاجتهاد إجماعا اه . وابن عرفة انتهت اليه رئاسة المذهب المالكي بإفريقية ، وهو تلميذ ابن عبد السلام . وتوفي سنة ٨٠٣ . وقال الأبى في شرح مسلم . كان ابن عبد السلام يحكى أن من الشيوخ من كان يصتف الاجتهاد ، ومنهم من كان يسهله ، وإلى التسهيل كان يذهب الشيخ ابن عرفة ، ويرى أنه يكتفى في مادته النحوية مثل : الجرولية ، والأصولية : متن ابن التلمساني . قال : وأما الحديث فهو

اليوم سهل ، لأنه قد فرغ من تمييز صحيحه من سقيمه ، فإذا نزلت به مسألة أم الولد مثلاً فيكفيه أن يجمع من المصنفات : الأحكام الكبرى لعبد الحق ، وينظر ما فيها ، ويكتفيه فيه تصحيح مؤلفه ، ولا يؤرمه نظر ثان في سنده ، ولا يكون مقلداً في ذلك .

قالوا : ويكتفى في معرفة الاجماع بالنظر في كتب الاجماع الموسوعة فيه : كاجماع ابن القطان . وكان الشيخ يقول : إذا أحصر هذه المصنفات للنظر في البارة فانه يجمع لديه من الأحاديث فيها ما لا يكاد يحضر مالكا ، قال : وأنسب من رأيت على هذه الصفة - يعنى في المشاركة في هذه المواد - ابن عبد السلام وابن هارون اهـ .

وعن كان يصعب الاجتهاد ، الإمامان : الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، ونحنا نحوهما الشيخ الإمام على السبكي ، وذلك كله مقال للمشهور الذى صدر به في جمع الحوامع . انتهى من الفكر السامى .

وقال العلامة محمد بن الحسن الحجوى في كتابه « الفكر السامى » السالف الذكر : إن مواد الاجتهاد اليوم في القرن الرابع عشر أيسر مما كان في زمن الآبى ، وابن عرفة ، ومن قبلهما ، بسبب أهل الفصل الذين اعتنوا بالمطابع ، وطبعوا الكتب المعينة على الاجتهاد . وإن ظهور الطباعة نقل العلم من طور الى طور ، وقد كانت المتقدمون يعاونون مشاق عظمية في كتب الكتب ، ويحتاجون لمادة مائية وزمن طويل ، أما بمسد ظهور الطباعة فقد تيسر ما كان عسيرا ، إلا أنها وجدت الأمانة في التأخر ، والفقرة في الاضمحلال ، والهمم في جود ، فكأننا لم نستفد منها شيئا ، فاذقنا ما استفدناه منها ، ودرجة الرقى التى حصلت لفقهاءنا بالعسة لما حصل زمن المأمون العباسى من النشاط العلمى بسبب ظهور الورق ، حكنا بأننا لم نتقدم خطوة تعتبر وتناسب ما تقدمه غيرنا من الأمم .

٢ - أم كتب الاجتهاد :

ورضا عن ذلك فقد وجدت كتب كانت أعز من بيض الأوق ، وانتشرت ، ولا سيما كتب الحديث ، فقد طبعوا الكتب الستة ، والموطأ ، وشرحها ، ومسند أحمد ، ومعه كثر المال ، وهما من أجمع الكتب لما يحتاج اليه المجتهد من السنة ، وطبعوا فى الهند مستدرك الحاكم وتلخيصه للذهبي ، كما طبع مسند أبى داود الطيالسى ، وطبقات ابن سعد ، وعلل ابن أبى حاتم ، وكتب الرجال للذهبي وغيره ، ومسند الإمام الشافعى ، والام ، ومسند أبى حنيفة ، وغيرها من كتب المتقدمين ، ثم طبع تيسير الوصول الى جامع الأصول لابن الدبيع ، وهو وحده كاف ، ومعدة الأحكام وشرحها ، وغير ذلك مما يطول تعدادها من كتب الحديث المعتمدة . وكفى بكتاب المشكاة للبرزى المشتغل على ٥٩٤٥ حديثا ، وهى معظم ما يحتاجه المجتهد ، وشرحها لعلى القارى ، فقيه تحقيق أحاديث الأحكام ، ومخرجها ، وعلل ما أهل منها .

فإذا صممت ذلك الى تبسير الوصول السابق تجده كافيا وافيا ، ورعا لم يحصل عليه مجتهدو العصر الأول إلا بعد عناء كثير ، وزمن ليس يسير ، ولو أنه كان متيسرا لكل مجتهد لقن الخلاف . ولا يستهان بكتاب بلوغ المرام للحافظ ابن حجر العسقلاني ، وشرحه سبل السلام للصنعاني ، وناهيك بعنتي الأحبار لابن تيمية ، وشرحه بيل الأوطار للشوكاني ، فهناك فاية وطر المجتهد ، الى غير ذلك من الكتب التي طبعت وسهل تناولها . ومن الكتب التي تميز على الاجتهاد أحكام ابن العربي في تفسير آيات الأحكام الفقهية من القرآن العظيم ، وأحكام الجصاص الحنفى ، وتفسير الطبرى ، والنهاية لابن الأثير ، وبداية المجتهد لابن رشد ، والقاموس فى اللغة وشرحه ، وأساس البلاغة للمرحمرى ، وفتح البارى على صحيح البخارى ، فهو من مواد الاجتهاد المنيرة ، وكتاب المنقذ للباجى الذى يرشد الى طريق الاجتهاد والتعليل والقواعد . وغير ذلك ، وإعلام الموقعين لابن القيم ، فهو من أحسن ما يدرب على الاجتهاد لولا ما فيه من التحامل على الحنفية والأشعرية ، وقد مرّح الامام الغزالي بأن سنن أبى داود السجستاني كافية لمجتهد مغنية عن غيرها . ومن كتب هذا الشأن : كتاب التحقيق فى أحاديث التعليق لابن الجوزى الذى اشترط فيه على نفسه أن يخرج ما ذكره فقهاء المذاهب تعليقا من أحاديث الأحكام ويشكك عليها من غير تعصب لمذهب على مذهب ، وكتاب تنقيح التحقيق فى أحاديث التعليق للحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عبد الهادى ، فإنه مفيد جدا لمن يمتنى بأحاديث الأحكام ، خص به كتاب التعليق وأبدى ما لابن الجوزى من الأوهام . انتهى

٣ - مدرسة الاجتهاد وعلومه :

وضع علماء الأصول لمدرسة الاجتهاد المنهج الذى تسير عليه ، وبينوا العلوم التى تدرس فيها لايجاد المجتهدين فقالوا : للاجتهاد ثلاثة أركان : الاجتهاد ، والمجتهد فيه ، والمجتهد .

فأما الاجتهاد : فهو بذل الجهود واستفراغ الوسع فى فعل من الأفعال ، ولا يستعمل إلا فيما فيه كلفة ومشقة وجهد ، فيقال : اجتهد فى حمل حجر الرعى ، ولا يقال : اجتهد فى حمل حردة ، لكن صار اللفظ فى عرف العلماء مخصوصا ببذل المجتهد وسعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة ، واستنطاق الأحكام من أدلتها . والاجتهاد التام : أن يبذل الوسع فى الطلب بحيث يحس من نفسه بالعجز عن مزيد الطلب . فإذا صدر الاجتهاد التام من أهله ، وصادف عمله ، كان ما أدى اليه حقا وصوابا .

والمجتهد فيه : كل حكم شرعى ليس فيه دليل قطعى ، إذ لا مساع الاجتهاد فى مورد النص

والمجتهد : النقيه : وهو البالغ العاقل ، ذو الملكة التى يقدر بها على استنطاق الأحكام من ما أحدها ، وإعما يتمكن من ذلك بشروط .

(أولها) أن يكون عالما بنصوص الكتاب والسنة ، فإن فطر في أحدهما لم يكن مجتهدا ، ولا يجوز له الاجتهاد .

ولا يشترط معرفته جميع الكتاب ، بل ما يتعلق فيه بالأحكام ، قال الغزالي وابن العربي . وهو مقدار خمسمائة آية ، ودعوى الانحصار في هذا القدر إنما هي باعتبار الظاهر ، للقطع بأن في الكتاب العزيز من الآيات التي تستخرج منها الأحكام الشرعية أضعاف أضعاف ذلك ، بل من له فهم صحيح وتذكر كامل يستخرج الأحكام من الآيات الواردة لجرد القصص والأمثال ، قالوا : ولعلمهم قصدوا بذلك الآيات الدالة على الأحكام دلالة أولية بالذات لا بطريق النصن والالتزام .

وقد حكى الامام الماوردي عن بعض أهل العلم - أن اقتصار المقتصرين على العدد المذكور إنما هو لأهم رأوا مقاتل بن سليمان أفرد آيات الأحكام في تصنيف وجعلها خمسمائة آية ؛ وقد نازع ابن دقيق العيد في العدد أيضا فقال - هو غير منحصر في هذا العدد ، بل هو مختلف اختلاف الأذهان ، وما يفتحه الله على عباده من وجوه الاستنباط ، ولعلمهم قصدوا بذلك الآيات الدالة على الأحكام دلالة وافية بالذات لا بطريق التضمن والالتزام .

وقال الأستاذ أبو منصور : يشترط معرفة ما يتعلق بحكم الشرع ، ولا يشترط معرفة ما فيها من القصص والمواعظ .

وإذا كان عالما بأحكام القرآن ، فهل يشترط أن يكون حافظا لتلاوته ؟ قال في القواطع : ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه يلزم أن يكون حافظا للقرآن الكريم ، لأن الحافظ أضبط لمعانيه من الناظر فيه ، وقال آخرون : لا يلزم أن يحفظ ما فيه من الأمثال والروايع . وحزم الأستاذ أبو إسحاق وغيره بأنه لا يشترط الحفظ ، وجرى عليه الرافعي . وقال الامام الغزالي : لا يشترط حفظها من ظهر قلب ، بل أن يكون عالما بمواضعها بحيث يطلب فيها الآية المحتاج إليها وقت الحاجة .

و (ثانيها) معرفة ما يحتاج إليه من السنن المتعلقة بالأحكام ، قال الماوردي : وقيل إنها خمسمائة حديث ، وقال ابن العربي في المحصول : هي ثلاثة آلاف حديث ، وشدد الامام أحمد ابن حنبل ، فقال أبو علي الضرير قلت للامام أحمد بن حنبل : كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفقه ؟

أيكفيه مائة ألف حديث ؟ قال : لا .

قلت : مائتا ألف ؟ قال : لا .

قلت : ثلاثمائة ألف ؟ قال : لا .

قلت : أربعائة ألف ؟ قال : لا .

قلت : خمسمائة ألف ؟ قال : أرحو .

وفي رواية : قلت : ثلاثمائة ألف ؟ قال : لعله .

وكان مراده بهذا العدد آثار الصحابة ، والتابعين وطرق المنون ؛ ولهذا قال : من لم يجمع طرق الحديث لا يحل له الحكم على الحديث ، ولا الفتيا به .

وقال بعض أصحابه : ظاهر هذا أنه لا يكون من أهل الاجتهاد حتى يحفظ هذا القدر ؛ وهو محمول على الاحتياط والتفليظ في التثنية ، أو يكون أراد وصف أكمل الفقهاء .

فأما ما لا بد منه فقد قال أحمد : الأصول التي يدور عليها العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن تكون ألفا ومائتين . واختار أنه لا يشترط الاطاعة بجميع السنن ، وإلا لانسد باب الاجتهاد .

وقد اجتهد مصر وغيره من الصحابة في مسائل كثيرة ، ولم يستحضروا فيها النصوص ، حتى رثيت لهم فرجعوا إليها .

قال أبو بكر الرازي : ولا يشترط استحصار جميع ما ورد في ذلك الباب ، إذ لا يمكن الاطاعة به ، ولو تصور لما حضر في ذهنه عند الاجتهاد جميع ما روى فيه .

وقال الغزالي وجماعة من الأصوليين : يكفي أن يكون عنده أصل يجمع أحاديث الأحكام كسنن أبي داود ، ومعرفة السنن للبيهقي ، أو أصل وقعت العناية فيه بجميع أحاديث الأحكام ؛ ويكفيه أن يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة . وتبعه على ذلك الرافعي ؛ ونارعه النووي وقال : لا يصح التمثيل بسنن أبي داود ، فإنه لم يستوعب الصحيح من أحاديث الأحكام ، ولا معظمها ، وكفى في صحيح البخاري ومسلم من حديث حكى ليس في سنن أبي داود .

وكذا قال ابن دقيق العيد في شرح العنوان : التمثيل بسنن أبي داود ليس بجيد عندنا لوجهين : أحدهما - أنها لا تحوى السنن المحتاج إليها ؛ وثانيهما - أن في بعضها ما لا ينجح به في الأحكام .

وظاهر كلامهم أنه لا يشترط حفظ السنن بلا خلاف لعمره ، ولا يجري الخلاف في حفظ القرآن هاهنا ، ولا بد من معرفة المنواتر من الآحاد لتمييز بين ما يقطع به منها ، وما لا يقطع . وقال الامام الغزالي : إن كان يقدر على حفظه فهو أحسن وأكمل ، وقد طبعت أحاديث الأحكام ، وكتب السنة ، وبذلك أصبح الاجتهاد سهل المنال ؛ ولا يشترط أن يكون حافظا لحال الرجال من المعتبر أن يتمكن بالبحث في كتب المرح والتعديل من معرفة حالهم .

(ثالثها) الاجماع ، فليعرف مواقعها حتى لا يفتى بخلافه ، ولا يلزمه حفظ جميعه ، بل

كل مسألة يفتى فيها يعلم أن فتواه ليست مخالفة للاجماع ، وإنما يوافق مذهب عالم ، أو تكون الحادثة متولدة في هذا العصر لم يكن لأهل الاجماع فيها خوض ؛ ولا بد مع ذلك أن يعرف الاختلاف حتى لا يحدث قولاً يخالف أقوالهم فيخرج بذلك عن الاجماع .

كتب الاجماع :

قال العلامة المحمدي في كتابه السالف الذكر : يجب على المجتهد معرفة الكتب المؤلفة في الاجماع لأبي بكر الراري وغيره ، ثم قال : ولم أعتز إلى الآن على شيء من كتب الاجماع مطبوعاً ، وكان الواجب الاعتناء بطبعها سواء : الاقتناع في مسائل الاجماع لأبي الحسن بن القطان ، أو كتاب الاجماع لابن حزم ، أو ابن عبد البر ، أو ابن المنذر ، وكل منهم ألف في ذلك . نعم إن الاجامات مفرقة في كتب الفقه ، غير أن الاطلاع عليها قد لا يغني عن تلك الكتب ، فالواجب على أهل العلم البحث عنها وطبع المهم منها .

و (رابعها) كيفية النظر ، فليعرف شرائط الراهي والحدود وكيفية تركيب المقدمات ويستبسط المطلوب ليكون على بصيرة ، كذا ذكره المناخرون . وأصله اشتراط الغرالى معرفته بعلم المسطق ؛ قال ابن دقيق العيد . ولا شك أن في اشتراط ذلك على حسب ما يقع اصطلاح أرباب هذا الفن غير معتبر ، لعلنا بأن الأولين من المجتهدين لم يكونوا خائضين فيه ؛ ولا شك أيضاً أن كل ما يتوقف عليه تصحيح الدليل ، ومعرفة الحقائق لا بد من اعتباره .

و (خامسها) لا بد أن يكون عارفاً بلسان العرب ، وموضع خطابه : لغة ، ونحوها ، وتصريفها ، وبلاغة ، فليعرف القدر الذي يفهم به خطابه ، وماداتهم في الاستعمال إلى حد يميز به بين صريح الكلام وظاهره ، وبجمله ومبينه ، ومأمه وخاصه ، وحقيقته ومجازه .

وقال الأستاذ أبو إسحاق ويكتفيه من اللغة أن يعرف طالب المستعمل ، ولا يشترط الشعر ؛ ومن النحو . الذي يصح به التمييز في ظاهر الكلام : كالفاعل ، والمفعول ، والخافض والرافع ، وما يتعلق عليه المعاني في الجمع والعطف والخطاب والكنائيات ، والفصل والوصل ، ولا يلزم الاشراف على دقائقه .

وقال ابن حزم في كتاب التقریب : يكتفيه معرفة ما في كتاب الجمل لأبي القاسم الزجاجي ، ويفصل بين ما يختص منها بالاسماء والأفعال لاختلاف المعاني باختلاف العوامل الدالة عليها .

قال ابن دقيق العيد . واشترط الأصل فيه متعين ، لأن الشريعة عربية متوقفة على معرفة اللغة ، نعم لا يشترط التوسع الذي أحدثوه في هذا العلم ، وإيما المعتبر معرفة ما يتوقف عليه فهم الكلام . قال الماوردي : ومعرفة لسانه فرض على كل مسلم من مجتهد وغيره .

وقد قال الامام الشافعي رضى الله عنه : على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه

جهده في أداء فرضه . وقال في القواطع : معرفة لسان العرب فرض على العموم في جميع المكلفين ، إلا أنه في حق المجتهد على العموم في إشرافه على العلم بألفاظه ومعانيه ، أما في حق غيره من الأمة ففرض فيما ورد التعبد به في الصلاة من القراءة والاذكار ، لأنها لا تجوز بغير العربية .

فان قيل . إجابة المجتهد بلسان العرب يتعذر ، لأن أحدا من العرب لا يحيط بلغاتهم ، فكيف نحيط نحن ؟ قلنا : لسان العرب وإن لم يحط به واحد من العرب فإنه يحيط به جميع العرب ؛ كما قيل لبعض أهل العلم : من يعرف كل العلم ؟ قال : كل الناس . والذي يزم المجتهد أن يكون محيطا بكثرة ، ويرجع فيما عرب عنه إلى غيره ، وقد طبعت كتب اللغة ورتبت على حروف المعجم ترتيبا لا يصعب الكشف ولا يعد الاطلاع ، كما طبعت كتب النحو والصرف والبلاغة وغيرها ، ولا يعموز إلا الأهم المالية للعمل والوصول إلى مرتبة الاجتهاد .

و(سادسها) معرفة الناسخ والمنسوخ بخافة أن يقع في الحكم بالمنسوخ المتروك ، ولهذا قال علي رضي الله عنه لقاض : أتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكك وأهلك . وكذلك معرفة وجوه النص في العموم والخصوص ، والمجمل والمبين ، والمقتيد والمطلق ؛ فان قصر فيها لم يجر . وقد بين المؤلفون الناسخ والمنسوخ ، وألف في ذلك كتب مفردة مطبوعة .

و(سابعها) معرفة حال الرواة في القوة والضعف ، وتغيير الصحيح من الفاسد ، والمقبول من المردود . قال الشيخ أبو إسحاق والقرافي . ويعمل على قول ثمة الحديث كأحمد والبخاري ومسلم والدارقطني وأبي داود ، لأنهم أهل المعرفة بذلك ، جاز الأخذ بقولهم ، كما أخذ بقول المقومين في القيم . قال ابن دقيق العيد : وهذا مضطرب في الأحكام المبذبة على الأحداث التي هي في باب الآحاد ، فانه الطريق الموصل إلى معرفة الصحيح من السقيم

٤ - ما مناط الاجتهاد :

و(ثامنها) : القياس فليعرفه بشروطه وأركانه لأنه مناط الاجتهاد ، وأصل الرأي ، ومنه يتشعب الفقه ، وأساليب الشريعة ، وهو المقتضى إلى الاستقلال بتفاصيل أحكام الوقائع ، مع انتفاء الغاية والنهاية ، فان نصوص الكتاب والسنة محصورة مقصورة ، ومواقع الاجماع معدودة مأثورة ، فليقل منها تراها المستند إلى القطع وهو معوز قليل ، وما يقله الآحاد عن علماء الأعصار ينزل منزلة أخبار الآحاد ، وهي على الجملة متناهية ؛ ونحن نعلم قطعا أن الوقائع التي يتوقع وقوعها لا نهاية لها ، والرأي المبتوت به عند كثير من الأئمة أنه لا تخلو واقعة عن حكم الله تعالى منتقاة من قاعدة الشرع .

والأصل لدى يسترسل على جميع الوقائع القياس ، وما يتعلق به من وجوه النظر

والاستدلال ؛ فهو إذا من أحق الأصول باعتبار الطالب ، ومن عرف ما أحذنه وتقاسيمه ، وصحيجته وقاسده وما يصح من الاعتراضات عليها وما يفسد منها ، وأحاط بمراتبه جلاء وحقاء ، وعرف مجاريها ومواقفها ، فقد احتوى على مجاميع الفقه ، كما قال إمام الحرمين .

وقال بعض العلماء : يجب أن يكون عالماً بعلوم أصول الفقه ويطلع على مختصراته ومطولاته فإنه مما دال الاجتهاد . وقال الفخر الرازي في المحصول : إن أهم العلوم للمجتهد علم أصول الفقه . وقال الغزالي : إن أعظم علوم الاجتهاد يشتمل على ثلاثة فنون : الحديث واللغة ، وأصول الفقه ، وكتبها في متناول الأيدي مطبوعة ومخطوطة . هذه هي أهم علوم الاجتهاد ، فمن عرفها فهو في الرتبة العليا .

وليس من شرط المجتهد أن يكون عالماً بكل مسألة ترد عليه ، فقد سئل مالك عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين منها لا أدري ؛ وكثيراً ما يقول الشافعي لا أدري ؛ وتوقف كثير من الصحابة في مسائل ؛ وقال بعضهم من أفنى في كل ما سئل عنه فهو مجنون .

هذا كله في المجتهد المطلق ، أما المجتهد في حكم خاص فاعلم يحتاج إلى قوة تامة في السور الذي هو مجتهد فيه . فمن عرف القياس فله أن يجتهد في مسألة قياسية وإن لم يعرف غيرها . هذا بناء على جواز تجزؤ الاجتهاد ، وهو الصحيح . فأما المجتهد المقيد الذي لا يمدو مذهب إمام خاص فليس عليه غير معرفة قواعد إمامه ، وليراع فيها ما يراعيه المجتهد المطلق في قياس الشرع .

٥ - اقتراح إنشاء قسم في الأزهر للتخصص في علوم الاجتهاد :

فقد ظهر من هذا الذي عرصناه بسر الاجتهاد في هذا العصر عنه في العصور السالفة ، وما يمنع منه إلا الفتور ؛ وحبذا لو أنشئ في الأزهر الشريف قسم للتخصص في علوم الاجتهاد يدخله العلماء ويمكثون فيه مدة لا تقل عن المدة التي قضوها في الحصول على شهادة العالمية ، بعد أن تكفيهم الدولة حاجات المعاش ، وبعد أن يسبوا في حياتهم وفي معيشتهم وفي كل أمورهم على منوال الأئمة المجتهدين . إنه بهذا تخطو مصر نحو إيجاد المجتهد خطوة لها ما بعدها . إن شاء الله تعالى .

أما بعد . فمن لإنشاء هذا القسم ، ومن للاجتهاد وعلومه وطلابه ، سوى إمام العصر ، شيخ الاسلام ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، أدامه الله ذخراً للعلم والعلماء ، وأعزه الاسلام والمسلمين !

السيد هبة

من علماء الأزهر الشريف

محرم مجلة المحاماة الشرعية السابق

موازين الحكم الادبي

- ٣ -

الفهم :

في المقالين السابقين أشبعنا القول عن الذوق باعتباره ميزانا من موازين الحكم الادبي ، وفي هذا المقال تنكلم عن « الفهم » ، فهو ميزان آخر يقوم الى جانب الذوق في تقدير الكلام والحكم عليه ، ولقد قرأت فيما قرأت للمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعي كلاما يقول فيه : « إن الذوق الادبي في شيء ، إنما هو فهمه ، وإن الحكم على شيء ، إنما هو أثر الذوق فيه ، وإن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا » وهذا الذي قاله الرافعي كلام يتهاك في أوله ، بقدر ما يتهاك من آخره ، نعم فقد أخطأ الرافعي إذ حسب « أن الذوق الادبي في شيء ، إنما هو فهمه » ، فإن الفهم شيء ، والذوق شيء آخر ، وإذا كان الذوق يستلزم الفهم كما يقولون ، فإن الفهم كثيراً ما ينفك عنه فلا يستلزمه ولا يقتضيه ، ولقد يتأتى للشخص أن يفهم الاثر الادبي على خير ما يكون الفهم ، ومع ذلك لا يقع من ذوقه أدنى موقع ، كما هو حال كثير من علماء النحو ورجال اللغة ! ولكن الرافعي مصيب من غير شك إذ يرى « أن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا » ، فإن الناقد إنما تم له الاداة ، ويصح له أن يحكم على الاثر المنقود ، إذا ما فهم ألفاظه ومعانيه ، ووقف على إشاراته وسماعه ، وتلصق له كل وجه يستقيم عاينه منظوفاً ومفهوماً ، وكل مدلول يقتضيه صريحاً واستلزماً .

تلك حقيقة هي من الواضوح الى حد البدهة ، ولكن الدكتور طه حسين نقل كلاماً عن الشاعر الفرنسي بول فاليري زعم فيه : أن موت الاثر القوي إنما يأتي من فهم الناس له ، فأنت إذا ما قرأت كتاباً وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه ، فهناك إذن جهاد عنيف بين القارئ والمقروء ، فإذا فهم القارئ فقد غلب ، وإنما الاثر القوي الخليق بهذا الاسم ، هو الذي يطلب القارئ ويمجزه ، ولكن دون أن يضطره الى اليأس والقنوط ، ومن هنا كان النشر طبيعة تكوينه أقرب الى الموت وأدنى الى الفناء ، لأنه أقرب الى الفهم وأدنى الى الفهم (١) ! الدكتور طه لا يميز الناقد في هذه الغمرة عن أي قارئ آخر ، بل ولا يرضى له أيضاً بفهم « الاثر القوي الخليق بهذا الاسم » ليمت ذلك الاثر الفناء ، ومن ثم فقد طار الى الأوج بقصيدة « المقبرة البحرية » لصاحبه فاليري هذا ؛ وكل دليله في ذلك أنها استغلقت على القاد

فلم يفتح لهم فيها باب الفهم على الرغم مما بذلوا في الفهم ووسموا في التأويل ، وكأني بالدكتور التفاصيل قد فاته أن اللغة — في أرق أوضاعها وفي أحط أوضاعها — ليست إلا سبيل الفهم والفهم أساس المعرفة ، والمعرفة قوام الحياة وصلة الانسان بالعالم ، ثم كأني بالدكتور قد نسي أنه من قبل ذلك رد كتاب رسائل الاحزان للرافعي ، وكانت حجته في ذلك أنه قرأ الكتاب فلم يفهمه ، وهو لا يستطيع أن يحكم على شيء استغلق عليه فهمه ، وتعمذر دركه ! وتأمل ثم تأمل !!

إن هذا الذي نقله الدكتور طه على أنه من طريف أوربا يقابله طريف في تاريخ الادب العربي ، فقد حدث ابن سنان الخفاجي فقال : « حرى بين أصحابنا في بعض الايام ذكر شيخنا أبي العلاء ابن سليمان المصري ، فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة ، واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء ، فعجبنا من دليله وإن كنا لم نخالفه في المذهب ، وقلت له : إن كانت الفصاحة عندك بالاتقاط التي يتمذر فهمها فقد عدلت عن الاصل في المقصود بالفصاحة التي هي البيان والظهور ، ووجب عندك أن يكون الآخر من أفصح من المتكلم ، لأن الفهم من إشاراته غير بعيد ، وأنت تقول : كلما كان أفصح وأخفى ، كان أبلغ وأفصح ، ومارضه أبو العلاء بن عيسى الكاتب فقال : صدقت إننا لا نفهم عنه كثيراً مما يقول ، إلا أنه على قياس قوئك يجب أن يكون ميمون الزنجي الذي نعرفه أفصح من أبي العلاء ، لأنه يقول ما لا نفهمه نحن ولا أبو العلاء أيضاً !! فامسك ! (١)

وسواء أمسك الدكتور طه كذلك الرجل أم لم يمسه ، فإي معنا ذلك ، وليس من وكنا أن نطيل في تنديد دعوى باطله ، لا يمسه دليل من عقل أو فهم ، وما كنا نعرض لها بذكر لولا أن رأيناها قد جارت عند بعض الناس ، ولكننا نمضي فنقرر بأنه إذا كان الحكم فرع التصور كما يقول المباحث ، فإن الفهم لا شك دامة من دعامات الحكم الادبي ، وشرط أساسي مقدم لا بد منه في تقدير الكلام والحكم على الاثر المقنود ، كما هو شرط في الحكم على أي شيء آخر ، وقد عايناه في كثير من حظ البلاغة أن لا يؤثر السامع من سوء إلهام الناطق ، ولا يؤثر الناطق من سوء فهم السامع ، ولا حرم أن تناقض إذا لم يفهم ، واستباح لنفسه أن يحكم ، فهو إما مسمي إلى نفسه وفنه ، وإما مسمي إلى صاحب الاثر المقنود ، فإذا كتب الله له السلامة من الاسماءتين فذلك شيء بقضاء وقدر ، ولا صلة له بتقدير الفن ومقاييسه ، ولا يد فيه ولا عمل لمواهب الناقد وملكاتة !!

هذا وللعاحظ كلام حلو مستقيم يدخل في هذا الباب ، فلا بأس من إيراد ما كان يردده إلى جهة القائل لا إلى جهة الناقد ، قال أبو عثمان : « قال بعض جهابذة الانقاط وهاد المعاني :

المعاني القائمة في صدور الناس ؛ والمنصورة في أذهانهم ، والمختلجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرم ، والحاذقة عن فكركم ، مستورة خفية ، وبسطة وحشية ، وبحجوبة مكشوفة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، وحاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاونة له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما يحى تلك المعاني ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستمهاهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقر بها من الفهم ، وتحلبها للعقل ، وتحمل الخفى منها ظاهرا ، والفائب شاهدا ، والبعيد قريبا ، وهي التي تخلص المتنسب ، وتحمل المنمقد ، وتحمل المهمل مقيدا ، والمقيد مطلقا ، والمجهول معروفا ، والوحيى مألوما .

وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون ظهور المعنى ؛ وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكات الإشارة أيبس وأثور ، كان أنفع وأجمع في البيان ، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى ، هو البيان الذي سمعت الله يمدحه ويدعو اليه ، ويحث عليه ؛ بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أوصاف العجم . . والبيان اسم لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى ، وهتك لك الحجب دون الضمير ، حتى يقضى السامع الى حقيقته ، ويهجم على محموله ، كائنا ما كان ذلك البيان ، من أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر ، والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام . وقال على بن الحسين رضى الله عنه . لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فصل الاستئانة ، وجملة الحال في صواب التبيين ، لأعربوا عن كل ما تخلج في صدورهم ، ولوجدوا من يود اليقين ما يعيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالمهم ، وعلى أن درك ذلك كان يمدحهم في الأيام القليلة المدة ، والفكرة القصيرة المدة . (١)

عبد الرحمن فرهمي

نماذج من البلاغة العربية

كتب بديع الزمان الحمداني الى أحد الكبراء : إني خدمت مولاي والخدمة رق بغير شهادة ، ونامحته والماسحة للعودة أوثق حماد ، وفادته والمنادمة رضاع ثايف ، وطامحته والمطامحة نسب دان ، وسافرت معه والسفر والأخوة رضيا لسان ، وقت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان ، وأثنت عليه والثناء من الله تمكن ، وأخلصت له والاخلاص مشكور بكل لسان .

ولما صرف الرشيد الفصل عن الوزارة وأسندها الى أخيه جعفر قال الفصل : ما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غريت عنى رتبة طلعت عليه .

شهاب الدين يحيى النيباسوف ، وذهب على طريقة فلاسفة الإشراق المثبتين لا نبشاق العقول
المشيرة عن المبدأ الفياض واجب الوجود .

ولا يليق أن ينسب ذلك المذهب الى شهاب الدين عمر المهروردي الصوفي الفقيه ، كما يعلم
من الاطلاع على كتابه عوارف المعارف .

وإن الذي ينتسب ابن سبعين الى مذهبه هو المهروردي الفيلسوف ، وليس هو المهروردي
الصوفي . وقد جاء التشابه بين هذين الامامين من أربعة أشياء : نسبة البلد ، وكون كليهما أخذ
من نسبة الجبلي ، وكون كليهما ملقباً بشهاب الدين ، وكون كليهما قيل إن اسمه عمر بن محمد .
وعما ينبغي أن يفاد هنا أن مهرورد المسوب اليها هذان الامامان هي بضم السين المهملة
وسكون الهاء وفتح الراء وفتح الواو وبمدها راء ساكنة ودال في آخره ، وهي قرية
من عراق العجم عند زنجبان ، وينسب اليها عدة من العلماء منهم أبو الحبيب عبد القاهر
ابن عبد الله بن صموه ترجمه ابن خلكان ، ومنهم علي بن محمد المهروردي الملقب « مضحك »
المتوفى سنة ٨٧٩ هـ

محمد بن عاشور

شيخ الاسلام المالكي بئونس

نعمة البيان

قال الله تعالى : « خلق الانسان على البيان » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحرا » .

وقال الجاحظ إمام البيان : « البيان اسم جامع لكل كلام كشف لك من قناع المعنى ،
وهتك الحجاب عن الضمير ، حتى يفضى السامع الى حقيقة اللفظ ، ويهجم على محموله كأنما
ما كان » .

وقال أديب : « البيان ما كان مصرحاً عن المعنى ليسرع الى الفهم تلقىه ، وموحزاً ليخفف
على اللسان تعاهده » .

وقال ابن المعتز : « البيان ترجمان القلوب ، وصيقل العقول » .

وقال سهل بن هرون : « البيان ترجمان اللسان ، وروض القلوب » .

وقد يعبر عن البيان بالمصاحبة ، فقال هشام بن عروة : « ما أحدث الناس مروءة أعجب
الى من المصاحبة » .

أحاديث الوفود في الإسلام

- ٥ -

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من خولان (قبيلة باليمن) فقالوا : يا رسول الله نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل مصدقون برسوله ، قد ضربنا إليك آباط الابل ، وركبنا حرون الأرض وسهولها ، والمئة لله ورسوله علينا ، قدمنا زائرين لك .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أما ما ذكرتم من مسيركم إلينا فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة ؛ وأما قولكم : زائرين لك ، فإن من رآني بالمدينة كان في جوارى يوم القيامة .

ولما استقر بالوفد المقام في دار الصيافة سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن من هم اسمهم (عم أنس) كانوا يعبدونه من دون الله وينذرون له الذور ويقربون له القرابين . سألهم : ما شأن عم أنس وما تصنعون معه الآن أي بعد إسلامكم ؟

فقالوا - يا بني الله بدلنا الله مكانه ما حنت به ، وقد بقيت ما بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى ، فقد كما منه في غرور وقتنة .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : وما أعظم ما رأيتم من قفتنه ؟ قالوا . لقد أصابتنا سنة مستنة (مجدية) حتى أكلنا الرمة ، لجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها قربانا له في غداة واحدة ، وتركناها للسباع فأكلتها ونحن أحوج إليها منها ، فناء الغيث من ساعتنا . ولقد رأينا العشب يدارى الرجال ويقول قائلنا : ألم علينا عم أنس ! ولقد كما نقسم لهذا الصنم من أموالنا وأنعامنا وحرثنا . كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه فنسميه له ونسبي زرعاً آخر حجر الله ، فإذا مالت الريح بالذي سميناه الله جعلناه لعم أنس ولم نجعله لله .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل الله على في ذلك « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون » .

ولما جاءوا ليدعوا رسول الله وعظيم وأحارم ، وأمرهم بالوفاء بالمهد ، وحسن الجوار لمن جاوروا ، وأن لا يظلموا أحدا ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .

فلما رجعوا الى قومهم لم يحلوا عقدة من رحاطهم حتى يادروا بهدم عم أنس ، ههنا كان لم ينس بالأمس : « فن يد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » .



ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة رجال من الأزد ، فلما دخلوا عليه وكلوه أعجبه ما رأى من صمتهم وحسن زعيم ، فقال : ما صفتكم ؟ قالوا : مؤمنون ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لكل قول حقيقة ما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ قالوا : خمسة عشر خصلة : خمس منها أمرتنا رسولك أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا رسولك أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره شيئاً منها فنتركه .

فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام : ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها ؟ قالوا : أمرتنا رسولك أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت .

فقال لهم النبي : وما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تعملوا بها ؟ قالوا : أمرتنا رسولك أن نقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت إن استطعنا اليه سبيلا .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ قالوا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا عر القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشهادة للأعداء .

فأجابهم النبي بقوله : حكام ، علماء ، وأنا أزيدكم خسا فتم لكم عشرون خصلة : لا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أتم عنه غدا زائلون ، واتقوا الله الذي ترحمون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون .



ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من بني المتفق وفيهم لقيط بن عامر بن صبرة ابن عبد الله بن المتفق ، قدموا على رسول الله وهو منصرف من صلاة الصبح ، فقال له لقيط : يا رسول الله علام نيامك ؟ فبسط له رسول الله يده وقال : على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن لا تشركوا بالله شيئاً .

فقال لقيط : يا رسول الله ، وإن لنا ما بين المشرق والمغرب ؟ فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : نحل منها حيث نشاء ، ولا يجني عليك إلا نفسك .

ثم تقدم القوم وودعوا رسول الله وانصرفوا الى قومهم ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام :

إنهم من أتى الناس في الدنيا والآخرة . فقال له بعض الصحابة : من هم يا رسول الله ؟ فقال له النبي : بنو المنتفق (كررها ثلاثا) .

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمام بن ثعلبة فأتاه باب المسجد وهتفه بعباله ودخل المسجد وأقبل على الحلاس فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فأشار أحدهم إلى النبي . فقال ضمام : يا محمد إني سائلك فحدد عليك في المسألة فلا تجد على .

فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : سل ما بدا لك . فقال ضمام : يا محمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك .

قال له النبي : صدق رسول . فقال ضمام : يا محمد أنشدك رب من قبلك ، ورب من بعدك الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آبائنا يعبدونها ؟ فأجابه النبي : اللهم نعم .

قال ضمام : أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ فأجابه النبي : اللهم نعم .

قال ضمام : أنشدك بالله الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهرا ؟ فأجابه النبي : اللهم نعم .

قال ضمام : أنشدك بالله الله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا ؟ فأجابه النبي : اللهم نعم .

عند ذلك تقدم ضمام وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : آمنت وصدقت ، أنا وضمام بن ثعلبة ، ثم استأذن وانصرف ، فلما رجع إلى قومه كان أول كلام تكلم به أن سب اللات العزى ، فقال له قومه : يا ضمام اتق البرص اتق الجدام ، اتق الجنون ا فقال لهم : ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به عما كنتم فيه ؛ وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وقد جننكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . فلم يبق من القوم رجل ولا امرأة إلا أسلم وحسن إسلامه .

يقول ابن عباس : ما سمعنا بواحد أفضل من ضمام بن ثعلبة . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمعه يسأل ما سأل : ما رأيت أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة .

مسح خطاب الوكيل

معرض الآراء العالمية

في الاسلام والمسلمين

كتب المسيو (جورج رو) في جريدة التحرر الوطني الباريزية الصادرة في ١٨ أغسطس الماضي مقالا تحت عنوان (ماهو الاسلام - حادث جليل) قال :

« يوجد في العالم ما يقرب من ثلاثمائة مليون مسلم ، فقد استقر الاسلام في شمال أفريقيا وفي القسم الأعظم من وسطها ، وفي جزء صغير من أوروبا ، وفي جميع ربوع آسيا الغربية والوسطى ، ويوجد أيضا نحو ثلاثين مليونا من المسلمين في الهند الهولندية ، ومن خمسة وعشرين الى ثلاثين مليونا في الصين ، وبصح مئات من الألوف في اليابان . الى أن قال :

« ليس الاسلام مجرد شكل ، ولا هو مجرد شعار دينية ، تتفاوت درجات فهمها في العمل بها ، ولكن الوصف المميز للاسلام هو أنه دين عالمي معمول به أكثر من أي دين غيره . فمن بين جميع سكان الكرة الأرضية نجد المسلمين أكثر الأمم اعتدادا بتعاليم ديانتهم . « ففي فاس وحدها ، تلك المدينة المغربية التي يسكنها مائة ألف نسمة ، أكثر من مائة مسعد ملائي بالمصلين على نحو كنا نسنأ في لورد (١) ، فترى هناك الرجل من الطبقة الوسطى يحمل معه قطعة سريحة من الخوخ ، ليستطيع في الوقت المعين أن يقف عليها ويؤدي الصلاة ، وتجد المصانع في السوق يقطع عملها فجأة ليجيب الداعي الى الجماعة بالمسجد ، وتصادف الجمال في الصحراء يقف ليقوم بواجب السجود لله . ولا تلقى في البلاد المراكشية كلها تحفة في المائة بجرة ون على مخالفة الشريعة والافطار في رمضان ، والصوم كما لا يخفى من العبادات الشاقة .

« وأكرر من هذا كله وأدعاه للنظر أنك لا تصادف مسلما واحدا يرتد عن دينه . وعدد الذين جحدوا دينهم من المسلمين لا يذكر . وهذا المرسل الكبير والقديس المحيىب الآب (فوكولد) نجح في حمل المسلمين على حبه ، ولكنه خاب في حمل مسلم واحد على تغيير دينه . فكل من استطاع أن يحب اليهم تغيير ملتهم لم يتجاوزوا الثلاثة أو الأربعة . ولقد علم الناس أن فرنسا كبيرا آخر وهو الكاردينال (لافيغري) كتب يوما يقول : « إن تنصير المسلمين مشروع لن يتأدى لغير الخيبة » . فالاسلام يبدو لنا كتلة مندمجة لا يمكن خدشها

« ولا نقول إن الاسلام لا يتقهقر خصب ، ولكننا نقول إنه على الضد يتقدم ويزداد

(١) قرية في فرنسا يقصدها النصارى من جميع الجهات التماسا للبركات من زيارة كنيسها المشهورة ، وهي من أماكن الحج في النصرانية .

انتشاراً . وإليك مشاهدة أخرى هامة للدرجة القصوى ، وهي أن الاسلام من بين جميع الأديان العالمية يحارى المسيحية في تقدمها . فلا يغيب عن أفكارنا الكسب العظيم الذي تناله الكاثوليكية باستمرار في الهند والصين ، بفضل الاحلاس والاثار المجيبين الذين يديهما المرسلون الدينيون من الفرنسيين والبلجيكيين . ومع هذا فإن الاسلام في الوقت نفسه يكتسب هناك بقدر ما تكتسب ديانتنا ، كأنه قد كتب لهذه الدينيين العظميين أن يتأشيا جنباً الى جنب في طريقين متوازيين .

« ولكن هذه القاعدة تنعكس في أفريقيا ، فالاسلام بنفرد بالكسب وحده هناك . فعدد المحمدين يزداد في جزيرة مدغشقر يوماً بعد يوم . ولكن عظم لنجاح الذي يصيبه الاسلام هو في أفريقيا السوداء . فالسودان برمته الذي كان موطناً للوثنية ، أصبح اليوم معقلاً من معاقل ديانة محمد . وبلاد السنغال وغينا حتى الكونغو يدخل أهلها في الاسلام أفواجاً أفواجا . هنا ظاهرة يجب أن نعيها اهتماماً ، لأنها تفضي الى تغيير الحالة العقلية في امبراطوريتنا السوداء . وفي الوقت الذي يزداد فيه الاسلام في العدد ، يحدث في باطنه حركة تكسبه مياعة وقوة . فهو يدل أن تراثي أواخيته ، وتنحل هراء ، يزداد تضاماً وتماسكاً . وإلى ذلك أربعة أدلة على ما أقول :

(١) خيبة أو على الأقل ضعف مذهب المرابطين الذي كان معمولاً به في الجزائر ، ومؤداه عبادة الأولياء المحليين عبادة حقيقية .

(٢) تمسك أو بصارة أخص اسلام بربر مراكن ، وقد كانوا من قبل على شكل من الدين خاص بهم ، فهم يميلون الآن لاضاعة مميزاتهم ليندمجوا في المجموعة الاسلامية العامة .

(٣) نجاح وزيادة تأثير ابن سعود وشيعة الوهابيين الذين هم من الطوائف الشديدة التمسك بحرفية الدين ، وهم يشبهون الطائفة الشديدة التمسك بالدين من الانجليز على عهد كرمويل .

(٤) الرجوع المدهش الى إقامة الشعائر الاسلامية الصحيحة بدقة في مصر . ليس ذلك لأن الملك الشاب فاروق تكثر منه مظاهر التقوى والصلاح ، ولكن لأن الجامعة الأزهرية العظيمة وهي بيئة الاسلام قد اردادت قيمة سياسية ، وإليك لثري محافظي الأقاليم ومدبريها يدعون الى الحضور بانتظام في المسجد .

« فاستمرار تصخم قوة الاسلام أصبحت محققة ، وقد لفتت أنظار رجال السياسة الجدد أمثال موسوليتي وهينل وفرنكو ، فيجب أن تلتفت نظر الفرنسيين كذلك ، فإن الأسباب التي تحملهم على الاهتمام بهذا الأمر أقوى من الأسباب التي تحمل الألمان والitalيين والاسبانيين عليه » .

محمد فريد وعبد

دفاع عن القرآن الكريم

لما فرغ الدكتور جفرى من مباحثه في تطور الكتب الاسرائيلية والنصرانية ، رجع الى التحدث عن تطور القرآن الكريم فذكر في مقدمته النتائج التي وصل اليها الباحثون من كتاب (نوله كي) فقال :

« لما قس النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في أيدي قومه كتاب »

أقول : ما هو المعنى الذي يظهر من هذه العبارة ؟

المعنى الظاهر منها أن القرآن لم يكن مجعوا في كتاب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون بعض هذا صحيحا ، ولا خبير فيه مطلقا ، لأن القرآن كان محفوظا في صدور القراء ، ومكتوبا على عصب النخل وبعض الأحجار . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرضه على جبريل كل عام في رمضان ، وعرضه عليه في العام الأخير مرتين ، ومعنى هذا العام الأخير (عام العرض) وثابت من جميع المصادر التاريخية الاسلامية وكتب السنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام تدارسا القرآن مرتين في العام الأخير ، وكان جبريل يوقفه على مواضع السور وآيات كل سورة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف أصحابه على ذلك ؛ وثابت أيضا من جميع المصادر الاسلامية أن هذا التوقيف الأخير ناسخ لما تقدمه . لكن المستشرقين لا يعجبهم هذا لأنه يهدم أولى نتائج أنماهم من الأساس ، ولأنه يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم مات وله كتاب يقرأ محفوظ في الصدور مرتبة سورة وآياته .

فأدأ لم يتطور القرآن ولم يتغير ولم يتبدل ، ولم لا يرضون بهذا ، فإذا جاء التاريخ الاسلامي وشهد بحق بما حصل فعلا في عهده صلى الله عليه وسلم من دراسة القرآن مع جبريل كل عام مرة ، وعرضه في العام الأخير مرتين الى آخر ما تقدم ، فالتاريخ في نظر المستشرقين كاذب ، لأنه لم يرو الحقيقة ؛ وإذا شهد بذلك البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة فالثبوت غير صحيحة في اعتقادهم ، وغير مقبولة في رأيهم ، قال الدكتور جفرى :

« فبسل إن النبي صلى الله عليه وسلم كلما نزلت عليه آيات أمر بكاتبها ، وكان يعرض على جبريل مرة في كل سنة ما كتب من الوحي في تلك السنة ، وعرضه عليه مرتين سنة موته . وهكذا جمع القرآن كله في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في « صحف وأوراق » ، وكان مرتنا كما هو الآن في سورة وآياته إلا أنه كان في صحف لاي مصحف » .

الى هنا لا شيء فيه ولا غبار عليه إلا قوله « في صحف وأوراق » ولعله حرمها حين نقلها من كتب التاريخ والسنة ، لأن هذا العصر لم يكن عصر أوراق ، فسكانوا يكتبون على عصب

النخل والعظم والحرف . لكن المقصود من الكلام هو قوله بعد ذلك مباشرة . « وهذا الرأي لا يقبله المستشرقون » .

ولو أتى أشعر بأن الدكتور جفرى لم يطلع على هذه المصادر لسردت منها هنا الشيء الكثير ، على أتى سأذكر ذلك في أول القسم الثانى من كتابنا ، حين الرد على كتاب المصاحف ، فالمناسبة هناك أقوى .

وإنما قلت في أول كلامى في هذا البحث : « وقد يكون بعض هذا صحيحا » لأن الواقع أن القرآن جمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، بشهادة البخارى في روايته عن أنس بن مالك قال : « مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة الخ » .

فهو صريح في أن القرآن جمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصرح منها رواية مسلم والبخارى نفسه في موضع آخر ، ومن هذه الرواية : « جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار الخ » ، وسند ذكر هذه الروايات نصها قريبا ودع البخارى ومسلما جانبا واسمع شهادة الدكتور جفرى نفسه بذلك في موضع آخر من مقدمته قال : « روى أن غير واحد من الصحابة جمع القرآن في مصحف ، منهم على بن أبى طالب ، وأبى بن كعب وسالم مولى حذيفة الخ » — هذا كلام الدكتور جفرى نفسه ، فما معنى قوله إذن : « لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في أيدي قومه كتاب ؟ »

ولما كانت النتائج التى تلى هذه النتيجة الأولى مبنية عليها ومستندة اليها ، خشى الدكتور أن تنقض النتيجة الأولى فتتأرجح جميع النتائج المبنية عليها ، وأراد أن يستدهاشه دليل فقال : « لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى أنه قبض صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن في شيء » .

أين هي هذه الأحاديث ؟ وماذا كان يصح كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ؟ ألم يكنوا ما نزل من القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عصب النخل والعظم وكانت هذه الأشياء المكتوب عليها محفوظة عندهم ؟ ألم يرو البخارى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال في حديث طويل : فقامت فتنبت القرآن أجمعه من الرقاع والأكثاف والمس الخ . وفيه أيضا ، أنه قال : لما نسخنا المصاحف في المصاحف الخ . أليس هذا صريحا وقاطعا في أن القرآن كان في مصحف ثم نسخوها في مصاحف ؟ أليست هذه المصاحف من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فادأ كان القرآن مجموعا في شيء . هذه رواية البخارى ، وهو أصح كتب السنة ، فقل لنا أنت ما مصدر هذه الأحاديث التى تدعيها ؟ والحق يادكتور أن النتيجة الأولى لا يباحثكم مقصودة من أسامها ، وقد وقع ما قلناه أنا وهو اهتبار بقية النتائج المبنية عليها .

طريقة الدكتور في تلخيص هذه النتائج ترتيبها حسب الزمن تمهيدا لما سيذكره من أدوار

المنطور فذكر سبع نتائج ونرى عليها ستة أطوار . وقد نقصنا النتيجة الأولى ، فيحس أن نعرض للطور الأول الذي بناء عليها ، وإن كان قد انهار من نفسه بانهار قاعدته .

قال : « الطور الأول طور المصاحف القديمة » .

أقول : قد علم مما تقدم مرارا أن هذه الصحف جمعت في عصر سيدنا أبي بكر ، فحدث في القراءة تحريف بسبب عدم الانجام والشكل ، فاضطر سيدنا عثمان إلى تدوين أربعة مصاحف مضبوطة وإرسالها للآفاق ، فاجمع الصحابة رضوان الله عليهم على صحة هذه المصاحف وعلى انطباقها على المصاحف التي كانت لديهم ، ولو كان واحد منهم لاحظ غير ذلك لأعلنه ، ولوصل إلينا نبأ هذا الخلاف .

النتيجة الثانية . قال :

« النتيجة الثانية اختلاف مصاحف الصحابة . روى أن غير واحد من الصحابة جمع القرآن في مصحف ، منهم علي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وسالم مولى حذيفة ، وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو زيد ، ومعاذ بن جبل وغيرهم » .

أقول : هذه النتيجة تشمل على أمرين :

الأول : اختلاف مصاحف الصحابة .

الثاني : جمع القرآن قبل جمع سيدنا عثمان .

أما الأول . فلا يدعيه من بيان ، تفصيل ذلك أن القرآن نزل بلغة قريش وبلغه النبي صلى الله عليه وسلم آية آية لأصحابه ، ولكن لغة قريش تختلف في اللهجة عن لغات القبائل الأخرى ، وهي لا تضر بالمعنى ، فكان لابد هنا من الرخصة لعدم الوقوع في الحرج . وقد حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبلغ الآية لأصحابه ويذكر لفظا بين كلمات الآية تفسيرا للكلية السابقة ، فيقطع لها بعضهم فلا يثبتها في مصحفه ، ولا يفعل لها البعض الآخر فيثبتها . وفي بعض الروايات عن السيدة عائشة قالت : « لا أدري أقرأ أم فسر » ، وسنذكر الرواية بطولها في موضع آخر .

ووجد في مصحف السيدة حفصة أو السيدة عائشة كلمة (صلاة العصر) في قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » وكلمة صلاة العصر تفسير ، وقد عرف كل ما حدث من ذلك وعدل أصحابه عن اعتباره من جوهر القرآن .

فإن كان اختلاف مصاحف الصحابة الذي تعنيه هو أحد هذين المعنيين فسلم ولا ضرر فيه مطلقا ، ولست في حاجة إلى استنتاجه من كتاب (تولدكي) بل هو ثابت بصريح العبارة في كتب السنة والتاريخ .

وأما الثاني وهو جمع القرآن في مصحف قبل المصحف الامام ، فقد ورد في البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال : جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار . أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال أحد عمومي . وفي البخاري أيضا عن أنس قال : مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد (١) ونحس ورثناه . فهذه الروايات صريحة في أن القرآن جمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . ويقول ابن الطيب رضي الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلي ، وعيم الداري ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص .

وقيل إن المراد بالجمع الحفظ ، وقيل المراد به جمعه في مصحف واحد . ويؤخذ من عبارة ابن الطيب المتقدمة أن الجمع غير الحفظ حيث عطفه عليه ، ويبدو أن يكون عطف تفسير . وسواء أكان هذا أم ذاك فما أثر ذلك في نظر الدكتور جفري ؟ أثره يظهر من قوله : إن هذا المعنى لا يرضى به المستشرقون . هم لا يرضون إلا بشيء واحد وهو أن الصحابة كانت لهم مصاحف قبل مصحف سيدنا عثمان وأنها مختلفة في اللفظ وفي المعنى ، لا يملكون العوالب منها . انظر قوله :

« وكانت هذه المصاحف يختلف بعضها عن بعض ، لأن كل نسخة منها اشتملت على ما جمعه صاحبها ، وما جمعه واحد لم يتفق حرفيا مع ما جمعه الآخرون » .

هذا هو الذي يريد الدكتور ، أما الاختلاف بالمعنى الصحيح الذي قررناه ، ولعقد أن جميع علماء المسلمين يقررونه كما قررناه ، لاستنباده إلى أوثق المصادر ، فما لا يعجب الدكتور جفري وأمثاله .

قال الدكتور جفري بعد ذلك :

« النتيجة الثالثة أخذ مصاحف بعض الصحابة مقاما يمتد به في الأمصار » . ثم شرح هذه النتيجة بقوله : « لما نشأت الأمصار الإسلامية بعد فتح الشام والعراق كان كل فريق من الناس يحتاج إلى نسخة من القرآن الذي هو أصل دينهم وحكمهم وعاداتهم الاجتماعية ، فاتفق أهل الكوفة على مصحف ابن مسعود ، وأهل البصرة على مصحف أبي موسى الأشعري ، وأهل دمشق على مصحف المقداد بن الأسود ، وأهل الشام على مصحف أبي بن كعب ، وكانت هذه المصاحف يخالف بعضها بعضا »

(١) أبو زيد كنيته ، واسمه سعد بن صيد .

ونحن لا نرى في هذه النتيجة شيئا جديدا يزيد على النتيجة السابقة ، حتى نقض بأكثر مما نقضنا به سابقا ، فالاختلاف هو الاختلاف ، سواء كان في المدينة ومكة وبلاد العرب أم في الأمصار الإسلامية التي فتحت ، والجواب هو الجواب ، وإنما الذي يلاحظ هنا زيادة عما تقدم أن أهل كل مصر لما أخذوا بمصحف محامى اعتقدوا أن هذا هو القرآن وأن ما يخالف مصحفهم ليس قرآنا ، ولذلك قال الدكتور بعد ذلك بقليل : « حتى أنكر بعضهم على بعض ما كان يقرؤه من غير مصحفه زاعما أنه ليس من القرآن » . وهذا ما تنكره ونمنعه أشد المنع . وإنما الذي وقع على ما رواه البخارى ومسلم هو أن أحدهم كان يقول . قراءتى خير من قراءتك ، وقراءتى أفضل من قراءتك .

وهذا كله كان اختلافا بأحد المعنيين السابقين اللذين قررناهما ، وكان ذلك قبل مصحف سيدنا عثمان الذى انعقد الاجماع عليه نهائيا .

ثم استمر الدكتور جفرى يذكر نتائج من هذا النوع ، فقد ذكر جمع سيدنا عثمان الناس على مصحف واحد ، وحلو مصحفه من النقط والشكل وأن أهل كل مصر شككوا على حسب تأويلهم للمعنى ، وانهى الى تعميم قراءة حفص فى بلاد الشرق .

ولما أحس الدكتور مخطورة موقفه تجاه ما يزعمه من تطور القرآن ، أبدى مخاوفه من اعتراضات علماء المسلمين عليه فقال : « ولا يخفى على القارى أن نتيجة هذه الأبحاث لا تتفق وما عليه المسلمون من تاريخ القرآن » . حقا إن هذه الأبحاث التى ترى الى أن يفهم المسلمون أن قرآنهم الذى يتلونه الآن ويشعبدون به مخالف للقرآن فى المصور الأولى ، لأن التطور يقتضى هذا ، كما قلنا غير مرة ، لا يتفق وما عليه المسلمون من عقيدتهم الحقة فى القرآن . ذلك لأن القرآن قد وصل إلينا بطريق النواتر محفوظا بحفظ الله مرعيا رعايته ، والتواتر يفيد العلم الضرورى ، ونحن نعلم بداهة أن هذا القرآن الذى نقرؤه الآن هو بعينه وشكله الذى كان يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضوان الله عليهم ، والتابعون وتابعوهم طبقة بعد طبقة الى عصرنا .

ثم تشجع الدكتور بعد ذلك وأظهر عدم المبالاة فقال :

« ولا يهمنا فى بحثنا هذا كونه حقا أو باطلا ، وإنما المهم هو بيان ما وصلنا اليه بعد التحرى والتنقيب » .

نقول : كيف لا يهم أن يكون ما نادى اليه حقا أم باطلا ، أليس هم كل باحث أن يتأدى الى الحقيقة ، وخاصة إذا كان فى موضوع كتاب إلهى يقول بقدسيته مئات الملايين من الناس ؟ أما التحرى الذى يذكره فقد تبين القارى أنه وجهه توجيه لا يؤديه الى غير هذه النتيجة ،

فإنه اعتبر الاختلافات العرصية في القراءات اختلافات جوهرية في المبارات ، وجعل ما حدث للكتب المقدسة السابقة من أدوار التحريف مقياساً يقيس عليه ما حدث من تخالف القراءات في القرآن ، وهو جهد باطل ، لأن القرآن حفظت آياته في الصدور والسطور في أثناء نزوله ثم دوت في المصاحف كما حفظ ، ولكن تلك الكتب لم يحفظها أحد ، بل كتبت وضاعت نسخها ثم أعيد تأليفها في أزمان مختلفة ، واعترف القعدة من أهلها بأنها حُرقت ، فالبيان الحاليتين كبير ؟

عيسى حسين

نموذجات من عيون الخطب

كان عمر يقول في آخر خطبه : « اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرة ، ولا تجعلني من الغافلين » .

وخطب على رضى الله عنه يوماً فقال : « ما بعد فان الدنيا قد ادنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بإطلاع ، وإن المصارع اليوم وغدا السباق ، فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل » .

وخطب معاوية بن أبى سفيان يوماً وكان شديد الحر فقال : « إن الله خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

وخطب يزيد بن معاوية بعد موت أبيه وتولية الخلافة فقال : « الحمد لله ما شاء صنع ، من شاء أعطى ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع ، إن أمير المؤمنين معاوية كان حبلاً من حبال الله تعالى مده ما شاء أن يمدّه ، ثم قطعه حين أراد قطعه ، وكان دون من قبله ، وخير من بعده ، ولا أركيه عذره وقد صار إليه ، فإن يعف عنه فبرحمته ، وإن يعاقبه فببذنبه ، وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من حبل ، ولا آسى على طلب علم ، وعلى رسلكم إذا كره الله شيئاً حسره ، وإذا أراد أمراً يسره » .

وخطب سليمان بن عبد الملك فقال : « إنما الدنيا دار غرور ومنزل باطل ، تصحك يا كيا وتبكي ضاحكاً ، وتحيف آمناً وتؤمن حائفاً ، وتمقر مثرىا وتثرى فقيراً . اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يحلو كيد الشيطان ، كما يحلو الصبح إذا تمفس ، ظلام الليل إذا عمس » .

التصوف والمتصوفون

— ١ —

لما كان التصوف قد شغل ناحية هامة من نواحي الحركة العقلية الاسلامية بل العالمية من جهة ، وكان أعلام فلاسفة الاسلام كالماراجي وإخوان الصفاء وابن سينا والغزالي لهم في التصوف آراء نظرية وخطط عملية تسترعى العناية من جهة أخرى ، فقد وجب علينا أن نعرض هنا لهذه الناحية الخطيرة من نواحي الفكر الاسلامي .

اختلف العلماء المستشرقون في كلمة صوفي ، فذهب بعضهم الى أنها نسبة الى الصفة الأولى التي كان المتنسكون يجمعون عليها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ونسبها آخرون الى الصفاء ، فلما اعترض عليهم بمخالفة القواعد قالوا : إنها نسبة الى من صاق ربه قصوفي ، ولا بأس بمجمل الفعل المبني للمجهول اسمها تلحق به ياء النسب كما جعل المبني للمعلوم وألحقت به تلك الياء . وقال فريق ثالث : إنها نسبة الى الصوف الذي اشتهر المتنسكون الأولون بلبسه . وقد اختار الأستاذان « كليمان هوار » و « كارادي قو » هذا الرأي . وقال ثانيهما : إنها ترجع الى أصل مسيحي ، لأن رهبان ذلك العهد كانوا - فيما يظهر - يجعلون لبس الصوف شرطاً أساسياً للرهبادة . ولهذا روى أبو الفرج البقوفي في كتابه « تاريخ الأسر المالكية » عن أمبراطور بيزنطي تهرب « أنه لبس الصوف » . ويستدل « كارادي قو » أيضاً على صحة رأيه بقول الغزالي عن المتصوفة : « إهم أصحاب الصوف » (١) . وقال التشيخي - فيما رواه ابن خلدون في مقدمته - ما يلي : « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس . والظاهر أنه لقب . وأما القول باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي . قال : وكذلك من الصوف ، لأنهم لم يختصوا بلبسه » .

وقد علق ابن خلدون على هذا الرأي بقوله : « قلت : والأظهر إن قبل بالاشتقاق أنه من الصوف ، وهم في الغالب يختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف » (٢)

وذهب فريق رابع الى أنها نسبة الى سوقيا الاغريقية وهي - الحكمة . ومن بين هذا الفريق الأستاذ « ميركس » . وقد تنم في ذلك الأستاذ جورج ريدان في كتابه « أدب اللغة

(١) انظر صفحة ٢٤٣ من الجزء الثالث من الاحياء للغزالي .

(٢) انظر صفحة ٤٠٨ من مقدمة ابن خلدون .

العربية « حيث قال - « وعندنا أنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هي : « صوفيا » ومعناها الحكمة ، فيسكون الصوفية قد لقبوا به نسبة الى الحكمة ، لانهم كانوا يحثون قيا بقولونه أو يكتبونه بحثا فلسفيا ، ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا إيمانهم بهذا ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية ودخول لفظ الفلسفة فيها .

ويعلق الأستاذ الدكتور على العناني على هذا الرأي بأنه يحمل في نفسه عنصر رده ، لأنه من المستبعد أن تنتسب طائفة الصوفية التي تعتبر الانسان عدما الى طائفة السوفسطائية التي تعتبر الانسان كل شيء . ونجعله مقياسا للحقائق (١)

ولكني أنا أرى أنه لا مانع من أن تكون طائفة الصوفية منسوبة الى « صوفيا » التي كان سقراط صديها ، يقطع النظر عن انتساب السوفسطائيين الى هذه الكلمة واستقلالهم بها . وهما يكن من الأمر أن الذي لا ريب فيه هو أن هذه الطائفة من المتنسكين لم تسم بهذا الاسم إلا في منتصف القرن الثاني ، أما قبل ذلك العهد فكان يطلق عليهم اسم الزهاد أو الساد . ويرجع أوائلهم في الاسلام الى عهد النبي ، ولم يكر عليهم هذا العهد أحد : لاصحاب الشريعة ولا أصحابه ، بل فروم على حطهم ، وفصلهم على المستتمين المتلذذين ، واعترف لهم كثير من الصحابة بكرامات ومعارف خفية لا تناح لعامة المسلمين . وقد أسهب الذين كتبوا بتوسع عن الصوفيين في ذكر هذه المعارف وتلك الكرامات ثم أيدها بالآيات والأحاديث وأنباء السلف من الصحابة والتابعين ومن هؤلاء المسبيين أبو حامد الغزالي ومن ثم على ما كتبه . وقد وصح ابن خلدون نشأة هذه الطائفة متعقة في أول الأمر مع الاسلام ، ثم أفاض في وصف الكشف الذي يفوزون به على أثر هجرانهم لعادة ، وفي أن هذا الكشف يكون عن طريق الشهود ، وفي أن سرانهم تمكنهم من التصرف في العالم السفلي تصرفا قويا فقال : « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة . وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية . وأصلها المكوف على المادة والانتطاع الى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للمعبادة ، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف ، فلما غشا الافدال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا احتس القبولون على العادة باسم « لصوفية والمنصوفة » (٢) الى أن يقول : « ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها ، والروح من تلك العوالم وسبب هذا

(١) انظر مذكرات الدكتور على العناني صفحة ٤٥ من الطبعة العربية .

(٢) انظر صفحة ٤٠٨ من مقدمة ابن خلدون .

الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن صفت أحوال الحس وفوت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الفكر ، فانه كالغذاء لتنمية الروح ، ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهودا بمقد أن كان علما ويكشف حجاب الحس ، ويتم وجود النفس التي لها من ذاتها وهو عين الإدراك ، فيتمرض حينئذ لغواهب الربابة والعلوم الدنية والفتش الالهى ، وتقرب ذاته في تحقق حقيقة منها من الأفق الأعلى أفق الملائكة . وهذا الكشف كثيرا ما يمرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سوام ، وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى قوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم ، فالعلماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه ، بل يمدون ما يقع لهم من ذلك بحنة ويتمودون منه إذا هاجهم . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ، كان حظهم من هذه الكرامات أوفر المخطوط ، لكنهم لم يقع لهم بها عاية وفي مسائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقته من بعدهم (١)

غير أن الأمر لم يقف عند هذه الزهادة الأولى ، إذ لم يلبث التنسك أن تطور وامتزجت به عناصر إغريقية وهندية ومناوية ، فأصبح المتنسكون يعتقدون أن العقل الشرى قد عجز عن حل مشاكل الكون ، وأن المتكلمين لم يزدوا عما غارتهم عقدة الوجود إلا صموبة وإشكالا ، وأنه لم يبق لكشف هذا السر إلا طريق واحد وهو طريق الور والبصيرة ، وهذا لا يتيسر إلا بإزالة حجاب المادة الكثيف القائم بين الإنسان وحالقه ، وقطع علائقة بعالم الشهادة والملك وخلوصه إلى عالم الغيب والملسكوت ، وكل ذلك لا يتم إلا باحتقار كل هذه الحياة وما تزخر به من أفتان المنع وضروب الملذات وهذا كله حس لا ناس به إلا من ناحية إضعاف الشوكة الإسلامية التي أمر الوحي بأن تظل قوية عزيزة . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . ولكن المسلمين — مع وجود هذه الروح المضغفة للقوة في تعاليم المتنسكين — لم يحنقوا عليهم لهذا الزهد ولم يسكروه عليهم ما دام النبي وأصحابه قد أفروا أصله ، فظل لهم المقام الأول في نفوس عامة المسلمين وخاصتهم إلى أن ظهر ما أسميه (التصوف الطرى) وهي آراؤهم المؤسسة على الحلول ووحدة الوجود الآتين من الفلسفة الهندية والأفلاطونية الحديثة ، والتي عدها المسلمون خطرا على دينهم ، واضطهدوا القائلين بها وقتلوا الخلاج من أهلها ، كما سنشير إلى ذلك فيما بعد

ولعل من البواعث التي حملتهم على تشرب فكرة وحدة الوجود أنهم لما رأوا أسلافهم

قد أقبلوا بمالم الملكوت على أثر قطع علائقهم بالمادة أية وا أن المادة لم تكن إلا حجابا بين الفرع الذي هو النفس البشرية ، والأصل الذي هو الإله ، وإذا كان ذلك هكذا ، كان السكل صادرا عن الباري ، وما عاد الى مصدره استثناء ، وما اتعد أظلم ، وما نشأ ظلمة المادة إلا ابتعادها عن مصدرها الذي هو السكل الأواحد . ولا ريب أن هذا هو مذهب الأفلاطونية الحديثة . وقد أدخل عليه المتأخرون منهم بعض تغييرات أحدثوها من فرفق الاسماعيلية والرافضة ، مثل القول بقطب الوقت المنصرف في شئون الكون ، وما شا كل ذلك . وفي هذا يقول ابن حلدون : « إن هؤلاء المتأخرين من المنصوفة المتكلمين في الكشف وغيا وراء الحس توغّلوا في ذلك ، فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه ، وملأوا الصحف منه مثل الطروري في كتاب « المقامات » له وغيره ، وتممهم ابن العربي وابن سبعين ، وتلاميذها ابن الففيف وابن التمازض والنجم الاسرائيلي في قصائدكم . وكان سلفهم محالطين للاسماعيلية والمتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإطية الاثمة مذهبا لم يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من العريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم ، وتماهت عقائدهم ، وظهر في كلام المنصوفة القول بالقطب ، ومعناه : (رأس العارفين) يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان » (١) .

هذا وسندحدث إليك في السكعة التالية عن لغة المنصوفين وعن شيء من آرائهم النظرية وانهاهم العملية . فالى اللقاء

الدكتور محمد غطرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

يقبع

(١) الطر ص٢٢٣ و ٢١٣ من هذه المقدمة المذكورة .

كتان السر فضيلة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .
وقال عمرو بن العاص : « الصدور حرائق الاسرار ، والشفاة أفتالها ، والالسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرئ مفاتيح سره »

وقالوا : « إذا صاق صدرك عن نجواك ، فكيف تمتكته سواك » ا

وقال آخر : « كن على سرك ، أحرص منك على حقن دمك » .

وقال ابن سانة السعدى :

ص السر عن كل مستعجب وحاذر فم الحزم إلا الحفر
أسيرك سرك إن صفتة وأنت أسير له إن ظهر

الصلة بين الدين والفلسفة

يقول الأستاذ موريس ولف في كتابه (تاريخ فلسفة القرون الوسطى) ج ١ ص ٢٠٩ :
« إن التوفيق بين الفكر الفلسفي وبين العقيدة الإسلامية كان من أكبر ما انصرفت إليه هياة
الفلاسفة العرب ، غير أن أغلبهم يفرق بين المفسر الذي يوضح الطريق بالدراسة الفلسفية ، وبين
المفسر الذي يراعى في تأويله القرآن تأويلا حرفيا . وهذا التوفيق بين القرآن والفلسفة هو
الذي يطلق عليه كارادى فو المؤسسة الإسلامية »

وكان فلاسفة الاسلام مسلمين مخلصين لديهم يستقدون كما يقول المستشرق تمان : « أن
الاسلام هو أكمل وحى إلهي ، فلتس حاولوا التوفيق بين مذاهب الفلسفة التي يحبونها وبين
عقائد الاسلام التي يؤمنون به فإذ ذلك إلا لسكى يدرءوا عن أنفسهم شبه الاشعرية وغير
الاشعرية الذين كانوا يرمونهم بالمروق والاحاد لا اشتغالهم بالفلسفة » .

والحق أن أولئك الفريق من الفلاسفة كانوا يرون للفلسفة مكانها اللائق ، وللدين حرمة
المقدسة ، كل منهما يؤدي وظيفته في الحياة من غير مصادمة أو راع ، فالفيلسوف يصل عن
طريق العقل الى إدراك الأمور النظرية من البحث في العقائد والظفر في الحقائق العقاية .

أما النبي فهو يدرك من طريق الوحي الحقائق العملية وطرفا من الحقائق النظرية ، ووظيفته
عملية تشريعية أكثر منها نظرية . كانوا يرون أن مهمة النبي هي تحقيق العدل الإلهي في هذا
العالم ، وأن مهمة الفيلسوف هي التشبه بالله في كمال المعرفة .

وهذا المعنى كان يقول الفارابي في رسالته المسماة (فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة) .
« أما الغاية التي يقصد إليها في تعلم الفلسفة فهي معرفة الله تعالى ، وأنه واحد غير متحرك ،
وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء ، وأنه المرتب لهذا العالم بمجوده وحكمته وعدله . وأما الأعمال
التي يعملها الفيلسوف فهي التشبه بالخالق بمقدار طاقة الانسان »

الفارابي لا يرى بين الفلسفة والدين تعارضا ولا منافاة ، وإن كان بينهما ثمة خلاف فهو
ظاهري ، لأن الشريعة تخاطب جمهور الناس الذي لا يستطيع إدراك أسرار الأمور وبواطنها
نقدر ما يدركه الفلاسفة بالبرهان والقياس ، لهذا خاطبهم الشرع حسب استعدادهم وإدراكهم .

وفي رسالة الفارابي المسماة (الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو) نراه يفسر لنا
الوجود تفسيراً فلسفياً لا يتعارض لما جاء به الدين الإسلامي ، قال : « والبرهانيات موكولة
الى ذوى الآراء السديدة ، والشرعيات موكولة الى ذوى الالهامات الروحية ، وأهم هذه كلها

الشرعيات ، وأنقاطها خارجة عن مقادير عقول المخاطبين . لذلك لا يتأخذون بما لا يطبقون تصوره ، فإن من تصور في أمر المبدع أنه جسم وأنه يفعل بحركة وزمان ثم لا يقدر بذهنه على تصور ما هو أطف من ذلك وأليق به ، ومهما قوّم أنه غير جسم وأنه يفعل بلا حركة وزمان ، لا يثبت في ذهنه معنى تصور أليق ، وإن أجبر على ذلك راده غيا وضلالا ، وكان فيما يتصوره ويعتقده معذورا مصيبا ، ثم يقدر بذهنه أنه غير جسم وأن فعله بلا حركة ، غير أنه لا يقدر على تصور أنه لا في مكان ، وإن أجبر على ذلك وكلف تصوره تبادله يترك على حاله ولا يساق إلى غيرها ، وكذلك لا يقدر الجمهور على معرفة شيء يحدث لا عن شيء ، ويفسد لا إلى شيء . فلهذا قد خوطبوا بما قدروا على تصوره وإدراكه وتفهمه . ولا يجوز أن ينسب شيء من ذلك فيما هو في موضعه إلى الخطأ والوهي ، بل كل ذلك صواب مستقيم . فطرق البراهين المقتضية المستقيمة العجيبة المنقوذة عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالابذاع الوحي والألهامات .

ونرى في هذه الرسالة أيضا أن العارفي يستعرض آراء أفلاطون وأرسطو في عدة مسائل ، ويحاول فيها أن يبين عدم وجود خلاف بين آرائهما وبين العقيدة الإسلامية ، وخاصة في الموضوعات التي شغلت علماء الكلام ، وهي قدم العالم ، وإثبات وجود الصانع ، وأن الثواب والعقاب حق في العالم الآخر .

أما الفيلسوف ابن سينا فيقول : *الضرورة تقضي بأن يكون في هذا الوجود نبى يس انقوانين الموحى بها من الله ، وليقيم العدالة بين بى الانسان . وفي كتابه الجلاء ص ٥٠ ملخص رأيه ، فهو يقول :*

« الأصل فيما يسنه النبي تعريفه بإمام (أى الناس) أن لهم صائما واحدا قادرا ، وأنه عالم بالسر والملائية ، وأنه من حقه أن يطاع أمره ، وأنه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق ، وأنه عد لمن أطاعه المماد المسعد ولمن عصاه المماد المشقى ، ولا ينفى له أن يشغلهم شيء من معرفة الله تعالى فوق أنه واحد حق لا شبيه له . فأما أن يتعدى بهم إلى تكليفهم أن يصدقوا بوجوده وهو غير مشار إليه في مكان فلا ينقسم بالقول ولا هو خارج العالم ولا داخله ولا شيء من هذا الجنس ، فقد عظم عليهم الشغل ، وشوش فيما بين أيديهم الدين ، وأوقعهم فيما لا يخلص عنه إلا من كان الموفق الذى يشذ وجوده ويندر كونه ، فله لا يمكنهم أن يتصوروا هذه الأحوال على وجهها إلا بكبد .

وإنما يمكن القليل منهم أن يتصور حقيقة هذا التوحيد والتنزيه ، فلا يلبثون أن يكذبوا بمثل هذا الوجود أو يقيموا في الشارع ويصرفوا إلى المباحات والمقاييس التي تصدم عن أعمالهم البدنية وربما أوقعتهم في آراء مخالفة لصالح المدينة ومنافية لواجب الحق ، فكثرت

ففيهم الشكوك والشبه، وصعب الأمر على الناس في ضبطهم، فما كل متيسر له في الحكمة الإلهية. ولا يصح بحال أن يظهر أن عنده حقيقة يكتبها عن العامة، بل لا يجب أن يرخس في التعريض بشيء من الأشياء التي هي عندهم عظيمة وحليمة ويلقى إليهم منه هذا القدر، أعني أنه لا نظير له ولا شبيه ولا شريك. وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجه يتصورون كفيته، وتسكن إليه نفوسهم، ويضرب السعادة والشقاوة أمثالا مما يفهمونه ويتصورونه.

يتضح من كلام ابن سينا أن الناس عنده فريقان: فريق الخاصة وفريق العامة. فالخاصة هم أهل النظر العمالي والتفصيل العقلي، وأما العامة فهم أصحاب العقول الساذجة، والواحب أن لا يلقي إليهم إلا ما ينطبقه قوام العقلي وتعمله سداجتهم الذهنية.

وأما الدين فهو في نظر ابن سينا هداية المجموع إلى سعادة الدارين، والفلسفة عمارة من تزود الفيلسوف بزيادة العلم والبحث ليصل إلى المعرفة التفصيلية التي ينشدها.

ويقول للوصول إلى السعادة الحقيقية ينبغي أن يتوافر فيها ركنان، أحدهما نظري والآخر عملي.

أما الركن النظري فهو كمال المعرفة، وكمال المعرفة يستدعي أموراً أحدها تصور المبادئ المخارفة تصوراً حقيقياً، والتصديق بها تصديقاً يقينياً. والثاني معرفة العلل الغائية للأشياء الواقعة في الحركات الكلية دون الجزئية. والثالث معرفة النظام الكلي والترتيب الذي عليه الكائنات من المبدأ الأول إلى أحط الموجودات. والرابع تصور العناية الإلهية وكيفيةها، وأخيراً توثيق الرابطة بين العالم الأرضي والعالم الآخر بالشوق إليه.

أما الركن العملي فننزيه النفس أي تبييدها عن الهيئات البدنية المصادرة لأسباب السعادة، وهذا التنزيه لا يحصل عفواً، ولكن بعملية التجريد أي تصرف النفس عن عالم الحس لتنتقل إلى الأخلاق والمسلكات حتى لا تتأثر بموامل الماديات من الأحوال البدنية وخلافها، وهذا يستطيع الإنسان أن يحصل على السعادة بعد الموت.

ويقول الإمام الغزالي في كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» ما نصه:

أما بعد فقد سألتني أرشدك الله من الأخبار الموهمة للنشبية عند الرعاع والجهال من الخشوية والضلال، حيث اعتقدوا في الله وصناعاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة والبدن والقدم، والعزل والانتقال، والجلوس على العرش والاستقرار وما يجري مجراه، فهذا الكلام تأييد لمذهب ابن سينا وغيره من الفلاسفة الذين يرون وجوب صرف العامة عن البحث في حقائق الدين، بل يترك أمر الدين إلى أهل المعرفة والعلماء. والفيلسوف الأندلسي ابن طفيل يرى أن الحقيقة المجردة الخالصة لا يحسن أن يصرح بها للعامة المسكبين في عالم الحس، وقد أورد هذا الرأي في كتابه الفلسفي (حي بن يقظان).

أما الفيلسوف ابن رشد فيقول في كتابيه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الانتمال) و (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) - إن الحكمة الإلهية تطابق الشرع ولا تخالفه ، وإن الشرع أوجب النظر في الموحودات واعتبارها . ولما كان الاعتناء ليس شيئاً أكثر من استقناط المجهول من المعلوم واستجراحه منه ، وهذا هو القياس العقلي ، فوجب أن نجعل نظراً في الوجود بالقياس العقلي ، وإذا كان قد عرس لصناعة القياس العقلي سوء استعمال من قبل بعض الناس كما عرض غيرها من الصناعات ، فليس معنى هذا أن يصرف سائر الناس عنها أو أن ينهوا عن محاسنها . إذن فالشرع يذهب إلى النظر بالبرهان العقلي .

وفي موضع آخر يرى ابن رشد يقول : إن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فذلك الظاهر يقبل التأويل ، على أنه ليس ينبغي أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل فالتأويل أحكام يجب مراعاتها .

وقد قال علي كرم الله وجهه في هذا . « حدثوا الناس بما يعرفون ، أريدون أن يكذب الله ورسوله ! » .

ولما انتهى المسلمون من فتوحاتهم أخذوا يفكرون ، فظهرت لهم مسائل تعمز الحل ، فاختلجوا فيها ، ونشأت مذاهب فكانت حركة الجدال في هذه المذاهب في العصر الأموي عظيمة ، وكان لها أثر كبير في العلم وفي السياسة وفي الأدب ، وقد أنتجت هذه الحركة الفرق الدينية التي أخذت تتصاول في ميدان البحث ، إلا أنها لم تصل إلى درجة القواعد المنظمة والمعلوم المتميزة والشرح المحكم ، وخاصة في العلوم الفلسفية واتصالها بالدين ، إلا في صدر العصر العباسي لما أخذ خلفاء الدولة العباسية يناصرون الحركة العلمية ، وينهضون بالأماس الذي وضعه العلماء في الدولة الأموية مسننين بها وصلت إليه الأمم قبلهم .

عبد الحميد سامي بيومي

الاقتصاد في الكلام

قال ابن مسعود رضي الله عنه : « لسانك سيف قاطع يبدأ بك ، وكلامك سهم فاقد يرجع إليك ، فاقصد في المقال ، وإياك وما يؤغر صدور الرجال » .

وقال أعرابي : « الكلمة أسيرة في وثاق الرجل ، فإذا تكلم ماد أسيراً في وثاقها » .

وقالوا : « من أطلق لسانه بما يحب ، كان أكثر مقامه حيث لا يحب » .

وقال صمصمة بن صوحان : « طول اللسان يقصر الأجل ، وخطأ القول يصيب المقتل »

الصيام في نظر العلم

أُظهِرَ شهر رمضان، وهو كلها أهل أعاد إلى أذهانتنا عبادة جليلة الأثر من غروب العبادات في الإسلام. وأذكر أنه قد سألني سائل يوما عن العلة في سرعة ارتقاء المسلمين الأوائل، سرعة لم يعمد لها مثيل في أمة من الأمم، وكان يتوقع أن أجيبه من الناحية الاجتماعية البحتة، فقلت له: يرجع أكثر الأثر في ذلك إلى أنواع العبادات في الإسلام.

فقلت، وقد عجب من إجابتي: وكيف ذلك؟

قلت: أول تلك العبادات الصلاة، وهي تبدأ بقول المصلي: «الله أكبر» وموَّدها استنصار كل ما سوى الله، فلا النفس ولا الأهل ولا المال ولا المتع الجسدية بذات حطار بجانب الله وهذه العبادة تتكرر في كل ركعة نضع مرات، فلا يكاد يقطع المصلي عن التفكير في صلاته قاطع حتى يقول الله أكبر، قائما وراكما وساجدا وجالسا، فيضعف سلطان الأغيار على نفسه، ويضعفها يكمن اتصاله بقيوم السموات والأرض، فيستمد منه حياة أديبة، وقوة معنوية لم يكن ليتخيلها، وبإدماق الصلاة خمس مرات في اليوم تبديل حاله، وتكمل رجولته، ويحقق استقلاله، ويحس في نفسه بأنه من ضمن القوى المسخرة لتنفيذ مقاصد الخالق في الأرض.

وثاني العبادات إيتاء الزكاة، وهو نظام اقتصادي فد لم يشارك الإسلام فيه أي نظام اجتماعي، وتتطلبه أوروبا وأمريكا فلا تستطيعان أن تنالاه، وقد هي حياة جماعات المسلمين من الفقر أجيالا طويلة، والفقر مدعاة للانقلابات الخطيرة، ولاختار روح الحرب الأهلية وثالث العبادات صوم رمضان، وهو أسلوب آخر من أساليب تمرير الإنسان لنفحات مبدعه، فإن في إجابة الحمد تغليباً للروح عليه، ومتى تم لها الغلب عليه دفعته إلى عالم السموات دفعا، وكان مخلقه بالمثل العليا طبعاً لا تكلفاً.

ورابع العبادات الحج، والغاية منه تحقيق الوحدة الاجتماعية تحقيقاً عملياً، وإشعار كل فرد من المسلمين بأنه عضو من حشد واحد لا معدى له عن التكافل معه.

فجميع آثار هذه العبادات يخلق عن عبق الرجل المسلم نير الطبيعة، ويخلى بينه وبين مصدر القوى العلوية فيستمد حوله وطوره مباشرة منها، فلا عجب أن يكون في ثوبه إلى أقرضه أسرع وصولاً وأكثر محصولاً من غيره.

كان هذا جوابي لمن سألني عن سبب السرعة المحيرة لا مقل التي امتثل بها المسلمون على الزعامة العالمية في الأرض.

وعلى ذكر الصيام نقول : إن له فوق ثمرته الروحانية القيمة ، ثمرة جسمية لا يستهان بها ، إن أدى على وجهه ، ولم يتخذ وسيلة للإسراف في تنويع الأطعمة والافراط في تناولها .

ذلك أن الجسم الانساني على اختلاف أعضائه وآلاته مؤلف من خلايا ميكروسكوبية كل منها يتركب من كيس غشائي محوية فيه مادة حية يقال لها البروتوبلازما ، وفي وسطها نواة صغيرة . هذه الخلايا تفتدى من الدم الذى يتحللها بواسطة عروقه وأوعيته التى لا تحصى ، فتأخذ منه ما يقيم أودها ، ويعينها على أداء مهمتها ، وكلما كان الدم نقيا غير حامل لمواد أجنبية كانت صحة هذه الخلايا جيدة ، وحالة الأعضاء التى تتألف منها طبيعية ، ولكن إذا دخل الى باطن هذه الخلايا مواد أجنبية منها ، أو بقايا متخمرة من أغذية فاسدة ، اعتلت صحتها ، وضعفت الأعضاء والآلات التى تتألف منها ، وشعر الجسم بحالة مرضية تستدعى المعالجة والعناية .

وهذه الاختبارات التى تحدث فى المعدة والأمعاء من جراء التغذية ، كثيرا ما ينولها ميكروبات تهاجم الخلايا الجسمية وتنقها وتتكاثر فيها وتفسدها ، ويمتد تأثيرها الى عدد لا يحصى من الخلايا المجاورة ، فتصيب العضو الذى تقع فيه بمرض عضال قد يقضى الى موت صاحبه .

نعم : إن الخالق الرحيم حمل من هذه الخلايا جنودا ، وأقدرها على مكافحة الميكروبات وابتلاعها وملاشاتها ، ولكن قد يكون عدد الميكروبات كبيرا فلا تقوى هذه الخلايا المجندة على التغلب عليها ، فتشتد وطأتها على الجسم ، وتورده حثفه بعد مماثاته آلاما مبرحة .

فالويلات التى يكابدها الانسان من ناحية الأغذية التى يتناولها لا تقف عند حد ، وهى ليست كذلك لأنها صارة بطبيعتها ، ولكن لأن الانسان لا يقتصر فى تناولها . فقد اعتاد أن يألف أكل أشياء لا يصح أن تؤكل أصلا ، أو لا يصح أن يستكثر منها . وهو على أى حال قد تصوّد أن يتناول من الأطعمة أربعة أو ثلاثة أضعاف ما يكفيه بها ، وهو لم يتعود ذلك إلا من ناحية الترية . فقد كان أبواه لا يذحران وسما فى تخفيضه على الأكل ، توها منهم أن هذا يقويه وينشئه تنشئة سليمة .

وقد ثبت أخيرا أن الأطفال الذين يُسقَنون على أغذية قليلة تطول حياتهم الى أكثر من ثلاثين سنة بعد السن الداية لموت الانسان . وقد جربوا دقة فى الفيران ، وهى أشبه الحيوانات بالانسان ، من حيث التأثر بالعوارض ، فأنوا بفيران صغيرة أطعموها قليلا ، وأخرى تركوها تأكل كما تشاء ، فميتت الأولى نملة وأسكنها عاشت ثلاث سنين صحيحة ، وشبت الشابة بدنية ولم تعمر غير سنتين ، وهو صمرها العادى ، وقد كررت هذه التجربة لتكون حاسمة .

فتأثير الأغذية فى صحة الانسان بعد كل هذه التجارب لا يمكن أن تكون محل نزاع ، وقد عرف ذلك من أقدم عهود الانسانية ، فقال أبوقراط ، وكان عائشا قبل المسيح بنحو

خمس قرون : « أكل الناس أكل السباع فرضوا ، فغذواهم بأغذية الطيور فصحوا » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما أهداه المقوقس عامل مصر لطيب : « نحن لا حاجة لنا لطيب لا سا قوم لا يأكل حتى نجوع ، وإذا أكل ، لا نشبع » ، إشارة حكيمة الى أن سبب أكثر الأمراض الأغذية .

فن الذي يطوف بفكره وهو يتناول الطعام على مائدة موقرة بأطيب الألوان أن أكثر ما يستدر لعابه منها ، ينغمس عليه عيشه ويقصر من أيام حياته ؟ وليست التبعة في ذلك تقع على تلك الطيبات ، وإنما تقع على طريقة صنعها ، والاسراف في تدعيمها وتثيلها ، وعلى متعاطيها في التبسط في تناولها ، وفي تكرار العود اليها قبل التخلص من البقايا المختلفة منها .

فهمة الصيام في هذه الحالة ، إن أداه القائم به على وجهه الصحيح كما رسمته السنة النبوية ، تعتبر من أمس المهام لصحة الانسان ، وأعوذها بالخير والبركة عليه ، لأنه ماقتصاره على وحدتين يترك للفساد المصيبة وقتا كافيا للتخلص من الفضلات المختلفة فيها ، ومحمد عوامل التطهير في البنية فرصة سانحة لتقيام واجباتها ، فلا يقصى رمضان حتى يكون الحصد قد أفرز كل ما يكون قد تراكم فيه من مسموم الأغذية ، وبقايا التخمر ، وتكون حوافظ الأعضاء من شر الميكروبات قد أمنت عليها اصطلاما وإيادة ، فيخرج الصائم من رمضان وقد تبدل شخصا آخر .

ولكنه إن تمدى ما رسمته السنة النبوية من القصد في التقى ، وإعطاء الروح حقها من الورع ، والقلب حظه من الطهر ، فأسرف في تناول مشتبهاته ، وغلب على نفسه سوء الخلق ، وشغل ليلاليه بالهوى والسهر ، فلا عجب إن خرج من الصيام موقرا بأعراض السموم الغذائية ، والافراطات القهوانية .

من أضر ما تعودته الناس في رمضان أن يكثرُوا من أكل ألوان الحلوى ، والحلوى تصنع مادة من السكر الصناعي ، وهذا السكر معتبر علاجا لا غذاء ، فلا يسمح بالأخذ منه إلا في حدود معينة . وهو خلاف السكر الطبيعي الموحود في العسل والنفاكهة ، وهو سكر صحي لا يضر أكله بل ينفع ويدفع أمراضا مرضية كثيرة . فإن قيل : إن أصل السكر الصناعي نباتي ، قلنا : إن نواتج عمليات الاماعة والتصفية عليه تفسد العناصر العضوية التي فيه ، وتحمله الى محصول صناعي لا يفيد الجسم بل يضره . وقد ألف الدكتور (كارتون) من كلية باريس كتابا أسماء (الأغذية الثلاثة المميتة) اللحم والكحول والسكر ، ش في فيه على السكر غارة شعواء ، ولم يسمح لصحيح البنية بأن يتعاطى منه يوميا أكثر من أربع قطع ، وهي ما تنكس لتحتلية كوب من شراب الليمون .

الصيام أسلوب عمل للتطهير الجثائي والروحاني معا ، فيجب أن نعرف لهذه الصفة ، ويجب أن لا يخرج به عن حده ، وإلا انقلب شرا على كليهما معا .

محمد فرير وجري

نظام الوقف في الاسلام

إن نظام الوقف يقطع النظر حتى عن مبدأ الشريعة الاسلامية نظام يسيفه العقل وتبرره مصلحة المجتمع بما يحمله في أطوائه من خير لمصلحة الواقف والموقوف عليه .

روى صاحب الإسعاف عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال: ولم أر حيرا لميت ولا للميت من هذه الجبوس الموقوفة . أما الميت فيجربى أجرها عليه ، وأما الميت فيدفع بها عنه حوادث الأيام وعوادي القبالي .

ولدى الأمم المسيحية نظام يشبه نظام الوقف في الاسلام حفزت اليه حاجة المجتمع . فقد روى العلامة عبد الفتاح السيد بك المستشار بمحكمة النقض أن الأمم غير الاسلامية حين أدركت ما في الوقف من مزايا قيمة وأغراض نبيلة عني كثير منها بوضع نصوص في قوانينه لتنظيم نوع من التصرف يشبه الوقف في معناه وأغراضه وآثاره عندنا من صرف الربح في وجوه البر والخير .

وتلك الأغراض السامية وإن لم تبد حلية إلا في الوقف الخيري فإن ضمان حاجات ذوي القرى أولى بعناية الواقفين كما لا يخفى ، وقد شرط المسلمون أن كل وقف أهل لا بد من أن ينتهي الى جهة بر ، ولا كان باطلا بإجماع الأمة . ولئن كان قد أصيب هذا النظام في الغاية منه بجماعة من انظار الأوقاف فلا يفسد هذا الفساد من قيمة الوقف في ذاته .

وقد دأب القضاة الشرعيون على ت ملاحظاتهم لورارة الحفائية ورفع تقاريرهم مستفيضة بأوجه العلاج التي تكمل صون حقوق المستحقين وكف يد الماشين من النظار .

فإذا أخذ القضاة على أيديهم فأسرع أن يصبح هذا النظام وارف الظلال مبارك الثمرات ، والأيام المقبلة القريبة كمية بوضع الضمانات التي تأخذ على المباشين طريقهم فتوحى الى القلوب رشادها والى العقول هداها .

إن بعض لوائح المحاكم الشرعية التي تطل العمل بها لم يضع حدودا فاصلة بين اختصاصات الولاية القضائية الأهلية وبين اختصاصات الولاية القضائية الشرعية في كثير من موادها حتى ملئت الأهلية على الشرعية استنادا الى أحكام صدرت من المحاكم الأهلية .

فقد فست المحاكم الأهلية بواسطة أحكام ذات مبادئ صدرت من ابتدائية مصر تقضى تلك الأحكام بأن الولاية القضائية الأهلية تختص دون المحاكم الشرعية بالفصل في المسائل الآتية على اعتباراتها ليست داخلية في حدود الوقف من حيث أصله الذي ينعقد به .

(١) مسائل البذل والابدال (٢) الفصل في أي الباطرين أحق بالنظر : الباطر المعين بشرط الواقف ، أم الباطر المعين من قبل القاضي (٣) الفصل فيما إذا كانت العين موقوفة أو ملكا (٤) قسمة الأعيان الموقوفة (٥) الطعن في الوقف لصدوره في مرض الموت (٦) حراسة الأعيان الموقوفة (٧) سماح الادعاء بالتزوير في كتاب الوقف (٨) المنازعات المتعلقة بوضع اليد (٩) إبطال الوقف الضار بالدائنين .

فلما حكم الأهلية تذهب الى أن المحاكم الشرعية ليس لها أن تعتبر مسائل الأوقاف داخلة في ولايتها القضائية إلا من حيث أصل الوقف ، وأصل الوقف عرفا هو مجموع شروط تصحيح اعتقاده ووقوعه من الواقف بإشهاد يضبطه أمام الجهة المختصة ، والشرائط المصححة لهذا الاشهاد متعنة نصفه الواقف وأهليته وبالموقوف وبالموقوف عليه ، فإذا وردت مسألة ليس لها صلة بتلك الشروط المصححة لأصل الوقف كانت داخلة في اختصاص الولاية القضائية الأهلية . وقد ضربوا لتلك النظرية مثلا تدليلا على وجاهة نظريتهم بمسألة لاسبيل للولاية القضائية الشرعية الى إنكارها وهي إبطال صفة الوقف للعين التي استدان عليها الواقف بما يستغرقها أو يستغرق أكثرها ، رعاية لمصاحبة الدائنين وتقاديا من صرهم طبقا للمادتين ٥٣ و ١٤٣ من القانون المدني ، فأصدرت الولاية القضائية الأهلية أحكاما عديدة بإبطال صفة الوقف للعين التي وقفها الواقف وتبين أن هذا الوقف كان قرارا من إغناء الغرماء حقوقهم .

على أن الولاية القضائية الأهلية لا تعرض في ممارسة هذا الحق للحكم بطلان العين الموقوفة التي قصد بها الحرب من الغرماء لصحة الوقفية من حيث شرائطها المصححة لها ، بل للإبقاء على مصلحة الدائنين وهو ما يتعلق بحق الغير ، وليس في هذه الحالة أن يكون منطبقا إلا على الولاية القضائية الأهلية .

ويذهب القضاء الشرعي مذهبا آخر في هذا التأويل فيسكن بادي ذي بده على لا محنة ترتيب المحاكم الأهلية تفسير أصل الوقف بشرائطه المصححة له ، ويستمسك بأن المراد بأصل الوقف الاشهاد الذي يضبط به الوقف من أئمة الى يائه ، سواء تعلق هذا الاشهاد بالأصول المصححة للوقف ، أو بما كان خارجا عن هذه الشروط ، فمسائل الوقف بقصها وقضيصها داخلة في اختصاص المحاكم الشرعية ليس غير .

ورمت الولاية القضائية الشرعية على تلك النظرية نظرية أخرى ، فقضت بأنه إذا حصل نزاع في صفة عين من الأعيان فادعاه أحد الخصوم ملكا متجارا اليه وادعاه الآخر وقفا ، تعين على المحاكم الأهلية في هذه الحالة وقف نظر الدعوى المتنازع عليها وإحالة الخصوم على المحاكم الشرعية .

هياس ط

الحامى الشرعي

الاشتراك في مجلة الأزهر

جرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جوار تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التمويل على نظام الوكالة في التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الحرائد والمجلات التي أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتحويل على القاعدة الحديثة وهي دفع قيمته مقدماً .

لهذه الطريقة فائدة للمشاركين وللمصحف معا ، فاما قائدها الاولين فلانها تجبهم ثقل المطالبة التي ربما وقعت في وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ما عليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفي ذلك من الضرر المالي على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضض على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويجب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على المصحف ، فلانها لا تسمح لها بعمل مبرانية سنوية مصبوبة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة يفشى لادارة المجلة طبيعة عمله متاعب لا تخص بسبب تحرير كشوف التحصيل ، وتسديد المتحصل ، وتسرب الخطأ اليه ، والمخلافات التي تنشور بذلك السبب بين الادارة والمشاركين ، وبين هاتين الناحيتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إضاعة أوقات الكتاب ، وشغل وقت المدير ، وتكلف الوكلاء الذهاب والمجيء . وسوء ظن المشتركين .

كل هذه المشا كل يحلها شيء واحد ، وهو أن يدفع المشتركون ما عليهم في أي وقت يريدون على شرط أن يكون ذلك قبل حلول السنة المالية للمجلة ، وأولها المحرم ، فان تأخر عن هذا الموعد كان ذلك إيذاً من منه بأنه لا يريد الاشتراك .

وقد رأيت إدارة هذه المجلة أن تنفع هذه الطريقة التي تجبها وتجب قراءها ووكلاءها عنتاً لاداعية له من جراء مبلغ زهيد .

أما وكلاؤنا فيمكن الاستفادة منهم بتسليمهم قيم الاشتراكات ، وهم يقومون بإيصالها إلينا في الوقت المضروب لتقديمها ، وتجد أسماء المقررين منهم على غلاف هذه المجلة .

فخرجو حضرات قارئنا أن يمدروا في الجري على هذه القاعدة من أول المحرم سنة ١٣٥٨ فإنها أول بكرة هذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدينا للمجلة بسنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل ، عه

أو غير ذلك ؛ فإننا نعتبر ما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، وتقبل منه أن يقدم لنا كلها منحت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يتمه .

وعليه فنرجو حضرات القارئ أن يقدموا لنا قيم اشتراكهم قبل أول العام الهجري الجديد ، لتفيد أسماءهم في سجلات جديدة ، ولتصل إليهم أعداد المجلة في وقت صدورها .

مدير مجلة الأزهر

محمدي عيسى

تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية :

تفصل حصرة صاحب السمو الأمير الكبير عمر طوسون فأهدى البيا مؤلفه العظيم (تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية) وهو عمل ضخيم (١٣٣٨ صفحة) يدل على مالمسوا الأمير من القدرة على سرد الحوادث وصيغتها وتحليلها وبيان عظامها ونتائجها ، وذلك في سلسلة طويلة من المأجريات تبتدى سنة ١٨٦٩ ، وهي السنة التي فتح فيها طاهل مصر الكبير الخديو اسماعيل هذه المديرية، الى سنة ١٨٨٩ وهي السنة التي أبرمت فيها معاهدة بين مصر والانجليز على أن تعود حدود السودان الى ما كانت عليه قبل الثورة المهدية

في هذا المجال تتحلى موهبة سمو الأمير الكبير في سرد الوثائق الرسمية ، والأدلة المستمدة من عدد كبير من المؤلفات الأجنبيّة الخاصة بالأقطار السودانية ، واستخراج الحقائق المنسوبة منها . ومقصده الكريم من كل هذا إقامة الحقبة الفاطمة على أن هذه المديرية مصرية بحتة ، وأنّها من حق مصر رغمًا عن جميع التموهجات الاستعمارية .

وقد حلّى الكتاب بخرائط لمصر والسودان ، وصور وفهرستات وبالجملة فقد رأينا أن كتاب الأمير أمير الكتب . متعمق بالصحة الكاملة ، وأطال في حياته المشاركة ليكون دائما المثل الأعلى للوطنية الصحيحة والكرامة القومية !

استدراك مهم :

لوحظ بعد توزيع طائفة من نسخ كتاب (تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية) تأليف حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون أن خريطة مصر والسودان التي باحزائه الثلاثة كتب فيها خطأ هذه الجملة : « السودان المصري الانكليزي » ، فنلتفت فنظر المهدى إليهم هذا الكتاب إليها ليحسوا منها كلمة (الانكليزي) أو يطمسوها ، إذ من المعروف بدهاء أن السودان في الوقت الذي عملت فيه هذه الخريطة وهو سنة ١٨٦٨ — ١٨٧٨ م كان مصريا بحتا ، ومن رأى سموه أنه لم يزل كذلك الى الآن

الدروس الدينية

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام

كننا نريد أن تصدر هذا العدد شاملاً النص الكامل للدروس الأول الذي ألقاه
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى الراغب بمسجد السيدة
زينب وشهده حضرة صاحب الجلالة الملك ، متابعة للسنة الكريمة التي سنّها ، ولكن
اتفق أن انحرفت صحة فضيلة الأستاذ الامام فتعذر عرض التجربة النهائية عليه
لاقرارها ، فأرجأناه للعدد المقبل مشفوعاً بالنص الكامل للدروس الثاني إن شاء الله
أتم الله لفضيلته نعمة الصحة ، وأمتع الناس به علماً وهدى وإرشاد .
إدارة التحرير

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

يهيئ شعبه ويسديه نصحا ساميا

إن للملك في الاسلام ، وفي علم الاجتماع ، تقاليد وسنن إذا روعيت على وجهها الأكمل دفعت بالشعوب الى باحات الارتقاء ، وساعدت على حصولها على كل أسباب المجد والعلاء . رأس تلك التقاليد أن يمثل الملك المنزل الأعلى للشعب في كل ما يجب أن يكون عليه ، وأن يسبقه الى كل ما ينبغي أن يعمل ويقيم به ، وأن تكون صلته بجميع طبقات الشعب تامة ، بحيث يحس بوجوده وبقربه منه أيأس الناس من الاتصال به . إذا تم هذا لشعب تمهدت أمامه آحاده سبل الانتقالات الاجتماعية السريمة ، وأحسن لسائق القيادة الرشيدة يهيب به الى السير ، ويمدده فيه بالارشاد والهداية ، ويحوطه بالعناية والرماية ، فيمضي قدما لا يلوى على شيء ، فيصل في سنين الى ما لا يمكن الوصول اليه في أجيال .

هذا النوع من تولى أمر الشعوب كان الوصف المميز للخلفاء الراشدين ، فكانوا قريبين من رعاياهم ، متصلين بهم بحيث يحس كل فرد منهم أنه في كنف أب رحيم ، يؤثرهم على نفسه ، ويحتضنهم بعطفه ، ولا يألوم نصيحة فيما جل أو صغر ، ويشاركهم في أفراحهم وأراحهم .

يعجب الناس كلما قرءوا أن الاسكندر المقدوني قد فتح آسيا الصغرى بجيش لا يتجاوز عدده خمسين ألفا ، وهزم حنودا لا تحصى أرسلت لثمنه التوغل في بلادهم . وهذا لا يرجع الى عبقرية الاسكندر الحربية بقدر ما يرجع الى مكانته من قلوب حنوده ، وعشدة تعلقهم به واعتقادهم أنه منهم وهم منه . أصاب جيشه عطش وهو يخترق سهوب آسيا الصغرى ، وعطش هو نفسه معهم ، فأراد قواده أن يؤثروه بكوب من الماء بذلوا جهدا في الحصول عليه ، فتناولوه منهم وسب ما فيه على الأرض وقال : « لا أشرب وجيشي ظمآن » !

وقد أعد الله حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق أن يكون واحدا من هؤلاء الملوك الأفاضال الذين تسعدهم شعوبهم ، وتصل تحت قيادتهم الى أبعد ما يكتب لها من شرف وسؤدد ومجد ، فإن من يمثل لنفسه التقاليد التي حري جلالته عليها ، والسنن التي منها للاتصال بشعبه ، ولا شمار له به الى جانبه بحوطه برمايته ، ويمدده بعنايته ، يتحقق أن جلالته واحد من أولئك الأفاضال الذين يرسلهم الله في أدوار من حياة الأمم ، وهي أحوج ما تكون إليهم ، ألم شعبها ، وجمع كلمتها ، والنفوذ في أدوار الانتقال التي لا بد منها ، آمنة على وجودها ، واثقة بنجاحها . فإن أردنا أن نعد ما تتبعه جلالته من سنن الملوك الموفقين ، وما جدد منها ، عددنا في مقدمة ذلك اتصاله بشعبه في أول رمضان ، واسدائه التهنئة له بحلول شهر الصيام ، وشفع ذلك ما يأتي

بالغات من الصبح ، وكلمات بأبغات من الارشاد ، مما يحدث في نفوس الشعب أثرا لا يحصى
يكون من ورائه خفوفهم للوصول الى الغايات الكريمة التي يعينها لهم . ومجلة الأزهري تتشرف
بافتتاح هذا العدد بنشر حديث جلالة الكريم الذي تفضل بالقائه هذا العام من طريق الإذاعة
اللاسلكية ، أعاد الله هذا الشهر المبارك على جلالاته وهو متمتع بتوفيق الله له وفضله عليه .
اليك نص الحديث الملكي الكريم :

شعبي العزيز :

في مثل هذا اليوم المبارك من العام الماضي تحدثت اليكم عن بعض ما نحيش به نفسي
من الخير لكم وللأم الإسلامية في العالم كله ، واتجهت إلى ربي ودعوته أن ينير أمامي السبيل
إلى مجد هذا الوطن وعظمته .

وإني ليسرني ، ونحن نستقبل شهر رمضان المبارك ، أن أهنئكم وإخواننا المسلمين في جميع
الأمصار والاقطار ، سائلا الله أن يحقق للجميع آمالهم ويشملهم بالرعاية والتوفيق .

شعبي العزيز :

تمربنا الحوادث سراعا ، والعامل من وعي منها العبر . ولئن سكنت العاصفة إلى حين ، فإنكم
لتؤمنون بضرورة قيام كل بواجبه نحو الوطن العزيز في وقت أصبحت القوة فيه عماد الأمم .
ولقد ماهدت ربي أن أشعل معكم لنكون مصر قوية عظيمة محترمة ، تزدود عن نفسها
بنفسها ، فأعدوا أنفسكم لهذه الغاية السامية . اتحدوا وتأحوا ، وروضوا أنفسكم على حب النظام
والطاعة ، وانغروا بقوميتكم واحترؤا بوطنكم ، وليؤمن كل منكم بأنه يعمل ويحمي ويموت
لخير هذا الوطن .

لا بد من التعاون ، شعبا وحكومة ، على ما يحقق لأممتنا ثقافة عالية وحلقا عظيمة . ولا بد
من رفع مستوى الحياة الاجتماعية في البلاد التي طالما جاهد في سبيل النهوض بها المغفور له
والذي ، فا كان لامة أن تحيا إذا لم يكن لها من قوة خلقها وسواعد أبنائها ، ما يصون
شرفها ويحمي عرتها .

وإني لأهيب نقادة الأمة وذوي الرأي فيها ، وبرؤساء الأسر والعشائر ، أن يقصدوا
في دمة وإخلاص ، مسئوليتهم الكبرى لأدراك هذه الغايات الرفيعة ، حتى تكون مصر
مأملا فعلا في خدمة الإنسانية وتأييد السلام .

شعبي العزيز :

ذلك ما أرى من الحق أن أوصيكم به في مستهل هذا الشهر العظيم ، شهر الصبر والبذل
من النفس ، وتطهير السرائر وتزكية الصائم ، فتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، ولا تنسوا
الفضل بينكم ، والله يوفقني وإياكم . والسلام عليكم ورحمة الله .

حديث رمضان

مضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام بغضى بحديث رمضان

اعتادت جريدة الاهرام كل عام أن ترجو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام أن يغمى للعالم الاسلامى بحديث عن الصيام لتحمله الى أقصى ما تصل اليه من البلاد الاسلامية ، وهى سنة حسنة تشكر عليها ، وقد تفضل فبعث اليها بكلمة جمعت على إنجازها المزايا الادبية التى يؤدى اليها الصيام ، والخلال التى يجب أن يتصف بها من يؤديه ليكون عمله مروراً ، وجهاده مشكوراً ، فكان ما تضمنته هذه الكلمة من صميم العلم النفساني ، ولباب الحكمة الشرعية ، حديث المجالس فى كل مكان فى مصر ، وأتوقع أن لا يكون الناس فى الخارج أقل اهتماماً بها منا . إن فى تعهد فضيلته المسلمين بأمانال هذه الكلمات الهيئات من حين الى حين تعتبر قياماً بخدمة لهذا الدين لاتعادها خدمة ، لأن فيه إهابة بالقوس الى الانتباه ، وبالأفكار الى النظر ، وبالهم الى النهوض ، وفضيلة الأستاذ يقوم بهذا قياماً إيجابياً ، يقدم لقارئيه الوسائل التى توصلهم الى ما يدهوم اليه ، والمزايا التى تحببهم فيه ، وممما الغاية التى يصلون اليها بالعمل به . وإننا قياماً باستيعاب كل ما يصدر من فضيلته من الكلام البوايع ، نقل ما تفضل بنشره فى أهرام أول رمضان ، مضامين اليه ما نكرم بنشره فى جريدة الدستور ذلك اليوم نفسه ، وكلا الحدين جليل فى ذاته ، عظيم الأثر فى القلوب . فإليك ما نشر فى الأهرام :

« تدب فى الشباب اليوم حياة لم تعهد فى شباب مصر من قبل ، حياة كلها خير وبركة وعن وسعادة ، تبشرنا بحيل نافع لوطنه ونافع لدينه ، حيل فتي قوى سينفض حياة الدلة والهون ، حياة الدعة والترف والرخاوة ، ويدرع بالزم والصبر والبأس والتحصن ، ويحيى حياة الرجال العاملين الخالصين .

« وما خلق الرجل لآزينة ، وحرف الأوقات فى السر والشهوات ، وارتداد المسارح ، والانغماس فى اللذات ، واقتناس القمص للشهوات ، بل خلق للخلافة عن الله فى الأرض يعمرها ، وللأعمال النافعة : من فلاحه أرض يحيد إصلاحها واستثمارها فيجنى منها أطيب الثمرات ، ومن تجارة طيبة مباركة تحوّلها الامانة والرغبة فى تبادل المنافع ، مع طرح الهوى والجور والنفس والتخديعة ، ومن علم نافع يسحر به ما خلق الله فى الأرض والماء والهواء ، ويستثمره خير الأفراد والجماعات ، ويعرف به ما لله من حق والعباد من حق ، ويعين على سياسة نافعة عادلة تعيش بها الأمم فى نعمة السعادة البدنية والروحية ، ونعمة المجد والعز والسلطان . وخلق للذود عن الأهل والعشيرة والدين والوطن . فلن تحيا أمة حياة سعيدة ولن يستقيم لها أمر إلا إذا

أمنت في دارها ، وشعرت بقوة تدفع عنها طغيان المعتدين واعتداء الطاغين . ولن يحيا أمة حياة سعيدة إلا إذا فهم الناس حقوقهم وحقوق غيرهم ، وشعر الفرد بواجب الجماعة عليه ، وشعرت الجماعة بواجب الفرد عليها ، وتوزعت الأعمال بين الأفراد والطوائف ، وأجاد كل واحد ما يسر له ، وشعر الجميع بضرورة التعاون ، ووجدت صفات الرحمة والرفق والمطف على المحتاج ، وصفات الإيصال والاعتراف بالفصل لمن هم أهله ، وتوارت صفات الحسد والحقد والآثرة والتهميم على الناس بالباطل ، وصفات الخديعة والغرور بالنفس . إذ ذلك توجد أمة متحدة ، وتوجد أمة عزيزة تلبس ثوب الجود والوفاء والكرامة ، وتعيش عيشة حسنة رغيدة ، وعيشة روحية سعيدة ، يحترمها الصديق ، ويخشى بأمرها العدو .

« هذه الحياة السعيدة الباعثة تنطلب إعدادا جسميا ، وإعدادا خلقيا ، وإعدادا روحيا ، وإعدادا علميا . وليس أدل على تطلع الشباب إلى المجد وإلى هذه الحياة مما نراه من الأقبال على الجندية ، والتطوع لها ، والاقبال على التدريب العسكري ، وعلى أنواع الرياضات المختلفة ، والاقبال على التعليم والاحلاح في طلب هذه الحياة الفنية التي تشعر بأن شباب الجيل ملحق في طلبها ، ويبشرون بأن الجيل القادم سائر في طريق الجود ، وعازم على طرح اللهم ، وعلى إحياء آثار الأسلاف ومجد الآباء ، مصمم على أن يحيا حياة الرجال العاملين المخلصين ، وعلى أن يحيا حياة بريئة يستمتع فيها بما أحله الله ، وهو كثير ، وينكب عما حرمه الله ، وهو قليل ، وعلى أن يدرج بالصبر والآناة والحكمة ، ويطيع أمر الله ليجلب نصره ويحمل هدايته وتوفيقه . وكما طلب الله حياة روحية قوية فقد طلب حياة بدنية قوية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لآلئكم والله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء ، في سبيل الله يوف البكم وأنتم لا تظلمون » .

« والآيت نختتم هذه الكلمة بكلمة سيد الشعان خالد بن الوليد حيث قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع شبر إلا وفيه طعنة برميج ، أو ضربة بسيف ، أو رمية بسهم . وها أنا أموت على فراشي خفف أنني كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأما متقرس بها » .

« وإن الصوم الذي فرضه الله على المسلمين ، ويستقبلونه الآن لم يجمع الوسائل لتحقيق هذه الصفات التي نرجو أن يتحلى بها شباب الجيل الحاضر ، ومن أحضرها على مجاهدة النفس وأنواع الرياضات الطيبة . حقق الله الآمال ، وورقنا التوفيق ، وهدانا إلى الرشاد ، إنه سميع الدعاء .

وهذا ما نشر لفضيلاته في جريدة الدستور :

« الصوم عبادة فرضها الله على خلقه طهراً لهم وتزكية لنفوسهم ، كما فرض سائر المبادات لمصلحة الخلق أنفسهم لا لمصلحة تعود عليه سبحانه ، فهو غني عن العالمين . وليس هناك فائدة

في البحث عن سر الصوم والغرض منه لمن ينكر الخالق أو ينكر حكته أو ينكر النبوات ، ولكن هناك قاعدة هي التذكير وطمأنينة القلب للمؤمنين ، ولذلك قال الله تعالى : « فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

« وقد نبه الله سبحانه وتعالى في الصحايا إلى أن المقصود منها التقوى ، وقال : « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مَكَم » ، وكذلك نبه في آية الصوم إلى أنه شرعه للتقوى : « كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ، فلم يكن الصوم محققاً لهذه الغاية كان تعب الصائم ذاهباً سدى ، وكان الصوم إما ماطلاً كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء ، وإما مستقلاً للغرض خالياً من الأجر الذي وعد الله به الصائمين .

« والتقوى التي هي عمرة الصوم حالة تمنع الإنسان من الوقوع في الآثام ، فتحمله على الطاعة وامتنال أوامر الله وترك ما نهى عنه وحرمه ، وتحمل النفس الإنسانية مطمئنة راضية بالحياة ، راضية بالجهد فيها ، ناعمة بالرزق واليسر فيه ، صارفة له فيما سئله الله وقدره لعباده ، ملتفتة دائماً إلى حضرة القدس ، شاعرة بلذة الاتصال بالله ، سلسة القيادة سهلة العشرة مع الخلق ، بعيدة عن إيقاع الأذى والضرر بهم ، سواء أكان ذلك بالقول أم بالفعل ، لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ اللَّهُ حَاجَةً فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الصَّيَامُ جُنَّةٌ فَلَا يَرِفُ وَلَا يَجْهَلُ وَإِنْ أَسْرَوْا قَاتِلَهُ أَوْ شَاتِمَهُ فَلْيَقِلْ فِي صَائِمٍ مَرَّتَيْنِ » ، يقول الله تعالى : الصوم لي وأنا أجزى به ، يدع الصائم طعامه وشربه لأجلي .

« فالتبني صلى الله عليه وسلم يقول : إن الصيام وقاية من الآثام والمعاصي ، لذلك لا ينبغي أن يتفوه الصائم بالفحش من القول ، ولا أن يفعل أفعال الجاهل والخلق من الشتم والضرب والأيذاء وأكل أموال الناس بالباطل وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والله سبحانه يتولى أجر الصائمين الذين يوفون حقوق الصوم ، ومن تولى الله أجره غناه ووقاه بغير حساب . وإذا كان الصوم منسوباً على الخصوص إلى الله ، وجب على الصائم أن يكون دائماً على ذكر منه ، وأن يتقى ما يبعد عن الله ، وأن يكون مخلصاً لله .

« هذه التقوى تيمت على الرفق وعلى البر بالفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين ، وعلى إغاثة الملهوف والمضطرب ، لذلك ينبغي أن يكون هذا أول أثر من آثار الصيام ، وقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان ، وكان فيه أجود من الريح المرسلة . « وفقنا الله إلى عمل الخير وخير العمل ، ورزقنا التقوى ووقانا الريغ ، وحنبنا وسواس الشيطان ، وأماننا عليه .

أما بعد : « هذه تهيئتي إلى الصائمين ، وأسأل الله أن يعبد عليهم شهر الصوم في أمن وهدوء ، وسعة وخير وبركة .

أصول التشريع

- ٥ -

بحث في الاجتهاد والاجماع

—

(١) هل اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وما دليل
اجتهاده ، وما حكمته ؟ (٢) هل اجتهد الصحابة في العهد
النبي ؟ (٣) ما طريقة الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد
والقياس ؟ (٤) ما طرق التعليم التي يرى العلماء أنها توصل
للاجتهاد ؟ (٥) هل للبيئة والوراثة أثر في آراء المجتهدين ؟

١ — هل اجتهد الرسول ؟

ارتضى جمهور الأصوليين أنه يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم الاجتهاد ، وأنه كان يجتهد
برأيه حيث لا يكون وحى ، واحتجوا بأن الله تعالى خاطبه كما خاطب عباده ، وضرب له الأمثال
وأمره بالتدبر والاعتبار ، وهو أحل المتفكرين في آيات الله ، وأعظم المعبرين ، وأنه لا كل
المعصوم عن الخطأ ، وإذا جاز لغيره من الأمة أن يجتهد بالاجماع — وهو عرصة للخطأ —
فحوار الاجتهاد للرسول الكامل المعصوم عن الخطأ أولى ، ولأن العمل بالاجتهاد أشق من
العمل باليقين ، فيكون أكثر ثواباً .

وأما قول الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » فالمراد به القرآن
لأنهم قالوا : إنما يعلمه بشر .

ومما يدل على اجتهاده صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » ؟
فعماته على ما وقع منه ، ولو كان ذلك بالوحى لم يعاتبه . وقوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له
أمرى حتى يُنْزِلَ في الأرض » فعماته الله تعالى على أخذ العدا من أمرى بدر ، فلو كان
صلى الله عليه وسلم يحكم بمقتضى الوحى ما عوتب . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة
الوداع : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقت الهدى » أى لو علمت أولاً
ما علمت آخرها ما فعلت ذلك . ومثل هذا لا يكون فيما عمله عليه السلام بالوحى . والأدلة
من الكتاب والسنة على اجتهاده صلى الله عليه وسلم كثيرة .

أما حكمة اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، فقد قال العلامة محمد بن الحسن الحجوى : إن من

حكمة اجتهاده عليه السلام : تعليم الأمة ، وتدريبها على الاجتهاد في الأحكام ، واستنباط الأحكام التي تناسب كل مكان وزمان ، وعدم الجود على ظواهر النصوص ، لأن ذلك طائق عن الترق والتطور في أطوار تناسب الزمان والمكان .

فالاجتهاد من مصالح الشريعة التي هي مامة لكافة الأمم ، والتي هي مستمرة لا تندسخ ، ولا يمتل استمرارها إلا إذا كان يتغير الكثير من أحكامها الاجتهادية بتغير الأحوال ، ولا يخفى أن الاجتهاد مقام عظيم ، وفيه ثواب جسيم ، فليس أخطأ أجر ، ولمن أصاب أجران ، كما في الصحيح .

فالقول بأنه عليه السلام لا يجتهد ، يلزم عليه حرمانه عليه السلام من هذا المقام مع مخالفة الظواهر المتكثرة ، والظواهر إذا تكاثرت أفادت القطع .

ومن هذا يقين أن اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم لا شك فيه ، وتبين حكمة اجتهاده ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة .

٢ — هل اجتهد الصحابة في العهد النبوي ؟

ذهب أكثر الأصوليين الى جوار الاجتهاد في العصر النبوي ، ووقعه .

وقد اجتهد الصحابة رضي الله عنهم في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ولم يعنتهم ، بل أقرم على اجتهادهم ، وصوبهم :

١ — كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في بني قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلوها في الطريق ، وقال لم يرد ما التأخير ، وإنما أراد مرة النهوض ، فنظروا الى المعنى ، وهؤلاء سلف أهل المعاني والقياس ، واجتهد آخرون ، وأخروها الى بني قريظة ، فصلوها ليلاً ، فنظروا الى اللفظ ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر . ومن هنا نشأ مذهب القياسيين ، ومذهب أهل الظاهر .

٢ — ولما كان على كرم الله وجهه باليمن ، أنه ثلاثة نفر يختصمون في غلام ، فقال كل منهم : هو ابني ، فأقرع على بينهم ، فجعل الولد للقارع ، وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فصحك حتى بدت نواحيه من قهقهة على رضي الله عنه .

٣ — واجتهد سعد بن معاذ في بني قريظة ، وحكم فيهم باجتهاده ، فمؤبه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

٤ — واجتهد الصحابييان اللذان حرجا في سفر ، فحضرت الصلاة ، وليس معهما ماء فصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما ، ولم يعد الآخر ، فصوبهما صلى الله عليه وسلم وقال للذي لم يعد : « أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك » ، وقال للآخر : « لك الأجر مرتين » .

٥ - ولما قلنا بجزز المدلجى ، وقاف ، وحكم بقياسه وقيافته على أن أقدم زيد وأسامه ابنه بعضها من بعض ، سر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى برقت أسارير وجهه من صحة هذا القياس ، وموافقته للحق ؛ وكان زيد أبيض ، وأبوه أسامة سود ، فألحق هذا القائف الفرع بنظيره وأصله ، وألحق وصف السواد والبياض الذى لا تأثير له فى الحكم . فهذه نصوص صريحة فى اجتهاد الصحابة رضى الله عنهم ، ومعيان الأمة ، ومصابيح الشريعة ، فماذا لا يبنى كما كانوا يبنون ، وتفعل كما كانوا يفعلون ؟

٣ - ما طريقة الصحابة فى الاجتهاد والقياس ؟

لشرنا فيما سبق أن الحوادث والوقائع مما لم يقبل الحصر والعد ، وأنه لم يرد لكل حادثة أو واقعة جزئية نص خاص بها ، ولا يتصور ذلك ، والنصوص إذا كانت متناهية ، والوقائع غير متناهية - وما لا يتناهى لا يضطه ما يتناهى - علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار ، حتى يكون بصد كل حادثة اجتهاد .

ولقد كانت طريقة الصحابة رضى الله عنهم فى الاجتهاد أنهم كانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص من كتاب ولا سنة ، وكانت طريقتهم فى استعمال الرأى بحسب ما يرشد اليه الدوق السليم مما فى الأمر من عدل وظلم ، أو كما قال ابن القيم : بما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ؛ بل كان صرح رضى الله عنه يستعمل الرأى فى أوسع من المعنى الذى ذكرناه ، وسار أئمة من ذلك ، فكان يجتهد فى تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه ، وهذا أقرب شئ الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته .

وقد ألمع الى هذا الى طريقة الصحابة فى الاجتهاد والقياس إمام الحرمين فقال

نحن نعلم قطعاً أن الوقائع التى حوت فيها فناوى علماء الصحابة وأقصيتهم تزيد على المنصوصات زيادة لا يحصرها عد ، ولا يحدها حد ، فهم كانوا قايسين فى قريب من مائة سنة ، والوقائع تترى ، والنفوس الى البحث عنها طامعة ، وما سكنوا عن واقعة صائر الى أنه لا نص فيها والآيات والأخبار المشتملة على الأحكام نصاً وظاهراً بالإضافة الى الانقضية والفتاوى كغرفة من بحس لا يتزف ؛ وعلى قطع نعلم أنهم ما كانوا يحكمون سكل ما ينعن لهم من غير ضبط ورنط ، وملاحظة قواعد متبعة عدم ، وقد تواتر من شيمهم أنهم كانوا يطلبون حكم الواقعة من كتاب الله تعالى ، فإن لم يصادفوه فتشوا فى سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يجدوها اشتوروا ورجعوا الى الرأى . والنزى يوضح ما ذكرناه أنهم مع اختلاف مذاهبهم فى مواقع النظر ومواضع التحرى ما كانوا ينكرون أصل الاجتهاد والرأى ، وإنما كان

بعضهم يتعرض على بعض، ويدعوه الى ما يراه هو . ولو كان الاجتهاد حائداً عن مسائل الشريعة لأكبره منهم منكر ، فلم يكر أصل الاجتهاد أحد من الصحابة ، وإنما كانوا يتناظرون في الدب من وجوه الاجتهاد ، ولدعاه الى غيرها من الاجتهاد ؛ وكانوا يجمعين على الأصل مختلفين في التعيين والتفصيل نحو اختلاف علماء الدهر .

ولم يخل أحد من علماء الصحابة من الاجتهاد في مسائل ، وإن لم يقل عنهم الاجتهاد في مسألة واحدة ، فقد صح النقل المتواتر في مصير كل واحد منهم الى أصل الاجتهاد في مسائل قضى فيها أو أفتى بها .

ثم إحداهن قاعدة في الشريعة تستند اليها الأحكام بل يصدر عنها معظم الشريعة مما لا يجوز السكوت عليه لو لم يكن ثابتاً . ولقد تصرف علماء الصحابة في مذاهب الاجتهاد على الدوام من غير فتور فيه ، فلو كان واحد منهم يعتقد بطلان الاجتهاد ما سكت .

وقد وضع بالنقل المتواتر عن الصحابة أنهم كانوا يقدمون كل متعلق بنص وظاهر ، ثم كانوا يشتركون وراء ذلك ، ويثبتون الأحكام على وجوه الرأي ، واعتبار المسكوت عنه بالنصوص عليه .

وعلى الجملة فقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن بعدهم على العمل بالرأي والنظر في مواقع الظن والاجتهاد . ومن أنصف نفسه لم يشكك عليه إذا نظر في المناوي والأقفية أن تسعة أعشارها صادرة عن الرأي المحض والاستنباط ، ولا تعلق لها بالصورس والطواهر .

فإن قالوا . قد روى عن جمع من أئمة الصحابة رد الرأي والرد على الفائلين به ، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه . « أي سماء تظلي وأي أرض تقبلي إذا قلت في كتاب الله تعالى رأيي » ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لو صلتكم بالرأي لحللتكم كثيراً بما حرم الله ، وحرمتكم كثيراً مما أحل الله تعالى » ، الى غير ذلك من أفراد آثار — فقد عورضوا بأصنافها ، وذكروا أولاً إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم الى القياس في الأحكام ، منها ما روى أنه عليه السلام سئل عن قسلة الصائم ، فقال لسائل : أرأيت لو تمصصت بماء ثم سبغت به فمك ففكان ذلك منه قياساً لقملة على المضمضة .

وقال عليه السلام لضاعة الأسدية ، وقد ذكرت له حجاج على أيها وسالته عن إمكان أدائه ، فقال : أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت تمضيته ؟ قالت : نعم . قال : فدين الله أحق بالقضاء .

وقول ابن مسعود في حديث بروع بنت واشق ، وكانت فوضت بضمها ، فرد ابن مسعود

السائل شهرا ثم قال : إني أقول فيها برأى ، فإن أصبت فن الله تعالى ، وإن أخطأت فني ومن الشيطان ، أرى لها مثل مهر نسائها لاوكس فيه ولا شطط . فالذين مضوا كانوا يسندون 'جل الأحكام الى الظن والرأى ؛ وكيف يطمع الطامع في معارضة ذلك ، ألتفاظ محتلة يسبقها الآحاد ؟ ولو كانت نصوصا لما عارضت التواتر .

ثم ما تمسكوا به من قول الصديق وابن مسعود رضى الله عنهما لا حجة فيه ؛ فأما الصديق فإنه قيد كلامه بالرأى في كتاب الله تعالى ، وأراد به مخالفة المفسرين الذين الى قولهم الرجوع ، وهذا ممنوع عندنا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » فلا حجة إذا قيا روي عن الصديق رضى الله عنه .

وأما قول ابن مسعود فلا متعلق له ، فإن فيه ما يدل على أن الرأى المجرد لا يتطرد ، إذ قد يلقاه من أصول الشرع ما يجمعه من الجريان ، فعلى كل ناظر ألا يتبع رأيه المحض حتى يربطه بأصول الشريعة ؛ فلا حجة إذا في قوله . واحتج الشافعي رضى الله عنه ابتداءً بحديث معاذ ابن جبل رضى الله عنهما ، قال له الرسول عليه السلام لما بعثه الى اليمن : « بم تحكم ؟ » ... الخبر ، وهو مدون في الصحاح ، وهو متفق على صحته لا يتطرق اليه التأويل ، فإنه رضى الله عنه انتقل من الوحي والتبريل الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انتقل منهما عند تقديره فقدمها الى الرأى . ولا يجوز أن يقال : أراد بالرأى رأى استنباط من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام ، فإن ذلك لو كان على هذا الوجه لكان متعلقا بالكتاب والسنة .

فإن قيل : خبر الواحد ، وهو حديث معاذ ، لا يقتضى العلم ، وإثبات القياس يقتضى أمرا مقطوعا به ، فلما : قد ثبت عندنا بالقواطع العمل بخبر الواحد .

٤ — ما طرق التعليم التي توصل للاجتihad ؟

ألمنا الى علوم الاجتهاد من قبل ، أما طرق التعليم التي يرى كثير من الامة أنها توصل للاجتihad ، فنفتار منها ما يلى :

١ — قال ابن دقيق العيد : « لقد عز الاجتهاد في هذه العصور ، وليس ذلك لنعذر آله الاجتهاد ، بل لإعراض الناس عن الطريقة المفضية لذلك .

٢ — وقال الامام النووي : « فإذا فعل المتعلم ما ذكرناه ، وتكاملت أهليته ، واشتهرت فضيلته ، اشتغل بالنصنيف ، وحذف في الجمع والتأليف ، محققا كل ما يذكره ، متنبها في نقله واستدلاله ، محررا إيضاح العبارات ، وبيان المشكلات ، مستوعبا معظم ذلك الفن ، غير غفل شيء من أصوله ، منها على القواعد ، فبدلك تظهر له الحقائق ، وتتكشف المشكلات ، ويطلع على الغوامض ، وحل المعصلات ، ويعرف مذاهب العلماء ، والراجح من المرجوح ، ويرتفع عن الجود على محض التقليد ، ويلتحق بالأئمة المجتهدين ، أو يقاربهم ، إن وفق لذلك »

٣ — وقال أيضا : « وينبغي للعالم أن يعتنى بالتصنيف إذا تأهل له ، فيه يطلع على حقائق العلوم ودقائقها ، ويثبت معه ، لأنه يضطره الى كثرة التفتيش والمطالعة ، والتعقيق والمراجعة ، والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتعمقه ، وواضحه من مشكله ، ومحيجه من سقيمه ، وجعله من ركيكه ، وما لا اعتراض عليه من غيره ، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد » . وقد وفى الامام النووي في شرح المذهب في باب آداب العالم والمتعلم هذا الموضوع بما لا مزيد عليه ، وهذا مضمون ما ذكره .

٤ — وقال الامام أبو شامة : « ينبغي لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب إمام معين ، بأن يرفع نفسه عن هذا المقام ، وينظر في مذهب كل إمام ، ويمتد في كل مسألة صحة ما كان أقرب الى دلالة الكتاب والسنة المحكمة ، وذلك سهل عليه إذا كان قد أتقن معظم العلوم المتقدمة ، وليحتنب التمسك ، والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة ، فانها مضبوطة للزمان ، ولصفوه مكدرة ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله لا يقبض العلم اقتزاعا ينتره من الناس ، ولكن يقبضه بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فأتقوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » . فإعظم حظ من بذل نفسه وجهدها في تحصيل العلم ، حفظا على الناس ، فإن هذه الأمانة قد غلب على أهلها الكسل والملل وحب الدنيا قال : ولم يزل علم الفقه كريما يتوارثه الأئمة معتمدين على الأصوليين الكتاب ، والسنة ، مستظهرين بأقوال السلف على فهم ما فيها من غير تقليد ، فقد نهى الامام الشافعي رضى الله عنه عن تقليده وتقليد غيره ، وكانت تلك الأمانة مملوءة بالمجتهدين ، فكل صنف على ما رأى ، وتمسك بعضهم ببعض مستمدين من الأصوليين : الكتاب ، والسنة ، وترجيح الراجح من أقوال السلف المختلفة ، ولم يزل الأمر على ما وصفت الى أن استقرت المذاهب المدونة ، ثم استظهرت المذاهب الأربعة ، وهجر غيرها ، فقصرت هم أتباعهم إلا قليلا منهم ، فقلدوا ، ولم يظفروا فيما نظروا فيه المتقدمون من الاستنباط من الأصوليين : الكتاب ، والسنة ، فقل المجتهدون ، وغلب المقلدون ، حتى صاروا بمن يروم رتبة الاجتهاد يعجبون ، ويزدرون . ثم قال : ولم أزل منذ فتح الله على بالاشتغال بعلم الشريعة ، وفهم ما ذكرت من الاختلاف والاتفاق ، ودلالات الكتاب والسنة مهتما بجمع ذلك ، أو ما يقاربه ، توفيقا من الله ، لمعاونة الأمر الأول ، وهو ما كان عليه الأئمة المتقدمون من استنباط الأحكام من الأصوليين ، مستظهرين بأقوال السلف فيها ، طلبا لفهم معانيها ، ثم يصار الى الراجح منها بطريقة .

ثم قال : وإنما وضع الامام الشافعي وغيره من الأئمة الكتب إرشادا للخلق الى ما علته كل واحد منهم صوابا ، لا أنهم أرادوا تقليدهم ، ونصرة أقوالهم كيفما كانت .

قال : فعلى هذا كان السلف الصالح يتبعون الصواب حيث كان ، ويمجتهدون في طلبه ، وينهون عن التقليد .

ثم قال : وقد حرم الفقهاء في زماننا النظر في كتب الحديث والآثار ، والبحث عن فقهاء ومما نبتها ، ومطالعة الكتب النفيسة المصنفة في شروحها وغريبها ؛ بل أفنوا زمنهم وعمرهم في النظر في أقوال من سبقهم من متأخري الفقهاء ، وتركوا النظر في نصوص نبيهم المعصوم من الخطأ صلى الله عليه وسلم ، وآثار الصحابة الذين شاهدوا الوحي وهاينوا المصطفى ، وفهموا الشريعة ، فلا جرم حرم هؤلاء رتبة الاجتهاد ، ونفروا مقلدين على الآباد .

وقد كان العلماء في الصدر الأول معذورين في ترك ما لم يقفوا عليه من الحديث ، لأن الأحاديث لم تكن حينئذ فيما بينهم مدونة ، وإنما كانت تتلقى من أفواه الرجال ، وهم متفرقون في البلدان ، وقد زال ذلك العذر والله الحمد بجمع الحفاظ الأحاديث المحتج بها في كتب ، ونوعوها ، وقسموها ، وسهلوا الطريق إليها ، وبيروا صنف كثير منها وصححه ، وتسكلموا في عدالة الرجال ، وحرر الجروح منهم ، وفي علل الحديث ، ولم يدعوا المتأمل شيئا يتأمل به ، وفسروا القرآن والحديث ، وتسكلموا على غريبهما وفقههما ، وكل ما يتعلق بهما في مصنفات عديدة حلية ؛ فالآلات منبهات لذي طلب صادق ، وهمة ودكاء وفطنة ؛ وكذلك صناعة العربية ، كل ذلك قد حرره أهلها وحققوه .

فلنوصل إلى الاجتهاد بعد جمع السنن في الكتب الممنعة ، إذا رزق الله الإنسان الحفظ والفهم ومعرفة اللسان ، أسهل منه قبل ذلك ، لولا قسلة فهم المتأخرين ، وعدم المتبرين ، والتمصب ، وجبل أكثر المتصدين . انتهى كلام أبي شامة .

هذا هو رأي الأئمة : ابن دقيق العيد ، والسيوطي ، وأبي شامة ، في طريقة التعليم التي توصل إلى الاجتهاد . وقد تكلمنا في العدد الماضي على الاجتهاد وعلمه ومدرسته ، وأنه في هذا الزمان أيسر منه في الأزمان الحالية بما فيه الكفاية .

السيد عفيفي

خير البر عاجله

قال جعفر الصادق رضي الله عنه : نظرت إلى المعروف فوجدته لا يتم إلا بثلاث : تعجيله ، وسره ، وتصغيره ، فإياك إن عجّلته هنأته ، وإذا سترته نعمته ، وإذا صغّرته عظّمته .

مدح بعض الشعراء من هذه الصفات فيه فقال :

زاد معروفك عندي عظيماً إنه عندك مستور حقير
تقنّاساه كأن لم تأت وهو عند الناس مشكور كثير

اللغة العربية بين القوة والضعف

- ٨ -

دعائم الإصلاح

تيسير القواعد :

صبغة حديدية دوت في رحاب العربية منذ فجر النهضة تنادى عليها بالويل والثبور إن لم ينداركها الأساة بمشارط الإصلاح فيسرقوا منها تلك الأعصاب المتلوية الضاربة في أديمها حتى قعدت بها عن النهوض الى التمسير عن مطالب الحضارة في هذا العصر « الثائر » ، فتجاوزت تلك الصبغة أصداء أهدية الأدب الباشئة بنشأة النهضة ، وقوامها إذاك تفر من شدة المتأدين الذين أخذوا بأطراف من أدب الغرب ومعارفه ، وتعاصت عليهم الفصحى أن تلين قناتها لهذا الشدو الغريب عن طبيعتها وبيئتها ، فرموها بالعمق والتعقيد في قواعدها ، وتنادوا فيما بينهم بالإصلاح ، ثم افترقوا شيعا وأحزابا ، ودعت كل شيعة الى ما وافق هواها وطابق استعدادها الفكري ، وكان أنكر الأصوات صوت الدعوة الى العامة وهجر الفصحى ، لأن نبراته المكسرة على رغم صغفها كانت غلينة مستخبنة ، فلم تقو على الحياة ، واستعابت الى القماء في مهدها ، وكفى الله لغة الكتاب الحكيم شرها وشر دعاتها ، وخلفت وراءها دعوة أخرى ليست بأقل خطرا على كيان اللغة منها ، غير أن دعاتها كانوا أصدق بأمرها ، فصابروا النهضة وسابروها ، حتى واتتهم الفرصة سانحة فاتتهزوها ، وترددت صيحاتهم في آفاق معاهد اللغة بأقلام رجالانها الزادة ، وأرهفت وزارة معارفا آذانها لتسمع صوت همدائها وذوى الاحتصاص فيها ، فدقوا لها ناقوس « الخطر » ، وانتفضت أوداج تقاريرهم بالفرع على الفصحى أن تذهب ربحها وتغرب في وطنها ، ومنلوا داءها الدوى أصدق تمثيل ، فقالت أقطار الضاد : نعم إن الفصحى في ألسنة أبائها مدبقة ، وفي مفانيها مصدبة ، وفي أوطانها مقترية ، وقد عرفنا — كما عرفتم — الداء ، فها تها محكمكم الدواء ، فأتتم الأصوة ونحن لكم تبع مادام فيكم معهد المضرة الأنور ، وكعبة الاسلام « الأزهر » . فقالت مصر ، استغفر الله ، بل قالت وزارة المعارف المصرية وحدها - لا ، بل قال خمسة نفر من أدباء الوزارة : إن الدواء كل الدواء لداء اللغة في هذا « المستقار » الناجع الذي يعقر الداء ويشقى الألسنة من سقمها ، ويعيد الى العربية مجدها ، ذلك هو « تيسير قواعد اللغة » نحوها وصرفها وبلاغتها ، وألفت لجنة المحدثين « الخمسة » ، وبوعد بينها وبين الأزهر ومعاهده ، واجتمعت ودرست علوم العربية وفنونها في أيام معدودات ، ورفعت الى الوزارة تقريرها يحمل في طياته « دعائم الإصلاح »

ونشر التقرير على الناس ، فخلقت كلتهم بين التفاؤل لمهمة اللجنة والتشاؤم بها ، ووقف الأزهر ، كعهده أمام المواقف ، كالطود الشامخ يرتقب الهدفة حتى يصر الناس ، وتزول عن أعينهم غشاوات الضباب الذي خلفته رمال المصافة وراءها ، ونظر أساتيد اللغة ومعلوها في التقرير فإذا به دراسة لم يشأ التوفيق أن يصحبها ، فأبوا عليه أن يملئوه بالنقد ، لأنه أرى أن يعلن عن نفسه بالبحث والتحقيق ، واكتفى بعضهم بمسارفتها كشف عنه ثوب التحديد الضعيف ، فبدأ كما خلفته اللجنة لا يغنى من أمر الإصلاح شيئاً ، وقالت العصي برأسها هكذا إلى « مسجد المز » في عهده الحديد الأزهر ، وأماخت برجلها في ساحته في ظل الكتاب الكريم ، وتأتبت على المجددين أن تدرس إلا كما درسها سيويه والخليل ، وصاحب الخصائص وصاحب المغنى ، وسيفرأ أصدقاؤها المجددون صدق إرادتها وتحقيق رغبتها ولو بعد حين .

يستطيع أى باحث مرز على قواعد اللغة العربية ، وعرف أساليب المجددين من أدبائنا ، أن يصر في الفكرة التي قام عليها التقرير لم تكن ذات غناء في تحقيق الإصلاح المنشود . وقبل أن يلم بالتقرير وفكرته من الوجهة العلمية نتساءل في كثير من المعجب : هل صحيح أن قواعد اللغة العربية في حاجة جدية إلى ما ساء أصدقاؤها المجددون « تيسير القواعد » ؟ ذلك ما نشك فيه ، بل سكره أشد الإنكار ، لأن اللغة التي وضعت قواعدها منذ ثلاثة عشر قرناً واستطاعت أن تتسع لأعظم حضارات العالم وعلومه ومعارفه وفلسفته ، لم يبد كل البعد أن تظل طوال هذه الأحقاب عقيمة ممقدة القواعد والأصول حتى تحتاج إلى هذه الهدفة الظنينة ، ولا يتقط إلى ذلك حمانها وغطارتها الإعلام !

بدأ أبو الأسود بوضع أساس علم النحو في المائة الأولى من التاريخ الإسلامى حينما طفت الحراء بعجمتها على السليقة المصرية ، غشى قادة الأمة أن يغلب اللحن الألسنة فيمسخها ، ثم تتابع تلاميذه وتلاميذهم على مهيمه يكلون ما أسس حتى استوى صرح اللغة بقواعدها شامخاً يضرب بقننه أديم السماء على يد حاذق العرب وسيد أهل الأدب أبو عبد الرحمن الخليل ابن أحمد القرهودى ، وتلميذه سيويه الذى مهد سبل اللغة وعقد طرفها ، وضبط شتيتها وجمع قوانينها ، وأرسى أركانها في كتابه « الامام » حتى قال فيه أبو عثمان المازنى : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيويه فليصنع » .

ولقد بلغت الحضارة الإسلامية في ذلك العصر مبلغاً لم يعرفه التاريخ لأمة من الأمم ، فكانت اللغة العربية بالقواعد التي درستها مدرسة البصرة في كتاب سيويه ، ودرستها مدرسة الكوفة في كتب الكسائى والقراء ، هي اللسان الناطق بكل ما تنغى تلك الحضارة الفاعرة من شئون الحياة ، وعليها سار الناس في فهم القرآن والحديث وسائر النصوص الشرعية والأدبية ، وكلما اتسعت الحضارة باتساع الفتوح ، واستبحرت العلوم بإمتزاج الأفكار والطبائع ،

ازدادت الحاجة الى صناعة النحو وتطبيق قواعده والتفريع عليها وشرحها ، حتى فترت النهضة الاسلامية ، وعادت بعض الجماعات الى قومياتها اللغوية ، وخذت جذوة العقول ، ومال العلماء الى التلخيص والاختصار ، ولكنهم ظلموا مع ذلك - والسلم لم تنح - أوفياء لتلك القواعد التي وضعها المتقدمون ، مطمئنين اليها وإلى يسرها حدد الاملتان . يقول العلامة ابن خلدون في المقدمة . « وأول من كتب في صناعة النحو أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة ، ويقال : بإشارة على رضى الله عنه ، لأنه رأى تفسير الملكة فأشار عليه بحفظها ، فوضع الى ضبطها بالقواوين الحاصرة المستقرأة ، ثم كتب فيها الناس من بعده الى أن انتهت الى التحليل ابن احمد الفراهيدي أيام الرشيد ، أحوج ما كان الناس اليها ، فذهب تلك الملكة من العرب ، فذهب الصناعة وكل أبوابها ، وأخذها عنه سيويو فكل تقاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدا ، ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل ما كتب فيها من بعده ، ثم وضع أبو علي لمارسى وأبو القاسم الزجاج كتابا مختصرة لمتعلمين يحذون فيها حذو الامام في كتابه ، ثم طال الكلام في هذه الصناعة ، وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة ، وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار ، فاحتمروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل ، كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله ، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الخياط في المقدمة . »

هذه الكتب وأمثالها هي التي يدرس الأزهر قواعد اللغة العربية فيها ، وبها تخرج الاعلام في مدى تاريخ اللغة وأطوارها ، فإذا حدثت حتى احتاحت اللغة الى تيسير قواعدها الآن ؟ ! لا شيء يدعو الى هذا العناية الذي تكبدته اللجنة في تقريرها .

عرضت اللجنة في تقريرها الى مسائل في فن النحو طابت فيها على الأئمة اصطلاحهم ، ثم جهدت نفسها أن تبتزج اصطلاحا حديثا زعمته تيسيرا ، وعرضت كذلك الى فن الصرف والبلاغة وارتأت فيهما آراء لا تسوق قيمتها العلمية الى مقام التيسير . ففى النحو تكلمت على نحو عشر مسائل نجمل الكلام عليها عما يرجح اصطلاح الأئمة :

١ - ترى اللجنة وجوب الاستغناء عن الاعراب التقديرى والاعراب المحلى ، لأن فيهما عناء مضاعفا وجهدا يبدل لغير شيء ، ومشقة يكلفها التلميذ من غير فائدة يجنيها في ضبط كلمة أو في تصحيح إعراب .

وترى قواعد النحو باصطلاح الأئمة وجوب نقاء الاعراب التقديرى والمحلى ، لأن فيهما فائدة يجنيها المتعلم في ضبط كلمة وفي تصحيح إعراب ، فإذا سمع المتعلم قائلا يقول : « أقبل الغنى المجتهد » أو يفقد قول الشاعر :

ولو أن ما بين من جوى وصباة على جبل لم يدخل النار كافر

أو يقول : « نظر هذه القضية القاضى العادل » أو يقول : « أحسن الى هذا المسكين » أو يقول : « رحم الله سيوفه إمام الحق » كان في بقاء الاعراب التقديرى والمجلى هدية له وإرشاد الى ضبط التانع وتصحيح إعرابه في هذه الأمثلة ونحوها ، ولو أخذ النحو برأى اللغة لكان الأمر ملبسا وداعيا الى حيرة المتعلم وجهائه .

٢ — رأت اللغة عدم التمييز بين العلامات الأصلية والفرعية في الإعراب ، وجعلت كلها أصلا في موضعه ، وقسمت الاسم العرب الى سبعة أقسام من حيث ظهور حركات الاعراب الثلاث مع مد وإشباع أو دون ذلك ، أو ظهور بعضها واختفاء بعضها .

ويرى النحو العربى تيسيرا على المتعلم وضبطا لأبواب الاسم العرب ومجاعة للواقع في كلام العرب . أن يجعل للإعراب علامات أصلية هي الحركات ، وعلامات فرعية هي الحروف وبعض الحركات ، فاداسمع المتعلم قول القائل : « اللهم صل على ابراهيم وآل ابراهيم » فكيف يصط التانع المطفوف ؟ فلو أخذ برأى اللغة في الاكتفاء بقولها في هذا الموضع : « اسم تظهر فيه حركاتها صم ومتح » لأشكل الأمر عليه ، وكان في حل أن « يفتح » التانع تما لظاهر الحال ، وهو ضلال كبير ، ولو قيل له : إن التانع « مكسور » تما لكسر المتنوع لتساو طبعها : وأين هي علامة الكسر في المتنوع ؟ وكان حينئذ لا ماص من الرجوع الى رأى لغة النحو : من أن الاسم المتنوع من الصف يجر بالفتحة نيابة عن الكسرة إذا حلا من « أل » والإضافة ، وهكذا الحال في جمع المؤنث السالم والمقتوص .

٣ — رأت اللغة وحيد ألقاب الاعراب والبناء ، واحاررت الاكتماء بألقاب البناء ، وليس في هذا تيسير للقواعد . لأن الحركات الاعراب مواضع ، وحركات البناء مواضع ، والطالب في حاجة الى أن يتدق في صوح هذه المواضع وحركاتها ، فلو أخذ برأى اللغة لأشكل عليه الأمر ، وفي الأحد برأى النحو العربى تيسير عليه وتعمد عن الاشتباه .

٤ — لم يعجب اللغة تسجية جزءى الجملة العربية ، فاحترعت لها اسما اعترفت بأنه لا تمت لاسمة الى الاصطلاح العربى ، وهذا ملا شئتك تفسر على الطلبة الذين عرفوا شيئا ولو قليلا من النحو ، لأنهم يصحون مصطرين الى إلغاء معلوماتهم والرجوع الى معلومات جديدة قائمة ، وفوق هذا فإن التسمية التي اختارتها اللغة فاصحة أشد الغموض ، لأنها بعد أن ذكرت في تفسيرها اصطلاح العلماء ذكرت معه اصطلاح المنطقة ، ثم ذكرت تسميتين مختزعتين لم نشأ أن تأخذ بهما ، ولا ندري لم أنقلت بهما تقريرها ، واختارت اصطلاح المنطقة « لانه أوحز ولانه لا يكلفنا اصطلاحا جديدا » فهل قل أحد : إن في اليمز على صومه تيسيرا ؟ وهل إذا أبقينا اصطلاح النحو كننا متكلمين اصطلاحا جديدا ؟

يسمى المنطقة جرعى الجملة « موصوطا ومحو لا » ، وهما لفظان غامعان في صناعة النحو ،

فلا بد للتعلم أن يفهم ما معنى « موضوع ومحمول » وصلة ذلك بالأعراب وعوامله ، وفي ذلك تيسير على الطالب بإيماده عن المؤلف الواضح ، لأن النحو ينظر الى الجملة العربية على طبيعتها فيراها صرة مؤلفة من « فعل وفاعل » و « مرة » من اسمين « لأحدهما صفة الابتداء غالباً ومعنى ، وللآخر صفة المنجزة ، فيبقى الأمر على طبيعته حتى لا يكلف المتعلم عناء البحث وراء اصطلاحات غامضة لا ينجي من ورائها فائدة .

٥ — بنت اللجنة على احتراعها في التسمية لجزءي الجملة ، وعلى رأيها في توحيد حركات الاعراب والبناء ، رأيها في أحكام إعراب جزءي الجملة ، وهو رأي غامض وغريب ، لأن اللجنة ترى فيما سمته محمولا إذا كان فعلا أو مع حرف من حروف « الاضافة » أو جملة ، أن يكتب في إعرابه بيان أنه محمول ، وهذا طبعاً بعيد كل البعد عن التيسير الذي قصدت اليه اللجنة ، وقد اضطرت اللجنة الى تعريف الموضوع بالحدث عنه ، والمحمول بالحدث ، فعمدت اصطلاحاً مختاراً باصطلاح مخترع ، وحكها على الموضوع بالضم دائماً منقوض بما أصلته من أن الالف أصل في المثني ، وهو أيضاً ناقض لحكمها على المحمول بأنه يكون اسماً فيضم ، فأين الضم في نحو المؤمنان صادقان ؟

٦ — تكلمت اللجنة على الترتيب بين جزءي الجملة فقالت : إن الجملة العربية صرنة في الترتيب طيبة فلا تلزم أحد الركنين موضعاً واحداً ، ولكن النحو العربي قرر تبعاً لأسلوب العرب أن للموضوع مواضع يجب تقديمه فيها ، ومواضع يجب تأخيرها فيها ، وقرر في المحمول مثل ذلك ، وهذا معروف مشهور لدى المبتدئين من طلاب الأزهر ومما هذه ، مرأى اللجنة خطأ جر اليه التسرع في « التيسير » وعدم الدقة النحوية ، وكيف يخرج قول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول » على رأي اللجنة ؟ فهذه جملة عربية أتت على لجنة التيسير أن تكون صرنة طيبة فلم كل من ركبها مكانه لا يريعه مادام لهذا الكلام مقامه في ذروة البلاغة ، ولو خضعت هذه الجملة العربية لقانون « تيسير القواعد » لصح في مكانها مؤدياً معناها قولنا « وما رسول إلا محمد » ، والذين عرفوا طرفاً من البلاغة يدركون الفرق المحسوس بين الجنتين ، وأن الثانية لا يمكن أن تقع في كلام العقلاء ، بل القرآن الحكيم ، لأنها تنفي الرسالة عن جميع رسل الله تعالى ما عدا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما لا ريب في بطلانه بدهاهة ، والآية باتفاق المسلمين مسوقة لرد على حال المؤمنين يوم أرحف الكفرة بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولتقرير أن الرسل ، ومحمد صلى الله عليه وسلم واحد منهم ، ليست يافية في قومها أبداً ، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل ، وكان هذا مقام الصديق رضي الله عنه يوم قبض رسول الله الى الرفيق الأعلى .

وفي جانب ثروم تقدم « المحمول » وليس فملا ولا موضوعه نكرة مما استثنته اللجنة كيف يخرج نحو قول الشاعر :

أهابك إحلالا وما بك قدرة على ولكن مله عين حبيها

فهذا البيت اشتمل على جملة عربية هي (مله عين حبيها) أثبت أن تكون مرنة طيعة ، لأن المحمول فيها قد استعصى فلزم موضعا غير موضعه ، وغير ذلك من الشواهد كثير . ثم ذهبت اللجنة في حديث المطابقة بين الموضوع والمحمول مذهبا لم يكن فيه كبير فائدة زيادة على ما قرره النحويون ، وبهذا النحو من تقسيم الجملة الى موضوع ومحمول ، واعتبار إشارات العدد علامات لا ضمائر ، عسرت اللجنة الأعراب ، ولبست على الطلاب ، وحللت بين اصطلاحات النحو ، فشوشت على المتعلم ذهنه ، وأثقلت عليه مهمة إدراك القواعد يرد بمض الأبواب الى بعض ، وإدماج الحقائق المختلفة في نسج واحد .

٧ — ذكرت اللجنة تقسيم متعلق الظرف وحروف الجر الى متعلق عام ومتعلق خاص ، ورأت أن المتعلق العام لا يقدر ، وليس في هذا جديد ، لأن النحو العربي لا يقول بتقدير المتعلق العام ، لأن مهم الكلام يتوقف عليه ، ولكنه يقدره تقديرا إعرابيا لبيان ربط الخبر بالمتدأ ، ومن هنا قال من أخذت اللجنة بقوله من النحويين : إن الخبر حينئذ هو الظرف نظرا الى الظاهر ، على أن القائل بالمتعلق يقول هو واحد الخذف ، وملاحظ هنا أن تسمية حروف الجر بحروف الإضافة تسبيل مذهب لا يغني من أمر التيسير شيئا ، وسواء لدينا أسمى حروف حر كما يقول البصريون ، أم حروف إضافة كما يقول الكوفيون ، لولا أن في التسمية الكوفية تصليلا لغتلم المبتدى فلا تجمله يفرق بين الجر ومعموله ، وبين المضاف والمضاف إليه إلا بعد تفصيل وعناء طويل .

٨ — تكلمت اللجنة على الصير ، ورأت إلغاء الصير المستقر جوازا او وجوبا ، وجريا على هذا القانون يكون مثل قوله تعالى : « ولكن الله يحن على من يشاء من عباده » خاليا من الصائر في الأفعال ، وليس فيه إلا جملة واحدة ، لأن اللجنة ترى أن الفعل حينئذ ليس جملة كما يعمد النحاة ، وفي هذا من الإفساد للدلالة العربية وساليتها في القرآن والحديث ما فيه ، لأن تلك البلاغة ترى أن للجملة موضعا من الكلام البليغ لا يحسن فيه غيرها ، كما أن لغير الجملة موضعا لا تحصى فيه الجملة ، ولكن يظهر أن اللجنة في سبيل « التيسير » لا تقيم وزنا لهذا المذهب من البلاغة والبيان ، ولما جابهت اللجنة بعض الأمثلة التي لا يظهر فيها أثر للموضوع كما في الفعل المصارع مثل « أذهب » و « نذهب » وأرادت تطبيق مذهبها جعلت الهمزة والنون إشارة الى الموضوع أغشت عنه ، قالت اللجنة : وكفى ذلك في إعرابه . وهذا مذهب في شأن التيسير عجيب ! ثم تسأل : وبن بقية أحرف المصارعة ؟ هل هي كأختها أو لها حكم آخر ؟ ولم حظيت بهذا الحكم الهمزة والنون ؟

ثم رأيت اللجنة أن الضمير المتصل إذا ذكر معه ضمير منفصل فهو « تقوية » له ، ومثلت لذلك بقولها « قتأما » و « أناقت » وليس في وضع كلمة « تقوية » مكان كلمة « توكيد » التي استعملها النحاة فيما سأل من هذا الوادي شيء من التيسير ، والخطب في مثل هذا أيسر مما يجادل فيه ، ولكن بقي أن اللجنة لم تفرق بين حالتي الضمير المنفصل متقدما أو متأخرا بدليل تمثيلها ، وهذا التعميم خطأ كبير ، لأنه يؤدي إلى أن ضمير « أنا » في نحو « أناقت » تقوية (للناء) قبل أن يتلفظ بها ، ولا يعقل أن يتلفظ بها قبل وجوده . ثم إن رأى اللجنة مناقض لقول البلاغين بـ تكرار الاسناد في نحو « أناصيت في ترفيتك » و فرق عظيم بين تقوية الاسناد وتقوية المسند اليه على ما يحكم به الذوق البلاغي ، وقد غيرت اللجنة اصطلاح الجمهور في الضمير البارز واعتبرته إشارة أخذا بمذهب المازني ، وليس في هذا التغيير إلا تشويش معلومات الطلبة وإحداث اصطلاح لا يأتي بفائدة ، وما معنى تسمية هذا الضمير إشارة ؟ هل قصدت اللجنة الإشارة الاصطلاحية ، أو قصدت أنه علامة على الموضوع ؟ إن كلام اللجنة في الضمير غامض ولا غناء للتفسير فيه .

٩ - عملت اللجنة الى ما عدا جزءى الجملة وممته « تسكة » ، وأدخلت تحته جميع أبواب المفاعيل والحال والتمييز ، وهذا تيسير وإدماج للحقائق التى تقضى طبيعتها بتفصيلها ، وقد اعترفت بذلك اللجنة ، لأنها جعلت للتسكة أغراضا تحيى لها فلا بد من بيانها ، وحينئذ ترجع من حيث بدأنا الى تفصيل الحجة . ثم كيف استقامت لجنة أن تحكم بأن التسكة مفتوحة أبدا إلا إذا كانت مضافا إليها أو مسبوقة بحرف إضافة ، مع وجود النافع المرفوع والمجرور والظروف المنفية على الفهم والكسر ؟

١٠ - جمعت اللجنة أبواباً من أبواب النحو كالنصب والنحذير والإغراء والتأكيد والبناء والاستثناء وسمتها بالأساليب، ورأت اللجنة عدم اللجوء في إيرادها إلى التفصيل، وأن يكتفى ببيان مصادرها واستعمالها، ونحن مع موافقتنا على هذا النحو للتعلم المبتدئ نرى أن بيان المعنى والاستعمال قد يجبر إلى تفصيل الأعراب، فكان خير ما لو أن هذه الأبواب قصرت دراستها على من قوى استعداده في التفرق العالية.

هذا يحمل في الإشارة الى ما تعرضت له لجنة تيسير القواعد لبحثه من عن النحو لا يتعمق المقام لأوسع منه ، وقد ذكرت اللجنة في تقريرها كلاماً في عن الصرف وعن البلاغة ، وكلامها في عن الصرف كلام يسوغه موقف المتعلم المتدني* ، وأما بحث البلاغة فسنعرض له في بحث خاص ، لأن هذا النص يحتاج الى عناية في دراسته نعيد إليه ثوبه الأدبي الجليل

عبدالرشید احمد

دفاع عن القرآن الكريم

يرى الدكتور جفرى أن كتاب المصاحف الذى ألفه عبد الله بن أبى داود يصلح شاهدا ودليلا على أبحاثه التى يزعم أنها توصل الى تطور القرآن الكريم ، حيث قال فى آخر مقدمته مانعه : « ونظرة قصيرة فى كتاب المصاحف لابن أبى داود تمكنتنا من الوصول الى أول مراتب هذا البحث » .

ونحن نقول : إن نظرة أقصر من نظرة الدكتور جفرى فى كتاب المصاحف المذكور تمكنتنا من الوصول الى هدم هذا البحث وتقضه من أساسه .

ولو أن الدكتور قرأ كتاب المصاحف الذى طبعه هو ونشره وصححه بنفسه قراءة عالم ، لما جعل كتاب المصاحف هذا دليلا على ما يزعمه ، فإن نظرة قصيرة فى آخر صفحة ٥٣ وأول صفحة ٥٤ من الكتاب تجعله دليلا على نقيض ما يزعمه ، فقد ورد فيها مانعه : « قال عبد الله بن أبى داود : لا يرى أن قرأ القرآن إلا لمصحف عثمان الذى اجتمع عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن قرأ إنسان بخلافه فى الصلاة أمرته بالإعادة » .

أليس هذا اعترافا صريحا لا يقبل التأويل من ابن أبى داود ، بأن القرآن هو الذى جمعه سيدنا عثمان وأجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن غيره من الروايات الأحادية ليست قرآنا ، وأن من قرأ بها فى الصلاة أمره ابن أبى داود نفسه بالإعادة ؟ !
وانت تقول : تطور القرآن ، وتاريخ القرآن ، وعلوم القرآن ، وقد استندت فيه الى كتاب ابن أبى داود ، وقد رأيت أن الكتاب الذى اخترته قد شهد عليك .

قلت . وقد ألف ابن أبى داود كتبا كثيرة منها كتبه المشهور كتاب المصاحف .
والحقيقة أنه ليس مشهور ، فلم يوجد منه فى مكتبات العالم إلا نسختان مخطوطتان ، إحداهما بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، والآخرى بدار الكتب المصرية . وهبه مشهورا فقد شهد عليك كما رأيت .

(وصف على لكتاب المصاحف)

ينقسم هذا الكتاب فى جملة الى قسمين : قسم يوافق فى نصوصه ما ورد فى كتب السنة النبوية وكتب التاريخ ، وهذا القسم لا يشهد للدكتور شهادة تما ، وقسم يشتم منه رائحة المخالفة الظاهرية وليس مخالفا فى الواقع والحقيقة ، وهذا ما سنحجب عنه ونثبت أنه لا يصلح للشهادة أيضا ، أعنى أننا لو أغفلنا تصریح العلامة ابن أبى داود ، ووضعناه جانبا ،

ونظرنا في تفاصيل الكتاب ، لا نجد فيه ما يبرر زعم الدكتور (تطور القرآن) . وسنجد
حواشي على قسم الشبه والمخالفة - آراء الأصوليين وعلماء التفسير في مبحث التواتر والاجماع -
وسنبدأ بقسم الموافقة فنقول :

موافقة ابن أبي داود للبخاري ومسلم

وبقية الكتب الستة في رواية جمع القرآن

روى البخاري بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « أرسل الى أبو بكر مقتل
أهل اليمامة وعند عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استمر يوم اليمامة
بالس ، وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء في الموامن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه ،
وإني لأرى أن يجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول
الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ! فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدرى
ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد ، وعند عمر جالس لا ينكلم : فقال لى أبو بكر : إياك رجل
شاب عاقل ولا تهملك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنتبغ القرآن
فاجمه فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن !
قلت : كيف فعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله
خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبو بكر وعمر ، فكتب
فنتبغ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة
التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »
إلى آخرها ، فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر
حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر . وفى رواية الترمذى فى حديثه عنه : فوجدت آخر
سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص
عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب
العرش العظيم » قال : حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال « لما نسخنا المصحف فى المصاحف فقدت آية من
سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع
خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين ، « رجال
صدقوا ما ماهدوا الله عليه » .

وفى رواية الترمذى عنه : فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقرؤها « من المؤمنين رجال صدقوا ما ماهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه
ومنهم من ينتظر » فالتفتها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت ، أو أبى خزيمة ، فالتفتها فى سورتها .

وروى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب أن عثمان قال : ما ترون في المصاحف ، فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول : إن قراءتي خير من قراءتك وقراءتي أفضل من قراءتك . وهذا شبيه بالكفر ؟ قلنا : ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال : الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة فانكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا . قلنا : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين . فأرسل إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها إليه ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين : إذا اختلفتم أتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فأنما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى إذا نسخوا المصحف في المصاحف رد عثمان المصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجيلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك ، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءات المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإخراج ما سواها ، واستصوبوا رأيه اهـ .

هذه هي أشهر روايات كتب السنة في باب جمع القرآن . وقد روى ابن أبي داود في كتاب المصاحف روايات توافقها تمام الموافقة ، حتى إنه روى بعضها بالذات ، وزاد عليها بعض روايات في مناقب سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، مما لا يسع إنسانا محالفتة فيها ، وهذه رواياته قال :

باب جمع القرآن

جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه القرآن في المصاحف

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

حدثنا عبد الله قال حدثنا يعقوب بن سفيان قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا سفيان عن السدي عن عبد خير عن علي رضي الله عنه قال : رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين .

« وبسند آخر » عن سفيان عن السدي عن عبد خير عن علي رضي الله عنه قال : أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر فإنه أول من جمع بين اللوحين . « وبطريق آخر » عن سفيان عن السدي عن عبد خير عن علي قال : رحمة الله على أبي بكر ، كان أعظم الناس أجرا في جمع المصاحف ، وهو أول من جمع بين اللوحين . « وبطريق آخر » عن عبد خير قال : جمعت عليا

يقول : أعظم الناس أحراراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، كان أول من جمع بين اللاحقين .

« وبطريق آخر » عن عدة عن هشام عن أبيه أن ما نكر هو الذي جمع القرآن بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول ختمه . ثم ذكر روايات لا يخرج عما تقدم ثم قال حدثنا عبد الله قال حدثنا أبو الطاهر قال أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه قال . لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر على القرآن أن يضع فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت . اقمدا على باب المسجد فن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتاباه . ثم ساق رواية زيد بن ثابت التي رواها البخاري والترمذي وغيرها والتي تقدمت قريباً ، ونحن نفيدها هنا بالنص من كتاب ابن أبي داود ، ليعلم الدكتور وغيره أن ابن أبي داود موافق لأهل السنة والجماعة في هذا الموضع تمام الموافقة ، قال حدثنا عبد الله قال حدثنا عمرو بن علي بن بحر قال حدثنا أبو داود قال حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا الزهري قال أخبرني جبير بن السباق أن زيد بن ثابت حدثه قال . أرسل إلى أبو بكر فقتل أهل الجبيلة وكان عنده مهر فقال : إن هذا أمانى فقال : إن القتل قد استحر بالقراء وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في سائر المواطن فيذهب القرآن ، وقد رأيت أن تجمعوه ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراحمني في ذلك حتى شرح الله صدرى للذي شرح الله له صدره ورأيت فيه الذي رأى ، فقال أبو بكر : إنك شاب (أو رجل) عاقل وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تهملك فاكتابه ، قال : فوالله لو كفوني نقل حمل من الجبال ما كان بأفقل عليّ منه ! فقلت لها : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال أبو بكر وعمر : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر ومهر يراحماني في ذلك حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدرهما ورأيت فيه الذي رأيت ، فنبعت القرآن أسدحه من الصحف والسبب والخاف (قال أبو بكر) الخاف : الحجارة الرقاق) وصدور الرجال ، حتى فقدت آية كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فالتفتها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت فأنبتها في سورتها (ثم روى نفس الرواية من طريق آخر) وروى من طريق ثالث نفس الرواية ، ولكنها تختلف في الآية التي كان يريد فقدتها . ففي الروايات السابقة كانت الآية من آخر سورة التوبة ، وهذه الرواية الثالثة لابن أبي داود ، فيها آية الأحزاب « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » على ما مر بك في رواية البخاري لا تختلف عنها في شيء .

وانتقد في آخر الباب برواية ليست عن سيدنا زيد بن ثابت وهي : حدثنا عبد الله قال حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان قال حدثنا محمد قال حدثنا أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية أنهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر ، فكان رجال يكتبون ويحلى عليهم أبي بن كعب

فلما انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » فظنوا أن هذا آخر ما أزل من القرآن ، فقال أبي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقراني بعدهن آيتين : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » قال : فهذا آخر ما أزل من القرآن ، نغتم الأمر ، فتح به ، تقول الله جل ثناؤه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا بوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

هذه هي روايات ابن أبي داود في هذا الباب ، فلم نجد فيها مخالفة لروايات البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم إلا في بعض الكلمات ، أو في طول الرواية وقصرها ، وهذا لا يغير أصل المعنى . فهذه الموافقات لا تشهد للكثير على شيء .

مسح صبي

في ذم المن بعد الاحسان

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأذى »
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ، ويعحق الأجر » .

وقال أديب : المنة تهدم الصنعة .

وقال البلغاء : لا خير في المعروف إذا أحمى . وقال : ما يعدل لا يعتد . وقال : أحسن المعطاء موقعا مالم يشب بمن .

وقال شاعر :

أحسن من كل حسن في كل وقت ورومن
صنعة مشكورة خالية من المن

ومما نسب للإمام الشافعي رضي الله عنه :

لا تحملن لمن يح من الأنام عليك منه
واختر لنفسك حظها واصبر فإن الصبر جنة
من الرجال على القلوب بأشد من وقع الأسته

وقال بعضهم لأعرابي : إن فلانا يزعم أنه كساك . فقال : إن المعروف إذا من به كفر ، وإذا ضاق قلبه اتسع لسانه .

التصوف والمتصوفون

- ٢ -

أسلوب المتصوفين وآراؤهم :

كان للصوفية لغة خاصة بهم ، وتعبيرات استقلوا بها في الإفصاح عن مذهب وحدة الوجود الذي كانوا يدينون به ، ولكن هذه التعبيرات شأكت المسلمين وروعت الفقهاء ، وجعلتهم يحتاطون منهم ، ويمتزلجون بحالهم ، فلما رأى المتصوفون ذلك أهملوا أن لهم حالتين مختلفتين : حالة الصحو ، وحالة الغيبوبة . فأما الأولى فهم يطقون فيها بالشريعة ، وأما الثانية فهم يمرون فيها عن الحقيقة . وقد سمي الفقهاء تعبيراتهم في الحالة الأخيرة بالسطحات وغفروها لهم ، لأنها تصدر عنهم في حالة الغيبوبة التي تشبه النوم أو السكر المباح ، ولكنهم لم يقبلوا هذه التعبيرات منهم في حالة الصحو مطلقا ، بل عدوها جريمة تستوجب القصاص ، ولهذا أفتوا بقتل الخلاج ، لأنهم أثبتوا عليه أنه نطق بهذه التعبيرات في حالة الصحو . ومن هذه التعبيرات قولهم مثلا : « أنا الحق ، أنا الأول ، أنا من الكل ، والكل أنا ، أنا العرش ، أنا الوح ، أنا القلم ، أنا منذ الأزل وإلى الأبد » ، أو مثل قول الخلاج : « ما في الحبة غير الله » . إلى غير ذلك من الألفاظ التي توهم بظاهرها الكفر ، وتعتبر في حقيقتها عن فكرة وحدة الوجود . وقد روى ابن خلكان عن الغزالي أنه لما اطلع على كلام الخلاج وافق عليه وحبذه وقال : إنه من فرط الحب للذات الدلية والتفاني فيها ، فهو من قبيل قول القائل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ومن هذا يتضح أن الغزالي لم يكن ملاحظا لمذهب الصوفية المطرى على حقيقته ، ولا متنبها إلى أنه متأثر بوحدة الوجود ، بل كان معتقدا أن هذا المرج الذي كان الصوفية يحاولونه بين ذاتهم وذات الباري ناشئ من شدة الحب لا من فكرة وحدة الوجود . اللهم إلا أن يكون أبو حامد قد قصد أن يصرف الفقهاء عن اتهامهم المتصوفين بالقول بوحدة الوجود ، وإن كان يعلم أنهم يقولون بها ، وهذا ما نستبعده عليه

طبقات المتصوفة :

أوصل بعض المستشرقين الصوفية إلى عشرين طبقة ، وذكر أسماء أفراد كل

طبقة ومؤلفاتهم ولما كان ما يعنينا في هذا الفصل هو الطبقة الأولى التي عاشت في العصر الأول ، وهو يتبدى بشاشة التصوف عند العرب ، وينتهي بانتهاء القرن الرابع الهجري . وعدد أفراد هذه الطبقة هم أحد عشر صوفيا ، وأشهرهم حسب الترتيب الزمني الأشعاص الآتية أسماؤهم :

(١) أبو هاشم ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه كان أول من سمى باسم المنصوف ، وأنه بنى في سوريا ملجأ للصوفية ، ولكنه ليس له في حركة التصوف العالمية شأن كبير ، وأنه توفي حوالي سنة ١٥٠ للهجرة .

(٢) سفيان الثوري ، وهو من الفقهاء والمحدثين ، بل قد حاول أن ينشئ مذهباً في الفقه ، وكان معاصراً لأبي هاشم ، وكان يباشر المنصوف العملي بين جماعة من رفاقه ، منهم السيدة رابعة العدوية التي توفيت بالبصرة سنة ١٣٥ هـ وقد توفي سفيان في سنة ١٦١ هـ .

(٣) شيبه الراعي الدمشقي الذي هجر العالم وتنسك في جبل لبنان . وقد نسب إليه معاصروه بعض الكرامات ، كأن زعموا أن المطر كان يهطل إذا أراد أن ينوذاً ، وأن أسداً جاء يوماً وركع أمامه فقبض على أذنه ثم أرسله بعد أن ألقى عليه خطبة في الوعظ . وقد توفي هذا الصوفي في سنة ١٥٨ هـ .

(٤) ذو النون المصري ، ولد في إجميم ، وقد اتهم في حياته بالزندقة ، وبأن بلغ أمره إلى الخليفة المتوكل فاستجضره إلى بغداد وأدخله السجن ، ولكنه لم يلبث أن تبين حقيقته وأسرته سببه على المسكاره ، وطلبه بفصاحته ، ففقهه ومنحه حريته ، ورده معززا إلى مصر ، فعاد إلى حياته الصوفية الأولى ، وكان له على مواطنيه أثر كبير . وأخيراً توفي في الجزيرة سنة ٢٤٥ هـ وله مؤلفات كثيرة ، منها (١) « المحربات » ويتخوى على إرشادات طيبة ، ومحارب كيميائية ، وتماثم سحرية ، وطلاسم وعزائم . ويوجد في مكتبة باريس . (ب) أشعار في حجر الحكماء ، ويوجد في مكتبة باريس . (ج) مناظرة بينه وبين تلميذه يعقوب في حجر الحكماء ، ويوجد في مكتبة برلين .

(٥) المحاسي ، كان الحارث بن أحمد المحاسبي أحد كبار المنصوفين في عصره ، ولكن تصوفه لم يمنعه من الاستزادة في العلوم الظاهرية والارتواء منها ، وقد ألف في علم الكلام ، وله فيه مجادلات مشهودة أسخطت عليه فقهاء عصره ، كما سخطوا على جميع علماء الكلام . أما زهده فقد بلغ حد النهاية في عصره حتى لقد قيل : إنه كان إذا انتهى لونا من ألوان الطعام ومد إليه يده تحرك في أصبعه عرق إذا رآه فيمستع عنه . وقد أطلق عليه لفظ المحاسي لكثرة محاسبته نفسه على ما يأتيه من أعمال . وقد توفي سنة ٢٤٣ هـ ومن مؤلفاته ما يأتي : (١) « مقاصد الرماية » وهو كتاب في المبادئ التي يجب على المتصوفة اتباعها ،

ويوجد في مصر . (ب) رسالة في المبادئ العشرة الموصلة الى السعادة ، ويوجد في رلين .
(ج) « شرح المعادن وبذل النصيحة » ويوجد في رلين (د) « الميث والشر » ويوجد في باريس . (هـ) رسالة في الأخلاق ، وتوجد في مكتبة عبد باشا الاسلامبولي .

(٦) أبو يزيد البسطامي ، وقد تنسك في سوريا زماناً ثم شغف برؤية العلماء والمطلعين حتى قيل : إنه عرف جميع أكابر علماء عصره ، وقد بلغوا مائة وثلاثة عشر عالماً . ولما عاد الى بسطام لم يستطع مواطنته فهم مبادئه فطردوه من بلده خمس مرات ، وهو من كبار المتصوفين لولا ما أخذ عليه من صفة الكبرياء ، إذ أنه — فيما روى التاريخ — كان يتصور أنه أعلم أهل عصره فلا استثناء ، وأنه أعلن أنه ظل أربعين سنة يطعم من طعام غير طيب ، وأنه عرج به الى السماء كحمد ، ولكن قد يكون كل ذلك مدسوساً عليه ليبرره مواطنوه طردهم إياه ، لاسيما وأنه قد روى عنه مصدر آخر ما يخالف ذلك ، وهو قوله مامته . إنني فقتت في قاي بعد أربعين سنة فوجدت فيه أثر الوثنية وهو الاتجاه الى غير الله فعكفت على إزالته . وأخيراً توفي في سنة ٢٩٩ هـ (١)

(٧) الجبدي بن محمد القواريري . وقد ولد ونشأ بالمراق ، وكان تلميذاً للمعاشبي الصري ، وكان شديد الورع ، ولم يجمع تصوفه عن التمسك بأهذاب الشريعة ، لأنه كان يؤمن بالمبدأ القائل : المتصوف هو الذي لا يطفى نور معرفته نور ورعه ، ولا ينكس باطن ينقصه عليه ظاهر الكتاب ، ولا يحمل الكرامات على هتك محارم الله . وله تصيرات صوفية شهيرة وشطحات معروفة . وقد توفي في سنة ٢٩٧ هـ ومن مؤلفاته كتاب « السر في أنفاس الصوفية » ويوجد في مصر .

(٨) الحلاج : هو الحسين بن منصور ، ولد في فارس ، وكان جده مجوسياً ثم اعتنق الاسلام . وقد شب الحلاج في واسط ثم رحل الى بغداد ، وفيها التقى بكثير من المتصوفين ، من بينهم سفيان الثوري ، ثم سافر الى الهند فأقام بها زمناً . وبعد عودته أدى فريضة الحج ، ثم مكث زمناً بمكة راض فيه نفسه على الزهادة والتسك ، ثم رجع الى بغداد ، وكان ذلك في عهد الخليفة المقتدر .

كان الحلاج شغوفاً بكثرة الاطلاع ، وكان عقله سهل الانتقال من رأي الى رأي . فإذا ثبت لديه صحة الرأي ، أسرع الى اعتقاده وإعلانه . ولذلك قال له أحد أساتذته يوماً ما معناه : يا أبا منصور ليس بمبدأ ذلك الوقت الذي يحمر فيه النطم من دمك !

اشتهر الحلاج وعلاصيته ، ونسب اليه في خراسان وبغداد كلام يخالف ظاهر الشريعة ،

(١) انظر كتاب الغزالي « كادى نو » صفحات ١٧٩ وما بعدها .

فأثار ذلك عليه حقد العلماء ، فأبطنوا عنه الخليفة ، واحتشدوا على كفره بمسند موقع عليه من عدد كبير من القضاة والعلماء ، فأمر الخليفة بالقبض عليه ، وألقى به في السجن ثمانية أعوام ، وفي نهاية هذه المدة جدد العلماء الشكوى في حاشية أعظم من الأولى ، وطالبوا بقتله ، فأجابهم الخليفة الى سؤلهم وأمر بتسليمه الى الجلاذ .

وقد سرد فريد الدين الفارسي قصة تعذيبه ، ولعلها من موضوعات المتصوفة الكلاميين ليشتنعوا بها على علماء الدين الذين يحافظون على آداب التمييز في الأمور الاعتقادية ، قال :

«أسعد الجلاذ الحلاج فوق منصة عالية تحوط به الجماهير الفقيرة من عامة الشعب ، ملقبة عليه الأحبار والأحوال ، وهو لا ينفك عن تكرير تلك الكلمة التي كانت السبب في قتله ، وهي : «أنا الحق ، أنا الحق» . ولما طلب إليه أن ينطق بالشهادة صاح مخاطباً الإله قائلاً : «إن وجوداً أنت فيه غير محتاج الى مشعل يبره» . ولعل معنى هذه الكلمة أن وجود الله واضح وليس محتاجاً الى أن يؤيده الحلاج بشهادته . ولما سئل : ما هي الصوفية ؟ أجاب بقوله : «هي ما لا تستطيعون أن تفهموه» ١

فأخذ الجلاذ يضربه بالسوط وهو يتنسم ، فلما فرغ من ضربه ، قطع يديه ورجليه ، فقابل ذلك بالابتسام وحمل يلطخ وجهه بدم ذراعيه المندفق ، ولا يدرى أحد ما حكمة ذلك عنده ، ثم فقا الجلاذ عينيه . وفي نفس اللحظة التي هم الجلاذ فيها بقطع لسانه ، كان هذا اللسان ينطق بالاستغفار لتلك الجلاذ ومن اشتركوا معه في تعذيبه ، وبعد موته أخرجوا جثته وألقوها في نهر دجلة . وقبل أن رأسه أرسل الى خراسان . وقد صور الأستاذ الدكتور العناني الحلاج بصورة أنزل كثيراً من الصورة التي يرويها الأستاذ «كارادي فو» والتي صحت لدينا ، ولكن لعل لدى الدكتور الفاضل ما صحح في نظره الرواية التي اعتمد عليها .

أما مذهبه فكان وحدة الوجود بعد أن اختلطت بشيء من تعاليم الاسماعيلية كما أسلفنا ، وكان الحلاج يصرح بهذا كثيراً فيقول : «أنا الأول والآخر ، والظاهر والباطن . أنا الحق والكل ، ووجودي غير محتاج الى دليل ، لأنني في كل شيء مقيم» الى آخر ذلك .

ومن هؤلاء المتصوفة الذين طاشوا في العصر الأول غير من ذكرنا : محمد بن علي الحسين ، وأبو بكر دلف بن جعفر الشبلي ، ومحمد بن عبد الجبار النعاري .

أما الطبقة الثانية من المتصوفة ، وهي التي عاشت فيما بين القرنين : الخامس والسادس ، فسنشير الى شيء من حياة أفرادها وآرائهم في الكلمة التالية .

«يقبع»

الدكتور محمد غنوم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

موازين الحكم الادبي

— ٤ —

الفهم^(١):

ولعمري لقد أصاب الجاحظ شاكلة الصواب في قوله : « إن الغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام » . فالمسألة قسمة بين القائل والناقد ، فإذا كان من الواجب على الأول أن يقول ما يفهم ، فإن من الواجب على الثاني أن يفهم ما يقال . ومن ثم كان طلبهم في الشاعر الحادق بالصناعة أن يكون شعره مفهوماً واضحاً يسبق معناه لفظه ، وله رونق وماء يرف عليه ويحان القلوب (٢) .

وكان شرطهم في الناقد إذا كان يدعى علم الشعر ويتحقق بالادب أن يكون يفهم معاني الشعر ، وله درة بالغموض والظاهر منها ، وهذا رأى قويم ، تقع به مهمة البيان موقعها من جهة ، ومن جهة أخرى يستطيع الناقد أن ينهض بمهمته ، وأن يخدم الادب والفن كما يجب ، فيميز بين الخبيث والطيب ، ويفصل بين الزيف والاصيل ، ثم هو يقضى في ذلك وتقسه مطمئنة ، ورأيه عن ثقة وتثبت .

وقد أجاد الآمدي وأعاد في هذا المعنى إذ يقول : « وأما بعد : فأني أدلك على ما تنتهي إليه البصيرة والعلم بأمر تفهمك في معرفتك بأمر هذه الصناعة — يريد صناعة النقد — والجهل بها ، وهو أن تنظر ما أجمع عليه الأئمة في علم الشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض ... فإن علمت من ذلك ما علموه ، ولاح لك الطريق التي بها قدموا من قدموه ، وأخروا من أخروه ، فتق حينئذ بنفسك ، واحكم يستمع حكلك ، وإن لم يفقه بك التأمل الى علم ذلك ، فاعلم أنك معزل عن الصناعة ... قلت قلت : إنك قد انتهى بك التأمل الى علم ما علموه ، لم يقبل ذلك منك حتى تذكر العلل والأسباب ، وحتى تعلم شواهد ذلك من فهمك ، ودليله من اعتباراتك ، وتميزك بين الجيد والردى ... ثم إنى أقول بعد ذلك : لعلك أكرمك الله

(١) بقية ما ذكره بهذا العنوان في العدد السابق .

(٢) قال أبو تمام في وصف السراج شاعر مصر في وقته :

فلو نيش القابر عن زهير لعلك بالسهل وبالنعيب

معي كانت مسانبه حبالا على تفسير بقرات الطيب

وحكيك ولم يزل الشعر ماء يرف عليه ويحان القلوب

وليت الطائي انتصح بذلك فظن شعره من الغموض !

اغتررت بأن شارفت شيئاً من تفسيحات المطلق ، أوجلا من الكلام والجدال ، أو عدت أبواباً من الحلال والحرام ، أو حفظت صدراً من اللغة ، أو اطلعت على بعض مقاييس العربية ، وأنت لما أخذت نظرك نوع من هذه الأنواع بمعاملة ومزاولة ومتصل عنابة ، فتوحدت فيه وميزت ، ظننت أن كل ما لا نلابسه من العلوم ولم تزاوله ، يجري ذلك المجري ، وأنتك متى تعرضت له ، وأصررت قرينحتك عليه ، فخذت فيه ، وكشفت عن معانيه ، هبها ! لقد ظننت بأطلا ، ورمت عسيرا ، لأن العلم بأي نوع كان لا يدركه طاله إلا بالانقطاع إليه ، والأكتاب عليه ، والحد فيه ، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه ، ثم قد يتأني جنس من العلوم لطلابه ويسهل ، ويمتنع عليه جلس آخر ويمتنع ، لأن كل امرئ ، إنما ينمى له ما في طبعه قبوله ، وما في طاقته تعلمه ، فيبغى أصلحك الله أن تقف حيث وقف بك ، وتقنع بما قسم لك ، ولا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك (١) .

على أننا إذ نقول : اللهم ، لا نعى فهماً كالذي يقصد إليه عالم كالمكبري مثلاً إذ يقول في مقدمة شرحه للفتن : « وأما بعد : فإن لما أتقنت الديوان الذي انتشر ذكره في سائر البلدان ، وقرأته قراءة فهم وصبط . ورأيت الناس قد أعروا فيه بكل فن وأغروا ، فنهج من قصد المعاني دون الغريب ، ومنهم من قصد الإعراب بالمعط القريب ، ومنهم من أطل في وأمهب غاية التسهيب ، ومنهم من قصد التعصب عليه ، ونسب إلى غير ما كان قد قصد إليه ، فاستخرت الله تعالى وجمعت كتابي هذا وحملت غرائب إعرابه أولاً ، وغرائب لغاته ثانياً ، ومعانيه ثالثاً ... نعم : نحن لا نعى هذا الفن من الفهم وما هو على غرار من الأساليب التي انتهجها القدماء في شرح الآثار الأدبية ، لأن فهم الآثار الأدبية ليس هو تفسير الغريب ، وإعراب المشكل من التراكيب ، والنفس على مذاهب الاستعارات والكنيات وما إلى ذلك من اصطلاحات أهل البيان ، فها هذه كلها إلا بمجهود ضئيل ، قد يأتي شيء ، ولكنه لا يأتي بكل شيء ، وبما الوضع الصحيح لفهم الآثار الأدبية ، الذي يولد فيها الدوق الأدبي ويقوى فينا الشعور بالجمال ، ويصل بنا إلى مقصد الشاعر أو الكاتب ، هو أن نستنطق الأثر الأدبي في كل ما يلابسه ويحيط به ، وأن نقبين ما هناك من ميول وأهواء ، ونفوس وشخصيات ، في كلام المؤلف ، وشعر الشاعر ، وبيان الخطيب ، فإن من وراء هذا كله أشخاصاً ينطقون ويشعرون ، فإذا ما خاطبنا هذه الآثار وما زجناها ، أحطنا بظواهر أصحابها وبواطنهم ، واتصلنا بسرارهم ودخائلهم ، وعرفنا خصائصهم وطبائعهم ، واهتدينا إلى أخلاقهم وميولهم ، ووقصنا على ساوكمهم وأوضاعهم ، وفي هذا كله ما فيه من ثقافة للدوق ، ومتاع للعقل ، ثم فيه ما فيه من إفادة للمقادير ، وتسهيل عليه في درك الحقيقة التي ينشدها ، والصواب الذي يسعى إليه » .

وهنا سؤال لا بد منه ، وقد يكون القارئ فطن له من قول المكسري : « ومنهم من قصد التعصب عليه ، ونسبه الى غير ما كان قد قصد اليه » فان القائل قد يقصد في قوله الى شيء ، ولكن الناقد يذهب بفهمه الى شيء آخر ، ما دام اللفظ يتعمله ، والتميز يتسع له ؛ ثم إن الألفاظ تفرق ، والناقد يختلفون في استخلاص المعنى من الكلام « فمنهم من تكفيه اللمحة البادرة لينتبه الى الكثرة اللطيفة ، والتلميح البعيد المستعذب في عروض كلام الكاتب ، فيمد له ذلك من القلائد ، ويفهمه حسبما أراد به وقصد اليه ؛ ومنهم من يحسبها جملة جرى بها قلم الكاتب عن غير عمد ، إذ أنه يرى فيها شيئاً يشبه وجهاً محمواً بستر صفيق فلا يدري أحسن هو أم قبيح ؛ ومنهم من يمر بالكلام ولو سألته ماذا أراد به كاتبه لمعجب من سؤالك ! لأنه لم يرفيه شيئاً استوقف خواطره ، وعلى حسب ذلك الفهم وذلك القصور تجده ينقد ويحلل (١) » ، ويقدر ويحكم ؛ وأنت لو نظرت الى النقاد الذين انتقدوا المتنبي مثلاً ، لمعبت من مدى خلاصهم في تفهم معانيه ، والوقوف على أغراضه ، وهو نفسه يصور ذلك إذ يقول :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراحها ويختصم !

إذن فإذا يكون حظ الحكم الأدبي من فهم الناقد ؟ وكيف يقع موقفه من الحق والصواب مادام للناقد أن يذهب بفهمه على ما يرغب ، وما دامت أقسام النقاد تختلف في الدرجة والطاقة على حد تعبير العلميين ؟

والجواب على هذا السؤال سهل قريب ، والتعليل له أسهل وأقرب ، فإن الأمر ليس منوطاً برغبة الناقد يذهب فيه مذهبه ، ويمجري على هواه ، ولكن هناك قيوداً والتزامات ، فالفهم المعبر عندهم في تكوين الحكم الأدبي ، والذي يجب أن يتوخاه الناقد بكل ما عنده من علم وزكاة ، إنما هو الوقوف على غرض القائل وما يرمى إليه ، وإلى غير هذا الهدف لا يباح له أن يصوب النظر ، إذ المقصود إنما هو الحكم للقائل أو عليه ، والكشف عن حظه من المبقرية الفنية ، وليس مما يصح في منطق العقل أن نحكم على رجل بغير مقصوده ، وأن نؤاخذه بغير ما يريد !

إن من الواجب على القاضى في عرف القانون أن يحاول حمله الكشف عن نية المتهم فيما ارتكبه ليحكم عليه في غير ما حيف ولا جنف ، والناقد لا شك له مكانة القاضى ومهمته ، فمن الواجب عليه كذلك أن يفهم كلام القائل « حسبما أراد به وقصد إليه » ، والسائقون من النقاد قد عتدوا السبيل الى ذلك ، فاهتموا بالتغلغل في شخصية الشاعر أو الكاتب ، والكشف عما أحاط به واكتنفه من عوامل ومؤثرات ليكون ذلك كله في هداية الناقد ومعوته على فهم القائل حق الفهم ، ولذلك يقول (سانت بوف) : « إن من أراد أن يكتب

عن شاعر أو كاتب فليبحث في حياته وسيرته بحثا دقيقا ليعرف كيف كان يعيش في منزله وفي الخارج حتى يمكن تصويره في جميع صورته . ومن المأثور عن هذا الناقد الكبير أنه كان يهتم بقراءة الرسائل الخصوصية للذين كان يرغب في الكتابة عنهم ، وكذلك مفكراتهم واعترافاتهم ، لأنهم — كما يقول — يظهرون فيها غالبا بمظاهرهم الحقيقية .

ثم هناك حقيقة لا نحجبها مخفى على القارئ ، وهي أننا إذا تركنا الناقد يفهم في الكلام كما يشاء ، ويحكم على آثار الشاعر أو الكاتب حسبما يذهب اليه فهمه ونصوره ، فإن حكمه والحال هذه يكون على مواهبه هو ، ومدى إدراكه وفهمه ، لا على مواهب القائل ومدى ما عنده من العبقرية الفنية ، ولا شك أن هذا تعطيل لمهمة النقد ، وخروج بالحكم الادبي عن وصمه ، وكان هذا هو الذي أخذ بمقول بعض الناس فزعموا أن النقد لا حقيقة له لأنه ليس إلا فهم الناقد لا فكرة القائل ! بمعنى أننا إذا تكشف من معنى في تعبير أدبي جميل ، فلسنا تكشف في الواقع عن معنى قصد اليه الشاعر أو الكاتب ، ولكننا تكشف عن معنى قام في ذهننا ونمثل لفهمنا ! وقد يكون هذا المذهب ظاهر البطلان أو غير ظاهره ، ولكننا لا شك زده على أصحابه إذ نطلب من الناقد أن يكون فهمه إنما هو لمقصود القائل وما يرى اليه ، وهذا أمر نحسبه هينا على الناقد المستكمل الاداة المتدرب بالمران ؟

محمد فهمي عبد اللطيف

ما يذم من المزاح

قال سعيد بن العاص لولده : اقتصد في مزاحك فإن الافراط فيه يذهب بهاء ، ويجري السفهاء .

وقال أديب . المزاح يضع قدر الشريف ، ويذهب هبة الجليل .

وقال حكيم لولده : يا بني إياك والمزاح فإنه يذهب بهاء الوجه ، ويحط من المروءة .

وقال أبو جعفر الطبري :

في صاحب ليس يخلو لسانه من جراح
يجيد تمزيق عرضي على سبيل المزاح

وقال شاعر آخر :

امزح بمقدار الطلاقة واجتنب مزحا تصاف به الى سوء الادب
لا تفضين أحدا إذا مازحته إن المزاح على مقدمة العصب

الشعر والشعراء في الاسلام

٩ - حسان بن ثابت

لست من فرسان هذه الحلبة ، حتى أقامر بقلبي النشء في مضمار العلامة الجليل « مدير المجلة » ، لكن كلمته الشائقة التي كتبها عن الشعر والشعراء في الاسلام ، دفعتني الى الكتابة تأيما هذه الأنعام الأخاذة المبعوثة عن بيان الأستاذ الصافي ، ورأيت الالماع بادئ ذي بدء الى الشعر عند ما تنفس صبح الاسلام وظهر نوره اللامع ، في آفاق الصعراء المغتمة بأسفاف سحب الضلالات القاعة ، فأزال عن الأبصار ما نقشاها ، وزالت أستار البصائر ، ثم تبدت صورة الحق ناطقة بالحسكة عن لسان سيد الأنبياء ، صلوات الله عليه .

أقول : إن لشعر سلطانا على القلوب ، ولعل حروف مادته تشترك مع « الشعور » في المعنى ، ونفثات جرسه تهر أعطاف المواطن ، فتدفع بها الى متانة أليافها بين الشحو ، والاهو ، والشكوى ، والآين والحين ، ونكاه الاطلال والدمس ، ومضاحكة الحبيب ، ومؤانسة النشوة ، ومصافحة السيف ، ومغالبة الوقى ، ومطاردة العاذل ، ومواصلة التندر ، ونظرف المهاجة !

كل هذه الخوارج ، تدفع في شرايين العنقريه هيولى تسيل على الألسنة شعرا ، في حرمة عصارة القلوب ، وفي سلاسته سلامة العطرة ، وفي سموه رفعة المعاني ، وفي تشبيهاته صفاء الأخيلة ، وفي ديباجاته رصانة الخلق ، وفي صياغته قوة الطمع !

ذلك شأن الشعر ، فيجب أن تكون له منزلة توائمه ، وأن يمد الشاعر من مفاخر العرب التي كانوا يهشون بها « فرس تننح » أو ولد يولد ، أو شاعر ينح .

تلك نظرة عابرة ، نخذتها إيناسا بالحديث عن شاعر الاسلام وحاي ذماره « حسان بن ثابت » رضى الله عنه .

ولست هنا أريد تقييد تقى بما ذكره الرواة عنه ، على اختلاف آرائهم ، وتشعب دراساتهم ، لأنى — مع قرب عهدي بدراسته — لم أرنح الى مناقضة بعضهم لبعض في أمور عرسية لا تقدم من شخصية شاعرنا ولا تؤخر ، اللهم إلا امتراضات الوهم ، وتمحلات النصف ، وإنما أود تقديم شيء من شعره بن يدى القارئ ، حتى يمكننا تحديد « نفسيته » والحكم عليها بمقتضى ما أوحى اليه طائفته

و « حسان » شاعر مخضرم ، كانت لشاعريته إلهامات يمشيها في الجاهلية ، ونفثات نقشا بروحه في الاسلام ، فقد جمع مجد الشعر من أطرافه ، وامتلك نامية القافية ، فلا عجب أن يكون

الشاعر الحضري المذموم الذي لم يطاوله أحد من طرازه ، مع أن النقدة يمدون شعر الحضري ذارخاوة ، وتهذل ، واعمياع ، وعدم تماسك ، وبعد عن البداوة الاصيلية ، وقد جعلوه بذلك في مرتبة العوان ، لاستكمالهم جمال الصياغة واستبافه فيها ، وتخلقه عن اللحاق بفحول الحمرالة وزيادته عليها ! لكنني لا أوافق النقاد على إغفالهم اختلاف البيئات وأثره في معرض التفاصيل لفقدان التكافؤ بين خيالات شاعرين تختلف مناظر الوجود في نظرهما ، وما الشعر إلا الخيال ينسج بفكر العاطفة ، ويكون حقائق شاهدة برهانة حسنها ، وآمالا ناطقة بما يحتاج في صدرها .

ومن عجب أن يتناقل الرواة ورجال الأدب آراء النقاد ويرددوها في المشاهدة والمداينة ، من دون أن يفيلوها شيئا من المناقشة ، أو يضعوها تحت أنظار أفكارهم ، حتى يجردوها من المشاهدة ، والمبالغة والتعامل ، فهم عند قول النجاة : « أي هكذا خلقت » ! وما ذلك بسبيل الانتصاف ، ومجاجة التعجب والإجفاف .

وشاعرنا لحصافة عقله كان يقول على سجيته ، فقد ناجى شعره في جاهليته الملوك وارتضى منحهم ، حتى اكتسب ثقة الحيرة ، وذاع صيته في الشام ، وكان طراف « جيلة بن الأيهم » وملازمة عطائه له ، وجميل رصاء عنه ، دليل على ما لحسان من اقتدار على غزو القلوب ، ومخاطبة الأرواح .

يذكر الرواة أن شاعرنا أشد حمرو بن الحرث ، وكان يحصر الانشاد بخلاف « النانقة ، وعلقمة بن عبدة » فذهب يلتمس طريقة القدامى في مناجاة الرسوم والديار ونقايا الاطلال ، والذروع الى التشويق ، في مداكرة الأيام الخوالي ، واشتهاء تلك الأمانى المصولة ، فلم يقصر ، بل سار كما نعهد على نسق الأسلوب الجاهلي ، من رصانة اللفظ ورقة المعنى ، وخولة المعنى ، ومثانة التركيب ، فقال :

أسألت رمم الدار أم لم تسأل ؟	بين الجوابي ، فالبصيص ، حومل
فالمروج مرج الصفيرين جواسم	والديار صهي دوساً لم تحلل
دمر تماقها الرياح دوارس	والمندحات من السماك الأعزل (١)

إد حرمد من نفسه غمظا ، وحده عن حال الدار التي تقع بين الامكنة التي ذكرها ، عند القدوم إليها ، والارتحال عنها ، وذكر في معرض الاستفهام المجازي كيف ذهبت معالم

(١) في السماء سما كل ، أحدها يشع ، والآخري يخبر ، ويسمى الأول داما ، لاستطالة شعاعه كماه رمع ، والثاني أعزل يحى عند ظهوره للطر ، ويشير إليها شاعر بقوله :

سكن السما كان السماء كلاما هذا له رمع وهذا أعزل

ديار حلمي ، ونقبت غالية ، لم تطرق بمد استقال الاحبة ونحوهم ، ولم يبق فيها غير البقايا التي تنوالى عليها الامطار المنبئة من الغيوم الكثيرة الممطرة مع انها ماحلة ! ولعلنا نرى مقدار براعته في تمقّب الامكنة وتصويرها كأنها منظورة ، ثم لمجّب من انتقاله الى الدحول على مقصده في السجّام تام لا تنافر بينه وبين سابقه ، فيقول :

دار لقوم قد أرام مرة فوق الأعزّة ، عرّهم لم ينقل
لله در عصاة نادتهم يوما بحلق في الزمان الاول
يمشون في الحلال المضاعف نسجها مشى الجلال ، الى الجلال البزل
الصارون الكشب يبرق بيصه ضربا يطيح له ننان المصل
والخالطون فتـيرهم يغنيهم والمنعمون على الضميف المرمّل

ولست أدري بمد هذا الابداع ، الحامل على حمل شاعرنا لا يتسأى الى مماء زملائه من الفحول ! وما الركة ، وضعف النسج وعدم الرصانة البادية في هذا الشعر البارع ؟ إن هذه القصيدة يتعذر على نقلها من ديوانه ، أو من الكتب التي تصدّت الى دراسته ، لكنني أترك للقارئ تصفحها ، وسيصادفه هذا البيت الجامع :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الاوف من الطراز الاول

فقد اشتمل على مجازات ، ومعان مبتكرة ، تعد من الطراز الاول ، لا نعلم ، على ما قرأنا ، أخذاً جمعا في بيت واحد ، ملام المقالة والمسخ ؟

على أني لا أقصد التشيع لحسان ، وإنما الحق أحق أن يتبع ، وأرى في دعوى القاد جزافا لا يصح أن يصدر عنهم ، وهم يثأرون بالمتقدم ، ويصدون تقسيم المعصور في الأدب ذا أثر بين في تقدير الشخصيات ، ويحسبون هذا داعيا الى الأحذ عنهم إطلاقا ، والمنافسة في الاستماع اليهم تسلبها ، وقد وقع حسبهم في نفوس بعض النلاة ، فجردوا شاعرنا المبدع من مواهبه لمحيته متأخرا عن فلان وفلان ، وجعلوا النسبة الزمنية مقياسا للتقدير . ولما على طريقتهم ولا نحب أن نقيد بهم ، بل نقول : إن حسانا شاعر رعا بد الفحول ، وسقطاته هنات ، سنسلكم عليها عند الحديث عن نفع روحه بالاسلام ، ونبين الأسباب الجلية التي جعلت شعره رفيقا لا ضميما كما يقولون ، ونشير الى آراء بعضهم ، ثم نقدناها على أساس من المطلق والاستشهاد .

أحمد عبد اللطيف برر

هل يمكن أن يحكم الإنسان نفسه

كتب العالم البسيكولوجي (انتونان أميو) في كتاب له في هذا الموضوع تحت هذا العنوان بحثاً تقنياً نستحسن أن نلم به لما اشتمل عليه من الحقائق العلمية ، ولأن النانئة المعصرة في أشد الحاجة إليه ، قال :

هل من الممكن أن يحكم الإنسان نفسه ؟

لنم لأننا خلقنا أحراراً ، ومنعنا من الإرادة بما يسمح لنا بتوجيه أكثر ميولنا إشراقة ، الى وجهات نافعة على قدر الامكان .

لا شك أننا لسنا أحراراً كالآلهة (١) ، ولسنا مقيدين كالأحجار ، فيجب على الإنسان أن يعرف نفسه ليستطيع أن يعمل ، وما أبعد تلك المعرفة عنه إن لم يدرس نفسه من قرب . إذا نظر الإنسان لنفسه نظراً سطحياً تبين له أنه مستقر المتناقضات ، ومستودع المتعاضدات ، وناهيك بكائن اجتمعت فيه المادة والروح فهو من جهة مادته مقيد بنواميسها ، مأسور لقوانينها ، ومن جهة روحه حر مطلق لا يقيد به شيء ، فهو دائر بين الإطلاق والتقييد ، وحياته قائمة على قطبيهما .

هذه المادة التي هي إحدى عناصر ذاتنا ، عرضة للتأثر بكل المؤثرات التي تؤثر على كل مادة ، وبكل الأحوال التي تطرأ عليها من جهة المادة والوراثة . هذه المؤثرات منها ما هو حسن ، ومنها ما هو قبيح . فكل عمل من أعمالنا هو في حقيقته إما فصيحة ورائية اكتسبناها من آباءنا فرسخت في نفوسنا على طول الأجيال ، وإما رذيلة ورثناها منهم كذلك وسنورث ذلك كله لابنائنا أجيالاً متعاقبة .

فالتربية التي كومت لنا مادتنا الأولى ، والوسط الذي عشنا فيه ونمثر علينا آثاراً لا تمحي ، وحركة الفصول السوية ، والمصادفات اليومية ، والأعمال الواقعة علينا من الغير ، ومركزنا الاجتماعي ، وأساطير آبائنا ، وأوهام مفاصلنا ، واللعظة التي نحن فيها ، كل ذلك له علينا تأثير لا يسكر ، فنحن إذن من أحوال هذا الفضاء والزمان مثل السفينة في وسط الأقيانوس الذي لا ساحل له .

هذا هو مكان الإنسان من أحوال هذا العالم ، فهل الذي وضعه فيه زويدة هبت عليه فقذفته إليه ، وأسلوب مئة سار عليه فرمى به فيه ، أو هذا هو طريقه الطبيعي الذي رسم

(١) هذا نص عبارته وهو لا يقولها اعتقاداً بوجود آلهة وإنما هو تيسير جرى عليه كتاب الترجمة .

له من القدم ؟ لا ندرى ولا يهمننا معرفة السبب في وصوله الى هذا المركز الخطر ، وإنما الذى يهمنا أن نعرف أنفسه (١) . فلنعمد الى وصف أنفسنا فنقول : إننا شبهنا أنفسنا بسفينة فى وسط الأفيانوس ، تلك السفينة مركبة من قطع خشبية مترابطة فيما بينها بروابط ، وهى إما كبيرة أو صغيرة ، تامة الأجهزة أو ناقصة ، متوارة أو غير متوازنة ، معرضة لنور الشمس أو متروية عنها ، بعيدة من الساحل أو قريبة منه ، تهب عليها الرياح بحيث لا تستطيع أن تتوارى منها أو تغير من اتجاهها ، معرضة لمصادمات الأمواج من كل جوانبها ، حتى أن أقربها إليها تهددها بأن تستطيرها أو تزدردها . ولكن فى داخل السفينة التى تهددها كل هذه الجوائح ربان له عقل وحرية ، ممسك بیده سُكَّانها (٢) يستطيع أن يحول كل هذه الجوائح الى مصلحته ، وأن يستخدم الرياح النائرة فى إيصاله سالماً الى الشاطئ .

هذه هى صورة الانسان فهو بمادته عرضة لكل المؤثرات على المادة ، ولكنه بروحه يستطيع أن يدخل الى حلقات هذه المؤثرات الضرورية قوة جديدة هى إرادته واختياره ، فيستطيع أن يكون هو الناجى الناجح على شرط أن يعرف أسلوب السير ، وأن لا يترك السُكَّان من يده ، وأن يضع حريته تحت طاعة إدراكه .

مما يدلك على ذلك أن الانسان ، وهو أضعف ما على الأرض من حيوان ، استطاع بعقله وحرية أن يكون ملك الطبيعة بلا خلاف ، وقد سخر لخدمته من الحيوانات ما كان يكنى فى إهلاكه من أحدها عضة بناب أو ضربة بمخضب . وقد سطا على الأرض الشحيحة وضرب عليها الجزية من السات الذى يريده ، وقهر الجبال فنسفها بشرارة يستطيع الطفل أن يسلطها عليها بوضع أصبعه على زر صغير ، وأخضع أصلب المعادن فأذابها كاللحاء ، أو مدها كما يمد خيوط الكنتان

هذا السكَّان يستطيع أن يقهر نفسه ، ومن العذر البارد أن يقول : « لا أستطيع التغلب على مزاجى ، إفر خلقت على هذه الحال » ، ولماذا لا يقول أمام وحش كاسر يهب لانهامه : « هذا مزاجه ، إنه خلق على هذه الحال ؟ »

نعم إن لك مزاجاً ولكنك تستطيع أن تستخدمه فى مصلحتك ، أنت خلقت على ما أنت عليه حقيقة ، ولكنك تستطيع أن تغلب طبيعتك ، وأن تحول خلائفك وإذا كان الانسان قَدَر أن يقهر الطبيعة العامة فهو على قهر طبيعته أقدر .

وما هو الأسلوب الذى به تحكم نفسك ؟ إنك تستطيع ذلك بالأسلوب نفسه الذى تتسلط به على غيرها . فإن العقبات التى تعترض أسرار الأمور والوسائل التى توصل اليه ، تشبه أمثالها

(١) عندما أن الانسان قدف به الى هذه الارض ، وسلطت عليه عوامل نفسه والبيئة التى هو فيها لينشئ من غسة الحيوانية ويخلص روحه من سلطان المادة . (٢) السكَّان ذب السفينة التى تدار به

في كل ما يحاوله الانسان . فكل الذي على الانسان عمله إزاء هذا الفرض السامى ، وهو حكومة نفسه ، هو أن يستجمع الحوادث المناسبة بموضوعه ، ويكتشف منها نواحيها الحاكمة عليها ، ويعتمد عليها في بل ما تصدى له من هذه الامسية العزيزة

هذا هو الأسلوب العمل الذي يجدر بالانسان ، وهو ذلك الكائن الذي لم يخلق حرا مطلقا ، ولا مستعبدا مقيدا ، ذلك الكائن الذي وإن كان لم يقبل عن الحيوانات المعجماء في سعة سلطان الحواس الخمس ، فانه قد متع من قوة الادراك بما يريه أسباب الحوادث من خلال تسلسلها .

أول ما يجب علينا عرفانه في هذا السبيل هو أننا مرتبطون بمجموع الكون ، وأن أجزاء جثثنا بعضها مرتبط ببعض كل الارتباط ، وأن هيكلها الجسداني كثير التركيب ، جمل الآلات والأجهزة ، كل منها يؤثر في غيره ، وينعكس تأثيره على مجموعها انعكاسا طبيعيا منتظما .

إن في هذا الجسد فضلا عن القوى المادية التي تدور في زوابعه الحيوية مع حفظ جميع خواصها ، حياة نباتية وحياة حيوانية مختلطة إحداهما بالآخرى ، وقائمة على صورة حياة عامة في هذا الكائن المسمى بالانسان .

كل واحدة من هذه القوى الحيوية الثلاث مسوقة لأن تظهر وجودها ، وأن تعمل ، وأن تتناسب والقوى الأخرى في أعمالها .

ولكن مما يجب الالتفات إليه أن أعضاء الحياة الحسية مثلا والأوتار التي تحركها ، والأعصاب التي ترتبط بها ، مختلطة ببعضها بعض ، ما يصيب إحداها من ضعف أو قوة يصيب مجموعها معا .

مثل هذا كمثل عناصر الحياة الساتية ، وعناصر الحياة الانسانية والحيوانية التي في الانسان ، فهي متداخلة بعضها في بعض ، وتامة للتأثر بما تتأثر به إحداها .

فالفكرة أو الإرادة مثلا إذا باغ الانسان أشده تستعمل الحس الذي تمنعها إياه الحياة الحسية في نيل رغائتها ، وتستعمل أيضا في الوقت نفسه لذلك الفرض عينه الدم والغلايا الجسمية التي هي من نتائج الحياة الساتية في الهيئة الجسدية . وبناء عليه فلا يمكن أن يحدث الانسان حدثا ما سواء أكان معنويا أم ماديا إلا ويرى صداه في جميع أجزاء هذا المجموع الجسداني المتصامن في الحياة

من شك في هذه الحقيقة فليأخذ عليه إلا أن يعرض الحوادث على نفسه وكلنا يعلم أن وجود الجثمان في أحوال خاصة ، يستدعي وجود الوجدان في أحوال تقابلها ، وأن اختلاف الحس والسن والوراثة والإقليم وغيرها مما لا نعلم ، مما له أثر خاص على الجسد المادى ، يعكس فعله

على الجسد الانساني . ومما لا يحمله أحد أيضا أن سوء حالة المعدة يعيل بالإنسان الى سوء الخلق ، وأن تعاطى الأفيون أو الحشيش يحول العواطف الى وجهات غير التي كانت لها ، وأن تصديق السامعين يستدق قريحة الخطيب وينشطه للقول ، وأن هبوط الحرارة الجسدية درجتين عن حدها الطبيعي تفقد الإدراك ، وأن درجتين منها زيادة عن القدر الطبيعي لها يهيج الإدراك لدرجة الجنون .

كل منا يستطيع أن يزيد على هذه الأمثلة من عنده ، وهي أدلة على تأثر المعنى الانساني بما يقع على الهيكل الجسدي .

أما تأثير المعنى الانساني على الجسد فهو أوضح مما مر وأشد فعلا منه .

نعم : إن المعنى الانساني لا يغير من قوانين الجسد شيئا ، ولكنه يؤثر عليها تأثيرا نافعا أو مضرا . أما الأمثلة على ذلك فما لا يحصى كثرة . فلا يحمل أحد تأثير الإرادة على العمل ، وتأثير الانفعالات على الوجه ، وعلى الجلسة والمشي والكتابة ، فهي تحمر الخد وتنبغ الدم ، وتنفخ الأوردة ، وتخلق الخلق ، وتصنف القوة ، وتصيب الجسد بحركات اضطرابية ، وتولد دما فاسدا ، وتسيء الخلق ، وتسقط الجسد في مرض عمال .

يتضح للقارئ من كل ما مر أن الروح والجسد متضامنان في الحياة الأرضية ، فما يطرأ على أحدهما من التغيرات يطرأ على الآخر . والذي علينا إزاء هذه الحقيقة أن لا نعمل عملا جسديا إلا بعد تقدير نتيجته الضرورية وتأثيره على روحنا ، وأن لا نعطى روحنا حالا من الأحوال إلا بعد التروى في تأثيره على حسدنا ، وأن ننفيد من حريتنا فحدث أصلا يكون تأثيرها حسنا في روحنا ، أي أن يكون مثلنا من جسامتنا كمثل سائق الآلة البخارية مع آلتها ، يسير معها على مقتضى تركيبها لا يحملها ما لا تستطيع حمله ، ولا يريد لها على ما يفسدها ويمطلها ، فلا يتقودها وهو سكران أو لاه أو جاهل فتلهكه ولا كرامة . عليه أن يعرف مقتضيات تركيبها ، ومطالب عددها ، فيعلم أنه لو وضع لها في موقعها أنتج بخارا ، وإن هو فتح علبه البخار ضغط البخار على الكباس ، فإن لم يكن مقدار الفحم محسوبا ومقدرا على مطلوب الآلة ، أوفعت قائدها ومن معه في أشد الخطر .

يجب على الإنسان أن يكون مع جناته على الأقل كالسائق المتقدم ذكره ، فيعلم الغاية التي يقود إليها أداته ، والتي يسوى الراكبون النزول فيها ، والطريق الذي عليه أن يسلكه من بين القضايا المختلفة في سبيله ، والعلامات التي يجب عليه أن يلاحظها أثناء سيره ، وأمكنة الماء والفحم اللازمين لأداته فيقف فيها لأخذ حاجته منهما مدة صفرة .

انتهى ما نقلناه عن السيكلولوجي (أنتونان اميو) وهو حسن في جملة وتفصيله ، وقد جمع من بارع المقارنات ، ومحكم التعيينات ما يروق العقل ، ويسيفه العلم ، ولهذا السبب أثبتناه

هنا ، ولكننا مع هذا نرى أن هذا الأسلوب غير عملي ، فإن السواد الأعظم من الناس لا يمكنهم في أن يحكموا أنفسهم ليقهروها على اتباع طريقة معينة تؤدي إلى الكمال الإنساني ، إلا إذا حفزتهم إلى ذلك غاية شريفة يريدون الوصول إليها ، وهذه الغاية لا يمكن أن تكون مادية ، لأنه لا معنى لأن يقيد الإنسان نزعاته بالقيود الحديدية ، ليصل إلى مقصد مادي هو لا يطلبه إلا لينتقل بمحصوله عليه من جميع التبعات ، ويضع بالحياة به على أوسع ما تصبو إليه ميوله وشهواته .

وإذا استحال أن تكون هذه الغاية مادية ، كانت لا محالة روحانية ، وقد ثبت أن المقاصد الروحانية قد أدت الإنسان ، حتى في أحسن حالاته ، إلى تقييد شهواته ، والتسلط على نفسه . فلا الحصول على المجد ، ولا الطمع في الشهرة ، ولا الكلف بطول العمر ، ولا الوصول إلى الغنى ، بل من أجل الإنسان على حكومة نفسه بمبلغ طموحه للسمو الروحاني ، فقد تخلى الإنسان عن كل محبوب لديه في سبيله ، بل دفعه لسكى الكهوف والمغاور ، والاقتراب على الموت في طلبه .

فإذا صحب العلم النزوع إلى هذه الغاية ، وصل الإنسان إلى ما يرميه الاستاذ أنتونان اميو بغير تكلف لهم ما أنصب نفسه في تصويره ، ولا يحلو تاريخ الأديان من ألوف من الناس بلغوا من حكومة أنفسهم إلى ما لم يصل إليه فيلسوف بفلسفته ، ولا عالم بعلومه .

نعم إن المسيو (أنتونان اميو) لم يعين لتطلب حكومة النفس غرضاً ، واكتفى ببيان أسلوب الوصول إليها من الناحية الفلسفية ، فلا يعنيه بعد ذلك إن كان الدافع لتطلبها مادياً أم روحانياً ، ولكنا من ناحيتنا يجب أن نبين للقارئ ، أن ذلك الفرض لو كان روحانياً ، لما كان نعمة حاجة إلى دراسة أسلوبه وأخذ النفس به ، فقد شوهد أن الأغراض الروحانية إذا استولت على النفس دفعتها في وجهتها دفعا قويا ، وجمتها جميع الافراطات والتفريطات حماية آلية لا تستطيعها أية فلسفة في الأرض ، لأن الفرض الروحاني يقوم على الروح مباشرة ، وهي صاحبة السلطان المطلق على الجسم ، فلا تقوى أية رغبة مادية أن تصرفها عن وجهتها ، لأنها لا تستمد وجودها إلا منها ، فإن امتنع قبل الروح شيء سكنت جميع الميول وطل عملها ، وانجذبت جميع قوى الجثمان لتحقيق تلك الرغبة الروحية . هذا ما يدل عليه تاريخ الأديان وخاصة تاريخ الاسلام ، فإن المقصد الروحاني العالي الذي دعا النبي صلى الله عليه وسلم إليه ، وأمكنه الله من تنبيته في القلوب ، قلب جميع أوضاع الجاهلية ، وحق كل تقاليد الموروثة ، ومبادئ المتأصلة في سنين معدودة ، فنشأت أمة أخرى ذات نزعات جديدة لا تمت بصلة إلى الأمة التي كان يمثلها هؤلاء الأفراد أنفسهم . هذه آية لا يمكن أن تنسخ ولا أن تنسى مما طالت عليها الأزمان ، وستكون دائما دليلا على سمو التربية القائمة على الروح والایمان

هل ربا الفضل حلال

في بلادى «أندونيسيا» التى تحوى خمسة وخمسين مليوناً من المسلمين «شبهة منتشرة في مسألة الربا» .

وإني حرصاً على مصلحة بلادى المسلمة ، واستمساكاً بأهداب الدين الإسلامى الحنيف ، وسعيًا وراء الحقيقة ، ألتجئ إلى فضيلتكم أستعجل رأيكم في هذه المسألة الخطيرة التى تشغل بال مسلمى أندونيسيا ، راجياً أن تتكرموا بإبداء رأيكم في هذه المسألة على صفحات مجلة الأهر ، لتنبهوا به الظلمات التى انغمس فيها مواطنى فى بلادى

وإني باسم هؤلاء المسلمين الكثرى العدد أقدم لفضيلتكم جزيل الشكر وأدركى التحيات .
وفياً بلى ملخص تلك الغبهاث :

كتب رئيس الاتحاد الإسلامى بينرونج (جاوه) : أن ربا الفضل ليس من الربا المحرم ، على الرغم من كثرة الأحاديث الصحيحة الواردة في تحريمه التى منها روايات البخارى ومسلم .
قال فى كتابه « كتاب الربا » ما ترجمته :

قد تباحثنا مع العلماء فى هذه المسألة ، وعلى الأخص المحدثين منهم ، فكانت النتيجة ثأنى إلا أن أقول : « إن جميع الأحاديث الواردة في تحريم ربا الفضل ليست من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا يكون تحريم ربا الفضل من الدين فى شيء » ، وليس معنى هذا أبني أرد كلام الرسول ، كلا ، بل إنى لم أصدق أن الرسول قال بذلك ، ولم أكن بهذا أكذب الصحابة ، لا ، بل أقول : إن بعض الرواة حصل منهم نوع من الخطأ فرووا خلاف ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . والأقرب إلى ظنى أن اليهود والنصارى والمجوس هم الذين وصموا تلك الأحاديث الدالة على حرمة ربا الفضل لضليل المسلمين وتصديق ميسدان التجارة عليهم بكثرة المحرمات فيها ، فتكون التجارة كلها بأيدى هؤلاء اليهود والنصارى والمجوس .

هذا الظن وإن كان من الصعب على المسلمين قبوله ، ويكن يصعب عليهم أيضاً رده ، لأنه بمقتضى تلك الأحاديث لا يتأنى على المسلمين الاتجار بتلك الأشياء الستة المهمة التى هي قوام الحياة ، ألا وهي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح . هل يستطيع أحد أن يدلنا على أن مسلماً فى أى عصر كان اتجر على مقتضى تلك الشروط المذكورة فى أحاديث ربا الفضل ؟

قال في سبل السلام ج ٣ ص ٤٧ وبيل الاوطار ج ٤ ص ٣٠٢ : إن العلماء قد أجمعوا على جواز المعاملة بالأشياء الستة المذكورة بالفاضل وبالأجل (دينا) إذا اختلف الجنس كالذهب بالفضة والتمر بالملح الخ .

لماذا أجمعوا عليه والأحاديث نصت على خلافه ... ؟

١ — قال صلى الله عليه وسلم (في رواية البخاري ومسلم وأحمد) : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منهما غالباً بناجز » .

٢ — وقال في رواية البخاري وأحمد : « لا تبيعوا الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح إلا مثلاً بمثل يدا بيد ، فمن زاد واستراد فقد أربى ، والآخذ والمعطى فيه سواء » .

٣ — وقال في رواية البخاري ومسلم وأحمد أيضاً : « الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » .

٤ — وقال في رواية مسلم والنسائي وأحمد وابن ماجه : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » .

٥ — وقال في رواية مسلم : « التمر بالتمر والحسنة بالحسنة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد ، فمن زاد أو استراد فقد أربى إلا ما اختلفت أنواعه » .

٦ — قال ابن حمر في رواية أحمد وابن ماجه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « اشتر الذهب بالفضة ، فإذا أخذت واحداً منهما فلا تفارق صاحبك وبمسكاً ليس » .

فما معنى هذا الاجماع ؟ أيهما أحق أن يتبع : الاجماع ، أو الأحاديث المذكورة ؟
من من العلماء يستطيع أن يجيب ؟

ثم قال :

عجبا والله ! لماذا أجمع هؤلاء العلماء على ذلك ، وقالوا في الوقت نفسه بصحة تلك الأحاديث المتنافية له ؟ ولماذا لم يردوا تلك الأحاديث وهي مناقضة للأحاديث الأخرى الصحيحة الموافقة للعقل كحديث أسامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الربا في النسئنة » رواه البخاري ومسلم .

إذا كانت تلك الأحاديث المحرمة صحيحة فلماذا لم يعرفها كثير من الصحابة الذين عاشروا النبي صلى الله عليه وسلم مدة حياته ، وعمل المسلمون على خلافها حتى بمكة نفسها منذ عهد

الصحابة ، وقال في شرح المهذب قال ابن عبد البر : إن أهل مكة كانوا عليه قديما وحديثا ويجرون التفاضل في ذلك ؟

وإذا كنت أردت تلك الأحاديث فليس بمجرد هوى بل بتلك الأدلة المتقدمة وغيرها . على أنى لست مبتدئا في رد الأحاديث المنقوصة بالأدلة ، فهذه عائشة قد ردت الحديث الذي لا يوافق القرآن والعقل السليم ، وهذا عمر قد رد الحديث في النفقة مع أن رواه أصحاب رسول الله .

هذا وقد بان التناقض في الأحاديث الواردة في ربا للفصل ، إذ بعضها حصر الربا المحرم في النسيئة ، وبعضها أطلقه فصلا كان أو نسيئا ، وبعضها يدل على حواجز ربا المص ، وآخر يدل على حرمة .

والخلاصة : أن هذا الدين يسر كما قال صلى الله عليه وسلم ، فلا ينبغي أن توجد فيه تلك الأمور الصعبة العسيرة ، وعندى يكفى قوله تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . إني لعل يقين أن قوله تعالى « تجارة عن تراض منكم » له معناه الواسع ، وله قوته الكافية في رد تلك الأحاديث المصيبة على التجارة . ولكي تكسب يحب الحق ويسمى للصواب ، أرحب أن بتعامم معنى أى عالم من حضرات العلماء الذين يرون خلاف ما أرى في هذه المسألة (مسألة ربا الفضل) .

ثم قال :

كثر القائلون بتحريم ربا النسيئة مطلقا مستبدلين بقوله تعالى . « يحق الله الربا ويرى الصدقات » ، والله لا يحب كل كفار أثيم » وقوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، وانقوا الله لعلكم تفلحون » .

ولحديث صحيح رواه أحمد . « حرم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية » ، وحديث صحيح رواه ابن جرير وابن أبي الدنيا : « الربا اثنان وستون بابا أداها الذى يقع على أمه » ، وحديث صحيح رواه النسائي : « قال ابن مسعود : إن النبي صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكانه إذا علموا ذلك . ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة » لأن الربا في تلك النصوص المتقدمة مطلق ، أما قوله تعالى : « أضعافا مضاعفة » فهو لبيان قبح الربا أو لبيان نوع من أنواعه المحرمة ، ولأن النهى عن الكثير لا يدل على أن القليل مباح ، هكذا قالوا ..

قلت : إن تلك الأدلة كلها مطلقة كما علمت ، سوى قوله تعالى : « لا تأكلوا الربا أضعافا

مصاعفة ، والتعانة عند الأصوليين المقيد بيقيد المطلق ، إذن ظاهراً المحرم إنما هو الربا الذي فيه أضعاف مضاعفة فقط ، ولكن لما كان الشارع لم يبين لنا مقدار تلك الأضعاف المضاعفة المحرمة ، ولا مقدار الفلة التي يجوز فيها الربا ، ففلاحتها مجال في بيان ذلك المقدار المحرم والقدر الحلال . وليس معنى هذا أيضاً أني أحلت ما حرمه الله ، كلا ، إني أقوم بأن الله تعالى قد حرم الربا الذي فيه أضعاف مضاعفة ، والذي يؤدي إلى التصفيف ، أما الربا القليل والذي يؤدي إلى الأضعاف المضاعفة فبقيا يبي أدلة بإحتمالهما .

عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ! ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فبين عهدا ينتهي إليه - الحدد ، والكلالة ، وأبواب الربا » . رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

وروى أن عمر قام خطيباً في الناس فقال : « ألا إن آخر القرآن تنزيلاً هو آية الربا ، ثم تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يفسرها لنا ، فدعوا الربا والريبة » . من كتاب إقامة الدليل على إبطال التحليل .

إذا ثبت أن الربا القليل حرام ، أو لا يكون حراماً إلا إذا كانت أضعاف مضاعفة ، فلا يعقل أن يقول عمر مثل ذلك أمام جمهور من الصحابة ولا يكرهه عليه ، فتبين من ذلك أنه لم يرد في القرآن ولا في الحديث ما يبين لنا مقدار الربا المحرم . ومعنى هذا أن الشارع قد فوض إلينا الأمر في ذلك التقدير . وإذا نظرنا إلى الربا الذي حرمه الشارع وهو ربا الحاحلية وهو كما قال الطبري في تفسيره وغيره : الربا الذي فيه أضعاف مضاعفة سواء كان في النقود أو في الحيوانات ، إذا نظرنا إلى هذا تبين لنا فيه ثلاث صفات هي علة التحريم في الربا . (أولاً) الضرر بسبب كثرة الربا حيث لا يمكن أن يربح المديون ويحيا كفاً لتسديد الدين وفائدته غالباً .

(ثانياً) الإكراه بعد حلول الأجل بالأداء أو بزيادة الدين .

(ثالثاً) أن تكون الفائدة أضعافاً مضاعفة ، أي ليس لذلك الربا حد ، بل يربو ويربو ويربو إلى ما لا نهاية .

إذا ثبت هذا ثبت أن كل ربا ليست فيه هذه الصفات الثلاث ليس بمحرام شرعاً .

ثم تكلم طويلاً في فوائد الربا الذي ادعى أنه حلال وقال في آخر كتابه . ورأي أن إنشاء البنوك وغيرها التي فيها ربا غير مصاعف ، واجب على المستطيع ، وإن كان القوم رأوا حرمة جميع أنواع الربا ، لأن مقتضى القواعد الدينية الإسلامية ومقتضى العقل السليم أن إرالة الضرر الكبير بالضرر الصغير مأمورة ، كما إذا كانت سفينة تشرف على الغرق وفيها عشرة أنفار ولن تنجو

السفينة وما فيها إلا بالقاء ثلاثة منهم في البحر ، فمن ذا الذي يقول : لا يجب إلقاء الثلاثة لينجو الباقيون ؟

فهل يمكننا اليوم أن نزيل هذا الضرر الشامل المتسبب من الربا الذي فيه أضعاف مضاعفة بغير إنشاء البنوك ونحوها بربا رهيد ؟ إذا قلت : نعم ، فعليك البيان وعليها الاتباع . وهنا أرفع لقلم مستظرا برأي العلماء فيما كتبت ، وأما مستعد الرجوع عن رأيي إذا تبين خطؤه بالأدلة المعتبرة لا ببعض أقوال العلماء اهـ

هذه بإصاحب القصيدة انشبه التي أنارها في بلادها الكاتب في كتابه الموسوم (بكتاب الربا) . وهناك عالم آخر خطير ذو نفوذ كبير جدا قال بحرمة الربا ولكنه أبيع للحاجة ، ولا سيما في إنشاء البنوك الاقتصادية الكبيرة على النظام الأوروبي التي نحن في أشد الحاجة إليها لتجارى الغربيين في ذلك الميدان ميدان الاقتصاد ، ولترفع رهوس الأمة الإسلامية عالية ، ونحن لاحظوا لما نالتقدم إلا إذا قطعنا شطرا كبيرا في الجهاد العملي ، سنى أهمالنا على التفكير والتروى مستدلين بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة ، ونعجز تلك المسائل النافهة التي تعوق طريق تقدمنا ، ولذلك أبحث الربا حيث إنه وسيلة التقدم ، ومن باب . الضرورات تبيح المحظورات .

أرجو من فضيلتكم باسم الفيرة الإسلامية أن تبصروا حقيقة هذه المسألة الخطيرة ببيان شاف وأدلة قاطعة ترد الأمور الى نصابها ، والله تعالى يجازيكم على دفاعكم عن بيضة دينه .
وتفضلوا بقبول جزيلى شكرى وشكر مسلى أندونيسيا وأسمى التحيات .

جمعية الشباب الأندونيسيين والملاويين

الرئيس : اسماعيل محمد بندا

(مجلة الأزهر) سنشر بيانا شافيا لمسألة الربا في الاسلام في العدد المقبل ، إن شاء الله .

شكر المعروف

قال لقمان لابنه : يا بني ! المعروف غل لا يفكه إلا شكر أو مكافاة .

وقال شاعر :

كلما قلت أعنتى الشكر رقى صيرنى لك المكارم عبدا
فأثنى مهر الزمان حتى أودى شكر إحسانك الذى لا يؤدى

التفسير

سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

واينا ان تحف القراء بتفسير سورة « قل هو الله أحد » لما ورد أنها تعدل ثلث القرآن على ما استمع إن شاء الله .

ولنبدا بما قيل في أسمائها الدالة على مزيد شرفها فنقول :

هذه السورة تسمى سورة الاخلاص ، وسميت بها لما فيها من التوحيد ، ولذا سميت أيضا بالاساس ، فان التوحيد أصل لسائر أمور الدين . وروى الثعشعي عن أنس مرفوعا أن هذه السورة أُنسئت عليها السموات السبع والأرضون السبع . والصحيح أن ذلك غير مرفوع . والمراد أنه ما خلقت السموات والأرضون إلا لتكون دلائل على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التي تضمنتها هذه السورة . ولك أن تقول : إن مصحح إجماعهما ، أي بعد إمكانهما القدائي ، ما أشارت اليه السورة من وحدته عز وجل ، واستحالة أن يكون له سبحانه شريك ، إذ لولا ذلك لم يمكن وجودهما لا مكان المتنازع ، كما هو معروف في علم التوحيد ، وكما يشير اليه قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

وتسمى أيضا سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة السحاة ، وسورة المعرفة ، لأن معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفة ما فيها . وفي بعض الآثار أن رجلا صلى فقرأ قل هو الله أحد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا عبد عرف ربه »

وسورة النسبة لورودها حوايا لمن قال : أنسب لنا ربك ، على ما استمعه . وسورة الصمد ، وسورة المعوذة ، لما أخرج النسائي والبخاري وابن مردويه بسند صحيح عن عبد الله ابن أبيس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال : قل ، فلم أدر ما أقول ، ثم قال : قل هو الله أحد ، فقلت حتى فرغت منها ، ثم قال : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، فقلت حتى فرغت منها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هكذا فتعوذ ، وما نموذ المتعوذون بمنلهن قط » .

وسمى أيضا سورة البراءة ، قيل : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلا يقرأها فقال : أما هذا فقد برئ من الشرك وقد روى الترمذى عن أنس : من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ قل هو الله أحد مائة مرة كتب الله تعالى له براءة من النار .

وسورة الإيمان ، لأنه لا يتم بدون ما تضمنته من التوحيد ، الى آخر ما ذكره المفسرون ، وهي جديرة بذلك كله كما لا يخفى ولا يهتما تصحيح كل ما قيل من حيث الرواية ، فان هذه الأسماء التي ذكروها مأخوذة مما تضمنته هذه السورة من أسمائه العلية وأوصافه السنية ، فكلها حق بة هامة معناها وفصيح معناها .

وهي مكية ، وقيل مدنية ، وقيل تكرر نزولها جوابا للمشركين بمكة وللإهود بالمدينة . وبهذا تعرف ما في قول بعضهم إنها مكية باتفاق . وآيها خمس في المصحف المكي والشامي ، أربع في غيرها ، بحمل لم يلد ولم يولد آية واحدة ، وهو المشهور بين القراء .

وقد قرن بين هذه السورة وقل يا أيها الكافرون في صلوات كثيرة لأنها مقشقتان : أي مبرثتان من الشرك .

أما الصلوات التي يقرأ فيها هاتان السورتان ، فنزل ركعتي الفجر عند غالب العلماء ، وركعتي الطواف ، وسنة المغرب . وزاد بعضهم وصبح المصافر ، ومغرب ليلة الجمعة .

هذا وقد جاء فيها أخبار كثيرة تدل على مزيد فضلها ، منها ما تقدم آتفا . وقد روى عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله إني أحب هذه السورة « قل هو الله أحد » ، قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة . وقد أخرج ذلك الامام أحمد في المسند عن أبي النضر عن مبارك ابن فضالة عن أنس . وذكر البخاري أن حبها يوجب دخول الجنة ، تعليقا ، وروى مالك عن عبد الله ابن عبد الرحمن قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت ، قلت : وما وجبت ؟ قال : الجنة . وأخرجه الترمذى والنسائي وقال حديث صحيح . وأخرج أبو داود وابن ماجه والترمذى عن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لقد سألك الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » . وقد قالوا : إن هذا أصح حديث ورد في اسم الله الأعظم .

وفي المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد ويقول : إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد

غفر له ، قد غفر له ، قد غفر له ! ثلاث مرات . وأخرج البخاري ومالك وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد ، يرددوها ، فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . وكاتب الرجل يتقلها ، أي يمدّها قليلا نظرا لقلة ألفاظها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » . وأخرج أحمد والنسائي في اليوم والليلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ قل هو الله أحد فساكنما قرأ ثلث القرآن » .

وبالجملة فقد جاء أنها تعدل ثلث القرآن في عدة أخبار مرفوعة وموقوفة . واختلف في المراد بذلك ، ف قيل المراد أنها باعتبار مساها ثلث من القرآن انجزا إلى ثلاثة أجزاء . وقد اختلفوا في بيان ذلك ، ف قيل : إن القرآن يشتمل على قصص وعقائد ، وهي كلها مما يتعلق بالمعاني ، فكانت ثلثنا بذلك الاعتبار .

وقال الغزالي في كتابه حواهر القرآن ما حاصله : أنها عدل ثلثه باعتبار أنواع العلوم الثلاثة التي هي أمهات القرآن ، وهي علم المبدأ ، وعلم المعاد ، وعلم ما بينهما . وقال بعضهم : المطالب التي في القرآن معظمها الأصول الثلاثة التي بها يصح الإسلام ويحصل الإيمان ، وهي معرفة الله تعالى ، والاعتراف بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد القيام بين يديه . وهذه السورة تفيد الأصل الأول ، فهي ثلثه من هذا الوجه . وفي الكشف أنها تعدل القرآن كله وهذا إن صح يقال فيه . إنها عدل القرآن باعتبار أن المقصود هو التوحيد وما عداه ذرائع له ووسائل إليه وفرع عنه . وقيل : المراد تعدل الثلث من حيث الثواب لظواهر الأحاديث . وصنف ذلك بعضهم قائلا : لا يجوز أن يكون المعنى : أنه أجر ثلث القرآن ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنة » فيكون ثواب قراءة القرآن تمامه أضعاضا مضاعفة بالسبعة لثواب قراءة هذه السورة . وقد أجاب الدواني عن ذلك بأن للقاري توابين تفصيليا بحسب قراءة الحروف ، وإجماليا بسبب ختمه القرآن ، فتواب « قل هو الله أحد » يعدل ثلث ثواب الختم الإجمالي لا غيره . ونظير ذلك ما إذا عين الإنسان أحدا يبني له دارا وله في كل يوم أربعة دنانير ويعوله إذا أعمه جائرة أخرى غير أحرته اليومية . وفي شرح البخاري للسكرماني ما نصه : « فإن قلت المشقة في قراءة الثلث أكثر منها في قراءتها فكيف يكون حكمه حكما ؟ قلت : يكون ثواب قراءة الثلث بعشر ، وثواب قراءتها بقدر ثواب مرة منها ، لأن التشبيه في الأصل دون الروايد » .

ولك أن تقول : لا مانع من أن يخص الله عز وجل بعض العبادات التي ليس فيها كثير مشقة بثواب أكثر من ثواب ما هو من جنسها وأشق منها بأصعاف مضاعفة ، وهو سبحانه الذي لا يحجر عليه ، ولا يتساهى جوده وكرمه وسعة تصرفه ، فلا يبعد أن يتفضل جل وعلا

على قارىء القرآن بكل حرف عشر حسنات ، ويزيد على ذلك أصعافاً مضاعفة جداً لقارىء الاخلاص بحيث يعدل ثوابه ثواب قارىء ثلث منه غير شتمل على تلك السورة ، ونفوض حكمة التخصيص الى علمه سبحانه . وكذا يقال في أمثال ذلك . وهذا مراد من جعل ذلك من المتشابه الذي استأنث الله تعالى بعلمه ، وليس هذا بأبعد من تخصيص بعض الأمانة والامانة المتحدة الماهية بأن للعبادة فيه ولو قليلة من الثواب ما يزيد ضمافاً مضاعفة على ثواب العبادة في مجاوره مثلاً ولو كثيرة ، بل قد خص سبحانه بعض الأمانة والامانة بوجود العبادة فيه ، وبعضها بحرمته فيه ، وله سبحانه في كل ذلك من الحكم ما هو به أعلم .

وقد روى في فصلها أحاديث ضعيفة وموضوعة ، والأحاديث الصحيحة الواردة فيها تمكن في فصلها ، بل قيل لذلك بها فصل سورة في القرآن . ومنهم من استدل عليه بما روى الدارمي في مسنده عن أبي المغيرة عن صفوان السكلاعي قال : قال رجل : يا رسول الله أي سور القرآن أعظم ؟ قال : قل هو الله أحد . وفي المسند من طريق معاذ بن رفاع وأسيد ابن عبد الرحمن عن عقة بن حامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في السورة والاحجيل واليوزر والقرآن العظيم ؟ قلت : بلى . قال : فأقرأني قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم قال : يا عقة لا تساهن ولا تنس ليلة حتى تقرأهن . وهذا وأمثاله يدل على أنها أفضل سور القرآن مطلقاً ، بل على أنها من الأفضل . وقال ابن الجصاص : المحب ممن يسكر الاختلاف في الفضل مع كثرة المصوص الواردة فيه .

واختلف القائلون بالتفضيل ، فقال بعضهم : الفضل راجع الى عظم الثواب ومضاعفة الأجر بحسب انفعال النفس وخشيتها وتدبرها . وقال بعضهم وهو وجه : إن الآيات التي تشتمل على تمديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته والدلالة على عظمته عز وجل أفضل ، بمعنى أنها أسنى وأجل قدراً مما لا تشتمل على ذلك .

وقيل : إن معنى الإصغالية أن القارىء يتعجل بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل ، ويتأدى منه بتلاوتها عادة ، كآية الكرسي والاخلاص والمودتين ، فإن قارئها يتعجل بقراءتها الاحترار مما يخشى ، بما فيها من الاعتصام بالله تعالى ، مع ما فيها من العبادة لله تعالى ، فإن فيها ذكره عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فيذكرها القارىء على سبيل الاعتقاد لها وسكون النفس الى فضل ذلك الله كروبوكنه ، وأما آيات الأحكام فلا يقع بنفس تلاوتها إقامة حكم وإعما يقع بها علم .

وبالجملة فالتفضيل بأحد هذه الاعتبارات لا ينفى كون الكل كلام الله عز وجل ، وأنه متحد النسبة سبحانه كما لا يخفى .

ولتقف هنا اليوم ، وموعدها العدد الآتي ، إن شاء الله ؟
 يونس بن مبرور
 عضو جماعة كبار العلماء

الشيعة

كسب الحلال والحرام

وما يتعلق بذلك

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال : « يا أيها
الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا
من طيبات ما رزقناكم » . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب ،
يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذاه بالحرام ، فأنى يستجاب
لذلك ؟ ! رواه مسلم والترمذى ، ونقله الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) بيان أن الرسل مكلفون بعمل
المباحات كغيرهم (٣) ما المراد بالطيبات من الرزق ؟ (٤) بيان أن أكل الحرام وشربه ولبسه
يحول بين العبد وخالفه .

١ - أما معنى هذا الحديث إجمالاً فهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبحث أمته
على البر ومكارم الأخلاق ، في كل شأن من شئون هذه الحياة الدنيا . وبما لا ريب فيه أن خير
البر وأنفعه للمجتمع الإنساني هو أن يسلك كل فرد من الأفراد المكلفين سبيل العفة والعدل
في كل ملاذ وشهواته ، فينجب في مطعمه ومشربه وملبسه ووسائلها كل بني وعدوان ،
فلا يأكل إلا حلالاً ، ولا يشرب إلا حلالاً ، ولا يستمتع إلا بالحلال .

وقد يجيل للإنسان أن ملاد الحياة الدنيا ومطالبها كثيرة لا تنتهي إلى غاية ولا تقف عند
حد ، فيساق بموامل هذه الملاذ إلى التفاضل الدائم والجهاد المستمر في سبيل تحصيلها والوصول
إلى أقصى حد ممكن منها ، ولكن العاقل حقاً إذا أضمن النظر في شهوات هذه الحياة الدنيا
وملاذها يجد أنها منحصرة في دائرة ضيقة لا تستلزم الخروج عن السبيل القويمة التي أمر الله عباده
بسلوكها في تحصيل هذه الشهوات ، ولا محتاج إلى ذلك الصراع الذي كثيراً ما يذهب بكرامة
الإنسان ومروءته وهو غافل لاه . ويمكن حصر مهام لذات الحياة الدنيا في شهوات البطن

والفرج وما يستلزمه من مال وجاه وذرية وغير ذلك . والى هذا يشير قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، والغليل المسومة ، والأنعام ، والحرث » .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن معظم الشهوات التي يفتتن بها الناس في حياتهم الدنيا هي هذه الشهوات ، فهي محبة الى الانسان بطبيعته ، ومع ذلك فهي مريئة له بموامل مختلفة ، ولذا لم تصرح بالتفاعل الذي رينها لأنها متنوعة بتنوع تلك الشهوات مثلا : شهوة النساء قد حببت الى الانسان بفطرته ، ولكن لا يزنها له ولا يدفعه الى تحصيلها إلا ما يراه من جمال المرأة ، واستعدادها لقضاء تلك الشهوة ، فلو عاش الرجل بعيدا عن النساء لا يكون لتلك الشهوة سلطان عليه . وكذلك شهوة المال محبة الى الانسان ، ولكن لا يزنها له إلا ما يترتب على المال من قضاء ما رُب وغايات لا يمكن الحصول عليها إلا بالمال . وهكذا جميع الشهوات اللازمة لطبيعة الانسان ، فهي محبة اليه بفطرته ، ومريئة له بمعامل قسوى يسوقه اليها . ثم إن كانت هذه الموامل مشروعة يقرها الدين كانت هذه الشهوات ممدوحة ، وإلا كانت من شر الآفات المنفومة .

وقد أشارت الآية الكريمة الى أن هذه الشهوات المحبوبة للانسان بفطرته متاع الحياة الدنيا وزينتها ، ومهما بلغ من أمرها فانها منقطعة لا تدوم ، بل هي متاع قليل إذا قيس بالنعيم الدائم الباقي يوم القيامة ، كما قال سبحانه في آية أخرى : « قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى » . فينبغي للعقلاء أن يقفوا عند الحد المباح لهم ، ويعلموا أن الخروج عن ذلك الحد موجب للشقاء والحرقان من النعيم الخالد الذي أشار الله اليه بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله صده حسن المآب . قل أؤنبشكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ، ورواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالمعاصي » . فليوازن المستقيم العادل الذي لا يحتل أبدا هو اتباع أوامر الدين ، واجتناب نواهيه في متاع الدنيا وشهواتها .

ولقد بين لنا الحديث الذي معنا أن شهوة البطن واللباس وما يستلزمه من مال وبيع وشراء يجب أن تكون مقصورة على الحلال الطيب ، فلا يحل لأحد أن تدفعه شهوته الزائلة الى عصيان الله والخروج على النظم الاجتماعية الصالحة التي أمر الله بها عباده على اختلاف درجاتهم ، فإن من تطفئ عليه شهوته وتدفعه الى الاعتداء على الناس في أموالهم وأوراقهم بدون حساب كان مصيره الى الهلاك العاجل ، والمذاب الدائم ، والحرقان من النعيم الخالد . وقوله : يطيل الرجل السفر الخ كناية عن إظهار الزهد ابتغاء رضوان الله .

٢ - أما كون الرسل مكلفين بعمل الصالحات كغيرهم من الأفراد ، فذلك مما لا نزاع فيه ، بل هم معصومون عن الموبقات والكبائر قبل البعثة وبعدها على الصحيح ، لأن الكبائر إما أن تكون شركاً وهو أكبر الكبائر ، وإما أن تكون غيره كالقتل والزنا والمردة ونحوها . ولا ريب في أن الأنبياء الذين اصطفاهم الله من خلقه لا يصح أن يدلّسوا بشيء من هذه القافورات ، لا قبل البعثة ولا بعدها . أما بعد البعثة فالأمر ظاهر ، لأنهم بعثوا لإرشاد الناس ، والمرشد الذي ينصبه الله قدوة لعباده لا بد أن يكون طاهراً مطهراً ، فلا يهين الناس عن خلق قدّر ثم يفعله هو ، فإن ذلك موجب لا نصراف الناس عنه ، وفشل في وظيفته التي بعثه الله من أجلها لا محالة . وأما قبل البعثة فلأن المرشد الذي له ماض شئ يحتقره الناس ولا يصغون إلى دعوته ، ويقولون له : ما شأنك وأنت منغمس في الخصال التي تأمرنا بالكف عنها ؟ ! فلذلك كان من الضروري أن يمسم الله رسله الذين يعلم أنه سيرسلهم كما قال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

نعم . قد ورد في القرآن ما يفيد ظاهره أن بعض الأنبياء قد عصى ربه ، وألكنها جميعها لا تحل بمقامهم الكريم ، بل هي في الواقع صغائر صدرت منهم عموا ، وقد مجدهم الله في كتابه تمجيذاً يدل على أن كل ما صدر منهم كان أمراً سورياً ، ومن ذلك ما قصه الله علينا من عصيان آدم حيث قال : « وعصى آدم ربه فغوى » ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . فالغواية والتوبة يدلان على أنه ارتكب كبيرة مع كونه رسولاً . والجواب عن هذا ظاهر . وهو أن آدم عليه السلام فهم أن أمره بالكف عن الأكل لم يكن للوحوب ، وذلك لأن أكل الثمر من حنة ملكه الله بإيها ليس تقيصة في ذاته ، وإعما وصمه بالعصيان ، ووصف استغفار آدم بالتوبة ، لأن اللائق بمقام الأنبياء أن لا يخالفوا أمر الله تعالى ولو كان للتدب . والواقع أن آدم قد فعل ما ترتب عليه نظام الله في الخليقة ، فكان عمله لازماً لا بد منه ، وإعما به الله في الظاهر للإشارة إلى أن النوع الإنساني سيكون على هذه الحال . من عصيان ربه تارة ، والرجوع إليه تارة أخرى ، وأنه سبحانه يقبل من يرجع إليه ويحببته ويغفر له عصياناً ، فما وقع من آدم إنما هو حكاية لصورة حقيقية لذلك النوع ، وتمثيل صادق لما سبق منه في حياته الدنيا ، وذلك أمر لا بد منه قد منه الله تعالى في خلقه ، ولن نجد لسنة الله تبديلاً . فآدم وإن خالف الأمر في الظاهر ، ولكنه فعل ما لا بد منه في الواقع ، ولذا قد امتدحه الله بعد ذلك فقال : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

أما ما وقع من موسى عليه السلام من قتل القبطي فإنه كان خطأ لا شك فيه ، لأن الوكر باليد مرة لا يراد به القتل حتماً . وعلى هذا القياس في كل ما ورد من ذلك مما لا محل لذكره الآن . فالأنبياء مكلفون كغيرهم ، بل كان رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم مكلفاً أكثر من أمته ،

فكان مفروضاً عليه قيام جزء كبير من الليل ، وكان يعدد الله أكثر من أصحابه ، حتى قال له بعض أصحابه : إني أريد أن الله أكثر منا مع أن الله قد غفر لك ما تقدم وما تأخر ، وهمتوا أن يفعلوا مثله ، فنهاهم عن ذلك ، وقال : إني أريدكم بعظمة الله ، وأشدكم خشية له ، وذلك من أكبر العوامل الباعثة على العمل بدون مشقة ولا ملل ، فإذا قلتم نحوى ملهم العمل وضعفتم عن القيام به .

٣ - أما المراد بالطيبات من الرزق ، فهو كل ما لم يحرم الشريعة الاستمتاع به من أكل وشرب ولبس وغيرها ، على أن تسكن إليه النفس وتطمئن به ، كما قال صلى الله عليه وسلم : البر ما أطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم عكس هذا

على أن الفقهاء قد بينوا ما يحل أكله ولبسه وشربه وبيعه وشرائه وإجارته ونحو ذلك بيانا تاما ، فشرحوا الأحاديث الصحيحة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيع والشراء والإجارة ونحوها أحسن شرح ، واحتجوا في فهمها احتجادا يدل على ما لم يرد في ذلك وطنة في فهم معاني القول وإدراك ما يدرم لتطبيقه على أحوال الأمم ، وأبانوا ما يحل أكله وشربه وما لا يحل ، على وجه صالح مناسب للناس مع تفاوت حالهم واختلاف طبائعهم .

فأحل المالكية أكل كل شيء طاهر لا تعافه النفس ولا يضر بالبدن ، إلا بعض أشياء قد اختلفوا فيها ، منها الحر الأهلية والحليل والفسال ، فاشتهر عندهم تحريمها لما ورد فيها بخصوصها . وبعضهم يقول : إن الحر الأهلية والفسال مكروهة ، والحليل مباحة وذلك هو المشهور عندهم . ونظر المالكية يقول : إن جميع الحشرات من الخبائث لا من الطيبات ، فلا يحل أكلها وبالجملة ، فالمالكية توسعوا في معنى الطيبات من الرزق ، فأحلوا كل طاهر لا يضر أو يتعلق به حق الغير ، واختلف علماءهم في الحشرات ونحوها . على أن الظاهر يؤيد من يقول بتحريمها لأنها من الخبائث حزما عند ذوى العقول السليمة .

أما الحممية فقد حرموا أكل كثير من الحيوانات قالوا إنها من الخبائث ، ومنها سباع الهائم كالسبع والمر والصبع ونحوها ، ومنها سباع الطير كالخدعة والغراب الخ ، وأحلوا أكل الخبيل بدون كراهة . ومن أراد أن يعرف ذلك مفصلا في المذاهب فليرجع إلى أول مباحث الجزء الثاني من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة

٤ - كل من عرف الشريعة الإسلامية وآدابها ، ونظر إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة صادقة صحيحة ، لا يسهه إلا أن يجزم بأنها مرتكزة إلى إله عليم خبير لا تخفى عليه من أحوال عباده خافية ، فقد اشتملت على كل ما فيه صلاح الإنسان في معاشه ومماده في جميع أطواره ، ففتيت بمحاربة الشهوات الفاسدة وطفيلاتها عناية عظيمة ، ووضعت لما يترتب عليها من آثار ظلمة حدودا فاصلة واضحة ، ولم تترك نوما من الأنواع اللامة لحياة

المجتمع إلا وضعت له حدودا سالقة ، وحرمت مجاوزة تلك الحدود والخروج عنها تحريما غليظا ، فكانت مسار هداية للتنوع الانساني في كل زمان ومكان . على أننا ذكرنا فيما مضى أن العقوبات التي وضعت في تأديب العصاة والمجرمين الخارجين على حدود الله تنقسم الى أقسام ، فمنها ما هو محدود ، ومنها ما هو متروك لحالة الأمة واختلاف طبائع أفرادها ، ومنها ما هو متروك للعقوبات الآخروية التي هي أشد وأسى من عقوبات الدنيا وهذا الحديث الذي معنا دلنا على نوع آخر من العقوبات قد يخفى أمره على كثير من الناس ، وهو أن الجرائم التي يفلت صاحبها من الحد والتعزير في الدنيا قد لا يفلت من عقوبة الله العاجلة في الدنيا أيضا ، فقال لنا : إن الذي يأكل الحرام ويشرب الحرام ويلبس الحرام لا يستجيب الله دعاءه في الدنيا ، فإن أكل الحرام يترتب عليه قسوة القلب وغفلته عن عظمة خالقه ، وذلك ينافي الخضوع اللازم للدعاء ، فمن أراد أن يناجى إلهه القاهر فوق عباده ويقف مستحضرا عظمته وقدرته على كل شيء ، فإنه يجب أن يكون خاليا من الأقدار التي نهاه إلهه عنها ، ولذا قال بعضهم : إن من شروط قبول الدعاء أن يكون المرء سليما من أكل السحت ، فمن تمعد أكل الحرام أو لبس الحرام أو شرب الحرام فإن ذلك يحول بينه وبين خالقه ، ومن أراد أن يقبله الله ويستجيب له فليتب من ذنوبه توبة صادقة ثم يقف بين يديه خاشعا خاضعا تائبا مادما ، فإن الله تعالى يقبله ويحبه ، لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين .

عبر الرسمه الجزيري

الرجل بعلمه وأدبه

دخل كثير بن عبد الرحمن على عبد الملك بن مروان فافتحمت عينه انقصه ، فأدرك ذلك كثير ، فانشده للعباس بن مرداس :

تري الرجل الضعيف فتدريه	وفي أثوابه أسد هصور
ويمجيك الطير فتبتليه	فيخلف ظبك الرجل الطير
بغات الطير أطولها رقبا	ولم تطل البراة ولا العقور
وقد عظم البعير بغير لب	فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصغير بكل أرض	ويثله على الخسف الجير
ينسوخ ثم يضرب بالهراوى	ولا عرف لديه ولا كير
فأعظم الرجال لهم زين	ولكن زينهم كرم وحير

فقال عبد الملك : قاتله الله ما أطول لسانه ! وأمر له بصله حسنة .

حوالى الغزوات

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طائفة من الحبشة جاءوا الى ساحل البحر قريبا من حدة يريدون قطع الطريق ما بين مكة وحدة ، فأرسل اليهم سرية (١) تحت إمرة علقمة ابن مجزرة في ثلثمائة من أصحابه ، فلما رأوا الجيش مادوا الى سراكبهم منزهين ، ولم يلق علقمة كيذا ولما أراد الرجوع بالجيش طلب منه جماعة ممن معه أن يأذن لهم بالتصحيل الى أهلهم ودورهم ، فأذن لهم ، وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي ، وهو من قدماء المهاجرين ، وكانت فيه دماية ، فلما سار عن معه زلوا ببعض الطريق طلبا للراحة ، فخطر لعبد الله أن يختبر طاعتهم له ، فقال لبعض من معه : أوقدوا نارا ، فأوقدوها ، فقام فيهم خطيبا وقال : عزمت عليكم إلا توائمت فيها . فقال بعضهم لبعض : نهانا ربنا عن النار فلما لنا بالدخول فيها ؟ وهم آخرون بإلقاء أنفسهم محلا بالطاعة . فلما رأى عبد الله منهم ذلك قام فيهم خطيبا وقال : ارجعوا فاني كنت أصرح وأختبر طاعتكم لي ، ثم واصلوا السير حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بكل ما كان من أمر الحبشة ، وأمر عبد الله بن حذافة ، وما اختلفوا فيه . فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » من أمركم بمعصية فلا تطيعوه .

ومن الحوادث التي كانت لعبد الله بن حذافة أنه أرسله عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع الجيش لحرب الروم ، فأمره ملك الروم ومعه جماعة من أصحابه ، وقال الملك ائتوني بمبد الله بن حذافة وأصحابه ، فلما كلمه قال له الملك : يا حذافة تنصر وأنا أشركك في أمرى . فأبى عبد الله أن يجيب الى ما طلب ، فقال الملك : خذوه واصلبوه ، فلما هموا به بكى عبد الله بن حذافة ، فقال الملك : ردوه الى ، فلما دنا منه قال له : لم بكيت ؟ فقال عبد الله : تخبت أن لى مائة نفس تصلب في سبيل الله ا فقال الملك : عجبا لك يا ابن حذافة ، قد عفوت عنك ، ولكنى آمرك أن تقبل رأسى وأحلى سبيلك ا فقال له عبد الله بن حذافة : إن كان لابد من ذلك فتخلى سبيلي وسبيل من معى من الأسرى إخوانى ا فقال له الملك : قد فعلت ، فقام عبد الله وقبل رأس الملك وأحلى سبيله ومن معه من الصحابة ، وشدت رجال القوم وعادوا الى المدينة يطلبون دار عمر ابن الخطاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخلوا عليه وقصوا عليه القصص قال له عمر : نجوت وأصحابك بتقبيل رأس ملك الروم ، والله لأقبل رأسك يا عبد الله ، وقام عمر رضى الله عنه وقبل رأس عبد الله بن حذافة مكافأة وشكرا له على حسن صنيعه ا

في شهر ذي القعدة من سنة تسع لـحجرة النبي صلى الله عليه وسلم مرض عبد الله بن أبي
ابن سلول رعيماً المفاقيين ، ولما نزل عليه المرض ويئس منه من حياته ، وكان صادقاً في إسلامه ، توجه
إلى رسول الله وقال : يا رسول الله إن أبي حضرته الوفاة ، وأرجو أن تعطيني قبضك لا كفه فيه ،
وأن تشهد جنازته وتصلي عليه إذا مات . وبعد فترة من الزمن أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم : أن زرتني فاني مريض . فعاده النبي بحاملة لابنه وتطييباً لحاظره . فلما
دخل عليه قال : يا رسول الله استغفر الله لي ، فاستغفر له ، ولم يلبث أن مات بعد ذلك بعد أن أكد
في طلب القميص بعصر من قومه وشيعته ، وشيع النبي صلى الله عليه وسلم جنازته . ولما
تقدم للصلاة عليه وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : يا رسول الله أتصلي عليه وهو القاتل
فيما مضى : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ؟ يا رسول الله أتصلي عليه وهو القاتل
« ليغرح الأعر من الأهل » ؟ يا رسول الله كيف تستغفر له وقد نهاك ربك عن الاستغفار له
ولم هو على شاكلته ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عمر قد حيرني الله بين الاستغفار
وتركه ، فقال : « استغفر لهم أولاً لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ولو كنت
أعلم أن الريادة على السبعين تنفعه لودت . إني لأرجو أن يسلم ألف من قومه ، أما إعطائي له
قميصي فما يغني عنه قميصي من الله ؟ ولما رأى المفاقون ما فعل زعيمهم من طلب الاستغفار
وطلب القميص قالوا إن عبد الله بن أبي كان يخدعنا ، إذ لو كان محمد كاذماً كما يقول فما باله
يطلب منه الاستغفار ويستشفع بقميصه عند الله ؟ ثم صلحت قلوبهم بما رأوا من حرص
رسول الله صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ، وحمه وكرمه ، فأسلم ألف منهم .



في سنة ست بعد عودة النبي عليه الصلاة والسلام من صلح الحديبية إلى المدينة كانت
حادثة تخفيف حكم الظهار ، وكان من قبل يقع به الطلاق . وسبب ذلك أن أوس بن الصامت
غضب من روجه حولة بنت ثعلبة وطالت الشجاء بينهما ، فقال لها : « أنت على كظهر أمي »
ثم تدم على ما فرط منه ، وكان كفيف البصر ، فدأب بمكي ، فتأثرت لذلك زوجته وكانت ابنة
عمه ، فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبكي حالها وتسأله أن ينظر في أمرها ، فقالت :
يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا ذات مال وأهل ، فلما أكل مالي وذهب
شبابي وتفرق أهلي ظاهراً مني . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : قد حرمت عليه . فزاد
نكاؤها وقالت : أشكو إلى الله فقرى وفاقي ووحدي وأمر صبية صفار إن صممتهم إليه صاعوا ،
وإن صممتهم إلى جاعوا ! فقال لها النبي ما أراك إلا حرمت عليه . عند ذلك عاثت
أم المؤمنين رضى الله عنها خلوة : ورايك (أي لا تكثري في الحاج) . فصاحت خولة وقالت :
أشكو إلى الله ، إن ربي بحالي عليم ! ثم ولت غير واحدة حلالاً لما نزل بها .

وما كادت تولى حتى جاء الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سرى عنه تبسم وقال : أين خولة ؟ فبى ، ها ، فقال لها : يا خولة قد سمع الله شكواك فأحضرى زوجك لسمع كلام الله . فأحضر أوس ، وإذا هو شيخ كبير جاء برعش من الكبر وعليه ثوب خلقة ، فلما دنا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له النبي : يا أوس نزل في أمركما قرآن وسيكون حكما ورحمة للمؤمنين ، ثم تلا عليه الآيات : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، ونفسكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سمع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى وكدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير ربة من قبل أن يتاسا ، ذلكم توعدون به والله بما تعملون حدير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتاسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لثمة نوا الله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » ثم بعد أن قرأ رسول الله الآيات قال : يا أوس أعنق رقة . فقال أوس : مالى على هذا قدرة ، فقال له رسول الله : فصم شهرين متتابعين ، قال أوس : إني إذا لم أكل في اليوم المرة والمرة ينشئ على . فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : يا أوس إذا لم تستطع فإطعم ستين مسكينا . قال أوس : لا أحد من ذلك شيئا إلا أن تعينى بعون منك يا رسول الله . فأما رسول الله بخمسة عشر صاعا ، وكان عند امرأة أوس مثلا فإطعمت ستين مسكينا لكل مسكين نصف صاع . ولما صممت عائشة رضى الله عنها الآيات وما حادت به من دفع الحرج عن المسلمين بسبب خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس الفقير الحرم ، قالت تبارك الله الذى وسع علمه كل شيء ! كنت أسمع كلام خولة ويخفى على بعصه وهى تحاور رسول الله ، فما برحت حتى نزل جبريل بالوحى فى شأنها .

وخولة هذه التى كانت سببا فى تشريع جديد لها ولجميع المؤمنين عاشت الى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . فبينما هو يعيش فى جمع من الناس إذ سمع من تقول له : فف يا عمر ! فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ، فأماالت الوقوف وأغلظت له فى القول . ثم حولت الكلام الى الوعد والارشاد ، ثم حثت حديثها بقولها : اتق الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه العبد ، ومن خاف الموت خشى الموت ، فمعجب الناس من قولها وجرائها ! فزحزحها أحدم بقوله : قد أكثرت أيتها المعجوز على أمير المؤمنين ! وقال آخر : يا أمير المؤمنين حصلت الناس من أجل هذه المعجوزة ! فقال له عمر رضى الله عنه : ويحك أتدرى من هذه ؟ قال : لا . قال عمر : هذه امرأة قد سمع الله شكواها من فوق سبع سموات . هذه خولة بنت ثعلبة زوج أوس ، والله لو لم تنصرف عني الى أهيل ما انصرفت حتى تنقضى حاجتها !

من خطاب الوكيل

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

فِي الرِّضَاعِ

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر السؤال الآتي :

رضعت طفلة من والدتي أثناء رضاعتي ، ولما كبرت هذه الطفلة وتزوجت أحببت بنتين ، فهل يجوز لأخي أن يتزوج بإحدى هاتين البنيتين ، وعلى أي مذهب يجوز ، مع العلم بأنني شافعي المذهب ؟

الجواب :

مضى كان الرضاع قد حصل في مدته المعينة له شرعا ، لم يكن لأخ السائل أن يتزوج بإحدى هاتين البنيتين ، لأنها حينئذ تكون بنت أخته من الرضاع . وقد اتفق الأئمة على حرمة التزوج ببنت الأخت من الرضاع ، غير أن الشافعية والحابلة لا يجمعون الرضاع محرما إلا إذا بلغ عدده خمس مرات فأكثر ، أما الحنفية والمالكية فقليل الرضاع وكثيره سواء عندم في التحريم . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النحام

جولة علمية مع الماديين

للماديين كلف شديد بإثبات مادية الكون ومادية الإنسان ، فالمادة عندهم هي الأول والآخر والظاهر والباطن ، منها نقات الكائنات والباها تمود . وما يقال من وجود حلق للكون وروح للإنسان ، وحياة بعد هذه الحياة فكلها في رأيهم أهواء وأوهام ، جسمها الخيال فصارت عقائد للناس ، وتوارثوها جيلا بعد جيل حتى أصبحت لديهم في عداد الأمور الفطرية ، وما هي في الواقع إلا من توليدات القوة الخيالة التي لا تقف أفاعيلها عند حد (١)

نافسا هؤلاء الماديين في ضروب شتى من البحوث في هذه المجلة ، وزيد اليوم أن نقاشهم في حقيقة الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، فاهم يدعون أنه لا خير في ذاته ولا شر في ذاته ، وإنما دعا الإنسان الى هذه التسمية والفرقة نسبة الأمور الى مصلحته الذاتية ، فما واقعها اعتبره خيرا وما خالفها عده شرا ، أما أن للخير أصلا طبيعيا مطلقا فلا .

قال الفيلسوف الألماني المادى (بوختر) : الوجدان الخلقى ليس شئى غير العادة التي أوجبها على الشخص المكان الذي يعيش فيه ، وأرسخها فيه شعوره بوجود تطبيق أعماله على الحاجات الاجتماعية ، فالخير ليس له أصل مطلق ، ولكسه هو الخلق الذي ينطبق على حاجة النوع الانسانى في أدوار ترفيه وتهذه ، فهو مرتق مع النوع الانسانى لا محالة ، وعليه فقد يعتبر الشر خيرا وبالعكس على حسب الحاجات الوقتية .

وعليه فالمجرم الذي يعاقب على جنائنه ليس هو بجاني في الواقع ، ولش عاقبته الهيئته الاجتماعية فأنما تعاقبه لأنه أصبح خطرا على نظامها الحيوى . ولها الحق في معاقبته لأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد .

هذا ما يقوله بوختر في كتابه (المادة والقوة) ، وعليه جميع الماديين ، لأنهم لما أسكروا الخالق والروح والسم الروحاني لم يجدوا مرادا للخير المحض يرتفعون به إليه ، ويحملونه مصدرا له ، ومادام الوجود وكل ما فيه ومن فيه مادة ، ومظاهر مختلفة للمادة ، صار القول بوجود خير وشر مطلقين كالقول بوجود عدل وظلم وهما في وهم .

هذه الصلاوات الخيالية التي كان لها السلطان المطلق في القرنين السابقين عدا أصحاب الفلسفة التي دعوها علمية ، تسربت الى عقول الناس على درجات متفاوتة من الإجمال والتفصيل ، فكانت سببا في حرم الى التهاون في أصول الأخلاق ، وفي سلوك سبيل الاباحة في الشهوات والمطالب الجسدية . وما تصادفه اليوم من ظلمات عملا الصدور ، وشكوك تحيك في النفوس ،

ويأس ينجم على القلوب ، وإفراطات تسوق الأفراد والجماعات الى الانحلال ، وتخقر الشيب والشبان الى الجسويات ، كل هذه الشرور من آثار هذه الصلاات الخطيرة التي كان الغرور العلمي سببا لوجودها في القرنين الماضيين .

لننظر في هذه المسألة الخطيرة نظرة هادئة مترنة لندرك موقعها من العلم ، ومكانها من الفلسفة فنقول :

أما السبب في نشوئها فقد ذكرناه ، وهو إسكارهم للصدق وللعالم الروحاني ، ولاعتقادهم بشرل الوجود وما فيه عن الاتفاق والخط ، لا عن قدرة خلقة ، ولا عن إرادة ولا اختيار ، فشكل ما ينشأ من الأصول الأدبية في حالة كهذه يكون مرده في نظرم المصلحة المادية ، فإذا تعدتها الى غرض أسمى منها اعتبروا ذلك وهما من أوهام القوى المفكرة ، وترصوها أن يصل أصحابها الى مستوى رفيع من العلم ، فيلقوا بها في مستودع الأساطير الجاهلية .

أما موقعها من النظر ومكانها من الفلسفة فما يوجب لأصحابها التحجل والغدلان . ذلك أن الماديين ضيقوا دائرة الحكم على ما هو حير ، فخلوه محصورا في الحاجات الانسانية ، ليسوع لهم أن يقطعوا الصلة بينه وبين أصل له عام ثابت في الكون . وهذا الخصر منهم تحكم لا مبرر له ، بل تنفيه المشاهدات الحسية . فإن الانسان جزء من الكون ، وأحواله وشئونته مرتبطة بمجواته ارتباطا وثيقا . فاهيك أنه خاضع للقوة السائدة في الكون خضوع كل ذرة فيه لها . فكان يجب على هؤلاء الفلاسفة أن لا يجعلوا مرد الحكم على أمر ما حير أو أثر مصلحة الانسان وحده ، ولكن مصلحة الكون كله . إذا فعلوا ذلك تحلى لهم أن الخير أصلا مطلقا ثابتا هو المثل الأعلى الذي يجب أن تتوجه اليه كل الكائنات العاقلة التي أطلقت لها حرية العمل ، وطلب اليها أن تصل الى كمالها من طريق الترقى التدريجي ، والتطورات المتتالية .

والذي يدل على وجود الصلة بين الخير العام المطلق الموجود في الكون ، وبين الحياة الانسانية الذي يصرّب الماديون المثل بها في نبي الخير المطلق ، أن الجماعات غير حرة في اختيار أي أسلوب كان للحصول على ما تنغيل فيه مصلحة لها . فمن الذي يستطيع أن يقول إن الجماعة التي ترى من مصلحتها أن تطبق لأفرادها العنان في الاباحة الخلقية ، والوحشية الحيوانية ، تأمن على وجودها أمن جماعة أخرى تضع للشهوات ما يمدّها ، وللجاهلية ما يطفئها ؟ وهل هذه الأخيرة مهما ارتقت عن تلك تبلغ مكانة جماعة نالته تكون للاخلاق فيها صولة ، وللعوم والفنون دولة ؟

دع هذا جانباً ، ولنفتحص جماعة في قاصية من الأرض غير متصلة بغيرها ، لا تحشى أن تحنك بها جماعة أكل منها ، فهل يتركها الوجود حرة في اختيار أي أسلوب كان لحياتها ، ولو كان أسلوبا حيوانيا بلحنا ؟

لا ، ولا عبرة بطول الآماد التي تبقى فيها على حالتها ، فلا بد من أن تصطرها طبيعة الوجود الى الترقى أو الى القناء ، ولو كان غير هذا ممكنا لرأيتنا مائلا في العالم الانساني أمام أعيننا ، وهذه الجماعات المنحطة قد وقعت كلها في قبضة الجماعات الراقية ، فما كان منها قابلا للارتقاء أخذ في أسبابه وتابع انتقالاته ، ومن امتنع على الترقى أخذ في التلاشي ، وآثار هذا التلاشي محسوس بها في جميع الجماعات التي أتت الاقياد لأموس الانتقال ، كتوحشي أمريكا واستراليا وغيرهم ، فان الاحصاءات تسجل عليهم في كل سنة نقصا مطردا في الأرض والثمار .

فهل ما عليه الوجود من النظام الشامل ، والابداع الكامل ، وما فيه من عوامل الترقى وفواعل التربية والتكثير ، يعتبر خيرا أم شرا ، أو لا يصح أن يوصف بوصف أصلا ؟

إنه لا يمكن أن يعتبر شرا بحال من الأحوال ، ونعته ما نراه من الابداع والابداع والتربية والتكثير ؛ ولا يمكن كذلك أن لا يوصف بوصف أصلا ، لأن شانه يتعلق بمحوادث لها فواعل ثابته وآثار محسوسة طاهرة ، وهذه الفواعل لا يعقل أن لا توصف بوصف ، وقد وصفها الماديون أنفسهم فقالوا إنها بواميس منتظمة ، لا يصدر عنها إلا آثار منتظمة ، وإذا كانت هي مصدرا لكل نظام وابداع ، وفي ترابطها وتكافؤها مظهرا لكل تناسب وتوافق وإتقان ، وفي آثارها وتنوع موجوداتها أصلا لكل علم ، ونموذيا لكل فن ، ومثلا أعلى لكل خلق سام ، أفلا يجب أن توصف بأنها خير محض ، وكال بحث ؟ فإذا عسى أن يكون الخير إذن إذا لم يكن ما قام عليه الوجود من النظام التام ، والعدل المحض ، والجمال المطلق ؟ فكيف والحالة هذه يدعى الماديون أن ليس للخير أساس يستند اليه ، ولا للشر مظهر يدل عليه ؟

هل مما يناسب للنظام العام للوجود ، أن يقوم الناس على أي خلق كان على شرط أن يلائم مصلحة الجماعة دون نظر الى أي اعتبار آخر ؟

لا يقول بهذا أحد من عماء الاجتماع ، ولكنهم يقولون إن الجماعة لا ينظم أمرها إلا إذا قامت على سن الاجتماع ، وقد اكتشف العلم له سنا طبيعية ، وهي تقضى بالتكافل والتعاون ، والحكم بالعدل ، واحترام مبدأ المساواة ، وتسويد الحق على القوة ، وبأن الأمم التي لا تقوم على هذه الأصول حق القيام لا تزال غثلة النظام ، معتلة الكيان ، حتى تضطرها الأحداث والمثلات للقيام عليها ، وكلما انحرفت عنها قيد أعلة أصابها من جراء ذلك الانحراف بقدره حزاء وفاقا

وما يصدق على الجماعات يصدق أيضا على الآحاد ، فان كل انحراف يتلبس به الانسان في جنب جسمه أو خلقه أو عمله ، يصيبه بقدره من مناعب الحياة وما رم العيش حتى يؤب الى الصراط المستقيم .

هذه حقائق مذهية ، لا تتطلب تأملا ولا تأولا ، فهل مع هذه القيود كلها يمكن أن يقال

إنه لا توجد في الكون حالتان متناقضتان ، من مظاهر إحداهما الائتلاف والالتئام ، والانساق والظام ، والتقدم والتكامل ، وبلوغ الغايات البعيدة من الكمال والجمال ، ومن مظاهر الأخرى التبدد والتفرق ، والقهقري والنكوص ، والاصحلال والتلاشي ؟ فهل بعد هذا يمكن أن يقال أنه لا أصل للخير ولا شر على وجه الإطلاق ؛ وإن الخير هو ما عاد بالصلحة على المجتمع ، والشر ما عاد بالضرر عليه ؛ وإن القاتل لا يعتبر جانبا إلا بالنسبة إلى أثر فعله في المجتمع ؟

لقد خلق الإنسان مغطورا على الارتياح لرؤية كل ما هو متناسب الأجزاء ، متناسق الأبعاد ، والنفور من رؤية كل ما هو مشوش الأوضاع ، غير متسق التركيب ، وقد عبروا عن النوع الأول بالجمال وعن الثاني بالقيح . هذا الارتياح والنفور شعوران لا يمكن أن يكونا مكتسبين لقدمهما في النوع البشري ، ووحدتهما في جميع أفرادها .

نعم إن تقدير الجمال والقيح يختلف عند الجماعات المختلفة ، فما يمدح بعضهم جيلا ، وقد يمدح البعض الآخر عابدا ، ولكن هذا الاختلاف لا يقع على العناصر الأولية المسكونة للجمال وهي التناسب والتناسق ، ولكن يقع على أمراض تختلف فيها أذواق الناس من طول وقصر ولون وسمت . وهذا لا يقدح في كون الإنسان مغطورا على التفرقة بين ما هو حسن وما ليس بحسن ، وهذه الفطرة لا تسمح لأي مادي مهما كان شديد الشكينة أن يدعي أن الحاني لا يعتبر جانبا إلما يؤدي إليه فعله من الأثر في الجماعة التي ينتمي إليها . فلو قابل أحد المتوحشين رجلا يحمل طعاما فقتله وغنم ما كان معه ، فقد لا يمدح هذا جنائية في نظر مواطنيه ، وقد يمدح بطولة أيمما . ولكن هذا الاعتبار الوحشي لا يسمح لنا أن نبنى عليه أية نظرية فلسفية ، فإل حال المتوحشين الذين استوعبت حاجتهم الغذائية كل عقولهم ، وطفقت صفاتهم الحيوانية على إنسانيتهم ، لا يصح أن يتخذ دليلا على حقيقة الغرائز المدوعة في صميم النوع البشري ، كما لا يصح أن نعتبر أخلاق الطفولة دليلا على أخلاق الإنسان الكامل التكويني .

فإذا تركنا المتوحش جانبا ودرسنا الإنسان في أطوار شتى من حياته وجدنا براعم الغرائز المفروسة فيه تتفتح يسيرا يسيرا ، وتمتد على زمام سيرته فتقوده إلى مقتضياتها قيادة قاهرة ، كما تتفتح براعم الرجولة يسيرا يسيرا في الطفل ، وتقيم على سفنها إقامة آليسة ، والمتوحشون أطفال النوع الإنساني مهما طال عليهم الأمد في تلك الطفولة .

وإذا نظرنا إلى الجماعات البشرية عند ما تبلغ أشدها ، رأينا أنه تتولد فيها تقديرات مختلفة لما هو حق وما هو باطل ، وما هو مباح وما هو محرم ، بل ما هو إنساني أو حيواني ، فالمدعي يدعي أن هذه الشعورات صناعية اقتضتها طبيعة الاجتماع ، فإذا اعترضت عليه بأن هذه الجماعات تعم تطبيقها ولا تنحصر بها مجتمعا ، فتأخذ تقمصها بأداب عامة حيال النوع البشري بأكمله ، وحيال الحيوانات أيضا ، زعم أن هذا مظهر للتطور الأدبي لحسب ، وليس له مرتكز

من القفزة . وهذا خطأ بين فإن الأحوال الانسانية وبخاصة ما يكون فيها تقييد للحرية وتضحية للمصالح الذاتية ، لا يعقل أن تصبح ذات سلطان قاهر إلا إذا قامت على أساس من الجسلة .

ولو نظرت الى أن هذه الآداب النفسية عامة في جميع الجماعات ، ومتفق على وجوبها وضرورتها في كل الأجيال ، تحققت أنها ذات أساس بعيد الغور في النفس الانسانية .

ينصح من هذا التحليل الفيلسوف أن ما يدعيه الماديون من أنه ليس للخير أصل مطلقا ، ولا للأحلاق مصدر علوي ، جريا على مبدئهم من المادية الباحثة ، والآلية الوجودية الصرفة ، وهم باطل لا يستطيعون التدليل عليه بحجة ماهرة ، ولا سلطان كائن .

ولقد عينا بهذه الشبهة غناية خاصة لأن على دحضها ينبغي كل مذهب للأخلاق ، وكل أسلوب للتهديب ، وإلا كان كل عهد بهذه الواعظون والمرشدون ذاهبا سدى ، وهذا ما لا يمكن أن يتفق والواقع ، فلا يزال يرى الناس آثار الوعظ والارشاد ظاهرة . فلم يكن في قرارة النفس غريزة ثابتة لتطلب الخير ، وشعور قوي بوجوبه لكان وعظ الواعظين عتلا .

يقول الماديون : نعم إن للوعظ آثارا ظاهرة ، ولكنها آثار لصفات مكتسبة حصلها الانسان تطوره في الآداب ، لا لغريزة طبيعية فيه ، والدليل على ذلك أنها ظهرت بعد أن لم تكن موجودة ، وقد رددوا عليهم شبهتهم هذه كما رأيت ، وزهد عليه أن آثار هذه الغريزة الأدبية تشاهد حتى في الحيوانات لمن يعنى بمراقبة حياتها ، وقد عنى بها علماء كثيرون ، فدووا مشاهداتهم في مؤلفات ممتعة ، وقالوا إن أصول الأخلاق الانسانية تشاهد كلها في الحيوانات على حالة ساذجة ، واستثنى منها العلامة الفيزيولوجي (كارتاج) التدين ، فقال إنه خاص بالانسان وحده ، ولكن كثيرا من الباحثين لم يرفعوا رأسا بهذا الاستثناء ، مدعين أن ما يظهره بعض الحيوانات من الاحترام لسادتهم ، والتخسج بهم تقربا منهم ، يمكن أن يعثر أصلا للتدين .

فإذا كانت الغرائز التي امتت عليها الأخلاق بعيدة العمق في الكائنات الحية الى هذا الحد ، فهل يُصدق من يقول إنها صفات مكتسبة للنوع البشري وحده ، ولا أصل لها في صميم معناه الانساني ؟

محمد فريد وجدي

المسيحية في الاسلام

هذا عنوان كتاب أرسله إلينا أحد فضلاء المسلمين تأليف حضرة الايفومانس ابراهيم لوقا راعي الكنيسة القبطية الارثوذكسية بمصر الجديدة . وقد بين المؤلف غرضه من وضعه فقال في مقدمته :

« إن القرآن لم يهاجم المسيحية التي أسسها المسيح ونشرها رسله القديسون ، ولكنه هاجم بدعا خاصة ، كانت قد ظهرت عند ظهوره ، ونادت بتعاليم لا تقرها المسيحية ، فحاربها كما حاربتها المسيحية من قبل ومن بعد .

الى أن قال : « وطابتنا التي تنوعهاها النوفيق ، لا الحذل والتفريق . وإنا نرجو أن يتقبل إخواننا المسلمون رسالتنا هذه كرسالة محبة وإخلاص ، وفقما الله جميعا الى سواء السبيل » . وقد طلب إلينا مرسل الكتاب أن نبدي رأينا فيما ذكره حضرة القس مؤلف الكتاب من إقرار القرآن على العقائد المسيحية الحققة ، وهي في نظره ما عليه الصارى اليوم من تثليث وبنوة الخ ، وقد وجه حضرة القس الخطاب للمسلمين ، فحق علينا أن نبدي له رأينا فيما ذكره . قال حضرته تحت عنوان : « المسيح الإله » :

« تعتقد المسيحية أن المسيح هو الله ، باعتباره الأقنوم الثانى من الثالوث الاقدس للذات الالهية الواحدة الجوهر والمعدد . والاسلام لا ينكر هذه العقيدة ، ولا يرفض القول بلاهوت المسيح ، بل إنه ليؤيده ، ويؤيده بأدلة عديدة ، وآيات كثيرة وشهادات متنوعة ، منها : (١) أسماؤه الحسنى وألقابه التي ذكرها له القرآن . (٢) الحقائق الخاصة بحياته في ذاتها . (٣) شهادة القرآن له بالكمال الادبى في حياته . (٤) شهادة القرآن له عن قدرته الفائقة الطبيعة . (٥) ما أثبتته له من الاختصاصات والوظائف . (٦) ما شهد له به عن مركزه الممتاز » .

نقول : إن هذه دعوى جرئة لم يقل بها أحد من الذين كتبوا عن الاسلام من المسيحيين إلا أن يكونوا من أهل المباحكات اللفظية الذين يترفع عنهم مثل الايفومانس ابراهيم لوقا . فاذا كان قد مضى على نزول القرآن أكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، وقد قرأه عدد لا يحصى من الناس ، وفهموا منه أن الاسلام ينبنى ألوهية المسيح ، وعلم ذلك في كل هذه القرون عدد لا يحصى من أهل الملل الأخرى ، وألفت في الجدل حول هذه المسألة كتب لا تدخل تحت حصر ، كل هذا لو كان في حقيقته سوء فهم تسلط على عقول الناس ، وساقهم الى الملاحاة والتأري كل هذه القرون الطويلة ، فإن الذى يهتك سر هذا القصور يخلد لنفسه في تاريخ الخلفاء الدينية أثر لا يشبته بنيره ، ولكنه يسجل في الوقت نفسه على العقلية الانسانية اختلالا

تصبح معه غير جذيرة بالنقطة في نظرها وأحكامها، ويدب الشك الى كل آثارها الادبية والعلمية والفلسفية التي تم بناء صروحها في قرون طويلة، توقعا لظهور أئذاذ يكشفون عن حقيقة الغماوات التي قادت العقول للخلافات أحقاها متعاقبة حول مسائل لا خلاف فيها على الاطلاق ! اللهم إن هذا محال، وإن كان يوجد ما هو أبعد عن التصديق من المحال فهو منه .

اعتمد حضرة القس فيما أورده من القرآن الكريم، تدليلا على ألوهية عيسى عليه السلام، على ما جاء فيه من اطلاق لفظة (كلمة روح) عليه، ورأى أن ذلك من أدل الأدلة على مشايسته لمسيحيين في القول بسوة عيسى لله وبألوهيته، فقال : « رأينا فيما سبق كيف أن القرآن أقر بصحة عقيدة المسيحيين في قاديهم بما لقبه به من ألقاب لا يجوز أن ينعت بها أحد سوى الله تعالى، فدعاه أولا كلمة الله، وثانيا روحا منه » .

ونحن نعجب كيف يسوغ حضرة القس أن يعتقد أن لفظة (روح) و (كلمة) لا يجوز أن تطلقا إلا على الله تعالى على حين أن المقرر عند أهل العلم والفلسفة أنهما لا يجوز أن يطلقا عليه، لأن كل تعبير لفظي عنه تعالى يفيد التقييد والتحديد . وهو ما يتنزه عنه سبحانه كل التنزه، هذا ما انتهت اليه الفلسفة وهذا ما قرره الاسلام قبلها بأكثر من ألف سنة، فقال تعالى : « ليس كمثله شيء » وقال « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » . وقال : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » . فلفظ روح قليلة على خالق الأرواح ومبدعها، ولفظ كلمة أقل من تلك أيضا . وقد أطلق القرآن الكريم لفظة روح على بعض مخلوقاته فسمى جبريل روحا وسمى القرآن روحا فقال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » . ولا يجبر المسلمون اطلاقهما على الله تعالى لأن قاعدة التنزيه المطلق عديم « أن كل ما خطر ببالك فانه بخلاف ذلك » . وأنى لمخلوق طاهر محدود القوة العقلية، أن يصل الى معرفة حقيقة الخالق أو أن يطلق عليه ألفاظا وضمت لتعيين الكائنات الحرفية ؟

أما لفظة كلمة فلها في القرآن الكريم معنى غير ما يفهمه المسيحيون منها، فهي عندنا لا تحتمل غير معناها اللغوي وقد أطلقها الله تعالى على عيسى لأنه كما قال الرازي : قد وحد على خلاف السمة المعروفة، فأضيف حدوثه الى كلمة الله مباشرة وهي كس، وعلى هذا جرى جميع المفسرين .

وقد وردت لفظة كلمة في الكتاب الشريف في مواطن كثيرة جدا، من ذلك قوله تعالى : « وعت كلمة ربك » و « ولولا كلمة سبقت » و « كلمة طيبة » و « كلمة خبيثة » .

وقد صرح القرآن الكريم بأن الله كلمات لا تخصى لا كلمة واحدة، فقال تعالى : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر بحمد من نعمة سبعة أمهر ما تعدت كلمات الله » .

من الحرأة التي لا يمكن وصفها بوصف أن يدعى مدع أن القرآن يقول بألوهية المسيح ، وقد تفاها عنه نصارات صريحة في عشرات من الآيات بما لا يحتمل أى تأويل . وقد وجه الخطاب الى النصارى خاصة ونهام عن القول بالتثليث والبنوة والتأليه فقال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلته أنقأها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة » ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيجثرم اليه جميعاً .

وقال تعالى مبيناً للناس المول الحائل من ادعاء الولد له : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد حثم شيئا إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنفق الأرض وتخر الجبال هدأً » .

لا تخيل أنه بعد هذه النصوص المحكمة الحاسمة يمكن أحداً أن يقول كما قال حضرة القس ابراهيم لوقا : « الاسلام لا ينكر هذه العقيدة » ، ولا يشكر القول بلاهوت المسيح ، بل إنه ليؤيده ، ويؤيده بأدلة عديدة ، وآيات كثيرة ، وشهادات متنوعة . اللهم هذا محال .

أقول : محال وأما مطمئن ، لأنه لا يتأتى لكائن من كان ، مهما بلغ من أساليب المفاظة والمنسطة ، أن يتقى وقع هذه الآيات الصريحة في نفوس قارئها ، وأن يستخرج منها ما تأباه معاني ألفاظها ، وما تى تراكيها . فلو كان يعلم الكاتب المتحمس ما يجنيه عليه تحمسه لموضوعه من إضعافه وتوهينه ، لرأ بنفسه أن يرتكب مثل هذا الشطط في تبينه .

كل ما استند اليه حضرة القس في تدعيم كلامه ، وهون عليه إهمال عشرات الآيات التي وردت في نفي الألوهية والبنوة عن عيسى ، ما أطلقه القرآن الكريم على هذا الرسول من أنه روح الله وأنه كلمته أنقأها الى مريم . وقد قلنا إن الله تعالى قد أطلق لفظة روح على حنن .

أما الكلمة فقد أرىناك مواطن استعملها في الكتاب الكريم بما لا يدع شبهة في أن المقصود بها كلمة (كى) ، أى كلمة المطلق المباشر عند عدم وجود الأسباب العادية ، وكيف يعقل أن ترد في القرآن لفظة (الكلمة) بمعنى الاقنوم الثانى من الاقانيم الثلاثة المؤلفة لذات الخالق ، وهو ينهى النصارى في آيات كثيرة عن القول بالتثليث ويمده أسراً إداً ، وقد ورد في ذلك قوله : « ولا تقولوا ثلاثة » ، انتهوا خيراً لكم ؟ وفى آية أخرى قوله : « وقالت النصارى المسيح بن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول الذين كفروا من قبل » ، أى يقولون ما يشاءون به قول الكافرين السابقين من الوثنيين ، فقد كان للمصريين القدماء ثلوث مؤلف من حوروس وإيزيس وأوزيريس ، وكان للهنود ثلوث مؤلف من براهما وسيفا وفيشنو ، ولغيرهم ثلوثات أخرى ، وقد أجمعوا على أن أحد أركانها قد نزل الى الأرض وتجسد

فيها ، وعاش بين الناس ليعلمهم ويصلح شأنهم . ومن هنا قرر الفيلسوف فولتير أن المسيحية قد أحدثت في هذه العقيدة إخذ البوذية سواء في تثليثها أو في آدابها وأخلاقها . وما كما لتنتزل الى إيراد مثل هذه الأقوال لولا أن حضرة القس ابراهيم لوقا قد اضطرها اليه دفعا عن كتابنا ، وزيادا عن كرامتنا .

ولقد . فإن البحث في ذات الخالق لا يحيزه لنفسه من يعرف ضعف مصادر معرفتنا ، ومدى سلطان عقولنا على فهم الحقائق . فالادراك الذي قُصّر عن فهم ماهية المادة ، وحقيقة الفضاء والزمان ، ولم يحط بأكثر أسرار النظام الآلى الذى بين يديه ، لا يستطيع سداهة العقل أن يصل من معرفة ذات الله الى شئ على الاطلاق . وإن افترض أنه تلقى معرفته بذات الله من طريق الوراثة ، وحب عليه أن يرفضها ليخلص من تبعاتها ، مكنتها من الاعتقاد بوجود الله مئزها عن صفات الخلقين ، وبأنه يشعلى أن تحبط به عقول الآدميين ، وإلا عرض عقيدته لشبهات المجادلين ، واضطر لوقف حصّة كبيرة من وقته لصد هجمات المهاجمين ، والاجابة على استشكلات المستشكلين . وإن عقيدة تحبط بها كل هذه السمومات ، وتقوم في وجهها جميع هذه الشبهات ، لا يمكن أن تصبح عقيدة عامة لامة في خاصتها ، فضلا عن الاساسية برمتها .

يلوح لى أنه يغيب عن الآباء المسيحيين أن الناس اليوم قد افتتوا بالفلسفة المادية الى حد أن رفضوا العقيدة بالخالق على ما تعرفه به أرقى فلسفة في الأرض من التوحيد والتثريب ، فهل من مسامرة الحقائق أن يزيد على تلك العقيدة ما يجعلها غير معقولة ؟

إن دعاة المسيحيين قد عبروا عن نشر المسيحية حتى في البلاد الوثنية ، على ما يبذلونه من القناطر المقسطرة من الذهب والفضة ، وينفوز عليهم دعاة الاسلام في كل بقعة من بقاع الأرض ، فتسارع الملايين الى الدخول في الاسلام غير مسوفين بأى دافع مادي ، راهدين في الهَيْل والهَيْمَان الذى يبذله الجانب الآخر . (راجع ما نقلناه في الصفحة ٥٥٤ من هذا المجلد) .

هذه المقارنات تريك الصعوبة المطلقة في إمكان قول العقيدة المسيحية على ما هي عليه من القول بالتثليث والتأليه والبنوة . وقد ظهر في إنجلترا وألمانيا وهولاندا وفي كل بقعة من أوروبا مذهب الموحدين تحت اسم (Unitarisme) ، رفض أهله التثليث وما يتبعه واتخذوا لهم كنائس خاصة . وهم يمدون في كل أمة بالملايين ، وأكثر ما يوجدون في إنجلترا وأمريكا . ولسا نذك في أن هؤلاء هم طليعة الاسلام في أوروبا ، وقد طاقبة الامور .

محمد فريد وجرى

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

أسلفنا لحصرات القراء شطرا من الكلام عن مشروعية الوقف ، وكيف أن هذا النظام صالح لمحاورة كل عصر وجيل مع تلك الظاهرة التي عرصت له ففضت من قدره ووصمته في الأوضاع الحديثة بأنه ضرب من ضروب المعبث .

تلك الظاهرة هي تلاعب نظار الأوقاف بمخصص المستحقين ، واعتنائهم في الكيد لهم والسكاية بهم ، ومحاولتهم الحرب من المسئوليات القضائية المقتلعة ، حتى لقد تصايح القضاة والمحامون الشرعيون بضرورة وضع نظام يكفل حماية المستحقين من عبث النظار ، ويقاه مشروعية الوقف خالصة من عبث العابثين .

واليوم يحاول في شيء من البسط أن ندلل القراء على مبلغ عناية الفقهاء باحتيار النظار والتدقيق في ذلك الاختيار ، وأن نبين لهم أن الولاية القضائية المنسولة على التصرفات الصادرة عن الانسان تأتي في المرتبة الثانية لنصوص الواقفين .

وقد أجاز علماء الفروع أن يجعل لنظار الوقف قدر معين من المال في كل شهر أو شهرين أو أكثر بالقياس الى مواقيت التحصيل من غلة الوقف ، في مقابل أن يعنى بإصلاح شئون الوقف وإنماء غلته وإكثار موارده والمحافظة على أصله ، أما إذا عين الواقف أجرا يزيد عن أجر النسبة اعتبر الائد استعقافا .

ونقل صاحب كتاب أنفع الوسائل أن الأصل لذلك الأجر العسي فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد حمل عمر رضى الله عنه لوالى صدقته جمالة يأكل منها غير متأنم ولا متخرج ، فتلك الرخصة من عمر تدل على أن الأجر للنظر غير محظور ، فللناظر الحق المطلق في أن يطلب الى القاضي أن يفرض له أجر المثل على النظر ، وعلى القاضي أن يجيبه الى ما طلب ، حتى لقد روى صاحب البحر أن القاضي إذا عرض للنظر أقل من أجر المثل كان للنظر أن يطلب اليه رفع ذلك الأجر الى حد المثل ، وكان على القاضي أن يجيبه الى ما طلب . وتلك الحيطة التي درج عليها علماء الفروع لمصلحة الناظر تؤذن برعاية تلك المصلحة وإيجانه الى تحقيق رغبته ، وقد ترك الى القاضي مطلق الاختيار لتنظيم من يرى أهليته ، وإذا عين ناظرا فسكت عن طلب أجر النظر ثم باشر مهمته واستمر يؤديها مدة وعاد الى القاضي يطلب اليه تسمية ذلك الأجر ، كان على القاضي أن ينظر في شأن هذا الناظر ، فإن كان من شأنه أن لا يلى عملا من أعمال النظار عادة إلا إذا أخذ عنه أجرا ، فرض له القاضي ذلك الأجر .

وإذا تبرر القاضى وحاجة الناظر فى قومه وعروقه فى ماضيه عن أخذ أجر لعمله ، حرمه القاضى من أجر ذلك النظر .

وهذا التفصيل كما يجرى فى الناظر المعين من القاضى يجرى فى الناظر المعين من الواقف عند عدم ذكر الأجر فى حجة الوقف .

ومن المسلم به أن الناظر المعين أحرمه فى حجة الوقف يستمد سلطته من تلك التسمية ، وعلى القاضى أن يقرها ، إلا إذا تبين أن تربة الأرض قد تغيرت ، أو معالم البناء قد استحال ، وفى هذه الحالة يسعى القاضى ذلك الأجر حسبما ترشد إليه آراء الخراء فى المباني والزراعة . فليس كل ما يشترطه ناظر الوقف مسلم الثبوت عند القاضى ، بل عليه أن يربط أحكامه على المناسبات والعمال والدواعى بالقياس الى مصالح المستحقين وضمان لقاء العين الموقوفة حتى تتحقق أغراض الواقفين فى أوسع صورها وأدق معانيها .

ولكن القاضى يبقى مقيدا بصوم الواقفين فى إشتادات كتبهم بما لم يفوت على المستحقين حقا ، وعلى تلك الجبوس المرصودة عليهم منقمة .

فإذا حدد الواقف فى كتاب وقفه للناظر أجرا ثم سكنت عن وكيل ذلك الناظر ، فهاجر الناظر مهنته ثم اضطر الى من يبيعه عنه وتقدم الى القاضى يطلب إليه تعيين هذا الوكيل المفروض عنه حال غيابه أو مرضه أو تقاعده ، حقق علماء الفروع فى هذه الحالة أن ليس للناظر الحق فى فرض معلوم لتلك الوكيل عنه ، بل ليس له أن يتنازل عن حقه لذلك الوكيل مادام الواقف لم ينص فى إشتاد وقفه على جواز انتقال أجر الناظر الى أجر وكيله ، فإذا نص عليه فى كتاب وقفه جاز على أن يقره القاضى ، وفى الحالة الأولى يأمر القاضى برد هذا الأجر الى غلة الوقف لتدخل فى أوصياء المستحقين ، وعليه يجرى العمل فى المحاكم الشرعية منذ أمد بعيد الى يومنا هذا ، والقضاة لا يفرضون أجرا للمثل فيما زاد عن عشرة فى المائة للناظر الذى يطلب فرض ذلك الأجر .

وقد بدت ظاهرة 'حلى' فى بعض المادى القضائية ، تلك هى أن بعض رؤساء المحاكم الشرعية الابتدائية رفض أن يعين ناظرا على وقف دى غلة غزيرة وريع وفير ، وقد أجمع عليه المستحقون وزكته جهات عديدة ، وقال فى حثية قرار الرضى : إن هذا الناظر بمن يحترفون التنظر على أعيان الأوقاف ، فالمفروض فى هذا النوع من التنظر أن يؤثر مصلحته الشخصية على مصلحة الوقف ، وأن يعمل نصب عينيه التشيع لفريق من المستحقين دون فريق آخر حتى يستديم هذا التفريق بقاءه فى منصب التنظر ، نجوى إليه ثمراته ، وينتفع بها على أكل وجه ، وقد كان احترافه بالتنظر على أعيان الأوقاف منذ أمد من الزمن مصدر ثراء رفعه الى سكان القصور وأهل النعمة والرخاء ، والأسل فى التنظر على أوقاف المسلمين الاحتساب لوجه الله

لتحقيق معنى التعاون بين الأغنياء والفقراء ، إبقاء على الأعيان الموقوفة سليمة تؤدي الى نوع من أنواع الانسانية نوحا من البر والاحسان .

ومعلوم أن أعمال الناظر تنحصر في عمارة الوقف على نحو يوسع في غلته ويكثر نواحي الانتفاع به وبيع غلاته وتحصيل أجوره وصرف ما اجتمع منها في مصارفها التي عينها الواقف في كتاب وقفه ، فعمل الناظر محدد المرامي دقيق الأداء . ونقل صاحب الاسعاف أن عمل الرجل في التنظر على الوقف ليس كعمل المرأة ، فليس لها أن تدبر من أعيان الوقف إلا ما يتفق مع مقدرة المرأة مادة مما تمارسه من أعمال ، من أجل ذلك ترى كثيرا من السيدات يسند إليه التنظر على أعيان أوقاف ولهن فيها نصيب الاستحقاق ، فيعمدن الى توكيل من ينشئ به من الرجال . وقد نشأت عن هذا التصرف مشاكل قضائية اضطرت لبعض القضاة وبعض المفتين القضائيين الى المطالبة بسن تشريع يحول دون تمكين ناظر الوقف إذا كان امرأة من توكيل غيره إلا بإذن من القاضي لكي لا يسمح شعبيين من لا يحسن إدارته .

والى أن يصدر التشريع الجديد الذي يكفل حماية المستحقين من حشع نظار الأوقاف ستبقى عقدة الوقف عمية الحل ، والله الموفق للصواب ؟

عباس طه
المحامي الشرعي

فضيلة الجود

روى أن علي بن موسى الرضا رضى الله عنه فرق في يوم عرفة ماله كله ، فقال له الفصل ابن سهل : ما هذا المكرم ؟ قال الرضا : بل هو المقتم ، لا نعدن ما ابتغيت به أجرا أو كرما مفرما .

وقال حكيم : أتفق في الحقوق ولا تكن غارنا لفيرك ، فان اغتممت على ما نقص من مالك فابك على ما نقص من صورك ، فانه من لم يعمل في ماله وهو موجود ، عمل في ماله وهو مفقود .

وقال يزر جهر : إذا أقبلت عليك الدنيا ما تفق منها فانها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لا تبقى .

فنظم طاهر بن الحسين هذا المعنى فقال :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس يذهبها التبذير والسرف
فان تولت فأحرى أن تجود بها فلتخذ منها إذا ما أدبرت حلف

الاشتراك في مجلة الأزهر

جرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جواز تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التمويل على نظام الوكالة في التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الجرائد والمجلات التي أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتمويل على القاعدة الحديثة وهي دفع قيمته مقدما .

لهذه الطريقة فائدة للمشاركين وللصحف مما . فأما فائدتها للأولين فلأنها تمنحهم نقل المطالبة التي ربما وقعت في وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ماعليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفي ذلك من الضرر المالي على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضض على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويجب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على الصحف ، فلأنها لا تسمح لها بعمل ميزانية سنوية مضبوطة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة يشقى لإدارة المجلة بطبيعة عمله متاعب لا تحصى بسبب تحرير كشوف التحصيل ، وتسديد التحصيل ، وتسرب الخطأ اليه ، والخلافات التي تتور بذلك السبب بين الادارة والمشاركين ، وبين هاتين الناحيتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إضاعة أوقات الكتاب ، وشغل وقت المدير ، وتسكف الوكلاء الذهاب والجيء وسوء ظن المشاركين .

كل هذه المشاكل يحدها شيء واحد ، وهو أن يدفع المشتركون ماعليهم في أي وقت يريدون على شرط أن يكون ذلك قبل حلول السنة المالية للمجلة ، وأولها الحرم ، فإن تأخر عن هذا الموعد كان ذلك إيذانا منه بأنه لا يريد الاشتراك .

وقد رأيت إدارة هذه المجلة أن تتبع هذه الطريقة التي تجنبها وتجنب قراءها ووكلاءها هنتا لا داعية له من جراء مبلغ زهيد .

أما وكلاؤنا فيمكن الاستفادة منهم بتسليمهم قيم الاشتراكات ، وهم يقومون بإيصالها اليها في الوقت المصروب لتقديمها ، وتجد أسماء المقررين منهم على غلاف هذه المجلة

فترجو حضرات قارئنا أن يعذرونا في الجري على هذه القاعدة من أول الحرم سنة ١٣٥٨ فإنها أولى بكرامة هذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدينا للمجلة سنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل ، عنه

أو غير ذلك ؛ فإننا نعتز بما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، وتقبل منه أن يقدم لنا كل ما سنحت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يتمه .

وعليه فترجو حضرات القارئ أن يقدموا لنا قيم اشتراكهم قبل أول العام المحرم الجديد ، لنقيد أسماءهم في سجلات جديدة ، ولتصل اليهم أعداد المجلة في وقت صدورها .

مدير مجلة الأزهر

سعيد محمد

مطبوعات جديدة

تاريخ سيف الله خالد بن الوليد :

يستحق القائد الاسلامي العظيم خالد بن الوليد أن توضع في سيرته المؤلفات الصالحة على مثال سيوفه وانيبال وتيمورلنك وناپليون من رجال الحروب ، وقادة الملاحم . فإن كان الانتصار على الأعداء بالتميز في علم الأساليب الحربية فإن خالد بن الوليد يعد في الطبقة العليا من أهل الصناعة ، وإن كان الانتصار بالتوفيق فهو ممن خصوا بالنصيب الوافر منه .

وقد عني وضع سيرة مطولة له صاحب الفضيلة الأستاذ المفضل الشيخ أبو زيد شلبي المدرس بمعهد أسيوط ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بأحواله الشخصية وسيرته الحربية إلا أحصاها ، فكان له فصل السابق إلى وضع المطولات في سيرة أبطال الاسلام الذين اشتركوا في نشر كلمة الله العليا ، وطعنوا على إقامة صرح عظمتها الخالدة في الأرض .

بين أيدينا الطبعة الثانية لهذا الكتاب الممتع ، وهي تقع في ٢٥٥ صفحة بالقطع المتوسط ومطبوع طبعا متقنا على ورق جيد . فنثنى على عمة فضيلة مؤلفه بقدر ما بذل من جهد ، وبلغ من غاية ، راجين له دوام التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

يستمع الى درس ديني يلقيه حمزة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام بالمسجد الزينبي

لقد سنَّ حضرة صاحب الجلالة الملك سنة سنَّ حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر قيمتها من الناحية الدينية والدنيوية في مقدمة درسه بابلغ عبادة وأكمل بيان ، فليس لنا أن نزيد على ذلك حرفاً .

بعد تلك المقدمة أخذ فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى يشرح آية الصيام ، فكان في شرحه يعيد الى الأذهان ذكرى دروس الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده في الرواق العباسي بالأزهر ، ورأى الناس في خليفته ما كانوا يتخيلونه عن أعلام الدين من الساف الأولين : من دقة في البحث ، وتحليل للموضوع ، واستيعاب للجزئيات ، وفصاحة في الأداء . ونحن نشتر ما قاله فضيلته :

قال حفظه الله موحها الكلام الى حضرة صاحب الجلالة الملك :

مولاي صاحب الجلالة !

ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » .

وقد سننت يا مولاي سنة الاستماع الى تفسير آي الذكر الحكيم في شهر رمضان ، فلفت أنظار الناس الى دينهم ، ولويت أعناقهم عما كانوا فيه من الفئ ساديين ، فأرضيت الله ورسوله ، وحسبك أن يرضى الله ورسوله .

أدامك الله وحرسك ، وأراك راية القرآن تخفق في البر والبحر ، وهداية الاسلام تنساب بين الأمم فلا يصدها صاد ولا يدفعها دافع ، والله حسبنا ونعم الوكيل !
واليك نص الدرس برمته :

بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَعَكُمْ تَتَّقُونَ ،
أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ » :

يُسَبِّحُ عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة ، ووجه ذلك أن الشيء يراد ثم يقال ثم يكتب ، فالإرادة مبدأ والكتابة منتهى . ثم يعبر عن المراد الذي هو المبدأ

إذا أريد توكيده ، بالكتابة التي هي المنتهى . وفي الكتاب الكريم من هذا كثير : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » و « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ » .

والصوم : الامساك عن الفعل مطلقا كان أو كلاما أو مشيا ، وقيل للفرس الممسك عن العلف أو السير : صائم ، ولأرجح الراكدة ولاستواء النهار : صوم ، وكأنهم تصوروا وقوف الشمس وقت الاستواء .

وفي عرف الشرع : الصوم إمساك خاص هو الامساك عن المفطرات من الأكل والشرب وقرآن النساء ، على نية الصوم من طلوع الفجر الى غروب الشمس . والتقوى . جعل النفس في وقاية عما يخاف ، وفي الشرع : حفظ النفس عما يؤثم .

أخبر الله تعالى شأنه أنه فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه من قبل على الأمم السابقة ، وبه الى سبب الفرض وهو أن الصوم يهيء عباده لتقوى الله .

ونحن لا نعلم ما هو الذي فرضه الله على الأمم السابقة من قبل : فهو شهر رمضان كما قال بعض الناس ، أم غيره . وليس لنا ما يهدينا الى شيء معين من دليل يطمئن اليه القلب ، والتشبيه لا يدل على المماثلة في كل شيء ، فنحن نؤمن بأن صوما فرض على الأمم السابقة لا نعلم مقداره ولا كيفيته ، ولا يزال الصوم معروفا عند الأمم الأخرى على أوضاع مختلفة . وقد كان عند قدماء المصريين صوم أخذه اليونان والرومان عنهم ، وليس في التوراة والانجيل الآن ما يفيد وجوب الصوم ، لكن فيهما مدحه ومدح الصائمين .

الصيام أحد الأركان الخمسة التي بنى عليها الاسلام ، وهو رياضة بدنية ، وتهذيب خلقى ، وتطهير روحي .

ذلك أن الاسترسال في الشهوات ، والانغماس في اللذات ، حجاب بين الروح وبين الكالات القدسية والفيض الإلهي ، يعوقها عن تلقى الاطعام وعن لذة الاتصال . ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون الى الصوم كلها أحصوا بُعْداً عن اللذات الإلهية ، وازعاج حاطمهم شوقا الى القرب منها . وفي الصبر على الحرمان من اللذات التي تنازع اليها النفس وتقتضيها الطبيعة تربية للارادة ، وتقوية على المضى في العزم ، وعدم نقض العهد إذا وسوس الشيطان وزين للنفس الخروج عن المهود لما فيها من المشقات . وفي تقوية الارادة على هذا النحو إعداد لتلقى التكاليف الإلهية بالقبول والطاعة ، وتثبيت لمملكة المراقبة والخوف من الله ، وتقوية لخلق الحياء . وفي هذا كل الخير ، وبه تتحقق تقوى الله ، وتستعد النفس للسجاء والبذل والتضحية إذا دعا الداعي وحان وقت الفصل بين شعبان الرجال وجيناتهم ، وبين كرامهم وأنذالهم .

وليس يخفى أن كل شيء في هذه الحياة ممكن : الفقر بعد الغنى ، والمرض بعد الصحة ، والذل بعد العز ، والزوج عن الأوطان بعد الطأينة فيها ، وتقلب الاعضاء بعد الغلب عليهم وقهرهم ، وما الى ذلك ، مما هو بسيل أن يعرض للانسان ، وعروض هذه الأشياء على نفس مدلة ، وجسم مترق ينام بقدر ، ويأكل بقدر ، ويمرح في اللذات بين الأهل والعشيرة ، قد يصدمه صدمة لا يقوى على احتالتها ، أو يسوق اليه الجزع ، ويورثه اليأس .

لذلك كله اقتضت حكمة الحكيم العليم أن يجعل من العبادات ما يروض الأجسام ، ويهذب الأخلاق ، ويظهر الأرواح ويركها ، وكان من هذه العبادات الصوم .

وكما عني الاسلام بتزكية الأرواح ، وتهذيب الأخلاق ، فقد عني بقرينة الأجسام ، وحرّم كل ما هو ضار بها ، ونابح الطيبات وكل ما هو نافع ومفيد . ذلك أن الاسلام يريد رجلا ماملا في الحياة ، مهذب الأخلاق ، طاهر الأعراق ، قويا لايهاب الموت ، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن ، ويذود عن العشيرة ، ويريد رجلا رحيا حسن المعاشرة ، سلس القياد لاهله وعشيرته ونبي وطنه ، ويريد رجلا لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق وأداء حقوقه .

والصوم من العبادات الخفية التي لا يعلم تحققها إلا الله سبحانه ، ولذلك شرفه الله بالإضافة الى نفسه . وإذا وجدت هذه الحقيقة ، وفهم الغرض منها ، وهو أنها طهرة وتزكية للنفس ، ورياضة للروح والبدن ، صدرت عن الصائم أفعاله وفق إرادة الخالق جل شأنه ، فلم يكن لحاشا ولا غاما ، ولا مختابا ولا منتهاكا للحرمان ، لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الصيام جنة فلا يرفس » ولا يجمل ، « وإن اسرق قاتله أو شاة فليقل إلى صائم مرتين » والذي نعني بيده الخدوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يقول الله تعالى : « يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل ، الصيام لي وأنا أجزي به ، والحسنة بمشر أمثالها » .

ومعناه أن الصوم وقاية من المعاصي لا يليق أن يكون معه فحش في القول أو الفعل ، وإذا نازع الصائم أحد بفعل أو قول فليذكر أنه صائم ، وليقل له إنه صائم ، حتى يقف عند الحد اللائق ، وحتى يعلم المنازع أنه لم يتركه جبا أو ضعفا ، وأنه سكنت عنه خشية من الله ورهبة ، وطمعا في ثوابه . وبما أن الصيام عظيم الدرجة ، أضافه الله اليه ، وإن كانت كل العبادات له واليه ، وهو يجزي عليه بغير حساب . أما العبادات الأخرى فمروفة الجزاء : الحسنة بمشر أمثالها .

وقد وردت التقوى في الكتاب العزيز على معان ، منها الإيمان « وأنهم كلمة التقوى » أو « أولئك الذين امنحن الله قلوبهم للتقوى » أي التوحيد . ومنها الطاعة : « أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقوا » أي أطيعوا . ومنها الاخلاص : « فأنها من تقوى القلوب » أي من إخلاص القلوب . ومقام التقوى مقام شريف : « إن الله مع الذين اتقوا والذين

هم محسنون » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وفي الحديث الشريف : « من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله » .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبالغ العمد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به نأس » وعن ابن عباس المتقى هو الذي يرجو رحمة الله بالتصديق بما جاء به ، ويحذر العقوبة فيترك ما يعجل الهوى اليه .

وقد عبر الله سبحانه بقوله : « لعلكم تتقون » لأن التقوى لا تلازم الصالحين ، وكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والمعاش ، وكم من صائم سباب نمام لحاش منتهك للحرمة ! لكن الصوم موضع رجاء التقوى ، والصائمون أنفسهم موضع ذلك الرجاء ، وحصول التقوى يقع فبؤ الأسباب ، وانقضاء الموانع لذلك صبح أن نحى لعل الموضوع للترجي ، وإن كان الترجى بالنسبة لله سبحانه محتملا .

وقد ذهب بعض العلماء الى أن الصوم يفعد بكل معصية من متعمد لها ذاكر أنه صائم سواء أكانت المعصية قولاً أم فعلاً ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » . وهذا خرج في الدين لا شك . ومن من الخلق : إلا من أطعمهم الله وخصهم بالفضل — يستطيع أن يقوم بكل آداب الصيام ؟ والمدار على النيات ، والمؤمنون يعمثون على نياتهم ؛ ولا ينظر الله الى صور الاعمال ، ولكن ينظر الى القلوب . لكن على المؤمن أن يحمد حتى ينال ثواب الصائمين ، والله ولي المؤمنين .

« أياما معدودات » :

نصب فعل ماضٍ ، أى أن تصوموا أياما معدودات . ومعنى معدودات قليلات ، ذلك أن المال القليل يعد ويحسب في معرفة تقديره ، والكثير يصعب حسابا ويحصى حنثا . ذلك كانت العرب الذين جاء القرآن بلغتهم ، ومنه : « وشركوه بشمن بخس دراهم معدودة » أى قليلة . والأيام المعدودات هي شهر رمضان الذي سيذكر بعد ، ولم يأت طريق تقوم به حجة أن صوما فرض على المسلمين غير شهر رمضان ثم نسخ بصوم شهر رمضان . وقد أبان الله تعالى في هذه الآية أن الأيام هي شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، فمن ادعى أن صوما كان قد فرض على المسلمين فرضه غير شهر رمضان سئل البرهان من غير تقوم به الحجة ويقطع العذر . وقد زعم بعض العلماء أن الله فرض صوم ثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخها . قال القفال : « انظر الى عجيب ما نيه الله سبحانه عليه : بين أن تكليف هذه الأمة بالصوم له أسوة بتكليف الأمم السابقة ، والأمور الشاقة إذا صمت حفت ، وأن للصوم سببا مرغوبا فيه هو التقوى ، وهي مقصد شريف ؛ وبين أن الصوم مدته أيام معدودة ؛ ثم بين بعد ذلك أنه

خصه بأعظم شهر ، وهو الشهر الذى نزل فيه القرآن شفاء الصدور وحياة الامم ؛ ثم أباح بعد ذلك للمريض والمسافر العطر دوما للخرج وذهابا الى اليسر .
 « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » :

كان الظاهر أن يقال : فمن كان مكم مريضا أو مسافرا ، لكن هذا الظاهر خولف لأن المرء إذا سافر ثم نزل مريضا وهو ناو للسفر كانت إقامته سفرا شرعا ، لأن مبنى السفر على نية السفر بعد التهيؤ له والشروع فيه ، لا على الحالة التى هو عليها من الحركة والسكون .

والمعنى : فمن كان مكم مريضا أو مسافرا فالحكم فيه وجوب صوم عدة الأيام التى أفطارها ، من أيام أخر غير أيام مرضه أو سفره إذا أفطر . وهو من الايجاز البليغ الذى اختص به القرآن . وقد اختلف أهل العلم فى المرض المبيح للإفطار : فقليل هو كل ما يسمى مرضا . وقد دخل رجل على ابن سيرين فوجده يأكل ، فلما سأله قال : وجعت أصبغى . وقيل المرض الذى لا يطبق صاحبه المقام فى الصلاة . وقيل كل مرض يزيد الصوم أو يصرمه الصوم . والاول مذهب عطاء والبخارى . واستدل لهم بأن الله أطلق المرض والسفر وكل قيد زيد على ذلك فهو تخصيص بأخبار الآحاد ، وبأن تحقق المشقة عسير ، وعرفان الضرر أشد عسرا ، فيجب أن ينافى الحكم بما هو معروف ، وهو المرض لا غير . والحكم عند الحنفية بإباحة العطر لمن كان صحيحا وخاف المرض ، أو كان مريضا وخاف زيادة المرض . ومعرفة ذلك تكون بالاجتهاد وغلبة الظن . وكل مسلم بالنسبة للرخص مفتى نفسه ، فمن حصص له غلبة الظن بأمارة أو تجربة أو إخبار طبيب مسلم أن الصوم يمرضه أو يزيد مرضه جاز له العطر . كذلك يباح له الفطر إن خاف إبطاء البرء أو فساد عضو أو خاف صداعا غير مطلق . وكذلك يباح الفطر لمن يعول المرضى إذا كان فى صومه ضياع لهم لصعفه عن القيام بحقوقهم إذا صام . وفى الخزانة : « الحر الخادم أو العبد أو الذاهب لسد نهر أو شقة إذا احتد الحر وخاف الهلاك له الإفطار » . ويباح الفطر لمن خاف فوت العقل أو نقصانه بالصوم . كذلك يباح للعامل والمرصع إذا خافا على نفسيهما أو على ولديهما . والصوم عبادة ، والله هو المطلع على السرائر وحده ، وقد رفع عن عبادة الحرج وأراد بهم اليسر .

كذلك اختلف العلماء فى السفر المبيح للفطر : فقليل مسافة يوم ، وقيل ستة عشر فرسخا ، وقيل أربعة وعشرون فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف خطوة . ومذهب الحنفية مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الابل ومضى الاقدام كل يوم مرحلة ، ولا عبرة بالتقدير بالفراسخ لأن الطريق إذا كان وعرا بحيث يقطع فى الثلاثة الأيام أقل من خمسة عشر فرسخا قصر بالنسب ، ولو أنه قطع مسافة الثلاثة الأيام بسير الابل المعتاد فى أقل من ذلك بطريق آخر صح له الإفطار .

وقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس أن رسول الله كان يقصر الصلاة مسيرة ثلاثة أميال . وروى عن أبي شيبه بإسناد صحيح أنه كان يتصر في الميل الواحد . وإذا نظرنا الى أن نص القرآن مطلق ، وأن كل ما روي في التخصيص أخبار آحاد ، وأنهم لم ينفقوا في التخصيص ، جاز لنا أن نقول : إن السمر مطلقا مبيح للفطر . وهذا رأى داود وغيره من الأئمة .

وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الصوم في السفر ، فكان يقول : إن شئت فسم ، وإن شئت فافطر . وجمهور المسلمين على هذا ، فهو رخصة لا عزيمة .
« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكينين فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » :

الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يقسم به بمشقة . وقوله تعالى : « ولا تحملا ما لا طاقة لبايه » أى ما يصعب علينا مراولته . وقد كانت هناك تكاليف من هذا النوع رفعت عن هذه الأمة ، بذليل قوله تعالى : « ويصعُ عنهم بُصرهم والأغلال التي كانت عليهم » . وقد يعبرُ بنى الطاقة عن نوى القدرة . وفي اللسان : قوله صلى الله عليه وسلم : « ودِدْتُ أُنَى طُوقْتُ ذَلِكَ » معناه ليته جعل داخلًا في طاقتي وقدرتي . وطوقني الله أداء حَقِّكَ ، أى قوائى عليه ، والطوق والامطاقة : القدرة على الشيء ، وقد طاقه طوقًا وإطاقة ، والاسم الطاقة ، وهو في طوق أى في وسعى . وروى :

كل امرئٌ مقاتل بطوفه كالثور يحمى جلده بروفه
أى كل امرئٌ مكلف ما أطاق .

والفدية والفداء : حفظ الانسان نفسه عن السائية بما يذله عنها . والتطوع : تكلف الطاعة . وفي العرف : التبرع بما لا يلزم ، والخير : ما يرغب فيه من كل شيء نافع .

نعود بمد هذا الى تفسير الآية فنقول : قراءة كافة المسلمين : وعلى الذين يطيقونه ، وعلى ذلك خطوط مصاحفهم ، وهى القراءة التى لا يجوز لأحد من أهل الاسلام خلافها . وروى عن ابن عباس وعلى الذين يطيقونه أو يطوفونه ، وهى قراءة لأهل الاسلام خلاف .

جميع التكاليف مشتملة على المشقة وإن تفاوتت فيها ، فليست الصلاة مثل الصوم ، ولا الصوم مثل الحج أيام أن كان السفر على ظهور الابل أو على الأقدام . وليس الحج مساويًا للجهاد ، وفي القرآن : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » . وليس فى اللغة ما يدل على أن الطاقة اسم لما يعمل مع المشقة الجاهدة ، وليس هناك عرف لغوى نقل الطاقة الى هذا المعنى . والدليل على ذلك أن علماء اللغة وقرومها حملوا الطاقة على الوسع وذهبوا بمد ذلك الى الفسخ . والقرآن يجب أن يفسر بما تعرفه اللغة بالأراء وقروض الفروض . كذلك قول الله تعالى :

« ولا تحملنا مالا طاقة لنا به » ينفي هذا العرف اللغوي الذي زعموه ، وينفي أن اللغة لا تطلق الطاقة إلا حيث تكون هناك مشقة جاهدة . وإذا كان ذلك كذلك وجب أن يحمل يطيقونه على ما هو ظاهر معروف : أي على الذين يحتملون الصوم وهو في وسعهم ومقدورهم فدية هي طعام مسكين إذا أفطروا . وقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والطبراني وآخرون عن سلمة قال : لما نزلت هذه الآية كان من شاء صام ومن شاء أفطر حتى نزلت الآية بعدها : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فندسختها . وقد قال عمرو بن مرة : كانوا قسوما لم يالفوا الصيام فاشتد عليهم فكان من لم يصم أطعم مسكينا . وقال ابن أبي ليلى : دخلت على عطاء وهو يأكل في شهر رمضان ، فقال إني شيخ كبير ، وإن الصوم زل فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا حتى نزلت : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، فوجب الصوم إلا على مريض أو مسافر أو شيخ مثلي يفتدى . ونقل هذا من لا يحصيهم العدد .

بعد تظاهر هذه الروايات والعلم بأن من الصحابة من كان يفطر ويطعم ، وجب المصير إلى أنهم فهموا « يطيقونه » كما فهمه جمهور المفسرين . وهناك وجه آخر يؤيد هذا وهو أنه لو لم يكن هناك نسخ لكان قوله تعالى في آخر الآية : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » مكررا ، ومثله لا يعرف في نظم القرآن في آية واحدة كهذه .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى يطيقونه : يتدرون عليه مع مشقة جاهدة ، خلا على قراءة ابن عباس : « وعلى الذين يسطوقونه » وعلى ذلك لا يكون هناك نسخ ، وتكون خاصة بالشيخ الكبير والمرأة العجوز والحكم فيهما باقي : صحة الفطر مع الفدية ، وقد علمت أنه يخالف لعرف القرآن ، ويخالف لما عليه أهل اللغة ، ويخالف لما كان يفعله الصحابة ونقل عنهم نقلا ظاهرا قاطعا للمعذر . ثم إن المشدد من الفعل ليس نصا في المعنى الذي قالوه لأنه جاء بمعنى الوسع وما يقدر الإنسان على فعله . ولذلك حمل بعض المفسرين قراءة ابن عباس على القراءة المشهورة . وجملة القول أن الصحيح المقيم القادر على الصوم كان له أن يفطر ويتصدق ، لكن هذا الحكم نسخ بإجماع المسلمين ، وقالوا إن النسخ له قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

أما حكم جواز الفطر للشيخ الكبير ومن هو في حكمه فليس مستفادا من هذه الآية . وقد قال الشافعي رضي الله عنه : إنه مستفاد مما كان عليه العمل أيام الصحابة واستقر بعد ذلك إلى اليوم . وممى « من تطوع خيرا فهو خير له » : من زاد على مقدار الفدية فأعطى المسكين أكثر من طعام يوم ، أو أطعم عدة مساكين ، فذلك خير .

ثم بعد أن بين الله تعالى جواز الفطر لحولاء الأصحاء القادرين ، بين أن الصوم خير لهم إن كانوا على علم بوجه المصلحة ، وأن الصوم لم يشرع عقوبة ولا إعانة ، وإنما شرع تركية

وطهرا ، وتربية للأثم . أما من يصوم تقليدا أو يظن أن مصلحة الصوم غير طائفة عليه ،
ملاخير في صومه ، ولا يعمده الله من الصائمين .

« شهر رمضان الذي أزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » :

الهدى - الهداية بلطف ، والبيان - الكشف عن الشيء ، وهو أعم من البطق - والبينة :
الدلالة الواضحة عقلية أو حسية . والفرقان : الفرق بين شيئين ، وقيل لعمر : العاروق ، لأنه
فرق بين الحق والباطل ، والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل .
وقد رفع شهر على معنى : أياما معدودات من شهر رمضان . وفي وصف الشهر بإزال
القرآن فيه بيان للسر في اختياره دون غيره بالصوم . ذلك أنه لما كان الصوم ممدا للتحقق
كما بين في الآية السابقة ناسب أن يفرض في الشهر الذي نزل فيه الهدى للفتن ، والذي امتاز
عن غيره بأعظم آية من آيات الربوبية وهي إزال القرآن . والقرآن : اسم لكتاب الله سبحانه
المنزل على محمد صلوات الله عليه ، يطلق على جميعه وعلى بعضه ، ولم ينزل دفعة واحدة بل نزل متجذا ،
ونزل بعضه في غير رمضان ، ولا شبهة في أنه بهذا المعنى يصح القول بأنه نزل في رمضان
وإن لم يكن فيه إلا رول البعض . ولا حاجة للقول بأنه نزل دفعة الى السماء الدنيا في رمضان ،
ولا الى القول بالتجوز .

وصف الله القرآن العزيز بأنه هدى للناس وبينات من الهدى ، فهو إرشاد الى الحق ،
وهو آيات وانجيات من البيان الهادي الى الحق ، الفارق بين الحق والباطل فرقا قويا واضحا .

وقد وصف الله التوراة والانجيل بأنهما هدى : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا
لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان » ووصف التوراة
بأن فيها هدى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » ، وكل كتاب جاء من عند الله ، وكل
شيء نزل على نبي من الأنبياء فهو هدى ونور ، ولكن القرآن امتاز عن سائر الكتب
الالهية بقوة البيان وشدة الوضوح ، وامتاز بالاعجاز ، وبأنه آخر كتاب إلهي ، وبأنه اشتمل
على المعارف الالهية وأصول العقائد وقواعد الآداب ، ووضح للناس أصول العدل وقواعد
الاخلاق ، وبين حق الفرد وحق الجماعة ، ووضع نظام الأسرة ، ووضع الانسان الموضع اللائق به ،
فأباح له ما في الارض جميعا ، ولم يمنع عنه إلا الخبائث ، وحدد له الحدود اللائقة ، فلم يتركه
يعامل معاملة السائمة ، ولم يلزمه منزلة الملائكة ، وحجب اليه المعرفة ، وكان وسطا عدلا شهيدا
على الشرائع وعلى الأمم .

هذا هو القرآن الذي سعد به المسلمون بحياة روحية هي المنال الأعلى للنفس الانسانية ،
وبحياة جثمانية ظاهرة برينة ، وبحياة علمية لا يزال ما بقي من نورها يستمتع به الناس ، وهو
موضع للمحب ، ومنار للاكابر والاجلال .

سمدوا به حقبة ثم انحرفوا عنه ، فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهون ، حتى أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم ، وصاروا في حاجة الى غيرهم في كل مرافق الحياة ، ووصل بهم الجهل الى حد أن ظنوا أن كل ما عند غيرهم خير يجلب ، وكل ما عندهم شر يبذ ، وأنه لا حياة لهم إلا بالقدوة ، القدوة حتى فيما علم غيرهم شره وفساده ، وحاولوا نبذ وطرحه ، وقد أصبح المسلمون مُنْزَلاً سبيلاً للإسلام يحثهم عليه ، والدين منهم برى .

الدين يطلب رجالاً صدقوا ما طهّدوا الله عليه ، فهم من قضى نحبهم ، ومنهم من ينتظر ، رجالاً باعوا أنفسهم وأمواهم بأن لهم الجنة ، رجالاً خلفاء بأن يكونوا خلفاء عن الله في الأرض ، يعملون سرها ويسخرونه للخير ودفع الأذى ، يدفعون عوادي الزمان بمنّا كيهم كأنهم بليان مرصوص ، يعرفون للكرامة قدرها ، وللعزة موضعها ، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء ، ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير وأبقى .

منح الله سبحانه الإنسان أنواعاً من الهداية توصله الى أغراضه وتممعه من التورط في المهالك .

أولها : هداية الإلهام والفتوة ، وهي في الاطفال منذ ولادتهم ، والطفل عندما يولد يشعر بألم الحاجة الى الغذاء فيصرخ طالباً له ، وإذا أعطى التدى التقمه .

وثانيها : هداية الحواس والمشاعر ، وهي متممة لهداية الإلهام في الحياة الحيوانية ، ويشترك الإنسان فيها الحيوان الأعجم ، بل هي في الحيوان الأعجم أكمل .

وثالثها : هداية العقل الذى يصحح خطأ الحواس ، ويعمل الأشياء ، ويستنبط ، وقيس . وبهذه الهداية دلى الانسان أسرار الطبيعة واستخدمها ، وعرف دقائق المنع الإلهي ، ولولا هذه الهداية لكان بعض الأنواع الحيوانية أقدر على الرشد منه في الحياة الاجتماعية .

وآخر هذه الهدايات وأقواها : هداية الدين ، فهي مرشدة الى السعادة في الدنيا والآخرة . وقد كان من لطف الله سبحانه أن يتوج بها الهدايات ، وأن لا يترك العقل في حيرته فيما يصعب عليه إدراكه ، وغيا هو أبعد من مملكته .

أودعت في الانسان غرائز الشهوة ، وغرائز الغضب والانتقام ، وهو ميال الى الأثرة بطبعه ، ولولا الحدود توضع له لآسرف في استعمال هذه الغرائز ، وأسرف في الجور .

كذلك هو نزاع الى المعرفة ، يحاول الكشف عن كل شيء حتى فيما غييب وفيها لا سبيل الى معرفته من سر القدر وطريق الخلق وأطواره ، والناس مختلفون في عقولهم أشد الاختلاف ، فامة لا تمتاز عن الحيوان إلا بطول القامة ، وأمة كشفت عن خواص المادة وسفرت الكهرباء والآثير ، وأمة عبت من الحيوان أنواعاً ، وأخرى عبت الأصنام والأحجار ، وأمة بقيت

تاكل الحشائش وكل ما يدب على الارض ، وأخرى عرفت العلة والمعلول ، ووضعت أصول الأخلاق والآداب ، وقوانين البحث والتفكير ، وأملت إجمالا بالجزء ، على الأعمال ، ودونت نظم الملك وسياسته .

وقد دلت التجارب على احتياج هذا النوع لوازع حتى في أرق عصور العلم والمدنية ، وعلى أنه كلما تقدم له باب من المباح المادية سعى إلى باب آخر ، وكلما شعر بقوة سعى إلى استدلال الضعفاء ، وهو من جهة النظريات ملول لا يستقر على حال ، توجد الفكرة فتموت في موطنها وتحيا في غير موطنها ، ثم تموت وقد تحيا في الموطن الأول ، وهكذا ، ثم هو لا يدين لإنسان آخر ، وهو شديد الغرور ؛ وقد يظن أن شخصا مثله التهذيب والعلم فصعد إلى أفق الملا الأعلى يعيش مع الملائكة ، وأن أمة سعيدة بالعلم والخلق لا تميل إلى الجور ولا يقودها الهوى ، وهي رفيقة بالضعفاء لا تم لها إلا إسعادهم ، ثم ترى هذا الفرد وتلك الأمة تنزوي في درك أسفل من الحور والنظم وسوء الطباع وفساد الأخلاق ، لأن الفرائض تحركت فتمزقت الأستار ، وظهر الإنسان كما هو ذلك القبيح يعيش مع الوحوش في الغابات . والشواهد ماثلة أمام الأعين .

أليس بما يحب الله في كماله وحكمته أن يوجد هدى إلى طريق الإنسان خالقه والدار الآخرة ، وما أعده فيها للصلحين وغيرهم ، جزاء أعمالهم ، ويومم له الطريق ويبين له حقه وحق غيره ، ويضع لغرائزه حدودا ، ويحمي ثمرات العقول وثمرات الجسد في كسب الرزق ، ويذله على ما هو طيب ، ويحرم عليه الخبائث ، ويضع له أصول العدل ، وقواعد الأخلاق ، ونظام الاجتماع ، حتى يحيا حياة سعيدة يبال بعدد آخره سعيدة ؟

نعم : هذا ما يليق بحكمة الحكيم العليم ، وقد فعل فأرسل الرسل ترى ، وأنزل الكتب تتنوع ، حتى ختم الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وختم الكتب بالقرآن .

« فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » :

الشهود والشهادة : الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة ، ولا تقول العرب : شهد الهلال ، بل تقول : رأي الهلال ، وعلى ذلك فشهود الشهر مقام المقيم في داره والمعنى من أقام في الشهر فليصم ما شهد منه ، فإن سافر وهو صائم فله الإفطار . وقد تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج طام الفتح من المدينة بعد ما صام بعض الشهر وأفطر وأمر أصحابه أن يفطروا .

وقد أجمع العلماء على وجوب الصوم على المقيم القادر ، وعلى أنه لم يبق للسلم الخيار بين الصوم والإفطار مع التقدير ، فقوله تعالى : « وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ »

مخصص للوجوب السابق في حق المريض لا غير ، لأن المسافر لم يدخل في قوله : « فن شهد منكم الشهر » .

وشهود الشهر والحضور فيه قد يكون حقيقيا لمن لم شهر يحضرون فيه ، وقد يكون تقديرية كأولئك الذين يمشون في البلاد القطبية وما جاورها ، فانهم يقدرون الشهر إما على البلاد المعتدلة مثل مكة وما في حكمها ، وإما على أقرب بلاد معتدلة اليهم .

وقد أفاد الله تعالى بقوله « فن شهد منكم الشهر فليصمه » حكم المقيم وحكم المسافر بطريق المنطوق والمفهوم . ولو قال « شهر رمضان فصوموه » لاحتاج الى أن يقول إن كنتم مقيمين . وهذا من النظم .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتُكَلِّمُوا العدة ، ولتُكَبِّرُوا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » :

اليسر : السهولة . والشكر : تصور النعمة وإظهارها ، ضد الكفر وهو نسيان النعمة وسترها .

والمعنى : أن الله سبحانه رخص لكم في القطر حال السفر والمرض لأنه لا يريد بكم العسر ، بل يريد بكم اليسر ، ويريد إكمال العدة ، فمن لم يكملها أداء لعذر السفر والمرض ، أكلها قضاء بعد البرء من المرض والإقامة من السفر ، ويريد منكم أن تذكروا دائما جلالة وعظمته ، وتذكروا نعمه ، وتشكروا هذه النعم ، فان تذكر ذلك بحملككم على ملازمة العبادة والطاعة ، وعلى أداء حقوق العباد ، وفي ذلك صلاحكم في المعاش والمعاد . واللام في هذا التركيب لام كي ، والعرب تدخل عليها الواو فتدل على تقوية المعنى ، وتكون الية على إظهار فعل بعدها . تقول : جنتك لتحسن الى ، فإذا قلت : جنتك وتحسن الى ، فانت تريد وتحسن الى جنتك ، فدللت الواو على تكرار الفعل . ومنه . « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » . ومعناه وليكون من الموقنين أريانه . والمعنى : ولتكلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولتشكروه شرعا هذه الاحكام من وجوب الصوم على المقيم القادر ، والترخيص للمريض والمساقر .

وليس المراد باليسر ما كان سهلا على الاطلاق ، فانه لا يوجد تكليف لا مشقة فيه سواء أكان التكليف عزيمة أم رخصة ، بل المراد منه مالا يكون فيه جهد مقلق للنفس مشوش عليها ، ومشقة تخرج عن العادة المستمرة .

ويمكن أن يقال ، كل عمل يؤدي الدوام عليه الى الانقطاع عنه أو عن بعضه ، أو الى خلل في النفس أو المال ، أو الى أحوال من المشقة خارجة عن العادة فيما يستطيع الانسان ، اعتبر شاقا لا يكلف الله به ، وإلا اعتبر غير شاق وصح التكليف به مع ما فيه من المشقة .

وكمثل الشارع في التكليف مثل الطبيب يعطى المريض الدواء المرء، ويحمله ألم الكلى وهو لا يقصد الى إيذائه أو إغثائه ، وإنما يقصد الى مصلحته ، كذلك يكلف الشارع عبادة بما يمود عليهم بالخير ، وقد يكون في التكليف مشقة لكنها غير مقصودة . ولهذا لا يجوز لأحد أن يقصد الى المشقة لينال عظيم الاجر ، بل يجب أن يقصد الى العمل نفسه لما فيه من الخير لا لما فيه من المشقة

والأفعال التي فيها مشقة قد تكون المشقة فيها لنفس الفعل بحيث لو وقع مرة واحدة لو جدت ، وهذا موضع الرخص . وقد تكون المشقة من ناحية الدوام لا من ناحية الأفعال ، وهذا هو الضرب الذي طلب الشارع فيه الرفق والاحذ بما لا يحدث ملاما . وقال صلى الله عليه وسلم : « حدوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله عز وجل لن يمل حتى تمروا » وفي حديث معاذ عند ما أطال الصلاة : « أفتأنت يا معاذ ! إن منكم منفرين ، فإذا ما صلى أحدكم بالناس فليجتوز فإن منهم الكبير والضعيف وذو الحاجة » .

وقد أشرنا من قبل الى أن كل واحد بالنسبة للرخص مفتى نفسه ما لم يحد لها حد شرعى ، فيجب الوقوف عنده ، وأحوال الأشخاص مختلفة باختلاف قوة الصبر وضعفه ، وقوة الجلد وضعفه ، فليس للمشقة المعتبرة في الرخص ضابط أو حد يطرده ، ولذلك أقام الشارع في جملة منها السبب مقام العلة ، فاعتبر السفر مثلا لأنه أقرب مظان وجود المشقة ، وترك كثيرا منها موكولا الى اجتهاد المكلف كالمرض . ومن الناس من يقوى في مرضه على ما لا يقوى عليه آخرون .

والفرق بين ما يسمى عزيمة وما يسمى رخصة : أن العزائم تطرد مع العادات الجارية ، والرخص تعرض عند تخلف العادات . والكلام على هذا يطول . وتتبع اليسر في عزائم الشريعة ورخصها يستدعى مفرأ ، وفي هذا القدر الآن غنى .

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ، « أحب دعوة الداع إذا دعان » ، فليستجيبوا لى وليقمنوا لى لهم يرشدون :

فرض الله على عباده صوم رمضان ليعدم للتقوى ، وطلب منهم تعظيمه وشكره ، والصوم سر من الأسرار بين الإنسان وربه ، ومن الممكن أن تنتهك حرمة سراطوطا للشهوة ، فنبه الله سبحانه الى أنه قريب ، ومتى لاحظ العبد ذلك القرب خجل وملكه الحياء ، والله متره هن القرب المكاني ، وعن كل ما يتصوره العباد ، وفهم قربه لا تتركه الناس على سواء ، لذلك مثل الله هذا القرب بما يمكن أن يفهمه جميع الناس فقال : إنه قريب بحيث يسمع دعوة الداعى ويستجيب دعاءه . أما العلماء فقد يقولون : إنه أقرب الى كل موجود من وجود ذلك الموجود

إليه ، لأن ماهية الموجود لم تتصف بالوجود إلا بسببه ، فهو واسطة بين الوجود والموجود ، وإن كل ما هو موجود وليس له حيز يكون نسبة الامة كنهة إليه على سواء ، فهو قريب بذاته من كل شيء ، إذ كل شيء منه وإليه . فهو لاء العلماء يمكنهم فهم القرب على طريقة الحقيقة لا على طريقة المجاز .

ودعوة الداعي فسرنا بعضهم بطلب الحاجات ، وفسرها آخرون بالعمل بما ندب الله إليه وأمر به ، فالدعاء على هذا معناه العبادة ، بدليل قول الله سبحانه : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم دأحين » وعن العبدان بن بشر قال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة » وقرأ : « وقال ربكم ادعوني » الآية وعلى اختلاف تفسير دعوة الداعي اختلفوا في الاجابة ، فملى الرأى الأول هى اجابة الداعي الى ما طلبه من قضاء الحاجات ، وعلى الثانى هى الوفاء بما ضمن الله للمطيعين من الثواب والجرا . ومعنى قوله تعالى : « فليستنجسوا الى وليؤمنوا بى » فليستنجسوا لطاعى وايقبلوا عليها مستسلمين ، وليؤمنوا بى لهم من وراء الطاعة انبيهم وأجزل لهم الكرامة . ومما لا خفاء فيه أن الطاعة والايان موضع رجاء الرشد ، وهو إصابة الحق والعمل على مقتضى العقل والدين والعادات الصحيحة الموافقة لقواعد الاحلاق والمروءة . وهذه الآية من قبيل : « فن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » كلتاها تدل على أن نور الايمان وقوته لا يصل العبد اليهما إلا بتقديم العبادات والطاعات . وفي هذا الموضوع شبهة مشهورة ملخصها : أن الاقدار سابقة ، والأفضية متقدمة ، والدعاء لا يزيد فيها ، وتركه لا ينقص شيئاً منها ، فأى فائدة منه ؟ وهذه الشبهة واردة على من فسر الدعاء بالعبادة .

وقد أجابوا عن هذه الشبهة بأنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر الدعاء ، وله أدعية مأثورة ، وكانت الصحابة كذلك ، واستمر هذا الى اليوم ، والتشكيك فيه إسكار لضرورى من ضروريات الدين ، فنحن نؤمن بالدعاء وفائدته ، ونؤمن بالقدر ، ونعترف بالمعجز عن التوفيق ، وليست هذه أول مسألة أفر للعقل أمامها بالمعجز .

وشبهة أخرى هى أن وعد الله حق ، وقد وعد بالاستجابة عند الدعاء مع أننا نرى كثيرين يبالبون فى الدعاء ثم لا يجاب لهم . وللعلماء فى هذه الشبهة وجوه ، أفضلها أن الداعي الذى تتحقق فيه صفات الداعي . وهى الاخلاص لله ، والعناء فيه ، وطلب ما يمكن تحقيقه وفقاً لجارى العادات ، لا بد أن يعينه الله على ما غاب عنه من الأسباب ، وأن يقضى بعد الأخذ فيها حاجاته . والسلام عليكم ورحمة الله

قصر نظر الماديين

وقيمة آرائهم

تأثير مفاهيمهم في حل الجماعات البشرية

يدعى أصحاب الفلسفة المادية أنهم يتحددون في نظمهم الاجتماعية ، وأصولهم الأدبية ، النواميس الطبيعية ، فهي في نظرهم الأصول العامة الخالدة التي لا مناص للإنسانية من اتباعها إذا أرادت أن تقوم على أساس ركين من الصولة الاجتماعية ، والكفاية الخلقية . ولقد امتتن الكثيرون بمذهب الماديين لجرد دعوائهم هذه ، إذ ليس يصح أن يفصل نظام بشري قد يكون مبنيًا على أوهام وعقائد باطلة ، على نظام طبيعي آلى ابتنى عليه الوجود كله ، وجرى عليه من أزل الآزال الى اليوم .

هذه شبهة ، بل هي أساس جميع شبههم المتعلقة بالاجتماع البشري وآدابه ، وبالتناحر المعاشي وأسلوبه .

وكما هي شبهة هي أيضا موضوع بحث جايل في مكان الانسان من العالم ، وفي علاقته بالكون ، والقوانين العاملة فيه ، وفي نفسية الانسان وكه القوى الأدبية القائمة به .

يضال الماديين ما يرونه من أن النظام الآلى المحض هو السائد في كل حوادث الكون ، ويصفون هذا النظام بأنه لا يصدر عن إرادة ولا اختيار ، ولكن عن طبيعته الخاصة ، وهي النظام المطلق والاستمرار ، ولا يمدون بأبصارهم كما هي عادتهم الى ما وراء ما يشهدونه من الظواهر القريبة منهم . فهم يرون الكواكب تسبح في الفضاء ، فيقررون بأنها دائرة بقوة ذاتية فيها مستمدة من القوى الكونية . ولكن ما هي هذه القوى الكونية التي هي مصدر ومرجع كل شيء ؟ ولأية علة لا تقوم بها ولا تصدر عنها إلا كائنات منظمة ؟ إن ساءلتهم على هذا النحو أبايوك : لآها قوى منتظمة مطبوعة على النظام من الأزل . وهذا في نظرهم جواب مرض ، ولكنه ليس كذلك في نظر المثبتين ، من العلماء العاملين . قال الأستاذ وليم كروكس وهو أكبر كيميائي من الانجليز وحامل جميع ألقابهم العلمية في خطابة الرئاسة لجميع العلمى البريطانى قال :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك الى أى حد هذه النتائج ، أو النواميس كما نسميها ، محصورة في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم (تأمل) » .

وقال في خطبة أخرى في صفحة ٣٦ من مجموع خطبه :

« إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذي يعمل على موجب شكل من أشكال القسوة . ونحن نستطيع أن نعلم حركات الذرات المادية كما نعلم حركات الأجرام السماوية ، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكننا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه الى حل أهم مسألة وهي : أى نوع من أنواع الارادة والفكر (تأمل) يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية مجبراً يراها على اتباع طريق مرسوم من قبل ؟ وما هي القوة العامة التي تؤثر من خلف هذه الظواهر ؟ وأى ازدواج من الارادة والفكر (تأمل) يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجا عن نواحيها الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟ »

هذه أقوال رجل كل شغله محصور في القوى الطبيعية وآثارها تحليليا وتركيبيا ، فهو أعلم بطبيعتها وألوارها من أصحاب الفلسفة المادية الذين يكتفون منها بالنظرات السطحية . فانظر كيف أظهر حيرته في فهم القوة العامة من وراء الظواهر الطبيعية ، وهذا دليل بئس على أن الماديين يقصرون نظرم على ما هو قريب منهم مهملين ما وراءه مما يوجب إطالة الروية ، وإجادة التفكير ، لأن كل مذهب أو رأى يبنى على النظرات السطحية لا يقنع المطامع لعقلية ، ويقوم سدا منيعا دون الترقيات العلمية .

وقد اشتهر الماديون ، وخاصة في هذا العصر ، بأنهم سراع الى تصيّد الطبيات العلمية التي تنفعهم في بناء فلسفتهم ، معنيين أنها حقائق مقررة ، وما هي إلا آراء مؤقتة ، يرجع قائمها عنها لأول صدمة من آراء أقرب الى الحق منها . لذلك لم يحجم عالم مثبت من إعلان مسخطة عليهم ، وتشهيره بهم بسبب نزعتهم هذه . قال الأستاذ (أندريه كريسون) مدرس الفلسفة في جامعة ليون في كتابه (قواعد الفلسفة الطبيعية) صفحة ١٧٠

Les bases de la philosophie scientifique

« العلم الطبيعي لا يعطيا على الوجود في مجموعه إلا معارف مبهمّة غاية الإيهام ، فاننا لا نعلم العدد الحقيقي للنجوم ولا الكواكب التي تحيط بالشموس البعيدة . فإبداء فرض والحالة هذه على تركيب مجموع الكون لا يمكن أن يكون إلا تخمكا فالنلاسة الطبيعيون المنتهون يرفضون أن يبنوا من النظريات ما يمكن أن يسمى بالرواية الخيالية للسماء ، فهم لذلك يفضلون القيام على أرض ثابتة أقرب الى روح العلم .

الى أن قال :

« ما هي الفلسفة الطبيعية اليوم في الواقع إن لم تكن عقيدة فوق متناول العلم ؟ هل يقتصر المادى على قول ما يعرفه ؟ هل يمنع من الحكم على الأشياء التي يجهلها ؟ لا ، ولذلك تجد

مذهبه يكبر ويمتد لانه في كل خطوة من خطواته يحمل العلم ما ليس عنده . فتراه تلججها أو تصرح بما يؤكد لك بأنه سيجعل مسائل لم يحلها العلم ، وأنه سيثبت فيها من وجهة معينة . أحقق الكيميائيون التركيب الحيوى وأثبتوا إمكان حدوث التولد الذاتى ؟ أفسر أحد أصل التمثيل الوجداني ؟ أصارت أصول فلسفة الدشوء والارتقاء نامة ، وتترت عن كل صموية ؟ أقامت نظرية المادة والقوة على حالة نهائية ؟ أنفق العلماء على جميع النقط التى يبحثونها ؟ أصار بما لا جدال فيه أن جميع ما فى الوجود خاضع لنظام آلى لا يتغير ؟ ألا يوجد عالم إطلاق تتخلف فيه النواميس من جهة أخرى ؟

« يستطيع العالم المدقق أن يجيب على هذه الأسئلة بأنه ربما كانت له على هذه الامور عقائد مؤسمة على الظنيات ، ولكنه لا يستطيع أن يثبت فيها بالقول الفصل الذى يتطلبه العلم . ومع ذلك فالفيلسوف المادى يتكسب هذا التثبت وينفى مذاهب وهو هادى البال ، ففعل من يعتقد أن الاستكشافات المقبلة لن تكذبه .

الى أن قال :

« إن قيمة ما يظهر لنا أنه أشد المعارف ثبوتاً ، وأوضحها صحة ، لا تزال مشكوكاً فيها من وجهة علم الملل الاولى ، ولا يستطيع أحد أن يثبت أنها حقيقية ، كما لا يمكن أحداً أن يثبت أنها باطلة .

الى أن قال :

« فالتى يغتر بمقررات الفلسفة الطبيعية لا يجوز له أن ينسى أن هذه النتائج لم تثبت ثبوتاً مطلقاً ، ولا يمكن أن تصل الى هذه الدرجة أبداً . فهى تفوق جهد العلم المصرى بما لا يقدر ولا يمكن أن تعلق صحتها دون التسليم بهذا الأصل الخطير وهو : أن الشيء الذى لا يستطيع عقلنا أن يشك فيه هو الحقيقة الواقعية ليس إلا » انتهى .

والذى يدعونا ويدعو رجال العلم والحكمة فى العالم كله الى تتبع حركات هؤلاء الماديين أن كتاباتهم تلقى رواجا عند الذين رشقوا من مناهل العلم رشفاً ، ولم يعبروا منها عباً . ومما يؤسف له أن هذه الطنقة تستوعب جمهوراً من المتعلمين ، لأن متابعة طلب العلم الى النهايات التى وصل اليها أئمتة المنبثتون لا يأتى إلا للأقلين ، فتجد آراء الماديين سيلاً مهتجاً الى أذهان تلك الطنقة الوسطى ، فتحدث فى نفوس أهلها زعوا الى الافلات من كل لقيود التى فرضتها الاساسية على أهلها ، ومن كل التكاليف التى طالبتهم بها ، ذهاباً منهم الى أن هذه القيود والتكاليف قضت بها الوساوس الوراثية ، والأوهام التقليدية . وهذا هو أصل الأدواء الدوائية التى تشكونها البشرية برمتها اليوم ، وأعراضها تختلف باختلاف البيئات والجماعات ، ولكنها تتحد كلها فى إقرار النفوس من فضيلة الاعتدال ، وفى عدم الوقوف من طلب

الانقلابات عند حد . ومن يتأمل يجد العالم في حالة من الاضطراب والقلق لم يكن عليها في عهد من عهوده السابقة . فكل أمة تتربص بجاراتها الدوائر ، وتعمل على أن توقعها فيما تنصبه لها من الحبال ، وتبذل الاموال الطائلة لاثارة بعض طوائفها على بعض ، حتى أصبح العالم وكأنه على وشك حرب ، حرب بين الشعوب برمتها لا بين حيوشها ، فالحكومات تعمل على إعداد جميع الرجال وجميع النساء على التناحر ، ولا تدخر الأموال فانها تقدم لها بوسائل شتى أيضا . هذه الحالة لم تكن عليها الانسانية إلا في دور الحياة القبيلية ، فالمود اليها ، وتحت تصرفها هذه الوسائل الموقفة ، يعتبر نكبة عليها لا تعدلها نكبة في تاريخها كله .

وقد شعر بهذه الحالة الخطيرة علماء الاجتماع وفلاسفة الاخلاق فكثفوا فيها كتابات مزيجية لنشر مثالا منها ما كتبه العلامة الكبير الاستاذ (ماكس نوردو) الألماني في كتابه (الأكاذيب المتفق عليها في مدينتنا الحاضرة) قال :

« الانسانية دائبة وراء البحث عن العلم والسعادة ، ولكنها لم تكن في عهد من عهودها أبعد عن الارتياح اليها ، والغبطة بها ، مما هي عليه في هذا العصر .

« نعم إن العلم والمدينة ينتشران في كل مكان ، ويرفعان أعلاهما في أكثر البقاع جهالة وجاهلية ، وكل يوم يظهر اكتشاف عجيب يحمل الأرض أكثر ملاءمة للسكنى ، وشدايد الحياة أحف وطأة على النفس ، ولكننا نرى الانسانية رغمها عن توافر شروط السعادة والهدوء تزداد كدرا واضطراب بال ، ورى العالم المتمدن قد استحال الى باحة مكنته بالمرضى ، يعلأون الجو بعيولهم المؤلم ، ويتلوون متأثرين بجميع صنوف الأوجاع . قطف الأرض بلدا بلدا ، واطرق كل باب ، ملقيا على أهل كل بيت هذا السؤال : هل يسكن الارتياح هذه الدار ؟ وهل أنتم مطمئنون سعداء ؟ يجيبك جميع من تسألهم بهذا الجواب : ابحت عما نطلب بعيدا عنا ، فليس لدينا ما تسأل عنه ! ثم تسمع الأصوات على حدود بلادك ، تحم الزياح تحمل اليك صيحات المعارك والحروب والثورات »

ثم أخذ الفيلسوف الألماني يفصل أحوال الأمم الأوروبية أمة أمة ، مثبتا أنها جميعا في قلق وهم واضطراب ، ثم قال :

« هذا هو الوصف المميز لعصرنا الراهن ، كما كان الوصف المميز لأسلافنا الأقدمين الغبطة بالحياة ، ولاهل القرون الوسطى التقوى والصلاح .

« فكل إنسان اليوم يشعر بضجر وعدم احتمال يعزوها الى ألف طارض من الأسباب ، وكلها ليست على شيء من الصواب . وتراه محولا على أن ينتقد جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، بل ويحكم عليها بالفساد . وقد اعتاد بعض الناس أن يعتبر هذا الضرب من عدم الاحتمال الذي

تحمله المؤثرات الخارجية الى غضب وقنوط ، من فبيل الأمراض المعوية ، وقد يدعوه بعضهم الآخر تشاؤما ، ويسميه غيرم إلحادا ، فتحترف الاسماء والمرض واحد على السواء .

« هذا المرض الأدنى يصادف في جميع مظاهر العقل النشوي اليوم ، فتجده في الآداب والفنون ، في الفلسفة والعلم ، في السياسة والاقتصاد .

« هذا الاضطراب العام ، وهذا التفرق النفساني ، يؤثران سوا تأثير في حياة الأفراد ، فتري الخوف يساورهم من كل مكان في ألف مظهر ، وناقذار مزعجة ، متى اصطبروا لتصور العالم في شكله الصحيح . لذلك ترام يندفعون لتضليل مداعرم وحواسمهم ، وإفساد أعصابهم بقناول المخدرات ، مظهرين بذلك ذعرهم من حقائق الأحوال ..

« فهذا الافساد للفطرة الانسانية ، وهذا الحرب الوقتي من وجه الواقع ، نتيجتهما الطبيعية الخروج منهما بترك الحياة نهائيا ، فان عدد المستعزين يزداد يوما بعد يوم على نسبة ما يستهلك من الحر ، ومن المواد المخدرة الأخرى في كل مكان ، وخاصة في البلاد المتقدمة ، وتري كل رجل في هذا العصر يطوي على حالة من الحلي تكسب محاولاته للحياة مظهرا وحشيا جهنميا لم يكن يمهده عليه الانسان في الأزمنة الفائرة .

« يشكو الناس اليوم من ضياع الأخلاق ، فهل يسمح الإلحاد بها وقد أزال الإيمان من القلوب ، وأزال معه المبادئ الصالحة ؟ فادأخذت النحلة القطبية ، وراى القلب الكهربي ، أصبحت البوصلة مادمة الجدوى . والإلحاد نفسه — وقد أصبح مرضا شائعا — ليس في حقيقته إلا وجها من وجوه عدم الارتياح من كل ما هو موحود ؛ فالقول بأن كل شيء باطل ، وبأن ليس في الوجود شيء حدير بالطلب ولا بالمحاولة ، ولا بأن يعتك فيه الواجب والهوى ، هذا القول لا يكون له سلطان على النفس إلا إذا كان صاحبها يحتمل كل شيء ، ويعتبره ناقصا ، وليس فيه مقنع لحجاء .

« لقد كانت الانسانية في قديم الأزمان تشكو مما تشكو منه من القلق وعدم الارتياح ، ولكن الذي منعها أن تنور ثورتها أنها كانت تستمد من إيمانها تعزية وسلاما يحصلانها تحتل جميع المصائب وهي مطمئة مستبشرة ، فان الذي ينظر سعادة أخروية ، يسهل عليه أن يصبر على شر وقتي ، ويخف وقعه عليه .

« فن أي العوامل نشأت للانسانية هذه الحالة النفسية التي لا تحتل ؟ إنها نشأت من السبب الذي كان يوحى الى الرومانيين المتملمين كراهة الاستمرار على حياة ليس لها معنى ، فكانوا يقتنعون بأنهم لا يستطيعون التحلص منها إلا بقتل أنفسهم .

« إننا اليوم ندرك الوجود على صورة مادة متمتعة بحركة ذاتية ، هي القوة الوحيدة التي ندركها على صور مختلفة ، ونرى أن هذه الحركة مقودة بسواميس ثابتة ، حققا بعضها

وحددتاه ، ولا يزال نتوقع تحقيق ما بقي منها ، وقد حُجِّلنا على أن نعتقد أن هذه السواميس ثابتة لا تتغير ، وحُجِّلنا أيضا على أن لا نبحت عن السبب الأول ، وعن أصل الكائنات .

« فإذا تنزلنا من مجموع الكون الى الانسانية ، أداما عقلنا العلمى الى اعتبار الانسان جزءا لا يفصل عن الكائنات ، والى أنه محكوم بالنواميس نفسها التى تحكمها ، وقد حيل بيننا أيضا وبين أن نعتقد أن للانسان مزايا خاصة ليست لغيره من حلقات السلسلة الحيوانية والنباتية .

« هذه هى مدركاتنا عن الوجود ، وقد استنتجنا منها جميع أصول الحياة ، وكل مبادئ الحقوق والآداب ، وقد أصسعت قواعد لمدنيتنا وقد قدر علينا أن نتخلص من سلطاتها .

« فهذا التساقض بين أعمالنا الاجتماعية وبين عقائدنا العلمية ، يحدث فى نفوسنا أسوأ الآثار وأشأمها ، فثقلنا منها كمثل الممثل الهزلى يضحك الناس بما يعمل وهو منه فى كد ومرارة انتهى .

أظنى لا أستطيع أن أدلل ما أكثر من هذا على مبلغ تأثير التعاليم المادية فى حل الجماعات وقضها ، وإيقار الصدور على الوجود ومافيه ومن فيه . وهذا دليل أدبى جديد على بطلان هذه الفلسفة ، لأن كل الظواهر تدل على أن الانسان خلق ليصير الأرض ويذهب فى استصلاحها كل مذهب ، وقد وضعت بين يديه جميع الوسائل الحافظة لكليانه ، والمربية لمواهبه ، والمكحلة لوجوده وفنشوء فلسفة تقلب هذا الانجاء رأسا على عقب ، وتكون ثمرتها تجريده من السمو الخلقى ، وملأه بالسحائم والاحقاد على الحياة ، يعتبر فى ذاته نشوءا فاسدا أدى اليه خطأ فى النظر ، وضلال فى التفكير ، لمخالفته لطبيعة العوامل التى أحيط بها الانسان ، ولتعطيله ما يظهر أنه المقصود من خلقه ، ومن تمكينه من جميع الوسائل الأدبية والمادية التى تحله هذا المحل الرفيع .

لذلك انتدب جميع الغيورين على حياة النوع الانسانى أن يعملوا على اجتناب أصول هذه الفلسفة المردية من العقول ، ورفع كابوسها عن القلوب بكل الوسائل العلمية والعملية .

ولسنا نشك فى نتيجة هذا التعابير ، مصداقا لقوله تعالى « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ، ولكم الويل مما تصفون .

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قل هو الله أحد » :

إنما قال : « قل » اعتناء بالامر واهتمام به ، وإشارة الى أن كل من ابتلى بالمبطلين فعلية ألا يخاف في الله لومة لائم ، مع لفت النظر الى أن هذا من عند الله لا من عند الرسول . ولك أن تقول : أتى بها تذكيرا برسالته ، وإعلانا بأنه مأمور بالتبليغ من عند الله تعالى . وعلى كل حال فهو من جملة ما نزل به جبريل عليه السلام ، وكل ما نزل به فهو قرآن ، والقرآن مأمور بتبليغه كما نزل .

ثم أتى بضمير الشأن للنبية من أول الامر على نغمة القصة ، كقولك : هو الأمير قد ركب . كأنه قيل : الشأن هذا ، وهو الله واحد لا ثاني له . مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير ، فإن الضمير لا يفهم منه إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الدهن مترقبا لما أمامه مما يفهمه ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده فصل تمكن . ولك أن تقول : إن هذا الضمير يؤتى به وإن لم يسبق له مرجع للإيدان بأن ذلك الشأن له من الشهرة واللباهة بحيث يستحضره كل أحد ، واليه يشير كل مشير ، وعليه يعود كل ضمير . ويجوز أن يكون هو ضمير المسئول عنه والمطلوب صفته ونسبته ، وهو إله مجد صلى الله عليه وسلم الذي سأله عنه ، فقد أخرج الامام أحمد في مسنده ، والبخاري في تاريخه ، والترمذي ، والبخوي في معجمه ، وابن عاصم في السنة ، والحاكم ومصححه ، عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى « قل هو الله أحد » . وصح رجوع الضمير الى ذلك المسئول عنه للعلم به من السؤال . والضمير على هذا الوجه مبتدأ ، والاسم الجليل خبره ، واحد خبر بمد خبر . وأجاز الزمخشري أن يكون بدلا من الاسم الجليل على ما هو المختار من جواز إبدال النكرة من المعرفة ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف : أي هو أحد . وأجاز أبو البقاء أن يكون الاسم الأعظم بدلا من هو ، وأحد خبره .

هذا وامنظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ، وأحد همزته مبدلة من الواو ، وقد قالوا : إن أحدا إذا استعمل وصفا لم يكن إلا الله تعالى . والمراد أنه تعالى منزه الذات عن جميع أنحاء التركيب والتعدد خارجا وذهنا ، وعن كل ما يستلزم الجسمية ولوارمها ، أو يقتضى المشاركة فيما اختص به تعالى ، كوجوب الوجود والقدرة الذاتية التي لا نهاية لها ، والحكمة النامة التي تجب للألوهية . فسحانك لا نحصى ثناء عليك ولو اجتهدنا ، أنت كما أثبتت على نفسك !

هذا وقد ذكروا فروقا بين أحد وواحد ، فقالوا : إن همزة أحد الذي لا يستعمل إلا بعد النى كما فى قوله صلى الله عليه وسلم « أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى » أصلية ، لأنه ليس بمعنى واحد ، فأنك إذا قلت : ما فى الدار واحد ، صح أن تقول : بل اثنان ، بخلاف ما إذا قلت : ما فى الدار أحد ، فإنه للننى العام . وفرقا بينهما أيضا بأن أحدا لا يثنى عليه العدد ، فلا يقال : أحد واثنان كما يقال واحد واثنان ، ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد ، بل هو مختص به تعالى كما علمت . والدليل على أنه سبحانه وتعالى واحد من جهة العقل : أن الواحد إما أن يكون كافيا فى خلق العالم وتديره أولا ، فإن كان كافيا كان الآخر ضائعا غير محتاج اليه ، وإن لم يكن كافيا فهو ناقص والناقص لا يكون إلها . على أن ما وراء الواحد ليس عدد فيه أولى من عدد ، فيكون وجود أى عدد من ذلك ترجيحيا بلا مرجح .

ولك أن تقول : إن أحدهما إذا فعل شيئا فقد سد باب الفعل على الآخر فلا يمكن نفوذ قدرته فيه ، والإله لا يمكن أن يمنع نفوذ قدرته غيره وإلا لم يكن إلها ، الى آخر ما قرره علماء الكلام فى علم التوحيد .

وبحسن بنا فى هذا المقام أن نحيب داعى الروح فنذكر لك هنا ما يشير بعبتك لله وتعلقك به ومعرفتك لمعظمته ، فإن هذا هو السعادة الأبدية التى يرى فيها الانسان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فنقبل ، ونرجو أن نكون من الذين رزق ذوقهم ولطف وجدهم :

إذا كنت تحب أحدا لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ، فأحب الله تعالى الذى أتقن هذه العوالم كلها ، وأودع فيها من الأسرار ما أدهش فلاسفة أوربا بإشراق شمع من نور قمسه ، حتى قال سنسر الانجليزى ما ترجمته « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الاسمى أن يشرف الانسان على ذلك السر الباهر ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى اليها علم الطبيعة » . ويكفيك ما اشتمل عليه الانسان من الأسرار المدهشة التى تكفل بها علم التفسير وعلم وظائف الأعضاء مما بهر علماء الفريولوجيا فطاموا له الرؤوس ، وعشوا أمامه كما يعشوا الخماش أمام الشمس .

وإن كنت نحب أحدا لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تديره من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين ، وقيوم السموات والأرضين ، ورب العالمين ، ومدير الخلق أجمعين ، من أمره بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئا قلنا يقول له كن فيكون .

وإن كنت نحب أحدا لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تربيته في باب الفضل والمكارم ، فأحب منيع النعم ، ومعدن الكرم ، وأين كل ما تتخيله إذا قست به قفيرة من بحار فضله ؟

وماذا نعد لك من نعمه أو نسرده عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة في الوجود ، وأنه رب الكرم والجود : « مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ولعمري الإيلاف إن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأفلام وتخرس فيه الآلسن ، ولن تطبق شرح نعمة واحدة من نعمه . وانظر إن شئت لنعمة الهواء التي يتوقف عليها وجود كل حي ، إلى آخر ما يتفرع منها ويتشعب عنها . وإن شئت فانظر إلى نعمة الصياء أو الماء وما أودعه في الأشياء من الكهرباء بياهر حكمته وعظيم تديره « ذلك تقدير العزيز العليم » . « وإن تمدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظالم كغفار » . وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الانعام الفائق على كل من في الوجود ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود : الفيلسوف لينه الفريولوجي الفرنسي الذي كان يدعوه وجدانه فيحييه ويصاحبه شعوره فلا يتغافل عنه ، قال : « إن الله الأزل الكبير العالم بكل شيء ، قد نجى لي ببديع صنائمه حتى صرت مدهوشا مبهورا ، فأني قدرة وأني حكمة وأني إبداع ودعه مصنوعات يده سواء في أصفر الأشياء أو أكرها ! إن المنافع التي نستمد منها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذي صخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها يبيّن تواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشي ونجدها يقر بجلالته وعظمته » .

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت نحب نفسك وكمالها فأحب من أوحدها في أحسن تقويم ، وشق صنمها وبصرها ، وأسع عليها نعمه ظاهرة وباطنة ، ولم يقتصر كرمه على إيضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات ما تنوع به لذتك وتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه وقد غمرتك نعمائه ، وأشرق عليك صياؤه ، وعذب لك ماؤه ، ولطف هواؤه ، وألعتك بدائع أكواه : من رياض غشاء ، ومحار فيحاء ، وأثمار شهية ، وألوان بهية ، ولغات شجية ، ومناظر تطير بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب : من شموس وأقمار ، وأطياف وأزهار ، وليل ونهار . أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات والدلائل الباطقات والمع

الأنفصات ، ما قال ذلك البدوي الذي لم تفضله المدينة وزخرها عن أن يرجع الى قلبه ويستمتع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواء اذكار وليال خـلاطن نهار
وجبال شـوانخ راسيات وعيون مياهن غـزار
ونجوم تلوح في جنح ليل مشرقا في كل يوم تدار
وشمس مصينة للبرايا في نهار وفي الدجى آثار
ورياح تهب من كل فج وروق وراءها أمطار
إن شأن الاله شأن كبير حل ربنا وجلت الآثار
والذي قد ذكرت دل على اقـسه نفوسا لها هدى واعتسار
أو تقول كما قال ذلك القائل :

يقولون أين الله أين عجائته وذالك كون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والايمان ملء قلوبهم ويدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ في الجوى يرسل طرفه إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول : الله في عرش مجده وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجب ربى في الأنام كثيرة ولكن جهل المرء لا شك فالبه

أو يقول عندما يرى الأشجار تنهذى في حلل الأوراق والأزهار معجبا برؤيتها متعجبا من قدرة خالقها :

يا صاحبي تعجبا للملابس قد حاكها من لم يجد لها يدا

فقل لى تعيشك هل من الحياء ، والحياء خلق كل كريم ، أن تتمتع بما خلق الله لك من الأصواء ، والأصباح والأمصاء ، وما أوجد لك من بديع الأشياء ، وسفر لك من الأرض والسماء ، وكان الامر على ما يقول عز وجل « وأسع عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ثم لا تؤدى شكره ولا تعرف قدره ؟

إني لأعجب ممن قد رأى طسفا من فرط لطيفك ربى كيف ينساك

فإن كان لا يؤثر في نفسك فأنت إنعامه ومزيد إحسانه ، ولا ما هو عليه من قدرة يتحير فيها المأطرون ، وعظمة لا يصفها الواصفون ، وعلم لا يعزب عنه مثقل ذرة في الأرض ولا في السماء ، وحكمة تنق بها جميع الأشياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نورت الجلال وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك إلا سلطان الحس الذي تشاهده عينك أو تلمسه بيدك ، فأعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فأما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق يحل من الحسود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من مظاهره

إلا بعض سريره ، ولا تغفل لك أى مرآة من مراياه إلا بعض مزياه ، وأنى يسع المحسود
من لا يقبل التحديد ، وكيف لا يضيق المقيد بمن لا يدخل فى سجن التقييد ؟

إن قلت هذا فإن الحد يحصره أو قلت ذا فكلام لست أدريه
أو قلت عندى جاء الطرف يطلبه والطرف حق ولكن ليس يحويه
ما إن رأيت وجوداً لست أدريه إلا الذى أما معنى من معانيه

فطوبى لمن شم عرف شده ، أو شام برق سنه ، وهتينا لمن شرب قليلا من مدامه ولو مزجا
أو نظر اليه ولو شزرا ! فإذا لم يدرك ما هو تأتى اليه ومتلف عليه قال :

شئ به فتى الورى وهو الذى يدعى الجلال ولست أدري ما هو

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشاققون الله ، أتدرون لماذا ؟
لأنهم يتوفون الى إصلاح لا يتماهى ، وجمال لا يتماهى ، وكمال لا يتماهى ، وليس ذلك إلا الله .
فارجع الى سلامة فطرتك ، وحدق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك الجلال الإلهى الذى تجللى
على صفحات الموجودات ، واقرأه بين سطور تلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله الى أى حد
انتهيت ، ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الاحساس بالجلال إلا وقد
وصلت الى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن عند ما تحس بحجمال لا يتماهى ، وغرقت فى بحر من
الجلال لا يحمد ولا يأتى عليه التعبير . عند ذلك ينطق لسان طالك منشدا :

عجبت لعاقل فى الناس أصحى يرى هذا الجلال ولا يهيم

فاستحل هذا الجلال رعاك الله فى كل شئ . تراه من العلويات والسفليات :

إن شئت فى فلك أو شئت فى ملك أو شئت فى مدرأو شئت فى حجر
فالكل ينطق أنت الله خالقه وهو المليك ورب النعم والضرر

وهل الشمس وهى أظهر ما علمت ، وأبهر ما رأيت ، وأجل ما وقع عليه البصر ، وأبهى ما وصل
اليه النظر ، إلا أثر من آثاره ، ومور من أوارده ، قد كتبت عليها سطور البهاء والجمال ، والعزة
والجلال ؟ أفنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة تقف أمامها مبهوتين ، وجمالا يذوقه
الوجدان وإن كان لا يكيفه ، ونعتلى به النفس وإن كانت لا تعرفه ، ونطالع فيها رحمة تجعلنا
قائلين بلسان الشاكرين : تبارك الله أحسن الخالقين ! وحقه ، وما أكبر حقه ، لو تفرغت من
الشواغل التى أخذتك ولم تدع منك شيئا لعشقت فدقت فتنطقت فقلت :

تراه إن غاب عني كل جارية فى كل معنى لطيف رائق بهج
وفى مساقط أنداء العمام على بساط نور من الأزهار متج
وفى مسارح غزلان الخائل فى برد الأصائل والأصباح فى البج
وفى مساحب أذيال اللسيم إذا أهدى الى سحيراً أطيب الأرج

عظم والله الرهان وامتلأ الوجدان ، ووصل الامر إلى حد العيان ، وليس بعد العيان
بياناً ولكن قويت الانوار فغشيت الانصار ، وكل ما اعتيدت مشاهدته وتكررت
وؤيته سقط عن القلب وقعه وإن عظم قفحه . ولكن المهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن
أخلد إلى الأرض من الغافلين الجامدين :

خليلى قد طال المقام على القذا وحال على ذا الحال يا قوم أحوال
يمر زمانى بالأمانى وينتضى على غير ما أبغى ربيع وشوال

فالمطلب رماك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت ، فإن كنت تحب أحداً لما
بيك ويومه من التشاكل والتناسب فأحب الملائكة على سكان ملكوت الله تعالى ، فإن فيك
ما يشاكلهم تمام المشاكلة « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمرى » وليس غذاء
هذا الجوهر الفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا الصفاء ، ولا أمنيته إلا الاطلاق
من جميع التقييدات ، والاطلاع على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك
نسيت مالك الأول منذ فارقت واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسماني الذي لا بدله من الفناء
فأنست بالظلمات وتعمرت على احتمال الآفات :

من بين يسهل الهوان عليه ما الجرح بعيت إسلام

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت ، لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصيته
التي هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به
في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » . وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية
حتى أنستك عالم البهجة والبهاء وصرت لا تعرفه ولا تحس به وإنه لموطن روحك ومحل أسك ،
وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها ، وأما مطلبها الداني
وغداؤها الأصلي فهو الاسرار والانوار ، ولما طال بها العهد وهي في سجن الظلمات ومحل
الآفات نسيت ما هي مستعدة له ومخلوقة لأجله ، وهو في الحقيقة نسيان لنفسها « نسوا الله
فأنساهم أنفسهم » فكان لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كأن لم يكن بين المحزون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
أسأل الله أن يعيد لأرواحنا محبتها الأولى ، ويخلصها من أسرارها التي أضغفت منها تلك
الحاسة العليا ، التي هي مناط لقبتها الكبرى ، وشرفها الأعلى ، وخاصيتها الأولى ، ويرزقنا عبة الله
وعبة الانبياء الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس معه وكرمه ، إنه على ما يشاء قدير ،
وبالإجابة جدير

بموصف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

السنن

الحث على الصدقة والصبر على المظالم

عن أبي كبشة الأنماري رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاث أقسم عليكم وأحدثكم حديثا فاحفظوه — قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلة صبر عليها إلا زاده الله عزاء ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، أو كلمة نحوها » من حديث حسن صحيح رواه الترمذي وابن ماجة ، ونقله الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) هل يجوز القسم بدون حاجة كما أقسم الرسول في هذا الحديث ؟ (٢) معنى ما نقص مال عبد من صدقة . (٣) معنى الظلم وآثاره الصارمة بالجنح الانساني . (٤) آثار مصايقة الناس بالسؤال الذي نهى عنه الحديث .

١ — اتفق المالكية والحنفية على أن الأصل في اليمين الجواز ، فيجوز للسكف أن يحلف بالله أو بصفة من صفاته ، بدون كراهة ، على أي عمل من الأعمال ، ولكن الأولى له أن لا يكثر من الحلف لغیر حاجة . واستدلوا لذلك بما روى في الصحيحين من أنه صلى الله عليه وسلم كان يحلف بقوله « لا ومقلب القلوب » وربما كان يحلف بقوله : « والذي نفسى بيده » أي بقدرته يصرفها كيف شاء . ولم يذكر سببا لحلفه صلى الله عليه وسلم .

وقد خالف الشافعية في ذلك ، فقالوا : إنه يكره للسكف أن يحلف بدون حاجة . واستدلوا بقوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم » . والعرضة معاها الحاجز بين الشئتين . فهو يقول لا تجعلوا الله حاجزا لما حلفتكم عليه من ترك البر ، وذلك لأن الواحد منهم كان يحلف أن لا يصل رحمه مثلا ، أو لا يتكلم جاره ، أو لا يقضى دين فلان ، فإذا قيل له افعل هذا الخير اعتذر بالحلف ، فهم يجعلون اسم الله حاجرا عن أعمال الخير ، فهام الله عن ذلك بقوله : « ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم » . ومعنى الإيمان هنا : أعمال البر التي كانوا يحلفون على تركها ، فهو سبحانه يقول لهم : لا تجعلوا الله حاجرا عن أعمال البر . وسماها يمينا لأنها محلوف عليها ، ويصح لغة إطلاق اليمين على المحلوف عليه لتعلقه به .

فإنه تعالى قد نهى الناس عن أن يحلفوا باسمه على ترك أعمال البر ، ومتى صح النهي عن الحلف

في هذه الحالة فإنه لا يصح أن يقال : إن الحلف مباح في كل شيء ، بل هو مكروه بحسب الأصل ثم يعرض له ما يجعله واجبا أو حراما أو مندوبا أو جائزا . فيكون واجبا إذا ترتب عليه أمر لازم شرعا ، كما إذا توقف على حلقه إنقاذ إنسان يرى مصور الدم من الهلاك . وقد يكون حراما كما إذا حلف على فعل محرم : من زنا ، أو شرب خمر ، أو نحو ذلك ، فإن هذه عين محرمة ، ويجب عليه أن يحث فيها . ويكون مندوبا إذا توقف عليه فعل مندوب كما إذا حلف ليصلين سنة الظهر أو ليصوم يوم عاشوراء ، فإن الحلف في هذه الحالة يكون مندوبا وعابه أن يفعل المحلوف عليه ، فإن لم يفعل حنث ولزمته الكفارة . ويكون جائزا غير مكروه كما إذا حلف في دعوى عند حاكم وهو صادق ، أو حلف لنا كيد أمر في حاجة إلى التأكيد ، أو حلف لتعظيم شأن أمر من الأمور ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « والله لو تعلمون ما أعلم ، ونحو ذلك .

وحاصل رأي الشافعية أن اليمين في ذاته مكروه ، ولكن قد تعرض له الأحكام الشرعية على الوجه الذي بيناه . أما المالكية والحنفية فإنهم يقولون : إن الحلف في ذاته مباح ولو تعلق بفعل محرم أو واجب ، فلو حلف لا يصلي لا يؤاخذ على نفس الحلف ولكن يفترض عليه أن يحث ويكفر من يمينه . ومثل ذلك ما إذا حلف أن يزني فإن الحلف فرض لازم ولا يؤاخذ على نفس اليمين ، وإذا حلف على فعل واجب فإنه يجب عليه فعله . وعلى كل حال فإنه لا يؤاخذ على الحلف إلا في اليمين الضموس الذي بيناه فيما مضى في مجلة الأزهر .

ومظاهر الآية يؤيد الشافعية الذين يقولون إن الحلف بدون حاجة مكروه . أما الأحاديث التي يفيد ظاهرها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحلف بالله وصفاته في كثير من الأمور ، فإنهم يجيبون عنها بأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يحلف إلا لفرض صحيح كالحديث الذي معنا فإنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يلتفت الناس إلى ما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق ، وينههم إلى ضرورة الاستمسك بها ، فلذا أقسم عليه الصلاة والسلام

٢ — أما قوله صلى الله عليه وسلم : « ما نقص مال عبد من صدقة » ، فإنه يرشد إلى نظرية اجتماعية قد يفصل عنها كثير من الناس . وذلك لأن الفصح غالب على النفوس البشرية ، وحب المال وعدم التفریط فيه ولو كان قليلا غريزة لايسهل الفكاك منها . فالتى صلى الله عليه وسلم يريد بقوله هذا أن يهوتن على النفوس التصديق بما أمرهم به الله ورسوله ، لأن الله سبحانه لم يكلفهم عسيرا ، ولم يأمرهم بالتصدق بما يخل بأموالهم أو يجعلهم فقراء ، بل أمرهم بإخراج جزء يسير من أموالهم يستعين به الفقراء والمساكين وذوو الحاجة على قوتهم الضروري ، ففرض على الذى يملك قدرا معيناً من المال ربع عشره ، وفرض على الأغنياء والموسرين أن يتقذوا حياة الجائعين من الهلاك ، وأن يستروا عورتهم عند الضرورة فوق زكاة أموالهم ،

وكل ذلك أمره حين لا ينقص المال ، ولا يرهق صاحبه ، بل المسلم الذي يعرف قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » يستريح قلبه وتسكن نفسه إذا قام بطعام أخيه الجائع أو كسوته بلا نزاع

هذا المعنى يؤخذ من ظاهر الحديث . وقد يقال : إن المحسنين المتصدقين يكون لهم بين الناس منزلة سامية ، فكل الناس يحبون أن يعاملهم معاملة حسنة ، وكل الناس يحبون أن يروم ويتزاحموا على خدمتهم ، وهذا المعنى يعوض عليهم أكثر مما أنفقوه من الصدقات ، لأن أموالهم تكون مصونة يستكشف الناس عن أن يعدوا اليها أيديهم بغير حق . على أن لا ننسى أن الله القوى المتين قد يبارك للمتصدقين في أموالهم من حيث لا يشعرون ، وذلك معنى معقول قد وقع أمثاله في أحوال كثيرة ، ومن ذلك ما روى عنه البخاري عن عائشة رضي الله عنها من أنها كانت تأكل هي والرسول من مقدار من الشمير يخرون لديها ، فكنت تأكل منه زمنا طويلا يزيد عن الزمن الذي ينفد فيه مثل هذا الشمير أضعاظا ، فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن هذا الشمير قد طال به المدي ولم ينفد ، فقال لها : أحصيه ، فحصته وعرفت قدره ، فنفدت بعد ذلك .

ومن ذلك ما رواه البخاري من طعام أبي بكر لأهل الصفة ، فانه قد أكل منه عدد عظيم ولم ينفد مع أنه كان مصنوعا لجاعة محصورين . وغير ذلك كثير في السنة الصحيحة .

فالصدقة في ذاتها يسيرة لا تنقص المال ، ومع ذلك فما يظهه الأشعة من نقص فإن الله سبحانه سيموض عليهم بقدرته الظاهرة في كل الموجودات ، ويسخر لهم الأسباب التي تنهي أموالهم ، ويوفقهم إلى التمسك بها ، ولذا قال تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لييسره » . ومعنى هذا أن على المكلف أن يعطي من ماله ما أمره الله به ، وأن يتق ربه ، وأن يؤمن بأن جزاء العاملين عند الله هو جنات الخلود ، فإذا قام العبد بالواجب عليه من ذلك فانه سبحانه يسهل له القيام بالصلحات من حيث لا يدري بقدرته القاهرة ، وبذلك يكون جزاؤه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة .

٣ — أما الصبر فمحتاج في نظر الدين : منع النفس عن الجزع عن المصائب ونحوها ، ومنعها عن انتهاك حرمات الله ، وإلزامها بأداء فرائضه . وظاهر أن معنى الصبر في الحديث الذي معنا داخل في القسم الأول ، لأن عدوان الناس على الشخص في نفسه أو عرصه أو ماله مهيبة وضحة . فالصبر على مظالم الناس وإيذاتهم من أحل صفات النفس وأعظمها قدرا ، بشرط أن لا يكون المظلوم قادرا على دفع الظلم عنه بالوسائل المشروعة التي لا عدوان فيها على أحد ، فانه في هذه الحالة يجب عليه أن يدفع الظلم عنه ، ولذا قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » فإذا رفع المظلوم أمره للحاكم ليقنص له من الظالم فإن له أن يذكر عيب

ظلمه الذي يحتاج اليه في بيان حقه متى كان صادقا فيما يقول ، وإلا أصبح ظالما لا مظلوما . وإنما قلنا يجب عليه أن يدفع عنه الظلم متى كان قادرا مع أن الحديث قد امتدح الصابرين على المظالم ، لأن قواعد الدين الاسلامي الخفيف تقضى بضرورة إصلاح المجتمع الانساني ، وتأديب أفراد بكل الوسائل الممكنة . فالظالمون الذين يعتدون على الناس في أموالهم أو أنفسهم أو أعراضهم شر آفات المجتمع الانساني الضارة التي يجب تأديبها أو القضاء عليها . ولذا وضعت الشريعة الاسلامية عقوبات صارمة للذين يعتدون على أعراض الناس أو أنفسهم أو أموالهم . نعم إذا كان المعفو يصلح المعتدى ويترك في نفسه أثرا حسنا يفضي به إلى ترك العدوان وتهذيب الاخلاق ، كان المعفو في هذه الحالة حسنا ، ولذا قال تعالى : « والسكاطين الغيب » ، والمعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والمحسبون هم الذين يحسنون إلى الناس بأموالهم وأفعالهم النافعة ، فإذا كان المعفو يصلح المعتفو عنه كان إحسانا ، أما إذا كان ينتج بغراره على المتأدي في المظالم فإنه يكون إسائة لا إحسانا .

فمضى الحديث الذي نشرحه هنا هو الترغيب في الصبر على المظالم التي لا يمكن دفعها بالطريق المشروع ، كما إذا ظلم شخص آخر في ماله كأن استدان منه بدون شهود أو وثيقة ثم أنكره ، أو سرق ماله أو غشه في بيع أو شراء ، أو اغتصب أرضه أو أمواله ، ثم عجز عن أخذ حقه منه بالوسائل المشروعة أو قذفه أو اعتدى على عرضه وصبر على الظلم ففزع نفسه من الاستسلام للجزع ولم يخرج عن حدود الله تعالى التي أمره بالوقوف عندها ، فلا يستفزه الظلم إلى الانتقام من الظالم بطريق غير مشروع كأن يسلط عليه من ي تلف ماله أو يسم مواشيه ، أو يهتك عرضه ، أو يؤذي قريبا له لا يدل في ظلمه ، أو نحو ذلك ، فإنه يكون من الصابرين الذين امتدحهم النبي صلى الله عليه وسلم . على أن له أن يأخذ حقه بدون زيادة أو نقص إذا لم يترتب على ذلك فوضى في الظلم العامة ، أو مظلمة أخرى للظالم الأول .

وهذا المعنى هو الذي تبين به عزائم المؤمنين المخلصين حقا ، فإن الرجل الذي يعتدى عليه الآخر في ماله أو عرضه ، يخرج في الغالب عن طوره الطبيعي ، ويذهب به الغضب إلى أقصى حد يستطيعه من الانتقام ، فيظلم بعد أن كان مظلوما . فإذا أراد أن يكون جميعا لأوامر الله ورسوله فإنه يجب عليه أن يقف عند الحد الذي أمره به الدين ، وهو أنه إذا تيسر له أخذ حقه بالوسائل المشروعة التي تقتضيها نظم الحكم فعليه أن يفعل ، بشرط أن لا يستفزه الغضب فيمتدئ على ظلمه ويأخذ منه أكثر من حقه ، أو يؤذيه من طريق غير مشروع .

فمضى صبر القوى الذي يستطيع أن يأخذ حقه من الظالم هو الوقوف عند حدود الشرع ، فلا ينتقم من ظالم لنفسه انتقاما غير مشروع ، وله مع ذلك أجر الصابرين الذي ذكره الحديث ، وهو العز والكرامة في الدنيا والآخرة ، لأن المظلوم وإن شعر بهوان من جراء الظلم

ولكنه في الواقع ونفس الأمر عزيز كريم عند الله وصالحى المؤمنين ، فإذا لم يستغفره الظلم وصبر عليه ولم يمتد على ظلمه ، زاده الله بذلك عرا وكرامة بدون نزاع ، لأنه إن لم يجد الوثائق الكفيلة بإيصال حقه إليه فإن الله تعالى لا بد أن يهيء له الوسائل الصالحة التى تعوض عليه ما فاته من حقه وزيادة عليها أضعافا مضاعفة ، فصلاهما يناله من رضاء الله عز وجل العليم القدير الذى يجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

أما الضعيف الذى لا يستطيع مقاومة ظالمه ، ولا يمكنه أن يرفع أمره لئلا يفتنص له ، وليست لديه الوسائل الكافية التى بها يستطيع دفع الظلم عنه ، فإن الله هو وحده الذى يتولى الانتقام له ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزى لأنصرنك ولو بعد حين » . رواه أحمد والترمذى وغيرهم . فالحاكم العادل القوى المنيين هو الذى يتولى الانتقام من الظالمين الذين نطفي عليهم قوة الحماة فيعتدون على الضعاف فيؤذونهم في أموالهم وأنفسهم وأعراضهم بالقول والفعل ، ويسلبونهم حقوقهم بدون ذنب ، وأولئك لهم عذاب عظيم .

على أن الله سبحانه لطيف بعباده الموحدين وعوف رحيم ، فإنه قد أمر الظالمين بأن يردوا المظالم في الدنيا إذا أمكنهم ردها ، ويكون في ذلك كفارة لعدواتهم ، فإذا لم يمكنهم ردها فليظلموا من أربابها المغو عنهم ويرحوم في ذلك كي يسامحهم ، وبذلك يغفر الله لهم ظلمهم ، ويعوض المظلومين أكثر مما ظلمهم أضعافا ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « من كانت عنده مظنة لأخيه من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسبات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . رواه البخارى وغيره .

وأما الصبر على محارم الله فمعناه أن الإنسان يقف مع نفسه موقفا حازما عند ثوران شهوته وغضبه ، فلا يخرج عن حدود الله التى أمره بالوقوف عندها ، فإذا صبر على أداء ما فرضه الله عليه وصبر على اجتناب ما نهاه الله عنه ، فلا يأكل حراما ، ولا يلبس حراما ، ولا يستمتع بفرج حرام ، ولا يؤذى أحدا بيده ولسانه ، ثم قام بأداء ما فرضه الله عليه في هذه الحياة الدنيا من صلاة وصيام وزكاة وحج وبر والدين وصلة أرحام ونحو ذلك ، كان من الصابرين الذين ظفروا بالسعادة الدنيوية ، ولهم عند الله وفي الآخرة أسمى المنازل وأعلى الدرجات . فلو أن المسلمين تدبروا ما أمرهم به ربهم واستمسكوا به ، وعلموا شر ما نهاهم عنه واجتنبوه ، لكانوا من أسمى خلق الله حفظا ، وأوفاهم أجرا ، وأعظمهم كرامة في الدنيا والآخرة .

ولكن من الأسف الشديد قد نبذ فريق كبير من المسلمين دينهم ، وحملوا ما يرى اليه من

فصائل خلقية ونظم اجتماعية لا يمكن للنوع الانساني أن يأخذ مكانته اللائقة به بدون الاستمسك بها ، فأذاقم الله مر الهوان في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

فأله المسؤول أن يرشد المسلمين الى الاستمسك بقواعد دينهم الصحيحة ، ويوفقهم الى العمل السافع كي يستعيدوا مجددم الذي ناله أسلافهم بالعمل بدينهم ، إنه صحيح الدماء .

٣ — أما ما نهى عنه الحديث من سؤال الناس وطلب ما بأيديهم فذلك من محاسن الشريعة الاسلامية وآدابها العالية ، فإن من أهم أخلاق الدين الاسلامي العفة عما في أيدي الناس وصيانة الوجه من التبذل والامتهان ، وحث الأفراد والجماعات على العمل ، فلا يجوز لفرد قادر على العمل أن يكون طاملاً كلاً على الناس ، فإن ذلك من شر آفات الأمم الصارة بها ، لأن هذه المادة الفاسدة إذا سرت بين أفراد الأمة يستلذها الكسالى ، ويستعذبها الجملّة الذين لا يدركون معنى الكرامة والحياء ، فتعشر العطلّة بين الأفراد والجماعة ، ويحلو لهم الكسل فيصبحوا من أئس الناس وأحطهم منزلة وقفوا .

فلذا كان صلى الله عليه وسلم من أشد الناس حرصاً على قطع دابر هذه العادة الصارة من بين أمتة ، فقد روى أن رجلاً جاءه يسأله فنظر اليه فوجده قوياً قادراً على العمل ، فسأله عما يملك ، فقال له : إنه لا يملك إلا برشا بنام عليه ، وقمعا يشرب به ، وجبلا يستقي به من البئر ، فأمره بإحضارها ، فلما أحضرها باعها صلى الله عليه وسلم على الحاضرين (بالمراد) ثم اشترى له فأسا وأعطاء الحبل وأعطاء ما يبقّى ليأكل به ، ثم أمره أن يذهب ويحتطب ولا يأتى للبي إلا بعد نصف شهر ، ففعل وجاء بعد نصف شهر وأخبره بأنه قد نجح في عمله ، وأنه قد ادخر بعد حاجاته مبلغاً ، فقال له صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تأتى يوم القيامة والمسألة نكتة في وجهك وهذا معنى حديث صحيح ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتى الله تعالى وليس في وجهه مُرّعة لحم » رواه البخاري ومسلم وغيرهما . والمُرّعة بضم الميم وسكون الزاي : القطعة .

وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة في هذا المعنى ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه على أن لا يسألوا أحدا شيئاً ، فكان الذين يبايعونه على ذلك لا يسألون الناس شيئاً ولو بلغت بهم الحاجة أقصى منازلها . وقد كان الواحد منهم يسقط سوطه وهو راكب فينزل من على فرسه ويأخذه بيده ولا يسأل أحداً أن يناوله إياه . ومن هؤلاء النفر أبو بكر رضي الله عنه ، فإنه كان إذا سقط سوطه وهو راكب نزل وتناوله بيده ، فقال له بعض الناس : لو أمرت أن تناولك إياه ؟ فقال لهم : إننى بايعت رسول الله على أن لا أسأل أحدا شيئاً ! !

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم هذا المال خضر حلو فربأ أخذه

بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذ به بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى . قال حكيم . فقلت يا رسول الله : والذي بعثك بالحق لا أرى (١) أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا . فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكما لمعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا إلح رواه البخارى وغيره .

فهذا هو معنى المسألة في نظر الدين الإسلامى ، وهذا هو معنى الحث على العمل وترك البطالة ، وهذا هو معنى التعفف عن الناس وعدم الاستكانة لهم طمعا فيما بأيديهم . وهذا هو معنى حفظ كرامة النفس وصيانة الوجه عن التذلل والامتهان . فعلى المسلمين أن يتدبروا ذلك ، وعليهم أن يعملوا بما أمرهم به الله ورسوله ليكونوا من المفلحين .

هــبـرـهـمـمـهـ الجـزـيـرى

التغافل لا الغفلة

الغفلة من أفتيح عيوب اللسان ، وأعودها عليه بالأذى والدم ، ولكن التغافل محمود ، وهو أن تعلم الشيء فترى أن الأصلح تجاهله ، فهذه قوة نفسية لا يستطيعها إلا القليلون . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من امتطى زمام التغافل ، ملك زمام المروءة » .

وقيل : « التغافل من الكرام ، يحجبهم الاحلال والاكرام » .

وقيل لبعضهم : من العاقل ؟ فقال : الفطن المتغافل .

وقال شاعر :

ليس الغنى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغافى

وقال غيره :

أعرض عن العوراء إن أممعتها واسكت كأنك غافل لم تسمع

وقال آخر :

وإني لأغضى عن أمور كثيرة ومن دونها قطع الحبيب المواصل

وأعرض حتى يحسب الناس أبى جهلت الذى آتى ولست بمجاهل

وقال سواه

وأغضى عن العوراء حتى يقال لى بأذيه وفر عدها حين ينطق

حياء وإكراما لعرض أصونه ولا خير فى عرض يظل يمزق

المسيحية في الاسلام

« اطلعت على مقال عزتكم بمجلة الأزهر رداً على كتاب المسيحية في الاسلام حيث قلتم رداً على ما جاء تحت عنوان (المسيح الإله) » ان هذه دعوى جريئة لم يقل بها أحد من الذين كتبوا عن الاسلام من المسيحيين لان يكونوا من أهل المباحكات الهضبية لذين يترفع عنهم مثل الايقوماس ابراهيم لوقا . فاذا كان قد مضى على رول القرآن أكثر من ألف وتلاثمائة وخمسين سنة ، وقد قرأه عدد لا يحصى من الناس وفهموا منه أن الاسلام ينفي ألوهية المسيح ، وعلم ذلك في كل هذه العرون عدد لا يحصى من أهل الملل الأخرى ، وألفت في الجدل حول هذه المسألة كتب لا تدخل تحت حصر ، كل هذا لو كان في حقيقته سوء فهم تسلط على عقول الناس . . . الخ كما ورد بصفحة ٦٤٠ من المجلة .

سيدى :

هذا مقال ثان أرفعه على رجاؤي التقدير والاعتبار :

« إنني من الذين أغروا الى الغاية بتتبع كل ما تكتبون وحفظ الشيء الكثير منه ، ولى من البحوث الجدلية مع المجلات الاسلامية ما تصل خبره بعزتك لاطلاعى على رد على رسائل التى نوهتم عنها بمجلة الأزهر تحت عنوان (معاكسة المسلمين في توحيدهم) ، حيث استندت في إحدى هذه الرسائل على تصريح من عزتكم بالمذكرة العلمية الخاصة بترجمة القرآن الكريم فقد قلتم : « إن النصارى اعتمدوا على الآية » إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلته ألقاها الى مريم وروح منه » ، فذهبوا يشيرون أن القرآن يصرح بصحة عقيدتهم ، ولكمهم لا يعلمون أنه لا يعرف تأويل هذه الآية أحد في الأرض » . فاذا كان لا يعلم أحد تأويل آية بالقرآن خاصة بوصف شخصية المسيح العذبة الفريدة في التاريخ ، فإذا بمنعنا من الالتعاض الى كتب الله التى يشهد القرآن بصحتها وفيها إيضاحات أكثر صراحة ونوراً وهداية عن تلك الشخصية ؟

« إننا لا نتخيل أن أحداً يطمح في سلامة التوراة والانجيل في أى عصر حتى الآن ، إلا كان طاعنا في صحة آيات صريحة حاسمة في القرآن تشهد بسلامتهما وتقرر وعد الله بحفظهما ، قد بينها حضرة القس في كتابه المذكور سكتنى منها جميعا بالآية القائلة : « فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » ، وقد جاء تفسير البيضاوى قوله : « فان كنت في شك مما أنزلنا اليك » من القصص على سبيل الفرض والتقدير « فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » فانه محقق عدم ثابت في كتبهم . . . وإن القرآن مصدق لما فيها . فالأمة

المحمدية مأمورة بمقتضى هذه الآية بالرجوع الى أهل الكتاب ، لفهم تأويل القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله . وهنا الاستشكال الذي يجب على كل باحث حر عيب للحق أن يلجأ الى العقل والمنطق والانصاف في طلب حله ، وهو : القرآن ينفي عقيدة التثليث والبنوة والصلب ولاهوت المسيح ، ويقرر صراحة صحة التوراة والانجيل ويأمر بالرجوع اليهما ، لفهم ما أشكل فهمه على النبي وعلى أمته منه ، فهاهما التوراة والانجيل يصرحان بصحة تلك العقائد التي ينكرها القرآن ، فما الحل لهذا الاشكال يا صاحب العزة ؟

« هذا ولا يمكن مطلقا قبول الطعن في سلامة كتب الله حقلا ونقلا . فأما عقلا فهو لأن الله هو السكفيل بحفظها فلا قيمة لكل التخرصات التي تقال من المتهممين على سلامتها . وأما نقلا فإذا اكتفينا بما ذكرنا من آية ، فقد تمت الفائدة ، فصلا عما جاء بآيات تشير الى نصر الله لحقه بشريعته ، كشهادة الآية التي تثبت وعد الله للحواريين بالعصر في الدين ونشره لقولهم : « نحن أنصار الله » ، والآية التي تثبت تأييده تعالى لطائفة اليهود التي آمنت بالمسيح ، له المجد ، القائلة : « فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوم فأصبحوا ظاهرين » وغير ذلك كثير . بل لو تأمل كل قائل حصيف في الآية : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » لما اجترأ على رمي كتب الله بشيء مما له يفترون ، ولعلم وأيقن أن كتب الله يجب أن تكون على قياس واحد من الكرامة والحفظ والصون ، حتى إن القرآن لا يمكن أن يصف نفسه بأنه كتاب سماوي ، ثم يقول بأن كتب الله يمكن أن تجتمع قلوب البشر على تحريفها أو إخفائها والله رقيب على العالمين . بل قد جعل القرآن الايمان بكتب الله في مدرج الايمان بذات الله ، حتى إن من يوسوس له الشيطان بالكفر بها فإذ ليس تدرجه به اليه بل قد أوقعه فعلا في هدة الكفر بالله . ترى ذلك من الآية : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . هذا الاشكال يا صاحب العزة يجعلنا نصح من طرف خفي غاية بعيدة قد تدركها عندما نتأمل في أن الرسالة المحمدية قد واجهت أمة منغمسة في وثنية لا تحتل معها إلا مصارحتها بوحداية سليمة صريحة ، كما قد صرح المسيح له المجد في الانجيل بذلك لكل مبتدئ ناشئ في الدين إذ قال : « الوصية الأولى هي هذه : اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد ، وأن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » . فإذا كان القرآن قد صرح للعرب بعشرات الآيات التي يفهم منها نفي الألوهية والبنوة عن المسيح له المجد ، فأما مخاطبتهم على قدر عقولهم ، وليحذر عنهم سيلان الصفات الالهية والكنايات المعنوية والروحانية لا يستسيغونها بعقولهم ، ولا يستطيعون له احتمالا مع مام غارقون فيه من وثنية وتمدد لا تتطلب إلا التعليم بوحداية خالصة لا تتشابه أولا من وهدتهم . ومثل الله في ذلك مثل أب رحيم يعامل أبناؤه معاملة فيها شيء من التورية ، لتسمع وصاياه ويعمل بأوامره .

« فان قلنا هذا تضليل ينته عنه الخالق ، رأينا أن القرآن يصرح بأكثر من ذلك فيقول بأن الله خير الماكرين ، ويصرح بأنه تعالى كما يهدى البعض يضل البعض الآخر ، ويزيد أهل الضلال ضلالا فيحطلمهم في طغيانهم يعمهون . أما في مسألة الكلمة والروح وجواز أو عدم جواز إطلاقهما على الله استناداً على أن أهل الفلسفة قرروا عدم الجواز ، فلا عبرة برأى أهل الفلسفة هؤلاء مادام قد جاء بالانجيل هكذا (الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا) وجاء أيضاً (في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله) . ولا نقبل من حضرة صاحب العزة العلامة أن ينتصر رأى أهل الفلسفة والعلم الذين كلما تكشف لهم الحقائق كذبوا ما سلف من علمهم وفلسفتهم ، على رأى الدين الذي يجب أن يكون اليه المرجع والمآب . على أننا إذا تأملنا الأمر مستلهمين الهداية من رب الهداية ، لوحدنا أنه يشترك تعالى مع المخلوق في صفات . فكما أن للمخلوق ذاتاً فله ذات ، وإذا كان المخلوق حياً فخاصية هذه الحياة هي الروح ، فلماذا لا يكون لله روح مادام هو تعالى حياً ، كما أن لله ذاتاً وهي خاصية الوجود . لأنه لا يصح أن نقول إن الله حي بلا روح ، كما لا يصح أن نقول إن الله وجوداً بلا ذات ، لأن كل ما هو ذات هو موجود ، وكل ما ليس بذات هو غير موجود ، وحاشا للخالق للموجودات أن يكون غير موجود . وليس في هذا تقييد أو تحديد لعظمة الله كما تقولون عزتكم . وأما قول عزتكم بأنه تعالى منزّه عن التشبيه والتشليل لأنه ليس كمثل شيء فان القرآن الذي قال : « ليس كمثل شيء » قال أيضاً « مثل نوره كشكاة فيها مصباح » . وأخيراً نقول : إنما التكليف في المسيحية هو إثبات ثلاث خواص ذاتية أو صفات ذاتية لله سبحانه لا يمكن الزيادة عليها ولا النقص منها وما للصعاب الذاتية التي بلغت العشر من صفة عند علماء المسلمين إلا منفرعة من هذه الثلاث ، وهي (الذات) و (الكلمة) و (الروح) . ونحن ننحدي من يدهي لها زيادة أو نقصا . وتفضلوا ختاماً بقول أسمى تحياتي واحترامي . والسلام عليكم ورحمة الله »

تأدرس مسيحه بأخطاب

ملاحظاتنا على هذا الكلام :

نشرنا ما كتبه إلينا حضرة الأستاذ تادرس أفندي مسيحه فيما لاحظته على ما كتبناه في العدد الماضي تحت عنوان (المسيحية في الاسلام) ورأينا أن ننبهه برأينا في كل ما قاله ، حاصرين الكلام فيه على الموضوعات التي أثارها ، وهي :

- (١) الكلام في التأويل .
- (٢) معنى قوله تعالى : « فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » .
- (٣) المراد من قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

- (٤) حل الاشكال الذي بناه حضرة الكاتب على تنويه القرآن بالكتب المتقدمة عليه .
 (٥) نقد ما أورده على لفظي الروح والكلمة .
 (٦) رأينا فيها يور به القول بالتثليث .
 (٧) تأويله تشديد القرآن في نفي عقيدة التثليث .

١ — الكلام في التأويل :

شرع الله الدين وجعله صلة بين الانسان وبين العالم العلوي الذي تنزل هو منه ، ولا يفترق نحن اليه . وهذا العالم العلوي مبين كل المباني للعالم الارضي الذي يعيش فيه . فلو أراد أن يعرف كنه الله ، بل كنه الروح التي هي ذاته ، وكنه الملا الأعلى الذين هم خلق مثله ، لا يحزمه ذلك ، إلا أن يضله مضل - اعتمادا على شدة كلفه بمعرفة كل ذلك أو بعضه - فيأتيه بعمارف يزعم أنه استقاهها من عالم الغيب ، وما هي إلا من خياله ، فيتلقيها منه وينشرها فيمن يتصل بهم . على هذا النحو نشأت المذاهب ، وتوعدت الآراء الدينية ، وكثرت الشروح والتأويلات ، ووجد الغلاة مسرعا لحيالاتهم فلم يبقوا منها عند حد فكانت نتيجة ذلك أن تعددت النحل حتى أصبحت تعد بالمئين . فلما جاء العلم وأدرك مواطن الضعف فيها ، وأمكنه التحليلات منها ، أعلن كفره بها ، وتعمه في كفره كل من يحثك به أو بأهله ، وقد أصبحوا يمدون في كل أمة بالملايين ، وانعزات الثقافة العلمية من الثقافة الدينية ، لما بينهما من البون الشاسع في القضايا والافئسة والمسلمات ، حتى آل الأمر الى اقتصار الأديان على تمثيلها ومن استنم اليهم ممن لا يمتنون الى العلم بسبب !

احاطت الاسلام هذه الفئسة العلمية فأكثر من الاهابة بأهله الى التعلم ، ومن نههم عن الأخذ بالأوهام والظنون ، وحرم عليهم التقليد بدون نظر ، حتى قرر بأن إيمان المقلد غير مقبول . وزجر عن الأخذ بظاهر الالفاظ فيما ليس في وسع التصور أن يبلغه ، ولا في قدرة العقل أن يدركه ، معتبرا المجازفة في هذه السبيل زيفا عن الحق ، وابتغاء للفئسة ، فقال تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفئسة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » ، ومعنى هذا أن من آيات الكتاب محكمات العبارة لا نحتمل التأويل والاختلاف في تعقلها ، هي أصل الكتاب ، ومنها آيات متشابهات أي محتملات للتأويل ، فالذين في قلوبهم انحراف عن الحق يحاولون تأويلها بقصد إثارة الخلاف عليها ، طلبا لفئسة بتشكيك الناس في الدين ، أولصرفها لمعان لا أثر لها إلا في خيالهم ، والحال أن هذه الآيات لا يعلم تأويلها إلا الله وحده .

بهذه الآية صُدمت موجة الخيالات الدينية عن الاسلام ، واحتفظ أهل بأصوله الاولى سليمة من التشويش والارتباك ، ولم يتردوا كما تَرَدَّى أهل الملل الاخرى في حجة الاضاليل والتخرصات .

إذا عُلِمَ هذا فلا محل لقول حضرة الكاتب : « فلذا كان لا يعلم أحد تأويل آية القرآن خاصة بوصف شخصية المسيح الفذة الفريدة في التاريخ ، فلذا بمنعنا من الالتجاء الى كتب الله التي يشهد القرآن بصحتها وفيها إيصاحات أكثر صراحة ونورا وهداية عن تلك الشخصية ؟ »
نعم لا محل لهذا القول ، وذلك من وجوه :

(أولا) أن شخصية المسيح ليست محل شك عند المسلمين ، لأن الكتاب الكريم قرر في عشرات من الآيات أنه رسول من المرسلين لا يمتاز عنهم إلا في أنه خلق على غير السنة المعروفة ، وبَيَّن أن هذا ليس بموجب له امتياز ، كما لم يوجب خلق آدم مباشرة امتياز له على النبيين : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

(ثانيا) لأن البنية لله لم تكن موضوع جدل عند أهل القرآن أصلا ، لقبه إياها نبيها لا هوادة فيه ، وتشديده في التشبيح على هذا القول ما لم يفعله في التشنيع على سواء ، فقال للذين يقولون به : « لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنفق الأرض ، وتخر الجبال خرها » .

(ثالثا) لأن القرآن يذكرها ويشير على الذين فهموا من كتب الله هذا الفهم السيئ ، ويعلم بأنهم خارجون عليها ، فكيف يرجع المسلمون إليها في أمر يصرح قرآنهم بأن النصارى منه على خطأ عظيم ؟

تقولون يجب أن يرجع المسلمون لتعرف شخصية عيسى الى الكتب السماوية السابقة .
ونحن نقول : قد رجع اليها رجال البحث من المسيحيين فلم يجدوا فيها مستقندا لما يقول به جمهور القائلين بها . جاء في دائرة المعارف القرن العشرين الفرنسية في مادة (روح القدس) ما ترجمته :

« جاء لفظ روح الله ونقحة الله في التوراة ولم يقصد بها إلا أصل القدرة الالهية ، أو طريقة تأثير تلك القدرة . جاء في التوراة أن الأرض في أول تكوينا كانت خالية مجللة بالظلمات ، كان روح الله يتحرك على مياهها . فلما سوى الله الانسان من الطين فنفخ فيه من روحه فاستوى بشرا سويا ، ثم سحب روحه منه فعاد طيبا كما كان أولا ، ولكن الله أعاد عليه روحه ثانية . ومن نقحة الله أو روحه نشأت جميع الكائنات الارضية . وجاء في مواطن أخرى من التوراة ما يدل على أن روح الله كانت تعني في معرض آخر أصل حكمة الله وتزهره ،

ولم يرد في كتب اليهود ما يؤخذ منه أنهم كانوا يعتقدون بأن للروح القدس شخصية متميزة ، أو أنه أقدم من الأقاليم المؤلفة له كما هو عند المسيحيين .

« وقد جاء في الأناجيل ذكر الآب والابن والروح القدس ، ولكنه لا يوجد فيها إشارة ما إلى التثليث ، ولا إلى ما يشير إليه علم اللاهوت اليوم . فالإله الذي كان يتكلم عنه عيسى عليه السلام وحواريوه هو الله الواحد رب الأنبياء والأولياء ، الذي تجلبه العبادة وحده . وكان عيسى عليه السلام يدعو هذا الإله بالآب ولا يدعو ربا سواه . »

وجاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر في هذا الصدد -

« عقيدة التثليث وإن لم تكن موحدة في كتب العهد الجديد (الانجيل) ، ولا في أعمال الآباء الرسولين ، ولا عند تلاميذهم الأفريين ، فإن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب الروتسنتاني يدعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان ومكان أدلة التاريخ الذي يربنا كيف ظهرت هذه العقيدة ، وكيف نمت ، وكيف علق بها الكنيسة بعد ذلك . إلى أن قالت الدائرة :

« إن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه ، وصمموا قوله ، كانوا أبعد الناس من اعتقاد أنه أحد الأقاليم الثلاثة المؤلفة للمخالق . وما كان بطرس وحواريه يعتبره أكثر من رجل يوحى إليه من عند الله . أما يولي فإنه خالف عقيدة التلاميذ الأفريين لعيسى ، وقال : إن المسيح أرقى من إنسان ، وهو نموذج إنسان جديد ، أي عقل سام منول من الله ، وكان موجودا من قبل أن يوجد هذا العالم ، وقد تجسد هنا لتخليص الناس ، ولكنه مع ذلك تابع لله الآب » انتهى .

٢ — معنى قوله تعالى : « فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » :

استند حضرة تادرس أندى مسيحية فيما قاله من وجوب سؤال أهل الكتاب فيما يحتاج إلى تأويل من القرآن ، على قوله تعالى : « فان كنت في شك مما أركنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » ، وأتممها بوجه من تفسيرها عن البيضاوي ، ومؤداه : فاسألهم مما ورد في القرآن من قصص الأنبياء .

والسؤال عن القصص لا يقتضى السؤال عن كل شيء ، وخاصة في المتشابه الذي يصرح الله تعالى بأنه لا يعلم تأويله غيره ، لقصور العقل المادي عن تناول الشئون العلوية والروحانية . وكيف يعقل أن يكلف المسلم بسؤال أهل الكتاب في شيء من أمور الدين ، والقرآن قد نصدى لرد عليهم في كل ما هم عليه من عقائد الرئيسة ، وتعاليدهم الاجتماعية ، إلى سيرتهم الشخصية ، ومعاملاتهم اليومية ، ودعاهم إلى الرجوع إليه في تصحيح عقائدهم ، وفض خلافتهم ، وتقوم سيرتهم ؟

على أن من يعرف أساليب اللغة العربية يدرك لأول وهلة أنه ليس المراد من هذا التعبير أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب ، ولكن المراد منه تلوين الكلام تلويها بيانياً لنا كيد صحتته في ذهن التالى والسامع .

٣ — الكلام في تحريف الكتب السماوية :

يقول حصرة نادرس افندى مسيحه : « لو تأمل كل عاقل حصيف في الآية : « إنا نحن زلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، لما احترأ على رعى كتب الله بشيء مما له يفترون الخ » .
ونحن نقول : إن الآية المذكورة هنا نزلت في الكتاب الذى تطلق عليه كلمة الذكر وهو القرآن ، لا على جميع كتب الله .

فأما التوراة فـ قد أدت النقد التاريخي أنها قد كابدت تحريفا عظيما ، بل قال المقاد المسيحيون : إن التوراة المتداولة الآن قد كتبها كتاب عديدون في أزمنة مختلفة . وصرحت طائفة من مصلحي اليهود بأن هذه التوراة قد حُرِّفَتْ ، وقد أورد مذهبهم حاخام باريز (جوليان ويل) Julien Weill في كتابه (اليهودية) Le Judaisme . ومن أدلة التحريف الحسية أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة عند اليهود .

ومما يزيد في قيمة هذه الشبهات أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام غير موجودة . وهذا أمر معترف به من الكافة .

وللمسلمين أسلوب في تناول كلام الله طبعه دينهم في عقولهم لا يقبلون سواء ، وهو أن يجيئ عن رسوله مباشرة بطريق التواتر الذى يؤمن معه التحريف ، أى أن يكون قد سمعه منه جمهور من العدول ، ونقله عنهم جمهور مثله في كل حيل . وهذا الشرط معدوم من التوراة ، ومن جميع الكتب السماوية السابقة . فلا يستطيع المسلمون أن يعتقدوا بصحة نسبة كل ما في تلك الكتب الى الله ، وخاصة إذا كان النقد التاريخي قد أثبت ذلك ، وشهد بحصول التحريف حسيا بالتخالف الموجود بين الانجيل ، وتوراة النصارى وتوراة اليهود .

أما ما ورد في القرآن الكريم من أنه جاء مصدقا للتوراة والانجيل فعناه أنه مؤيد للحق الذى فيهما من عبادة الله وحده ، والايمان برسله واليوم الآخر .

أما الإنجيل الذى يعنيه القرآن الكريم ، فهو الكتاب الذى زله الله على عيسى عليه السلام لا الكتب المتداولة بين النصارى الآن وهى أربعة ، احتيرت من نحو سبعين أخرى ، وقد وجد في مكتبة أحد الأمراء في باريس نسخة تحت اسم إنجيل برنابا ، وقد طبع وترجم الى العربية ، وفيه خلاف كبير للأربعة الانجيل المعتمدة . وهذه الانجيل كتب سيرة عيسى عليه السلام ، ومؤلفوها معروفون ، وأسمائهم مكتوبة عليها . ولأمانع من أن القرآن الكريم يقصد من الانجيل

ما ورد فيها من تعاليم عيسى الموحاة اليه من الله . وقد رأيت مما ترجمناه في الفصل الأول أن هذه التعاليم لا يؤخذ منها ما يدين به أكثر النصارى من المعتقدات .
وعليه فكل ما ورد في القرآن الكريم من أنه جاء مصداقاً للتوراة والإنجيل فعنايه أنه مؤيد للحق الذي فيهما من عبادة الله وحده ، والإيمان برسالة واليوم الآخر وإقامة الحق ، والتخليق بمكارم الأخلاق ، وليس مصاداً الأخذ بما ألحق بهما من الآراء البشرية ، والآويلات الخيالية ، وإلا فهم يمكن تعليل ما ورد في الكتاب الكريم من تقدم معتقدات أهل الكتاب ، وتفض مذهبهم ، وتبريح سيرتهم ، والاهابة بهم للرجوع الى نصوص كتبهم ، لا الى شروح قادتهم ، قال الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل اليكم من ربكم » ، أي حتى تملأوا بأصولها خالصة من شوائب الآراء البشرية والآويلات الوهمية ، فقد كانوا خرجوا الى مناهات من الأوهام لا تقرها تلك الأصول ، وقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليبين لهم وللناس كافة حقيقة الدين ، ويرسم لهم طريق الحق المبين ، قال الله تعالى : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير » .

٤ — كيف يمكن التوفيق بين نبي القرآن للمقائد المسيحية وبين النص بأنه جاء مصداقاً لها ؟

يقول حصرة تادرس افندي :

« القرآن ينفي عقيدة التثليث والبنوة والصلب ولاهوت المسيح ، ويقرر صراحة صحة التوراة والإنجيل ويأمر بالرجوع اليهما في فهم ما أشكل فهمه على النبي وعلى أمته ، فهما التوراة والإنجيل يصرحان بصحة تلك المقائد التي ينكرها القرآن في الحل لهذا الاشكال ؟ »
نقول في الجواب على هذا الاشكال : أما أن القرآن يأمر بالرجوع الى التوراة والإنجيل في فهم ما أشكل فهمه على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ، فليس بصحيح ، وقد يبين عدم صحته فيما كتبناه عند كلامنا على الأويل تحت رقم ١

أما قوله : إن التوراة والإنجيل يصرحان بصحة تلك المقائد ، فقد تبين لك من ذلك الفصل نفسه أنه ليس بصحيح أيضاً ، وقد تقلنا ذلك عن المسيحيين أنفسهم ، وقد قررنا قديمهم أن تلك المقائد هي رأى بولس دون سائر الخواريين رضى الله عنهم ، ودون أقرب الأقربين الى عيسى عليه السلام ، فليراجع ذلك الفصل هنا .

٥ — فقد ما أورده حصرة الكاتب على لفظي روح وكلمة :

قال حصرة تادرس افندي : إن لفظي روح وكلمة : يجوز إطلاقهما على الله لورودهما في الإنجيل في قوله (لله روح) وقوله (في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله) .

نقول : المسلمون محكم قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » لا يستطيعون أن يطلقوا على الله لفظا يعبر عن محسوس إلا على سبيل التجوز ، مترهين الخالق عن معناه المتصور في ذهن تفاديا من أن يقوموا في التشبيه والتعميد ، وهذا منتهى ما يمكن أن يبلغه الترهية الذي لا نجد أرق فلسفة في الأرض سبيلا الى تجريحه . فهم إذا صادفوا حتى في كتابهم الكريم لفظا مطلقا على الله مهما بلغ من سمو الدلالة على الأمور المحسوسة ، يعمدون الى تأويله ، ليرتفع عن مستوى الأشياء المدركة بالمشاعر أو المتصورة في الأذهان ، وهاهنا واجب التنزيه المطلق . مثله قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » ، لا يستطيع المسلمون بناء على وروده في القرآن أن يقولوا إن الله نور ، كما لا يستطيعون أن يقولوا : إن الله روح أو كلمة ، لأن ذلك كله يناهي الأصل الاصيل في التنزيه الذي فرسه الله على العقول في قوله : « ليس كمثل شيء » . قال العلامة البيضاوي في تفسير الآية المتقدمة :

السور بمعناه المعروف « لا يصلح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف . . أو على محوز ، إما بمعنى منور السموات والأرض .. أو مدبرها ... الخ » .

وسبب تشديد الاسلام في الزجر عن تناول الكلام عن كنهه الخالق الى هذا الحد ، أن العقل لتقيده وقصوره لا يستطيع أن يدرك الاطلاق واللا نهاية اللذين يقتضيها مقام الألوهية ، فهو مهما اشرأب الى سمو ، وتكلف إدراك الاطلاق ، وقع في التجسيم والتشبيه لا محالة ، لأن كل مدركاته منترعة من عالم الحدود والنسب المادية ، فهو إن أجهد نفسه في تصور الخالق ظاهرا أن يهتدى الى شيء يتخيله لا ثما بمقام الربوبية وليس به في الواقع ، وإما أن لا يهتدى الى شيء ، لمبالغته في تطلب الاطلاق ، فيقع في الاتحاد ولا كرامة .

وقد ثبت أن كل ما اهتدى اليه الناس لمقولهم من الاحكام في ذات الخالق لا يقوى على النقد ، ولم يكن من أثره إلا أنه فرق الناس شيئا ، وحمل بعضهم أعداء بعض ، ولم تصب الأديان بأشد مما أصيبت به من هذه الباحية ، فقد سوغت هذه الشهوة لوصفها أن يلجأوا الى وصف بعض آيات كتبهم بأنها رموز وأسرار ، وأن يخولوا أنفسهم حق تناولها بالشروح والتأويلات ، ومتى ساغ قبول مبدأ الرمز في الأديان اتسع من ورائه المجال للخيالات والأوهام ، وضاع في مزدحمها المسطق والستور العلمي ، واعتزل الدين كل من يحترمها وكثير مام .

فالاسلام الذي شرع ليكون الدين العام للبشرية ، والسكن الروحي للنفس الانسانية ، واللاحا الدستوري لرفع الخلافات المذهبية ، نصب العقل الناصح حكما بين الحق والباطل ، وجعل العلم نورا يستهدي به في المعاضل ، وأقام بينه وبين الآهواء والظنون حجبا منيعا ، حتى لا يتسرب الى أصوله شيء منها فيخرجه من باحة الاطلاق الذي هو فيه الى حيز القيود والحدود .

فلفظ الكلمة التي ألهاها الصارى وحملوا لها شخصية متميزة ، لا تمنى عند المسلمين إلا إرادة الله أو عله أو قدرته على حسب ما تسند اليه ، ولا يستطيع مسلم اعتقاداً على عبارة قاصصة مثل : (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) أن يفهموا منها أنه كان مع الله غيره ، أو ابن له أزل مثله . ولو كانت وردت في كتابهم لصرقوها عن مدلولها اللفظي بحجة أنها توجب التعدد ، والتعدد لا يقبله العقل ، وتدحسه كل فلسفة وعلم .

وأما قول حضرة الكاتب : « إن الله يشترك مع المخلوق في صفات ، فكما أن للمخلوق ذاتاً فله ذات ، والانسان حي بواسطة روح ، فلماذا لا يكون لله روح مادام حياً ، إذ لا يصح أن نقول هو حي بلا روح الخ » .

نقول : إن اشتراك الخالق والمخلوق في الصفات يجب أن يلاحظ معه أمر لو أغفله المتكلم وقع في ضلال بعيد ، وهو أن ذات الخالق واجبة الوجود ، وصفاته مطلقة تنزهه عن القيود ، وأن كل ما هو موجود ممكن ومستمد منه الوجود ، فشتان بين ذات الله المطلقة الواجبة وبين أية ذات من الممكنات التي لا وجود لها إلا به . فشكل مقابلة بين صفات الخالق وصفات المخلوق تؤدي إلى تشبيه ليس له ما يسوؤه لامن العقل ولامن الواقع ، وهي تؤدي عادة إلى مقررات لا تقف خطورتها عند حد ، كقول نادرس افندى : « لماذا لا يكون لله روح مادام حياً ، فلم يفرق بين الحى بذاته ، وبين الحى بغيره ، كما لم يفرق بين واجب الوجود ، وممكن الوجود ، وما دامت هذه التفرقة البديهية غير مرعية ، فلا نسل هما يتولد منها من ضروب التجسيد والتشبيه ، والخلط والخيبط ، وقد نتج من ذلك أن تعددت المذاهب والنحل ، وصاغ كل قبيل إلهه وفقاً لخيالاته ، فشرع الله الاسلام رادماً للعقول من تناول ذات الله بالكلام ، معلماً أنها لن تحصل منه على طائش مهما بذلت من قواها في هذه السبيل ، فقال تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون به علماً » .

وإذا كان الاسلام قد كثف عقول أهله ، وطبعها بطائع المنطق الصارم ، بحيث لا تستطيع أن تطلق على الله ما أطلقه القرآن عليه مما يؤم التشبيه أو التجسيد ، فتعبد إلى تأويله وصرف مصاء عن ظاهر لفظه ، فهل يعقل أن تقبل عقولهم عبارات من هذا القبيل غامضة وردت في كتب غيرهم ، لاسيما وهي مترجمة عن أصول ضائعة ؟ وهل يعقل أن يأخذوا بشروح لم تراع فيها قواعد المنطق ، ولا أسس الدستور العلمى ؟

٦ — رأينا فيما فسر به الكاتب معنى التثليث :

قال حضرة نادرس افندى في تفسيره لمعنى التثليث وتبرير القول به : « التثليث في المسيحية هو إثبات ثلاث خواص ذاتية أو صفات ذاتية لله لا يمكن الزيادة عليها ولا النقص منها ، وهي : الذات والكلمة والروح » . وهذا في نظر العقل الفطرى ، والنظر العلمى ، من المحالات البديهية .

فإن ألقاها (الذات والكلمة والروح) ليست بصفات ولكنها أسماء لا يوصف بها . ولو جازينا حصرة الكتاب واعتبرنا هذه الكلمات صفات فأين الله الموصوف بها ؟

ومع هذا فهم أن هذه الألقاظ صفات وقلت : الله ذات ، الله كلمة ، الله روح ، مریدا بذلك تعريف كنهه بهذه الثلاث الكلمات لبناء القول بالثلاث عليها ، لم تكن قد فعلت شيئاً ، بل لم تكن قد أتيت بثلاثية ، وكل ما فيه أنك وصفت الله بثلاث صفات ، والصفات لا يعقل أن تكون لها شخصيات متميزة ، فتبرير القول بالآب والابن والروح القدس لا يمكن أن يتحقق على هذه الصورة . ولو فرضنا المحال وقلنا يمكن أن يتحقق به فلم تكن قد أتيت بأكثر مما تستطيع أن تفعله أية طائفة أخرى ، بتوجيه خيالها إلى هذه الناحية ، وإذا كان ذلك فماذا يكون دليلك على أن تثليثك أحق من تثليثه وأجدر بالأخذ به منه ، ولا سيما إذا كان أسبق منك إليه بألوف من السنين ، كتثليث المصريين القدماء ، أو بمئات كثيرة منها كتثليث البراهمة والبوذيين ، أو أي تثليث آخر قد يجده في مستقبل الزمان ؟

اللهم لا دليل غير التحكم بأن ما أنت عليه هو الحق ، وما عليه غيرك هو الباطل . ولكن هل يبقى العلم والفلسفة على هذا التحكم ، وأنت ترى أنه قد جرف جميع الخيالات ولم يبق مائلا أمامه لا يقبل الزوال غير التوحيد الخالص والتزبه المطلق ؟

٧ — تأويله تهديد القرآن في نفي التثليث :

يعلل حضرة تادرس افندي تشديد القرآن في تقرير التوحيد بأن الغرض منه معالجة الوثنية العربية بتوحيد لا شائبة فيه الخ ، وهذا التعليل غير وجيه ، فإن العرب كانوا قد ألقوا بالتعدد ، فسقلهم منه إلى التوحيد الخالص ، أعسر من نقلهم إلى التثليث . أما رأيت كيف أنهم استسكروا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد ، وهالهم أمره ، حتى قالوا كما جاء عنهم في الكتاب الكريم : « وهيجوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجيب . وانطلق الملائمة منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا احتلاق » .

هذا وقد أرسل إلينا حضرة تادرس افندي مرسية بملحق رده علينا لم نستطع إثباته هنا ، فننتدرك ذلك في العدد القادم ونناقشه فيه إن شاء الله .

محمد فرير وجرى

اللغة العربية بين القوة والضعف

— ٩ —

دعائم الاصلاح

خاتمة البحث :

دراسة القواعد — إصلاح أسلوب الحديث العام في أندية
الآداب والثقافة — إخضاع الأسلوب الصحفي لرقابة لغوية فنية —
وحوب سيطرة قواعد اللغة على الأساليب الحكومية — تعميم
الأسلوب الصحيح بين طوائف الشعب في ثمايا مكافأة الأمية

كانت اللغة العربية منذ أدار الله بها السنة قومها لغةً سليقة قبل أن تكون لغة القواعد والقوانين ، وهي بهذا الوصف الطبيعي لغة فطرية شعبية يستوى في التعبير بها عن غرض الكلام كل فرد من أفراد الأمة دون تمايز بينهم في صحة الأداء ، فكل عربي يرفع الفاعل ، وينصب المفعول ، ويجزم المضاف ، وهلم جرا ، إلا قلته لسان ، عبر عنها أئمة الاعراب بالشذوذ ، والهاذ لا اعتبار له ، وإنما يقع التفاوت في خصائص ومزايا وراء الاعراب يرتفع بها شأن الكلام حتى يبلغ الإعجاز ، وتلك الخصائص كانت ولا تزال معترك حول الفصاحة وأساطين البيان ، وعلى تحقيق ضبطها وتبيين معانيها وتحديد مراميها قام فن السلاغة عند ما نهضت الأمة لتدوين العلوم والفنون .

فلما خرجت الفصحى من معاقلها ، وتجاوزت حصونها الى جاب الفنوحات الاسلامية ، وأصبحت لسان الاسلام الذي تتخاطب به أمة قاطبة ، ودارت بها في الأشداق السنة لم تألف صحة أدائها وسداد إعرابها ، انحرفت الى سبيل غير سبيلها ، وسرى في قانها عوجُ اللحن ، وتناول الى السنة عربية خالصة حتى نفرت منه الطبائع السليمة والفطر الفاضلة ، وأصبح في نظر الخاصة نسبة الاشراف يتقونه كما يتقون خميرة النبل والمروءة ، فسارع القُسير الى وضع القواعد على ضوء السليقة الصافية ، وسيرا في مهبط المستقيم صيانة للغة الكتاب الكريم أن تقسدها غفمة . لا عاجم ووظانات المنبريين .

كان كلما بعد الزمن بالأمة العربية وأوغات في مضائق الحياة مجانبة لفطرتها الأولى ، تركت وراءها فواصل صميكة تفصل ما بينها في حياتها الجديدة وبين سليقتها في لغتها ، حتى انتهت بنة الى فقدان تلك السليقة والوقوف في سقح القواعد المدونة التي نيط تقويم الاسنة

بها وتصحيح الأسلوب بمراطتها ، ومن ثم انحازت اللغة بعد شعبيتها السليبية الى أحضان طائفة خاصة ، هي طائفة النحويين ، وانحصرت معرفتها في دائرة ضيقة ، هي دائرة القواعد النحوية ، وانتصمت الصلة بين الشعب ولغته ، وارتفع الناس لمجعات تعددت بتعدد المناصر والأجناس التي انضوت تحت راية الاسلام ، وتكلمت شعوب العربية لغات كانت مزيجاً من لحن العربية ونحريتها وما أقدم عليها من ألفاظ أجنبية تدرجت اليهم بالجوار والمخالطة .

بقيت الفصحى في ظل القواعد تدرس في المعاهد والمدارس في الأفطار العربية دراسة نظرية لم تكن لها قيمة عملية في تقويم الآسنة وتصحيح أساليب الحديث والخطابة ، بل لقد كانت عديمة القيمة في السيطرة على أسلوب الكتابة القائم على الآانة والملاحظة والتفكير ، وكانما وقر في النفوس أن علم العربية وقواعدها شيء يدرس في بطون الكتب ووراء جدران المدارس والمعاهد دون أن يكون له سبيل على الكلام يمدل أسلوبه ويصحح أعاليطه ، حتى لقد اشتهر عن كثير من درس علم العربية وتبحر فيه أنه ما كان يستطيع أن يكتب رسالة في شأن من شئون الحياة اليومية ، ولا كان يستطيع أن يقيم جملاً مستقيمة في الحديث ، بآله الخطابة

وبقيت الشعوب العربية بلا رابطة لسانية تجمعها ، ففرقت كلتها ، وانحلت عراها ، ومزق الطامعون من دؤبان الاستعمار أديمها تحت أنباء مموها ، ودويلات مستضعفة أقاموها لا تغنى في عزة السلطان وكرامة الحياة شيئاً ، فلما تلبثت همة القومية في روح الأمة العربية وشمرت بصرورة تعاون شعوبها تعاوناً أديباً ، قامت كلها تنادى بتوحيد الثقافة العربية تحت لواء الفصحى ، وكانت هذه الأفكار تتطلب العمل القوي على إنهاض اللغة العربية وإحياء مجدها ليتسنى لها أداء رسالتها الثقافية ، ولتكون أداة علمية يعتمد عليها في نشر الثقافة بين جماعات الأمم العربية ، وكان لمصر لواء القيادة في هذه النهضة ، فتقدمت في طريق الإصلاح تحمل المشعل لتثير السبيل أمام شقيقاتها المترحمات خطوها ، وكان من الطبيعي أن تنتج الأفكار الى النظر في قواعد اللغة وبرامج دراستها لنوجبها وجهة تحقق لها السيطرة على الأساليب من طريق علمي صحيح في يسر وغناء ، ومهما يكن رأي الباحثين فيما صادف هذه الحركة من توفيق أو خيبة ، فإنها كانت برهاناً صادقاً على الاحساس بالآلة ، واليقظة الثامة والشعور بضرورة السلاح المصلح ، وليس من النصفة أن نطلب المعصية في فسية طال أمد تمقيدها ، واكتنفتها ظروف اجتماعية كانت تزيد في تعاصبها ، وتزيد الأمة بمبدأ عن إدراك وجهة الإصلاح فيها ، وإنما نطلب في صدق وإخلاص ألا تسوقنا السرعة الهولاء الى تقرير خطأ وإناسه ثوب الحقيقة ، فإن ذلك مما يساعد بيننا وبين الإصلاح المنشود

وقد ألقنا في مقالنا السابق الى عدم صلاحية مشروع « تيسير القواعد » الذي لجأت اليه الوزارة كأداة للإصلاح الأخرى في برامج الدراسة المدرسية ، وقد ساقنا إليها مطالعاتنا

كلمة منصفة للاستاذ « مرغليوث » وهو من علماء المشرقيات المشهورين ، ونحن نثبت منها ما يتصل بموضوع بحثنا لعل أصدقاء العربية المجددين يؤمنون بمذهب الغرب في لغة الشرق بعد أن لم يؤمنوا بمذاهب الشرق في نفسه ، ويصدقون أن قواعد الفصحى ليست في أدنى الحاجة الى بدعة « التيسير » الذي يقلب أوضاعها ، وإعابها أشد الحاجة الى إعداد الأذهان لدراستها وفهمها ، وبما أشد الحاجة الى إعطائها قسطها اللائق من الزمن الدراسي ، وبما أشد الحاجة الى وضع أبوابها في برامج الدراسة على نظامها الطبيعي الذي ولدت وترعرعت عليه ، وبما أشد الحاجة الى الملازمة بينها وبين السن التعليمية لفرق الطلبة في الأسلوب والموضوعات . فقد نشرت مجلة « زهرة الشرق » محاضرة ألقاها هذا الباحث المستشرق بحسب الإذاعة في لندن قال فيها : « ولقد أدهشني ما قرأته في إحدى المقالات لكاتب يقترح حذف كثير من مصطلحات النحو القديمة وتسهيل قواعده لكي يسهل تعليمه في المدارس مع أن اللغة غنية واسعة ، ويجب أن ألاحظ — من غير انتظار للنقد الذي ستثيره تلك المقالة في البلاد التي لئننا الأدبية هي اللغة العربية — أن الغرض من تعليم النحو وفقه اللغة ليس هو القدرة على كناية اللغة خصب ، بل المقدرة على قراءتها أيضا ، فالنحو الذي يستعمله الكتاب في مؤلفاتهم التي توجد بين أيدينا بالآلاف والمئات إنما هو نحو سهل لا يسمح بتسهيل أكثر من ذلك ... وعلى هذا فإدخال نظام تسهيل النحو المقترح لن يوفر على الطالب عناء دراسة النحو الذي استعمله الكتاب قديما بل هو على العكس من ذلك يشغل حافظه الطالب بمجموعة جديدة من القواعد » .

هذا صوت من الغرب يردد صدى علماء الشرق وأدبائه من أئمة اللغة العربية منذ ألف قرن ونيف ، فهل يسمع أنصار بدعة تيسير القواعد الى صوت هذا المحامي الأجنبي عن اللغة العربية وقواعدها ؟ لعل وعسى !!

أجل : إن إنهاض اللغة يعتمد في أساسه منذ فقد العرب سليقتهم على إنهاض دراسة القواعد دراسة عملية تطبيقية ، وهذا يكفي في تحقيقه وضع نظام للقواعد يرتب فنونها وأبوابها ترتيبا يقرها الى الأذهان الناشئة ، ويلائم بينها وبين أسنان الطلبة التعليمية ، وهو النظام الذي تأخذ به الجامعة الأزهرية ، فهي من جهة ترتب النون تدرس أول ما تدرس من فنون العربية فن النحو حتى يأخذ الطالب صورة عن القواعد وصلتها بالأسلوب ، وعندئذ يشترك معه فن الصرف إجمالا أولاً ، وتفصيلا بعد أن يستند مساعد الفكر العلمي لدى الطلبة ، ثم يأتي دور البلاغة بفنونها وقد ألف الطالب كثيرا من الأوضاع العربية وتذوق شيئا من الأساليب الأدبية كنميد لفهم البلاغة وتحقيق الغرض منها ، ويسير البلاغة العروض والقافية .

وفي ترتيب أبواب الفنون نضرب المثل بفن النحو ، ففي أول فرقة تقسم الابتدائي

تدرس « الأهرومية » مشروحة شرحاً لطيفاً ، وهي رسالة مشهورة معروفة على صغر حجمها .
 تم بغير النحو إلما بما يصور للطالب موضوع الفن وأبوابه ومباحثه على سبيل الاحمال ، ثم تأتي
 الفرقة الثانية وفي دهنها تلك الصورة عن النحو فتقرى درجة الى دراسة « الأهرية » وفيها
 زيادات في المباحث وتوسعة في المسائل بما يناسب استعداد الطالب وما حصله من مسائل الفن ،
 وتدرس الفرقة الثالثة « القمار » وتدرس الفرقة الرابعة « الشذور » وكلاهما لابن هشام ،
 وهو من زعم المؤلفين في هذا الفن وأرغمهم ، ثم يرتفع الطالب الى دراسة ألفية ابن مالك
 بشرح ابن عقيل أولاً ، وتوضيح ابن هشام ثانياً ، وشرح الاشموني ثالثاً ، حتى ينتهي الى دراسة
 المغني ومفصل الزمخشري بشرح ابن يعيش في مرحلة التخصص والدقة والتحقيق الفلسفي
 للقواعد وعلاها ، وهذا كما يرى المنصفون من أسد الانظمة الدراسية وأحكامها وأوقعتها
 بالتدرج والترقي الفكري لمراحل التعلم ، وعلى هذا النهج التدريجي يدرس الصرف ، وإذا
 كانت لنا ملاحظة فهي أننا نود لو أن الأهر الحديث أضاف الى برنامجه النحوي حصة
 أسبوعية في نحو « الكامل » للمبرد أو « أمالي » القائل أو « أمالي » الزجاج حتى يكون ذلك
 غاية الغايات في التطبيق الأدبي لفن النحو ، وفيه تعويد على أساليب المتقدمين من الاعلام .

فلو أن قادة النهضة الاصلاحية في وزارة المعارف صدقوا الارادة في إخلاص ، لمدوا
 أيديهم الى هذا البرنامج الأهرى وجعلوه عماد الاصلاح في مدارسهم ، فانه لا يكلفهم سوى
 تبسيط الأسلوب وتجديد الامثلة والتطبيق الأدبي عما يساور عصريتهم ، وهذه الفكرة فوق أنها
 تحقق الغرض من الاصلاح تقرب ما بين الافكار المعهدية ، وتؤدي الى توحيد الثقافة العربية
 في معاهد الأمة ومدارسها .

نحن لا نقول إن برنامج الدراسة في الجامعة الأهرية يجب أن ينتقل بقضيه وقضيضه
 الى مدارس الوزارة ، إذاً يكون قد أبعدها في صحراء الخيال وكلفنا الوزارة شغلاً ، لأننا
 على يقين من الفوارق الدراسية والفكرية والتكوينية بين طلاب الجامعة الأهرية وطلاب
 المدارس الحكومية ، ولكن الذي نريد أن نقوله إن من الخير لوزارة المعارف أن تستضيء
 في برامجها العربية ببرنامج الأهر وتأخذ منه ما يتفق مع حالة مدارسها .

بقي أن نشير الى أن الأهر الحديث قد خطا في حيليل تقريب البلاغة وتحقيق الغرض
 من دراستها خطوة صالحة ، فقد جرد برنامجه الدراسي في البلاغة من المباحث الفلسفية التي
 أقعمت على البلاغة إقعاماً ولم تكن منها بسبيل ، ولم يبق أمام الأهر للوصول الى القمة
 في دقة برنامجه البلاغي سوى أن يعنى بتقرير كتب تطبيقية الى جانب كتب القواعد ، ولا يغنى
 عن ذلك فرض حصص تطبيقية ترجع الى اختيار المدرس ، فان ذلك الى كونه يضعف في الطالب
 الاعتماد على النفس والاستقلال في التوسع الدراسي ، يؤدي الى ذبذبة الروح التطبيقية عند الطلاب ،

لأن المدرسين ، وهم كثرة في المشاهد الديرية ، يخلطون من غير شك في مشاربهم واختياراتهم ، وأوشك أن أقول : ولشاطمهم ، فإذا قرر كتاب خاص مثل « الصناعتين » أو « المنهل السائر » أو « العمدة » أو « الأقصى القريب » للنوحي مع كتاب السعد والإيضاح ، كان في ذلك إغناء للملكة الأدبية ، وتحقيق للغرض الأعلى من البلاغة .

وهناك فكرة تتعلق بدراسة الأدب لها قيمتها في ترسيخ القواعد والوصول بها إلى الغاية منها ، ذلك أن الدراسة الأدبية غلبت فيها روح تاريخ الأدب على نفس الأدب ، تأثروا مناهج الاستشراق ودراسة الآداب الأوروبية ، وكان من أثر ذلك أن ضؤل محفوظ الطلبة من الأدب شعرا ونثرا ، وضعفت عندهم ملكة فهم النصوص ، والرأي أن نرجع بدراسة الأدب إلى مهبع أئمة العربية وأدبائها ، فجعل العمدة فيها على النصوص مقسمة على العصور المختلفة ، وبحت تلك النصوص بحثا يقوم على جعلها معرضا للقواعد النحوية والصرفية والبلاغية وتنبيه الشعور إلى النقد الأدبي ، ويحافظ المحافظة لتعرف مذاهب « الجمال الفني في الكلام » ، مع الإلماع إلى أوزان الشعر في العصور المختلفة وطرق الإلقاء عند الانشاء .

هذا ما نستخلصه في توجيه دراسة القواعد وجهة الإصلاح المفيد والتيسير الجاد ، استفدناه من التجارب والبحث والاطلاع على أعمار من يصون بانهاض اللغة العربية ، ومن مارسوا دراستها وجاسوا حلال مباحثها فعرّفوا — كما يقول مرغليوث — سعة انتشارها ورشاقة تمايزها ، ودقة تراكيبها ، وغناء مفرداتها ، وسعة محوها الذي يجد فيه الباحثون تمليلا وتفسيرا لكل ما يواجههم من التراكيب الشاذة في اللغات السامية الأخرى .

هنا تنتهي مهمة الإصلاح المدرسي الذي يدور حول القواعد والانتفاع بها في السيطرة على الأساليب ، وهي في الواقع مهمة — على خطرها — محدودة النأج إذا قدر لها النجاح ، فانها لا تعدو في النهاية أن تصلح ألسنة طائفة من الأمة العربية ، هي طائفة المتعلمين ، وهؤلاء قلة قليلة إلى جانب سواد الأمة في أقطارها ، والهمة الواجبة في الإصلاح اللغوي أن نمدد رواقه إلى ألسنة ذلك السواد الأعظم حتى ينلق لفته الفعّلية خالية من شوائب اللحن ومعاب التحريف .

قد يبدو هذا الرأي أقرب إلى الخيال الفضفاض منه إلى الحقيقة البيرة ، إذ كيف ومنى يمكن تقويم ألسنة العامة بمسد أن مرنت على اللحن والتحريف وأصبح ذلك سليقة لها ؟ ولكن شيئا من الأمانة والتفكير الهادي يرين أن هذا في مناط الامكان لو وجد عزائم نقابة وجهودا متضافرة من طوائف المتعلمين تؤازرها الحكومة بمصالحها المختلفة المتصلة بمجهاير الشعب ، وتؤازرها أيضا الجماعات الثقافية الكثيرة ، وسالمع هما إلى ما يصلح أن يكون

أساساً في طريقة تنفيذ هذه الفكرة مع الاعتراف بأنها ليست سريعة الانتشار ، ولكنها إذا أُعمرت كان ثمنها محققاً وبلسمها شافياً :

١ — إصلاح أسلوب الحديث العام في أندية الثقافة :

في جميع الأفطار العربية تقوم جماعات ثقافية ، علمية ، وأدبية ، ودينية ، وسياسية ، واحتجاجية ، لها أندية يجتمع فيها أعضاؤها وروادها ، وتلقى من فوق منابرها خطب محضرة ، ومحاضرات محبرة ، بأساليب تبلغ من الفصاحة وتخير الكلام مبلغاً قوياً ، وهذه الأندية في الغالب تضم في عضويتها النخبة الفاضلة ، ويرتادها من غير أعضائها أخلاط من الناس يختلفون في مداركهم وثقافتهم ، وكثيراً ما حشد العامة أنفسهم في ساحات تلك الأندية ليفيدوا علماً ، أو ليسمعوا رأياً ، ولا سيما في ذلك جماعات الإصلاح الديني ، والوعظ والإرشاد ، فانها أحب إلى العامة وهم أكثر زوارها ، فلو أن تلك الجماعات الثقافية أخذت نفسها بقدر استطاعتها وجوب تحديث أعضائها فيما بينهم بأسلوب صحيح بعيد عن اللحن ومغالب التحريف في غير تقرر وتصادق ، ثم أخذوا روارهم في رفق وأسوة إلى أن يذهبوا في أحاديثهم مذهبيهم ، لو أنهم صنعوا ذلك لكان منه على مدى الأيام تمويذ لكثير من الألسنة على صحة التعبير وجمال الحديث ، ولا تنتشر بين الطبقات المتقلدة التكلم بالأسلوب العربي الصحيح .

وقد أخذ الأزهر الحديث هذا السم منذ نهضته المباركة ، فقد نشر على مدرسيه منشوراً ينبههم إلى ضرورة مراعاة الأسلوب الصحيح في تدريس المواد ، ولا سيما مواد اللغة العربية ، وهما هي ذه وزارة المعارف تثنى في أثره موجهة مدارسها هذا التوجيه المفيد ، فقد أذاعت منذ مدة خطاباً على مراقبيها ومفتشيها ونظار مدارسها خاصاً بمراقبة استعمال اللغة الفصحى في دراسة جميع المواد أدبية أو علمية ، وقد بقيت مهمة الأساتذة لها وهناك فيما بينهم وبين تلاميذهم بعيداً عن لحظات الدرس ، وليس من الصبر عليهم أن يحاولوا ما حاولوه في دروسهم حتى تستقيم لنا ألسنة فصيحة ويان حري مبين لا نستبعد أن يجمله المران الطويل سليقة أو قريباً منها ، فان اللغة طجة وحديث قبل أن تكون قواعد وقوانين .

٢ — إخضاع الأسلوب الصحفي لرقابة لغوية فنية :

من الحديث المعاد أن تقول إن الصحافة هي المدرسة الشعبية العامة التي تهذب أفكار الشعوب ، وتشغف عقولهم ، وتغذيهم بأخبارها وأحاديثها ومقالاتها ، وقد أصبحت قراءتها عند كثير من الناس ضرورة يتلقونها بلهفة ، ويصفقون بها بعناية ، فأفادوا منها فوائد أدبية وعلمية واجتماعية ، وإن كثيراً من الناس لم يعرفوا للمدرسة باباً ، ولكنهم أدمنوا قراءة الصحف فصاروا يكتبون ويخطبون بأساليب أهل العلم والثقافة الذين لازموا المدرسة أحقاباً ،

ولا شك أن الصحافة مع تقدمها ورقى أسلوبها لا تزال في حاجة إلى رقابة لغوية فنية ، لأننا إذا استثنينا بعض كريات الصحف في جملتها ، واستثنينا بعض المجلات الأدبية والعلمية ، وجدنا كثيرا من الصحف والمجلات الأخرى ينزل بأسلوبه إلى اللحن الفاحش والتعريف المقيم ، وقد اتخذ بعضها اللغة العامية طبعته الخاصة ، وجعلها لسانه الأول ، والجمهور أشد إقبالا على أمثال هذه الصحف اللعانة المحرفة ، والخطأ أسرع إلى النفوس من السيل في منحدرات الأودية . وتقاء لهذا الشر الويل ومما شاة النهضة الإصلاح اللغوي يجب أن نخضع أساليب الصحف على اختلاف أغراضها ومشاربها لرقابة فنية لغوية تكون مهنتها الإشراف العام على كتابات الصحف من الوجهة العربية ومراعاة قواعد الأساليب النصيحة ، وطبيعي أن يسبق ذلك حظ الكتابة باللغة العامية ، وتستطيع جمعية الصحافة أن تحبل من برنامجها هذه المراقبة التي ترتفع بالصحافة عن مصاف أنصاف العامة الذين يتخذون مهنة القلم دريئة تعصمهم من أن تقذف بهم لمبائهم إلى أما كنهم من الحياة ، والحكومة ، وفي يدها الإذن بإصدار الصحافة ، من حقها بل من واجبها أن تشترط في إذهاب مراعاة فصيح الأساليب في التحرير ، وليس هذا بأقل أهمية من شرائط أخرى ألزمت بها الحكومة الصحف فقامت بها ، عندئذ تستطيع صحافتنا العربية أن تقوم بخدمة اللغة وأن تؤدي واجبها في مهمة الإصلاح ، ويأخذ عنها الشعب أسلوبا عربيا صحيحا فعينا تعناده الألسنة والأقلام ، ويصبح لسان الحديث والكتابة على حد سواء

٣ - وجوب مراعاة قواعد اللغة في الكتابات الحكومية :

للكتابات الحكومية فسط كبير في الإصلاح اللغوي لو أن الحكومة عنتت به عناية خاصة ، ذلك لأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية التي يجب أن تسيطر بقواعدها على محركات الحكومة وكتاباتنا في جميع مصالحها ، ولا يسوغ أن تكون الرسائل الرسمية والكتابات الدبلوماسية محلا للحن والخطأ اللغوي ، لأنه إذا قبل ذلك في الأيام الحالية ، أيام الجهالة الفاشية ، فلا يصح أن يبقى له أثر في هذا العصر الذي انتشر فيه العلم وارتقت الحياة الأدبية في الأمة ، وهذا من أم واجبات الحكومة التي تحرص على رعاية القومية .

٤ - نشر الأسلوب الصحيح بقدر الاستطاعة في شايام مكافحة الأمية :

خير مشروع فكر فيه الشباب المنعم هو مشروع مكافحة الأمية والقضاء على الجهالة ونشر الثقافة بين طبقات الشعب ، لأن الأمية والجهل في هذا العصر سبة المستقل التي لا تعني من جبين التاريخ . فشعور الشباب المنصف بواجبه في خدمة أمته من أفضل طرق العمل الصالح ، دليل على نغطة القومية الفاصلة في أنفس هذا الشباب الطامح الذي وكر حياته لا ينفذ أمته من أضرار الجهل ، ولا شك أن من أظهر مظاهر الجهالة هذه اللهجات العامية المتكاثرة في بلادنا العربية ، والتي

تستعجم في بعض البلاد حتى لا تكاد تبين، ومن السهل أن يسير إلى جانب مكافحة الأمية نشر أسلوب صحيح يقيم عوج الالسنه ، ولا أقصد أن أقول إننا نعلم عامة الشعب قواعد اللغة العربية لتتكم كما يتكلم النحويون ، وإنما أقصد إلى أن تكون أداة إرشاد الشعب وتلقينه الثقافة الأولية هي اللغة العربية في أدنى درجات صحتها ، وعلى القارئ بعشروع المكافحة أن يرمحوا أفضل الطرق وأسهلها لتحقيق الغرض من إصلاح تلك اللهجات المستعجمة ، وعلى الحكومة في هذا السبيل واجب تميم محلاتها الزراعية ونشراتها الصحفية ، ومحاضراتها الاجتماعية والخلقية ، وأن تمنى بلغة الكتابة ولحمة الحديث فيها حتى تكون سهلة صحيحة يفهما الشعب ويتفهم بها في حياته المادية ، وتهذب أفكاره وتتقف ألسنته . والله الهادي إلى سواء السبيل .

صاوي إبراهيم هرجوني

الاستشارة قبل العمل

- قال الله تعالى : « وشاورهم في الأمر » وقال : « وأمرهم شورى بينهم » .
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « المشورة حصن من الندامة ، وأمن من الملامة » .
 وقال عمر بن الخطاب : « الرجال ثلاثة : رجل ينظر في الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها ، ورجل متوكل لا يتأمل فإذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأي وقبل قولهم ، ورجل حائر لا يأثم رشدا ولا يطبع مرشدا » .
 وقال علي كرم الله وجهه : « نعم الموازنة المشاورة ، وبئس الاستعداد الاستبداد » .
 وقيل : « الخطأ مع الاستشارة أحمى من الإصابة مع الاستبداد » .
 وقيل : إذا استخار العبد ربه ، واستشار صديقه واجتهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ، وقضى الله في أمره ما أحب » .
 وقيل : « من استغنى برأيه فقد غامر بنفسه » .
 وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

وإن باب أمر عليك التوى فغاور لييا ولا تمعه
 وإن ناصح منك يوما دنا فلا تنأ عنه ولا تقصه

أصول التشريع

- ٦ -

بحث في الاجتهاد والاجماع

آراء الزعماء وقادة الأفكار في الاجتهاد

(١) رأى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس
الديوان الملوكى العالى (٢) رأى فضيلة الأستاذ الشيخ المغربى
عضو المجمع اللغوى المصرى (٣) هل سدت باب الاجتهاد ،
وما أسباب الجهر بسده وتعطيل العقل ؟ (٤) كيف ينظم
الاجماع ؟

١ - رأى رفعة على ماهر باشا في الاجتهاد :

طالما دعا الى الاجتهاد المصلحون ؛ وها هو حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا
يبحث عليه ، ويرغب فيه ، فانه بعد أن صدر قانون المحاكم الشرعية في مايو سنة ١٩٣١ استقبل
حضرات أصحاب الفضيلة رئيس ونائب وأعضاء المحكمة العليا الشرعية ، وكان حينئذ وزيرا
للحقانية ، وتحدث معهم في الاجتهاد ، وحثهم عليه ، فقال رفعتة :

« إن القضاة في صدر الاسلام كانوا مجتهدين ، مجددين ، يقضون في الحوادث بالكتاب
والسنة ، فان لم يوجد فيهما نص يستنبطون الأحكام بالاجتهاد ، والقياس ، ويدعون آراءهم
بالادلة الناصحة ، والمنطق الصحيح ، ولم يكونوا جامدين في آرائهم يتعبدون بحرفية النصوص
والأقوال ، وكثيرا ما كانوا يحكمون بروح التشريع ، وأغراض الشارع .

« ولذلك جاءت كتب الفقه الاسلامى بمجموعة الأحكام والفناوى ، حافلة بالآراء الكثيرة
في الحوادث المختلفة . وفيها ما يتفق الآن مع أحدث النظريات والأفكار .

« وجدد بقضائنا أن نفتقروا بهذه الثروة العلمية ، وأن يسلكوا قدر المستطاع مسلك
أولئك الأسلاف المجتهدين في استنباط أحكام الحوادث من النصوص ، وتحقيق أغراض الشارع
من هذه الأحكام .

« ومن ذلك مباحث الأوقاف ، فان أصولها في الفقه كثيرة وافية ، ولذلك لا تمتد من
المسائل المستعصية المحل من الوحدة الشرعية والقانونية ، ففى الفقه وروح التشريع متسع
لاستنباط الحلول التى تنشئ مع تطورات الزمن ، وتجدد الحوادث .

« فإذا روعي في التطبيق علاج مسائل الإيقاف على هذه الأسس التي من أهمها تحكيم المصلحة ، ورعاية العرف والعادة ، واختلاف الزمن ، أمكن حل المشاكل ، وإزالة أسباب الشكوى . ففي يد القضاة الشرعيين علاجها في التطبيق بدون حاجة إلى سن تشريع جديد . »
« على أن هناك بعض عيوب ومشاكل لها حلول وأحكام في نصوص الشرع . وأقوال فقهاء الاسلام تعنى الوزارة الآن ببعضها ، وأرجو أن يهديننا البحث الى نتيجة مرضية يتفق فيها الشرع والمصلحة في هذا العصر الحاضر .

« إن مما يكمل العدالة في سير القضاء أن يجتمع أعضاء المحكمة العليا في غير الجلسات كلها وحدثت حوادث لم يسبق لها نظائر فتشاور وتبادل الآراء وتقرر المبادئ فيها حتى يتكون دستور لرجال القضاء في مختلف المحاكم والدوائر ، قصدا الى توحيد الأحكام ، وأن لا يحسبها اضطراب واختلاف .

وضرب رفته مثلا لذلك ، التأمين على أعيان الوقف ضد الحريق ، فقد جرى بعض المحاكم على رفض الطلبات الخاصة به ، وقد أصبح هذا التأمين الآن من الضروريات الخاصة لصيانة أعيان الوقف ، كتعميل جهة الوقف مصاريف المواد التي توضع في البناء لمنع الحريق ، فينبغي أن تبحث هذه المسألة من الوجهة الشرعية ، ويقرر فيها مبدأ يسير عليه العمل في المحاكم الشرعية . والوزارة حريصة على معاونته المحاكم فيما ترى فيه المصلحة ، وضمانة العدالة ، وبلوغ القضاء الشرعي ذروة الرق والكمال .

« ويمدوني سرورا أن أقول لحضراتكم : إنه مادام القاضي يستوحى رأيه وضميره ، ويستمل من روح العدل التي تتلأ نفسه ، ويقضى بين الناس بالحق والعدل — لا يخشى شيئا ، ولا يمكن أن يكون لأحد سلطان عليه . »

هذا هو رأى صاحب الرفعة على ماهر باشا في الاجتهاد ، خصوصا في اجتهاد القضاة . ونصوص المذاهب متفقة على أنه يلزم أن يكون القاضي مجتهدا ، عدا الامام أبي حنيفة فقد أجاز أن يكون القاضي غير مجتهد .

رأى العلامة المغربي :

الاجتهاد في اللغة : تحمل الجهد أي المشقة ؛ وأما هو في الاصطلاح فاستدراغ الجهود في استنباط الحكم الشرعي الفرعي عن دليل ؛ والمجتهد من تكون له ملكة يقدر بها على ذلك الاستدساك ؛ وهذا ما عناه صر بن الخطاب في قوله لقاضيه أبي موسى الأشعري : « اللهم التهم عند ما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة رسوله . » فإذا عرض لأحد المسلمين أمر اتبع فيه ما قاله الله أو الرسول ، فإن لم يبلغه منهما قول رجع الى فهمه واجتهاده .

فلاجتهاد إذاً مما فرضه الاسلام على كل مسلم ، ولكن من الترويض ما يسقط التكليف به أحياناً ضرورة المعجز عنه . قالوا : والاجتهاد من هذا القبيل ، فان المسلمين في قرونهم الأولى كانوا قادرين على الاجتهاد بما تيسر لهم من شروطه ووسائله ، اللهم إلا بعض حاشتهم فكانوا يقلدون فيما لا يعلمون ، ثم بعد ذلك غابت عن المسلمين كافة شروط الاجتهاد ، فلم يمدوا قادرين عليه وأصبحوا كلهم بمنزلة العامة العاخرين من حيث وجوب التقليد عليهم . وهذا القول إن لم يكن الصفقة فهو أخوها .

٣ — أسباب القول بسد باب الاجتهاد وتعطيل العقل :

وعندى أن السبب في التقليد ، عني سد باب الاجتهاد ، وتعطيل العقل ، شيان :
الاول — تفاير العلماء في القرون الوسطى وتحاسد ، فقد يجتهد أحدهم فيصمم على زميله ألا يجاريه في هذا الميدان ، ويكون أدنى منزلة منه ، فيأخذ في مشاغته والرد عليه ، ودخل في صفوف العلماء كثير من الأماحم الذين لم يتيسر لهم الاجتهاد لضعف ملكتهم في اللغة العربية ، فكانوا يناقسون المجتهدين ، ويتناولون الى مراتبهم وهم يمدون عنها ، فلم يرهؤلاء العلماء عرباً كانوا أو عجماء وسيلة لقطع النزاع بينهم أحسن من الجهر بسد باب الاجتهاد ، ومعارضة كل من حاول الاجتهاد ، ولقد ساعد على ذلك أن كان معظم الدول الاسلامية في القرون الوسطى غير عربية ، فلم يكن للاجتهاد في نفوس أمراءها كبير منزلة ، ولم يروا في منعه ومعارضة أهله كبير أمر .

الثاني — أما السبب الثاني في ترويج لقول بلزوم سد باب الاجتهاد فهو السياسية الفاضحة ، وروح هذه السياسة الاستبداد ، هذه السياسة لا دين لها ، وإنما دينها إرادة المستبد ، وشهوته وطمعه وقوة عصبية ، فلا يستتب للمستبد أمر ، ولا يستأثر بالحكم المطلق ما دام في الأمة مجتهدون يرجع الناس إليهم ، ويرجعون هم الى الدين فيستنبطون من أصوله ونصوصه تعاليم وأحكاماً يلزمون جمهرة الأمة بها ، ويحذرونهم عاقبة التفريط فيها ، هؤلاء المستبدون هم الذين استفادوا من منع الاجتهاد ، فأغلقت أبوابهم ، كما أطلقوا أولئك العلماء نوره بأفواههم .

الاجتهاد نور وهدي ورحمة ، حض عليه القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وكونه فرضاً على المسلمين أمر مفروغ منه ، ولا خلاف فيه ، وإنما الخلاف في أن هذا الفرض هل سقط عن المسلمين ضرورة المعجز عنه ، كما تسقط سائر الفروض عند العجز ، أم لم يسقط عنهم ؟

نسألهم : ما شروط الاجتهاد ؟ يقولون : (١) أن يحوى علم الكتاب بمعانيه وأقسامه ، (٢) أن يحوى علم السنة بمنتهى وسندها . (٣) أن يحوى علم موارد الاجماع لتلايخلافه في اجتهاده . (٤) أن يحوى علم وجوه القياس .

وإذا قلنا لهم : إنه لم يخل عصر من وجود مجتهد توافرت فيه هذه الشروط ، أنكروا وعارضوا . ومن بواعث الأسف أن المسلمين من يوم قتل عثمان فقدوا القوة الكبرى التي يرجع إليها في مثل هذا الخلاف وأصبحوا من حيث النضام الديني فوضى وآحادا شتى ، على العكس من أهل الملل الأخرى الذين لهم مجامع دينية قولها الفصل وكلتها النافذة .

ومن أجل ذلك نوحز في البحث مع القائلين بسقوط فرضية الاجتهاد ونجاريهم على رأيهم ، ولكن نسألهم : هل إذا سقط فرض الوضوء عنك لفقد الماء جاز لك أن تلبث متيمما أبد الدهر ولا تسعى في التنقيب عن الماء والتطهر به ولا سيما إذا كان في الامكان العثور عليه ؟ وبدهي أن الجواب سيكون بلزوم البحث عن الماء من وقت لآخر .

وكذلك تقول في الاجتهاد اليوم بالنسبة لمجموع الأمة إنه قد سقط عنها — كما يقولون — فرض الاجتهاد لعدم وجود من يصلح له ؛ ولكن أعالى المسلمين أن يسعوا في تعليم طلابهم تعليما صحيحا يؤهلهم لهذه المرتبة ويديهم منها وويذا رويذا ، إن لم يكن في عصرنا هذا في عصر يتلوه بحيث ينشئ هذا التلميم طبقة منهم تتوافر في أفرادها أدوات الاجتهاد فيجتهدون ، وهذه الفريضة المقدسة يقومون ، وللمسلمين من وهمة التقايد وتعطيل العقل ينقدون ؟ حقا إن المسلمين اليوم في مقدورهم وسائل الوصول الى الاجتهاد إن لم يكن في مقدورهم الاجتهاد نفسه (١) .

صممت آنفا ما قالوه في شروط الاجتهاد ، ويمكنني أن أورد شروطه بأسلوب آخر وأحصرها في ثلاثة أشياء : (١) تعلم اللغة العربية تعليما صحيحا بحيث تستحكم ملكتها في ألسن الطلاب وترسخ في نفوسهم (٢) درس القرآن وصحيح السنة وعمل السلف وتاريخ نشأة الاسلام وفهم ذلك فهمًا خالصا لا يشوبه توهم ولا تأويل ولا مشاغبة (٣) صفاء النفس وإحلام القلب وطهارة الخلق واستعداد الفطرة .

إذا يتسنا من المسلمين الى حد القول بأنه ما عاد يمكن أن ينشأ من أبنائهم في المستقبل أفراد تتوافر فيهم هذه الأشياء ، نكون قد أنزلنا أنفسنا منزلة المعجوات ، وحكنا على ديننا وأمتنا بالميات . ثم إذا كان لا بد لنا من الاستعانة بشيء من العلوم المستحدثة في الاسلام لأجل تدريب طلابنا على الاجتهاد والاستنباط ، فلنستعي بنهن أصول الفقه ، ولكن نجتهد قبل كل شيء في وضع تأليف فيه سهلة الايراد قريبة المأخذ كثيرة الأمثلة تساعد الطالب على الفهم وطريق الاستنباط وتطبيق قواعد العلم على العمل ، لا أن نكتفي بحفظها وترديد كلمات : الخاص ،

(١) راجع في العدد الثامن اقتراحا بإنشاء قسم للاجتهاد وتدريب علومه في الأزهر الشريف ، وقد برها في العدد المذكور على أن الاجتهاد في هذا الزمان أبصر منه في الأزمان الماضية ، واستوفينا كتب الاجتهاد وعلومه ، وأن العلماء وضعوا برنامجا لمدرسة الاجتهاد في الارامل السالفة ولم يبق إلا الدراسة والعمل للاجتهاد .

العام ، المطلق ، المقيد ، النص ، الظاهر ، المحكم ، المتشابه الخ ثم إذا عرض لنا أن نفهم نصا ونستنبط منه حكما مجزئا وأحصرنا .

ومن كبرى مصائبنا نحن معشر الطلاب المسلمين أن ندرس فصول التفسير والحديث والأصول بشروحها وحواشيها وتقريراتها ونصنع أعمارنا في تحقيقها وتدقيقها ثم لا يباح لنا أن نرى رأيا أو نفهم فيها غير ما رأه مؤلفو الكتب وفهموه .

إذا سألك يا أستاذنا : لماذا تتبعنا في فهم الآيات والأحاديث ومسائل الأصول ؟ قد يقول في الجواب عن قراءة التفسير والحديث : إنها توثق البركة والخير ، وتلقى النورانية في القلب . وإذا كان الأستاذ أكثر دهاء وأشد فطنة قال : إن التفسير والحديث ليشحدان من أدهانكم ويذكراكم بمسائل العلوم والفنون الأخرى كالنحو واللغة والبلاغة والفقه والمطلق والكلام والمفولات ، فإنكم إذا قرأتم التفسير والحديث تطبقون مسائل هذه العلوم ، وتعمرون عقولكم على إرجاعها إلى قواعدها ، وبذلك تزدادون بصيرة ورسوخا في العلم فنقول للأستاذ : أصبحت كتب التفسير والحديث إذا كُتب تطبيق وتعمين لا كتب علم وفهم في الدين . دعنا من التفسير والحديث ولكن ما بال علم الأصول ننصب فيه أنفسنا ونضع أعمارنا في تلقيه ، ونسمعكم تقولون في بيان عمرته وفأيته : إنها معرفة الأحكام الربانية بحسب الطاقة الإنسانية ، لينال بالجرى على موجبها السعادة الدنيوية والدنيوية ؟ إذا كانت هذه هي عمرته فلماذا يا أستاذ لا ندعها وقد تعلمنا وأتقنا عمرنا فيه نبذل طاقتنا ونعرف أحكام ربنا لننال السعادة في ديننا ودنيانا ؟ لاجرم أن الأستاذ يسكت ولا يجير جوابا . وهكذا أشبه علم الأصول شجرة باسقة وارفة الظلال دانية الثمار قاصي علماء الأمة وفلاسفة فقهاءها ألعابا كثيرة في غرسها وتسميدها وتعميدها بكل ما ينمى بها حتى إذا أينعت وحان قطافها ودنا زمن استئثارها قالوا لها : لا تجنوا ، ولماذا لا نجنى ؟ بل لماذا أنعمتمونا وأنعمتم أنفسكم فيما لا يفيدنا ولا يفيدكم ؟ !

ومحصل القول أن مانعي الاجتهاد إذا قالوا : إنه لا يوجد في المسلمين اليوم من هو أهل له ، لا يمكنهم أبدا أن يقولوا : إن المسلمين قد امتاخذت عقولهم وارتكست طباعهم ، وفسدت فطرتهم ، فلم يمدوا قاذرين أن يتعلموا تعلماء يهتفهم للاجتهاد ، وتطبيق قواعد الأصول .

وبعد : غير خدمة تقدم للامة هي السعى في تطبيق برنامج هذا التعليم في معاهدنا الدينية . وعندى أن تحصيله أسهل من تحصيل علومنا التقليدية على الطريقة المعروفة المعهودة بيننا التي يقضى ألوف الطلاب أعمارهم في السير عليها ، ثم لا يصل منهم سوى أشخاص قليلين إليها ، وهناك قوم ينكرون صحة تسمية هؤلاء الأشخاص بالعلماء ، وأن تكون علومهم التقليدية مما يفيد فائدة ، أو يعطي علما ، وإنما كل ما تعطيه كلام في كلام . ويقولون : إذا رأيت أحدا من علماء التقليد استنار قلبه ، وتفككت العقول عن عقله ، فذاك لأنه درس بنفسه علوما أخرى

سدت فهمه ، وصححت تصوره وحكمه ، وإن علومك التقليدية ياسيدى الأستاذ قد وقفت أمتك الإسلامية موقفا حرجا إزاء بقية الأمم التى تزاحمها فى هذه الحياة ، وتطيف بها عن كتب ، فقد استجذبت طرائق للحكومات ، وأساليب فى النعارات ، وأفانين فى المعاملات لم يكن يرمفها أسلافنا الأولون ، وفقهاؤنا المجتهدون ، بل انقلب كثير مما قرروه وحكوا فيه اجتهادهم رأسا على عقب . أين أحكام الركاى ، وأين الرقيق والمكاتب وأحكام نكاحهما ، وأين الحدود والشهادة على الزنا ... ؟ كل هذا ياسيدى الأستاذ أصبح كالشريعة المعطلة ، فبعضه نسخ اسمه ، وبعضه نسخ حكمه ، وأحيل لمحاكم وحكام يقولون إنهم أصحاب الاختصاص فيه ؛ فهل من مصلحة الدين وشدة الورع أن ينظر علماء الاسلام من بعيد الى هذا الانقلاب العظيم ، وينقضون رءوسهم ، ويكتفون بالحوقلة والسبعلة ، ويمسكون فى هذا الوحد كية مهمة ، أو الواجب أن ينظروا فى جميع ما حدث واستجد نظرة الحازم الحكيم فيطبقوه على أصول الشريعة وقواعدها العامة ، فنترك بعض الأحكام عن بصيرة ويينة وحجة ، ونسعى فى فهم الأحكام الأخرى التى استجذبت فهما عمليا مطبقا على مقتضيات الزمان ، ومصالح العمران ؟ نسمعك أيها الفقيه الورع تقول : قال إمامنا فلان فى كتابه كذا وكذا ، وقرر تلميذه فى حاشيته عليه كذا وكذا ، ثم ترى المسلمين بل نراك أنت أحيانا تعمل فى المحاكم والدواوين ومواطن الأشغال التجارية ، والشركات الاقتصادية ، وكل الشؤون الدنيوية على غير ما قرره إمامك وحققه تلميذه شيخك ، ذلك لأنه ليس فى الطائفة تطبيق ما فى الكتب العتيقة على حاجات الناس الجديدة ، إذ أن الزمان قد استدار ، وتغيرت الطباع والأملوار ، وأمتت الواقعات التى تحدث فى هذا الزمان لا تحاكي نظائرها فى الأزمنة السالفة وقت أن ألقت تلك الكتب التى نندارسها ، فنحن ندرسها ولكن لا نقدر أن نعمل بها ؛ فهذه الواقعات التى تنجد فى أشغال الناس ومتاجرم وأساليب مكاسبهم إذا لم نرجع فيها الى الاستنباط من أصول ديننا ، لم يعد فى إمكاننا أن نحكم بها حكما شرعيا ، ولا أن نقول إن لها فى شريعتنا السمحة شريعة كل زمان وكل مكان حلا مرضيا .

ويقول العلماء السالفون : إن عمرة علم الأصول الاستنباط ؛ ويقول العلماء الخالفون : إنه لا يجوز الاستنباط بواسطته ، وإذا عرضت لهم واقعة جديدة ، أو سئلوا عن أى أمر لم يعهده أسلافهم وقفوا وقفة عواجز لا يمحرون جوابا ، ولا يملكون خطبا ، هكذا شأنهم ، وكأنهم يوقفهم هذا يقولون : إن الشريعة ضيقة ، ولا حكم فيها لما تسألون عنه ، وإن الواجب عليكم أيها السائلون أن ترجعوا الى أنفسكم فتصرفوا فى المسألة حسبما تشاءون ، أو تستعينوا بالنظم التى وضعها الأوروبيون .

وليس فوق هذا إزاء بالاسلام ، وحذلان للشريعة المطهرة ، وكفران بنعمة صاحبها

عليه الصلاة والسلام . أترجع الى غير الدين الاسلامي فيما يعرض لنا من مختلف الشئون ونحن نعتقد أن ديننا آخر الأديان ، وأنه تضمن جميع ما يحتاج إليه البشر على اختلاف الأعصار والأزمان ؟ أمحجر على أنفسنا ونجهد نعمة العقل التي أنعم الله بها علينا فتزعم أن عقول غيرنا من المشرعين وواضعي القوانين خير منها ، وأنها أصح حكماً ، وأوسع علماً ؟ أمعتقد الله علينا بالدين وبالعقل فتعيتهما ، ونطفي نورها ، ونذعي ألئ ذلك مما يثيب الله عليه وأنه طريق الزلفى إليه ؟ أنا أقصر بأن الأستاذ لم يمد يملك نفسه غضبا وحفيظة مما سمع من حض على الاجتهاد ، ولكن الأستاذ نسي أننى لا أريد أن أجتهد فى تقسى ، أو أن أهمل طريق الاجتهاد أمام غيرى من المعاصرين ، وإنما أنتظر من إنصافه أن يطاوعنى فى القول بلزوم تعهيد الطريق أمام الأمة الاسلامية المستقبلية ، فنعلم أبناءنا تعليماً أصولياً يؤدي الى الفهم الصحيح فى الدين ، والمقدرة على الاستنباط من أصول الشريعة ، فلا نعود نهدم أحكاماً وفناوى لكل ما يطرأ من الوقائع ، فى ضروب الأشغال والمعاملات .

هذا هو رأى الأستاذ المغربي فى الاجتهاد ، وذاك رأى رفعة على ماهر باشا فيه ، ولو أخذ رأى المسلمين عليهما لنالاً إجماعهم أو قريباً من هذا الاجماع ، فكل زعيم مسلم يدعو الى الاجتهاد ويحض عليه ، والمسلمون فى أشدة الحاجة إليه .

٤ — كيف ينظم الاجماع ؟

الاجتهاد نعمة وخير إذا كان من أهله ، وشر وتقمة إذا كان من غيرهم ، فإذا دعونا الى الاجتهاد فادعوا أهله والقادرين ، وإذا نظم الاجتهاد والاجماع كان من وراء ذلك الخير الكثير للاسلام والمسلمين ، وهذا التنظيم ليس بدهاء ، فنجر الاسلام للآن ورأى كبار الصحابة والعلماء يتجه اليه ، حتى إن المسلمين فى الأندلس كوتوا مجلساً للشورى والتشريع ، وكان الخليفة يعين أعضائه ، وقد وردت الآثار الكثيرة بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان إذا ورد عليه المصوم نظر فى كتاب الله ، فإن لم يجد ما يقضى به نظر فى السنة ، فإن لم يجد سأل المسلمين من قضاء الرسول الكريم فى ذلك ، فإن لم يجد « جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شئ قضى به » ، وكذلك كان يفعل عمر رضى الله عنه ، ولا ريب أن فى هذا اتجاهها لتنظيم الرأى والاستشارة والاجماع ، وطالما فكر المسلمون فى هذا التنظيم من العصر الأول الاسلامي للآن .

ومما أراه لتنظيم الاجماع ما يأتى :

١ — ينشأ بمصر جمع يسمى « جمع التشريع أو جمع المجتهدين » ، أو بجمع فاروق الاول للتشريع الاسلامي ، أو نحو ذلك .

٢ — يختار أعضاء هذا المجمع من العلماء أهل الاجتهاد فى العالم الاسلامي كله .

- ٣ — تختار كل أمة إسلامية عضوا أو أكثر حسب النظام الذي يوضع لذلك .
- ٤ — يعتقد هذا المجمع برئاسة حضرة صاحب الفصيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر في زمن معين من كل سنة ، ويعرض عليه آراء كل مجتهد .
- ٥ — متى انعقد إجماع مجتهدى الأمة وهم أعضاء هذا المجمع على أمر من الأمور الشرعية التي لم يرد عنها نص ، يعمل به ، وهذا يكون كمقدمة لتوحيد التشريع والمذاهب في العالم الاسلامي ، ولتكوين قانون عام من الفقه الاسلامي يعمل به جميع المسلمين .
- هذا ملخص ما أراه لتنظيم الاجماع .
- والناس في هذا المصر يرجون أن يتحقق ذلك على يد مولانا الأستاذ الأكبر الامام المراغي شيخ الأزهر ، في ظل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح « فاروق الاول » أيده الله بنصره وأعز به الاسلام والمسلمين !
- البر عفيفي

بعض من نال بالادب أعلى الرتب

منهم أحمد بن أبي دواد ، فقد كان في أول أمره رقيق الحال يخلف الى مجاس بشر المريسي في حالة رقة ، وهيئة رديئة ، ثم ينصرف عنه في قائم الظهيرة معاقا بحبرته ، متأبطا دفتره ، فيقبل عند أخ له .

فلما وجه المأمون أخاه المعتصم واليا على مصر ، التمس من المريسي رجلا من أصحابه يكون في محبة المعتصم ، يوليه على المظالم ، ويكتب اليه أخباره .

فقال بشر للمأمون : يا أمير المؤمنين معنا قوم لهم فقه ولكن لم يجمعوا اليه الادب ، ومعرفة أمور السلطان (يريد ما يسميه الفرنجة الآن البروتوكول) ، ثم وصف له احمد بن أبي دواد ، وقال إنه جمع الى فقه أدبا وبيانا وعقلا ، فأرسل اليه المأمون وقلده المظالم ، ففعل .

فلما اختبره المعتصم وحده أهلا لما أسند اليه ، وحظي عنده حظوة لم ينلها أحد غيره .

ومنهم محمد بن عبد الملك الثيات وزير المعتصم . وروى أن العلاء بن أيوب قال له يوما وقد دارت بينهما محاوره : ليس هذا كيل الزيت ، ولا عذ الجوز !

فاجابه ابن الثيات بقوله : أبا لتجارة تعيرني ! قد كنت تاحرا وكنت متأخرا ، فقدمني الله بالادب ، وأصارني بعد التجارة الى الوزارة ، وليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإنما هو من كان شريفا فالتضع !

دفاع عن القرآن الكريم

نريد الآن قبل أن نختم هذا المبحث أن نتعرض لثلاث مسائل .

الأولى يؤخذ من مجموع هذه الروايات ، سواء أكانت روايات البخاري والترمذي وغيرهما ، أم روايات ابن أبي داود ، أن سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه لما فقد آية أو آيتين من آخر سورة التوبة ، وآية من سورة الأحزاب ، ووجدها عند خزيمه ، أو أبي خزيمه ، أثبتا في مكانها ، وخزيمه صحابي واحد ، فتكون هذه الآيات الثلاث مروية برواية الأحاد ، وشرط قراءة القرءان النواتر ، والروايات الأحادية ليست قرءانا إجماعا ، فكيف كان ذلك ؟ هذا هو الاعتراض المنقول عن الرافضة .

والجواب : أن سيدنا خزيمه رضى الله عنه لما جاء بهذه الآيات تذكرها جمع كثير من الصحابة وضوان الله عليهم فأقروها ، ثم أثبتها زيد بن ثابت في المصحف بعد إقرارها والإجماع عليها . على أن سيدنا زيدا كان عالما بها ، ولذلك التمسها حتى وجدها أولا عند خزيمه ، ثم حصل التذكر والإقرار والإجماع ، فليست من الروايات الأحادية في شيء .

الثانية : يدل ما رواه ابن أبي داود عن أبي أن آخر آية نزلت من القرءان هي آخر آية من سورة التوبة ، لأنه يقول : قال — يعنى أبى — فهذا آخر ما أنزل من القرءان ، نفتم الأمر بما فتح به . وهو يخالف المشهور من أن آخر آية أنزلت من القرآن هي قوله تعالى . « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ، ولعل معنى كلام سيدنا أبى أن هذا آخر ما أنزل من القرآن في سورة التوبة كما يؤخذ من سياق الرواية ، ومن قوله فيها : فلما انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة . « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن الخ .

الثالثة : تدل هذه الروايات دلالة صريحة على أن سيدنا أبى بكر الصديق جمع القرآن ، فما معنى جمع سيدنا عثمان رضى الله عنه للقرآن مرة ثانية ؟

والجواب : أن سيدنا عثمان لم يجمع القرآن ، وإنما جمع الصحف في مصحف ليجمع الناس على قراءة بسبب اختلافهم في القراءات وتفرق الصحابة في البلدان ، وبسبب ما وقع بين أهل الشام والعراق ، على ما ذكر حذيفة ، رضى الله عنهم .

وخلاصة القصة : أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روى لها ، فاختلفوا وتنازعوا ، فأشفق حذيفة مما رأى منهم ، فلما قدم المدينة ، فيما رواه البخاري والترمذي ، دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال : فبماذا ؟

قال : في كتاب الله ، إني حضرت هذه الغزوة وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز ، وقص عليه ما رأى ، وقال : إني أخشى عليهم أن يحتلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى ، فأمر بكتابة المصحف ليجتمع الناس على قراءة ويبتل الاختلاف .

باب آخر من أبواب الاتفاق في كراهية عبد الله بن مسعود ذلك وغضبه من اختيار زيد بن ثابت دونه

روى الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ص ٤٦ من الجزء الأول قال :

« قال أبو بكر الأباري : ولم يكن الاختيار ثريدا من جهة أبي بكر وصهر وعثمان ، على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد ، وأقدم في الاسلام ، وأكثر سابق وأعظم فصائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله ، إدعاه كله ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي ، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذ ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي أولي بجمع المصحف وأحق بالابتناء والاختيار ، ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعنا على عبد الله بن مسعود .

« قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من تكبر ذلك فتى نتجه الغضب ، ولا يعمل به ، ولا يؤخذ به ، ولا يشك في أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم ، فالتأنيع الدائع المنعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المودعان بمنزلة البقرة وآل عمران من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله ، اه كلام القرطبي .

فيتلخص مما تقدم أربعة أشياء :

أولا — أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان غاضبا لاختيار سيدنا عثمان ومن معه من الصحابة سيدنا زيد بن ثابت لجمع القرآن دونه .

ثانيا — أن ما حصل منه من بعض الكلمات نحو هذا الموضوع كان في وقت الغضب فلا يعتمد عليها كراى له رضى الله عنه .

ثالثا — أنه وافق على حسن هذا الاختيار بعد زوال الغضب ، فلا إجماع على المصحف الامام كان تاما .

رابعا — ان الميزة التي اختص بها سيدنا زيد ، وهي حفظه القرآن جميعه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تقتضى أفضليته على سيدنا عبد الله بن مسعود ، وإلا لاقتضت أفضليته على سيدنا أبي بكر وعمر ، وهو مما لم يقل به أحد . أما ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود في هذا الموضوع الدال على غضبه وكراهيته ثم موافقته بعد الغضب ، فهو ما رواه لنا العلامة ابن أبي داود في موضعين من كتابه : (أحدهما) كراهة عبد الله بن مسعود ذلك . و(ثانيهما) رضاه عبد الله بن مسعود لجمع عثمان المصاحف . وسنذكر هنا روايات الموضعين : كراهة عبد الله بن مسعود ذلك :

حدثنا عبد الله ، قال : حدثنا شعيب بن أيوب ، حدثنا يحيى بن آدم ، قال حدثنا عمرو ابن ثابت ، قال حدثنا حبيب بن أبي ثابت عن أبي الشعثاء ، قال : كنا جلوسا في المسجد وعبد الله يقرأ فجاء حذيفة فقال : قراءة ابن أم عبد ، وقراءة أبي موسى الأشعري : والله إن بقيت حتى آتى أمير المؤمنين (يعني عثمان) لأمرته بجعلها قراءة واحدة . قال : فغضب عبد الله فقال لحذيفة كلمة شديدة ، قال : فسكت حذيفة .

ومن طريق آخر : عن أبي الشعثاء المحاربي قال : قال حذيفة : يقول أهل الكوفة : قراءة عبد الله ، ويقول أهل البصرة : قراءة أبي موسى ، والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته أن يتركها ! قال : فقال عبد الله : أما والله لئن فعلت ليعرقك الله في غير ماء ! ثم ذكر بعد ذلك روايات بمعنى ما تقدم ، ثم قال بعد ذكر السند : عن مسروق قال : كان عبد الله وحذيفة وأبو موسى في منزل أبي موسى فقال حذيفة : أما أنت يا عبد الله بن قيس فبعثت الى أهل البصرة أميرا ومعلما وأخذوا من أدبك ولغتك ومن قراءتك ، وأما أنت يا عبد الله بن مسعود فبعثت الى أهل الكوفة معلما فأخذوا من أدبك ولغتك وقراءتك . فقال عبد الله : أما أنى إذا لم أضلهم ، وما من كتاب الله آية إلا أعلم حيث نزلت وفيم نزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني قبلتني إلا لجل لرحلت اليه .

ومن طريق آخر : عن حميد بن مالك قال . قال عبد الله : لقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن يزيد بن ثابت ذوأبنين يلعب مع الصبيان .

ومن طريق آخر . عن حميد بن مالك عن عبد الله قال لما أمر بالمصاحف ساء ذلك عبد الله ابن مسعود قال . من استطاع منكم أن يغل مصحفا فليغل فإنه من غل شيئا جاء بما غل يوم القيامة . ثم قال عبد الله : لقد قرأت القرآن من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد صبي ، أفأترك ما أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٢

ومن طريق آخر : عن حميد بن مائة قال سمعت ابن مسعود يقول : إني قال مصحفي
 فس استطاع أن يقل مصحفا فليقال فإن الله يقول : « ومن يقل بما غلّ يوم القيامة »
 ولقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لصبي
 من الصبيان ، أفأنا أدع ما أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ١٢

ومن طريق آخر : عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قرأ « ومن يقل بما غلّ
 يوم القيامة » غلوا مصاحفكم فكيف تأمروني أن أقرأ قراءة زيد ولقد قرأت من في رسول
 الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة وزيد ذو ابتان يلعب بين الصبيان ؟ ١٣

ثم ذكر ابن أبي داود بعد ذلك عدة طرق لا يخرج عن معنى ما تقدم . وذكر في آخر
 الباب رواية لعلها أظهر الروايات في غضب سيدنا عبد الله بن مسعود ، وهي المسندة للزهري
 قال : وأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ
 المصاحف فقال : يأممشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسأت
 وإنه لي صلب أبيه كافرا (يزيد زيد بن ثابت) . وكذلك قال عبد الله : ياهل الكوفة ، أو ياهل
 العراق اكتبوا المصاحف التي عندكم وغلوها فإن الله يقول : « ومن يقل بما غلّ
 يوم القيامة » فأتقوا الله بالمصاحف . قال الزهري : فبأخى أنه كره من مقالة ابن مسعود رجال
 أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . اهـ

وقد علمت مما تقدم الحكمة في اختيار سيدنا أبي بكر وعمر سيدنا زيد بن ثابت رضي
 الله عنهم أجمعين .

رضاء عبد الله بن مسعود

لجمع عثمان رضي الله عنه المصاحف

حدثنا عبد الله قال حدثنا عبد الله بن سعيد ، وعبد بن عثمان العجلي ، قالا : حدثنا أبو أسامة
 قال حدثني زهير قال حدثني الوليد بن قيس عن عثمان بن حسان العامري ، عن غلفلة الجعفي
 قال : « فرزت فيمن فرزع إلى عبد الله في المصاحف فدخلنا عليه ، فقال رجل من القوم : إنا لم
 نأتك زائرين ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر . فقال : إن القرآن أنزل على بيبكم من سبعة
 أبواب على سبعة أحرف ، أو حروف ، وإن الكتاب قبلكم كان ينزل ، أو نزل من باب
 واحد ، على حرف واحد معناها واحد » اهـ

ولم يذكر ابن أبي داود في هذا الموضع غير هذا الحديث ، وفيه الكفاية .

مصنوع حسين

المرأة في العصر الجاهلي

نشأت المرأة العربية في العصر الجاهلي على الفطرة البدوية ، من استقلال الفكر ، والألفة وإيالة الضيم ، فكانت لذلك عظيمة الشأن ، عزوف النفس ، ترفع عن ارتكاب ما يحط من قيمتها أو يدفع بها إلى الهاوية . ومثل ذلك يقال في غيرة رجلها على سلامة عرضها ، لأن الرجل الاتوف يعظم على طباعه احتمال ما يمس شرف امرأته ، أو يهين كرامتها من قول أو فعل . وتزداد هذه الغيرة إذا كانت مع عفتها بمنازلة لصفات تجعل لها فصلا على مثيلاتها

وبلغ من غيرة بعضهم أن قتلوا سائهم أو وأدوهن خوفا من ارتكاب العار أو الفضيحة ، ولم يكن الوأد طاما في قبائل العرب ، ولا كان قديما عديم ، وإنما كان في بعض قبيلة بني تميم ابن مر ، ظهر فيهم قبيل الاسلام لسبب طرأ عليهم ، ذلك أنهم لما منعوا الجزية التي كانوا يؤدونها إلى النعمان ملك الحيرة ، غزاهم بخيله ورجله ، وجرد عليهم كنانته ، فأخذ أموالهم ، وسبي ذرارهم ونساءهم ، فكبر ذلك على التميميين فأقبلوا عليه يطلبون منه رد ما أخذ من مال وما أسره من أولاد ونساء ، فأنى النعمان ذلك ، فقالوا له : أعطنا النساء ، فأجاب قائلا : إنا سنخبرهن بين القهاب أو البقاء ، ويومئذ أطلق مساديه يقول : « ما تريد أن تختار أباهن فهي له ، وما تريد أن تختار صاحبها فهي له » .

اختارت كل واحدة منهن أباهن فسلت إليه ، إلا أنة قيس بن ماصم فلم تختار إلا صاحبها عمرو بن المصروع ، وبقيت عنده ، ففضب والدها لهذا الأمر الذي لم يكن في حسياته ، ونذر ألا تولد له أنة إلا قتلها ، وتبعه في ذلك بعض أهله وقبيلته ، ولم يدم الوأد طويلا حتى قبض الله للبنات في ذلك الوقت صعصعة بن ناجية ، وأخذ على نفسه فداءهن ، لأنه مخالف لأحكام العقل ومباين لمواطف الوالدین . وكان بعض الغيورين لا يزوج بناته غيرة عليهن ، وأشهرهم ذو الأسبيع العدواني ، كان له أربع بنات ممنعن الزواج وهن يردنه .

مفهورات النساء في الجاهلية :

اشتهرت جماعة من نساء الجاهلية بمناقب رفيعة ولا سجا في أوائل الاسلام ، فمن اللائي اشتهرن بالشجاعة والبأس وكبر النفس : سلمى بنت عمر إحدى نساء بني عدي بن الجار ، كانت لا تتزوج الرجال إلا وحبلها على فارها : إن رأت بمن تزوجه شيئا تكرهه تركته وشأنه ، ولا يقدر هذا في عفتها وكبريائها . واشتهرت التميميات من نساء قريش بالحظوة والتدله على رجالهن ، فاهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة وشدة البطش في الغزوات .

ففي غزوة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل صريحا حتى أخذته حمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فلاذوا بها وتبعوها .

وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك الغزوة ما لم تفعله الرجال ، إذ جمعت إليها نسوة أحدثن في أيديهن الدفوف وصرن يضرن خلف القوم يغرونهم على الثبات والاستبسال ، وعدم إعطاء الدية بالهزيمة أو الاستسلام . فكان لما فعلن أبلغ الأثر في تخريضهم على المضى في نصلهم ، والثبات في قتالهم . ولما انتهت الوقعة خرجت هند مع النسوة تبحث جثث القتلى ، فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم فبقرت بطنه وأخرجت كبده ولاكتها غيظا وحنقا ، ولسكتها لم تستطع أن تبذلها فلففتها ، ثم علت صخرة وأنشدت شعرا تغفر به على المسلمين لفشلهم وتغلب قومها عليهم .

نذكر هذا وهو من الشجاعة بمكان يوجب لمن يرتكبه الخزي والعار ، ولكنه مع ذلك كله يدل على الشجاعة وثبات الجأش .

وسبق في الرأى والحزم خديجة بنت خويلد ، فكانت طافلة ، حارمة ، ذات شرف ، ومال ، تنفق من اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم فتستأجرهم بما لها وتقاسمهم الربح ، تحسنا لحالهم وإيماء لما لها ، ولما سمعت لشهرة النبي صلى الله عليه وسلم دعتة للأنجار بما لها ، فقبل الدعوة بما اشتهر عنه من كرم الأخلاق ، فطلبت إليه أن يخرج في ما لها متاجرا إلى الشام وتمطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من الرجال ، فلما أفلح في تجارتها ، وتحقق لديها ما كانت قد سمعته عنه عرضت عليه نفسها لازواجه ، فأجابها . ولما بثت كات أول امرأة آمنت به وتولت العناية في أول هذا الدور الخطير فكانت تهون عليه ما يجده من تكاليف الوحى ، وتخفف عنه ما كان يلم به من كدر أو نصب ، وتنصره بما لها على قريش . ظلت على هذه الحالة إلى أن لبثت دعوة ربها ، رضى الله عنها .

ومن النساء اللاتي اشتهرن في الجاهلية والاسلام : الخنساء ، واسمها تماضر ابنة الشريد ، قتل أحوها فوقفت كل شعرها على رثائه ، فكانت أعطف أخت على أجبها في تاريخ العرب .

حالة المرأة في الجاهلية :

لم تنأدب المرأة في الجاهلية بأداب دين غير ما كان عليه قومها من الوثنية ، ولم يكن لها حظ من علم ولا تربية ، لأن العرب كانوا أميين ولا نصيب لهم في شيء من العلم والحكمة إلا ما كانوا يحذقونه من قرض الشعر ، وكانوا يعيشون في حيزوتهم ومعظم أرضها سهوب رملية وصحار قاحلة ليس فيها نهر ، فكان اعتماد أهلها في سد حاجتهم من الماء على الآبار والسيول وهي لا تكفى للرعى من الوجهة الزراعية ، فبقيت بلاد العرب في أوسع شقيها في حالة جدوبة مطلقة ، وكانت اليمن والعراق على الضد من ذلك ، ثريتان بميوتها وأنهارها ، فكثرت زراعتهما

ونمت خيراتها، ولكنهما وقعتا بسبب ذلك تحت يرائق الأم الإحنية المجاورة لها، أما ماعدا هاتين البقعتين من جزيرة العرب فكانت لا تثبت شيئاً إلا ما يندأ عقب نزول الأمطار من النباتات التي لا تصلح غذاء لغير الماشية، فكان العرب لذلك السبب لا يتخذون لهم مدناً وقرى يقيمون فيها على حالة مدنية، ولكنهم يسكنون المصارب والخيام ليمهل عليهم نقلها من مكان إلى مكان طلباً للرعى حفاظاً لحياة أنعامهم التي هي عماد معيشتهم، وإن أمة تعيش على هذه الحالة لا يعقل أن تعنى بالعلم ولا بالتربية غير ما تهديها إليه الفطرة الإنسانية الساذجة، فكانت المرأة العربية إذ ذاك في حالة تماسب حالة رجلها، من التجرد من العلم، والتحصن للحياة المادية. وهذا لم يمنع من ظهور أفضاء منهم اشتهروا بالشعر والخطابة، بل منهم من قدن الكتاب والمقانب وخضن غمرات المعامع. كل هذا في حدود السذاجة الجاهلية والبساطة البدوية.

حقوق المرأة في الجاهلية والاسلام :

لم يكن الجاهليون من العرب يتغيّلون أن للمرأة على الرجل حقوقاً مادية وأدبية، وكانوا يعتبرونها متاعاً من الامتعة، بل كان لرجل يعنى بفرسه أكثر مما يعنى بأمرأته، وكانوا يمددون الزوجات بلا قيد ولا شرط، وكانت المرأة تورث مع ما يورث من ماضيته وأمتعته، فلما جاء الاسلام قرر لها حقوقاً على الرجال، فارتفع بذلك شأن المرأة العربية، وشملها بما لم تسمح به أية شريعة في الأرض ولا الشرائع الأوربية الوضعية من التعلم والتعليم وإدارة الأمور حتى جاوز لها ولاية الافناء والقضاء مما لا يعقل أن يكون لعمه مزيد لمستريد.

فإن أردت أن تعجب فاعجب ممن يزعمون أن الاسلام اهتضم حقوق المرأة وأسكر عليها قيمتها الطبيعية على حين أنه أول من منحها تلك الحقوق وأغلى لها تلك القيمة. فالمرأة كانت قبل الاسلام في كل بلد أسيرة الرجل مهددة الدم، فأخذ الاسلام بصيحتها ونشر حمايته عليها، ووضعها والرجل في مستوى واحد من العناية والرعاية. ومن يعنى بدراسة تفصيل ما منحه إياها من الحقوق المدنية والزوجية والامورية يمدح المحب العجيب بما لا بدع لمعترض على هذا الدين مقالاً، اللهم إلا بالاجأ إلى الاختلاق وهو المجال الذي يرتز فيه خصوم الاسلام لما أعيتهم الحيل في مكافحته على سواء « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ».

محمد مصطفى شاذي

حوالى الغزوات

— ٢ —

لما كانت غزوة بدر وأحد وقتل من قتل من المشركين بأيدى المسلمين ، فقد كعاد قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ، فعمدوا الى الحيلة ، فجمعوا جملاً مائة ناقة لبني الهون إن هم مكنوهم من أحد من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ليقتلوه أحداً بتار من قتل منهم بيد واحد ، فقدم سبعة نفر من بني الهون على النبي صلى الله عليه وسلم وأظهروا الاسلام ، وطلبوا أن يبعث معهم من أصحابه من يفقههم في الدين ويعلمهم شرائع الاسلام ، فبعث النبي معهم ستة نفر من أصحابه ، وهم حاصم بن ثايب ، ومرتد بن أبي سريته الغنوي ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وخالد بن البكير .

ولما وصلوا الى الرحح (اسم ماء) قعدوا ليستريحوا فاستصرخ الوعد هذيلاً على قتلهم انتقاماً منهم وطعماً في الجائزة ، فبينما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلوس إذا هم بأهل الغدر قد أحاطوا بهم من كل جانب ، فلم يروهم ذلك ، ولم يقتهم عن الدفاع عن أنفسهم أنهم قليل وعدوم كثير ، فقاموا من فورهم وسلوا سيوفهم واستعدوا للملاعة عدوهم ، فلما رأهم المشركون قد حذروا ، حلقوا لهم أنهم لا يمدونهم شراً ، فلما سمع أصحاب الرسول حلقهم أحمد فريق منهم سيوفهم وفريق آخر قال : أما نحن فلا نتزل على عهد مشرك ، وقتلوا حتى قتلوا . أما الفريق الذي غره الحلف فانه وقع في أسر أهل الغدر فأخذوهم وباعوهم لقريش ، وكان منهم خبيب بن عدي .

وكان من خبر مقتله أنه أسر وحبس حتى تخرج الأشهر الحرم ، وكانت العرب تحرم القتل فيها . وفي أول محبسه أساءوا معاملته ، فلما رأى ذلك منهم قال لهم مرة : ما هكذا يفعل القوم الكرام بأسيرهم اغفلوا من مقاتلته وأحسنوا معاملته وحسنوه في دار موهب مولى آل نوفل ، فأكد موهب على زوجه بحراسه . وفي ذات يوم جاء اليه موهب ليتفقد حال سعيه فلما كله قال : ألك حاجة يا خبيب ؟ فقال : لي إليك ثلاث حاجات : أن تسقينى العذب (من الماء) ، وأن تمنحني ما ذبح على المصب (لحم القرابين) ، وأن تمنحني إذا أجمعوا على قتلى . ولما مضت الأشهر الحرم وبدا لهم أن يقتلوه خرجوا بخبيب الى التنعيم (اسم مكان) ليصلبوه ، فلما رأى خبيب إصرارهم على تنفيذ ما حولت لهم أنفسهم طلب اليهم أن يدعوه يصلي ركعتين ، فقالوا له : صل ماشئت أن تصلي ، فصلى ركعتين حقيقتين ، ولما سلم التفت اليهم وقال : لولا أن تقولوا جزع من الموت لأطلقت وفدت . ولما حلوا به وأتموا صلبه تقدم اليه

أحدم وقال له : يا خبيب نخل عن الاسلام نخل سبيلك . فأجاب خبيب : إن قتلى في سبيل الله لقليل . ثم توجه نحو الكعبة وقال : اللهم إنه ليس أحد هنا يبلغ رسولاك منى السلام قبله منى ! وروى أنه أنشد هذه الأبيات :

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا	قبائلهم واستجمعوا كل جمع
وكلهم مبدى المداوة جاهد	على لآلى في وفاق مضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم	وقربت من جذع طويل منع
الى الله أشككو غربى ثم كبريتى	وما أُرصد الأحزاب لى عند مصرى
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شلو محزم
وقد خيروا في الكفر والموت دونه	وقد هلت عيناى من غير مجزع
ولست أبالي حين أقتل مسلما	على أى جنب كلف في الله مضجعى
فلست بمبدى لعدو تحشما	ولا جزما إني الى الله مرجعى

ولما يتسوا منه طعنوه بالرمح حتى مات شهيدا ، وإنه لأول مسلم صلى ركعتين قبل مقتله في حياة النبي عليه الصلاة والسلام .

ولما علم النبي بالحادثة ظل أربعين صباحا يدعو على أهل القدر بخبيب وأصحابه ، واستحسن شجاعته وصلاته فقال : الصلاة خير ما ختم به من عمل العبد .



ولما كانت خلافة معاوية رضى الله عنه ، وشي زياد والى العراق بحجر بن عدى ، ونسب اليه الخروج على معاوية ، وعزمه على قرض البيعة ، فلما علم معاوية بذلك كتب الى زياد أن أرسل الى بحجر بن عدى وأصحابه لأنظر في شأنهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال معاوية : أو أمير المؤمنين أما ؟ اضرخوا أعناقهم ! وكانوا ستة نفر من القواد المقام وأصحاب الرأي . فلما ذهبوا بهم الى ساحة الاعداء ، وكانوا قد أعدوا لهم أكفانهم وحفروا قبورهم ، ورأى حجر بن عدى ذلك ، أصابه شيء من الخزع . فقال له بعض من حضر : منلك يحزع من السيف وأنت أنت ؟ فقال له حجر بن عدى : كيف لا أجزع وإني أرى سيفنا مشهورا ، وكفنا منشورا ، وقبرا محفورا ؟ خففت عنه وعدت من الأجوبة المسكتة .

وحدث بعد ذلك أن حجج معاوية بن أبى سفيان وتوجه لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة وبها دار عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فلما استأذن بالدخول مدت عنه الاذن ساعة ثم أدنت له ، فلما سلم قالت : أما خشيت الله يا معاوية في قتل حجر بن عدى وأصحابه ؟ فقال لها : يا أم المؤمنين أنا ما قتلتهم وإنما قتلهم من شهد عليهم .



ولما كانت سنة خمس من الهجرة وتآلب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتجمعت قريش على حربهم ، استشار النبي أصحابه : أى شئ يصدر عنا عدونا ؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بما كان فيه صد قريش عن المدينة ، فقال : يا رسول الله كنا إذا أوتينا في بلد حندقنا . فأعجب النبي بهذا الرأي ونادى مناد بحفر الخندق ، فخرج الناس سراعا شيوخا وشبابا ، فقام النبي فيهم خطيبا حمد الله وأثنى عليه وطلب منه المعونة ثم قال : « وبعد فاني أكرم بالجد والاجتهاد ، ولكم النصر من الله إن أتم صبرتم ، فاتقوا الله والزموا الطاعة في العمل ، فانه ما اختلف قوم في عمل إلا كان الفساد فيه بقدر ما اختلفوا »

ثم توجه نحو الخندق وحدد لكل رجل عشرة أذرع يعمل فيها ، وبدأ العمل بنفسه تشجيعا لأمنه ، وقال حين البدء : يا أم الإله بديننا ، ولو عهدنا ربنا غيره شقينا . وتبعه أبو بكر وعمر ، وكاما يحملان التراب مع من يحمل ، ويسرمان في الحفر خشية أن يبتغهم العدو ، وما زالوا يعملون حتى أدرك الصحابة نصب كبير ، فلما رأى النبي نصبهم وما هم فيه من المشقة قال متثلا بقول عبد الله بن رواحة :

الهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الانصار والمهاجرة

فنشط الناس في الحفر حتى أتموه في ستة أيام . وكان ممن يعمل في الخندق من الشباب زيد بن ثابت وهو منقلد سلاحه ، فقلبت عينه فنام ، فجاء اليه حمارة بن حزم وأخذ سلاحه مازحا ، فلما انقبه زيد بن ثابت فزع على فقد سيفه وقال : سبي سبي ! ووافق ذلك أنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالناس ، فلما رأى فزع زيد قال له : نعمت يا بار حتى ذهب سلاحك ! ثم التفت الى الناس وقال : من له علم بسلاح هذا الغلام ؟ فقال حمارة : أنا يا رسول الله ، وهو عندي . فقال له : رده اليه ، أما إنه نعم الغلام ، ولا يروغ المؤمن والمؤمن ويأخذ سلاحه لاهبا ! وجاءت قريش بخيلها ورجلها ، ولما رأت الخندق قال أبو سفيان : إنها لمكبدة ما كانت العرب تعرفها من قبل . ثم تراصت قريش في ناحيتها ، وأقبل أحدهم وهو نوفل بن عبد الله المخزومي على فرس له ويداله أن يخوض الخندق فكسا به فرسه فوق في الخندق ، فرجه المسلمون بالحجارة ، فلما يش من نحاته نادى وقال : يا معشر المسلمين موة حير من هذه ! وما زالوا به حتى قضى نحبه ، فعمم على المشركين موته ، فأرسلوا وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه مال كثير ، فجاء الوعد وقال : يا محمد خذ هذا المال وأعطنا جثة نوفل لندفنه . فقال لهم رسول الله : أما نوفل فخذوه وادفنوه ، أما المال فانا لا نأكل آتمان الموتى ! فاخذوه وعادوا بالمال .

ولما طال بقريش المقام شذوا وحالهم ، ورأى أبو سفيان قبل العودة أن يرسل الى النبي عليه الصلاة والسلام كتابا يتوعدده فيه ، فكتب اليه : « يا محمدك اللهم فاني أحلف باللات

والعزى ، وأساف ونائلة وهبل ، لقد سرت إليك وأنا أريد أن لا أعود أبدا حتى أستأصلكم ،
فرايتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بالحنق ، وهى مكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وإنما
تعرف ظل ومأحبا وشبا سيوفها ، وما فعلت هذا إلا فرارا من سيوفنا ولقاءنا ، ولك منى يوم
ك يوم أحد .

لما قرئ الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إليه بكتاب فيه : « أما بعد .
من محمد رسول الله الى صخر بن حرب ، فقد أتاني كتابك ، وقديما غرك بالله الغرور ، أما
ما ذكرت أنك سرت لنا وأنت لا تريد أن نعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله بيبك
وبينه ويجعل لنا العاقبة ، ولأنتين عليك يوم أكسرفيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل
حتى أذكرك ذلك ياسفيه منى قال : « فلما قرأ أبو سفيان كتاب النبي اليه مادي في قومه
بالرحيل . وفي هذه الحادثة أزل الله تعالى : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَسْأَلُوا خِيَرًا ،
وَكُنِيَ اللَّهُ الْمُتَوَسِّمَ الْفَصَالِ » . كان الله قويًا عزيزًا ، »

من خطابات الوكيل

فضيله الصمت في موضعه

قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذن حبل : « أنت سالم ما سكت ، وإذا تكلمت فلك
أو عليك » .

وقال : « حكيمة الصمت زين الحلم ، وعودة العلم ، يلزمك السلامة ، ويصحبك الكرامة ،
ويكفيك مؤنة الاعتذار ، ويلبسك ثوب الوفاء .

وقال غيره : لسانك كالسبع إن عقلته حرسك ، وإن أرسلته افترسك .

وقال أبو نواس :

خل جنببك رام وامن عنه بسلام
مت يداء الصمت خير لك من داء الكلام
وبما استفتحت بالنط في مغاليق الحمام
إنما السالم من ألك بجم فاه بلجام

وقال أديب : احزن لسانك كما تحزن مالك ، واعرفه كما تعرف ولدك ، وزنه كما وزن ثققتك ،
وأثقي منه بقدر ، وكفى منه على حذر ، فإن إتفاق ألف درهم في غير وجهها ، أيسر من إطلاع
كلمة في غير حقها .

الفيلسوف ابن مسكويه

اختلف الناس في لقب الفيلسوف أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة مسكويه ، وتارة ابن مسكويه ، ولكن المتفق عليه أنه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه . ومعنى مسكويه بالفارسية : رائحة المسك ، كما أن معنى سيبويه : رائحة التفاح .

وإذا تأملنا حياة ابن مسكويه فيما ترك الكتاب والمؤرخون ، فإنا نستطيع كشفه من التراجم الكثيرة هو أنه ولد حوالي عام ٣٣٠ هـ ومات في ٩ صفر سنة ٤٢١ - ١٦ فبراير سنة ١٠٣٠ وكان مولده بالري من أسرة فارسية عريقة في النسب ، وسرعان ما يترك والده أمه فيبقى هو راعيا لها حتى تتزوج بغير أبيه فيتركها ويترحل إلى بغداد شابا . وابن مسكويه عاش في العصر العباسي الثالث ، وهو العصر الذي ضعفت فيه الخلافة العباسية وقامت دويلات إسلامية صغيرة لا تعترف بالخليفة الإسلامي إلا بالصفة الاسمية فقط . ويهنا في بحثنا هذا من هذه الدويلات الدولة البويهية (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ) لأن ابن مسكويه عاش ومات في رعايتها .

والدولة البويهية كانت مظهرا من مظاهر النشاط الفارسي الذي كان يرمي إلى الانفصال عن سيادة العباسيين ، وإلى استعادة مجد فارس القديم ، وكان ملوك هذه الدولة يحدون العلم والأدب ، ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا رجال القلم وقادة الرأي والفكر . فمنهم المهلب ، وابن العميد ، وابن هبادة ، وغيرهم .

امتاز هذا العصر الذي نشأ فيه ابن مسكويه بنضوج العلم وتكوين معاجم اللغة ، ونعت الفلسفة وأزهرت ، واستقرت نظريات الطبيعة والطب ، واتسع خيال الشعراء ، وعمافن التاريخ ، وظهر النقد الأدبي (انظر تاريخ الآداب العربية لجورجي زيدان) . فلا عجب إذا ظهر في هذا العصر أمثال ابن سينا والهمداني والخوارزمي والمتنبي والأصفهاني والقالبي والتمالي وأبو حيان التوحيدي والصابي والشريف الرضي والتتويحي والطبري .

اتصل ابن مسكويه بالوزير المهلب حوالي سنة ٣٤٨ هـ ، ويدخل في خدمته ككاتب لمره ، ويبقى إلى جانبه يناديه ويسامره حتى عام ٣٥٢ هـ وهو عام وفاة الوزير ، ثم يعود إلى الري حيث يلتحق بخزانة الوزير العظيم ابن العميد ، وينال ثقته ومحبة وصداقته ، ويبقى معه حتى عام ٣٦٠ هـ وينقل بمدة وفاته إلى خدمة ولده الوزير أبي المنح ، وبقي في خدمته حتى تكرر له الدهر ، ودخل الوزير السجن سنة ٣٦٦ هـ ثم التحق به في ذلك بخدمة الملك الظاهر ، ضد الدولة التي استولى على بغداد وغدر بسلطانها عز الدولة أئمن غفر ، كما الحق

بخدمة صمصام الدولة ، وهكذا ظل ابن مسكويه ينتقل من خدمة وزير الى سلطان في ظل الدولة البويهية حتى أحس بدنو الأجل فانتقل الى أصبهان حيث مات سنة ٤٢١ هـ ودفن في محلة حاضرو بقبر مشهور معروف .

ثقافته وأخلاقه :

كانت ثقافة ابن مسكويه واسعة ، فقد تزود من مجالس العلم ودور الكتب ، وعنى عناية خاصة بالأخلاقيات ، فدرس حكم الفرس والعرب والهنود والروم ، وجمع ما وافق هواه من هذه الحكم الأخلاقية وأخرجه في كتاب لا يزال مخطوطا . هذا بجانب ما قرأه من كتب الحكمة عند أرسطو وأفلاطون وجالينوس ، حتى لقد دفعه حرصه الشديد الى الاطلاع على كل ما عرفه العرب من مؤلفات اليونان . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق قلبه فهنا يقف أثر مناهج اليونان في عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في عصره حيث كانت الحالة الخلقية لذلك العصر لم تكن لتساير الحالة المعية في الرقي والاطراد ، بحيث أصبح العالم الاسلامي في هذا العصر ميدانا للتنافس وازدحام الأهواء والشهوات ، والاستباق الى مظاهر القوضى والاضطراب حيث صبحت الحياة العقلية صلاحا لم يعرفوا له مثيلا من قبل .

لهذا لم يقف ابن مسكويه في درسه الأخلاق عند الحدود التي رسمها الدين ، بل اتخذ العقل أساس الأخلاق ، فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ، ولا يجتنب الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لما اطمأن به عقله وأمر به وحدانه في حدود النفع والمنطق والحق . وإليك دستوره الأخلاق في نظام السلوك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد ربه ، وهو يومئذ آمن في صربه معاني في جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، ولا يريد بها سراءاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرة ، عاهد على أن يجاهد نفسه وينفقد أمره ، فيعفف ويشجع ويحكم ، وعلامة عفئه أن يقتصد في مأرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يصير جسمه أو يهتك مروءته ، وعلامة شجاعته أن يحارب دواعي نفسه اللذيمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب في غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ليصلح أولا نفسه وبهذهها ، ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد في القيام بها والعمل بموجبها ، وهي خمسة عشر بابا :

« إظهار الحق على الباطل في الاعتقادات ، والصدق على الكذب في الأقوال ، والخير على الشر

في الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجيل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت في أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التي تحصل في شيء حتى تصير ملكة ولا تنفس بالاسترسال ، والافدام على كل ما كان صوابا ، والاشتغال على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتران لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الافعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقل الطمى والبغى ، وقوة الأمل ، وحسن الرضاء ، والثقة بالله عز وجل ، وصرف البال إليه) (معجم الأدباء ، ص ٩٥ ، ٩٦ ج ٢) .

الأخلاق عند ابن مسكويه :

ليس لابن مسكويه رأى خاص في الخلق ، وإنما يتخير من بين الآراء ما يتفق مع المنطق والعقل ، وأغلب آرائه الأخلاقية تعتمد على الملاحظة والاختبار . لهذا تأخذ الحيرة عند تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء ، فهو تارة مع جالينوس ، وتارة مع أرسططاليس ، وطورا مع العقل ، وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم في كتبه معالم المعقول والمنقول ، ومن هنا جاء ترتيبه لآراء الحكماء في الخلق مشوها سينا في أكثر الأحوال .

وابن مسكويه في كتابته عن الأخلاق لا يكتب لعامة الناس وإنما للخواص ، فيخطب من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون البرهان والقياس . ولقد نجحت قوة ابن مسكويه في كتابه التاريخي الجليل : محارب الأمم وهو أقرب المهم ، حارب فيه الرذائل المتفشية بين أهل زمانه ، وحل الكتاب والعلماء مسؤولية إهمال الفساد ، وأن السكوت عن المعاصي جريمة . وقد أعجب المستشرقون بذلك الكتاب وبدقته العلمية ، وطبعته لجنة جيب النذكارية ، ومجده الأستاذ مرجليوث في مقدمة لكتابه الانجليزي : سقوط الخلافة العباسية ، وفي كتابه : محاضرات في مؤرخي العرب . وابن مسكويه غير هذا الكتاب كتاب « جاويدان خرد » أي العقل الأول ، جمع فيه آداب العرب والفرس والهنود والروم ، وجعله مصداقا للقوانين الخلقية التي ذكرها في التهذيب . وله كذلك رسالة صغيرة في السعادة كتبها لصديقه ابن العميد لا تخرج في معناها عما في التهذيب ، وكتاب ثالث يسمى بالفوز الأصغر ، ويعتبر أساسا لفلسفته الخلقية وإيمانه الديني الفلسفي . وهذان الأخيران مطبوعان . أما الأول فما يزال مخطوطا بمكتاب أوربا ولا سيما مكتبة باريس الأهلية .

كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق :

هو الكتاب الذي أوصى الإمام محمد عبده بتدريسه في الأزهر إلى جانب الإحياء للغزالي ،
والذي قام المرحوم علي باشا رفاعة بنشره وتبويبه ، والذي شرع الزعيم الخالد سعد زغلول
في اختصاره والتعليق عليه دون أن يتمه .

وقد أعجب الطوسي بهذا الكتاب كل الإعجاب فترجمه إلى الفارسية وقال عنه :

نفسى كتاب حاز كل فضيلة وصار لتكميل البرة ضامنا
مؤلفه قد أبرز الحق حالما تأليفه من بعد ما كان كامنا
وومحه باسم الطهارة قاضيا به حق معناه ولم يك مائنا
لقد نذل المجهود لله دره فما كان في نصيح الخلائق خائنا

والكتاب يقع في ست مقالات كلها تدور حول الأخلاق . ولذلك نرى ابن مسكويه
في كتابه يفرق في المقالة الأولى بين النفس والجسد ثم يثبت به روحانية الأولى وخلودها
واحتياج قواها في تصبير الجسد إلى عقل وفكر وإحساس وإدراك ليقوم الجسد بوظائفه
وتحتفظ النفس باستكفانها داخل هذا الغلاف الموقوت . وراه في الثانية يتناول خلق الإنسان
وقابليته للتغير والتهذيب والتكليف وما تتركه المعرفة من الأثر المباشر في العمل الأخلاقي .
أما المقالة الثالثة فيتناول موضوع السعادة فيشرحها ويعرضها عرضاً عقلياً ، ويناقش العلة
والممول بالذليل ونهاد الرأي . أما المقالة الرابعة ففيها تحديد الأعمال الخلقية وتمييزها عن
غيرها ، وينتهي منها إلى المقالة الخامسة التي ينسج فيها صفوف المحبة وأنواع الصداقة . وفي
النهاية يضع أمامنا صورة واضحة وضادة عن كيفية المحافظة على الصحة لتستقر النفس في هدوء .
والكتاب يعتمد على الاستقراء العلمي الصحيح ، ويتمشى التفكير فيه على نظام الكون ،
وأن الإنسان عالم صغير انطوى فيه العالم الأكبر . هذا إلى إثبات أن ما جاء في القرآن الكريم
يتفق مع حكماء اليونان من جهة الثقافة الخلقية .

عبد الحميد سامي بيرمي

في مدح الكتابة والكتاب

قال كاتب : « لو أن في الصناعة صناعة مهربية ، لكانت الكتابة ربا لكل صناعة » .

وقيل في مدح الكتاب :

قوم إذا أخذوا الأفلام من غضب ثم استمدوا بها ماء الثنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ما لا ينال بمحــ المشرقيات

نظام الوقف في الإسلام

وآثاره المترتبة عليه

وقفا بالقارىء في البحوث السابقة عند الكلام عن نظام الاوقاف وتواكلهم في أداء ماأمورياتهم ومحاولةهم التمرار من المسئوليات القضائية ، والشكوى الصارخة من جانب الهيئات والأفراد من تصرفاتهم ، وأثرة الناظر وكيف يجب ولئن نجح ، غير أن البحث لم يستوف حقه من الكشف والإيضاح ، لذلك أحببنا اليوم أن نعرض لأحوال الناظر وكيف أن المستحقين رخصوا لهذه الفئة أن يكون لها أجر في مقابلة عملها حتى لا تنور بها أطماعها على حقوق المستحقين .

فالأحر للناظر يقابله العمل من جانبه في التصرفات الداخلة في حدوده ، فإدام في مكنته القيام على إدارة الوقف فهو مستحق للأجر الذي عينه له الواقف في كتاب وقفه أو حدده بالقاصي بأجر المثل إذا أغفل الواقف التنصيص عليه . فلو عجز عن أداء إدارة الوقف بسبب كارثة نزلت به ، أو عزله القاصي بسبب حياة متصلة بعمله ، أو فسق فسقا له اتصال بإدارة الوقف ، أو نحو ذلك ، فليس له في هذه الأحوال كلها أجر ، لأنه لم يؤد عملا ، فلا يستحق عليه أجر ، إلا إذا أتاح الواقف في إشهاد وقفه لذلك الناظر أن يأخذ أجره مادام على قيد الحياة محمرا من كل قيد آخر يربطه بإدارة الوقف ويعلق في عنقه نوما من تلك الالتزامات الواجبة على الناظر . وفي هذه الحالة ينشأ الأجر مقصورا عليه حيا فإذا مات فلا شيء منه لمقبه إلا إذا أتاح الواقف تعدى هذا الأجر إلى من يليه من الأقباب أو الأخوات أو الأصول أو الفروع إطلافا ، فالنظام لهذا الحكم تنصيص الواقف في كتاب وقفه . فإذا ظهر للقاضي أن هذا الناظر الذي عجز عن أداء ماوكل إليه أداءه وليس في مكنته عزله بأن كان الواقف قد سماه في إشهاد وقفه أو كان في بقائه مائلا لهذا الوقف موزن لحقوق المستحقين ، إما لوجهته في قسومه ، وإما لنفوذه وسعة جاهه ، جاز للقاضي أن يضم إليه ثقة ، وفي هذه الصورة جاز له أيضا أن يعطيه شيئا من نصيب ذلك الناظر إذا اتسع لهذا الاعطاء ، فإذا لم يتسع له فرض القاضي نصيبه في غلة الوقف . وليس في كتب الفقهاء عمل إحصائي يحدد تصرفات ناظر الوقف ويحصيها حصرا معينا ، لأن استقصاء الجزئيات المتعلقة بتصرفات ناظر الاوقاف غير ميسور ، غير أنهم وضعوا لتصرفات ناظر الاوقاف ضابطا عاما وهو أن على ناظر الوقف أن يؤدي إلى العين الموقوفة كل مافيه مصلحة لاستبقائها قائمة بالتراتبية وبفلاها استبقاء مؤبدا ، وإلى المستحقين ما يكفل موزن حقوقهم من العتب والضياح .

وأجاز له علماء الفروع أن يبنى قرية أو عزبة لسكنى الزراع ومن في حكمهم ممن يباشرون العمل في العين الموقوفة ، كما أجازوا له إذا وقمت العين على مقربة من إحدى المدن الآهلة بالسكان أن يبنى دورا لسكنى أو مدارس أو ملاجئ أو مستشفيات إرادة استقلالها في مصلحة الموقوف عليهم ، على شريطة أن تسفر الموازنة عن أرجحية إقامة تلك المنشآت ، حتى وإن لم يكن ذلك منصوبا عليه في إشهاد الواقف ، وأن يشتري من غلة الوقف على المسجد كل ما فيه مصلحة له وضمان لاستمرار أداء الشعائر الدينية على وجه لا يتعارض مع المألوف ، وذلك ظاهر التصرف في حالة ما إذا وقف الواقف العين على مصالح المسجد ، أما إذا وقف العين على إصلاح المسجد وتعميره فليس لناظر أن يمدد هذا التعمير وذلك الانشاء الى شيء آخر لم ينص عليه الواقف . لكن قال العلامة صاحب البحر : وفي هذا التحقيق إشكال قوى فان الواقف إذا وقف عينا على مسجد مثلا واشترط في إشهاد وقعه أن تصرف هذه الغلة على تعميره وترميمه واستبقائه قائم الجدران والأبنية لكن تبين أن تلك الغلة لا تتسع إلا لهذا التعمير وذلك الترميم وأن مصالح المسجد البادية في إضاءته وقرشه وتعمين من ينظفه ومن يقوم على حراسته ومن يؤم الناس في الصلاة ومن يخطبهم ومن يؤذن فيهم ومن يؤدي الشعائر الدينية الأخرى لا تتسع له غلة الوقف فإين هي المنفعة البادية في وقف تلك العين على المسجد إذا لم تقم فيه الشعائر الدينية وبذكر فيه اسم الله كثيرا ؟ ألا يكون من الواجب في هذه الحالة أن يترك الأمر لناظر الوقف دون أن ينقيد بمحجة الواقف ؟ وفي هذه الصورة يجوز له أن ينشأ في المسجد ما تدعو اليه الضرورة الملحة من الأبنية مع إقامة الشعائر الدينية من غلة الوقف وإن لم ينص عليها الواقف . وهو كلام لا خفاء فيه ، فمن المسلم به عند علماء الفروع أنه يباح لناظر الوقف إذا فضلت من غلة وقف المسجد بقية أن يصرفها في دفع الكوارث التي تنزل بالمسلمين إذا كانت غلبة الكفار عليهم محتملة الوقوع ، ففي هذه الحالة يجوز لناظر الوقف أن لا ينقيد بشرط الواقف ، وأن يدفع مما فضل من عمارة المسجد الجامع ومن حق الفقراء في سبيل المنافع العامة التي تكفل بقاء كلمة الاسلام عالية مسموعة واجبة الطاعة والاحترام ، وإن اشترطوا أن لا ينفد ذلك إلا بإذن من القاضي ، فملى كل من التقديرات ليس لناظر الوقف أن ينقيد بنص الواقف إذا كان هذا النص لم يصادف موثلا شرعيا .

ونأمل أن يكتب التوفيق المتلاحق في سدر رغبات المتقاضين وقطع أسباب شكواهم عندما يأتي دور البحث عن نظام الوقف في القانون الموضوعي الذي تبحث أحكامه الصالحة لجنة من خيرة العلماء وعلى رأسهم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ؟

عباسي ط

الشاي المغشوش

جاءنا من سعادة اللواء رسل باشا حاكم دار العاصمة ما يلي :

يسرني أن يتعاون معى حضرات قراء حريبتكم القراء فى دراستى لعادتين هما وإن لم تكونا غير مشروعتين إلا أنهما فيما أعتقد تسببان ضرراً جسيماً للفلاحين بهذه البلاد .
أما أولى هاتين العادتين فهى زيادة الاستهلاك من الشاي المغشوش . هذا الشاي به جزء صغير من الشاي الحقيقى وإنما معظمه يتركب من أوراق السنط وقشر الفول وأوراق شاي سبق استعماله مصبوغة بلون الشاي .

وهذا الخليط يوضع فى لغات (بكنتات) مختومة ويبيع فى جميع أنحاء القطر . ولما كان لا يشمل أية مادة محرمة فإن حمل البوليس فى الوقت الحاضر مقصور على عاكسة الجانى على الغش أى بيعه باسم شاي مادة معظمها ليس بالشاي ، ولكن عندما يصدر القانون الخاص بفش المواد الغذائية يكون حمل البوليس أكثر سهولة وأكثر تأثيراً .

وإنه ليسرني أن ألقى ملاحظات حضرات القراء عن الآتى :

- ١ — مدى انتشار هذه العادة .
- ٢ — المقادير التى يستهلكها شاربو الشاي شهرياً ومقدار تكاليفها .
- ٣ — ما هى أسباب ميل الناس الى العادة المذكورة ؟
- ٤ — هل لهذه العادة تأثير ضار ؟ وفى حالة الإيجاب ما هى الأضرار ؟
- ٥ — ما هو تأثير هذه العادة على قوة الشخص فى عمله ؟
- ٦ — هل هذه العادة تخلق الميل للجرام ؟

والعادة الثانية هى أكل جوزة الطيب .

فى اعتقادى أن هذه المادة انتشرت فى السنوات الأخيرة انتشاراً واسماً جداً ، لأن جوزة الطيب معروف عنها أنها مقوية ، ونسبياً عديمة الضرر إلا إذا أخذت بإفراط ، وقد قيل إنه حدثت وفيات بسبب تعاطيها بإفراط .

وجوزة الطيب هى فى الوقت الحاضر أهم عنصر فى أنواع المتزول المختلفة ، لذلك يهمنى الحصول على أية أرقام أو معلومات عنها .

وإننى بصفتى مدير مكتب التقارير العام للعواد المخدرة أكون ممنناً جداً لو تفضل حضرات قرائكم المحترمين بموافاتنا بمعلوماتهم عن هاتين العادتين .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

تعديل نظام الاشتراك في مجلة الأزهر

حذف الوكلاء والعلاء والمحصلين للاشتراك

جرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جواز تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التمويل على نظام الوكالة في التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الجرائد والمجلات التي أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتمويل على القاعدة الحديثة وهي دفع قيمته مقدما .

لهذه الطريقة فائدة للمشاركين والصحف مما . فأما فائدتها للاولى فلانها تخففهم ثقل المطالبة التي ربما وقعت في وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ماعليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفي ذلك من الضرر المالي على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضض على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويحب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على الصحف ، فلانها لا تسمح لها بعمل ميزانية سنوية مضبوطة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة ينشئ لادارة المجلة طبيعة عمله متاع لا تخصي بسبب تخمير كشف التحصيل ، وتسديد المتحصل ، وتسرب الخطأ اليه ، والمخلفات التي تثور بذلك السبب بين الادارة والمشاركين ، وبين هاتين الناحيتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إضاعة أوقات الكتاب ، وغفل وقت المدير ، وتكلف الوكلاء الذهاب والجيء . وسوء ظن المشتركين .

كل هذه المشا كل يحلها شيء واحد ، وهو أن يدفع المشاركون بدل الاشتراك مقدما لادارة المجلة (مباشرة) أو (لمكتب يريد) بدون وساطة محصل ، ولئن شاء منهم تسيط قيمة الاشتراك فله ذلك بشرط أن يؤدي الأقساط بدون مطالبة .

وقد رأيت إدارة هذه المجلة أن تستغنى عن جميع الوكلاء والعلاء والمحصلين ، وهي تصرح لجميع قرائها أنها أصبحت غير مسئولة منذ الآن عن أية قيمة تدفع لأي إنسان ، فليس لها من بمنحها من الناحية المالية غير قلم كتابها ومكاتب البريد .

فخرجوا حضرات قارئنا أن يمينونا على الحرية على هذه القاعدة من أول المحرم سنة ١٣٥٨ لأنها أولى بكرامة هذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدبنا للمجلة بسنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل عنه أو غير ذلك ، فأما نعتبر ما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، وتقبل منه أن يقدم لنا كلما صنعت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يؤديه .

وقد رأت إدارة المعاهد الدينية أن تحدث تعديلا في قيمة الاشتراك فجعلتها (عشرين قرشا) للكافة بدون استثناء ، و (عشرة قروش) لطلاب الجامعة الأزهرية خاصة ماداموا في دور التحصيل .

وعليه فرجو حضرات قرائنا أن يقدموا لنا قيم اشتراكهم قبل أول العام المحرى الجديد ، لنقيد أسماءهم في سجلات جديدة ، ونصل اليهم أعداد المجلة في وقت صدورها بانتظام .

مدير مجلة الأزهر

محمدي محمد

المسلفة الاغريقية:

صدر الجزء الثانى من كتاب تاريخ الفلسفة للأستاذ الأسمى الدكتور محمد غلاب وهو الكتاب الذى سبق لنا أن نشرنا مقدمته في أحد أعدادنا الماضية ، وقد ذكر فيه أهم فوائد هذا التاريخ فقال : (أولها) خلق روح النقد عندنا بهيئة قوية لا تيسر في مادة أخرى . . . و (ثانيا) تشجيع نفوسنا بحب الحقيقة . . . ثم قال حضرته . وهناك ثمرة أخرى عملية وهى تشجيعنا بحب الخير والفصيلة والتضحية والسمو الخ
لهذه الغايات السكرية يعمل الدكتور غلاب وقد وصل منها الى مدى بعيد من النجاح والفلاح ، فقد أتم طبع الجزء الأول منه وموضوعه تاريخ الفلسفة في الشرق : فلسفة المصريين والمهدين والارانيين والصينيين . ثم أتبعه الجزء الثانى وموضوعه تاريخ الفلسفة اليونانية وناهيك بما فيها من مذاهب وآراء ، وآفاق فسيحة للمظر والتأمل ، وقد سلك الدكتور المؤلف في وضع الجزء الثانى المسلك الذى سلكه في سابقه من حسن التقسيم ، ودقة النبوي ، والوفاء بدراسة الموضوعات دراسة فنية .

لا جرم أن الأستاذ الدكتور غلاب قد قام بعمل كانت المطبوعات العربية في أشد حاجة اليه ، فقد أوجد مرجعا لتاريخ لفاسفة على نحو المراجع الغربية وفي مثل درجتها من التدقيق والنمحيص والتوفيق . وهذه خدمة تذكر وتشكر ، ويسجلها له تاريخ الادب العربى في أوجه صفحاته .

رسالة التوحيد والاسلام والنصرانية .

للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله رسالتان اشتهرتا في الحافقين وطبعتا مرارا ، وهما رسالة التوحيد ورسالة الاسلام والنصرانية ، وقد عنيت بهما دار المنار عناية عظيمة في مدة مؤسسها الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله ، ولا تزال هذه الدار تعنى بهما تحت إشراف أنجاله . وقد تفضلوا باهدائنا بنسختين من طبعة جديدة لهما فتلفت اليهما الانظار .

خالد بن الوليد سيف الله :

كتاب عظيم القيمة التاريخية لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو زيد شابي المدرس بمعهد فؤاد الأول بأسيسوط ، يقع في نحو مائتين وخمسين صفحة ، وهو أكرم سيرة رأيها لبطل من أبطال الاسلام من وضع أبناء العهد الحديث ، وإن خالدا ليستحق هذه العناية فقد أبلى في جهاد الوثنية بلاء محمودا ، ومهد للفاتحين وقادة الجماعات طريق البطولة ، ووضع للمخلصين لمبادئهم مثلا أعلى ليس فوقه مرتقى .

وقد وفي فضيلة الأستاذ أبو زيد هذا المقام حقه من البحث والدرس والتحصيل فنشكر له هذا العمل الطيب وفقه الله لأمثاله .

النبوغ المغربي في الأدب العربي :

كتاب يقع في حرايين يبلغ مجموع صفحتيهما ٦٨٠ صفحة جمع فيها مؤلفه العاضل صاحب الفصيلة الأستاذ الشيخ عبد الله حنون الحسي ، مدير المدرسة العربية بطبعة ، كل ما يهيم الباحث معرفته في الساحة الأدبية والعلمية والاجتماعية من تاريخ المغرب الأقصى ، فجاء هذا الكتاب تنمة حلقة ثمينة في سلسلة الأدب العربي قيمتها لا تقدر ، وقد طبعه بالأحرف المصرية في تطوان ، فنثنى على جهد المؤلف الذي بذله في جمع الطرائف الأدبية والتراجم التي أودعها هذا الكتاب ، ونرجو لعمله القويح والانتشار .

التحقيقات الواضحة في تفسير سورة العنكبوت وأوائل سورة البقرة وآية الكرسي .

كتاب ممتع وضعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسني الطواهي المدرس بكلية أصول الدين ، جاء فيه بتفسير تحليل القيمة العلمية لسورة العنكبوت وأوائل سورة البقرة وآية الكرسي ، جرى فيه على أسلوب في تحقيق المسائل وتمحيصها لا يدع للناظر فيه حاجة للمزيد ، وجمع فيه من شوارد المعاني ، وطرائف المعارف ما يتعد اجتماعه في مجال محدود ، فنشكر لفضيلة الأستاذ الجليل هذه الأطروفة العلمية راجين منه المزيد .

اعتذار

لدينا مؤلفات أخرى لم يتسع المقام للكلام عنها في هذا العدد فنرجئه للعدد القادم
إن شاء الله ﷻ

الفهرس العام

للسنة التاسعة (١٣٥٧ هـ) من مجلد الوزهر

صفحة	بسم	الموضوع
		(١)
٧١٩	حضرة الأستاذ عبد الجيد سامي ميوي	ابن مسكويه
٣٣٢	فضيلة الأستاذ الشيخ عتبي كاهون الهندي	أبو سلفة الهزوي
٤٥٧، ٣٨٧، ٣١١	» » السيد عفيبي	الاجتهاد والاجماع
٧٠٠، ٥٨٢، ٥٣٨	» » حسن خطاب الوكيل	أحاديث الوفود في الاسلام
٤١٣، ٣٢٩، ٢٠٩	» »	» »
٥٥١، ٤٦٣	» »	» »
١٧٦، ١٠٠، ٤٤٨	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	الاخلاق الفلسفية
٣٨٣، ٣٣٧، ٢٦٠	» »	» »
٤٨٤	» »	» »
١٢٥	فلم الترجمة	الادب العربي قبل الاسلام
٣٦١	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	الأزهري كما يسمى أن يكون
٤٣	فضيلة الأستاذ سعيد أحمد متولي الشيخ	أسامة بن زيد : سيرته
١٢٠	حضرة الأستاذ أحمد محمد الف في	أسامة بن زيد : سنه
٥٢	فضيلة الاسناذ الشيخ فكري ياسين	إسرائيل
٦٤٧، ٥٧٥، ٥٠٣	» » » » » »	الاشتراك في مجلة الأزهري
١٨٩	حضرة الأستاذ عبد المزيق مهنا	الاشتراكية في الاسلام
٤٥٧، ٣٨٧، ٣١١	فضيلة الأستاذ السيد عفيبي	أصول التشريع
٧٠٠، ٥٨٢، ٥٣٨	» » » » » »	» » » » » »
٥٢	» » فكري ياسين	أعلام القرآن
٥٠٤	» » » » » »	إعلان

مقدمة	بسم	الموضوع
		(خ)
٤٤٧	فضيلة الأستاذ عبد احمد متولى الشيخ	خالد بن الوليد
٥١٥٠٤٤٧	» » عبد الرحمن الجزرى	خروج النساء من بيوتهن
٣٣٣	لجنة الفتوى	خصومة فى زواج
		خطبة فضيلة الأستاذ الاكبر
٥	فى عيى الاضى والميلاد الملكى
		(٥)
٢٣٥٤١٦٥٤٩٢٠٢١	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر	الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦
٦٤٩	» » »	الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧
٣٧٧٠٣١٥٠٢٥٥	فضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين	دفاع عن القرآن الكريم
٧٠٨٠٥٩٦٠٤٧٤	حضرة الأستاذ مدير المجلة	دفع شبهات عن الاسلام
٤٩٨	» » »	دين العطرة : العالم كله يتلمسه اليوم
٤٣٣	حضرة الأستاذ عبد الحيد سامى بيوى	الدين والفلسفة : للصلة بينهما
٥٦٦		(ر)
٦١٧	حضرة الأستاذ اسماعيل محمد بندا	ربا الفضل
٦٣٤	لجنة الفتوى	الرضاع
٣٤٥	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الروح : إمامة بأدلة وجودها
٢٨٩٠٢١٧٠٢٣	» » »	الروح الاسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية
٣٦٤		(س)
٥٤٩	فضيلة الأستاذ الطاهر بن ماضور	السهروردى الصوفى : من هو ؟
		(ش)
٥٠٥	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الشبهات العلمية على الأديان ...

صفحة	قلم	للموضوع
٢٩	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	الشريعة الإسلامية والتشريعات الحديثة
٤٨٠	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الشعر والشعراء في الإسلام
٦٠٩	» احمد عبد اللطيف بدر	شعر والشعراء في الإسلام
٢٠٠	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرحون	شمس الهداية
		(ص)
٤٢٢	فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الجزري	الصبر
٦٧٤	» » عبد الرحمن الجزري	الصدقة والصبر : الحث عليها
٥٧٠	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الصيام في فطر المعلم
		(ط)
٢٧٤ + ١٩٣	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الطبيعة : عالم ما بعد الطبيعة
		(ع)
١٧٦	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	المعادن
١	حضرة الأستاذ مدير المجلة	العام المحرم الجديد
٤٩٤	» » »	محائب المخلفات
٣٩٣	فضيلة الأستاذ سيد احمد متولى الشيخ	على بن أبي طالب
١٣٢	» » عبد الرحيم الوردى	العمل الصالح طريق الحياة الطيبة
١٢١	حضرة الأستاذ مدير المجلة	العمل الصالح من عمل صالحا لنفسه
١٤٥	» » » » »	صيد الجالوس : احتفال الأزهر به
١١٧	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الميسوية في أورما
		(غ)
١٠٠	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	النرائر
٧١٥ + ٦٣١	فضيلة الأستاذ حسن خطاب الوكيل	النزوات
		(ف)
١	حضرة الأستاذ مدير المجلة	فاتحة السنة التاسعة

للموضوع	مجلد	صفحة
الفتوح الإسلامية	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٤٢٣
الفلسفة الشرقية	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٣٢٠ ٤ ٢٧٨
(ق)		
قراءات القرءان : تعددها	فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	٣٦٩
القضاء الشرعي والقضاء القانوني	» » عباس طه	٣٥٥
القضاء الشرعي والقضاء المالي	» » »	٥٠٩ ٤ ٢٢٦
(ك)		
الكبائر والسر	فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	٣٠٠
كسب الحلال والحرام	» » »	٦٢٦
(ل)		
اللغة العربية بين القوة والضعف	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	٢٤٥٤ ١٠٣٤ ٤٠ ٤٥٣٤ ٣٩٩٤ ٣٠٧ ٦٩٢٤ ٥٨٩٤ ٥٢٨
(م)		
المادة : جولة علمية مع الماديين	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٦٣٥
المادية : مبادئها	» » »	٤٨٨ ٤ ٤١٩
الماديون : قصر نظرم	» » »	٦٦٢
المذاهب الإسلامية	» بدر الدين علاء الدين	١٨٠
المرأة في العصر الجاهلي	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد شادي	٧١٢
المسيحية في الاسلام	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٦٨٩ ٤ ٦٤٠
معاكسة المسلمين في توحيدهم	» » »	٣٨
معركة الفيلسفين	» » »	١٠٨
معرض الآراء من العالم الاسلامي	» » »	٥٥٤ ٤ ٤٠٧ ٤ ٣٢٤
مقومات التكافل المالي	» » »	٢٣

الوضوع	بجلم	صفحة
مقومات التطور الادبى والاجتماعى فى الاسلام	حضرة الاستاذ مدير المجلة	٣٦٤
المقومات الشرعية فى الاسلام	» » »	٢٨٩
الملك : جلالة الملك بنى الشعب بشهر الصوم	...	٥٧٧
موازن الحكم الادبى	فصلية الاستاذ محمد فهمى عبد الطيف	٢٥١ ، ١٨٢ ٦٠٥ ، ٥٤٦
مولد محمد صلى الله عليه وسلم	» » عبد الله المرائى	٢٦٧
مولد الحبيب صلى الله عليه وسلم	» » عبد الجواد رمضان	٢٧٢
المولد النبوى الكريم : ذكرى	حضرة الاستاذ مدير المجلة	١٤٥
(ن)		
النحو والنحاة	فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عرفه	١٢٢
(هـ)		
الهجرة .	فضيلة الاستاذ الشيخ محمود شلتوت	٢
الهجرة النبوية	حضرة الاستاذ مدير المجلة	٩
هلال رمضان	فضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى	٥٢٣
هل يمكن أن يحكم الانسان نفسه	حضرة الاستاذ مدير المجلة	٦١٢
(و)		
الوراثة	حضرة الاستاذ الدكتور محمد فلاب	٢٦٠
الوقف — فتوى	لجنة الفتوى	٤٦٦
الوقف فى الاسلام	فضيلة الاستاذ الشيخ عباس طه	٢١٢ ، ١٣٨ ، ٥٧ ٦٤٤ ، ٥٧٣ ، ٢٨٤ ٧٢٣
(ى)		
يدعون ربهم بالغداة والعشى	فضيلة الشيخ عبد الواحد ابراهيم	١١٤

تصحیح

م	س	
۳۲	۲۵	بالوسط
۱۲۱	۲۴	وما ربك
۲۹۱	۵	ثمانین جلدة
۳۳۲	۱۴	أخا أبي سلمة
۴۵۲	۱۶	سنة ۲۱
۶۴۲	۲۶	المسیح ابن

said to him:—It would have been sufficient for thee.—“Dost thou not see that ‘Umar was not convinced by his words?” replied ‘Abdullāh. “Then”, said Abu Mûsa, ‘let us leave ‘Ammâr’s statement out of account; what dost thou make of this verse of the Qur’ân!’ Then ‘Abdullāh, not knowing what to answer, said: ‘f we allowed them this concession, it would not be long before any of them who found the water too cold would leave it for a dry ablution’.

I said to Shaqiq—added Al-A’mash—“So he was averse to this concession only for that reason!” “Yes”, replied he.”

عُمَارِ حِينَ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
كَأَنَّ يَكْفِيكَ . . ؟ قَالَ : أَلَمْ تَرَ عُمَرَ
لَمْ يَقْنَعْ بِذَلِكَ؟ فَقَالَ أَبُو مُوسَى : فَذَعْنَا
مِنْ قَوْلِ عُمَارِ، كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؟
فَمَا دَرَى عَبْدُ اللَّهِ مَا يَقُولُ، فَقَالَ : إِنَّا لَوْ
رَخَصْنَا لَهُمْ فِي هَذَا الْأَوْشَكِ إِذَا بَرَدَ عَلَى
أَحَدِهِمُ الْمَاءُ أَنْ يَدْعُهُ وَيَتَّبِعَهُ ،
«فَقُلْتُ لِسَاقِقٍ : فَأِنَّمَا كَرِهَ عَبْدُ اللَّهِ
لِهَذَا ! قَالَ : نَعَمْ .»

1. Surah 5 : 6. "If ye fail to find water, then perform a dry ablution."

1. We are informed by Bishr b. Khâlid, who had it from Muhammad surnamed Ghundar, through Shu'bah, through Solaimân, through Abu Wâ'il, who stated that Abu Mûsa said to 'Abdullâh b. Mas'ûd.

"If a man in a state of janâbah cannot find water, is he to cease from prayer?" To this 'Abdullâh replied: "If I were to allow a dry ablution for those in a state of janâbah, the result would be that if any of them thought it too cold, he would do so."—meaning: he would make a dry ablution and perform his prayer.¹

"I said," continued Abu Mûsa, "Then what about the words of 'Ammâr to 'Umar?" "I do not consider that 'Umar was convinced by the words of 'Ammâr," replied 'Abdullâh.

2. We are informed by 'Umar b. Hafs, who had it from his father, who received it from Al-A'mash, who heard Shaqlq b. Salamah say:

"I was once with 'Abdullâh and Abu Mûsa when the latter said: 'What is thy opinion Abu 'Abd-ur-Ruhmân?,—if a man be in a state of janâbah and fail to find water, what is he to do?' 'He must not pray until he find it,' replied 'Abdullâh. 'Then', said Abu Mûsa, 'what dost thou make of the words of 'Ammâr when the Prophet (Al-lâh bless him and give him peace)

١ - حدثنا بشر بن خالد قال حدثنا

محمد، هو غُندَر، عن شعبة عن سليمان عن أبي وائل قال قال أبو موسى لعبد الله ابن مسعود:

« إِذَا لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ لَا تُصَلِّ ؟ » قال عبد الله : لَوْ رَخَّصْتُ لَكُمْ فِي هَذَا كَانَ إِذَا وَجَدَ أَحَدُهُمُ الْبَرْدَ قَالَ هَكَذَا - يَتِمُّ تَيْتَمَ وَصَلِي ،

« قَالَ قُلْتُ : فَأَيْنَ قَوْلُ عَمَّارٍ لِعُمَرَ ؟ »

قَالَ : إِنِّي لَمْ أَرْ عُمَرَ قَتِمَ يَقُولُ عَمَّارٍ .

٢ - حدثنا عمر بن حفص قال حدثنا

أبي قال حدثنا الأعمش قال سمعت شقيق ابن سلمة قال :

« كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى

فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : أَرَأَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ

إِذَا أُجْتَنِبَ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً كَيْفَ يَصْنَعُ ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَا يُصَلِّي حَتَّى يَجِدَ الْمَاءَ ،

فَقَالَ أَبُو مُوسَى : فَكَيْفَ تَصْنَعُ يَقُولُ

1. This explanation was made by Abu Mûsa the narrator.

2. The agnomen of 'Abdullâh b. Mas'ûd.

of this woman without ever attacking the settlement to which she belonged. So one day she said to her people: "What I believe is that these people are leaving you in peace purposely, will ye then embrace Islām?" They followed her counsel and embraced Islām."

Al-Bukhārī added: *سَبَّ* is a verb meaning to desert a faith for another. Abu-l-'Alīyah also stated that the Sabians¹ are a sect of people of a revealed Book who recite the Psalms.

CHAPTER 7.

— V —

If a man in a state of *janābah* is afraid that sickness or death may ensue *from the use of water*, or if he is afraid of thirst, he may perform a dry ablution;

and it is stated that 'Amr b. Al-'As became junub on a cold night, and performed a dry ablution, then reciting these words from the Qur'ān: "...and destroy not your lives², for verily Allāh is all-merciful unto you³." This was mentioned to the Prophet (Allāh bless him and give him peace), and he did not reprove him.

الصَّرْمَ الَّذِي هِيَ مِنْهُ ، فَقَالَتْ يَوْمًا لِقَوْمِهَا : مَا أَرَى أَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يَدْعُونَكُمْ عَمَدًا ، قَهْلَ لَكُمْ فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَأُطَاعُواهَا فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ .

قال أبو عبد الله : صَبًا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى غَيْرِهِ
وقال أبو العالیه : الْعَبَّاسِيُّونَ فِرْقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ الزُّبُورَ .

بَابُ : إِذَا خَافَ الْجُنُبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمَرَضَ أَوِ الْمَوْتَ أَوْ خَافَ الْمَطْشَ يَتَيَمَّمُ ،
وَيَذْكُرُ أَنْ تَهْمَزُ بَيْنَ الْعَاكِصِ أَجْنَبَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَيَتَيَمَّمُ وَتَلَا : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » فَذَكَرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَذِّبْهُ .

1. A semi-Christian sect of Babylonia, who, possessing a written revelation, enjoyed more toleration than the heathen. It is suggested that the name was applied by the Makkan idolaters to Muhammad and his converts on account of their frequent ceremonial ablutions, although A. Bukhārī does not take this view.

2. Not only literally but also in the sense of "do not endanger your lives," either materially or spiritually (Al-Baidāwī) — Surah 4: 29.

3. These words give the clue to the text, for if Allāh is merciful to you, you should be merciful to yourselves.

Verily by Allāh when the Faithful ceased to draw water, the waterskins seemed to us fuller than when he first began to draw from them. The Prophet (Allāh bless him and give him peace) then commanded the Faithful to make a collection for the woman, and they collected for her, with pressed dates, flour and sawiq¹, enough for a meal. They placed it in a gown, and helping her upon her camel, they put the garment before her and said: 'Thou hast seen that we have diminished thy water no whit, but that it is Allāh that hath given us water'.

The woman went back to her people, and as she has been long away from them they said: 'What hath delayed thee?' 'A marvel' replied she. 'Two men met me who took me to that man known as the renegade. He did such and surh; and by Allāh, he is the greatest magisian among men between this and that'. So saying she pointed with her middle finger and forefinger² raising them towards the sky to indicate heaven and earth. 'Nay rather, he is verily in truth the Messenger of Allāh!'

The Faithful after that proceeded to make raids on such idolators as were living in the neighbourhood

«وَأَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ أَقْلَعْنَا عَنْهَا وَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَهْمًا أَشَدَّ مِلَّةً مِنْهَا حِينَ ابْتَدَأَ فِيهَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْمَعُوا لَهَا، فَجَمَعُوا لَهَا مِنْ بَيْنِ عَجْوَةٍ وَذَفِيقَةٍ وَسُوقَةٍ حَتَّى جَمَعُوا لَهَا طَعَامًا فَجَعَلُوهَا فِي ثَوْبٍ، وَحَمَلُوهَا عَلَى بَعِيرِهَا وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا، قَالَ لَهَا: تَعْلَمِينَ مَا رَزَقْنَا مِنْ مَا لَكَ شَيْئًا وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَسْقَانَا

«قَالَتْ أَهْلَهَا وَقَدْ احْتَبَسَتْ عَنْهُمْ قَالُوا: مَا حَبَسَكَ يَا مَلَأْنَا فَقَالَتْ: الْعَجَبُ لَقِيْتِي رَجُلَانِ فَذَهَبَا بِي إِلَى هَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّائِي، فَفَعَلَ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ اللَّهُ إِنَّهُ لَا تُشْعِرُ النَّاسَ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ وَهَذِهِ - وَقَالَتْ: بِإِصْبَعَيْهَا الْوُسْطَى وَالسَّبَابَةَ فَرَفَعَتْهُمَا إِلَى السَّمَاءِ تَعْنِي السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ - أَوْ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ حَقًّا

«فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ يُغِيرُونَ عَلَى مَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا يُصِيبُونَ

1. Roast corn ground ready for mixing with water, milk or broth

2. The forefinger is raised symbolically by Muslims in prayer on mentioning the unity, whereas the two are raised together in disputing.

'Where is water?' they asked her. 'I last saw it this time yesterday', said she, 'and our men have gone away and left us behind'. 'Ride on then', said they. 'Whither?' asked she. 'To the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace)', replied they. 'The man known as the renegade?' said she. 'He is the man thou meanst,' replied they, 'ride on then.'

They then led her to the Prophet (Allāh bless him and give him peace) and told him the story. She was then helped down from her camel—added 'Imrān—and the Prophet (Allāh bless him and give him peace) called for a vessel into which he poured out some water from the mouths of the two water-skins¹, tying them up again and opening their lower orifices. All the Faithful were called to drink and to water their beasts, each man drinking his fill and giving his beast as much as he desired. Last of all he gave the man that had been overtaken by janābah a vessel of water, commanding him to go and pour it out over himself. Meanwhile the woman was standing watching what was being done with her water.

فَقَالَتْ لَهَا : أَيْنَ الْمَاءُ ؟ قَالَتْ : عَهْدِي بِالْمَاءِ
أُمْسِ هَذِهِ السَّاعَةَ وَنَفَرْنَا خُلُوفٌ ، قَالَا
لَهَا : انْطَلِقِي إِذَاكَ ، قَالَتْ : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَا :
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَتْ :
الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمُنَافِقُ ؟ قَالَا : هُوَ الَّذِي
تَمْنَيْنَ فَأَنْطَلِقِي ،

وَفَجَاءَهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَحَدَّثَتْهُ الْحَدِيثَ ، قَالَ : فَاسْتَنْزَلُوهَا
عَنْ بَيْرِهَا وَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِإِنَاءٍ فَفَرَّغَ فِيهِ مِنْ أَفْوَاهِ الْمَزَادَتَيْنِ (أَوْ
السَّطِيحَتَيْنِ) وَأَوْسَكَا أَفْوَاهَهُمَا وَأُطْلِقَ
الْمَزَالَى ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ : اسْتَقُوا
وَاسْتَقُوا ، فَسَقَى مَنْ شَاءَ وَاسْتَقَى مَنْ
شَاءَ ، وَكَانَ آخِرُ ذَلِكَ أَنْ أُعْطِيَ الَّذِي
أَمْسَأَتْهُ الْجَنَابَةُ إِنَاءً مِنْ مَاءٍ قَالَ : اذْهَبْ
فَافْرِغْهُ عَلَيْكَ ، وَهِيَ قَائِمَةٌ تَنْظُرُ إِلَى
مَا يَفْعَلُ كُلُّ يَمَانِيَا ،

1. At-Tabarāni and Al-Baihaqi include a passage here which elucidates the hadith. After pouring out the water the Prophet rinsed his mouth with it ejected it into the vessel and then put the water back into the water-skins. This passage explains his tying up of the mouths of the water-skins again.

on your march.¹ They did so and he had not proceeded far before he dismounted and called for water; and after he had performed his wudû', the call to prayer was made when he led the Faithful in prayer.

And when he had finished his prayer, he noticed a man standing apart, who has not prayed with the rest of the Faithful. 'What hath prevented thee, said he, (naming the man)² from performing the prayer with the rest of the Faithful?' 'I have been overtaken by a state of janâbah,' replied the man, 'and there is no water'. 'Use the clean dust,'³ replied he, 'for it is sufficient for thee.'

Then as the Prophet (Allâh bless him and give him peace) continued his journey, the Faithful complained to him of thirst, so he dismounted and called a certain man⁴ (Abu Rajâ' used to name him but 'Auf forgot him) and he also called 'Ali, saying: 'Go ye and look for water.' Whereupon they set out and met a woman riding on her camel between two large skins⁵ full of water.

يُضِيرُ) ارْتَحِلُوا، فَارْتَحِلُوا، فَسَارَ غَيْرَ
بَعِيدٍ ثُمَّ نَزَلَ فَدَعَا بِالْوَضُوءِ فَتَوَضَّأَ
وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى بِالنَّاسِ،

« فَلَمَّا انْقَضَى مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ
بِرَجُلٍ مُتَعَزِّلٍ لَمْ يَصَلِّ مَعَ الْقَوْمِ، قَالَ:
مَا مَنَعَكَ يَا فَلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ؟
قَالَ: أَصَابَنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ، قَالَ: عَلَيْكَ
بِالصُّمَيْدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ،

« ثُمَّ سَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَاشْتَكَى إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَلَ
فَدَعَا فَلَانًا (كَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو رَجَاءَ وَنَسِيَهُ
عَوْفٌ) وَدَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: اذْهَبَا فَاثْبَغِيَا
الْمَاءَ، فَانْطَلَقَا فَتَلَقِيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ
(أَوْ سَطِيحَتَيْنِ) مِنْ مَاءٍ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا،

1. The reason for the Prophet's decision to leave the place immediately seems to have been its unfortunate association with their neglect of prayer, which was excused, however, by its being unintentional. It would appear that the hour they awoke was *makrah*—that is to say, a time which was too late for the previous prayer and too early for the next, hence "inappropriate" or "disapproved"; so they marched on until this inappropriate time had passed. This explains their departure in so unusual a manner.

From this has been deduced the practice of making a worshipper change his place if he is overcome by drowsiness during the Friday sermon.

2. Probably Khallâd b. Rafî' b. Mâlik Al-Ansârî.

3. Apparently the man did not think that the clean dust mentioned in the Qur'an was applicable to one in a state of janâbah, but only to minor ritual impurity. This hadith embodies the ruling as to the validity of dry ablution in the case of major ritual impurity.

4. 'Imrân the narrator of the hadith.

5. مزداء = a double water-skin, derived from زَادَ (to increase), as compared with قَرِيَّة a single water-skin. مَطْبُوعَة is the same as مزداء. The narrator is doubtful as to which word was used.

"Once while we were on a campaign with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) we journeyed until the night was spent, when we fell into the sweetest sleep possible for a traveller, only to be awakened by the sun's heat. The first to awake was so and so², then so and so³, then so and so⁴ (Abu Rajā⁵ named them but 'Auf forgot them)⁶—the fourth to wake being 'Umar b. al-Khattāb. As for the Prophet (Allāh bless him and give him peace) we never used to wake him if he was asleep, leaving him to wake himself, because we did not know what might be happening to him in his sleep⁷.

Then when 'Umar awoke and saw what had happened to the Faithful⁷, and being a stalwart man, he called the takbīr, raising his voice with it, and continued doing so until the Prophet (Allāh bless him and give him peace) was awakened at the sound of it. Then when he awoke they complained to him of what had befallen them, and he said: 'There is no harm; proceed

«كُنَّا فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّا أَمْرَيْنَا حَتَّى كُنَّا فِي آخِرِ اللَّيْلِ وَفَعْنَا وَفَعَةً وَلَا وَفَعَةً أَحَلَى عِنْدَ الْمُسَافِرِ مِنْهَا فَمَا أَتَقَطْنَا إِلَّا حَرَّ الشَّمْسِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَيْقَظَ فُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ (بُسْمَتِهِمْ أَبُو رَجَاءَ فَتَنَبَّى عَوْفٌ) ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الرَّائِعُ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَامَ لَمْ تُؤْفِظْهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ يَسْتَيْقِظُ، لِأَنَّا لَا نَذَرِي مَا يَحْدُثُ لَهُ فِي نَوْمِهِ،

«فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ عُمَرُ وَرَأَى مَا أَصَابَ النَّاسَ، وَكَانَ رَجُلًا جَلِيلًا، فَكَبَّرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ، فَازَالَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ حَتَّى اسْتَيْقَظَ بِصَوْتِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ شَكَرُوا إِلَيْهِ الَّذِي أَصَابَهُمْ قَالَ: لَا ضَيْرَ (أَوْ لَا

1. On the return from Khaibar according to Abu Hurairah's hadith, or from Hudaiyyah according to Ibn Mas'ud's.

2. Abu Bakr.

3. Probably 'Imrān the narrator himself.

4. Probably Dhū Mikhtār.

5. This parenthesis is the words of the narrator and not 'Imrān's.

6. e.g. a revelation.

7. They had missed the hour of the morning-prayer.

AL-AZHAR REVIEW

Published By AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة مختصر صحيح البخاري

إبراهيم عبد المولى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

By

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The book of Dry Ablution

(Continued)

CHAPTER 6.

On the fact that clean dust serveth for a Muslim's ritual ablution, sufficing him in place of water;

and on Al-Hasan having said: "A dry ablution sufficeth him so long as he hath not suffered an accidental impurity";

and on Ibn 'Abbās having led the prayer while in a state of dry ablution;

and on Yahyā b. Sa'īd having said: "There is no harm in performing prayer on saline soil¹, or using it for dry ablution."

We are informed by Musaddad, who had it from Yahyā b. Sa'īd, who received it from 'Auf, who was told it by Abu Rajā, through 'Imrān, who said:

كتاب التيمم (تابع ما قبله)

- ٦ -

بَابُ : الصَّيْدُ الطَّيِّبُ وَصَوُّهُ
الْمُسْلِمِ يَكْفِيهِ مِنَ الْمَاءِ ،

وقال الحسن : يَجْزِيهِ التَّيْمُمُ مَا لَمْ
يُحْدِثْ ،

وَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ مُتَيَمِّمٌ ،
وقال يحيى بن سعيد : « لَا بَأْسَ
بِالصَّلَاةِ عَلَى السَّبْخَةِ وَالتَّيْمُمِ بِهَا » :

حدثنا مسدد قال حدثني يحيى بن
سعيد قال حدثنا عوف قال حدثنا أبو رجا
عن عمران قال :

1. Low-lying land with salt on the surface, which renders it almost-barren. The point is to show that land of this type, characteristic of Al-Madinah, has a surface suitable for dry ablution, some taqīqs not being of this opinion.